

قصة الحضارة ول ديورانت

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

الفصل العاشر

الثورة الجليلية

1714-1685

1- الملك الكاثوليكي

1688-1685

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة (1) التي رسمها فانديك في اللونين الأزرق والذهبي لدوق يورك وهو في الثانية من عمره أن هذا الطفل البريء الحي سيقضي قضاء مبرماً على أسرة ستيوارت ويكمل آخر الأمر، وفي "الثورة الجليلية" انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل مخز من قبل؟ ولكن في الصورة التي رسمها ريلي (2) للشخص عينه تحت اسم جيمس الثاني، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك. وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب، وأن البراءة تحولت بين أعضاء العشيقات المذعنات الطيبات إلى لاهوت جامد لا ينتهي. فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيراً كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق، ومن ثم يستحق منا بعض العطف.

لقد أوردنا من قبل ذكر فضائل جيمس الثاني، فكم من مرة عرض نفسه لخطر الموت في عمله في البحرية. ووازن الناس بينه وبين أخيه، موازنة مرضية، في النشاط الحكومي والإداري، والاعتدال في الإنفاق، وفي ارتباطه بكلمته.

أنه استمسك بما أوصاه به شارل وهو يحتضر، من العناية بأمر نل جوبين، فسدد ديونها، وخصص لها ضيعة تكفل لها رغد العيش. وبعد ارتقائه العرش ظل لبعض الوقت على علاقته مع آخر عشيقاته كاترين سدلي. ولكنه بناء على اعتراضات الأب بنز أجزل لها العطاء على

صفحة رقم : 10912

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

خدماتها وأقنعها بمغادرة إنجلترا، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بصره عليها ثانية فإنه لا يملك فكاكاً من سلطانه عليه(3). إن الأسقف بيرنت الذي ساعد على خلعه، حكم عليه بأنه "صريح مخلص بطبيعته، ولو أنه في بعض الأحيان متلهف محب للانتقام، صديق ثابت على العهد، إلى أن أفسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى(4)" وكان مقتصداً ينمي ثروته بسرعة، ولم يعمد قط إلى غش العملة، كما كان رحيماً بالشعب في موضوع الضرائب(5). إن ماکولي بعد أن دون ثمانمائة صحيفة عن حكم جيمس الذي لم يدم لأكثر من ثلاثة أعوام، انتهى إلى "أنه تنحى بمناقب كثيرة، إلى حد أنه لو كان بروتستانتياً، لا بل كاثوليكاً معتدلاً، لكان عصره عصراً زاهراً مجيداً(6)".

وتفاقت أخطاؤه بنمو سلطانه. وكان مغروراً متعجباً حتى قبل اعتلائه العرش، ينظر إلى معظم الناس باحتقار، لا يفتح قلبه إلا لقلّة منهم، وتمسك تمسكاً حرفياً بنظرية أبيه، وهي أنه ينبغي أن يكون للملك مطلق السلطة، ولم يكن له المزاج الواقعي الذي كان لأخيه والذي أدرك به الحدود العملية لهذه السلطة المطلقة. ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية، ورغبته في منح إخوانه الكاثوليك في إنجلترا حرية العبادة والمساواة في الحقوق السياسية. وكان مخلصاً لأمه وأخته الكاثوليكيتين، وكان طوال الخمسة عشر عاماً السابقة محاطاً بالكاثوليك في بيته، وكان موضع استغراب عنده أن الديانة التي أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفاضل الرجال وفضليات النساء، يضع الإنجليز أمامها العراقيل ويبغضونها ويحدون من انتشارها. ولم يشاطر البروتستانت ما تتأقلوه من ذكريات حية في أذهانهم عن مؤامرة البارود، أو خوفهم من أن يولي عليهم ملك كاثوليكي، يميل عاجلاً أو آجلاً ويقتنع، بانتهاج سياسة ترضي البابا الإيطالي. أن إنجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أي ملك كاثوليكي لا بد أن يعرض للخطر استقلالها الديني والفكري والسياسي.

صفحة رقم : 10913

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

إن تصرفات جيمس الأول بعد ارتقائه العرش خففت من هذه المخاوف شيئاً قليلاً: أنه عين هاليفاكس رئيساً لمجلس الملك، وسندرنلد وزيراً، وهنري هايد (أرل كلاروندين الثاني) حاملاً لأختام الملك، وكل هؤلاء من البروتستانت. وفي أول خطاب له في هذا المجلس وعد بالإبقاء على نظم الكنيسة والدولة، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة إنجلترا لاعتلائه

العرش، ووعد بأن يوليها عناية خاصة. وعند تنويجه أدى اليمين المألوفة لدى ملوك إنجلترا الحديثين، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمائتها. وحظي الملك جيمس الثاني لعدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة. وأول إجراء مؤيد للكاتوليكية اتخذه جيمس، لم يكن يحمل عدواناً مباشراً على البروتستانت. أنه أمر بالإفراج عن كل المسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة. وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك، بل أخلى معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم. ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك في المسائل الدينية. وأطلق سراح دانبي واللوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتسي أوتس. وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الإيمان الكاذبة التي أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء، وأعربت المحكمة هن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام، وحكمت عليه بغرامة قدرها ألفان من الماركات، وأن يربط خلف عربة ويجلد بالسياط مرتين علانية، والأولى من أولدجيت إلى نيوجيت، والمرة الثانية بعد الأولى بيومين، من نيوجيت إلى تايبيرن، وأن يوضع على آلة التعذيب، المشهورة، خمس مرات سنوياً طيلة بقائه على قيد الحياة. وعاش أوتس بعد هذا التعذيب، وأعيد إلى السجن (مايو 1685) وطلبوا إلى الملك إعفاهه من الجلد للمرة الثانية، ولكنه رفض. وتحطمت الهدنة المزعجة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة. ذلك أنه في مايو نزل أرشيبالد كامبل، إرل أرجيل التاسع، في اسكتلنده، وفي

صفحة رقم : 10914

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

يونيه رسا جيمس ودوق مونموث على الشاطئ الجنوبي الغربي لإنجلترا، وفي مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكي. وأصدر مونموث بلاغاً وصم فيه الملك جيمس بأنه غاصب طاغية سفاح، كما اتهمه بإحراق لندن والمؤامرة البابوية، ودرس السم لشارل الثاني، وتعهد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يكفوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحریات الشعب والبرلمان. ومني أرجيل بالهزيمة في 17 يونية، وأعدم في 30 يونية، وبذلك أخفق الجناح الشمالي للثورة. ولكن أهالي دورستشير-هم بيوريتانيون شديدي التمسك بمذهبهم-رحبوا بمونموث وحيوه مخلصاً ومنقذاً لهم. وانضم تحت لوائه عدد كبير جداً من الناس، إلى حد أنه في ثقة وجلال ومهابة، اتخذ لقب جيمس الثاني ملك إنجلترا. ولم يقدم له الأشراف والطبقات الغنية أي عون أو تأييد. وهزم جيشه المختل النظام على يد القوات الملكية في سدجمور (6 يولية 1685) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب إنجلترا قبل الحرب العالمية. ولاذ مونموث بالهرب، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى، وضرب عنقه. وتعقب جيش الملك، بقيادة برس كيرك، فلول الثوار، وشنق الأسرى دون محاكمة. وشكل جيمس لجنة يرأسها قاضي القضاة جفریز، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالإنضمام إلى الثورة أو التحريض عليها. وسمح للمحلفين بالاشتراك في المحاكمات، باعتبار أن هذا من حق المتهمين، ولكن جفریز قذف المحلفين الرعب، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هي التي أصابت شيئاً من الرحمة لدى هذه "المحكمة الدموية" (سبتمبر 1685). وشنق نحو أربعمائة، وحكم على ثمانمائة بالعمل الإجباري في مزارع جزر الهند الغربية(7). وكانت اليزابيث في 1569 وكرومل في 1648، وقد اتهما قبل ذلك هذه الأعمال الوحشية،

صفحة رقم : 10915

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

ولكن جفريز تفوق عليهما في إرهاب المتهمين والمحلفين والتجهم والعبوس، وصب اللعنات على ضحاياه، والتحديق في وجوههم في كثير من الخبث، والإدانة لمجرد الشك، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة(8). وبذل جيمس جهوداً متواضعة ليضع حداً للوحشية، ولكن ما أن تمت الإبادة الكاملة وخدمت النار المحرقة حتى رفع جفريز إلى مرتبة النبلاء، وعينه رئيساً لمجلس اللوردات (6 سبتمبر 1686). وأسهم هذا الإجراء الانتقامي في إبعاد النبلاء عن الملك. وعندما كلب من البرلمان إلغاء "قانون الاختيار" (الذي يقضي بإقصاء الكاثوليك عن الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون "حق التحقيق في قانونية الاعتقال" وإنشاء جيش تحت إمرة الملك، لم يستجب البرلمان لشيء من هذا. فعهطه جيمس (20 نوفمبر) وأخذ يعين الكاثوليك في الوظائف العامة. ولما أعترض هاليفاكس على امتهان البرلمان على هذا النحو، عزله جيمس من المجلس. وأحل محله، رئيساً للمجلس، سندرلند الذي أعلن تحوله إلى الكاثوليكية على الفور (1687). وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع لرسوم ناننت (9) استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل هذه السلطة المطلقة التي يتمتع بها البوربون، لما تردد في اتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت في إنجلترا. ولم يخف جيمس اعتقاده بأن سلطته الآن باتت مطلقة بالفعل، وأن لويس الرابع عشر في نظره هو لمثل الأعلى للملك. وقبل الإعانات من لويس لفترة من الزمن، ولكنه أبقى عليه أن يملي سياسة الحكومة الإنجليزية. فتوقفت الإعانات. وكان لويس أكثر تعقلاً فيما يتعلق بإنجلترا منه بالنسبة لبلاده. وعلى حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت، نراه يحذر جيمس من مغبة التسرع في تحويل إنجلترا إلى الكاثوليكية. كما أن البابا إنوسنت الحادي عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحة. وعندما أرسل إليه الملك الإنجليزي يعده بقرب انصواء إنجلترا تحت راية الكنيسة الكاثوليكية في رومة(10)،

صفحة رقم : 10916

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

نصحه البابا بأن يقنع بالحصول على التسامح الديني للكاثوليك الإنجليز، كما حذر هؤلاء أن يكفوا عن الأطماع السياسية، ووجه رئيس الجزويت لتعنيف الأب بنزولومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير في الحكومة(11). إن البابا أنوسنت لم يخف من غيرته الكاثوليكية، ولكنه كان يخشى قوة لويس الرابع عشر التي تبغى التطويق والسيطرة، كما كان يأمل في إمكان تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم دليل للسياسة الفرنسية ومشروعاتها إلى قوة متوازنة ضدها. وأوفد البابا مبعوثاً بابوياً للمرة الأولى منذ عهد ماري تيودور-ليوضح لجيمس أن أي تصدع في العلاقة بين البرلمان والملك لا بد أن يضر بالكنيسة الكاثوليكية(12). ولم يستفد جيمس من هذا النصح. إنه أحس، وكان في الثانية والخمسين حين اعتلى العرش، أنه قد لا يتيسر له فسحة من الأجل لتنفيذ التغييرات الدينية التي ينشدها والتي يجيش بها صدره، ولم يؤمل كثيراً في أن ينجب ابناً، وهنا قد تخلفه ابنته البروتستانتية، وتقلب عمله رأساً على عقب، إلا إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيء راسخ قبل موته. وطغت آراء الأب بنز وملكة وسلطانها على كل نصح بالتروي والتريث. ولم يكتف الملك بالذهاب إلى القديس، تحفه الجلالة والمهابة لملكية، بل طلب كذلك إلى مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القديس. وتكاثر الأساقفة حول

الحاشية، وعين الكاثوليك في المناصب العسكرية، وحرص القضاء (الذين كان له حق تعيينهم وعزلهم) على تأكيد حقه في إعفاء هؤلاء المعيّنين من العقوبات التي فرضها عليهم "قانون الاختبار". ووجد، تحت إمرة ضباط أغلبهم من الكاثوليك، جيشاً قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا لأوامره هو، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان. وعطل العمل بالقانون الذي يفرض العقوبات على حضور العبادة الكاثوليكية علانية وأصدر في يونيو 1686 مرسوماً يحرم على رجال الدين إلقاء عظات في الخلافات المذهبية. ولما خطب الدكتور جون شارب في "دوافع

صفحة رقم : 10917

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

المرتدين" أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعي للكنيسة الإنجليزية، هنري كمبتون أسقف لندن، بفصل شارب مؤقتاً من سلك رجال الكنيسة الأنجليكانية، فرفض كمبتون. فعين جيمس، متجاهلاً قانوناً صدر في 1673، "محكمة كنسية" جديدة، سيطر عليها سندرلند وجفرز، وحاكمت كمبتون بتهمة شق عصا الطاعة على التاج، وعزلته من وظيفته. وبدأت الآن الكنيسة الأنجليكانية، التي كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقة، نقول بدأت للملك ظهر المجن.

أن الملك جيمس كان يأمل في كسب الكنيسة الأنجليكانية إلى جانب المصالحة والتراضي مع روما، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسة. وبدلاً من ذلك انتهج سياسة التوحيد بين الكاثوليك والمنتشقين ضد الكنيسة الرسمية. أن وليم بن الذي وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الإنجليز، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بجرة قلم ألغى القوانين التي تحرم العبادة العلنية على فرق المنتشقين وفي 4 أغسطس 1687 أصدر جيمس أول "إعلان للتسامح" في عهده. ومهما تكن دوافع الملك، فإن هذه الوثيقة تحثل مكاناً في تاريخ التسامح الديني. إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة، وأبطل كل الاختبارات الدينية، ومنح الحرية الدينية للجميع، وحظر التدخل في شؤون الاجتماعات الدينية المسالمة. وأخلى سبيل كل المسجونين بسبب الخلافات الدينية. أن هذا الإعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح في عهد شارل الثاني، التي كانت قد أبقت على الاختبار الديني لمن يتولون الوظائف، وسمحت بالعبادة الكاثوليكية داخل الدور الخاصة فقط. وأكد للكنيسة الرسمية أن الملك سيواصل حمايته لها في كل حقوقها القانونية. ومما يدعو إلى الأسى والأسف أن هذا الإجراء قدر له أن يكون إعلاناً ضمناً للحرب على البرلمان، الذي كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهلية التي ألغيت الآن. ولو سلم

صفحة رقم : 10918

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

البرلمان بسلطة الملك في إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لزاماً أن تنشب الحرب الأهلية من جديد. ودخل هاليفاكس الذي كان في هاتيك الأيام ألمع عقلية في إنجلترا، المعركة بكتيب لا يحمل اسم المؤلف بعنوان "رسالة إلى منشق" (أغسطس 1687)- "أكثر النشرات توفيقاً في هذا العصر (13)" حث فيه البروتستانت أن يكونوا على يقين من أن هذا التسامح الذي قدم إليهم الآن، صدر عن ملك موال لكنيسة تدعي العصمة من الخطأ، وتتكبر التسامح صراحة. وهل يمكن أن يكون ثمة انسجام دائم بين حرية الفكر والضمير وبين كنيسة لا تخطئ؟ وكيف يطمئن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين دمغهم بالأمس القريب بأنهم هرطقة؟ "كنتم بالأمس أبناء الشيطان، وأنتم اليوم ملائكة النور (14)". ومن سوء الحظ أن الكنيسة الأنجليكانية كانت قد اتفقت مع روما فيما يتعلق بأبناء الشيطان، وأنها في السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخضعت مخالفيها لألوان من الاضطهاد والتعذيب تعفيهم من قبول الحرية حتى على أيد كاثوليكية. وأسرع رجال الدين الأنجليكانيون إلى التماس التصالح مع المشيخيين والبيورثانيين والكويكرز، وتوسلوا إلى هؤلاء جميعاً أن يرفضوا التسامح الراهن، ووعدهم على الفور بتسامح يحظى بموافقة كل عن البرلمان والكنيسة الرسمية. وبعث بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك، ولكن الأغلبية كانت بجانبها في تحفظ. وعندما حانت ساعة الفصل نبذ الجميع الملك.

وتابع جيمس خطواته. لقد تطلبت جامعات إنجلترا لعدة سنوات مضت من أساتذتها وطلبتها الالتزام بمذهب الكنيسة الأنجليكانية، ولم يستثن من ذلك إلا منح درجة لطالب لوثرى، ومنح درجة فخرية لديبلماسي مسلم، على أن القساوسة الأنجليكانيين رأوا في أكسفورد وكمبردج هيئات وظيفتها الرئيسية إعداد الرجال لقبول المذهب الأنجليكاني، وتقرر ألا يلتحق بهما أي كاثوليكي. ورغبة في كسر هذا القيد أرسل جيمس، إلى نائب رئيس

صفحة رقم : 10919

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

جامعة كامبردج رسالة يلزمه فيها بأن يستثني من الأنجليكاني راهباً بندكتياً يعي للحصول على درجة الأستاذية. ورفض نائب رئيس الجامعة ففصل بأمر من لجنة المحكمة الكنسية. فأرسلت الجامعة وقدأ من بين أعضائه ايزاك نيوتن، ليشرح للملك موقف لجامعة. ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (1687). وفي نفس العام رشح الملك لرياسة كلية مجدلن في أكسفورد، رجلاً لا يتمتع بغزارة العلم، ولكنه ذو ميول كاثوليكية، فرفض الزملاء انتخابه، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحاً ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكاني، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئة الانتخابية رفضوه كذلك، ففصلوا بأمر من الملك، وعين الأسقف باركر قسراً. واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتدى الملك أكثر فأكثر في أحضان مستشاريه الكاثوليك. وكان إعجابه بالأب بتر شديداً إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفاً، بل كاردينالاً، ولكن أنوسنت أبي. وفي يولييه 1687 عين جيمس الجزويتي القدير، ولكن المستهتر، عضواً في المجلس المخصوص (الملكي)، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش، ولكن جيمس كان في عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى غايته. وكان في هذا المجلس الآن ستة من الكاثوليك، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبة (15). وفي 1688 عين أربعة من الأساقفة الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا، وخصص جيمس لكل منهم راتباً سنوياً قدره ألف جنيه، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكانيين في أنه أصبح لكل من الفريقين كنيسة تساندها وتعاونها الدولة. وفي 25 أبريل 1688 جدد جيمس نشر "إعلان التسامح" الذي مضى على صدوره عام واحد، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير " لكل الإنجليز إلى الأبد. فمن الآن فصاعداً لا بد أن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

يعتمد التعيين في الوظائف والترقي فيها على الجدارة الشخصية لا المذهب الديني. وتنبأ بأن الإقلال من الخلافات الدينية لا بد أن يفتح أسواقاً جديدة للتجارة الإنجليزية، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها. وتوسل إلى رعاياه أن يطرحوا جانباً كل الأحقاد، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية، والتحقق من انتشار هذا الإعلان الموسع على أوسع نطاق ممكن، أصدر مجلس الملك توجيهاتها إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته في كل كنيسة في الأقاليم في إنجلترا، يوم 20 أو 27 مايو. واستخدم رجال الدين على هذا النحو، وسيلة للاتصال بالجمهير، أمر له سوابقه الكثيرة في إنجلترا. ولكن لم تكن الرسالة قط يوماً بغیضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد. وفي 18 مايو رفع سبعة أساقفة أنجليكانيين إلى الملك ظلاماً أو ضحوا فيها أنهم لم ترتض ضمائرهم أن يوصوا قساوستهم بتلاوة الإعلان، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لا يجوز إلغاء تشريع برلماني إلا بموافقة البرلمان نفسه، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عطاتهم وخطبهم دوماً على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيساً للكنيسة، وأنه ليس في الإعلان ما يخذش أو يسيء إلى كرامة أحد. ووعده بأنه سوف ينظر في ظلامتهم، ولكنهم إن يتلقوا منه رداً في الغد فعليهم أن يذعنوا لأمره.

وفي صبيحة اليوم التالي بيعت آلاف النسخ من هذه الظلامة في شوارع لندن، في الوقت التي ما زالت فيه قيد البحث عند الملك. وأحس جيمس بأن هذا يحافي قواعد اللياقة، وعرض الظلامة على القضاة الاثني عشر في المحكمة الملكية، فأشاروا بأنه تصرف في حدود حقوقه المشروعية. ومن ثم أغفل الرد على الظلامة. وفي 20 مايو تليت الظلامة في أربع كنائس في لندن، وتجاهلوا في الكنائس الست والتسعين الباقية. وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت، وأمر الأساقفة السبعة بالتمثل أمام المجلس. فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أو قذف فيه تحريض

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

على الفتنة، وعلى أية حال فإنهم لكي يتفادوا السجن في الحال، يمكن أن يقبل الملك منهم وعداً كتابياً بالحضور عند استدعائهم. فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشرف المملكة، ليسوا في حاجة إلى تقديم أي ضمان سوى كلمتهم. وأحالهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحياهم الأهالي وهتفوا لهم على الجانبين عند نقلهم عبر نهر التيمز. وفي يومي 29 و30 يونيو حاكم الأساقفة السبعة-أمام محكمة الملك-أربعة قضاة مع هيئة المحلفين. وبعد يومين من مناقشات حادة في قاعه يحيط بها عشرة آلاف من أهالي لندن المهتاجين، أصدر المحلفون حكماً بعدم الإدانة. وابتهجت كل إنجلترا البروتستانتية، وقال أحد النبلاء الكاثوليك "لن تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصبغات والتهافتات ودموع الفرح التي حدثت اليوم(16)" وتوجهت الشوارع بالمشاعل والنيران التي أضرمت في الهواء الطلق. وسار الناس في

موكب خلف شخوص من الشمع تمثل البابا والكاردينالات والجزويت، أحرقت وسط احتفالات صاخبة. إن هذا الحكم كان يعني عند البسطاء من الناس أنه لا ينبغي التسامح مع الكاثوليكية، وعند ذوي الإدراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعني تثبيت حق البرلمان في سن قوانين ليس للملك أن يبطلها، وأن إنجلترا، في الواقع، وحتى ولو لم تكن من الناحية النظرية، ملكية دستورية، لا ملكية مطلقة.

على أن جيمس الذي عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمة، أخذ يتعزى بالطفل الذي وضعته له الملكة في 10 يونيه، بل الموعد المتوقع للولادة بشهر، وفي مقدوره أن ينشئ هذا الولد النفيس تنشئة قوامها الولاء والإخلاص للكاثوليكية، وكان يمكن لوالد والولد، في وجه أية معارضة أو معوقات، أن يقتربا يوماً بعد يوم خطوة من الهدف المقدس-ألا وهو الملكية القديمة، تعيش في وئام ووفاق مع الكنيسة، وفي إنجلترا يسودها الهدوء والسلام والتراضي، في أوروبا نادمة على

صفحة رقم : 10922

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الملك الكاثوليكي

ارتدادها عن عقيدتها، موحدة في ظل هذه العقيدة الحقه وحيدة العالمية.

صفحة رقم : 10923

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الإحاطة بالعرش والملك في المهدي

2- الإطاحة بالعرش والملك في المهدي

ربما كانت هذه الولادة لتي جاءت قبل الأوان هي التي جلبت الكارثة على رأس الملك المتهور. واتفتت إنجلترا البروتستانتية مع جيمس في أن هذا الولد قد يواصل السعي لإعادة الكتلكة، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيتة لنفس السبب الذي أحبه الملك من أجله وأنكرت إنجلترا البروتستانتية في أول الأمر، بنوة الطفل الملك. واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع الملكة وليداً اشتروه، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الابنة البروتستانتية ماري عن وراثة العرش. وانعطفت إنجلترا أكثر فأكثر نحو ماري، على أنها أمل البروتستانتية الإنجليزية، ووطنت النفس على القيام بثورة أخرى لإجلاس ماري على العرش لتكون ملكة إنجلترا.

ولكن ماري كان أنذاك زوجة وليم أورانج الثالث، رئيس الدولة في المقاطعات المتحدة. ماذا يقول وليم المزهو بنفسه في أنه مجرد زوج الملكة؟ لماذا لا يعرض عليه الاشتراك في الحكم مع ماري؟ وفوق كل شيء، انه هو أيضاً يجري

في عروقه الدم الملكي الإنجليزي. أن أمه كانت ماري أخرى، وكانت ابنة شارل الأول. ليس في نية وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج للزوجة الملكة. ومن الجائز أن الأسقف بيرت-الذي كان قد اتخذ سببها إلى القارة هرباً، عند ارتقاء جيمس العرش-أقنع ماري، بإيعاز (17) من وليم، أن تتعهد بالطاعة التامة لوليم "في كل الأمور" أياً كانت السلطة التي تخولها التصرف فيها، فوافقت على "أن يكون الحكم والسلطة في يديه هو، لأنها لا ترغب إلا في أن يعمل هو بالوصية التي تقول: أيها الأزواج أحبوا زوجاتكم، كما تعمل بالوصية التي تقول: أيها الزوجات أطعن أزواجكن في كل شيء (18)" وتقبل وليم الطاعة، ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقته بعشيقتة السيدة

صفحة رقم : 10924

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الإحاطة بالعرش والملك في المهدي

فليب (19)، فإن الحكام البروتستانت أيضاً، يحوز لهم فوق كل شيء، أن يخدعوا أو يخونوا زوجاتهم. إن وليم الذي يحارب لويس الرابع عشر حفاظاً على استقلال هولنده والبروتستانتية، راوده الأمل لبعض الوقت في كسب والد زوجته (جيمس) في تحالف ضد ملك فرنسا الذي كان يحطم توازن القوى والحريات في أوروبا، ولما خاب فأله، عمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة المقاومة ضد جيمس. إنه تغاضى من قبل عن الحملة التي نظمها مونمورث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون عائق (20)، وخشي بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لورثة عرش إنجلترا. ومتى ولد الملك ابن فمن الواضح أن يسقط حق ماري في العرش. وفي أوائل 1687 أوفد وليم أفر هارد فان ديكلنت إلى إنجلترا ليقوم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت. وعادت البعثة برسائل مبشرة من مركز هاليافكس، وأرسل شروزبري وأرل كلارندن (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن دانبي، والأسقف كمبتون وغيرهم. وكانت الرسائل غامضة مبهمة إلى حد لا يُم عن خيانة صريحة، ولكنه انطوت على تأييد حار لوليم في نضاله من أجل العرش. وفي يونية 1687 أصدر كاسبار فاجل، الحاكم العام، رسالة أوضح فيها بصورة آراء وليم في التسامح. إن وليم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء "قانون الاختبار" الذي يقصر حق تولي الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكاني (21). أن هذا البيان الرسمي للتحفظ أكسب وليم تأييد الأنجليكانيين البارزين. ولما قضى مولد ابن لجيمس على فرض وليم في أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة وليم للقُدوم والاستيلاء على العرش عنوة. ووقع الدعوة (30 يونية 1688) إرل شروزبري الثاني عشر، ودوق ديونشير الأول، إرل دانبي، إرل سكاربره، وأمير البحر أواردرسل (ابن عم وليم رسل الذي أعدم في

صفحة رقم : 10925

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الإحاطة بالعرش والملك في المهدي

1683)، هنري سدني (أخو الجرنون)، والأسقف كمبتون. أما هاليفاكس فإنه لم يوقع متذرعاً بأنه يؤثر المعارضة الدستورية. ولكن كثيرين غير هؤلاء، من بينهم سندرلاند وجون تشرشل، وكلاهما آنذاك في خدمة جيمس) بعثوا إلى وليم يؤكدون مساندتهم له (22). وكان الموقعون يعلمون علم اليقين أن دعوتهم للمغامرة، من ذلك أوق شروزبري الكاثوليكي السابق الذي تحول إلى البروتستانتية، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيه، وعبر البحر إلى هولنده ليساعد فيتوجه الغزو (23).

ولم يكن في مقدور وليم أن يتخذ أي إجراء فوري. لأنه لم يكن على ثقة من شعبه. كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على هولنده في أية لحظة. وخشيت الولايات الألمانية كذلك مهاجمة فرنسا لها، ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضاً على غزو وليم لإنجلترا، ولعلمها بأن الهدف الأسمى لوليم هو كبح جماح ملك البوربون. أما حكومتا آل هابسبرج في النمسا وأسبانيا فقد نسيتا كثنكيتهما في بغضهما للملك لويس الرابع عشر، وأقرتا خلع ملك كاثوليكي يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح الحملة بركته ورضاءه السامي. ومن ثم أصبح بإذن من الدول لكاثوليكية أن يأخذ وليم البروتستانتية على عاتقه الإطاحة بجيمس الكاثوليكي. وتعجل لويس وجيمس كلاهما الغزو، وأعلن لويس أن روابط "الصدافة والتحالف" القائمة بين إنجلترا وفرنسا تحتم عليه أن يعلن الحرب على كل من يغزو وإنجلترا. ولكن جيمس الذي خشي أن يؤدي هذا البيان إلى توحيد صفوف رعاياه البروتستانت ضده بشكل أقوى، نفي وجود مثل هذا التحالف، ورفض مساعد فرنسا له. وانتصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته، فأمر جيوشه بمهاجمة ألمانيا، لا هولنده (25 سبتمبر 1688)، ووافقت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة، التي حررت لبعض الوقت من الخوف من فرنسا، على أن يقود وليم حملة قد تؤدي بإنجلترا إلى الدخول في

صفحة رقم : 10926

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الإحاطة بالعرش والملك في المهيد

تحالف ضد فرنسا.

وفي 19 أكتوبر تحرك الأسطول خمسين سفينة حربية، وخمسمائة سفينة نقل، وخمسمائة فارس، واحد عشر ألفاً من المشاة، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد في فرنسا. وصدت الرياح الأسطول، فانتظر حتى يهب "نسيم بروتستانتية" (مؤات)، وأقلع ثانية في أول نوفمبر. وخرج أسطول إنجليزي ليعترض سبيله، ولكن مزقته العاصفة. وفي 5 نوفمبر، وهو عطلة وطنية احتفالاً بذكرى "مؤامرة البارود" ألقى الغزاة مراسيمهم في "ثورباي"، وهو منفذ على المانش على شاطئ دورستشير. ولم يلق الغزاة أية مقاومة، ولكنهم كذلك لم يلقوا أي ترحيب. فأن الناس لم يكونوا قد نسوا جفريز وكيرك. وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع في سالسبوري تحت إمرة لورد جون تشرشل، ولحق الملك به هناك، ولكنه وجد القوات يعزوها الولاء والإخلاص، يخيم عليها الفتور إلى حد الارتباب في اشتراكهم في معركة، فأمر بالتقهقر، وفي تلك الليلة (23 نوفمبر) انحاز لتشرشل واثان من كبار الضباط فيجيش الملك إلى وليم مع أربعمائة رجل (24). وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدنمركي، زوج الأميرة آن ابنة جيمس، إلى جماعة الخارجين على الملك، والذين يتزايد عددهم، ووجد الملك التعس، لدى عودته إلى لندن، أن ابنته أنوسارا جنجز زوجة تشرشل قد هربت إلى نوتنجهام. وتحطمت روح الملك الذي كان يوماً مزهواً مختلاً، حين وجد أن ابنتيه كثنبهما قد انقلبتا ضده. فأوفد هاليفاكس للتفاوض مع وليم وفي 11 ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملكه، ولما عاد هاليفاكس من الجبهة، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيساً لحكومة مؤقتة. وفي يوم 13 تسلموا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع في أيدي الأعداء، في فافرشام في كنت. فأنفذوا بعض القوات لإنقاذه، وفي يوم 16 عاد الملك الذليل إلى قصر هويتسهول وأرسل

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الإحاطة بالعرش والملك في المهدي

وليم أثناء تقدمه نحو لندن، وبعض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر، وهناك يسهلون له طريق الفرار. وقد كان، ووقع جيمس في الفخ الذي نصب له، وغادر إنجلترا إلى فرنسا (23 ديسمبر). وعمر ثلاثة عشر عاماً بعد سقوطه، ولكنه لم ير إنجلترا ثانية قط.

ووصل وليم إلى لندن في التاسع عشر من ديسمبر. واستغل انتصاره في حزم وحذر واعتدال ممتاز، ووضع حداً للشغب الذي أثاره البروتستانت في لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها. وبناء على طلب الحكومة المؤقتة، ودعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع في كفونترى. وأعلن "المؤتمر" الذي انعقد هناك في أول فبراير 1689 أن جيمس اعتزل العرش بفراره. وعرض المجتمعون أن يتوجوا ماري ملكة، ويرتضوا وليم نائباً لها. فقبلاً (13 فبراير). ولكن المؤتمر قرن هذا العرض "بإعلان الحقوق" الذي سنه وأصدره البرلمان من جديد في 16 ديسمبر على أنه "وثيقة الحقوق"، وأصبح (بالرغم من عدم موافقة وليم عليه صراحة) جزءاً حيوياً أساسياً في قوانين المملكة:

حيث أن الملك السابق جيمس الثاني.. سعى جهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحرريات هذه المملكة من جذورها:

- 1- بانتحاله لنفسه وممارسته سلطة التحلل من القوانين وإلغائها، أو تنفيذها دون موافقة البرلمان..
 - 3- بإنشاء "محكمة خاصة بالقضايا الدينية".
 - 4- بجباية أموال من أجل الملك وليستخدمها هو، بحجة الامتيازات والحقوق الملكية، في غير الوقت ولغير الغرض اللذين أقرهما البرلمان.
 - 5- بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقة البرلمان.
 - 7- بإقامة الدعوى أمام "محكمة الملك" في مسائل وقضايا هي من اختصاص البرلمان وحده.
- وكل هذا يتعارض تماماً، وبطريق مباشر، مع قوانين هذه المملكة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الإحاطة بالعرش والملك في المهدي

وشرائعها المعروفة. ولما كانوا (أعضاء البرلمان-المجتمعون) على ثقة تامة من أن.. أمير أورانج.. سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التي أثبتوها هنا، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم المدنية وحررياتهم، فإن اللوردات والآباء الروحانيين والنواب المجتمعين في وستمنستر، يقررون أن يعينوا وليم وماري، أمير وأميرة أورانج، ملكاً وملكة على إنجلترا وفرنسا وإيرلندا، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء..

"أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأنبذ من كل قلبي على أنها كفر وهرطقة، تلك النظرية الدنسة اللعينة.. التي تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل، بيد رعاياه أو غيرهم أيًا كانوا، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئة في المقر البابوي في روما، قراراً بالحرمان من الكنيسة أو من العرش.. كما أعلن أنه ليس، ولا ينبغي أن يكون. لأي حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبي، أية ولاية أو سلطة أو سيادة أو سلطان.. في هذه المملكة. أسألك العون على هذا يارب".

وحيث ثبت بالتجربة أنه لا يتفق مع سلامة هذه المملكة ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا، أو ملك أو ملكة متزوجة من أحد أشياع البابا، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضي بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيذعنون للبابا أو الكنيسة في روما، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما، أو سيدينون بالمذهب البابوي، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشيعات له، يجب استبعادهم وحرمانهم إلى الأبد من وراثته أو أملاك أو التمتع بتاج وحكومة هذه المملكة(25).

أن هذا الإعلان التاريخي عبر من النتائج الجوهرية لما أسمته إنجلترا البروتستانتية "الثورة الجلية": وهي الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية للبرلمان، التي طالما نازع فيها أربعة ملوك من آل ستيوارت، وحماية المواطن

صفحة رقم : 10929

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجلية -> الإحاطة بالعرش والملك في المهد

ضد السلطة للتعسفية للحكومة، واستبعاد الكاثوليك من تولي عرش إنجلترا أو المشاركة فيه. وبلي هذه النتائج في الأهمية، وهو إدماع سلطة الحكومة في الأرستقراطية مالكة الأرض، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء، وسار بها إلى غايتها صغار الملاك الممثلون في مجلس العموم. وواقع الأمر أن الملكية "المطلقة" المتمسكة "بحق الملك الإلهي" تحولت إلى أولجارية إقليمية أو ذات علاقة بالملكية الخاصة للأرض. وهي أولجارية تميزت بالاعتدال والجد والبراعة في إدارة دفة الحكم، متعاونة مع ملوك الصناعة والتجارة والمال، كما أهملت بصفة عامة أمر الحرفيين والفلاحين. إن الطبقات المتوسطة العليا أفادت من الثورة بصورة فعلية. واستردت مدن إنجلترا حريتها، لتحكمها أولجاريات التجار المستغلين. أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس، أقرضوا وليم مانتلي ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمة، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة(26). إن هذا القرض عزز اتفاقية غير مسطورة: فالتجار يتركون لملاك الأرض حكم إنجلترا، على توجه الأرستقراطية الحاكمة سياسة البلاد الخارجية نحو المصالح التجارية، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسمية.

وثمة عناصر مخزية غير كريمة كانت في "الثورة الجلية(27)". فيما يبدو أنه مدعاة للأسف أن تضطر إنجلترا إلى استدعاء جيش من هولنده ليصلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم، وأن تساعد الابنة على خلع أبيها عن عرشه، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة، وأن تشارك الكنيسة الوطنية في الإطاحة بملك سبق لهذه الكنيسة أن بررت وقدست سلطته الإلهية المطلقة في وجه أية ثورة أو أي عصيان. كما كان مدعاة للأسف أن يكون تثبيت سيادة البرلمان على حساب مناهضة حرية العبادة. ولكن السيئات التي اقترفتها هؤلاء الرجال والنساء طويت في الأحداث مع رفاتهم، أما حسناتهم التي أودها فقد بقيت بعدهم وأنت أكلها. أنهم حتى في إقامة الأولجارية وضعوا أسس ديموقراطية كان لا بد أن تنشأ مع توسيع القاعدة الانتخابية.

صفحة رقم : 10930

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> الإحاطة بالعرش والملك في المهيد

وجعلوا من دار الرجل الإنجليزي قلعته، أمناً نسبياً من "عجرفة الحكم" و "أخطاء الظلم" وأسهموا إلى حد ما في هذا التوفيق الذي يدعوا إلى الإعجاب بين لنظام والحريية، وهذا هو قوام الحكومة الإنجليزية اليوم. إنهم فعلوا هذا كله دون إراقة قطرة من الدم، اللهم إلا ما نزف من أنف الملك المنزعج المنهوك الأخرق الذي تخلى عنه الجميع في ساعة العسرة.

صفحة رقم : 10931

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

3- إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

1702-1689

عين الملك لمجلسه الخاص: دانبي رئيساً، وهاليفاكس حاملاً للأختام الملكية، وإرل سروربري وإرل نوتنجهام وزيرين، وإرل بروتلاند رئيساً للخاصة الملكسة، وجلبرت بيرنت أسقف سالسبورى. وكان أبرز هذه الشخصيات وأكثرها نفوذاً هو جورج سافيل مركز هاليفاكس. ولما كان ابن أخ لورد سترافورد الذي أعدمه البرلمان الطويل من قبل، فإنه-أي هاليفاكس-كان قد فقد جزءاً كبيراً من ممتلكاته في الثورة الكبرى، ولكنه كان قد أنقذ ما يكفيه لعيش رغيد في فرنسا أيام حكم كرومول. وهناك عشر على "مقالات" ومنتاني، وأصبح فيلسوفاً. وإذا كان المركز قد ارتقى فيما بعد من السياسة إلى فن الحكم، فما ذاك إلا لأن الفرق بين السياسة وفن الحكم هو الفلسفة أي القدرة على رؤية اللحظة العابرة والجزء الصغير في ضوء الزمن الخالد، والكل الذي يضم كل الأجزاء، ولم يكن هاليفاكس ليرضى قط بأن يكون كله رجل أعمال وكتب يقول: "إن حكومة العالم (يعني حكم الشعوب) عمل عظيم، ولكنه شاق خشن جداً كذلك، إذا قورن برقة المعرفة التأملية(28)". فقد كان على السياسة في بعض الأحيان أن تتعامل مع الجماهير وهو ما أزعج هاليفاكس. إن في الجمع الناس قسوة متراكمة، على الرغم من انه ليس بينهم فرد واحد بالذات رديء الطبع.... أن الغممة الغاضبة في حشد

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

من الناس من العن وأسوأ الضوضاء في العالم" (29). ولقد عاش من قبل في ظل "الإرهاب البابوي" حين كانت الجماهير تقذف الرعب في المحاكم. ومذ رأى كثيراً من المذاهب الدينية المولعة بكسب الأنصار، وطرح معظم اللاهوت، إلى حد أنه، كما يقول بيرنت "تحول إلى ملحد جريء ثابت العزم، على الرغم من أنه كان غالباً ما يحتج لي بأنه ليس كذلك، وأنه قال أنه يعتقد أنه ليس في العالم رجل ملحد. واعترف بأنه لم يستسغ كل ما فرضه رجال الدين على العالم. وكان مسيحياً، امتثالاً، وأمن قدر طاقته" (30).

وعندما عاد إلى إنجلترا استرد ممتلكاته، وبلغ من الثراء حداً استطاع معه أن يكون أميناً. وخدم شارل الثاني حتى علم بأمر "معاهدة دوفر" السرية. ودافع عن حق جيمس في عرش إنجلترا، ولكن عارض في إلغاء "قانون الاختيار"، وتطلع إلى حكم بروتستانتية بعد فترة حكم كاثوليكي قصيرة. وحقق آماله حين لعب دوراً قيادياً في انتقال الحكم بطريقة سلمية من جيمس الثاني إلى وليم الثالث. والتزم هاليفاكس بما يعتقد هو نهائياً حق، وما كان لينحاز إلى أي حزب. وكتب في "أفكار وتأملات": "أن الجهل يقود معظم الناس إلى الانضمام إلى حزب ما، والخجل يحول بينهم وبين الخروج منه" (31). ولما هوجم بسبب خروجه على اتجاهات الحزب، دافع عن نفسه في كتيب مشهور "شخصية الحول القلب".

إن اللفظة البرنية (قلب حول) لا تعني أكثر من أنه إذا كانت مجموعة من الرجال في قارب. ومال منهم إلى جانب، فلا بد أن يميل الباقر بنفس القدر إلى الجانب الآخر، ويحدث أن يكون هناك رأي ثالث لأولئك الذين يرون أنه يكفي أن يكون القارب مستوياً أو معتدلاً (32).

وكان في بعض الأحيان عديم الضمير، فصيحاً دائماً، ذكياً بشكل خطير ولما اجتاح صائحو المناسب الذين ادعوا مساعدة الثورة، بلاط وليم الثالث ناصبوه العداة لأنه قال: "إن الإوز أنقذ روما، ولكني لا أذكر أن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

هذه الأوزات عينت في مناصب القناصل" (33)(1).

ولا بد أن هاليفاكس ابتسم ساخراً عندما حول "المؤتمر" نفسه إلى برلمان، ثم عمد إلى ما حسبه أول ما تحتاج إليه الحكومة - ألا هو قسم جديد للولاء والطاعة لوليم الثالث، لا بوصفه رئيساً للدولة فحسب، بل للكنيسة الرسمية كذلك. إنها لإحدى مهازل التاريخ المضحكة، أن الكنيسة الأنجليكانية وهي التي ظلت لمدة قرن من الزمان تضطهد الكلفنيين (البرسبترين، والبيوريتانز وغير من مخالفيها) تقبل الآن رئيساً لها كلفنياً هولندياً.

إن أربعمائة من رجال الدين الأنجليكانيين المتمسكين بنظرية "حقوق الملوك الإلهية" ومن ثم ينادون حق وليم في الحكم، رفضوا أن يؤدوا القسم الجديد. وعزل هؤلاء الرافضون من وظائفهم الكنسية، وشكلوا شعبة أخرى من المنتهين أو المخالفين. أما الذين أقسموا اليمين فإن كثيراً منهم فعلوا ما فعلوا مع "تحفظ عقلي" (35) ربما أضحك

الجزويت الباقيين في إنجلترا. ويرى بيرنت "أن مراوغة الكثيرين ومواربتهم في موضوع يمثل هذه القدسية أسهم إسهاماً غير قليل في تدعيم الإلحاد الأخذ في التقاوم(36) "وصعق الإنجليكانيون من ذوي المشارب والأمزجة المختلفة،

حين ألغى وليم - إذعاناً للشعور السائد بشكل طاغ في إسكتلندا - ألغى هناك النظام الأسقي الذي كان آل ستيوارت قد أقاموه قسراً. وحزن كثير من الأنجليكانيين حين ألفوا وليم ينجح إلى التسامح الديني. إن وليم الذي نشأ في أحضان الكلفنية الجبرية المؤمنة بالقضاء والقدر لم يطق تعاطفاً مع وجهة النظر الأنجليكانية التي تقضي بإقصاء البرسبتريناز عن الوظائف العامة أو مقاعد البرلمان. أنه شجع بالفعل التسامح في المقاطعات

صفحة رقم : 10934

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

المتحدة، ولم يكن يسمح بأي تمييز ديني في صداقاته. إن الكلفنية الجبرية كانت قد أصبحت بالنسبة لوليم ثقة في النفس وكأنها عامل من عوامل القدر. وفي ظل هذه الثقة ينظر، دون ما تعصب، إلى الانشقاق الديني على أنه في حد ذاته أداة من أدوات تلك "القوة الخفية" أكثر منها شخصية التي سماها تارة "الحظ" وتارة "العناية الإلهية" وأخرى "الله"(37). ورأى في الخلافات الدينية في إنجلترا قوة تمزق الأمة أرباباً إذا لم يحد التفاهم والمحبة من مثل هذه القوة. وكانت خطوة بارعة من جانب المجلس المخصوص (أو مجلس الملك) أن يعهد بتقديم (قانون التسامح) الذي أعده، إلى البرلمان، إلى نوتتهام الذي عرف بأنه ابن غيور بار للكنيسة الأنجليكانية. وأبطل دفاع نوتتهام عن هذا القانون أمام البرلمان حجة المعارضين المتشددين وجردهم من سلاحهم وهكذا أقر المجلسان أول إنجازات العهد الجديد دون معارضة تذكر (24 مايو 1689). وسمح هذا القانون بحرية العبادة العلنية لكل الفرق التي سلمت بمبدأ التثليث وبأن الكتاب المقدس نزل به الوحي، والتي نبذت صراحة تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه، وسيادة البابا الدينية. وسمح لأنصار تجديد العماد بتأجيله إلى سن البلوغ. وبمقتضى "قانون تثبيت التسامح" الذي صدر في 1696 سمح للكويكرز باستبدال وعد قاطع بالقسم سالف الذكر. واستثنى التوحيديون والكاثوليك من التسامح. وقام وليم ومجلسه في مشروع "قانون التسامح الشامل" الذي قدم في أواخر 1689، بمحاولة للسماح بدخول كل طوائف المنتسقين إلى الكنيسة الأنجليكانية، ولكن لم تتم الموافقة على هذه الخطوة. ولكن لم تتم الموافقة على هذه الخطوة. وظل المنتسقون محرومين من الجامعات ومن مقاعد البرلمان ومن الوظائف العامة إلا إذا تلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية، وردد في 1697 العمل بقانون يقضي بعقوبة السجن على من يهاجم أية نظرية مسيحية أساسية. ولم يصدر بعد ذلك أي تشريع بالتوسع في الحرية الدينية في إنجلترا حتى 1778

صفحة رقم : 10935

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

وعلى الرغم من ذلك كان التسامح هنا أكبر منه في أية دولة أوروبية أخرى بعد 1685، باستثناء المقاطعات المتحدة. والواقع أن التسامح اتسعت دائرته في إنجلترا بازدياد قوة إنجلترا إلى الحد الذي تحررت معه من مخاوفها من أن تغزوها أية دولة كاثوليكية أو تعمل على تخريبها في الداخل.

إن الكاثوليك أنفسهم نعموا في عهد وليم بأمن متزايد. وأوضح الملك أنه ليس في مقدوره أن يحتفظ بالأحلاف مع الدول الكاثوليكية إذا هو صب العذاب والظلم على رؤوس الكاثوليك في إنجلترا (38). وظل القساوسة الكاثوليك لعشر سنوات يقيمون القداس في دور خاصة. وما كان أحد ليتحرش بهم لو تستروا في شيء من الحزم والحكمة، أمام الجمهور. وفي أخريات عهد وليم (1699)، حين كان للمحافظين (أنصار السلطة الملكية المطلقة) والمنتشدين، الغلبة في البرلمان، شددت القوانين ضد الكاثوليك، فتعرض لعقوبة السجن مدى الحياة أي كاهن يدان بإقامة القداس أو أداء أية مهمة كهنوتية أخرى إلا في دار أحد السفراء. وتنفيذاً للقانون كانت ثمة مكافأة قدرها مائة جنية لمن يدبر الإدانة. ونص القانون على نفس العقوبة لأي كاثوليكي يقوم بالتعليم العام للصغار. وما كان يجوز للوالدين أن يرسلوا أولادهم إلى الخارج لتلقي العلم وفق المذهب الكاثوليكي. وما كان يجوز لأي فرد أن يشتري أو يرث أرضاً إلا بعد أداء القسم على أن الملك رئيس الكنيسة، وعلى أنه لا يؤمن بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه. وصودر من أجل الحكومة إرث أي فرد امتنع عن أداء القسم (39). وفي 1689 عفا وليم عن تيتس أوتس وأجرى عليه معاشاً. وجلب الكاثوليك في إيرلندا على أنفسهم اضطهاداً مجدداً بتنظيمهم ثورة تهدف إلى إعادة جيمس الثاني إلى العرش. ذلك أن ريتشارد تالبوت جمع جيشاً قوامه 36 ألف رجل ودعا جيمس للقدوم من فرنسا ليتولى قيادته. وكان لويس الرابع عشر قد أسكن الملك المخلوع أحد قصوره في سان جرمان، وخصص له ستمائة ألف فرنك سنوياً، وجهد له الآن أسطولاً

صفحة رقم : 10936

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

والى ميناء برست، وودعه بكلمات مشهورة: "أن أحسن ما أرجوه لك إلا يرى الواحد منا الآخر ثانية أبداً (40)". وفي 12 مارس 1689 ألقى جيمس مراسيه في إيرلندا مع ألف ومائتي رجل، ورافقه تالبوت إلى دبلن، حيث دعا برلماناً إيرلندياً، وأعلن حرية العبادة لكل الرعايا المخلصين. واجتمع البرلمان في 7 مايو وألغى "قانون التسوية" الذي صدر في 1652، وأمر بإعادة الأراضي التي انتزعت من أصحابها منذ 1641 إلى ملاكها السابقين. وأرسل وليم قائده الهيجونوتي شومبرج إلى إيرلندا على رأس عشرة آلاف جندي. ورد لويس الرابع عشر على ذلك بإرسال سبعة آلاف من الفرنسيين المحنكين لمساعدة جيمس. وعبر وليم بنفسه إلى إيرلندا في يونيو في 1690. فلما التقى الجمعان في معركة بوين (أول يولييه) فر جيمس من الميدان مذعوراً، ولو أنه اشتهر بالبسالة يوماً، حين رأى قواته تنتهزم. وسرعان ما عاد أدرجه إلى سان جرمان.

وربما ابتهج وليم بعقد الصلح وإقرار السلام مع الإيرلنديين على أساس الوضع الراهن. ولكن الزعماء والقوات البروتستانتية الذي كانوا تحت أمرته، طالبوا بالقضاء التام على العناصر الثورية، وبالاستيلاء على المزيد من أراضي إيرلندا. وعاد وليم إلى إنجلترا تاركاً جيشه تحت قيادة جودرت دي جنكل، إرل أتلون آنذاك، وكان شومبرج قد قضى نحبه في انتصاره في بوين. وأوصى الملك جنكل بإصدار عفو عام دون قيد أو شرط، وإطلاق حرية العبادة، وبالإعفاء من أداء القسم بعدم الاعتراف بسيادة البابا، وباسترداد الثوار لضياعهم شريطة أن يضعوا السلاح (41). وعلى أساس هذه الشروط ضمن جنكل استسلام جولواي وليمرك وبمقتضى معاهدة ليمر (3 أكتوبر 1691) وافق الثوار الإيرلنديون على التسوية التي عرضها وليم. وفي مارس 1692 صدر بيان ملكي يعلن انتهاء الحرب مع إيرلندا.

واستكر البروتستانت في إيرلندا هذه المعاهدة على أنها استسلام

صفحة رقم : 10937

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجيلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

ذليل للبابويين، ولجأوا إلى البرلمان الإنجليزي. ووضع هذا البرلمان على الفور (22 أكتوبر 1691) قانوناً يحرم من عضوية برلمان إيرلندا، كل من يمتنع عن أداء يمين السيادة وإعلان رفضه لفكرة تحول الخبز والخبز إلى جسد المسيح ودمه. ورفض البرلمان الإيرلندي الجديد، وكان بروتستانتياً تماماً، الاعتراف بمعاهدة ليمرك. وعلى حين كان وليم منهمكاً في تكتيل أوربا ضد لويس الرابع عشر، سن برلمان دبلن سلسلة جديدة من قوانين العقوبات ضد الكاثوليك في إيرلندا، تتقضى صراحة الصلح الذي وقعه وليم وماري من قبل، ونصت هذه القوانين على عدم شرعية الدارس والكلليات الكاثوليكية، وعلى أن القساوسة الكاثوليك معرضون للترحيل خارج البلاد، وعلى أنه ليس للكاثوليك أن يحمل سلاحاً، أو يمتلك حصاناً تزيد قيمته على خمسة جنيهات، وعلى مصادر أملاك أية وريثة بروتستانتية تتزوج كاثوليكياً (42). واستمرت مصادرة أراضي إيرلندا حتى "الم يعد هناك في الواقع أرض تصادر (43). وكاد يكون من المستحيل أن يكسب كاثوليك إيرلندي قضية في محكمة إيرلندية، وقل أن صدرت عقوبة على من يقترف جريمة ضد الكاثوليك. واستكمالاً لخراب إيرلندا قضت قوانين برلمان إنجلترا قضاء تاماً على صناعة الصوف التي كانت قد نمت إلى حد منافسة صناعة الصوف في إنجلترا ذاتها، حيث حظرت هذه القوانين تصدير الصوف في إيرلندا إلى أي بلد آخر سوى إنجلترا، وخنقت حتى هذه التجارة نفسها بما وضع من تعريفات جمركية معوقة عمداً (1696). ومن ثم انتشر الفقر والتسول والمجاعة والتمرد على القانون في الجزيرة، خارج نطاق "البال" الإنجليزي (قسم في شرق إيرلندا حول مدينة دبلن). وفي الستين عاماً التي أعقبت الثورة الجيلية هاجر من إيرلندا نصف الكاثوليك الذي كان عددهم يقرب من المليون في 1688، أي أن أركى الدماء وأطيب العناصر نزحت إلى البلاد الأجنبية. وازدهرت آنذاك كل الطبقات الاقتصادية في إنجلترا فيما عدا طبقة

صفحة رقم : 10938

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجيلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

الكادحين (البروليتاريا) وطبقة الفلاحين. وعانى عمال النسيج من المنافسة الأجنبية ومن الاختراع. وفي 1710 أضرب عمال الجوارب بسبب إدخال أنوال الجوارب واستخدام الغلمان لتشغيلها لقاء أجور منخفضة (44) على أن الإنتاج القومي كان آخذاً في الارتفاع. ويمكن أن نحكم على هذا الارتفاع من زيادة متوسط إيرادات الحكومة من 500 ألف جنيه في القرن السادس عشر إلى سبعة ملايين ونصف المليون من الجنيهات في القرن السابع عشر (45). وقد ترجع الزيادة إلى حد ما إلى التضخم، ولكنها نتجت أساساً من التوسع في الصناعة وفي التجارة الخارجية.

ومع هذا لم يكن الدخل كافياً، لأن وليم كان يجند الجيوش لمحاربة لويس الرابع عشر، فارتفعت الضرائب إلى حد لم يسبق له مثيل، بل اشتدت الحاجة إلى مزيد من المال. وفي يناير 1663 أحدث شارل مونتاجو - إرل هاليفاكس الأول - بوصفه وزير الخزانة تغييراً أساسياً في مالية الحكومة، بإقناع البرلمان بطرح قرض عام قدره 900 ألف جنيه، ووعدت الحكومة بدفع 7% فائدة سنوية عنه. وفي أخريات 1663، حين زادت النفقات عن الإيرادات، اتفق جماعة من أصحاب المصارف على إقراض الحكومة مبلغ مليون ومائتي ألف جنيه بفائدة قدرها 8% تحصل من رسم إضافي على السفن. وكان فكرة القروض المتحدة (الجماعية) هذه، قد اقترحها وليم باترسون قبل ذلك بثلاثة أعوام. وجاء الآن مونتاجو فعززها من الناحية الرسمية. وأقر البرلمان هذه الخطة. واتباعاً للسوابق التي جرى عليها العمل في جنوة والبنديقية وهولندا، عمد المقرضون إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى "محافظو وشركة بنك إنجلترا" الذي صدرت براءة تأسيسه في 27 يولييه 1694. واقترضوا هم النقود من مصادر مختلفة بسعر 4.5% وأقرضوها للحكومة بسعر 8%، وجنوا أرباحاً إضافية عن طريق القيام بكل الأعمال المصرفية. وهكذا نشأ بنك إنجلترا، وقدم للحكومة قروضاً أخرى. وفي 1696 حصل من البرلمان على حق احتكار مثل هذه القروض.

صفحة رقم : 10939

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

وبعد تقلبات كثيرة مر بها هذا البنك، أصبح العامل الرئيسي في استقرار الحكومة الإنجليزية المشهور منذ اعتلاء وليم وماري عرش إنجلترا حتى يومنا هذا. ومنذ 1694 أصدر البنك أوراقاً نقدية تضمنها الودائع، قابلة للدفع بالذهب، عند الطلب. وتداولها المتعاملون على أنها مال قانوني، فكانت أول عملة ورقية حقيقية غير زائفة في إنجلترا (46). واشتهر عهد مونتاجو في وزارة الخزانة بعمل ممتاز آخر، هو إصلاح العملة المعدنية. ذلك ان العملة الجيدة التي سكت في عهد شارل الثاني وجيمس الثاني اختزنت أو صهرت أو صدرت. أما العملة المشوهة أو التالفة منذ أيام اليزابيث وجيمس الأول، فقد طرحت للتداول والاستعمال، وفقدت في القوة الشرائية جزءاً لا يستهان به من قيمتها الاسمية. ودعا مونتاجو أصدقاءه جون لوك واستحق نيوتن وجون سومرز ليعيدوا لإنجلترا عمله أكثر استقراراً فصمموا قطع نقد جديدة ذات حافة مسننة تتحدى التشويه. واستردوا العملة القديمة وسحبوها من التداول بقيمتها الاسمية، وتحملت الحكومة الخسارة الناجمة عن ذلك. وصار لإنجلترا نقد ثابت صحيح، كان مثار حسد أوروبا، ومثالاً تحذيره. وفي 1689 فتحت بورصة الأوراق المالية في لندن، وبدأت فترة مضاربة مالية، سرعان ما أنتجت "شركة البحر الجنوبي" (1711) و"انفجار" "فقاعتها" (1720). وفي 1688 أقام إدوارد لويدي في أحد مقاهي لندن شركة للتأمين تعرف الآن بكل بساطة تبعث على الفخر بأسم (لويديز) وفي 1693 أصدر آدموند هاللي أول نشرة وفيات معروفة. وأكدت هذه التطورات المالية ووسعت دور المصالح القائمة على المال في شؤون إنجلترا، وحددت بداية الأهمية المتزايدة

صفحة رقم : 10940

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

للرأسماليين - الذين يمدون برأس المال والذين يدبرونه - في بريطانيا. وفوق الاقتصاد الأخذ في التوسع احتدمت المعركة السياسية حول النزاع على السلطة بين المحافظين (التوري) مالكي الأرض وبين الأحرار (الهيوج) جامعي الثروات، وبين الإنجليز والإسكتلنديين، وصحب هذا مؤامرات لقتل وليم، ومشروعات لإعادة جيمس إلى العرش. ولم يكن وليم مهتماً بالشئون الداخلية في إنجلترا، أنه غزاها أساساً، ليجمع بينها وبين هولندا (موطنه الأصلي) ودول أخرى، لتقف جميعاً في وجه لويس الرابع عشر، أو كما قال هاليفاكس من قبل: "أنه استولى على إنجلترا وهو الطريق إلى فرنسا(48)" ولما اكتشف الإنجليز أن هذا هو شغله الشاغل أو الشعور المستولي عليه فقد كل شعبيته ولم يعد ملكاً محبوباً. وقد يقسو دون مبالاة، كما حدث حين أمر باستئصال عشيرة مكدونالد في جلنكو لتأخرها في إعلان ولائها له (1692)، وكان "صموتاً فظاً غليظاً في المعاشرة" لأنه كان يتكلم الإنجليزية بصعوبة. ولم يعن كثيراً بالسيدات. وكان سلوكه على المائدة يدعو إلى الاشمزاز، حتى أطلق عليه سيدات المجتمع في لندن "الدب الهولندي الوضيع(49)" وأحاط نفسه بحراس ورفاق هولنديين، ولم يخف رأيه في تفوق الهولنديين تفوقاً عظيماً على الإنجليز في المقدرة الاقتصادية والتفكير السياسي والأخلاقي وعلم أن كثيراً من النبلاء يفاوضون جيمس الثاني سراً. ووجد الفساد يستشري حوله إلى درجة تلوثه هو نفسه، واتجر في شراء أصوات أعضاء البرلمان. وكان الخير كل الخير فيما يمكن عمله لكبح جماح فرنسا الهائجة المتحفزة. وحيث ترك وليم الشئون الداخلية لوزرائه، فقد بدأ عهد الوزراء الأقوياء (1695) و "الوزارات" المتضامنة في المسؤولية والعمل، والتي يسيطر عليها رجل واحد، هو في العادة وزير الخزانة. وفي 1697 جاء أعداؤه المحافظون (التوري) أثر انقلاب انتخابي، ومن ثم حدوا من سلطانه ونازعه سياسته الخارجية، إلى حد أنه فكر في الاعتزال

صفحة رقم : 10941

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا تحت حكم وليم الثالث

(1699). ولكنه حين رقد رقدته الأخيرة (8 مارس 1702) وقد أنهك الربو والسل جسمه، كان يمكن أن يتعزى عن هزائمه في الداخل حين يدرك كل الإدراك أنه هياً لإنجلترا مشاركة أكيدة في "الحلف الأعظم" (1701) الذي استطاع بعد اثني عشر عاماً من الصراع، أن يخضع ويذل الملك البوربون العظيم، وينفذ استقلال أوروبا البروتستانتين، ويطلق يد إنجلترا في بسط نفوذها على العالم. (1) أن قافأة الأوز المقدس المنزعج في الكابيتول أيقظت الحامية الرومانية لتصد غارة ليلية قام بها الكلت في 390ق.م(34).

صفحة رقم : 10942

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا في عهد الملكة آن

4- إنجلترا في عهد الملكة آن

1702 - 1714

بعد وفاة الملكة ماري 1695 أصبحت أختها آن وريثة العرش. ومنذ نشأت آن وسط الخطر والشغب، أصبحت بنتاً مخلوطة الفؤاد، قوبمة الخلق، بسيطة التفكير، قوية الشعور، تلتبس العزاء والسلوى والجرأة في صداقة خاصة متواضعة مع رفيقة صباها سارة جنجز الضاحكة الوفية الشكاكة الوائقة من نفسها المفعمة بالحياة والنشاط. وفي 1678 تزوجت سارة التي كانت تكبر آن بخمس سنين من جون تشرشل، وفي 1683 تزوجت آن من الأمير جورج الدنماركي. وحالف التوفيق الزوجين كليهما. ولكنهما لم تمسا العلاقة الوثيقة بين المرأتين. وتخلت آن عن كل الشكليات والرسميات فأطلقت مازحة على سارة (التي كانت آنذاك وصيفة مخدعها) "مسز فريمان" وأصررت على ألا تتأديها سارة "بالأميرة" بل "مسز مورلي" ولما تخلى الزوجان عن الملك جيمس وانحازا إلى وليم، كان أمام آن أن تختار بين أمرين أحلاهما مر: بين الوالد والزوج، ولكن حبها لزوجها ولصديقتها أوجب عليها السفر إلى نوتجهم (28 نوفمبر 1688). وفي 19 ديسمبر عادت هي وسارة إلى لندن وإلى ملك أجنبي غريب عنهما. لم تأخذ آن قط نفسها بحب وليم، ولشد ما أحست بالامتهان والأذى والألم، حين منح أحد أصدقائه ضيعة أبيها التي كان لها نصيب فيها. وكانت في 1691 تتطلع إلى عودة أبيها إلى عرشه. واشتبه وليم، بحق، في أن

صفحة رقم : 10943

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا في عهد الملكة آن

تشرشل (إرل مالبرو آنذاك) وزوجته سارة تحيكان له الدسائس مع الملك المخلوغ. وأمرت الملكة ماري أختها آن بطرد سارة من بطانتها. ولكن الأميرة رفضت. وفي صباح اليوم التالي (يناير 1692) عزل مالبرو من مناصبه الرسمية، وأبعد هو وسارة عن الحاشية، وبدلاً من أن تفترق الأميرة عن صديقتها، تحدثت الملكة والملكة (وليم وماري) وغادرت قصر هوينهول لتعيش مع سارة في "سيون هاوس". وفي 4 مايو أودع مالبرو سجن لندن. وكثيراً ما كانت سارة تزوره هناك. وعرضت أن تنهي صداقتها للأميرة أن لتهدئ من غضب الملكة. ولهذا كتبت أن لسارة تقول:

"في آخر مرة كان هنا وورستر، أبلغته أنك عرضت علي عدة مرات أن تتبعدي عني... وإني لأتوسل إليك، من أجل يسوع المسيح، ألا تعودني إلى مثل هذا الحديث ثانية. وأني لأؤكد لك أنك أن أقدمت على مثل هذه الجفوة القاسية، فأني لن أنعم بلحظة من الهدوء والراحة بعد ذلك. فإن فعلت دون موافقتي، (ولو قدر لي أن أوافق لما كان لي أن أرى وجه الله قط) فلسوف أعتزل الحياة، ولا أرى العالم بعد ذلك، وأعيش حيث ينساني البشر جميعاً(50)".

ولما لم يقم أي دليل حاسم على اشتراك مالبرو في أية مؤامرة لإعادة جيمس إلى العرش، ولما كان وليم في أمس الحاجة إلى قادة مهرة. فإنه أخلى سبيله وأعادته إلى سابق مكانته ونفوذته. ولما أصبحت آن ملكة، وكانت آنذاك في سن الثامنة والثلاثين بدل وغير إيثارها الخلق الكريم والأمانة والإخلاص والعزلة، من طبيعة البلاط الإنجليزي، فلم يجد الموالعون بالقصف والصخب واللهو والفجور إليه منفذاً. وأووا ساخطين ناقمين إلى المقاهي والمواخير. وحل رجل الأخلاق أديسون محل روشستر المستهتر الخليع. وكتب ستيل "البطل المسيحي". وكان لتجنب الملكة أن التردد على المسرح ولنموذج حياتها، بعض الأثر في تحسين أسلوب المسرح الإنجليزي. وعبرت الملكة عن ورعها

صفحة رقم : 10944

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا في عهد الملكة آن

ذ

وتقواها بأن حولت إلى فقراء رجال الدين في الكنيسة الرسمية نصيب العرض في "بشائر الثمار" والعشور الكنسية (1704)، ولا تزال الحكومة البريطانية تدفع "منحة الملكة آن" هذه. وأنجبت الملكة أطفالاً في كل عام بانتظام تقريباً، ولكنهم ماتوا في سن الطفولة عدا واحداً. ولم يبق على قيد الحياة بعدها منهم أحد. ولشد ما أظلمت حياتها وتحطم قلبها لكثرة ما شيعت من جنازات. ولو كان في مقدور الملكة الآن أن تحدد هي السياسة القومية لعقدت الصلح مع فرنسا، واعترفت بما طالب به أخوها من أبيها المتوفى، أن يتربع على العرش تحت اسم جيمس الثالث. ولكن وليم الثالث بإرادته القوية كان قد أدخل إنجلترا في "الحلف الأعظم" كما أن الرجل الذي غلبت آراؤه ومشورته على كل ما عداها، والذي كانت قد رفعت فور اعتلائها العرش من إرل إلى دوق مالبرو، نقول أن هذا الرجل أغراها بأن تشقى في حكمها لمدة أكثر من عشر سنوات بحرب دامية باهظة التكاليف. وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير صديقتها. وهي آنذاك دوقة والمشرفة على ملابس الملكة، وعلى أموالها الخاصة. وكانت سارة تتقاضى 5100 جنيه سنوياً. واستغلت تأثيرها التي كاد يكون مغناطيسياً على الملكة، في زيادة ثراء زوجها، فعين مالبرو قائداً عاماً للقوات البرية. كما عين بناء على اقتراحه (صديقه سدني جودولفين وزيراً للخزانة لأنه كان أميناً بشكل شاذ، كما كان قديراً في الشؤون المالية كما كان يمكن الاعتماد عليه في تحويل الأموال فوراً إلى قادة الجيش الذي كان جنودهم يبدون من الشجاعة بقدر ما يقبضون من نقود. وقد يشوقنا أن نسجل أن جودولفين مات فقيراً، بعد أن قضى نصف عمره يضطلع بشؤون الخزانة، وذهب دوقة مالبرو العنيدة إلى أنه (خير من عاش من الرجال) (51) ومهما يكن من أمر فإنه قضى وقت فراغه في صراع الديكة وسباق الخيل والميسر، وهي رذائل معتدلة تعتبر مقاربة للفضيلة. أن تجرد أن من الذكاء والفتنة سمح لوزرائها بالاستحواذ على قدر

صفحة رقم : 10945

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا في عهد الملكة آن

كبير من السلطة وحقوق المبادرة التي كان البرلمان قد تركها للتاج، ومن ثم نشبت المعارك السياسية (فيما عدا فترة حكم جورج الثالث) بين البرلمان والوزراء، لا بين البرلمان والملك. وفي 1704 دخل الوزارة شخصيات جديدة: روبرت هارلي وزيراً للدولة، وهنري سانت جون وزير للحرب. ومس كلا الرجلين تاريخ الأدب مساً خفيفاً: فإن هارلي كان يستخدم ديفو وسويقت، كما كان سانت - بوصفه فيكونت بولنجبروك فيما بعد - ذا تأثير على بوب وفولتير، كما أنه هو نفسه مؤلف أبحاث كانت يوماً مشهورة. "أبحاث في دراسة التاريخ" و "فكرة عن ملك محب لوطنه". وكان كلا الوزيرين يدمن الشراب، ولكن هذا لم يكن ميزة في إنجلترا في ذلك الزمان. وكلاهما تولى منصبه بعون من مالبرو، ولكنهما انقلبا ضده بتهمة إطالة أمد حرب الوراثة الإسبانية دون مبرر يدعو إلى ذلك. ولد سانت جون (1678) في عهد شارل الثاني، وتوفي (1751) في أول سني "دائرة المعارف"، ومن هنا مثل تمثيلاً دقيقاً عبور أوروبا من عودة الملكية إلى عصر الاستنارة في فرنسا، وتلقى أيام صباه تعليماً دينياً كثيراً، وأهدر قدراً كبيراً منه أيام كان رجلاً. وأنه ليروى لنا: "كنت أرغم حين كنت صبياً على قراءة تعليقات دكتور مانتون الذي كان يفخر بأنه ألقى 119 عظة عن المزمور رقم 119 (52) "وفي إيتون وأكسفورد سعى جون وأحرز قصب السبق في الذكاء والتكامل الخالي من الهموم، والانغماس في الملذات والإدمان على الشراب في لباقة. وكان يفاخر بأنه يتناول أكبر قدر من الخمر دون أن يثمل. وبأنه يخادن أبهظ العاهرات نفقة في المملكة (53). وفي لحظة أراد أن يكتفي فيها بوحدة تزوج من وريثة ثرية. ولكنها سرعان ما هجرته لخيانته. ولكنه استمر بنعم بضياعها، مع بعض فترات انقطاع يسيرة. ووجد في 1701 أن الانتخاب للبرلمان لا يكلف كثيراً، نسبياً. وهناك حظي في مجلس العموم بنفوذ عظيم نتيجة لوسامته وسرعة بديهته وبيانه المتدفق. ودخل الوزارة ولم يجاوز

صفحة رقم : 10946

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا في عهد الملكة آن

السادسة والعشرين من العمر.

وكان أبرز إنجازات هذه الوزارة هو توحيد برلمان إنجلترا وإسكتلندة، فإن البلدين على الرغم من خضوعهما لمليك واحد، كان لهما برلمانان منفصلان. واقتصاديات متعارضة ومذاهب دينية متنافرة، وشنت كل منهما الحرب على الأخرى، زد على ذلك أن التعريفة الجمركية التي أملاها الحقد والحسد بين البلدين عوقت تجارتها. وفي 16 يناير 1707 وافق البرلمان الإسكتلندي، وفي 6 مارس صدقت الملكة، على بنود (الاتحاد) التي بمقتضاها أصبحت المملكتان - على حين احتفظت كل منهما بمذهبها الديني المستقل - "المملكة المتحدة" لبريطانيا العظمى، ولها برلمان بريطاني واحد، مع حرية مطلقة في الاتجار. على أن يختار 16 نبيلاً إسكتلندياً لمجلس اللوردات، وينتخب 45 عضواً في إسكتلندة لمجلس العموم، وينضم صليب سان جورج وصليب سانت أندرو في علم جديد واحد. "اتحاد جاك" ولم يرحب أهالي إسكتلندة بالاندماج، ولمدة نصف قرن من الزمان تقاومت العداوات القديمة. ولكن ما جاءت 1750 حتى اعترف الجميع بأن الاتحاد كان خيراً وبركة. وتخلصت إسكتلندة من نفقات مزدوجة، وانطلقت طاقتها الفكرية لتبدع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر باكورة نتاج مشرق من الأدب والفلسفة. وعزل هارلي وسانت جون عن الوزارة أثر فوز الأحرار (الهيوج) في أكتوبر 1707، ولكن استمر تأثير نفوذ هارلي على الملكة عن طريق ابنة عمه "مسز أبيجيل ماشام" وكانت دوقة مالبرو قدمت هذه السيدة إلى الملكة آن من قبل. فخفف هدوءها ولين عريقتها ورقة مزاجها عن الملكة التي أرهقت مسؤولياتها الجديدة أعصابها كما أز عجتها نظرات سارة وصوتها العنيف. ورحبت سارة لبعض الوقت بتحررها من مداومتها على البلاء، ولكن سرعان ما

فزعت حين اكتشفت تضاول نفوذها لدى الملكة: وكادت أن تكون بالطبيعة "محافظة - توري" تقية محبة للسلام، على حين كانت سارة "متحررة - هويج" ضعيفة الإيمان،

صفحة رقم : 10947

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجيلية -> إنجلترا في عهد الملكة آن

تسخر صراحة من حقوق الملوك الإلهية على أنها تدجيل على الشعب وخداع له. وكم ألحت على الملكة في تأييد مشيئة مالبرو في شن الحرب على فرنسا حتى يتم القضاء عليها. وكشفت أن عن شيء جديد من قوة العقل والتفكير بعد أن تقلص ظل سارة. وعندما ثارت ثائرة سارة عليها بشكل وقح طردتها من الحاشية (1710)، وصرحت الملكة أنذاك بأنها تحررت من أسر طال أمده.

وفي نفس السنة عاد فوز "المحافظين" في الانتخابات، بهارلي وبولنجبروك إلى الحكم، وحل هارلي محل جودولفين في وزارة الخزانة، وتولى بولنجبروك وزارة الحربية، وأصبح جوناثان سويفت كاتب الكراسات والنشرات، البالغ الأثر، لهما. وعين هارلي إرل أكسفور (1711) وحظي سانت جون بلقب فيكونت بولنجبروك (1712). وابتهجت موسسات لندن حين سمعن بنبا ترقية بولنجبرو، قائلات: "أنه يحصل على ثمانية آلاف جنيه في العام، وكلها لنا" وقدمت الأغلبية "المحافظة" إلى المجلسين (1711) مشروعاً ينص على أنه يشترط للترشيح للبرلمان امتلاك أرض ذات دخل سنوي لا يقل عن 300 جنيه لممثلي المدن، وستمائة جنيه لمندوبي الريف (54). لقد بلغت الأرستقراطية مالكة الأرض ذروتها آنذاك في إنجلترا.

واعترمت الوزارة الجديدة - على حين رفض مالبرو - إنهاء الحرب بعقد صلح منفرد مع فرنسا. وفي 1711 قدم هارلي إلى مجلس العموم اتهاماً بالاختلاس ضد مالبرو. فتذرعوا بأن الدوق كان يجمع ثروة خاصة طائلة بوصفه القائد العام للقوات البريطانية، وعن طريق مهام أخرى يتولاها، وأنه بالإضافة إلى رواتبه السنوية التي تصل إلى نحو 60 ألف جنيه. كان يقبض ستة آلاف جنيه سنوياً من سير سولومون مديناً متعهد توريد

صفحة رقم : 10948

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجيلية -> إنجلترا في عهد الملكة آن

الخبز للجيش. وأنه اقتطع لنفسه خاصة 2.5% من المبالغ التي كان يتسلمها من الحكومات الأجنبية لدفع رواتب القوات الأجنبية التي كانت تحت إمرته. ولم ترق عمارة قصر بلنهم الضخم لأحد إلا لعين مهندسه. وكان مالبرو يشيد هذا القصر في وودستوك قرب أكسفورد. وكانت الملكة قد أمرت أن تتولى الحكومة الإنفاق على بنائه. وشرعوا في البناء 1705، ولم يتم في 1711 إلا نصفه الذي تكلف 134 ألف جنيه بالفعل (55)، وكان إتمامه يستلزم مبلغ 300 ألف جنيه دفعت الحكومة أربعة أخماسه (56).

ودفع مالبرو بأن المبلغ المتقطع (2.5%) كان مسموحاً به بحكم العادة والعرف للقائد للصرف منه - دون تسجيل علني في الحسابات - على الخدمات السرية وأعمال التجسس التي أنتت بأحسن النتائج. وأبرز ترخيصاً موقعاً من الملكة تجيز له الاقتطاع، كما أكد الحلفاء الأجانب أنهم أيضاً فوضوه في الاقتطاع، وزاد ناخب هانوفر على ذلك أن هذا المال استخدم بحكمة "وأدى إلى كسب معارك كثيرة (57)" أما عن المنحة التي كان مالبرو يتقاضاها من مديناً فإن دفاعه كان غير مقنع. وأدان المجلس بأغلبية 276 صوتاً ضد 175. وعزلته الملكة من جميع مناصبه (31 ديسمبر 1711)، فغادر إنجلترا إلى المنفى الذي اختاره لنفسه بنفسه، وعاش في هولندا أو ألمانيا حتى نهاية العهد. وعين الوزراء جيمس بتلر دوق أورمند الثاني ليتولى قيادة الجيوش البريطانية، وفوضوه في اقتطاع نفس النسبة من عقود توريد الخبز ومن الأموال الأجنبية، وهو ما أدانوا به مالبرو (58). ولكن الشعب البريطاني تقبل سقوط مالبرو على أنه خطوة على طريق السلام. وتجر النزاع من جديد بين حزبي المحافظين والأحرار حول موضوع الوراثة الإسبانية. ذلك أنه في 1701 حين مات آخر من بقي على قيد الحياة

صفحة رقم : 10949

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا في عهد الملكة آن

من أولاد الملكة آن، أقر البرلمان - رغبة منه في إحباط عودة أسرة ستيوارت إلى الملك مرة ثانية، قانوناً للتسوية ينتقل عرش إنجلترا بمقتضاه في حالة عدم وجود عقب لوليم الثالث والأميرة آن - إلى الأميرة صوفيا وورثتها من صلبها، وهم بروتستانت. وكانت صوفيا، زوجة ناخب هانوفر، بروتستانتية يقيناً، يجري في عروقتها بعض الدم الملكي البريطاني لأنها من حفيدات جيمس الأول. وكانت آن قد قبلت هذا التدبير ضماناً للحفاظ على إنجلترا بروتستانتية. ولكن الآن وقد آذنت شمس حياتها بمغيب فإن عطفها على أخيها المحروم من حقه في العرش، نما واشتد، ولم تدع مجالاً للشك في أنها لا بد أن تساند مطالبة جيمس الثالث بالعرش إذا هو ارتضى نبد الكتلكة. وأعرب الأحرار "عن تأييدهم التام لوراثة آل هانوفر للعرش، على حين مال المحافظون إلى وجهة نظر الملكة. وفاوض بولنجبروك جيمس، ولكن الأمير أبي التخلي عن عقيدته الكاثوليكية. على أن بولنجبروك الذي لم تكن الديانات في نظره إلا أبواباً متباينة تكسو الموت جلالاً وشرفاً. حاول بكل الوسائل إلغاء "قانون التسوية" وإبقاء وراثة العرش لجيمس، وعاب على هارلي تباطؤه الشديد في هذه المسألة، وبناء على اقتراح منه عزلت الملكة آن هارلي وهي كارهة. وبدا لمدة يومين اثنين أن بولنجبروك سيد الموقف.

ولكن في 29 يولييه انتاب الملكة مرض خطير نتيجة تأثرها وحزنها الشديد للخلافات بين وزرائها. وهنا تسلح البروتستانت في إنجلترا المقاومة أية عودة لملكية آل ستيوارت، ونبد المجلس المخصوص سياسة بولنجبروك، وأقنع الملكة المترددة بتعيين دوق شروزبري وزيراً للخزانة ورئيساً للحكومة. وفي أول أغسطس 1714 فارقت آن الحياة. وكانت صوفيا قد قضت نحبها قبل ذلك بشهرين، ولكن "قانون التسوية" ما زال قائماً. وأرسل المجلس إلى ابن صوفيا، ناخب هانوفر، يبلغه أنه أصبح الآن جورج الأول ملك إنجلترا.

صفحة رقم : 10950

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> الثورة الجليلية -> إنجلترا في عهد الملكة آن

أن سني حكم وليم وماري وأن (1689-1714) كانت سنين حيوية بارزة في تاريخ إنجلترا. وعلى الرغم من الانحلال الخلقي والفساد السياسي والنزاع الداخلي، شهدت هذه السنوات انقلاباً أسرياً (تغييراً جذرياً في الأسرة المالكة)، وإقرار البروتستانتية نهائياً في إنجلترا، وانتقال سلطة الحكم من الملك إلى البرلمان بشكل لا رجعة فيه. كما شهدت نشوء الوزراء الأقوياء، وهذا بدوره أدى إلى الانقاص من سلطان الملك. وشهدت لأول مرة في 1707 اعتراض الملك على تشريع البرلمان، وخطت خطوة أوسع في إقرار التسامح الديني وحرية الصحافة. ووجدت بطريقة سلمية بين إنجلترا وإسكتلندا، في دولة أقوى، هي بريطانيا. وأحبطت محاولة أقوى ملوك العصر الحديث لجعل من فرنسا الدكتاتور الأمر الناهي في أوروبا، وبدلاً من ذلك جعلت إنجلترا سيدة البحار، ووسعت ممتلكات إنجلترا في أمريكا، مما كان له نتائج تاريخية بعيدة المدى وشهدت هذه السنوات أيضاً انتصارات العلم والفلسفة في إنجلترا في "مبادئ إسحق نيوتن"، وفي كتاب لوك "بحث في التفاهم الإنساني". أما سني حكم أن الوديعه، وهو حكم قصير لم يتجاوز اثني عشر عاماً، فقد كان عهد انبثاق في الآداب - ديفو، أديسون، ستيل، والفترة الأولى من حياة الاسكندر بوب - لم يكن له نظير في أي مكان في العالم في ذلك العصر.

صفحة رقم : 10951

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> صحافة حرة

الفصل الحادي عشر

من دريدن إلى سويفت

1660 - 1714

1- صحافة حرة

ترى ماذا حد برجل فرنسي أن يكتب في 1712 بزت "إنجلترا فرنسا في الإنتاج الأدبي كما وكيفما وأن مركز الحياة العقلية والفكرية.. انتقل أكثر فأكثر إلى الشمال حتى قام الإنجليز حوالي عام 1700 "بأكبر دور خلاق(1)" إن رجلاً إنجليزياً نعم بمآثر فرنسا يرد التحية فيقول: إن جزءاً من هذا الحافز جاء عن طريق آداب السلوك والعادات التي جلبها شار الثاني والمهاجرون العائدون، وأن جزءاً آخر نبع من ديكارتر وباسكال وكورنيل وراسين وموليير وبوالو ومدموازي دي سكودري ومدام دي لافايت، ومن الفرنسيين المقيمين في إنجلترا مثل سانت أفرموند وجرامونت. وأنا لنرى التأثير الفرنسي في الملهيات الشهوانية الجنسية والمآسي البطولية التي ظهرت على المسرح في عودة الملكية، وفي الانتقال من غزارة النثر في عهد إليزابيث وتلافيف فترات ملتون إلى النثر المهذب المصقول المنطقي الذي دجه دريدن وهو يكتب المقدسات وإلى الشعر الذي نظمه بوب: ومضى الآن قرن من الزمان (1670-1770) كان الأدب الإنجليزي فيه نثراً، حتى ولو كان موزوناً مقفى، ولكنه نثراً فخماً واضحاً ممتازاً من الطراز الأول. ومهما يكن من أمر فإن الأثر الفرنسي كان مجرد استحثاث، ولكن جذور المسألة كانت في وسع إنجلترا نفسها: في عودة الملكية المقرونة بالبهجة والفرح والتحرر، وفي التوسع الاستعماري، وفي إثراء الفكر بفضل

صفحة رقم : 10952

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> صحافة حرة

التجارة، وفي الانتصارات البحرية على الهولنديين، وفي قهرها (1713) لفرنسا التي كانت قد انتصرت على إسبانيا. ومن ثم انفتح الطريق إلى الإمبراطورية شمالاً، وكما أجرى لويس الرابع عشر الرواتب على المؤلفين بوصفها رضىخة أو رشوة تمنح للأنصار، فإن الحكومة الإنجليزية، بطريقة شبيهة بهذه، كافأت الشعراء أو الثائرين المحبين لوطنهم أو المشايخين للحكومة - دريدن كونجريف، جاي، برير، أديسون، سويفت - بالرواتب تخصص لهم، ويتناول الطعام على موائد الأرسنقراطية، وبحصة على المبيعات من المطبوعات، أو بالوظائف ذوات الدخل الكبير والجهد اليسير في الإدارة، من ذلك أن أحدهم صار وزيراً، ونظراً فولنتير في شيء من السد إلى هذه الوظائف السياسية(2). ورعى شارل الثاني العلم والجمال لا الأدب والفن. ولم يكثرث وليم الثالث والملكة آن بالأدب. ولكن وزراءهم - حين وجدوا أن الكتاب نافعون في عصر الصحافة والنشرات والمقاهي والدعاية - أغدقوا المال على الأقلام التي يمكن أن تخدم الناج أو الحزب أو الحرب. وأصبح الكتاب سياسيين ثانويين، وبعضهم مثل برير Prior، صار من رجال السلك الدبلوماسي، وبعضهم مثل سويفت وأديسون برع في التعيين في الوظائف وفي المحسوبية وفي التدخل في شئون السلطة. وأهدى المؤلفون أعمالهم إلى اللوردات وسيدات المجتمع، تقديراً كريماً لما ينتظر أن يحظوا به من خيرات وفضل وعطف ووصال، في عبارات إهداء ملؤها المديح والإطراء والتحيات والتمنيات، ممل جعل هؤلاء السيدات وأولئك اللوردات أسمى من أبولو أو فينوس في جمال الجسم والقوام، ومن شكسبير وسافو في كمال العقل والذهن. وساعدت الحرية الذهب على إطلاق العنا لفيضان المداد وجريان القلم وكانت قصيدة ملتون "أريوباجيتيكا" قد أخفقت في القضاء على "قانون الرقابة" التي تحكمت به الرقابة في الصحافة في عهد ملوك أسرتي التيودور وستيوارت، واستمر القانون نافذ المفعول في عهد كرومول غير المستقر،

صفحة رقم : 10953

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> صحافة حرة

وبعده في عودة الملكية لآل ستيوارت، ولكن حين بدأت حكومة جيمس الثاني في إزعاج الأمة، شرع عدد أكبر فأكثر من كتاب الكراسات والنشرات يتحدثون القانون ويدخلون السرور على قلوب الشعب. وعندما اعتلى وليام الثالث العرش، كان هو وأنصاره "الأحرار" مدينين بأكثر الفضل للصحافة إلى حد أنهم عارضوا تجديد قانون الرقابة، فانتهى العمل به 1694، ولم يجدد، وتدعمت حرية الصحافة تلقائياً. وربما ظل الوزراء الملكييون يعتقلون الكتاب بسبب هجماتهم العنيفة المتطرفة على الحكومة وظل "قانون التجديف" (1697) يفرض عقوبات صارمة على التشكك في أساسيات الدين المسيحي، ولكن إنجلترا نعمت منذ ذلك الوقت فصاعداً بحرية الأدب التي أسهمت، على الرغم من سوء استخدامها غالباً، إسهاماً كبيراً في نمو الفكر الإنجليزي.

وتضاعفت عدد الدوريات، وانتظم صدور الصحف الأسبوعية منذ 1622، وعطلها كرومول جميعاً ما عدا اثنتين، ورخص شار الثاني في صدور ثلاث منها تحت إشراف رسمي، أصبحت واحدة منها هي "أكسفورد" وفيما بعد لندن جازيث "الناطقة باسم الحكومة" وكانت تصدر نصف شهرية أو نصف أسبوعية منذ 1665. وفور إلغاء قانون الرقابة صدرت عدة صحف أسبوعية. وفي 1695 أسس المحافظون أول جريدة يومية إنجليزية "ساعي البريد Poat Boy" والتي لم تصدر إلا أربعة أيام فقط، حيث عاكسها "الأحرار" في الحال بصحيفة "البريد الطائر Flying Poat". وأخيراً في 1702 أصبحت The English Gourant هي الصحيفة اليومية المنتظمة في إنجلترا - فرخ صغير من الورق مطبوع على وجه واحد فقط، تقص الأبناء ولا تدون آراء، ومن هذه الهبات المتقطعة نشأت عمالقة الإعلان التي نراها اليوم بين أيدينا.

وأتى ديفو بمستوى جديد في صحيفة "ريفيو" (1704-1713) وكانت أسبوعية تقدم التعليقات كما تقدم الأنباء. وهي التي بدأت القصة

صفحة رقم : 10954

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> صحافة حرة

المسلسلة وتبعه سنيل في "تاتلر" (1709-1711). وسما هو وأديسون بهذا التطور إلى ذروته التاريخية في "سبكتاتور" (1711-1712) وروع حكومة المحافظين التوزيع الإجمالي والتأثير الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية، ففرضت عليها ضريبة تمغة تتراوح بين نصف بنس وبنس واحد. مما جعل البقاء مستحيلاً بالنسبة لمعظم الدوريات. وكانت "سبكتاتور" إحدى الدوريات التي احتجبت. وقال سويفت لبطلته وصديقه سنلا:
"لقد دمرنا شارع Grub بأسره (3) (الشارع الذي يقطنه محررو الصحف). وأصدر بولنجبروك في 1710
"أجزامر Examiner" الأسبوعية ليدافع بها عن سياسة وزارة المحافظين. ووجد في جوناثان سويفت رجلاً واسع الاطلاع لاذع القدر والطن، متوقد الذكاء. لقد وقع المال على أداة جديدة، وطغى سلطان الصحافة الدورية شيئاً فشيئاً على تأثير المنابر في تشكيل الرأي العام، وإعداده للأهداف الخاصة، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأمور الدنيوية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

2- المسرحية في فترة عودة الملكية

فيما بين عامي 1660 و 1700 كان ثمة أداة أرى شكلت أو شوهدت أو عبرت مجرد تعبير عن روح لندن المجردة من الحيوية والنشاط. وحيث استطاب شارل الثاني المسرحية الباريسية فإنه أجاز فتح مسرحين: الأول للملك وجماعته في "دروري لين" والثاني لدوق يورك وجماعته في "النكولن ان فيلدز" وفي 1705 افتتح مسرح الملكة في هاماركت، ولكنها نادراً ما شهدت التمثيل فيه. وفي أيام شار الثاني كان مسرحان اثنان يفيان بالحاجة عادة. وظل البيوريتانيون يقاطعون المسرحية، أما الجمهور بصفة عامة على أية حال، فلم يكن يرخص له بدخول المسارح بين 1660 و 1700(4) ولم يقصد إليها في معظم الأحوال إلا كل عربييد ماجن من رجال الحاشية، وحتالة الطبقة الأرستقراطية والمتصلين بها، والأثرياء المتعطلين الذين

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

يقضون أوقاتهم في المسارح والنوادي وسباق الخيل وغيرها. ويقول دكتور جونسون الوقور: "أن المحامي الوقور ليحط من قدره ويمتهن كرامته، وأن المحامي الناشئ ليسيء إلى سمعته، إذا غشى بيوت الإباحية المنحلة هذه(5) "وشكل النساء قسماً صغيراً من النظارة على أنهن إذا ذهبن إلى المسرح كن يخفين شخصياتهم وراء الأفتعة(6). وكانت العروض تبدأ في الساعة الثالثة بعد الظهر، حتى إذا تحسنت الإضاءة في الشوارع (حوالي 1690) أجلت إلى السادسة. وكان أجر الدخول أربعة شلنات للمقصورات وللمقاعد الخلفية شلنين ونصف وللشرفات شلناً واحداً. وكانت أجهزة التأثير المسرحي وتغيير المناظر أكثر إتقاناً بكثير عما كانت عليه في أيام إليزابيث. ولو أن حجرة نوم واحدة وملحقاتها ربما كانت تكفي لمعظم ملهيات عصر عودة الملكية، وحلت الممثلات محل الغلمان في تأدية أدوار النساء، وكن كذلك عشيقات، من ذلك أن مرجريت هيوز التي مثلت ديدمونا لأول مرة ظهرت فيها امرأة على المسرح الإنجليزي (8 ديسمبر 1660) كانت عشيقة الأمير روبرت(7). وفي عرض لمسرحية دريدن "الحب الإستبدادي" تعلق قلب شار الثاني لأول مرة بخليته نل جوين التي كانت تمثل دور فاليريا(8). إن طبيعة جمهور المشاهدين، ورد الفعل ضد البيوريتارية، وأخلاق البلاط، وذكريات روايات عصري إليزابيث وجيمس الأول (وبخاصة روايات بن

جونسون) وأحياء هذه الروايات واستعادة تلك الذكريات من جديد، وتأثير المسرح الفرنسي والملكيين المهاجرين، كانت كلها عوامل تجمعت لتشكيل المسرحية أيام عودة الملكية.
وكان الأسم اللامع في "مسرحية المأساة" في عودة الملكية هو دريدن لنتركه مؤقتاً، لتحدث عن مسرحية توماس أوتواي "الحفاظ على فينيسيا" التي عمرت بعد كل روايات دريدن وظلت تمثل حتى 1904. إنها قصة حب مطعمة بمؤامرة أصدقاء كونت دي أوزونا لقلب سناتو فينيسا في 1616. ويرجع ما صادفته من نجاح في البداية من ناحية، إلى الصورة الساخرة التي

صفحة رقم : 10957

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

رسمتها لإرل شافتسبري الأول (عدو شارل الثاني و صديق لوك) في شخصية أنطونيو الذي يجب أن تضربه عشيقته البغي، ومن ناحية أخرى إلى التشابه بين هذه المؤامرة وبين المؤامرة البابوية "الحديثة" ومن ناحية ثالثة إلى تمثيل توماس بنرتون ومسز اليزابيث باري، ولكن الرواية تقف اليوم على قدميها إن مناظرها الهزلية سخيفة مؤذية، خاتمها تنشر الموت في إجماع أقرب شبيهاً بالمسرحية الموسيقية (الأوبرا)، ولكن حبكة الرواية متقنة دقيقة، وشخصها مصورة تصويراً مميّزاً، والحركة مسرحية إلى أبعد حد، والشعر المرسل فيها ينافس مثيله في المسرحية في عصر اليزابيث، باستثناء مارلو وشكسبير. ووقع أوتواي في غرام مسز باري، ولكنها أثرت عليه معاشره إرل روشستير، وبعد كتابه عدة مسرحيات أخرى ناجحة أخرج الشعر سلسلة من الروايات لم يكتب لها النجاح، وانحدر إلى مهاوي الفقر والعوز وفي رواية أنه مات جوعاً(9).
إن ذكرى المسرحية في فترة عودة الملكية حية من أجل ملهياتها فإن ما كان في هذه الملهيات من مرح وسخرية، ومحاورات داعرة، ومغامرات في المخدع، بالإضافة إلى قيمتها في أنها مرآة تعكس حياة طبقة واحدة في جيل واحد. كل أولئك أكسبها شعبية جزئية، إن لم تكن مختلصة لا تكاد تستحقها. فإن مجالها ضيق إذا قيست بملهيات عصر اليزابيث أو موليير، وأنها لا تصور الحياة بل تصف عادات المتعطلين المتسكعين في المدن والحاشية الخليفة المتهتكة، وتتجاهل الريف إلا إذا أخذوه هدفاً للاستهزاء والسخرية، أو "سيبيريا" ينفى إليها الأزواج زوجاتهم المتطفلات. إن بعض المسرحيين الإنجليز شاهدوا موليير يمثل أو تمثل رواياته، واستعار بعضهم شخصه أو حيكات مسرحياته، ولكن أحداً منهم لم يبلغ نزعه في مناقشة الأفكار الأساسية، فالفكرة الأساسية الوحيدة في هذه الملهيات هي أن الزنى هو الهدف الرئيسي لأعظم عمل بطولي في الحياة. وكان المثل الأعلى للرجل فيها هو ما وصفه دريدن في "المنجم الهزاة" على أنه "سيد ماجد، رجل ثري

صفحة رقم : 10958

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويقت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

عاطل يغشى النوادي والمقاهي والمسارح والمواخير، يرتدي أفخر الثياب، يأكل ويشرب ويفسق ويعاشر البغايا إلى أقصى حد ممكن". وفي رواية فاركو "خداع العاشقين" جاء على لسان أحد الشخصيات، وكأنما يقول سيد مهذب لآخر: "إني أحب جواداً جميلاً ولكني أتركه لرجل آخر ليتولى العناية بأمره، وإني كذلك بالمثل أحب سيدة جميلة" (10) وهذا لا يعني أنه لا يشتهي زوجة جارة ولا يمد عينيه إليها، بل أنه يريد أن يستمتع بكل مفاتها وأطايها، على حين ترك لزوجها أن يرعى شئونها وينفق عليها. وفي رواية كونجريف "طريق الحياة الدنيا" يقول ميرابل المعشوق موضع الإعجاب لزوجته صديقه "يجب أن تشعرني بالاشمزاز والنفور والكرهية لزوجك مما يجعلك تستمتعين بحبيبك أو عشيقك (11)". ويندر أن ترى الحب في هذه الروايات يرتفع فوق الشهوة الجسدية التي تلتهم بين جوانح الطرفين، يريدان إطفاءها. وإنما لنتلهف عند قراءتها أن تقع العين على ظل لمعاني النبل والشرف، ولكننا لا نرى فيها إلا أخلاقيات المواخير وبيوت الدعارة.

إن وليم وتشرلي هو الذي استهل هذا التقليد، وكان أبوه ملكياً من أسرة عريقة تملك ضيعة كبيرة، وأرسل ولده إلى فرنسا لتلقي العلم، عندما تولى البيوريتانيون مقاليد الحكم في إنجلترا، إصراراً منه على ألا ينشأ الولد بيوريتانياً. ولم يعتق وليم قط هذا المذهب، ولكن الأسرة صعقت حين أصبح كاثوليكياً. وسرعان ما عاد إلى البروتستانتية لدى عودته إلى إنجلترا، وهناك درس في أكسفورد وتركها دون الحصول على درجة جامعية. وانصرف إلى كتابة الروايات. وجمع ثروة من رواية "حب في الغابة" (1671) التي أهداها إلى ليدي كاسلمين. واستقبله في البلاط الملك الودود اللطيف الذي لم يشك ولم يتذمر حين وجد أن وتشرلي وتشرشل كليهما، يشاركانه غرام عشيقته كاسلمين (12). واشترك وليم في الحرب الهولندية 1762، ببسالة متوقعة من سيد

صفحة رقم : 10959

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويقت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

ماجد، وعاد إلى إنجلترا ولم يمسه سوء، وأحرز نجاحاً آخر في "الزوجة الريفية" (1672). ودعا النظارة في المقدمة - إذا لم تعجبهم الرواية - إلى دخول غرفة ملابس الممثلين في ختامها، وهناك: "فإننا عن طيب خاطر.. نتخلى لكم يا شعرا، عن العذارى، لا بل عن عشيقاتنا كذلك". وخلاصة الموضوع أن مستر بنشوييف اصطحب زوجته معه لقضاء أسبوع في لندن، وأحكم حراستها إلى حد أنها أوقعت في شرك الغواية تحت سمعه وبصره، ذلك أن من يدعى مستر هورنر - العائد من فرنسا لتوه، والمتلهف على الوصول إلى الزوجات دون عائق - أذاع بين الناس أنه خصي، ومن هنا يستنتج بنشوييف أنه لا حرج في أن يفتح بيته لمنزل هذا العنين العاجز، ولكنه سرعان ما يكتشف أن زوجته تكتب رسالة غرامية إلى هذا الزير المتودد إليها الذي أدعى العنة، فیرغمها على كتابة رسالة أخرى تكبل له فيها أقذع السباب والشتم، وما أن أدار الزوج ظهره حتى أسرعت هي فوضعت رسالتها الغرامية الأولى مكان الرسالة الثانية التي تتم عن الغضب والاستياء. وسلم الزوج المزهو المفاخر بالسيطرة على الموقف الرسالة الأصلية إلى هورنر. وبعد فترة اتجه ظن الزوج إلى أن هورنر أقدر مما تردده عنه الشائعات، ففكر في أن يشغله، ووافق على أن يأخذ إليه أخته أليثيا. وتتكرر الزوجة حتى تبدو وكأنها أليثيا، ويحملها زوجها إلى عشيقها. وتختتم الرواية "برقصة الديوث"، وهورنر هو المنتصر في النهاية، ثم تلقى

إحدى الممثلات إحدى الممثلات شعراً توجه فيه اللوم والتقريع إلى الرجال الحاضرين، لأنهم لا يتحلون بقدر كاف من الرجولة.
"وقد يظل الناس على اعتقادهم بأنكم ممثلون قوة ورجولة، ولكننا نحن النساء لا سبيل إلى خداعنا".
واقتبس وتشرلي كثيراً من "الزوجة الريفية" من رواية موليير "مدرسة الأزواج ومدرسة الزوجات" وفي روايته التالية "التاجر

صفحة رقم : 10960

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

الشريف" حول وتشرلي شخصية "ألست" في رواية موليير "مبغض البشر" إلى شخصية كابتن مانلي الذي لم تتعد فكرته عن التعامل الشريف، مجرد تناول كل الناس والأشياء بلغة بذيئة مقذعة. والغريب المدهش الأمر أن سكان لندن، بل حتى سكان بعض الضواحي، أحبوا وصف الحياة على أنها سعى متصل وراء شهوة الجسد، يلطف منه بعض التجديف في الحديث. وفي إحدى المكتبات في "تنبريدج ولز" سمع وتشرلي إحدى السيدات تسأل عن كتابه المنشور حديثاً "التاجر الشريف" فغمرته نشوة الفرح، ولم تكن هذه إلا كونتس دور جيداً، الأرملة الثرية فطلب يدها وتزوجها. ووجد أنها كانت تضعه تحت مراقبة أشد وأكثر مثابرة مما كان يفعل بنشوييف، ولكنها ماتت فجأة فظن أن أموالها لا بد أن تؤول الآن إليه، ولكن القضايا القانونية التي تشابكت فيها التركة حالت دون ذلك، فلم يستفد منها شيئاً. وعجز عن تسديد الديون التي كان قد اقترضها ثقة منه بأيلولة التركة إليه، فأرسل إلى السجن حيث قضى سبع سنين وهنت فيها عزمته وذبل نشاطه، حتى جاء جيمس الثاني، وسدد - قبل إرتداد وتشرلي إلى الكاثوليكية ثانية أو بعده - ديونه وأجرى عليه راتباً. وبلغ وتشرلي أرذل العمر في شقاء ومعاناة. وظل مع عجزه يلاحق النساء، ويكتب نظماً، حاول صديقه الشاب بوب أن يحوله إلى شعر. وفي سن الخامسة والسبعين تزوج الفاجر العجوز امرأة شابة، ولم يعمر بعد الزواج إلا عشرة أيام، ووافته المنية في أول يناير 1716.
وكان سيرجون فانبر وأطف من كتب عن الزنى والزناة. وكان "جون بول" (الرجل الإنجليزي النموذجي) يتجسد فيه تماماً، فهو خشن مرح طلق المحيا، يحب طعام إنجلترا وشرايها، ولو أن جده لوالده هو جليليس فان برو، وهو فلمنكي من مدينة غنت قدم إلى بريطانيا في عهد جيمس الأول. وكان جون يبشر بحسن المستقبل إلى حد أنه أرسل إلى باريس في سن التاسعة عشرة ليدرس الفن. فلما عاد في الحادية والعشرين التحق

صفحة رقم : 10961

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

بالجيش، وقبض عليه في كاليه بتهمة أنه جاسوس بريطاني، وقضى مدة في الباستيل، وهناك كتب المسودة الأولى "للزوجة المغيظة" حتى إذا ما خرج من السجن عكف على كتابة الروايات. وفي ستة أسابيع - كما يروى لنا هو - فكر وتصور، ثم كتب ومثل رواية "النكسة" (1696)، بما فيها من هجا مرح للمتأقنين في لندن، مثل لورد فونجنتون وملاك الأرض في الريف مثل سيرتتيلي كلمزي، ومس هويدن الشهوانية. وكان سيرتتيلي يضعها تحت الرقابة والحراسة منذ بلغت الحلم، وفرح وانتهج لبراعتها وطهرها. "يا للبننت المسكينة: أنها ستفرح وتززع في ليلة عرسها، لأنها، والحق أقول، لا تميز الرجل من المرأة إلا بلحيته وبنطلونه القصير" (14). ولكن مس هويدن نفسها على نحو آخر: "من حسن حظي، هناك عريس قادم، وإلا تزوجت الخباز، سأفعل ذلك. فما من أحد يستطيع أن يقرع الباب، ولكن حالياً يجب علي أن أختبئ، وهنا يكن الكلبة السلوقية الصغيرة تحوم حول البيت طوال اليوم، أنها تستطيع ذلك". وعندما يأتي توم فاشون ليطلب يدها، ويمهله أبوها أسبوعاً، تحتج الفتاة وتقول "أسبوع: ولماذا؟ إنني أكون عند ذلك امرأة عجوزاً" (15).

ونجحت مسرحية "النكسة" نجاحاً كبيراً إلى حد أن فانبرو تعجل إكمال "الزوجة المغيظة" (1697) وكانت هذه من أنجح أعمال ذلك العصر. وظل دافيد جارك طيلة نصف القرن التالي يتحف لندن ويمتعتها بتمثيله المستهتر لشخصية سيرجون بروت، وهي أعظم شخصية مشهورة مذكورة بين كل شخوص المسرحيات في فترة عودة الملكية. وسيرجون هذا وسيم هزلي ساخر يمثل المظاهر الأقرب شبيهاً بالخنزير في ملاك الأرض الإنجليز - يشرب الخمر، ويتباهى، ويهدد ويتوعد، ويستأسد، ويعلن ويشكو من "عصر الإلحاد اللعين هذا". ويفتح المسرحية برأيه في الزواج حيث يقول:

صفحة رقم : 10962

قصة الحضارة - عصر لويس الرابع عشر - إنجلترا - من دريدن إلى سوفيت - المسرحية في فترة عودة الملكية

"أي لحم متخم هو الحب، إذا كان متبلاً بالزواج، إن عامين قضيتهما متزوجاً قد أفسدا على حواسي الخمس. فكل شيء أراه، وكل شيء أسمع، وكل شيء أحس به، وكل شيء أشمه، وكل شيء أتذوقه، أظن أن فيه زوجة. فما ضجر ولد بمؤديه، ولا بنت ولا رجل بعمل الكفارة، ولا عذراء عجوز بطهرها وعفتها، قدر ضجري بزواجي وسأمي إياه. ومذ عرفت زوجته آراءه، فإنها تفكر في ترويضه بأن تجعل منه ديوتاً.

ليدي بروث: إنه أساء معاملتي أبلغ إساءة مؤخراً. حتى كاد يستقر عزمي على أن ألعب دور الزوجة بكل ما في الكلمة من معنى، وأجعل منه ديوتاً وأخونه..

بليندا: ولكنك تعلمين أنه ينبغي علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان.

ليدي بروث: ربما كان هذا خطأ في الترجمة (16)".

وهنا تأتي جارتها ليدي فانسيل التي تميل إلى ما تميل إليه ليدي بروث، وتناقش شكوكها ومخاوفها مع وصيفتها الفرنسية التي تحيب بالفرنسية وهي هنا مترجمة:

ليدي ف: سمعتي يا أنسة: سمعتي.

الوصيفة: سيدتي، إذا فقد المرء سمعته يوماً، فلن تعود بعد ذلك تزعجه.

ليدي ف: تبا لك يا أنسة، تبا لك، أن السمعة جوهرة.

الوصيفة: وقيمتها عالية جداً يا سيدتي.

ليدي ف: لماذا إذن، يقيناً أنك لن تضحي بشرفك من أجل متعتك؟

الوصيفة: إنني فيلسوفة.

ليدي ف: إنه لا يتفق مع الشرف (لقاء العاشقين).
الوصيفة: ولكنه المتعة....
ليدي ف: ولكن إذا كان العقل يصلح من شأن الطبيعة.

صفحة رقم : 10963

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

الوصيفة: عندئذ يكون العقل وقحاً، لان الطبيعة أخته الكبرى.
ليدي ف: إذن أنت تؤثرين طبيعتك على عقلك؟
الوصيفة: نعم، بكل تأكيد.
ليدي ف: ولماذا؟

الوصيفة: لأن طبيعتي تغمرني بالبهجة والسرور، أما عقلي فيورثني الجنون(17).
وربما كانت هذه الرواية هي التي أثارت غضب جرمي كولبير إلى حد أنه في العام الذي تلا ظهورها، نشر هجوماً عنيفاً على المسرحية في فترة عودة الملكية، وعلى فانبرو بصفة خاصة. وكان كولبير كاهناً إنجليكانياً على درجة من العلم، ومن الشجاعة والتشدد في عقيدته. وحيث كان قد أقسم يمين الولاء لجيمس الثاني 1685، فإنه أبى أن يقسم يمين الولاء لوليم وماري 1689. واستتكر "الثورة الجلية"، حتى إلى حد التحريض على التمرد والعصيان. وقبض عليه، ووجد أصدقاؤه مشقة كبيرة في إقناعه بأن يسعوا لإطلاق سراحه بكفالتهم. ومنح الغفران المطلق لرجلين كانا على وشك أن يشنقا بتهمة التآمر على ما اعتبر كولبير أنها حكومة اغتصبت الحكم. فأنكر أسقفه عليه تصرفه وأدانه النائب العام، ولكنه رفض المنول أمام أية محكمة. وعاش طريد العدالة محروماً من الكنيسة حتى وافته المنية. ولكن الحكومة قدرت نزاهته، ولم تلاحقه بعد ذلك. وعبر وليم الثالث عن تقديره الكبير للعصفة التاريخية التي قام بها كولبير.
وكان الكتاب الذي نشره كولبير يحمل عنوان "المحة قصيرة عن الانحلال والدنس في المسرح الإنجليزي". وكان يحوي، كما حوت معظم الكتب، هراءً كثيراً. واستتكر الراعي الغاضب في المسرحية الإنجليزية أخطاء كثيرة قد تبدو لنا الآن تافهة، أو أنها ليست أخطاء إطلاقاً، واعترض على أية إشارة غير كريمة لرجل الدين، ونشر في سخاء شديد، مظلة العصمة

صفحة رقم : 10964

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

من الخطأ فوق زعماء الوثنية والكهنة الكاثوليك والقساوسة المنشقين. أدان كثيراً من كتاب المسرح، من أشبلس إلى شكسبير إلى كونجريف ودرين، حتى ليشعر كل المتهمين ببراءتهم لمجرد حشرهم في زمرة هؤلاء العظماء. ولكن كولبير أضعف قضيته في مجادلته في أن للمسرح العام يجب إلا يتناول الجريمة أو الانحلال الخلقي مطلقاً. ولكنه وجه بعض ضربات ناجحة لأن الأهداف البراقة واجهته في كل مكان. فنعي على كثير من كتاب المسرح في فترة عودة الملكية ما أبدوا من إعجاب بالإسفاف في الزنى والفسق، وأثر ذلك على جمهور المشاهدين. وظل الكتاب حديث لندن طيلة عام كامل. ودافع الروائيون عن أنفسهم بأساليب متنوعة، وتحول فانبرو عن المسرحية إلى هندسة العمارة، وانهمك لأكثر من عشر سنوات في بناء قصر بلنهييم، شاد قصر هوارد على طراز عمارة بلاديرو الروماني الجميل (1714). واعترف درين بخطاياها، وأظهر ندمه على ما فعل وأنكر كونجريف جريمته، ولكنه أصلح من فنه. وبلغ وليم كونجريف بمسرحية عصر عودة الملكية ذروتها ونهايتها معاً. ولد بالقرب من ليندز في 1670، في أسرة كانت عراقتها موضع فخره واعتزازه وسط كل ما أحرز من فوز ونجاح. وكان والده قائد حامية إنجليزية في أيرلندا، ولذلك درس وليم في مدرسة كلكني، وجلس على نفس المقعد الذي جلس عليه جوناثان سويفت، ثم في ترنتي كولج في دبلن، ثم في مدل تمبل في لندن. وسرى في دمه جرثومة الطموح الأدبي من بيئة كان في فيها الأدواق أنفسهم يؤلفون الكتب. وفي أول سنة كان يدرس فيها القانون كتب "المستحفية" (1692) التي امتدحها إدموند جروس "المرحها ودعابتها الخفيفة" ولأنها أقدم قصة طويلة (عن العادات وآداب السلوك؟) في الإنجليزية (18)، ولكن صمويل جونسون قال عنها "خبر لي أن أمتدحها من أن أقرأها (19)"، وحظي كونجريف بالشهرة من

صفحة رقم : 10965

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من درين إلى سويفت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

قفزة بملهاته الأولى "الأعزب العجوز" 1693، التي أقسم درين - وهو عميد الأدب المعترف به في إنجلترا في هانتيك الأيام - بأنه لم ير قط خيراً منها، باكورة للعمل في مجال الرواية ومذ كان كونجريف غير واثق من أن الرجل الماجد ينبغي أن يكتب للمسرح، فإنه اعتذر بأنه إنما كتبها "المجرد التسلية في فترة إبلال بطئ من علة أملت به"، ومن هنا قال كولبير "ليس لي أن أتساءل ماذا كانت علته، ولكن لا بد أنها كانت خطيرة جداً، وأسوأ من العلاج (20)". أما هاليفاكس فإنه اتفق بالرأي مع درين، حتى أنه عين كونجريف في مناصب يدران عليه دخلاً كافياً يستطيع بفضلها أن يحتفظ بمكانته، سيداً كريماً، وأن يعمل في عالم المسرح. ولم تلق روايته الثانية "التاجر المخادع" (1694) ترحيباً كبيراً، ولكن إطراء درين، الذي وضع كونجريف مع شكسبير في مرتبة سواء، شد من أزر المؤلف الناشئ، وفي 1695، في سن الخامسة والعشرين، عاد إلى خشبة المسرح برواية "الحب للحب" التي فاق نجاحها كل ما عرف من نجاح. ولكن كولبير شجب الرواية واتهمها بأنها تؤيد الفسق والفجور وتشجعهما، وبلغ رد كونجريف عليه من التفاهة حداً انقطع معه عن المسرح طيلة ثلاثة أعوام، وعندما عاد إليه برواية "طريق الدنيا" (1700) كان قد أفاد من النقد القاسي، وأوضح أن الموهبة لا تعتمد على قلب الوصايا العشر رأساً على عقب. وكان في هذه الرواية التي قال عنها سوينبيرن المغالي أنها "التحفة التي لا نظير لها والتي لا تدانيها رواية أخرى في روائع الملهة الإنجليزية (21)، نقول كان فيها بعض أخطاء المسرحية في عصر عودة الملكية، ولكن ليس فيها شيء من رذائلها، وقد ترهقنا عند قراءتها بظرفها المازح الساخر، وتذكرنا بالتلاعب السخيف بالألفاظ في أعمال شكسبير الأولى، ولكن إذا مثلت (ونطق بها بترتون ومسز بريسيجردل كما حدث في أول عرض لها)، فلربما كانت أمتعتنا بما فيها من حيوية وتألق

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

يقول وتوود "أعرف سيدة تحب الكلام بلا انقطاع، ولا تترك أثراً حسناً(22)" وحبكة الرواية بالغة التعقيد، وقد تتذمر من طول الوقت المطلوب لفهم شجارات ومشروعات الشخصيات النافهة الطائشة، وحل العقدة لا يعدو أن يكون سخفاً لا حد له. ولكن في الرواية بعض تهذيب في اللغة وفي الدعابة، وتفكير لطيف (ولو أنه غير عميق أبداً)، مما يمكن أن يدخل السرور على الذهن غير المتعجل، وليس فيها سخرية لاذعة، كما هو الحال في مسرحيات فانبرو، بل فيها تهكم مهذب رقيق، تسرب من قصر فرساي إلى قصر هويت هول وإلى البلاط في فترة عودة الملكية. وفي الرواية خلق الشخصيات الروائية وتصوير لخصائصها. فالبطل، ميرابل شخص غير جذاب، ولكنه نابض بالحياة، صياد التراكات والثروات. وجدير بالذكر أنه يسعى للزواج من ميلامانت، بدلاً من إغرائها. ولكن لديها ثروة تساوي اثني عشر زانياً، وهي أجمل ما أبدع كونجريف، ماجنة عابثة تريد ألف عاشق، وتود الهيام بها لمدى الحياة، من أجل مفاتن أو جمال لن يدوم إلا لسنوات عشر، وترضى الزواج ولكن بشرط: ميلامانت: ... لاشك باميرابل أنني سأبقى في الفراش في الصباح كيفما أشاء.

ميرابل: هل من شروط أخرى تقرضينها؟
ميلامانت: توافه: - أكون حرة في تناول طعامي متى أشاء، وأتناوله وحدي في حجرة ملابسي، إذا كنت معكرة المزاج، دون إبداء الأسباب. وألا يقتحم علي أحد خلوتي. وأن أجلس "إمبراطورة" وحدي إلى مائدة الشاي التي لا يجوز لك أن تفكر في الاقتراب منها قبل أن تستأذني أولاً وأخيراً حيثما كنت ينبغي عليك أن تطرق الباب قبل الدخول. تلك هي شروطي، حتى إذا استطعت أن احتملك لمدة أطول، فقد أتضاءل شيئاً فشيئاً حتى أصبح زوجة.
ميرابل: أأست حراً أن أعرض شروطي؟

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

ميلامانت: هات أقصى ما عندك...
ميرابل: أشرت عليك أن تستمري تحبين وجهك وتعجبين به طالما أحببته أنا أو أعجبت به، حتى إذا الفته أنا، فلا تحاولي قط تشكيله من جديد.. اشترط ثانياً، أنك إذا حملت.
ميلامانت: أه: لا تذكر شيئاً من هذا.
ميرابل: وهذا هو المفروض، وليبارك الله في محاولتنا.
ميلامانت: هذه محاولة كريهة قبيحة.

ميرابل: إنني أعترض وأمنعك من ارتداء الملابس المحبوكة التي تشد جسمك لتحفظي بقوامك حتى لا تشوهي ولدي ويخرج وكأن رأسه قمع سكر (23)..
وهكذا، وتلك سفسة سارة، وهجاء معقول، يمر بخفة وسرعة، في أمان، على مظاهر الحياة.
وضرب كونجريف نفسه مثلاً لمظاهر كثيرة، مؤثراً التركيب على المادة، والتنوع على الوحدة. ولم يتزوج قط، ولكنه اختلف إلى سلسلة من العشيقات، ولم نسمع عن ذرية أشقته أو أسعدته. وكان رقيقاً لطيفاً في المقاهي والنوادي. وكان أكرم العائلات تستقبله ببالغ الترحيب. وكان أكولا، وكان يدهن قدميه ويعالجهما بانتظام من داء النقرس. وعندما زاره فولتير 1726 استنكر كونجريف إطراء الشاعر الفرنسي لرواياته، وأبدى عدم اكتراثه لها، على أنها توافه لا تستحق الذكر، وطلب إلى فولتير أن يعتبره مجرد رجل مهذب. عندئذ أجاب فولتير (طبقياً لروايته) "لو كان الأمر كذلك، وأنتك مجرد رجل مهذب، لما جنت لأراك (24)".
وفي 1728، في رحلة للاستشفاء بالمياه المعدنية في باث، انقلبت عربة كونجريف، وظل يعاني من بعض إصابات باطنية حتى وافته المنية في 19 يناير 1729. ودفن في كنيسة وستمنستر. وفي وصيته ترك مائتي جنيه لمسر بريسجيردل التي كانت تقاسي الفقر في شيخوختها، أما معظم الضيعة،

صفحة رقم : 10968

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> المسرحية في فترة عودة الملكية

أي نحو عشرة آلاف جنيه، فقد أوصى له لدوقة مالبرو الثانية البالغة الثراء، ومضيفته الأثيرة لديه، فحولت المال إلى عقد من اللألى. وكانت تضع على الدوام، في المكان الذي اعتاد الشاعر أن يجلس فيه إلى مائدتها، تمثالاً من العاج والشمع تدهن قدميه وتعالجهما بانتظام من النقرس (25).
وقيل موت كونجريف بزم طويل، كان المسرح الإنجليزي قد شرع يظهر نفسه، حيث أمر وليم الثالث مدير الملاهي والمسارح أن يمارس بشكل أشد صرامة، سلطته في رقابة الروايات أو منع عرضها. وعززت موجة من الاستياء في الرأي العام هذه الرقابة. وحرّم قانون أصدرته الملكة أن ارتداء السيدات للأقنعة في المسرح، وقاطعت النساء اللاتي حرمن هذا التستر، الروايات المجردة من الاحتشام والوقار على وجه اليقين (26).
واتفق سويفت مع الأساقفة على أن مسرح لندن وصمة في جبين الخلق الإنجليزي. وعرض ستيل روايته (العشاق الشعاعرون بالإثم) (722) على أنها مسرحية أخلاقية. وناقس أديسون وقار المأساة الفرنسية وجلالها في مسرحيته "كاتو" (1713). وثمة علامة أقدم من هذا، على التغير الذي حدث في المسرح، ظهرت في أسلوب رد دريدن على كولبير، حيث أحس دريدن أن الكاهن غالباً ما حمل على كتاب المسرح دون وجه حق، وأنه "في كثير من المواضع... فسر كلماتي بأنها تجديف وفجور، وهي بريئة من هذا كله"، ولكنه أضاف:
لن أحدث كثيراً عن مستر كولبير لأنه اتهمني في أشياء كثيرة، وله في هذا كل الحق. واعترفت بذنبي في كل الأفكار والتعبيرات التي أوردتها والتي يمكن أن توصم بحق بالفحش والدنس أو مجافاة الأخلاق الكريمة، ولا بد من سحبها. فإذا كان يناصبني العدا، فقد كتب له الانتصار علي. أما إذا كان صديقاً، حيث أنني لم أهيئ له فرصة خاصة ليكون غير ذلك، (لم أسيء إليه إساءة شخصية)، فإنه سيسر بأني ندمت (27).

صفحة رقم : 10969

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفت -> جون دريدن

3- جون دريدن

1700-1631

كان أبوه من صغار ملاك الأرض، يمتلك ضيعة متواضعة في نورثمبتونشير وأرسل إلى مدرسة وستمنستر التي علمه فيها، هو ورفيق دراسته جون لوك، الأستاذ الضليع ريتشارد بزبي Buzby كثيراً من اللاتينية والنظام والانضباط. وهناك حصل على منحة دراسية مكنته من الذهاب إلى ترنتي كولدج في كمبردج. وفي العام الذي حصل فيه على الدرجة الجامعية مات أبوه (1654) وورث جون، بصفته أكبر الأبناء البالغ عددهم أربعة عشر، الضيعة التي كانت تدر ستين جنيهاً في العام. وانتقل إلى لندن وحاول عن طريق الشعر أن يضيف شيئاً إلى دخله، احتيلاً على العيش. وفي 1659 نشر "مقطوعات شعرية بطولية" تخليداً لذكر كومول - وهو شعر تافه غير ذي قيمة بشكل ملحوظ من شاعر في التاسعة والعشرين من عمره. والحق أن دريدن نضج في بطن، وكأنه رجل يتخطى في جهد جهيد مائة عقبة ليرقى مدارج الثراء في نجاح. وبعد ذلك بعام واحد هلك الشاعر لعودة الملكية في قصيدته "عودة النجم" التي قارن فيها نجمة شارل الثاني بنجمة بيت لحم، وما كاد أحد يتجرأ على اتهام دريدن بالتقلب، لأن كل الشعراء تقريباً - عدا ملتون - ولوا ظهورهم إلى البيوريتانية ولوها شطر الملكية مع تغيير بارع لأساليبهم. ولكن دريدن كان أشد اهتماماً بالمسرح منه بمجرد نظم الشعر، حيث أثرى الكتاب المسرحيون على حين حالف البؤس والشقاء الشعراء الجدد. إن دريدن لم يكن به ميل إلى المسرحية، ولكنه كان يتطلع إلى الحصول على لقمة العيش بانتظام. وحاول كتابة الملهاة فأخرج "زير النساء الطائش" (1663) التي وصمها ببيز بأنها "أقفر شيء رأيت في حياتي تقريباً(28)". وفي أول ديسمبر 1663 تزوج دريدن من ليدي اليزابيث هوارد ابنة إرل بيركشير، وأشرأبت الأعتاق دهشاً من سيدة ذات مكانة وثراء تتزوج من

صفحة رقم : 10970

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفت -> جون دريدن

شاعر، ولكنها كانت في سن الخامسة والعشرين، وفي خطر من فوات الأوان، كما كان أخوها سير روبرت هوارد المثلهف على التأليف والكتابة، قد ضمن تعاون دريدن معه في رواية "الملكية الهندية" التي أخرجها 1664، في مشاهد بالغة البذخ، مع نجاح عظيم.

وحددت هذه المسرحية "المأساة" طوراً في تاريخ الأدب، حيث تخلت عن الشعر المرسل الذي كان سائداً في عصر اليزابيث، واستخدمت المقاطع المقفاة ذات البيتين اللذين يتكون كل منهما من خمس تفاعيل، أسلوباً منتظماً لها. وكان لورد أوريري قد تأثر بحلاوة واتساق القافية في المأساة، وأدخل هذا الأسلوب في رواياته. وعاد دريدن إلى الشعر المرسل بعد 1675، معترفاً بأن القافية تفضي إلى تعويق سيل الكلام والتفكير. ولو أنه لقي عناء أكثر في نظم الشعر لأصبح شاعراً أعظم مما كان.

وواصل نجاحه التعاوني بعمل مستقل، وهو "الإمبراطور الهندي" (1665)، وكان مونزوما بطل الرواية. وما كاد يجد لمسرحيته مكاناً على المسرح الإنجليزي حتى داهم الطاعون لندن فأغلقت المسارح أبوابها لمدة عام. ولما زال كابوس الطاعون والحريق احتفل دريدن بخروج إنجلترا من هذه المحنة المثلثة - الطاعون والحريق ثم الحرب - بقصيدة "سنة العجائب" (1666) وهي مكونة من 304 مقاطع رباعية الأبيات، تتأرجح بين الوصف الرائع (المقاطع 212-282) والتفاهة الصديانية (مثل المقطع 29) ولما فتحت المسارح أبوابها من جديد في 1666 عجل دريدن بالعودة إلى المسرحية. ولم ينتج حتى 1681 غير الروايات. وتميل مأسياته إلى أن تكون كلاماً منمقاً رناناً طناناً، ولكنه بدت لأعين معاصريه أسمى منزلة من مأسيات شكسبير (29) - ولما انضم دريدن إلى دافنانت في إعادة صياغة "العاصفة" كانت النتيجة بإجماع المشتركين فيها أن الصياغة الجديدة تنطوي على تحسين كبير للأصل. وربما اتفقت معهم "شركة الملكية" في هذا الرأي لأنها كلفت دريدن بتزويدها بثلاث روايات في السنة مقابل

صفحة رقم : 10971

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جون دريدن

حصّة في الأرباح التي بلغت 350 جنيهاً في العام. أما ملهيات دريدن، على الرغم من أنها داعرة فاحشة مثل غيرها، فإنها لاقت نجاحاً أقل من نجاح مأسياته السبع والعشرين، لأنه هذه الأخيرة استطاع أن يثير اهتمام الرأي العام في الدنيا الجديد والهميين البدائيين المدهشين فيها، وهكذا يقول المنصور في "فتح غرناطة".

"أنا حر طليق مثلما خلقت الطبيعة الإنسان لأول مرة، قبل أن يظهر قانون الاسترقاق الحقيق، حين هام النبلاء المتوحشون على وجوههم في الغابات".

وربما كان نجاح هذه الرواية بالإضافة إلى ما تضمنته رواية "سنة العجائب" من مديح منمق لشارل الثاني، هو الذي كسب لدريدن منصب موزع الملك وشاعر التاج (1670). وبلغ دخله السنوي آنذاك ألف جنيه في المتوسط.

وفي خاتمة القسم الثاني من "فتح غرناطة" زعم دريدن تفوق مسرحية فترة عودة الملكية على المسرحية في عصر اليزابيث. وذهب منافسوه، على حين قدروا له هذه التحية والمجاملة، إلى القول بأن هذا إطراء مغالياً لمسرحياته. ولم يشارك المفكرون في المدينة جمهور المسرح إعجابه وتذوقه للغة الطنانة الرنانة المسرفة في مأسيات دريدن، وأصدر دوق بكنجهام بالاشتراك مع آخرين في 1671 هجاء صريحاً تحت عنوان "التجربة" سخر كثيراً من المستحبات والحماقات واللغة الطنانة المنمقة في المأسيات المعاصرة، وبخاصة ما كتبها دريدن. وأحس الشاعر بأنها لطمة له، ولكنه كظم غيظه لمدة عشرة أعوام. وبعدها شهر بالدوق بكنجهام أيما تشهير في شخصية "زمرى" في أقوى أبيات رواية "أبسالوم وأخيتوفل".

وفي الوقت نفسه عملت دراسته لشكسبير على تحسين فنه. وفي أروع مأسياته (كله من أجل الحب) (1678) تحول عن راسين والقافية إلى

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جون دريدن

شكسبير والشعر المرسل. وأفرغ كل جهده وبراعته في أن يبارى ما كان منه في عصر اليزابيث، بصفة عامة، وعرض في ثوب جديد قصة أنطونيو وكليوباترة التي فقدت الدنيا من أجل قصة غرام قصيرة. ولو أن الرواية القديمة لم توجد لحظيت رواية دريدن بثناء وإعجاب أكبر، ففي مواضع كثيرة منها ترتفع من الكلام الشديد البساطة إلى الشعور النبيل المكظوم، كما يتمثل في قدوم أوكتافيا إلى أنطونيو لتعرض عليه صفح أوغسطيني عنه (30). ورواية دريدن محكمة في إيجاز، بقصد مراعاة الوحدات، ولكنه بتضيق الحدث في أزمة واحدة في مكان واحد ثلاثة أيام، اختزل الفكرة الرئيسية البطولية إلى قصة غرام، وضيع المشهد الكبير الذي رأى في "أنطونيو وكليوباترة" (لشكسبير) أن هذه القصة الغرامية ليست إلا جزءاً من الأحداث التي هزت عالم البحر المتوسط وشكلته. وأكثر الجوانب إمتاعاً وتشويقاً اليوم في مسرحيات دريدن هي المقدمات التي قدمها بها مطبوعة، والأبحاث التي شرح فيها وجهات نظره في الفن المسرحي. وكان كورني قد ضرب له المثل، ولكن دريدن جعل منه مجالاً لنثر رائع. وأنا إذ نمر مرور الكرام بهذه الأبحاث الموجزة وهذه الحوادث القوية، نلمح أن عصر الخلق والإبداع في الأدب الإنجليزي كان يعبر إلى عصر النقد الذي قد يبلغ ذروته في بوب. ولكن إجلالنا لتفكير دريدن وعقليته يزداد إذ نراه يسير في رشاقة ورفق غور أسلوب المسرحية ومعالجة تفاصيلها، وفن الشعر، ويقارن في مقدرة فائقة على التمييز والمقارنة، بين المسرحين الفرنسي والإنجليزي. وأنتك لتري في هذه المقالات والبحوث أن الالتواء المثير في النثر في عصر اليزابيث، والجمال الطنانة المتركمة عند ملتون، كل أولئك يفسح الطريق لأسلوب أبسط وألسس وأكثر تنظيمياً ومنهجية، أسلوب خلا من التراكيب، اللاتينية، وزاده صقلاً التعرف على الأدب الفرنسي، لم يجار الأناقة الفرنسية كل المجارة قط، ولكنه أخرج إلى القرن الثامن عشر - قرن النثر - نماذج

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جون دريدن

من كلام يتميز بالصفاء والروعة والسلاسة وسحر البيان، وعدم التكلف والقوة. وهناك اتخذت المقالة الإنجليزية شكلها، وبدأ العصر الكلاسيكي (النموذجي الممتاز) للأدب الإنجليزي. ولكن إذا كانت مقالات دريدن تبدو الآن أعلى مكانة من الروايات التي كانت سبباً في كتابة المقالات، فإنه في الهجاء ساد عصره وأرهبه. وربما وقع حادث أطلق لسانه اللاذع ذلك أنه في 1769 وزع جون شفيلد إرل ملجريف نشرة مخطوطة بعنوان "مقال في الهجاء" لا تحمل اسم كاتبها، هاجمت إرل روشستر، ودوقة بورتسموث (لويزدي كيرروال) بلاط شارل الثاني بصفة عامة. واتجه الظن خطأ إلى أن كاتب المقال هو دريدن الذي كان آنذاك يحصل على معظم دخله من الملك. وفي ليلة 18 ديسمبر في "زقاق روز - كوفنت جاردن" هجم على دريدن نفر من السوق وأوسعوه ضرباً بالهراوات، والمفروض أن روشستر استأجرهم لهذا الغرض، ولو أن هذا لم يثبت على سبيل اليقين. وكان دريدن رجلاً ودوداً كريماً مستعداً لمد يد المعونة وكيل المديح. ولكن نجاحه وغروره وإفراطه في التحدث عن نفسه وتوكيداته الخلافية، كل أولئك جلب عليه عداوات كثيرة. واحتمل دريدن لبعض الوقت حملاتهم عليه، دون

رد علني منه، بل أن "كمين زقاق روز" لم يلق استجابة سريعة من قلمه. ولكن في 1681 جمع عديداً من أعدائه في مرجل واحد وسلقهم بالسنة حداد، في أذع هجاء عرف في اللغة الإنجليزية.
وتلك هي السنة التي حاول فيها شافستيري أن يقوم بثورة ليخلف ابن شارل الثاني غير الشرعي أباه على العرش وعندما ظهر القسم الأول من قصيدة "أبسالوم وأخيتوفل" وكان شافستيري على وشك أن يقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى. وانحاز هجاء دريدن إلى جانب الملك، وربما كان بإيعاز منه(31). وهزأ الشاعر من شافستيري في شخص أخيتوفل الذي يحرض

صفحة رقم : 10974

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> جون دريدن

أبسالوم (وهو دوق مونموث) على الثورة ضد أبيه داود (شارل الثاني). ولما كان داود وشارل كلاهما قد أحبا عدداً من النساء، فإن القصيدة تبدأ ببحث في قيمة تعدد الزوجات:
"في عهد التقى والورع، قبل ظهور الكهنة وأساليبيهم، وقبل أن يصموا تعدد الزوجات بأنه خطيئة، وحين تكاثر الإنسان بتعدد زوجاته وقبل أن يقتصر الواحد على واحدة بشكل بغيض. وحين استحتت الطبيعة - ولم يمنع أي قانون - على معاشره الخليلات والزوجات دون تمييز، وحين عاش ملك بني إسرائيل، برضا السماء، على الزوجات والإماء من مختلف الأنحاء، في قوة وحيوية، ونشر صورة خالقه على أوسع نطاق على الأرض، بأمره".
ويتهج داود بجمال ابنه أبسالوم. وكان مونموث، حتى قيام الثورة، قرّة عين أبيه الملك السعيد (شارل الثاني)، أما بنو إسرائيل فهم الإنجليز (في القصيدة):
جنس عنيد متقلب متذمر، أرق النعمة الإلهية إلى آخر مداها، شعب الله المدلل الذي انغمس في الملذات والشهوات، والذي لم يستطع أن يحكمه ملك أو يرضيه إله(32).
وأستروفل هو رئيس شياطين الخيانة، وتتحقق لندن لفورها أنه شافستيري:
وكان على رأس هؤلاء جميعاً أخيتوفل الكاذب، وهو اسم ملعون كرهه على مر العصور، أهل لكل التدابير الخفية والمشورات الملتوية، ذكي جرئ مضطرب الحواس، قلق، لا يثبت على مبدأ ولا يستقر في مكان غير راض إذا تملك وتسلط، ضائق صدره إذا تجرد من سلطانه، يحمل بين جنبه نفساً محمومة مضطربة أنهكت وأبليت جسم القزم وهي تشق طريقها. ضاق بها جسده الهزيل. قائد جسور لأخطر الأعمال اليايسة، يطرب للأخطار

صفحة رقم : 10975

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> جون دريدن

حين ترتفع الأمواج. أن يلتمس الأعاصير والزوابع، لأنه لا يحب الهدوء يدني سفينته من الرمال بظننته وذكائه. يقيناً أن ذوي المواهب العظيمة قرييون من الجنون ولا يفصله عنهم إلا حواجز رقيقة. وإلا لماذا - وهو ذو الثراء العريض والمناصب الرفيعة - يرضن على شيخوخته بما تحتاج من راحة ودعة؟.. لا يقيم على ود ولا يخلص في صداقة، عنيد حقود في عدائه وبغضه، مصمم على أن يدمر الدولة أو يحكمها هو (33).

ثم يجيء دور الانتقام من دوق بكنجهام و "التجربة":
ويقف على رأس هؤلاء (العصاة الثائرين) زمري، وهو رجل متعدد الجوانب، حتى أنك لا تحسبه واحداً، بل صورة مصغرة لكل بني البشر، جامد الرأي، يجافي الصواب دائماً. كان يندفع في كل أعماله، ولكنه لا يثبت على حال. وخلال قمر منير واحد، كان الكيميائي والعازف، ورجل الدولة والمهراج. ثم ينصرف بكلبته إلى النساء والتصوير، والشعر والشراب، فضلاً عن عشرة آلاف نزوة تموت في المهدي.. وكان تبديد المال فناً خاصاً برع فيه. أغدق على كل الناس إلا من يستحقون المكافأة، أفقره الحمقى المهرجون الذين اكتشفهم بعد فوات الأوان. وحظي هو بالمرح، وحصلوا هم على ماله وضيعته (34).

ولم تر إنجلترا قط من قبل مثل هذا الهجاء اللاذع الذي لا يرحم، الذي يركز كل التشويه والتجريح في سطر واحد، ويترك جثة ممزقة مهشمة فوق كل صفحة. وبيعت القصيدة بالمئات خارج نفس المحكمة التي كان يحاكم فيها شافنبري، مخاطراً بحياته. وقضت المحكمة ببراءته فصك أشياعه الأحرار (الهوريج) "ميدالية" تمجيداً له. وانبرى عدد من الشعراء والكتاب يتزعمهم توماس شادويل لإصدار ردود ظافرة على الرجل الذي أيقنوا أنه باع عقله، ولسانه السليط وبيانه الكاوي إلى الملك. وعاود دريدن الكرة بهجاء آخر، "الميدالية" (مارس 1682) سلق فيه شادويل، بصفة خاصة، في قصيدة "ماكفلكنو" (أكتوبر). وهنا كان الذم

صفحة رقم : 10976

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جون دريدن

والقدح أنكى وأمر، فانحط أحياناً إلى شتائم لفظية صريحة، لم تتميز، مثل الهجاء السابق، بمقاطع فاصلة تنشر السم في دقة دون إسراف أو إسفاف.
إننا لا نستطيع اليوم هذا اللون من "الذبح" الأدبي ولم نعد نتذوقه إلا قليلاً، وإننا لنرتاب بعد قرون من الجدل والمناقشة، في أن هناك بعض الصدق في كل عاطفة أو هوى، وأن في كل خصم أو عدو شيئاً محبباً. وما السياسة حتى في أيامنا هذه إلا حرب بوسائل أخرى، أكثر بكثير مما كانت حين كان عرش أسرة ستيوارت يترنح على حافة الثورة، وكان الظهور إلى جانب الفريق الخاسر المنهزم قد يعني الموت المحقق. وعلى أية حال، فإن دريدن بذلك الهمة، مما أكسبه امتنان الملك ودوق يورك، ولم ينازعه أحد آنذاك التربع على عرش مملكة الشعر. وكانوا يحجزون له - إذا قصد إلى "حانة ول Will" مقعداً إلى جانب المدفأة في الشتاء. وفي الشرفة صيفاً، وهناك رأى بيير وسمع "أحاديث طريقة ذكية" (35) "وصورة سير والتر سكوت، في خيال مبدع، وهو يدخل إلى هذه الحانة، "رجل عجوز بدين قليلاً، ذو شعر أشيب، يرتدي حلة سوداء بالغة الأناقة، محبوبكة الأطراف وكأنها قفاز، تشرق في وجهه أرق ابتسامة رأيتها في حياتي" (36) "وكان الإنحاء تحية لشاعر التاج والاستماع إلى رأيه في آخر مأساة أخرجها راسين... يعتبر ميزة، كما كانت القبضة من علبة سعوطه شرفاً كفيلاً بأن يريك المتحمس الناشئ. وكان كل العطف بعينه بالنسبة لأصدقائه، ولكن ما كان أسرع في كيل السباب لمنافسيه وخصومه (37) (وما كان لأحد أن يبزه في إطراره شعره). إن تملقه للملك وليدي كاسلمين ولكل أولئك الذي يجزلون له العطاء مقابل الإهداء إليهم، جاوز الحد المألوف من الاستسلام الذليل في مهنته في عصره (38). ومع ذلك فإن كونجريف بادلته التشجيع بمثله حين وصفه بأنه "بالغ الإنسانية والرحمة، مستعد أن يغتفر الإساءة، أهل للتراضي بإخلاص مع من أساء إليه (39)".

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جون دريدن

والآن، وقد آذن جسمه بالضعف والانحلال، بدأ الشاعر يفكر في الدين بشكل أكثر انعطافاً وميلاً، مما كان عليه في سني القوة والفتوة والزهو والغرور. لقد اندفعت مسرحياته وقصائده هجائاً اندفاعاً طارناً بين هذا وذاك من مختلف المذاهب الدينية، أما الآن، وقد ربط الشاعر مصيره بالمحافظين (الملكيين - التوري)، فإنه تحول إلى الكنيسة الأنجليكانية بوصفها ركيزة للاستقرار في إنجلترا، مستنكراً عدوان العقل المتغطرس على هذا الحرم المقدس، ألا وهو الإيمان والعقيدة. وفي نوفمبر 1682 أدهش أصدقائه الدنوبيين بنشره قصيدة "الدين والدنيا" دفاعاً عن الكنيسة الرسمية. وبداله أن الكتاب المقدس المنزل، بل وكنيسة معصومة من الخطأ تفسره وتكمله، دعامتان لا غنى عنهما للمجتمع ولسلامة العقل. وكان على علم بالخلافات وبالجدل بين الربوبيين، وكان رده عليهم أن شكوكهم إنما تعكر صفو النظام الاجتماعي المعقد الذي لا يمكن أن يدعمه إلا قانون أخلاقي تقره عقيدة دينية. لأنه لا قيمة ولا فائدة في تعلم النقاط الغامضة، أما السلام العام فهو كل ما يهم العالم. وتلك حجة كان يمكن أن تخدم قضية الكنيسة الكاثوليكية أيضاً، وتابعها دريدن إلى غايتها بتحوله إلى الكاثوليكية 1686. ولسنا ندري إذا كان لاعتلاء ملك كاثوليكي العرض في السنة السابقة، ولتلهف الشاعر على الاستمرار في الحصول على رواتبه - نقول لسنا إذا كان لهذا الأمر أو ذلك دخل في هذا التحول (40). على أن دريدن على أية حال، صب كل فنه - الشعري ليشرح وجهة النظر الكاثوليكية في قصيدة "الأيلة والنمرة" "The Bind and the Panther" (1667) وفيها "أيلة ناصعة البياض" تدافع عن المذهب الكاثوليكي، ضد نمرة "هي أجمل النوع المرقط" التي تمثل المذهب الإنجليكاني. وكانت صورة حيوانين من ذوات الأربع يناقشان موضوع الوجود الحقيقي في القربان المقدس مدعاة للسخرية (42) والتسخيف

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جون دريدن

سرعان ما أثارهما ماتيو برير Prior ولورد هاليفاكس في محاكاة تهكمية تحت عنوان "الأيلة والنمرة تنقل إلى قصة فأرة القربة وفأرة المدينة" (1687). وفي 1688 فر جيمس الثاني إلى فرنسا. ووجد دريدن أنه يعيش من جديد في ظل ملك بروتستانتي، فلزم مذهبه الجديد، وكان أولاده الثلاثة يعملون في روما تحت إمرة البابا. كما أن الردة إلى مذهب آخر أمر غير مقبول، فاحتمل في شجاعة وجلد فقدانه لمنصب شاعر التاج ولراتبه ولوظيفته "مؤرخ الملك"، على أن التاريخ، زاد من أحزانه، لأنه أضفى كل هذه المناسبات والشرف على شادويل الذي توجه دريدن ملكاً على الهراء، وصوره نموذجاً للغيباء. وعاد في شبخوخته يكسب بقلمه قوت يومه. فكتب مزيداً من الروايات، وترجم مختارات من تيو كريستس وهوارس وأوفيد

وبرسيوس، وأخرج الأبيادة في شعر بطولي في أداء غير محكم، ولكنه سلس، ونقل بأوزانه الشعرية الخاصة بعض أساطير هوميروس وأوفيد وبوكاشيو، وتشوسر. وفي 1697 وهو في السابعة والستين نظم قصيدته المشهورة "وليمة الاسكندر Alexanders Feast، التي حظيت بأعظم الثناء والإطراء. ووافته المنية في أول مايو 1700، وشهدت جنازته اضطراباً شديداً، وتنازعت الشيع المتنافسة جثمانه، وأخيراً ووري التراب إلى جانب تشوسر في كنيسة وستمنستر. ومن الصعب أن تحب هذا الشاعر، فكل الظواهر تقول بأنه كان انتهازياً نفعياً متقلباً، امتدح كرومول في فترة الحماية، وكان المديح لشارل الثاني وخليلاته، وأثنى على البروتستانتية في عهد ملك بروتستانتية، وأطرى الكاثوليكية في ظل ملك كاثوليكي، وألتمس موارد كسب المال بكل الطرق، وجلب على نفسه عداوة كثير من الناس، مما لا بد معه أن يكون ثمة شيء يكرهه الناس فيه. وجرى كل منافسيه في إباحية رواياته وتحررها من كل القيود، وفي تورعه في شعره. وبلغت قوته في الهجاء مبلغاً يستدر العطف على ضحاياه، مثل العطف على الشهداء وهم يحترقون على الخازوق. ولكن

صفحة رقم : 10979

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفت -> جون دريدن

لا جدال في أنه كان أعظم الشعراء الإنجليز في جيله. وكتب معظم شعره لا جدال في أنه كان أعظم الشعراء الإنجليز في جيله. وكتب معظم شعره في المناسبات، وقلما حفظ الزمن شعراً نظم للمناسبات. ولكن هجاءه لا يزال حياً، لأن أهدأ غيره لم يستطع أن يأتي بمثل هذا الهجاء الذي صور الشخصيات في ازراء قارص وسخرية لاذعة. وطور المقطع الشعري ذا البيتين إلى درجة من الإيجاز المحكم والمرونة، سيطرت على الشعر الإنجليزي طيلة قرن من الزمان وكان أثره على النثر أقوى، حيث نفاه من التراكيب المزعجة والمصطلحات الغريبة، وضبطه على درجة ممتازة من الصفاء والسهولة. وكان معاصروه على حق حين كانوا يرهونونه أكثر مما يحبونه. ولكنهم أدركوا في فنه في صناعة الأدب والكتابة، وملكاً على عرش القوافي، فكان بن جونسون الروائي، ودكتور صمويل جونسون الكاتب، في وقت معاً، في عصره.

صفحة رقم : 10980

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفت -> في ثبت واحد

4- في ثبت واحد

والآن نجمع في قائمة غير نابضة بالحياة بعض الشخصيات الأصغر شأناً الذي أمدوا هذه الفترة بالحياة وبالآداب، ولكننا لن نستطيع أن نمكث معهم طويلاً لننتبع جرى حياتهم. وأعظم قصيدة في الجانب الوثني من فترة عودة الملكية كانت ملحمة بيوريتانية، ولكن أشهره هي ملحمة هجاء ساخر ضد البيوريتارية: " هو دبراس" (1663-1678). ذلك أن الشاب الفاجر، صمويل بتلر، قضى عدة سنوات مضنية في خدمة سير صمويل لوك، وهو مشيخي (برسبتيريان) متحمس غيور، ضابط برتبة زعيم في جيش كرومول، كان مقره في "كوبل هو"، وهي قلعة بيوريتانية للسياسة والعبادة. وعندما عادت الملكية ثار بتلر لنفسه بنشر هجاء مرح، يصور فيه كيف أن سير هو دبراس الفارس المغوار يقود سيده صاحب الأرض "الفو" إلى حرب

صفحة رقم : 10981

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويقت -> في ثبت واحد

صليبية ضد الخطيئة والإثم. وتستطيع أن تحكم منذ بداية القصيدة عليها. "حين اشتدت ثورة الغضب والحقد بين الناس لأول مرة وتشاجروا لأنهم لم يدركوا السبب، وحين أشعلت الكلمات النابية والأحقاد والمخاوف نار الحرب بين الجماعات وجعلتهم يقتتلون كالمجانين أو المخمورين، من أجل "السيدة: الديانة" وكأنما يقتتلون من أجل عاهرة فاجرة... وحين أعلن نافخ البوق الإنجيلي يحيط به الرعاع ذوو الأذان الطويلة، النفير من أجل الحرب، ودقت طبول المنبر والكنيسة بجماع الأيدي بدلاً من العصي. عندئذ غادر السيد الفارس مسكنه وامتنى صهوة جواده منترعاً الركب... وكان كثيرون من الناس يرون، أنه كما اشتكى مونتاني من أن قطته حسبته، وهو يداعبها، حماراً، فلا بد أن القطة تحسب هو دبراس حماراً أو أكثر من حمار، وإنا لنسلم بأنه على الرغم مما أوتى من ذكاء شديد، فإنه يخجل من استخدامه، وكأنما يكره أن يستنفذه وبيليه، ولذلك لم يظهره أو لم يلبسه إلا في أيام العطلة أو ما يشابهها، كما يرتدي الناس أحسن ملابسهم... وكان من الملائم، من أجل عقيدته، أن يوفق بين علمه وذكائه، وكان مذهبه مشيخياً صادقاً متشدداً، لأنه كان من بين العصبة العنيدة من القديسين الضالين الذي يقر الناس جميعاً بأنهم المناضلون الصادقون عن الكنيسة المجاهدة التي يبنون عقيدتهم على الرمح والمدفع، ويحسمون كل الخلافات بمدفعية لا تخطئ المرمى، ويثبتون صحة نظريتهم بالضربات واللكمات الرسولية... فرقة تتمثل أعظم تقواهم في كراهياتهم الحمقاء الضالة، الشاذة فرقة تحرص على الخطأ في يوم العطلة أكثر من حرص سائر الناس على الصواب، مجمعة على الخطايا التي فطرت عليها، تلعن أولئك الذي لا يفكرون فيها(43). وهكذا مما ألم البيوريتانيين أيما إيلام وسر الملك كل السرور. ومنح شارل المؤلف جائزة قدرها ثلاثمائة جنيه. وامتدح كل الملكيين القصيدة فيما عدا بيبز الذي لم يستطع "أن يتبين موضع العبقرية فيها"، على الرغم من أنها تعتبر الآن من أحدث طراز من الهزل والسخرية(44)، وبادر بتلر

صفحة رقم : 10982

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويقت -> في ثبت واحد

إلى الاستزادة من الكتابة (1664-1678)، ولكن لم يعد في جعبته سهام، ولم تسعفه القوافي. وحل النزاع بين البروتستانت والكاثوليك محل النزاع بين الملكيين والبيوريتانيين. ونسي القوم بتلر، وقضى نحبه مغموراً معدماً (1680). وبعد أربعين عاماً أقيمت له لوحة تذكارية في كنيسة وستمنستر، تحمل هذه العبارة "طلب الخبز فمنح حجراً(45)".

وخير من هذا الشعر الهزلي المعتل الوزن الذي يتصيد القوافي، نثر كلارندون الفخم في كتابه "تاريخ الثورة" الذي ظهر في 1702 على الرغم من أنه كتب في 1646 - 1764 - وشهد الناس في عهد الملكة أن مقدار العناية التي بذلت في تأليف هذه المجلدات الثمانية، وروعة أسلوبها، وكيف كان تصوير الشخصيات أخذاً، وكيف كانت روح قاضي القضاة الذي ضرب قديماً، عالية. وبالمثل لعب جلبرت بيرنت دوراً ليس بهزيل في كتابه "تاريخ زمانه" الذي لم ينشر، بأمر منه، إلا بعد وفاته 1724. أما كتابه "تاريخ إصلاح كنيسة إنجلترا" (1679، 1681، 1715) فكان عملاً أضخم، وكان ثمرة بحث طويل، وظهر في وقت كانت فيه إنجلترا البروتستانتية تخشى إحياء الكاثوليكية. وقدم له مجلسا البرلمان كلاهما الشكر عليه. ووجد فيه الأعداء والمحررون ألفاً من الأخطاء. ولكنه لا يزال يحظى بمن يشايه وينتصر له، وفي بعض الأحيان يكون موضع ذم وطعن. ولكنه يظل أعظم مرجع في موضوعه، وحاول بيرنت أن يوسع دائرة التسامح الديني، فكسب عداة السوق.

وسعى ثلاثة رجال آخرين إلى تكبير الحاضر بأن يضيفوا إليه صوراً من الماضي. وطاف توماس فولر Faller بأرجاء الأرض الحبيبة منتقلاً من بلد إلى بلد، حيث جمع كتابه "تاريخ مشاهير الرجال في إنجلترا (1662)، وأحيا أبطاله الأموات بما روي عنهم من فذلكات وحكايات ودعاية وذكاء، وبما كتب على شواهد قبورهم. وقص أنتوني وود تاريخ أكسفورد، وجمع ثباتاً حوى سير حياة خريجها، والمؤلفات القيمة

صفحة رقم : 10983

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويقت -> في ثبت واحد

التي اقتبس منها كثير من المؤلفين خلسة. وجمع جون أوبري شذرات ممتعة عن نحو 426 من مشاهير الإنجليز، على أمل أن ينسق هذه المادة المجموعة في تاريخ كامل، ولكن الخمول والمنية حالتا دون طبع "سير الحياة" قبل 1813(46). وقد شجعتنا ذخائره على المضي في طريقنا. وهناك الكولونيل (الزعيم) جون هشتشون، وهو بيوريتاني أيد إعدام شارل الأول، وزج به شارل الثاني في السجن، وما أن أخلى سبيله حق عاجلته المنية، وخلدت أرملته لوسي ذكراه في كتاب "حياة كولونيل هتشنسون" وهو كتاب لطيف رفع من مكانة صاحب السيرة. ولكن لوسي كان يعيها الوقفات الطويلة فكانت عباراتها أحياناً تمتد إلى صحيفة كاملة. أما جون أريوتتوت، الطبيب البارع، والصديق المخلص لسويقت وبوب والملكة آن ولكثيرين غيرهم، فإنه انضم إلى حملة المحافظين لوقف الحرب مع فرنسا، بأن أصدر في 1712 سلسلة من النشرات يهجو فيها الأحرار، ويصف شخصية خيالية هي "جون بول" الذي أصبح منذ ذلك رمزاً على إنجلترا. ويقول جون أريوتتوت عن جون بول:

"أنه شخص أمين شريف صريح في التعامل مع الناس، سريع الغضب، جريء، منقلب المزاج.. إذا تملقته ولأطفته كان سلس القياد، إن مزاج جون يعتمد كثيراً على الهواء، فيرق مزاجه أو يتكدر تبعاً لحالة الجو. وكان جون ذكياً. يدرك مهمته تمام الإدراك، ولكن ليس على قيد الحياة إنسان أشد منه إهمالاً في إمعان النظر في حساباته، ولا أكثر انخداعاً بشركائه أو غلمانه أو خدمه. ذلك لأنه رقيق مرح، مولع بالخمر واللهو والتسلية. والحق أنه لا يوجد إنسان أشد عناية ببيته ولا أكثر سخاء في الإنفاق من جون(47)".

وماذا عسى أن يقول سير وليم تمبل إذا وجد أنه اختزل في فقرة من فصل بلغ الذروة بسكرتيره؟ ربما قال- إذا سمحت له آدابه الرفيعة - إن المؤرخين أهملوه لأنه لم يحتفظ بامرأتين تطمعان في الزواج، حتى قضت

صفحة رقم : 10984

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> في ثبت واحد

إحداهما نجبها، وأنهكت الأخرى، أو لأنه لم يبع قلمه لوزراء المحافظين استياء من الأحرار، أو لأنه لم يغمس هذا القلم في دم البشر، ولكن خدم وطنه في هدوء دبلوماسية ناجحة، وفي عصر ساد الفساد والفجور، ضرب لإنجلترا مثلاً صادقاً غير مصطنع لحياة أسرية تزينها الحشمة والوقار. وظل لمدة سبع سنين يتودد إلى دوروثي أوزبورن التي أصبحت رسائلها الرفيعة إليه قطعاً من الأدب الإنجليزي(48) وارتضته زوجاً لها رغم معارضة أسرتهما. وتزوجها بعد أن شوه الجدري جمالها. ودخل تمبل معترك الحياة السياسية، ولكنه أثر الأعمال التي نأت به عن حمى لندن، وتجنب "العبودية المضنية التي تثير البغض والحسد، والتي تحصى فيها الحركات والسكنات، والتي يطلقون عليها من قبيل السخرية والاستهزاء، والسلطة والنفوذ(49). وكان من أوائل، من حذروا من أطماع لويس الرابع عشر التوسعية، وكان المخطط الرئيسي للحلف الثلاثي الذي وقف في طريق الملك الفرنسي 1668، وعرضت عليه الوزارة في 1674 و 1677 ولكنه أثر منصبه الدبلوماسي في لاهي. وأدت مفاوضاته الموسومة بالحصافة والنظر الناقد إلى زواج ماري ابنة جيمس الثاني من وليم الثالث الذي أصبح ملكاً فيما بعد. وهو الزواج الذي مهد الطريق "للثورة الجليلية". وفي 1681 اعتزل السياسة وانصرف إلى الدراسة والتأليف في "موربارك" ضيعته في "سري" وحسبه سويفت جامداً متحفظاً، على أنه ملاك الرحمة والكياسة واللفظ. وأهم أبحاثه "المعرفة قديمها وحديثها" (1690)، الذي رفع فيه من ذكر الأقدمين وانتقص من قدر العلم الحديث والفلسفة الحديثة، في شخص نيوتن وهويز وسبينوزا وليبنتز ولوك. وتصيد بنثلي الكاتب خطأ جسيماً. فأوى سير وليم إلى حديقته، وتسلى بأبيقور ولسوف نلتقي به ثانية.

صفحة رقم : 10985

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> إيفلين وبييز

5- إيفلين وبييز

اتفق جون إيفلين مع تمبل في أنه إذا دخلت الأحزاب في الدولة وتعمقت جذورها فيها، فمن الحمق عندئذ أن يتدخل أفضل الرجال في الشؤون العامة (50) "ولما بدأت الحرب الأهلية رأى أنه قد أن الأوان للرحيل. وغادر إنجلترا في يولييه 1641. ولكن وخز الضمير أعاده إليها في أكتوبر، وانضم إلى جيش الملك في برنتفورد ليشترك في الإنسحاب في نفس الوقت الذي وصل فيه. وبعد شهر من الخدمة في الجيش أوى إلى ضيعة أبويه في ووتون في سري. وفي 11 نوفمبر 1643 عبر البحر ثانية إلى القارة. وطاف على مهل بأرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولندا، ثم قفل راجعاً إلى فرنسا. وفي باريس تزوج من فتاة إنجليزية. وتنتقل لبعض الوقت بين فرنسا وإنجلترا، حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها، حيث عاد إلى الوطن (6 فبراير 1652). ورشا حكومة كرومول لتتركه وشأنه. وتبادل الرسائل مع شارل الثاني في منفاه، وفي 1659 بذلك جهداً جباراً للتعجيل بعودة الملكية. وبعد ارتقاء شارل الثاني عرش إنجلترا أصبح إيفلين شخصية مرموقة في البلاط، ولو أنه دمغه بالانحلال والفساد، وشغل بعض المناصب الحكومية الصغيرة، ولكنه في معظم الأحوال أثر أن يغرس الأشجار ويؤلف ثلاثين كتاباً في بيته الريفي. ودون كل شيء من لوكريشس إلى سبتاي زيفي. وعجز كتابه "المبخره" عن تنقية هواء لندن، ولكن في كتابه "أشجار الغابات" دعا دعوة حارة إلى إعادة تشجير إنجلترا، وحث الحكومة على غرس الأشجار في مختلف أنحاء لندن، التي تعد أشجارها اليوم من أعظم مفاخرها ومباهجها. أما كتابه "حياة مسز جودولفين"، فهو مثل أعلى في فضائل النساء وسط عريضة عودة الملكية وصخبها.

ومن 1641 إلى 3 فبراير 1706، قبل وفاته بأربعة وعشرين يوماً دون إيفلين في مذكراته كل ما رأى وسمع في إنجلترا أو في القارة. وبوصفه

صفحة رقم : 10986

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> إيفلين وبييز

رجلاً من ذوي المكانة لم يكن في مقدوره أن يسجل من الخطايا أو الآراء الشخصية جداً، مثل تلك التي تغرينا بقراءة "مذكرات" بييز المسهبة، ولكن وصفه لمدن أوروبا ساعدنا كثيراً على اكتناه ماهية العصر. ففي مذكرات إيفلين صفحات رائعة عن "ممر سمبلون (51)" وكان في بعض الأحيان يفصح عن مكنون صدره في قطع تقيض بالحب والحنان والرقعة، مثلما كتب عن وفاه ابنه وهو في سن الخامسة. ولم تنشر مذكرات إيفلين إلا في 1818. إن إشارات إيفلين إلى بييز في مذكراته أدت إلى فحص المجلدات الستة المكتوبة بطريقة الاختزال، والتي كان بييز قد أوصى بها لكلية مجدلن في كمبردج. وحلت رموز المذكرات التي بلغ عدد صفحاتها 3012 بعد ثلاث سنوات من جهد شاق، ونشرت في 1825، بعد اختصارها وتنقيتها. وهي الآن ولو أنها لم تستكمل، تملأ أربعة مجلدات ضخمة. على أنها جعلت من بييز شخصية من أكبر الشخصيات المعروفة في التاريخ بالصراحة وعدم الصحة. أما من حيث الصراحة، فمن الواضح أنه قصد أن تنشر المذكرات إذا قدر لها أن تنشر - بعد وفاته، لا قبلها - ولهذا حوت تفاصيل كان ينبغي كتمانها في حياته، ولا يزال بعضها "غير قابل للنشر". أما عدم صحتها، فيرجع إلى أنها تتناول حقبة نقل عن عشر سنوات (1 يناير 1660 - 31 مايو 1669) من حياة بييز، ولم تورد سرداً وافياً لعمله في أركان حرب القوات البحرية الإنجليزية، حيث تدرج في أعمال ازدادت أهمية من 1660 إلى 1689، وبعد وفاته بزم من طويل تذكره وكرموا على أنه رجل إدارة قدير نشيط مجد.

وكان أبوه خياطاً (ترزياً) في لندن، وكان ابناً صغيراً لأحد الملاك اتجه إلى العمل والتجارة لأن الابن الأكبر ورث الضيعة طبقاً للقانون. ودخل صمويل كمبردج على منحة، وحصل على درجتي الليسانس والأستاذية، ولم تسجل له أية عقوبة، إلا تأنيب علني "لأنه شوهد يوماً يحتسى الخمر

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> إيفلين وبييز

بشكل مخز"، ومرة أخرى لأنه كتب قصة "الحب خداع" التي أعدمها فيما بعد. وفي سن الثانية والعشرين (1655) تزوج من اليزابيث سان ميشيل ابنة أحد الهيجونوت. وفي 1658 أجريت له عملية "الحصاة في الكلى" ونجحت العملية وظل يحتفل بذكرى نجاحها سنوياً بعد ذلك، تعبيراً عن الحمد والشكر، كما يظهر من السنوات المسجلة في مذكراته.

وكانت هناك صلة قرابة بعيدة تربطه بسير أدوارد مونتاجو، فعين ببيز سكرتيراً له، (1660) ورافقه صمويل في الأسطول الذي قاده لإحضار شارل الثاني من المنفى. وقبل أن ينصرم هذا العام عين ببيز كاتباً للعمليات في إدارة البحرية. فتأثر على دراسة الشؤون البحرية بالقدر الذي سمح له به مطاردته للنساء. ومذ كان رؤساؤه منكبين أيضاً على هذه الرياضة القديمة، فإنه سرعان ما أصبح أكثر دراية بتفاصيل البحرية من أميرى البحر كليهما (مونتاجو ودوق يورك) إلى حد أنهما اعتمدا على معلوماته. وفي أثناء الحرب مع هولندا (1665-1667) نجح نجاحاً مشهوداً في تموين الأسطول، وعند تقشي الطاعون لزم عمله في الوقت الذي فر فيه معظم موظفي الحكومة. وفي 1668 حين حمل البرلمان على إدارة الأسطول، وكل إلى ببيز أمر الدفاع عنها، وبفضل خطابه الذي استمر ثلاث ساعات في مجلس العموم برأت إدارة الأسطول تبرئة لا تستحقها. وبعد ذلك كتب ببيز لدوق يورك ثلاث مذكرات عرض فيها وجوه النقص والحلل في هيئة البحرية، وقد لعبت هذه المذكرات الثلاث دوراً في إصلاح الأسطول. وبذل ببيز جهداً جباراً، وكان يصحو من نومه عادة في الرابعة صباحاً (52). ولكنه وجد أنه كان يستعين على راتبه الذي يبلغ 350 جنيهاً في العام، بالهدايا والعمولات والمنح التي يمكن أن يسمى بعضها رشوة، ولكنها كانت في هاتيك الأيام اللطيفة تعتبر زيادات إضافية مشروعة. وكان رئيسه لورد مونتاجو نفسه قد أوضح له "أنه ليس مرتب أية وظيفة هو الذي يجعل شاغلها غنياً، ولكن فرصة الحصول على

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> إيفلين وبييز

الأموال وهو يشغلها(53). وكل ما ارتكب ببيز من أخطاء مدون بصراحة خالصة تامة نسبياً. وليس واضحاً أمام أعيننا السبب الذي من أجله احتفظ بها بمثل هذه الأمانة إنه أخفاها في حذر وعناية طوال حياته، ودونها بطريقة الاختزال الخاصة به، مستخدماً 314 حرفاً مختلفاً، ولم يضع ترتيباً خاصاً لنشرها بعد وفاته. وواضح أنه وجد لذة وامتعة فاستعرض أنشطته اليومية والاضطرابات في أعضاء جسمه وشجاراته الزوجية، ومغازلاته وعبثه، وعلاقاته النسائية الشائنة. إنه - إذا أعاد قراءة هذا السجل - بينه وبين نفسه - لا يد أن يشعر بما نشعر به نحن من رضا خفي إذا نظرنا لأنفسنا في المرآة. وهو يروى لنا كيف أنه جعل زوجته تحلق له شعره "فوجدت في رأسي وجسمي نحو عشرين قملة" وهذا في اعتقادي،

أكثر مما وجدت في هذه السنوات العشرين (54). وتعلم أن يحب زوجته، ولكن بعد مشاجرات كثيرة، تميز في بعضها غيظاً، وكثيراً، على حد قوله، ما أساء معاملتها، وفي إحدى المرات "جذبها من أنفها (55)". وفي مرة أخرى "لطمتها على عينها اليسرى لطمة جعلت البائسة المسكينة تصرخ من شدة الألم، ولكنها اهتاجت وحاولت أن تعضني وتخدشني بأظفارها، ولكنني تظاهرت بالخل مما فعلت حتى أمسكت هي عن العويل (56)" ووضع على عينها ضمادة، وانصرف للقاء إحدى خلياته. وعاد إلى البيت لتناول العشاء، ثم غادره، حيث لقي "زوجة باجول، فصحبته إلى إحدى حانات الجعة، وهناك لاطفتها كثيراً، ثم افتقرت عنها إلى امرأة أخرى حاولت أن أعانقها وأقبلها، ولكنها لم ترغب في شيء من هذا، مما ضايقتني كثيراً".

وقد يبعث على العجب والدهشة أن يكون للرجل مثل هذه الطاقة الحيوية، فاستبدل العشيقه كل بضعة شهور، وطارد النساء حتى صددنه عنهن بالدبابيس (57). واعترف بأنه "وقع في أسر الجمال إلى حد غريب (58)". وقال "كنت استمع في كنيسة وستمنستر إلى عظة، وقضيت الوقت (سامحني

صفحة رقم : 10989

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> إيفلين وبييز

الله) محدقاً النظر في مسز بنلر (59) "وكان يتطلع في شغف خاص ولهف جارف مما يكاد يكون خيانة عظمى - إلى ليدي كاسلمين (عشيقة الملك)، ومذ وقع نظر عليها في قصر هويت هول "استغرق في النظر إليها (60)". ولكنه قنع بثبايبها المرصوفة في صف واحد، وفي هذا يقول "وكان من الخير لي أن أتطلع إلى هذه الثياب (61)", فلما "عدت إلى البيت وتناولت العشاء وأويت إلى الفراش، تخيلت أنني أغازل مسز ستوارت (ليدي كاسلمين وأعبت معها. في نشوة غامرة من السرور (62)". ولكن نفسه لم تهف إلى فاتنات البلاط فحسب. فقد مرت ببابه يوماً مسز ديانا، إحدى جاراته، فجذبها "إلى البيت وصعدت بها الطابق الأعلى، وبقيت ألهو وأعبت معها فترة طويلة (63)". وأخذ مسز لين إلى لامبث (أحد أقسام لندن) "وبعد أن سئمت رفقتها "صممت" على ألا أعود لمثل هذا ما حبيب (64) "وضبطته زوجته ذات مرة يعانق فتاة، فهددت بالانفصال عنه، فهدأ من روعها بالوعود والإيمان. وانطلق إلى آخر عشيقته. ذلك أنه أغوى وصيفة زوجته - ديبورا ويللت - وكان يحب أن تمشط ديبورا له شعره، ولكن زوجته انقضت عليها أثناء مغامراته مع ديبورا. فعاد يقسم ويعد يتعهد من جديد، وطردت الوصيفة، وأخذ بييز يتردد عليها وكان زيارتها جزء من عمله اليومي.

وظلت رغبته الجنسية على حدتها حتى حين ضعف بصره. إن عادة القراءة والكتابة في ضوء الشمعة بدأت تضعف بصره في 1664. ولكن في سنوات العسرة التي تلت ذلك، بذل في العمل جهداً شاقاً بصفة خاصة، على الرغم من تقاعده. وفي 31 مايو دون آخر ما سجل في مذكراته:

"وهكذا ينتهي ما أشك في قدرتي على المضي فيه إطلاقاً بنور عيني، ألا وهو تدوير مذكراتي. ومهما تكن النتيجة فليس لي إلا أن أتجلد وأحتمل. ومن ثم اعترمت أن يدونه من حولي بطريقتهم في الكتابة العادية، ولذلك ينبغي أن أقنع بالأيسر إلا ما هو صالح لأن يعرفوه

صفحة رقم : 10990

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> إيفلين وبييز

ويعرفه العالم أجمع. وإذا كان هناك شيء - وهو ليس بالكثير، بعد أن ولت كل خلياتي مع ديورا، وقعد بي ضعف بصري عن الاستمتاع بأية ملذات أو مسرات - فلا بد أن أحاول أن احتفظ في كتابي بهامش، أضيف فيه، هنا وهناك، بعض الملاحظات بخط يدي، بطريقة الاختزال. وهكذا أروض نفسي على هذه الطريقة التي لا تقل مرارة عن أن أراني محمولاً إلى القبر الذي يتولى الله العلي العظيم إعدادي له، ولكل المتاعب والمشاق التي لا بد أن تنتابني عندما أفقد نور عيني. صمويل بيبز".

وتبقى له من عمره يعد ذلك أربعة وثلاثون عاماً. وظل يتعهد في عناية بالغة ما بقي له من نور عينيه، ولم يعم بصره تماماً قط ومنحه الدوق والملك إجازة طويلة انقطع فيها عن العمل، عاد بعدها إليه. وفي 1673 عين سكرتيراً لإمارة البحر، وفي نفس الوقت تحولت زوجته إلى الكاثوليكية. ولما وقعت مؤامرة البابا على إنجلترا اعتقل بيبز وأودع سجن لندن (22 مايو 1679) للاشتباه في أن له ضلعاً في مقتل جودفري. ثم دحض الاتهام وأُخلى سبيله بعد تسعة أشهر قضاه بين جدران المعتقل. وبقي بعيداً عن الوظيفة حتى 1684، حيث أعيد سكرتيراً لإمارة البحر كما كان، واستأنف العمل على إصلاح البحرية. ولما أصبح رئيسه (دوق يورك) ملكاً على إنجلترا - جيمس الثاني - كان بيبز في واقع الأمر على رأس إدارة القوات البحرية، ولكن عندما هرب الملك جيمس إلى فرنسا، أعيد بيبز إلى السجن ثم أفرج عنه وعاش أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره متقاعداً عن العمل وكأنه "مرشد البحرية العجوز". ووافته المنية في 26 مايو 1703، وقد بلغ السبعين، مكللاً بالإجلال والاحترام، مطهراً من الذنوب والآثام. وكم كان في هذا الرجل من خلال محمودة. لقد عرفنا حبه للموسيقى كما أنه تابع الحركة العلمية، وكان ضليعاً في الفيزياء. وأصبح عضواً في "الجمعية الملكية" وانتخب رئيساً لها في 1684 وكان مزهواً برجولته، وكان يقبل

صفحة رقم : 10991

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> إيفلين وبييز

الرشوة، وضرب خادمه حتى جرح ذراعه (65) وقسا في معاملة زوجته، وكان فاسقاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ولكن كم كان له في الملوك والأدواق من أسوة أخزى وأقبح في مجال الدعارة والفجور، ومن منا يمكن أن يتمتع بسمة طيبة لا تشوبها شائبة إذا ترك مثل هذه المذكرات الأمانة؟.

صفحة رقم : 10992

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> دانيال ديفو

1731 - 1659

هناك امرأة أفلتت من يد بيبز، تستحق منا هنا انحناءة احترام في شيء من الحذر، بوصفها "أم القصة الطويلة" في فترة عودة الملكية، وأول امرأة إنجليزية تعيش على قلمها. إن أفرا بن Aphra Behn جديرة بالذكر من عدة نواح: ولدت في إنجلترا، وترعرعت في أمريكا الجنوبية وعادت إلى إنجلترا في سن الثامنة عشرة (1658)، وتزوجت تاجراً لندنياً من أصل هولندي. وتركت انطباعاً قوياً في نفس شارل لدهائها وذكائها. وأودت في مهمة سرية إلى الأراضي الوطنية، فقامت بها خير قيام، ولكنها تلقت أجراً زهيداً إلى حد أنها انصرفت إلى الكتابة، وسيلة لكسب العيش. وكتبت مسرحيات هزلية فاجرة لاقت نجاحاً ملحوظاً. وفي 1678 نشرت "أورونوكو" وهي قصة "رقيق ملكي" زنجي، وحببيته اموندا. وكان مزيجاً أصيلاً من الواقعية والرومانسية أو الخيال. وكان الطريق ممهداً أمام قصة روبنسن كروزو، وللقصة الرومانسية. كذلك عاش ديفو على قلمه. وكان من أكثر الأعلام تعدداً للجوانب والبراعات: وكان أبوه جيمس ديفو قصاباً في لندن، شديد التمسك بمذهب البرسبيترين. وكان من المتوقع أن يكون دانيال واعظاً، ولكنه أثر الزواج والعمل والسياسة. وأنجب سبعة أطفال، وأصبح تاجر جوارب بالجملة. والتحق بجيش دوق مونموت في الثورة (1685)، ثم انضم إلى جيش وليم في الإطاحة بعرش جيمس الثاني وفي 1692 أفلس وبلغت ديونه

صفحة رقم : 10993

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> دانيال ديفو

17 ألفاً من الجنيهاً، ثم دفع لدائنيه استحقاقاتهم كاملة تقريباً فيما بعد، وفيما هو يكسب ويخسر، أصدر كتيبات في طائفة من الموضوعات زخرة بكنز مدهش من الأفكار الأصيلة. ففي مؤلفه "بحث في المشروعات" عرض مقترحات عملية متقدمة كثيراً عن زمانه، في المصارف، والتأمين، والطرق ومستشفيات الأمراض العقلية، والكليات الحربية، والتعليم العالي للبنات. وانتقل إلى Tilbary حيث أصبح سكرتيراً لمصنع للقرميد ثم مديراً، وفي النهاية مالكاً له. ولما قدموه إلى وليم الثالث عينه في وظيفة حكومية صغيرة، وأيد سياسة الملك تأييداً كبيراً إلى حد اتهامه بأنه هولندي أكثر منه إنجليزي، فدافع عن نفسه في قصيدة رائعة، عنوانها "الإنجليزي الصميم الأصل" (1701) ذكر فيها الإنجليز بأن الأمة كلها مختلطة الدماء والأعراق، ولما كان هو نفسه من المنشقين فإنه في 1702 نشر دراسة غفلاً من اسم المؤلف، تحت عنوان "أفصر طريق مع المنشقين" استبق فيها أسلوب سويفت في التسيه والتسخيف عن طريق المبالغة، وهاجم فيها اضطهاد الإنجليكانيين للمنشقين، باستحسانه إعدام كل منشق يقوم بالوعظ، وطرده المنشقين الذي يستمعون إليه من إنجلترا. وقبض عليه في فبراير 1703، وحكم عليه بالغرامة والسجن وعذب في المشهر. وأفرج عنه في نوفمبر، ولكن في نفس الوقت كان مصنع القرميد قد تخرب وتوقف العمل فيه.

وكان الرجل الذي ساعد في الإفراج عنه هو الوزير روبرت هارلي الذي تحقق من مقدرة ديفو الصحفية، ومن الواضح أنه عقد معه اتفاقاً لاستغلال قلمه، ومن ثم التحق ديفو بخدمة الحكومة طيلة بقية حكم الملكة آن. وبدأ فور إطلاق سراحه في إصدار صحيفة ذات أربع صفحات ثلاث مرات في الأسبوع. اسمها "ريفيو" التي ظلت تظهر حتى 1713، وكان معظمها بقلم ديفو. وفي عام 1704/1705 طاف ديفو بأرجاء إنجلترا على ظهر جواد،

صفحة رقم : 10994

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> دانيال ديفو

يدعو للمستر هارلي في الانتخابات. وفي تلك الأثناء جمع مادة كتابه "جولة في إنجلترا وويلز". وفي 1706-1707 عمل لحساب هارلي وجودولفين جاسوساً في إسكتلندا، وحظيت كراساته القوية بكثير من القراء كما جلبت إليه الكثير من الأعداء. واعتقل ثانية في 1713 وفي 1715، ومرة أخرى أطلق سراحه بناء على وعد بتسخير قلمه في خدمة الحكومة.

وكان له قدرة على ابتكار كثير من الموضوعات الأدبية. وفي 1715 نشر بعض مقتطفات يفترض أن كاتبها من الكويكرز. وفي نفس السنة نشر "حروب شارل الثاني عشر" كما يرويها "اسكتلندي في خدمة السويد". وأصدر في 1717 رسائل يظن أن كاتبها تركي، يندد بالتعصب المسيحي. وأسهم في تحرير مجلة اسمها بحق الضباب "Mist"، بتوقيع مراسلين وهميين. وقلما وقع ديفو كتاباته باسمه. وكان إلى جانب هذه البراعة في تمثيل شخصيات مختلفة، جمع ديفو سعة الإطلاع في الجغرافيا، وبخاصة جغرافية أفريقية والأمريكيتين. وظاهر أنه أفتتن بكتاب وليم دامبيير "رحلة جديدة حول العالم" (1697)، وفي إحدى رحلات دامبيير ألفت سفينته المسماة "الثغور الخمسة" مراسيها في جزر جوان فرنانديز على بعد نحو أربع مائة ميل إلى الغرب من شيلي. وكان أحد البحارة الاسكتلنديين يدعى إسكندر سلكيرك قد تشاجر مع القبطان، فطلب إليه أن يتركه في إحدى الجزر الثالث، على أن يزوده ببعض الحاجيات الضرورية. وبقي البحار هناك وحيداً لمدة أربعة أعوام، حيث أعيد إلى إنجلترا، وهناك قص قصته على ريتشارد سنيل الذي كتبها في عدد "الرجل الإنجليزي The Englishman" الصادر في 3 ديسمبر 1713، كما رواها كذلك لديفو، وزعم أنه أعطاه بياناً مكتوباً عن مغامراته في الغربية والوحدة (66). وحول ديفو هذه الخلاصة إلى قطعة من الأدب. وفي 1719 نشر أشهر قصة في القصص الإنجليزي.

صفحة رقم : 10995

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> دانيال ديفو

وألهبت "حياة روبنسن كروزو ومغامراته العجيبة الدهشة" خيال إنجلترا. وظهرت منها أربع طباعات في أربع شهور. وهنا كان مفهوم جديد للمغامرة والصراع - لا صراع الإنسان ضد الإنسان، ولا صراع الإنسان التحضر ضد الإنسان المتوحش. بل كفاح الإنسان ضد الطبيعة، صراع رجل وحيد، يمتلكه خوف حقيقي، لا يجد أي عون أو مساعدة، حتى جاء "التابع المخلص الأمين"، وبنى حياة من المواد الخام في الطبيعة. وتلك كانت تاريخ حضارة رجل واحد في مجلد واحد. واعتبرها كثير من القراء تاريخياً، حيث لم ترو قط في الأدب من قبل قصة جمعت بين مثل هذه الأشياء التي تحتمل الصدق والكذب في مثل هذه التفاصيل التي أخذ بعضها بخناق بعض بشكل عارض. إن تمرس ديفو في الخداع الأدبي رفعه من الصحافة إلى الفن.

وعاش ديفو في شيء من بحبوحة العيش في لندن، ولكنه لم يتخل عن إنتاجه الذي لا يبارى. فبينما ظل يصدر الكراسات، أخرج كتباً في الحجم الطبيعي، تضم قصص صغيرة، فنشر في 1720 "تأملات جادة في حياة روبنسن كروزو ومغامراته المدهشة"، "حياة ومغامرات مسز دنكان كامبل" (وهي ساحرة مشعوذة صماء بكماء). وبعد ذلك بشهر واحد "مذكرات فارس" "وبين تروفاتو" وقد حسبه بت الأكبر تاريخاً وبعد شهر آخر أخرج "حياة القبطان المشهور سنجلتون ومغامراته وقرصناته" وهو كتاب حوى توقعات مدهشة عن كشوف في أفريقيا. وفي 1722 أصدر "هناك وشقاء مول فلاندرز" و "صحيفة عام الطاعون"، و "تاريخا كولونيل جاك"، و "الغزل الديني"، و "التاريخ النزيه لبيتر الكسوفنتش" فيصر المسكوف الحالي" - وهذه هي المرة الثانية التي يستبق فيها فولتير في كتابه سير الحياة. وقصد بهذه المجلدات الضخمة أن توفر سبل العيش لأسرته، ولكنها بفضل قوة خيال الكاتب وأسلوبه الفياض، أصبحت أدياً. وفي "مول فلاندرز" اندس ديفو إلى عقل بغي وقلبها، حتى أفضت إليه بقصتها بشكل يتضح معه صراحتها وإخلاصها ويدعو إلى تصديقها

صفحة رقم : 10996

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> دانيال ديفو

ولو ظاهرياً، حتى تركها في النهاية راضية "أمنة ومطمئنة في خير عاقبة" وهي في السبعين (67). أما "صحيفة عام الطاعون" فكانت مدعمة بأدق الوقائع والحقائق والإحصاءات، حتى اعتبرها المؤرخون تاريخاً. أما عام 1724 فلا يثير دهشة كبيرة: ذلك أن ديفو نشر إحدى أمهات قصصه "السيدة السعيدة الحظ" المعروفة باسم "روكسانا" وهي المجلد الأول من مجلدين يتناولان جولاته في ربوع جزيرة بريطانيا العظمى، و "حياة جون شبرد" وهو يوهم بأنه مخطوطة سلمها شبرد إلى صديق له قبل إعدامه. وكانت هذه إحدى السير القصيرة العديدة التي كتبها ديفو عن حياة المجرمين، ومهدت إحدى سير الحياة واسمها "وعد المرتفعات" (1724) الطريق لكتاب سكوت "روب روى" كما مهدت سيرة أخرى، هي "حياة جوناثان ويلد" الطريق أمام فيلدنج. والحق أن أي موضوع شعبي أسأل قلم ديفو، وأفاض عليه الجنيهاً من خزائن ناشري كتبه، من ذلك "التاريخ السياسي الشيطان" (1726)، و "خفايا السحر" (1720)، و "الكشف عن أسرار الدنيا الخفية"، أو تاريخ حقيقة الأشباح (1727-1728) أضف إلى هذا كله قصيدة في اثني عشر جزءاً "العدل الإلهي" يدافع فيها عن الحقوق الطبيعية لكل إنسان في الحياة وفي الحرية وفي التماس السعادة ووسط هبوط ديفو كثيراً إلى كمستوى ذوق الشعب وأخيلته، ترى أنه أسهم إسهاماً مخلصاً في أفكار جادة: مثل "التاجر الإنجليزي الكامل" (1725-1727)، و "خطة التجارة الإنجليزية" (1728)، والكتاب الذي لم ينته منه "الرجل الإنجليزي الكامل" فإنه في هذه الكتب جميعها قدم معلومات مفيدة ونصائح عملية، لم تتلاءم في كل الأحوال مع أخلاقيات الإنجيل.

وقد لا نحبذ أخلاقيات ديفو أو سلوكه الأدبي، ولكننا نملك الإعجاب بمثابرتة وجدده، وربما لم يشهد التاريخ قط منذ إنجاب رمسيس الثاني 150 ولداً مثل وفرة ديفو في الإنتاج. والشيء الوحيد الذي يكاد لا يصدق

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> دانيال ديفو

في ديفو هو أنه الذي كتب كل ما كتب، لأننا كذلك بتولانا العجب كل العجب من نوعية عقل ديفو الذي سخرت فيه قوة الخيال وقوة الذاكرة لهذا العمل الشاق أو الجهد الجهد، والذي أخرج هذه الأشياء الوهمية المقبولة شكلاً إلى أبعد حد في الأدب. وأنا لنعترف بعبقرية وشجاعة رجل استطاع مع ضخامة العمل والعجلة في إنجازها، أن يحتفظ بهذا المستوى الرفيع في المادة والأسلوب. في المائتين والعشرة مجلدات التي أخرجها (إذا صدقنا ما قيل) لا يكاد المرء يقع على صحيفة واحدة مملّة باهتة، وإذا اتفق أن كان ديفو أحياناً بليداً غيباً فإنه كان يفعل ذلك عن عمد ليضيف إلى حكايته شيئاً من احتمال الصدق والكذب. ولم يبرزه أحد في بساطة السرد ووضوحه، وفي كونه طبيعياً بعيداً عن التكليف إلى حد الإقناع. وهناك كانت عجلته ضرباً من ضروب الحظ السعيد له، حيث لم يكن لديه فسحة من الوقت للتميق والزرخرف. وأرغمه تدريبه الصحفي ونزعه الصحفية على الإيجاز والوضوح. وكان أكبر صحفي في زمانه بكل معاني الكلمة، ولو أن هذا الوصف ينطبق على ستيل وأديسون وسوفيت. فإن صحيفته "ريفيو" مهدت الأرض التي أنبتت فيها صحيفة "سيكتاتور" بذوراً منتقاة بشكل أفضل. والحق أن هذا شرف أي شرف. ولكن أضيف إليه الشهرة العالمية الباقية على مر الدهور لقصة روبنسن كروزو، وأثرها على قصص المغامرات، حتى على قصة تختلف اتجاهاتها كل الاختلاف مثل "رحلات جليفر" وإذا استثنينا مؤلف ذلك الاتهام الذكي للبني الإنسان (سوفيت في رحلات جليفر)، فإن ديفو كان أعظم عبقرية في رجال الأدب الإنجليزي في عصر زخر بهم.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> ستيل وأديسون

7- ستيل وأديسون

يحدد ريتشارد ستيل أكثر من أي إنسان غيره بداية عصر الانتقال في الأدب، من عودة الملكية إلى حكم الملكة آن. واتصف في شبابه

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> سنتيل وأديسون

بكل صفات العريضة والصخب والفجور التي سادت فترة عودة الملكية. ولد في دبلن، وكان أبوه موثقاً عاماً (كاتب عدل)، وتعلم في مدرسة تشارتر هاوس وأكسفورد وكان حساساً سريع الاهتياج كريماً، وبدلاً من الحصول على درجته الجامعية انضم إلى جيش الحكومة في إيرلندا، وكان يسف في شرب الخمر اسفافاً، وبيارز حتى يقارب أن يصرع خصمه. وأكسبته التجربة رصانة عابرة، فبدأ بحمل على المبارزة، وكتب مقالا عن "البطل المسيحي" (1701) جادل في امكان أن يكون المرء سيذا ماجدا مهذبا "جنتمان" مع بقائه مسيحيا. ووصف الفساد الذي ساد العصر، وعاد بذاكرة قرائه إلى الكتاب المقدس بوصفه منبع الإيمان الصادق والخلق القويم، وناشد الرجال أن يحترموا جمال النساء وعفتهن.

وكان في التاسعة والعشرين، حين وجد أنه حتى الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها، تتبرم به على أنه واعظ ممل، فعقد العزم على النهوض برسالته عن طريق الروايات، وامتدح تنديد جرمي كولبير بالخلاعة والفحش في المسرح، فانبرى في سلسلة من الملهيات يدافع عن الفضيلة يشن حملات صادقة على الأوغاد. ولكن هذا الإنتاج لم يلق نجاحا. فالحق أن المسرحيات حوت مشاهد حية ودلت على ذكاء وموهبة، ولكن جمهور النظارة تشككوا في حل عقدة الروية أو في نتيجتها، وطالبوا باللهو والتسلية على حساب الوصايا العشر مهما كان الثمن غاليا، على حين أن اللندنيين الحصفاء الذين قد يتعاطفون مع مشاعره، قلما كانوا يظهرن في المسرح. كيف الوصول إلى هؤلاء الناس؟ وقرر سنتيل أن يجرب وسيلة يواجههم بها في المقاهي. وفي 12 أبريل 1709 أخذ ورقة من صحيفة ديفو "ريفيو" وأصدر العدد الأول من صحيفة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع، أطلق عليها ((The Tatler)) وحررها وكتب معظم مادتها تحت اسم مستعار "إيزاك بيكرستاف". ووجهها إلى المقاهي، حيث أعلن:

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> سنتيل وأديسون

"كل ضروب البسالة والكياسة، والمسرات والتسلية، تلتقن بها في "مقهى هوايت للكاكاو" والشعر في "مقهى ول Will" والعلم والمعرفة تحت عنوان "جريشيان". والأنباء الخارجية والداخلية من "مقهى سان جيمس". أما سائر الموضوعات التي سأقدمها فمن عندي أنا. وكام مشروعاً بارعاً، أثار اهتمام رواد المقاهي، واستقى الأنباء والموضوعات من مناقشاتهم هناك، وأتاح لريتشارد سنتيل أن يعبر عن آرائه دون مقاطعة أو نزاع، وفي العدد 25 الصادر بتاريخ 7 يونيو 1709 ذكر أنه تلقى رسالة من "سيدة شابة ... ترثى فيها لسوء حظ .. حبيبها الذي أصيب مؤخرا بجرح أثناء المبارزة" واستطرد سنتيل ليبيّن سخف عادة تحتم أن يدعو الشخص الذي أؤذي الشخص المسىء ليضيف ضغناً إلى ابالة أو القتل إلى الإساءة فماذا تعني المبارزة أو التحدي إلا هذا!!

سيدي، أن سلوكك الشاذ في الليلة الماضية، وتطاولك علي في جرة وحرية طابت لهما نفسك، كل هذا يدفعني إلى أن أوجه إليك هذا الإنذار، لأنك مغرور أحق غير مهذب .. سألتقي بك في هايدبارك في ظرف ساعة، حاملاً مسدساً، وحاول أن تصوبه إلى رأسي، حتى ألقنك درساً في آداب السلوك".

وهنا كان صوت الطبقة الوسطى يسخر من الأرستقراطية. والحق أن الطبقة الوسطى أساساً هي التي زحمت المقاهي. وفي مقالات أخرى سخر ستيل من بذخ الأرستقراطية ولغوها ومظاهرها الكاذبة وزينتها وملابسها، وتوسل إلى النساء أن يرتدين الثياب البسيطة، ويمتنعن عن الحلبي والمجوهرات. فإن عقد اللؤلؤ فوق الصدر لا يضيف شيئاً إلى الصدر العاجي الجميل الذي يحمله (68)".

إن رفته مع النساء كانت تتبارى مع ولعه بالخمير. وألح على القول بأنهن بحق يتمتعن بالذكاء وسلامة البنية. ولكنه امتدح الكثير من تواضعن وطهرهن - وتلك صفات لم تعترف بها ملهاة فترة عودة الملكية. وقال عن

صفحة رقم : 11001

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> ستيل وأديسون

إحدى النسوة "إن حبك لها يعني أنك تتسم بالتححرر في تعليمك" واعتبر كري "أن هذه العبارة ربما كانت أرق تحية قدمت لامرأة (69)".

ووصف ستيل، في إحساس عميق، مباحج الحياة الأسرية، والوقع الجميل لأقدام الأطفال، وإقرار الزوج بفضل زوجته المسنة وعرفانه لجميلها:

"إنها في كل يوم تدخل على قلبي سروراً أكثر بكثير مما عرفت فيها أيام كنت أستمتع بجمالها وأنا في نضارة الشباب، إن كل لحظة في حياتها تقدم لي أمثلة جديدة على تجاوبها مع ميولي ورغباتي، وحسن تدبيرها بالنسبة لمواردي في أوقات اليسر والعسر. إن وجهها أجمل بكثير مما رأيته لأول مرة وليس استطعت أن أحظه منذ اللحظة التي حدث فيها نتيجة اهتمام شديد قلق بمصالحها ربما يعود علي بالخير .. إن حب الزوجة أسمى بكثير من ذلك الهوى النافه الذي يسمونه عادة بهذا الاسم (الحب)، بقدر هبوط مستوى ضحكات المهرجين العالية الماجنة عن مستوى المرح الهادئ الرشيق عند الأماجد المهذبين (70)".

وكان ستيل قد تزوج مرتين عندما كتب هذا، وإن رسائله إلى زوجته لهي نماذج للاحلاص والحب، ولو أنها سرعان ما تشتمل على اعتذارات عن عدم الحضور لتناول الطعام في البيت. إنه أخفق في أن يكون الرجل البرجوازي الفاضل الذي كان في نظره نموذجاً للحياة، فإنه سكر كثيراً وأنفق كثيراً واستدان كثيراً، واجتاز الشوارع الجانبية ليتحاشى لقاء أصدقائه الذين أقرضوه المال. واختفى عن الأنظار تملصاً من دانيه ومرأه لهم، ولكنه في نهاية الأمر أودع السجن بسبب الدين، وقارن قارئ صحيفته ((Tatler)) بين عظاته وتصرفاته. وأصدر جون دنيس نقداً لاذعاً لآراء ستيل، وتناقص عدد المشتركين في الصحيفة واحتجبت عن الظهور في 2 يناير 1711، ولكنها تحتفظ بمكانتها في تاريخ الأدب الإنجليزي، لان بين جنباتها بدأت الأخلاقية الجديدة تعبر عن نفسها، وبدأت القصة

صفحة رقم : 11002

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> سنيل وأديسون

القصيرة تأخذ شكلها الحديث، كما طور أديسون المقالة الحديثة حيث بلغ بها حداً الاتقان والكمال في صحيفة "سبكتاتور".

وولد أديسون وسنيل كلاهما في 1672، وكانا صديقين منذ كانا يدرسان معا في مدرسة تشارتر هاوس. وكان والد جوزيف أديسون قسيساً أنجليكانياً، أشرب ابنه من التقوى والورع ما قاوم به كل مساوئ ومفاسد فترة عودة الملكية. وكسبت له براعته في اللاتينية منحه دراسية. وفي سن الثانية والعشرين أعجب إرل هاليفاكس بمواهبه، إلى حد أنه أقنع رئيس كليته ماجدلن بتحويل الشاب من سلك الكهنة إلى خدمة الحكومة. وقال هاليفاكس "يقولون عني أنني عدو للكنيسة، ولكني لن أعود للإساءة إليها قط، بعد أن أحتفظ بمستر أديسون بعيداً عنها(71)" ولما كانت المقدرة في اللاتينية غير مقرونة بمعرفة اللغة الفرنسية، وكانت الحاجة إلى معرفة اللغة الفرنسية أساسية عند الدبلوماسيين فإن هاليفاكس خصص لأديسون ثلاثمائة جنيه سنوياً لينعق منها أثناء إقامته في القارة. ولمدة عامين تجول أديسون على مهل في أرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا.

وبينما هو في جنيف ارتقت الملكة أن عرش إنجلترا فأبعد أصدقائه عن مناصبهم، وانقطع عنه راتبه. ولما لم يبق له إلا دخله الضئيل، فإنه اشتغل معلماً ومرشداً خاصاً لسائح إنجليزي شاب، وطاف معه بأحاء سويسرا وألمانيا والمقاطعات المتحدة. ولما انتهت هذه المهمة عاد إلى لندن 1703، وعاش لبعض الوقت في فقر يسترته التعفف وحسن المظهر. ولكنه كان "مغناطيسياً" يجذب الثراء والحظ السعيد. ذلك أنه عندما انتصر دوق مالبورو في معركة بلنهييم في 13 أغسطس 1704 فتش جودولفين وزير الخزانة عن شخص يخلد ذكر هذا النصر شعراً. وأوصى هاليفاكس بأديسون للقيام بهذا العمل، واستجاب الشاب الموهوب بقصيدة رنانة "الحملة" ونشرت في نفس اليوم الذي دخل فيه مالبورو العاصمة دخول المنتصر الظافر، وساعد نجاح القصيدة على أن توطن إنجلترا نفسها على

صفحة رقم : 11003

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> سنيل وأديسون

مواصلة القتال. إن جورج وشنطن أثر الشعر المعلق عالياً الذي كتبه أديسون على سائر القصائد. وإليك أبياتاً مشهورة منها:

"إيه ياربه القريض، أي شعر ترين أن أنشده القوات التي اشتعلت في نفوسها نيران الغضب، المتراصة في ميدان المعركة! إنني ليخيل إلي أنني أسمع دقات الطبول الصاخبة وصيحات النصر وأنات الموتى يختلط بعضها ببعض وطلقات المدافع المرعبة تشق أجواء الفضاء، وصيحات الحب تدوي مثل الرعد. وهنا أنبت مالبورو العظيم بروحه العالية أنه راسخ كالطود، لا يهتز لإلتحامات الجيوش المهاجمة، وفي غمرة لضجة والفرع واليأس، يشهد كل مناظر الحرب المروعة، ويشرف على ساحة الموت ثابت الجنان، يفكر في هدوء. ويرسل المدد في الوقت المناسب للفرق المتخاذلة، وينفخ في المحاربين المترددين من روحه فيدفعهم إلى الألتحام مع العدو، ويحدد للمعركة المتأرجحة أين تشتد وتحتدم. كما لو أن ملكاً من السماء، بأمر من عند الله زلزل أرض الأعداء بريح عاتية (كما حدث مؤخرًا لبريطانيا الواهنة). وفي هدوء ورسالة يسوق مالبورو العاصفة العاتية، ويطيب نفساً بتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى، فيمنطي صهوة جواده وسط الرياح الهوجاء ويقود العاصفة ويوجهها كيف يشاء".

وحقق البيت الأخير والتشبيه الملائكي لأديسون العودة سالماً إلى وظيفة حكومية تدر عليه راتباً، بقي فيها طيلة السنوات العشر التالية. وفي 1705 عين عضواً في لجنة الاستئناف، خلفاً لجون لوك. وفي 1706 وكيلاً للوزارة. وفي

1707 ألحق ببعثة هاليفاكس إلى هانوفر، التي هيأت لأسرة هانوفر السبيل لارتقاء عرش إنجلترا. وفي 1708 اتخذ مقعده في البرلمان، وبفضل خدماته الجليلة احتفظ به حتى الممات. وفي 1709 أصبح السكرتير الأول لنائب الملكة في إيرلندا. وفي 1711 أثرى إلى حد استطاع معه أن يشتري ضيعة في رجيبي بعشرة آلاف جنيه. إن أديسون في أيام الرخاء لم ينس ستيل. فأنبه على أخطائه ولكنه

صفحة رقم : 11004

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> ستيل وأديسون

هياً له منصباً حكومياً، وأفضه مبالغ كبيرة من المال، وطالبه مرة واحدة أن يسدها (72). وعندما صدرت صحيفة ((The Tatler)) غفلاً من الاسم، لاحظ إشارة إلى فرجيل كان قد لمح بها إلى ستيل، وفي "إيزاك بيكرستاف" عرف ثانياً صديقه المترف المفلس وسرعان ما اشترك في الصحيفة. وفي 1710 سقطت حكومة الأحرار، وفقد ستيل وظيفته الحكومية، وفقد أديسون كل مناصبه باستثناء عضوية لجنة الاستئناف. واحتفلت صحيفة تاتلر بهذا العام بالاحتجاج عن الظهور. وشارك أديسون وستيل الواحد منهما الآخر آلامه وآماله، وفي أول مارس 1711 أخرج أول عدد من أشهر الدوريات في تاريخ الأدب الإنجليزي.

وظهرت صحيفة "سبكتاتور" يومية - ماعدا يوم الأحد، في فرخ مطوي ذي أربع أو ست صفحات. وبدلاً من تحديد المقالات من مراكز مختلفة. ابتدع المحرر المجهول الاسم نادياً وهمياً يمثل أعضائه قطاعات مختلفة من دنيا الانجليز: سير روجردي كوفرلي سيد من الريف، سير أندرو فريبورت يمثل طبقة التجار، ويتحدث الكابتن سنترى باسم الجيش، أما أول هنيكوم فهو الرجل العصري المتألق، أما المحامي في دار العدل فيمثل العلم والمعرفة" ويجمع مستر "سبكتاتور" نفسه بين وجهات نظرهم في إطار من المرح اللطيف والكياسة والذكاء، مما نفذت معه الصحيفة إلى بيوت الانجليز وقلوبهم جميعاً. وفي العدد الأول وصف مستر سبكتاتور نفسه، حتى جعل النوادي والمقاهي تحاول الكشف عن شخصيته بالحدس والتخمين:

"قضيت سنواتي الأخيرة في هذه المدينة حيث يراني الناس كثيراً في معظم الأماكن العامة، ولو أن عدد الصفوة المختارة من الأصدقاء الذين يعرفونني لا يجاوز السنة، وسأتحدث عنهم في العدد القادم بشكل أدق. ولا يكاد يوجد مكان يأوي إليه الناس بصفة عامة إلا وظهرت فيه، فأحياناً يرونني أدس أنفي في حلقة من رجال السياسة في "مقهى ول"،

صفحة رقم : 11005

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> ستيل وأديسون

مصغيا بأكبر اهتمام إلى ما يدور في هذه الاجتماعات الدورية. وأحيانا أذخ غليونني، وعلى حين غير منصت لشيء إلا ساعي البريد، فإني أسترق السمع إلى النقاش الذي يدور على كل مائدة من الغرفة. وفي أمسيات الأحد أقصد إلى مقهى سان جيمس، وانضم أحيانا إلى جماعة السياسيين الصغيرة في الحجرة الداخلية، بوصفي رجلا يذهب إلى هناك ليسمع ويستفيد. ووجهي كذلك معروف تمام المعرفة في "جريفان" وفي مقهى "شجرة الكاكاو" وفي مسارح "دروري لين" و "هاي ماركت" على حد سواء. وكانوا يحسبونني تاجرا في "البورصة" طيلة هذه السنوات العشر أو أكثر. وأحيانا حسبوا أنني يهودي من جماعة السماسرة الذين لا يوثق بهم في "جونتان" وجملة المقول إنني لا أرى حشدا من الناس إلا حشرت نفس في زمرتهم، ولو أنني لا أنيس بينت شفة إلا في النادي الخاص بي. وهكذا أعيش في هذه الدنيا متفرجا، لا واحداً من الجنس البشري، وبهذه الطريقة جعلت من نفسي رجل دولة يطيل التأمل والتفكير، وجندياً وتاجراً، وصانعاً ماهراً، دون أن أمارس العمل في أي قطاع من قطاعات الحياة. كما أنني على دراية تامة بشؤون الزواج والأبوة، وأستطيع تبين وجوه الخطأ في الاقتصاد وفي الأعمال وفي الانحراف، أفضل بكثير ممن يتولون هذه الأمور بأنفسهم، لأن المتفرجين يكتشفون أخطاء يمكن ألا تقع عليها أعين المشتركين في اللعبة. إنني لم أناصر قط حزبا في اندفاع أو عنف. وإنني عاقد العزم على أن أقف موقف الحياد الدقيق بين الأحرار والمحافظين، إلا إذا اضطررت إلى إعلان الانحياز إلى أي من الفريقين بسبب تصرفات غير وديعة من الفريق الآخر. وصفوة القول إنني كنت طوال حياتي "متفرجا" وتلك هي الشخصية التي أقصد ألا أحيدها عنها في هذه الصحيفة".

وبتقدم المشروع، جمعت "سيكتاتور" بين الموضوعات الاجتماعية

صفحة رقم : 11006

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> سنيل وأديسون

ودراسات العادات والسلوك والأخلاق والنقد الأدبي واستعراض أحوال المسرح. وكتب أديسون سلسلة من المقالات عن ملتون أدهس بها إنجلترا حين سما بقصيدة "الفردوس المفقود" فوق مرتبة "إلياذة" هو ميروس، و "إنيادة" فرجيل. وتجنبنا المناقشات الخوض في السياسة التي تثير العداوات والتقلبات، ولكن ألحت - واشترك في هذا أديسون عن طيب خاطر - على دعوة سنيل إلى الإصلاح الاجتماعي. وظهر من جديد شيء من الروح البيوريتانية هذبته المحنة، كرد فعل للنكسة التي اجتاحت فترة عودة الملكية، ولكنها لم تعد الآن انهماكاً لاهوتياً كنيئاً مفزعاً في التخويف من الشيطان ومن الخطيئة المهلكة، بل دعوة إلى الاعتدال والاحتشام موسومة بالتقاؤل مغلفة بالدهاء والظرف. وعلى هذا النسق بدأ عدد 10 نوفمبر:

"إنه لما يبعث عن الرضا والارتياح أن أرى المدينة العظيمة تلح يوما بعد يوم على طلب صحيفتي هذه. وتستقبل مقالاتي الصباحية في جدية واهتمام مناسبين. ويقول الناشر أن ثلاثة آلاف نسخة منها توزع يوميا بالفعل. فإذا حسبت أن النسخة الواحدة يتناولها عشرون قارئاً، وهو تقدير متواضع، لأحصيت من المریدين ستين ألفاً في لندن ووستمنستر، أمل أن يلحظوا الفرق بينهم وبين القطيع الطائش من أخوانهم الجهلة الغافلين، ومذ حظيت بمنزل هذا العدد الكبير من القراء فإني لن أذخر وسعا في أن يكون ما أزودهم به من علم ومعرفة مقبولا، ومن تسلية نافعا مفيدا. ولهذا أحاول أن أحيي الأخلاق بالدعابة والطف الدعابة بالفضيلة، لعل قرائي يشقون إذا أمكن، عن هذا السبيل أو ذاك، طريقهم إلى التأمل فيما يجري حولهم كل يوم، رغبة مني في ألا يكون حظهم من الفضيلة قليلا عابرا، أو مجرد ومضات متقطعة من التفكير، صبح عزمي على أن أعش ذاكرتهم وعقولهم بين الحين والحين، حتى أخرجهم من ظلمات اليأس والرذيلة والحماسة التي تردى في هذا العصر. فإن العقل الذي يخلد إلى الدعة والراحة ولو يوما

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> ستيل وأديسون

وإحداً، يشب على الحماقات والسخافات التي لا يمكن اقتلاعها إلا بالمدامة على تنقيفه تنقيفاً جاداً مثابراً. ولقد قالوا عن سقراط أنه أنزل الفلسفة من السماء لتسكن بين الناس على الأرض، وكم تهفو نفسي أن يقال عني أنني أتيت بالفلسفة من المخابئ والمكتبات والمدارس والجامعات، لتستقر في النوادي والجمعيات، وعلى موائد الشاي، وفي المقاهي.

من أجل ذلك أوصي، بالنسبة لتأملاتي هذه، وبصفة خاصة، الأسرات التي ترعى النظام والدقة في حياتها، ن تخصص في كل صباح ساعة محددة لتناول الشاي والخبز والزبد، وأنصحها جدياً، ولخيرها هي، أن تتأثر على ثراء هذه الصحيفة، وتعتبرها جزءاً من تجهيزات الشاي".

واتجهت صحيفة "سبكتاتور" إلى النساء والرجال سواء بسواء، فعرضت أن تعالج موضوع الحب والجنس، وتصور "الحب الزائف أقيح وأشد فتاماً من ... الخيانة في الصداقة أو النذالة والخسة في التجارة وسائر الأعمال(73). وكتب أديسون يقول: "سيكون من أعظم مفاخر هذه المهمة التي أنهض بها أن تهبيئ هذه الصحيفة بعض الموضوعات التي يخوض فيها بعض السيدات العاقلات المفكرات على موائد الشاي(74)". وشجعت الرسائل وطبعت، وكتب ستيل نفسه سلسلة من الرسائل التي تشكو الحرمان من الحب والأحباب، كان بعضها موجهاً إلى خليلاته، وبعضها دبجه المحررون في أسلوب حديث جداً. وجمعت الصحيفة بين الدين والحب. وزودت باللاهوت المعتدل جيلاً بدأ يتساءل عن أثر تخلخل إيمان الطبقات العليا عن الأخلاق. وأهابت بالعلم أن يتابع طريقه، ويدع الكنيسة وحدها حارساً حكيماً محنكاً على الأخلاق، فأن حقوق الوجدان ومتطلبات النظام تدل على إدراك الفرد وعقله، فهو دوماً في دور المراقبة. وخير للأخلاق ولسعادة الإنسان تقبل العقيدة القديمة في خشوع، وحضور صلواتها وخدماتها والالتزام بعطلاتها، والمساعدة على خلق الجو المناسب ليوم العبادة الهادئة في كل أبرشية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> ستيل وأديسون

"إني لأجد السرور كل السرور في يوم الأحد في الريف، وكم أتمنى لو أن تقديس اليوم السابع والتعطيل فيه كان مجرد نظام إنساني، إذن لأصبح أفضل وسيلة فكر فيها الإنسان لتهديب الجنس البشري وصلقه وتمدينه، ومن المؤكد أن أهل الريف سيخطون سريعا إلى نوع من المتوحشين والمتبريرين إذا لم يعودوا دوماً إلى زمن محدد تجتمع فيه القرية كلها بوجوه باسمة في أبهى حلة ليتدارس أهلها فيما بينهم مختلف الموضوعات، وليوضح لهم ما ينبغي عليهم أدائه من واجبات، وليجتمعوا معا لعبادة الله "الكائن الأسمى".

إن يوم الأحد صداً الأسبوع كله، لا لأنه يحي الأفكار الدينية في العقول. بل لأنه يجمع بين الرجال والنساء. والكل يبدو في أحسن صورة(75)".

أما الأدب الذي كان مطية الإباحية والخلاعة طوال الأربعين عاماً الماضية، فقد انحاز الآن إلى جانب الأخلاق والإيمان. وأسهمت صحيفة سيكتاتور في انقلاب السلوك والأسلوب الذي استبق في عهد الملكة آن، بقرن من الزمان، روح أواسط العصر الفكتوري، التي قضت بألا يحترم إلا من هم حقاً جديرون بالإحترام، وغيرت مفهوم الانجليز عن السيد الماجد "جنتمان" من الرجل ذي اللقب الذي يحسن مغازلة النساء، إلى المواطن المهذب الكريم النشأة. وفي "سيكتاتور" وجدت فضائل الطبقة الوسطى من يدافع عنها دفاعاً مهذباً مصقولاً. وكان التعقل وحسن التدبير وعدم التدبير أجدى على المجتمع وثمن لديه من أناقة الثياب وسرعة الخاطر وكان التجار سفراء الحضارة إلى الشعوب المختلفة. وكانت عائدات التجارة والصناعة عصب الحياة للدولة. وأحرزت صحيفة سيكتاتور نجاحاً ومنزلة رفيعة ليس لهما مثيل في الصحافة الانجليزية وكان توزيعها ضئيلاً، لا يكاد يجاوز أربعة آلاف، ولكن تأثيرها كان عظيماً إلى حد بعيد. وكان يباع من مجموعاتها المجدة

صفحة رقم : 11009

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> ستيل وأديسون

نحو تسعة آلاف نسخة سنوياً (76)، وكأنما أدركت انجلترا فعلاً أنها لون من الأدب. ولكن بمرور الزمن بليت جدتها وخبا بريقتها، وبدأت شخصيات النادي تكرر نفسها، وفترت حيوية الكتاب المنهوكين ونشاطهم، وصبحت عظاتهم تبعث السأم في نفوس القراء. وهبط توزيع الصحيفة، وزادت المصروفات على الإيرادات نتيجة ضريبة التمتع التي فرضت 1712. وفي 16 ديسمبر 1712 احتجبت الصحيفة عن الظهور. وواصل ستيل الكفاح في صحيفة "جارديان". وأحيا أديسون صحيفة سيكتاتور 1714. ولم يطل عمر الصحيفتين كليهما، لأن أديسون كان قد أصبح آنذاك كاتباً مسرحياً ناجحاً، وأعيدت إليه وظائفه ورواتبه الحكومية. وفي 14 أبريل 1713 أخرج مسرح "دروري لين" مسرحية "كاتو" لأديسون كتب لها صديقه بوب مقدمة زاخرة بالحكم والأفكار التي عرفت عنه، مثقلة بالوطنية الثائرة المتقابلة معاً، وأخذ ستيل على عاتقه أن يحشد لمشاهدة المسرحية كل "الأحرار" الغيورين المتحمسين، فلم يوفق في ذلك كل التوفيق، ولكن "المحافظين" انضموا إلى الأحرار في استحسان وقفة "كاتو" الأخيرة دفاعاً عن "الحرية الرومانية" (46 ق. م.) وتبارت صحيفة المحافظين "الجزامن" مع صحيفة ستيل "جارديان" في نشوة الابتهاج والاستحسان. واستمر العرض لمدة شهر كامل مع تزايد عدد المترددين على المسرح لمشاهدتها، حتى قال بوب "لم يكن كاتو محل إعجاب ودهشة روما في زمانه قدر ما هو موضع إعجاب ودهشة بريطانيا في أيامنا هذه" (77). واعتبرت كاتو في القارة أجمل مسرحية "تراجيدية" في اللغة الإنجليزية. وأعجب فولتير بالتزامها بالوحدات، وعجب كيف أن إنجلترا تطبق صبراً على شكسبير بعد مشاهدة رواية أديسون (78). ويهزأ النقاد اليوم بها على أنها خطابة تافهة مضجرة ولكن أحد القراء وجد أن انتباهه مشدود حتى النهاية بفضل الحكمة المحكمة البناء وقصة الحب المدمجة بشكل بارع في الصراع الأكبر.

صفحة رقم : 11010

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> سنتيل وأديسون

وازدادت الآن شعبية أديسون إلى حد قال معه سويفت "أعتقد أنه لو فكر في أن يختار للجلوس على العرض لكان من العسير أن يأبى عليه أحد هذه الرغبة (79)". ولكن أديسون الذي كان دوماً نموذجاً للاعتدال قنع بتعيينه وزيراً في الحكومة، لثئون إيرلندا آنذاك، ثم كبير مفوضي التجارة. وكان شخصية محبوبة جداً في النوادي، لأن إيمانه على الشرب منعه من أن يكون "الرجل الشاذ البشع غاية الباعة والشذوذ الذي لا يحبه الناس أبداً". ورغبة منه في تنويع مجده وعظمته، تزوج (1716) من كونتيسة، ولم يكن سعيداً في حياته مع السيدة المتعجرفة في "هولنדהاوس" في لندن. وفي 1717 عين ثانية وزيراً، ولكن مقدرته كانت محل نزاع وشك. وسرعان ما استقال بمعاش قدره 1500 جنيه في العام. وعلى الرغم من تجلده وأدبه الجم انزلق في عراك مع أصدقاءه - ومنهم سنتيل وبوب - الذي هجاه بأنه متمزمت اعتاد "أن يلعن الناس بالإطراء الباهت الحقير، فهو: مثل كاتو يقدم للسناتو الهزيل القوانين، ثم يتخذ مقعده لينصت إلى ما يكال له من مديح(80). وكانت خاتمة حياة سنتيل أقل عظمة وجلالاً من أديسون. أنه انتخب للبرلمان في 1713، ولكن الغالبية التي تنتمي إلى حزب المحافظين أخرجته بتهمة أن لغته محرصة مثيرة للفتنة. وفاز حزب الأحرار في السنة التالية، فحظي سنتيل بعدة مناصب إدارية تدر عليه مالاً، وتعادلت لفترة من الزمن موارده مع نفقاته، ولكن ديونه طغت، وطارده دائنون، وأوى إلى ضيعة زوجته في ويلز، وهناك وافته المنية في أول سبتمبر 1729، بعد شريكه بعشر سنين. أنهما معاً: سنتيل بأصالته وحيويته ونشاطه، وأديسون بذوقه الفني المصقول ارتقعا بالقصة القصيرة والمقال إلى آفاق جديدة من الجودة والإتقان، وأسهما في إبتعاث الأخلاق من جديد في ذلك العصر، وحددا طابع الأدب الإنجليزي وشكله لمدة قرن من الزمان باستثناء العبقرية البالغة القوة والعنف في هذا العصر.

صفحة رقم : 11011

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> جوناثان سويفت

8- جوناثان سويفت

1667 - 1745

كان سويفت يكبر سنتيل وأديسون بخمس سنين. ولكنه عمر بعد أحدهما ست عشرة سنة، وبعد الآخر ستاً وعشرين. وكان بمثابة شعلة متأججة سرت من قرن إلى قرن، من دريدن إلى بوب. ولم يستطع قط أن يغتفر مولده في دبلن الذي كان عائقاً مثيراً للغضب في إنجلترا. وكم كان قاسياً عليه أن يقضي أبوه نحبه قبل ولادته، وكان الوالد قهرمان قصر الملك في دبلن. وعهد بالطفل إلى مرضعة حملته منها إلى إنجلترا، ولم تعد به إلى أمه إلا عندما بلغ الثالثة من العمر، وربما ولدت هذه المغامرات والمخاطر في نفس الصبي شيئاً من قلق اليتيم. ولا بد أن هذا الشعور ازداد عمقاً في نفسه، بانتقاله إلى عم له. سرعان ما تخلص منه، وهو في السادسة بإلحاقه بمدرسة داخلية في كلكني. وفي سن الخامسة

عشرة التحق بترنتي كولدج في دبلن، حيث ظل بها سبع سنين. وشق طريقه في الكلية بصعوبة لأنه كان مهملًا في اللاهوت بصفة خاصة. وكثيراً ما قصر وعوقب، وذاق مرارة الفقر والحرمان عندما تعثر حظ عمه الذي تولى الإنفاق عليه، وأصيب بانهيار عصبي (1688). وعند موت عمه 1689، وفي غمرة ثورة إيرلندا لنصرة جيمس الثاني، هرب جونathan إلى إنجلترا، وإلى أمه التي كانت تعيش في ليستر على عشرين جنيهاً في العام. وعلى الرغم من طول الفراق بينهما، انسجما معاً إلى حد معقول، وتعلم كيف يحبها، وزارها من حين إلى حين، حتى وفاتها (1710).

وفي أواخر عام 1689 وجد سوفيت عملاً براتب قدره عشرين جنيهاً في العام مع الإقامة والطعام، سكرتيراً لسير ولیم تمبل في موربارك. وكان تمبل حينذاك في أوج عظمته، صديقاً ومستشاراً للملوك. ويجدر بنا ألا نقسو في لومه لإخفاقه في التعرف على العبقريّة في الشاب ذي الاثنتين والعشرين ربيعاً الذي جاءه ببعض اللاتينية واليونانية، وببعض اللهجة الإيرلندية مع جهل مآكر باستخدام الشوكة والملقعة وعلاقة الواحدة منهما بالأخرى

صفحة رقم : 11012

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جونathan سوفيت

على المائدة (81) وكان سوفيت يجلس مع كبار العاملين في خدمة تمبل، إلى مائدة سيدهم (82)، الذي لحظ دوماً الفرق بينه وبينهم. ولكن تمبل كان فأرسل سوفيت 1692 إلى أكسفورد ليحصل على درجة الأستاذية. وأوصى به عطوفاً، ولیم الثالث خيراً، ولكن دون جدوى.

وفي نفس الوقت كان سوفيت يكتب مقطوعات شعرية من ذات البيتين. عرض بعضها على دريدن الذي قال له "ياسوفيت، يابن العم، إنك لن تكون شاعراً أبداً" - وهي نبوءة كانت دقتها تجل عن إدراك الشاب وتقديره. وفي 1694 ترك سوفيت خدمة تمبل، مع توصية منه. فعاد إلى إيرلندا، ورسم قسيساً أنجليكانياً (1665) وعين في وظيفة كنيسة صغيرة صغيرة ذات راتب في كلروت بالقرب من بلفاست. وهناك وقع في غرام جين دارنج التي سماها "فارنيا"، و عرض عليها الزواج، ولكنها أمهلته حتى تتحسن صحتها ويزداد دخله. ولما لم يطق صبراً على هذه العزلة القاتلة في أبرشية ريفية، هرب من كلروت 1669 وعاد أدرجه إلى تمبل وظل في خدمته حتى مات هذا الأخير. وكان سوفيت في عامه الأول في موربارك، قد التقى بأستر جونسون التي قدر لها أن تصبح "Stella". وتأثرت بعض الشائعات بأنها نتاج شيء من طيش سير ولیم تمبل، الذي كان نادراً. والأرجح أنها ابنة تاجر من لندن. التحقت أرملة بخدمته ليدي تمبل. وعندما رآها سوفيت لأول مرة كانت في سن الثامنة، تبعث على السرور والابتهاج مثل سائر البنات في هذه السن، ولكنها كانت أصغر من أن تنير فيه لواعج الغرام والهيام. أما الآن وهي في الخامسة عشرة، فقد اكتشف سوفيت، معلمها الذي ناهز التاسعة والعشرين، أن مفاتها تثير المشاعر البدائية لدى الكاهن المحروم، لها عيان سوداوتان براقتان، وشعر أسحم، وصدر منتفخ، "رشيقة رشاقة غير معهودة في البشر. في كل حركة وفي كل كلمة وفي

صفحة رقم : 11013

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

كل عمل" (هكذا وصفها سوفيت فيما بعد)، "ركبت كل تقاطيع وجهها في أحسن صورة(83)" كيف لا تفتتن هلواز هذه معلمها أبيلاذ .
وعندما توفي تمبل 1699 ترك لأستر ألف جنيهه ولسوفيت مثلها. وبعد أمال خائبة في الالتحاق بوظائف الحكومة، قبل سوفيت الدعوة ليكون قسيساً وسكرتيراً لدى إرل بركلي الذي كان قد عين لفوره قاضي القضاة في إيرلندة. وعمل سكرتيراً للرحلة إلى دبلن، ولكنه هناك فصل عن عمله. فطلب أن يعين رئيساً لكنيسة "درف" وهو منصب كان على وشك أن يشغره. ولكن السكرتير الجديد، لقاء رشوة قدرها ألف جنيهه، خص بالوظيفة مرشحاً آخر. واتهم سوفيت إرل بيركلي والسكرتير كليهما، وجهاً لوجه، بأنهما "وعدان حقيران". فعملاً على تهيئته بتعيينه قسيساً في "لاكور"، وهي قرية على بعد نحو عشرين ميلاً من دبلن، لا يزيد شعبها على خمسة عشر شخصاً. والآن في 1700 بلغ دخل سوفيت 230 جنيهها، وهو دخل حسبته جين وارنج كافياً لإتمام الزواج. ومهما يكن من أمر، فقد مضت أربع سنوات على مفاتحته لها في أمر الزواج، وفي نفس الوقت كانت قد وقعت عينه على أستر. فكتب على جين يقول أنها إذا تزودت بقط من التعليم يؤهلها لتكون شريكة صالحة لحياته، وتعد بأن ترضى عن كل ما يحب ويكرهه، وتخفف من متاعبه ودراسته، فإنه يتزوجها دون نظر إلى وسامتها وجمالها أو إلى دخلها(84).
ومذ كان سوفيت وحيداً في لاراكور، فإنه كثيراً ما تردد على دبلن. وهناك في 1701 حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت، وبعد ذلك في نفس العام، دعا أستر جونسون وصديقتها مسز روبرت دنجلي ليحضرا ويقيما معه في لاراكور، فقدمتا واتخذتا مسكناً بالقرب منه. وفي أثناء تغيبه في إنجلترا شغلنا مسكنه الذي كان قد استأجره في دبلن وكانت أستر

صفحة رقم : 11014

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

"ستيلا" تتوقع منه أن يتزوجها، ولكنه تركها تنتظر طيلة خمسة عشر عاماً، واحتملت هي هذا الموقف الذي وضعها فيه على مضض، وانتابها الاضطراب والكآبة. ولكن قوة شخصيته وحده تفكيره، أخدمتا جذوتها وكأنما وقعت تحت تأثير تنويمه المغناطيس حتى النهاية.
وتألفت حدة ذهنه بشكل مباغت حين نشر في 1074 في مجلد واحد "معركة الكتب" و "حكاية حوض الاستحمام".
والأول إسهام موجز لا يستحق الذكر في الجدل حول المزاي النسبية للأدب قديمة وحديثة. أما الثاني فهو عرض هام لفلسفة سوفيت الدينية أو غير الدينية. وقال سوفيت عندما أعاد قراءة كتابه هذا في أخريات أيامه: "يا إلهي: أية عبقرية أملت على هذا الكتاب؟(85). وأحبه كثيراً إلى حد أنه في الطباعات التالية أتخفه بخمسين صحيفة أخرى من الهراء، على شكل مقدمات واعتذارات. وكان يفاخر ويزهو بأن الكتاب ينم عن أصالة بالغة. ومع أن الكنيسة كانت منذ أمد بعيد قد أكدت أن المسيحية هي "رداء المسيح السليم الذي شبه فيه" ولكن الإصلاح البروتستانتي مزقه إرباً فأن أحداء- خصوصاً كارليل Sartor Resortus- لم يطعن في القوة التي لم يسبق لها مثل التي رد فيها سوفيت كل الفلسفات والديانات إلى مجرد أروية تستخدم لستر جهلنا المرتجف أو إخفاء رغباتنا الجامحة المفضوحة:
"هل الإنسان نفسه إلا رداء بالغ الصغر أو على الأصح مجموعة كاملة من الملابس بكل زخارفها وزركشاتها ؟
أليست الديانة عباءة، والأمانة حذاء بلى بالوجل، وحب الذات معطفاً ضيقاً غاية الضيق، والغرور قميصاً، أليس الضمير إلا سروالاً (بنطلوناً) يستر الخلاعة والقذارة، ولكن من السهل نزع لخدمة الخلاعة والقذارة كلتيهما ؟ فإذا

وضعت بعض قطع الفراء الرخيص أو الثمين في موقع معين من الرداء فإننا بذلك نصنع قاضياً وحكماً ومن ثم فإن بعض الشاش والأطلس الأسود بعضهما إلى بعض بشكل مناسب يصنع لنا أسقفاً (86)".

صفحة رقم : 11015

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

وجرت إستعادة الرداء هنا بدقة ورقة. أن بيتر (الكاثولوكية)، ومارتن (اللوثرية والأنجليكانية) وجاك (الكلفنية) تسلموا، ثلاثتهم، من أبيهم وهو يحتضر، ثلاثة أردية جديدة متماثلة (كتباً مقدسة) إلى جانب وصية توجيههم كيف يلبسونها، وتحرم عليهم إبدالها، أو إضافة خيط واحد إليها أو إنتقاص خيط واحد منها ووقع الأبناء الثلاثة في غرام سيدات ثلاث: "دوقة المال"، أي الثراء، و"آنسة الألقاب الفخمة" أي الطمع، و"كونتيسة الكبرياء" أي الغرور، ولكن الأخوة الثلاث، رغبة منهم في إرضاء هؤلاء السيدات، يعمدون إلى إحداث بعض التغيير في أرديتهم الموروثة. ولما بدا لهم أن التغييرات تتعارض مع وصية أبيهم، أعادوا تفسير الوصية بتأويلات صادرة عن علماء ومثقفين. أما بيتر فقد أراد أن يضيف حواشي وأهداباً من الفضة (البذخ البابوي). وسرعان ما أتضح للعلماء الثقة أن لفظة "الهدب أو الحاشية" في الوصية تعني عصا المكنسة الطويلة. وهكذا إختار بيتر الحواشي الفضية، ولكنه حرم على نفسه عصا المكنسة الطويلة "السحر" وفرح البروتستانت (المحتجون) حين وجدوا أقسى الهجاء والنقد يوجه إلى بيتر: إلى شرائه قارة كبيرة (المطهر - مكان تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل) ثم بيعه (أي المطهر) في أجزاء متفاوتة (صكوك الغفران) المرة بعد الأخرى، وإلى علاجاته الناجحة الخالية من الآلام عادة (القفازات) للديدان (أي وخزات الضمير) - وعلى سبيل المثال: "الامتناع عن أكل شيء بعد العشاء لمدة ثلاث ليال، وألا تخرج على الإطلاق ريحاً من الجانبين دون سبب واضح (87)", وكذلك وجه النقد إلى بيتر لإبتداع "وظيفة الهمس" (أي الإعتراف) "الخير وراحة المصابين بوسواس المرض أو الذين أرهقهم المغص" و"وظيفة التأمين" (أي مزيد من الغفران)، "المخلل البالي المشهور (الكاثوليكي) ويعني به "الماء المقدس"، على أنه من الضعف والإنحلال. وحيث تزود بيتر بهذه الوسائل والحيل الحكيمة فإنه ينصب نفسه ممثلاً للرب، ويصف

صفحة رقم : 11016

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

فوق رأسه قبعات ذات تاج عال. ويمسك في يده بعضاً يختال بها، وإرغب الناس في مصافحته، قدم لهم "كأن كلب مدرب تدريباً جيداً" قدمه (88). ويدعو بيتر إخوته إلى الغداء، ولا يقدم لهم غير الخبز، ويؤكد لهم أنه ليس خبزاً بل لحمًا، ويدهض إعتراضاتهم ويقول "لإقناعكم بأنكمما لستم إلا شخصين أحمقين جاهلين عنيديين أعميين حقاً"، لن أستخدم إلا حجة واحدة: والله إنه لحم ضأن طيب طبيعي مثل أي لحم ضأن في "ليندهول ماركت"، صب الله عليكما

اللجنة الأبدية إذا صدقنا غير ما أقول (89) "ويثور الإخوان، ويستخرجان "نسخاً حقيقية" من الوصية (ترجمة الكتاب المقدس باللغة الوطنية)، ويشجبان بيتر على أنه محتال دجال. وبناء على هذا طرد بيتر أخويه من داره، ولم يستظلا بسقفة منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا (90)". وسرعان ما دب النزاع بعد ذلك بين الإخوة: إلى أي حد ينبغي أن يغيرون من أثوابهم الموروثة. ويعتزم مارتن، بعد ثورة غضبه الأولى، أن يلتزم جادة الاعتدال. ويتذكر أن بيتر أخوه. أما بيتر، فإنه على أية حال يمزق ثوبه إرباً (شيع كلفنية). ويصاب بمساة من الجنون والغيرة. ويستطرد سوفيت ليصف عمليات الريح (ويقصد بها الوحي والإلهام) عند العولسيين)- نسبة إلى عولس إله الريح "ويعني بهم" الوعاظ الكلفنيين. ويسخر كثيراً- سخرية لا يجوز نقلها هنا- من ألفاظهم الأنفية الحادة ومن نظرياتهم في القضاء والقدر، وتقديسهم الأعمى للنصوص المقدسة (91). والى هنا، لم يصب مذهب الكاتب- المذهب الأنجليكاني إلا اليسير من الجراح، ولكن سوفيت يسترسل في القصة، ويغير الأثواب إلى رياح، ومن الواضح أنه ينتهي إلى أن كل الديانات والفلسفات- لا لاهوتيات المنشقين فحسب- ليست إلا أضاليل وأوهاماً كاذبة سريعة الزوال. "إذا استعرضنا الإنجازات العظيمة التي تمت في العالم ... مثل تكوين الإمبراطوريات الجديدة عن طريق الغزو والفتح، وإبتداع ونمو مذاهب

صفحة رقم : 11017

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

جديدة في الفلسفة، وإستنباط أديان جديدة ونشرها، فلسوف نجد أن الذين قاموا بهذا كله، ليسوا إلا أشخاصاً هيأت لهم عقولهم الطبيعية أن يقوموا بانقلابات كبيرة، بفضل غذائهم وتعليمهم، ومزاج معين سائد، بالإضافة إلى تأثير خاص للهواء والمناخ ... لأن عقل الإنسان المستقر في مخه، لا بد أن ترهقه وتغمره أبخرة ورياح صاعدة من القوى والوظائف الجسدية الدنيا لتسقي المخترعات وتجعلها مثمرة (92). ويسترسل سوفيت في تفصيل فسيولوجي لا يمكن ذكره، لما بدا له أنه مثال رائع لإفرازات داخلية تولد أفكاراً قوية، ومن ذلك "المشروع الكبير" لهنري الرابع: ذلك أن ملك فرنسا لم يوح إليه بشن الحرب ضد آل هيسبرج ويستحثه عليها إلا تفكيره في الإستحواذ في طريقه على امرأة (هي شارلوت مومورنس) التي حرك جمالها في الملك عصارته مختلفة "صعدت إلى مخه (93)" وهذا هو بالمثل ما حدث بكبار الفلاسفة الذين حكم عليهم معاصروهم بحق بأنهم "فقدوا عقولهم". "ومن هذا الطراز كان أبيقور، ديوجين، أبولونيوس، لوكريشس، ياراسلسوس، ديكارت، وغيرهم، ممن كانوا على قيد الحياة الآن، ... لتعرضوا في هذا العصر المتميز بالفهم، لخطر واضح، خطر فصد الدم، والسياط، والأغلال، والحجرات المظلمة والقش (في السجون) أما الآن فقد يسرني أن أعرف كيف أنه من الميسور أن نعلل لهذه التصورات والأفكار، .. دون إشارة إلى الأبخرة التي تتصاعد من القوى والوظائف الجسدية الدنيا، حيث تلقي ظللاً معتمة على المخ، فتقطر أو تتساقط مفاهيم لم تضع لها لغتنا الضيقة بعد أسماء غير الجنون أو الخبل (94). ولمثل "هذا الخلل أو التحول في المخ بفعل الأبخرة المتصاعدة والقوى والوظائف الجسدية الدنيا" يعزو سوفيت كل الانقلابات أو الثورات التي حدثت في الإمبراطورية والفلسفة والدين (95) ويخلص إلى أن كل مذاهب الفكر عبارة عن رياح من الألفاظ، وأن الزجل العاقل لا ينبغي له أن ينفذ

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

إلى الحقيقة الباطنة للأشياء، بل يقنع نفسه بالسطح أي بظواهر الأشياء، وبناء على هذا يستخدم أحد التشبيهات اللطيفة التي يعطف إليها دائماً: "رأيت في الأسبوع الماضي امرأة سلخ جلدها، ولن تصدق أنت بسهولة إلى أي حد تغير شكلها إلى أسوأ مما كانت(96)".

إن هذا الكتاب الصغير المخزي الذي وقع في 130 صفحة، جعل من سوفيت في الحال "سيد الهجاء"- أو كما سماه فولتير: رابليه آخر في صورة متقنة. إن القصص الرمزي أو المجازات إتسقت إتساقاً حريفاً مع معتقده الأنجليكاني التقليدي. ولكن كثيراً من القراء أحسوا بأن الكاتب متشكك، إن لم يكن ملحداً. أما رئيس الأساقفة شارب فإنه أبلغ الملكة أن سوفيت لم يفضل الكافر بشيء كثير(97). وكان من رأي دوقه مالبورو الصديقة الحميمة للملكة، أن سوفيت: "حول، منذ زمن طويل، كل الديانة إلى "قصة حوض الإستحمام" على أنها وباعها دعاية. ولكنه كان قد إبتاء من أن "الأحرار" لم يكافئوه بالترقية في الكنيسة على ما أظهره من غيرة شديدة على الدين بهزله الدنس، ولذلك سخر إحداه ومزاحه ومرحه في خدمة أعدائهم(98)".

كذلك نعته سننيل بأنه كافر، ووصفه نوتنجهام في مجلس العموم بأنه عالم لاهوتي "من العسير أن يشك في أنه مسيحي(99). وكان سوفيت قد قرأ هوبز، وهي تجربة ليس من اليسير نسيانها. ذلك أن هوبز كان قد بدأ بالخوف، انتقل إلى المذهب المادي، وانتهى بأن يكون (محافظاً) يناصر الكنيسة الرسمية.

وكان لرجال الدين قليل من العزاء في أن سوفيت أخرج مؤلفاً في الفلسفة: "إن مختلف الآراء الفلسفية انتشرت في أنحاء العالم، وكأنها أمراض طاعون أصابت العقل، كما انتشر صندوق بندورا الأوبئة التي تصيب

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

الجسم، مع فارق واحد، هو أن الطاعون لم يترك شيئاً من الأمل في القاع إن الحقيقة خافية على الناس، قدر خفاء منابع النيل، ولا يمكن وجودها إلا في "بوتوبيا" (المدينة المثالية)(100). ومن الجائز أن سوفيت، لأنه أحس بأن الحقيقة لم تقصد للبشر، نبذ في إصرار شديد كل الفرق الدينية التي ادعت أن مذهبها "هو المذهب الصحيح". وازدرى الرجال الذين زعموا- مثل بانيان وبعض الكويكرز- أنهم رأوا الله أو كلموه. وانتهى، مع هوبز، إلى أنه ضرب من الانتحار الاجتماعي أن نترك لكل إنسان الحرية في أن يصنع عقيدته أو مذهبه بنفسه، حيث لن تكون نتيجة ذلك إلا عاصفة هوجاء من السخافات يصبح معها "بيمارستانا" أو مستشفى للأمراض العقلية. ومن ثم عارض سوفيت حرية الفكر، على أساس أن "جمهور البشر مؤهل للطيران قدر ما هو مؤهل للتفكير(101)". واستنكر التسامح الديني، وظل لأخر حياته يؤيد "قانون الاختبار" الذي قضى بإقصاء غير أتباع الكنيسة الرسمية عن كل الوظائف السياسية والعسكرية(102). واتفق مع الحكام الكاثوليك واللوثرينيين على أنه يجب أن يكون للأمة عقيدة دينية واحدة. وحيث أنه ولد في إنجلترا، ومذهبها الرسمي هو الأنجليكاني، فإنه رأى أن الإتفاق

العام الكامل على اعتناق هذا المذهب أمر لا غنى له عنه لعملية تمدين الإنجليز ونشر سويفت في 1708 بعض القطع: "أحاسيس رجل يتبع كنيسة إنجلترا"، "والدليل على أن إلغاء المسيحية في إنجلترا قد يستتبع بعض المتاعب والمشاكل والمزعجات" وكان آنذاك في طريقه من الأحرار إلى المحافظين". وكان أول ارتباط سياسي له- بعد ترك ثمبل- مع الأحرار، حيث

صفحة رقم : 11020

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> جوناثان سويفت

بدا له أنهم أكثر تقدمية، ومن الأرجح أن يجدوا عملاً لرجل أكبر عقلاً وأقل ثراءً. وفي 1701 نشر كتيباً يناصر فيه حزب الأحرار وكله أمل في الظفر بشيء. ورحب هاليفاكس وسندر لند وغيرهما من زعماء الأحرار، بانضمامه إلى حزبهم، ووعدوه خيراً إذا تولوا الحكم. ولكنهم لم ينجزوا ما وعدوا، ويحتمل أنهم خشوا من أن سويفت رجل لا يسهل قيادته، وأن قلمه سلاح ذو حدين، وفي رحلة موسعة من أيرلنده إلى لندن في 1705 كسب سويفت صداقة كونجريف وأديسون وستيل. وأهداه أديسون نسخة من "رحلات إلى إيطاليا" وكتب في عبارة الإهداء "إلى جوناثان سويفت، أحسن رفيق وخير صديق، أعظم عبقرية في زمانه يقدم خادمه الدليل، المؤلف، هذا الكتاب (103)"، ولكن هذه الصداقة، مثل صداقة جوناثان مع ستيل وبوب، لم تدم، وأنت عليها نيران سويفت المتقدة أو ثورته المتصاعدة. وفي زيارة أخرى لدينه لندن، تسلى سويفت بتدمير منجم دعي. ذلك أن جون بار تريديج، الإسكافي، أخرج كل عام تقوياً زاخر بالنبوءات المؤسسة على حركات النجوم. وفي 1708 نشر سويفت تحت اسم مستعار "إيزاك بيكرستاف" تقوياً تنافسياً. وكان من بين تنبؤات إيزاك، انه في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم 29 مارس سيقضي بار تريديج نحبه. وفي 30 مارس نشر بيكرستاف في نشوة الانتصار رسالة أعلن فيها أن بار تريديج مات في ظرف بضع ساعات من الموعد المحدد في النبوءة، وذكر في تفصيل مقتنع ترتيبات الجنازة. وأكد بار تريديج لمدينة لندن بأسرها أنه لا يزال حياً يرزق. ولكن إيزاك رد بأن هذا محض افتراء. وأدرك ظرفاء المدينة الخدعة. ورفع مكتب التسجيلات اسم بار تريديج من سجلاته أما ستيل فإنه اختار إيزاك اسماً لمحرر وهمي في صحيفة "تاتلر" عند افتتاحها في السنة التالية. وفي 1710 غادر سويفت لارا كور مرة أخرى، موفداً عن الأساقفة

صفحة رقم : 11021

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> جوناثان سويفت

الأيرلنديين ليطلب إلى الملكة أن أن تمد يد معونتها إلى رجال الدين الانجليكانيين في أيرلنده: ورفض جودلفين وسومرز، وهما عضوان من حزب الأحرار في مجلس المكلة، الموافقة على هذا إلا إذا وافق رجال الدين هؤلاء،

على التخفيف من حدة "قانون الاختبار" والإرخاء من قبضته. وعارض سوفيت بشدة التخفيف المطلوب. واكتشف الأحرار أنه كان "محافظاً" بالنسبة للعقيدة الدينية. وأعترف سوفيت عملياً بأنه "محافظ" بالنسبة للسياسة أيضاً، حين كتب: "إني كنت أمقت دوماً هذا النهج السياسي ... ألا وهو وضع مصالح ذوي المال في مواجهة مصالح مالكي الأرض(104)". ولجأ إلى زعمي المحافظين، هارلي وبولنجبروك ولقى ترحيباً حاراً، وأصبح بين عشية وضحاها "محافظاً" راسخاً. وعين محرراً لصحيفة المحافظين "إجزامر". وأبرز أسلوبه بوضوح عندما وصف نائب حاكم أيرلنده- وهو من حزب الأحرار، وكان أديسون صديق سوفيت سكرتيراً له:

"إن توماس إرل وارنون ... بحكم دستور غريب، قضى بضعة أعوام من سني اليأس التي تقدم بها عمره، دون آثار بارزة للشيخوخة في جسمه أو عقله. وعلى الرغم من مقارفته المستمرة لكل الموبقات التي تعتصر الجسم والعقل كليهما ... فإنه يذهب دوماً إلى الصلاة. ويتحدث حديث الفسق والفجور والتجديف على باب الكنيسة، فهو مشيخي في السياسة ملحد في العقيدة. ولكنه يؤثر الآن أن يفجر مع البابوية(105)".

وسر الوزراء "المحافظون" بها الهجاء اللاذع الذي يشبه القتل، فعهدوا إلى سوفيت بكتابة فذلقة "سلوك الحلفاء" (نوفمبر 1711)، كجزء من حملتهم لإسقاط مالبيورو وإنهاء حرب الوراثة الإسبانية، واحتج سوفيت بأن الضرائب الاستثنائية التي فرضت لتمويل الحروب الطويلة ضد لويس الرابع عشر يمكن خفضها بقصر إسهام إنجلترا في الحروب على البحر، وأوضح بأجلى بيان شكوى مالكي الأرض من أن عبء نفقات الحرب

صفحة رقم : 11022

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

وقع على عاتقهم أكثر مما على عاتق التجار وأصحاب المصانع الذين كانوا يستفيدون من الحرب. أما بالنسبة لدوق مالبيورو فقد قال سوفيت "هل كان من حسن الرأي شن الحرب، أو لم يكن؟ ... وأوضح بأن الدافع إلى الحرب، هو الرفع من شأن أسرة بعينها، وبعبارة موجزة أنها حرب لحساب القائد ووزارة الأحرار، وليست حرباً لحساب الملك والشعب(106) وقدر الكاتب رواتب مالبيورو وتعويضاته بنحو 540 ألف جنيه "وهذا الرقم دقيق(107)". وبعد شهر واحد سقط مالبيورو وصورت الدوقة زوجته الجريئة الصريحة وهي الوحيدة في إنجلترا التي كان لسانها حاداً لاذعاً، مثل لسان سوفيت- صورت في مذكراتها المسألة من وجهة نظر الأحرار، فقالت:

"أن السيدين المحترمين مستر سوفيت ومستر بريور أسرعا فعرضاً نفسيهما للبيع ... وكلاهما من الموهوبين القادرين، وهما مستعدان لتسخير كل ما لديهما لخدمة أية فريضة مخزية طالما كانت المكافأة مجزية. لأن كليهما لا يبالي بحمرة الخجل ولا بالسقوط أو الانزلاق من أجل مصلحة سادتهم الجدد(108).

وكافأ المحافظون تابعيهما الجديدين: فعينوا ماتيو بريور في منصب دبلوماسي في فرنسا حيث أبلى بلاءً حسناً. ولم يحصل سوفيت على أي منصب ولكنه كان صديقاً حميماً وثيق الصلة بوزراء المحافظين، فاستطاع بذلك أن يحصل لكثير من أصدقائه على وظائف تدر مالاً وفيراً ولا تقتضي عملاً كثيراً. وكان مثال الكرم والعطف على من لم يعارضه أو يهاجمه. وزعم فيما بعد أنه أهدى لخمسين شخصاً أكثر خمسين مرة مما أهداه إليه سير ولیم ثمیل(109). وأقنع بولنجبروك بمساعدة الشاعر جاي Gay وألح على وجوب استمرار الوزارة في دفع الراتب الذي كان الأحرار يدفعونه لكونجريف. ولما طلب بوب جمع بعض التبرعات لمعاونته على ترجمة هوميروس، أمر سوفيت كل أصدقائه وكل طلاب الوظائف بالتبرع،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

وأقسم "أن المؤلف لن يشرع في الطبع قبل أن يجمع له ألف جنيه(110)" وغطت شخصيته على مكانة أديسون في الأندية، وكان في كل ليلة تقريباً يتناول العشاء مع العظماء. ولم يكن يطيق من أحدهم أية سمة من سمات التعالي عليه. وكتب يوماً إلى ستيللا "إنني مزهو متكبر إلى حد أني أجعل اللوردات يأتون إلي ... كان مفروضاً أن أتناول العشاء في قصر أشبيرنهام، ولكن هذه السيدة المنحطة القذرة لم تعرج علينا لنصحبها في عربتها، ولكنها أرسلت في طلبنا فحسب، ولذلك أرسلت إليها إعتذاراً(111)".

وفي السنوات الثلاث (1710-1713) في إنجلترا كتب سوفيت الرسائل العجيبة التي نشرت فيما بين 1766-1768 تح عنوان "يوميات إلى ستيللا". إنه كان في حاجة إلى صديقة حميمة إلى جانبه في العشاء لدى الأدواق والدوقات، وفي انتصاراته السياسية. أضف إلى ذلك أنه أحب المرأة الصابرة، التي ناهزت الثلاثين آنذاك، ولكنها ظلت تنتظره حتى يحزم أمره. ولا بد أنه أغرم بها، لأنه كتب لها أحياناً مرتين في اليوم الواحد، وأظهر اهتمامه وتعلقه بكل ما يعينها، اللهم إلا الزواج. وما كان ينبغي لنا أن نتوقع من مثل هذا الرجل المستبد المتعطر، هذا المزاج الرقيق، وهذه الألقاب والكنيات الغريبة، والنكات والتوريثات، والحديث الصبياني، مما صبه سوفيت في رسائله التي لم يتوقع نشرها. إنها وسائل زاحرة بالملاطفة والتدليل، ولكنها خلو من أي عرض أو اقتراح، اللهم إلا إذا كانت ستيللا قد قرأت وهدأً بالزواج في رسالته المؤرخة 23 مايو 1711: "لن أطيل الحديث، ولكني أتوسل إليك أن تهدئي حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وأن نتقي بأن سعادتك هي غاية ما أصبو وأسعى إليه في كل ما أعمل(112)" ومع ذلك فإنه في هذه الرسالة يطلق عليها "الطفلة المزعجة، الساذجة، الفتاة المغناج، البغي، المرأة القذرة، الكلبة المحبوبة، وغير ذلك من ألقاب التدليل والملاطفة. وإنا لنلمس روح الرجل

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

حين يقول لها:

هل يجب أن تغتصب المرأة لأنها بغي(113)؟!.

وقد تعيننا علل سوفيت الجسيمة على فهم السر في رداءة طبعه وسرعة غضبه، أنه منذ 1694، وهو في السابعة والعشرين من العمر، بدأ يعاني من دوار في الأذن الداخلية ومن حين لآخر، وبشكل لا يمكن التنبؤ به، أصابته نوبات من الدوار وتشويش الذهن والصرع. ونصح طبيب مشهور هو دكتور رادكليف بأن يوضع سائل مركب داخل كيس في لمة (الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن) سوفيت، واشتدت به العلة على مر السنين، وكان من الجائر أن تسبب له

الجنون. ويحتمل انه في 1717 قال للشاعر أدوار بنج، مشيراً إلى شجرة ذابلة "إني سأموت مثل هذه الشجرة سأموت في القمة(114)". وكان هذا وحده كافياً ليتشكك في قيمة الحياة، وليرتاب قطعاً في وجه الحكمة في الزواج. ومن الجائز أنه كان عنيباً، ولكننا لا نستطيع الجزم بهذا. وأعتاد على كثرة المشي اتقاء لهزال جسمه، فمشى مرة من فارنام إلى لندن: 38 ميلاً.

وزاد من شدة مرضه حدة حواسه حدة مؤلمة، وهي عادة تلازم حدة الذهن وفرط الذكاء. وكان بشكل خاص شديد الحساسية للروائح في شوارع المدن وفي الناس. فاستطاع بمجرد الشم، عن صحة من يقابل من

صفحة رقم : 11025

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> جوناثان سويفت

الرجال والنساء، وخلص من هذا إلى أن الجنس البشري أصابه النتن(115). ولذلك كان مفهوم المرأة الجديرة بالحب والإعجاب عنده ينحصر إلى حد ما في:
"أنها لا يخرج من جسمها النقي هبات كريهة الرائحة تنثير الاشمزاز، لا من خلف ولا من قدام، ولا من فوق، ولا من تحت، ولا ينصب منها العرق البغيض(116)".

أنه يصف "غادة جميلة في طريقها إلى الفراش"، ونفس المرأة حين تفيق.

"إن من يرى كورينا في الصباح يتقياً، ومن يشم رائحتها يصاب بالتسمم".

إن مفهومه عن المرأة الشابة الجميلة مرتبط بحاسة الشم:
"إن أعز رفيقاتها لم يرينها يوماً تجلس القرفصاء لتتبول، ولك أن تقسم بأن هذه المخلوقة الملائكية لم تحس يوماً بضرورات الطبيعة، فإذا مشت في شوارع المدينة في الصيف لم يلوث أبطاها ثوبها. وفي حلبة الرقص في القرية أيام القيظ لن يستطيع أنف أن يشم رائحة أصابع قدميها(117)".
وكان سويفت نفسه نظيفاً إلى حد التزمت. ومع ذلك فإن كتابات هذا الكاهن الأنجليكاني تعد من أفحش ما كتب في الأدب الإنجليزي. أن تبرمه بالحياة جعله يقذف بأخطائه في وجه زمانه. ولم يبذل أي جهد في إرضاء الناس، ولكنه بذل كل الجهد في أن يسيطر ويتحكم، لأن السيطرة خفت من شعوره الخفي بعدم الثقة في نفسه. وقال أنه يكره (أو يرهب) كل من لا يستطيع أن يأمره(118)، على أن هذا لم يصدق على حبه لهارلي، وكان غضوباً عند الشدة، متغطرساً فظاً وقت الرخاء والنجاح. وأحب السلطة أكثر مما أحب المال. وعندما أرسل إليه هارلي بخمسين جنيهاً أجراً لمقالاته، رد الحوالة وطالب بالاعتذار، وكان له ما أراد، فكتب إلى ستيللا "لقد استرضيت مستر هارلي ثانية(119)". وكان يكره الرسميات ويحتقر النفاق. وبدلاً من أن الدنيا تميل إلى قهره،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

وقابل هو العدا بمثله صراحة، وكتب إلى الشاعر بوب:
 "إن غاية ما أصبو في كل أعمالي أن أزعج العالم وأضايقه، لا أن أسليه، فإذا استطعت أن أحقق هذا الغرض دون أن
 الحق الأذى بشخصي أو بثروتني، لكنت أعظم كاتب لا يكمل ولا يمل رأيتيه أنت في حياتك.. إذا فكرت في الدنيا
 فأرجوك أن تجدها بالسوط بناء على طلبي. لقد كنت أبداً أكره الأمم والوظائف والمجتمعات. وكان كل حبي للأفراد،
 إنني أكره طائفة رجال القانون، ولكنني أحب مستشاراً بعينه أو قاضياً بعينه، وهكذا الحال مع الأطباء. (ولن أتحدث عن
 صناعتي)، والجنود، والإنجليز والاسكتلنديين والفرنسيين، ولكنني أساساً أكره وأمقت هذا الحيوان الذي يسمى إنساناً،
 ولو أنني من كل قلبي أحب جون وبيتر وتوماس وهكذا(120)".
 عند هذا الحد يبدو أن سوفيت أقل الرجال جدارة بالحب، ولو أن امرأتين أحبته إلى أن فارقنا الحياة. وأقام في هذه
 السنوات في لندن قريباً من أرملة غنية تدعى فانهو مراي، وكان لها ابنان وابنتان، فإذا لم تتيسر له الدعوة إلى موائد
 العظماء، كان يتناول العشاء مع "آل فان". ووقعت الابنة الكبرى "هستر" في حبه وكانت آنذاك في الرابعة والعشرين
 (1711)، وهو في الثالثة والأربعين، وأفصحت له عن حياها. فحاول أن يصرف النظر عن هذا باعتباره مرحاً أو
 مزاجاً عابراً، وأوضح لها أنه قد كبرت سنه بحيث لم يعد يصلح لها. فأجابته، يحدوها كل الأمل، بأنها تعلمت منه في
 كتبه أن تحب عظماء الرجال قرأت "مونتاني في المرحاض"، فلماذا لا تحب رجلاً عظيماً إذا وجدته ماثلاً أمامها؟
 فرق قلبه ولانت قناته بعض الشيء فنظم قصيدة من أجل عينها فقط "كادينوس وفانيسا" قصيدة بين المرح والمأساة.
 وكان "فانيسا" اسمه هو عندها، أما "كادينوس" فكان تصحيفاً للفظه "ديكانوس" أي الكاهن الكبير.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

ذلك انه أبريل 1713 عينته الملكة كارهة رئيساً لكاتدرائية سان باتريك في دبلن. وسافر إلى هناك في يونيو ليتسلم
 العمل، ورأى ستيللا وكتب إلى نانيسا بأنه كاد يموت كآبة وكمدأ واستياء(121) وفي أكتوبر 1713 عاد إلى لندن
 وشارك في كارثة حزب المحافظين المفاجئة 1714، ومذ فقد السلطان السياسي بعودة الأحرار الذين كان قد هاجمهم،
 إلى الحكم في ظل الملك جورج الأول، فإنه قفل راجعاً إلى إيرلندا الكريهة، وإلى كاتدرائيته. ولم يكن محبوباً في دبلن
 لأن الأحرار الذين تولوا الآن الحكم كرهوه لنقده الساخر العنيف وخطبه اللاذعة، كما كرهه المنشقون لإصراره على
 استبعادهم من الوظائف العامة. وانطلقت من الناس أصوات الاستهجان والازدراء به في الشوارع، ورجموه
 بقاذورات البالوعات(122) ووصف أحد رجال الدين الأنجليكانيين منظر رده في قصيدة ثبتها بالمسامير على باب
 الكاتدرائية:

"يستقبل هذا المعبد اليوم رئيساً ذا مذاهب وشهرة غير عادية استخدمها جميعاً في الصلاة وفي الدنس، خدمة للرب والشيطان كليهما.. وهو مكان حصل عليه بالدهاء والقصيد وبوسائل أخرى من أعجب الوسائل. وربما أصبح بمرور الزمن أسقفاً، لو أنه آمن بالله(123)":

وصمد سويفت للمحنة في شجاعة واستمر يناصر المحافظين، وعرض أن يشارك هارلي سجنه في برج لندن. وقام بواجباته الدينية، وألقى المواعظ بانتظام. ومنح الأسرار المقدسة، وعاش عيشة بسيطة، وتصدق بثلاث دخله. وفي أيام الأحد فتح أبواب مسكنه للقاصدين، وجاءت ستيلا لخدمة الضيوف، وسرعان ما خفقت كراهية الناس له، وبدأوا يقبلون عليه. وفي 1724 نشر تحت اسم مستعار "م.ب. درابيه" ست رسائل يندد فيها بمحاولة وليم وود جمع أرباح طائلة من إمداد أيرلندا بعملة نحاسية. وأستنكر الأيرلنديون هذه المحاولة. وعندما اكتشفوا أن درابيه لم يكن إلا سويفت، كاد الكاهن المكتتب أن يصبح شعبياً محبوباً تماماً.

صفحة رقم : 11028

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> جوناثان سويفت

وربما استطاع سويفت أن يحظى بلحظات من السعادة لو انه كان في مقدوره لأن يحتفظ بالبحر الأيرلندي بين السيدتين اللتين أحبته. ولكن في 1714 ماتت مسز فانهو مراري، وانتقلت ابنتها فانيسا إلى أيرلندا لتستغل بعض الممتلكات التي تركها لها والدها في سلبردج، على بعد أحد عشر ميلاً إلى الغرب من العاصمة. ولتكون بالقرب من رئيس الكاتدرائية، استأجرت مسكناً في زقاق تيرنستيل في دبلن، على مسافة قصيرة من مسكن ستيلا، وكتبت إلى سويفت ترحوه أن يزورها، وإلا ماتت كمدأ. ولم يستطع أن يقاوم توسلاتها، وفيما بين 1714-1723 تردد عليها خفية مراراً وتكراراً. ولما خفت زيارته لها أصبحت رسائلها إليه أشد حرارة والتهاباً. وقالت له في إحداها أنها ولدت بهذه "العواطف الجارفة" التي تنتهي كلها إلى شيء واحد: هو حبي لك الذي لا يمكن وصفه أو التعبير عنه". وأبلغته أنه قد يكون من العبث أن يحاول تحويل حبه إلى حب الله، "فلو أنني غبورة متحمسة فستظل أنت المعبود الذي يجب لأن أعبده"(124).

وربما فكر سويفت في الزواج للخروج من هذا المأزق الذي تورط فيه بين المرأتين اللتين أحبته، وربما طالبت ستيلا، وهي تعلم أن لها منافسة، بالزواج على أنه عدالة مطلقة وأبلغ دليل على ذلك أنه تزوجها فعلاً في 1716(125) ووضح أنه يطلب إليها كتمان أمر زواجه. واستمرت تقيم بعيداً عنه. ويحتمل أنه لم يبشرها قط. واستأنف سويفت زيارته لفانيسا، لا مغازلاً، ولا وحشاً بهيمياً، بل المفهوم أن قلبه لم يطاوعه على أن يتركها يائسة بلا أمل، أو أنه خشى أن تقدم على الانتحار. وأكدت رسائله لفانيسا أنه أحبها وقدرها فوق كل شيء، وأنه سيكون لها هذا الحب والتقدير حتى آخر لحظة من حياته. وسارت الأمور على هذا المنوال حتى 1723، حين كتبت فانيسا إلى ستيلا تسألها في صراحة تامة عن العلاقة بينها وبين رئيس الكاتدرائية. فأخذت ستيلا الخطاب إلى سويفت الذي ركب لفوره

صفحة رقم : 11029

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

إلى فانيسا ورمى على ماندتها. وروعا بنظراته الغاضبة. وتركها إلى غير رجعة دون أن ينبس ببنت شفة. وعندما أفاقت فانيسا من غشيتها، تحققت آخر الأمر من أنه كان يخدعها، واجتمعت خيبة الرجاء إلى نزعة جامحة في إفناء ما بقي لها من أسباب الصحة والحياة، وقضت نحبها في بحر شهرين من هذا اللقاء الأخير (2 يونيو 1923) وهي في الرابعة والثلاثين. وثارت لنفسها في وصيتها. فألغت وثيقة قديمة كانت قد جعلت فيها سوفيت وريثاً لها، ثم أوصت بكل متاعها لروبرت مارشال والفيلسوف جورج بيركلي، وأمرتهما أن ينشرا دون تعليق رسائل سوفيت إليها، وقصيدة "كادينوس وفانيسا". وهرب سوفيت في "رحلة إلى الجنوب"، في إيرلندا، ولم يظهر في الكاندرائية إلا بعد مضي أربعة شهور على وفاة فانيسا.

وعند عودته انصرف إلى كتابة أشهر وأقوى هجاء وجهه إلى الجنس البشري. وكتب إلى شارلي فورد أنه مشغول بوضع كتاب "يمزق العالم ويهزه هزاً عنيفاً بشكل عجيب (126)". وانتهى سوفيت منه بعد سنة، وحمل المخطوط بنفسه إلى لندن، ورتب أمر نشره تحت اسم مستعار، ورضى بمائتي جنيه ثمناً له، ثم قصد إلى دار الشاعر بوب في توبنكهام ليستمتع بالعاصفة المرتقبة. وهكذا استقبلت إنجلترا في أكتوبر 1726 "رحلات إلى عدة شعوب بعيدة في العالم" بقلم لوميل جليفر. وكان أول رد فعل عام هو الابتهاج بالواقعية المفصلة في سرد الأحداث. واعتبره كثير من القراء تاريخاً، ولو أن أسقفاً إيرلندياً (كما يقول سوفيت) ذهب إلى أنه مملوء بأشياء بعيدة الاحتمال: أما معظم القراء فإنهم لم يذهبوا إلى أبعد من الرحلات إلى أرض الأقزام Lilliput وأرض العمالقة Brobdinngnaq وهذا سرد جميل يوضح بطريقة مفيدة النسبية في الحكم على الأشياء أو التمييز بينها، ولم يزد طول الأقزام عن ست بوصات، ولذلك نفخوا في جليفر روحاً متزايدة من التسامي. وكان الذي يميز بين الأحزاب السياسية لديهم هو

صفحة رقم : 11030

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

الكعوب العالية أو المنخفضة لأحذيتهم. أما الفرق الدينية فهي فريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الصغير. وكان طول العمالقة سنتين قدماً، وقد هياؤا لجليفر مشهداً آخر جديداً من مشاهد البشرية. وحسبه ملكهم حشرة، واعتبر أوربا بيتاً للنمل. ومن وصف جليفر لأساليب الحياة، خلص الملك إلى أن "كل مواطنكم أخبث جنس من الحشرات الطفيلية الصغيرة البغيضة التي تركتها الطبيعة تزحف على سطح الأرض (127)". وكانت صدور غادات العمالقة، وهي صدور ضخمة، تتفر جليفر (ويشير الكاتب هنا إلى النسبية في الجمال). وتضعف القصة في رحلة جليفر الثالثة. أنه يشد بالسلاسل والأغلال في دلو إلى "لابوتا" وهي جزيرة سابعة في الهواء يقطنها ويحكمها رجال العلم والمتفوقون والمخترعون والأساتذة والفلاسفة، فان التفاصيل التي جاءت في أماكن أخرى لتزود القصة باحتمالات كثيرة، كانت هنا (في المرحلة الثالثة) سخيفة بعض الشيء، من ذلك أكياس الهواء الصغيرة التي يسد بها الخدم أذان وأفواه المفكرين العميقي التفكير ليفيقوا من شرود الذهن الخطير أثناء تأملاتهم. وأكاديمية لاجادو، بمخترعاتها وقراراتها الوهمية، ليست إلا نقداً هزياً لقصة بيكون "قارة الأطلنطس الجديدة"، وللجمعية الملكية في لندن. ولم يكن سوفيت يثق في جدوى إصلاح الدولة أو حكمها بواسطة رجال العلم، وكان يزخر من نظرياتهم، وفناتها السريع لها. وتنبأ بسقوط كوزمولوجيا نيوتن (أرانه في الكون) "إن الأنظمة الجديدة ليس في الطبيعة ليست إلا أزياء أو أنماطاً جديدة قد تختلف من عصر إلى عصر، وحتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يوضحونها

على أسس رياضية (تعريضاً بكتاب المبادئ الرياضية 1687) لن يكتب لهم النجاح إلا لفترة قصيرة من الزمن (128)".
ثم ينتقل جليفر إلى أرض "اللجانجيين Luggnaggians" الذين

صفحة رقم : 11031

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> جوناثان سويفت

لا يحكمون على أكابر مجرميهم بالموت بل بالخلو.
"فاذا بلغ هؤلاء المجرمون سن الثمانين وهي السن المعتبرة نهاية الحياة في بلدهم، لا تكون فيهم كل الحماقات والسقام والعلل التي في سائر المسنين فحسب، بل أكثر منها بكثير، مما نشأ من توقعاتهم الرهيبة بأنهم لن يموتوا قط، ولم يكونوا عنديدين شكسين طامعين فيما في أيدي غيرهم، مكتئبين عابثين ثرثاريين فحسب، بل كانوا كذلك غير أهل للصدقة، لا يستجيبون لأية عاطفة أو حب طبيعي، لم يهبط قط عن حضرتهم. وكان الحسد والرغبات عاجزة هي الشعور السائد بينهم... وإذا رأوا جنازة ولولوا وتذمروا من أن الآخرين ذاهبون إلى دار الراحة حتى لا يأمنون هم أنفسهم في الوصول إليها... أبدأ وكان هذا أفظع منظر مخز مميت للشهوات رايته في حياتي. وكانت النساء اشد إزعاجاً من الرجال... ومن هذا الذي سمعت ورأيت، خقت كثيراً شهوتي الحادة في البقاء على قيد الحياة (129)".
وفي القسم الرابع نبذ سويفت الهزل والمزاح إلى شجب قوي ساخر للإنسانية. فان أرض "الهويمين" يحكمها جياذ نظيفة وسيمة بهيجة، تنطق بالحكمة وتتلى بكل مظاهر المدنية، على حين أن الخدم الحقراء فيها، وهم "الياهو المتوحشون"، هم رجال أقدار كريهو الرائحة، جشعون مخمورون، غير متعقلين مشوهون. ومن بين هؤلاء المنحنيين المنحطين (هكذا كتب سويفت في أيام جورج الأول):
"كان هناك رجل حاكم من "الياهو" (ملك)، أشبع شكلاً وأكثر نزوعاً إلى الشر والأذى من الآخرين... وكان لهذا الزعيم عادة شخص مثله محسوب عليه أثير لديه، عمله الوحيد هو أن يلحق قدمي سيده... ويأتي بنساء الياهو إلى حظيرته، ومن أجل هذا كان يكافأ من حين إلى حين بقطعة من لحم الحمار (علامة على النبالة؟)... وكان يبقى عادة في عمله هذا، حتى يمكن العثور على من هو أسوأ منه (130)".

صفحة رقم : 11032

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويفت -> جوناثان سويفت

وبالمقارنة فإن "الهويمين"، لأنهم متعقلون، كانوا سعداء فضلاء، ولذلك لم يكونوا في حاجة إلى أطباء أو محامين أو رجال دين أو قواد جيوش، وصعقت تلك الجياذ المهذبة "الماجنة" ببيان جليفر عن الحروب في أوربا. كما ذهلت أكثر فأكثر لسماعها بالخلافات التي أدت إلى الحروب - "هل يكون الجسد خبزاً أو يكون الخبز جسداً في القربان

المقدس، وهل يكون عصير ثمار معينة دماً أم نبيذاً(131)، وكانوا يقاطعون جليفر حين يفاخر بالعدد الكبير عن البشر الذي يمكن نسفه بالآلات العجيبة التي اخترعها قومه. وعندما يعود جليفر أدراجه إلى أوربا، نراه لا يكاد يضيق برائحة الشوارع والناي الذين يبدو في نظره الآن أنه من "الياهو".

"استقبلتني زوجتي وأسرتي من الدهشة لأنهم كانوا قد قدروا مماتي. ولكن ينبغي عليّ أن اعترف بصراحة أن منظرهم ملأني بالبغضاء والاستياء والأزدراء... وما أن دخلت البيت حتى احتضنتني زوجتي بين ذراعيها وقبلتني، من أجل ذلك رحلت في إغماءة لما يقرب من ساعة، لولا أنني معتاد على لمس هذا الحيوان البغيض (الإنسان) لأعوام طويلة. وطيلة السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتي وأطفالي معي، حيث كانت رائحتهم لا تحتمل... وأول مال أنفقته في شراء جوادين صغيرين احتفظت بهما في أسطبل مناسب. وكان السائس أعز ما عندي بعدهما، لأن الرائحة التي تنبعث منه في الأسطبل كانت ترد إليّ روي(132)".

وفاق نجاح "جليفر" كل توقعات المؤلف وأحلامه وربما خفف من بغضه للجنس البشري بسبب حاسة الشم. واستمتع القراء باللغة الإنجليزية الواضحة في غير إطناب، وبالتفاصيل العريضة، وبالفحش المرح. وتنبأ أربوثوب للكتاب "رواجاً عظيماً مثل كتاب جون بانيان- يقصد كتاب "تقدم الحجيج". ولا ريب أن سويفت يدين ببعض الفضل لهذا الكتاب، وبفضل أكبر لكتاب "روبنصن كروزو"، وربما بشيء من

صفحة رقم : 11033

قصة الحضارة - < عصر لويس الرابع عشر - < إنجلترا - < من دريدن إلى سويفت - < جوناثان سويفت

الفضل لكتاب سير انودي برجرانك "التاريخ الهزلي لدول إمبراطورية القمر". أما الشيء الجديد حقاً فهو "الكلبية" أو السخرية الرهيبة في الأجزاء المتأخرة من الكتاب. وحتى هذه وجدت من يعجب بها، فإن دوقه مالبورو، وقد بلغت آنذاك أزدل العمر، غفرت لسويفت هجماته على زوجها، إلى جانب حملاته على الجنس البشري بأسره. وصرحت بأن سويفت أتى "بأدق وصف يمكن أن يكتب للملوك والوزراء والأساقفة والمحاكم". وروي جاي أنها "في نشوة غامرة من الابتهاج بالكتاب ولا يمكن أن تحلم بشيء آخر" (133).

وتكدر انتصار سويفت بنسر قصيدة كادينوس وفانيسا، فإن منفذي وصية هستر فانهو مراي أذعنوا لأمرها بنشرها، ولم يطلبوا من الكاتب ترخيصاً بذلك، وظهرت في طبعات مستقلة في لندن وديبلن وإدنبرة، وكانت ضربة قاسية للزوجة ستيللا لأنها رأت أن عبارات الحب والهيام التي كانت قد وجهت يوماً إليها، تكررت لفانيسا، ولم يمض كبير زمن على افتضاح هذا الأمر حتى مرضت وقصد سويفت إلى إيرلندا لعيادتها والتخفيف عنها، وتحسنت صحتها، وعاد هو إلى إنجلترا (1727)، وسرعان ما ترامت إليه الأنباء بأنها تحتضر، فأرسل تعليمات عاجلة إلى مساعديه في الكاتدرائية بأن ستيللا يجب ألا تلفظ أنفاسها الأخيرة في مقر رئاسة الكاتدرائية (134)، وعاد أدراجه إلى ديبلن، ومرة أخرى أبلت ستيللا بعض الشيء، ولكنها فارقت الحياة في 28 يناير 1728، وهي في السابعة بعد الأربعين وانهارت قوى سويفت، واشتد عليه المرض فلم يستطع تشييع الجنازة.

وبعدها أقام في ديبلن "مثل فأر مسموم في حجر(135)" (كما كتب إلى بولنجبروك). وكان يقوم بأعمال البر والصدقات، وأجرى راتباً على مسز دنجلي، ومد يد العون إلى ريتشارد شريدان في محنة شبابه، وكان في ظاهره رجلاً قاسياً، ولكنه تأثر تأثراً بالغاً لفقر الشعب الأيرلندي، وصعق لكثرة عدد المتسولين من الأطفال في شوارع ديبلن، وفي 1729

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

أصدر أشد مقالاته التهمكية الساخرة ضراوة ولذعاً تحت عنوان "اقترح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا عالة على آبائهم وعلى بلدهم".

"لقد تأكد لدي كل التأكيد... أن الطفل الصغير الصحيح الجسم الذي بلغ من العمر سنة، يصلح لأن يكون طعاماً شهياً مغذياً صحياً، إلى أبعد حد، مطهواً بالعلي البطيء أو مشوياً أو محمصاً أو مسلوقاً، كما يصلح بالمثل لأن يكون مفروماً محمرراً، أو يخنة كثيرة التوابل". ومن ثم فأني بكل تواضع، أعرض على الرأي العام، أنه من بين المائة والعشرين ألف طفل الموجودين الآن، يمكن الاحتفاظ بعشرين ألفاً فقط لتربيتهم وتنشئتهم على أن يكون ربعهم من الذكور، أما المائة ألف طفل الباقون فيمكن عرضهم للبيع إلى ذوي المكانة والثراء في طول المملكة وعرضها، مع نصيحتي دوماً إلى الأمهات بالإكثار من إرضاعهم في الشهر الأخير، حتى تمتلئ أجسامهم ويكونوا سماناً تزدان بهم الموائد الفخمة، إن الطفل الواحد يمكن أن يكون طعام يقدم للأصدقاء، أما إذا كانت الأسرة تتناول غذاءها وحدها فإن الربع الأمامي أو الخلفي من الذبيحة يكون طبقاً كافياً، وإذا تبل ببعض الفلفل أو الملح لكان طيب المذاق... أما الذين هم أكثر تدبيراً واقتصاداً فيمكنهم أن يسلخوا الجنة، ويعالجوا جلدها بطريقة خاصة ليصنعوا قفازات لطيفة للسيدات، وأحذية صيفية للرجال الأنيقين...

إن بعض الذين جزعوا لهذه الظاهرة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العدد الضخم من المسنين أو المرضى أو المقعدين والمشوهين، ورغبوا إلى أن تعمل التفكير في الوسائل التي يمكن أن تتخذ لتخليص الأمة من هذا العبء الثقيل المحزن، ولكني لا أتألم كثيراً لهذه المسألة لأنه المعروف جيداً أنهم يموتون وتبلى أجسامهم في كل يوم من البرد والجوع والقدارة والهوان، بالسرعة المتوقعة بداهة.

وأظن أن مزايا الاقتراح الذي عرفته واضحة متعددة...

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سوفيت -> جوناثان سوفيت

وأولى المزايا، أن هذا يخلصنا إلى حد كبير من عدد البابويين (اليسوعيين) الذين يجتاحوننا كل عام، لأنهم المربون الأساسيون للأمة، قدر ما هم ألد أعدائنا وأخطرهم... وثالثها أنه من حيث أن تربية مائة ألف طفل من سن الثانية فما فوق، لا يمكن أن يتكلف الواحد أقل من عشر شلنات في العام، فهذا الاقتراح سيتوفر للأمة خمسون ألف جنيه سنوياً، هذا بالإضافة إلى فائدة اللون الجديد من الطعام الذي يقدم إلى موائد ذوي الثراء والوجاهة... الذين يتحلون بالذوق الرفيع".

إن نتاج يراع سوفيت، ذلك النتاج الغريب، والتأثر أحياناً، وبخاصة بعد وفاة ستيللا، يوحي بأنه قد أصابه مس من الجنون، "إن شخصاً منذ ذوي المكانة في إيرلندة (كان يسره أن ينحني كثيراً ليدق النظر في عقلي) اعتاد أن يقول لي إن عقلي مثل روح مسحورة، قد يؤذي ويسيء إذا لم أشغله بشيء (136)".

وتساعل أحد الأصدقاء: إن مبغض البشرية الكئيب هذا، والذي تركته الأخطاء الصارخة في بيت من زجاج، بينما هو يسلق البشرية بالسننة حداد من الهجاء، ألا يغني فساد الناس مساوئهم جسدك ويستنزف روحك؟"، "إن غضبه على العالم كان امتداداً لغضبه على نفسه، فقد أدرك أنه على الرغم من عبقريته، معتل الجسم مريض النفس، ولم يكن يغتفر للحياة حرمانه من الصحة والأعضاء السليمة وهدوء البال، والتقدم الذي يتناسب مع قوة عقله. وكان آخر مظهر لقسوة الحياة على سويقت، هو اختلال قواه العقلية يوماً بعد يوم. وازداد بخله وجشعه، حتى وسط أصدقائه وقيامه بأعمال البر. فكان يظن بالطعام على ضيوفه، وبالنبذ على أصدقائه(137). وازدادت نوبات الدوار عنده سوءاً، فما كان يدري في أية لحظة منحوسة ينتابه هذا الدوار ليجعله يترنح ويتلوى من الألم في هيكله أو في الشارع.

صفحة رقم : 11036

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> من دريدن إلى سويقت -> جوناثان سويقت

وكان قد رفض أن يضع النظارات على عينيه فضعف بصره وترمك القراءة. ومات بعض أصدقائه، ونأى بعضهم بنفسه عنه، اجتناباً لحدة طبعه واكتنابه، وكتب إلى بولنجبروك: "كثيراً ما فكرت في الموت، ولكنه الآن لا يغيب عن ذهني أبداً(139)" وبدأ يتلهف عليه. واحتفل بيوم ميلاده يوم حداد وحزن. وقال "ليس هناك رجل عاقل يرغب في استعادة شبابه(140)". وفي أعوامه الأخيرة كان يودع زائريه دوماً بقوله "سعدتم مساءً، أرجو ألا أراكم ثانية(141)".

وظهرت أعراض الجنون التام عليه في 1738. وفي 1741 عين بعض الأوصياء ليتولوا شؤونه، ويراقبوه حتى لا يلحق بنفسه أي أذى في نوبة من نوبات العنف والجنون التي تصيبه. وفي 1742 عانى ألماً شديداً من التهاب في عينيه اليسرى التي تورمت حتى صارت في حجم البيضة. وأحاط به خمسة من الأتباع ليحولوا بينه وبين فقاء عينه بيده. وقض عاماً لا ينطق ببنت شفة. وأذنت محنته بالانتهاء في 19 أكتوبر 1745، وقد بلغ الثامنة بعد السبعين. وأوصى بكل ثروته البالغة اثني عشر ألف جنيه لبناء مستشفى للأمراض العقلية. ووري التراب في كاتدرائيته، ونقش على ضريحه عبارة اختارها بنفسه:

"حيث لا يعود السخط المرير يمزق قلبه".

صفحة رقم : 11037

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> السويد المغامرة

الكتاب الثالث

محيط القارة

1715-1648

الفصل الثاني عشر

الصراع على البلطيق

1721-1648

1- السويد المغامرة

1700-1648

إن التاريخ شظية من البيولوجيا-إنه اللحظة البشرية في موكب الأنواع. وهو أيضاً وليد الجغرافيا-لأنه فعل الأرض والبحر والهواء، وأشكالها ونتائجها، وتأثيرها في رغبة الإنسان ومصيره. فلنتأمل هنا أيضاً تلك المواجهة بين الدول المحيطة بالبلطيق في القرن السابع عشر. فالسويد في شماله، واستونيا وليفونيا ولتوانيا في شرقه، ومن خلفها روسيا الباردة الجائعة، وفي جنوبه بروسيا الشرقية وبولنده وبروسيا الغربية وألمانيا، وفي غربه الدنمرك بموقعها الاستراتيجي على منافذ البلطيق الضيقة إلى بحر الشمال والأطلنطي. لقد كان هذا سجنًا جغرافيًا سيصطرع نزلاؤه

على السيطرة على تلك المياه والمضايق، والشواطئ والتغور، ومسالك التجارة ودروب الهرب براً أو بحراً. هنا خلقت الجغرافيا التاريخ.

أما الدنمرك فقد لعبت الآن دوراً صغيراً في مسرحية البلطيق. ذلك أن نبلاءها الذين احتكروا الحرية لأنفسهم غلوا أيدي ملوكها وأرجلهم. وكانت قد نزلت عن سيطرتها على مضائق الاسكاجراك والكاتيغات (1645) وبقيت النرويج خاضعة لها، ولكنها في 1660 فقدت أقاليم السويد الجنوبية. وشعر فردريك الثالث (1648-70) بحاجته إلى سلطة ممرضة تتصدى للتحديات الخارجية، فأرغم النبلاء على أن ينزلوا له عن السلطة المطلقة والوراثية، مستعيناً على ذلك برجال الدين والطبقات الوسطى. وقد وجد ابنه كرستيان الخامس (1670-99) معيناً له في بيدر شوماخر، كونت جريفنفلد، الذي ظفر بثناء لويس الرابع عشر عليه وزيراً من أكفأ الوزراء في عصر الدبلوماسية الذهبية ذلك. أصلح مالية الدولة، ودفع التجارة والصناعة

صفحة رقم : 11038

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> السويد المغامرة

قديماً، وأعاد تنظيم الجيش والبحرية. واستن الكونت سياسة السلم، ولكن الملك الجديد كان توافاً لاستعادة القوة والأقاليم التي كانت الدنمرك تملكها فيما مضى. ومن ثم ففي 1675 جدد الحرب القديمة مع السويد، ولكنه هزم، وثبتت من جديد سيادة السويد على اسكندناوة.

وقد تعاقب على عرش السويد في تلك الحقبة طائفة ممتازة من الملوك الأشداء، وظلوا نصف قرن أعجوبة زمانهم لا ينافسهم في ذلك منافس غير لويس الرابع عشر. ولو أتيح لهم سند أكبر من الموارد لبلغوا ببلدهم من القوة والمنعة مبلغ فرنسا، ولاستطاع الشعب السويدي-بوحى من منجزات الجوستافين، والكارلين الثلاثة، ووزرائهم العظام-أن يمول ازدهاراً ثقافياً يتناسب مع انتصاراتهم وتطلعاتهم. غير أن الحروب التي عززت قوتهم استنزفت ثروتهم، فخرجت السويد من ذلك العهد مستنزفة القوى وإن تكاللت بأمجاد البطولة. وإنه لما يثير الدهشة أن تحقق أمة من الأمم هذا القدر الكبير من المنجزات في الخارج على ما بها من ضعف شديد. فسكانها لم يجاوزوا مليوناً ونصفاً، ينقسمون طبقات لم تتعلم إلى ذلك الحين أن يعيش بعضها مع البعض في سلام. وكان النبلاء يتسلطون على الملك، ويقررون لأنفسهم شراء أراضي من أملاك التاج بشروط ميسرة، والصناعة مقيدة محددة بحاجات الحرب تحديداً أعجزها عن تغذية التجارة التي أطلقت الحرب عقالها، وكانت الأملاك الخارجية عبئاً لا تبرره غير العزة القومية. إن حنكة الوزراء المخلصين وحدها هي التي دفعت عن البلاد خطر الإفلاس الذي بدا أنه ثمن المجد.

كن شارل العاشر جوستافس ابن عم كرستينا الرهيبة، ورفيق لعبها وعشاقها، وخلفها بعد أن نزلت له عن العرش في 1654. وقد درأ خطر الإفلاس بإكراه النبلاء على رد بعض الضياع الملكية التي سطوا عليها. واستطاعت الدولة بفضل هذا "الاختزال" لأملاك الإقطاعيين أن تسترد ثلاثة آلاف مسكن بأراضيها وتستعيد قدرتها على الوفاء بديونها. ورغبة في استكمال النقص في العملة الفضية والذهبية، عهد شارل إلى يوهان بالمسترو بإنشاء مصرف قومي وإصدار نقود ورقية

صفحة رقم : 11039

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> السويد المغامرة

(1656) -وهي أول ما صدر منها في أوروبا. وقد حفز ازدياد تداول العملة الورقية الاقتصاد حيناً، ولكن المصرف أصدر منها فوق ما يستطيع الوفاء بع نقداً عند الطلب، فأوقفت التجربة. ونقل الملك المقدم أثناء ذلك صناعة الحديد والصلب التي اقتصت بها ريجا إلى السويد، فأرسي بذلك أسس قاعدة صناعية أقوى تستند إليها سياسته العسكرية. أما هدفه الذي جاهر به فكان توسيع رقعة ملكه. فالإمارات التي كسبها جوستافس أدولفس على أرض القارة تهدد بالثورة، والحكومة البولندية تأبى أن تعترف بشارل العاشر ملكاً على السويد، ولكن بولنده أضعفها تمرد القوزاق، وقد خفت روسيا لنجدة القوزاق، وكان الأمل ولا ريب يراودها في شق طريق لها إلى البلطيق. ثم أن للسويد جيشاً حسن التدريب خافت أن تسرحه، وخير سبيل إلى إعاشته أن يخوض حرباً ظافرة. ورأى شارل في هذه الظروف كلها ما يزكي الهجوم على بولنده. وعارض الفلاحون ورجال الدين، فاسترضاهم بالزعم بأن مشروعه ليس إلا حرباً مقدسة لحماية حركة الإصلاح البروتستنتي وتوسيع نطاقها (1655)(1).

ولكن تبين أن بولنده بلد يسهل غزوه، ويصعب إخضاعه، كانت مقاومتها في الغرب ضعيفة لما حاق بها في الشرق من خلل وما عانته من غارات العدو. ودخل شارل وارسو، وهدأ النبلاء البولنديين بوعده أن يبقى على امتيازاتهم الموروثة، وتلقى ولاء البروتستنت البولنديين، وعرض اللتوانيون أن يعترفوا بسيادته. ولما حاول فردريك وليم، "ناخب براندنبورج الأكبر" الإفادة من انهيار بولنده بالاستيلاء على بروسيا الغربية (وكانت يومها إقطاعية بولندية)، سير شارل جيشه غرباً بسرعة نابليونية وحاصر الناخب في عاصمته، وأرغمه على توقيع معاهدة كوينجزبيرج (يناير 1956). وأعلن الناخب ولاءه لشارل فيما يتصل بروسيا الشرقية باعتبارها إقطاعاً سويدية، ووافق على أن يؤدي للسويد نصف رسوم تلك الولاية وضرائبها، ووعد بأن يمد الجيش السوي بألف وخمسمائة مقاتل. غير أن الخصومة الدينية التي أثارها شارل هزمته. ذلك أن البابا إسكندر السابع والإمبراطور فرديناند الثالث سخرا كل ما يملكان

صفحة رقم : 11040

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> السويد المغامرة

من نفوذ ليولفا حلفاً ضد السويد، لا بل إن الدنمركيين والهولنديين البروتستنت انضموا إلى الحلفاء في تصميمهم على كبح جماح الفاتح الشاب مخافة أن يعدو بعد ذلك على ممتلكاتهم أو تجارتهم. فهرع قافلاً إلى بولنده، وهزم قوة بولندية جديدة، واحتل وارسو من جديد (يوليو 1656). غير أن بولنده امتشقت الآن الحسام لقتاله بعد أن ثارت حماسيتها الدينية، وألقى شارل نفسه -وهو بلا صديق رغم انتصاره- وقد أحرق به الأعداء من كل حذب. وهجره ناخب براندنبورج وتعهد بتقديم العون لبولنده. أما شارل-الذي كان خبيراً بكسب المعارك فقط لا بدعم فتوحه بصلح عملي- فقد اكتسح البلاد غرباً في هجوم على الدنمرك، وعبر الكاتيجات فوق ثلاثة عشر ميلاً من الجليد (يناير 1657)، وهزم الدنمركيين، وأكره فردريك الثالث على توقيع صلح روسكيلدي (27 فبراير). وانسحبت الدنمرك كلية من شبه الجزيرة السويدية، ووافقت على أن تغلق مضيق السلوند في وجه أعداء السويد. فلما تباطأ الدنمركيون في تنفيذ هذه الشروط استأنف شارل الحرب، وحاصر كوبنهاجن. وعقد العزم الآن على خلع فردريك الثالث، وتوحيد الدنمرك والسويد والنرويج من جديد تحت تاج واحد.

ولكن القوة البحرية هزمته، ذلك أن إنجلترا والأقاليم المتحدة، وهما أعظم أمم العصر آنذاك، اتفقتا الآن رغم ما بينهما عادة من عداة-على ألا تقبض أي دولة من الدول على مفتاح البلطيق بالهيمنة على الساوند بين الدنمرك والسويد. ففي أكتوبر اقتحمت قوة هولندية الساوند، ورفعت الحصار عن كوبنهاجن، وسأقت أمامها الأسطول السويدي الصغير إلى ثغوره في أرض الوطن. وأقسم شارل أن يقاتل إلى النهاية. ولكن الشدائد التي عاناها في حملاته كانت قد فعلت فيه فعلها، فبينما كان يخطب الديت السويدي في جوتيبورج أخذته الحمى. وما لبثت أن قضى نحبه في ربيع حياته (13 فبراير 1660).

وكان ابنه شارل الحادي عشر (1600-97) لا يزال في الخامسة، فاضطلع بالحكم مجلس وصاية أنهى الحرب بصلح أوليفا

صفحة رقم : 11041

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> السويد المغامرة

ومعاهدة كوبنهاجن (مايو، يونيو 1660). ونزلت الملكية البولندية عن دعاها في تاج السويد، وثبتت تبعية ليفونيا للسويد، ونالت براندنبورج الحق الكامل في بروسيا الشرقية، واحتفظت السويد بمقاطعاتها الجنوبية (سكاني) وأقاليمها على أرض القارة (بريمن، وفيردن، وبومانيا)، ولكنها انضمت إلى الدنمرك في ضمان حق السفن الأجنبية في دخول البلطيق. وبعد عام وقعت السويد وبولنده في كارديس صلحاً فاتراً مع قيصر الروس. واستمر الصراع على البلطيق خمسة عشر عاماً بوسائل أخرى غير الحرب.

كانت هذه المعاهدات نصراً لا يستهان به للسويد، ولكن البلاد أشرفت مرة أخرى على الإفلاس. وكافح عضوان من مجلس الوصاية هما جوستاف بوندي وبير براهي للحد من النفقات الحكومية، ولكن المستشار ماجنس دي لاجاردي أضاف إلى الديون القديمة ديوناً جديدة، وأتاح للنبل ولأصدقائه ولنفسه جني المنافع على حساب الخزانة، وفي سبيل تلقي المعونة المالية ربط السويد بحلف مع فرنسا (1672) قبل أن ينقص لويس الرابع عشر على الأقاليم المتحدة، حليفة السويد، بأيام معدودات فقط. وما لبثت السويد أن وجدت نفسها تخوض حرباً ضد النمرك، وبراندنبورج، وهولنده. وهزمت على يد الناخب الأكبر في فيربيلن (18 يونيو 1675)، واجتاح أعداؤها أقاليمها القارية، وغزا جيش دنمركي "سكاني" من جديد ونكبت البحرية السويدية بكارثة تجاه أولاند "1 يونيو 1676).

وأنقذ السويد ملكها الشاب شارل الحادي عشر، الذي اضطلع الآن بزمام الأمر، وذلك بسلسلة من الحملات ألهمت فيها بسالته الشخصية جنوده، فدحروا الدنمركيين في لوند ولانديسكرونا. وبفضل هذين الانتصارين وتأييد لويس الرابع عشر استردت السويد كل ما فقدته. وتعاون بطل جديد من أبطال الدبلوماسية السويدية، هو الكونت يوهان جيلنشتييرنا، مع الكونت جريفنفلد-لا في الترتيب لصلح بين السويد والدنمرك فحسب، بل في إبرام حلف عسكري وتجاري بينهما. واتفقت الدولتان على عملة مشتركة، وكانت الوحدة الإسكندنافية كلها قاب قوسين أو أدنى حين قطع هذا التطور موت

صفحة رقم : 11042

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> السويد المغامرة

جيلنشتيرنا وهو في الخامسة والأربعين (1680). وحافظت الأمتان على السلام عشرين عاماً. وكان جيلنشتيرنا قد علم الملك الشاب أن السويد لا تستطيع الإبقاء على مكانتها بين الدول العظيمة إذا مضى نبلاؤها في التهام أراضي التاج، وهو أمر يهودي بالملكية إلى ذل الفقر وبالدولة إلى درك العجز. وفي 1682 اتخذ شارل الحادي عشر خطوة حاسمة. فاستأنف بتأييد رجال الدين والفلاحين وأهل المدن، في تدقيق وشمول يحفزهما السخط "اختزال" أراضي النبلاء، أي استرداد ما فقدته الملكية من ضياعها. ثم حقق في فساد الموظفين وعاقبه، وبلغت إيرادات الدولة النقطة التي أتاحت للسويد القدرة من جديد على الاحتفاظ بممتلكاتها والاضطلاع بتبعاتها. ولم يكن شارل الحادي عشر بالملك المحبب جداً إلى شعبه، ولكنه كان ملكاً عظيماً. فلقد أثار انتصارات السلام الأقل ضجيجاً على انتصارات الحرب، وذلك رغم ما خلف في الحرب من سجل يحسده عليه الكثيرون. وقد وطد حكم الملكية المطلق، ولكن هذا النظام كان يومها البديل لإقطاعية رجعية فوضوية.

وفي هدوء هذه الهدنة الصافية ازدهرت علوم السويد وآدابها وفنونها. وبلغت العمارة السويدية أوجهاً في القصر الملكي الفخم الضخم باستوكهولم، الذي صممه (1693-97) نيقوديموس تيسين. وكان لارس يوهانسون للسويد بمثابة ليوباردي (الإيطالي) ومارلو (الإنجليزي) مجتمعين، فهو يتغنى غناءً شجياً بكر اهية الإنسان، ويلقى حتفه بطعنات السلاح في شجار بحان قضي عليه وهو بعد في السادسة والثلاثين. وقد ألف جونو دالشتيرنا ملحمة شعرية ببحر دانتي سماها (1697Kunga Skald) إشادة بمآثر شارل الحادي عشر. ومات الملك في تلك السنة، بعد أن أنقذ وعمر بلداً كان يدمره من بعده ابنه الأشهر منه.

وكان هذا الابن، شارل الثاني عشر، قد بلغ الخامسة عشرة. ولما كانت خريطة أوربا يعاد رسمها آنئذ بالدم والحديد، فقد دُرّب أولاً وقبل كل شيء على فنون القتال. فهيأته ألعابه كلها للأعمال العسكرية، وتعلم الرياضيات فرعاً من العلوم الحربية، وقرأ من اللاتينية ما يكفي

صفحة رقم : 11043

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> السويد المغامرة

لأن يستوحى من سيرة الإسكندر التي كتبها كونتوس كورتيوس طموح التفوق في السلاح إن لم يكن الطموح لغزو العالم. وإذا كان فارغ القامة وسيقماً، قوياً، لا يتقل بدنه درهم زائد من لحم وشحم، فقد استمتع بحياة الجندي، وتجلد لما فيها من حرمان، وهزأ بالخطر والموت، وتطلب هذه الصلابة عينها في جنده. ولم يأبه كثيراً بالنساء، فلم يتزوج قط وإن خطبت وده الكثيرات. وكان يصيد الدببة وسلاحه شوكة خشبية ثقيلة لا أكثر، ويركب خيله بسرعة طائشة، ويسبح في مياه تغطي الثلوج نصفها، ويلتذ المعارك الزانفة التي كاد هو وأصدقائه يلقون حتفهم فيها غير مرة. وقد رافقت بسالته العنيدة وحيويته البدنية بعض فضائل الخلق والعقل: صراحة تزدرى الأعياب الدبلوماسية، وإحساس بالشرف تشوبه لحظات شادة من القسوة الوحشية، وعقل يلتقط لب الأمور لتوّه، ولا يطبق المداخل الملتوية في التفكير أو التدبير، وكبرياء صموت لم يرغب عنها قط محتده الملكي ولم تعترف قط بالهزيمة. وآية ذلك أنه في حفلة تتويجه توج نفسه بيده على طريقة نابليون، ولم يقطع لنفسه يميناً تحدد من سلطته، فلما تشكل أحد رجال الدين في صواب خلع السلطة المطلقة على فتى لم يتجاوز الخامسة عشرة، حكم عليه شارل أولاً بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى السجن المؤبد. كانت السويد يوم ارتقى عرشها دولة قارية كبرى، تحكم فنلندا، وإنجلترا، وأستونيا، وليفونيا، وبومانيا، وبريمن، وكانت تهيمن على البلطيق وتقوم سداً حائلاً بين روسيا وبين ذلك البحر. ورأت روسيا، وبولنده، وبراندنبورج،

والدنمرك، في حادثة سن ملك السويد فرصة لمد حدودها دعماً لتجاريتها ومواردها. وكان "العامل الهدّام" في هذا الحل الجغرافي فارساً ليفونيا يدعى يوهان فون باتكول، انخرط في سلك الجيش السويدي بوصفه من رعايا السويد، وارتقى إلى رتبة النقيب. وفي 1689 و1629 احتج بشده على "اختزال" شارل الحادي عشر لضياح النبلاء في ليفونيا، فاتهم بالخيانة، وفر على بولنדה، ثم التمس من شارل الثاني عشر أن يعفو عنه فرفض، وفي 1689 اقترح على أوغسطس الثاني ملك بولنדה وسكسونيا تأليف حلف ضد السويد من بولنדה، وسكسونيا، وبراندنبورج، والدنمرك، وروسيا. ورأى

صفحة رقم : 11044

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> السويد المغامرة

أوغسطس أن الخطة جاءت في أوانها، فاتخذ الخطوة الأولى بالدخول في حلف مع ملك الدنمرك فردريك الرابع (25 سبتمبر 1699). وذهب باتكول إلى موسكو. وفي نوفمبر وقع بطرس الأكبر مع مبعوثي سكسونيا والدنمرك اتفاقاً لتقطيع أوصال السويد.

صفحة رقم : 11045

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بولنדה وسويبيسكي

2- بولنדה وسويبيسكي

1648-1699

في مستهل هذه الحقبة أثر حدثان تأثيراً عميقاً في تاريخ بولنדה ففي 1652 هزم عضو واحد من أعضاء البرلمان البولندي Sejm للمرة الأولى قانوناً بممارسته حق "الفينو المطلق"، الذي كان يسمح لأي نائب في ذلك البرلمان بإبطال قرار أية أغلبية. ذلك أن النظام في الماضي كان يشترط موافقة جميع الأقاليم قبل إقرار أي قانون، وكانت أقلية ضئيلة أحياناً تجعل التشريع مستحيلاً، ولكن فرداً من الأفراد لم يؤكد إلى ذلك الحين الحق في نقض اقتراح يقبله

الباقون كلهم. وقد استطاع "الفيثو المطلق" لناناب واحد أن "ينسف" أو ينهي ثماني وأربعين دورة من الدورات الخمس والخمسين التي عقدها البرلمان بعد 1652. وقد افترضت الخطة أنه ما من أغلبية تستطيع بحق أن تطغى على أقلية مهما صغرت. ولم يكن مبعثها النظرية الشعبية بل الكبرياء الإقطاعية، إذا اعتبر كل مالك نفسه سيداً أعلى في أرضه. وأسفر هذا على أكبر قدر من الاستقلال المحلي والعقم الجماعي. ولما كان الملوك خاضعين للبرلمان، والبرلمان خاضعاً للفيثو المطلق، فقد كانت السياسة القومية المتسقة ضرباً من المحال عادة. وبعد تسع سنوات من الفيثو الأول تنبأ الملك جون كازيمير للبرلمان بنبؤة لافئة للنظر، قال:

"أتمنى على الله أن يتبين نبي كذاب، ولكنني أقول لكم أنك إن لم تجدوا علاجاً لهذا الشر (أي الفيثو المطلق) فستغدو الدولة فريسة للدول الأجنبية. سوف يحاول الموسكوفيون أن يقتطعوا باللاتيناتنا الروسية ربما إلى الفستولا. وسوف يحاول البيت المالك البروسي الاستيلاء على بولنده الكبرى. وسوف تلقى النمسا بنقلها على كراكو. وسوف تؤثر كل من هذه الدول اقتسام بولنده دون الاستيلاء عليها كلها ولها هذه الحريات التي تتمتع بها اليوم" (2).

صفحة رقم : 11046

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بولنده وسويسكي

وقد تحققت هذه النبؤة بحذافيرها تقريباً. وكانت ثورة القوزاق في أوكرانيا (1648) حدثاً لا يفوقه في أهميته التاريخية سوى هذا الفيثو. ذلك أن دمج لتوانيا مع بولنده في "اتحاد لوبلين" (1569) أخضع إقليم أوكرانيا، الذي يجري فيه نهر الدنيبر، لحكم غلب عليه العنصر البولندي، وكان أكثر سكان الإقليم من قوازق زابوروج الذين ألفوا الاستقلال وتمرسوا الحرب. وحاول النبلاء البولنديون الذين ابتاعوا الأرض في أوكرانيا أن يرسوا فيها أسس الأحوال الإقطاعية، وتبسط الكاثوليك البولنديون ممارسة تلك الحرية التي كفلها اتحاد لوبلين للعبادة الأرثوذكسية. وانبعثت ثورة من ثورات القوزاق من هذا المركب من أسباب السخط والتذمر، وتزعما حيناً زعم حربي (هتمان) غني يدعى بوجدان شميلنيكي، وناصرها تثار القرم المسلمون. وفي 26 مايو 1648 دحر التثار والقوزاق الجيش البولندي الرئيسي في كورسون، وسرت الحماسة للثورة بين الأغنياء والفقراء على السواء.

وقد خلفت وفاة لاديسلاس الرابع في 20 مايو عرش بولنده في هذه الأثناء مثاراً لنزاع بين النبلاء استمر حتى 20 نوفمبر، حين اختارت هيئة الديت الانتخابية جون الثاني كازيمير. أما شميلنيكي فقد خشي ألا تستطيع الثورة الصمود للجيش البولندية المعززة إلا بقبول المعونة والسيادة الأجنبية، فاختار الاستنجاد بروسيا الأرثوذكسية. وعرض أوكرانيا على القيصر الكسيس، ورحبت الحكومة الروسية بالعرض وهي عليمه بأن معناه الحرب مع بولنده، وبمقتضى "قانون بيرياسلاف" 18 يناير 1654، انضوت أوكرانيا تحت الحكم الروسي. وكفل للإقليم الاستقلال الذاتي تحت حكم زعيم حربي ينتخبه القوزاق ويصدق على انتخابه القيصر. وفي الحرب التي تلت ذلك بين بولنده وروسيا، حول تثار القرم الذين أثروا أوكرانيا بولندية على أوكرانيا روسية. حولوا معونتهم من القوزاق إلى البولنديين. وفي 8 أغسطس 1655 استولى الروس على فلنو، وذبحوا الآفاً من الأهالي، وأحرقوا المدينة وسوها بالتراب. وبينما كان البولنديون يدافعون عن أنفسهم على جبهتهم الشرقية، قاد شارل العاشر

صفحة رقم : 11047

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بولندا وسويسكي

جيشاً سويدياً إلى غربي بولندا واستولى على وارسو (8 سبتمبر). وانهارت المقاومة البولندية. وأعلن النبلاء البولنديون، بل حتى الجيش البولندي، الخضوع للفتاح وأقسموا يمين الولاء له (3). وأرسل له كرومويل تهانته لأن قبض على أحد قرون البابا (4)، وأكد شارل لـ "حامى الجمهورية" (كرومويل) أنه عما قليل لن يبقى في بولندا باوبوي واحد (5)، ومع ذلك وعد بالتسامح الديني في بولندا. على أن خطته أحبطها جيشه الظافر. ذلك أنه الجيش أفلت زمامه، فراح ينهب المدن ويذبح السكان ويسلب الكنائس والأديار. وقاوم الحصار دير ياسنا جورا، القريب من تشستوتشوا، مقاومة بأسلة، وأثار الذي نجاحه الذي عد من المعجزات حماساً الجماهير الدينية، وأهاب الكهنة الكاثوليك بالأمة أن تطرد الغزاة الكفار، وبادر الفلاحون إلى امتشاق الحسام، وفرت الحامية التي تركها شارل في وارسو أمام الحشد الزاحف وأعيد كازيمير إلى عاصمته (16 يونيو 1656) وانقلب التثار على روسيا، ووقعت روسيا هدنة مع بولندا مؤثرة جبرتها على جيرة السويد (1656). وأفضى موت شارل العاشر فجأة إلى صلح أوليفا (3 مايو 1660) الذي أنهى الحرب بين بولندا والسويد. وفي 1659 استؤنف الصراع مع روسيا. وبعد ثمانية أعوام من الفوضى والحملات وذبذبات الولاء القوزاقي، نالت روسيا بمقتضى صلح أندروسوفو (20 يناير 1667) سمولينسك، وكيف، وأوكرانيا شرقي الدنيبر. وظلت تجزئة أوكرانيا على هذا النحو سارية حتى التقسيم الأول لبولندا (1772). ثم اعتزل جون كازيمير عرش بولندا (1668) بعد أن أرهقته الحرب وأضناه الفيتو مطلق، واعتكف في نيفير بفرنسا، وعاش حياة هادئة بين الدرس والصلاة إلى أن مات (1672). وخاض خلفه ميخائيل فسنيوفيكى حرباً مدمرة مع العثمانيين، وبمقتضى صلح بوكراكي (1672) اعترفت بولندا بالسياسة العثمانية على أوكرانيا الغربية، وتعهدت بأداء جزية سنوية للسلطين تبلغ 220.000 دوكاتية. وفي تلك الحرب اكتشفت بولندا عبقرية جان سويسكي الحربية، فلما مات فسنيوفيكى (673)، انتخب الديت أعظم ملوك بولندا قاطبة (1674) بعد أن ضيع وقتاً ثميناً على عاداته.

صفحة رقم : 11048

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بولندا وسويسكي

أما جان هذا-الذي يسمى الآن يوحنا الثالث فكان يبلغ الرابعة والأربعين إذ ذاك. وقد حالفه الحظ في مولده، لأن أباه كان الحاكم العسكري لكراتكو، أما أمه فكانت حفيدة القائد البولندي ستانسلاس زولكيسفكي الذي استولى على موسكو في 1610، وكان حب الحرب يسري في دم جان. وبفضل تعليمه في جامعة كراتكو وأسفاره في ألمانيا والأراضي المنخفضة وإنجلترا وفرنسا، حيث قضى بباريس قرابة عام، أصبح رجلاً مثقفاً فضلاً عن بسالته ومهارته الحربيين. وفي 1648 مات أبوه، عقب اختياره ممثلاً لبولندا في معاهدة وستفاليا. وسارع جان بالعودة إلى أرض الوطن، وانضم إلى الجيش البولندي في قتال الثوار القوزاق. ولما غزا السويديون بولنده، وفر جان كازيمير، كان سويسكي واحداً من الموظفين البولنديين الذي ارتضوا شارل العاشر ملكاً على بولندا، وظل يخدم عاماً في الجيش السويدي. ولكن حين ثار البولنديون على الغزاة عاد سويسكي إلى ولائه القومي، وأبلى في الدفاع عن وطنه بلاء رفعة إلى

منصب القائد العام للجيش البولندية في 1665. وفي تلك السنة تزوج المرأة الممتازة التي أصبحت نصف حياته والمشكل لسيرته.

هذه المرأة، واسمها ماريا كازيميرا، التي كان يجري في عروقتها الدم الفرنسي الملكي، ولدت في نيفير عام 1641، وربيت في فرنسا وبولندا. وفي وارسو يوم كانت في الثالثة عشرة ألهب حسنها ومرحها عاطفة سوبيسكي وهو في الخامسة والعشرين. ولكن سعاد الحرب ونحوسها أفضته عنها، فلما عاد وجرها زوجة لنبييل فاسق يدعى جان زامويسكي. وإذ كانت ماريا مهملة من زوجها، فقد قبلت سوبيسكي وصيفاً مرافقاً. ويبدو أنها حافظت على عهودها الزوجية، ولكنها وعدت بالزواج من سوبيسكي حالما يفسخ زواجها من زامويسكي. على أن الزوج كفاها مؤونة هذا الشرط يموته. وما لبث العاشقان أن تزوجا، وأصبح غرامهما الطويل أسطورة في التاريخ البولندي. وكان الكثير من النساء البولنديات ينافسن النساء الفرنسيات في الجمع بين الجمال الكلاسيكي، والشجاعة والذكاء القريبين من شجاعة الرجال وذكائهم، والولع بصنع الملوك أو إرشادهم. وقد بدأت ماريا من يوم زواجها تخطط لكي تبوء سوبيسكي عرش بولندا.

صفحة رقم : 11049

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بولندا وسوبيسكي

وكان حبها أحياناً حباً لا يقيم وزناً لصوت الضمير كما قد يكون الحب. ففي 1669 يبدو أن سوبيسكي قبل المال الفرنسي ليؤيد كردينالاً فرنسياً ضد فسنويفيكي. وبعد انتخاب ميخائيل انضم جان إلى غيره من النبلاء في مغامرات تستهدف خلع الملك لأنه جبان لا يصلح للدفاع عن بولندا ضد العثمانيين ولا رغبة له في هذا الدفاع. وقاد بنفسه رجاله إلى انتصارات أربعة خلال عشرة أيام. وفي 11 نوفمبر 1673، وهو اليوم مات فيه الملك، دحر سوبيسكي العثمانيين في خوتين بيسارابيا. وجعله هذا النصر المرشح المنطقي لعرش لا قبل الآن بدفع الأعداء المحذقين به من كل جانب إلا لأصلب القتال وأشدّه تصميمًا. ولكي يدعم المنطق حضر إلى هيئة الديت الناخبة على رأس ستة آلاف مقاتل. ولعب المال الفرنسي دوراً في انتخابه، ولكن هذا كان يتفق وستة العصر تمام الاتفاق.

ولقد كان ملكاً بجسمه وروحه كما كان باسمه. وصفه الأجانب بأنه "من أكثر الرجال وسامة وأكملهم بنية" في أوروبا، "له طلعة نبيلة شماء، وعينان تشعان نوراً وناراً(6)" قوي البدن، مثابر على الإنجاب، متطلع العقل متيقظه. وقد حفز حبه الطبيعي للتملك إسراف حبيبته ماريانكا، ولكنه كثيراً ما عوض عن بخل البرلمان الشحيح بدفع رواتب جنده من جيبه، وبيع أملاكه ليشتري لهم البنادق(7). وقد استحق كل ما أخذ، لأنه أنقذ بولندا وأوروبا جميعاً.

ذلك أن سياسته الخارجية كانت بسيطة في هدفها، وهو ردّ العثمانيين إلى آسيا، أو على الأقل صد هجماتهم على معقل العالم المسيحي الغربي بفينيا. وقد عاكس جهده هذا تحالف حليفته فرنسا مع السلطان العثماني، ومحاولات الإمبراطور أن يزج به في الحروب التركية، وكان ليوبولد الأول يأمل إذا وفق في محاولاته هذه أن تطلق يد النمسا في تملك الأراضي الدانوبية أو المجرية التي كانت كل من النمسا وبولندا تدعي الحق فيها لنفسها. وبينما كان سوبيسكي يتحسس طريقه غاضباً وسط هذه المتاهة، تآقت نفسه لحرية تخطيط السياسة وإصدار الأوامر دون أن يكون خاضعاً في كل خطوة للبرلمان والفييتو المطلق. وحسد لويس الرابع عشر والإمبراطور على سلطتهما في اتخاذ القرارات بصورة قاطعة ثم إصدار الأوامر دون إبطاء.

صفحة رقم : 11050

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بولندا وسويسرا

وعقب انتخابه اضطلع باسترداد أوكرانيا الغربية من العثمانيين الذين تقدموا الآن شمالاً حين بلغوا لفوف. وهناك، وبقوة لا تريد على خمسة آلاف فارس، هزم عشرين ألف تركي (24 أغسطس 1675). وبمقتضى معاهدة زورافنو (17 أكتوبر 1676) أكره العثمانيين على النزول عن حقهم المزعومة في الجزية، والاعتراف بسيادة بولندا على أوكرانيا الغربية. ثم شعر بأن الفرصة مواتية لطرد القوة العثمانية من أوروبا. فدعا الإمبراطور للانضمام إليه في حرب ضروس يخوضانها مع الترك، ولكن ليوبولد اعترض بأنه لا يملك تأكيداً بالألا يهاجمه لويس الرابع عشر في الغرب أن أرسل جيوشه إلى الشرق، ورجا سويسرا أن تعطي النمسا هذا التأكيد، ولكن لويس الرابع عشر أبي(8). وتحول سويسرا أكثر فأكثر إلى التحالف مع النمسا. فلما حاول العملاء الفرنسيون رشوة البرلمان ضده فصح مؤامراتهم ونشر رسائلهم السرية. وفي رد الفعل التالي ضد فرنسا وقع البرلمان (1 أبريل 1683) حلفاً مع الإمبراطورية، واتفق على أن تحشد بولندا أربعين ألف مقاتل، والإمبراطورية ستين ألفاً. فإذا حاصر العثمانيون فيينا أو كراكو، خف الحليف لنجدة حليفه بقوته كلها.

وفي يوليو زحف العثمانيون على فيينا. وفي أغسطس غادر سويسرا والجيش البولندي وارسو بهذا الهدف المعلن، وهو "أن يمضوا إلى الحرب المقدسة، ويردوا بعون الله الحرية القديمة لفيينا المحاصرة، فيعينوا بذلك جميع العالم المسيحي المتخاذل(9)". وبدا أن أنبل ما عرفت العصور الوسطى من فروسية قد بعث من جديد. ووصل البولنديون إلى العاصمة المحاصرة في الوقت المناسب، لأن المرض والجوع كادا يفتكان بأكثر المدافعين عنها. وقاد سويسرا بشخصه جيشي بولندا والإمبراطورية المجتمعين في معركة من أحسم المعارك في التاريخ الأوروبي (12 سبتمبر 1683). ولقي نصف البولنديين الذين تبعوه في هذه الحرب الصليبية موعدهم خمسة وعشرون ألفاً-حتقهم في المعركة أو في طريقه إليها.

ثم قفل بولندا مكللاً بنصر يشوبه شعور الخيبة. واستقبلته واسو فخورة به بطلاً لأوروبا، ولكن الإمبراطور كان قد خيب آماله في

صفحة رقم : 11051

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بولندا وسويسرا

تزويج ابنة من أرشيدوقة النمسا. ولكي يؤمن ملكاً لابنه حاول فتح ملدافيا، وانتصر في جميع المعارك إلا معاركه مع الجو والقدر، وعاد إلى بلده صفر اليدين.

ووسط ضجيج السياسة وصخبها، وفي الفترات التي تخللت الحرب جعل من بلاطه مركز إحياء ثقافي. فلقد كان هو نفسه رجلاً واسع الإطلاع: درس جاليليو وهارفي، وديكارت وجاسندي، وقرأ بسكال، وكورنيي، ومولير. ومع أنه أيد الكنيسة الكاثوليكية باعتبار هذا التأييد سياسة للدولة، فإنه بسط الحرية الدينية والحماية على البروتستانت واليهود(10) وأحبه اليهود كما أحبوا قيصر من قبل. وكان يريد، وإن لم يستطع، أن ينقذ من الموت رجلاً من أحرار الفكر أعرب عن بعض شكوكه في وجود الله (1689)(11)، وكان هذا أول إحراق لمهرطق في تاريخ بولندا. ثم مضت بولندا في إنجاب شعرائها، ولكنها ظلت تستورد أكثر فنانيها الأفاضل. فنظم فاكلاو بوتوكي ملحمة عن انتصار بولندا في خوتين،

وكتب فسبازيان كوشوفسكي ملاحم مماثلة، ومجموعة مزامير بولندية في نثر شعري، أما أندريزي مورزين، فبعد أن ترجم "أمينتا" تاسو و "سيد" كورني، أظهر في غنائياته تأثير الشعر الفرنسي والإيطالي في بولندا. وقد شجع سوبيسكي التأثير الفرنسي، لأنه كان معجباً بكل شيء في فرنسا إلا سياستها. واستقدم المصورين والمثالين الفرنسيين والإيطاليين ليعملوا في وارسو، واستخدم المعماريين، ولا سيما الأبطاليين منهم، ليشيدوا قصور بطراز الباروك في فيلانوف، وزولكيف، ويافوروف. وبنيت الكنائس الفخمة إبان حكمه: كنيسة القديس بطرس في فلنو وكنيسة الصليب المقدس والراهبات البنديكتيات في وارسو. وقبل أندرياس شلوتر من ألمانيا لحفر الزخارف للقصر المبني في فيلانوف، ولقصر كرازنسكي في العاصمة. ووسط هذه التأثيرات الغربية في الفن، غلبه التأثير الشرقي في الملابس والمظهر: العبادة الطويلة والمنطقة العريضة الزاهية الألوان، والشاربان المفتولان إلى أعلى كأنهما سيفان أحديان. وقد كدر صفاء شيخوخة الملك تمرد ولده يعقوب، وعناد زوجته، وفشله في جعل الملك وراثياً في أسرته. وكان الفيتو المطلق سيفاً مسلطاً فوق رأسه على الدوام. ولم يستطع أن يصلح من حال الفلاحين، لأن

صفحة رقم : 11052

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بولندا وسوبيسكي

سادتهم سيطروا على البرلمان، ولم يستطع إكراه الأغنياء على دفع الضرائب، لأن الأغنياء كانوا هم البرلمان، ولم يستطع السيطرة على النبلاء المشاغبيين، لأنهم أبوا أن يكون له جيش دائم. ومات من تبولن الدم في 17 يونيو 1696، لا كبير القلب كما زعمت الرواية، بل أسفاً على انحدار بلده الحبيب من قمة البطولة التي فعه إليها. وتخطى الديت ابنه وباع التاج إلى فردريك أو غسطس، ناخب سكسونيا، الذي تحول في غير عناء من البروتستنتية إلى الكاثوليكية ليصبح أوغسطس الثاني ملك بولندا. وكان شخصية عجيبة في ذاته. ويسميه التاريخ أوغسطس القوي، لأنه كان الرياضي الشديد البأس في جسمه وفراشه، وقد نسبت إليه أسطورة إنجاب 354 طفلاً غير شرعي (12). وفي يناير 1699 وقع في كارلوفتز معاهدة نزلت بمقتضاها تركيا عن كل دعوى لها في أوكرانيا الغربية. فلما شعر أوغسطس بالأمان في الجنوب والشرق، استمع إلى باتكول، وربط بولندا بحلف مع الدنمرك وروسيا لاقتسام السويد.

صفحة رقم : 11053

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> روسيا تتجه إلى الغرب

3- روسيا تتجه إلى الغرب

استطاع كل من المتأمرين الثلاثة أن يخلق عذراً ويدعي استقزازاً ما. فشارل العاشر ملك السويد كان قد حاصر كوبنهاجن وحاول فتح الدنمرك، وغزا بولندا واستولى على عاصمتها، وكان جوستافس أدولفس قد دعم قوة السويد في ليفونيا واینجريا دعماً أتاح له أن يتحدى روسيا أن تنزل زورقاً في البلطيق دون موافقة السويد. أما الدب الروسي الحبيس فكان يحرق الأرم لمرأى المخارج كلها مغلقة في الغرب، والمنافذ إلى البحر الأسود كلها يسدها التتار والترك. ولم يبق غير الشرق مجال لتحرك روسيا-إلى سيبيريا، وذلك يبدو الطريق إلى الشدائد والهمجية. لقد كانت أسباب الراحة ومفاتن الحياة تؤمي لروسيا أن تتجه غرباً، وكان الغرب مصمماً على أن يبقي روسيا بلداً شرقياً. وحين اعتلى ألكسيس ميخايلوفتش رومانوف عرش القيصرية كانت روسيا لا تزال يطغى عليها طابع العصر الوسيط. فهي لم تعرف القانون الروماني، ولا إنسانية النهضة الأوروبية، ولا إصلاح الحركة

صفحة رقم : 11054

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> روسيا تتجه إلى الغرب

البروتستنتية. وفي عهد ألكسيس صيغ القانون الروسي من جديد (أولوزيني 1649) لكن هذه الصياغة لم تكن أكثر من جمع وتنسيق للقوانين القائمة المبنية على الحكم المطلق واستقامة العقيدة الدينية. فمثلاً ظل القانون يرى من الجريمة أن يتطلع إنسان إلى الهلال الجديد أو أن يلعب الشطرنج أو يغفل الذهاب إلى الكنيسة في الصوم الكبير. وهذه الجرائم وعشرات غيرها تعاقب بالجلد. وكان ألكسيس ذاته متعصباً في تدينه رغم ما في طبعه من لطف وسماحة، وكثيراً ما كان ينفق خمس ساعات كل يوم في الكنيسة، وقد انحنى في إحدى المناسبات ألفاً وخمسمائة انحناءه (13). وكان يبتهج بإطعام الشحاذين الذين يتجمعون حول قصره، ولكن كان يعاقب كل انشقاق سياسي أو ديني عقاباً صارماً، ويفرض الضرائب الباهظة على شعبه، ويسمح لاستغلال الفلاحين وفساد الحكومة أن يستشرياً إلى درجة أشعلت الثورة في موسكو، ونوفجورود، ويسكوف، وأهم من ذلك بين قوزاق نهر الدون. وقد ألف قوزاقي من هؤلاء يدعى ستينكا رازين عصابة لصوص، وسلب الأغنياء وقتلهم، ونصب نفسه سيداً على استراخان وزارتسين (التي أصبحت ستالجراد). ثم أقام جمهورية قوزاقية على الفولجا، وهدد مرة بالاستيلاء على موسكو. وانتهى أمره بأن أسر وعذب حتى مات (1671)، ولكن الفقراء حفظوا له ذكرى عزيزة تعدهم بالانتقام من الملاك والحكومة. على أن بعض المؤثرات العصرية سرت حتى إلى هذه البيئة الوسيطة فقد اقتضت الحروب مع بولندا اتصالات أكثر مع الغرب. وأقبل الدبلوماسيون والتجار في أعداد متزايدة من بلاد أطلق عليها الروس اسم "أوربا". وشهد نهر دونا وثغراً ريجا وأركانجل تجارة نامية مع الدول الغربية. ودعى الفنانون الأجانب لتطوير المناجم، وتنظيم الصناعة، وصنع السلاح. ونمت مستوطنة كاملة للمهاجرين حوالي 1650 في أحد أحياء موسكو، وجلب الألمان والبولنديون مسحة من الأدب والموسيقى الغربيين إلى هذه المستوطنة، وزودوا الأسر الروسية بمدربين خوصيين للاتينية. وكان لألكسيس نفسه أوركسترا ألماني. وقد سمح لوزيره أرتامون ماتقيف باستيراد الأثاث الغربي والعادات الفرنسية، إلى حد إباحة اختلاط النساء بالرجال في المجتمع. ولما

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> روسيا تتجه إلى الغرب

بعث السفير الروسي لدى دوق توسكانيا الأكبر إلى ألكسيس أوصافاً للدرامات والأوبرات والباليهات الفرنسية، سمح ألكسيس في بناء مسرح في موسكو وبعض المسرحيات، لا سيما المقتبسة من الكتاب المقدس. وقد سبقت إحداهما، وهي "استير"، تمثيلية راسين التي تحمل هذا الاسم بسبعة عشر عاماً. ولما شعر ألكسيس أنه أذنب باختلافه إلى هذه الحفلات التمثيلية، ذكرها لكاهن اعترافه، فأباح له هذه المتعة الجديدة (14). وتزوج ماتيف سيدا اسكتلندية تنتمي لأسرة هاملتن الشهيرة، وقد تبنيها وربيا يتيمة روسية تدعى ناتاليا نارويشكينا، وقد اتخذها ألكسيس زوجة ثانية له. على أن مغامرات التغريب هذه أثارت د فعل وطنياً، فشحج بعض الروس الأرثوذكس دراسة اللاتينية باعتبارها شراً قد يغري الشباب بالأفكار غير الأرثوذكسية. وأحس الجيل المخضرم أن أي تغيير في العادات أو الإيمان أو الطقوس يزيح حجراً في بناء المجتمع، ويفلقل الأحجار كلها، وقد يهوى بعد حين بالبناء المزعزع كله ويحيله خراباً. وكان الدين في روسيا يعتمد على الطقوس اعتماده على العقيدة. ومع أن قدرة الجماهير على تفهم الأفكار كانت إلى ذلك الحين محدودة جداً، فقد أمكن تدريبها على الطقوس الدينية التي أعان تكرارها الموثوم على الاستقرار والسلام الاجتماعي والنفسيين. ولكن التكرار يجب أن يكون دقيقاً حتى يحدث الأثر الموثوم، وأي تغيير في التابع المألوف قد يحطم التعويذة المهدئة، ومن هنا كان لا بد من بقاء كل تفاصيل المراسم الدينية، وكل كلمة من كلمات الصلوات، على حالها كما كانت منذ قرون. وقد وقع خلاف من أشد الخلافات والانقسامات مرارة في التاريخ الروسي حين أدخل نيكون، بطريرك موسكو، على الطقوس بعض الإصلاحات المبنية على دراسة للممارسات والنصوص البيزنطية. فقد دله الأكليريكيون الذين درسوا اليونانية على أخطاء كثيرة في النصوص التي تستعملها الكنيسة الروسية، فأمر نيكون بمراجعة النصوص والطقوس وتنقيحها، فمثلاً تقرر أن يكتب اسم يسوع بعد ذلك Jisus بدلاً من Isus، وأن ترسم علامة على الصليب بثلاثة أصابع لا إصبعين، وأن يخفض عدد المطانيات (الركعات) في صلاة معينة من اثنتي عشرة إلى أربع، وأن تحطم الأيقونات التي يظهر فيها التأثير الإيطالي ويستبدل بها أيقونات تتبع

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> روسيا تتجه إلى الغرب

النماذج البيزنطية. وتقرر بصفة عامة أن يطابق مطابقة أوثق بين الشعائر الروسية وأصولها البيزنطية. وقد أنزلت رتب بعض رجال الكنيسة الروس الذين أبوا قبول هذه التغييرات أو أوقع عليهم الحرم أو نفوا إلى سيبيريا. وساعت القيصر أساليب نيكون الدكتاتورية، فنفاه في 1667 إلى دير ناء. وانقسمت الكنيسة الروسية إلى حزبين، فأما الكنيسة الرسمية التي يؤيدها ألكسيس فقد قبلت الإصلاحات، وأما المخالفون (راسكولنيكي) أو قدامى المؤمنين (سناروفيرتسي) فقد تطوروا إلى هيئة منشقة اضطهدتها الأرثوذكسية الجديدة بالنار والحديد. وقد أحرق زعيمهم أفاكوم على الخازوق (1681) بأمر القيصر فيودور. وقتل كثيرون من قدامى المؤمنين أنفسهم مؤثرين الموت على

دفع الضرائب لحكومة كانت في نظرهم عدواً للمسيح. وهذه الفوضى الدينية كانت بعض التركة التي ورثها بطرس الأكبر.

ومهد موت ألكسيس (1676) لصراع عنيف بين أبنائه. فقد خلف من زوجته الأولى ماريا ميلوسلافسكي ولداً عليلاً يدعى فيودور (المولود في 1662)، وآخر أعرج نصف أعمى ونصف معتوه يدعى إيفان (المولود في 1666)، وست بنات كانت أكفأهن وأشدهن طموحاً صوفيا ألكسيفنا (المولودة في 1657). وخلف من زوجته الثانية ناتاليا نارويشكيننا ولده الأشهر بطرس (المولود في 1672). وورث فيودور العرش، ولكنه مات في 1682. وأراد البويار (النبلاء الروس) أن يولوا بطرس عرش القيصرية، بوصاية أمه، لما رأوه من عجز إيفان الشديد. ولكن أخوات بطرس لأبيه كان يكرهن ناتاليا ويخشين أن يهملن تحت حكمها، حرضن جنود حامية موسكو (السترلنتسي)، تنزعهن صوفيا، على أن يعزوا الكرملين ويصروا على تنصيب إيفان. وناشد ماتيفيف، حاضن ناتاليا، الجند أن ينسحبوا، فانترعوه من قبضة بطرس، وقتلوه على مرأى من الصبي ذي العشرة الأعوام، وقتلوا أخوه ناتاليا ونفراً من أنصارها، وأكرهوا البويار على قبول إيفان قيصرًا، يشاركه بطرس تابعاً له، وصوفيا وصية عليه. ولعل هذه الفضائح أسهمت في إصابة بطرس بتلك التشنجات التي نغصت حياته فيما بعد، وهي على أي حال أعطته دروساً لا تنسى في العنف والوحشية.

صفحة رقم : 11057

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> روسيا تتجه إلى الغرب

واعتكفت ناتاليا مع بطرس في إحدى ضواحي موسكو المسماة بريوريرازينسكي. وحكمت صوفيا البلاد بكفاية. وقد استنكرت عزل النساء في مساكنهن (التيريم أي الحرير terem)، وظهرت أمام الناس سافرة، ورأست في غير خشية اجتماعات الرجال حيث راح الشيوخ يهزون رءوسهم أسفاً وحسرة على هذه الوقاحة، ولكنها كانت قد تلقت من التعليم أكثر من معظم الرجال المحيطين بها، وكانت ميالة إلى الإصلاح وإلى الأفكار الغربية، واختارت رئيساً لوزرائها، وربما عشيقاً لها، رجلاً افتتن بحياة الغرب. وكان هذا الرجل، وهو الأمير فازيلي جوليتسين، يكتب اللاتينية، ويعجب بفرنسا، ويجمل قصره بالصور وقطع نسيج جوبلان المرسومة، ويقتني مكتبة كبيرة تضم كتباً لاتينية وبولندية وألمانية. والظاهر أن قدوته وتشجيعه كان لهما الفضل في بناء ثلاثة آلاف مسكن حجري بموسكو في سنوات وصايته السبع، في حين كانت كل البيوت تشاد قبل ذلك بالخشب. ويبدو أنه كان يخطط لعنق أرقاء الأرض (15). وفي عهده ألغى الاسترقاق بسبب الدين، وكقت الحكومة عن دفن القتلة أحياء، وألغيت عقوبة الإعدام على التقوه بعبارات التحريض. على أن جهوده في الإصلاح أودى بها فشله في قيادة الجيش، فقد أعاد تنظيمه وقاده مرتين ضد الترك، وفي الحالتين أساء إدارة تموين الجند، فعادوا مهزومين منمردين، وأعطى سخطهم بطرس الإشارة للقبض على زمام السلطة.

صفحة رقم : 11058

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بطرس يتعلم

كان يتلقى التعليم من أمه، ومن معلميه الخصوصيين، ومن جولاته في شوارع موسكو. ولم يكن مبكر النضج، ولكنه كان تواقاً إلى العمل، طلعة، ذكياً، بهرته الآلات المجلوبة من الغرب مثل كالساعات، والأسلحة، والأدوات. وهفت نفسه إلى روسيا تتنافس الغرب في فنون الصناعة والحرب. وكان يحب لعب الألعاب الحربية مع رفاقه الخشنيين-كبناء القلاع، ومهاجمتها، والدفاع عنها. وحلم ببحرية روسية قبل أن يتاح لروسيا الوصول إلى بحر لا يتجمد، فبنى قوارب أكبر فأكبر، حتى اضطر إلى رحلة ثمانين ميلاً من موسكو ليجد في بيرسلافل بحيرة يستطيع أن يعوم فيها أسطوله الصغير.

صفحة رقم : 11059

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بطرس يتعلم

فلما اشتد عوده ازداد ضيقه بهيمنة أخت غير شقيقة، اغتصبت مع فازلي جوليتسين سلطة إيفان وسلطته. وفي 18 يوليو 1689، انضم بطرس إلى إيفان في الموكب الذي كان يحتفل كل سنة بتحرير موسكو من قبضة البولنديين. ومشت صوفيا في الموكب على غير ما قضت به التقاليد. فأمرها بطرس، وقد بلغ الآن السابعة عشرة، أن تنسحب، ولكنها أصرت على السير، فغادر المدينة غاضباً، وبحث عن حلفاء ضد الوصية. فوجدهم في "البويار" الذين لم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم على الرضي بحكم امرأة، وفي حامية موسكو (الستريلتسي)، التي كان رجالها على استعداد للخدع الحربية والأسلاب بعد أن صدتهم صوفيا غير مرة. وحرك بورييس جوليتسين، ابن عم الوزير، الانقلاب بإرساله رسالة مزورة إلى بطرس زعمت صوفيا أن تدبر القبيض عليه. وفر بطرس وتبعته أمه، وأخته، وزوجته التي تزوجها مؤخراً، إلى دير ترويتسكو-سرجيفسكايا، على خمسة وأربعين ميلاً من موسكو. ومن هناك أرسل الأوامر لكل كولونيل في الحامية بالذهاب إلى الدير المذكور. ونهتهم صوفيا عن الذهاب، ولكن كثيرون ذهبوا. وسرعان ما أقبل زعماء الأشراف، ثم يواقيم بطريرك موسكو. واستدعى فازيلي جوليتسين، فخضع، ونفي إلى قرية قريبة من أركانجل. وقبيض على نفر من مؤيدي صوفيا، وعذب بعضهم، وأعدم آخرون. وكتب بطرس لإيفان يستأذنه في تقلد زمام الحكم، فأعطى إيفان الإذن أو افترض أنه أعطاه، وأمر بطرس صوفيا أن ترحل إلى دير للراهبات، فاحتجت، وتمردت، ثم استسلمت. وهناك زودت بكل أسباب الراحة وبالخدم الكثيرين، ولكن حذر عليها أن تبرح الدير. وفي 16 أكتوبر 1689 دخل بطرس موسكو، ورحب به إيفان، فتقلد زمام السلطة العليا. واعتزل إيفان الحياة العامة في لباقة، ومات بعد سبع سنوات.

على أن بطرس لم يكن قد تهيأ بعد للحكم. فترك الحكومة لبورييس جوليتسين المتزمت الرجعي، وليواقيم، وغيرهما، وبينما أنفق هو كثيراً من وقته في المستوطنة الأجنبية. وهناك صنع أصدقاء جدداً كانوا ذوي أثر قوي في تطوره. ومن هؤلاء باتريك جوردون الاسكتلندي، المقاتل المغامر الذي كان الآن ضابطاً في الجيش الروسي وهو في الخامسة والخمسين، ومنه تعلم بطرس المزيد عن فنون الحرب. ثم فرانسوا

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بطرس يتعلم

ليفور، الذي ولد في جنيف، وكان الآن لواء في الرابعة والثلاثين. وقد ابتهج القيصر الشاب بحسن طلعته وسرعة خاطره وأساليبه اللطيفة، فكان يتناول الطعام معه مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، الأمر الذي أفرح أهل موسكو، فهم ينظرون إلى جميع الأجانب نظرهم إلى المهترطين الأشرار. وقد فضل بطرس عشرة هذين الأجانبين على عشرة الروس، لأنه رأهما أكثر تحظراً وإن لم يقلا عن الروس إسرافاً في الشراب، وقد فاقتا الروس كثيراً في معارفهما الصناعية والعلمية والحربية، وكان حديثهما أرقى وملاهيتهما أرفع. ولاحظ بطرس تسامحهما المتبادل في أمور الدين- فجوردون كان كاثوليكياً، وليفور بروتستنتياً- ووقف في ابتسام عراباً للأطفال الكاثوليك والبروتستنت على السواء عند جرن المعمودية. ثم تعلم من لغتي الألمان والهولنديين ما يكفي لتحقيق أهدافه.

أما أهدافه هذه فهي أن يجعل روسيا شديدة البأس في الحرب، منافسة للغرب في فنون السلم. لقد تعلم من النزول الهولندي، البارون فون كيلر، كيف حافظ الهولنديون على ثروتهم وقوتهم في بناء السفن الجيدة. وتاقت نفسه لإيجاد منفذ إلى البحر، ولبناء أسطول بحري. ولم يكن له منفذ بحري إلا في أركانجل، التي كان يكتنفها الجليد نصف العام. ومع ذلك اتخذ طريقة إليها في 1693. واشترى سفينة حربية هولندية راسية في الميناء، فلما تغلب على خوفه من البحر وأبحر على هذه السفينة أسكرته الفرحة، وكتب إلى ليفور يقول: "ستقودها أنت، وسأخدم أنا بحاراً بسيطاً فيها(16)". وارتدى سترة قبطان هولندي، واختلط مغتبطاً بالبحارة الهولنديين في حانات الثغر. لقد كان الهواء الملح الذي هب عليه من البحر البارد نسمة منعشة من الغرب، من ذلك الإقليم، إقليم الصناعة والمنعة والعلم والفن، الذي كان يناديه في إغراء يزداد قوة يوماً بعد يوم.

وكان هناك طريقان عمليان إلى الغرب: أولهما طريق البلطيق الذي تسده السويد وبولندا، وثانيهما طريق البحر الأسود، الذي يسده التتار والترك. وكان التتار والترك يسيطرون عند أزوف على مصب الدون، ويغيران المرة بعد المرة على الأراضي الموسكوفية، ويأسران الروس- أحياناً عشرين ألفاً في سنة واحدة- ليبيعوهم عبيداً في

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بطرس يتعلم

الأسنانة. وفي 1659 أمر بطرس جيشه أن ينتقل من التلهي بالألعاب إلى التمرس بالحرب، وأن يزحف مخترقاً السهوب، ويبحر هابطاً الأنهار، ويهاجم أزوف. واضطلع ثلاثة قواد بالقيادة قسمة بينهم-جولوفين، وجوردون، وليفور. وعمل بطرس بتواضع مدفعياً برتية رقيب في فوج بريوبرازينسكي. وأسيات إدارة العملية، وكان الجند سيئي التدريب، وبعد أربعة عشر أسبوعاً من التضحيات أفلح الروس عن الحصار، وعاد بطرس إلى موسكو وهو يقسم ليدربن جيشاً أفضل ويعيدون الكرة.

وبنى فورونيز أسطول ناقلات وبوارج. وفي مايو 1696 أبحر هابطاً الدون على رأس 75.000 رجل، واستأنف حصار آزوف. وفي يوليو، وبفضل بسالة قوزاق دون على الأخص، استولى الروس على المدينة. وعلى الفور أمر بطرس ببناء أسطول كبير في فورونيز ليعمل في البحر الأسود. وفي سبيل هذا الهدف فرضت الضرائب على روسيا كلها بما فيها كبار ملاك الأراضي، وجنّد العمال، وجلبت الآلات الأجنبية. وبعث خمسون من أشرف الروس على نفقتهم إلى إيطاليا، وهولندا، وإنجلترا، ليتعلموا فن بناء السفن. وفي 10 مارس 1697 تبعهم بطرس. ولو خطر ببال روسيا أن القيصر سيمضي إلى بلاد تدينسها الهرطقة لأفزعتها الفكرة وروعها. لذلك نظم سفارة من خمسة وخمسين نبيلاً ومائتي تابع، يرأسها ليفور، لتزور "أوربا" وتبحث عن حلفاء ضد الترك. وكان من هؤلاء المبعوثين الخمسة والخمسين صف ضابط لا يدعي إلا باسم بطرس ميخايلوف، ويستعمل ختماً عليه صورة نجار سفن وهذه العبارة "رتبتي تلميذ، وأنا في حاجة إلى معلمين(17)" فلما خرج بطرس من روسيا، لم يدقق في الاحتفاظ بهذا التتكر، فقد استضافه ناخب براندنبورج فردريك الثالث، والملك ليم الثالث في إنجلترا، والإمبراطور ليوبولد الأول في فيينا، بوصفه قيصر روسيا. ولقد صدم أهل القصور، حتى وهو يسفر عن مقامه الملكي، بجلافة سلوكه وحديثه، وبقدارته وإهماله، وبغزوفه على استعمال السكين والشوكة(18). ولكنه شق طريقه.

صفحة رقم : 11062

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بطرس يتعلم

ولقيت السفارة المصاعب-التي لم ينسها بطرس قط-في سفرها إلى ريجا مخترقة ليفونيا السويدية. ومن هناك أسرع إلى كونيغزبيرج، حيثوقع من الناخب معاهدة تجارة وصدقة. وفي براندنبورج درس المدفعة والتحصين على يد مهندس حربي بروسي أعطاه شهادة بتقدمه. وفي كوبنبروجي أقنعه صوفيا، ناخبة هانوفر الأرملة، وابنتها صوفيا ارلوت، ناخبة براندنبورج، هو وبطانته بالعشاء والرقص معهم. وقد وصفته الناخبة الأرملة فيما بعد بهذه العبارات: "إن القيصر رجل فارغ الطول، دقيق الملامح، رائع السمات، له ذهن شديد الحيوية، وبديهة حاضرة... وليت عادته أقل جلافة... كان كرحاً جداً، كثير الحديث، وقد كونا صداقة حميمة فيما بيننا... أخبرنا أنه يعمل في بناء السفن، وأرانا يديه، وجعلنا نلمس المواضع القاسية التي خلفها بهما العمل... إنه رجل شديد الغرابة... طيب القلب جداً، نبيل العاطفة إلى حد عجيب... ولم يشرب حتى يثمل في حضرتنا، ولكن ما إن بارحنا المكان حتى عوض أفراد بطانته عن قصده في الشراب... وهو حساس لمفاتيح الجمال... ولكني لم أجد فيه ميلاً للتودد لنساء... وفي؟ أثناء الرقص حسب الموسكوفيون عظام الحوت المصنوعة منها مشداتنا عظامنا، وأبدى القيصر دهشته بقوله أن للنساء الألمانية عظاماً قاسية إلى حد رهيب(19)".

ومن كوبنبروجي، أبحرت السفارة هابطة الرين إلى هولندا. وترك بطرس ونفر من أخصائه أكثر الجماعة في امستردام، ومضوا إلى زاندام، وكانت يومها مركزاً كبيراً لبناء السفن (18 أغسطس 1697). فقد سمع الكثير، حتى في روسيا، عن مهارة بناء السفن في هذه المدينة الجميلة. وتعرف في شوارعها على صانع عرفه في موسكو، اسمه جبريت كيسست. وطلب إليه بطرس أن يتسّر على تنكره، واقترح أن يسكن كوخ كيسست الخشبي الصغير. وهناك مكث أسبوعاً يرتدي زي عامل هولندي، وينفق نهاره في مراقبة نجاري السفن وهم يشتغلون، ويجد في ليله متسعاً لمغازلة فتاة تخدم في حانة الحي. وفي سنوات لاحقة زار جوزف الثاني ونابليون هذا الكوخ كأنه مكان مقدس، وجملّه القيصر اسكندر الأول بلوحة رخامية، وكتب شاعر

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بطرس يتعلم

هولندي على الحائط بيتاً مشهوراً: لا شيء يصغر في نظر الرجل العظيم(20)". فلما ضاق بطرس بالجموع التي تبعتها في كل خطوة بزاندام، عاد إلى أمستردام وسفارته. وهنا أيضاً أصر على التنكر، ولكنه سمى نفسه الآن "النجار بطرس الزاندامي". وأقنع شركة الهند الشرقية الهولندية بأن تسمح له بالانخراط في سلك عملها بأحواض السفن في أوستنبورج وهناك اشتغل بهمة مع عشرة من أتباعه طوال شهرين أربعة، وعاونوا في بناء سفينة وإنزالها إلى الماء. ولم يسمح بأي تفرقة بينه وبين العمال الآخرين، وحمل على كتفه الأخشاب كما حملها سائرهم. وكان في الليل يدرس الهندسة ونظرية بناء السفن، وتبين مذكراته مبلغ دقة هذه الدراسات. ووجد متسعاً من الوقت لزيارة المصانع، والوؤش، ومتاحف التشريح، والحدائق النباتية، والمسارح، والمستشفيات. وقابل الطبيب وعالم النبات العظيم بويرهافي، ودرس المكروسكوبيا على ليوفينهويك، واصطحب بطرسته إلى مدرج تشريح بويرهافي. ودرس الهندسة الحربية على البارون فان كويهورن، والعمارة على شينفويت، والميكانيكا على فان درهيدن. وتعلم كيف يخلع الأسنان، ولقي بعض مساعديه عنناً من جراء حماسه في علاج الأسنان. ودخل منازل الهولنديين ليدرس حياتهم الأسرية وتنظيم بيوتهم. واشترى في الأسواق، وخالط الناس، وتعجب من حرفهم المتنوعة، وتعلم أن يصلح ملابسه ويرقع حذاه. واحتسى الجعة والنيبيذ من الهولنديين في مشاربهم. وأغلب الظن أن التاريخ لم يشهد رجلاً أشوق منه إلى تشرب الحياة وتذوقها. وفي هذا النشاط كله لم تغب روسيا عن نظره. فوجه برسانله أعمال حكومتها النائية عنه. واستخدم وأرسل إلى روسيا عدة قباطنة بحريين، وخمسة وثلاثين ملازماً، واثنين وسبعين مرشداً، وخمسين طبيباً، وأربعة طباطخين، و345 بحاراً. وبعث إلى روسيا على عجل 260 صندوقاً من البنادق، وقماش القلوع، والبوصلات، وعظم الحوت والفلين، والمراسي، والعدد، وحتى ثماني قطع من الرخام ليشتغل عليها النحاتون الروس(21). ولكن اهتمامه كان يفتقر إذا اتصل الأمر بتهديب العادات، أو لطائف المجتمع، أو دقائق الفكر، ولم يكن لديه

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بطرس يتعلم

متسع من الوقت للميتافيزيقا أو المراقص أو الصالونات، وعلى أية حال لا ضير في أن ترجأ هذه الأشياء غير الملموسة. أما الآن فهمته أن يدخل صنائع الغرب وعلومه العملية إلى روسيا "حتى إذا تمكنا منها تمكناً كاملاً استطعنا عند عودتنا إلى الوطن أن ننتصر على أعداء يسوع المسيح(22)" وهو يقصد الاستيلاء على الأستانة وإطلاق روسيا من سجنها لتعبر اليوسفور إلى العالم. وبعد أن قضى في هولندا أربعة شهور طلب إلى وليم الثالث الأذن له بزيارة إنجلترا، شبه متنكر أيضاً. وبعث وليم باليخت الملكي ليأتي به، ووصل بطرس إلى لندن في يناير 1698. ومع أن الوقت كان شتاء فإنه زار أرفصة الموانئ والمؤسسات البحرية، والجمعية الملكية، ودار ضرب النقود، ولعله التقى بنيوتن هناك. وقلب إيفلين بيته وهياً أرضه بعناية في دبتفورد لبطرس وجماعته، وقد منحت الحكومة الإنجليزية السر جون بعد ذلك 350 جنيهاً ليصلح التلف

الذي أحدثته الروس. وأدهش القيصر جيرانه بالذهاب إلى فراشه مبكراً، والاستيقاظ في الرابعة، والسير إلى أحواض السفن يحمل على كتفه بلطة وفي فمه "بببة". واتخذ ممثلة كبيرة خليقة له، وقد شكت من ضالة المال الذي نقدها إياه. وتسلم درجة الدكتوراه في القانون في أكسفورد، وحضر الخدمات البروتستنتية في لياقة توقع معها القساوسة الإنجليز أنه سيحول روسيا إلى حركة الإصلاح البروتستانتية. وحاول الأسقف بيرنت التأثير عليه، فوجده محباً للاستطلاع ولكنه لا يلتزم بموقف متميز، وخلص إلى أن القيصر "هياته الطبيعية فيما يبدو لأنه يكون نجار سفن أكثر منه ملكاً عظيماً(23)".

وأبحر بطرس عائداً إلى أمستردام بعد أن أنفق أربعة أشهر في إنجلترا، وانضم إلى بعثته، وواصل معهم رحلته إلى فيينا مروراً بليبزيغ ودرسدن (26 يونيو 1698). وعيناً حاول، طوال شهر نفذ خلاله صبره، أن يضم الإمبراطور إليه في حلف ضد تركيا. وقد تطف مع اليسوعيين الذين بدأوا يحملون بروسيا الكاثوليكية الرومانية. وبينما هو على وشك مغادرة فيينا، وصلته رسالة تنبئه بأن حامية موسكو تمردت، وأنها تهدد بالاستيلاء على موسكو وعلى مقاليد الحكم فحف

صفحة رقم : 11065

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بطرس يتعلم

من فوره إلى روسيا، ولكن قرب كراكو وصله تأكيد بأن الثورة أهدمت. ولبت أربعة أيام في رافا مع أوغسطس الثاني ملك بولندا. وأدهشه وأبهجه أن يجد ملكاً يستطيع أن يباريه في قوة البدن، وصيد الوحوش، والإسراف في الشراب. وقد أحب أحدهما الآخر، وتعانقا، وتناقشا في أي البلدين يجب أن يكون أول ضحية لصداقتهم، السويد أم تركيا. وفي 4 سبتمبر وصل بطرس إلى موسكو بعد ثمانية عشر شهراً من رحلة عينت في رأي ماكولي "حقبه في التاريخ-لا تاريخ بلده فحسب... بل تاريخ العالم(24)". لقد اكتشفت روسيا أوربا، واكتشفت أوربا روسيا. وبدأ ليينتر يدرس الروسية.

على أن بطرس كان لا يزال له طبع مسكوفي القرن السابع عشر. إنه لم يعترف قط لحامية موسكو اشتراكهم في قتل أخواله وماتقيف، وفي تمكين صوفيا من اغتصاب السلطة. ولم يكن في خطته لتنظيم جيش جديد مكان لهذا "الحرس الإمبراطوري" المثير للمتعاب. فلما نمت إليه أن صوفيا فاوضتهم من دبرها ليعيدوها إلى الحكم، وأنهم هددوا ليفور وغيرهم من أهل "المستوطنة الألمانية"، وأنهم أذاعوا الشائعات بأنه يخون ديانة روسيا في ولعه بالغرب، استحال غضبه تشنجاً يطلب الانتقام. فأمر بتعذيب نفر كبير من الحامية ليحملهم على الاعتراف بدور صوفيا في تمردهم، ولكنهم تجلدوا لأروع ضروب العذاب دون أن يحملوها أي تبعة، ومر بتعذيب أتباعها بنفس الهدف والنتيجة. وأكرهت صوفيا على أن تقطع على نفسها نذر الرهينة، وأحكم حبسها في دبرها، حيث ماتت بعد ست سنوات. ثم أعدها ألفاً من رجال الحامية قتل بطرس منهم خمسة بيده، وأكره مساعديه على أن يقتلوا به، ولكن ليفور أبى. وما وافى عام 1705 حتى كانت حامية موسكو (السترلنسي) قد اختفت من التاريخ.

وشرع بطرس من فوره في بناء يش جديد. وكان الجيش القديم قوامه رجال الحامية، والمرترقة الأجانب، والمجنون من الفلاحين يجمعهم الأشراف. فاستبدل بطرس هذا الخليط جيشاً دائماً عدته 210.000 مقاتل بتجنيد رجلاً من كل عشرين أسرة من أسر الفلاحين. وألبس هؤلاء الجنود سترات عسكرية "أوربية" ودربوا على تكتيك الغرب. أما مدة الخدمة لجميع الرتب فهي مدى الحياة. وفضلاً عن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> بطرس يتعلم

هذا دعا بطرس 100.000 قوزاقي للخدمة. وبنيت السفن على عجل على البحيرات، والأنهار، والبحار، فما وافى عام 1705 حتى كان للبحيرة الروسية ثمان وأربعون بارجة، وثمانمائة سفينة أصغر منها، و28.000 بحار. كان هذا كله لا يزال في طريق التنفيذ، ناقصاً لم يكتمل بعد، حين جاء باتكول إلى موسكو واقترح أن ينضم بطرس على فرديريك الرابع ملك الدنمرك وأوغسطس الثاني ملك بولندا ليطردوا السويد من أرض القارة وينتزعوا منها الهيمنة على البلطيق. ورأى بطرس أن كل هذه السفن التي يجري بناؤها تتوق لأن تمخر عباب البحر، وهي تؤثر البحر المتوسط الدافئ-ولكن الإمبراطورية العثمانية كانت لا تزال قوية إلى حد يفت في العضد. وكانت الأستانة عصابة على الهجوم، والنمسا وفرنسا الآن صديقتين للأترك. فعلى روسيا إذن أن تتطلع إلى الباب الآخر، وأن تلتمس لها منفذاً في الشمال. وكان من سوء التوقيت أن يحضر المبعوثون السويديون إلى موسكو قبيل ذلك ويحصلوا على موافقة بطرس على تجديد معاهدة كارلس التي تعاهدت فيها روسيا والسويد على السلام. ولكن الجغرافيا والتجارة تهزأان بالمعاهدات. ثم ألم يكن ساحل البلطيق بين نهري نيفا ونارفا-لايتا اينجريا وكاريليا-من قبل ملكاً لروسيا، ولم يسلم للسويد في 1616 إلا لأن روسيا كانت في فترة شدتها تلك عاجزة عن المقاومة؟ فلم لا تسترد القوة ما أخذ بالقوة؟ وعلى ذلك، ففي 22 نوفمبر 1699 انضم بطرس إلى الحلف ضد السويد، واتخذ أهبطه لشق طريقه إلى البلطيق. وفي 8 أغسطس 1700 أمن جبهته الجنوبية على قدر ما تستطيع معاهدة تأمينها، وذلك بإبرامه صلحاً مع تركيا. في ذلك اليوم بعينه أمر جيشه بالزحف على ليفونيا السويدية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

5- شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

1721-1700

ونمى إلى استوكهولم نبأ غامض عن اتفاق الحلف. فالتام المجلس الملكي ليناقتش إجراءات الدفاع. وكان الرأي الغالب وجوب فتح باب المفاوضات مع أحد الحلفاء لعقد صلح منفرد معه. واستمع شارل

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

ملياً وهو صامت، ثم انتقض قائماً وقال: "أيها السادة، لقد عقدت النية على ألا أخوض حرباً ظالمة ما حييت ولكني... لن أنهي حرباً عادلة إلا بالقضاء المبرم على أعدائي(25)". ثم طلق كل لهو وترف واتصال بالنساء ومعاقرة للخمر. وكان جيشه وبحريته مستعدين، فغادر معهما استوكهولم في 24 أبريل 1700 ليبدأ واحدة من أروع السير الحربية في التاريخ. ولم يشهد عاصمة ملكه بعدها قط.

وبدأ بمهاجمة الدنمرك، فقد كان عليه أن يحمي ولايات السويد الجنوبية من هجمات الدنمرك وهو يواجه بولندة وروسيا. ثم قاد سفنه عبر مضيق الساوند-المفترض أنه لا يصلح للملاحة-بما عهد فيه من جرأة وسرعة، رغم اعتراض أميرال بحريته، ورسا على سييلاند، التي لا تبعد عن كوبنهاجن سوى أميال (4 أغسطس 1700). وسارع فرديريك الرابع ملك الدنمرك على إبرام صلح ترافندال معه (18 أغسطس) خشية أن تسقط عاصمته، ودفع تعويضاً قدره 200.000 ريال دنمركي، وأقسم أنه لن يهاجم السويد أبداً.

وفي مايو 1700 حاول أغسطس الثاني الاستيلاء على ريجا. ولكن هزمه الكونت ايريك دالبيرج، القائد السويدي البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً، والذي اكتسب لقب "فويان السويد" لمهارته في فن التحصين. وتفقر أوغسطس وناشد بطرس أن يخفف عنه بغزوه إنجلترا. واستجاب بطرس بأن أمر أربعين ألف مقاتل بحصار نارفا. وأراد شارل الثاني عشر أن يساعد دالبيرج، فنقل جيشه بالبحر إلى برناو (بارنو)، على خليج ريجا، ولكنه حين وجد ذلك المقاتل منتصراً، اتجه شمالاً. واخترق المناقع والممرات الخطرة ثم ظهر فجأة في مؤخرة جيش بطرس. وأخذ القيصر على غرة، فبدا منه ما بدا جبناً معيباً، إذ ترك الجيش (الذي كان يخدم فيه ملازماً فقط)، وفرّ على نوفجورود وموسكو. وأغلب الظن أنه عرف عن مجنديه الغشم سينهارون في أول امتحان لهم، ولم يكن في وسعه أن يترك العدو يأسره، لأنه رأى نفسه أعظم قيمة لروسيا حياً منه ميتاً. أما الجيش الروسي، الذي بلغ أربعين ألفاً، والذي كان يقوده الأمير المجري كارل يوجين ديكروا قيادة عاجزة، فقد هزمه جنود شارل الثمانية الآلاف في موقعة نارفا (20 نوفمبر 1700)، وكانت أول نكسة في حياة بطرس بعد صباه.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

وألح القواد السويديون على شارل في أن يزحف على موسكو ويجهز على بطرس. ولكن جيش شارل كان صغيراً، والشتاء حل، وكل شجاعة، حتى شجاعة هذا النابليون الشاب، لا بد أن تتردد أمام مسافات روسيا المترامية فضلاً عن مشكلة إطعام الجيش في أرض معادية. ثم (ما دامت العهود والمواثيق حبراً على ورق) هل يستطيع أن يركن إلى ملك الدنمرك، أو ملك بولنדה، في ألا يغزو أحدهما السويد وجيشها الرئيسي وقائدها نائيان عن أرض الوطن؟ وبعد أن أعاد شارل تنظيم حكومة ليفونيا ودفاعها، سار جنوباً إلى بولنדה، واحتل وارسو دون عناء (1720) على نحو ما فعل جده قبل سبعة وأربعين عاماً، وخلع أوغسطس، ونصب ستانيسلاس لذكزنسكي ملكاً على بولنדה (1704). لقد هزم الآن كل حليف من الحلفاء، ولكن الدب الروسي لم يكذب يوماً النزال.

ذلك أن بطرس لم يفق من رعبه فحسب، بل نظم جيشاً آخر وجهزه. ولكي يزوده بالمدافع أمر بأن تصهر أجراس الكنائس والأديار، وصنع ثلاثمائة مدفع، وأنشئت مدرسة لتدريب رجال المدفعية. وسرعان ما أخذت القوات المجددة الجديدة في إحراز الانتصارات، وتقدمت كتيبة مدفعية بطرس غيرها في الاستيلاء على نينسكانس، عند مصب نيفا (1703)، وهناك شرع القيصر لتوه في بناء "بطرسبرج" دون أن يدرك إلى ذلك الحين أنها ستكون عاصمة ملكه، ولكنه صمم على أن تكون أحد منافذه إلى البحر. وبينما كان شارل مشغولاً في بولنדה، ظهر بطرس ثانية أمام نارفا، وكان شارل قد ترك فيها حامية ضئيلة، واقتحم الروس القلعة الكبيرة (20 أغسطس 1704)، وثأر المنتصرون لأنفسهم من فشلهم السابق بمذبحة رهيبية، وضع لها بطرس حداً في النهاية بأن قتل بيديه اثني عشر من الروس المتعطشين للدماء.

وفي بولنדה بدا أن انتصار شارل كامل. فقد وقع أوغسطس المخلوع معاهدة اعترف فيها بلذكزنسكي رلكاً، وتخلّى عن أحلافه ضد السويد، وأسلم لشارل الرجل الذي نظم الحلف أولاً، فحطم جسد يوهان فون باتكول على دواب التعذيب ثم قطع رأسه (1707). ووجد بطرس نفسه وحيداً أمام هذا الإرهاب السويدي الشاب. فحاول

صفحة رقم : 11070

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

أن يرشو الوزارة الإنجليزية لترتب له صلحاً، ولكنها رفضت أن تتدخل. ومضي عامل بر رأساً إلى ملبره، فوافق على الوساطة لقاء إميرة في روسيا (26)، وعرض عليه بطرس كيبف أو فلاديمير أو سيبيريا، وضماناً من خمسين ألف طالب في العام، و "ياقوتة ماسية لا يملك نظيرها أي ملك أوربي" (27)، ولكن هذه المفاوضات أخفقت. وتعاطف السياسة الغربيون مع شارل، واحتقروا أوغسطس، وخافوا من بطرس، وكانت حجة بعضهم أنه لو سمح لروسيا بالتوسع غرباً، فإن أوربا كلها سترتعد بعد قليل أمام فيضان سلافي (28). وفي أول يناير 1708 عبر شارل الفستولا فوق جليد غير مأمون على رأس 44.000 مقاتل نصفهم من الفرسان. فوصل إلى جرودنو في اليوم السادس والعشرين بعد أن رحل عنها بطرس بساعتين فقط. ذلك أن رأي القيصر استقر على الدفاع بالعمق والتخريب. فأمر جيوشه بأن تتقهقر، وتستدرج شارل ليوغل داخل الفرشة الروسية أبعد فأبعد، وتحرق كل المحاصيل أثناء مسيرتها، وأمر الفلاحين بأن يخفوا قمحهم داخل الأرض أو تحت الثلوج، وبشتتوا ماشيتهم في الغابات والمستنقعات. وعهد إلى الزعيم القوزاقي ايفان مازيبا بمهمة الدفاع عن "روسيا الصغيرة" وأوكرانيا. وكان مازيبا قد نشيء وصيفاً في البلاط البولندي. وبأمر من نبيل بولندي أغوى ايفان زوجته رباط عرياناً على حصان أوكراني وحشي، وأرهب الحصان عمداً بضربات سوط وإطلاق مسدس عند أذنه (كما سيريري بيرون)، واندفع الحصان خلال الإخراج والغابات إلى مسارحه الأولى، ولكن مازيبا ظل على قيد الحياة وإن تمزق لحمه وسال دمه، وارتقى حين أصبح زعيماً لقوزاق زابوروج. وتظاهر بالولاء لبطرس، ولكنه كره أو تقراطية القيصر، وترقب

الفرصة للثورة. فلما سمع بأن بطرس يتقهقر وشارل يتقدم، قرر أن فرصته قد حانت. فأرسل إلى شارل يعرض عليه التعاون معه. ولعل هذا العرض هو الذي حدا بشارل إلى المضي في زحفه المتهور داخل روسيا. وبدأت سياسة "الأرض المحرقة" تؤتي ثمارها، فلم يجد السويديون غير برية متقدمة في طريقهم وأخذوا يتضورون جوعاً. وكان شارل قد اعتمد على تعزيزات انتظر وصولها من ريجا،

صفحة رقم : 11071

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

وقد حاولت أن تصله ولكن الروس دمروها نصف تدمير في طريقها. وعلل شارل نفسه بأن مازيبا سينضم إليه بالإمداد وقوة قوزاق الدنيبر كاملة، ولكن بطرس، الذي توجس من خيانة مازيبا، جرد جيشاً بقيادة الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ليقبض عليه، وفوجئ الزعيم قبل أن يستطيع إيقاف فرسانه، ففر على شارل عند هوركي جالياً معه ألفاً وثلاثمائة رجل فقط. وزحف شارل جنوباً ليستولي على عاصمة مازيبا، واسمها باتورين، ويأخذ مؤنهما، ولكن منشيكوف سبقه إليها، وأحرق المدينة وسواها بالتراب، وعين زعيماً مالياً لروسيا. واستعمل بطرس كل سلاح، فثنى القوزاق عن الانضمام إلى السويديين بمنشورات وصفت الغزاة بأنهم مهرطقون "ينكرون عقائد الدين الصحيح ويصقون على صورة العذراء المقدسة" (29). ولم يبق شارل من الأمل إلا في أن يخف التتار والترك لنجدته انتقاماً لاستيلاء بطرس على أزوف.

ولكن أحداً لم يأت، وكان شتاء 1708-9 عدواً رهيباً للسويديين. كان شتاء قارساً جداً في كل أرجاء أوروبا، فتجمد البلطيق على عمق سمح لعربات النقل الثقيلة أن تعبر الساوند على الجليد، وفي ألمانيا ماتت أشجار الفاكهة، وغطى الجليد الرون في فرنسا، والقنوات في البندقية. وفي أوكرانيا كست الثلوج الأرض، من أول أكتوبر إلى 5 أبريل، وسقطت الطيور نافقة أثناء طيرانها، وتجمد اللعاب في طريقه من الفم إلى الأرض، وتجمد النبيذ المسكرات فأصبحت كتلاً صلبة، واستحال إشعال الحطب في العراء، وكانت الرياح ماضية كالمدى في هبوبها على السهول المنبسطة وعلى وجوه الناس. واحتمل جنود شارل في تجلد صامت بينما لقي ألفان منهم حتفهم جوعاً أو برداً. قال شاهد عيان "كنت تر بعضهم بغير أيد، وبعضهم بغير أرجل، وبعضهم بغير أذان أو أنوف، وكثيرين يزحفون في سيرهم على نحو ما تفعل ذوات الأربع (30)" وأمرهم شارل بالسير قدماً، أملاً في أنهم لن يلبثوا أن يباغتوا جيش بطرس الرئيسي في مكان ما ويظفر بروسيا كلها في نصر ساحق واحد. وكان أينما التقى بالعدو، في هولوفكزين، وسركوفا، وأوبرسيا، ينتصر بفضل التفوق في القيادة والشجاعة، على قوات كثيراً ما بلغت عشرة أضعاف

صفحة رقم : 11072

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

قواته. ولكنه حين انتهى ذلك الشتاء، كان جيشه قد تقلص من 44.000 إلى 24.000 مقاتل. وفي 11 مايو وصل إلى بلطاوه الواقعة على فرع من فروع الدنيبر على خمسة وثمانين ميلاً جنوب غربي خركوف. هنالك لمح شارل أخيراً جيش بطرس، وكانت عدته ثمانين ألف مقاتل. وبينما كان في إحدى جولاته الاستطلاعية أصابته رصاصة في قدمه. فلم يعبأ بالجرح. وانتزع الرصاصة في هدوء بسكينه، ولكنه حين عاد إلى معسكره أغمي عليه، فلما عجز عن قيادة جيشه بشخصه، وكل بها الجنرال كارل رينسكيول، وأمره بأن يهاجم العدو في الغد (26 يونيو). وفي بداية المعركة اكتسح السويديون كل شيء أمامهم، وهم الذين لم يخسروا قط معركة تحت إمرة شارل. ورغبة في استتفار جنوده أمر شارل أن يحمل إلى ساحة القتال على محفة، ولكن نيران العدو حطمتها من تحته. وركب بطرس إلى المقدمة رغم أنه ما زال رسمياً مجرد ملازم في الجيش، مستنهضاً هم جنده، ولكن رصاصة مرتت خلال قبعته، وثانية صدها صليب ذهبي على صدره. وأسعفته الآن سنواته التي أعد فيها المدفعية ودرّبها، فكانت مدافعه تطلق خمس مرات مقابل مرة يطلقها السويديون. فلما نضبت ذخيرة السويديين فتكت المدفعية الروسية بالمشاة السويديين على بكرة أبيهم، واستسلم الفرسان السويديون حين رأوا الموقف ميئوساً منه. أما شارل فقد امتطى جواداً وفر مع مازيبا وألف مقاتل عبر الدنيبر إلى أرض تركية. وفقد السويديون أربعة آلاف رجل بين قتيل وجريح، والروس 4.435 ولكنهم أسروا 18.670 فيهم قائدان وضباط كثيرون. وعامل بطرس الضباط معاملة كريمة، ولكنه استخدم الأسرى في التحصينات والأشغال العامة. وأشاد ليبنتر بإنسانيته واستنتج من ضخامة الكتائب الروسية أن الله يقف في صف الروس (31). ووافق بطرس، وكتب يقول: "الآن بعون الله أرسيت أساسات بطرسبرج وأمنتها إلى الأبد (32)".

وكان للمعركة نتائج بعيدة المدى لا حصر لها. فقد فر لركزنسكي إلى الألزاس، واعتلى أوغسطس الثاني عرش بولندا من جديد. واستولت روسيا على إمارات البلطيق وكل أوكرانيا. وعادت الدنمرك

صفحة رقم : 11073

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

إلى لحلف ضد السويد، وغزت سكاني، ولكنها ردت على أعقابها. واستولى فردريك وليم ملك بروسيا على ستتين وهولشتين وجزء من بومانيا. وارتفع شأن روسيا وازدادت عزة وكبرياء. وعرض لويس الرابع عشر التحالف مع بطرس، فرفضه هذا، ولكنه رضي أن يستقبل مبعوثاً للويس. أما شارل فإنه لم يعترف بأنه هزم هزيمة ساحقة. وأغدق الأتراك الشاكرون صنيع أي إنسان يثير القلاقل لروسيا على لاجئهم الملكي كل أسباب التكريم، باستثناء الامتيازات الملكية. في بندر (وهي اليوم تيغينا) القريبة من الدنيستر، احتفظ ببلاطه، وتلقى من السلطان أحمد الثالث المئونة له ولآلاف وثمانمائة سويدي بقوا في خدمته. وحالما التأم جرح قدمه استأنف التمرينات العسكرية ودرّب جيشه الصغير. وشاع عنه أنه اعتنق الإسلام لزهده في الخمر واختلافه على الصلاة العامة بانتظام. ولم يدخر وسيلة ليقتنع السلطان أو الصدر الأعظم بشن الحرب على روسيا، وبهذا الأمل رفض أن يعيده إلى السويد سفن فرنسية وضعت تحت تصرفه. وبذلت محاولة لتسميمه، ولكنها كشفت في أوانها. وطالب بطرس بأن يسلم إليه مازيبا باعتباره مواطناً روسياً خائناً، ولكن شارل أبي أن يسمح بهذا، وقطع مازيبا العقدة بأن مات (1710).

إن كل انتصار يولد أعداء جدد أو يلهب الأعداء القدامى. وقد استطاع شارل أن يقتنع السلطان بأن قوة روسيا المتزايدة، التي لا يكبحها الآن كايح في الشمال، ستتحدى هيمنة الترك على البحر الأسود والبوسفور أن عاجلاً أو آجلاً. فأعلن السلطان الحرب على روسيا، وجرى عليها 200.000 مقاتل بقيادة الصدر الأعظم، وأخذ بطرس على غرة، فلم يستطع أن يحشد أكثر من 38.000 مقاتل في الجنوب ليصد هذا السيل الجارف. وخذله حلفاؤه البلغار والصرب. فلما التقى الجيشان على نهر بروت (وهو اليوم حد رومانياً الشرقي) اضطر بطرس لمنازلة الترك، لأن الإقليم المحيط به كان قد دمر. ولم يكن لديه غير مئونة يومين. وتوقع الهزيمة والموت، فأرسل تعليماته إلى موسكو لانتخاب قيصر جديد إذا تحققت مخاوفه، ثم اعتكف في خيمته ومنع أي إنسان من الدخول عليه. ولكن زوجته الثانية كاترين

صفحة رقم : 11074

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

اتفقت مع قواده على أن الاستسلام خير من الانتحار الجماعي وواجهت غضب بطرس إذ حملت إليه خطاباً طلبت إليه التوقيع عليه، يطلب فيه إلى الصدر الأعظم شروط الصلح. ووقع بطرس يائساً. وجمعت كاترين كل مجوهراتها، واقتضت مالا من الضباط، وبعثت بطرس شافيروف نائب المستشار، مسلحاً بـ 230.000 روبل، ليفاوض الوزير في شروط الصلح. وأخذ الوزير الروبلات والمجوهرات، وسمح لبطرس بأن يسحب جيشه وعتاده دون عائق، شريطة أن يسلم أزوف، ويجرد القلاع والسفن الروسية هناك من سلاحها ويسمح لشارل بالعودة إلى السويد في أمان، وألا يتدخل بعدها في شئون بولنדה. ولم يتردد بطرس في بذل هذه الوعود (أول أغسطس 1711) وانصرف بجنوده. وأقبل شارل مستعداً لخوض المعركة، ولكنه استشاط غضباً حين وجد الصلح أمامه. فحمل السلطان على طرد الوزير المسالم وواصل جهوده لاستئناف الحرب، ولكن شافيروف، الذي حمل معه 84.900 دوكاتية، أقنع الوزير الجديد بنتيبت معاهدة بروت.

وأعيت السلطان هذا العقد، فطلب إلى شارل أن يرحل عن تركيا، ولكنه أبى. فأرسل السلطان قوة تركية عدتها اثنا عشر ألف رجل لإجلائه، واستطاع شارل بأربعين رجلاً أن يصمد لهم ثماني ساعات، قتل خلالها عشرة أتراك بشخصه، وأخيراً قهره اثنا عشر أنكشارياً (أول فبراير 1713). فنقل إلى ديموتيكاً قرب أدرنه، ولكن سمح له بأن يمكث فيها عشرين شهراً بينما كان وزير جديد يفكر في مقاتلة روسيا. فلما تضاءل هذا الأمل وافق شارل على العودة للسويد. فزود بالحرس العسكريين والهاديا والأموال. وغادر ديموتيكاً (20 سبتمبر 1714)، واخترق الأفلاق وترانسلفانيا والنمسا، وفي منتصف ليلة 11 نوفمبر وصل إلى بومرانيا وثغرها وحصنها سنتر السوند، على ساحل البلطيق جنوب السويد مباشرة. وكانت هي وفيسمار إلى الغرب آخر القلاع السويدية على أرض القارة. وكان إصرار شارل قبيل ذلك على حكم السويد من تركيا، ورفضه بذل أي تنازلات لبطرس، قد جرا الخراب على الإمبراطورية

صفحة رقم : 11075

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

السويدية. ففي أول أغسطس 1714 كان جورج ناخب هانوفر قد أصبح جورج الأول ملك إنجلترا. فلما عقد العزم على استخدام قوته الجديدة في ضم بريمين وفيردين إلى هانوفر، جمع بين بريطانيا وبين الدنمرك وبروسيا في حلف جديد ضد السويد، وعزز الأسطول الإنجليزي الأسطول الدنمركي في المضائق. ووجد شارل نفسه حبيساً في ستر السوند، في حرب مع إنجلترا، وهانوفر، والدنمرك، وسكسونيا وبروسيا، وروسيا. وظل يقاوم الحصار هناك اثني عشر شهراً بستة وثلاثين ألف مقاتل، يقود حاميته المرة بعد المرة في هجمات بطولية عقيمة. فلما حطمت مدافع المحاصرين المدينة وأسوارها، ولم يكن مفر من التسليم، قفز شارل في سفينة صغيرة، وأبحر بها وسط نيران العدو، وبلغ كارلسكرونا على ساحل السويد (12 ديسمبر 1715).

وانتظرت استوكهولم وصول بطلبها اليانيس، ولكنه أبى أن يعود إليها إلا قائداً ظافراً. فأمر بتجنيد قوات جديدة حتى من الغلمان الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة، وصادر جميع السلع الحديدية ليني بها أسطولاً جديداً، وفرض الضرائب على كل شيء تقريباً يستعمله شعبه حتى شعورهم المستعارة. فأذعنوا صامتين، ظناً منهم بأنه ربما قد جن، ولكنه مع ذلك عظيم. وجاهد البارون جيورج فون جورتر، كبير وزرائه الآن، ليحطم الحلف. ولاحظ أن جورج الأول مختلف مع بطرس على تقسيم الأسلاب، فحاول أن يعقد صلحاً بين السويد وروسيا، ويعين ثورة أسرة ستيوارت في إنجلترا، ولكن خطته باءت بالفشل. وما وافى خريف 1717 حتى كان شارل قد حشد جيشاً من عشرين ألف مقاتل. في تلك السنة، ثم في 1718، غزا النرويج، أملاً في أن يكسب أرضاً تعوضه ما فقد على أرض القارة. وفي ديسمبر حاصر قلعة فريدريكستين. وفي اليوم الثاني عشر رفع رأسه لحظة فوق متراس الخندق الأمامي وإذا رصاصه نرويجية تصيبه في صدغه الأيمن فتريده قتيلاً لفوره. وكان يومها في السادسة والثلاثين. لقد مات كما عاش، مشدوداً ببسالته. كان قائداً مغواراً، كسب انتصارات لا تصدق في ظروف معاكسة جداً ولكنه عشق الحرب عشق

صفحة رقم : 11076

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الصراع على البلطيق -> شارل الثاني عشر والحرب الكبرى

المخمور بها، ولم يشيع من الانتصارات، وفي سبيل البحث عن انتصارات جديدة راح يدبر الحملات إلى حد أشرف على الجنون. وقد أفسدت الكبرياء كرمه وسماحته، كان يعطي كثيراً، ويطلب أكثر، ولقد عاق السلام غير مرة برفضه تنازلات ربما أنقذت إمبراطوريته وماء وجهه. ولكن التاريخ يغتفر له أخطاءه، لأنه لم يكن البادئ بـ "الحرب الشمالية العظمى"، هذه الحرب التي أبى أن يختمها إلا بالانتصار.

أما الحكومة السويدية، التي ندر أن جنحت إلى التطرف، فقد سارعت بمفاوضات الصلح. وبمقتضى معاهدتي استوكهولم (20 نوفمبر 1719 و 1 فبراير 1720) نزلت عن بريمين وفيردين لهانوفر، وعن ستييتين لبروسيا، ورفضت أول الأمر مطالب بطرس بجميع الأراضي السويدية في البلطيق الشرقي، فغزت الجيوش الروسية ثلاث مرات هذه الدولة التي استنزفت الحروب دماءها، وخربت أراضيها الساحلية ومدنها. وأخيراً. وبمقتضى معاهدة

نيستاد (30 أغسطس 1721) حصلت روسيا على ليفونيا، واستونيا، وبنجريا، وجزء من فنلندة. وهكذا ترك الصراع على البلطيق روسيا ظافرة، وجعل منها دولة عظمى".
أما القيصر المكود، المكتهل، الظافر رغم ذلك، والذي وصل إلى بطرسبرج ومعه نبأ السلام، وهتاف السلام، السلام "مير! مير!" فقد حياه شعبه أباً لوطنه، وإمبراطور لأقاليم روسيا كلها، ولقبه ببطرس الأكبر.

صفحة رقم : 11077

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الهمجي

الفصل الثالث عشر

بطرس الأكبر

1725-1689

1- الهمجي

أراد فولتير "ما الخطوات التي انتقل بها الناس من الهمجية إلى المدنية(1)" فلا عجب إذن إن أثار بطرس اهتمامه، لأنه كان يجسد على الأقل ذلك الجهد، إن لم يكن تلك العملية، في بدنه وروحه وشعبه. أو استمع إلى ملك "أكبر" آخر، هو فردريك الثاني ملك بروسيا، يكتب إلى فولتير عن بطرس في شيء من الخلط:
"لقد كان الملك الوحيد المتعلم حقاً. وإن لم يكن مشرع وطنه فحسب، بل كان يفهم جميع العلوم البحرية فهماً تاماً.
وكان معمارياً، ومشرحاً، وجراحاً... وجندياً خبيراً، واقتصادياً بارعاً... ولم يعوزه إلا تعليم أقل همجية وضاوثة(2)
ليكون المثل لجميع الملوك".
ولقد لاحظنا ذلك التعليم الهمجي الضاري، وما اكتنف طفولة بطرس من عنف وسفك للدماء، مما هز جهازه العصبي وعوده الشراسة. وكان حتى في شبابه يعاني من تقلص عصبي لا إرادي في عضلاته ربما استقحل بعد ذلك بالإفراط في الخمر وبالمرض السري(3). كتب بيرنيت بعد أن زاره بإنجلترا في 1698(4) يقول: "إنه عرضة لتشنجات تصيب بدنه كله". وقال روسي من أهل القرن الثامن عشر "من المشهور أن هذا الملك... كان عرضة لنوبات مخية قصيرة متكررة من نوع عنيف بعض الشيء. وكان ضرب من التشنج يعتريه، يحدث به في فترة قد تمتد ساعات حالة

من الاكتئاب تجعله لا يطبق النظر إلى إنسان ولو كان أقرب إلى أصحابه. وكان يسبق هذه النوبة دائماً التواء شديد في العنق نحو الجانب الأيسر، وتقلص عنيف في عضلات

صفحة رقم : 11078

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الهمجي

الوجه(5)". ومع ذلك كان متين البناء قوي البدن. وروي أنه حين التقى بأوغسطس الثاني تباريا في ثني الأطباق الفضية في أيديهما. وقد صورته نيلر عام 1698 شاباً يتقلد السلاح وشعارات الملك، غاية في اللطف والبراءة، بعد ذلك نجده مصوراً تصويراً أكثر واقعية، فهو عملاق محدودب، طوله ستة أقدام وثمانية بوصات ونصف، ذو وجه تام الاستدارة، وعينين واسعتين وأنف كبير، وشعر بني يتساقط في خصل لا تقص إلا نادراً. ولا تكاد نظرته الأمانة الناهية تتسجم وثوبه المهمل المهوش، وجواربه الخشنة المرفوة، وحذاءه المرقع ترفيعاً بدائياً. ومع أنه نظم أمة بأسرها إلا أنه كان يترك محيطه المباشر في فوضى أينما ذهب. ذلك أن الجهود الكبيرة استغرقت استغراقاً ضن معه على التوافه بأي وقت.

وأما عادته فكانت كلباسه لا تعمل فيها ولا تأنق حتى لتحسبه فلاحاً لا ملكاً لولا أنه كان خلواً من صبر الفلاحين الروس المتلبد. بل لقد كانت عادته أحياناً أسوأ من عادات الفلاحين لأنه لم يكبحه خوف من سيد أو خشية من قانون. مرة رأى تمثالاً لآلة الذكر في مجموعة عاديات بيرلين، فأمر زوجته أن تقبله، فلما رفضت كاترين هدها بضرب عنقها، ولكنها أصرت على الرفض، ولم يهدئ من ثأرته إلا تقديم التحفة هدية له ليزين بها حجرته الخاصة(6). وكان في أحاديثه ورسائله يبيح لنفسه استعمال أنكر الألفاظ وأفحشها. وكثيراً ما كان يعنف أخص أصدقائه بضربات من قبضته الهائلة، ومرة ضرب منشيكوف على أنفه فأسال دمه، ومرة ركل ليفور. وكان ولعه بـ "المقالب" يتخذ أحياناً صوراً قاسية، من ذلك أنه ألزم أحد مساعديه بأن يأكل السلاحف، وآخر بأن يشرب قارورة كاملة من الخل، وفتيات صغيرات بأن يبتلعن حصة جندي من البراندي. وكان يجد لذة شاذة في تطبيب الإنسان، وكان على المقربين منه أن يحذروا من أن تبدر منهم أقل شكوى من ألم في أسنانهم، فكلابته دائماً في متناوله. ولما شكا إليه تابعه من أن زوجته تحنح بألم مزعوم في ضررها لتحرمه من متع الزواج، أرسل في طلبها، وخلع لها ضرساً سليماً، وقال لها أن تنتظر المزيد إذا ظلت عزباء(7). ولقد جاوزت قسوته الفاجرة النقطة التي يمكن أن يعتذر عنها

صفحة رقم : 11079

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الهمجي

بأنها طبيعية أو ضرورية في زمانه أو مكانه. حقاً لقد ألف الروس القسوة، ولعلمهم كانوا أقل حساسية للألم من ذوي الأعصاب الأكثر رهافة، وربما كانوا في حاجة إلى تأديب صارم، بيد أن قيام بطرس شخصياً تقريباً بذبح حامية موسكو يوحي بلذة سادية بالقسوة، وشبق للدماء، وما كان هناك ضرورة من ضرورات الدولة تقتضي تقطيع اثنين من المتأمرين شرائح حتى يموتا(8). لقد كان في بطرس مناعة ضد الرحمة أو الحنان، وأعوزه ذلك الإحساس بالعدالة الذي كبح نزوات لويس الرابع عشر أو فردريك الأكبر. أما انتهاكاته لوعوده القاطعة فكانت تنسجم تماماً وسنة العصر.

وكان يرى ككل فلاح روسي أن السكر استعفاء معقول من واقع الحياة. فلقد اضطلع بكل أعباء الدولة، وبمهمة أخطر بكثير هي مهمة تحويل شعب شرقي إلى الحضارة الغربية، ومن ثم بدأ الشراب والقصف مع أصحابه تخففاً يستحقه. وكان يتقبل من كل قلبه حكمة الفلاحين التي تزعم أن الشراب فرحة الروسي. وكان مما يقيس به قدر الرجل قدرته على احتمال الشراب. وحين كان في باريس راهن على أن كاهن اعترافه يستطيع أن يشرب أكثر، ويظل أثبت جنازاً، من الكاهن أمين سر الوزارة الفرنسية، ومضت المباراة ساعة، فلما تدرج الأب الفرنسي تحت المائدة ضم بطرس كاهنه إليه لأنه "أنقذ شرف روسيا(9)". وحوالي عام 1690 ألف بطرس وخلصاؤه فرقة سموها "جماعة المخمورين من الحمقى والمهرجين" (السوبور). وانتخب الأمير فيودور رومودانوفسكي قيصرًا للسوبور، وقبل بطرس منصباً أدنى (كما فعل في الجيش والبحرية)، وكثيراً ما كان في الحياة الواقعية يتظاهر بأن رومودانوفسكي هو قيصر روسيا. وكان "سوبور" السكارى هذا مكرساً رسمياً لعبادة باخوس وفينوس، وكانت له شعائر معقدة، تقلد في سوقية وفحش شعائر الكنيستين الأرثوذكسية الروسية والكاثوليكية الرومانية، والكثير من هذه الشعائر الساحرة كان من وضع بطرس نفسه. وشارك السوبور في كثير من احتفالات الدولة الرسمية. فلما تزوج بطريركه الهزلي نيكيتا زاتوف، البالغ من العمر أربعة وثمانين عاماً، عروساً في الستين، صمم بطرس وأدار احتفالاً بذياً مزيئاً (1715)، يشارك فيه نبلاء البلاط ونبيلاته جنباً إلى جنب مع الدببة والغزلان والتبوس، ويعزف السفراء على الناي أو الأرغن اليدوي، ويدق بطرس على الطبل(10).

صفحة رقم : 11080

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الهمجى

كان حبه للفكاهة سخاباً لا يعرف القيود، وكثيراً ما أسف حتى استحال تهريجاً. وكان بلاطه يعج بالمهرجين والأقزام الذين كانوا عنصرراً لا غنى عنه لكل احتفال. وذات مرة ركب القيصر، الذي ناهز سبعة أقدام طولاً وراح يلعب دور جليفر أمام الليليبيوتيين، في موكب على رأس أربعة وعشرين قزماً راكبين. وكان يفتني في فترة من الفترات اثنين وسبعين قزماً في بلاطه، ويقدم بعضهم على المائدة في فطائر هائلة الحجم. كذلك كان عنده عمالقة، ولكن أكثرهم أرسلوا هدية لفردريك وليام ملك بروسيا لينخرطوا في جيش عمالقته "المسلات". وقد أهدى إلى بطرس عدة زنوج وكان يقدرهم تقديراً كبيراً، وبعث بعضهم إلى باريس ليتعلموا، وأصبح أحدهم قائداً روسياً، وهو الجد الأكبر للشاعر بوشكين.

إلى الآن صورنا بطرس رجلاً ما زالت تغلب عليه الفطرة الهمجية، رجلاً من طراز ايفان الرهيب ولكنه مرح، تواقاً إلى التحضر ولكنه يحسد الغرب- لا على لطائفة وفنونه بل على جيوشه وأساطيله، وعلى تجارته وصناعته وثروته. وكانت فضائله موجهة إلى هذه الغايات باعتبارها مقومات الحضارة. ومن هنا فضوله الذي لا يشبع. فهو يريد أن يعرف عن كل شيء كيف يسير، ثم كيف السبيل إلى تسييره سيراً أفضل. وقد أضنى مساعديه أثناء رحلاته بالجري هنا وهناك ليرى هذا وذلك حتى أثناء الليل. كان في غمرة من أفكاره، فأذهب بذلك لبينتز، الذي كان في غمرة أخرى من أفكاره، ولكن أفكار بطرس كانت نفعية لا خفاء فيها. فقد كان له عقل مفتوح لأي شيء قد يعين وطنه على اللحاق بالغرب. وفي وسط أمة متدينة تدينياً عابساً، معادية بتعصب للعقائد الغربية ولأساليب الحياة الدخيلة، كان مبراً من

التحيز كأنه الطفل أو الحكيم، يجرب الكاثوليكية، والبروتستنتية، وحتى الإلحاد. كان مقلداً أكثر منه مبتكراً، نقل الأفكار المجلوبة أكثر مما تصورهما، ولكن في محاولته لرفع أمه إلى مستوى المنافسة مع الغرب، كان من الأحكم أن تستوعب هذه الأمة خير ما يستطيع الغرب تعليمه أولاً، ثم تحاول التفوق عليه. إن المحاكاة لم تكن قط بمثل هذه الأصالة.

وقد رفعه تقانيه الدعوب في سبيل هذا الهدف من الهمجية إلى

صفحة رقم : 11081

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الهمجي

العظمة. وإذا كان قد سخر وأفنى ملايين الروس لتحقيق غاياته فإنه أفنى نفسه أيضاً في محاولته إعطاء روسيا جيشاً عصرياً، وحكومة أكفأ، وصناعات أكثر تنوعاً وإنتاجاً، وتجارة أوسع، وثغور تستطيع أن تتصل بالعالم. كان يتوخى القصد في كل شيء إلا الحياة البشرية، التي كانت السلعة الوحيدة التي تترخر بها روسيا. وكان أول إجراء له تقريباً حين تقلد زمام الحكم أنه طرد جيش الخدم وموظفي القصر الذين غص بهم البيت المال، وباع ثلاثة آلاف جواد من المرباط الملكية، وأطاح بثلاثمائة من الطهاة وصبيانهم، وخفض عدد الجالسين إلى مائدة الملك حتى في الأعياد إلى ستة عشر على الأكثر، واستغنى عن الاستقبالات والمراقص الرسمية، وحول إلى الدولة المبالغ التي كانت إلى ذلك الحين مخصصة لهذه الكماليات. وكان أبوه ألكسيس قد خلف له من الممتلكات الشخصية 10.734 ديسياتيناً (28.982 فداناً) من الأرض المزروعة وخمسين ألف بيت، تغل ريعاً قدره 200.000 روبل في العام. فنزل بطرس عن هذا كله تقريباً لخزاة الدولة، ولم يحتفظ لنفسه إلا بالميراث القديم لأسرة رومانوف وهو ثمانمائة "نفس" في إقليم نوفجورود. وعلى عكس لويس الرابع عشر، خفض أعظم قيصر تبوأ عرش روسيا حاشيته في الواقع إلى بضعة أصدقاء، مع احتفال بين الحين والحين، غير رسمي وأحياناً صاخب، ليضفي بعض الحيوية على جو موسكو الرتيب. وكثيراً ما استحال اقتصاده شحاً شديداً. فكان يبخر موظفي قصره أجورهم، ويقتدر في حساب نفقة القصر اليومية من الطعام، ولا يدعو أصدقاءه لغداء أو عشاء بل لرحلات خلوية يدفع فيها كل منهم نصيبه، ولما اشتكت البغايا اللاتي يرفهن عنه من ضالة أتعابهن أجاب بأنه ينفقهن قدر ما ينقد رامي القنابل اليدوية، وهو رجل تفوق خدماته خدماتهن قيمة. أما النساء فكن أحياناً عارضة قليلة الخطر في حياته باستثناء واحد. ذلك أنه لم يكن مرهف الحس بالجمال. نعم كانت له حاجات جنسية، ولكنه أشبعها دون احتفال. ولم يكن يحب أن ينام وحيداً، ولكن لا شأن لهذا بالجنس، وكان أحد الخدم يقاسمه فراشه عادة، ولعله كان يحتاج إلى شخص قريب منه إذا دهمته تشنجاته في الليل. وحين بلغ السابعة عشرة، ورغبة في تهدئة أمه، تزوج يودوكسيا لوبوخينا، التي وصفت بأنها "جميلة غبية"، فلما وجد إحدى

صفحة رقم : 11082

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الهمجي

الصفتين أكثر دواماً من الأخرى أهملها، وعاد على أصحابه ومراكبه. واتخذ سلسلة من الخيليات العبارات، كن في الكثير الغالب وضيعات الأصل رقيقات الحال. ومرة كان فرديريك الثاني ملك الدنمرك يمزح معه في أمر اتخاذه محظية فأجابه بطرس "يا أخي، إن عاهراتي لا يكلفنني الكثير، أما عاهراتك فيكلفنك آلاف الكراونات التي لا تستطيع أن تنفقها في وجوه أفضل(11)". وقد عمل ليفور ومينشيكوف قوادين له، ونزل مينشيكوف عن خليلته لتكون زوجة بطرس الثانية. ولا بد أن هذه المرأة أوتيت قدرة فذة رفعتها كما رفعت نيودورا خليلته جستيان من قبل-إلى عرش الإمبراطورية بعد أن كانت مومساً.

أمام هذه المرأة، التي ستصبح كاترين الأولى، فقد ولدت حوالي 1685 بليفونيا من أسرة وضيعة. ولما تتيتم رباها الراعي اللوثري جلوك خادمة في مارينبورج، وعلمها مبادئ المسيحية ولكنه لم يعلمها الأبجدية، ولم تتعلم القراءة قط. وفي 1702 حاصر جيش روسي يقوده شيريميتيف مارينبورج. فلما ينس قائد الحامية من الدفاع قرر أن ينسف القلعة وهو فيها. ونمى على القس جلوك ما نوى القائد، فأخذ أسرته وخدمته وفر إلى المعسكر الروسي. فأرسل إلى موسكو، ولكن كاترين أبقيت لترفه عن الجنود. وارتقت منهم إلى شيريميتيف، فمينشيكوف، فبطرس. في تلك الحروب والأخطار كان على المرأة الفقيرة أن تتلطف لتأكل. ويبدو أن كاترين ظلت حيناً تخدم كلاً من مينشيكوف والقيصر. وقد أحباها لأنها كانت نظيفة، بشوشة، لطيفة، متقمنة، فهي مثلاً لم تصر على أن تكون الخليفة الوحيدة، ووجد بطرس فيها ترفيهاً مرحاً بعد ضجيج السياسة أو الحرب وغضبات المحظيات الغيورات. ورافقته في حملاته، وعاشت عيشة الجنود، وقصت شعرها، وافتترشت الأرض، ولم تجفل حين رأت الرجال يصرعهم الرصاص إلى جوارها. فإذا دهمت بطرس إحدى نوبات تشنجه وخاف الجميع أن يلمسوه، كانت تتحدث إليه ملاطفة، وتربته، وتهدي روعه، وتدعه ينام ورأسه على صدرها. وإذا افترقا كتب إلى "كاترينوشكا" حبيبته رسائل تفيض حناناً معابناً ولكنه مخلص. ثم غدت ضرورة لا غنى له عنها. ولم يحل عام 1710 حتى كانت زوجته في كل شيء إلا شرعاً. وولدت له عدة أطفال. وفي 1711 عاونت على إنقاذه في البروث. وفي 1712 اعترف بها زوجة له علانية. وفي 1722 توجهها إمبراطورة.

صفحة رقم : 11083

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الهجري

وكان تأثيرها عليه طبيياً من نواح كثيرة. فهذه الصبية الفلاحة هذبت من طباع ذلك الملك الفظ. لقد حدث من ولعه بالمسكر، وفي عدة مناسبات كانت تدخل الحجرة التي يعاقر فيها الخمر ويقصف مع أصحابه وتأمرة بهدوء قائلة: "عد إلى البيت أيها الأب الصغير" فيطيعها. وكانت تغض عن مغازلاته بعد الزواج. ولم تبذل محاولة للتأثير عليه في مجرى السياسة، ولكنها حرصت على أن يدبر القيصر أمر مستقبلها، ومستقبل أقربائها، وأصدقائها. وتغلبت على الاستياء العام من جراء رفعها من أصلها الوضيع بسلوكها مسلك ملاك الرحمة، ففي حالات عديدة أنقذت أشخاصاً من العقوبات التي أراد بطرس أن ينزلها بهم، فإذا أصر على الصرامة كان عليه أن يخفي الأمر عنها. وقد استغلت سلطتها عليه ببيع وساطتها، وبهذه الطريقة جمعت ثروة في الخفاء، استثمرت بعضها بحكم تحت أسماء مستعارة في همبورج أو أمستردام. فهل نلومها لأنها نشدت شيئاً من الضمان في زمن كل شيء في رهن بنزوة رجل واحد، وكل روسيا فيه في تقلب وتغير؟.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البترسية

2- الثورة البترسية

ورث بطرس السلطة المطلقة، وتقبلها قضية مسلمة، ولم يتطرق إليه شك في ضرورتها. فالحكم بمجلس تشريعي (دوماً) من النبلاء (البيوار) سيعيد الانفصالية الإقطاعية والفوضى القومية أو الركود، والحكم بمجلس ديمقراطي مستحيل في بلد ما زال بدائياً من الناحيتين الفكرية والخلقية، ووافق بطرس كرومويل ولويس الرابع عشر على أن تركيز السلطة والمسئولية هو وحدة القادر على تنظيم الخليط البشري المتنافر ليؤلف منه دولة لها من القوة ما يمكنها من السيطرة على أهواء الشعب وصد هجمات الأعداء المتعششين للأرض. ولم ينظر إلى نفسه نظرتة إلى حكم مستبد بل إلى خادم للأمة ومستقبلها، وكان هذا إلى حد كبير غيماناً مخلصاً، نصف صادق على الأقل. ولقد عمل بهمة لا تقل عن همة أبسط الفلاحين في مملكته، فكان عادة يستيقظ في الخامسة صباحاً ويكد أربع عشرة ساعة في اليوم. لا ينام أكثر من ست ساعات في الليل، ولكنه يتقيل. ومثل هذا البرنامج لم يكن بالأمر غير العملي في صيف سانت بطرسبورج، حيث النهار يبرزغ في الثالثة صباحاً ويستمر إلى العاشرة مساءً، أما في الشتاء

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البترسية

فكان لا بد من مواصلة الكثير من هذا البرنامج أثناء الليل الذي يبدأ حوالي الثالثة عصراً ويستمر إلى التاسعة من صباح الغد. وكانت سانت بطرسبورج الرمز ونقطة الارتكاز الأرخميدية لثورة لم تكن موقعاً مثالياً لعاصمة دولة نظراً لشدة قربها من الساحل، ولكنها من هذا كانت تبعد خمسة وعشرين ميلاً من البحر، في نقطة يتفرع فيها نهر نيفا إلى فرعين، وكان بطرس يأمل أن يحميها بقلعة كرونستاد التي شادها (710) على جزيرة في مدخل الخليج. أما المدينة نفسها فقد أسست في 1703 على غرار أمستردام. وإذ كان الكثير من هذا الموقع تغمره المستنقعات (وكلمة نيفا باللغة السويدية معناها الوحل) فقد بنيت سانت بطرسبورج على دعائم -أو في عبارة روسية حزينة، على عظام آلاف العمال الذين جندوا قسراً لإرساء هذه الأسس وتشبيد المدينة. ففي 1708 أرسل نحو 40.000 رجلاً للقيام بهذا العمل، وفي 1709 أرسل 40.000 آخرون، وفي 1711 أرسل 46.000، وفي 1713 أرسل 40.000 فوق ما سبق. وكانوا ينقدون نصف روبل في الشهر، لم يكن بد من أن يستكملوه بالتسول أو السرقة. وكان أسرى الحرب السويديون الذين استخدموا في البناء يموتون بالآلاف. وإذ لم يكن هناك عجالات يدوية، فقد كان الرجال ينقلون المواد في قفائينهم المرفوعة. كذلك صودر الحجر، فحرم مرسوم صدر في 1714 تشبيد بيوت بالحجر في أي مكان بروسيا إلا في سانت بطرسبورج، أما في المدينة نفسها فقد أمر كل شريف في البلاد بأن يبني له مسكناً من الحجر. وفعل الأشراف

محتجين، إذ كرهوا مناخ المدينة ولم يشاركوها بطرس عشقة للبحر. أما بطرس فكلف بعض مهرة الصناع الهولنديين بأن يقيموا له كوخاً كالأكواخ التي رآها في زاندم، يحيطان من جذوع الشجر، وسقف من الحصباء، وحجرات صغيرة. وكان يكره القصور، ولكنه سمح ببناء ثلاثة منها للمناسبات الرسمية في بيترهوف (وهي الآن بترودفورييتس) على المشارف الجنوبية لمدينة. وقد دمر هذا "القصر الصيفي" في الحرب العالمية الثانية. وفي ضاحية قريبة تدعى تسارسكو سيلو (وهي الآن بوشكين)، شاد كوخاً صيفياً لحبيبتة كاتيرينوشكا. ولم يكن قصده أول الأمر أن يجعل سانت بطرسبورج عاصمة بالإضافة إلى كونها ميناء، فقد كانت شديدة القرب إلى عدوته السويد.

صفحة رقم : 11086

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البطرسية

ولكنه قرر إجراء هذا التغيير بعد انتصاره على شارك الثاني عشر في بلطاوه. وكان تواقاً إلى الهرب من جو موسكو الكنسي القاتم وروحها القومية الضيقة، وأراد أن يشعر النبلاء المحافظون برياح التقدم تهب عليهم من الغرب. وعليه فقد جعلها عاصمة له في 1712. وحزن أهل موسكو، وتنبؤوا بأن الله مدمر عما قريب تلك المدينة نصف الوثنية. كتب بوشكين يقول: "أن موسكو أحنت رأسها أمام العاصمة الجديدة، كما تتحني أرملة الإمبراطور أمام إمبراطورة شابة(12)". لقد كان في بطرس من شدة الشوق إلى تغريب روسيا ما دفعه إلى تحويلها صوب البلطيق وكأنه يجرها إليه جراً، ثم أمرها أن تتطلع من خلال نافذته على الغرب". وفي سبيل هذا الهدف، وفي سبيل توفير قاعدة لأسطوله وميناء للتجارة الخارجية، ضحى بكل الاعتبارات الأخرى. صحيح أن الميناء سيحيط بها الجليد خمسة أشهر في السنة، ولكنها ستواجه الغرب وتلمس البحر. وكما أن الدنيبر جعل روسيا بيزنطية، والفولجا جعلها آسيوية، فكذلك سيغريها النيفا بأن تكون أوربية(14). وكانت الخطوة التالية بناء بحرية تحرس مسالك التجارة الروسية خلال البلطيق إلى الغرب. وحقق بطرس هذه الغاية فترة ببناء ألف سفينة كبيرة خلال حكمه، ولكنها كانت مبنية على عجل بناء سيئاً، فتلفت أخشابها، وتحطمت صواريخها في الريح، وبعد موته استسلمت روسيا لقضائها الذي حكمت عليه به الجغرافيا، وهي أن تكون بلداً حبيساً في اليابس مغلقاً دون الأطلنطي، منتظراً غزو الفضاء ليقفز متجاوزاً حواجزه إلى العالم. وبهذا المعنى كانت موسكو على حق: فقوة روسيا ودفاعها كان يجب أن يكونا على اليابس، بجيوشه ورقعته الواسعة. وعليه فقد تأرت موسكو لنفسها في 1917 وأصبحت العاصمة من جديد. أما أعظم إصلاحات بطرس دواماً فهو إعادته تنظيم الجيش.

صفحة رقم : 11087

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البطرسية

وكان قبله يعتمد على قوات مجندة من الفلاحين يقودهم سادتهم الإقطاعيون الذين لهم عليهم حق الولاء أولاً، وكانوا يفتقرون إلى النظام، ويعوزهم السلاح الجديد. وقد قوض بطرس سلطان النبلاء حين أنشأ جيشاً دائماً مدده من التجنيد الإجباري، وعتاده من أحدث أسلحة الغرب، وضباطه رجال ارتقوا من تحت السلاح ودرّبوا على الهدف الجديد، هدف خدمة روسيا في فخر لا خدمة إقليم ضيق وإقطاعي بغيبض. والضرورة الحربية هي التي أمّلت على بطرس ثورته، فما كان من استطاعته تطوير روسيا دون أن يفتح لها طريقاً إلى البلطيق أو البحر المتوسط، وما كان في استطاعته أن يفعل هذا بغير جيش عصري، ولا أن يحتفظ بجيش كهذا دون أن يغير اقتصاد روسيا وحكومتها، ولا أن يغير هذين دون أن يعيد صنع الشعب الروسي من حيث عاداته وأهدافه وروحه. لقد كان عملاً ينوء بحمله رجل واحد أو جيل واحد. وقد استهله على طريقه المندفعة الهوائية بلحي الرجال المحيطين به وزبيهم. ففي 1698، عقب عودته من الغرب، حلق لحيته الخفيفة، وأمر كل الذين يريدون الاحتفاظ برضائه أن يحذوا حذوه، باستثناء بطيريك الكنيسة الأرثوذكسية، وبعد قليل أرسل مرسوم إلى جميع أرجاء روسيا يقضي بأن يحلق جميع العلمانيين لحاهم، ولهم أن يبقوا على شواربهم. وكانت اللحية أشبه برمز ديني في روسيا، أطلقها الأنبياء والرسل من قبل، وقبل ثمانية أعوام فقط شجب البطيريك أوريان الجالس على كرسي البطيركية آنذاك حلق اللحي بوصفه عملاً مهرطفاً خارجاً على الدين. وقبل بطرس التحدي: فطلق اللحية سيكون رمزاً على الحدائث، وعلى الرغبة في دخول الحضارة الغربية. وأباح للعلمانيين الذين يشعرون بالحاجة الماسة إلى الاحتفاظ بعوارضهم أن يحتفظوا بها لقاء ضريبة سنوية تبدأ من كوبك واحد للفلاح حتى تبلغ مائة روبل للتاجر الغني. يقول كتاب تاريخ قديم "كان الكثير من شبوخ الروس يحرسون على شعر لحاهم أشد الحرص بعد حلقه ليوضع في نعوشهم مخافة ألا يسمح لهم بدخول الجنة بدونهم (15)". وبعد اللحي جاء دور الزي الروسي. هنا أيضاً شعر بطرس أن

صفحة رقم : 11088

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البطرسية

المقاومة الداخلية للتغريب ستخف بارتداء الزي الغربي. فقطع بنفسه الأكماء الطويلة التي يلبسها من يمثل أمامه من ضباط الجيش. وقال لأحدهم "انظر، هذه الأشياء تعوق حركتك. فلا أمان لك في أي مكان ما دمت تلبسها. تارة تقلب كوباً، وتارة أخرى تغمسها سهواً في الصلصة. أو بصنع غطاء لحذاءك منها (16). وعليه صدر أمر (يناير 1700) يقضي على جميع رجال الحاشية والموظفين في روسيا باتخاذ الزي الغربي. وكان الوافدين على موسكو أو الراحلين عنها أن يختاروا بين قص قفاطينهم عند الركبة أو كانوا يرسلونها إلى الكاحل - وبين دفع غرامة. كذلك حثت النساء على ارتداء الزي الغربي، وكانت مقاومتهن أقل من مقاومة الرجال، فالنساء في عالم الأزياء دعاة للثورة في كل عام. وقضى بطرس على حجاب المرأة السورية بقُدوة أسرته أكثر مما قضى عليه بالقوانين. وكان أبوه ألكسيس وأمه ناتاليا سباقيين في هذا الطريق، ثم وسعته أخته لأبيه صوفياً. أما بطرس فقد دعا النساء للقاءات اجتماعية وشجعهن على أن ينزعن براقعهن، ويرقصن، ويعزفن، ويطلبن العلم ولو على يد المعلمين الخصوصيين. ثم أصدر المراسيم التي تحظر على الأباء تزويج بنينهم وبناتهم على غير إرادتهم، وتشتترط مضي ستة أسابيع بين الخطبة والزواج، وفي هذه الفترة ينبغي السماح للخطيبين باللقاء المتكرر، وبفسخ الخطبة إن أرادا. وابتهجت النساء بالخروج من الحريم "التبريم" وبدأن سباقاً في اتخاذ الأزياء الجديدة، وكان بعض الزيادة في ولادة الأطفال غير الشرعيين حجة تدرع بها رجال الدين ليقاوموا ثورة بطرس.

ولقد كانت مقاومة الدين له العقبة الكؤود في سبيله. ذلك أن رجال الأكليروس أدركوا أن إصلاحاته ستنتقص من مكانتهم وسلطتهم. فناعوا ولولوا على تسامحه مع المذاهب الغربية في روسيا، وخامرتهم الظنون في إيمانه بأي عقيدة دينية. وسمعوا في اشمزاز شديد بالتقليدات الساخرة التي كان هو وخلصاؤه يهزأون فيها بالطقوس

الأرثوذكسية. وكان بطرس من ناحيته يغيظه تحويل القوى البشرية إلى الأديار الشاسعة التي لا حصر لها، ويستهي الموارد الهائلة التي

صفحة رقم : 11089

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البطرسية

تتمتع بها هذه المؤسسات. فلما مات البطريرك أوربان (أكتوبر 1700)، امتنع بطرس عمداً عن تعيين خلف له، وأصبح هو نفسه رئيساً للكنيسة على نحو ما فعل هنري الثامن في إنجلترا، وتزعم حركة إصلاح ديني في روسيا. وظل منصب البطريرك شاغراً إحدى وعشرين سنة، فحرمت الكنيسة الأرثوذكسية زعيماً يتصدى لإصلاحات بطرس. وفي 1721 ألغى المنصب كله، وأحل مكانه "مجمعاً مقدساً" من رجال الكنيسة يعينه القيصر ويخضع لوكيل علماني. وفي 1701 نقل إدارة الممتلكات الكنسية إلى إحدى مصالح الحكومة، واختزل اختصاص المحاكم الكنسية، وأخضع تعيين الأساقفة لتصديق الحكومة. ومنعت مراسيم أخرى رسامة المتصوفين أو المتعصبين، وحدث من عدد مراكز صنع المعجزات. وقضى على الرجال ألا يقطعوا على أنفسهم نذور الرهينة قبل الثلاثين، وعلى النساء ألا ينزرن أنفسهن نهائياً للرهبنة قبل الخمسين (17). وتقرر إلزام الراهبان بالقيام بعمل نافع. وأجرت الحكومة تعداداً للممتلكات والإيرادات الديرية، وترك بعض الإيراد للأديار، وخصص الباقي لإنشاء المدارس والمستشفيات (18). واستسلم معظم الأكليروس لحركة الإصلاح الديني الروسي هذه، وهو إصلاح لم يمس العقيدة كما لم يمسه هنري الثامن. وندد بعض المخالفين ببطرس عدواً للمسيح، وأهابوا بالشعب أن يرفضوا طاعته ودفع الضرائب له. فأمر بالقبض على زعماء هذا التمرد، وتصرف معهم بطريقته العادية. فجلد البعض ونفوا إلى سيبيريا، وسجن البعض مدى الحياة، ومات أحدهم من التعذيب، وأحرق اثنان منهم حرقاً بطيئاً حتى الموت (19). وفي غير هذا كان بطرس متمشياً مع الغرب في التسامح الديني. فحمى المخالفين من الاضطهاد ما داموا بعيدين عن السياسة. وفي سانت بطرسبورج، وبهدف تشجيع التجارة، سمح ببناء الكنائس الكالفنية واللوثرية والكاثوليكية على "النيفسكي بروسبكت"، أصبح يلقب "مكان التسامح" (20) وحمى الراهبان الكوشيين الذين دخلوا روسيا، ولكنه نفى اليسوعيين (1710) لمثابرتهم الشديدة على

صفحة رقم : 11090

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البطرسية

الدعوة لكنيسة روما. وكانت إصلاحات بطرس الدينية بوجه عام أبقى إصلاحاته كلها، فقد أنهت العصور الوسطى في روسيا.

ثم غيرت عملية ضخمة من العلمنة حياة روسيا وروحها، من تحكم الكهنة وملاك الأراضي إلى حكم الدولة الذي كاد يصل إلى حد التنظيم العسكري الصارم. فقد أخضع بطرس النبلاء لإرادته، وأكرههم على خدمة الشعب، وأعاد تنظيم مراتب المجتمع حسب أهمية الخدمة الاجتماعية التي تؤدي. فنبتت أرستقراطية جديدة، تتألف من موظفي الجيش والبحرية ودواوين الدولة. ورأس الحكومة مجلس شيوخ من تسعة رجال (زيدوا بعد ذلك إلى عشرين) يعينهم القيصر، وكان يديرها تسع هيئات أو "كليات" تختص بالضرائب والدخل، والمصروفات، والحسابات، والرقابة، والتجارة، والصناعة، والعلاقات الخارجية، والحرب، والبحرية، والقضاء، وكان حكم الأقاليم الأثنا عشر، أو "الجوبيرنيا" والمجالس التي تحكم المدن، مسئولين أمام مجلس الشيوخ. وقسم سكان كل مدينة إلى طبقات ثلاث: التجار الأغنياء والمهنيين، والمدرسين والحرفيين، والأجراء والعمال، والطبقة الأولى وحدها هي التي يجوز انتخابها للمجلس البلدي (الماجسترا)، والطبقتان الأوليتان وحدهما لهما حق التصويت، ولكن لكل دافعي الضرائب المذكور الحق في الاشتراك في اجتماعات المدينة. وظهر "المير" أو مجتمع القرية، لا بوصفه مؤسسة ديمقراطية، بل هيئة مسئولة بجملة عن ضريبة الرؤوس التي أدخلت في 1719. وحد الإشراف المركزي من الاستقلال المحلي، ولم يكن هناك أي تفكير في النظم الديمقراطية، لأن التغيير السريع الذي اختطه بطرس لا سبيل إلى تحقيقه- إن كان هناك سبيل على الإطلاق- إلا بالسلطة الدكتاتورية.

ووجب أن يشمل ذلك التغيير الاقتصاد كما شمل السياسة، لأن مجتمعاً زراعياً خالصاً لا يمكن أن يحتفظ باستقلاله طويلاً أمام دول أغنتها الصناعة وزودتها بالسلاح. وقد أورد اقتصاد ألماني عاصر ذلك العهد رأياً سيثبت صوابه القرنان التاليان له- وهو أن الأمة التي لا تصدر في الأكثر غير الخامات والحاصلات الزراعية لن تلبث أن

صفحة رقم : 11091

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البطرسية

تخضع للدول المنتجة والمصدرة للسلع المصنوعة أولاً (21). وعلى ذلك لم يوجه بطرس للزراعة إلا القليل من اهتمامه. وبدلاً من أن يخفف من رق الأرض طبقة على الصناعة. وقد علم الفلاحين بقوته الشخصية كيف يحصدون غلتهم وأمر بأن يستبدل بالمنجل ذات المقبض القصير sickles مناجل ذات مقبضين seuthes. وقد ألف الروس حرق أراضي الغابات للحصول على رماد مخصب للتربة، فحظر بطرس هذا العمل، لأنه احتاج ألواح الخشب لسفنه، وللأشجار لصواريه. وأدخل زراعة التبغ، والتوت، والكروم، وافتتح تربية الخيل والغنم في روسيا. على أن هدفه الأهم كان التصنيع السريع. وكانت أولى مشاكلة توفير الخامات. فشجع نشر التعدين، ومنح المكافآت الحافزة لرجال مثل نيكيتا ديميدوف والكسندر ستروجانوف أبدوا الجرأة والمهارة في التعدين وتشغيل المعادن، وحث ملاك الأراضي على أن يشجعوا أو يسمحوا باستخراج المعادن من أراضيهم، فإن قصروا في هذا فلغيرهم أن يستخرجوها لقاء رسم اسمي فقد يؤدونه لهم. فما وافى عام 1710 حتى كفت روسيا عن استيراد الحديد، وقبل موت بطرس كانت تصدره (22).

ثم استقدم مهرة الصناع ومديري الصناعة الأجانب، وحض الروس من جميع الطبقات على تعلم الفنون الصناعية. وافتتح إنجليزي بموسكو مصنعاً لدبغ الجلود وصنع الأحذية، وأمر بطرس كل مدينة في روسيا بأن تبعث وفداً من الحذائين إلى موسكو لتعلم أحدث طرق صناعة الأحذية بنوعها الواطئ والعالي، وهدد المتمسكين بالأساليب العتيقة في هذه الصناعة بتشغيلهم في سفن العبيد. ورغبة في تشجيع صناعة النسيج الروسية لم يلبس غير المنسوجات الوطنية بعد أن نشطت صناعتها، وحظر على المسكوفيين شراء الجوارب المستوردة. وما لبث الروس أن صنعوا المنسوجات الجيدة. وروع أميرال بحري أصحاب التقاليد، وأبهج القيصر، بصنعه المقصبات الحريرية. وصنع فلاح طلاء (لاكيه) يفوق أي نظير له في "أوربا" باستثناء الطلاء البندقي وقيل أن ينتهي حكم بطرس كان في روسيا 223 مصنغاً، بعضها

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البترسية

لا يستهان بحجمه، واستخدمت صناعة الحرير بموسكو 1.162 عاملاً، واستخدم أحد مصانع النسيج 742 رجلاً، وآخر 730، ووظفت مؤسسة للتعيين 683 شخصاً (23). نعم كان في روسيا مصانع قبل بطرس، ولكن ليس على هذا النطاق. وكثير من المصانع الجديدة بدأتها الحكومة ثم سلم للأهالي ليديروه، ولكنهم مع هذا كانوا يتلقون إعانات من الدولة، ويخضعون لإشراف دقيق من الحكومة. وكانت الرسوم الجمركية المرتفعة الحامية درعاً يقي الصناعة الوليدة من المنافسة الأجنبية.

ولجأ بطرس إلى تجنيد الرجال قسراً ليزود بهم المصانع ولم يتوفر من العمال إلا القليل، فحول الفلاحين صناعاتاً طوعاً أو كرهاً. وخول لرجال الصناعة أن يشتروا الأبقان من ملاك الأراضي ويشغلهم في المصانع. وزودت المشاريع الكبرى بفلاحين منقولين من أراضي الدولة ومزارعها (24). وحدث ما يحدث في معظم المحاولات الحكومية للتصنيع السريع، إذ لم يستطع القادة الانتظار ريثما تغلب غريزة التملك على العادات والتقاليد، وتقود العمال من ميادين وأساليب عتيقة إلى أعمال وأنظمة جديدة. فطورت قنية صناعية، على كره من بطرس بوجه عام، ومن عمد من خلفائه. واعتذر بطرس عنها في مرسوم 1723، فقال:

"ألا يصنع كل شيء (أول الأمر) بالإكراه؟ أما أن الراغبين في الاشتغال بالصناعة قلة فصحيح، لأن شعبنا أشبه بالأطفال، يأبون البدء بتعلم الأبجدية ما لم يكرها عليهم معلمهم. ويبدو لهم هذا التعلم غاية في الصعوبة أول الأمر، ولكنهم ما إن يتعلموها حتى يحمدا المعلمين صنيعهم، ونحن نسمع الكثير من آيات الحمد والشكر على الإصلاحات التي أنتت أكلها فعلاً... فعلياً في مسائل الصناعة أن نعمل ونلزم، ونعين بالتعليم (25)".

ولكن الصناعة لا تتطور إلا بتجارة تبيع منتجاتها. ولكي يشجع بطرس التجارة رفع المكانة الاجتماعية لطبقة التجار. وفرض نمو صناعة كبيرة لبناء السفن في أركانجل وسانت بطرسبورج. وحاول إنشاء بحرية تجارية تحمل السلع الروسية في سفن روسية ولكنه أخفق

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البترسية

لأن الفلاح الروسي الذي ضربت جذوره في الأرض وانغلق فيها لم يقبل على البحر برغبة أو كفاية. وفي داخل روسيا نفسها كانت المسافات الشاسعة والطرق الوعرة تعوق التجارة. ولكن الأنهار كانت وفيرة، تغذيها تلوغ الشمال وأمطار الجنوب، فإذا تجمدت الأنهار ففي صلابتها تتحمل بفضلها الأثقال شأنها شأن الطرق المتجمدة. وكانت الحاجة ماسة لربط هذه الأنهار بقنوات تصل النيفا والدوينا بالفولجا، والفولجا بالدون، فيرتبط البلطيق بالبحر الأبيض بالبحر

الأسود وبحر قزوين. وأسس بطرس الأساس لهذه المجموعة الكبيرة، وافتتح في 1708 القناة الموصلة بين النيفا والفلجاء، ولكن كان لا بد أن تنقضي عهود ملكية عديدة قبل أن تكتمل هذه الشبكة، وقد لقي الألوف من العمال حتفهم في هذه المحاولة.

وأكرهت الحرب والمشروعات المتنوعة بطرس على جمع رأس المال بمقادير لم يسبق لها نظير في روسيا. وقد حصل على بعضه بإعطاء الحكومة احتكار إنتاج وبيع الملح، والتبغ، والقار، والدهون، والبوتاس، والراتنج، والغراء، والراوند، والكافيار، وحتى التوابيت المصنوعة من البلوط. وكانت هذه التوابيت تباع بربح بلغ أربعمئة في المائة، أما الملح فتواضع ربحه إلى مائة في المائة، ولكن القيصر أدرك أن الاحتكارات تعوق الصناعة والتجارة، فبعد أن أبرم الصلح مع السويد ألغاهما بجرة قلم وأطلق التجارة الداخلية من عقابها. وبقيت التجارة الخارجية خاضعة لرسم التوريد والتصدير، ولكنها كادت تبلغ عشرة أضعافها بين 1700 ومرت بطرس في 1725. وكان أكثرها تنقله سفن أجنبية، وما بقي منها ما أيد روسية كانت تعرقله الرشوة التي استشرت بحيث لم تجد فيها حتى عقوبات بطرس الوحشية. أما نظام الضرائب فكان شاملاً. فقد كلفت هيئة خاصة عينتها الحكومة بوضع نظام لضرائب جديدة وإدارته. ففرضت الضرائب على القبعات والأحذية، وخلايا النحل، والحجرات، وأقبار الخمور والمؤن، والمداخن، والموالييد، والزيجات، واللحي. أما الضريبة على الأسر فقد عطلتها الهجرات الجماعية غير المنظمة، فاستبدل بها

صفحة رقم : 11094

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البترسية

بطرس ضريبة على "الأنفوس" أينما وجدت، ولم تطبق هذه الضريبة على النبلاء أو الأكليروس. وارتفعت إيرادات الدولة من 1.400.000 روبل في 1680 إلى 8.500.000 في 1724-خصص خمسة وسبعون في المائة منها للجيش والبحرية. ونصف هذه الزيادة كانت غير واقعية بسبب انخفاض قيمة العملة بمقدار النصف في عهد بطرس، لأنه لم يستطع مقاومة إغراء الربح المؤقت بغش العملة.

وكان افتقار الجميع من الملك إلى الفلاح-للنزاهة معطلاً لسير الاقتصاد، وجمع الضرائب، وأحكام القضاء، وتنفيذ القوانين. وقد قرر بطرس الحكم بالإعدام على جميع الموظفين الذين يقبلون "الهدايا" ولكن أحد مساعديه نبهه إلى أنه إن نفذ هذا القانون فلن يجد بعد حين غير موظفين أمواتاً. ومع ذلك قتل بعضهم. من ذلك أن الأمير ماتقي جاجارين، حاكم سيبيريا، أثري ثراءً خاصاً، فزين تمثاله المصنوع للعدراء بمجوهرات بلغت قيمتها 130.000 روبل، وأراد بطرس أن يعرف كيف حصلت عليها العدراء، فلما عرف شنق جاجارين. وفي 1714 قبض على عدد من كبار الموظفين بتهمة سرقة الحكومة والشعب، وكان من بينهم نائب حاكم سانت بطرسبورج، ورئيس تموين الدولة، ورئيس الأميرالية، وحاكم نارفيا وريفيل، وعدد من أعضاء السناتو. وشنق بعضهم، وحكم على بعضهم بالسجن مدى الحياة، وجدعت أنوف البعض، وجلد البعض بالعصي. ولما أمر بطرس بوقف الجلد توسل إليه الجنود الذين كانوا يقومون به قائلين "اسمح لنا يا أبناة أن نجلدهم أكثر قليلاً لأن هؤلاء اللصوص سرقوا كل شيء حتى خبزنا(26)". واستشرى الفساد، وزعم مثل روسي أن المسيح نفسه كان من الجانز أن يسرق لولا أن يديه شدتا إلى الصليب. وفي وسط هذا النضال، نضال إرادة واحدة تريد تغيير الحياة الاقتصادية والسياسية لنصف قارة، وجد بطرس وقتاً حاول فيه إحداث ثورة ثقافية أيضاً. لقد كان يكره الخرافة، ويتوق إلى أن يحل محلها التعليم والعلم. وكان الروس إلى عهده يؤرخون من خلق العالم كما افترضوه، ويبدؤون السنين بشهر سبتمبر. ففي 1699 جعل بطرس

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البطرسية

التقويم الروسي يتفق مع التقويم اليولياني، كما تستعمله الدول البروتستنتية، فتقرر أن تبدأ السنة بعد ذلك بيناير، وتؤرخ من مولد المسيح. وتذمر الشعب، فكيف يختار الله منتصف الشتاء زماناً للخليفة؟ وأنفذ بطرس ما أراد، ولكنه لم يجرؤ على تطبيق التقويم الجريجوري، الذي قبلته أوربا الكاثوليكية في 1582، فحذف عشرة أيام كما اقتضته تلك "الحيلة البابوية" كان يسلب عدة قديسين أرثوذكس أعيادهم المقدسة.

ووفق القيصر الذي لم يهدأ له بال في مشروع آخر لا يقل عنناً، هو إصلاح الأبجدية. ذلك أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تستعمل الأبجدية السلافونية القديمة، ولكن الطبقات الصناعية والتجارية اقتبست أبجدية أساسها الحروف اليونانية. فأمر بطرس بأن تطبع بها كل الكتب غير الدينية. واستورد المطابع واستقدم الطباعين من الأراضي المنخفضة، وبدأ (1703) أول جريدة روسية، وهي "جازيتة سانت بطرسبورج"، وأمر بنشر كتب في التكنولوجيا والعلوم، ومول النشر، وأسس مكتبة سانت بطرسبورج، وأنشأ المحفوظات الروسية بأن جمع في المكتبة مخطوطات الأديار وسجلاتها وأخبارها. وفتح عدة معاهد تقنية وأمر بأن يلتحق بها أبناء الطبقة الأرستقراطية. وحاول أن ينشئ في كل إقليم "مدرسة للرياضيات"، وفي موسكو أنشأ مدرسة ثانوية "جمنازيوم" على غرار المدارس الألمانية لتعليم اللغات والأدب، والفلسفة، ولكن هذه المدارس لم يكتب لها طول البقاء. وفي 1724 نظم أكاديمية سانت بطرسبورج، وجلب إليها علماء أفاضاً كجوزيف دليل ليعلم الفلك، ودانيال برنولي ليعلم الرياضيات. وبالحال من لينتتر كلف (1724) فيتوس بيرنج، الملاح الدنمركي، بأن يرأس بعثة إلى كمتشكا ليتبين هل آسيا وأمريكا متصلتان طبيعياً. وقد ألق بيرنج بعد وفاة بطرس.

أما المسرح الروسي فكان على عهد ألكسيس لا يقدم غير الحفلات الخاصة. فرخص بطرس مسرحاً على الميدان الأحمر وفتحه للجمهور، واستقدم الممثلين الألمان، فمثلوا خمس عشرة مأساة وملهاة، منها بعض ملاهي موليير. وجلب الموسيقيين الأجانب لتأليف الأوركسترات. وأدخلت فيه روسيا السوناتا والكونشرتو، واتخذت الموسيقى العلمانية

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> الثورة البطرسية

الروسية أشكالاً أوروبية من تألف الألحان وامتزاجها. وأوصي بطرس بشراء اللوحات والتماثيل، ولا سيما الإيطالية منها، وجمعها هي وغيرها من الآثار الفنية في متحف للفن في سانت بطرسبورج فتحة لجميع الزوار مجاناً، وأمر بتقديم المشروبات الخفيفة لهم (27). ووفد المصورون الأجانب ليرسموا لوحات الأشخاص بأسلوب الغرب. وبنيت بعض الكنائس أيام ألكسيس، ولكن قل منها ما بني أيام بطرس. ووجد المعماريون الآن أنه أربح لهم أن يبنيوا القصور. ولم يزدهر أدب عظيم خلال هذه الثورة التي اقتلعت القديم من جذوره، فلا بد من انقضاء وقت حتى يمكن الإحساس بدفعة بطرس في الشعر. وقد صدر كتاب جريء قبل وفاته بعد عام، وهو "كتاب الفقر والغنى" بقلم إيفان بوسوشكوف الذي وبخ الروس على همجيتهم وأميتهم، وظاهر بقوة إصلاحات القيصر. وقد جاء في الكتاب "من سوء

الحظ أن مليكنا العظيم يكاد يقف وحده، ومعه عشرة أشخاص، في محاولة رفع الأمة في حين يحاول الملايين خفضها(28)". وندد ايفان بظلم الفلاحين، وطالب بقضاء نزيه تجريه محاكم متحررة من السيطرة الطبقية، وصدم القيصر بأن طلب جمع ممثلين لجميع الطبقات ليكتبوا دستوراً جديداً ومدونة قوانين لروسيا. وقبض على بوسوشكوف بعد موت بطرس ببضعة شهور، ومات في السجن في 1726.

صفحة رقم : 11097

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> العقابيل

3- العقابيل

ازدادت المقاومة لإصلاحات بطرس من سنة إلى سنة. ذلك أن الروس أفوا الفقر، والعذاب، والاستبداد، ولكنهم لم يسبق لهم قط- حتى تحت حكم ايفان الرهيب- أن أثقلوا بمثل هذه الأعباء، أو دفعوا مثل هذه الضرائب، أو ماتوا بمثل هذه الكثرة لا في ساحة القتال فحسب بل في أشغال السخرة جوعاً وبردأ وأعياء مرضاً. كتب ليفور صديق بطرس المحبوب في 1723 يقول "إن الشفاء يشتد من يوم إلى يوم، والشوارع تمتلئ بناس يحاولون بيع أطفالهم... والحكومة لا تدفع مالاً للجنود، ولا لرجال البحرية، ولا لموظفي الإدارات

صفحة رقم : 11098

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> العقابيل

الحكومية، ولا لأحد(29)". وحين القيصر ازدياد الفقر وسط إصلاحاته، فجعل التسول أو التصدق على المتسولين جريمة، وأقام سنتين منظمة لتوزيع الصدقات. ولكن التسول استمر، والجريمة انتشرت. وكاد يسيطر على الطرق الأفتان الأبقون من الرق، والجنود والعمال المسخرون الذين هجروا معسكراتهم معرضين أنفسهم للموت. ونظموا أنفسهم أحياناً أفواجاً عدتها مئات حاصرن المدن واستولت عليها. ذكر قائد في 1718 "إن موسكو مباءة للسطو، وكل شيء فيها خرب، وعدد الخارجين على القانون يتضاعف، وإعدام المذنبين لا يتوقف أبداً". وأقام المواطنين المتارييس في بعض شوارع موسكو، وأحاطوا بعض البيوت بأسوار عالية اتقاء للصوص. وحاول بطرس منع السرقة بالعقاب الصارم، فأمر بأن يشنق قطاع الطرق الذين يقبض عليهم، وأن تجدع أنوف الساطين على المنازل، الخ. ولكن هذه العقوبات لم تردع المجرمين. فقد

شقت الحياة على الفقراء حتى لم يصبح هناك فرق يذكر في نظرهم بين عقوبة الإعدام وبين السجن المؤبد الذي يقضونه راسفين في أغلال القنبية أو السخرة، واحتلموا أشنع ضروب العذاب بتجلد من مانتت أعصابهم. واشتد كره الناس لبطرس حتى لقد أعجب الكثيرون أن أحداً لم يقتله. كرهه النبلاء لأنه أرغمهم على خدمة الدولة، ولأنه رفع الطبقات الصناعية والتجارية مقاماً وثراءً، وكرهه الفلاحون لأنه سخره في عمل اقتلعهم من أوطانهم، ومن أسرهم في كثير من الحالات، وكرهه رجال الكنيسة لأنه الوحش الوارد ذكره في سفر الرؤيا، والذي جعل المسيح ذاته خادماً للحكومة، وارتاب فيه كل الروس تقريباً لاختلاطه بالأجانب واستيراده الأفكار "الوثنية"، وخافت روسيا كلها بأسه لعنفه ولعقوباتها الوحشية. إن روسيا لم ترد هذا التغريب، إنها تمقت الغرب مقتاً شديداً، والاحتفاظ بروحها القومية كان يقتضيها أن تكون "سلافية الميول" ونشبت حركات تمرد يائسة بموسكو 1698، وبأستراخان في 1705، وعلى طول الفولجا في 1707، وفي أوقات متفرقة في أرجاء الإمبراطورية وخلال العهد كله.

صفحة رقم : 11099

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> العقابيل

أما بطرس فقد رمز إلى الصراع وزاده حدة بالعودة إلى الغرب مرتين. ففي خريف 1711 ذهب إلى ألمانيا ليرأس في تورجو مراسيم زواج ابنه. وهناك استقبل لبينتز، الذي اقترح عليه إنشاء أكاديمية روسية كان يرجو الفيلسوف المتعدد المواهب أن يرأسها. وعاد القيصر إلى سانت بطرسبورج في يناير 1712، ولكنه في أكتوبر، وسط حملة شنها إلى السويد، استشفى بمياه كرلسبارد، وزار فنتيرج. وأخذ بعض القساوسة اللوثريين إلى البيت الذي قذف فيه لوثر محبرة على الشيطان، وأروه الحبر على الحائط، وطلبوا إليه أن يكتب تعليقاً عليه، فكتب "إن الحبر جديد تماماً، فواضح إذن أن القصة غير صحيحة(30)". وعاد بطرس إلى عاصمته الجديدة في أبريل 1713. وفي فبراير 1716 انطلق إلى الغرب مرة أخرى، فزار ألمانيا وهولندا، وفي مايو 1717 بلغ باريس أملاً أن يزوج ابنته اليزابيث للويس الخامس عشر. ولما التقى بطرس بالملك الصبي ذي السبعة الأعوام، رفعه ليقبله، وبعد أيام، حين كان لويس يستقبله أمام القصر الملكي، رفعه بطرس كأنه طفل وحمله صاعداً السلم مما جعل أفراد الحاشية يرتعدون. وأنفق في باريس ستة أسابيع متفرجاً، مستوعباً كل جوانب الحياة في المدينة - السياسية، والاقتصادية، والثقافية. وصوره الرسامان ريجو وناتيه. وزار مدام دمانتون العجوز في سان- سير. ومن باريس ذهب إلى سبا، وظل خمسة أسابيع يشرب المياه هناك، لأنه كان إذ ذاك يشكو عللاً كثيرة. ولحقت به زوجته كاترين في برلين. واكتشفت أن له خليلة، ولكنها اغتقرت ذلك جرياً على أرقى تقاليد البيوت المالكة الأوروبية. فلما وصل إلى سانت بطرسبورج (20 أكتوبر 1716) واجه أزمة من أسوأ الأزمان في حياته.

ذلك أن ابنه ألكسيس، الذي كان يرجو أن يورثه ملكه ويترك له المضي قدماً في إصلاحاته، انتهى إلى كره الكثير من تلك البدع، وكره الأساليب التي كانت تفرض بها فرضاً. وكان في بدنه وعقله ابن يودوكسيا أكثر منه ابن بطرس. وكان ضئيل الجسم، هيباباً، ضعيفاً، ولو عاً بالكتب، مخلصاً للكنيسة الأرثوذكسية، لأنه ربي على التقوى بينما كان بطرس منطلقاً إلى الحرب والغرب. وحين بلغ ألكسيس

صفحة رقم : 11100

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> العقابيل

التاسعة رأى أمه تقصي إلى الدير (1699)، فلما بلغ الحادية عشرة سمع الكهنة ينحسرون على صهر أجراس الكنيسة لصنع المدافع، وسأل أباه لم يذهب الروس خارج روسيا للقتال في سبيل مدينة نائية كنازفا، واشمئز بطرس حين وجد أن وريثه لا يستطيع سفك الدماء.

وبينما كان بطرس مشغولاً ببناء سانت بطرسبورج، مكث ألكسيس بموسكو، وأحب كنانسها وأساليب حياتها القديمة. وقد كره تمزيق البطريركية ومصادرة الدولة للممتلكات الديرية. وعلمه كاهن اعترافه أن يدافع عن الكنيسة دائماً أياً كان الثمن. وغدا ألكسيس المعبود ومعقد الآمال للجماعات الكنسية والأرستقراطية التي أبغضت علمنة بطرس لروسيا وتغريبها، وانتظرت بفارغ الصبر الوقت الذي يجلس فيه على العرش ذلك الفتى المتدين المطواع. وكان بطرس لا يراه إلا لماماً، فإذا رآه وبخه عادة، وضربه أحياناً، كما فعل حين اكتشف القيصر أن الصبي زار أمه خفية في ديرها. وأوشك استياء الفتى أن يكون كرهاً. واعتراف لكاهنه اجناتيف أنه يتمنى لو مات أبوه. ولم ير اجناتيف في هذا إثماً، فقال لألكسيس "إن الله سيغفر لك فكلنا نتمنى موته، لأنه حمل الشعب أحمالاً ثقيلة(31)".

وفي 1708 بعث بطرس ابنه إلى درسدن ليدرس الهندسة وفن التحصين. وفي 1711 تزوج ألكسيس بمدينة تورجو شارلوت كرستينا صوفيا، أميرة برونزيك- فولنفوتل. ولم يستطع أن يغتفر لها رفضها التخلي عن مذهبها اللوثري واعتناق المذهب الأرثوذكسي الروسي. واتخذ الخليلات حتى من المواخير، وأفرط في الشراب. وعقب أن ولدت له شارلوت طفلاً زارها بصحبة مومس(32). وبعد عام ماتت زوجته وهي تلد (1715). واستدعاه بطرس إلى سانت بطرسبورج بخطاب غاضب حوى عبارات تنذر بالويل والثبور "إنني لا أضن بحياتي، ولا بحياة أحد من رعاياي، ولن أستنتيك من هذه القاعدة. فعليك أن تصلح من حالك، وأن تجعل نفسك نافعاً للدولة، فإن لم تفعل حرمتك من الميراث(33)". وحاول ألكسيس تهدئة ثائرة أبيه بالتخلي عن حقوقه في العرش، وقال إنه سيقنع بالعيش عيشة هادئة في الريف. وشعر بطرس بأن هذا ليس حلاً. ففي 30 يناير 1716 كتب إلى ألكسيس يقول:

صفحة رقم : 11101

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> العقابيل

"لا أستطيع تصديق يمينك... لقد قال داود إن كل البشر كذابون، فحتى لو شئت الوفاء بها لثناك عن ذلك ذو اللحي الطويلة... فكل الناس يعرفون أنك تكره أعمالهم التي عملها في سبيل هذه الأمة، غير ضنين بصحتي، وأنك بعد موتي ستقضي عليها، ولهذا السبب فإن بقاءك كما تريد أن تبقى، بغير وجهة محددة، ضرب من المحال. وعليه فأما أن تغير من خلقك، وتصبح دون نفاق خلفي الكفاء، أو تصبح راهباً. فأجبني فوراً... فإن لم تفعل عاملتك كما عامل المجرمين(34)".

وأشار عليه أصدقائه بالرهانية، وقال أحدهم، "إن قلنسوة الراهب لا تسمر فوق إنسان، ففي الإمكان خلعها" وكتب ألكسيس لأبيه بأنه راغب في الرهانية. ولانت قناة بطرس، وأمهله نصف سنة ليستقر على رأي. ووصل القيصر إلى الغرب (فبراير 1716). وفي 29 يونيو نصحت ناتاليا، أخت بطرس، ألكسيس بأن يرحل عن روسيا ويضع نفسه في حمى الإمبراطور. وفي سبتمبر كتب بطرس لابنه من كوبنهاجن يقول أن نصف العام قد انتهى، وإن على ألكسيس أن يدخل الدير فوراً، أو يلحق بأبيه في الدنمرك مستعداً للخدمة العسكرية. وتظاهر ألكسيس بأنه ذاهب إلى أبيه، وحصل على المال من منشيكوف ومجلس الشيوخ، ثم انطلق لا إلى كوبنهاجن بل إلى فيينا (10 نوفمبر). وهناك التمس من

نائب المستشار الإمبراطوري أن يحصل له على حماية الإمبراطور شارل السادس قائلاً "إن أبي غضوب محب للنأر إلى حد لا يصدق، وهو لا يرحم أحداً، ولو ردني الإمبراطور إلى أبي لكان هذا في حثفي(35)". وأرسله نائب المستشار إلى قلعة إيرنبيرج بالتيرول. وهناك ظل مختبئاً متكرراً، تحت الرقابة ولكنه مزود بكل أسباب الراحة، وسمح له بالاحتفاظ بخليته أفروسينيا مرتدية ثياب الوصيف. وتعبه جواسيس بطرس إلى مخبئه، وأذرت ألكسيس في نابلي حيث كان تحت الحراسة في "كاستيل سانتيلمو". وعثر عليه عملاء بطرس وأحوا عليه في العودة إلى روسيا واتقوا من رافة أبيه به. فقبل شريطة أن يأذن له بطرس بالعيش مع أفروسينا معتزلاً في الريف. ووعده بطرس بهذا في خطاب بتاريخ 28 نوفمبر 1717. ورتب ألكسيس أن تظل أفروسينا بايطاليا حتى تضع مولودها. وكان أثناء رحلته الطويلة إلى روسيا يبعث لها بأرق الرسائل.

صفحة رقم : 11102

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> العقابيل

ووصل موسكو في آخر يناير. وفي 3 فبراير استقبله بطرس في اجتماع مهيب ضم كبار رجال الدولة والكنيسة. والتمس ألكسيس العفو من أبيه وهو جاث ودموعه تسيل. ومنحه بطرس العفو، ولكنه حرّمه من وراثة العرش، وأعلن ابن كاترين، بطرس بتروفيتش، البالغ من العمر ثلاث سنين، وريثاً للعرش. وأقسم ألكسيس يمين الولاء لولي العهد الجديد. وعلق بطرس عفوهُ الآن على شرط، هو اعتراف ألكسيس بشركائه في مقاومة إصلاحات أبيه. وورط ألكسيس الكثيرين، فقبض عليهم وعذبوا لانتزاع المزيد من التفاصيل منهم، ونفى عديدين إلى سيبيريا، وأعدم البعض بعد أن عذبوا أشنع تعذيب. أما ألكسيس، الذي ترك حراً في الظاهر، فقد أسكن بيتاً قريباً من قصر القيصر في سانت بطرسبورج، ومنح معاشاً سنوياً قدره أربعون ألف روبل. وكتب إلى أفروسينيا يقول أن أباه يحسن معاملته وأنه دعاه إلى مائدته، وكان يتطلع إلى مجيئها، وإلى الحياة السعيدة معها في هدوء الريف. ووصلت في أبريل، فقبض عليها فوراً، ولم تعذب ولكنها امتحنت امتحاناً صارماً، فانهارت، واعترفت بأن ألكسيس اغتبط لنبا حركات التمرد على أبيه، وأنه أعرب عن نيته يعتلي العرش في هجران سانت بطرسبورج والبحرية، وخفض عدد الجيش إلى ضرورات الدفاع. ولم يكن هذا شراً مما كان بطرس يعلمه من قبل، فترك ألكسيس طليقاً شهرين آخرين. ثم أثارته مفاجأة جديدة لا علم لنا بها، فأعلن أنه سحب عفوهُ عن ألكسيس، لأن هذا العفو افترض اعترافه الكامل، وقد توافر لديه الدليل الآن على أن الاعتراف كان غير مخلص وغير كامل. وفي 14 يونيو قبض على ألكسيس وسجن في قلعة القديسين بطرس وبولس.

وفي 19 يونيو 1718، وبعد أن فحصته محكمة القضاء العليا، عذب لأول مرة، فجلد خمساً وعشرين جلدة. واعترف بأنه تمنى موت أبيه، وبأن كاهنه قال له "إننا جميعاً نتمنى موته". ثم ووجه بأفروسينيا، التي أعادت ما قالتها للقيصر من قبل، ومع ذلك أقسم أنه سيجبها حتى الموت. وقال معترفاً "شياً فشيئاً أصبح شخص أبي ذاته، لا كل شيء عنه فحسب، بغضباً في عيني" واعترف بأنه لو اقتضاه الأمر لاستعان بالإمبراطور "في قهر التاج بالقوة(36)". وفي 24 يونيو عذب مرة أخرى بجلده خمس عشرة جلدة لم تنتزع منه مزيداً من

صفحة رقم : 11103

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> العقابيل

الاعترافات. وقضت المحكمة العليا بأنه مذنب بالخيانة وحكمت عليه بالإعدام. والتمس أكسيس السماح له بمعاينة خليلته قبل إعدامه، ولا علم لنا هل أجيب إلى طلبه. ولم يوقع بطرس على الحكم. ثم أعيد استجواب أكسيس مرتين (25 و26 يونيو) وهو يعذب، وفي المرة الثانية بحضور القيصر والحاشية، وقال ليفور فيما بعد "أكدوا لي أن أباه جلده الجلادات الأولى بنفسه، وإن كنت غير واثق من صدق هذا القول(37)". في ذلك المساء مات أكسيس في سجنه، والظاهر أن موته كان من آثار تعذيبه. وزعمت رواية أن كاترين أمرت الأطباء بأن يقطعوا أوردته، ولا نستطيع الحكم على هذا العمل، أهو من أعمال الرأفة به أم الطمع في سبيل مصلحة ولدها. أما أفروسينيا فنالت نصيباً من ثروة أكسيس، وتزوجت ضابطاً في الحرس، وعاشت حياة مريحة ثلاثين سنة أخرى في سانت بطرسبورج. وكان بطرس يأمل أن يربي ابنه من كاترين ليخلفه، ولكن الصبي مات في 1719. وأنجبت كاترين ولدين آخرين، بطرس وبولس، ولكنهما ماتا قبل القيصر. وعزى نفسه بالألقاب الفخمة التي خلعت عليه بعد صلحه مع السويد. وفي ذلك العام، (1721)، خلع مجلس الشيوخ والمجمع المقدس لقب الإمبراطورة على كاترين. وبعد أن أمهل بطرس روسيا سنة سلامها الوحيدة منذ بداية حكمه النشط، وجه قواته شطر فارس. وكان يرجو أن يستخلص طريق قوافل إلى وسط آسيا، وأخيراً إلى الهند، وسيطر عليه، وأخبره مبلغه أن في الإمكان العثور على الذهب في الطريق، وكان سباقاً إلى توقيع الإمكانات الصناعية لزيت القوقاز والشرق الأوسط(38). وفي 1722 جرد أسطولاً على قزوين لمهاجمة فارس، فاستولى على باكو وبعض سواحل قزوين الفارسية، غير أن العواصف دمرت معظم سفنه، وأتى المرض على جزء من جيشه، وعاد بطرس من حملة 1724 مرهقاً، متشائماً، مشرفاً على الموت. ذلك أنه كان يشكو مرض الزهري سنوات طويلة(39)، ويعاني من العقاقير التي تعاطاها للعلاج منه. وزاد إدمانه السكر الطين بلة، واجتمعت عليه انفعالات الحرب، والثورة، وحركات التمرد، وعنف

صفحة رقم : 11104

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> العقابيل

الإرهاب، لتتهك جسمه العملاق في النهاية. وفي نوفمبر 1724 قفز إلى النيفا المتجمد ليساعد على إنقاذ ملاحين على سفينة جانحة. وظل يعمل طوال الليل في مياه غمرته حتى خصره. وفي الغد أصيب بحمى، ولكنه شفي منها، واستأنف برنامجاً حافلاً بألوان النشاط. وفي 25 يناير لزم فراشه أثر التهاب مؤلم في المثانة. وأبى أن يسلم بأن منيته دنت حتى 2 فبراير، فاعترف ببعض ذنوبه، وتناول الأسرار المقدسة. وفي السادس من الشهر وقع إعلاناً بتحرير جميع السجناء فيما خلا المحكوم عليهم لجرائم القتل أو لجرائم ضد الدولة. وقد روع أتباعه بصرخات الألم. وطلب لوحاً يكتب عليه وصيته، ولكن ما إن كتب هاتين الكلمتين "أعطوا جميع" حتى وقع القلم من يده. وسرعان ما انتابته غيبوبة دامت سناً وثلاثين ساعة، ولم يفق منها قط. وأذيع نبأ موته في 8 فبراير 1725، وكان يومها في الثانية والخمسين.

وتنفست روسيا الصعداء كأن كابوساً طويلاً رهيباً قد أنجب عن صدرها آخر الأمر. وابتهج ملكا السويد وبولندا، وتوقعا أن تنتردى روسيا في مهووي الفوضى، وتكف عن أن تكون خطراً يهدد الغرب. ورفعت روسيا القديمة، روسيا العصور الوسطى، عقيرتها وطلبت عوداً إلى الماضي. لقد دفعت الأمة دفعا مفرطاً في العنف، وأوذيت في روحها وكبريائها بهذا التقليد الأعمى للغرب. وانتشرت الرجعية انتشاراً واسعاً وانتصرت، وترك الكثير من الإصلاحات

ليموت من افتقاره إلى التأييد. واختزلت البيروقراطية الإدارية، ولكن إطارها احتفظ بحياته حتى 1917، واستعاد النبلاء الكثير من سلطانهم القديم، واستردوا حقوقهم فيما تحويه وأراضيه من أخشاب ومعادن. أما الطبقة الصناعية والتجارية التي طفر بها بطرس فقد عادت إلى خضوعها الماضي. وأنهار الكثير من الصناعات الجديدة بسبب النقص في الآلات، أو العجز في العمال أو الإدارة. واضمحت الرأسمالية الوليدة، وظلت روسيا الاقتصادية مانتي عام أخرى كما كانت أساساً قبل الثورة البلطرية. أما الإصلاحات التجارية فكانت أوفر حظاً، فاستمرت التجارة مع الغرب في ازدياد مطرد، وأثمرت الاتصالات بأوروبا شيئاً من التهذيب في السلوك، ولكن الأزياء الوطنية القديمة

صفحة رقم : 11105

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> بطرس الأكبر -> العقابيل

عادت في عهد كاترين الثانية (1762-96)، وعاد الناس يطلقون لحاهم في عهد الاسكندر الثاني (1855-81). واستمر الفساد، ولم يبد على الأخلاق أنها جنت شيئاً من وراء العهد، ولعل ما ضربه بطرس لشعبه من مثال في السكر، والإباحية، والتوحش، خلف الشعب أسوأ خلقاً من ذي قبل. ولم يبق من التغييرات إلا ما ضرب جذوره في الزمن.

لقد كان بطرس أحد شخصيات التاريخ الحديث الأقل ظفراً بحب الناس، ومع ذلك كان إنجاز هائل. واخفاقاته تنهض شاهداً على قيود العبقرية وحدودها عاملاً من العوامل المؤثرة في التاريخ، ولكن في البصمة التي تركها على روسيا ما يشيد بقوة الشخصية. فلقد أعطى روسيا جيشاً وبحرية، وفتح الثغور التي أتاحت لها الاتجاه مع الغرب في السلع والأفكار، وأرسي صناعة التعدين وتشغيل المعادن، وأنشأ للمدارس وأسس أكاديمية. وبجذبة وحشية واحدة انتزع روسيا من براثن آسيا وأدخلها أوربا، وجعلها عاملاً مؤثراً في الشؤون الأوروبية. فمنذ الآن ستضطرب أوربا لأن تحسب حساباً أكثر فأكثر لقلب القارة الشاسع ذلك، ولتلك الجماهير الصلبة، الصابرة، المتجلدة، ومصيرها المحتوم.

صفحة رقم : 11106

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> إعادة تنظيم ألمانيا

الفصل الرابع عشر

1- إعادة تنظيم ألمانيا

هبطت حرب الثلاثين بسكان ألمانيا من 20.000.000 إلى 13.500.000. وبعد عام أفادت التربة التي روتها دماء البشر، ولكنها ظلت تنتظر مجيء الرجال. وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال. وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة إلى تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم. ففي مؤتمر فرانكونيا المنعقد في فبراير 1650 بمدينة نورمبرج اتخذوا القرار الآتي:-

"لا يقبل في الأديار الرجال دون الستين... وعلى القساوسة ومساعدتهم (إذا لم يكونوا قد رسموا)، وكهنة المؤسسات الدينية، أن يتزوجوا.... ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين، ويذكر كل رجل تكبيراً جدياً، وينبه مراراً من منبر الكنيسة، إلى التصرف على هذا النحو في هذه المسألة(1)".

وفرضت الضرائب على النساء غير المتزوجات(2). وسرعان ما أعادت المواليد الجديدة المساواة التقريبية بين الجنسين، وأصرت الزوجات على ألا يقاسمهن أحد في رجالهن. واستعاد السكان كثرتهم سريعاً، فما وافى عام 1700 حتى ارتفع عددهم ثانية إلى عشرين مليون من الأنفس. وبنيت مجدبورج من جديد، وبعثت الأسواق الحياة والنشاط في ليبزج وفرانكفورت-أم-مين، وخرجت همبورج وبريمن أقوى مما كانتا. على أن الصناعة والتجارة استغرقتنا أكثر من مائة عام حتى تدركا مستواهما الذي كانتا عليه في القرن السادس عشر. فالسويديون والهولنديون يسيطرون على مصاب الأودر، والألب، والرين، والنقل بالمحيط يحدث ركوداً نسبياً في النقل البري،

صفحة رقم : 11107

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> إعادة تنظيم ألمانيا

والطبقات الوسطى قد اضمحلت، ولم يعد يحكم المدن رجال الأعمال بل أمراء الأقاليم أو من ينوبون عنهم. وكانت الحرب قد انتهت بكارثة على سلطة هابسبورج الإمبراطورية. ذلك أن فرنسا أدهلتها، وأذلت أسبانيا حليفة الإمبراطورية. وغدا الأمراء الألمان في مجموعهم أقوى من الإمبراطور فلهم جيوشهم، وقصورهم، وعملتهم، وهم يفصلون في سياساتهم الخارجية، ويؤلفون أحلافهم مع الدول غير الألمانية، بل ضد المصالح الإمبراطورية. وكان هناك نحو مائتي إمارة "زمنية" تستمتع الآن بهذا الاستقلال، وثلاثة وستون دويلة يحكمها رؤساء أساقفة أو أساقفة أو رؤساء ديرة ينبعون كنيسة روما الكاثوليكية، وإحدى وخمسون "مدينة حرة"، لا تخضع لغير الإمبراطور، وخضوعها لا يعدو أن يكون صورياً. واعتبطلت فرنسا برؤية هذه الدويلات الألمانية الكثيرة بدلاً من ألمانيا الموحدة.

وكانت براندنبورج، إقليم الحدود الألماني، رمزاً على الإمبراطورية المحتضرة، وعلى ألمانيا جديدة تتخذ لها شكلاً جديداً. فهناك، وعلى منأى الإمبراطور، وفي مواجهة السويد وأمام جيش من الصقالبة، تعلمت أسرة هوهنزولرن أنه لا بقاء لدويلتهم إلا بمواردها وقوتها. ففي القرن العاشر كان هنري الصياد قد أقام "الحد الشمالي للسكسون" على طول الألب حصناً ضد الطوفان السلافي. وانتزع من الوند الصقالبة قلعته وعاصمتهم برنيبور (التي اشتق منها اسم براندنبورج) وردهم إلى الأودر. وظلت الأقاليم الواقعة بين الألب والأودر قروناً يتبادلها الألمان والصقالبة. ودخلت براندنبورج ساحة التاريخ دخولاً أنشط حين اشتراها فردريك هوهنزولرن، في 1411-17، هي وصوتها الانتخابي في الديت الإمبراطوري. ومن ذلك التاريخ حكم بيت هوهنزولرن براندنبورج حتى أصبحت بروسيا، وحكم بروسيا حتى تنازل القيصر فلهم الثاني عن عرشه في 1918. وندر أن ارتبطت أسرة بدولة هذا الارتباط الطويل الوثيق، أو كرست نفسها لرفاهية أمة وتوسيع رقعتها بهذه الغيرة والفعالية. وعلى عهد الناخب جون سبسموند (1608-19) حصلت براندنبورج على دوقية كليف في الغرب ودوقية بروسيا الشرقية في الشرق، بحيث غدا

صفحة رقم : 11108

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> إعادة تنظيم ألمانيا

إقليم الحدود بشيراً بمملكة بروسيا. إقليم الحدود بشيراً بمملكة بروسيا. وكان من أضعف أفراد الأسرة الناخب جورج ولیم (1619-40)، الذي أدى تقلباته في حرب الثلاثين إلى تدمير براندنبورج على أيدي الجنود السويديين. فهجرت القرى والمدن، وخربت برلين، وكادت الصناعة تتلاشى، وهبط سكان إقليم الحدود من 600.000 إلى 210.000 واستطاع فردريك ولیم، الذیورث هذه التركة الخربة (1640)، أن ینجز خلال الثمانية والأربعين عاما التي حكم فيها، معجزة من معجزات التعمير والتنمية، حتى لقد اعترف له حتى معاصروه بلقب "الناخب الأكبر". ولولاه لما كان فردريك الأكبر (كما سلم بهذا فردريك الأكبر نفسه) (3). كان يبلغ العشرين حتى ولي العرش فتىً وسيماً، أسود الشعر، أسمر العينين، يشق طريقه إلى السلطة. كان قد نشأ على التقوى والنظام، وأكمل تعليمه في جامعة ليدن. وقد سبق بطرس قيصر الروس في إعجابه بالهولنديين وبشجاعته الصامدة وجدهم واجتهادهم، فاستقدم بذلك أوفاً منهم ليعمروا وطن المتعطش للسكان. ثم حصل بمقتضى صلح وستاليا على بومرانيا الشرقية (البعيدة)، وأسقفيتي ميندن وهالبرشتات، وألحق في وراثته رأسه أسقفية مجدبورج الهامة، وقد آلت إليه في 1680، واختتم فردريك ولیم حكمه بملك مبعثر بدأ جهده ليصبح مملكة. وفي تاريخ مبكر -1654- اقترح كبير وزرائه، الكونت جيورج فردريك الفالدكي، توحيد ألمانيا كلها تحت زعامة بيت هوهنزولرن (4). وبدأ أن فردريك ولیم هو الرجل الكفيل بتحقيق هذه الوحدة الحامية. فلما اعتنق أوغسطس القوي أمير سكسونيا الكاثوليكية ليصبح ملك بولندا فتح الطريق لألمانيا لتتولى الزعامة البروتستنتية ولم تعترضه سوى قوة السويد.

ذلك أن معاهدات 1648 كانت قد تركت نقطاً استراتيجياً هامة بألمانيا في قبضة السويد، وطالبت السويد بزعامة ألمانيا البروتستنتية استناداً على تضحياتها وانتصاراتها في حرب الثلاثين. فكيف تستطيع براندنبورج-بروسيا، بمكوناتها التي تحدد بها الدول المنافسة من أقصى ألمانيا إلى أقصاها، أن تبلغ من القوة والمنعة حداً يتيح لها الدفاع عن نفسها ضد تسلط السويد، أو تسلط سكسونيا، الدولة الموحدة

صفحة رقم : 11109

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> إعادة تنظيم ألمانيا

المركزية السلطة؟ وبدأ فردريك وليم بخطو وارده هما أول دعامات الحكم الكفاء، ثم جمع بالضرائب والإعانات الفرنسية المال الذي هو ثاني دعامات الحكم الكفاء، وبالمال نظم جيشاً، هو ثالث دعامات الحكم الكفاء، فما حل عام 1656 حتى كان له أول جيش دائم في أوروبا-عدته ثمانية عشر ألف مقاتل شاكلي للسلاح. وبهذه الوسيلة من وسائل الإقناع أقنع الولايات المكونة لدولته أن تدفع "اشتراكاً" سنوياً في نفقات الحكومة المركزية ببرلين، وبهذه الموارد أصبح مستقلاً عن سلطان المال في المجالس الإقليمية، وحقق ما كان في رأيه الشكل العملي الوحيد للحكومة في المرحلة الراهنة من مراحل التطور السياسي والفكري-وهو الحكم المطلق الممركز. وأعفى النبلاء من الضرائب المباشرة، ولكنه ألزم أبناءهم خدمته نبلاءً صغاراً "يونكر" في وظائف الجيش والإدارة العليا. وكره هؤلاء "الصغار" هذه الخدمة أول الأمر ولكنه خلع عليهم الثياب العسكرية الفاخرة والمركز الاجتماعي المرموق، ودرّبهم على الكفاية وعزة النفس، وربى فيهم "روح الفريق" التي حلت محل ولايات النظام القديمة الإقطاعية، والتي جعلت الجيش خادماً لا للملاك الأراضي بل للحكومة. وهكذا بدأ الجهاز العسكري والاجتماعي الذي مكن لفردريك الأكبر أن يثبت لنصف أوروبا، والذي أعد ألمانيا لخوض الحرب العالمية الأولى.

على أن فردريك وليم أعوزته صفة واحدة-هي عبقرية ملوك السويد الحربية. فقد ظل عشرين عاماً ينقل قواته من جانب الأجانب في صراعات السويد مع بولندا، والإمبراطورية مع فرنسا، حافظاً بالجهد كيانه بالدبلوماسية. ولكن حين غزا شارل الحادي عشر براندنبورج، برر جيش فردريك وليم وجوده بعزيمة السويديين في فيربلن (1675)، وهذا النصر هو الذي أكسبه لقب الناخب الأكبر. وفي خاتمة المطاف، ورغم سياساته المتقلبة وموارده الضيقة، أضاف لدولته أربعين ألف ميل مربع من الأرض.

بيد أن إصلاحاته الاقتصادية والإدارية كانت أهم-ففضل حضه حسن الإشراف وسائلهم الزراعية وزادوا من غلة ضياعهم. وقد طور صناعة ناجحة للحريز بزرع أشجار التوت على نطاق واسع. وقلب الاتجاه إلى اقتلاع أشجار الغابات، فاشتترط على الفلاحين أن يغرس

صفحة رقم : 11110

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> إعادة تنظيم ألمانيا

كل منهم اثنتي عشرة شجرة قبل أن يتزوج. وصمم ومول شق قناة فردريك وليم لتربط نهري الأودر وسبري. ولما ألغى لويس الرابع عشر مرسوم ناننت، أصدر الناخب الأكبر "مرسوم بوتسدام" (نوفمبر 1685) الذي دعا الهيجونوت المنكوبين للمجيء إلى براندنبورج-بروسيا والإقامة فيها، وبعث مندوبين ليوجهوا هجرتهم ويمولوها(5)، وجاء عشرون ألفاً، فكانوا مهمازا حفز الصناعة البروسية، وألّفوا خمسة أفواج في الجيش البروسي. وكان فردريك وليم نفسه، كما كان سليله فردريك الأكبر، يكذب ويكذب في الإدارة بهمة لا تتي، وقد أرسى ذلك المبدأ الذي قبله بعد ذلك القيصر بطرس و "المستبدون المستنبرون" من حكام القرن الثامن عشر، ومؤداه أن على الملك أن يكون خادم الدولة المكرس. وقد أدرك أن التعصب الديني معطل للتطور الاقتصادي والسياسي، فتقرّد في ألمانيا بأن سمح لشعبه بالبقاء على المذهب اللوثري في حين ظل هو على مذهبه الكلفني، ومنح الحرية الدينية للكاثوليك، والموحدين، واليهود.

ومات عام 1688 وقد بلغ الثامنة والستين. وكانت وصيته التي قسم فيها ولاياته العديدة بين أبنائه كفيلاً بأن تمحو ما أحدثه حكمه من أثر موحد، لولا أن خلفه رفض الوثيقة واحتفظ بالسلطة المركزية. واكتسب هذا الخلف - هو فرديريك الثالث - مودة الإمبراطور ليوبولد الأول بالانضمام إليه ضد فرنسا، ومن أجل هذا، ومن أجل ثمانية آلاف مقاتل، منحه ليوبولد لقب "ملك بروسيا". وقد توج باسم فرديريك الأول في كونزبرج في 18 يناير 1701، وبدأت بروسيا مسيرتها نحو بسمارك والوحدة الألمانية.

ومن المفخر التي ازدان بها سجل فرديريك إنشائه جامعة هالي، ومفخرة أخرى تذكر له أنه عضد جهود زوجته الثانية في النهوض بلطائف الثقافة والفكر في برلين. وقد اشترعت هذه الزوجة، واسمها صوفيا شارلوت، ابنه صوفيا ناخبة هانوفر، بأنها أجمل النساء وأذكاهن في ألمانيا. فجلبت إلى بلاط برلين من مقامها الطويل في باريس مزيجاً جذاباً من الثقافة والظرف. وبالبحاها وإلحاحها ليبنتز، أنشأ فرديريك أكاديمية برلين للعلوم، التي قدر لها أن تصنع التاريخ في عهد فرديريك الثاني. وبنى الناخب لزوجته (1696) القلعة أو القصر

صفحة رقم : 11111

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> إعادة تنظيم ألمانيا

(شلوس) الشهير في الضاحية التي اتخذت اسمها، شارلوتنبرج. وتوافد على صالونها في قصر شارلوتنبرج العلماء والفلاسفة وأحرار الفكر واليسوعيين والقساوسة اللوثرينيين، وكانت شارلوت تحب أن تحفهم لخوض المعارك اللاهوتية التي كانت أحياناً تستغرق الليل كله. هناك استوعبت زوجة أخيها، كارولين ملكة إنجلترا، العلم والفن اللذين ستجف لهما إنجلترا. فلما حضرت الوفاة شارلوت (إذا صدقنا رواية حفيدها فرديريك الأكبر) رفضت عروض القساوسة الكاثوليك والبروتستنت على السواء بالصلاة من أجلها، وقالت لهم إنها تموت في سلام، وإنما تشعر بحب الاستطلاع أكثر من الرجاء أو الخوف، لأنها الآن ستشبع فضولها حول أصل الأشياء "الذي لم يستطع حتى ليبنتز أن يفسره لي قط"، وعزت زوجها الشديد الولع بالمراسم بقولها إن موتها "سيتيح له فرصة تشييعها بجنائز فخمة (6)".

لقد كانت صوفيا شارلوت واحدة من نساء كثيرات ذوات خلق وتعليم، جملن ألمانيا والقرن السابع عشر ينزلق إلى الثامن عشر.

أما بلاط برلين، وهو واحد من نيف وثلاثمائة بلاط أفنت آنذ موارد الإمبراطورية، فلم يكن له من منافس سوى البلاط السكسوني. وقد خلف أو غسطس القوي، الذي حكم سكسونيا (1694-1733) باسم الناخب فرديريك أو غسطس الأول، لأوروبا رهطاً من الأبناء غير الشرعيين، ومنهم المارشال دي ساكس الشهير. وجعل عاصمته "أجمل مدينة في ألمانيا (7)" ومركز الفنون الصغيرة ومفخرتها، ولكن السكسون لم يستطيعوا أن يغفروا له ارتداده عن مذهبه، واستعماله أموالهم ورجالهم في حروب بولندية، وترف بلاطه الباهظ التكاليف.

وقد أسهمت إمارة هانوفر الناخبة في التاريخ هذه الحقبة بإيوائها ليبنتز وضمها إنجلترا. وفي 1685، تزوجت صوفيا أميرة بالاتين المخلوقة، وابنه اليزابيث ستيوارت (ملكة بوهيميا)، من ارنست أو غسطس، الذي أصبح ناخب هانوفر. وقد أربك علمها الواسع زوجها، فقد كانت تتحدث خمس لغات بطلاقة تكاد تكون تامة، وتعرف من التاريخ الإنجليزي أكثر مما يعرفه السفراء الإنجليز في بلاطها. وظلت حيناً تحتفظ في هانوفر بصالون يؤمه العلماء والفلاسفة. ولكنها كانت تتحرق شوقاً للحصول على عرش إنجلترا لولدها جورج: كان

صفحة رقم : 11112

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> إعادة تنظيم ألمانيا

دمها بختلج بالملوكية، لأنها لم تنس قط أنها حفيدة جيمس الأول. وفي 1701 قرر البرلمان الإنجليزي كما رأينا حق وراثته العرش لصوفيا و "ورثتها من دمها شريطة أن يكونوا من البروتستنتت". وتأملت في سرور مشهد ولدها حين يصبح جورج الأول، وفي كدر مشهد زوجته صوفيا دوروثياً ملكة له، وتطلعت في هدوء إلى فسخ زواجهما. وأشبه جورج في أن تكون زوجته خانتته مع الكونت فيليب فون كونزمارك، فقتل بأمره، وطلق صوفيا دوروثياً، وسجنها من 1694 إلى أن ماتت في 1726. وفي غضون هذا ماتت الناخبة الأرملة في يونيو 1714 وقد بلغت الرابعة والثمانين، قبل أن يهبط تاج إنجلترا على رأس ولدها بشهرين فقط. وكذلك يتصرف إله الحظ العظيم، من عرشه الكلي الوجود، في المصائر والدول والرجال.

صفحة رقم : 11113

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> الروح الألمانية

2- الروح الألمانية

كان اصطر اع الكاثوليكية والبروتستنتية على روح ألمانيا يخفف من غلوائه، لأن حرب الثلاثين جعلت من الأحقاد اللاهوتية "قياس خلف". وتحول إلى كنيسة روما في هذه الفترة بعض الأمراء البروتستنتت، ومعظم الفضل في هذا لإقناع اليسوعيين لهم. وتفوقت الكلفنية على اللوثرية التي نزعت إلى الدجماطية السكسولاستية الجامدة. وانتقاضاً على هذه الشكلية قبل كل شيء، انتشرت الحركة "التقوية" التي حاولت أن تستبدل بالطقوس الخارجية روحاً باطنية من الوحدة مع الله. وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر حمل جورج فوكس، ووليم بن، وروبرت باركلي، إنجيل طائفة "الكويكر" إلى ألمانيا، ولعل هذه الحركة التبشيرية شاركت في تطوير التقوية هناك، ونلاحظ إن كتاب فيليب يعقوب سبينر (1675pia desideria) صعد بعد زيارة بن الأولى بأربع سنوات. ذلك أن سبينر، بوصفه راعياً لكنيسة لوثرية في فرانكفورت-أممين، استكمل خدماتها بعبادات صوفية تؤديها اجتماعات خاصة (هيئات تقوية) في منزله. وقد أطلق اسم التقوى pietist، كلفظ البيورتان والمثودست، على هؤلاء العابدين نقادهم على سبيل السخرية، فقبلوه، وأصبح لهم شارة فخر متواضع. وتشبثوا في حرارة بأمال

صفحة رقم : 11114

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> الروح الألمانية

عصر السلام المرتقب (بعد مجيء المسيح) التي تعزت بها بعض الجماهير الألمانية خلال الحرب. ولم تكن فكرتهم عن المجيء الثاني للمسيح عقيدة لاهوتية غامضة، بل إلهاماً حاراً نشيطاً في حياتهم اليومية. ففي أي لحظة قد يظهر المسيح ثانية على الأرض، وسيهدئ صراع الأديان وينهي حكم القوة والحرب، وسيقيم "كنيسة روحية" خالصة، بغير تنظيم، ولا طقوس، ولا كهنة، تمارس في فرح مسيحية القلب السمحة الكريمة.

وواصل أوجست فرانكي الحركة تحديه غير الأنبياء، وتأثرت نساء كثيرات بمسحيته العملية وتطوعن في قضية التقوى الشخصية والبر العام. وبعد أن تأثرت الحركة بالبيورانية الإنجليزية واليهودية الفرنسية، أثرت بدورها في المثودية الإنجليزية والشعر الألماني، وأشعرت الناس بوجودها في أمريكا، حيث رحب بها كوتون ماذر برجاء فقال "إن العالم بدأ يشعر بدفع من النار الإلهية التي تضطرم على هذا النحو في قلب ألمانيا(8)". ولكن التقوية كالبيورانية أدت نفسها لأنها جعلت تقواها علنية ومحترفة، وتردت أحياناً في مهاوي الافتعال والرياء. فأغرقها في القرن الثامن عشر الطوفان العقلاني الذي تدفق من فرنسا.

وكان لانتصارات ريشليو، ومازاران، ولويس الرابع عشر، ولثراء البلاط الفرنسي وبهائه المتزايدين، أثر لا يقاوم في المجتمع الألماني خلال القرن التالي لصلح وستفاليا. وطغت النزعة العالمية حيناً على القومية. وسادت الأساليب الفرنسية قصور الملوك والأمراء في اللغة والأدب والغرام والعادات والرقص والفن والفلسفة والخمر والشعور المستعارة. ولم يتكلم الأرسقراطيون الألمان إلا بالألمانية إلا مع الخدم فقط. وكتب المؤلفون الألمان بالفرنسية للطبقات العليا أو باللاتينية للعالم المتقف. واعترف ليبنتنر، الذي كانت معظم كتاباته بالفرنسية، بأن "العادات الألمانية تحولت قليلاً إلى الأناقة والأدب" بالقوة الفرنسية، ولكنه حزن على حلول اللغة والعبارات الفرنسية محل الحديث الألماني، أو التسرب إليه(9).

صفحة رقم : 11115

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> الروح الألمانية

ولم يعش من كتب هذا العهد الألمانية سوى كتاب واحد باسمه "سمبلسوي سمبليسييموس" (1669) بقلم هانز فون جريملز هاوزن. وهو من حيث الشكل سيرة متشرد ذاتية، ذات أحداث مترابطة، لميلكيور فون فوشهايم، وهو إنسان ربع أحمق، وربع فيلسوف، ونصف وغد. أما من حيث الروح فهو هجاء فكه متشائم يهجو ألمانيا التي خلفتها ثلاثون عاماً من الحرب بين الحياة والموت. ويبدأ ميلكيور هذا ربيباً لفلاح يصف المؤلف حياته في عبارات مهذبة فيقول:- "كل سيدي يملك الغنم والماعز والخنازير بدلاً من الأتباع والخدم والسياس، وكانت كلها تتبعني في السباق حتى أسوقها إلى البيت. أما مخزن ذخائره فعامر بالمحاريث، والمعاول، والبلط، والفئوس، والمجارييف، ومذاري الروث والدريس، التي كان يمارس استعمالها كل يوم، لأن العزق والحفر هما تدريبه العسكري... واستخراج السباخ هو علم التحصينات عنده، وإمساك المحراث علم الاستراتيجية، وتنظيف الأسطبل تسلية ومباراته الفروسيتان(10)".

ولكن جماعة من الجند تسطو على هذا الفردوس الريفي، وتعذب الأسرة لتكرهها على البوح بسر مؤن مختزنة لا وجود لها. ويهرب ميلكيور ويلتجئ إلى ناسك عجوز يلقنه أول دروسه اللاهوتية. فإذا سئل عن اسمه أجاب "وغد أو رد مشانق" لأنه لم يسمع أحداً يدعو له بهذا الاسم، أما اسم متبنيه، جرياً على القاعدة ذاتها، فهو "صعلوك"،

وبلطجي، وكتب مخمور". ويقبض عليه الجند، فيأخذونه إلى قصر حاكم هاناو، وهناك يدرّب على أن يكون مهرجاً، ويطلق عليه اسم سمبليسيوس سمبليسيوس. ثم يختطف، ويصبح لصاً، ويعثر على كنز مخبوء، ويصبح جنرالاً، ويغوي فتاة، ويكره على زواجها، ثم يهجرها، ويعتق الكاثوليكية، ويزور قسبة الدنيا، ويخسر ثروته، ويعوضها بالشعوذة والتدجيل، ثم يضمنيه طول التجوال، فيعتكف ليحيا حياة ناسك كشف حقيقة الدنيا وخداعها. هذه "كانديد" أولى سابقة على قصة فولتير بقرن، والفرق أن هجاءها تُلطف منه الفكاهة الألمانية، ولا يجمله الذكاء الفرنسي. وندد النقاد بالكتاب، وأصبح من عيون الأدب، وأشهر ثمار الأدب الألماني بين لوثر وليسنج.

صفحة رقم : 11116

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> الروح الألمانية

على أننا لا يجب أن نتقبله صورة منصفة لألمانيا في الجيل التالي للحرب. فربما كان الألماني شديد الوله بالشراب، ولكنه احتفظ بروح فكاهته الفوار حتى في كنوس شرابه، وربما وصفته زوجته بالكلب المخمور، ولكنها أحبته لأنها لم تجد خيراً منه، وربت أبناءه تربية قوية متينة. وربما كان في ألمانيا ذلك العصر من الخلق السليم أكثر مما كان في فرنسا. وأية ذلك أن شارلوت اليزابيث المسكينة، أميرة بالاتين (1671) التي تزوجت على غير رغبتها بـ "المسيو" فليب أورليان أرمل "مدام" هنرييتا المنحرف جنسياً، لم تسَل قط جمال هيدلبرج الهادئ، وبعد أن عاشت ثلاثة وأربعين عاماً عيش غير مريح مع ترف البلاط الفرنسي، لم تقنأ تنقو إلى "صحن طيب من الكرنب والسجن المدخن" مؤثرة إياه كثيراً على ما تقدمه باريس أو فرساي من قهوة أو شاي أو كاكاو (11). ويدلنا وفاؤها الرواقى لزوجها الحقيق، وصبرها على الملك أخي زوجها الذي أمر أو أذن بتدمير بلاتينات، على أنه حتى وسط خرائب ألمانيا وجدت نساء استطعن أن يعلمن اللياقة والإنسانية للملوك المعطرين، الموشحين، المطرزين، اللابسين البواريك.

صفحة رقم : 11117

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> الفنون في ألمانيا

3- الفنون في ألمانيا

ثم إن هذا العصر كان من أكثر العصور إنتاجاً في العمارة الألمانية، على عكس كل التوقعات المعقولة، فقد شهد أول تفتح للباروك الألماني، الذي خلع واجهة جديدة من الفتنة والبهجة على كارلسروهي، ومانهايم، ودرسدن، وبايرويت، وفرتسبورج، وفيينا. وكان زمان البنائين أمثال يوهان فيشر فوخ إيرلاخ، ويعقوب برانتاور، ويوهان وكيليان

وكريستوف دينتسنهوفر، وأندرياس شلوتر، الذين كانت أسماؤهم خليقة بأن تشتهر بين الشعوب الناطقة بالإنجليزية اشتها رين واينجو جونز، لولا سجن الحدود وبلبله الألسن. على أن ما خلفوه دمر بعضه في غزوات الجيوش الفرنسية لألمانيا (1689)، وبعضه في الحرب العالمية الثانية(12). إن التاريخ سباق بين الفن والحرب. وارتفعت كنائس جميلة وسط الفقر والخراب. ويشين سجلنا هذا ألا نشير فيه إشارة ولو عابرة لكتندرائية يوهان دينتسنهوفر في فولدا أو

صفحة رقم : 11118

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> الفنون في ألمانيا

كنيسة ديريه في بانتر، أو لأشغال كريستوف وكيليان دينتسنهوفر في كنيستي القديسين نيقولا ويوحنا في براغ. وفي 1663 بدأ المعماري الإيطالي أجوستينو باريللي قصر نيمفينبورج خارج ميونيخ، وأكمل يوسف افنر داخله في مزيج موفق من العمد الكلاسيكية والزخرف الباروكي. لقد كانت الزينة هي الإغراء المتسلط على الباروك، واستعملت بإسراف في الفستزال أو صالة الاحتفالات في شلوس برلين، وفي جناح قيصر زفينجر الذي بناه في درسدن متاوس دانيال بوبلمان لأوغسطس القوي، هنا تحول الباروك إلى روكوكو جميل أنسب لداخل مخدع منه لواجهة قصر. وقد تهدم معظمه في الحرب العالمية الثانية، وكذلك شلوس شارلوتنبورج وشلوس برلين، وهو القصر الملكي الذي بدأه أندرياس شلوتر في 1698.

أما أبرز المثاليين الألمان في هذا العصر فهو شلوتر. فقد انتشت ألمانيا كلها بتمثال الفارس الراكب الذي صنعه للناخب الأكبر Der Grosse Kurfurst والذي لم تتل منه كل قتابل الحرب، والذي يرتفع الآن في ميدان شارلوتنبورج خارج برلين. وفي كونزبرج أقام شلوتر تمثالا لفردريك الأول عقب تتويجه ملكاً لروسيا، لا يقل روعة عن التمثال المذكور. ونحت يوليوس جليسكر رأساً للعذراء مريم، حزينة في صمت، لمجموعة تماثيل للمسيح المصلوب في كتندرائية بامبرج. وأظهر نقاشو الخشب مهارتهم في مقاعد المرتلين الرائعة في كلوستركيرشي بسيليسيا، ولكنهم غالوا في الأثاث المنقوش نقشاً مسرفاً والذي أمر بصنعه سادة فيهم من التفاخر أكثر مما فيهم من الذوق السليم.

ولم ينجب التصوير الألماني روائع في هذه الفترة، إلا إذا حسبنا من الروائع صورة ساحرة بريشة كريستوف بارديزو تسمى "شاب ذو قبعة رمادية(13)". وقطع النسيج المرسوم التي صممها رودلف بيس لقصر فورتسبورج من أبداع القطع. واشتهرت بلدة فارمرون-جينايبس سيليسيا الحارة-بزجاجها المصقول، وروجت درسدن استعمال "صيني درسدن". وكان أوغسطس القوي كذلك "ملك الفاشاني"، وحين عشر على أنواع مناسبة من الطفل قرب مايسين، أقام بها

صفحة رقم : 11119

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> الفنون في ألمانيا

(1709) القمانن التي أنتجت أول خزف (برسلان) صلب في أوروبا. على أن الموسيقى هي التي وجدت فيها الروح الألمانية أبرز تعبير لها، وكان هذا العدد بمثابة العشية التي بزغ بعدها صبح يوهان سبستيان باخ. أما الأشكال والآلات فجاءت من إيطاليا، ولكن الألمان سكبوا فيها عاطفتهم الرقيقة وتقواهم الضخمة. فبينما تفوقت إيطاليا في اتساق الأصوات، وفرنسا في الإيقاع الرشيق، تقدمت ألمانيا إلى مكان الصدارة في اللبدة (الأغنية الألمانية)، وموسيقى الأرغن، والكورال. وفي ألحان ج. ف. كريجر المسماة "12 سوناتا بكمانيين" (1688) نجد متتالية السوناتا قد أرسيت فعلاً في ثلاث حركات-الاليجرو (الأعجل)، واللارجو، (البطيء جداً)، والبريستو (السريع). وكانت موسيقى الآلات، المتطورة من رقصات (كالبافان، والسربنده، والجافوت، والجيج الخ) تعلن استقلالها عن الرقص والصوت جميعاً.

وكان الطلب على الموسيقيين الإيطاليين لا يزال كبيراً في ألمانيا. فملك كافاللي على ميونيخ، كما ملك من بعده فيفالدي على دارمشتات. واستوردت الأوبرا الإيطالية، وعرضت أول عرض لها في ألمانيا بتورجاو (1627)، وتلت ذلك عروض أخرى في ريجنسبورج، وفيينا، وميونخ. وكانت أول أوبرا ألمانية (Singspiel) هي "أدم وحواء" من تلحين يوهان تايلي، وقد أخرجت بهامبورج في 1678، ومنذ ذلك التاريخ ظلت هامبورج تنتزع الأوبرا والدراما الألمانيين طوال نصف قرن. هناك أنتج هندل "الميرا" و "نيرون" في 1705، و "دافني" و "فلورندا" في 1706، قبل أن يذهب لغزو إنجلترا. والاسم الكبير في الأوبرا الألمانية في ذلك العهد هو راينهارد كايزر، الذي أنتج 116 أوبرا لفرقة هامبورج.

وبعد 1644 انتزع المؤلفون الألمان مكان الصدارة من الإيطاليين في التأليف للأرغن والكنيسة. وعبرت ترانيم بأول جرهات عن عقيدته اللوثرية العنيدة. وسيطر يان راينكن على الأرغن في كنيسة "كانترينكرشي" بهامبورج من 1633 حتى وفاته عام 1722 في

صفحة رقم : 11120

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> الفنون في ألمانيا

الحادية والتسعين. وأصبح ديتريش بوكستيهودي، المولود بالدنمرك، عازف الأرغن في كنيسة مارينكريشي بلوبيك في 1668، واشتهرت حفلاته هناك، لا سيما حفلات "موسيقى المساء" التي جمعت بين الأرغن والأوركسترا والخورس، وذاع صيتها حتى أن باخ الكبير كان يمشي خمسين ميلاً من أرنشات إلى لوبيك ليسمعه وهو يعزف (14). وقد عاش نحو سبعين من الألحان التي وضعها للأرغن، وكثير منها ما زال يعزف، وقد أسهمت ألحانه الكورالية في تكوين أسلوب يوهان سبستيان. وسبق يوهان كوناو باخ عازفاً على الأرغن في كنيسة توماسكرشي بلييزج، وقد طور السوناتا للكلافير، ولحن ألحاناً (Partien) من نوع متتاليات باخ.

وأخذت أسرة باخ تدخل الآن عالم الموسيقى في خصوبة مذهلة. وقد وصل إلى علمنا أسماء نحو أربعمئة من آل باخ بين 1550 و1850: كلهم موسيقيون، وستون منهم يشغلون مراكز هامة في دنيا الموسيقى في زمانهم. وقد ألفوا نوعاً من النقابة العائلية التي تجتمع دورياً في مقارهم بأيزيناخ، أو أرنشات، أو ارفورت. وهم يؤلفون بلا جدال أكبر وأشهر أسرة في التاريخ الثقافي، ويثيرون الإعجاب لا لكثرة عدهم فحسب، بل لإخلاصهم لفنهم، ولثبات في الهدف جرمانى صيل، ولغزارة إنتاجهم وقوة تأثيرهم. ولم تبرز أسماؤهم في الحوالبات الموسيقية إلا في جيلهم الخامس، بظهور يوهان كرسدوف ويوهان ميكائيل باخ، ابني هينريش باخ، عازف الأرغن في أرنشات. وكان يوهان كرسدوف كبير عازف الأرغن في ايزناخ طوال ثمان وثلاثين سنة، رجلاً بسيطاً، جاداً، مدققاً في عمله، درب فرق الترتيل ولحن للأرغن ولالأوركسترا. وأصبح أخوه يوهان ميكائيل عازف الأرغن في جيرين في 1673، وظل هناك حتى مات في 1694، وأعطى خامس بناته زوجة أولى ليوهان سبستيان. وكان لكريستوف باخ أخي هينريش، وعازف

الأرغن في فيمار، ابنان كانا عازفي كمان، وأحدهما وهو أمبروزيوس كان أبا يوهان سبستيان. أما يوهان باخ، أخو هينريش وكريستوف، فكان عازف الأرغن في إيرفورت من 1647 إلى 1673، حين خلفه ابنه يوهان كريستيان باخ، الذي خلفه في 1682 أخوه يوهان اجيديوس باخ. وكان قوى الطبيعة كلها وجهت لنتجب وتعد يوهان سبستيان باخ.

صفحة رقم : 11121

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأترك العثمانيون

4- النمسا والأترك العثمانيون

إن في فيينا اليوم من الجمال ما يصعب معه علينا أن نتصور حالها عقب حرب الثلاثين، صحيح أن النمسا لم تقاس ما قاسته ألمانيا من ويلاتها، ولكن خزانها نضبت، وجيوشها تهللت، وهبط صلح وستفاليا بسمعة الأباطرة وقوتهم. على أن ظرفاً واحداً كان في صفها. ذلك أن ليوبولد الأول خلف أباه فرديناند الثالث على العرش الإمبراطوري في 1658 وظل متربعا عليه طوال سبعة وأربعين عاماً، ومع أن هذا الحكم الطويل سمع العثمانيين يقرعون أبواب فيينا مرة أخرى، فإن النمسا أخذت تقيق من كبوتها سريعاً. وكان ليوبولد ملكاً على الإمارات الألمانية اسماً لا فعلاً، ولكنه كان الملك الفعلي لبوهيميا وغربي المجر، وكان يحكم دوقيات اسنيريا، وكارنثيا، وكارنيولا، وكونتية التيرول. ولم يكن بالحاكم العظيم، كان يكذب ويكدر بشعور الواجب في الإدارة وتشكيل السياسة، ولكنه افتقر إلى الرؤية البعيدة التي أوتيتها أسلافه من آل هابسبورج، فلم يرث منهم غير لاهوتهم وشكل ذقونهم. وكان قد درب أصلاً للكهانة، ولم يفق قط حبه لليسوعيين، أو ينحرف كثيراً عن إرشادهم. ومع أن أخلاقه الشخصية كانت نقية لا عيب فيها، فإنه قبل المبدأ الذي يحتم جعل جميع رعاياه كاثوليكاً، ونفذ سياسته بأوتقراطية صارمة في بوهيميا والمجر. وكان ميالاً إلى السلم، ولكنه أكره أو سيق إلى سلسلة من الحروب بسبب اعتداءات لويس الرابع عشر والعثمانيين. وقد وجد فيهما بين عمليات إراقة الدماء هذه وقتاً للشعر والفن والموسيقى، ألف الموسيقى بنفسه، وشجع الأوبرا في فيينا، فعرضت بها أربعمئة أوبرا جديدة في السنين الخمسين التالية لاعتلائه العرش. وبدلنا نقش يرجع إلى عام 1667 على أن المدينة كانت تملك دار أوبرا فخمة، ذات ثلاثة صفوف من الألواح، وكل مقعد فيها مشغول. وهكذا نرى أن هذه الدعامة المبهجة للغناء قديمة جداً.

وعلى أن ننظر إلى النمسا في هذا العصر على أنها المدافع عن الغرب ضد تركيا المنبعتة من جديد، المعذبة بعداء أشد حكام الغرب بأساً، فقد عاق صراع العالم المسيحي مع العالم الإسلامي وشوشه ذلك النزاع القديم بين الهابسبورج وفرنسا. وزادت المجر المشكلة تعقيداً، لأن تلتها

صفحة رقم : 11122

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأتراك العثمانيون

الغربي فقط هو الذي خضع لحكم الإمبراطور، وكان جزء منه بروتستانتياً يتوق إلى التحرر. وكان للمجريين مشاعرهم القومية الخاصة بهم، والتي يغذوها أدبهم وما توارثوه من تقاليد يعترضون بها عن هونيادي يانوس وماتياس كورفينوس، وكان ميكولوس زريني قد نشر قبيل هذه الفترة (1651) ملحمة تقيض بحب الوطن. وكان المجريون الذين أهانهم وظلمهم الحكم النمساوي والتسلط الكاثوليكي تحدثهم نفوسهم بالترحيب بالعثمانيين حين قرر هؤلاء محاولة فتح المجر كلها.

وقد أوقفت سلسلة من الوزراء العثمانيين الأقوياء اضمحلال تركيا، وعاودوا إرهاب الغرب. ومن علامات الانتعاش إن شاعراً تركياً فحلاً اسمه "نبي" راح يتغنى بمدح الوزراء الذين أعقدوا عليه المال، علامة أخرى أن المال والوذك والورع التركي كلها تضافرت لتشييد جامع بيني-وليدي البديع في اسطنبول (1651-80). وعين السلطان محمد الرابع محمد كوبريلي صدراً أعظم (1656)، استهل وهو في السبعين من عمره نصف قرن من الحكم تربعت فيه أسرته الألبانية على دست الوزارة، ولم يدم استيزاره أكثر من خمس سنوات، ولكن في هذه الوزارة الخماسية أعدم بأمره 36.000 شخص لجرائم تتفاوت من السرقة إلى خيانة الدولة، وكان كبير جلاديه يشنق ثلاثة كل يوم في المتوسط. وأكره الخوف من العقاب المفسدين في الإدارة ودساسة السياسة في الحريم على الاعتدال، وأعيد النظام إلى الجيش، وخفف باشوات الولايات من استقلالهم واختلاساتهم. فلما تمرد جورج راکوكزي الثاني، أمير ترانسلفانيا، على السيادة العثمانية، اكتسح كوبريلي حركة التمرد بجيش يقوده بنفسه، وخلق راکوكزي، وفرض على البلاد تعويضاً باهظاً، وزاد الجزية التي تدفعها ترانسلفانيا للسلطان سنوياً من خمسة عشر ألف فلورين إلى خمسين ألفاً. وخلف هذا السبعيني الرهيب في الوزارة ابنه أحمد كوبريلي. فلما نشبت ثورة أخرى في ترانسلفانيا بقيادة يوحنا كيميبي، عززها ليوبولد بعشرة آلاف مقاتل يقودهم قائد فذ من قواد ذلك العصر هو الكونت الإيطالي ريموندو دي مونتيكوكولي. ورد أحمد بالزحف بجيش عدته 120.000 مقاتل تحت قيادته حاول به استكمال فتح المجر. وطلب ليوبولد المعونة، واستجابت الولايات الألمانية، البروتستانتية

صفحة رقم : 11123

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأتراك العثمانيون

والكاثوليكية على السواء، بالمال والرجال، وأسهم لويس الرابع عشر بأربعة آلاف جندي بعد أن تخلى عن تحالفه مع العثمانيين. ولكن المقاومة بدت أمراً مينوساً منه حتى بعد هذا كله، وتوقعت أوربا سقوط فيينا، واستعد ليوبولد للرحيل عن عاصمته. وكانت قوات مونتيكوكولي أقل كثيراً من قوات العدو ولكنها أفضل تزوداً بالمدافع. ولم يجرؤ على لقاء الترك في أرض مكشوفة تعطي ميزة للكثرة العددية، فناورهم ليحاولوا عبور نهر رابا عند زنتجوتارد، على نحو ثمانين ميلاً جنوبي فيينا، وهاجم كل كتبية تركية بمجرد وصولها إلى ضفة النهر اليسرى. وكتب النصر لإستراتيجته، وللبطولة الفذة التي قاتل بها أفراد الفرقة الفرنسية (أول أغسطس 1664)، في معركة أنفذت أوربا مرة أخرى من أن يغرقتها طوفان المسلمين.

ولكن، كما ترك انتصار ليبانتو قبل قرن من الزمان (1571) العثمانيين محتفظين بقوتهم مفيقين بسرعة من كيوتهم، كذلك اضطر الإمبراطور، بسبب قدرتهم على تعويض خسائرهم، وجيشهم الذي ما زال محتفظاً بضخامته، وعدم ثقة

ليوبولد بحلفائه التواقين إلى العودة لأوطانهم-اضطر إلى أن يبرم مع السلطان هدنة تمتد عشرين عاماً (10 أغسطس 1664)، ترك بمقتضاها معظم المجر تحت حكم الترك، واعترف فيها ليوبولد بالسيادة التركية على ترانسلفانيا، ودفع للسلطان "هدية" بلغت 200.000 فلورين. أما أحمد كوبريلي، الذي خسر المعركة وكسب الحرب، فقد عاد إلى القسطنطينية مكللاً بالغار.

وأنتهى هجوم لويس الرابع عشر على الأراضي المنخفضة (1667) مؤقتاً اتحاد العالم المسيحي ضد الترك. وفي 1669 تولى أحمد قيادة الحصار الطويل لكريت، وأكره البنادقة على تسليم الجزيرة، وسيطر الأسطول التركي مرة أخرى على البحر المتوسط. ولم يشعر حاكم غير يوحنا سوبيسكي، ملك بولندا، بأن لديه من الرغبة القوية ما يغريه بقهر تركيا. وقد أعلن عن هدفه في شجاعة فقال إن "مقارعة الهمجي غزواً بغزو، ومطاردته من نصر إلى نصر، على ذلك الحد نفسه الذي لفظه من أوربا... والقذف به إلى موطنه في الصحاري، وإبادته، وإقامة إمبراطورية بيزنطية على أنقاضه، هذه المغامرة

صفحة رقم : 11124

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأتراك العثمانيون

وحدها هي الجديرة بأن تسمى مسيحية، إنها دون غيرها السامية الحكيمة(15)". ولكن ليوبولد شجع الترك على مهاجمة بولندا، ولويس حرضهم على مهاجمة ليوبولد(16). ومات أحمد كوبريلي في 1676 وقد أنهك قواه وهو بعد في الحادية والأربعين الكثير من الهزائم الرائعة، بعد أن خسر "معارك فاصلة" ومد الأملاك التركية إلى أوسع مداها الأوربي. وخلع السلطان محمد الرابع منصب الوزارة على صهره قره مصطفى، الذي أبهج لويس الرابع عشر بوعده بتجديد الحرب على النمسا(17). وشج قره نشوب ثورة (1678) قام بها الوطنيون المجرين بزعامة امري توكولي، الذي ساءه قمع النمسا العنيف للروح القومية وللبروتستنتية في المجر النمساوية، حتى حمله هذا على عرض الاعتراف بالسيادة التركية على جميع أرجاء المجر إذا دعم الأتراك ثورته. أما ليوبولد فقد أقلع بعد فوات الوقت، عن سياسة القمع وأعلن التسامح الديني في المجر. وأرسل لويس الرابع عشر المدد المالي إلى توكولي(18)، ووعد سوبيسكي بالاستيلاء على سيليسيا والمجر إذا ربط بيو بولندا وفرنسا في حلف ضد الإمبراطور. أما ليوبولد فلم يكن في وسعه أن يعد سوبيسكي بأكثر من أرشيدوقه عروساً لابنه، ويتعهد بتأييد جهود سوبيسكي لجعل العرش البولندي في فرعه من الأسرة المالكة. ولسنا نعرف على التحقيق دوافع الملك إلى المبادرة بمساعدة النمسا على العثمانيين، وكل ما نستطيعه أن نقول إنها كانت من أعجب وأخطر الأحداث في التاريخ الحديث.

وأحس قره مصطفى أن الخصومات بين الهابسبورج والبوربون، وبين الكاثوليكية والبروتستنتية، تتيح له فرصة الاستيلاء على فيينا، وربما على أوربا بأسرها. وكان الترك يفاخرون بأنهم حولوا القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية قلعة إسلامية في القرن الخامس عشر، وحولوا كنيسة القديسة صوفيا جامعاً، فكذاك أعلنوا الآن أنهم لن يقفوا حتى يفتحوا روما ويربطوا خيلهم في صحن كنيسة القديس بطرس(19). وفي 1682 حشد قره مصطفى في أدرنة قواته ومؤنه التي أنته من الجزيرة العربية والشام والقوقاز وآسيا الصغرى وتركيا أوربا، وتظاهر أنه يخطط للهجوم على بولندا. وفي 31 مارس 1683

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأتراك العثمانيون

وبدأ السلطان والصدر الأعظم زحفهما الطويل على فيينا. وكان الجيش كلما تقدم يضم إليه الإمداد من كل ولاية تركية في طريقه، فانضمت إليه فرق من الأفلاق، وملدافيا، وترانسلفانيا، حتى إذا بلغ أوسبيك (اسزيك) على الدرافا كان يعد 250.000 مقاتل، ويحوي بين صفوفه الإبل والفيلة والمؤذنين والأغوات والحريم(20). هناك أذاع توكولي إعلاناً دعا فيه المسيحيين المحيطين بالمنطقة إلى عدم الهجوم على النمسا، وأمنهم على حياتهم وأملاكهم، ووعدهم بحرية العبادة في حمى السلطان. ففتح الكثير من المدن أبوابه للغزاة. وعاد ليوبولد يستغيث بالإمارات الألمانية ولكنها تباطأت. ووضع جنوده البالغ عددهم 40.000 تحت إمرة شارل الخامس دوق اللورين، الذي وصفه فولتير بأنه أنبل أمير في العالم المسيحي(21). وترك شارل حامية من 13.000 رجل في فيينا، ثم تقهقر إلى تولن، حيث انتظر وصول البولنديين. وفر ليوبولد إلى باساو، ولامه شعبه لأنه لم يعد عاصمة ملكه للحصار المرتقب منذ زمن طويل. فلقد كانت حصونها مهدمة، وحاميتها لا تبلغ عشر العدد الزاحف. وفي 14 يوليو ظهر الأتراك أمام المدينة. وبعث ليوبولد إلى سوبيسكي يرجوه أن يأتي فوراً قبل أن تصل مشاته البيطية الحركة قائلاً "إن اسمك وحده، الذي يرهبه العدو كثيراً، كفيل بالنصر(22)". وأقبل سوبيسكي بثلاثة آلاف فارس. وفي 5 سبتمبر وصلت مشاته وعدتهم 23.000 مقاتل. وبعد يومين وصل 18.000 مقاتل من الولايات الألمانية، فأصبح عدد جيش المسيحيين الآن 60.000. ولكن فيينا كانت آنذاك تتضور جوعاً، وقلاعها تنهوى تحت نيران المدفعية التركية، فما هو إلا أسبوع آخر من الحصار حتى تسقط المدينة. وفي صباح 12 سبتمبر الباكر، هاجم المسيحيون-الذين كانوا الآن تحت قيادة سوبيسكي العليا-الأتراك المحاصرين. ولم يكن قره مصطفى يصدق أن البولنديين أتون، ولا أن القوات المسيحية ستهمج أولاً، فلقد رتب كل شيء للحصار لا للمعركة، وزين ضباطه خنادقهم، بقطع النسيج المرسوم والقرميد، أما هو فزود خيمته بالحمامات، والنافورات، والحدائق، والمحظيات. وأخذ خيرة جنده على غرة في خنادقهم، فمزقوا إرباً إرباً. وشاعت الفوضى في جيشه

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأتراك العثمانيون

المخلط الذي جمعه من ولايات لا يثير حماسها ولاء السلطان البعيد، أمام المسيحيين الذين ألهمهم الشعور بأنهم ينقذون أوروبا والمسيحية. وبعد ثماني ساعات قطع الظلام القتال. فلما بزغ الفجر الجديد وجد المسيحيون الذين ما زالوا غير واثقين من النصر لشدة فرحهم-أن الأتراك قد لانوا بالفرار مخلفين وراءهم 10.000 قتيل ومعظم معدات الجيش في المعسكر. أما المسيحيون ففقدوا 3.000 رجل. وأراد سوبيسكي أن يطارد الترك، ولكن الجنود البولنديين رجوه أن يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم بعد أن أدوا مهمتهم. ودخل الملك الظافر فيينا وكترائيتها ليقدم الشكر لله، وفي طريقه هتف له الشعب العارف بصنيعه منقذاً من السماء،

وناضل أفرادهم ليلمسوا ثوبه ويقبلوا قدميه(23)، وأحسوا أنه ما من شيء في سجل الفروسية يفوق مآثرته تلك. فلما عاد ليوبولد إلى عاصمته (15 سبتمبر) لم يلق غير استقبال فاتر من أهلها. وسأل معاونيه هل حدث أن استقبل إمبراطور مجرد ملك منتخب، وما المراسم التي يجب إتباعها في هذه الحالة. وتباطأ في لقاء سوبيسكي، وأخيراً حياه شاكرًا له صنيعه شكرًا متواضعًا، وقد توجس ما أن يكون الدافع للبطل في رغبته في مطاردة الترك خطة لاقتطاع مزيد من الملك لنفسه ولأسرته(24). فلم تبدأ المطاردة إلا في 17 سبتمبر، ولم يلتحم الجيش بالترك المتقهقرين إلا بعد ذلك بعشرة أيام. وعند باركاني، قرب الدانوب، أحرز سوبيسكي وشارل انتصارًا حاسمًا آخر. ثم قاد الملك جيشه عوداً إلى بولندا بعد أن أنهكه السير والقتال والدوزنتاريا، فدخل كركاو في ليلة ميلاد 1683. وفي اليوم التالي أعدم السلطان قره مصطفى.

وألفت النمسا وبولندا والبندقية، بإلحاح البابا إنوسنت الحادي عشر، عصبة مقدسة لمواصله الحرب ضد الترك (1684). وفتح فرانشيسكو موروزيني المورة (البلوبونيز) للبندقية، وفي 1686 حاصر أثينا واستولى عليها في 28 سبتمبر، وأثناء هذا الحصار دمرت مدفعيته البروبيليا والبارتينون، اللذين استعملهما الأتراك مخزناً لبارودهم. وقد استعاد الترك أثينا وأتيكا في 1688، والمورة في 1715. وفي غضون هذا هزم شارل اللوريني الترك في جران (اترجوم) في 1685، وفي السنة نفسها، وبعد عشر أيام من

صفحة رقم : 11127

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأتراك العثمانيون

الحصار، استولى على بودا-عاصمة المجر القديمة-التي كانت في قبضة الأتراك منذ 1541. وفي 1678 قاد شارل القوات النمساوية إلى النصر في هاركاني، قرب موهاكس، حيث استهل انتصار سليمان القانوني عام 1526 عصر التفوق العثماني. وأنهت معركة "موهاكس الثانية" هذه سلطة الأتراك في المجر، التي أصبحت الآن ملكاً للملكية النمساوية. واعترفت ترانسلفانيا بسيادة الإمبراطور الهابسبورجي، وأدمجت (1690) في الإمبراطورية النمساوية-المجرية. وفي 1688 استولى ماكس إيمانويل البافاري على بلغراد. وأعلن ليوبولد أن الطريق أصبح الآن مفتوحاً على القسطنطينية، وأنه قد أن الأوان وواتت الفرصة لطرد الأتراك من أوروبا.

ولكن لويس الرابع عشر خف لنجدتهم. ذلك أن حرب البوربون مع الهابسبورج كانت في نظر ذلك "الملك المسيحي جداً" أهم من الصراع بين المسيحية والإسلام. وكان يرقب في غيرة متزايدة انتصارات العصبة المقدسة واتساع ملك الهابسبورج وعلو مكانتهم. وفي 1688، استأنف حربه مع الإمبراطور، ضارباً صفحاً عن إبرامه هدنة عشرين عاماً معه قبل ذلك بأربع سنين فقط، وأرسل جيشاً إلى البالاتينات. فأرسل ليوبولد شارل وماكس إيمانويل لملاقاة الهجوم على الراين، وتوقف الزحف على الترك، وتجدد الهجوم التركي.

واستوزر السلطان الجديد، سليمان الثاني، رجلاً آخر من أسرة كويريلي هو مصطفى أخو أحمد. وهذا مصطفى خواطر المسيحيين في تركية أوروبا بتوسيعه حرية العبادة، ونظم جيشاً جديداً، واستولى على بلغراد من جديد (1690). ولكنه قتل بعد سنة، ودحر الأتراك عند سلانكامين. وتولى السلطان مصطفى الثاني قيادة الجيش بشخصه، ولكن المسيحيين هزموه في سنتا (1697) وكان يقودهم أوجين أمير سافوي. وطلب مصطفى الصلح، وأبرم ليوبولد معاهدة كارلوفتتر (1699) مع تركيا وبولندا والبندقية، مغتبطاً لأن يده أطلقت في محاربة لويس. ونزلت تركيا عن كل دعاواها في ترانسلفانيا والمجر (فيما عدا "بنات" تيميسفار) ونزلت عن غربي أوكرانيا لبولندا، وسلمت المورة ودمباشيا الشمالية للبندقية. واحتفظت بالبلقان كله-دمباشيا الجنوبية، والبوسنة، والصرب، وبلغاريا،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأترك العثمانيون

ورومانيا، ومعظم اليونان، ولكن المعاهدة عينت نهاية الخطر التركي على العالم المسيحي. ترى ما الذي هوى بقوة العثمانيين من أوجها أيام سليمان القانوني؟ ليس كالنجاح شيء يتعرض للسقوط. لقد كانت فرص المتعة التي أتى بها النصر والثورة شديدة الإغراء، فبدد السلاطين في الحريم ما كانوا في حاجة إليه من طاقة وهمة لضبط الجيش والموظفين والوزراء. واتسعت دولتهم اتساعاً حال دون إدارتها إدارة فعالة، ودون سرعة توصيل الأوامر ونقل الجنود، وكان يحكم الولايات باشوات جعلهم بعد الشقة بينهم وبين الأستانة مستقلين تقريباً عن السلاطين. ولم يعد الجوع يحفز الترك، ولا الأعداء يهددونهم، فتردوا في مهاوي الكسل والفساد، وأفسدت الرشوة الحكم وأشاع غش العملة فوضى في الاقتصاد والجيش. وتمرد الانكشارية المرة بعد المرة على رؤسهم المدفوعة بعملة هبطت قيمتها، واكتشفوا سطوتهم، فاستغلوا كلما تعاضمت. وظفروا بحق الزواج، وحصلوا لأبنائهم وغيرهم على الإذن بالانخراط في سلاحهم الذي كان من قبل وقفاً على النخبة المنتقاة، وتكروا للتدريب والنظام الصارمين اللذين جعلوا الانكشارية صفوة المقاتلين في أوروبا. أما قوادهم الذين أصبحوا خبراء في لذات الجنس، فقد فشلوا في ملاحقة العلوم والأسلحة الحربية. وبينما كان الغرب المسيحي يصنع مدافع أفضل، ويطور استراتيجيات وتكتيكاً أرقى، في صراع الحياة والموت الذي دار على ساحات حرب الثلاثين، وجد الأتراك، الذين كانوا تحت إمرة محمد الفاتح يملكون أفضل مدفعية في العالم وجدوا أنفسهم كما حدث في ليبانتو متخلفين في قوة النيران والاستراتيجية. وأرهقت الحرب، التي قوت من قبل الدولة العثمانية يوم كان السلاطين يقودون جيوشهم بأنفسهم- هذه الحرب أرهقت الدولة حين أثروا انتصارات الحريم السعلة على مشاق المعركة. وكان لسيطرة الإيمان القدي، غير التقدمي، على الحياة والفكر أثرها في خنق العلوم الإسلامية التي كان لها القدر المعلي في العصور الوسطى، وازدادت المعرفة في الغرب وتخلفت في الشرق. وحسن المسيحيون بناء سفنهم وأصلحوا مدفعيتهم وامتدت تجارتهم إلى جميع القارات، نشق لها طرقاً جديدة في العباب، بينما كانت معظم

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأترك العثمانيون

التجارة العثمانية تزحف في قوافل على اليابس. وترك الحكام الكسالى السقايات والقنوات تبلى، بينما الفلاحون الذين قبلت الحرب حياتهم ينتظرون المطر في ذل ومسكنة. واتخذ مسار الإمبراطورية طريقه غرباً، إلى أن وجد نفسه ثانية في الشرق يوماً وهو لا يزال يتحرك غرباً.

وكان رد الأتراك على عقابهم معناه بالنسبة للغرب الدعوة لحرب داخلية طاحنة. ذلك أن النمسا وألمانيا تحولتا بعد تحررها من ضغط الإسلام عليهما لمواجهة أطماع لويس الرابع عشر، الذي كان يمد ذراعيه في الأراضي المنخفضة، وأراضي الراين، والبلاتينات، وإيطاليا، وأسبانيا. وأكملت هذه اللطمات الآتية من الغرب تفكك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فلم يبق منها غير الصورة. وانتهى الأمر بالإمبراطور إلى النظر إلى نفسه على أنه نمساوي لا روماني، وحلت الإمبراطورية النمساوية-المجرية محل الرومانية المقدسة. وجعلت العروش الثلاثة-عروش النمسا، والمجر، وبوهيميا-وراثية في أسرة هابسبورج (1713)، فألغيت حقوق الولايات البوهيمية والمجرية التقليدية في انتخاب ملوكهم. وعادت المجر إلى الثورة (1703-11) بزعامة فرنسيس راكوزي الثاني، ولكن الثورة أخمدت، تاركة الحنين إلى الحرية يتردده صدهاء في الشعر والأغاني.

وسخرت النمسا اقتصاديات المجر وبوهيميا لمنفعتها الخاصة، وتمتعت طبقاتها العليا بثراء جديد. وارتفعت القصور الفاخرة للأرستقراطية، وأسكنت الكنائس الجميلة والأديار الضخمة القساوسة والرهبان المنتصرين. وأعد الأمير بال استر هازي بناء قلعته الكبرى في ايزتشتات، حيث سيقود هايدن يوماً فرقة الموسيقى ويؤلف ألقانه. وفي فيينا صمم دومنيكو مارتنيلي قصر ليشنتشتين، وقصر بلفدير لأوجين أمير سافوي. وبنى يوهان فيشر فون ايرلاخ لهذا الأمير ذاته قصوراً شتوياً فاخراً، ووضع الخطط للمكتبة الملكية، والقصر الإمبراطوري في شونبرون. وفي 1715 بدأ أعظم معماري النمسا هذا

صفحة رقم : 11130

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الإمبراطورية المتغيرة -> النمسا والأتراك العثمانيون

عمله في كنيسة كارلسكرشي بفيينا، بطراز كنيسة القديس بطرس بروما. وعلى ضفاف الدانوب على نحو أربعين ميلاً غربي فيينا شاد يعقوب برانتاور دير "كلوسترميلك" أكبر الأديار البندكتية وأروعها في الأراضي الألمانية، وهذا أوج الباروك النمساوي. وفي أعقاب الانتصار صمم يوهان ارنست تون، رئيس الأساقفة الكفاء الوجيه، حديقة ميرابيل الشهيرة بسالزبورج، وجملها بمنحوتات من صنع فيشر فون ارلاخ. وهكذا تحركت النمسا في كبرياء وأبهة إلى أعظم قرن في تاريخها.

صفحة رقم : 11131

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> إيطاليا الكاثوليكية

الفصل الخامس عشر

1- إيطاليا الكاثوليكية

من حكمة الفلاح الصامته أن في الإمكان إصلاح التربة التي كاد يرهقها الثمر الوفير بإزاحتها فترة، وربما بحرثها دون زرعها. وهكذا استراحت إيطاليا بعد خصوبة النهضة التي أرهقتها. وأبطأ تدفق حيويتها العارمة، وكأنها تستجمع قوتها لمزيد من جلائل الأعمال. فعلينا إذن أن لا نتوقع من إيطاليا هذا العصر والعصر التالي له بين برنيني وبونابرت ثماراً كتلك التي تدفقت من معينها الفيض في قرونها الذهبية. إننا نلم بها هنا مرة أخرى، قانعين إذا استطعنا بين الحين والحين أن نسمع في مدنها التي تردد أصداء التاريخ أصواتاً صغيرة تشهد بحياة لم تتطفئ جذوتها. وكانت لا تزال كاثوليكية بطبيعة الحال، فذلك من صميم روحها، ولا سبيل إلى انتزاعه منها دون انتهاك لروحها. كان فقراؤها يظلمهم الأغنياء، الذين هيمنوا بالطبع على الحكومات وشرعوا القوانين. وعلل الأغنياء هذا الظلم بأن الفقراء سيصبحون مشاغبين وقحين إذا رفعت أجورهم. أما النساء فكان يستغلن الرجال والشعب، إلا أن يكن في ربيع حسنهن. في هذه الأحوال كانت طبقات الشعب الدنيا، والجنس الأضعف آنذاك، تجد عزاء في خدمة الكنيسة. وكان إيمانها بالعدل الإلهي سندا يعزيها عن قسوة الإنسان، وكانت خطايا أسنتهم الحادة وجسدهم الوثني يغتفرها دون تردد القساوسة المتسامحون والرهبان اللطفاء الذين أطعموهم والرجاء يملأ نفوسهم. وكانوا شاكرين لما تخلل أيامهم المثقلة بالأعباء من أعياد ومهرجانات مريحة يحتفلون فيها بذكرى قديسيهم الحامين. وأمنوا بأن قديسيهم، والأم العذراء الرحيمة، سينقذونهم من أحوال الجحيم بتشفعهم أمام عرش

صفحة رقم : 11132

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> إيطاليا الكاثوليكية

الله، وبأن الغفرانات التي توزعها الكنيسة ستقصر مقامهم في المطهر، وأنهم سيدخلون، إن عاجلاً أو آجلاً، فردوساً. يفوق جماله حتى جمال إيطاليا لن يكدر صفوه ملاك، ولا ضرائب، ولا عشور، ولا حرب، ولا حزن، ولا ألم. وهكذا احتملوا بصبر، ومرح، وغناء، ابتزازات كهنتهم الذين لم يخل منهم مكان، والذين التهموا على الأقل ثلث إيرادات الأمة. وأحبوا كنائسهم كأنها من جزر السلام وسط حرب الحياة. وتأملوا بهاء كنيسة القديس بطرس وفخامة

الفاتيكان في فخر لا يخالطه استيلاء ولا غيظ، فتك حصيلة دراهمهم ونتاج فنانيتهم، وهي ملك للفقراء أكثر من الأغنياء، وهي في نظرهم ليست أفخم من أن تكون مثنوى لأول الرسل (بطرس)، أو مسكناً لزعيم العالم المسيحي، خادم خدام المسيح. وإذا كان ذلك الأب الأقدس يعاقب الهجمات إلى توجه للكنيسة، فما ذلك إلا ليمنع الحمقى من تدمير صرح الأخلاق القائم على العقيدة الدينية، ليصون ذلك الإيمان الذي جعل من نثر الكد والشقاء ملحمة شعرية. أما ديوان التفتيش الإيطالي فكان رحيماً نسبياً في هذا العصر. وأشهر ضحاياه قس أسباني يدعى مجويل دي مولينوس. ولد في سرقسطة، وسكن روما. وفي 1675 نشر كتابه "المرشد الروحي" الذي يزعم فيه أنه وإن كان التعبد للمسيح والكنيسة معيناً على بلوغ أسمى الحالات الدينية، إلا أنه يجوز للعابد الذي انقطع للاتصال المباشر بالله أن يتجاهل وهو مطمئن كل الوساطات الكهنوتية والطقوس الكنسية. وفي نبذة أخرى رأى مولينوس أنه لا حرج على العابد الوائق من تحرره من الخطيئة الأخلاقية في أن يتناول القربان دون أن يعترف للكاهن قبل تناول. واجتذب "مرشد" مولينوس النساء على الأخص فالتهمت نصيحته المنات-ومنهن الأميرة بورجيزي والملكة كرسنتينا، وأرسلن له الهدايا. واعتقت راهبات كثيرات هذه "الهدوية" الجديدة، ونبذن أوراذهن، واستغرقتن في صلاة فخور بالله. وشكا العديد من الأساقفة الإيطاليين من هذه الحركة التي قللت من شأن الخدمات والتبرعات الكنسية، وناشدوا البابا إنوسنت الحادي عشر أن يقمعها(1). وهاجم اليسوعيين والفرنسيسكان مولينوس لأنه أكد على

صفحة رقم : 11133

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> إيطاليا الكاثوليكية

الإيمان دون "الأعمال" تأكيداً يكاد يكون بروتستنتياً. وبسط عليه البابا حمايته حيناً، ولكن ديوان التفتيش الروماني قبض عليه في 1685، ثم على نحو مائة من أتباعه. وكان قد جمع أربعة آلاف كراون ذهبي (50.000 دولار؟) يفرضه رسماً صغيراً على المشورة التي يبذلها لمراسليه، ونستطيع الحكم على عدد هؤلاء المراسلين من تكاليف البريد على الخطابات التي تسلمها في يوم القبض عليه، والتي بلغت ثلاثاً وعشرون دوكاتية (287.50 دولاراً؟)(2). وبعد أن فحص ديوان التفتيش السجناء وضع قائمة بالتهم الموجهة إليهم، وأهمها أن مولينوس برر تحطيم صور المسيح المصلوب والتماثيل الدينية لأنها تعوق هدوء الاتحاد بالله، وأنه تبط هم الأشخاص الذين أرادوا نذر أنفسهم للدين أو الالتحاق بالطرق الدينية، وأنه قاد تلاميذه إلى الاعتقاد بأن لا شيء يأتيه بعد بلوغهم الاتحاد بالله يمكن أن يكون خطيئة. ولعله اعترف تحت ضغط السجن، أو التعذيب، أو الخوف، بأنه اغتقر تحطيم الصور، وبأنه ثنى الأشخاص الذين رأهم لا يصلحون للرهبنة عن نذر أنفسهم لها، واعترف بأنه ظل سنين كثيرة يمارس "أكثر الأعمال خروجاً على اللياقة مع امرأتين"، وأنه "لم ير ذلك إثمًا بل تطهيراً للنفس"، وأنه بذلك "استمتع باتحاد أوثق مع الله"(3). وأدان ديوان التفتيش ثمانين وستين دعوى وجدها في كتاب مولينوس أو رسائله أو اعترافاته، وفي 3 سبتمبر 1678 وجه إليه الاتهام في احتفال عام مما يحرق فيه المهرطقون auto-da-f (وحضر جمع كبير، وطالبوا بحرقه، ولكن المحكمة قنعت بالأمر بسجنه مدى الحياة. وقد مات في السجن في 1697. ولعلنا نتعاطف أكثر مع "المهرطقين" الألبين الذي بكاهم ملتن في سونيتة سماها "حول المذبحة الأخيرة في ببيدمونت". وبيان ذلك أنه كان يسكن الأودية الرابضة بين ببيدمونت السافواوية ودوفينه الفرنسية قوم يدعون الفودوا، هم حفدة "الفالدينز" الذين سبقوا حركة الإصلاح البروتستنتي وعاشوا بعدها، والذين احتفظوا بعقيدتهم البروتستنتية خلال عشرات التقلبات التي طرأت على القانون والحكومة.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> إيطاليا الكاثوليكية

وفي 1655 انضم الدوق شارل ايمانويل الثاني أمير سافوي إلى لويس الرابع عشر في تنظيم جيش لإكراه هؤلاء الفودوا على اعتناق الكاثوليكية. وأثارت المذبحة التي أعقبت ذلك سخط كرومويل، فحصل من مازاران على أمر بوقف هذا الاضطهاد. ولكن بع موت حامي الجمهورية (كرومويل) والكردينال (مازاران) تجدد الاضطهاد، فلما ألغى مرسوم نانت استأنفت الدولة الفرنسية جهودها في استئصال البروتستنتية من الإقليم. وألقى الفودوا السلاح على وعد بالعمو العام، وما لبث ثلاثة آلاف منهم، مجردين من السلاح، وفيهم النساء والأطفال والشيوخ، أن ذبحوا ذبح الأنعام (1686). وسمح للباقيين منهم على قيد الحياة، الذين أبوا اعتناق الكاثوليكية، بالهجرة إلى أرباض جنيف. ثم جاء دوق آخر لسافوي يدعى فيكتور أمادوس، وجد نفسه في مشكال السياسة حليفاً لفرنسا بل عليها، فدعا الفودوا للعودة إلى أدينتهم (1696). فعادوا، وقاتلوا تحت لوائه وسمح لهم بعدها بعبادة المجهول على طريقتهم المؤمنة. أما الفقراء فكانوا في الولايات البابوية يعانون فقر إخوانهم في كل مكان بإيطاليا وكانت الإدارة البابوية (الكوريا)، كأى حكومة، تقرض الضرائب على رعاياها إلى الحد الذي يهبط بعائدها، فلم يتح لها قط من المال ما يكفي لأغراضها وموظفيها. وقد أذر الكردينال ساكيتي البابا اسكندر السابع (1663) بأن جباة الضرائب يفقرون السكان حتى يشرفوا بهم على حافة اليأس، فقال: "إن أفراد الشعب، الذين لم يعودوا يملكون من الفضة أو النحاس أو الثياب أو الأثاث ما يشبع جشع الجباة، سيضطرون على بيع أنفسهم ليلبوا المطالب الثقيلة التي فرضتها عليهم الكاميرا (الغرفة التشريعية للكوريا(4))." وشكا الكردينال من الرشوة في القضاء البابوي، ومن الأحكام التي تباع وتشرى، والدعاوي التي يطول نظرها سنين عديدة، والعنف والطغيان يعانينها الخاسرون الذين يجرعون على استئناف الحكم من موظف أدنى إلى آخر أعلى. يقول ساكيتي "إن هذه المظالم أفدح من تلك التي نكب بها بنو إسرائيل في مصر... يعملون معاملة أكثر وحشية من معاملة العبيد في سوريا أو أفريقيا. فمنذا يستطيع أن يشهد

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> إيطاليا الكاثوليكية

هذه الأشياء دون أن يذرف عليها دموع الحزن والأسى(5)؟" وفي وسط فقر الجماهير كان العديد من السر النبيلة التي تربطها رابطة القرابة بالبابوات أو الكرادلة يتلقى الهبات السخية من إيرادات الكنيسة. أما بابوات هذا العهد لم يكونوا زهاداً كبيوس الخامس، ولا رجال دولة كسيكستوس الخامس، إنما كانوا في العادة قوماً طبيين، أضعف من أن يتغلبوا على الرذائل البشرية المحيطة بهم، أو يراقبوا مئات الثغرات والأركان التي ينفذ من خلالها أو يختبئ فيها الفساد في إدارة الكنيسة. ولعل أي مؤسسة بلغت هذا المبلغ من الاتساع وكثرة الواجبات لا يمكن وقايتها من الأخطاء الملازمة لطبيعة الإنسان. وقد جاهد إنوسنت العاشر، (1644-55)، "النقي الحياة المستقيم المبدأ(6)" ليخفف من ثقل الضرائب، ويكبح استغلال النبلاء الجشعين للإيرادات البابوية، ويصون النظام والعدل في ولاياته. وتبدو عليه كما صورته فيلاسكويز كل مظاهر الخلق القوي، ولكنه سمح لغيره بأن يحكموا نيابة عنه، وترك

أوليمبيا مايد الكيني، زوجة أخيه الجشعة الطموح، تؤثر في تعييناته وسياساته، فكان الكرادلة والسفراء يتدللون أمامها، وأثرت من هداياهم ثراءً صارخاً، ولكن لما مات إنوسنت زعمت أنها أفقر من أن تنفق على مآتمه (7). وروي أن كرديناً قال في مجمع الكرادلة الذي اختار خليفته "يجب أن نبحث عن رجل أمين هذه المرة (8)". وقد وجدوه في شخص فايبيو كيجي، الذي أصبح الإسكندر السابع (1655-67). وقد بذل قصاراه ليظهر الإدارة البابوية من الفساد وتعطيل الأعمال، ونفى أبناء أخيه النهمين إلى سبينا، وخفض الدين العام. غير أن الفساد الذي أحاط به كان أوسع وأعم من أن يستطاع قهره. فألقى السلاح، وسمح لأبناء أخيه بالعودة إلى روما، وخلع عليهم المناصب المجزية، فجمع أحدهم بعد قليل ثروة طائلة (9). وانتقلت القوة من يدي الإسكندر المتعبدتين إلى الكرادلة، الذين طالبوا بالمزيد من السلطة في حكم الكنيسة. ورحلت أرستقراطية من الأسر تفخر بكرادلتها محل الملكية المطلقة التي تبنتها مجمع ترنت من قبل البابوات.

صفحة رقم : 11136

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> إيطاليا الكاثوليكية

وجدد كلمنت التاسع (1667-69) الكفاح ضد محاباة الأقرباء. وسمح لأقربائه ببعض الامتيازات المتواضعة ولي ظهره لطلاب المناصب. وأقبل المئات من مسقط رأسه بيسوتوا، واثقين من أنه سيعينهم على الإثراء، ولكنه ردهم، فهجوه هجواً ساخرًا، وهنا أيضاً ندرك أن طبيعة البشر واحدة سواء في الظالم أو المظلوم، وأن الناس هم أس البلاء المحيط بهم. وكان البابا الجديد رجل سلام وعدل. فبينما أصدر سلفه بتحريض من لويس الرابع عشر مرسوماً مثيراً للمتعاب ضد الجانسينيين، عرض كلمنت هدنة في ذلك النزاع الشائب داخل الكنيسة. ومن أسف أنه مات ولم يقض في دست الحكم غير عامين.

وخلفه كلمنت العاشر (1670-76) وهو في الثمانين، فترك الأمور للكرادلة (كما رتبوا الأمر من قبل)، ولكنه أنهى عهده دون عيب يعيبه. وجاء إنوسنت الحادي عشر (1767-89) وكان -كما قال رانكي البروتستنتي- رجلاً "تفرد بتواضعه... غاية في دماثة الخلق وهدوء الطبع"، مدققاً في مسائل الأخلاق حازماً في شئون الإصلاح (10). وقد أبطل "كلية" الموثقين الرسولين التي قال مؤرخ كاثوليكي "إن التعيينات فيها كانت تباع وتشتري بانتظام (11)" وألغى الكثير من المناصب والامتيازات، والإعفاءات، (التي لا فائدة منها) ووازن الميزانية البابوية لأول مرة في سنوات كثيرة، وأرسي للنزاهة المالية سمعة مكنت الإدارة البابوية من اقتراض المال بفائدة لا تزيد على 3%. كتب فولنتير يقول عنه "كان رجلاً فاضلاً، وحبراً حكيماً، ولاهوتياً ضعيفاً، وأميراً شجاعاً، قوي العزيمة، جليل القدر (12)". وقد حاول عبثاً أن يخفف من تعجل جيمس الثاني في كتلكة إنجلترا، وأدان العنف الذي استعمله لويس الرابع عشر ضد الهيجونوت، وقال، "إن الناس يجب أن يهدوا إلى دور العبادة لا أن يجروا إليها جراً (13)" ولم يجد ما يدعوه لمحبة ذلك الملك المتكبر الذي ادعى لنفسه من السلطة المطلقة على الكنيسة في فرنسا ما يقرب من السلطة التي أكدها هنري الثامن لنفسه في إنجلترا. ولكي يقلل إنوسنت الحادي عشر من الجرائم في روما ألغى حق اللجوء الذي سبق منحه لمساکن السفراء، وأصر لويس على الاحتفاظ بذلك الحق لمبعوثيه،

صفحة رقم : 11137

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> إيطاليا الكاثوليكية

بل للشوارع المجاورة للسفارة الفرنسية، وفي 1678 دخل سفيره روما بفوج من الفرسان ليفرض بالقوة مطلب الملك وويخ البابا السفير، وأوقع حرماً على كنيسة القديس لويس التي كان يصلي فيها السفير في روما. واحتكم لويس إلى مجمع عام، وسجن ممثل البابا في فرنسا، واستولى على إقليم أفنيون الذي كان ملكاً للبابا منذ 1348. ومن هنا نظرة إنوسنت الحادي عشر الهادئة المطمئنة إلى الحملة التي جردها وليم أورنج الثالث، البروتستنتي، لخلع جيمس الثاني الكاثوليكي وإدخال إنجلترا في حلف ضد فرنسا. وقد تعاون البابا مع جهود ليبنتز لإعادة الوحدة بين الكاثوليكية والبروتستنتية، ووافق على تنازلات أعلنت جامعات ألمانيا البروتستنتية رضاه عنها، وقد وصفه أحد الإنجليز بأنه "بابا بروتستنتي(14)".

وتوفي إنوسنت الحادي عشر قبل أن يشهد انتصار أهدافه، ولكن خلال بابوية الاسكندر الثامن (1689-91) وإنوسنت الثاني عشر (1691-1700) تخلى السفير الفرنسي عن حق اللجوء، وردت أفنيون للبابوية، ونقل الأكليروس الفرنسي لواءه من الملك على البابا وإعادة الحلف الأعظم توازن القوى ضد فرنسا العدوانية. وفي حرب الوراثة الأسبانية وجد كلمنت الحادي عشر (1700-21) نفسه وقد تورط في انقسامات أوروبا العنيفة، فكان يلقي بنفوذه متردداً تارة في جانب وتارة في جانب آخر، وفي النهاية اقتسم الملوك الأسلاب دون أن يستشيروه حتى صقلية وسرديانيا، وهما قنياً - إقطاعان بابويتان. كذلك كانت معاهدة وستاليا قد تجاهلت احتجاجات إنوسنت العاشر. لقد استلزم اشتداد النزعة القومية إضعاف البابوية، وأسهمت هذه النزعة مع نمو العلم في تشجيع العلمانية والتهوين من دور الدين في الحياة الأوروبية.

صفحة رقم : 11138

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> الفن الإيطالي

2- الفن الإيطالي

أحس الفن كما أحست السياسة بهذه المنافسة المشتدة بين شئون الدنيا وشئون الدين. كان رجال الكنيسة لا يزالون أغنى رعاة الفن، يوصون بالمباني، والصور والتماثيل، والزخارف، ولكن الأرستقراطية

صفحة رقم : 11139

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> الفن الإيطالي

استكثرت الآن من القصور بأسرع من الكنائس، وتوددت إلى الأجيال القادمة بالصور، وأهدتها مجموعات من التحف الفنية. وفي إيطالية القرن السابع عشر جرى تيارا الرعاية هذان جنباً إلى جنب في انحدار بهي من النهضة الأوربية. وكانت تورين تتخذ طريقها إلى الثراء تحت حكم أدواق سافوي. وقد صمم جوارينو جواريني لكندرائية سان جوفاني باتيستا "كابيل ديل سانتيسيمو سوداريو" أي كنيسة الكفن الأقدس (الذي اعتقد المؤمنون أن يوسف الرامي كفن فيه جسد المسيح). وقد انهارت قبة كنيسة سان فيليبو الكبرى، التي بدأها جواريني، قبيل أن تكتمل، فرمها فيليبو ايوفار، الذي ولد سنة 1676 قبل موت جواريني بسبع سنوات. ولعلنا نلتقي بايوفارا مرة أخرى. وفي جنوة كان أروغ بناء شيد في هذا العهد هو قصر دوراتزو الذي بناه فالكوني وكانتوني في 1650، واشتراه بيت سافوي في 1817، واستخدم بعد ذلك قصراً ملكياً للأسرة. وقد تحطمت قاعة مراهب الشهيرة في الحرب العالمية الثانية، وكانت رائدة لقاعة مراهب فرساي (1678)، فليس صحيحاً إذن أن مارس (إله الحرب) عشق فينوس يوماً ما. أما أبرز المصورين الجنوبيين الآن فكان اليساندرو مانياسكو، وقد نجد أنموذجاً من فنه في لوحة "مجمع اليهود" المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو، أو لوحة "الغداء البوهيمي" المحفوظة باللوفر. وواصلت البندقية إنجابها للأطفال والفنانين. وأي عمل أعظم بطولة من الدفاع عن كانديا ضد ترك؟ فطوال ربع قرن ظل جنود الباب العالي وبحارته يهاجمون كريت، وكانت يومها مستعمرة للبندقية، وهلك في تلك الحملات العنيفة 100.000 تركي(15)، ومع أن جيشاً عدته 50.000 مقاتل استولى على بعض المدن الصغيرة في الجزيرة، فإن العاصمة صمدت للحصار عشرين عاماً، وصدت اثنين وثلاثين هجوماً. وفي 1667 أرسل فرانشسكو موروزيني ليقود الحامية المشرفة على الموت جوعاً. وأخيراً سلمت (1668)، ولكن أحداً لم يعد يتكلم على تدهور البندقية. وفي 1693، عندما تقلد موروزيني إمرة الأسطول البندقي، تقهقر الأترك حين اقترب منهم وقد روعهم

صفحة رقم : 11140

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> الفن الإيطالي

اسمه فقط. وكان لا يزال من ذلك الطراز من الرجال الذي صره تننوريتو وفيرونيزي-الشجاعة المجسمة التي لا تعرف الرحمة. وكان بالداساري لونجينا رجلاً آخر من هذا الطراز السبعيني. فقبل سنوات كثيرة (1632) صمم كنيسة "سانتا ماريا ديلا سالوتي"-أميرة البحيرات الجلييلة، أما الآن، وبعد سبعة وأربعين عاماً، فقد شاد قصر بيزارو على القناة الكبرى-قصراً متيناً بديعاً بأعمدته المزدوجة وكرانيشه المتعددة، ثم بنى (وهو في السادسة والسبعين) قصر ريتزونيكو، الذي سيموت فيه الشاعر براوننج. وهناك نبت آخر، صلب العود، حمل البذرة البندقية إلى نصف القارة، وهو سبسنيانو ريتشي، الذي ولد (1659) بمدينة بلونو في إقليم فنيستيا، وذهب إلى فلورنسة ليخرف قصر ماروتشيللي، ثم سار على أقل الدروب ضنكاً-إلى ميلان، وبولونيا، وبياتشينزا، وروما، وفيينا، ولندن. وأنفق عشر سنوات في إنجلترا، ورسم صوراً في مستشفى تشلسي، وبيزلنجتن هاوس، وقصر هامبتن كورت، وكاد يظفر بمهمة زخرفة كنيسة القديس بولس الجديدة. ثم مضى إلى باريس، حيث انتخب عضواً في أكاديمية الفنون الجميلة. ولوحته "ديانا والحوريات(16)" غلمة كلوحات بوشيه، لطيفة كلوحات كوريجو. وعمر ريتشي حتى 1734، وأسلم مهاراته للقرن الثامن عشر، ومهد الطريق للعصر الذهبي للتصوير البندقي أيام تيبولو.

أما المدرسة البولونية فلم تكن قد استنفدت قوتها تماماً. فاشتهر كارلو تشينيانى برسومه الجصية في كاتدرائية فرولي. وكشف جوزيبي ماريا كرسبي (لو سبانيولو) في "صورته الذاتية(17)" عن رجل مستغرق في الفن، متناس كل متاعبه إذا أتيح له أن يرسم. وقد صور جوفاني باتيستا سالفى ("الساسوفيراتو") في لوحته "العذراء تصلي(18)" ما في المحبة من إنكار للذات، وأرانا في لوحته "العذراء والطفل(19)" مجرد امرأة بسيطة، سعيدة بوليدها (البامبينو)، كأى امرأة تراها في أي يوم بين فقراء إيطاليا. وقد حكم فلورنسة وبيزا وسيينا خلال هذه الفترة اثنان من كبار أدواق توسكانيا، فرديناند الثاني وكوزيمو الثالث. وفي 1659 بدأت

صفحة رقم : 11141

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> الفن الإيطالي

سيينا مهرجان الباليو (المعطف) المشهور: فكانت أحياناً العشرة تنظم موكباً بملابس بهية يسير في شوارع زينبت بالعمائر، والرايات، والزهور، ونساء مرحات لايسات ثياباً جذابة، ثم يتبارى فرسان الأحياء بجنون في سباق على معطف السيدة العذراء التي كرسست المدينة النقية نفسها وحياتها له منذ أمد بعيد. ولم تملك فلورنسة الآن من المصورين إلا الصغار. وواصل كارلو دولتشى، بفن أضعف، صور رينو جيدي العاطفية، المتأملة في السماء، التي رسمها للعذراء والقديسين، والعالم كله يعرف لوحته "القديسة سيسيليا(20)". ورسم يوستوس سوسترمانس، الذي هاجر من فلاندر على فلورنسة، لوحات تعد من العجائب التي تشد الانتباه في قاعة بيتي-وليس ألقها رأس جاليليو الرائع الجليل. كذلك كان يبدو موسى وهو يشرح الناموس، لا كما نراه في وحش ميكل أنجيلو ذي القرون. وكان الفن في روما يفوق من قيود الحركة المعارضة للإصلاح البروتستنتي. فعاد البابوات بقدر أخف إلى روح النهضة، وشجعوا الأدب، والدراما، والعمارة، والنحت، والصوير. ورسم إنوسنت العاشر الكابيتول وكنيسة سان جوفاني في لاتيرانو. وكلف الاسكندر السابع برنيني بأن ينحت نطاقاً رباعياً من حراس مصنوعين من الجرانيت حول ميدان القديس بطرس (1655-67)-فنحت 284 عموداً و88 ركيزة، ووفق في صنعها إلى تحويل الذهب إلى حجر. وفي عهد هذا البابا أعاد بييترو داكورتونا بناء كنيسة سانتا ماريا ديلا باتشي، حيث كانت عرفات رفاتيل لا تزال تتأمل القدر. واشترك جيرولامو دينالدي مع ابنه كارلو في تشييد كنيسة سانتاجنيزي الجميلة في ميدان نافونا. واشترك الوالد والولد ثانية في تصميم كنيسة "يسوع ومريم"، وبنى كارلو هيكل سانتا ماريا في كامبينلي ليضم تماثلاً للعذراء اعتقد الناس أنه أوقف طاعون 1656. وكان الكرادلة والنبلاء يبنون مساكنهم ومدافنهم في فخامة القصور. وارتفع الآن قصر دورياً وبهو قصر كولونا ذو الزخارف الباروكية المسرفة، وفي كنيسة "يسوع ومريم" حفر فرانثسكو كافاليني لأسرة بولونيتي مقبرة لا بد أنها أثارت حسد الأحياء للأمموات. وأقام مصورون كثيرون الدليل على أن فنهم ما زال حياً في روما.

صفحة رقم : 11142

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> الفن الإيطالي

وقد خطب أهلها ود كارلو ماراتي، في النصف الثاني من القرن السابع عشر، باعتباره زعيم المصورين في الباروك الحديث. وصورته لكلمنت التاسع (21) كانت مذكرة بصورة فيلاسكويز لإنوسنت العاشر، ولكنها انتهت نهاية طيبة، وصورته "العذراء مع القديسين في الفردوس" (22) تكرر لعشرات مثلها، ولكنها صورة جميلة. وحين أراد كلمنت الحادي عشر ترميم لوحات رفائيل الجصية في الفاتيكان عهد إلى ماراتي بهذه العملية الدقيقة الخطرة على المرمم خطرهما على الرسوم، فأدائها بكفاية. واختار اليسوعيون جوفاني باتيستا جاوللي (الباتشستشو) ليرسم قبو كنيسةهم الأم "الجيرو"، ولكن كان من بين أبناء طريقتهم راهب من أقدر فناني عصره، هو أندريا بوتسو، الذي التحق بالطريقة وهو في الثالثة والعشرين، وصمم في تلك الكنيسة مذبح القديس اجناتيو-وهو من روائع الباروك. وفي 1692 نشر بوتسو مقالاً عن المنظور في التصوير والعمارة أثار ضجة في عدة لغات. واستهواه موضوعه كما استهوى أو تشيللو موضوعه قبل قرنين، فطور دراساته بلطائف "الخداعية"، كما يرى في صورته الجصية في فراسكاتي. ودعاه الأمير فون ليشنتشتين إلى فيينا، فأفنى نفسه بكثرة المهام التي اضطلع بها، ومات هناك في 1709 بالغاً من العمر سبعة وستين عاماً.

كان أعظم المصورين الإيطاليين الآن في نابلي. فكل شيء أئع وازدهر هناك-الموسيقى والفن، والأدب، والسياسة، والدراما، والجوع، والقتل، وشيء آخر لا يكف عنه الرجال الهانجون أبداً، وهو مطاردتهم لجسد المرأة ومفاته، المطاردة المرحية، العنيفة، الشجيرة. وتأثر سلفاتور روزا بكل عناصر الحياة هذه. وكان أبوه معمارياً، وعلمه عم له التصوير، وكان زوج أخته تلميذاً لربييرا، وقد أذن لسلفاتور نفسه في الوقت المناسب بالالتحاق بذلك المرمم الجليل. وعلمه أستاذ آخر تقنية مناظر المعارك الحربية. واشتهر سلفاتور على الأخص بهذه الصور التي ترى في متحف نابلي القومي أو في اللوفر. ومن المعارك انتقل إلى مشاهد الطبيعة، ولكن هنا أيضاً أثرت روحه الوحشية رسم الطبيعة في سوارت غضبها، كما يرى في لوحة باللوفر صور فيها الغيوم الكثيفة والأرض المظلمة يضيئها فجأة برق يحطم الصخور ويطوح الأشجار في طرفة عين. وأقنعه لانفرانكو بالذهاب إلى

صفحة رقم : 11143

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> الفن الإيطالي

روما والتودد للكرادلة، فذهب وأثرى هناك، ولكنه هرع قافلاً إلى نابلي 1646 ليشتريك في ثورة ماز انيللو. فلما فشلت عاد إلى روما، وصور كبار رجال الكنيسة، وكتب هجاءً ساخراً تهكم فيه بالترف الكنسي. ثم قبل دعوة الكردينال جانكارلو دي مدينشي ليذهب ويعيش معه في فلورنسة، وهناك مكث تسع سنوات، يرسم، ويعزف الموسيقى، ويقرض الشعر، ويشارك في التمثيليات. وحين عاد إلى روما ثانية، سكن بيتاً في التل البنسي، حيث عاش بوسان ولوران من قبل. وتقاطر عليه أقطاب الكنيسة، ليصورهم مغضين عن هجانياته، مؤثرين فرشاته على قلمه، وكان أحب الفنانين إلى الناس في إيطاليا طول عشر سنوات. وقد رسم صور القديسين والأساطير المألوفة، ولكنه في محفورات استسلم لعطفه على الجنود المساكين والفلاحين المعذبين، وهذه المحفورات من أبداع آثاره. ولم ينافسه في شهرته غير رجل من أهل نابلي، هو لوكا جوردانو. وكان فناً وهو بعد في الثامنة، ثم رسم في كنيسة سانتا ماريا لانوفيا ملاكين بلغ من الجمال والرشاقة مبلغاً جعل الحاكم يأخذه العجب حين رأهما، ويرسل للصبى بعض القطع الذهبية مع توصية لربييرا. وظل يدرس على يد ذلك الأستاذ الغارق في تأملاته، ويدهش كل إنسان بسرعة نسخه للروائع وتقليده للأساليب. وتاق للذهاب إلى روما وفحص رسوم رفائيل الجصية المشهورة، ولكن أباه عارض في ذهابه، لأنه يرتق من بيع صور لوكا ورسومه. ففر لوكا سراً، وسرعان ما أخذ ينسخ بحماسة في الفاتيكان، وفي

كنيسة القديس بطرس، وفي قصر فارنيزي. وتبعه أبوه، وحصل على قوته هنا أيضاً ببيع صور ابنه العارضة، ويروي أن السر في تقليبه "فابريستو" هو حث أبيه على السرعة. فلما استوعب فن روما مضي إلى البندقية ورسم على طريقة تيشان وكوريدجو صوراً لا تكاد تختلف عن رواعتهما. ولكنه رسم إلى ذلك صوراً أصيلة ظفرت بالاستحسان، وفي وسعنا الحكم عليها من لوحته "إنزال المسيح عن الصليب" المحفوظة بأكاديمية البندقية. ولما عاد إلى نابلي زخرف اثنتي عشرة كنيسة بكفاية وسرعة لم يجد معها منافسوه حيلة إلا أن يتسقطوا له الهنات. ثم دعاه كوزيمو الثالث إلى فلورنسة

صفحة رقم : 11144

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> الفن الإيطالي

(1679) حيث ظفر بالاستحسان لصورة الجصية في كنيسة كورسيني. وأصاب صديقه كارلو دولتشي غم شديد حين رأى ما أحرزه لوكا من نجاح، فمات بعد قليل (23)، وتروي لنا إيطاليا المحبة لفنانيها من الأساطير الكثيرة عنهم قدر ما ترويه عن قديسيها. وفي رواية أخرى أن نائب الملك الأسباني في نابلي أوصي برسم حشوة كبيرة لكنيسة القديس فرانسيس زافير، وثار غضبه حين وجد أن شيئاً لم ينجز في هذا التكليف رغم التأجيلات الطويلة، وما راعه بعد يومين إلا أن يجد العمل كاملاً وجميلاً. وقال نائب الملك "إن راسم هذه الصورة أما ملاك وأما شيطان(24)". وطبقت شهرة الملاك الشيطاني الأفاق حتى بلغت مدريد، وسرعان ما تكاثرت الدعوات على لوكا من شارل الثاني لينضم للبلاط الأسباني. ومع أن الملك كان مشرفاً على الإفلاس فإنه وصل الفنان بألف وخمسمائة دوكانتية، ووضع سفينة ملكية تحت تصرفه للرحلة. فلما بلغ جوردانو مدريد (1692) استقبلته ست مركبات ملكية على الطريق. وما لبث أن بدأ العمل في الأسكوريال وهو في السابعة والستين. فزين بالصور الجصية سلم الدير الكبير، وعلى قبو الكنيسة رسم "صورة طبق الأصل" من السماوات، ترينا شارل الخامس وفيليب الثاني في الفردوس وقد غفرت ذنوبهما كلها تحية من التالوث الأقدس لآل هابسبورج. وفي السنين التاليتين رسم عدداً كبيراً من الصور الجصية بعدها مؤرخو الفن الأسباني خير ما رسم في الأسكوريال(25). وفي "القصر" بمدريد، وفي بوين ريتيرو، وفي كنائس طليطلة والعاصمة، رسم صوراً بلغت من الكثرة، وأنفق فيها من الجهد، ما جعل منافسيه يعيرونه بأنه يعمل ثماني ساعات في اليوم وفي أيام الأعياد. كذلك ساءهم أنه جمع ثروة بطرق غير لائقة، وأنه يضيق على نفسه ولكنه يشتري الجواهر الغالية استثماراً آمناً لئلا يضيع في هذه الدنيا سيتغير ويتبدل إلا غرور الإنسان. وقد كرمه كل البلاط، ووصفه شارل الثاني في لحظة صفاء بأنه أعظم من ملك. ومات شارل في 1700، ومكث جوردانو في أسبانيا رغم ما تلا

صفحة رقم : 11145

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> الفن الإيطالي

ذلك من حرب الوراثة الأسبانية، ولما ارتقى العرش فيليب الخامس ظل يتلقى تكاليفات سخية عسيرة. ثم عاد إلى إيطاليا في 1702، وتخلف في روما ليلثم قدم البابا، ووصل إلى نابلي والغار بكله. وعلى أسقف التشرتوزا (دير الكرتوزيين) بسان مارينو، المطل على المدينة، رسم في ثمان وأربعين ساعة سلسلة من الصور الجصية أظهرت نشاطاً وهدوءاً لا يكادان يصدقان في رجل بلغ الثانية والسبعين (1704). وفاضت روحه بعد ذلك بعام وهو يقول متأوهاً "إيه يا نابلي، يا نسمة حياتي (26)".

ولم يعد له شهرة عند وفاته فنان آخر في جيله. وناقس الأعيان الهولنديون الأباطرة والملوك في شراء صورته، وفي إنجلترا النائية تغني مافيو برايور بمديح "جوردان الإلهي" وأعجب عامة الناس بغنى ألوانه، وبأس شخصائه، وجلال أفكاره، وقوة عرضه. ولكن الفنانين بعد أن أفاقوا من هذا الخدر العام بينوا علامات التعجل في إنتاج لوكا فابريستو، والخلط المتناقض بين الأفكار أو المواضيع الوثنية والمسيحية في المشهد الواحد، والمواقف المفتعلة، والإفراط في الإضاءة الساطعة، والافتقار إلى التناسق والهدوء. ولقد رد لوكا على ناقديه قبل ذلك بزمن طويل، إذ عرف المصور القدير بأنه ذلك الذي يحبه جمهور الشعب (27). ومن العسير تنفيذ هذا التعريف ما دمنا ننتقل إلى معيار موضوعي للامتياز أو سلامة الذوق، ولكننا قد نجد أدنى محك ذاتي للعظمة في مبلغ تأثير إنسان ما في الزمان والمكان، وأدنى مقياس ذاتي للشهرة في قدرتها على البقاء. ولقد سعد جوردانو بحياة ناجحة، وهو لا يشعر بأي أذى من جراء شهرته الأفلة.

وكان الفنان فرانشيسكو سولمينا يناهز الثامنة والأربعين حين مات فابريستو، ولكن سني عمره التسعين بلغت بمدرسة الفن النابولية قرابة منتصف القرن الثامن عشر. وكان لوكا قد رسم صحن دير مونتي كاسينو، ورسم فرانشيسكو الخورس، وتهدم هذا وذلك في الحرب العالمية الثانية. ولكن المتاحف تحتفظ بفن سولمينا، ففي فيينا "اغتصاب أوريثيا" وهي نشوة بضعة من عضلات الذكر ومنعطفات الأنثى، وفي اللوفر نرى صدى وتحدياً لرفائيل في لوحته "هليودوروس" يطرد من الهيكل"، وفي كريمونا صورة "مادونا

صفحة رقم : 11146

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> الفن الإيطالي

أدولوراتا" ويصحب العذراء فيها ملاك فيه من العذوبة ما يجعلنا نتقبل فكرة الخلود إذا كان في الجنة الكثير من أمثاله.

صفحة رقم : 11147

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> أوديسة كرسيتينا

كانت الفنون الآن مجرد جزء صغير من حياة روما الثقافية. فيها أيضاً منات من الموسيقيين، والشعراء، والمسرحيين، والعلماء، والمؤرخين. وقد يسرت المتاحف والمكتبات والكليات كنوز الماضي للطلاب، وشجعت الأكاديميات الأدب والعلم. وكانت أوهام ماريني الموشاة ما زالت عدواها تسري في الشعر الإيطالي، ولكنه لذع هجائيات تاسوني، وحرارة نزعة ماريني الحسية، وتدفق مقاطع تاسو الفوار، كل أولئك كان قد أعطى الشعر الإيطالي حافظاً وإلهاماً ما زالت تحس بهما النفوس المترنمة بالشعر.

أما أعظم الشعراء الغنائيين في العصور الحديثة (28)، إذا صدقنا ماكولي، فهو فنتشنزو دا فيليكايا، وقد شدا هذا الشاعر بتلخيص سوبيسكي لفينا في قصائد كثيرة شاكرة، ورحب بمجيء كرسيتينا إلى روما في تملق نشوان، ووصف في خزي ساخط إخضاع وطنه للجيش الدخيلة، يقول:

"إيطاليا، إيه يا إيطاليا، يا من كتب عليك أن تلبسي تاج الجمال المهلك، فأصبح سجل الويل والثبور موسوماً على جبينك إلى الأبد! ليت ميراثك كان جمالاً أقل وبأساً أشد! حتى يجداك أولئك الذين يستخفهم الطرب لأن حقدهم أذك، أكثر إرهاباً أو أقل جمالاً (29)".

على أن هنري هالام، الذي طوف لغوياً خبيراً بكل الآداب الأوروبية، ذهب إلى أن كارلو اليساندرو جيدي، لا فيليكايا، هو الذي "ارتفع إلى أسمى ذروة بلغها أي شاعر غنائي إيطالي" و.. أن "قصيدته الغنائية في الحظ على الأقل تعدل أي قصيدة غنائية أخرى في الإيطالية (30)، ولا يستطيع أحد لم يتمكن من الإيطالية أن يحسم هذا الخلاف بين ماكولي وهالام ولا بين جيدي وبتراكي، ولا بين فيليكايا وبيرون أو شلي أو كيتس.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> أوديسة كرسيتينا

كان جيدي واحداً من شعراء عدة صدحوا بقوافيهم في صالون كرسيتينا بروما. وكانت ملكة السويد هذه قد طبقت شهرتها الأفاق لا ملكة على دولة عظمى فحسب، بل راعية ونموذجاً للعلم، والمضيئة الحفية بساماسيوس وديكارت. وكانت تخليها عن التاج في سبيل المذهب، وتحولها عن البروتستنتية التي مات أبوها من قبل لينفذها، ورحلتها الطويلة مارة بقصور ملوك أوربا وأمرانها لتلتئم قديمي البابا كانت هذه كلها أحداثاً لا تقل عن الحروب والثورات استهواء للذهن الأوربي.

كانت في ربيعها الثامن والعشرين يوم غادرت السويد (1654). وأعطها ابن عمها شارل العاشر، الذي اختارته ليتبواً عرشها، خمسين ألف كراون تجمل بها رحلتها، وقرر لها البيت السويدي دخلاً كبيراً، وحقوق ملكة على حاشيتها. فوصلت هامبورج بعد رحلة سريعة في الدنمرك، وهناك صدمت مشاعر الأهالي بنزولها ببيت مالي يهودي كان قد أخلص لها الخدمة وهو يعمل وكيلاً مالياً لها. واجتازت هولندا البروتستنتية متكررة، ولكنها اتخذت زيتها السافر في أنتورب الكاثوليكية. وهناك استقبلها استقبالاً ملكياً الأرشيديوق ليوبولد، وإليزابيث ملكو بوهيميا السابقة (وهي ملكة مخلوعة أخرى)، وابنتها الأميرة إليزابيث (وهي تلميذة أخرى لديكارت). ثم وصلت رحلتها إلى بروكسل، حيث استقبلت بالألعاب النارية، والصواريخ، وطلقات المدافع، والجموع الهائفة المصفقة. وأسلمت نفسها حيناً في اغتباط للمراقص ومباريات الفروسية ورحلات الصيد والتمثيلات، وأوفد مازاران فرقة تمثيلية من باريس للترفية عنها، وفي عشية عيد الميلاد ارتدت سراً عن المذهب اللوثري، وأعلنت عزمها على ألا تستمتع إلى مزيد من المواعظ (31)، ثم أطالت مكثها في فلاندر ريثما تعد كوريا البابوية بروما العدة لاستقبالها رسمياً في الكنيسة وإيطاليا. وبعد أن غادرت

بروكسل اخترقت النمسا في رحلة وثيدة. وفي انزبروك جهرت رسمياً باعتناقها المذهب الكاثوليكي. وكانت رحلتها في إيطاليا قاصدة روما أشبه برحلات القياصرة الظافرين عظمة وجلالاً. فترينت المدينة تلو المدينة لتحيتها، ونظمت المهرجانات والعروض تكريماً لها في مانتوا، وبولونيا، وفاينزا، وريميني، وبيزارو،

صفحة رقم : 11149

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> أوديسة كرسطينا

وأنكونا، وأخيراً (19 ديسمبر 1655) دخلت روما وسط مهرجان من الأضواء هزأ بتكرها. وفي الغد مضت إلى الفاتيكان حيث رحب بها البابا اسكندر السابع. وبعد أن مكثت بروما ثلاثة أيام غادرتها مصحوبة بحرس الشرف لتدخلها ثانية ذلك الدخول الرسمي الذي رتب له كبار رجال الكنيسة، فمرت بقوس نصر، وبالبورتا ديلببولو (بابا الشعب)، إلى المدينة منطوية صهوة جواد أبيض يخطر على مهل، بين صفوف الجند وحشوة الأهالي وكأنما شعرت الكنيسة القديمة أن حركة الإصلاح البروتستنتي بأسرها قد أطاح بها ارتداد امرأة واحدة عن البروتستنتية. فلما اكتمل هذا مله، سمح لكرستينا بأن تتصرف في وقتها كما تشاء، تستقبل الأساقفة، والحكام، والعلماء، وتزور المتاحف، والمكتبات، والأكاديميات، والأطلال، وتدهش مرشديها بمعلوماتها في تاريخ إيطاليا وآدابها وفنونها. وأغرقتها كبار الأسر بالوائم والهدايا والتحيات، ووقع الكردينال كولونا في غرامها وهو في الخمسين، وعزف لها ألحان حبه، ولم يكن بد من نفيه إنقاذاً لكرامة الكنيسة. وما لبثت أن وجدت نفسها وقد تورطت في منافسات الحزبيين الفرنسي والأسباني في البلاط البابوي. وقطعت السويد دخلها المقرر لها حين وجدت مشقة في تمويل حربها مع بولندا، فرهنت مجوهراتها، وتلقت قرضاً من البابا. وفي يوليو 1656 خرجت في زيارة لفرنسا. وهناك أيضاً لقيت ما تلقى الملكات من تكريم. ودخلت باريس على جواد أبيض مطهم، وخرج ألف فارس لاستقبالها، وهنقت لها الجموع، وكاد كبار الموظفين يخنقونها بأزهارهم الخطابية، ووصفها دوق جيز ذلك العهد، الذي أوفده مازاران لمرافقتها، بهذه العبارات: "ليست طويلة، ولكن لها خصرًا ممثلًا وشفقتين كبيرتين، وذراعين حلوتين، ويداً بضة حسنة التكوين، ولكنها أقرب إلى يد الرجل منها إلى يد المرأة... ووجهها كبير دون أن ينتقص ذلك من مظهره... وأنفها معقوف، وفمها كبير نوعاً ولكنه ليس منفراً... وعيناها بديعتان تشعان ناراً... وعلى رأسها غطاء عجيب جداً..."

صفحة رقم : 11150

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> أوديسة كرسطينا

باروكة رجل، كثة عالية... ترتدي حذاء رجل، ولها نبرات صوت الرجل وكل تصرفات الرجل تقريباً، تتظاهر بلعب دور المرأة المسترجلة (الأمازونة).. وهي غاية في التأدب والمجاملة، وتتكلم ثمانى لغات، لا سيما الفرنسية-وكانها

ولدت في باريس، إنها تعرف أكثر مما تعرف أكاديميتنا، مضافاً إليها السوربون، وتقوم التصوير فهماً جديراً بالإعجاب، وكذلك تفهم كل ما عداه. إنها لشخصية غاية في الغرابة(32)".

وأنزلت جناح الملك في اللوفر. ثم صحبها دوق جيز بعد ذلك إلى كومبيين، حيث استقبلها لويس الرابع عشر، وكان يومها فتى وسيماً في الثامنة عشرة. والتقت سيدات القصر حولها كالفراشات، ولكن أربكهن استرجالها في اللباس والحديث. وذهبت مدام دموتيل إلى أنها "تبدو لأول وهلة كأنها إحدى العجريات سيئات السيرة" ولكن "بعد ذلك... بدأت ألف لباسها.. ولاحظت أن عيناها جميلتان مثلقتان، وأن في وجهها رقة، ولطفاً يمتزج بالكبرياء. وأخيراً أدركت في دهشة أنها أَرْضَتِي(33)". على أنه يمكن القول عموماً أن النساء اللاتي وشين ما في المجتمع الفرنسي من عادات وأزياء وبهجة وكياسة ورشاقة، هؤلاء ساءهن إهمال كرسيتينا لملبسها، و "إفراطها في الضحك، وتحررها في حديثها سواء عن الدين أو عن المواضيع التي تتطلب أصول اللياقة عند النساء مزيداً من التحفظ فيها.. وقد جهرت بأنها تحقر جميع النساء لجهلهن، ووجدت لذة في التحدث إلى الرجال سواء في المواضيع الطيبة أو الخبيثة. وضربت بالقواعد كلها عرض الحائط(34)". ويرى فولتير أن نساء المجتمع الفرنسي قسون في الحكم على هذه الملكة المتمردة لأنها لم تسر على الجادة. قال "لم يكن في البلاط الفرنسي امرأة واحدة وهبت ذكاءها(35)". أما كرسيتينا فقد حكمت على سيدات البلاط بأنهن شديدات التكلف، وعلى الرجال بأنهم شديدو التخنت، وعلى الفريقيين بالافتقار إلى الإخلاص. وفي سنليس، في طريقها عائدة من كومبيين إلى باريس، طلبت أن ترى "أنسة تدعى نينون (دلانكلو)، مشهورة بالريذيلة، والتهتك، والجمال، والذكاء. ولم تبد أي علامة من علامات الاحترام إلا لهذه المرأة وحدها، دون سائر النساء اللاتي رأتهن في فرنسا(36)". وقد

صفحة رقم : 11151

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> أوديسة كرسيتينا

وجدت نينون حبيسة مؤقتاً في دير للراهبات. وتحدثت إليها كرسيتينا في مرج، وأقرتها على امتناعها عن الزواج(37). ثم عادت إلى إيطاليا بعد أن زارت مؤسسات فرنسا الثقافية وأهم آثارها الفنية (نوفمبر 1656). وفي سبتمبر 1657 زارت فرنسا ثانية. ولم تستقبل ذلك الاستقبال الرسمي السابق، ولكنها أنزلت فوننتبلو بما يقرب من الحفاوة بالملوك. وهناك روعت فرنسا بما خالته استعمالاً مشروعاً لحقوقها الملكية على حاشيتها. وتفصيل ذلك أن ياورها الماركيز موندالديسكي اشترك في مؤامرة ضدها كشفتها باعتراض رسائله. وزاد الموقف سوءاً باتهامه رجلاً آخر من حاشيتها بالتآمر عليها. فواجهته برسائله التي تثبت التهمة عليه، وأمرت قسيساً أن يسمع اعترافه ويمنحه غفران الكنيسة، ثم أصدرت الأمر لحراسها فأعدموا الماركيز. وصعقت فرنسا، وحتى أولئك الذين اعترفوا بما منحها الديت السويدي من حقوق على أتباعها صممهم هذا الاستعمال الفجائي التعسفي لسلطتها في مسكن يملكه ملك فرنسا. وسمح لكرستينا بأن تنفق الشتاء في باريس، وتستمتع بالتمثيلات وحفلات الرقص، ولكن البلاط تنفس الصعداء حين رحلت إلى إيطاليا (مايو 1658).

وقد سبب لها قطع الدخل الذي يأتيها من السويد من الحرج الشديد ما جعلها فيما روي تطلب إلى الإمبراطور ليوبولد الأول جيشاً تقوده ضد شارل العاشر، ولكن ثناها عن هذه المغامرة العسكرية معاش سنوي من اثني عشر ألف سكودي قرره لها البابا الإسكندر السابع. وقد زارت السويد مرتين (1660-1667) لتستعيد دخلها، وربما تاجها. ورد إليها دخلها، ولكنها لم تلق ترحيباً في استوكهولم، واتهمها رجال الدين اللوثريين بأنها تتآمر لتحول الأمة إلى الكاثوليكية، ومنعت من الاستماع إلى القداس في مسكنها. وكانت بعد كل زيارة من هاتين الزيارتين تعتكف في هامبورج. ومنها أرسلت مندوبين إلى وارسو في 1668 ليعرضوا ترشيحها نفسها لعرش بولندا الذي خلا باعتزال يوحنا كازيمير. وعزز البابا كلمنت السابع مطلبها، ولكن الديت البولندي رفضها لأسباب كثيرة، منها رفضها أن تتزوج. وقد قالت إن إمبراطورية العالم بأسرها لن تحملها على الرضا

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> أوديسة كرسيتينا

بالزواج(38). ثم عادت إلى إيطاليا في 1668، ومكث بها حتى ماتت. وكانت تلك السنوات العشر الأخرى أجمل سني عمرها. وأصبح جناحها في قصر كورسيني أهم الصالونات في روما، وملتقى الأساقفة، والعلماء، والملحنين، والنبلاء، والدبلوماسيين الأجانب. هناك رحبت بأليساندرو سكارلاتي، وتلقت من أركانجلو كوريللي إهداء أول سوناتاته المنشورة. وزينت حجراتها بالصور والتماثيل وغيرها من التحف المنتقاة بذوق كان مثار إعجاب الخبراء، أما المخطوطات التي جمعتها فقد عدت فيما بعد من خيرة ما ضمنته مكتبة الفاتيكان من مخطوطات. وكانت تثبط الأسلوب المتكلف الذي نما في الشعر الإيطالي، وأثرت على جيدي ليتزعم حركة تعود إلى نقاء اللغة، واستقامة التعبير، اللذين سادا في أيام أسرة مديتشي. وكانت مذكراتها مثالا للكلام البسيط القوي، و "أقوالها المأثورة". آراء جادة سديدة لامرأة خبيرة بالدنيا، لم تسمح لتقواها بأن تفسد استمتاعها بالحياة. ولم تكن متعصبة، فقد أدانت عنف الكاثوليك الفرنسيين في تنفيذ قانون فسخ مرسوم ناننت، وكتبت تقول "إني أنظر إلى فرنسا نظرتي إلى مريضة بتر ذراعاها وساقاها علاجاً لمرض كانت تشفى منه تماماً بممارسة اللطف والصبر(39)". وذهب بيل إلى أن هذه العواطف بقية متخلفة من تربيته البروتستنتية، فوبخته على هذا التفسير، فكتب إليها معتزلاً، فغفرت له شريطة أن يوافيها بكتب جديدة أو غريبة(40).

وماتت عام 1689 بالغة الثالثة والستين، ودفنت في كنيسة القديس بطرس. وبعد موتها بثلاث سنوات أسس جوفاني ماريا كريسمبيني تخليداً لذكراها "الأكاديمية الأركادية" وأكثر أعضائها الأوائل ممن اجتمعوا تحت جناحها. وواصلوا الصلة القديمة بين الشعر والرعية، وسموا أنفسهم رعاة، واتخذوا أسماء ريفية، وعقدوا اجتماعاتهم في الحقول. وأنشؤا فروعاً في مدن إيطاليا الرئيسية، ومع احتفاظهم بالحيل البارعة ف بنيان قصائدهم، فإنهم أنهوا تسلط الأوهام على الشعر الإيطالي.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> من مونتيفردي إلى سكارلاتي

كانت الموسيقى في ذلك المجتمع المرح، مجتمع إيطاليا القرن السابع عشر، نغمة الحياة ونسيمها. لقد خاض هذا الشعب المشبوب العاطفة الحروب في الأوبرات، وحارب معارك الحب في أغانيه الشعرية، بعد أن ألزمته أسبانيا والبابوية السلام رغم إرادته.

واتخذت الآلات الموسيقية عشرات الأشكال. وأصبح الأرغن الآن منفاخاً مزيناً له لوحتا مفاتيح لليدين ولوحة للقدمين، بالإضافة إلى أنابيب متنوعة، وكان هناك بالطبع أرغن متنقلة للشارع. وفي تاريخ مبكر (1598) نسمع بألة أخرى لها لوحات مفاتيح سميت "البيانو أي فورتني" (أي الخافت والقوي) ورد ذكرها في قائمة الآلات التي يملكها ويعزف عليها الدوق ألفونسو الثاني في مودينا، ولكننا ما زلنا نهمل الفرق بينها وبين "البيانو القيثاري" بنوعيه elavieembalo (الهاربيسكورد) و spinetta. وينقضي قرن قبل أن نسمع بالبيانو فورت الثانية. وفي 1709 عرض بارتولوميو كريستوفوري آلة موسيقية سماها gravicemblo col pianoe forte، وكان صانع الآلات الموسيقية لأمير عاشق للموسيقى يدعى فرديناند دي مديتشي بفلورنسة. وكانت هذه الآلة تختلف اختلافاً هاماً وإن كان طفيفاً عن الهاربيسكورد. فالنغمة تصدرها مطرقة صغيرة ترتفع لتقرع وترأ، وفي الإمكان خفض الصوت أو رفعه بتتنوع لمس الأصابع للمفاتيح-بينما النغمات في الآلات السابقة ذات لوحات المفاتيح تتبعث بوساطة ريشة (من ريش الطير أو الجلد القاسي) ترتفع لتقرع الوتر، ولا يمكن أحداث تنويع في قوة الصوت. وحل البيانوفورت بالتدريج محل الهاربيسكورد في القرن الثامن عشر، لا لأنه يستطيع أن يعزف الأصوات "الخافتة والعالية" فحسب، بل لأن مطارقه كانت تبلى بسرعة أقل مما يبلى ريش الطير.

أما الكمان فقد تطور من القيثارة (الليرة Lyre) في القرن

صفحة رقم : 11154

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> من مونتيفردي إلى سكارلاتي

السادس عشر، لا سيما في بريشا. فجلب أندريا أماتي فن صنع الكمان إلى كريمونا، وهناك تفوق حفيده نيكولو على جميع منافسيه في هذه الحرفة، إلى أن تفوق عليه هو ذاته تلميذاه أندريا جارينيري وأنطونيو ستراديفاي. وآل جارينيري مثال آخر من الأسر التي جرى فيها النبوغ في نفس الحرفة، فهناك أندريا وولدها بييترو "دي مانتوا" وجوزيبي الأول، وحفيده بييترو الثاني "دي فينيتسيا" وحفيد أخيه جوزيف الثاني "ديل جيزو" -الذي جعل بأجانبني يؤثر الكمان على سائر الآلات الموسيقية. وأقدم كمان يحمل توقيع ستراديفاري يرجع تاريخه إلى 1666، حين كان في الثانية والعشرين، وقد كتب عليه "أنطونيو ستراديفاريوس أومونوس نيكول أماتي فانشيبيات أنو 1666" ويلي هذا شعاره الشخصي -وهو صليب مالطي والحرفان الأولان من اسمه، أ. س، داخل دائرة مزدوجة. وكان يوقع فيما بعد ببساطة يشوبها الفخر "ستراديفاريوس". وقد ألف العمل دون انقطاع، والقصد في الطعام، وعاش ثلاثة وتسعين عاماً، وجمع من الثروة بفضل ما تميزت به آلاته من روعة الجمال والبناء والنغم والصفل ما أصبحت معه عبارة "غني مثل ستراديفاري" مرادفاً كريمونياً للثراء العريض. والمعروف أنه صنع 1.116 كماناً، وفيولا، وفيولنسيلو، وبقيت منها على قيد الحياة 540 كماناً، بيع بعضها بعشرة آلاف دولار (41). وقد ضاع سر الطلاء الذي كان يصفل به آلاته.

وشجع هذا التحسن في الآلات تطور الأوركسترا، وتأليف الموسيقى الآلاتية وأداءها. واكتشف المؤلفون والعازفون في الكمان مرونة في الحركة وتنوعاً في النغم يستحيلان على الصوت البشري، إذا كان في استطاعتهم أن يصعدوا ويهبطوا على السلم الموسيقي ببسر يفوق الوصف فعلاً، وأن يبنوا التنويعات ويتلاعبوا بها، وأن يهربوا من روتين اللحن ويقترحوا الجديد من الإيقاعات، والتطويرات، والتجارب. وأمكن بعد الجمع بين الآلات الكثيرة تحرير التأليف من الرقص ومن الأغنية على السواء، واستطاع التأليف أن يخلق على

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> من مونتيفردي إلى سكارلاتي

جناحيه هو في الجديد من المتاليات، والتجميعات، والأشكال. وكان تومازو فيتالي سباقاً بسوناتات الكمان التي لم يعرف لها مثيل من قبل في غنى الابتكار، والتي أعانت على إرساء تعاقب الحركات السريعة والبطيئة والنشطة. أما أركانجيلو كوريللي، فقد مهد الطريق بوصفه مؤلفاً وعازفاً ماهراً، للموسيقى الحجرية التي شاعت في القرن الثامن عشر بسوناتاته التي وضعها للكمان، وكان له هو وفيتالي في إيطاليا، وكوناو وهينريش فون بيبير في ألمانيا، الفضل في إعطاء السوناتا بناء وشكلاً باعتبارها قطعة "تعزف" بالألات فقط، مقابل "الكانتاتات" التي هي مؤلفات تغني بالصوت. وكوريللي هو الذي قرر شكل "الكونسرتو جروسو" -كمانان وفولنتشيللو واحدة تقود أوركسترا وترياً- بألحان بسيطة مشجبة مثل "كونسرتو عيد الميلاد" (1712)، ففتح بذلك طريقاً لكونسرتو فيفالدو وهندل ومتتابعات باخ الأوركسترية وقد احتفظت ألحان كوريللي بشعبيتها في القرن الثامن عشر فترة طالت حتى لقد خيل لبيرني وهو يكتب حوالي عام 1780 أن شهرتها ستبقى "ما بقي النظام الحالي للموسيقى مبعث بهجة لأذان البشر" (42). وكما أصبح كوريللي المؤلف المفضل للكمان، فكذلك هيمن أليساندرو شتراديللا على موسيقى هذا العصر الصوتية، بالأصوات الفردية، والثنائية، والثلاثية، والأوراتوريوات. وكانت حياته ذاتها دراما في الموسيقى، وقد حولت إلى تمثيلية وأوبرا. ذلك أنه أحرز في عمله مدرساً للغناء بالبندقية نجاحاً محزناً. فقد فرت معه لروما إحدى تلميذاته الأرسقراطيات، واسمها أورتنسيا، مع أنها كانت مخطوبة لعضو الشيوخ البندقي ألفيزي كونتاريني. وأرسل عضو الشيوخ فتاكاً ليقتلوه. ولكن حين سمعه هؤلاء القنلة المرهفة الحس يرتل الدور الرئيسي في لحنه "أوراتوريو دي سان جوفاني باتيستا" في كنيسة سان جوفاني باللاتيرانو، تأثروا بالموسيقى (كما تقول القصة) تأثرهم جعلهم يقلعون عن القيام بما كفلوا به، ويحذرونه هو ورفيقتة ليلتمسا مخبأً آمناً. وفر العشيقان إلى تورينو، ولكن سرعان ما اشتهر أليساندرو هناك بمؤلفاته وصوته شهرة هددته بالخطر. وأرسل كونتاريني فانكين لا يهويان الموسيقى ليقتلاه، فهاجماه، وتركاه وهما

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> من مونتيفردي إلى سكارلاتي

يحسبانه قد مات. ولكنه أفاق، وتزوج أورتنسيا، ورحل معها إلى جنوه. وهناك عثر عليهما ماجورو عضو الشيوخ، فطعنهما طعنات أودت بحياتهما (1682)(43). وظل الأوراتوريو الذي قيل أنه أنقذ حياته محتفظاً بشعبيته قرناً كاملاً، وقد مهد السبيل أمام هندل. وغدت الأوبرا الآن هوساً في إيطاليا. فالبندقية وحدها كانت بها ست عشرة داراً للأوبرا في 1699، وقد استمعت إلى قرابة مائة أوبرا مختلفة بين عامي 1662 و 1680(44). كذلك أقيمت نابلي على هذه الفرجة المشجعة بما يقرب من هذا التهافت. أما في روما فقد أصبحت الأوبرا رمزاً على حركة علمنة الموسيقى السائرة قدماً، وقد ألف كلمنت التاسع

نفسه بعض الفكاهيات الموسيقية قبل أن يرتقي عرش البابوية(45). وكان هناك اضمحلال مؤقت في جودة الأوبرا الإيطالية بعد مونتفردى فقدت الحبكة بعض وقارها ودلالاتها، وازدادت سخفاً وعنفاً. وطور فرانشسكو كافاللي، أحد تلاميذ مونتفردى، اللحن المنفرد باعتباره أعلى جزء من العرض، وسرعان ما طالبت الجماهير بسلسلة من الألحان الدرامية، وكانت تحتمل فترات الاستراحة بصبر نافذ. وقام الخصيان من الغلمان أو الرجال بكثير من أدوار السوبرانو أو الكونتريانو، ولكن البريمادونات بدأت الآن يناقسن الملكات. ووجه ملتن أغنيات لاتينية إلى ليونورا باروني، وخرجت نابلي على بكرة أبيها لترحب بألم ليونورا، أدريانا بازيللي، أعظم المغنيات السوبرانو إثارة للأحاسيس في زمانها ولعل أجهزة المسرح الآلية بلغت في هذا العصر الغاية التي ما بعدها غاية. يقول مولمى أن مسرح سان كاسيانو، في بندقية القرن السابع عشر، كان يستطيع عند الطلب أن يعرض قصراً ملكياً، وغابة، ومحيطاً، وجبل أولمب، والجنة، ومرة علق قاعة رقص كاملة الإضاءة، بكل أثاثها وراقصاتها، فوق المسرح الثابت، وكانت تخفض لتستقر عليه أو ترفع لتتوارى عن الأنظار حسب مقتضيات القصة(46). وحاول ماركانطونيو تشستى أن ينفذ الأوبرا من الأغنية، فأعطى مزيداً من الاتساع والبروز للاستهلال، ومن المنطق والرصانة للرواية، ثم نوع الغناء بالريستاتيف. وكان تشستى وكوريللي كلاهما مبعوثين موسيقيين، حملا الأوبرا الإيطالية الواحد إلى باريس على عهد لويس الرابع عشر، والآخر إلى فيينا على عهد ليوبولد الأول. وهكذا كانت

صفحة رقم : 11157

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> من مونتفردى إلى سكارلاتي

أوروبا شمال جبال الألب، في فن الأوبرا، مستعمرة إيطالية(47). وكان أبرز ملحنى الأوبرا الآن أليساندرو سكارلاتي. ولقد طغت شهرة ابنه دومنيكو اليوم على شهرته، ولكن اسم "سكارلاتي" كان إلى عهده القريب يعني أليساندرو، وكان دومنيكو أشبه بتوقيع متعاقب سريع على وتر اسم مشهور. وقد وفد أليساندرو على روما وهو في الثالثة عشرة، ودرس حيناً على كاريسيمي، ولحن للكانتاتات، وحفز همته فن ستراديللا وسيرته، وفي العشرين أخرج أولى أوبراته المعروفة L'errore innocente (الغلطة البريئة) وقد أعجبت الأوبرا كرسينا ملكة السويد، فبسطن جناحها على أليساندرو، وأخرجت أوبراته التالية على مسرحه الخاص. وفي 1684 قبل وظيفة "المايسترو دي كابلا" لنائب الملك الأسباني في نابلي، وظل يشغلها ثمانية عشر عاماً، يخرج الأوبرات في تتابع سريع حتى بلغت عند وفاته على الأقل 114، لا يعيش منها اليوم سوى نصفها، ولعل سوليمينا رسم في هذه الفترة اللوحة الممتازة التي ترى في كونسرفاتوريو نابلي الموسيقى حجة نحيل، يفيض حساسية، وتركيزاً، وعزيمة.

وجاءت حرب الوراثة الأسبانية فكدرت صفاء نابلي، وتأخر صرف راتب سكارلاتي كثيراً حتى اضطر للرحيل إلى فلورنسة مع زوجته وأسرته، ولحن وأخرج الأوبرات تحت رعاية الأمير فرديناند. وبعد عام انتقل إلى روما رئيساً لفرفة مرتلي الكنيسة للكردينال بييترو أوتوبوني، وكان كنسياً مرحاً متقفاً، خلف كرسينا قطباً وراعياً للفنون في روما، ووزع طاقاته الدنيوية على الفن والأدب والموسيقى والخيليات(48). وفي 1707 ذهب أليساندرو إلى البندقية حيث أخرج رائعته Mitridate Eupatore وهي أوبرا تتميز بخلوها تماماً من تشويق الحب. في ذلك العام دانت نابلي للحكم النمساوي، فدعا نائب الملك سكارلاتي ليعود إلى سابق وظيفته، فوافق، وأنفق هناك العقد الأخير من حياته، حين بلغ أوج شهرته.

وقد قررت أوبراته أسلوباً دام نصف قرن. جعل الاستهلال مؤلفاً هاماً لا يرتبط بالأوبرا، وقسمه إلى ثلاث حركات ظلت قياسية حتى

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> من مونتيفردي إلى سكارلاتي

مجيء موتسارت: الأليجرو، والأداجيو، والأليجرو. أما اللحن (الأريا) فأعطاه سيطرته النموذجية في القرن الثامن عشر وشكله الأعمى da capo، الذي يعيد فيه القسم الثالث الأول، ونفث فيه الحرارة العاطفة، والحنان، والتلون الرومانسي، وجعله أداة لإبداعات المغنين في العزف والارتجال، ولكن تكراره قطع الوجدان والحركة قطعاً مفتعلاً. وقد قاوم حيناً طلب الجماهير للألحان العاطفية، وأخيراً أذعن، وظلت دراما الموسيقى خمسين عاماً تحظى بألف انتصار دون أن تنتج آثاراً قادرة على مغالبة تقلبات الذوق. واضمحل الأوبرا حين أيقظها جلوك لحياة وشكل جديد، في فيينا (1762) وباريس، بجمال أوبرا Orfeo ed Euridice المقيم.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> البرتغال

5- البرتغال

1700-1640

حين توج دوق براجانزا ملكاً باسم يوحنا الرابع (1640) بدأت البرتغال حرباً امتدت ثمانية وعشرين عاماً لتدافع عن استقلالها الذي استردته من أسبانيا. وقدمت لها فرنسا يد المعونة حتى 1659، حين وافق مازاران في صلح البرانس على أن يكف عن مساعدة البرتغال. واتجه الفونسو السادس إلى إنجلترا طالباً العون. وأوفدت كاترين أميرة براجانزا إلى لندن عروساً لتشارلز الثاني (1663)، حاملة معها صداقاً هو بومباي، وطنجة، و500.000 جنيه. وأرسلت إنجلترا الجند والسلاح مقابل ذلك. وبهذه المعونة وغيرها، وبجهود البرتغاليين وقيادتهم وحسن نظامهم قبل كل شيء، راحوا يردون جيوش أسبانيا على أعقابها الواحد تلو الآخر، حتى اعترفت أسبانيا رسمياً بمقتضى معاهدة لشبونة (1668) باستقلال البرتغال.

وعزز بيدرو الثاني العلاقات مع إنجلترا بمعاهدة ميثوين (1703). فوافقت كل من الأمتين على أن تمنح الأخرى تعريفات تفضيلية، وعلى أن تستورد البرتغال السلع المصنوعة من إنجلترا وتستورد النبيذ والفاكهة من البرتغال.

وهكذا شربت إنجلترا القرن الثامن عشر نبيذ البورت من أوبورتو، بدلاً من الكلاريت "clear" من بوردو. وقد وفر هذا التحالف الاقتصادي للبرتغال ومستعمراتها الباقية حماية دائمة من أسبانيا وفرنسا.

صفحة رقم : 11160

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> البرتغال

وفي 1693 كشفت مناجم ذهب مينا س جيرايس في البرازيل، وسرعان ما غلت لبيدرو الثاني من سبانك الذهب ما أتاح له أن يحكم بعد 1697 دون حاجة لدعوة الكورتيز (المجلس التشريعي) للموافقة على منحه المال، وأن يحتفظ في لشبونة ببلاط من أفخم البلاطات في أوروبا. على أن المذهب الأمريكي تمخض في البرتغال عن نفس النتائج التي تمخض عنها في أسبانيا: فقد استعمل لشراء السلع المصنوعة من الخارج بدلاً من تمويل المشاريع الصناعية في الداخل، وظل الاقتصاد الوطني اقتصاداً زراعياً كسولاً، وحتى الكروم المحيطة بأوبورتو وقعت في قبضة الإنجليز الذين اشتروها بالذهب البرتغالي الذي حصلوا عليه من التجارة الإنجليزية.

وواصل المؤلفون البرتغاليون تنشيط الأدب بالأعمال. من ذلك أن فرانيسكو مانويل دي ميلو اللشبوني التحق بالأفواج الأسبانية الذاهبة إلى فلاندر بعد أن درس في كلية أنتاوا اليسوعية، وخاض معارك عدة كتبت له فيها الحياة، وقايل في صف ملك أسبانيا في التمرد القتلوني وألف تاريخاً له (تاريخ حرب قتلونيا) في كتاب من عيون الأدب الكثيرة التي أسهم بها البرتغاليون في الأدب الأسباني. فلما أعلنت البرتغال تحررها من ربة أسبانيا عرض خدماته على يوحنا الرابع، ولقي عرضه ترحيباً، وجهاز أسطولاً برتغالياً وتولى قيادته، ثم وقع في غرام كونتييسة فيلاننونا الساحرة، فقبض عليه بإيعاز من زوجها، وقضى تسع سنين في السجن. فلما أطلق سراحه شريطة أن ينفي إلى البرازيل، ذهب ليعيش في باهيا (بايا)، حيث كتب Apologos dialogaes. وسمح له بالعودة في 1659. فأصدر في السنين السبع الباقية في أجله مؤلفات في الأخلاق والأدب، وبعض الشعر، وتمثيلية سبق بها موضوع وفكاهة تمثيلية مولير "البورجوازي مدعي النيل". ومع أنه كتب بالأسبانية، فإن البرتغال تحسبه بحق ابناً من ألمع أبنائها.

وكاتب آخر هو أنطونيو فييرا، الذي ولد في لشبونة (1608)، وأخذ في طفولته إلى البرازيل، وتلقى العلم على يد اليسوعيين في باهيا، وانضم إلى طريقتهم، وأدهش الناس جميعاً حين اقترح في مواعظ وكتيبات بليغة على الحكومة أن تمارس المسيحية. فلما

صفحة رقم : 11161

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> البرتغال

بعث في مهمة إلى البرتغال (1641) أثر في يوحنا الرابع بنزاهة خلقه وتنوع مواهبه تأثيراً حدا به إلى تعيينه عضواً في المجلس الملكي، وهناك شارل بنصيب غير صغير في التخطيط للانتصارات التي ردت لوطنه استقلاله. ثم هز

الأفكار الراسخة بالمطالبة بإصلاح ديوان التفتيش، وفرض الضرائب على جميع الناس دون اعتبار للطبقة، والسماح لليهود بدخول البرتغال، وإلغاء التمييز بين "المسيحيين القدامى" و "المسيحيين الجدد" (أي اليهود الذين اعتنقوا المسيحية). وكان مثالا، من أمثلة كبيرة، على حيوية اليسوعيين وتعدد قدراتهم ونزعتهم التحررية المتكررة الظهور. فلما عاد إلى البرازيل (1652)، أرسل مبعوثاً إلى مارانهاو، ولكن نقده الصارم لهمجية سادة العبيد وأخلاقهم حملهم على السعي حتى نفي إلى البرتغال (1654). ودافع أمام الملك عن قضية الهنود المظلومين، وحصل على شيء من التخفيف عنهم. فلما عاد إلى أمريكا الجنوبية (1655)، أنفق ست سنوات كان فيها "رسول البرازيل"، يقطع مئات الأميال على الأمازون وروافده، ويخاطر بحياته كل يوم بين القبائل المتوحشة وأهوال الطبيعة، ويعلم الوطنيين فنون الحضارة، ويدافع عنهم ضد سادتهم في شجاعة حملت هؤلاء أيضاً على الحصول على أمر ينقله إلى البرتغال (1661). وهناك قبض عليه ديوان التفتيش متهماً إياه بأن كتاباته تحتوي على هرطقات خطيرة وتطرفات تستحق الإدانة (1665). وهالته الأحوال في سجون الديوان- إذ رأى خمسة رجال محشورين في زنزانة عرضها تسعة أقدام وطولها أحد عشر، لا يدخلها الضوء الطبيعي إلا من شق في السقف، ولا تغير فيها الألوان إلا مرة في الأسبوع (49). وأطلق سراحه بعد سنتين، ولكنه منع من الكتابة أو الوعظ أو التعليم. فذهب إلى روما (1669)، وهناك رحب به كلمنت العاشر وكرمه، واستهوى الكرادلة والعامّة بفصاحته. وعبثاً التمس منه كرستينا ملكة السويد السابقة أن يكون مرشدها الروحي. وقد عرض على البابا اتهاماً مفصلاً لديوان التفتيش باعتباره وصمة على جبين الكنيسة ونكبة على رفاهية البرتغال. وأمر كلمنت بأن تحال إلى روما كل القضايا المعروضة

صفحة رقم : 11162

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> البرتغال

على ديوان التفتيش البرتغالي، وعطل إنوسنت الحادي عشر تلك الهيئة خمس سنوات. وأحس فييرا بوحشة للهنود رغم انتصاراته، فأبحر مرة أخرى إلى البرازيل (1681)، وجاهد هناك معلماً ومرسلاً رسولياً حتى أدركته الوفاة وهو في التاسعة والثمانين. وتحتوي مؤلفاته التي يضمها سبعة وعشرون مجلداً، على الكثير من الألغاز الغيبية، ولكن عظاته التي قورنت بعظات بوسوية، وضعت في صف "فحول اللغة البرتغالية (50)"، وخدماته وطنياً ومصلاً حملت الشاعر البروتستنتي صدى على أن يسلكه في عداد أعظم ساسة وطنه وزمانه (51).

صفحة رقم : 11163

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> انهيار إسبانيا

6- انهيار إسبانيا

كانت أسبانيا في 1665 لا تزال أعظم الإمبراطوريات في العالم المسيحي. حكمت الأراضي المنخفضة الجنوبية، وسردانيا، وصقلية، ومملكة نابلي، ودوقية ميلان، ومساحات شاسعة في أمريكا الشمالية والجنوبية. ولكنها كانت قد فقدت القوة البحرية والحربية اللازمة للسيطرة على تجارة هذا الملك المبعثر ومصيره. وكانت أساطيلها الثمينة قد دمرها الإنجليز (1588) والهولنديون (1639)، وهزمت جيوشها هزائم فاصلة في روكروا (1643) ولينز (1648)، واعترف ديلوماسيوها في صلح البرانس (1659) بانتصار فرنسا، وكان اقتصادها يعتمد على تدفق الذهب والفضة من أمريكا، وهذا التدفق كان يقطعه المرة بعد المرة الأسطول الهولندي أو الإنجليز. وتقلصت تجارتها وصناعاتها لاعتمادها على الذهب الأجنبي واحتقار شعبها للمتاجرة. وكان الكثير من التجارة الأسبانية يحمل في سفن أجنبية. ونقص عدد السفن الأسبانية العاملة بين أسبانيا وأمريكا 75% في عام 1700 عنه في عام 1600. وكانت البضائع المصنوعة تستورد من إنجلترا وهولندا، ويدفع ثمن جزء منها فقط بتصدير النبيذ أو الزيت أو الحديد أو الصوف، والباقي يدفع سبائك ذهبية، ومعنى ذلك أن الذهب الأمريكي إنما كان يمر مروراً بأسبانيا والبرتغال في طريقه إلى إنجلترا وفرنسا والأقاليم المتحدة. وكانت قرطبة وبلنسية

صفحة رقم : 11164

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> انهيار إسبانيا

في حالة اضمحلال واع برم بعد شهرتها الماضية بحرفها. وكان طرد المغاربة قد أذى الزراعة، وغش العملة المرة بعد المرة أربك المالية. وبلغت حال الطرق من سوء وحال النقل من التخلف مبلغاً وجدت معه المدن القريبة من البحر، أو الواقعة على أنهار صالحة للملاحة، أنه أخص لها أن تستورد البضائع، حتى الغلال، من الخارج عن أن تجلبها من مصادرها في أسبانيا. وحاولت الضرائب الباهظة، بما فيها ضريبة بيع ارتفعت إلى 14%، أن تمول حروب أسبانيا ضد أعداء استعصت هزيمتهم إلى حد لا يصدق، رغم الافتراض بأنهم ملعونون من الله. وهبط مستوى المعيشة هبوطاً حمل أعداداً لا تحصى من الأسبان على هجر مزارعهم ومتاجرهم وأخيراً وطنهم. وارتفعت وفيات الأطفال، ويبدو أنه كان هناك بعض التحديد الماكر لعدد أفراد الأسرة. فقد أصبح آلاف الرجال والنساء رهباناً عقيمين أو راهبات وانطلقت آلاف أخرى للمغامرة في أراض نائية. وفقدت إشبيلية، وطليلة، وبرجوس، وسقوية بعض سكانها. وهبط سكان مدريد في القرن السابع عشر من 400.000 إلى 200.000 (52) لقد كانت أسبانيا تموت من مرض الذهب.

وفي وسط الفقر المنتشر المتكاتف كدست الطبقات العليا ثروتها وعرضتها على الأنظار. وأمسك النبلاء، الذين طال إثرؤهم باستغلال الأهالي أو بالكنوز المستوردة، عن استثمار ثروتهم في الصناعة أو التجارة، وراحوا يبهرون أبصار بعضهم البعض بالجواهر والمعدن النفيس، وبالملاهي الغالية والأثاث الفخم. من ذلك أن دوق ألفا كان يملك 7.200 من صحاف الفضة و9.600 من الآنية الفضية الأخرى، وأن أمير ستليانو صنع لزوجه محفة من الذهب والمرجان بلغ ثقلها حداً لم يسمح باستعمالها. كذلك احتفظت الكنيسة بغناها، واستكثرت منه (53)، وسط الفاقة المحيطة

بها. ورأى رئيس أساقفة سننجاو أن يبني كنيسة كاملة من الفضة، فلما تنوه عن ذلك بناها كلها بالرخام(54). لقد كان دم الشعب تربة الثروة ومجد الله.
أما ديوان التفتيش فكان على عهدنا به من شدة البأس، بل أشد بأساً من الحكومة. وقلت الاحتقالات التي يصدر فيها الحكم بالموت على المهترطين عن ذي قبل، لا لشيء إلا لأن الهرطقة كانت قد أبيدت

صفحة رقم : 11165

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> انهيار إسبانيا

حرقاً. وكانت القيود التي أعجزت الكاثوليك في إنجلترا لا تقاس بما يلقاه البروتستنت من أخطار في أسبانيا. وعجز كرومويل عن حماية التجار الإنجليز هناك. وقبض ديوان التفتيش في 1691 على الخادم البروتستنتي للسفير الإنجليزي، وفي تلك السنة نبش الشعب جثة القسيس الأنجليكاني الخاص بالسفير ومثل بها تمثيلاً. واستمر حرق اليهود المنتصرين الذين اتهموا بأنهم يضمرون يهوديتهم. وبنى ديوان التفتيش لنفسه في ميورقه قصرًا جميلاً من الثروة التي صادرها في تحقيق واحد(55). وكانت الجماهير تؤيد بحرارة هذه المحرقات وإن حاول كثير من النبلاء تثبيطها. فلما أعرب شارل الثاني في 1680 عن رغبته في أن يشهد احتقالاتاً بحرق المهترطين، تطوع صناع مدريد بأن يبنوا مدرجاً للمشهد المقدس، وفي أثناء قيامهم بالعمل كانوا يشجعون بعضهم بعضاً على الإسراع والاجتهاد بألوان من الحض الديني، لقد كان حقاً جهداً من جهود المحبة. وحضر شارل وعروسه الشابة في كل أبهة الملك، وحوكم 120 سجيناً، وأحرق واحد وعشرون حتى الموت في مرجل في الميدان الكبير، وكان هذا أعظم وأفخم احتفال بحرق المهترطين في تاريخ أسبانيا، ونشر كتاب من 308 صفحة يصف الحدث ويخلد ذكراه(56). وفي 1696 عين شارل "هيئة كبرى" لفحص مفاصد ديوان التفتيش، فقدمت تقريراً أماط اللثام عن شرور كثيرة وأدانها، ولكن الرئيس العام للديوان أقتع الملك بأن يلقي بهذا "الاتهام الرهيب" في زوايا النسيان. فلما طلبه فليب الخامس في 1701 لم يعثر على نسخة منه(57). على أن الدين خفف من غلوائه بعد ذلك وقلل من حرائقه.
أما الكنيسة فقد حاولت أن تفتدي ثروتها وتدعم الإيمان بتمويلها للفن. ففي 1677 صمم فرانشسكو دي هيريرا ايلموزو كترانية سرقسطة الثانية التي سميت "ديل بيلار" لأنها تقاخر بعمود اعتقد الناس أن العذراء نزلت عليه من السماء. وجاءت العمارة الباروكية الآن إلى أسبانيا، وبين عشية وضحاها تحول المزاج الأسباني من الاكتئاب القوطي إلى الإسراف الزخرفي. وأشهر المعماريين هنا خوزي شوريجويرا، وقد أصبح لفظ "شوريجويريسكا" حيناً علماً على الباروك الأسباني. ولد في سلمنقة عام 1665، وأبدى نشاطاً مفراطاً

صفحة رقم : 11166

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> انهيار إسبانيا

في العمارة والنحت وصناعة الأثاث والتصوير. فلما وفد على مدريد في الثالثة والعشرين دخل في مسابقة لتصميم نعش لجنازة الملكة ماريا لويزا، ففاز بالجائزة، وتوطدت شهرته بالبراعة الزخرفية العربية بفضل هذا البناء المختلط (58)، المؤلف من أعمدة عجيبة الشكل وكرانيش مكسرة، والمزين بالهياكل العظمية والعظام المتقاطعة والجماجم. ثم عاد على سلمنقة حوالي 1690، وظل يكدها عشر سنين، يزخرف الكتدرائية، ويبني المذبح العالي في كنيسة القديس أسطفان، والبهو الفخم في مجلس المدينة. وفي مدريد صمم قرب ختام حياته واجهة كنيسة القديس توما، ولما مات (1725) ترك استكمال البناء لولديه جيرونيمو ونيفولا، وفي أثناء اشتغالهما بهذه العمليات سقطت القبة فوق رعوس الكثير من العمال والمصلين فسحقتهم. وهاجر إلى المكسيك لون معتدل نوعاً ما من باروك شوريجويرا، وهناك أثمر بعض المباني التي تعد من أجمل ما شيد في أمريكا الشمالية.

وظل النحت تعبيراً قوياً عن الروح الأسبانية. وكان مصدر هذه القوة أحياناً واقعية شاذة، كما نراها بتفصيل دموي في رأس يوحنا المعمدان أو غيره من القديسين مقطوعي الرعوس. وكان متحف بلد الوليد يحتفظ برأسين من هذا النوع للقديس بولس (59). وظلت حجب المذبح لوناً أثيراً من ألوان الفن، فترى بيدرو رولدان ينحت الحجب الكبرى في كنيسة الأبرشية الملحقة بالكاتدرائية، وفي مستشفى دي لا كاريداد في إشبيلية، وابنته لويزا رولدانا، مثاله أسبانيا الفضة تتحت في كتدرائية قادمس مجموعة تماثيل تتركز حول "نوسترا سينورا دي لاس أنجوستياس" (سيدة الأحران). وهيمن بيدرو دي مينا على العصر بتمائيل عراياه (وما أندرها في الفن الأسباني)، وتمائيل السيدة العذراء، ومقعد المرتلين في كاتدرائية ملقا، ويعد تمثاله "سان فرانسيسكو" في كاتدرائية إشبيلية من أروع أمثلة النحت الأسباني. وحوالي نهاية القرن السابع عشر أدرك هذا الفن ما أدرك غيره من تدهور عام. فأتقلت الحشوات بالزخارف، وزودت التماثيل بأجهزة آلية لتحريك الرأس والعينين والفم، وأضيف الشعر والملابس الحقيقية، واللون دائماً، في جهد للوصول إلى أبسط التصور والذوق الجماهيريين. وولى عصر العملاقة في التصور الأسباني، ولكن

صفحة رقم : 11167

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> انهيار إسبانيا

بقي الكثير من صغار الأبطال. فكان خوان كارينو دي ميراندا، الذي خلف فيلا سكويز مصوراً للبلاط، محبوباً كسلفه تقريباً -رجلاً متواضعاً لطيفاً، يبلغ به الاستغراق في عمله مبلغاً ينسيه أحياناً هل أكل أو لم يأكل. وقد سرت صورته لشارل الثاني وحاشيته الملك الشاب حتى عرض عليه لقب الفروسية وصليب سنتياجو، ولكن كارينو رفض هذا التشرية لأنه رآه فوق ما يستحق. وفي تلك الأيام ابتهجت مدريد بقصة "الكنتريللو دي مييل" (برطمان العسل). وتفصيل ذلك أن فناناً مغموراً يدعى جريجوريو أوتاندي رسم لوحة للراهبات الكرمليات طلب عليها أجراً مائة دوكاتية، فاستكثرن عليه الأجر، ولكن وافقن على تحكيم كارينو. وقيل أن يسمع كارينو بالأمر، أهده أوتاندي برطمان عسل، ورجاه في أن يضع اللمساة الأخيرة للوحة. ففعل، وتحسنت الصورة كثيراً. ودش كارينو حين طلبت إليه الراهبات تقييمها. فرفض، ولكن فناناً ثالثاً قدرها بمائتي دوكاتية، وكنتم السر حتى دفع الثمن.

وفي ختام حياته يسر كارينو سبيل النجاح لأحد خلفائه، وهو كلوديو كويللو، الذي ظل يرسم أثناء الليل وأطراف النهار دون أن يحقق نتائج ذات بال. فصادقه كارينو، وحصل له على إذن بأن يدرس وينسخ أعمال تنسيانو وروبنز وفانديك في قاعات الفن الملكية. وأعانت هذه التجربة كلوديو على النضج، وفي 1684، وقيل موت كارينو بعام، عين كويللو مصوراً للملك. وقد أحرز الشهرة في وطنه بلوحته "ساجرادا فورما" أي القربانة المقدسة، التي ظهرت فيها هذه القربانة تقدم إلى شارل الثاني لوضعها على مذبح في الأسكوريال. والأسطورة التي من وراء الصورة تعبر عن مزاج أسبانيا. تقول الرواية أنه في أثناء الحرب مع الهولنديين داس بعض الكلفنيين الفجرة قطعة من خبز القربان المقدس تحت أقدامهم، وسالت من القربانة المصابة قطرات من دم، هدت للتو أحد مدنسيها إلى الكاثوليكية، وحملت القربانة

التي استنفذت إلى فيينا في احترام وإجلال، وأرسلت هدية إلى فيليب الثاني، ومنذ ذلك التاريخ وهي تعرض دورياً، ملطخة بدم المسيح على العابدين الخاشعين. وصور كويللو الملك وكبار حاشيته راكعين في تعبد أمام الخبز المعجز. وظهر في الصورة نحو خمسين

صفحة رقم : 11168

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> انهيار إسبانيا

شخصاً، كلهم تقريباً صاحب شخصية متميزة، وقد رتبوا في منظور ذي عمق خداع للبصر بشكل ملحوظ(60). بعد هذا العمل الذي اقتضاه الفراغ منه عامين، أصبح كويللو سيد الفنانين قاطبة في العاصمة غير منازع. وبعد ست سنوات (1692) حجبته بغتة وصول لوكا فاريريستو جوردانو من إيطاليا، وكلف لوكا على الفور بالدور الأول في زخرفة الأسكوريال من جديد. وزاد لوكا الطين بلة بامتداحه صور كلوديو. وأنهى كويللو الصور التي كلف بها، ولكنه ألقى فرشاته جانباً. وبعد عام من وصول جوردانو مات كويللو وهو بعد في الحادية والخمسين، وقيل قهراً وغيره(61).

وخلال ذلك شهدت إشبيلية ميلاد ووفاة (1630-90) آخر فنان عظيم في التصوير الأسباني قبل جويا، وهو خوان دي فالديس ليال. وكان مثل كويللو برتغالي الأبوين أسباني المولد. وبعد أن أنفق سنوات في قرطبة، رحل إلى إشبيلية ليتحدى تفوق موريللو. وكان فيه من الكبرياء ما لم يسمح له بأن يقدم لرعاته الجمال الناعم لعذارى (مادونات) محتشمت. وقد صور العذراء في صعودها، ولكنه وضع قلبه وقوته في صور أخرى لا تعرف هوادة في الغض من لذات الحياة والإيماء إلى الموت الذي لا مهرب منه. فرسم القديس أنطونيوس يتولى في هلع عن فتنة النساء(62). وصورت لوحته "أن أكتو أوكولي" (أي في طرفة عين) الموت هيكلًا عظيمًا يطفئ شمعة الحياة التي يكشف ضوءها القصير الأجل، في فوضى اختلطت على أرض الحجر، عدة الأطماع الدنيوية ومجد العالم-الكتب، والسلاح، وتاج أسقف، وتاج ملك، وسلسلة لطائفة "الفروة الذهبية". وفي صورة مغايرة تدور حول هذه الفكرة أرانا ليال حفرة مقبرة تبعثرت فيها الجثث والهيكل والجماجم، ومن فوقها كلها يد جميلة تمسك بميزان تحتوي إحدى كفتيه على شعارات فارس، والأخرى على شعارات أسقف، والكفة الأولى كتب عليها "نيماس" أي لا أكثر، والثانية "نيمينوس" أي لا أقل. فرجال الدنيا ورجال الدين على السواء وجدوا ناقصين في موازين الله. ورأى موريللو أول الصورتين، فقال لفالديس "إنها أيها الزميل صورة لا يستطيع المرء أن ينظر إليها دون أن يمسك بأنفه(63)"-وهي عبارة يمكن أن تفسر بأنها ثناء على واقعية المصور، أو رد فعل عقل سليم للفن المنحط.

صفحة رقم : 11169

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> انهيار إسبانيا

ذلك أن الانحطاط كان سمة للعهد، فلم يشرفه أديب عظيم، ولم تعرض على مسرحه تمثيلية فذة. أما الجامعات فكانت تنزوي وسط الخراب والظلامية السائدين، ففي جامعة سلمنقة هبط عدد الطلاب في هذه الفترة من 7.800 إلى 2.076 (64). وجاهد ديوان التفتيش وقائمة الكتب المحرمة بنجاح ليقصيا عن أسبانيا كل أدب يسيء إلى الكنيسة، وظلت أسبانيا طوال قرن توصل أبوأبها كأنها صومعة عابد في وجه حركات الذهن الأوربي. وترجع الانحطاط بشخصه على عرش الملك رمزاً للعهد.

وببيان ذلك أن شارل الثاني أصبح ملكاً وهو بعد في الرابعة (1665) وفي سني حداثة كانت أمه الملكة ماريانا تحكم البلاد اسماً، أما حاكمها الفعلي فكان كاهن اعترافها اليسوعي يوهانز ابرهارد نيزارد، ثم عشيقها فرناندو فالنزيولا. وتفاقت الفوضى، وكانت الوزارة الكفاء التي توأها دون خوان نمساوي آخر، أقصر أجلاً من أن توقف الانحلال. وفي 1677 تقلد الملك ذو الستة عشر عاماً الحكم وجلس عاجزاً على قمة هذا الصرح المنهار. ولعل النزواج المتصل بين أفراد أسرة هابسبورج أسهم في ضعف بدنه وعقله. وكانت الذن الهابسبورجية في شارل بارزة بروزاً أعجزه عن مضغ طعامه، ولسانه من الكبر بحيث لم يكذ كلامه يفهم. وظل إلى العاشرة يعامل كأنه طفل يحمل بين الذراعين. وكان لا يكاد يستطيع القراءة، ولم يتلق من التعليم إلا القليل، وكان أعز ميراثه خرافات مذهبه وأساطيره. ويصف مؤرخ أسباني كبير بأنه "عليل، أبله شديد التعلق بالخرافات"، وكان "يعتقد أنه ممسوس، وكان ألعية لأطماع كل من أحاطوا به (65)". وقد تزوج مرتين، ولكن "كان من المعروف للجميع أنه لا يستطيع توقع الخلف (66)". هذا القصير الأعرج، المصروع، الخرف، المصلع تماماً قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين، كان دائماً على شفا الموت، ولكنه حير العالم المسيحي المرة بعد المرة ببقائه على قيد الحياة.

وأصبح تفكك أوصال أسبانيا الآن مأساة أوربية. فقد ازدادت الحكومة اقتراباً من الإفلاس برغم الضرائب والتضخم واستغلال المناجم

صفحة رقم : 11170

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> انهيار إسبانيا

الأمريكية حتى عجزت عن دفع فوائد دينها، وحتى المائدة الملكية اضطرت إلى التقدير في خدمة الملك. أما البيروقراطية الإدارية التي قلت رواتبها فكانت فاسدة مترامية. واستبد الفقر بالناس حتى كانوا يقتتلون للحصول على الخبز، وسطت عصابات من الجياح على البيوت لتسرع وتقتل، وكان عشرون ألف شحاذ يجوبون شوارع مدريد. أما رجال الشرطة العاجزون عن الحصول على رواتبهم فقد تشبثوا وانضموا إلى المجرمين.

ووسط الفوضى والقلق والخراب واجه الملك المسكين، الكسيع، نصف المعتوه، الشاعر بدنو أجله، في حيرة وتذبذب، مشكلة الفصل في وراثة عرشه. وإذا كان سلطانه من الناحية النظرية مطلقاً، فإن سطرراً واحداً بخطه كان يكفي للتوصية باميراطوريته التي تمتد رقعتها في أربع قارات، أما للنمسا وأما لفرنسا. وانتصرت أمه للنمسا، ولكن شارل كان يكره تأمرها كما يكره جشع زوجته الألمانية الخبيث. وذكره السفير الفرنسي بأنه ما دام صداق عروس لويس الرابع عشر الأسبانية لم يدفع بعد، فإن تنازلها عن الوراثة قد بطل، وكان لويس يلح مطالباً بحقوقها، ويملك القوة لفرض مطلبه. فلو أن شارل داس هذه الحقوق لاشتعلت أوربا بنيران الحرب، وربما تمزقت أسبانيا إرباً في هذا الصراع. وانهار شارل تحت وطأة اتخاذ القرار، وبكى واشتكى من أن ساحرة قد ابتلته بخطوب لا قبل له بتحملها. وبينما كان يستمع إلى الحجج التي زادتته اختلاطاً حاصر مثيرو الشعب قصره صائحين في طلب الخبز.

وفي سبتمبر 1700 لزم شارل فراش الموت وكسب الحزب الفرنسي، وهو أحد الأحزاب التي أحاطت به، رئيس أساقفة طليطلة وكان كبير أساقفة أسبانيا إلى صفه، وقد لازم الملك المحتضر ليل نهار، وذكره بأن لويس الرابع عشر وحده يملك من القوة ما يتيح له الحفاظ على الإمبراطورية الأسبانية سليمة واستخدامها معقلاً للكنيسة

صفحة رقم : 11171

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجنوب المراح -> انهيار إسبانيا

الكاثوليكية. ونصح البابا إنوسنت الثاني عشر شارل بتفضيل فرنسا، وذلك تحت إلهام لويس. وخيراً أذعن شارل، ووقع الوصية المشنومة التي خلف فيها كل ممتلكاته لفيليب دوق أنجو، حفيد ملك فرنسا (3 أكتوبر 1700). وفي أول نوفمبر مات شارل، غير متجاوز التاسعة والثلاثين، وكأنه شيخ في الثمانين. وهكذا كانت خاتمة فرع الهابسبورج الأسباني في غروب شاعت فيه حمرة الحرب الداهمة.

صفحة رقم : 11172

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الصفارديم

الفصل السادس عشر

الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية

1715-1564

1- الصفارديم

إن بقاء اليهود أحياء بعد تسعة عشر قرناً من الشدة والثأر أشبه بلحن كنيبي في تاريخ الجهل، والكراهية، والشجاعة، والمرونة. ذلك أنهم بعد أن حرّموا الوطن، وأكروهوا على التماس الملجأ في جيوب عنصرية بين أعداء عتاة، وتعرضوا في كل لحظة للإهانة والظلم، وللمصادرة أو الطرد والمذابح الفجائية، دون أن يكون لهم سلاح يدافعون به عن أنفسهم سوى سلاح الصبر والمكر والتصميم اليائس والإيمان بدينهم فإنهم عاشوا مغالبيين خطوباً وشدائد لم يقو على مغالبتها شعب آخر في التاريخ، ولم تتحطم إرادتهم قط، ومن فقرهم وحزنهم أنجبوا شعراء وفلاسفة بعثوا ذكرى المشتريين والأنبياء العبرانيين الذين وضعوا الأسس الروحية للعالم الغربي.

وكان استئصال شأفة اليهود في أسبانيا الآن كاملاً تقريباً، فلم يكن لهم من بقاء الاكتياري مختبئ في الدم الأسباني، حتى أن أسقفاً أسبانياً استطاع أن يعرب عام 1595 عن ارتياحه لأن اليهود المنتصرين أمكن استيعابهم بنجاح بطريق التزاوج بينهم وبين المسيحيين، وأن أخلافهم الآن مسيحيون أنقياء(2). ولكن ديوان التفتيش لم يوافق على رأيه هذا، ففي 1654 أحرق عشرة رجال في كوينكا واثنان عشر في غرناطة، وفي 1660 قبض على واحد وثمانين في إشبيلية، وأحرق سبعة، بتهمة التمسك سرّاً بالشعائر اليهودية(3).

صفحة رقم : 11173

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الصفارديم

وفي البرتغال، على الأخص، وأصل الكثير من المنتصرين في الظاهر (الكونفرسو conversos أو المارانو) ممارسة اليهودية ونقلها في عزلة بيوتهم، ووقع أكثر من مائة منهم ضحايا لديوان التفتيش لأنهم مرتدون (relapsos) بين عامي 1565 و1595(4)-ووجد اليهود المنتصرون مكاناً قليلاً في الحياة البرتغالية كتاباً، وأساتذة، وتجاراً، وماليين، بل ورهباناً وقسيسين، على الرغم من كل أخطار الكشف عن حقيقتهم. وكان ألمع الأطباء يهوداً متخفين، وفي لشبونة طورت أسرة منديس شركة مصرفية من أعظم الشركات في أوربا.

وبعد أن اندمجت البرتغال في أسبانيا (1580)، زاد نشاط ديوان التفتيش البرتغالي، ففي السنين العشرين التالية أقيم خمسون احتقالاً لإقامة المهترطين، وحكم على 162 بالإعدام، وعلى 2.979 تائباً بالعقوبات التفكيرية، وأحرق في لشبونة (1603) راهب فرنسيسكاني يدعى ديوجودا أسومساو، يبلغ الخامسة والعشرين، بعد أن اعترف باعتناقه اليهودية(5). وهاجر إلى أسبانيا الكثير من المارانو بعد أن وجدوا ديوان التفتيش البرتغالي أشد وحشية من نظيره الأسباني. وفي 1604، بفضل رشوة قدرها 1.860.000 دوكانية دفعوها لفيليب الثالث، ورشا أقل لوزرائه، أقتنعوا الملك بأن يحصل من البابا كلمنت الثامن على مرسوم يأمر فيه قضاة التفتيش البرتغاليين بأن يفرجوا عن جميع المارانو المسجونين ويفرضوا عليهم عقوبات روحية فقط. فأطلق في يوم واحد (16 يناير 1605) سراح 410 من هؤلاء الضحايا. ولكن مفعول هذا الرشا وأمثالها كان يضعف بمضي الوقت، ولم يلبث الإرهاب البرتغالي أن عاد سيرته الأولى عقب موت فيليب الثالث (1621). ففي 1623 قبض على مائة من "المسيحيين المحدثين" في بلدة مونتيمور أونوفو. وفي كوامبرا، مركز المملكة الثقافي، قبض على 247 في 1626، وعلى 218 في 1629، وعلى 247 في 1631. وخلال عشرين عاماً (1620-40) أحرق 230 يهودياً برتغالياً شخصياً، و161 دمية تمثلهم بعد أن هربوا، و"صولح" 4.995 بعقوبات أخف(6). وفر الآن المارانو من البرتغال كما فروا من قبل من أسبانيا، مخاطرين بحياتهم وتاركين ثروتهم خلفهم إلى أركان المسكونة كلها.

صفحة رقم : 11174

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الصفارديم

والتست الكثرة العظمى من منفبي الصفارديم ملاذاً في بلاد المسلمين، وكونوا أو انضموا إلى مستوطنات يهودية في شمال أفريقية وسالونيك، والقاهرة، والأستانة، وأدرنة، وأزمير، وحلب، وإيران. في هذه المراكز تعرض اليهود لقيود سياسية واقتصادية، ولكن ندر أن تعرضوا لاضطهاد بدني. وبلغ اليهود مكانة مرموقة لا يوصفهم أطباء فحسب، بل مشاركين في شئون الدولة. من ذلك أن يوسف ناصي، أحد المارانو كان مقرباً لسليم الثاني، وكان بصفته دوق ناكسوس (1566) يتسلم إيراد عشر جزر في الأرخبيل (7). وكان يهودي ألماني يدعى سليمان بن ناثان أشكنازي سفيراً لتركيا في فيينا في 1571، ودخل في مفاوضات هناك لإبرام صلح أنهى الحرب حيناً مع الباب العالي. أما في إيطاليا فإن حظوظ اليهود كانت بين صعود وأفول تبعاً لحاجات الأدواق والبابوات وأمزجتهم. ففي ميلان ونابلي، وكلاهما كانت تحكمه أسبانيا، كادت الحيل تستحيل عليهم، وفي عام 1669 طردهم مرسوم صريح من جميع الممتلكات الأسبانية. أما في بيزا وليفورنو (لجهورن) فقد منحهم كبار الأدواق التوسكانيون الحرية الكاملة تقريباً، لحرصهم على تنمية تجارة هذين الثغرين الحرين. وصدر في 1593 مرسوم للتجار في هاتين المدينتين كان في حقيقته دعوة موجهة للمارانو "نود ألا يقوم أي... تحقيق ديني، أو افتقاد، أو تنديد، أو اتهام. ضدكم أو ضد أسركم، حتى ولو كانوا فيما مضي يعيشون خارج أملاكنا متخفين كمسيحيين، أو تسموا بأسماء المسيحيين (8)" ونجحت الخطة، وازدهرت ليفورنو، واشتهرت جاليتها اليهودية. التي لم تفقها عدداً سوى جاليتي روما والبنديقية. بتقافتها كما اشتهرت بثرائها.

أما مجلس شيوخ البندقية فكان يطرد اليهود المرة بعد المرة خوفاً عن علاقاتهم بتركيا، ويسمح لهم المرة بعد المرة بالعودة باعتبارهم عنصرراً ذا قيمة لا في التجارة والمالية فحسب بل في الصناعة أيضاً، فقد استخدمت المشاريع اليهودية في البندقية أربعة آلاف عامل مسيحي (9). واستوطنها اليهود الألمان والشرقيون كما استوطنها اليهود الصفارديم، وبسط مجلس الشيوخ عليهم حمايته من ديوان

صفحة رقم : 11175

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الصفارديم

التفتيش. وكانوا كلهم تقريباً يعيشون في حي اليهود، "الجوديك"، ولكنهم لم يلزموا بسكناه، وكان هذا "الغيت ghetto" يضم الكثير من الأسر الغنية، والبيوت الجميلة، ومجمعاً مؤثناً تأثيثاً فاخراً بني في 1584، ثم أعيد بناؤه في 1655 بإشراف المعماري الشهير بلداساري لونجينا. وكان يهود البندقية الستة الآلاف أرقى ثقافة من أي جالية يهودية في هذا العصر.

واستقرت في فرارا حوالي 1560 مستوطنة من المارانو القادمين صلاً من البرتغال، ولكنها شنتت في 1851 بأمر البابا، الذي فعل هذا تحت ضغط ديوان التفتيش البرتغالي. وفي مانتوا كان أدواق جونزاجو يحمون اليهود، ولكنهم يسلبونهم دورياً بالتبرعات و "القروض"، وفي 1610 أجبر جميع يهود مانتوا على مسكن حي مسور لليهود تقفل بواباته عند الغروب وتفتح في الفجر (10). فلما ستقشي الطاعون في مانتوا أتم اليهود بأنهم هم الذين جلبوه إليها، وحين استولى جنود الإمبراطور على المدينة إبان حرب الوراثة المانتوية، نهبوا حتى اليهود تماماً، واعتصبوا

800.000 سكودي جواهر ونقوداً، وأمروا اليهود أن يرحلوا عن مانتوا خلال ثلاثة أيام غير آخذين من مقتنياتهم إلا ما يستطيعون حمله(11).

أما في روما، حيث درج البابوات من قبل على حماية اليهود، فإنهم بعد عام 1565 (باستثناء سيكستوس الخامس) أصدروا سلسلة طويلة من المراسيم المعادية لهم. فأمر بيوس الخامس (1566) جميع السلطات الكاثوليكية بأن تطبق تطبيقاً كاملاً كل ما فرض على اليهود من قيود وحدود دينية. فلا بد منذ الآن أن يقصروا على أحياء معزولة عزلاً مادياً عن السكان المسيحيين، وعليهم أن يلبسوا شعاراً أو ثوباً مميزاً، ولا حق لهم في تملك الأرض، ولا في أن يكون لهم أكثر من مجمع واحد في أية مدينة. وفي 1569، بمقتضى مرسوم بابوي اتهم اليهود بالربا، والقوادة، والشعوذة، وفنون السحر، أمر بيوس الخامس بطرد جميع اليهود من الولايات البابوية فيما عدا مدينتي أنكونا وروما(12). وحرّم جريجوري الثالث عشر (1581) على المسيحيين استخدام الأطباء اليهود، وأمر بمصادرة الكتب العبرية، ووجد (1584) إلزام اليهود بالاستماع إلى مواظ هدفها هدايتهم

صفحة رقم : 11176

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الصغارديم

إلى المسيحية. وأنهى سيكستوس الخامس هذا الاضطهاد بعض الوقت ففتح حي اليهود (1586)، وسمح لليهود أن يسكنوا أني شاءوا في الولايات البابوية، وأعفاهم من ارتداء أي شارة أو لباس مميز، وأذن لهم بطبع التلمود وغيره من المؤلفات العبرية، ومنحهم حرية العبادة كاملة، وأمر المسيحيين بأن يعاملوا اليهود ومجامعهم بالاحترام والرافة(13). ولكن هذه البابوية المسيحية كانت قصيرة الأجل، فقد جدد كلمنت الثامن مرسوم الطرد (1593). وما حل عام 1640 حتى كان جميع يهود إيطاليا تقريباً يسكنون الغيت، فإذا بارحوه كان عليهم أن يلبسوا شارة تدل على سببهم، وحرّموا من الاشتغال بالزراعة أو الانتماء إلى الطوائف الحرفية. وقد وصف مونتيني أثناء جولته في روما عام 1581 كيف كان اليهود في السبت يلزمون بإرسال ستين من شبابهم إلى كنيسة سنتانجيلو في بسكيريا ليستمعوا إلى عظات تحضهم على اعتناق المسيحية(14). وقد شهد جون إيفلين احتقلاً كهذا في روما (7 يناير 1645)، ولا حظ أن "الاهتداء أمر نادر جداً" وكان كثير من خصائص اليهود المنفرة، سواء البدنية والخلفية، نتيجة لطول الحبس والذل والفقر.

أما في فرنسا فقد كان اليهود من الناحية النظرية خاضعين لجميع القيود التي طلب بيوس الخامس فرضها عليهم، أما من الناحية الفعلية فقد أكسبتهم أهميتهم في الصناعة والتجارة المالية تسامحاً صامتاً. وقد أكد كولبير في أحد أوامره المزايا التي تحصل عليها مرسليليا من مشروعات اليهود التجارية(15). واستقر لاجنوا المارانو في بوردو وبايون، وبلغ إسهامهم في الحياة الاقتصادية لجنوب غربي فرنسا مبلغاً حمل السلطات على السماح لهم بممارسة شعائرهم اليهودية في تخف يقل شيئاً فشيئاً. ولما غزا جيش من المرتزقة بوردو في 1675، خشي مجلس المدينة أن يعطل نزوح اليهود المتراعين في أعدا كبيرة عن المدينة ثراءها، فبدونهم كما قال ناظر ملكي في تقريره-ستخرب لا محالة تجارة بوردو والإقليم بأسره(16)". وبسط لويس الرابع عشر حمايته على اجالية اليهودية في متز، فلما عذب القضاة المحليون يهودياً حتى الموت (1670) لاتهامه بقتل طفل قتلاً طقسياً أدان الملك إعدام الرجل قائلاً إنه جريمة قتل ارتكبتها القضاء، وأمر

صفحة رقم : 11177

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الصفارديم

بأن تعرض بعد ذلك الاتهامات الجنائية لليهود على المجلس الملكي(17). وقرب ختام حكم لويس، حين أفضت حرب الوراثة الأسبانية بالحكومة الفرنسية إلى شفا الإفلاس، وضع المالي اليهودي صموئيل برنار ثروته تحت تصرف الملك، ودان الملك المتكبر بالشكر لمعونة "أعظم مصرفي في أوربا(18)".

صفحة رقم : 11178

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> أورشليم الهولندية

2- أورشليم الهولندية

لعبت هجرة اليهود من أسبانيا والبرتغال دوراً (مبالغاً فيه أحياناً)(19) في انتقال الزعامة التجارية من هاتين الدولتين إلى الأراضي المنخفضة. هناك قصد اليهود المنفيون أنتورب أولاً، ولكن في 1549 أمر شارل الخامس بأن يطرد من الأراضي المنخفضة كل المارانو الذين دخلوها من البرتغال في السنوات الخمس الأخيرة. والتمس عمد أنتورب الاستثناء من هذا المرسوم، ولكنه نفذ، واستأنف المهاجرون الجدد بحثهم عن وطن يلجئون إليه. وفقدت أنتورب تفوقها التجاري لا نتيجة لهذه الهجرة الجزئية، بل للخطوب التي ألمت بالمدينة في حرب التحرير ومعاهدة وستاليا، التي أقلت التثلت في وجه الملاحة.

واجتذبت حرية العبادة في الأقاليم المتحدة، تلك الحرية المتزايدة رغم ما شابها من نقص، اليهود إلى المدن الهولندية- إلى لاهاي، وروتردام، وهارلم، وأهم من ذلك كله أمستردام. هناك ظهر يهود المارانو في 1593، وبعد أربع سنين افتتحو مجمعاً لهم. وكانت العبرية لغة عبادتهم، والأسبانية أو البرتغالية لغتهم في حياتهم اليومية. وفي 1615، وبعد تقرير وضعه هوجو جرونديوس، أقرت سلطات المدينة رسمياً وجود الجالية اليهودية، ومنحتها حرية العبادة، ولكنها منعت اليهود من التزاوج مع المسيحيين ومن التهجم على الدين المسيحي(20)، ومن هنا هذا الذعر الذي استولى على رؤساء المجمع حين مست هرطقات أوريل أكوستا وباروخ سبينوزا أسس العقيدة المسيحية. وكان من بين اليهود نفر من أغنى التجار في الثغر المزدهر وكانوا يديرون قسماً هاماً من التجارة الهولندية مع شبه الجزيرة

صفحة رقم : 11179

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> أورشليم الهولندية

الأسبانية، ومع جزر الهند الشرقية والغربية. وفي إحدى المناسبات، في زفاف فتاة يهودية، كان أربعون من الضيوف يمتلكون ثروات جملتها أربعون مليون فلورين (21). وفي 1688، حين كان رئيس الدولة وليم الثالث يخطط لحملته التي قام بها ليظفر بتاج إنجلترا، أقرضه إسحاق سواسو فيما روي-مليون فلورين دون فائدة قائلاً "إذا حالفك الحظ ستردها إلي، وإلا فأني راض بأن أخسرها (22)". وكان بعض هذا الثراء لافتاً للنظر فوق ما ينبغي، مثال ذلك أن داود بنتو أسرف في تزيين بيته إسرافاً حمل السلطات المدنية على توبيخه (23)، على أننا يجب أن نضيف أن آل بنتو تصدقوا بالملايين على مشروعات البر اليهودية والمسيحية (24). وكان من وراء هذه الواجهة الاقتصادية حياة ثقافية نشطة، فحلت بالعلماء والأخبار والأطباء والشعراء والرياضيين والفلاسفة. وكانت المدارس توفر التعليم، وأصدرت مطبعة عبرية أسسها منسي بن إسرائيل في 1627 عدداً كبيراً من الكتب والنشرات، وسوف تكون أمستردام طوال القرنين التاليين مركز التجارة اليهودية في الكتب. وفي 1671-75 دلت الجالية البرتغالية-اليهودية على ثرائها بتشييد المجمع البديع الذي ما زال أحد معالم أمستردام، وقيل إن المسيحيين ساهموا في تكريسه. لقد كانت لحظة سعيدة في حياة اليهود المحدثين.

على أن هذه الشمس كان يشوبها الكلف. فحوالي سنة 1630 وفد اليهود الأشكنازيم (أي الشرقيون) على أمستردام من بولندا وألمانيا. وكانوا يتكلمون لهجتهم الألمانية، وأنشئوا مجعاً خاصاً بهم، وتكاثروا سريعاً، وأثاروا الكثير من العداء بين يهود الصفارديم، الذين كانوا فخورين بما بزوهم به من لغة، وثقافة، ولباس، وثروة، ونظروا إلى التزاوج مع اليهود الأشكنازيم كأنه مروق عن الدين. وتكون داخل جماعة الصفارديم انقسام طبقي، فكان صغار الحرفيين والفقراء

صفحة رقم : 11180

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> أورشليم الهولندية

المتكاثرون ينددون بـ "أصحاب الملايين" الذين يسيطرون على سياسة المجمع وموظفيه. وقد ورد في هجاء معاصر "إن الريال يحل ويربط، وهو يرفع الجهال إلى أكبر منصب في المجتمع (25)". وكان القادة الفكريون-شارل ليفي مورتييرا، وإسحاق أبواب دا فونسيكا، ومنسي بن إسرائيل-رجالاً ذوي كفاية ونزاهة، ولكنهم كانوا محافظين بحذر في شؤون السياسة والدين والأخلاق. وأصبحوا مترمنين ترمت الأسباب الذين اضطهدوا أسلافهم، ومارسوا التفتيش اليقظ عن الهرطقات المحتملة (26).

وترك منسي بن إسرائيل بصمته على التاريخ بفتح إنجلترا لليهود من جديد. ولد في لاروشيل لأبوين من المارانو وصلاً حديثاً من لشبونة، وأخذ إلى أمستردام في طفولته، وانقطع لدرس العبرية والأسبانية والبرتغالية واللاتينية والإنجليزية، واختير وهو في الثامنة عشرة واعطاً لمجمع نيفه شالوم. وقد سر المسيحيين واليهود على السواء بتأليفه "الكونسليادور" ليوثق بين التناقضات المزعومة في التوراة. وكان له الكثيرون من المراسلين والأصدقاء المسيحيين-هويت، وجروتوس، وكريستينا ملكة السويد، وديونيسيوس فوسوس الذي ترجم كتابه إلى اللاتينية، ورميرانت الذي

حفر صورته في 1636. وأهم من ذلك أنه أثار اهتمام الحالمين من المسيحيين لأنه بشر بقرب مجيء "مسيا" يحكم الأرض.
ذلك أن منسي كان قبلاً ومثالياً صوفياً يحلم بقرب العثور على أسباط إسرائيل العشرة المفقودة وتوحيدها، وبأنهم ربما كانوا اليهود الأمريكيين، وبأن اليهود سيسمح لهم بالعودة إلى إنجلترا وإسكندناوة، وبأن الأرض المقدسة ستعاد عندئذ لإسرائيل في كل مجد المسيا. وراسله النيورتان من شيعة الملكية الخامسة في إنجلترا، ومع أن مسيحيهم المنتظر لم يكن مسيحه، فإنهم رحبوا بأرائه في قرب مجيء ملكوت الله. وإذ وجد هذا التشجيع فإنه نشر (1650) رسالة عن تطلعات إسرائيل، يناشد فيها السلطات أن تزد اليهود إلى إنجلترا. وقدم لترجمة لاتينية للكتاب بمقدمة موجهة إلى البرلمان الإنجليزي، وبين أن عودة اليهود إلى وطنهم سيسبقها طبقات لنبوات الكتاب المقدس تشبههم في جميع الأقطار، ورجا الحكومة الإنجليزية أن تعين على

صفحة رقم : 11181

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> أورشليم الهولندية

تحقيق هذا الشرط الأولي بقبول اليهود في إنجلترا والسماح لهم بممارسة دينهم وبناء مجامعهم. وأعرب عن أمله في أن يؤذن له بالمجيء إلى إنجلترا ليساعد في تكوين مجتمع عبري.
وكان كرومويل ميالاً لإجابة هذا الطلب، فقال "إن تعاطفي عظيم مع هذا الشعب المسكين الذي اختاره الله وأعطاه ناموسه (27)". وبعث اللورد مدلسكس، ربما ممثلاً للبرلمان برسالة إقرار بالجميل وشكر "الأخي العزيز، الفيلسوف العبري، منسي بن إسرائيل". وزار السفير الإنجليزي في هولندا منسي، فاستقبل بالموسيقى والصلاة العبريتين (أغسطس 1651). ولكن في أكتوبر أقر البرلمان قانون ملاحه وجه بشكل ظاهر ضد التجارة الهولندية، وأفضت المنافسة التجارية إلى الحرب الهولندية الأولى (1652-54)، وكان على منسي أن يتريث حتى تواتيه الفرصة، وتلقى "برلمان بيبون" (1653) بالرضا طلبه المجدد، وأرسل إليه إنذاراً بدخول إنجلترا في أمان، فلما وضعت الحرب أوزارها أيد كرومويل الدعوة، وفي أكتوبر 1655 عبر منسي وابنه البحر إلى إنجلترا.

صفحة رقم : 11182

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إنجلترا واليهود

لم يكن مسموحاً لليهود بالعيش في إنجلترا في الفترة بين طردهم منها في 1290 وتقلد كرومويل السلطة في 1649. وربما ظهر بعض الباعة اليهود المتجولين في القرى، وبعض تجارهم وأطبائهم في المدن، ولكن كل ما كان يعرفه الإليزابيثي تقريباً عن اليهود أو يراه فيهم كان مصدره الأقاويل أو المؤلفات المسيحية. من هذين المصدرين استقى مارلو شخصية بارباس وشكسبير شخصية شيلوك. وظن بعض النقاد (28) أن شكسبير كتب "تاجر البندقية" استجابة لاقتراح من فرقته بالإفادة من عاصفة العداة للسامية التي أثارها في إنجلترا حديثاً قضية رودريجو لوبيز، الذي أعدم عام 1594 لما قيل من محاولته تسميم الملكة إليزابيث. وقد ولد لوبيز هذا في البرتغال لأبوين يهوديين، وأقام بلندن في 1559، وشق طريقه إلى التفوق في مهنة الطب. واستخدمه إيرل ليستر طبيباً له، فاتهم

صفحة رقم : 11183

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إنجلترا واليهود

بمساعده على التخلص من أعدائه بالسم، وفي 1586 أصبح كبير أطباء الملكة. وقد عالج فيمن عالج إيرل اسكس الثاني، ولكنه أثار عداة لأنه أفشى سر عله. وحوالي 1590 انضم إلى فرانسس والسنجهام في دسائس مع بلاط أسبانيا ضد دوم أنطونيو، المطالب بعرش البرتغال، وتلقى خاتماً من الماس قدره يومها بمائة جنيه، من عملاء فيليب الثاني فيما يبدو. وفي 1593 قبض على اسطفان داجاما في بيت لوبيز بتهمة التآمر على أنطونيو، وقبض على آخرين، واتهمت بعض الاعترافات لوبيز بالاشتراك في مؤامرة ضد إليزابيث. وترجم اتهام الطبيب اسكس، الذي كان يؤيد أنطونيو، فلما وضع لوبيز على دولاب التعذيب، اعترف بأنه تلقى وتكتم عرضاً بخمسين ألف دوكانية ليدس السم للملكة، ولكنه زعم أنه لم يقصد إلا لسلب مال ملك أسبانيا. فشنق هو واثان آخران وأفرغت أحشاؤهم وقطعوا أرباعاً. وقد أعلن وهو يلفظ أنفاسه أنه يحب الملكة ويحب المسيح، وهو ما أثار احتقار المتفرجين (29). وأخرج شكسبير، الميال إلى اسكس، "تاجر البندقية" بعد هذا الإعدام بشهرين، ولا بد أن كثيراً من المستمعين للمسرحية لاحظوا أن اسم الضحية التي أراد شيلوك البطش بها كان أنطونيو.

وقد خفف انتشار الكتاب المقدس، الذي عجلت به ترجمة الملك جيمس، من حدة العداة لليهود لأنها وثقت معرفة إنجلترا بالعهد القديم. وتغلغت أفكار العبرانيين القدماء ومشاعرهم في فكر البيورتان وعباراتهم. وبدت لهم حروب اليهود صورة سابقة لحروبهم مع تشارلز الأول، وكان يهوه رب الجنود-على نحو ما-أنسب لحاجاتهم من ملك السلام الذي جاء وصفه في العهد الجديد. ورسم الكثير من الكتائب البيورتانية أسد يهوذا على راياتهم، وسار أعوان كرومويل "نحو الجوانب الحديدية" إلى المعركة وهو يتغنون بأعاني كتابية. وإذ أقبل البيورتان أدب التوراة الرائع على أنه كلمة الله بحذافيرها، فإنهم أحسوا بأنهم مضطرون إلى الاعتراف باليهود مختارين من الله ليكونوا المتسلمين المباشرين لوحيه، وأخبر واعظ منهم شعب كنيسة أن اليهود ينبغي أن يظنوا مكرمين باعتبارهم مختاري الله، وسمي بعض جماعة "المسوين" أنفسهم يهوداً (30). وشعر كثير من البيورتان أن تأكيد المسيح الصريح لناмос موسى يرجح رفض بولس إياه، وحملوا جميع

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إنجلترا واليهود

المسيحيين المتمسكين بالكتاب المقدس على الالتزام بممارسة ذلك الناموس. واقترح أحد قادة البيورتان، وهو اللواء تومس هاريسون، وكان من أصدق مساعدي كرومويل به، جعل الشريعة الموسوية جزءاً من القانون الإنجليزي (31). وفي 1949 قدم مشروع قانون لمجلس العموم بتغيير يوم الرب من الأحد الوثني إلى السبت اليهودي. فالإنجليز أيضاً هم الآن في زعم البيورتان-شعب الله المختار.

وكانت جماعة صغيرة من المارانو سكنت لندن على عهد جيمس الأول (1603-25). وكانوا أول الأمر يختلفون إلى الصلوات المسيحية، ولكنهم بعد ذلك لم يعبئوا بإخفاء ولائهم لليهودية. وشارك المالئون اليهود أمثال أنطونيو كارفاجال في تلبية حاجات البرلمان الطويل والجمهورية للمال (32). فلما تقلد كرومويل السلطة استخدم التجار المارانو مصادر للمعلومات الاقتصادية والسياسية المتصلة بهولندة وأسبانيا، ولاحظ في شيء من الحسد ما أصابته التجارة الهولندية من توفيق يرجع بعضه إلى تدفق اليهود وعلاقاتهم الدولية.

وبعد أن وصل منسي بن إسرائيل إلى إنجلترا بقليل استقبله كرومويل، ووضع مسكناً في لندن تحت تصرفه. وقدم منسي ملتمساً، ونشر عن طريق الصحف "إعلاناً" بالمبررات الدينية والاقتصادية الداعية للإذن لليهود بدخول إنجلترا. وبين السبب في أن اليهود اضطرتهم القيود القانونية، وعدم أمنهم المادي والمالي، إلى الزهد في الزراعة والإقبال على التجارة. وأشار إلى يهود أمستردام يرتزقون من الاستثمار في التجارة لا من إقراض المال، وأنهم لا يتعاملون الربا بل يضعون أموالهم السائلة في مصارف ويقنعون بفائدة قدرها خمسة في المائة على ودائعهم. ودل على انعدام أي أساس للأسطورة التي زعمت أن اليهود يقتلون الأطفال المسيحيين ليستعملوا دمهم في الشعائر الدينية. وأكد للمسيحيين أن اليهود لا يبذلون محاولات ليفتنوا الناس عن دينهم. واختتم بطلب السماح لليهود بدخول إنجلترا، شريطة أن يقسموا يمين الولاء للملكة، وبأن يمنحوا الحرية الدينية، والحماية من العنف وأن يقضي أحبارهم وقوانينهم في خلافاتهم دون إضرار بالقانون والمصالح الإنجليزية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إنجلترا واليهود

وفي 4 ديسمبر 1655، جمع كرومويل في هوايتهول مؤتمراً من الفقهاء وكبار الموظفين ورجال الدين للبحث في قبول اليهود. ودافع هو شخصياً عن الفكرة بقوة وفصاحة، مؤكداً الجانب الديني والاقتصادي إذ لا بد من تبشير اليهود بالإنجيل الطاهر، ولكن "أنستطيع تبشيرهم إذا لم نحتمل عيشتهم بين ظهرانينا (33)؟" ولم تلق حججه تعاطفاً كثيراً. وأصر رجال الدين على أن لا مكان لليهود في دولة مسيحية واعترض ممثلو التجارة بأن التجار اليهود سينتزعون التجارة والثروة من أيدي الإنجليز. وقرر المؤتمر أن اليهود لا يستطيعون المقام في إنجلترا "إلا بإذن خاص من سموه (34)".

لقد كان الرأي العام معادياً لقبولهم عداءً طاعياً. وذاعت شائعات زعمت أن اليهود إذا سمح لهم بدخول إنجلترا سيحولون كندرائية القديس بولس إلى مجمع يهودي. وأصدر وليم برين (1655-56) كتاباً سماه "اعتراض موجز" جدد فيه الاتهامات القديمة لليهود بأنهم يزيفون العملة ويقتلون الأطفال، وكان قد أثار زوبعة قبل ذلك بعشرين سنة بهجومه على المسرح الإنجليزي في كتابه Historiomastix ورد بيورتاني متحمس يدعى توماس كولينز على برين، ولكنه أضعف حججه بمطالبتة بإكرام اليهود باعتبارهم شعب الله المختار. ونشر منسي نفسه (1656) "دفاعاً" ناشد فيه روح الإنصاف في الشعب الإنجليزي. وقال أيستطيعون حقاً أن يصدقوا "تلك الفرية العجيبة الرهيبة... التي تزعم أن اليهود اعتادوا الاحتفال بعيد الفطير، بتخميره بدم بعض المسيحيين الذين قتلوهم لذلك الغرض؟" وقال كم مرة من التاريخ افترى شهود الزور بمثل هذه التهم أو لم يؤيدها غير اعترافات انتزعت بالتعذيب، وكم من مرة وضحت براءة اليهود المتهمين بها بعد إعدامهم. ثم اختتم بإيمان وحرارة مؤثرين قائلاً:

"وإلى الشعب الإنجليزي الأكرم أرفع رجائي المتواضع بأن يعيدوا قراءة حججي دون تحيز، ... مسلماً نفسي تماماً إلى فضلهم ورضاهم، متضرعاً إلى الله بحرارة أن يتفضل ويعجل بالوقت الذي وعد به (النبي) صفياناً، يوم نخدمه تعالى جميعاً برأي واحد، وبطريقة واحدة، ويكون لنا كلنا رأي واحد، وأنه بما أن اسمه واحد، فكذا تكون مخافته واحدة، ونرى جود الرب (تبارك اسمه إلى الأبد) وتعزيا صهيون(35)".

صفحة رقم : 11186

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إنجلترا واليهود

ولكن الدعاء لم يكسب الشعب الإنجليزي، ولم يظفر منسي بقبول رسمي لليهود. وطرح كرومويل المشكلة جانباً في غمرة جهوده لحماية حكومته وحياته، ولكنه أجاز منسي بمعايش سنوي قدرة مائة جنيه (لم يدفع قط) من الخزنة العامة. وفي سبتمبر 1657 مات ابن منسي. وأعانتته منحة من حامي الجمهورية على نقل جثة ولده إلى هولندا لدفنها، ولكن "الرسول المبعوث إلى إنجلترا" مات في مدلبورج في 20 نوفمبر بعد أن أعياه السفر وهذه الحزن، غير مخلف من المال ما يكفي لتشييع جنازته.

على أنه في واقع الأمر لم يقبل في مهمته. كتب إيفلين في "يوميته" تحت يوم 14 ديسمبر 1655 "الآن قبل اليهود" لم يبع عودتهم إلى إنجلترا شرعاً أي مرسوم من حامي الجمهورية، أو قانون من البرلمان، ولكن أعداداً متزايدة دخلت بموافقة كرومويل الصامتة. وفي 1657 سمح لليهود لندن ببناء مقبرتهم الخاصة بوصفهم يهوداً لا مسيحيين، وما لبثوا أن افتتحوا مجمعاً ومارسوا شعائرهم في هدوء. فلما عادت الملكية إلى إنجلترا، تذكر تشارلز الثاني الدعم المالي الذي تلقاه في منفاه بهولندا من منديس داكوستا وغيره من العبرانيين، وأدرك المنافع التي حصلت عليها إنجلترا من المشروعات التجارية التي اضطلع بها يهود لندن، فأغضى عن المزيد من الهجرة اليهودية لإنجلترا. وواصل وليم الثالث هذا الموقف المتسامح وهو يذكر كذلك معونة اليهود، وذلك برغم شكاوي التجار ورجال الدين الإنجليز المتكررة. واكتسب سليمان مديناً أول لقب فروسية يهودي بخدماته متعهداً للجيش لوليم الثالث ومليبه(36). وما أقبلت سنة 1715 حتى كان السماسرة اليهود يعملون في سوق لندن المالية، والماليون اليهود قوة صغيرة في البلاد. وفي عام 1904 احتفل اليهود الإنجليز بالذكرى الثلاثمائة لمولد منسي.

صفحة رقم : 11187

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الأشكنازيم

4- الأشكنازيم

في سنة 1564 كانت بقية لا يستهان بها من المستوطنات اليهودية باقية في ألمانيا لا سيما في فرانكفورت-أم-مين، وهامبورج، وفورمز، برغم الحملات الصليبية الوسيطة ومئات التقلبات. غير أن

صفحة رقم : 11188

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الأشكنازيم

حركة الإصلاح البروتستنتي لم تكن قد خففت من تلك الكراهية التي أحس بها المسيحيون نحو شعب غريب لم يستطع أن يقبل المسيح على أنه ابن الله، بل زادت حدة. ففي فرانكفورت حرم على اليهود أن يبرحوا حيهم إلا لأمر عاجل، ولم يكن مباحاً لهم استضافة زوار من خارج المدينة دون علم القضاة، وكان عليهم أن يضعوا على ملابسهم شعاراً أو لوناً خاصاً، وأن تحمل بيوتهم علامات مميزة كثيراً ما كانت غريبة قبيحة المنظر. وقد اشترت رشوة موظفي المدينة أحياناً الإعفاءات من هذه القيود المذلة، ولكن عداء أفراد الشعب البسطاء كان خطراً دائماً يتهدد حياة اليهود وممتلكاتهم. مثال ذلك ما حدث في سبتمبر 1614 حين اقتحم جمع مسيحي باب حي اليهود بينما كانت كان معظم يهود فرانكفورت يقيمون الصلاة، وبعد أن استمتعوا بليلة من النهب والتدمير، أُجبروا 1.380 يهودياً على مبارحة المدينة دون أن يحملوا من المتاع إلا ما على أجسادهم من ثياب. وأطعمت عدة أسر مسيحية اللاجئيين وأوتهم، وألزم رئيس أساقفة مينز بلدية فرانكفورت بردهم لبيوتهم، وتعويضهم عن خسائرهم، وشنق زعيم الغوغاء (37). وبعد سنة قامت حركة ممثلة في فورمز، فطردت اليهود من المدينة وانتهكت حرمة مجامعهم ومدافنهم، ولكن رئيس أساقفة فورمز وأمير هسي-دار مشتات قدماً الملجأ للمنفيين، وبسط عليهم ناخب بالاتين حمايته في رجوعهم. ويمكن القول عموماً أن كبار الأكليروس وأفراد الطبقات العليا كانوا ميالين للتسامح، ولكن صغار الأكليروس وجماهير الشعب كان من السهل إثارتهم وإشعال نار الحقد في نفوسهم. وكانت القيود القديمة-حتى بعد تخفيفها-مسلطة أبداً فوق رعوس اليهود، واحتمالات الإهانة والأذى ماثلة في أي يوم. وكان بعض المسيحيين الغيورين يخطفون الأطفال من فوق صدور أمهاتهم ويعمدونهم بالإكراه (38). حقاً لولا الجهل لما كان للتاريخ وجود.

وتركت حرب الثلاثين يهود ألمانيا في سلامة نسبية. فقد استغرق البروتستنت والكاثوليك في قتل بعضهم البعض استغرافاً كاد ينسيهم أن يقتلوا اليهود، حتى ولو كانوا أقرضوهم مالاً. وكان الإمبراطور فرديناند الأول قد فرض لوائح ثقيلة على يهود النمسا، وطردهم من بوهميا (1559)، ولكن فرديناند الثاني حماهم، وسمح لهم بأن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الأشكنازيم

بينوا مجمعاً في فيينا الكاثوليكية وأن يخلعوا شعاراتهم، وأباح رجوع اليهود إلى بوهميا. وتعهد يهود بوهميا بدفع أربعين ألف جولدن كل عام إسهاماً منهم في القضية الإمبراطورية في تلك الحرب الكبيرة. ورغبة في تهدئة خواطر المسيحيين الذين تدمروا من سياسة فرديناند الثاني المتسامحة، أمر (1635) بأن يستمع يهود براغ كل أحد للعضات المسيحية، وفرض الغرامات عقاباً للتهرب أو النوم أثناء العضات.

واتسعت المستوطنات العبرية في ألمانيا بسرعة بعد صلح وستفاليا. فقد سوات فظائع الحرب إلى حد ما سمعة التعصب والاضطهاد. وأقبل مئات اليهود من بولندا بعد المذابح المنظمة التي تلت ثورة القوزاق التي نشبت في 1648. وفيما بين عامي 1675 و1720 كان يختلف إلى أسواق لبيزج من التجار اليهود كل سنة 648 تاجراً في المتوسط. واستعان الأمراء الألمان بالمهارة اليهودية في إدارة مالياتهم وتنظيم تموين جيوشهم وقصورهم. مثال ذلك أن صموئيل أو بنهايمر أشرف على المالية الإمبراطورية خلال الحملات التي اختتم بها القرن السابع عشر، وأشرف سمسون فرتايمر على القوميسارية الإمبراطورية في حرب الوراثة الأسبانية. وكان من أثر نفوذه الإمبراطورة مارجريت تريزا، الأسبانية المولد اليسوعية الروح، على زوجها ليوبولد الأول أنه أمر بنفي اليهود من النمسا، ولكن الناخب الأكبر فرديريك وليم رحب بكثير من المنفيين في براندنبورج، ونمت الجالية اليهودية في برلين حتى غدت من أكبر الجاليات في أوروبا.

ومنذ القرن الثاني عشر كان يهود وسط أوروبا يطورون لهجتهم "اليديشية Yiddish" المؤلف معظمها من إضافات ألمانية مع إضافات عبرية وسلافية، والمكتوبة بأحرف عبرية. وواصل اليهود المتعلمون دراسة العبرية، ولكن المطبوعات العلمانية التي نشرها الأشكنازيم أصبح معظمها باليديشية. وظهر أدب بيدي، غني بالفكاهة المرة والعاطفة البيئية، في قصص شعبية منقولة عبر القرون والحدود، وفي تمثيلات قصيرة Purimspiele لمهرجان الربيع المرح، وفي أمثال من الحكمة البسيطة (كقولهم "أب واحد يعول عشرة أبناء، ولكن عشرة أبناء لا يعولون أباً واحداً" (39)). وقبل 115 لم يكن في استطاعة هذا الأدب أن يفاخر إلا بمؤلف مرموق واحد، هو أيليا بوشر، وهو عالم

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الأشكنازيم

في العبرية وشاعر بالبيدية، كتب رومانسيات غريبة في مقطوعات ثمانية من الشعر ottava rima وترجم المزامير إلى لغة الشعب. وظهرت ترجمة بيديّة للأسفار الموسوية الخمسة في 1544، بعد خمسة عشر عاماً فقط من ترجمة لوثر الألمانية للكتاب المقدس، ونشرت ترجمة بيديّة للعهد القديم كله بأمستردام في 1676-79. لقد كان اليهود الألمان في طريقهم إلى زعامة شعبهم الثقافية.

وفي القرن العاشر دخل اليهود بولنّدة من ألمانيا وزكوا وتكاثروا تحت حماية الحكومة رغم المذابح العارضة. وفي 1501 كان هنا نحو خمسين ألف يهودي في بولنّدة، وفي 1648 نصف مليون (40)، وناصر الأعيان szlachta الذين يهيمنون على مجلس الأمة اليهود، لأن الملاك تبنوا فيهم كفاية خاصة في جميع الإيجارات وجباية الضرائب وإدارة الضياع، وكل حكام بولنّدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فيما عدا قلة منهم، من أكثر ملوك زمانهم تسامحاً. فأصدر ستيفن باتوري مرسومين يؤكدان الحقوق التجارية لليهود، ويدمغان تهم القتل الطقسي التي يرمي بها اليهود بأنها "افتراءات" قاسية لا يسمح بها في المحاكم البولندية (1567)(41). ولكن عدا الشعب لليهود لم يخف. فلم ينقض عام واحد على هذين المرسومين حتى هاجم جمع من الغوغاء الحي اليهودي في بوزنان، ونهبوا البيوت، وقتلوا كثيراً من اليهود. وفرض باتوري غرامة على موظفي المدينة لفشلهم في وقف الشغب. وواصل سجسمند الثالث سياسة التسامح الملكي.

وتضافر عاملان لإنهاء هذا العهد الذي توافرت فيه حسن نية الحكومة قبل اليهود. أولهما أن التجار الألمان في بولنّدة كرهوا منافسة اليهود لهم، فأشعلوا ثورات شعبية في بوزنان وفيلنو، حيث هدم مجمع لليهود ونهبت بيوت اليهود (1592)، وقدموا للملك ملتمساً de non tolerandis Judaeis بعدم التسامح مع اليهود (1619). وانضم إلى الحملة لوقف التسامح اليسوعيين الذين استقدم باتوري وما لبثوا أن تولوا القيادة الفكرية للكاتوليك في بولنّدة. وظفرت اتهامات اليهود بالقتل الطقسي باعتراف الحكومة بها الآن. ففي 1589 عشر في لوبلن على جثة صبي في مستنقع، فأكره ثلاثة يهود بالتعذيب على الاعتراف بأنهم قتلوه، ثم شنقوا وانتزعت أحشائهم وقطعوا

صفحة رقم : 11191

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الأشكنازيم

أرباعاً، وأصبح جثمان الصبي الذي حفظ في كنيسة كاثوليكية محل الإجلال الديني. وازدادت المؤلفات المعادية للسامية ضراوة عن ذي قبل. وفي 1618 نشر سبستيان ميشنسكي الكراكوي كتيباً اسمه "مرآة للتاج البولندي" اتهم فيه اليهود بقتل الأطفال، والسحر، والسرقة، والنصب، والخيانة، ودعا مجلس الأمة لطرد جميع اليهود من بولنّدة. وأثار الكتيب الشعور العام إثارة حملت سجسmond على مصادرتة. واتهم طبيب من بولندي الأطباء اليهود بتسميم الكاثوليك بشكل منظم (1623) وأمر الملك لاديسلاس الرابع السلطات البلدية بأن تحمي اليهود من الثورات الشعبية، وحاول التخفيف من عداة المسيحيين لهم بمنع اليهود من السكنى في الأحياء المسيحية، أو بناء مجامع جديدة، أو فتح مدافن جديدة، دون ترخيص ملكي. وألزم برلمان 1643 جميع التجار بالألا تتجاوز أرباحهم 7% إن كانوا مسيحيين، و3% إن كانوا يهوداً، وكانت النتيجة أن المسيحيين أقبلوا على الشراء من اليهود فأثروا وأثروا مزيداً من الحقد. وتكاثرت اليهود البولنديون برغم الكراهية والقيود والشدائد والفقر وبنوا المعابد والمدارس، وتناقلوا تقاليدهم وأخلاقهم ونواميسهم التي أعانتهم على الاستقرار، وصانوا إيمانهم المعزى. ونظم المدارس الأولية معلمون خصوصيون ينقدّم الأدياء أجورهم بواقع التلميذ والفترة، أما التلاميذ العاجزون عن الدفع فإن معظم الجاليات اليهودية أنفقت على مدرسة خاصة بهم من الأموال العامة. وكان حضور المدرسة الأولية إلزامياً على الصبية من السادسة إلى الثالثة عشرة. ووفر التعليم العالي في كلية (يشيبيا) يشرف عليها الأخبار. وفيما يلي وصف للنظام بقلم حبر معاصر (1653):

"كانت كل جالية يهودية تعول طلاب الكلية (الياهو) وتمنحهم قديراً من المال كل أسبوع... ويكلف كل طالب من هؤلاء الياهو بتعليم صبيين على الأقل... فالجالية ذات الخمسين أسرة يهودية تعول ما لا يقل عن ثلاثين من هؤلاء الشباب والصبيان، فتوفر الأسرة الواحدة الطعام لطلاب كلية وتلميذيه، ويجلس الطالب إلى مائدة الأسرة كواحد

صفحة رقم : 11192

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الأشكنازيم

من أبنائها... ونذر أن وجد بيت... لم تدرس فيه التوراة، أو لم يكن رب البيت، أو ابنه، أو صهره، أو طالب الكلية الذي يتناول الطعام على مائدته، خبيراً في الثقافة اليهودية(42)".
ونحن إذا نظرنا ن إذا نظرنا لى تعليم اليهود البولنديون وأديهم من وجهة نظرنا الحديثة والعلمانية، وجدناهما ربانيين بشكل ضيق، لأنهما يكادان يقتصران على التلمود، والتوراة، والقبلائية، والعبرية، ولكن لما كان التلمود مشتملاً على الشريعة اليهودية اشتماله على الدين والتاريخ اليهوديين، فقد صلح أداة لضبط الذهن ضبطاً صارماً متمعفاً. وما من ريب في أن الجاليات المطاردة شعرت بأنه لا يولد فيهم القوة على احتمال التعبير والاضطهاد والشدائد والمخاطر المتصلة غير الإيمان الديني الحار، والدراسة التي تمد جذورها في تقاليد الشعب اليهودي وعاداته. وقد ظل اليهود البولنديون يعيشون كأنهم في العصور الوسطى حتى أصبحت الحداثة حديثة بقدر يكفي لإعطائهم الحرية-أو الموت. وجاءهم عام 1648 بتذكير رهيب لهم بوضعهم القلق في العالم المسيحي. ذلك أن الثورة التي تفجرت آنذاك بين القوزاق ضد ملاكهم البولنديين واللتوانيين وقعت وطأتها على كاهل اليهود الذين كانوا يعملون وكلاء للضياع أو جباة للضرائب. فذبح الآلاف منهم في بيريباسلاف، وبيريأتين، ولوبني، وغيرها من المدن، سواء كانوا يخدمون النبلاء أو لا يخدمونهم. واحتفظ بعضهم بحياتهم إما باعتناقهم مذهب الروم الأرثوذكس، وإما بالالتجاء إلى التتار الذين باعهم عبداً. وقد اشتد غيظ القوزاق المكبوت فانتسم بشراسة لا تصدق. يقول مؤرخ روسي:
"كان القتل مصحوباً بضروب من التعذيب الهمجي: فكان الضحايا تسلخ جلودهم أحياء، أو يمزقون إرباً، أو يضرّبون بالهراوات حتى يموتوا، ويشوون على الجمر، أو يحرقون بالماء المغلي... على أن أبشع ألوان القسوة أصاب اليهود. فقد حكم عليهم بالإبادة الكاملة، وكانت أقل علامة على الرأفة بهم تعتبر خيانة. وانتزع القوزاق لفافات الشريعة من المجامع وراحوا يرقصون عليها وهم

صفحة رقم : 11193

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الأشكنازيم

يشربون الوسكي. ثم طرحوا عليها اليهود وذبوحهم بغير رحمة. وألقى آلاف الأطفال اليهود في الآبار أو أحرقوا أحياء(43)".

وروي أن 6.000 يهودي هلكوا في هذه الثورة في مدينة واحدة هي نيمبروف. وفي تولشيمن حوصر 1.500 يهودي في حديقة عامة وخيروا بين اعتناق المسيحية أو الموت، وإذا جاز لنا أن نصدق المؤرخ الأبخاري اليهودي فإن 1.500 اختاروا الموت. وقيل أن 10.000 (٤) يهودي في مدينة بولونوي قتلهم القوزاق أو أسرهم التتار. ونشبت في مدن أوكرانية أخرى مذابح منظمة أقل شأنًا. ولما تحالف القوزاق مع روسيا بعد أن تصدى لهم الجيش البولندي (1654)، انضم الجنود المسكوفيون إلى القوزاق في قتل أو طرد يهود موجيليف، وفيتيبسك، وفيلنو، وغيرها من المدن التي انتزعت من اللتوانيين أو البولنديين.

وفي 1655 خلق غزو شارل العاشر ملك السويد لبولندا مشكلة أخرى لليهود. ذلك أنهم ككثيرين من البولنديين قبلوا الفاتح السويدي دون مقاومة، منقاداً لهم من الروس المرهوبين. فلما قام جيش بولندي جديد وطرد السويديين، ذبح اليهود في جميع أرجاء ولايات بوزنان، وكاليس، وكراكو، وبيوتركوف، فيما عدا مدينة بوزنان ذاتها. وعلى الجملة كانت هذه الكوارث التي مني بها اليهود من 1684 إلى 1658 في بولندا ولتوانيا وروسيا، حتى عصرنا الحاضر، أدمي الكوارث في تاريخ اليهود الأوروبيين، ففاقت في هولها وضحاياها مذابح الحروب الصليبية، والموت الأسود. وقد حسب تقدير متحفظ أن 34.719 يهودياً ماتوا، و531 جالية يهودية أبيدت (44). هذا العقد الفاجع هو الذي بدأ هجرة اليهود الجماعية من الأراضي السلافية إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، مما أسفر عن توزيع جديد كامل للسكان اليهود على سطح الأرض.

وفي بولندا عاد من بقي من اليهود على قيد الحياة إلى بيوتهم وأعادوا في صبر بناء جالياتهم التي دمرت. وأعلن الملك يوحنا كازيمير عن عزمه على تعويض رعاياه اليهود قدر استطاعته عن النكبات التي تحملوها، فممنحهم مراسيم جديدة بالحقوق والحماية، وإعفاء مؤقتاً من الضرائب في تلك المراكز التي اشتد كربها. ولكن العداء الشعبي

صفحة رقم : 11194

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الأشكنازيم

واللاهوتي ظل قائماً، نخف منه المواساة المسيحية بين الحين والحين. ففي 1660 أعدم حيران بالتهمة القديمة التي طالما استنكرها البابوات، وهي تهمة القتل الطقسي، وفي 1663 لقي صيدلي يهودي في كراكو الموت بتهمة لم تثبت عليه، وهي أنه كتب هجاء يندد فيه بعبادة مريم العذراء، وكان موته بالترتيب الهجري الذي قضت به المحكمة: فبترت شفتاه، وأحرق يده، وقطع لسانه، وأحرق جسده على الخازوق(45). وأرسل قائد الطريقة الدومنيكية من روما (9 فبراير 1664) رسالة يحض فيها الرهبان الدومنيكان في كراكو "على الدفاع عن اليهود التمساع ضد كل قرية تقترى عليهم(46)". وفي لفوف غزا تلاميذ أكاديمية يسوعية حي اليهود، وقتلوا مائة منهم، وهدموا البيوت، وانتهكوا حرمة المجمع (1664)، ولكن الطلبة اليسوعيين في فيلنو حموا اليهود من الغوغاء محدثي الشغب (1682)(47). وحاول سوبيسكي السمع الكريم (1674-96) جاهداً أن يطيب خاطر يهود بولندا، فأكد من جديد حقوقهم المنتهكة، وحررهم من قضاء السلطات البلدية الخاضعة لعواطف الجماهير، واستمع في تعاطف إلى المندوبين الذين قدموا التماسات اليهود إلى بلاطه. فما اختتم حكمه حتى كان اليهود البولنديون قد أفاقوا، عددياً، من ذلك العقد القاسي، ولكن أهواله ظلت عالقة أجيالاً بذاكرة اليهود.

لم يكن في روسيا، قانوناً، يهود قبل 1772. وقد أبدى إيفان الرهيب رأيه فيهم في جوابه على طلب رجاء فيه سجموند الثاني أن يسمح لليهود اللتوانيين بدخول روسيا للمناجزة (1550):

"ليس من المناسب السماح لليهود بالمجيء إلى روسيا بسلعهم لأن شروراً كثيرة تتجم عنهم. ذلك أنهم يدخلون الأعشاب السامة إلى مملكتنا، ويفتنون الروس عن المسيحية إذن ينبغي له (أي الملك) ألا بعيد الكتابة عن هؤلاء اليهود(48)".

ولما احتل الجيش الروسي مدينة الحدود البولندية بولوتسك (1565)، أرسل إيفان أوامره بتحويل اليهود المحليين إلى المسيحية، أو إغراقهم. وحين نشبت الحرب بين روسيا وبولندا في 1654 أدهش الروس أن يجدوا مدناً كثيرة في لتوانيا وأوكرانيا بها

صفحة رقم : 11195

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> الأشكنازيم

أقسام كاملة أهلة باليهود. فقتلوا بعض هؤلاء "المهرطقين الخطرين"، وأخذوا بعض أسرى إلى موسكو، حيث أصبحوا نواة لمستوطنة يهودية صغيرة غير شرعية. وفي 1698 تلقى بطرس الأكبر وهو في هولندا عن طريق أعمدة أمستردام، ملتمساً مقدماً من بعض اليهود يرجونه فيه السماح لهم بدخول روسيا، وكان جوابه:

"عزيزي وينتسن، إنك تعرف اليهود، وتعرف أخلاقهم وعاداتهم، وكذلك تعرف الروس. وأنا أعرف الاثنين، وصدقني أن الوقت لم يحن للجمع بين القوميتين. فقل لليهود إنني شاكر لهم اقتراحهم، وإنني مدرك كم ستفيدني خدماتهم، ولكني مشفق عليهم أن يعيشوا بين ظهرائي الروس(49)".

وظلت هذه السياسة الروسية، سياسة إبعاد اليهود، معمولاً بها حتى الملتمس البولندي الأول (1772).

صفحة رقم : 11196

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إلهامات الإيمان

5- إلهامات الإيمان

لا بد لكي نفهم عداء المسيحيين لليهود أن ننفذ إلى ذهن كاثوليك العصور الوسطى وبروتستانت حركة الإصلاح الديني. لقد تذكروا صلب المسيح، ولكنهم لم يتذكروا جموع اليهود العريضة التي استمعت في فرح إلى المسيح ورحبت به في دخوله أورشليم. وأمنوا ببسوع ذلك "الممسوح"، ابن الله، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يروا في المسيح

ذلك المسيا الذي وعدهم بها أنبياءهم، والمخلص الذي سيحررهم من رقهم ويجعلهم من جديد شعباً حراً مرفوع الرأس. وكان عسيراً على المسيحيين أن ينظروا نظرة التسامح الأخوي إلى قلة لم تكن وحدانيتهم منافساً بعيداً كوحداية الإسلام، بل صرخة حارة، تسمع من مجامع تتكاثر في قلب العالم المسيحي- "أصغ يا إسرائيل! الرب إلهنا واحد!" وشعر المسيحيون أن العقيدة السامية المتكبرة هي تحد مائل أبداً للإيمان المسيحي الأساسي، الإيمان بأن ابن الإنسان الذي مات على الصليب هو في كل الحق ابن الله، الذي كفرت ذبيحته غير المحدودة عن خطايا الإنسان، وفتحت له أبواب الفردوس. أيمن أن يكون في الحياة شيء أئمن وأعظم تشديداً للنفوس من ذلك الإيمان؟

صفحة رقم : 11197

قصة الحضارة - < عصر لويس الرابع عشر - < محيط القارة - < الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية - < إلهامات الإيمان

ولكن يحمي مسيحيو أوروبا ذلك الإيمان حاولوا عزل اليهود بالحوجز الجغرافية، والقيود السياسية، والرقابة الفكرية، والأغلال الاقتصادية. فلم يسمح لهم بالمواطنة الكاملة وبحقوقها في أي بلد في أوروبا المسيحية قبل الثورة الفرنسية-ولا حتى في أمستردام. وحيل بينهم وبين الوظائف العامة، والجيش والمدارس والجامعات، والاشتغال بالقانون في المحاكم المسيحية. وفرضت عليهم الضرائب الباهظة، وتعرضوا للقروض الإلزامية، ولمصادرة ثروتهم في أي وقت. وأبعدوا عن الزراعة بقيود على ملكية الأرض، وبانعدام الأمن الذي ما برح ملازماً لهم والذي أكرههم على وضع مدخراتهم في النقد أو السلع المنقولة. وحرموا من الانضمام للطوائف الحرفية لأنها كانت من بعض الوجوه دينية شكلاً وهدفاً، واشترطت اليمين والشعائر المسيحية. وإذ قصر نشاطهم على الصناعات الصغيرة، وعلى التجارة والمالية، فإنهم وجدوا أنفسهم مطاردين حتى في هذه الأشغال بتحريمات خاصة تتفاوت بتفاوت المكان وتتغير في أي وقت ففي إقليم حرم عليهم أن يكونوا باعة متجولين، وفي آخر أن يتجروا في دكاكين، وفي ثالث أن يتعاملوا في الجلد أو الصوف (50). ومن ثم عاش أكثر اليهود تجاراً صغاراً، وباعة متجولين، أو تجاراً في البيضائع المستعملة أو الثياب القديمة، أو خياطين، أو خداماً لمواطنيهم الأغنياء، أو صناعاتاً يصنعون السلع لليهود. ومن هذه الأشغال، ومن ذلك العيش في الغيت، اكتسب فقراء اليهود عاداتهم تلك في الملابس والحديث، وحيل التجارة وخصائص الذهن التي مجتها الشعوب الأخرى والطبقات العليا من الناس.

ومن فوق هذه الكثرة المتواضعة كان الأخبار، والأطباء، والتجار، والماليون. وقد لعب نشاط المصدرين والمستوردين اليهود دوراً هاماً في ثراء هامبورج وأمستردام. وكان جزء على اثني عشر من تجارة إنجلترا الخارجية يمر بأيدي اليهود في النصف الأول من القرن السابع عشر (51). وغلب العنصر اليهودي في استيراد الجواهر والمنسوجات من الشرق. وانتفع اليهود في التجارة الدولية من علاقاتهم الأسرية في مختلف الدول، ومن إجادتهم اللغات، وكان لهم مسالكهم التي تصلهم منها المعلومات، فهدتهم بين الحين والحين إلى توقعات

صفحة رقم : 11198

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إلهامات الإيمان

نافعة في السوق المالية(52). ومكنتهم هذه الاتصالات الأجنبية من تطوير خطابات الاعتماد والكمبيالات. ولم يكن اليهود بالطبع مخترعي الرأسمالية الحديثة، فقد رأينا ذلك النظام ينمو مستقلاً تمام الاستقلال عنهم، وفي الصناعة أكثر منه في المالية، وكان دورهم حتى في المالية صغيراً إذا قورن بدور آل مديتشي الفلورنسيين، أو آل جريماليري الجنوبيين، أو آل فوجير الأوجزبورجيين. وكان مقرضو المال اليهود يتقاضون فوائد عالية، ولكنها لم تكن أعلى مما يتقاضاه المصرفيون المسيحيون الذين يواجهون أخطاراً معادلة.

واكتسب ذهن اليهودي، الذي شحذته الشدائد والظلم والدراسة، في التجارة والمالية مقدرة مرهفة على الكسب لم يغتفرها لليهود منافسهم قط. ولم تر أخلاقيات اليهود في الثروة أي عيب أو وصمة عار، شأنها في ذلك شأن أخلاقيات البيورتان. ورأى فيها الأحبار دعامة البر، وعصب المجمع، والملجأ الأخير إذا أريد الخلاص من أذى الملوك أو الجماهير المضطهدة. ومع ذلك فصحيح أنه وجد في الجاليات اليهودية في هولندا وألمانيا وبولندا وتركيا رجال جعلوا جمع المال مسرة نفوسهم لا مجرد أداة لحماية شعبيهم، واستعملوا في جمعية الحيلة أكثر مما استعملوا الضمير، وأظهروا بني جلدتهم بذلك المظهر المزعج مظهر الثراء العريض يلوته الترف الواضح، ولا تكفر عنه أعمال البر الكبيرة إلا جزئياً. ومن حولهم في الغيت كان ثلث إخوانهم يعيشون في فقر، لا يحول دون تصورهم جوعاً غير الصدقات(54).

ولقد عانى دين اليهود كما عانت أخلاقهم من فقر الحياة في الغيت وانطوائها وهوانها. فالأحبار الذين كانوا في العصور الوسطى رجالاً ذوي شجاعة وحكمة، أصبحوا في العصر أتباع صوفية تهرب من جحيم الاضطهاد والفاقة إلى جنة الأحلام التعويضية. وقد حل التلمود في العصور الوسطى محل التوراة روحاً لليهودية، أما الآن فقد حلت القبلانية محل التلمود. وزعم مؤلف فرانكفورت من كتاب القرن السابع عشر أنه كان في أيامه أحبار كثيرون لم يروا تورا قط(55). وكان سليمان لوريا (1510-72) علامة عينت هذا الانتقال، فقد بدأ بالتلمود، وبنى عليه كتابه "يم شيل شلومو" (بحر سليمان)، ولكن حتى ذهنه المرهف استسلم آخر الأمر للقبلانية، فقد كانت

صفحة رقم : 11199

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إلهامات الإيمان

"التقليد السري" لمتصوفة اليهود في العصر الوسيط، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا وحياً إلهياً مستتراً في رمزية الأعداد، والحروف، والألفاظ، ولا سيما في الحروف التي يتألف منها اسم يهوه الذي لا ينطق به. وكان العالم تلو العالم في الغيت يضل في هذه الأوهام، حتى لقد صرح أحدهم بأن من يهمل حكمة القبلانية السرية يستحق الحرم(56). يقول أكبر المؤرخين اليهود المحدثين أنه في القرنين السادس عشر والسابع عشر "خنقت القبلانية الطفيلية حياة اليهود الدينية بجمالها. وكل الأحبار وقادة الجاليات اليهودية تقريباً... وقعوا في شراكها" من أمستردام إلى بولندا إلى فلسطين(57).

وكان سند الحياة في نظر اليهود المشبتين على هذا النحو، والذين كثيراً ما كانوا معدمين مفترى عليهم، هو الإيمان بأنه في يوم قريب سيأتي المسيا الحقيقي لينتشلهم من وهدة تعاستهم وعارهم ويرفعهم إلى مكان القوة والمجد. ومن المؤسف أن نرى كيف كان دجال أو متعصب يظهر القرن بعد القرن فيقبله اليهود على أنه هذا المخلص الذي طال ارتقابهم له. ولقد رأينا في موضوع سابق من هذا الكتاب كيف أن داود روبيني العربي هلل له عبرانيو البحر المتوسط

في 1524 على أنه المسيا، مع أنه هو نفسه لم يدع هذا. وهاهو ذا يهودي من أزмир يدعى سبتاي زيفي، يظهر عام 1648 ويزعم أنه الفادي الموعود.

لقد بدا هذا المختار، من الناحية الجسمية، اختياراً جديراً بالإعجاب. فهو رجل طويل القامة، حسن التكوين، مليح الوجه، له شعر الشاب الصفاردي ولحيته السوداء (58) "اجتذبت كتابات سليمان لوريا إلى القبلائية، فأخضع ذاته لنظام صارم من النسك أملاً في أن يصبح بهذا جديراً بالتقليد السري" في أكمل إعلانه. فأذل جسده، وأكثر من الاستحمام في البحر في جميع الفصول، وغالى في الاحتفاظ بنظافته حتى لقد احتفل أتباعه برائحة لحمه الزكية. ولم يشعر بميل للنساء، وقد تزوج في شبابه الباكر امتثالاً للعرف اليهودي، ولكن زوجته ما لبثت أن طلقته لفشله في أداء واجباته الزوجية. ثم تزوج ثانية، بنفس النتيجة. والتف الشبان من حوله، معجبين بصوته الرخيم وهو يرتل التراتيل القبلائية، متسانلين ليس هذا قديساً مبعوثاً من السماء. وكان أبوه أحد جماعة أمنت بقرب مجيء المسيا.

صفحة رقم : 11200

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إلهامات الإيمان

وبأن ذلك لن يتجاوز سنة 1666. وسمعهم سبتاي يتنبأون بأن الفداء العظيم سيأتي على يد رجل طاهر النفس شديد الورع، ملم بأسرار القبلائية، قادر على جمع شمل كل الأبرار ليعيشوا في عصر السلام الموعود. وخيل إليه، بعد أن طهره الزهد، أنه الفادي الإلهي. وكان "الظهر"، وهو نص في القبلائية يرجع إلى القرن الثالث عشر، قد حدد السنة اليهودية 5408 (1648 الميلادية) فاتحه لعصر الفداء. في تلك السنة أعلن سبتاي أنه المسيا، وكان آنذ في الثانية والعشرين.

وصدقه رهط من مريديه. فأدانتهم حاخامية أزмир باعتبارهم مجدفين، ولكنهم أصروا، فنفوا من المدينة. وانتقل سبتاي إلى سالونيك، وهناك أقام احتفالاً قبلائياً زوج فيه نفسه للتوراة، فطرده أبحار سالونيك، فمضى إلى أثينا، ثم إلى القاهرة، حيث ضم إليه تابعاً غنياً يدعى رفايل شلبي، ثم انتقل إلى أورشليم، وهناك وقع زهده موقعاً طيباً حتى في نفوس الأبحار. وأوفدت الجالية اليهودية في أورشليم سبتاي ليلتمس المعونة في القاهرة بعد أن أفقرها انقطاع الصدقات من يهود أوكرانيا المنكوبين. فعاد إلى أورشليم مصحوباً لا بالمال بل بزوجة ثالثة تدعى سارة، أضفى حسنها الإشراف على دعاواه وفي غزة-التي مر بها في طريقه-انضم إليه تابع غني آخر يسمى ناتان غزاتي، أذاع أنه هو ذاته إيليا، ولد من جديد ليقوم الطريق أمام المسيا، وأنه لن ينقضي عام حتى يسقط المسيا السلطان العثماني ويقيم ملكوت السماوات. وصدقته آلاف اليهود، وأذلوا أجسادهم ليكفروا عن ذنوبهم ويصبحوا جديريين بالفردوس الأرضي. فلما عاد سبتاي إلى أزмир، دخل عام 1665 المجمع في رأس السنة اليهودية، وأعلن نفسه المسيا مرة أخرى. وقبله هذه المرة جمع غفير أخذته نشوة الفرح. فلما رماه حير عجوز بأنه دجال نفاه سبتاي من أزмир.

وانتشر نبأ مجيء المسيا في أرجاء غربي آسيا فكهرب الجاليات اليهودية. وحمل البشرى تجار مصر و إيطاليا، وهولندا، وألمانيا، وبولندا، إلى بلادهم، وخبروا بالمعجزات التي نسبت إلى سبتاي في عدد متزايد. وتشكك بعض اليهود، ولكن الآلاف صدقوا بعد أن أعدتهم لذلك النبوءات القبلائية والأمال الحارة. لا بل إن بعض المسيحيين

صفحة رقم : 11201

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إلهامات الإيمان

شاركوهم الابتهاج، وقالوا أن مسيا أزمير هو حقاً المسيح المولود من جديد. ذكر هنري أولدنبرج في رسالة من لندن إلى سبينوزا (ديسمبر 1655) أن "كل العالم هنا يتحدث عن شائعة عودة الإسرائيليين المشتتين منذ أكثر من ألفي عام إلى وطنهم. وقليلون يصدقون الخبر، وكثيرون يتمنونهم... فإذا تأكد، فربما أحدث ثورة في كل شيء(59)". وفي أمستردام أعلن أحبار بارزون إيمانهم بسبتاي، واحتفل في المجمع بمجيء الملكوت بالموسيقى والرقص، وطبعت كتب الصلوات لتعلم المؤمنين ضروب التكفير والتراتيل الممهدة لدخول أرض الميعاد. ففي مجمع هامبورج راح العائدون اليهود من جميع الأعمار يثبون ويطفرون ويرقصون وفي أيديهم درج الناموس. وفي بولنדה هجر يهود كثيرون بيوتهم وأملكهم ورفضوا أن يشتغلوا قائلين أن المسيا أت بشخصه سريعاً وسيقودهم في موكب النصر إلى أورشليم(60). واتخذ آلاف اليهود أهبتهم للرحيل إلى فلسطين- كان منهم أحياناً جاليات بأكملها، كجالية أفنيون. واقترح بعض المتحمسين في أزمير، الذين أثار عواطفهم ذلك الولاء العالمي لزعيمهم، أن توجه الصلوات اليهودية منذ الآن، لا إلى يهوده، بل إلى "ابن الله البكر، سبتاي زيفي، المسيا والفادي" (وكذلك كان المسيحيون يصلون للمسيح أو العذراء أكثر مما يصلون لله). وأرسل أمر من أزمير بأن يحتفل منذ الآن بأيام الحداد المقدسة عند اليهود أعياداً للفرح، وبأن كل فروض الناموس المضنية ستبطل سريعاً في أمن الملكوت وسعادته.

ويلوح أن سبتاي ذاته انتهى إلى الإيمان بقوة المعجزة. فأعلن أنه ماض إلى الأستانة، ولعل هدفه كان تحقيق نبوءة غزاني بأن المسيا سيأخذ في هدوء تاج الدولة العثمانية (بما فيها فلسطين) من السلطان. (على أن بعضهم زعم أن القاضي التركي في أزمير أمره بالمثول بين أيدي كبار موظفي الدولة في العاصمة). وقبل أن يبرح سبتاي أزمير قسم العالم وحكومته بين أخلص معاونيه. ثم انطلق إلى الأستانة في أول يناير 1666 وبرفقته نفر من مريديه. وكان قد تتبأ بتاريخ وصوله، ولكن عاصفة عطلت سفينته. وقلب رفاقه خطأ الحسابي هذا إلى برهان جديد على ألوهيته، وقالوا أنه أسكت العاصفة بكلمة إلهية منه.

صفحة رقم : 11202

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إلهامات الإيمان

وما أن رسا على ساحل الدردنيل حتى قبض عليه، وجمي به إلى الأستانة مكبلاً بالأغلال، وزج به في السجن. وبعد شهرين نقل إلى سجن أرحم في أبيدوس. وسمح لزوجته أن تلحق به، ووفد عليه أصدقائه من كل فج ليواسوه، ويقدموا له الولاء، ويأتوه بالمال. ولم يفقد أتباعه إيمانهم به، فزعموا أنه أوثق النبوءات تتبأت بأن المسيا سيرفض أولاً من رؤساء هذا العالم، الذين سيوقعون به ألواناً من العذاب والهوان. وتوقع اليهود في كل أرجاء أوربا الإفراج عنه في أي لحظة، وأنه سيحقق نبوءات أسعد. وعلق حرفاً اسمه الأولان، س، ز في المجمع. وفي أمستردام، ولجهورن، وهامبورج، كادت أعمال اليهود التجارية تتعطل تماماً، فقد اشتد إيمان اليهود هناك بأنهم عائدون جميعاً عما قريب إلى الأرض المقدسة. وتعرض من أعرب من اليهود عن شكوكهم في أن سبتاي هو المسيا لخطر الموت كل يوم.

وحير السلطات التركية ذلك الهياج الذي اضطرت له الحياة الاقتصادية لكثير من المجتمعات العثمانية، ولكن الترك خشوا أنهم لو أعدموا سبتاي بوصفه ثائراً ودجالاً لعملوا بذلك على تقديسه شهيداً، ولحولوا حركته إلى تمرد يكلفهم ثمناً غالياً، لذلك قرروا أن يجربوا حلاً سلمياً. فأخذ سبتاي إلى أدرنة. وهناك أخير بأن أمراً قضى بأن يسحل في الشوارع ويعذب بالمشاعل الموقدة، ولكن في استطاعته أن يتفادى هذه النهاية وأن يظفر بأسباب التكريم الكبير في الإسلام لو اعتنق دين محمد (صلى الله عليه وسلم)، فقبل،، وفي 14 سبتمبر مثل أمام السلطان، وأكد مروقه عن دينه بخلع ملابسه اليهودية وارتداء الزي التركي. وخلع عليه السلطان اسم محمد أفندي، وعينه حاجباً لبابه براتب كبير. ونالت سارة، التي اعتنقت الإسلام هي أيضاً، الهدايا الثمينة من السلطنة.

وقبول نبأ هذا الارتداد بالتكذيب من يهود آسيا وأوروبا وأفريقيا، ولكن حين تأكد النبأ آخر الأمر كاد ينفطر له قلب العالم اليهودي. فكاد الحاخام الأكبر في أز مير يموت خزيماً وهو الذي قبل سبتاي بعد تشكك كثير. وأصبح اليهود في كل مكان أضحوكة المسلمين والمسيحيين. وحاول أعوان سبتاي مواساة أتباعه بأن بينوا لهم أن اعتناقه الإسلام إنما هو جزء من خطة مكررة ليكسب المسلمين إلى

صفحة رقم : 11203

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> إلهامات الإيمان

صفوف اليهود، وأنه عما قريب عائد إلى الظهور يهودياً والعالم الإسلامي كله في ركابه. وحصل سبتاي على إذن بتبشير يهود أدرنة، مؤكداً للسلطات التركية أنه سيهدي سامعيه إلى الإسلام، وأصدر في الوقت نفسه رسائل سرية لليهود قال فيها أنه ما زال المسيا، وأن عليهم ألا يفقدوا إيمانهم به. ولكن لم يبد على اليهود، لا في أدرنة ولا في أي مكان آخر، أي علامة على قبولهم الإسلام. فلما خاب أمل الحكومة العثمانية رحلت سبتاي إلى أولسينج في ألبانيا، حيث لا يوجد يهود. وهناك كان المسيا المحطم في 1676. وظل المؤمنون به نصف قرن يواصلون حركته، ويؤكدون قداسته، ويعدون بقيامته من بين الأموات.

صفحة رقم : 11204

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> المهبطون

6- المهبطون

كان الأبحار علميين بأن الدين في المجتمعات اليهودية التي يطوقها أعداء عتاة هو دعامة الحياة، وحياة الشريعة، لذلك زهدوا اليهود في الدراسة العلمانية التي قد تفتح ثغرة للتشكك في الدين. من ذلك أن يوثيل سركييس، الحاخام الأكبر في كراكو، أدان الفلسفة لأنها أم الهرطقة، و "العاهرة" المهلكة التي قال فيها سليمان "كل من دخل إليها لا يؤوب(61)" ورأى حرم أي يهودي في قضائه يدمن الفلسفة. وفرع يوسف سليمان ديلميديجو لخلو منهاج الدراسة والقراءة عند اليهود من العلوم، وكان قد وفد على بولنדה (1620) من إيطاليا التي ما زالت تحيish بحرارة النهضة، وكتب يقول "هاهي ذي الظلمة تغشي البلاد والجهلة كثيرون... وهم يقولون أن الرب لا يبتهج بالسهم المشحودة في أيدي النحاة والشعراء والمناطق، ولا بمقاييس الرياضيين ولا بحسابات الفلكيين(62)".

وكان ديلميديجو هذا حفيداً بعيداً لأيليا ديلميديجو، الذي كان يعلم العبرية في أوساط آل مديتشي. وبدأ انحرافاته بتعلم اليونانية كما تعلم التلمود من أبيه، وكان حاخاماً في كريت، وحصل على بعض الترقية العلمية في جامعة بادوا التقدمية، حيث كان جليليو معلمه المشرف على دراسته ثم امتهن الطب الذي يسر له الرزق وخلع عليه اسمه الإيطالي، ولكن العلم-لا سيما الرياضة-ظل يفتنه، وفي

صفحة رقم : 11205

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> المهرطقون

سبيل طلبه نفض عنه بعض إيمانه الديني، وتعبير الإهاب القديم على هذا النحو يخلف جسداً حساساً، وقد يززع الخلق حيناً. لذلك راح يوسف ينتقل من بلد إلى بلد مقتلع الجذور لا يستقر على حال. وانضم مؤقتاً وهو في القاهرة والأسنانة إلى شيعة القرائين، وهم يهود رفضوا التقاليد والتقيحات الكهنوتية (كالبروتستنت) وتمسكوا بالتوراة مصدرأ أوحد للاهوتهم. وفي هامبورج وأمستردام وجد معلوماته الطبية أشد تخلفاً من معلومات الأطباء اليهود هناك، حتى لقد تحول في سبيل الرزق سنياً، والتحق بالحاخامية، وأخيراً دافع عن القبلانية ومات طبيبياً مغموراً في براغ (1655).

أما ليو بن إسحاق مودينا فكان إنساناً أكثر رهافة وعمقاً. اتخذ اسمه الإيطالي من المدينة التي هاجرت إليها أسرته عند طرد اليهود من فرنسا. وكان أعجوبة بين الأطفال، فقرأ الأنبياء في الثالثة، ووعظ في العاشرة، وألف أول كتبه المنشورة في الثالثة عشرة. والكتاب حوار ضد القمار، الذي كان ليو حجة فيه، لأنه ظل وقياً له إلى نهاية حياته. وكانت أعظم مقامراته زواجه في 1590 وهو في التاسعة عشرة. أما أبناؤهم الثلاثة فقد مات أحدهم في السادسة والعشرين، وقتل الثاني في عراق، انصرف الثالث إلى حياة الفجور ثم اختفى في البرازيل. وماتت إحدى بننيه وهو حي، أما الأخرى فبعد أن فقدت زوجها أصبحت عالة على أبيها الذي أصيبت زوجته بالجنون. ووسط هذه الصدمات حرم ليو لتماديه في لعب الورق. وكتب رسالة تثبت أن الأبحار تجاوزوا الناموس في قرارهم، الذي عدلوا عنه سريعاً. وكان أثناء ذلك قد ملك ناصية أدب التوراة والتلمود الرباني، ودرس الفيزياء والفلسفة، وكتب بالعبرية والإيطالية شعراً لا بأس به. فلما قبلته الحاجامية في البندقية، ألقى خطاباً إيطالية كان فيها من العلم والبلاغة ما اجتذب كثيراً من المسيحيين إلى سماعه. وكلفه أحد أصدقائه المسيحيين، وكان نبيلاً إنجليزياً، بأن يكتب عرضاً للشعائر اليهودية. وقد انتهى ليو في كتابه هذا Historia dei riti ebraici "تاريخ الشعائر العبرية" (1637) إلى أن كثيراً من المراسم التقليدية التي بعدت الآن عن هدفها الأصلي قد فقدت الكثير من دلالتها. وفي كتاب غفل من اسم المؤلف "قول صفق" اقترح تنقيح

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> المهروطون

الصلوات والطقوس العبرية وتبسيطها، وإلغاء قوانين الصوم، وخفض عدد الأيام المقدسة والتخفيف من صرامتها. وفي هذا الكتاب انتقد اليهودية الربانية لأنها مجموعة من التعقيدات التي لا مبرر لها أضيفت إلى الشريعة اليهودية الأصلية، وطالب بالرجوع من التلمود إلى التوراة، ولكنه مد هرطقاته إلى التوراة ذاتها، بل إلى الوحي الموسوي بأكمله. وقد ترك هذا التصريح الثوري دون نشر، فلما عثر عليه بين أوراقه بعد وفاته (1648)، كان مصحوباً برسالة مرافقة تدافع عن اليهودية السنية. ولم ير أحد الكتابين النور حتى عام 1852. ولو أن ليو اجترأ على نشر "قول صقل" في حياته، لبدأت حركة الإصلاح اليهودية نشاطها في القرن السابع عشر، ولكنه كان أشد ذكاء من أن يسبق التاريخ.

أما أشقى المهروطين اليهود فهو أوريل أكوستا الأمستردامي. كان أبوه ينتمي لأسرة من المارانو أقامت في أوبورتو ولاعت تماماً بين نفسها وبين المذهب الكاثوليكي. وتلقى جابرييل -وهو اسمه في البرتغال- العلم على يد اليسوعيين الذين روعوه بمواعظهم عن الجحيم، ولكنهم شحنوا ذهنه بالفلسفة الكلامية. فلما درس الكتاب المقدس أثر فيه اعترف الكنيسة بالعهد القديم كلمة الله، وقبوله المسيح ورسله الاثني عشر لناموس موسى. وانتهى إلى أن اليهودية من الله، وتشكك في حق القديس بولس في سلخ المسيحية عن اليهودية، وصمم أن يعود إلى دين أجداده في أول فرصة. فأقنع أمه وأخته (وكان أبوه قد مات) بالانضمام إليه في محاولة للزوغان من ديوان التفتيش والهروب من البرتغال. ووصلوا أمستردام بعد أن جازوا مخاطر كثيرة (حوالي 1617) وهناك غير جابرييل اسمه إلى أوريل، وأصبحت الأسرة أعضاء في مجمع اليهود البرتغاليين.

بيد أن هذه الروح ذاتها التي حدثت به إلى ترك الكنيسة، روح النقصي والتفكير المستقل، جعلته قلقاً لا يحس بالأطمئنان النفسي داخل عقائد المجمع التي لا تقل صرامة عن عقائد الكنيسة، فقد صدمه إيمان الأحبار، حتى أحبار أمستردام المتقنين، لسخافات القبلائية الفكرية، فويخ شركاءه الجدد بجرأة على تلك الطقوس والنظم التي ليس لها أساس ظاهر في التوراة، والتي رآها تتعارض أحياناً تمام التعارض

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> المهروطون

مع طرق التوراة. وإذ لم يؤت من الحاسة التاريخية إلا القليل، فقد خيل إليه أنه كان خطأ كبيراً أن تتغير الشعائر والمعتقدات اليهودية على مدى تسعة عشر قرناً. وكما رجع قبل ذلك من العهد الجديد إلى القديم، فكذلك طالب الآن بالرجوع من التلمود إلى التوراة. وكان قد نشر في 1616 بهامبورج نشرة برتغالية عنوانها "حجج ضد التقاليد" التي

بني عليها التلمود. فأرسل نسخة منها إلى مجمع اليهود بالبندقية، فأعلن المجمع حرمة (1618)، وطلب إلى ليو مودينا، وهو ذاته مهرطق، بحكم منصبه في الحاخامية، أن يفند دعوى أكوستا بأن أوامر الأبحار في كثير من الحالات ليس لها سند من الأسفار المقدسة. وأنذر أبحار أمستردام أكوستا بأنهم هم أيضاً سيحرمونه ما لم يعدل عن آرائه، وكان قد رماهم بالفريسية. فأبى، وضرب بنظم المجمع عرض الحائط جهاراً، فأعلن حرمة (1623)، وهو حرم يقطع كل صلة له بأخوانه اليهود، فتجنبه الآن حتى أقرباؤه. ولم يكن قد تعلم الهولندية بعد، فوجد نفسه بغير صديق واحد. وراح الأطفال يرمونه بالحجارة في الشوارع.

وفي مرارة عزلته تقدم (كما تقدم سبينوزا بعده بقرن) إلى هرطقة هاجمت معتقداً أساسياً لكل شخص تقريباً في أوروبا. فجاهر بأنه يرفض الإيمان بخلود النفس لأنه غريب جداً على العهد القديم، فالنفس في رأيه إنما هي الروح الحية المتدفقة في الدم، وهي تموت مع الجسد (63). وحاول طبيب يهودي يسمى صموئيل داسيلفا الرد على آراء أكوستا. فنشر بالبرتغالية "رسالة في خلود النفس" (1623) وصف فيها أكوستا بأنه جاهل، عاجز، أعمى. ورد أوريل بكتاب سماه "فحص للتقاليد الفريسية... ورد على صموئيل داسيلفا، المفترى الكذاب" (1624). ورغبة في حماية الحرية الدينية للجالية اليهودية، أعلم زعمائها قضاة أمستردام بأن أكوستا بإنكاره الخلود إنما يقوض المسيحية كما يقوض اليهودية. فقبض عليه القضاة، وغرموه ثلاثمائة جولدن، وأحرقوا كتابه. وما لبث أن أفرج عنه، ويبدو أنه لم يلحق به أذى بدني.

على أن عقابه كان عقاباً اقتصادياً واجتماعياً. ذلك أن أخوته الصغار أصبحوا معتمدين عليه، وإذن فعلى حريته- المحرمة الآن-

صفحة رقم : 11208

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> المهرطقون

في الدخول في علاقات اقتصادية مع إخوانه. ولعل هذا السبب، فضلاً عن رغبته في الزواج ثانية، هو ما دعا أوريل إلى أن يقرر الخضوع للمجمع، وإنكار هرطقاته، وأن يصبح "قرداً بين القردة" (64) على حد تعبيره. وقبل إنكاره (1633) وعاش الشك المتحمس حيناً في سلام نسبي. ولكن هرطقاته استمرت في الخفاء واتسعت. كتب في فترة لاحقة يقول "لقد خامرني الشك في ناموس موسى، أهو حقاً ناموس الله، ثم انتهيت إلى أنه من مصدر بشري (65)".

ونبذ الآن الدين كله، اللهم إلا إيماناً غامضاً بإله هو والطبيعة واحد (كما كان إيمان سبينوزا فيما بعد). وأهمل الممارسات الدينية الثقيلة المفروضة على اليهودي السني. فلما جاءه مسيحيان يعلنان عن رغبتهما في اعتناق اليهودية ثنهما وحذرهما من النير الثقيل الذي سيضعانه فوق عنقيهما. فأنهيا ذلك إلى المجمع. فاستدعاه الأبحار واستجوبوه، ووجدوه غير نادم، فأوقعوا عليه الآن حرماً آخر أشد صرامة من سابقه (1639). وعاد أقرباؤه يقصونه عن حياتهم، وشارك أخوه يوسف في اضطهاده (66).

واحتمل هذه العزلة سبع سنين، ثم عرض الخضوع حين وجدها تؤذيه أذىً بليغاً في رزقه وأمام القانون. وإذا أسخط القادة اليهود طول مقاومته وما جرت عليه من متاعب، فقد حكموا عليه بضرب من الإنكار والتكفير نقلوه عن ديوان التفتيش البرتغالي (67). فآكره، على طريقة احتفالات الديوان بإدانة المهرطقين، على أن يرقى منصة في المجمع، ويتلو أمام جمهور كبير من المصلين اعترافاً بأخطائه وذنوبه، ويتعهد بأغلظ الإيمان أنه منذ الآن سيتمثل لكل نظم الجماعة ويعيش عيشة اليهودي الصالح. ثم خلعت ثيابه إلى خصره، وجلد تسعاً وثلاثين جلدة. وأخيراً أُجبر على أن يطرح نفسه على عتبة المجمع، وخطا من فوقه الحاضرون وهم يغادرون المكان وفيهم أخوه الذي كان يناصبه العدا.

وقام من هذه العقوبة المذلة لا مدعناً بل ناقماً ساخطاً. فمضى إلى بيته، وأغلق على نفسه باب مكتبه عدة أيام وليال، وكتب آخر وأمر تنديداته باليهودية التي ضحى بالكثير في سبيل اعتناقها، والتي لم يفهم قط في تعاطف تاريخها الانطوائي، وصرامتها الواقية التي

صفحة رقم : 11209

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> محيط القارة -> الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية -> المهرطقون

فرضتها عليها قرون من الظلم. وفي كتابه هذا "مثال من حياة البشر" قص سيرته الفكرية مثلاً على ما يصيب الإنسان المفكر. وقد أحس بأن "كل الشرور تنجم عن عدم إتباع العقل الرشيد وقانون الطبيعة(68)" وقابل بين الدين "الطبيعي" والدين الموحى، ورغم أن هذا يعلم الناس البغضاء، أمام ذلك فيعلمهم المحبة. فلما فرغ من مخطوطته، حشا طينجتين، وترصد بجوار نافذته لأخيه يوسف حتى مر، وأطلق عليه النار فأخطأه(69). ثم أطلق على نفسه الرصاص (1647؟).

وحاول المجتمع اليهودي أن يدفن هذه الفاجعة في صمت، ولكن لا بد أن بعض أفراده وجدوا نسيانها عسيراً. وكان سبينوزا غلاماً في الخامسة عشرة حين أوقع على أكوستا طقم الحرم، ولعله كان بين جماعة العابدين الذين رأوه يوقع عليه. ولعله مشى في رهبة وارتياح فوق جسد المهرطق المطروح أرضاً. وعن طريق ذلك الفتى، دخلت رؤيا أكوستا تراث الفلسفة بعد أن تطهرت مما علق بها من سخط(70).

صفحة رقم : 11210

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> المعوقات

الكتاب الرابع

المغامرة الفكرية

الفصل السابع عشر

من الخرافة إلى العلم

1- المعوقات

كانت الطبيعة كما تصورها كل الأوربيين في القرن السابع عشر-فيما عدا قلة قليلة منهم-نتاجاً، أو ساحة قتال، لكائنات، خارقة، خيرة أو شريرة، تسكن أجسد البشر نفوساً، أو تسكن الأشجار والغابات والأنهار والرياح أرواحاً محيية، أو تدخل الكائنات الحية ملائكة أو شياطين، أو تجوب الهواء عفاريت خبيثة. وليس من هذه الأرواح ما يخضع لقانون لا يمكن خرقه، أو يمكن حسابه، فأى روح منها يستطيع أن يتدخل بطريقة معجزة في حركات الأحجار أو النجوم أو البهائم أو البشر، وكانت الأحداث التي لا تنجم بشكل مرئي عن المسلك الطبيعي أو المنتظم للأجسام أو العقول، تنسب لهذه القوى الخارقة التي تقوم بدور غامض خفي في شؤون هذه الدنيا، ينذر بشيء أو ينبئ بخير أو يتنبأ بالمستقبل. وكل الأشياء الطبيعية، وكل الكواكب وسكانها، وكل الأبراج والمجرات، إن هي إلا جزر لا حول لها ولا قوة في بحر خارق للطبيعة.

وقد مرت بنا ألوان من الخرافة في العصور السابقة لهذا القرن. وعمر أكثرها بعد مجيء العلم الحديث على يد كوبرنيك وفيساليوس وجاليليو، وازدهر بعضها حتى في نيوتن نفسه، لقد استمر اضمحلال التنجيم والكيمياء (الكيمياء القديمة)، ولكن المنجمين كانوا عديدين في بلاط لويس الرابع عشر(1)، وفي فيينا "كان هناك عدد هائل من المشتغلين بالكيمياء(2)" كما روت الليدي ماري ورتلي مونتاجيو في 1717. وكان البريطانيون الأشداء لا يزالون يؤمنون بالأرواح، ويتطيرون، ويدفعون ثمناً للطوالع، ويأخذون أحلامهم على أنها نبوءات، ويحسبون أيام السعود والنحوس، أما البريطانيون الأضعف منهم فيلتمسون من الملك إبراء الداء الخنازيري الذي ابتلوا به بلمسة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> المعوقات

منه. وقد ورد في العدد السابع من صحيفة "سبكتاتور" وصف للانقلاب الذي يحدثه في أسرة بريطانية قليل من الملح يتناثر، أو سكين وشوكة توضعان متقاطعتين على صحن، أو ثلاثة عشر شخاً يجمعون في حجرة أو جماعة (وبلاحظ عدم وجود طابق ثالث عشر في بعض فنادق القرن العشرين). وفي فرنسا أصبح جاك ايمير بطل زمانه (1692) لأنه كان يستطيع (في اعتقاد الكثيرين) بشد أملود بندق يمسكه بيده أن يكتشف قرب مجرم منه(3). وفي ألمانيا كانوا يستعملون عصا سحرية لوقف النزف وشفاء الجروح وجبر العظام(4). وفي السويد اتهم شتيرنهيلم بالسحر حين أحرق لحية فلاح بمرأة مكبرة، ولم ينقذ صاحب التجربة من الموت غير تدخل الملكة كرسيتينا(5). كان المتشككون في السحر يتزايد عددهم، ولكن الراجح أن المؤمنين به كانوا أكثر منهم بكثير. وكانت حاشية تشارلز الثاني لا تأبه كثيراً بأي عفاريت قد تقسد عليهم لهوهم، ولكن "الكثرة الساحقة" وأبرز المؤلفين بين رجال الدين والإنجليز، كانوا لا يزالون يؤمنون بأن البشر يستطيعون أن يتحالفوا مع الشيطان فينالوا بهذا التحالف قوي خارقة(6). وقد ذهب جوزف جلانفيل، وهو قس أنجليكاني راجح العقل قوي الأسلوب، في كتابه "خواطر فلسفية حول الساحرات والسحر" (1666) إلى أنه من العجب العجائب أن "رجالاً فيهم ذكاء وحذق في غير هذا الأمر، يتوهمون أنه ليس هناك شيء اسمه ساحرة أو شبح" ونبه قراءة إلى أن شكوكاً من هذا النوع تقضي إلى الإلحاد. كذلك رمى قسيس مشهور آخر اسمه رالف كدورث في كتابه "نظام الكون الفكري الصحيح" (1679) بالكفر كل من ينكر وجود الساحرات(7). وقد دافع أفلاطوني كمبردج، هنري مور، في كتابه "ترياق الإلحاد" (1668؟) دفاعاً حاراً عن قصة "ساحرة" تزوجت الشيطان ثلاثين عاماً، ورآه تجديفاً كبيراً أن يتشكك بتشكك في قدرة الساحرات على إثارة العواصف بالتعزيم، أو ركوب الهواء على مكنسة(8). وخف اضطهاد الساحرات شيئاً فشيئاً، ولكن رجال الدين

صفحة رقم : 11212

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> المعوقات

الاسكتلنديين تفردوا بغيرتهم المحرقة. مثال ذلك أن ست نساء في مدينة ليث عذبن بشتى ضروب التعذيب عام 1652 لحملهن على الاعتراف بالسحر، فعلقن من أباهمهن، وجلدن، ووضعن الشموع الموقدة تحت أقدامهن التي فتحت عنوة، ومات أربعة من الستة من التعذيب(9). وفي عام 1661 كان هناك أربعة عشرة محكمة تحاكم الساحرات في إسكتلندة، وفي 1664 أحرق تسع نساء معاً في ليث. واستمرت أحكام الإعدام هذه في إسكتلندة على نحو متقطع حتى 1722. وفي إنجلترا شنقت ساحرتان سنة 1664 في بوري سانت ادموندر، وأعدمت ثلاث في 1682، وعدد غير مؤكد في 1712. وقضت الحجج التي أتى بها وير، وسبي، وهوبز، وسبينوزا، وغيرهم، شيئاً فشيئاً وهم السحر في أوساط العلمانيين المتقفين ووقف المحامون والقضاة بدرجة متزايدة في وجه اللاهوتيين، ورفضوا الاتهام أو الإدانة بالسحر. وفي 1712 قضت هيئة محلفين من الإنجليز البسطاء على جين وينهام بأنها مذنبه بالسحر، ولكن القاضي رفض الحكم عليها، فندد به رجال الدين المحليون(10)، ولكن لم يعدم أحد بتهمة السحر في إنجلترا بعد ذلك التاريخ. وفي فرنسا حصل كولبير على مرسوم من لويس الرابع عشر (1672) بمنع أحكام الإدانة بتهمة السحر(11). واحتج برلمان روان بأن هذا المنع انتهاك للأمر الوارد في التوراة، "لا تدع ساحرة تعيش" (خروج 22-18)، وأفلح بعض الحكام المحليين في حرق سبع "عرافات" في فرنسا فيما بين عامي 1680 و1700، ولكننا لا نسمع بأحكام إعدام بعد

1718. واستمر الإيمان بالسحر حتى الانتصار المؤقت الذي أحرزته العقلانية في حركة تنوير القرن الثامن عشر، وما زال موجوداً في أماكن متفرقة هنا وهناك.
وتعاونت الرقابة والتعصب مع الخرافة على الحد من نمو المعرفة وانتشارها. وفي فرنسا حالت الصراعات التي احتدمت بين الملوك والبابوات، وبين الكنيسة الفرنسية والبابوية، وبين الجانسينيين واليسوعيين، وبين الكاثوليك والهيجونوت-هذه الصراعات حالت دون وحدة الرقابة. وثباتها ودقتها، وهي الرقابة التي عزلت أسبانيا في هذا العصر عن حركات العقل الأوروبي. ووجد المؤلفون المهبطون

صفحة رقم : 11213

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> المعوقات

طرقاً للروغان من الرقباء، ولعل الذكاء الفرنسي قد شحذته ضرورة التعبير عن الأفكار بطريقة تدق على فهم موظفي الرقابة. وفي كولونيا الكاثوليكية فرض رئيس الأساقفة الناخب الرقابة على الأحاديث أو المطبوعات الدينية. وفي براندنبورج البروتستنتية أمر الناخب الأكبر برقابة دقيقة ليهدي الصراع الديني. وفي إنجلترا واصلت الحكومة سجن المؤلفين البغيضين وحرقت الكتب المهترقة رغم صدور قانون التسامح (1689)(12). على أن تنوع الملل والنحل في الدول البروتستنتية جعل الرقابة فيها أقل جدوى منها في الدول الكاثوليكية، ولعل هذا بعض السبب في تفوق إنجلترا وهولندا في العلم والفلسفة في القرن السابع عشر.

لقد اتفقت المذاهب المتنافسة على التعصب. وحاجت الكنيسة الكاثوليكية في إقناع بأنه ما دام كل المسيحيين تقريباً يقبلون الكتاب المقدس على أنه كلمة الله، وبما أن ابن الله أسس الكنيسة كما نص الكتاب، فواضح إذن أن من حقها وواجبها أن تقمع الهرطقة وانتهت المذاهب البروتستنتية إلى استنتاج مماثل وإن كان أقل تعطشاً للدماء. فما دام الكتاب كلمة الله، فكل من يحيد عن تعاليمه (حسبما تفسر رسمياً) يجب على الأقل أن يجمع، وأن يكون شاكراً لأنه لم يقتل. واعترفت معاهدة وستفاليا (1648) بمذاهب شرعية ثلاثة في ألمانيا: الكاثوليكية، واللوثرية، والكلفنية، وترك كل حاكم حراً في أن يختار أيها منها، وأن يفرضه على رعاياه. أما الدول الاسكندنافية فلم تسمح بغير اللوثرية. وأما سويسرا فأباححت لكل ولاية تقرير عقيدتها. وافتتحت فرنسا الطريق إلى التسامح بإصدارها مرسوم ناننت (1598)، ثم طريق العدول عنه بإلغاء المرسوم (1685). أما إنجلترا فقد خففت بعد 1689 من القيود المفروضة على المنشقين من البروتستنت، واستمرت تفرضها على الكاثوليك، وأبادت ثلث الكاثوليك في إيرلندا. ووافق العقلاني هوبز البابوات على ضرورة عدم التسامح.

ولكن التسامح كان في ازدياد. وبدأت الدراسة الناقدة للكتاب المقدس في هذا العصر تجعل الناس أحراراً في الإعجاب به أدباً والتشكك فيه علماً، وجعل تعدد المذاهب النظام الاجتماعي أعسر فأعسر بدون التسامح المتبادل. وفي "إنجلترا الجديدة" أعلن روجر وليمز

صفحة رقم : 11214

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> المعوقات

(1644) أنها "إرادة الله وأمره" أن "تباح لجميع الناس، في جميع الأمم، أشد المعتقدات والعبادات وثنية، أو يهودية، أو تركية. أو عداء للمسيح(13)" وطالب جون ملتن بـ "النشر دون رخصة" (1644)، ودافع جريمي تيلور عن "حرية التنبؤ" (1646). وأجاز جيمس هارنجتن (1656) الحرية الدينية بغير حدود فقال: "حيث تكون الحرية المدنية كاملة، فإنها تشتمل على حرية الضمير، وحيث تكون حرية الضمير كاملة... فإن للإنسان حسبما يملئ عليه ضميره الحق في الممارسة الكاملة لدينه دون أن يكون ذلك عائقاً لترقيته أو توظيفه في الدولة(14)". أما في الدول التجارية مثل هولندا، وحتى في البندقية الكاثوليكية، فقد اقتضت ضرورات التجارة التسامح مع شتى أديان التجار القادمين من بلاد أجنبية. وهولندا المتحررة هي التي نشر سبينوزا فيها في "الرسالة اللاهوتية السياسية" (Tractatus theologico-Politicus 1670) دعوة للتسامح الكامل مع الأفكار المهرطقة، وفي هولندا دافع بيل عن التسامح في كتابه "تعقيب فلسفي على الآية: ألزمهم بالدخول" (1686)، وبعد سنين من الإقامة في هولندا نشر لوك كتابه "رسائل في التسامح" (1689). وازدادت المطالبة بالحرية الفكرية عقداً بعد عقد، حتى إذا بلغ القرن السابع عشر ختامه لا نجد كنيسة تجرؤ على صنع ما صنعتها الكنيسة برونو في 1600، أو بجاليليو في 1633 "ومع ذلك فهي تدور "Eppur si muove".

صفحة رقم : 11215

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> التعليم

2- التعليم

كانت المعرفة تنتشر في ببطء عن طريق الصحف، والمجلات، والنشرات، والكتب، والمكتبات، والمدارس، والأكاديميات، والجامعات. وأصبحت الأنباء في القرن السابع عشر سلعة تباع وتشتري، أولاً للمصريين، ثم للحكام، ثم لأي إنسان. وفي 1711 كان مجموع ما وزع من الصحف البريطانية اليومية أو الأسبوعية 44.000(15). وأدركت "الجورنال دي سافان" (صحيفة العلماء) التي تأسست في 1665 أن الأحداث في عالم الأدب والعلوم يمكن أن تكون أيضاً أنباء، فما لبثت أن رسخت أقدامها وسيطاً دولياً بين الدارسين

صفحة رقم : 11216

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> التعليم

والعلماء والأدباء. ولم تمض سنوات قليلة حتى ظهر لها منافسون، "الجورنالي دي ليطراتي" في روما، (1668)، و "الجورنالي فينيتو" في البندقية (1671) و "الاكتا ايروديتورم" في ليبزج (1682). وأسس بيل مجلة مشهورة بروتردام في 1684 تسمى "أبناء جمهورية الأدب"، وبعد عامين بدأ جان لكليير مجلة "المكتبة العالمية" الشهيرة، وقد احتوت هذه الدوريات على آراء من أهم ما صدر عن لوك وليبنتز. وكان تداول الكتب يزداد بسرعة. ففي 1701 كان هناك 178 من كبار تجار الكتب في باريس، منهم ستة وثلاثون طباعاً وناشراً (16). وكانت المكتبات قديمها وحديثها تجعل كنوزها ميسرة لعدد أكبر من القراء. وفي عام 1610 حصل السر توماس بودلي من "شركة الوراقين" على منحة تحصل مكتبة بودلي التي أنشأها في أكسفورد (1598) بمقتضاها على نسخة من كل كتاب ينشر في إنجلترا، وهكذا أصبحت في 1930 تملك 1.250.000 مجلد. وفي 1617 قضى مرسوم أصدره لويس الثالث عشر بأن تودع في المكتبة الملكية (القومية الآن) نسختان من كل مطبوع جديد في فرنسا. وفي 1622 أصبح مجموع كتب هذه المكتبة 6.000 مجلد، وفي 1715 زاد إلى 70.000، ومعظم الفضل في هذه الزيادة يرجع إلى غيرة كولبير، وفي 1926 بلغ 4.400.000. وأسس ناخب براندنبورج الأكبر مكتبة قومية ببرلين في 1661. وفي ذلك العام أوصى مازاران بمكتبته الثمينة التي ضمت 40.000 مجلد للويس الرابع عشر وفرنسا، وفي 1700 حول حفدة السر روبرت بروس كوتون ملكية المكتبة الكوتونية للمتحف البريطاني. وافتتح توماس نتسن عام 1695 بلندن أول مكتبة إنجليزية مفتوحة لعامة الشعب. أما التعليم فكان يجاهد لتعويض الخسائر التي تكبدها من جراء الحروب الدينية في فرنسا، والحرب الأهلية في إنجلترا، وحرب الثلاثين في ألمانيا. ولم تعد المدارس والآداب الألمانية إلى مكانتها التي بلغت أيام لوثر، وأولريش فون هنن، وملانكتون قبل قرنين، إلا حين جاء ليسنج (1729-81). في هذه الفترة ظلت اللاتينية غير الممتازة لغة غربية مقتصرة على القلة المتعلمة، في حين أصبحت الألمانية مجرد

صفحة رقم : 11217

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> التعليم

أداة سوقية بعد أن بلغت عنفوانها في لوثر، ولم يرق كاتب ألماني واحد إلى مقام الشهرة الدولية خلال هذا التكفير الطويل عن جيل من حرب التقتيل بين الأخوة. أما النبلاء الألمان، الذين احتقروا الحذقة اللاتينية للجامعات، فقد أرسلوا أبناءهم إلى "مدارس الفرسان Ritterakademien" أو كلفوا معلمين خصوصيين ليعودوا الشباب العريق النسب لما تتطلبه القصور الأميرية من واجبات ولطائف. وفي الطرف الآخر من السلم الاجتماعي نظم أوجست فرانكي، النقوى، في هاله معاهدة التي سماها Stiftungen، وهي مؤسسات خيرية هزأ منها الساخرون ووصفوها بـ "المدارس المهلهلة"، وظل طوال اثنين وثلاثين عاماً (1695-1727) يطعم فيها أبناء الفقراء ويكسوهم ويعلمهم. ولم يلبث أن أضاف إليها مدرسة أعلى توفر التعليم الثانوي للأمع فتنيانه ومدرسة نظيرها للأمع فتنياته. وهذه المدارس كلها كانت تخصص نصف وقتها للدين.

ووجدت الروح العلمانية في ألمانيا معبراً عنها في شخص كرستيان توماسيوس. وسنشد بذكره فيلسوفاً في موضع لاحق، أما الآن فنراه أعظم المعلمين الألمان في جيله. فبعد أن طرد من موطنه في ليبزج لهرطقاته، رحل إلى هاله في دولة براندنبورج-بروسيا الناهضة (1690)، وأدت محاضراته هناك إلى إنشاء الجامعة، وقد أصبح أشهر أساتذتها، والمناضل الذي جعل منها أول جامعة "حديثة". وقد هزأ بالسكولاستيه، وأحل الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم، وأصدر مجلة ألمانية، وأدخل البرامج العلمية في المنهج، وكافح في سبيل حرية المعلمين والطلاب في التفكير. ولقبه فردريك الأكبر أبا التنوير الألماني.

وجعل التعليم الأولي عاماً وإلزامياً للجنسين في دوقية فورتمبرج عام 1565، وفي الجمهورية الهولندية عام 1698، وفي دوقية فيمار في 1619، وفي إسكتلندا عام 1696، وفي فرنسا عام 1698، وفي إنجلترا عام 1876. وكان تخلف إنجلترا راجعاً إلى الانتشار الواسع للتعليم الأهلي بفضل الهيئات الدينية الخاصة، وإلى شعور الطبقات الحاكمة بأن تعليم الفقراء في النظام الاقتصادي السائد آنذ غير ضروري بل ربما كان غير مرغوب فيه. وقد بدأت "جمعية تشجيع

صفحة رقم : 11218

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> التعليم

المعرفة المسيحية" في 1699 تنشئ "مدارس خيرية" للأطفال الفقراء، لنشر اللاهوت والتهديب المسيحيين بصفة خاصة، واشترط أن يكون مدرسوهم كلهم أعضاء في الكنيسة الإنجليزية، وأن يحصلوا على ترخيص من الأسقف. وندد بهذا المدارس بزناد مانتفيل، الذي أحدث ضجة في 1714 بكتابه "خرافة النحل"، وقال أنها مضیعة للمال، وأن الآباء إذا كانوا أفقر من أن يدفعوا نفقات تعليم أبنائهم "فإن من الوقاحة أن يتطلعوا إلى ما فوق قدراتهم (17)". أما في فرنسا فقد عرض على كل أبرشية أن تمول مدرسة أولية. وكان المدرس عادة علمانياً، يختاره الأسقف ويشرف عليه، وكان التعليم كاثوليكياً لا تهاون فيه. أما "المدارس الصغيرة (petites coles) التي أنشأها البورجوازيال فلم تصل إلا لقلّة منتقاة من الصبيان. وفي 1684 أسس جان باتيست دالسال "اخوة المدارس المسيحية"، التي عرفت بعد قليل بالاخوة المسيحيين Fr(res Chr(ti)ns). وقد جعل لاسال، ذلك القس الزاهد، الدين جوهر التعليم الذي وفره هؤلاء "الاخوة المسيحيون" مجالنا لأبناء الفقراء. وخصص للممارسات الدينية أربع ساعات في اليوم، وأضيفت القراءة والكتابة والحساب، ولكن الهدف الذي لم يرغب عنهم قط كان تدريب الكاثوليك الأوفياء، وتخليص النفوس من طيش الحياة الدنيا ومن النار الأبدية. ووجد أن الجدل نافع لهذه الأغراض. وكان المعلمون يحضون على التعليم بالتقوية أكثر من المبدأ. وفي 1685 افتتح الاخوة المسيحيون مؤسسة لعلها كانت أول مؤسسة حديثة لتدريب معلمي المدارس الأولية.

وظل التعليم الثانوي بفرنسا في أيدي اليسوعيين، وكان لا يزال خير تعليم في البلاد المسيحية، وغيرت كليتهم اليسوعية الواقعة وراء السوربون مباشرة اسمها إلى "كلية لويس الأكبر" Coll(ge Louis-le-Grand بعد أن حضر الملك مسرحية أخرجها هناك التلاميذ في 1674. وافتتح لويس الرابع عشر في 1686، تحت إلهام مدام دمانتون، في سان-سير (على ثلاثة أميال من فرساي) أول مدرسة داخلية فرنسية للبنات. وكانت الأديار توفر التعليم العالي لبنات الصفوة ممن يدفعن نفقاته، مع التركيز دائماً على الدين. وأجمعت السلطات الكاثوليكية

صفحة رقم : 11219

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> التعليم

والبروتستنتية على أن الطبيعة البشرية تتنافر أشد التنافر مع ضوابط الحضارة بحيث لم يكن سبيل لترويضها على الفضيلة والنظام إلا سبيل مخافة الله. وما زالت محاولة تهذيب الخلق دون معونة من الدين في مرحلتها التجريبية. أما الجامعات فكانت الآن في دور الاضمحلال، وذلك باستثناء الجمهورية الهولندية، فالمذاهب الدينية المنتصرة تقوم بتطهيرها من المخالفين، والطلبة المشاغبون ينشرون فيها الفوضى، والخلافات اللاهوتية تسيطر عليها. وكانت الدرجات الجامعية في فرنسا وألمانيا تباع بالمال. ولم يكن بين أسانذتها أحد من أفذاذ فلاسفة العصر، إلا قلة من كبار العلماء، وكان هوبز، وليبنتز، وبيل، يتحدثون عن الأسانذة باحتقار لا يغتفر ضغوط الجماهير على الموظفين العموميين. وفتحت في هذه الفترة بعض الجامعات الجديدة: جامعة دويسبرج (1655)، ودرم (1675)، وكيل (1665)، ولند (1666)، وانسبروك (1673)، وهاله (1694)، وبرسلاو (1702). وكان أكثرها مؤسسات صغيرة قل أن زاد أسانذتها على العشرين وتلاميذها على الأربعمائة. وفي معظمها كان المنهج قد تجمد بمرور الزمن، واشترطات السنية شلت حركة الطلاب والمعلمين على السواء، وقد شكوا ملتن من أن الجامعات الإنجليزية "تسلب الشبان استعمال عقولهم بتعاويز من الميتافيزيقا، والمعجزات، والتقاليد، والأسفار السخيفة". وقال أنه يشعر أنه ضيع شبابه في كمبردج محاولاً أن يهضم "وليمة حمير كلها أشواك وعليق فاسد" وغير ذلك من "الهرء السفسطائي (18)" وقد استمر قيد التقاليد هذا في أكسفورد وكمبردج إلى أن حفز مثال "الجمعية الملكية"، وأستاذية نيوتن بكلية ترنتي (1702-1669)، جامعة كمبردج على أن تقسح للعلم صدارة جريئة.

وكافح الشعراء والقساوسة، والصحافيون، والفلاسفة، ليعثوا النشاط والحيوية في التعليم. ولقد لخصنا من قبل "رسالة ملتن إلى مستر هارتلب" (1644) عن المدرسة المثالية. ولكن لم يكن لوصفاته أي تأثير في التعليم الفعلي. أما في فرنسا فكان أمتع ما كتب في هذا الباب رسالة فنيولون "في تعليم البنات" (1678). وكانت مدام دبوفايييه قد طلبت إليه أن يجمل بعض المبادئ التي يهتدي بها في

صفحة رقم : 11220

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> التعليم

تعليم بناتها. وأكد الكاهن بالطبع تقوية الناموس الأخلاقي بالدين، ولكنه استنكر ما شاب التعليم الديري من تقشف وعزلة. وقال أنه يشعر أن أديار الراهبات "لا تهيب للحياة في هذه الدنيا، وهي حياة تدخلها خريجة الدير وكأنها خرجت من كهف لتقابل ضوء النهار الساطع (19)" وطالب بالطرق اللينة في التعليم، فيجب أن يوائم التعليم بين نفسه وبين طبيعة الطفل وميوله وحساسيته، لا أن يخضع التلاميذ كلهم لقاعدة جامدة واحدة. فلنعمل بالطريقة التي تعلم بها الطبيعة-لا بالتجريدات، بل بهداية الطفل إلى لب الأشياء، ولتكن ألعابهم وميولهم الطبيعية وسيلة التعليم (هاهنا بيداجوجيه روسو، وتعليم القرن العشرين "التقدمي" يشرحه كاهن من كهنة القرن السابع عشر). ويريد فنيولون أن تقرأ البنات الأدب القديمة، بلغاتها الأصلية إن استطعن، وينبغي أن يتعلمن شيئاً من التاريخ، ومن القانون ما يكفي لإدارة ضيعة، ولكن لا شأن لهن بالعلم-فعلى الفتاة أن تبدي "بعض الحياء في العلم" (une pudeur sur la science). لقد كان الكاهن الوسيم حساساً لمفاتيح الأنثى، ولم يرد بهذه المفاتيح أن تكتسي بعلم الجبر، وما كان ليفهم قط غرام فولتير بدمام دوشاتليه، أستاذة الميكانيكا النيوتونية.

وبعد مقال فنيولون هذا بعشر سنوات، نشر ديفو دعوته لتعليم النساء تعليماً عالياً. فالبنات الإنجليزيات في القرن السابع عشر لم تتح لهن إلا فرص ضئيلة في التعليم الثانوي، إذا استثنينا البيوت الغنية. فكان عليهن أن يعتمدن على المدرسين الخصوصيين، كما كان شأن استر جونسن مع جوناثان سويفت، أو أن يختلسن المعرفة بجهدهن الخاص كما فعلت ابنة ايفلين الأثيرة لديه. وعند ماكولي أن "نساء ذلك الجيل (1685-1715) الإنجليزيات، حتى في أرقى الطبقات، كن قطعاً أسوأ تعليماً منهن في أي فترة أخرى منذ حركة إحياء العلوم" (20). وقد قدر سويفت أنه لا تكاد توجد امرأة راقية واحدة في كل ألف لقنت القراءة أو الهجاء (21)، ولكن ذلك الكاهن المتشائم كان يزكو على

المبالغات. على أي حال كان رأي ديفو أن إهمال تعليم المرأة ظلم همجي "لست أعتقد أن الله تعالى جعل النساء مخلوقات غاية في الرقة والنبيل، وجملهن بهذه المفاتن... ليكن مجرد مدبرات لبيوتنا، وطاهيات، وإماء". لذلك اقترح أن يكون للبنات أكاديمية شبيهة بالمدارس الخاصة في إنجلترا، يتعلمن فيها بالإضافة إلى الموسيقى والرقص-
"اللغات،

صفحة رقم : 11221

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> التعليم

خصوصاً الفرنسية والإيطالية، وأنا أجرؤ على تقديم اقتراح مؤذ، هو تعليم المرأة أكثر من لسان واحد". وينبغي أن يتعلمن التاريخ، ويكتسبن كل آداب الحديث ولطائفه. واختتم الروائي الغزل بقوله: إن امرأة أحسنت تربيتها وتعليمها، وزودت بفنائل إضافية من المعرفة والسلوك، فهي مخلوق لا نظير له. أبدع وأرق ما في خليفة الله"، وأن "الرجل الذي كانت مثل هذه المرأة من نصيبه ليس عليه إلا أن يغتبط بها ويكون شاكراً" (22).

كان كتاب جون لوك "خواطر في التعليم" (1693)(23)، إلى حد كبير، أعمق الأبحاث التي كتبت في النظرية التربوية في عصر لويس الرابع عشر وأعظمها نفوذاً، وقد كتبه المؤلف بعد أن مارس التعليم مدرساً خصوصياً عدة سنوات في أسرة إيرل شافتسبري الأول. واقترح الفيلسوف-مترسماً بإدارات مونتيني-أن يكون هدف المعلم أولاً صحة الجسد وعافيته، فالجسم السليم شرط لا غنى عند للعقل السليم. لذلك كان على تلاميذه أن يتناولوا الطعام البسيط، ويعودوا أنفسهم على اللباس القليل، والفرش القاسي، والجو البارد، والهواء الطلق، والرياضة الكثيرة، والنوم المنتظم، والامتناع عن النبيذ أو الخمر، وعلى "قليل جداً من الدواء أو لا دواء إطلاقاً". ويأتي بعد ذلك في الزمان ولكنه يتقدم عليه في الأهمية تكوين الأخلاق، فكل التعليم سواء الجسدي أو العقلي أو الخلفي يجب أن يكون تدريباً على الفضيلة. وكما أن الجسم يجب تدريبه على الصحة باحتمال المشاق، فكذلك يجب تشكيل الخلق بغرس نكران الذات في جميع الأشياء التي تتعارض مع العقل الناضج. "ينبغي أن يعود الأطفال على إخضاع رغباتهم، والاستغناء عن مشتهياتهم، حتى وهم في المهد". فضبط الشهوات أشبه بالعمود الفقري للخلق. ويجب أن يجعل هذا الضبط ساراً ما أمكن، ولكن لا بد من الإصرار عليه في مراحل التربية كلها. ولن تكفي في ذلك الأفعال الطيبة المفردة، إذ لا بد من تربية الطالب بتكرار الأفعال الطيبة لتكون "عادات" طيبة، لأن "العادات تعمل بثبات ويسر أكثر من العقل، الذي قل أن يستنار بنزاهة ونحن أحوج ما نكون إليه، وندر أن يطاع". وبتردد لوك بين أرسطو وروسو. فهو يؤثر تعليمياً تحريرياً على تعليم يتجاهل ميل الطفل وفرديته، وينبغي أن تجعل الدروس مشوقة، والنظام رحيماً، ولكنه يقبل الفكرة القائلة بأنه من المرغوب فيه بين

صفحة رقم : 11222

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> التعليم

الحين والحين توقيع العقوبات البدنية على سوء السلوك المعتمد. يضاف إلى هذا "أن تعويد الأطفال في لطف على تحمل درجات الألم دون أحجام سبيل لإكساب أذهانهم الثبات وإرساء أساس للشجاعة والعزيمة في مستقبل حياتهم". وتربية العقل ينبغي أن تكون تدريجياً على طرائق التفكير ومشقة الاستدلال، لا خلاصة للأدب القديمة أو تراشفاً باللغات. ويجب أن تعلم الفرنسية واللاتينية للأطفال في سن مبكرة، وبالحدوث لا بالنحو. أما اليونانية والعبرية والعربية فنترك للدارسين المحترفين ويحسن أفراد وقت للجغرافيا والرياضة والفلك والتشريح، وفي مرحلة تالية للأخلاق والقانون، وأخيراً للفلسفة. "ليست مهمة التعليم أن يمكن الصغار من علم بعينه، بل أن يفتح أذهانهم ويشكلها بحيث يتيح لهم القدرة على إتقان أي علم حين يعكفون عليه في مستقبل أيامهم" وكما أن الفضيلة تعلم بالعادة فكذلك يعلم الفكر بالاستدلالات المتكررة:

"ولا سبيل إلى هذا خير من الرياضة، التي أرى بناء عليه وجوب تعليمها لكل من يتاح لهم الوقت والفرصة، لا لجعلهم رياضيين بل لجعلهم مخلوقات مفكرة... فقد ولدنا لنكون-إذا شئنا-مخلوقات مفكرة، ولكن سبيلنا إلى هذا هي الممارسة والتمرين، والواقع أننا لن نتجاوز في هذا ما أوصلنا له جهدنا وعكوفنا... وقد ذكرت الرياضة وسيلة لتقر في ذهن عادة الاستدلال بدقة وتسلسل،...، فإذا اكتسبوا طريقة الاستدلال التي توصل تلك الدراسة الذهن إليها، استطاعوا نقلها إلى ما يتاح لهم من أقسام أخرى من المعرفة(24)".

وقد قصد لوك برسائله ضرباً من "التعليم المتحرر"-أي الذي يعني أساساً بالفنون والأدب والسلوك، والذي يهدف إلى إنتاج "الجنّلمان" أي الإنسان "الكريم" المولد، الذي لن يضطر أبداً لكسب قوته بعرق جبينه. ومع أن منهاجه يسمح ببعض العلوم، فإنه على العموم

صفحة رقم : 11223

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> التعليم

يلتزم "الإنسانيات"-وهي الدراسات التي حبذها إنسانيو النهضة الأوروبية. وقد اشتمل كذلك على الرقص وركوب الخيل، والمصارعة والمثاقفة، وحتى "حرفة يدوية، بل حرفتين أو ثلاثاً"، معاوناً على الصحة والخلق، لا سبباً للرزق. أما الفنون فتعلم على سبيل الترويح لا الاحتراف، وعلى الشباب ألا يأخذ هذه الأمور مأخذ الجد الشديد، عليه أن يستمتع بالشعر، ولا ينظمه إلا للتسلية، ويجب أن يعلم الاستمتاع بالموسيقى دون أن يحاول إتقان العزف على أية آلة، فهذا يقتضيه الكثير جداً من الوقت، كما أنه يلقي بالشباب في "صحبة غريبة جداً"، وهكذا كانت رسالة لوك تجمع بين المحافظة والتحرر، فهي في استنكارها الاستغراق السكولاستي في اللغات القديمة، وتقليلها من التركيز على الدين واللاهوت، واهتمامها بالصحة والخلق، وجهدها في إعداد الشباب العريق الأصل للحياة والخدمة العامتين، كانت تومئ إلى المستقبل، وكان لها تأثير هائل في إنجلترا وأمريكا. وقد شاركت في تكوين الجانب البدني والخلقي للتربية في المدارس الخاصة "Public" الإنجليزية. فلما ترجمت الرسالة إلى الفرنسية (1695) طبعت منها خمس طبعات في خمسين سنة، وأوحت إلى روسو بالكثير من الآراء. أما تلميذ لوك، إيرل شافنبري الثالث، الذي سنلنتقي به ثانية، فلقد شرف نظريات أستاذه وخلقها.

صفحة رقم : 11224

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> الدارسون

3- الدارسون

واصل كبار الدارسين صياغة المستقبل بإنارة الماضي، وذلك برغم ما بدأ من انشغالهم باللغات المحتضرة والمناظرات الميتة، ووجد بعضهم أنفسهم مشتبهين في صراع المسيحية من الفكر الحر. ومن صغار الأدباء والعلماء من يستحق منا لفتة إجلال عابرة. مثال ذلك شارل دوفريسن، سيد كانج، الذي أدهش معاصريه وقد عرفوه محامياً في برلمان باريس بإصداره (1678) قاموساً لللاتينية الحديثة والوسيط في ثلاث مجلدات، بلغت من دقة الدراسة مبلغاً يجعلها إلى اليوم الحجة في بابها. أما بيير أوويه فقد اكتشف وحقق مخطوطة هامة لأوريجانوس، وتعلم السريانية والعربية، والكيمياء، وأجرى ثمانمائة تشريح، وكتب الشعر والقصة، واشترك

صفحة رقم : 11225

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> الدارسون

مع مدام داسييه العاملة في نشر الطبعة "الدلفية" الشهيرة ذات الستين مجلداً للآداب اللاتينية، وذلك لتعليم الدوفان (ولي العهد)، وقد عين رئيساً لأساقفة أفرانش، وحين مات خلف مكتبته التي هي الآن جزء ثمين من المكتبة القومية. وواصل أتباع بولاند من اليسوعيين نشر موسوعتهم المنيية Acta Sanctorum (أعمال القديسين) وفي باريس، وتحت قيادة جان مابيون، صنف مجمع سان-مور البندكتي (1668-1702) تاريخاً من عشرين مجلداً للقديسين البندكتيين، وألقوا بهذا الضوء إلهام على حوليات فرنسا الوسيطة وآدابها. وأعطى مابيون نفسه شكلاً جديداً للطريقة القديمة لكتابة اللاتينية بمؤلفه (De Re diplomatica 1681)، الذي لم يكن كتيباً في الدبلوماسية بل رسالة في تاريخ المراسيم والمخطوطات القديمة وطبيعتها وحجبتها. كتب مابيون بعد أن أتم جزءاً من أجزاء الضخمة، "البيت الله لا يؤخذني على أنني أنفقت هذه السنين الطوال في دراسة أعمال القديسين، دون أن أشابههم إلا قليلاً" (25). أما عملاق التبحر في الدراسات القديمة في هذا العصر فكان رنشرد بنتلي-الناظر الصارم لكلية ترنتي (بكمبردج) طوال اثنين وأربعين عاماً. فلقد أفنى شبابه في استيعاب المكتبة البولندية، وكان وهو بعد في التاسعة والعشرين من أكبر علماء أوربا تفقها في الآداب اليونانية واللاتينية والعبرية وآثارها. وفي ذلك العام (1691) نشر رسالة في مائة صفحة Epistola ad Millium موجّهة إلى "جون مل" سابق، بلغ من دقتها وعمقها العلميين أنها أذاعت صيته في طول أوربا وعرضها. واختبر في الثلاثين ليلقى أول سلسلة من المحاضرات التي دبر لها المال ووضع لها الاسم في وصية الكيميائي الورع روبرت بويل. وقد استجاب بتقدير الحجاج القوية على أن النظام الكوني الذي كشف سره في كتاب نيوتن "المبادئ" (Principia) الحديث الصدور يثبت وجود الله. وكان هذا عزاءً عظيماً لنيوتن الذي اتهم من قبل بالإلحاد. وعين بنتلي في وظيفة الأمين الملكي للمكتبة، وأعطى مسكناً في قصر سانت جيمس. وهناك كان يلتقي مراراً بنيوتن، وإيفلين، ورن، ومن قلعتة تلك خاص معركة من أشهر معارك العلم البريطاني. أما المعركة فنجمت عن مشاركة الإنجليز في الجدل القائم حول

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> الدارسون

مزايا الأدب القديم تجاه الجديد. بدأ السر وليم تمبل المعركة بمقالته "في العلم القديم والجديد" (1690) التي دافع فيها عن القديم. ولعل بنتلي كان مثيباً على المقالة لولا إشادتها بفالاريس مثلاً على علو كعب اليونان في الأدب. أما فالاريس هذا فكان دكتاتوراً حكم أجرجاس (أجرجنتو) في صقلية اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد. وقد وصفه التاريخ أو وصفته الأساطير بأنه كان يشوي أعداءه في بطن ثور نحاسي، ولكن التاريخ كرمه راعياً للأدب، وقد انحدر إلينا عبر القرون 148 خطايا قيل أنها بقلمه. ونشر هذه الخطابات عام 1695 طالب في كلية كرايست تشيرس بأكسفورد يدعى تشارلز بويل. وطالب وليمة وتون إلى بنتلي الفصل في حجبة الخطابات، إذ كان يعد طبعة ثانية (1697) لكتابه "تأملات في العلم القديم والحديث" الذي عارض فيه تمبل. ورد بنتلي بأن نسبتها إلى فالاريس خطأ وأنها كتبت في القرن الثاني للميلاد، ثم أشار عرضاً إلى بعض الهفوات في طبعة تشارلز بويل، ونشر بويل ومعلموه دفاعاً حاراً عن صحة نسبة الخطابات لفالاريس. ودخل جونانان سويفت، سكرتير تمبل، المعركة في صف أستاذه بأن هزأ ببنتلي في كتابه "معركة الكتب". وظاهر رأي الأدباء العام بويل، وحزن أصحاب بنتلي على ما بدا من انهيار سمعته. ولكن رده عليهم جدير بأن نتذكره: "إن أحداً من الناس لم تخسف سمعته إلا بيده" (26). وفي 1699 أصدر كتاباً مطولاً عنوانه "رسالة في خطابات فالاريس". ولم يثبت الكتاب صواب رأيه فحسب، بل ألقى من الضوء على تطور اللغة اليونانية ما جعل دنيا العلم والأدب تشيد به علامة جديراً بأن يقف على قدم المساواة مع كازويون وسلاماسيوس سكاليجر. وقال بنتلي أنه حتى أسلوب الخطابات ينم على القرن الذي كتبت فيه، وأضاف: "كل لغة حية لا تكف عن الحركة والتغيير، شأنها في ذلك شأن أجسام الكائنات الحية التي تفرز العرق، فبعض الألفاظ تذبذب وتصبح مهجورة، وغيرها يدخل اللغة ويزداد استعماله شيئاً فشيئاً، أو قد تحول ذات الكلمة إلى معنى ومفهوم جديدين، يحدثان بمضي الزمن من التغيير الملحوظ في جو اللغة وملاحمهما ما يحدثه الزمن في خطوط الوجه وسحنته. وكل الناس يحسون هذا في لغاتهم القومية، حيث

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> الدارسون

الاستعمال الدائم يجعل من كل إنسان ناقداً، فأى إنجليزي لا يأنس في نفسه، من مجرد صياغة الأسلوب وزيه، القدرة على التمييز بين الإنشاء الإنجليزي الجديد وإنشاء قديم انقضى عليه مائة عام؟ ومثل هذه الفروق الواقعية المحسوسة موجودة في عهود اللغة اليونانية العديدة... ولكن القلة القليلة هي التي أتت لها من التقه والمرانة على تلك اللغة ما يبلغها تلك الرهافة في الذوق" (27).

ها هنا أديب قادر على كتابة الإنجليزية قدرته على قراءة اليونانية. وفي 1699 رقى بنتلي إلى نظارة كلية ترنتي بكمبردج بإجماع الأساقفة الستة الذين عينهم وليم الثالث لترشيح من يشغل الوظيفة الشاغرة. فأحكم ضبط الطلبة، وأصلح المنهج، وبنى مختبراً للكيمياء ومرصداً للفلك. ولكنه نفر هيئة التدريس والأدب بالكلية بغطرسته وعتوه وولعه بالمال، حتى لقد حكم برفته مرتين، ولكنه ناضل للرجوع إلى وظيفته، واحتفظ بها إلى النهاية. ونشر خلال ذلك عدداً كبيراً من الدراسات اليونانية واللاتينية، وشجع ومول الطبعة الثانية من كتاب نيوتن "المبادئ" وهدم أنطوني كولنز في كتابه "ملاحظات على مقال حديث في الفكر الحر" (1713)، وغامر في تهور بالخروج من ميدانه، بأنه علق على قصيدة ملتن "الفردوس المفقود" بتصحيحات منقورة لنحو ملتن ونصه. وجلب على نفسه عداة الشاعر ألكسندر بوب إذ قال في ترجمة بوب للألياذة "قصيدة جميلة يا مستر بوب، ولكن يجب ألا تسميها هومر". روى بنتلي أن "الشبل المنذر بالشر" لم يصفح عنه قط. وهزأ بوب في "ملحمة المغفلين" The Dunciad (ابريل 1742) ببنتين من الشعر قال فيهما:
"المعلق الجبار، الذي سفهت تحقيقاته المضنية هوراس، وحقرت قوافي ملتن" (28).
وفي يوليو مات بنتلي بعد أن اصطلح عليه بوب وذات الجنب. لقد كان أعظم وأثقل أديب أنجبته إنجلترا.
وفي هذه الأثناء مد إنجليزي آخر يدعى توماس ستانلي آفاق

صفحة رقم : 11228

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> الدارسون

الذهن البريطاني بأول كتاب إنجليزي في "تاريخ الفلسفة" (1655-62)، وأدهش قراءه بتخصيص آخر مجلداته الأربعة للفلسفة الكلاسيكية (العربية). لقد أخذ العلم يجرؤ على تجاوز روما القديمة واليونان إلى الشرق الأدنى والأوسط، وكان لهذه الجراءة نتائج مزعجة. فاكتشف إدورد بوكوك وحقق أربع ترجمات سريانية لرسائل العهد الجديد (1630)، وأنشأت أكسفورد لأجله أول كرسي للغة العبرية فيها، وفتحت محاضراته فيها عيون الإنجليز على الحضارة الإسلامية. أما في فرنسا فإن الموسوعة التي ألقى فيها بارتلمي دير بيلو عمره، وهي "المكتبة الشرقية" الضخمة (1697)-التي وضع لها عنواناً فرعياً هو "قاموس عالمي شامل بصفة عامة لكل ما يتصل بمعرفة... الشرق"- هذه المكتبة كانت كشافاً عن التاريخ والعلم العربيين، ولعبت دوراً في توسيع الآفاق الفكرية توسعاً حطم كل القيود في حركة تنوير القرن الثامن عشر. وتعجب الطلاب من ذلك الغني في شعر العرب وتاريخهم وفلسفتهم، وعلومهم، ولاحظوا كيف حافظ العرب على علم اليونان وفلسفتهم في الوقت الذي طواهما فيه النسيان إبان عصور غربي أوروبا المظلمة، وعرفوا أن محمداً لم يكن مجرد دجال أفاك بل كان حاكماً ذكياً وسياسياً أريباً، وحيروهم ألا يجدوا في العالم المسيحي جرائم أكثر ولا فضائل أقل مما في العالم المسيحي. وأصبحت نسبية الأخلاق واللاهوت خميرة مذيبة في ذهن المسيحية.

وكان من أثر الدراسات للتاريخ الشرقي بما فيه المصري والصيني تقويض الحساب اليهودي الذي أرخ خلق العالم بسنة 3761 قبل الميلاد، والحساب الذي وضعه جيمس آش، رئيس الأساقفة الأنجليكاني لأرماجايرلندة- (1650) وقرر فيه أن الخلق حدث "في بداية الليلة السابقة ليوم الاثنين 23 أكتوبر 4004 ق.م (29) وكان سبينوز احكما سنرى بعد قليل-يستهل (1670) حركة "النقد الأعلى" للكتاب المقدس-أي دراسته بوصفه إنتاجاً بشرياً، غنياً في العظمة والسمو، وفي الأخطاء والسخافات.

وقد جلب أعلم ناقد الكتاب المقدس في القرن السابع عشر على رأسه غضب بوسويه وسخطه في محاولته الرد على سبينوز، لأنه سلم في النهاية بالكثير مما زعمه الفيلسوف. وهذا الناقد، واسمه ريشار

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> الدارسون

سيمون، وأبوه كان حداداً، التحق بالمصلى في باريس، ورسم قسيساً (1670) وكتب في ذلك العام نشرة دافع فيها عن يهود متز الذين اتهموا بقتل طفل مسيحي. وفي 1678، بعد سنوات من البحث شملت دراسات مع عدة أحبار اليهود، أعد العدة لنشر كتابه "تاريخ نقدي للعهد القديم". ورأى، في الطريق، أن يفند حجج سبينوزا ضد الوحي الإلهي للأسفار المقدسة. فسلم بأن أسفار العهد القديم ليست تماماً من عمل المؤلفين الذين نسبت لهم، وأنه لا يمكن أن يكون موسى قد كتب الأسفار الخمسة كلها (التي ورد فيها وصف لموت موسى)، وأن أسفار الكتاب عراها التغيير الكثير عن صورتها الأصلية بأقلام الكتبة والناشرين الذين نقلوها إلى الخلف. وناضل سيمون للاحتفاظ بسلامته عقيدته وبرخصة طبع كتابه، فزعم أن هؤلاء المراجعين كانوا هم أيضاً يعملون بالوحي الإلهي، ولكنه اعترف بأن جميع نسخ العهد القديم الموجودة شوهدت التكرارات والتناقضات والإلتباسات وغيرها من الصعوبات بحيث لا تتيح إلا أساساً واهياً للاهوت عقائدي. ورأى أن يهاجم البروتستانت بهذه النقطة، فقال أن إيمانهم بالوحي الشفوي للأسفار المقدسة يتركهم عاجزين أمام النقد النصي في حين يستطيع الكاثوليك الموالي لكنيستته أن ينجو من أذى هذه الدراسة الناقدة بقبوله التفسير الذي وضعته كنيسة روما للنص. واختتم سيمون بالقول أن الوحي الإلهي للكتاب المقدس لا يصدق على أي حال إلا على أمور الإيمان.

ووافق رئيس المصلى على نشر كتاب سيمون. وبينما كانت أصوله في المطبعة وقعت بعض صفحات تجارب الطبع في يد أرنو "الكبير" رجل البور-روبال، فروعه ما قرأ. واطلع بوسويه على التجارب، فندد هذا على الفور بالكتاب باعتباره "نسيجاً من الكفريات ومعقلاً للإلحاد... سيهدم سلطان الأسفار القانونية(30)" وناشد بوسويه السلطات الزمنية أن تمنع نشر الكتاب. فصادرت الطبعة بأكملها، وقوامها ألف وثلاثمائة نسخة، وعجنتها عجنأ واعتكف سيمون خوريا مغموراً في نورمنديه، ولكنه وجد السبل لطبع مخطوطته في روتردام (1685) وبعد أربع سنوات نشر كتابه "تاريخ نقدي للعهد الجديد" وأراد أن يتوج جهوده بترجمة جديدة للكتاب المقدس، وفرغ من ترجمة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> من الخرافة إلى العلم -> الدارسون

العهد الجديد، ولكن بوسويه الذي أفرغته الحرية التي تناول بها سيمون النص المقدس أفع المستشار بمصادرة الكتاب (1703). وتخلّى سيمون عن مشروعه، وأحرق أوراقيه، ومات (1712).
وآثارت ترجمته للعهد الجديد أربعين اعتراضاً تفند هذه الترجمة وتبين عصمته. على أنها ما زالت هي وكتاب سبينوزا "رسالة لاهوتية سياسية" من المعالم في الدراسة الحديث للكتاب المقدس. وقد حذر ليبنتز بعد أن قرأ هذه الأبحاث النقدية الأولى من هذا أن الاتجاه في التحقيق لو استمر سيدمر المسيحية(3). ولم يحن الوقت بعد للقول هل كان مصيباً أم مخطئاً في زعمه هذا.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> دولية العلم

الفصل الثامن عشر

البحث العلمي

1715-1648

1- دولية العلم

كان مزاج أوربا يتغير في ببطء-سواء كان التغيير خيراً أو شراً-من الإيمان بالخوارق إلى النزعة العلمانية، ومن اللاهوت، ومن آمال الجنة ومخاوف الجحيم التي خطط توسيع المعرفة وتحسين حياة البشر. فأما الطبقات العليا التي واصلت أساليب حياتها الأبيقورية فلم تعترض كثيراً على إيمان ديني كانت تراه مفيداً للجماهير الشقية التي حرمت فردوس الحسب والنسب، ولكن كان هناك نفر، حتى من بين هذه القلة المميزة، ممن تلهوا بالعلم، ووازنوا المعادلات، وأحرقوا أصابعهم أو نشقوا بأنوفهم في المختبرات، أو تفرسوا بدهشة في النجوم المتكاثرة. ففي باريس مثلاً تزاحمت سيدات المجتمع العصريات على محاضرات ليميري في الكيمياء، وعلى شروح دوفرنية في التشريح، ودعا كونديه ليميري إلى صالونه الخاص جداً، وعين لويس الرابع عشر دوفرنيه ليساعد على تعليم الأمير الوارث للعرش. وفي إنجلترا كان لنتشارلز الثاني "مختبر كيميائي" خاص به، وحاول البارونات، والأساقفة، والمحامون القيام بالتجارب، وأقبلت الخليلات الأنيقات في مركباتهن ليشهدن عجائب المغناطيسية، وهوى إيفلين الفيزياء، وأراد إنشاء معهد للبحث العلمي، ووجد بيبس وقتاً وسط شغله بالمرآكب والنساء-لاستعمال المكرسكوب، ومضخة الهواء وسكين التشريح، وأصبح رئيساً للجمعية الملكية.

وتخلفت الجامعات عن الشعب في هذا الاهتمام الجديد، ولكن الأكاديميات الخاصة التقطته. ويلوح أن البادئ كان "أكاديمية أسرار الطبيعة" بنابلي (1560)، ثم أكاديمية "دي لنتشي" بروما (1603) التي كان جاليليو ينتمي إليها، ثم أكاديمية "ديل تشيمينتو"، التي أنشأها تلميذاه تفياني وتورينشيللي في فلورنسة (1657). وقد

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> دولية العلم

كرس هذا المعهد بحكم اسمه للتجارب، واتخذ الشك الديكارتي منطلقاً له، فلا شيء يجب التسليم به بالإيمان، ولا بد من بحث كل مشكلة دون نظر إلى أي ملة أو فلسفة موجودة (1). ولم يعمر بعض هذه الأكاديميات طويلاً، ولكنها كانت تترك خلفاء لها بعد موتها. وأُنشئت الأكاديميات في شفينفورت (1652)، وألتدورف (1672)، وأوبسالا (1710)، وفي 1700، وبعد ثلاثين سنة قضاها ليبنتز في الإلاح، خرجت أكاديمية برلين إلى النور، كذلك يرجع الفضل إلى ليبنتز في إنشاء أكاديمية سانت بطرسبورج (1724).

وتطورت "أكاديمية العلوم" في فرنسا من اجتماعات (1631-38) مرسين، وروبرفال، وديزارج، وغيرهم من العلماء في بيت والد بسكال في باريس، أو في صومعة مرسين. وقد صاغت برنامجاً "لعمل على تحسين علوم الآداب، والبحث عموماً عن كل ما يمكن أن يجلب المنفعة أو الراحة للنوع الإنساني"، كذلك قررت أن "تحرر العالم من كل الأخطاء الشائعة التي انطلى زيفها على الناس منذ زمن طويل" ولكنها نصحت أعضائها بأن يجتنبوا الخوض في الدين أو السياسة (2). وفي 1666 ظفرت الأكاديمية بمرسوم ملكي، وبحجرة في المكتبة الملكية، وفي فرساي ترى إلى اليوم لوحة كبيرة بريشة تيستيلان يقدم فيها لويس الرابع عشر هذا المرسوم لجماعة يرأسها كرستيان هويجنز وكلود بيرو. وكان كل عضو من أعضائها الواحد والعشرين يتلقى من الحكومة راتباً سنوياً، فضلاً عن مبلغ يغطي النفقات، وقد أصبحت الأكاديمية من الناحية الفعلية مصلحة من مصالح الدولة. وكان لويس يخص الفلكيين بعطفه. فدعا كاسيني من إيطاليا، ورويمير من الدنمرك، وهويجنز من هولندا، وشاد مرصداً فخماً. وحين التهمت النيران المكتبة الثمينة التي يفتنيها هيفيلينوس الدانزجي، والذي تفرد بدراساته للقمر، فحبه الملك بعطاء سخي ليعوض خسارته (3). وقد نسب لابلاس الفضل للأكاديمية في معظم ما أحرزت فرنسا من تقدم علمي، ولكن اعتمادها على ملك وثيق التحالف مع الكنيسة كان ضاراً بتقدم العلم الفرنسي (4)، بينما مضي الإنجليز في هذا الطريق قدماً. ومن سمات إنجلترا أن أكاديمياتها العلمية كانت مؤسسات أهلية لا تدين للحكومة إلا بفضل عارض، يقول جون واليس أنه حوالي عام

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> دولية العلم

1645، تعرف في لندن إلى "نفر من فضلاء القوم، المحبين للاستطلاع في الفلسفة الطبيعية وغيرها من فروع العلم الإنساني، لا سيما... الفلسفة التجريبية (5)". واتقوا على الاجتماع مرة كل أسبوع لمناقشة الرياضة، والفلك، والمغناطيسية، والملاحة، والفيزياء، والميكانيكا، والكيمياء، والدورة الدموية، وغير ذلك من الموضوعات. وقد استوتحت هذه "الكلية غير المنظورة" كما كانت تسمى آنئذ - "بيت سليمان" الواردة في كتاب بيكون "أطلانطيس

الجديدة" فلما انتقل واليس إلى أكسفورد أستاذاً للرياضة، انقسمت الجمعية قسمين، يجتمع أحدهما في مسكن روبرت بويل بالجامعة، والآخر في كلية جريشام بلندن، وكان رون وايفلين من أول الأعضاء هناك. وقطع هذه الاجتماعات اللندنية ما وقع من اضطراب سياسي بين موت كرمويل وعودة الملكية، ولكن سرعان ما استؤنفت عقب تولي تشارلز الثاني العرش، وفي 15 يوليو 1662 منح الملك "جمعية لندن الملكية لترقية المعرفة الطبيعية" براءة رسمية. وكان "الزملاء الأصليون" البالغ عددهم ثمانية وتسعين لا يشملون علماء من أمثال بويل وهوك فحسب، بل شعراء كدرايدن ووالر، ورن المعماري، وايفلين، وأربعة عشر نبيلاً، وعدة أساقفة. وفيما بين عامي 1663 و1686 ضم إليها نحو ثلاثمائة زميل إضافي. ولم يكن هناك فوارق طبقية تقسمهم، فكان الأدواق والعامّة سواسية في هذا المشروع، وأعفى الأعضاء الفقراء من رسوم العضوية(6). وفي 1673 صرح ليبنتز، الذي سمح له بالعضوية، بأن الجمعية الملكية أعظم الهيئات الفكرية احتراماً في أوروبا. وفي تاريخ باكر (1667) نشر توماس سبرات كتابه الممتاز "تاريخ الجمعية الملكية" وقد تأثر هو أيضاً، بالأنسام البيكونية التي كانت تهب على إنجلترا، وذلك برغم ترفيته أسقفاً لروتشستر. وشكا بعض اللاهوتيين من أن المعهد الجديد سيقوض الاحترام للجامعات والكنيسة الرسمية، ولكن اعتدال الجمعية وحذرها لم يلبث أن هدأ من معرصة رجال الكنيسة وروحت تجاربه الغربية عن الحاشية والملك، الذي ضحك حين سمع أنها تزن الهواء وتفكر في الطيران الميكانيكي. وقد هاجها سويفت في قصة "رحلات جليفرز" وسماها أكاديمية لاجادو العظمى، وجعل أعضائها يضعون الخطط لاستتباط

صفحة رقم : 11234

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> دولية العلم

ضوء الشمس من الخيار، ولبناء البيوت ابتداء من الأسقف فما فوق، وذكر صموئيل بطر، مؤلف "هودبيراس" كيف أن نادياً من العلماء هاج وماج لاكتشافه فيلاً في القمر، ثم تبين أنه فأر في تلسكوبهم(8). ولكن رعاية الجمعية الملكية هي صاحبة الفضل في تحسين ايفلين للزراعة الإنجليزية، وإرساء السير وليم بتي علم الإحصاء، وتقديم العلم والطب الإنجليزيين بخطى تجاوزت كل ما عرف في فرنسا أو ألمانيا المعاصرتين، وإنشاء علم الكيمياء تقريباً، وإحداث راي ثورة في علم النبات، وودوارد في الجيولوجيا، ونيوتن في الفلك. وأجرت الجمعية آلاف التجارب في الكيمياء والفيزياء، وكانت تتسلم جثث المجرمين الذين أعدموا ونشرها وتدرسها، وأصبحت مستودعاً للتقارير الطبية تتلقاها من الأطباء في جميع أرجاء البلاد، وجمعت تقارير التطورات التكنولوجية، وكانت على صلة بالبحث العلمي في خارج إنجلترا. وسفه تأكيدها على العمليات الطبيعية والناموس الطبيعي الخرافة واضطهاد السحر. وفي عام 1665 بدأ سكرتيرها هنري أولدنبرج إصدار مجلة "الأعمال الفلسفية للجمعية الملكية" التي استمرت إلى يومنا هذا. وقد طلبت وتلقت المقالات من خارج البلاد. وكانت من أوائل طابعي اكتشافات مالبجي وليوفنهوك. أما أولدنبرج هذا فقد وفد على إنجلترا في 1653 ليفاوض في إبرام معاهدة تجارية لوطنه بريمن، فبقي بها، وأصبح صديقاً لملتن، وهوبز، ونيوتن، وبويل، وراسل بنشاط العلماء والفلاسفة في جميع أنحاء العالم. وقال أن أعضاء الجمعية الملكية "يمتحنون الكون كله(9)"، وكتب لسبينوزا يقول: "إننا على ثقة من أن أشكال الأشياء وصفاتها يمكن تحليلها أفضل تحليل بأصول الميكانيكا، وأن كل آثار الطبيعة تحدثها الحركة والشكل، والنسيج، والارتباطات المختلفة لهذه كلها، وأنه لا حاجة بنا لأن نلجأ إلى الأشكال التي لا تفسر لها أو الصفحات السحرية ملاذاً من الجهل(10)". وبفضل هذه "الأعمال الفلسفية" الإنجليزية و"مجلة العلماء" الفرنسية، و"الجورنالي دي لتيراتي" الإيطالية،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> دولية العلم

و"الأكتا ايروديتورم" الألمانية استطاع العلماء والدارسون الأوروبيون أن يتغلبوا على الحدود القومية، ويكونوا على اتصال بأعمال بعضهم البعض وكشفهم، ويؤلفوا جيشاً متحداً يزحف في مغامرة خلافة هائلة. وكانوا وهم عاكفون بمنأى عن الأنظار في مكاتبهم، ومختبراتهم، وبعثاتهم، متجاهلين أو منتصرين على جلبة السياسة، وزحف الجيوش، وطين العقائد الدينية، وضباب الخرافة، وعملاء الرقابة المدنية أو الكنسية المتطفلين كانوا وسط هذا كله يكبون على النصوص، وأنابيب الاختبار، والمكربونات، ويخلطون المواد الكيميائية في فضول، ويفيسون القوى والأحجام، ويضعون المعادلات والرسوم البيانية، ويتفحصون أسرار الخلية، وينيشون طبقات الأرض، ويرسمون حركات النجوم، حتى بدت حركات المادة وكأنها تنتظم في قانون، وبدت ضخامة الكون الهائلة وكأنها تتمثل للذهن البشري المذهل. ففي فرنسا كان فيرما، وبسكال، وروبرفال، وماريوت، وبيرو، وفروغ بأكملها من آل كاسيني وفي سويسرا كان آل برنوي، وفي ألمانيا كان جويركي، وليبنتر، وتشرنهاوس، وفارنهايت، وفي هولندا كان هويجنز وليوفنهويك، وفي إيطاليا كان فيفياني وتورب تشيللي، وفي الدنمرك كان ستينو، وفي إسكتلندا كان جيمس وديفد جريجوري، وفي إنجلترا كان والبس، ولستر، وبويل، وهوك، وفلامستيد، وهالي، ونيوتن: هؤلاء كلهم وغيرهم كثيرون، كانوا في هذه الحقبة القصيرة من تاريخ أوربا من 1648 إلى 1715، يكدون فرادي وجماعات منعزلين ومتعاونين، ليبنوا يوماً فيوماً، وليلة فليلة، صرح الرياضة، والفلك، والجيولوجيا، والجغرافيا، والفيزياء، والكيمياء، والأحياء، والتشريح، والفسولوجيا-هذه العلوم التي قدر لها أن تحدث ثورة مصيرية في النفس الحديثة، أما أولدنبرج، الذي أحس دولية العلم هذه، ولم يخطر بباله قط أن القومية قد تجعل العلم نفسه أداة حزبية ومدمرة، فقد رأى في هذا التعاون الملمه بشيراً بحياة أفضل. وكتب لهويجنز يقول "أرجو أن يأتي الوقت الذي تتعاقب فيه كل الأمم، حتى المتخلفة في الحضارة، عناق الرفاق الأعزاء، وأن تتضافر قواها الفكرية والمادية لإقصاء الجهل، وتغليب الفلسفة الصحيحة النافعة(11)". وما زال هذا رجاء العالم إلى اليوم.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الرياضيات

2- الرياضيات

بدأت الدولية الجديدة بشحن أدواتها. فطور بسكال وهوك وجويركي البارومتر، واستطلعت مضخة جويركي الهوائية إمكان إحداث الفراغ، وصنع جريجوري ونيوتن وغيرهما تلسكوبات أفضل من تلسكوبات كبلر وجليليو، واخترع نيوتن آلة السدس، وحسن هوك الميكروسكوب المركب، الذي أحدث انقلاباً في دراسة الخلية، وأصبح الترمومتر أوثق

وأدق على يد جويريكي وأمونتونز، وفي عام 1714 أعطاه فارنهایت شكله الإنجليزي-الأمريكي باستخدامه الزئبق بدلاً من الكحول وسيطاً ممتدداً، وقسم مقياسه عند الصفر، و32 درجة و96 درجة (التي افترض أنها حرارة جسم الإنسان الطبيعية).

أما أعظم الأدوات قاطبة فكانت الرياضيات، لأنها أضفت على التجربة شكلاً كمياً ومعياراً، ومكنتها بمنات الطرق من التنبؤ بالمستقبل بل السيطرة عليه. قال بويل "إن الطبيعة تلعب دور الرياضي" وضاف ليبنتز "أن العلم الطبيعي ليس إلا الرياضة التطبيقية(12)". ويشيد مؤرخو الرياضيات بالقرن السابع عشر لأنه كان وافر الثمر في ميدانهم على الأخص، فهو قرن ديكارت، ونابيير، وكافاليري، وفيرما، وبسكال، ونيوتن، وليبنيز، وديزارج. وكانت السيدات المعطرات بالنباله يختلفن إلى محاضرات الرياضة، وقالت "صحيفة العلماء" مازحة أن بعضهن جعلن تربيع الدائرة الجواز الوحيد لرضائهن(13)، ولعل هذا أن يفسر جهود هوبز الملحة في حل تلك المعضلة المحيرة. وأنجب بيبير دفيرما النظرية الحديثة للأعداد (دراسة أنواعها، وخصائصها، وعلاقاتها) وتخيل الهندسة التحليلية مستقلاً عن ديكارت وربما قبله، واخترع حساب الاحتمالات مستقلاً عن بسكال، وسبق نيوتن وليبنيز إلى حساب التفاضل. ومع ذلك عاش مغموراً بعض الشيء في عضويته ببرلمان تولوز، ولم يدل بإسهاماته في الرياضة إلا في خطابات لأصدقائه لم تنشر إلا سنة 1679، بعد موته بأربعة عشر عاماً. وفي أحد هذه الخطابات نستشف انثناءه

صفحة رقم : 11237

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الرياضيات

بالرياضة. "لقد عثرت على عدد كبير جداً من النظريات الجميلة جداً(14)" وكان يطرب لكل حيلة جديدة أو انتظام مدهش في الأعداد. وقد تحدى رياضي العالم "أن يقسموا المكعب إلى مكعبين، وربع القوة إلى ربعي القوة"، الخ، وكتب يقول "لقد اكتشفت برهاناً عجيباً حقاً لما يعرف الآن بـ "آخر نظريات فيرما"، ولكن لا برهانه ولا أي برهان قاطع عليها قد وجد إلى الآن. وفي عام 1908 أوصى أستاذ ألماني بمائة ألف مارك لأول شخص يبرهن على فرض فيرما، ولم يطالب أحد إلى الآن بالجائزة، وربما تبط همته هبوط قيمة المارك.

وكان كرستيان هويجنز أبرز علماء هذا العصر، باستثناء عالم واحد فقط، فكان التالي مباشرة لنيوتن. وكان أبوه قسطنطين هويجنز من ألمع شعراء هولندا وساستها. ولد كرستيان في 1629، وبدأ في الثانية والعشرين نشر الأبحاث الرياضية. وما لبثت كشافه في الفلك والفيزياء أن أذاعت شهرته في أوروبا، فانتخب زميلاً للجمعية الملكية بلندن في 1663، وفي 1665 دعاه كولبير للانضمام إلى أكاديمية العلوم بباريس، فانتقل إلى العاصمة الفرنسية، وتلقى معاشاً سخياً، ومكث بها حتى 1681، ثم عاد إلى هولندا لضيقه بالحياة في ظل ملك تحول مضطهداً للبروتستنت. وكان ترأسه بست لغات مع ديكارت، وروبرفال، وميرسين، وبسكال، ونيوتن، وبويل، وكثير غيرهم، دليلاً على الوحدة المترابطة التي تربط الأخوة العلمية. قال "إن العالم وطني، والنهوض بالعلم الديني(15)". ومن عجائب زمانه عقله السليم في جسمه السقيم فقد كان جسمه عليلاً أبداً، وعقله خلاقاً حتى موته في السادسة والستين. وكان إنتاجه في الرياضة أقل جزء في إنجازاته، ومع ذلك فإن الهندسة، واللوغاريتمات، وحساب التفاضل والتكامل كلها أفادت من جهوده. وفي 1673 أثبت "قانون المربعات العكسية" (أي أن جذب الأجسام بعضها لبعض يتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينها) وهو القانون الذي أصبح بالغ الأهمية لفلك نيوتن. وكان نيوتن الآن بالطبع أسطع نجم تكبد سماء العلم البريطاني، وهو جدير بأن نفرده له فصلاً خاصاً، ولكن كان لنجمه أقمار توابع.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الرياضيات

ومنهم صديقه جون واليس، القسيس الأنجليكاني، الذي أصبح أستاذاً "سافيلياً" للهندسة في أكسفورد عام 1649 وهو في الثالثة والثلاثين، وشغل ذلك الكرسي أربعة وخمسين عاماً. وقد صرف النحو والمنطق واللاهوت قلمه عن العلم، ومع ذلك فإنه كتب بحثاً ذات أثر في الرياضيات والميكانيكا، والسمعيات والفلك، والمد والجزر، والنبات والفسولوجيا، والجيولوجيا، والموسيقى، ولم يعوزه سوى بعض الحب والحرب لتكتمل شخصيته. ورسالته "في تاريخ الجبر وممارسته" (1673) لم تسهم بأفكار أصيلة في ذلك العلم فحسب، بل كانت أول محاولة جديّة في إنجلترا لكتابة تاريخ الرياضيات. وقد ابتهج معاصروه بالجدل الطويل بينه وبين هوبز حول حساب تربيع الدائرة، وانتصر واليس، ولكن الفيلسوف العجوز واصل الكفاح إلى نهاية سنيه الواحدة والتسعين. ويذكر التاريخ واليس على الأخص بكتابه "حساب اللانهايات" (1655) الذي طبق طريقة كافاليري في اللانقسمات على حساب تربيع المنحنيات، وبهذا مهد لحساب التفاضل المتناهي الصغر.

أما كلمة calculus فكانت تعني أصلاً أجراً صغيراً استعمله الرومان القدامى في العد، ولكن لا يستطيع تعريف حساب التفاضل على وجه الصحيح الآن غير الراسخين فيه. وقد لمح أرخميدس من بعيد، واقترب منه كبلر، واكتشفه فيرما ولكنه لم ينشر كشفه، وحمل كافاليري وتوريتشيلي في إيطاليا، وبسكال وروبرفال في فرنسا، وجون واليس وإسحاق بارو في إنجلترا، وجيمس وديفد جريجوري في

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الرياضيات

إسكتلندة- هؤلاء كلهم حملوا لبنات البناء في تعاون القارة المدهش هذا. وأوصل نيوتن وليبنيز العمل إلى التمام. واقترح لفظة calculus على ليبنيز رجل يدعى يوهان برنوبي أحد أفراد أسرة تفردت بوراثة النبوغ الاجتماعية تفرد آل باخ، وبروجل وكوبرين. وكان نيقولاوس برنوبي (1623-1708) كأصله تاجراً. وارتقى الحساب التجاري عند ولده يعقوب برنوبي الأول (1654-1705) إلى أشكال أرقى من الحساب. واتخذ يعقوب هذا شعاراً له القول المأثور "أنني أدرس النجوم مخالفاً إرادة أبي"، فهو الفلك، وأسهم في الهندسة التحليلية، وحسن حساب التغيرات، وأصبح أستاذاً للرياضيين في جامعة بازل. وقد أتت دراساته للمنحنيات الكتيبية (وهي المنحنيات التي ترسم بسلسلة منتظمة معلقة بين نقطتين)- هذه الدراسات أتت أكلها في فترة لاحقة في تصميم الكباري المعلقة وخطوط النقل العالية الفولت. واتخذ أخوه يوهان (1667، 1748) الطب مهنته مخالفاً خطط أبيه هو أيضاً ثم الرياضيات، وخلف يعقوب أستاذاً في بازل، وأسهم في الفيزياء، والبصريات، والكيمياء والفلك، ونظرية المد والجزر، ورياضة القلوع، وابتكر حساب التفاضل الأسّي، وأنشأ أول نظام لحساب التفاضل، وأدخل استعمال كلمة integral بهذا المعنى. ونال أخ آخر لهما يدعى نيقولاوس الأول (1662-1716) درجة الدكتوراه في الفلسفة وهو بعد في السادسة عشرة، وفي القانون وهو في العشرين، ودرس القانون في برن والرياضة في سانت بطرسبورج. وسنلتقي بستة رياضيين آخرين من آل

برنوي في القرن الثامن عشر، وكان منهم اثنان آخران في القرن التاسع عشر، وهنا كفت البطاريات البرنوية من عملها.

ومن مآثر هذا العصر إرساء الإحصاء علماً أو ما يشبه العلم. ذلك أن خردجيا يدعى جرونت كان يتسلى بجمع سجلات الدفن المحفوظة بأبرشيات لندن ودراستها. وكانت هذه السجلات تذكر عادة السبب المتناقل لموت الميت، مثل "مات جوعاً في الشارع" و "أعدم وعصر حتى الموت" و "داء الملك" (الخنزيري) و "مات جوعاً عند مرضعته" و "قتلوا أنفسهم(16)" وفي 1662 نشر جرونت كتاباً سماه "ملاحظات طبيعية وسياسية... على سجلات الوفيات"،

صفحة رقم : 11240

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الرياضيات

والكتاب بداية علم الإحصاء الحديث، وقد خلص من جداوله إلى أن ستة وثلاثين في المائة من الأطفال يموتون قبل بلوغهم السادسة، وأربعة وعشرين في المائة في العشر السنوات التالية، وخمسة عشر في المائة في العشر التالية. الخ(17)، وتبدو نسبة الوفيات في الأطفال مغالى فيها كثيراً هنا، ولكنها تومئ إلى جهد الحب في ملاحقة ملاك الموت. قال جرونت "من الوفيات العديدة ما يحمل نسبة ثابتة إلى جملة المدفونين، وأعني الوفاة بالأمراض المزمنة، والأمراض التي يعظم تعرض المدينة لها، كالسل، والاستسقاء، واليرقان، الخ(18)"، ومعنى هذا أن أمراضاً معينة، وظواهر اجتماعية أخرى، وإن تعذر التنبؤ بها في الأفراد، إلا أنها يمكن حسابها مسبقاً بدقة نسبية في الجماعات الكبيرة وهذا المبدأ الذي صاغه جرونت هنا أصبح أساساً للتنبؤ الإحصائي. وقد لاحظ أن وقائع الدفن في لندن في سنوات كثيرة فاقت وقائع العماد، وانتهى إلى أن لندن تتميز بوفرة احتمالات الموت، كالموت من هموم العمل، و "الدخان، والروائح العفنة، والهواء الفاسد" و "الإفراط في الطعام" ولكن بما أن سكان لندن كانوا يتزايدون رغم هذا، فإن جرونت عزا الزيادة إلى وفود المهاجرين من الريف والمدن الصغيرة-وقدر سكان العاصمة في عام 1662 بنحو 384.000 نسمة.

وطبق السر وليم بتي، صديق جرونت، الإحصاء على السياسة. وهنا أيضاً مثال آخر على تعدد في القدرات يستحيل العثور عليه اليوم في فرد واحد، فإن بتي بعد أن تلقى العلم في كان، وأوترخت، وليدن، وأمستردام، وباريس، درس التشريح في أكسفورد، والموسيقى في كلية جريشام بلندن، وجمع ثروة ونال لقب الفروسية باشتغاله طبيباً للجيش الملكي بإيرلندة. وفي 1676 ألف كتاباً هو العمدة الثاني في علم الإحصاء الإنجليزي، وهو "الحساب السياسي" فالسياسة في رأي بتي لا يمكن أن تصبح علماً أو كالعالم إلا إذا بنت استنتاجاتها على قياسات كمية. لذلك طالب بتعداد دوري يسجل الميلاد، والجنس، والحالة

صفحة رقم : 11241

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الرياضيات

الزوجية، والألقاب، والمهنة، والدين، الخ. لكل شخص يسكن إنجلترا. واعتماداً على قوائم الوفيات، وعدد البيوت، وزيادة المواليد على الوفيات سنوياً، قدر أن سكان لندن في 1682 يبلغون 696.000، وسكان باريس 488.000، وسكان أمستردام 187.000، وسكان روما 125.000. ورأى بتي ما رأى جوفاني بوتيرو في 1589 وتوماس مالتوس في 1798، وهو أن عدد السكان ينحو إلى الزيادة بأسرع من موارد الرزق، وأن هذا يفضي إلى أن الحرب، وأنه لن تحل سنة 3682 حتى تكتظ الأرض الصالحة للسكنى بأهلها اكتظاظاً خطراً، إذ يعيش شخص في كل فدانين (20).

وأفادت شركات التأمين من الإحصاء فحوت عملها فناً وعلماً أخذاً في حسابها كل شيء إلا التضخم. ومن واقع تقارير الوفيات في برسلو أعد آدموند هالي (1693) جدولاً بالوفيات المتوقعة في جميع الأعمار من عمر سنة إلى أربع وثمانين، وعلى أساس الجدول حسب احتمالات وفاة الأفراد في سن معينة خلال السنة الشمسية، واستخرج السعر المنطقي لبوليصة التأمين. وانتفعت أولى شركات التأمين على الحياة التي أسست بلندن في القرن الثامن عشر بجدول هالي، وأحالت الرياضة ذهباً.

صفحة رقم : 11242

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفلك

3- الفلك

أخضعت النجوم للعلم في عشرات الأقطار. ففي إيطاليا اكتشف الفلكي اليسوعي ريتشولي (1650) أول نجم مزدوج- أي نجم يبدو للعين المجردة واحداً ولكنه يرى بالتلسكوب نجمين واضح أنهما يدوران الواحد حول الآخر. وفي دنزج بني يوهان هيفيليبوس مرصداً في بيته، وصنع آلاته الخاصة، وصنف 1.564 نجماً، واكتشف أربعة مذنبات، ورصد مرور المشتري، ولاحظ ترجحات القمر، (وهي التناوبات الدورية في رؤية أجزائه)، ورسم سطحه، وسمى عدداً من تضاريسه بأسماء ما زالت تظهر على خرائط القمر إلى رومنا هذا. فلما أذاع على راصدي النجوم في أوروبا أن في استطاعته تمييز مواقع النجوم باستعمال "ديوبتر" (رصد يستعمل عدسة واحدة أو منشوراً واحداً) بنفس الدقة التي يميز بها هذه المواقع باستعمال تلسكوب مركب، تحدى روبرت هوك

صفحة رقم : 11243

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفلك

دعواه هذه، وسافر هالي من لندن إلى دنزج ليحقق الأمر، ثم قرر أن هيفيلبوس صادق (21).
 ووفر لويس الرابع عشر المال لبناء وتجهيز مرصد في باريس (1667-72) بعد أن تبين أهمية الفلك للملاحة. ومن ذلك المركز قاد جان بيكار البعثات أو أرسلها لدراسة السماء من نقط مختلفة على الأرض. وذهب إلى أورانيبورج ليلاحظ الموقع المضبوط الذي رسم منه تيكو براهي خريطته المشهورة للنجوم، واستطاع بمختلف الرصد التي امتدت من باريس إلى أميان أن يقيس درجة طولية بدقة عظيمة (لا تختلف إلا بضع ياردات على الرقم الحالي وهو 69.5 ميلاً) حتى أنه من المعتقد أن نيوتن استخدم نتائج بيكار ليقدّر كتلة الأرض ويتحقق من نظرية الجاذبية. وبأرصاء مماثلة حسب بيكار القطر الاستوائي للأرض فكان 7.801 ميلاً وهو تقدير غير بعيد من تقديرنا الحالي وهو 7.913 (22). وقد يسرت هذه الكشوف للمراكب في عرض البحر أن تحدد مواقعها بدقة لم يسبق لها نظير. وهكذا حفز توسع أوروبا التجاري وتطورها الصناعي الثورة العلمية وانتقعا بها.
 وعملاً باقتراح من بيكار دعا لويس الرابع عشر إلى فرنسا الفلكي الإيطالي جوفاني دومنيكو كاسيني، الذي ذاع صيته في أوروبا بفضل اكتشافه شكل المشتري الكرواني، ودوران المشتري والمريخ الدوري. فلما وصل إلى باريس (1669) استقبله الملك كأنه أمير من أمراء العلم (23). وفي 1672 أوفد، هو وبيكار، جان ريشيه إلى كايين بأمرىكا الجنوبية ليرصد المريخ في أقصى "مواجهة" له مع الشمس وقرب من الأرض، ورصد كاسيني نفس المواجهة من باريس. وقد أعطت المقارنة بين هذين الرصدين الأتيين من نقطتين منفصلتين قيماً جديدة وأكثر دقة لاختلاف منظر المريخ والشمس وبعدهما عن الأرض، وكشفت عن أبعاد في المجموعة الشمسية أعظم مما قدر من قبل. وبما أن الفلكيين تبينوا أن بندولاً في كايين يبطئ عن نظيره في باريس، فقد انتهوا إلى أن الجاذبية قرب الاستواء أخف منها في العروض العليا، وأوحى هذا بأن الأرض ليست دائرة كاملة، ورأى كاسيني أنها تفلطحت عند خط الاستواء، ورأى نيوتن أنها تفلطحت عند القطبين، وأيد المزيد من البحث رأى نيوتن، واكتشف كاسيني أثناء ذلك أربعة أقمار

صفحة رقم : 11244

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفلك

جديدة لزحل (ساتورن)، وانقسام حلقة زحل إلى قسمين (وهو الانقسام الذي يطلق عليه اسم كاسيني الآن). وبعد موته عام 1712 خلفه في مرصد باريس ابنه جاك، الذي قاس قوس الزوال كمن دنكرك إلى برينيان، ونشر أول جداول لأقمار زحل.

وقد أسهم كرسنتيان هويجنز في لهاي إسهامات هامة في الفلك قبل أن ينضم إلى فريق العلماء العالمي في باريس. فوفق هو وأخوه قسطنطين إلى طريقة جديدة لشحذ العدسات وصقلها، واستعان بها في تركيب تلسكوبات أقوى وأصفى من أي تلسكوبات عرفت من قبل، وبفضلها اكتشف (1655) القمر السادس لزحل، وحلقة هذا الكوكب الغامضة. وبعد عام قام بأول تحديد للمنطقة اللامعة (التي تحمل اسمه الآن) في سديم أوربيون وكشف عن الطابع المتعدد لنجمه النوي.

أما أعظم منافس لفلكي باريس فهو الفريق الممتاز تجمع أكثره حول هالي ونيوتن في إنجلترا. وقد قدم جيمس جريجوري الأدنبري المعونة من بعيد بتصميمه أول تلسكوب عاكس (1663)-أي التلسكوب الذي تركز فيه أشعة الضوء المنبعثة من الجسم بوساطة مرآة منحنية بدلاً من العدسة، وقد حسنه نيوتن في 1668. وفي 1675 وجه جول فلأمستيد وآخرون إلى تشارلز الثاني مذكرة يلتسمون فيها تمويل بناء مرصد قومي، حتى تهتدي السفن الإنجليزية التي تمخر عباب البحر بطرق أفضل لحساب خطوط الطول. ودبر الملك المال للبناء، الذي شيد في بلدة جرينيتش قرب القسم الجنوبي الشرقي من لندن، واستعمل هذا نقطة لطول الصفر والزمن القياسي. وقدم تشارلز فلأمستيد راتباً صغيراً على عمله مديراً، ولكنه لم يقدم مالاً تدفع منه رواتب مساعديه أو ثمن الآلات، أما فلأمستيد، الهزيل العليل،

فقد بذل حياته لذلك المرصد. فقبل تلاميذ يعلمهم، واشترى الآلات من جيبه الخاص، وتلقى المال هدية من أصدقائه، وعكف في صبر على رسم الخرائط للسماء كما ترى من جرينيتش. وقبل أن يموت (1719) كان قد أتم أوسع وأدق قائمة نجوم عرفت من قبل، وقد أدخلت تحسينات كثيرة على القائمة التي تركها تيكونبراهي لكبلر في 1601. وكان فلامستيد يشقى بالافتقار إلى المساعدين، ويضطر للقيام

صفحة رقم : 11245

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفلك

نفسه بأعداد الأوراق التي تترك عادة للمساعدين، فأغضب هالي ونيوتن بتعطيله حساب نتائجه وإذاعتها، وأخيراً نشرها هالي دون إذن من فلامستيد، فثار الفلكي العليل ثورة عارمة هزت النجوم في أفلاكها. ومع ذلك فإن آدموند هالي كان أعظم أفراد الفريق تهديباً. كان تلميذاً متحمساً لدراسة السماء، فنشر في العشرين بحثاً عن أفلاك الكواكب، وفي تلك السنة (1676) خرج في رحلة ليتبين كيف تبدو السماء من نصف الكرة الجنوبي. ومن جزيرة القديسة هيلانة رسم خرائط تبين مسلك 341 نجماً. وعشية عيد ميلاده الحادي والعشرين قام بأول رصد كامل لعبور عطارد. فلما عاد إلى إنجلترا انتخب زميلاً بالكلية الملكية وهو لم يجاوز الثانية والعشرين. وقد تبين عبقرية نيوتن، ومول الطبعة الأولى من كتابه "المبادئ" الغالي النفقة، وقد له بتقريب في شعر لاتيني رائع آخره بيت يقول "غير مسموح بأي بشر فإن بأن يقترب من الآلهة" (24). وحقق هالي النص اليوناني لكتاب أبلونيوس البرجاري "المخاريط"، وتعلم العربية ليترجم الأحداث اليونانية المخطوطة في العربية دون سواها. وقد سجل اسمه في قبة السماء بنبوءة من أنجح النبوءات في التاريخ. وكان بوريللي قد مهد لها الطريق باكتشافه الشكل القطعي المكافئ لمسالك المذنبات (1665). فلما ظهر مذنب في 1682 وجد هالي في مسلكه نظائر مع مذنبات سجلت في 1456، و1531، و1607، وقد لاحظ أن هذا الظهور حدث في فترات من نحو خمسة وسبعين عاماً، وتنبأ بظهور آخر في 1758. ولم يفسح له في الأجل ليرى تحقيق نبوءته، ولكن حين عاد المذنب إلى الظهور أطلق عليه اسمه، وأضاف إلى مكانة العلم المتزايدة. وكان الرأي في المذنبات حتى أخريات القرن السابع عشر أنها من فعل الله مباشرة، وإنذار للنوع الإنساني بالويل والثبور وعظائم الأمور، ولكن مقالات بيل وفونتيل، ونبوءة هالي، قضت على هذه الخرافة. وطابق هالي بين مذنب آخر شوهد في 1680 ومذنب شوهد في السنة التي مات فيها المسيح، وتتبع تكرار ظهوره كل 575 سنة، ومن هذا الانتظام الدوري حسب

صفحة رقم : 11246

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفلك

فلكه وسرعه حول الشمس. وتعقيماً على هذه الحسابات، خلص نيوتن إلى أن "أجسام المذنبات صلبة، متماسكة، ثابتة، متينة، كأجسام الكواكب" وأنها ليست "أبخرة، أو دخاناً من الأرض، والشمس، والكواكب، وغيرها(25)". وفي 1691 حيل بين هالي والكرسي السافيلي للفلك بأكسفورد للظن بأنه مادي النزعة(26). وفي 1698، بتكليف من وليام الثالث، أبحر موغلا في الأطلنطي الجنوبي، ودرس اختلافات البوصلة، ورسم خرائط للنجوم كما ترى في القارة القطبية الجنوبية (قال فولتير: إن رحلة ملاحى سفينة جاسون (الأرجونوت، الباحثين عن الفروة الذهبية) إذا قيست بهذه الرحلة لم تكن أكثر من عبور مركب من ضفة نهر إلى أخرى)(27). وفي 1718 قرر هالي أن عدة نجوم من المفروض أنها "ثابتة" قد غيرت مواقعها منذ أيام اليونان، وأن نجماً منها وهو الشعري اليمانية Sirius، قد تغير منذ أيام براهي، وبعد أن أخذ أخطاء الرصد في حسابه، خلص إلى أن النجوم تغير مواقعها بالنسبة لبعضها البعض في فترات كبرى، وهذه "الحركات الخاصة" تقبل الآن على أنها حقيقية. وفي 1721 عين خلفاً لفلامستيد في منصب فلكي الملك، ولكن فلامستيد كان قد مات في فقر مدقع، فاستولى دائنوه على أن الآلات رصده، وودد هالي أن عمله يعطل نقص الأجهزة وتناقص نشاطه، ومع ذلك بدأ وهو في الرابعة والستين يرصد ويسجل ظواهر القمر خلال دورته الكاملة ذات الثمانية عشر عاماً. ومات في 1742 وقد بلغ السادسة والثمانين، بعد أن شرب بحكم قدها من النبيذ مخالفاً أوامر طبيبه. فالحياة، كالنبيذ سواء بسواء، يجب ألا يسرف في تعاطيها.

صفحة رقم : 11247

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأرض

4- الأرض

كان هالي في ولعه بالعلم قد غامر بالخوض في مجاهل الأرصاد الجوية بمقال (1697) في الرياح التجارية، وخريطة رسمت لأول مرة حركات الهواء. وقد عزا هذه الحركات لفروق في درجات حرارة الجو وضغطه، فالشمس في حركتها الظاهرية إلى الغرب تحمل الحرارة معها، لا سيما على طول مناطق العالم الاستوائية، والهواء الذي تخلخل بفعل هذه الحرارة يجتذب هواء أقل تخلخلاً من الشرق ويحدث الرياح الاستوائية السائدة التي اعتمد عليها كولميس في إبحاره من الشرق إلى الغرب. وكان فرانسيس بيكون قد أوماً إلى تفسير شبيه بهذا. وسيطوره جورج هالي في 1735 بإضافة هذا الرأي وهو أن السرعة الأكبر لدوران الأرض إلى الشرق عند خط الاستواء تحدث تدفقاً عكسياً للهواء نحو الغرب.

وقد جعل تطور البارومتر والترمومتر من الأرصاد الجوية علماً. فبارومتر جويريكي تنبأ تنبؤاً صحيحاً بعاصفة شديدة في 1660. واخترعت "مراطيب" مختلفة في القرن السادس عشر لقياس الرطوبة. واستعملت "الأكاديميا ديل تشيمينتو" إناءً مدرجاً يتلقى الرطوبة المتساقطة من خارج مخروط معدني مملوء بالثلج. ووصل هوك فرشاة حبوب، أو "الحية" تنتفخ وتتحني مع زيادة الرطوبة في الهواء بجابرة مؤشرة تتحرك عند انتفاخ الفرشاة. كذلك اخترع هوك مقياساً للرياح، وبارومتراً ذا عجلة، وساعة جوية. وهذه الساعة التي صممها بناء على تكليف من الجمعية الملكية (1678) كانت تقيس وتسجل سرعة الرياح واتجاهه، وضغط الجو ورطوبته، ودرجة حرارة الهواء، وكمية المطر، وتبين الوقت فوق ذلك. وشرعت المحطات في مختلف المدن، بعد أن سلحت بالآلات المحسنة، تسجل وتقارن بين أرساها الآتية، كما حدث بين باريس واستوكهولم في 1649. وأرسل الدوق الأكبر فرديناند الثاني أمير توسكانيا، وراعي أكاديمية التشيمينتو، البارومترات، والترمومترات، والمراطيب، إلى راصدين مختارين في باريس، ووارسو، وانزبروك، وغيرها، ومعها تعليمات بتسجيل البيانات الرصدية يومياً، وإرسال نسخة منها إلى فلورنسة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأرض

للمقارنة. وأقنع ليبنتز المحطات الجوية في هانوفر وكيل بأن تحتفظ بسجلات يومية من 1679 إلى 1714. أما هوك، الذكي الذي لم يحسم عملاً، فقد فتح عشرات من مسالك البحث المبشرة بالنجاح، ولكن افتقاره إلى المال والصبر أعجزه عن المضي فيها إلى نهايات مشهورة. فنحن نجده في كل مكان في تاريخ العلم البريطاني في النصف الثاني من القرن السابع عشر. كان ابن وزير "مات بتعليق نفسه (28)"، وأرهم بتنوع مواهبه ذلك التنوع المتذبذب، فرسم الصور، وعزف على الأرغن، وابتكر ثلاثين طريقة مختلفة للطيران، وفي أكسفورد انصرف لدراسة الكيمياء، وعمل مساعداً لروبرت بويل. وفي 1662 عين "أميناً للتجارب" في الجمعية الملكية، وفي 1665 كان أستاذاً للهندسة بكلية جريشام، وفي 1666، بعد حريق لندن الكبير، اشتغل بالعمارة وصمم عدة مبان كبيرة-كبييت مونتاجيو، وكلية الأطباء، ومستشفى بيت لحم ("بدلام"). وبعد أطول إكباب على الميكروسكوبات، نشر رائعته "ميكروجرافيا" (1665) الذي احتوى على عدد من الأفكار الموحية في علم الأحياء. وعرض نظرية في الأمواج الضوئية، وساعد نيوتن في البصرييات، وكان سباقاً إلى قانون المربعات العكسية ونظرية الجاذبية. وكشف النجم الخامس في أوريون، وقام بأول محاولات ليحدد بالتلسكوب اختلاف منظر نجم ثابت. ثم عرض نظرية حركية للغازات في 1678، ووصف نظاماً للتغراف في 1684. وكان من أوائل من استعملوا الزنبرك في ضبط الساعات، وأرسى مبدأ آلة السدس لقياس أبعاد الزاوية، وصنع اثنتي عشرة آلة علمية. وأغلب الظن أنه كان أعظم العقول أصالة في كوكبة العباقرة التي جعلت من الجمعية الملكية حيناً محدد الخطوة للعلم الأوربي، ولكن طبيعته المكتئبة العصبية حالت بينه وبين ما كان جديراً به من ثناء ومديح. وقد كان له حتى في الجيولوجيا لحظة صدق. فقد زعم أن المتحفرات تدل على قدم الأرض والحياة قدماً يتعارض تماماً مع سفر التكوين، وتنبأ بأن تاريخ الحياة على الأرض سيحسب يوماً ما على أساس المتحفرات المختلفة في الطبقات المتعاقبة. وكان أكثر كتاب القرن السابع عشر لا يزالون يقبلون قصة الخلق الكتابية، وكافح

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأرض

بعضهم للتوفيق بين سفر التكوين وكشف الجيولوجيا المتفرقة. وفي مقال "نحو تاريخ طبيعي للأرض" (1695)، أعاد جون وودوارد، بعد دراسة طويلة لمجموعته الكبيرة من المتحفرات، تفسير ليوناردو دافنشي لها بأنها بقايا نباتات أو حيوانات عاشت يوماً ما على الأرض، ولكنه هو أيضاً ذهب إلى أن توزيع المتحفرات نتيجة لطوفان نوح. ثم اقترح قسيس أنجليكاني يدعى توماس بيرنيت (1680) التوفيق بين سفر التكوين والجيولوجيا بمدة "أيام" أسطورة الخليقة

كما وردت في سفر التكوين إلى حقب، وتقبل الناس هذه الحيلة، ولكن حين استجمع توماس أطراف شجاعته وراح يفسر قصة آدم على أنها رمز، وجد نفسه محروماً من الترقية للمناصب الكنسية. وكان أثناسيوس كيرشس يسوعياً تقياً وعالمياً فذاً، وسنراه يلمع في ميادين عديدة. وقد رسم كتابه، عالم ما تحت الأرض " (1665) خرائط لتيارات المحيط، ورأى أن المجاري الباطنية يغذيها البحر، وعزا ثوران البراكين والعيون الساخنة لنيران باطنية، وبدا هذا تأكيداً للاعتقاد الشائع بأن الجحيم في مركز الأرض. أما بيير بيرو (1674) فقد رفض الفكرة القائلة بأن العيون والأنهار لها منابع باطنية، وقال بالرأي المقبول الآن، وهو أنها نتاج الأمطار والتلوج. وعلل مارتن لستر ثوران البراكين بأنه نتيجة سخونة الكبريت في كيريتور الحديد والانفجار المترتب على السخونة، وأظهرت التجربة أن خليطاً من برادة الحديد، والكبريت، والماء، مدفوناً في الأرض، أصبح ساخناً وشقق الأرض من فوقه، ثم تنفجر لهيباً.

أما ألمع العلماء في جيولوجية ذلك العصر فقد عرفته الدنمرك باسم نيلز ستينسن، وعرفته دولية العلم باسم نيقولاوس ستينو. ولد في كوبنهاجن، ودرس الطب فيها وفي ليدن، حيث سلك سبينوزا في زمرة أصدقائه (29). ثم هاجر إلى إيطاليا، واعتنق الكاثوليكية وأصبح طبيب البلاط لفرديناند الثاني في فلورنسة. وفي 1669 نشر مجلداً صغيراً اسمه *Desolido intra solidum naturaliter contento* عده أحد الطلبة "أهم وثيقة جيولوجية في ذلك القرن (30)" وكان هدفه تأكيد الرأي الجديد في المتحفرات، ولكن على سبيل التمهيد له

صفحة رقم : 11250

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأرض

وضع ستينو لأول مرة أسساً تشرح تطور القشرة الأرضية. وقد وجد بدراسة جيولوجية توسكانيا ست طبقات متعاقبة. وحلل تركيبها ومحتوياتها، وتكوين الجبال والأودية، وأسباب البراكين والزلازل، وشوهد المتحفرات على مستويات الأنهار والبحار التي كانت أعلى فيما سبق من الأزمنة. وكان في الشهرة التي حظي بها الكتاب، وفي الدراسات التشريحية التي قام بها ستينو، ما حمل الملك كريستيان الرابع على أن يعرض عليه كرسي التشريح في جامعة كوبنهاجن. فقبله، ولكن كاثوليكيته الغيور أحدثت شيئاً من الاحتكاك، فعاد إلى فلورنسة، وانتقل من العلم إلى الدين، واختتم حياته أسقفاً لتينوبوليس ونائباً رسولياً لشمالي أوروبا.

وكانت الجغرافيا خلال ذلك تنمو، عادة بوصفها نتاجاً جانبياً للمشروعات التيشيرية أو العسكرية أو التجارية، وقد أخلص اليسوعيين للعلم إخلاصهم للدين أو السياسة تقريباً، وكان كثير منهم ينتمون إلى جماعات علمية رحبت بتقاريرهم الجغرافية والأنتوغرافية. وقد تغلغوا في بعثاتهم الدينية في كندا والمكسيك والبرازيل والتبت ومنغوليا والصين وجمعوا وأرسلوا الكثير من المعارف العلمية، ورسوموا أفضل الخرائط للمناطق التي زاروها. وفي 1651 نشر مارتينو مارتيني "الأطلس الصيني" وهو أرقى وصف جغرافي للصين طبع إلى ذلك التاريخ، وفي 1667 أصدر أثناسيوس كيرشس كتابه الرائع "الصين المصورة". وأوفد لويس الرابع عشر علماء يسوعيين مزودين بأحدث الآلات لرسم خريطة الصين ثانية، وفي 1718 أصدروا خريطة هائلة في 120 فرخاً تغطي الصين ومنشوريا ومنغوليا والتبت، وقد ظلت مدن قرنين الأساس لكل ما تلاها من خرائط لتلك المناطق. أما أعجوبة العصر الخرائطية فهي الخريطة التي بلغ قطرها أربعة عشرين قدماً، والتي رسمها جوفاني كاسيني ومساعدته بالجبر على أرضية مرصد باريس (حوالي 1690)، وبيّنوا عليها بالضبط مواقع جميع الأماكن الهامة على الكرة الأرضية بخطوط العرض والطول (31).

وينتمي لهذه الفترة بعض مشاهير الرحالة. وقد أُلْمِن من قبل

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأرض

بكتاب تافرنبيه "ست رحلات من أوربا لآسيا" (1670) وكتاب شاردان "رحلات في فارس" (1686). كتب تافرنبيه يقول "في رحلتي الست، وأثناء سفري بطرق مختلفة، أتيح لي من الفراغ والفرص ما مكنتني من مشاهدة تركيا كلها، وفارس كلها، والهند كلها... وفي المرات الثلاث الأخيرة جاوزت نهر الجنج إلى جزيرة جاوة، وهكذا قطعت في أربعين عاماً أكثر من ستين ألف فرسخ بالبر (32)". أما شاردان فقد سبق بعبارة واحدة "روح قوانين" مونتسكيو. قال: "إن مناخ كل جنس... هو دائماً السبب في ميول شعبه وعاداته (33)". وفي 1670-71 نشر فرانسوا برنبيه وصفاً لرحلاته ودراساته في الهند، وقد اتهم بأنه نفى عنه مسيحيته في الطريق (34). وغامر ولیم دامبييه بالرحلة في عشرات الأقطار والبحار، وكتب "رحلة جديدة حول العالم" (1697) وأعطى إشارة البدء لديفو حين روى كيف قاد في إحدى رحلاته الأخيرة السفينة التي أنفذت ألكسندر سيلكرك من جزيرة لا يسكنها غيره (1709). ولعبت الجغرافيا دورها في الغض من اللاهوت المسيحي. فكما تجمعت الأخبار عن القارات الأخرى لم تملك الطبقات الأوربية المتعلمة إلا العجب من اختلاف الأديان على ظهر الأرض، والتشابه بين الخرافات الدينية، ووثوق كل دين من صدق عقيدته، والمستوى الخلفي للمجتمعات الإسلامية أو البوذية، ذلك المستوى الذي أخزى من بعض الوجوه تلك الحروب الدامية وذلك التعصب القتال الذي يشين شعوباً وهبت الإيمان المسيحي. وروى البارون دلاهونتان أنه في رحلته في كندا عام 1683 لقد عنتا من جراء نقد الوطنيين اليهود للمسيحية (35)، واستشهد بيل المرة بعد المرة بعبادات الصينيين أو اليابانيين وأفكارهم في نقده المعتقدات وأساليب العيش الأوربية. وأصبحت نسبية الأخلاق من البديهيات في فلسفة القرن الثامن عشر، ووصف أحد الظرفاء أسفار "جاك سيدان" الخنثي، الذي ابتهج حين وجد بلداً كل أهله لوطيون، ينظرون إلى الأوربيين الذين يشتهون الجنس الآخر نظرتهم إلى هولاء فاسقة مقززة.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفيزياء

كان اصطدام الفيزياء والكيمياء بالعقيدة القديمة أقل ظهوراً من اصطدام الجغرافيا والأحياء بها، لأنهما تتناولان الجوامد والسوائل والغازات التي تبدو أنها لا علاقة لها باللاهوت، ولكن تقدم العلم حتى في ذلك المضمار المادي-كان

ينشر حكم القانون ويضعف الإيمان بالمعجزات. واعتمدت دراسة الفيزياء على الحاجات التجارية والصناعية لا على الاهتمامات الفلسفية.

وبعد أن أقنع الملاحون الفلكيين برسم خرائط للسماء بدقة أكثر، عرضوا الآن المكافآت على من يضع ساعة تعين على إيجاد خط الطول رغم اضطرابات البحر. وكان في الإمكان تحديد خط الطول في البحر بمقارنة لحظة شروق الشمس أو الزوال بالزمن الذي تظهره في تلك اللحظة ساعة ضبطت على وقت جرينتش أو باريس، ولكن ما لم تكن الساعة دقيقة فإن الحساب يخطئ خطأ خطراً. وفي 1675 توصل هويجنز إلى صنع ساعة يعتمد عليها بوصل بندول بترس شاكوش مسنن، ولكن ساعة كهذه عديمة النفع في مركب يعلو ويهبط. وبعد محاولات كثيرة، ركب هويجنز ساعة بحرية ناجحة بإحلاله محل البندول ترس توازن يديره زنبركان. وكانت الفكرة من بين الاقتراحات المنيرة التي فصلها في كتاب من عيون العلم الحديث "ساعة البندول"، وقد نشره في باريس عام 1673. وبعد ثلاث سنوات اخترع هوك شاكوش الساعات الكبيرة المثبت، واستعمل الزنبرك اللولبي على ترس توازن الساعات، وشرح حركة الزنبرك على أساس مبدأ "كما يكون الشد تكون القوة" وما زال هذا يسمى قانون هوك. وأمكن الآن أن تصنع ساعات الجيب صناعة أكفأ وأرخص من ذي قبل.

وقد درس هويجنز في كتاب "ساعة البندول Horologium

صفحة رقم : 11253

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفيزياء

وفي كتيب خاص قانون القوة المركزية الطاردة-مؤداه أن كل جزيء في جسم دائر لا يقع في محور الدوران معرض لقوة طرد مركزية تزداد مع بعده عن المحور ومع سرعة الدوران. وصنع كرة من طفل تدور بسرعة، ووجد أنها تتخذ شكلاً كروانياً مفرطاً عند طرفي المحور. وعلى مبدأ الطرد المركزي هذا فسر فرطحة المشتري عند قطبيه، وقياساً على ذلك استنتج أن الأرض أيضاً لا بد أن تكون مفرطحة فرطحة طفيفة عند القطبين.

وواصل كتاب هويجنز (Tractatus de Motu Corporum ex Percussione 1703) الذي نشر بعد موته بثماني سنوات، الدراسات التي قام بها جاليليو، وديكارت، واليس في مشكلات التصادم (impact) التي تناولت أسراراً مثيرة للفضول، من لعب البليارد إلى تصادم النجوم. فكيف تنتقل القوة من جسم متحرك إلى جسم يضربه، ولم يحل هويجنز اللغز، ولكنه قرر مبادئ أساسية:

1- إذا كان هناك جسم ساكن وصدمه جسم مساو له، فإن هذا ينتهي إلى السكون بعد الصدمة، في حين يكتسب الجسم الذي كان في البدء ساكناً سرعة الجسم الذي صدمه.

2- إذا اصطدم جسمان متساويان بسرعتين مختلفتين، فإنهما يتحركان بعد الصدمة بسرعتين متبادلتين.

11- إذا تصادم جسمان فإن مجموع حاصل ضرب الكتلتين في مربعي سرعتيهما واحد قبل الصدمة وبعدها. وقد عبرت هذه القضايا التي صاغها هويجنز في 1669 تعبيراً جزئياً عن أشمل أساس من أسس الفيزياء الحديثة، وهو عدم فناء الطاقة. على أنها كانت صادقة من الناحية المثالية أو النظرية فقط، لأنها افترضت المرونة التامة في الأجسام. ولما لم يكن في الطبيعة جسم مرن مرونة كاملة، فإن السرعة النسبية للأجسام الصادمة تتناقض حسب المادة التي تتألف منها. وقد حدد نيوتن معدل التناقض هذا في الخشب، والفلين، والصلب، والزجاج، في التعليق التمهيدي للجزء الأول من كتابه "المبادئ" (1687).

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفيزياء

وتدفق نهر آخر من أنهار البحث العلمي من التجارب التي أجراها تورينشلي وبسكال على الضغط الجوي، فقد أعلن بسكال في 1647 أن "أي إناء مهما كان كبيره، يمكن إفراغه من كل مادة معروفة في الطبيعة ومدركة بالحواس (37)" وقد ظلت الفلسفة الأوربية مئات السنين تعلن أن "الطبيعة تكره الفراغ"، وحتى الآن أخبر أستاذ باريس بسكال أن الملائكة ذاتها لا تستطيع أن تحدث فراغاً، وقال ديكارت بازدياء أن الفراغ الوحيد الموجود هو في رأس بسكال. ولكن حدث حوالي عام 1650 أن أوتو فون جويركي ركب في مجدبورج مضخة هوائية أحدثت فراغاً كاملاً تقريباً، حتى لقد أدهش كبار مواطنيه وأقطاب العلم بتجربة شهيرة اسمها "نصفاً كرة مجدبورج" (1654). ففي حضرة الإمبراطور فرديناند الثالث والديت الإمبراطوري في راتزيون قرب محاريتين نصف كرويتين من البرونز الواحدة من الأخرى بحيث أحكم ختمها دون أن يوصلاً ألياً عند حافظيهما وضخ كل الهواء تقريباً من داخلهما الملتصقين، ثم أرى الحاضرين أن القوة المجتمعة لستة عشر حصاناً ثمانية منها تشد في اتجاه، وثمانية في اتجاه مضاد-لا تستطيع فصل نصفي الكرة، ولكن حين فتح بحبس في أحد النصفين فأدخل الهواء، أمكن فصل المحارتين باليد. وكان جويركي شغوفاً بتبسيط الفيزياء للأباطرة. فاستطاع بتفريغ كرة نحاسية من الماء والهواء أن يجعلها تسقط بفرقة عالية مفرعة، وبهذه الطريقة أوضح ضغط الهواء. ووازن بين كرتين متساويتين، وأسقط إحداهما بتفريغه الهواء من الأخرى، وهكذا أثبت أن للهواء وزناً، واعترف بأن كل الفراغات ناقصة، ولكنه أثبت أن فراغاته الناقصة تلك تنطفئ الشعلة، وتختنق الحيوانات، وتسكت الساعة الدقاقة، وهكذا مهد للكشف عن الأوكسجين، وبين أن الهواء ناقل الصوت. واستعمل امتصاص الفراغ لضخ الماء ورفع الثقال، وأسهم في التمهيد للآلة البخارية. فلما أصبح عمدة مجدبورج آخر نشر كشفه حتى عام 1672، ولكنه أبلغها لكاسبار شوت أستاذ الفيزياء اليسوعي بفورتربورج، الذي طبع وصفاً لها في 1657. وهذا المطبوع هو الذي حفز بويل إلى بحوثه التي أفضت إلى قانون الضغط الجوي.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفيزياء

أما روبرت بويل فكان عاملاً هاماً في ازدهار العلم الإنجليزي في النصف الثاني من القرن السابع عشر. كان أبوه رتشرد بويل، إيرل كورك، قد أفتتني ضيعة كبيرة في إيرلندة، ورث روبرت معظمها وهو في السابعة عشرة (1644)، وفي زيارته المتكررة للندن تعرف إلى واليس، وهوك، ورن، وغيرهم من أعضاء "الكلية غير المنظورة"، فلما افتتن بجهودهم ونظلمعاتهم انتقل إلى أكسفورد وبنى بها مختبراً (1654). وكان رجلاً ذا حماسات حارة وورع لا قبل لعلم من العلوم بتدميره. فقد رفض أن يمضي في الاتصال بسبينوزا (عن طريق أولدنبورج) حين علم أن الفيلسوف يعبد "الجوهر" باعتباره الله، ولكنه وضع قدراً كبيراً من ثروته في خدمة العلم وأعان الكثيرين من أصحابه. كان طويلاً، نحيلاً، هزياً معتلاً أكثر الوقت، ولكنه أوقف الموت على مبعده منه بالحمية والتشفي الصارمين، وقد وجد في مختبره "ماء نهر النسيان، ذلك الماء الذي ينسني كل شيء إلا بهجة إجراء التجارب (38)".

وبعد أن سمع بويل بمضخة جويريكي الهوائية، صمم بمساعدة هوك (1657) "آلة هوائية" لدراسة خواص الغلاف الغازي. وبهذه الآلة وما تلاها من مضخات أثبت أن عمود الزئبق في البارومتر يسند الضغط الجوي، وقاس بالتقريب كثافة الهواء. وزاد على تجربة جاليليو المزعومة في بيزا بإثباته أن حزمة الريش تسقط بنفس سرعة سقوط الحجر، حتى في فراغ غير كامل. وبرهن على أن الضوء لا يتأثر بالفراغ، وإن فهو لا يستعمل الهواء كما يستعمله الصوت وسيطاً لانتقاله، وأيد برهان جويريكي على أن الهواء لا غنى عنه للحياة "فحين أغمي على فأر في الحجرة المفرغة، أوقف التجربة وأنعشه بإدخال الهواء). ونحن نرى دولية العلم في تحركها حين نعلم أن جويريكي حفزته جهود بويل ليصمم مضخة هوائية أفضل ويستأنف دراساته العلمية، وأن هويجنز، بعد زيارته لبويل عام 1661، أغرى بصنع آلات شبيهة والقيام باختبارات مماثلة.

ومضى بويل في أبحاثه الخلاقة في الانكسار، والبلورات، والأوزان النوعية، والهيدروستاتيكا، والحرارة. وتوج إسهاماته في الفيزياء بصياغة القانون الذي يحمل اسمه: وهو أن ضغط الهواء أو

صفحة رقم : 11256

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفيزياء

أي غاز يتناسب تناسباً عكسياً مع حجمه-أو أن ضغط الغاز مضروباً في حجمه يكون ثابتاً عند درجة حرارة ثابتة. وقد أذاع هذا المبدأ أول مرة في 1662، وفي سماحة وكرم نسب الفضل فيه إلى تلميذه ونشره تاونلي. وكان هوك قد توصل إلى الصيغة ذاتها في 1660 بتجارب مستقلة، ولكنه لم يذعها إلا في 1665. وتوصل قس فرنسي يدعى ادمي ماريوت في نحو الوقت الذي توصل فيه بويل إلى نتيجة مماثلة، وهي "أن الهواء ينضغط حسب الثقل الواقع عليه"، ونشر هذا في 1676، واسمه لا اسم بويل هو المرتبط في القارة بقانون الضغط الجوي. وأياً كان صاحب الفضل في القانون، فإنه كان من أسلاف الآلة البخارية والثورة الصناعية.

وتابع بويل وهوك رأي بيكون في أن "الحرارة حركة تمدد لا في الجسم كله بشكل منتظم، بل في أجزائه الصغرى(39)". وقد وصف هوك الحرارة بأنها "خاصية تنشأ في جسم ما من حركة أجزائه أو هيجانها"، وميز بينها وبين النار والذهب، اللذين نسبهما إلى فعل الهواء في الأجسام المحماة. قال "كل الأجسام لها درجة ما من الحرارة فيها" وذلك لأن "أجزاء جميع الأجسام وإن لم تكن شديدة الصلابة إلا أنها تتذبذب قطعاً(40)"، أما البرودة فليست إلا مفهوماً سلبياً. وسلي ماريوت أصحابه حين أراهم أن "البرودة" يمكن أن تحترق، فبلوح مقعر من الثلج ركز ضوء الشمس على البارود فانفجر. وقد أذاب الكونت ايرنفريد فالتر فون تشيرنهاوس، صديق سبينوزا، الخزف الصيني والريالات الفضية بتركيزه ضوء الشمس عليها.

وفي فيزياء الصوت برهن إنجليزيان-هما وليم نوبل وتوماس بيجوت-كل على حدة (نحو 1673) على أن أجزاء مختلفة من الوتر، لا الوتر كله فحسب، قد تتذبذب بنغمات توافقية، تجاوباً مع وتر قريب ومتصل، ينقر أو يضرب أو يثني. وقد اقترح ديكرات هذا على ميوسين، وعملاً بهذه الفكرة توصل جوزف سوفير، مستقلاً إلى نتائج شبيهة بما توصل إليه الإنجليزيان (1700)، ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن سوفير، الذي كان أول من استعمل كلمة acoustics "السمعيات"، كان أصم وأبكم منذ ولادته(41). وفي 1711 اخترع

صفحة رقم : 11257

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفيزياء

جون شور الشوكة الرنانة. وقام بوريللي، وففياني، وبيكار، وكاسيني، وهويجنز، وفلامستيد، وبويل، وهالي، ونيوتن، بمحاولات في هذه الفترة لإيجاد سرعة الصوت. وكان أقرب تقدير لتقديرنا الحالي هو تقدير بويل، الذي قرر أنها تبلغ 1.126 قدماً في الثانية. وقرر وليم ديرام (1708) أن هذه المعرفة يمكن الانتفاع بها في حساب بعد العاصفة بملاحظة الفترة بين وميض البرق والصاعقة.

ولعل النصف الثاني من القرن السابع عشر أزهى فترة في تاريخ فيزياء الضوء، فأولاً، ما هذا الضوء؟ لقد غامر هوك، وهو المستعد دائماً للتقريب عن الصعوبات، برأي يزعم أن الضوء "ليس إلا حركة خاصة لأجزاء الجسم المضيء(42)"-أي أن الضوء لا يختلف عن الحرارة إلا في الحركة الأسرع التي تتحركها الجزيئات المكونة للجسم. ثانياً، ما مدى سرعة تحركه؟ لقد افترض العلماء إلى ذلك الحين أن سرعة الضوء غير محدودة، وحتى هوك المغامر قال أنها على أية حال أكبر من أن تقاس. وفي 1675 برهن فلكي دنمركي يدعى أولوس رويمر، استقدمه بيكار إلى باريس، على سرعة الضوء المحدودة، إذا لاحظ أن فترة خسوف أقرب التوابع إلى قلب المشتري تتفاوت حسب اقتراب الأرض أو ابتعادها من ذلك الكوكب. وقد أثبت بحسابات مبنية على زمن دورة التابع وقطر فلك الأرض، أن التفاوت في زمن الخسوف الملحوظ راجع إلى الزمن الذي يستغرقه الضوء من التابع ليقطع فلك الأرض، وعلى هذا الأساس الهزيل حسب سرعة الضوء بنحو 120.000 ميل في الثانية (وتقديرنا الحالي يبلغ 186.000 ميل). ولكن كيف ينتقل الضوء؟ أيتحرك في خطوط مستقيمة، إذا كان الأمر كذلك فكيف يدور حول الزوايا؟ لقد اكتشف فرنانشيسكو جريمالدي، الأستاذ اليسوعي ببولونيا، (1665) ظاهرة الانحراف

صفحة رقم : 11258

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفيزياء

وسماها-وهي أن أشعة الضوء المارة من ثقب صغير إلى حجرة مظلمة تنتشر على الحائط المواجه باتساع أكبر مما تنتجه الخطوط المستقيمة من المصدر إلى الحائط، وأن أشعة الضوء تنحرف انحرافاً طفيفاً عن الخط المستقيم حين تمر بأطراف جسم معتم، وقد أفضت هذه الكشوف وغيرها بجريمالدي إلى قبول الرأي الذي ألمع إليه ليوناردو دافنشي، وهو أن الضوء يتحرك في موجات متسعة. ووافق هوك، ولكن هويجنز هو الذي أثبت نظرية الموجات التي ما زالت شائعة بين الفيزيائيين. وفي كتاب آخر من عيون العلم الحديثة يدعى "رسالة في الضوء" (1690) أورد هويجنز النتائج التي توصل إليها من دراسة بدأت قبل اثنتي عشرة سنة: وهي أن الضوء تنقله مادة افتراضية سماها "الأثير" (عن المرادف اليوناني للسماء)، وتصور أنها تتألف من أجسام صغيرة، قاسية، مرنة، تنقل الضوء في موجات دائرية متعاقبة تنتشر خارجة من المصدر المضيء. وعلى هذه النظرية أسس قوانين الانعكاس، والانكسار المزدوج، وعزا للحركة المغلفة للموج قدرة الضوء على الحركة حول الأركان والأجسام المعتمة، وفسر الشفافية بأن افترض أن جزيئات الأثير من الدقة بحيث تستطيع

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الفيزياء

أن تسافر حول الجزيئات التي تُولف السوائل والمواد الشفافة وبينها. ولكنه اعترف بعجزه عن تعليل الاستقطاب، وهذا من أسباب رفض نيوتن لفرض الموجات وتفضيله نظرية الجزيئات الضوئية. ولم يحرز القرن السابع عشر غير تقدم كتواضع في دراسة الكهرباء بعد العمل الذي قام به جلبرت وكيرشر في ميدان المغناطيسية، وكابيو في التناثر الكهربائي. وقد درس هالي تأثير المغنطيسية الأرضية في إبر البوصلة، وكان أول من تبين الصلة بين مغنطيسية الأرض والفجر الكاذب، (1692aurora borealis). ووصف جويريكي في 1672 بعض تجاربه في كهرباء الاحتكاك. فالكرة من الكبريت، بعد أن أدبرت على يده، جذبت الورق، والريش، وغيرهما من الأجسام الخفيفة، وحملت معها في دورانها، وقد ربط بين هذا وبين حركة الأرض إذ تحمل معها الأجسام التي على سطحها أو بقربه. وتحقق من التناثر الكهربائي إذا أثبتت أن الريشة إذا وضعت بين الكرة المكهربة وأرضية الحجره تقفز إلى أعلى وأسفل من الواحدة إلى الأخرى. وكان رائداً في دراسة التوصيل، إذ برهن على أن الشحنة الكهربائية تستطيع أن تسافر على خيط من الكتان، وأن الأجسام يمكن أن تتكهرب بتقريبها من الكرة المكهربة. وقد ابتكر فرانسيس هوكسبي، عضو الجمعية الملكية (1705-9) طريقة أفضل لتوليد الكهرباء بإدارته كرة زجاجية مفرغة دورانياً سريعاً، ثم وضعها على يده، وقد انبعث من الاحتكاكات شر طوله بوصة أحدث ضوءاً يكفي للقراءة. وشبه إنجليزي آخر يدعى وول، صوت وضوء شرر مماثل أحدثه، بالرعد والبرق (1708). وعقد نيوتن نفس المقارنة في 1716، وأكد فرانكلن العلاقة في 1749. وهكذا نرى الكون الهائل المستعلق، سنة بعد سنة، وعقلاً بعد عقل، يفضي بنتفه مغرية من سره المكنون.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الكيمياء

شهد هذا القرن الرائع علم الكيمياء يتطور من تجارب الكيمياء وأوهامها. وكانت الصناعة منذ زمن تجمع المعرفة الكيميائية عن طريق عمليات صهر الحديد، ودبغ الجلود، ومزج الأصباغ، وتخمير الجعة، ولكن فحص المواد في تركيبها، واتحادها، وتحولها، كان في أغلبه متروكاً للمشتغلين بالكيمياء الباحثين عن الذهب، أو للصيادلة المجهزين للعقاقير. أو للفلاسفة من ديموقريطس إلى ديكارت-الحائرين في تركيب المادة. وقد حاول اندرياس ليبافيوس في 1597، وجان فان هيلمونت في 1640، الدخول إلى علم الكيمياء، ولكن كلا الرجلين شارك الكيميائيين أملمهم في تحويل المعادن "الخسيسة" ذهباً. وقام بويل نفسه بتجارب بهذا الهدف. ففي 1689 حصل على إلغاء لقانون إنجليزي

قديم ضد "تكثر الذهب والفضة(43)"، وعند وفاته (1691) خلف لمنفذي وصيته كمية من التراب الأحمر وتعليمات بمحاولة تحويلها إلى ذهب(44). والآن وقد أصبح تحويل المعادن "كلشيها" للكيمياء، فإن في وسعنا أن نشيد بالعلم الذي انطوت عليه الكيمياء بما ندين للهفة على الذهب ونخيفها. وكانت أعظم لطفة وجهت إلى الكيمياء هي نشر كتاب بويل "الكيميائي الشكاك" (1661) وهو أول كتاب من عيون تاريخ

صفحة رقم : 11261

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الكيمياء

الكيمياء. وقد اعتذر فيه عن "السماح" لبحثه هذا "بأن يذاع وهو مبتور ناقص على هذا النحو(45)". ولكنه -وهو يعاني من علة كثيرة- عديم الثقة في أنه سيعمر طويلاً. على أن مما يعزبه "أن يلحظ أن الكيمياء بدأت أخيراً تحظى بما هي جديرة به حقاً من رعاية العلماء الذين كانوا من قبل يحتقرونها(46)". ووصف كيميائه بأنها شكافة لأن من رأيه رفض جميع التفسيرات الغيبية والخصائص السحرية لأنها "محراب الجهل" وهو مصمم على الاعتماد على "التجارب لا الأقيسة المنطقية(47)". وقد هجر ذلك التقسيم التقليدي للمادة إلى العناصر الأربعة، الهواء، والنار، والماء، والتراب: وقال إن هذه مركبات لا عناصر، أما العناصر الحقيقية فهي على الأصح "أجسام معينة بدائية وبسيطة، أو غير مختلطة إطلاقاً، ولأنها ليست مؤلفة من أي أجسام أخرى أو من بعضها البعض" فهي المكونات لجميع المركبات، ويمكن أن تحلل إليها كل المركبات. ولم يقصد أن العناصر هي المكونات النهائية للمادة، فهذه العناصر الطبيعية المتناهية الصغر هي في رأيه جزيئات دقيقة لا ترى بالعين المجردة، مختلفة شكلاً وحجماً، كذرات لوكيبوس. ومن تنوع هذه الجزيئات وتحركها، ومن اتحادها في "كريات"، تتشأ كل الأجسام، وكل صفاتها وأحوالها، كاللون، والمغناطيسية، والحرارة، والنار، وذلك بطرق وقوانين ميكانيكية خالصة. وقد استهوت النار العلماء استهواها للحالمين عند المدافئ. فما الذي يجعل المادة تحترق؟ وما تفسير هذه الألسنة الدائمة التغير من اللهب الجميل، العاتي، الرهيب؟ في سنة 1669 رد كيميائي ألماني يدعى يوهان بيشير كل "العناصر" إلى عنصرين -الماء والتراب، وسمى شكلاً من أشكال التراب، "التراب الزيتي"، الذي اعتقد بوجوده في جميع الأجسام القابلة للاشتعال، وهذا هو الذي يحترق. وفي القرن الثامن عشر سنرى جيورج شتال -الذي اتبع هذا الرأي الخاطئ- ينحرف بالكيمياء عشرات السنين بنظرية مماثلة هي نظرية اللاهوب Phlogiston. على أن بويل سلك مسلكاً آخر. فقد لاحظ أن مواد محترقة مختلفة تكف عن الاحتراق في الفراغ، فاستنتج أن "في الهواء جوهرأ حيوياً صغيراً... يعين

صفحة رقم : 11262

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الكيمياء

على إنعاش حيويتنا واسترجاعها(48)". وتقدم معاصره الأصغر جون مايوو، وكان هو أيضاً ينتمي للجمعية الملكية، (1547) صوب نظريتنا الحالية عن النار بأن افترض أن من بين مكونات الهواء مادة تتحد بالمعادن حين تتكلس (تتأكسد)، واعتقد أن مادة مماثلة تدخل أجسامنا فتغير الدم الوريدي إلى دم شرياني. وكان لا بد أن تنقضي مائة عام قبل أن يكتشف شيل وبريستلي الأوكسجين نهائياً.

وحوالي عام 1670 اكتشف كيميائي ألماني يدعى هينيج براند أن في استطاعته أن يحصل من بول الإنسان على مادة كيميائية تتوهج في الظلام دون تعريض تمهيدي للضوء. وعرض كيميائي من درسدن يدعى كرافت هذا النتاج الجديد أمام تشارلز الثاني بلندن في 1677. ولم يستطع بويل أن يستخلص من كرافت المتكتم إلا الاعتراف بأن المادة المضئية "شيء ينتمي إلى جسم الإنسان(49)". وكان في الإشارة ما يكفي، فسرعان ما حصل بويل على كميته من الفوسفور، وأثبت بسلسلة من التجارب كل ما نعرفه إلى الآن عن توهج ذلك العنصر. وكان النتاج الجديد يكلف المشتريين ست جنيهات (315 دولاراً؟) للأوقية رغم وفرة مصدره.

صفحة رقم : 11263

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> التكنولوجيا

7- التكنولوجيا

كانت الصناعة-إلى القرن التاسع عشر تحفز العلم أكثر مما يحفز العلم الصناعة، وكانت المخترعات إلى القرن العشرين تخرج في المختبر أقل مما تخرج في المتجر أو الحقل. ولعل العمليتين سارتا جنباً إلى جنب في أهم الحالات جميعاً، وهي تطوير الآلة البخارية

وقد صنع هيرو الاسكندري، في القرن الثالث الميلادي أو قبله، عدة آلات بخارية، ولكنها على قدر علمنا كانت تستعمل لعباً أو عجائب تسلي الجماهير أكثر منها أجهزة تحل محل الطاقة البشرية. وفي أوائل القرن السادس عشر وصف ليوناردو دافنشي بندقية تستطيع بضغط البخار أن تدفع مسماراً حديدياً مسافة ألف ومائتي ياردة، ولكن مخطوطاته العلمية لم تنشر إلا عام 1880. وقد ترجمت بعض كتابات هيرو اليونانية إلى اللاتينية في 1757، وإلى الإيطالية في 1589.

صفحة رقم : 11264

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> التكنولوجيا

وذكر جيروم كاردان (1550) وجامباتستا ديللا بورتا (1601) أن في الإمكان إحداث فراغ بتكثيف البخار، ووصف بورتا آلة لاستخدام ضغط البخار لرفع عمود الماء. ومثل هذه الاستخدامات للبخار المتمدد اقترحها سالومون دكاوس بباريس في 1615 وبرانكا بروما في 1630. وحصل ديفد رامسي من تشارلز الأول ملك إنجلترا على براءة بآلات "الرفع الماء من الحفر المنخفضة بالنار... وتشغيل أي نوع من المصانع على المياه الساكنة بالحركة المستمرة، دون مساعدة من الرياح أو الأثقال أو الخيل(50)". وفي 1663 حصل إدوارد سومرست، مركيز ورستر، من البرلمان على احتكار مدته تسعة وتسعون عاماً لـ "أعجب عمل في العالم كله" -وهو "آلة تتحكم في الماء" ترفع الماء لارتفاع أربعين قدماً(51)، وبهذه الآلة أراد أن يشغل المصانع المائية لجزء كبير من لندن، ولكنه مات قبل أن ينفذ خطته. وحوالي 1675 اخترع صموئيل مورلاند، كبير ميكانيكية تشارلز الثاني، المضخة الكابسة، وفي 1685 نشر أول وصف دقيق لقوة تمدد البخار. وفي 1680 صنع هوبجنز أول آلة غازية باسطوانة ومكبس تدار بالقوة الممدة للبارود المتفجر.

وذهب دنيابان، المساعد الفرنسي لهويجنز، إلى إنجلترا واشتغل مع بويل، ونشر عام 1681 وصفاً لـ "مهتزمة digester" -وهي حلة ضغط لنظرية العظم بماء يغلي في إناء مقفل. ولكي يمنع انفجار الإناء وصل بقمته أنبوبة مكن أن تفتح إذا بلغ الضغط نقطة معينة، وقد لعب "صمام الأمن" الأول هذا دوراً منقذاً في تطوير الآلة البخارية. وزاد بابان على ذلك بأن ثبت أن قوة البخار يمكن نقلها غازياً بأنبوبة من مكان لآخر. ولما انتقل إلى ماربورج بألمانيا عرض (1690) أول آلة استعمل فيها تكثيف البخار، الذي يحدث فراغاً، لدفع مكبس. وقد ألع إلى قدرات هذه الآلة على قذف القنابل، ورفع المياه من المناجم، ودفع المراكب بعجلات تغديف، وفي 1707 (أي قبل قرن بالضبط من إبحار سفينة فولتون "كليرمون" مصعدة على نهر هدسون) استخدم آتة البخارية في تسيير زورق بدولاب تغديف على نهر فولدا بكاسل(52). ولكن الزورق تحطم، وثبط الحكام الألمان تطوير القوة المكنية لأطمئنانهم إلى الأوضاع الراهنة آنئذ، وربما لخوفهم من انتشار البطالة.

صفحة رقم : 11265

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> التكنولوجيا

وعرض توماس سافوي على مجلس البحرية بإنجلترا جهازاً مماثلاً حوالي عام 1700، ولكن الجهاز رفض بهذا التعليق فيما روى -"أي شأن للمتطفلين الذين لا صلة لهم بنا بتصميم أو اختراع أشياء لنا؟(54)" وقدّم سافوي عرضاً لاختراعه على نهر التايمز، ولكن البحرية رفضته ثانية. وفي 1698 سجل أول آلة بخارية استعملت فعلاً في ضخ الماء من المناجم. وفي 1699 منح براءة خولت له لمدة أربعة عشر عاماً "احتكار استعمال اختراع جديد... لرفع الماء وإحداث الحركة بقوة النار الضاغطة، سيكون ذا فائدة كبرى في نزاح المناجم، وتوفير المياه للمدن، وتشغيل المصانع بجميع أنواعها(55)" على أنه تبين أن آلات سافوي غالية وخطرة. فقد كان لها صنابير للقياس ولكن لم يكن لها صمامات أمن، وكانت عرضة لانفجارات الغلايات، ومع أنها استخدمت في بعض المناجم لنزح الماء منها، إلا أن أصحاب المناجم عادوا سريعاً إلى استخدام الخيل في هذه المهمة.

عند هذه النقطة من القصة نلتقي مرة أخرى بروبرت هوك. ويروي معاصر موثوق بروايته أنه حوالي 1702 كان يتبادل الرسائل مع تاجر حديد وحداد يدعى توماس نيوكومن حول إمكان استخدام مبدأ المضخة الهوائية في إحداث القوة المكنية. كتب يقول "إذا استطعت أن تحدث فراغاً سريعاً تحت اسطوانتك الثانية انتهى عمالك(56)" ويلوح أن نيوكومن كما يجري تجارب على آلة بخارية، هنا اتصل العلم والصناعة اتصالاً مرئياً. ولكن هوك كان شكاكاً، فتخلى عن التجربة، وفاتته فرصة مرة أخرى. وانضم نيوكومن إلى سمكري يدعى جون كولي في صنع آلة بخارية (1712) -بذراع متذبذب، ومكبس، وصمام أمن يمكن الركون إليها في القيام بعمل شاق دون خطر الانفجار، وبقدرة

كاملة على التحكم الذاتي. واستمر نيوكومن حتى وفاته (1729) في تحسين آله، ولكن في وسعنا أن نؤرخ من براءة سافوي في 1699، وآلة نيوكومن في 1712-، بداية الثورة الصناعية التي ستغير في القرنين التاليين وجه الدنيا وهواءها.

صفحة رقم : 11266

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأحياء

8- الأحياء

مدت جماعة الباحثين الممتازة التي صنعت مجد الجمعية الملكية

صفحة رقم : 11267

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأحياء

أبحاثها إلى علوم الحياة. فأوضح هوك بالتجربة ما قرره من قبل السر كينيلم ديجبي-ذلك "المشعوذ الكبير" كما دعاه ايفلين(52): وهو أن النباتات تحتاج إلى الهواء لتحيا. فعرض بذرة خس في التربة في العراء، وفي نفس الوقت بذرة مماثلة في تربة مماثلة في حجرة مفرغة، ونمت البذرة الأولى بوصة ونصفاً في ثمانية أيام، أما الثانية فلم تتم على الإطلاق. ووجد هوك بين جزء الهواء المستعمل في الاحتراق وبين الجزء المستعمل في تنفس النبات والحيوان، ووصف هذا الجزء المستهلك بأنه ننري الطبيعة (1665). وأوضح أن الحيوانات التي توقفت تنفسها مكن الإبقاء على حياتها بنفخ الهواء في رئاتها بمنفاخ. واكتشف البناء الخلوي للنسيج الحي، واخترع لفظ "الخلية cell" لدلالة على مركباته العضوية. ورأى أعضاء الجمعية من خلال مكروسكوبه في ابتهاج خلايا الفلين الذي قدر هوك أن البوصة المكعبة منه تحوي 1.200.000.000 خلية. ودرس هستولوجيا (علم الأنسجة) الحشرات والنباتات، وعر رسوماً طريفة لها في كتابه "ميكروجرافيا" ز لقد وقف هوك دائماً قاب قوسين أو أدنى من جاليليو ونيوتن. وأسهم عضو آخر في الجمعية هو جون راي في إضفاء الشكل الحديث على علم النبات. وكان ابن حداد، ولكنه شق طريقه إلى كمبردج، وأصبح زميلاً لكلية ترنتي، ورسم قسماً أنجليكانياً. وقد أخلص للدين والعلم على السواء، شأنه في ذلك شأن بويل. واستقال من زمالته لأنه أبى التوقيع على "قانون التوافق" (1662) الذي يتعهد موقعه بعدم مقاومة تشارلز الثاني، وانطلق من تلميذه فرانسس ويلاجبي في رحلة يجوبان فيها أوروبا لجميع البيانات اللازمة لوصف منظم لمملكتي الحيوان والنبات. واضطلع يلاجبي بعلم الحيوان، ولكنه مات بعد أن أكمل الفصول الخاصة بالطيور

والأسماك. وفي 1670 أصدر راي "Catalogus Plantarum Angliae" قائمة بنبات إنجلترا" أصبحت إطار علم النبات الإنجليزي. واقترح راي "طريقة جديدة لتقسيم النبات" مستعيناً في ذلك بما وضعه يواقيم يونجوس في 1678 من مصطلحات محسنة وتصنيف منقح، فقسم كل الزهريات إلى ثنائية الفلقة dicotyledons وأحادية الفلقة monocotyledons

صفحة رقم : 11268

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأحياء

حسب ورقيتها أو ورقتها الجنبية المرافقة للبذور. وأكمل مهمته الكبرى في رائعة من روائع العلم الحديث، هي كتابة الضخم ذو المجلدات الثلاثة "Historia Generalis Palantarum" تاريخ النبات العام" (1682-1704)، الذي وصف 18.625 نوعاً من أنواع النبات. وكان راي أول من استعمل كلمة "نوع species" بمعناها البيولوجي، وهو مجموعة من الكائنات الحية مشتقة من والدين مماثلين وقادرة على توليد نوعها. وهذا التعريف، مضافاً إليه ما أتى به لينايوس بعد ذلك من تصنيف (1751)، هياً للجدل حول أصل الأنواع وقابليتها للتغير، وفي غضون ذلك نشر وحقق مخطوطات وبيلاجبي عن علم الأسماك ichthyology وعلم الطيور ornithology وأضاف موجزاً منهجياً عن ذوات الأربع (1693) فأتاح لعلم الحيوان الحديث أول تصنيف علمي حقيقي للحيوان (58). لقد كان النظام أول القوانين عند راي.

وقد تبين علماء النبات، حتى في العصور القديمة، أن بعض النباتات يجوز أن توصف بأنها مؤنثة لأنها تحمل ثمرأ، وبعضها مذكرة لأنها لا تثمر، ولاحظ تيوفرستوس في القرن الثالث قبل المسيح أن نخلة البلح لا تثمر إلا إذا هز فوقها طلع الذكر، ولكن هذه الأفكار كانت قد نسيت تقريباً. وفي 1682 أضاف نحماً جرو عضو الجمعية الملكية سحراً جديداً للزهور بتأكيد جنسانية النباتات تأكيداً قاطعاً. ذلك أنه في دراسته نسيج النبات تحت المكروسكوب، لاحظ المسام التي في السطح الأعلى للأوراق، وألمح إلى أن الأوراق أعضاء التنفس. ووصف الأزهار بأنها أعضاء التناسل، فالمذقة Pistil مؤنثة، والسداة stamen مذكرة، واللقاح Pollen بزررة. وافترض خطأ أن جميع النباتات خنثوية hermaphrodites، تجمع بنيتي الذكر والأنثى في كائن حي واحد. وفي 1691 أثبت ردولف كاميراريوس، أستاذ النبات في توبنجن، بشكل قاطع جنسانية النباتات (sexuality) إذ أثبت أنها لا تثمر بعد إزالة المثير anther وهو جزء السداة المحتوي على اللقاح. وفي نفس اليوم (7 ديسمبر 1671) الذي تلقت فيه الجمعية الملكية اللندنية أول مقالات جرو "بداية تشريح الخضر"، تلقت أيضاً

صفحة رقم : 11269

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأحياء

مخطوطاً من مار تشيللو ملبيجي البولوني، نشرته (1675) باسم لاتيني *Anatomes Plantarum Idea*، وكان استعمال اللاتينية ما زال يبسر دولية العلم. وقد اقتسم مالبيجي مع جرو شرف إرساء دعائم هستولوجيا النبات، ولكن إسهامه الكبير كان في علم الحيوان. وفي 1676 أثبت ماريوت بتحليله الكيميائي لمخلفات النباتات والتربة التي نمت فيها-أنها تنتشر العناصر الغذائية في الماء الذي تمتصه من التربة. ولم يتبين ماريوت، ولا جرو، ولا مالبيجي، قدرة النباتات على أن تأخذ غذاءها من الهواء، ولكن عمليتي التغذية والتناسل اللتين اكتشفنا الآن كأننا تقدماً هائلاً على تحليل أرسطو الغامض لنمو النباتات بما لـ "النفس النباتية" من تطلعات إلى التمدد.

وفي عام 1668 أصيبت فكرة قديمة شائعة بأن صدمة من صدمات عديدة، حين نشر فرانشسكو ريدي الاريتسوي كتابه "تجارب في توالد الحشرات" وهي تجارب تنحو إلى نفي التولد الذاتي *abiogenesis* وهو التولد التلقائي للكائنات الحية من المادة غير الحية. فالى النصف الثاني من القرن السابع عشر كانت الفكرة التي آمن بها الجميع تقريباً (فيما عدا استثناءً بارزاً هو وليم هارفي) هي أن في الإمكان توالد الحيوانات والنباتات الدقيقة في القدر أو الوحل، لا سيما في اللحم المتحلل، وهذه الفكرة تكمن وراء عبارة شكسبير "الشمس التي تولد الدود في الكلاب الميتة(59)". وقد أثبت ريدي أن الدود لا يتكون على اللحم المحمي من الحشرات، بل على اللحم المكشوف. وقد صاغ النتيجة التي خلص إليها في عبارته "Omne vivum ex ovo" كل حي يخرج من بيضة أو بزرّة". ولما اكتشفت الأوليات (البرزويات Protozoa)، انبعثت حجج القائلين بالتولد التلقائي من جديد، وقد رد عليهم سبالانزاني في 1767، ثم باستير في 1861.

كان الكشف عن تلك الكائنات ذات الخلية الواحدة التي سميت فيما بعد بالبروتوزوا أهم إسهام أسهم به هذا العصر في علم الحيوان. وكان انطون فان ليفينهويك هولندياً من ديلفت، ولكنه أنهى-عن طريق الجمعية الملكية بلندن-النتائج العلمية التي توصل إليها خلال أربعين سنة من سني عمره الواحدة والتسعين. كان سليل أسرة من صناعات الجعة الأثرياء، فاستطاع أن يقنع بوظائف أتاحت له من الفراغ

صفحة رقم : 11270

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأحياء

أكثر مما أعطته من راتب، وانقطع لدراسة عالم الحياة الجديد كما كشف عنه المكروسكوب، بإصرار من افنتن بهذا العلم. وكان يملك 247 مكروسكوباً، صنع معظمها بنفسه، وكان مختبره يتألق بعدسات بلغت 419، ربما شحذ بعضها سبينوزا، الذي ولد في نفس سنة مولده (1632) وفي نفسه وطنه. وقد حرص بطرس الأكبر وهو بديلفت في 1698 على أن يحرق في الكائنات خلال مكروسكوبات ليفينهويك. فلما وجه هذا العالم (1675) أحدها لدراسة بعض ماء المطر الذي سقط في قدر قبل أيام، راعه أن يرى "حيوانات صغيرة بدت لي أصغر عشرة آلاف مرة من تلك التي وصفها المسيو سوامردام والتي سماها براغيث الماء أو قمل الماء، والتي يمكن أن ترى في الماء بالعين المجردة(60)"، ثم وصف كأننا نعرفه الآن باسم الجيبون الناقوسي (*Vorticella bell animalecule*). ويلوح أن هذا كان أول وصفه للبروتوزون. وفي 1683 اكتشف ليفينهويك كائنات أصغر حتى من تلك وهي البكتيريا. وجدها أولاً على أسنانه، وقال مستدركاً "مع أنني أحافظ عادة على نظافة أسناني التامة"، وأذهل بعض جيرانه حين فحص بصاقهم وأراهم تحت المكروسكوب "عدداً عظيماً من المخلوقات الحية" فيه(61). وفي 1677 اكتشف البزيرات المنوية في ماء الذكر: وتعجب من إسراف الطبيعة في جهاز الإنسان: فقد قدر هناك ألف بزيرة في كمية صغيرة من منى الرجل، وحسب أن هناك 150 بليوناً من البزيرات في لقاح سمكة واحدة من سمك الكودوهو ما يزيد عشرة أضعاف على عدد السكان الذين يحتويهم العالم لو كانت كل أقاليمه غاصة بالسكان كالأراضي المنخفضة.

وكان جان سوامردام أصغر من ليوفينهوك بخمس سنوات، ولكنه سبقه إلى القبر بثلاث وأربعين سنة. كان رجلاً ذا جرأة، ورغبات مشبوبة، وعلل، وأهداف متقلبة، كف عن جهوده العلمية في السادسة والثلاثين، وأفى عمره وهو في الثالثة والأربعين (1680). نذر خادماً للدين، ولكنه هجر اللاهوت إلى الطب. فلما نال درجة الطب انقطع للتشريح. وقد أولع بالنحل، لا سيما بأمعانه، وكان ينفق نهاره في تشريحه، وليله في كتابة التقارير ورسم الرسوم عن كشوفه. فلما فرغ من بحثه القيم في النحل (1673) انهيار بدنياً،

صفحة رقم : 11271

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الأحياء

وما لبث أن طلق العلم لأنه مطلب مسرف في الدنيوية، وعاد إلى الدين. وبعد موته بسبع وخمسين سنة جمعت مخطوطاته ونشرت باسم Biblia Naturae (كتاب الطبيعة المقدس). وقد احتوى الكتاب في تفصيل دقيق غاية الدقة على وصف لحياة اثنتي عشرة حشرة نموذجية، منها ذبابة مايو ونحلة العسل، ودراسات مكروسكوبية للحبار squid والحلزون، والبطلينوس clam والصفدعة. كذلك وردت في الكتاب أوصاف للتجارب التي أثبت بها سوامردام أن العضلات في الأنسجة المقطوعة من جسم حيوان يمكن جعلها تنقلص بإثارة العصب الرابط. وقد رفض نظرية التولد التلقائي كما رفضها ريدي، وزاد بأن بين أن اللحم المتحلل لا يحدث الكائنات الدقيقة، بل أن هذه الكائنات هي التي تحدث التحلل في المادة العضوية. وقد أسس سوامردام في حياته القصيرة علم الحشرات الحديث، وأرسى لنفسه مكانة رجل من أدق الملاحظين في تاريخ العلم. ورجوعه من العلم إلى الدين تشخيص لتردد الإنسان الحديث بين بحث عن الحقيقة يسخر من الأمل، وانتكاس إلى الأمل التي تجفل من الحقيقة.

صفحة رقم : 11272

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> التشريح والفسولوجيا

9- التشريح والفسولوجيا

أسلم جسم الإنسان بعد إخضاعه للمكروسكوب بعض أسرارهِ الدفينة لجيش العلم الزاحف. ففي عام 1651 نتبع جان باكيه سير الأوعية اللبئية، وفي 1653 كشف أولوف روربيك، وموطنه أوبسالا، الجهاز اللفاوي، ووصف هذا الجهاز توماس مارتولين، وموطنه كوبنهاجن، وفي 1664 اكتشف سوامردام الصمامات اللفاوية وفي ذلك العام أوضح صديقه رينيه دجراف وظيفة البنكرياس والصفراء وعملهما. وفي 1661 اكتشف صديق آخر هو نيقولاوس

ستينو قناة (لا تزال تحمل اسمه) هي قناة الغدة النكفية، ويعد سنة القنوات الدمعية للعين، وخص جراف بدراسته تشريح الخصيتين والمبايض، وفي 1672 وصف لأول مرة تلك الأكياس حاملة البيض التي أطلق عليها هالر تكريماً له حوصلات جراف. وترك بارتولين بطاقته على جسمين بيضاويين ملاصقين للمهبل، واكتشف وليم كوبر (الطبيب لا الشاعر) في 1702 الغدد التي تفرغ إفرازها في مجرى البول وأطلق عليها اسمه. كذلك ترك فرنشكوس سيلفيوس توقيعه على شق في المخ (1663) (وكان المعلم

صفحة رقم : 11273

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> التشريح والفسولوجيا

المحبوب لجراف، وسوامردام، وستينو، وويليس في ليدن). ونشر توماس ويليس، أحد مؤسسي الجمعية الملكية، في عام 1664 كتابه "Cerebri Anatome" تشريح المخ" الذي كان أكمل وصف للجهاز العصبي إلى ذلك التاريخ، ولا تزال تحمل اسمه "دائرة ويليس"، وهي شبكة سداسية من الشرايين في قاع المخ. أما ألمع مشرحي العصر فهو مارتشيللو مالبيجي، الذي ولد قرب بولونيا في 1628 ونال درجته الطبية منها، وبعد أن عمل أستاذاً عدة سنوات في بيزا وميسينا عاد إلى بولونيا، ودرس الطب في جامعتها خمسة وعشرين عاماً. وبعد أن اشتغل بالتشريح المكروسكوبي للنبات، ركز عدساته على دودة القز، وسجل كشوفه في دراسة ممتازة. وفي هذا البحث أوشك أن يفقد بصره، ومع ذلك كتب يقول "خلال قيامي بهذه البحوث تكشف أمام عيني الكثير جداً من معجزات الطبيعة حتى استشعرت لذة باطنية لا قدرة لقلمي على وصفها(62)". ولا بد أن قد خالجه ما خالج الشاعر الإنجليزي كينيس وهو يطالع لأول وهلة ترجمة تشابن لهوميروس، حين رأى (1661) في رنتي الضفدعة كيف ينقل الدم من الشرايين إلى الأوردة في أوعية سماها "الشعيرات" لدقتها المتناهية، وقد وجد شبكة من هذه الشعيرات حيثما تحول الدم الشرياني إلى دم وريدي، وكذا وضح الجهاز الدوري لأول مرة أثناء دورته. على أن هذا لم يكن سوى جزء من إسهامات مالبيجي في التشريح، وإن كان أهم أجزائها. فقد كان أول من أثبت أن حلمات اللسان أعضاء للتذوق، وألو من ميز الكرات الحمراء في الدم (ولكنه ظنّها خطأ كريات من الشحم)، وأول من وصف بدقة الدورتين العصبية والدموية في الجنين، وأول من وصف هستولوجيا قشرة المخ والحبل الشوكي، وأول من أتاح الوصول إلى نظرية عملية للتنفس بوصفه الدقيق للبناء الحويصلي للرئتين. واسمه منتشر بحق على أجسادنا في "الحزم المالبيجية" أو حلقات من الشعريات، في الكلى، وفي "الكريات المالبيجية" في الطحال، وفي "الطبقة المالبيجية" في الجلد. وكثير من كشوفه وتفسيراته تحداه معاصروه، ولكنه دافع عن نفسه بقوة، وانتصر في معاركه وإن كلف هذا النصر أعصابه عنثاً. وقد أرسل

صفحة رقم : 11274

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> التشريح والفسولوجيا

إلى الجمعية الملكية بلندن تقريراً عن جهوده، وكشوفه، وجدلياته، وكأنه كان يعرض هذه كلها على محكمة العلم العليا في جيله، ونشرت الجمعية هذا التقرير سيرة ذاتية بقلمه. وفي 1691 عين طبيبياً خاصاً للبابا إنوسنت الثاني عشر، ولكنه توفي عام 1694 من إصابة بالفالج، وكشف للشعيرات من المعالم في تاريخ التشريح، وعمله في جملته أرسى دعائم علم الهستولوجيا.

وإذ تقدم البحث في التشريح أماط اللثام عن أوجه شبه كثيرة جداً بين أعضاء الإنسان والحيوان، حتى لقد اقترب بعض الطلاب من نظرية التطور. ففي عام 1699 نشر إدوارد يزون (الذي أطلق اسمه على الغدد الدهنية للبشرة) كتاباً عن "الأورنج-أوتانج، إنسان الغابات". وقد قارن بين تشريح الإنسان وتشريح النسناس، ورأى أن الشمبانزي وسط بينهما. ولم يمنع علم الأحياء من أن يسبق داروين في القرن السابع عشر غير الخوف من إحداث زلزال لاهوتي. وانتقلت الأبحاث من التشريح والبنية إلى الفسيولوجيا والوظيفة. وكان التنفس إلى عام 1660 يفسر بأنه عملية تبريد، أما الآن فقد شبهه أصحاب التجارب العلمية بالاحتراق. فبرهن هوك على أن سر التنفس هو تعرض الدم الوريدي للهواء النظيف في الرئتين. وأثبت عضو آخر في الجمعية الملكية هو ريتشرد لوور (1669) أن الدم الوريدي يمكن تحويله إلى دم شرياني بالتهوية، وأن الدم الشرياني يتحول وريدياً إذا منع باستمرار من الاتصال بالهواء. ورأى أن أهم عامل في التهوية هو "روح نثري" في الهواء. وجرباً على هذه المبادرات وصف جون مايو، صديق لوور هذا العالم النشط بأنه "جزيئات نثرية-هوائية" وفي التنفس تمتص الجزيئات النثرية في رأيه من الهواء إلى الدم، ومن هنا كان الهواء في الزفير أخف وزناً وأقل حجماً منه في الشهيق. والحرارة الحيوانية سببها اتحاد الجزيئات النثرية بالعناصر القابلة للاحتراق في الدم، والحرارة المتزايدة عقب الرياضة تنشأ من فائض الممتص من الجزيئات النثرية بسبب التنفس الزائد. يقول مايو أن هذه الجزيئات النثرية تلعب دوراً رئيسياً في حياة الحيوان والنبات. وقد أفضى تفسير العمليات الحيوية إلى جدل من أبقى ما وعاه تاريخ العلم الحديث. ذلك أنه كلما أوغلت الفسيولوجيا بمزيد من

صفحة رقم : 11275

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> التشريح والفسيولوجيا

الفضول في تشريح الإنسان، بدا أن الوظيفة تلو الوظيفة من وظائف الجسم تخضع لتفسير آلي بلغة الفيزياء والكيمياء. فلاح أن التنفس اتحاد بين التمدد، والتهوية، والانقباض، وأن وظائف اللعاب، والصفراء، والعصارة البنكرياسية، كيميائية لا خفاء فيها، وأن جان ألفونسو بوريللي قد استكمل (1679) التحليل الآلي للحركة العضلية. واعتنق ستينو، الكاثوليكي الغيور، الرأي الآلي في العمليات الفسيولوجية، ورفض عبارات جالينوس الغامضة من أمثال "الأرواح الحيوانية" لأنه "مجرد ألفاظ لا تعني شيئاً". وبدا الآن مفهوم ديكارت للجسم على أنه آلة مبرراً كل التبرير. ومع ذلك أحس معظم العلماء أن تلك الأجهزة البدنية ما هي إلا أدوات لمبدأ حيوي يتجاوز التحليل بلغة الكيمياء والفسيولوجيا. فعزا فرانسيس جليسون، أحد مؤسسي الجمعية الملكية، للمادة الحية كلها "تهيجية" تتميز بهاوهي استهداف للإثارة قال أنها لا توجد في المادة غير الحية. وكما أن نيوتن، بعد أن رد الكون إلى الآلية، عزا إلى الله الدفع المبدئي لآلة العالم، فكذلك افترض بوريللي في جسم الإنسان نفساً هي المصدر لكل حركة حيوانية، وذلك بعد أن فسر العمليات العضلية تفسيراً آلياً (63). ورأى كلود بيرو، المعماري والطبيب، (1680) أن الأفعال الفسيولوجية التي تبدو الآن آلية كانت من قبل إرادية، تهتدي بإرشاد نفس، ولكنها أصبحت آلية بفعل التكرار الكثير، وذلك أشبه بتكون العادات، بل ربما كان القلب ذاته خاضعاً لتحكم الإرادة فيما مضى (64). وزعم جيورج شتال (1702) أن التغييرات الكيميائية في النسيج الحي تختلف عن تلك التي ترى في المختبرات، لأن التغييرات الكيميائية في زعمه-التي تعرف الحيوانات الحية تحكمها "حساسية حيوانية" anima sensitiva تنتشر في جميع أجزاء الجسم. والنفس كما يقول

شئال تدبر كل وظيفة فسيولوجية، حتى الهضم والتنفس، وهي تبني كل عضو، بل الجسم كله، بوصفه أداة للرغبة(65). وخيل له أن الأمراض طرق تحاول بها النفس التخلص من عائق يعوق عملياتها، وسبق نظرية "سيكوسوماتية" (أي جسدية نفسها من نظريات القرن

صفحة رقم : 11276

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> التشريح والفسولوجيا

العشرين بالقول بأن اضطرابات "النفس الحساسة" قد تحدث عللاً بدنية(66). وظلت المفاهيم الحيوية، بشكل أو بآخر، تحتل مكان الصدارة في العلم حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ثم استسلمت فترة أمام المكانة الصاعدة للفيزياء الميكانيكية، ثم بعثت من جديد، في ثوب أدبي فتان، في كتاب برجسون "التطور الخلاق" (1906). وسيمضي الجدل إلى ما شاء الله حتى يقبض للجزء أن يفهم الكل.

صفحة رقم : 11277

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الطب

10- الطب

جاء أقوى دافع لعلوم الأحياء من حاجات الطب. لقد كان علم النبات، قبل راي، أداة الصيدلة. وكانت الصحة "الخير الأعظم"، وتوسل الرجال والنساء والأطفال إليها بالصلوات، والنجوم، والملوك، والضفادع، والعلم. يقول أوبري(67) أن أحد الأطباء كان قيل أن يصف الدواء للمريض يمضي إلى مخدعه ليصلي حتى "تقرنت ركبته" في النهاية من كثرة الصلوات وكان التجيم لا يزال يتدخل في الطب. فقد نصح الجراح القائم على علاج لويس الرابع عشر بالأحجم الملك إلا في ربيعي القمر الأول والأخير "حتى تكون الأمزجة قد تراجعت في هذا الوقت إلى مركز الجسم"(68). وفي رأي ديفو أن المال الذي أنفق على المشعوذين كان كفيلاً بالوفاء بالدين القومي(69). وقد سافر فلامستيد، فلكي الملك، أميلاً لكي يربط ظهره المشعوذ المشهور فالننين جريتر اكس، الذي زعم بكل بساطة أنه يشفى من الداء الخنازيري، وربما كان فلامستيد واحداً من 100.000 لمسه تشارلز الثاني ليشفيهم من هذا الداء الخنازيري (scorfula) المسمى "داء الملك King's evil" (وهو سل الغدد اللنفاوية وبخاصة في العنق). وفي سنة واحدة (1682) لمس هذا الحاكم اللطيف 8.500 مريض مصاب بهذا المرض، وفي 1684 بلغ التراحم للوصول إليه حداً ديس معه ستة من المرضى تحت الأقدام حتى ماتوا. ورفض

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الطب

وليم الثالث أن يواصل التمثيلية. وقال حين حاصر جمع قصره "إنها خرافة غبية، فأعطوا هؤلاء المساكين بعض النقود واصرفوهم". وفي مناسبة أخرى حين كثرت الإلحاح عليه ليضع يده على مريض أذعن قائلاً "وهيك الله صحة أفضل وعقلاً أرجح". وقد اتهمه الشعب بالكفر (70).

وتضافرت عيوب نهاية الأفراد بصحتهم ونقائص النظافة الصحية العامة مع ذكاء المرض القادر على التكيف. ونشر البغاء الزهري في المدن والمعسكرات. وقد استشرى بصفة خاصة بين الممثلين والممثلات، كما نستنتج من قصة مستورة في مدام دسفينيه عن "مثل اعترم الزواج برغم أنه يعاني من مرض خطير معين، فقال له أحد أصحابه: ويحك ألا تستطيع الانتظار حتى تشفى؟ إنك ستجر البلاء علينا جميعاً (71)"، وقد مثل القائد الفرنسي فاندوم في البلاط الملكي بغير أنف، لأنه أعطاها قرباناً لبكتريا الزهري (72). وكان السرطان يمضي في طريقه قدماً، وتصف لنا مدام دموتيل سرطان الثدي (73) وقد وصفت الحمى الصفراء أول مرة عام 1694. وانتشر الجدري على الأخص انتشاراً واسعاً في إنجلترا، ولم يكن هناك علاج معروف له، وقد ماتت به الملكة ماري، وابن ملبرة. وابتليت أقطار بأسرها بالأوبئة لا سيما وباء الملاريا. وذكر توماس ويليس أن إنجلترا كلها تقريباً كانت في 1657 أشبه بمستشفى يعالج حمى الملاريا (74). واجتاح الطاعون لندن في 1665 (75). وقتل في فيينا سنة 1679 100.000 آل و83.000 في براغ سنة 1681. وازدادت الأمراض المهنية بانتشار الصناعة، وفي 1700 أصدر برناردينو راماتزيني، أستاذ الطب في جامعة بادوا، رسالة ممتازة، De morbis artificum عن الضرر الذي يصيب النقاشين من المواد الكيميائية في طلائهم، والعاملين في الزجاج المعشق من الانتيومون، والبنائين وعمال المناجم من السل، والخزافين من الدوار، والطابعين من أمراض العيون، والأطباء من الزئبق الذي يستعملونه.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الطب

وكان تقدم علم الطب بطيئاً في جو الجهل والفقر. وعطل المهنة شره الأطباء للمال، فكان بعض الأطباء الذين قاموا بعلاجات ناجحة يرفضون الكشف لغيرهم من الأطباء عن العلاج الذي استخدموه (76). على أن الأطباء من أعضاء الجمعية الملكية ارتفعوا فوق هذا الشره، وأشركوا زملاءهم بحماسة في كشفهم. وكان هناك الآن مدارس طبية جيدة وفي مقدمتها مدارس ليدن، وبولونيا، ومونبلييه، وعلى العموم كان الحصول على درجة من معهد معترف به شرطاً لممارسة الطب قانونياً في غربي أوروبا. واستمر مدرسو الطب على انقسامهم إلى مدرستين من مدارس العلاج. فدافع بوريللي عن طريقة العلاج الطبي (iartophysical) ورأى تناول الأمراض على أنها اضطرابات في آلية الجسم. أما

سيلفيوس، الذي طور حجج باراسيلسوس وهيلمونت فقد دافع عن الطريقة الكيميائية (iatrochemical) -وهي طريقة استعمال العقاقير لمقاومة الاضطرابات في "أمزجة" الجسم، ومعظمها في رأيه راجع لزيادة في الحموضة. وكان أنفع من هذه النظريات العامة تلك الكشوف في أسباب أمراض معينة، فوصف سيلفيوس مثلاً لأول مرة الدريبات في الرئتين، وعزا هذه الأورام المرضية إلى السل.

ومن أهم كشوف هذا العصر الجهد الذي قام به ذلك اليسوعي الممتاز، أنثاسيوس كيرشر الفولداوي، وكان رياضياً، وفيزيائياً، ومستشرفاً، وموسيقياً، وطبيباً، ويبدو أنه أول من استخدم المكروسكوب في فحص المرض (77). وبهذه الوسيلة وجد أن دم ضحايا الطاعون يحتوي على "ديدان" لا حصر لها لا ترى بالعين المجردة. ورأى حيوانات مماثلة في المادة المتعفنة، وعزا التعفن وكثيراً من الأمراض لنشاطها. وكتب تقريراً عن كشوفه في "البحث في الأمراض الوبائية" *Scrutinium Pestis* (روما 1658) بين عبارات صريحة واضحة لأول مرة ما لم يذكره فراكاستورو إلا تلميحاً في 1546 -وهو النظرية القائلة بأن انتقال الكائنات الحية الضارة من شخص أو حيوان إلى آخر هو سبب المرض المعدى (78).

صفحة رقم : 11280

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الطب

وتخلف العلاج الطبي عن البحث الطبي، لأن الذين نبعوا في البحث جنحوا إلى تأليف طبقة متميزة عن ممارسي الطب، وكان الاتصال بين الفريقين ناقصاً. وكانت بعض علاجات العصور الوسطى ما زالت توصف للمرضى. وقد سجل أوبري نجاحاً جاء في غير محله. قال "إن امرأة حاولت أن تسمم زوجها (وكان مريضاً بالاستسقاء) بسلق ضفدعة في حسائه، الأمر الذي شفاه من مرضه، وكان هذا هو الظرف الذي عثر فيه على الدواء (79)" ودخلت بعض العقاقير الجديدة الفارماكوبيا في النصف الثاني من القرن السابع عشر: عرق الذهب *ipecacuanha* والكسكاره، والنعناع... ووصف الأطباء الهولنديون الشاي دواء لكل الأدوية تقريباً ترويجاً للتجارة الهولندية (80).

وكان اثنان من الهولنديين أعظم معلمي الطب في هذا العصر، وهما سيلفيوس وبوير هافي، وكلاهما في ليدن. وقد علم هيرمان بوير هافي الكيمياء، والفيزياء، والنبات أيضاً، وأقبل عليه الطلاب من شمالي أوروبا كلها، وقد رفع مقام الطب الأكاديمي باصطحابه تلاميذه الأكثر نضجاً في جولاته اليومية على أسرة المستشفى، وتعليمهم بالملاحظة المباشرة والعلاج النوعي لكل حالة بمفردها. وقد ترجمت مؤلفاته إلى كل اللغات الأوروبية الكبرى، وحتى إلى التركية، وطبقت شهرته الآفاق حتى بلغت الصين ذاتها.

ووجد الطب الاكلينيكي في إنجلترا أروع ممثل له في توماس سيدنهام. قضى في أكسفورد فترتين تفصلهما فترات خدمة في الجيش، ثم استقر في لندن ممارساً عاماً. وانتهى بالقليل من النظريات والكثير من الخبرة إلى فلسفته في المرض، الذي عرفته بأنه "جهد من الطبيعة التي تكافح بكل قوتها لترد إلى المريض عافيته بالتخلص من المادة المرضية (81)". وميز بين الأعراض "الجوهرية" التي تحدها المادة الدخيلة، والأعراض "العرضية" التي تحدثها مقاومة الجسم لها، فالحمى مثلاً ليست مرضاً بل حيلة يتوسل بها الكائن الحي للدفاع عن نفسه. ومشكلة الطبيب أن يعين عملة الدفاع هذه. ومن ثم فقد امتدح سيدنهام أبقراط لأن "أبا الطب":

صفحة رقم : 11281

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الطب

"لم يتطلب من فن الطب أكثر معاونة الطبيعة إذا وهنت، وكبحها إذا ازداد عنف هودها... ذلك أن هذا المراقب الحكيم وجد أن الطبيعة وحدها هي التي تنهي اختلال الصحة، وتعمل على الشفاء مستعينة بعقاقير بسيطة، وأحياناً دون عقاقير على الإطلاق(82)".

وبراعة سيدنهام في أنه تبين أن لكل مرض كبير صوراً مختلفة، وكان يدرس كل حالة بتاريخها الأكلينيكي ليشخص نوع المرض الذي تتطوي عليه، ويوائم بين العلاج والاختلافات النوعية للمرض. ولهذا نراه يميز الحمى القرمزية عن الحصبة ويعطيها اسمها الحالي. وكان معروفاً بين الأطباء بلقب "أبقراط الإنجليزي" لأنه أخضع النظرية للملاحظة، والأفكار العامة للحالات الخاصة، والعقاقير للعلاجات الطبيعية. وقد ظل كتابه *Processus Integri* طوال قرن من الزمان المرشد للممارس الإنجليزي في العلاج.

وواصلت الجراحة نضالها لتحظى بالاعتراف بها علماً محترماً. ووجد أكفاً ممثلها أنفسهم بين نارين، عداً الأطباء وحسد الحلاقين-الذين ما زالوا يجرون بعض الجراحات الصغيرة، ومنها جراحة الأسنان. ولم يستطع جي باتان، عميد كلية الطب بجامعة باريس، أن يعتز للجراحين اتخاذهم زي الأطباء وسلوكهم، ورمى الجراحين جميعاً بأنهم "سلالة من الحمقى، والمغرورين، اللئام، المسرفين، الذين يطلقون شواربهم ويلوحون بأمواسهم(83)". ولكن في عام 1686 أجرى الجراح فيليكس جراحة ناجحة على ناسور لويس الرابع عشر، وسر الملك سروراً عظيماً ففتح فيليكس بخمسة عشر ألف جنيه ذهبي، وخلع عليه ضيعة في الريف ولقب النبالة. ورفعت هذه الترقية من مكانة الجراحين الاجتماعية في فرنسا. وفي 1699 صدر قانون جعل الجراحة فناً من الفنون الحرة، وبدأ ممثلوها يحتلون مكاناً مرموقاً في المجتمع الفرنسي. وقد وصف فولتير الجراحة بأنها "أنفع الفنون قاطبة" وأنها "الفن الذي بز فيه الفرنسيون سائر أمم الأرض(84)".

على أن الجراحة الإنجليزية كان لها في هذا العصر مفخرتان على الأقل. ففي 1662 قام ج. د. ميجر بحق الإنسان أول حقنة وريدية ناجحة، وفي 1665-67 نجح رتشرد لور في نقل الدم من

صفحة رقم : 11282

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> الطب

حيوان إلى أوردية حيوان آخر. وقد سجل بيببوس هذا في يوميته(85). ويستفاد من جريدة القبل والقال تلك أن الجراحات كانت تجري عادة بمخدر ضعيف أو دون مخدر، فلما أجريت لبيببوس جراحة لإزالة حصاة في مثانته لم يعط كلوروفورما ولا مطهرات، واكتفى بإعطائه "جرعة مهدئة(86)".

واستمر الناس يهجون الطبيب كما يهجونه في كل جيل. فقد ساءهم منه أتعا به، وفخامة مظهره في عبايته وشعره المستعار وقبعته المخروطية، وغرور حديثه، وأخطاؤه القتالة أحياناً. وروى بويل أن كثيرين كانوا يخشون الطبيب أكثر مما يخشون المرض(87). وكانت سخريات موليير بالمهنة العظيمة في أكثرها مزاحاً لطيفاً من رجل كان حريصاً رغم ذلك على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع طبيبه. وبقي بعد أن رشقت السهام كلها-أن القرن السابع عشر شهد تقدماً مشكوراً في علم الطب بفضل عشرات الكشوف في التشريح، والفسولوجيا، والكيمياء، وأن التبادل الدولي للمعرفة الطبية كان في ازدياد، وأن كبار الأساتذة كانوا يبعثون تلاميذهم الأكفاء إلى جميع أرجاء أوروبا الغربية، وأن

الجراحة كانت تحسن طرقها وترفع مكانتها، وأن الأخصائيين كانوا يزدادون معرفة ومهارة، وأن مزيداً من التدابير كان يتخذ للتهوض بالصحة العامة. وشرعت الحكومات البلدية القوانين التي تكفل النظافة الصحية. وفي 1656، حين ظهر الطاعون في روما، حتم المونسنيور جاستالدي، الأمور البايوي للصحة، تنظيف الشوارع والمجاري، وتفتيش السقايات بانتظام، وتوفير الإمكانات العامة لتطهير الملابس، وتقديم الشهادات الصحية من جميع الأشخاص الذين يدخلون المدينة(88)، وبازدياد الثروة بنى الناس بيوتاً أمتن تستطيع أن تبعد الفران إلى مسافة محترمة فنقل من انتشار الطاعون. وقد يسرت إمدادات أفضل من المياه وهي أول ضرورات الحضارة-النظافة للأجسام الراغبة فيها. وأخذ التحضر يصبح جديداً في تناول مزيد من الناس.

صفحة رقم : 11283

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> النتائج

11- النتائج

كان القرن السابع عشر في جملته إحدى القمم في تاريخ العلم.

صفحة رقم : 11284

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> النتائج

أنظر إليه في سلمه الصاعد، ابتداءً من يكون يدعو الناس للكفاح في سبيل ترقية المعرفة، وديكارت يزوج بين الجبر والهندسة، مروراً بتحسين التلسكوبات، والمكروسكوبات، والبارومترات، والترمومترات والمضخات الهوائية والعلوم الرياضية، وبقوانين كبلر الكوكبية، وقبة جاليليو السماوية المتعاطمة، ورسم هارفي لخريطة الدم، ونصفي كرة جيوركي المحكمتين، وكيمياء بويل الشكاقة، وفيزياء هويجنز المتعددة الصور، ومحاولات هوك الكثيرة الأشكال، وتنبؤات هالي الكونية، ثم انتهاء بحساب ليبنتز التفاضلي التوتوي ونسق نيوتن الكوني، انظر إلى كل أولئك واسأل: أي قرن سابق أنجز مآثر هذا القرن؟ يقول ألفريد فورت هو ابتهيد أن الذهن الحديث "يعيش إلى اليوم على ذخيرة الأفكار المتجمعة التي وفرتها له عبقرية القرن السابع عشر "في العلم، والأدب، والفلسفة(89)".

وانتشر تأثير العلم في أفواس منسعة. أثر في الصناعة بتوفيره الفيزياء والكيمياء اللتين كفلتا المغامرات الجديدة في التكنولوجيا. وفي التعليم ألزم بتخفيف التركيز على العلوم الإنسانية-على الأدب، والتاريخ، والفلسفة، لأن تطوير الصناعة والتجارة والملاحة تطلب المعرفة والأذهان العملية. وأحس الأدب ذاته التأثير الجديد: فسعى العالم وراء

النظام والدقة والوضوح أوحى بفضائل مماثلة في الشعر والنثر، وانسجم مع الأسلوب الكلاسيكي الذي يمثله موليير وبوالو وراسين، كما يمثله أديسون وسويقت وبوب. واشترطت الجماعية الملكية كما يقول مؤرخها-على أعضائها، أسلوباً في الحديث طبيعياً عادياً، محكماً. يقرب كل الأشياء قدر الإمكان من الوضوح الرياضي(90)". وتأثرت الفلسفة والدين بانتصارات الرياضة والفيزياء، التي حددت للمذنبات مقياساً ووضعت للنجوم قوانين. وتقبل ديكارط وسبينوزا الهندسة مثلاً أعلى للفلسفة والعرض. ولم يعد بعد ذلك من حاجة لأن يفترض في الكون شيء غير المادة والحركة. ورأى ديكارط العالم كله آلة، باستثناء العقل البشري والإلهي، وتحدى هوبز هذا الاستثناء، وصاغ مادية يكون حتى الدين فيها أداة للدولة تستعين بها على تسيير الآلات البشرية. ولاح أن علوم الفيزياء والكيمياء والفلك

صفحة رقم : 11285

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> البحث العلمي -> النتائج

الجديدة "تكتشف عن كون يعمل طبقاً لقوانين لا تتغير، وهو كون لا يسمح بمعجزات، وإذن فلا يستجيب لصلوات، وإذن فلا يحتاج لإله. وربما جاز الإبقاء عليه ليعطي آلة العالم دفعة مبدئية، ولكنه بعد هذا له أن ينسحب ليكون رباً أبيقورياً-لوكريتياً، لا يعبأ بالعالم ولا بالناس. وروي أن هالي أكد لصديق لباركلي أن "عقائد المسيحية" أصبحت الآن "لا يمكن تصورها(91)". على أن بويل رأى في كشف العلم دليلاً جديداً على وجود الله. وكتب يقول "أن العالم يسلك وكأن الكون يشيع فيه كله كائن ذكي". وأضاف في عبارة تعيد بسكال إلى الذاكرة "إن أنفاس الإنسان كائن أنبل وأثمن من العالم المادي بأسره(92)". ولما مات خلف مالا ينفق منه على محاضرات تظهر صدق المسيحية إزاء "مشهوري الكفار، وهم الملحدون، والقائلون بوجود آلهة، والوثنيون واليهود، والمسلمون" وأضاف شرطاً هو أن المحاضرات يجب ألا تخوض في المجادلات الناشئة بين المسيحيين(93). ووافق علماء كثيرون على رأي بويل، وشارك كثير من المسيحيين المؤمنين في الإشادة بالعلم. كتب داريدن في ختام القرن يقول "في هذه السنين المائة الأخيرة كشف لنا القناع عن طبيعة جديدة تقريباً-ارتكبت من الأخطاء، وأجرى من التجارب المفيدة، وأميط اللثام عن أسرار أرفيعة في البصرييات، والطب، والتشريح، والفلك-أكثر مما حدث في جميع تلك العصور الخرفة الساذجة، ابتداءً أرسطو إلى يومنا هذا(94)", وتلك مبالغة مفرطة ولكنها ذات دلالة، تكشف لنا عن اقتناع "المحدثين" بأنهم كسبوا معركة الكتب ضد "القدمى" على أية حال لم يملك الناس إلا أن يروا أن العلوم تزيد المعرفة الإنسانية، بينما الأديان تصطرع والساسة يقتتلون. وسما العلم الآن إلى مقام جديد من الشرف بين مغامرات الإنسان، لا بل أن هذا العهد لم يؤذن بالنهاية إلا والناس يرحبون بالعلم بشيراً بمجيء المجتمع المثالي ومخلصاً للنوع الإنساني. كتب فوننتيل في 1702 يقول "إن تطبيق العلم على الطبيعة سينمو بإطراد في مداه وقوته، وسنمضي قدماً من عجيبة إلى عجيبة. وسوف يأتي اليوم الذي يستطيع فيه الإنسان أن يطير بأجنحة تحفظه في الهواء، وسينمو هذا الفن... حتى نستطيع يوماً أن نظيراً إله القمر(95)". لقد كان كل شيء يتقدم، إلا الإنسان.

صفحة رقم : 11286

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الرياضي

الفصل التاسع عشر

إسحاق نيوتن

1727-1642

1- الرياضي

ولد في مزرعة صغيرة ببولزثورب، في مقاطعة لنكولن، في 25 ديسمبر 1642 (حسب التقويم القديم، أي اليولياني) وهو العام الذي مات فيه جاليليو، وكانت الزعامة الثقافية، كالزعامة الاقتصادية، في سبيلها من الجنوب إلى الشمال. وكان عند ميلاده صغير الحجم جداً بحيث كان في الإمكان وضعه في كوز سعته ربع جالون (كما أخبرته أمه فيما بعد)، وضعيفاً جداً بحيث لم يخطر ببال أحد أنه سيعيش أكثر من أيام (1) معدودات. وكفلته أمه وخاله لأن أباه كان قد مات قبل ولادته بشهور.

وحين بلغ الثانية عشرة أرسل إلى المدرسة الخاصة في جرانثام، فلم يحالفه التوفيق فيها. وجاء في التقارير عنه أنه "خامل" و "غير ملتفت"، وأنه يهمل الدراسات المقررة ويقبل على الموضوعات التي تستهويه، وينفق الوقت الكثير على المخترعات الميكانيكية كالمزاويل، والسواقي، والساعات البيئية الصنع. وبعد أن قضى عامين في جرانثام أخذ من المدرسة ليساعد أمه في المزرعة. ولكنه عاد إلى إهمال واجباته ليقرأ الكتب ويحل المسائل الرياضية. وتبين خال آخر كفايته، فأعاده إلى المدرسة، وعمل الترتيبات لقبول نيوتن بكلية ترنتي في كمبردج (1661) طالباً يكسب مصروفاته بمختلف الخدمات (subsizar). وحصل على درجته الجامعية بعد أربع سنوات، وبعدها بقليل انتخب زميلاً بالكلية. وخص باهتمامه الرياضة، والبصريات، والفلك، والتنجيم، وقد احتفظ بميله لدراسة التنجيم إلى فترة متأخرة من حياته.

وفي 1669 استقال أستاذه في الرياضة إسحاق بارو، وعين نيوتن خلفاً له بناءً على توصية منه، وصف فيها نيوتن بأنه "عقري لا نظير له"، وقد احتفظ بكرسيه في ترنتي أربعة وثلاثين عاماً. ولم

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الرياضي

يكن بالمعلم الناجح. كتب سكرتيره عن ذكريات ذلك العهد يقول "كان الذين يذهبون للاستماع إليه قليلين، والذين يفهمونه أقل، حتى أنه في أحياناً كثيرة وكأنه يقرأ للحيطان بسبب قلة السامعين(2)". وفي بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين إطلاقاً فيعود إلى حجرته كاسف البال. وبنى فيه مختبراً كان الوحيد في كمبردج آنذاك. وقام بالكثير من التجارب، لا سيما في الخيمياء "وهدفه الأكبر تحويل المعادن(3)", ولكنه اهتم أيضاً بـ "أكسير الحياة" و "حجر الفلاسفة(4)" وواصل دراساته الخيمائية من 1661 إلى 1692، وحتى وهو يكتب كتابه "المبادئ(5)" ترك مخطوطات عن الخيمياء دون نشر بلغ مجموع كلماتها نيفاً و 100.000 "لا قيمة لها إطلاقاً(6)" وكان بويل وغيره من أعضاء الجمعية الملكية مشغولين شغلاً محموماً بهذا البحث نفسه عن صنع الذهب. ولم يكن هدف نيوتن تجارياً بشكل واضح، فهو لم يبد قط أي حرص على المكاسب المادية، ولعله كان يبحث عن قانون أو عملية يمكن أن تفسر بها العناصر على أنها أشكال مغايرة، قابلة للتحويل، لمادة أساسية واحدة. ولا سبيل لنا إلى التأكد من أنه كان مخطئاً. وكان له حديقة صغيرة خارج مسكنه بكمبردج، يتمشى فيها فترات قصيرة سرعان ما تقطعها فكرة يهرع إلى مكتبه ليسجلها. كان قليل الجلوس، يؤثر أن يذرع حجرته كثيراً (في رواية سكرتيره) "حتى لتخاله... واحداً من جماعة أرسطو" المشائين(7). وكان مقلداً في الطعام، وكثيراً ما فوت وجبة، ونسى أنه فوتها. وكان ضنينا بالوقت الذي لا بد من إنفاقها في الأكل والنوم. "ونادراً ما ذهب لتناول الطعام في القاعة، فإذا فعل فإنه ما لم يذهب في هيئة زرية، حذاؤه بالي الكعبين، وجواربه بلا رباط... ورأسه غير ممشط إلا فيما ندر(8)". وقد رويت، واخترعت القصص الكثيرة عن شروذ ذهنه. ويؤكدون أنه قد جلس الساعات بعد استيقاظه من النوم على فراشه دون أن يرتدي ثيابه وقد استغرقه الفكر(9). وكان أحياناً إذا جاءه زائرون يختفي في حجرة أخرى، ويخط أفكاراً على عجل، وينسى أصحابه تماماً(10).

لقد كان راهباً من رهبان العلم في هذه السنين الخمس والثلاثين

صفحة رقم : 11288

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الرياضي

بكمبردج. وقد وضع "قواعد للتفلسف"- أعني الطريقة والبحث العلميين. ورفض القواعد التي وضعها ديكرت في "مقاله" كمبادئ قابلة تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال. وحين قال نيوتن "أنا لا أخترع فروضاً(11)" كان يعني أنه لا يقدم نظريات حول أي شيء يتجاوز ملاحظة الظواهر، فهو إذن لا يغامر بأي تخمين عن طبيعة الجاذبية، بل يكتفي بوصف مسلكها وصياغة قوانينها. ولم يزعم أنه يتجنب الفروض باعتبارها مفاتيح للتجارب، فإن مختبره على العكس خصص لاختبار مئات الأفكار والإمكانات، وسجله يزخر بالفروض التي جربت ثم رفضت. كذلك لم يرفض الاستدلال، إنما أصر على أنه يجب أن ينطلق من الوقائع ويفضي إلى المبادئ. وكانت طريقته أن يتصور الحلول الممكنة للمشكلة، ويستنبط متضمناتها الرياضية، ويختبر هذه بالحساب والتجربة. وكتب يقول "يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن في هذا-البحث من ظواهر الحركات في قوى الطبيعة، ثم إيضاح الظواهر الأخرى من هذه القوى(12)". لقد كان مزيجاً من الرياضة والخيال، ولن يستطيع فهمه إلا من يملكهما جميعاً. ولكن لنمض في طريقنا رغم هذا. إن شهرته بؤرتين-حساب التفاضل، والجاذبية. بدأ عمله في حساب التفاضل عام 1665 بايجاد مماس ونصف قطر الانحناء عند أي نقطة على منحنى. ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل الفروق المستمرة "Fluxions" وفسر هذا المصطلح تفسيراً لا يمكننا أن نصل إلى خير منه:

"إن الخطوط ترسم، وبهذا الرسم تولد، لا بضم الأجزاء بعضها إلى بعض، بل بالتحرك المستمر بالنقط، والسطوح بتحريك الخطوط، والمجسمات بتحريك السطوح، والزوايا بدوران الجوانب، وأجزاء الزمن بالفيض المستمر، وهكذا في غير ذلك من الكميات. وعلى ذلك فيما أن الكميات، التي تزداد في أزمان متساوية، وبالزيادة تولد، أصبحت أكبر أو أقل حسب السرعة الأكبر أو الأقل التي تزداد أو تولد بها، فإنني بحثت عن طريقة لتحديد الكميات من سرعات الحركات أو الزيادات التي تولد بها، وإذا أطلقت على سرعات الحركات أو الزيادات لفظ "الفروق" Fluxions، والكميات المولودة "المتغيرات"، فقد اهتديت شيئاً فشيئاً إلى طريقة الفروق في عامي 1665 و1666(13)

صفحة رقم : 11289

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الرياضي

وقد وصف نيوتن طريقته في خطاب كتبه لبارو عام 1669، وأشار إليها في خطاب لجون كولنز في 1672. ولعله استخدم هذه الطريقة في التوصل إلى بعض النتائج المتضمنة في كتابه "المبادئ" (1687)، ولكن عرضه لها فيه جري على الصيغ الهندسية المقبولة ربما مراعاة لم يناسب قراءه. وقد أسهم ببيان لطريقته في الفروق ولكن دون أن يخفي اسمه في كتاب واليس "الجبر" عام 1693. ولم ينشر الوصف الذي اقتبسناه فيما سبق إلا عام 1704، في ملحق لكتابه "البصريات". وكان في طبع نيوتن أن يؤخر نشر نظرياته، وربما أراد أولاً أن يحل الصعوبات التي أوجت بها. وعليه فقد انتظر حتى سنة 1676 لينشر نظرية "ذات الحديد" التي خلص إليها. ولو أنه صاغها على الأرجح في 1665.

هذه التآجيلات زجت برياضي أوربا في جدل معيب مزق دولية العلم جيلاً بأسره. ذلك أنه في الفترة بين إبلاغ نيوتن نظريته في "الفروق" لأصحابه في 1669 ونشر الطريقة الجديدة في 1704، وضع لبينتز نظاماً منافساً لها في ماينز وباريس. ففي 1671 أرسل إلى أكاديمية العلوم بحثاً يحوي جرثومة حساب التفاضل (14)، وقابل لبينتز أولدبورج في زيارة للندن، من يناير إلى مارس 1673، وكان قد تبادل الرسائل معه ومع بويل. وقد ظن أصحاب نيوتن فيما بعد أن لبينتز في رحلته هذه تلقى إماعاً لفروق نيوتن ولكن المؤرخين يتشككون في هذا الآن. وفي يونيو 1676، بناء على طلب أولدنبرج وكولنز، كتب نيوتن خطاباً لبيبلغ إلى لبينتز، شارحاً فيه طريقته في التحليل. وفي أغسطس رد لبينتز على أولدنبرج، وضمن الرد بعض الأمثلة من شغله في حساب التفاضل، وفي يونيو 1677، في خطاب آخر لأولدنبرج، وصف نوع حساب التفاضل الذي توصل إليه، وطريقته في التتويت notation أي التتويت بمجموعة من الرموز، وهما يختلفان عن حساب نيوتن وطريقته. ثم عاد في مجلة Acta Eruditorum عدد أكتوبر 1684 يشرح حساب التفاضل،

صفحة رقم : 11290

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الرياضي

وفي 1686 نشر طريقته في حساب التكامل. وفي الطبعة الأولى من "المبادئ" (1687) قبل نيوتن بشكل واضح اكتشاف ليبنتز لحساب التفاضل مستقلاً. قال:
"في رسائل تبادلتها مع عالم الهندسة الألماني ج. و. ليبنتز، قبل عشر سنوات، حين أشرت إلى أنني أعرف طريقة لإيجاد الحدود القصوى والدنيا، ورسم المماسات، وما إلى ذلك... رد السيد المجل بأنه اهتدى هو أيضاً إلى طريقة من نفس النوع، وأنهى إلى طريقته، التي لم تكد تختلف عن طريقي... إلا في أشكال ألفاظه ورموزه (16)".
وكان خليقاً بهذا الاعتراف المهذب أن يمنع الجدل. ولكن في 1699 أشار رياضي سويسري في رسالة للجمعية الملكية إلى أن ليبنتز استعار حساب تفاضله من نيوتن. وفي 1705 ذكر ليبنتز تضميناً، في نقد غفل من التوقيع لكتاب نيوتن "البصريات" أن فروق نيوتن تحوير لحساب التفاضل اللبنتزي. وفي 1712 عينت الجمعية الملكية لجنة فحص الوثائق المتصلة بالموضوع. وقبل أن ينصرم العام نشرت الجمعية تقريراً *Commercium Epistolicum* أكد أسبقية نيوتن، دون أن تخوض في موضع أصالة ليبنتز. وفي رسالة كتبها ليبنتز بتاريخ 9 أبريل 1716 إلى قسيس إيطالي بلندن اعترض بقوله أن تعليق نيوتن قد حسم الأمر. ومات ليبنتز في 14 نوفمبر 1716. وبعد موته بقليل نفى نيوتن أن التعليق "أقر له-أي لللبنتز باختراع حساب التفاضل مستقلاً عن اختراعي" وفي الطبعة الثالثة من "المبادئ" (1726) حذف التعليق (17). ولم يكن النزاع مما يليق بالفلاسفة، لأن كلا المدعيين كان يصح أن يحني احتراماً لغيره لأنه كان رائداً لهما في هذا المضمار.

صفحة رقم : 11291

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الفيزيائي

2- الفيزيائي

على أن الرياضة، على ما فيها من عجب، لم تكن سوى أداة لحساب الكميات، فهي لم تزعم أنها تفقه الحقيقة أو تصفها. فلما تحول نيوتن من الأداة إلى البحث الجوهري، عكف أولاً على استكناه سر الضوء. وتناولت محاضراته الأولى في كمبريدج الضوء، واللون،

صفحة رقم : 11292

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الفيزيائي

والرؤية، وعلى عاداته لم ينشر كتابه "البصريات" إلا بعد خمس وثلاثين سنة، في 1704، فقد كان بريئاً من شهوة النشر.

وفي عام 1666 اشترى منشوراً من سوق ستوربريدج وبدأ التجارب وبدأ التجارب في البصريات. وفي عام 1668 فصاعداً صنع سلسلة من التلسكوبات. فصنع بيديه، على أساس النظريات التي شرحها مرسين (1639) وجيمس جريجوري (1662)، تلسكوباً عاكساً ليتقاضي بعض العيوب الملازمة للتلسكوب الكاسر، وقدمه للجمعية الملكية بناء على طلبها عام 1671. وفي 11 يناير 1672 انتخب لعضوية الجمعية.

وكان قد توصل (1666) إلى أحد كشوفه الأساسية حتى قبل أن يصنع التلسكوبات -وهو أن الضوء الأبيض، أو ضوء الشمس، ليس بسيطاً أو متجانساً، بل هو مركب من الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والبنفسجي، والبنفسجي. فلما مر شعاعاً صغيراً من ضوء الشمس خلال منشور شفاف وجد أن الضوء الذي يبدو أحادي اللون انقسم إلى كل ألوان الطيف هذه، وأن كل لون مكون خرج من المنشور عند زاويته أو درجته أو انكساره الخاص، وأن الألوان نظمت نفسها في صف الحزم، مؤلفه طيفاً مستمراً، في أحد طرفيه اللون الأحمر وفي الآخر البنفسجي. وقد أثبت الباحثون اللاحقون أن المواد المختلفة، إذا جعلت مضئة بحرقها، تعطي أطباقاً مختلفة. وبمقارنة هذه الأطياف بالطيف الذي يحدثه نجم معين، أصبح في الإمكان تحليل مكونات النجم الكيميائية إلى حد ما. ثم دلت الملاحظات الأدق لطيف النجم على السرعة التقريبية لتحركه نحو الأرض أو بعيداً عنها، ومن هذه الحسابات استنبط نظرياً بعد النجم. وهكذا تمخض كشف نيوتن لتكوين الضوء، وانكساره في الطيف، عن نتائج كونية تقريباً في ميدان الفلك. ولم تتكشف هذه النتائج لنيوتن في ذلك الحين، ولكنه أحس (كما كتب لأولدنبرج) أنه توصل "إلى أغرب كشف إلى الآن أن لم يكن أهم كشف في عمليات الطبيعة (18)" فأرسل إلى الجمعية الملكية في بواكير عام 1672 بحثاً عن عنوانه "نظرية جديدة في الضوء واللون". وقرئ البحث على الأعضاء في 8 فبراير، فأثار جدلاً عبر المانش إلى القارة. وكان هوك قد وصف في كتابه "ميكروجرافيا"

صفحة رقم : 11293

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الفيزيائي

(1664) تجربة شبيهة بتجربة نيوتن بالمشور، ولم يكن قد استنتج منها نظرية ناجحة في اللون، ولكنه أحس بأن في أفعال نيوتن لفضله السابق غصاً من قدره، فانضم على بعض أعضاء الجمعية في نقد النتائج التي خلص إليها نيوتن، واستمر النزاع ثلاثة أعوام. كتب نيوتن المرفه الحس يقول "إنني مضطهد بالجدل الذي أثارته نظريتي في الضوء اضطهاداً جعلني ألوم حماقتي لأنني ضحيت بنعمة عظيمة، نعمة هدوء البال، جرياً وراء سراب (19)" وحدثته نفسه حيناً بأن "أطلق الفلسفة طلاقاً بئناً لا رجعة فيه، إلا ما أفعله إرضاء لذاتي (20)".

وثارَت نقطة أخرى من نقط الجدل مع هوك حول ناقل الضوء. وكان هوك قد اعتنق نظرية هويجنز، التي زعم فيها أن الضوء ينتقل على موجات "أثير". ورد نيوتن بأن هذه النظرية لا تقر مسار الضوء في خطوط مستقيمة. واقترح بدلاً منها "نظرية الجسيمات أو الدقائق" corpuscular theory: فالضوء سببه إطلاق الجسم المضيء جزيئات دقيقة لا حصر لها، تسير في خطوط مستقيمة خلال الفضاء بسرعة 190.000 ميل في الثانية. ورفض نظرية الأثير ناقلاً للضوء، ولكنه قبله بعد ذلك وسيطاً لقوة الجاذبية. وجمع نيوتن مناقشاته حول الضوء في كتابه (البصريات) Opticks في 1704. ووما له دلالة أنه كتبه بالإنجليزية (في حين كان كتاب المبادئ Psincipia باللاتينية)، ووجهه "إلى القراء الحاضري الذكاء والفهم، الذين لم يتصلعوا بعد في البصريات". وفي نهاية الكتاب وضع قائمة لواحد وثلاثين سؤالاً تتطلب مزيداً من البحث. وكان السؤال الأول إرهاباً بهذه النبوءة "ألا تؤثر الأجسام في الضوء عن بعد، فتتحنى أشعته بهذا التأثير، وألا يكون هذا

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الفيزيائي

التأثير على أشده في أدنى الأبعاد؟" والسؤال الثلاثون "الم لا تغير الطبيعة الأجسام إلى ضوء والضوء إلى أجسام؟".

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> أصل نظرية الجاذبية

3- أصل نظرية الجاذبية

كانت سنة 1666 سنة جنينية لنيوتن. شهدت بداية جهوده في البصريات، ولكنه كذلك يقول عن ذكرياته أن شهر مايو "كان مدخلي إلى الطريقة العكسية للفروق المستمرة، وفي نفس السنة بدأت أفكر في امتداد الجاذبية إلى مدار القمر... بعد أن قرنت بين القوة اللازمة لحفظ القمر في مداره، وقوة الجاذبية على سطح الأرض، ووجدتهما متفقتين تماماً تقريباً... في تلك السنين كانت في ربيع عمري(21)".

وفي عام 1666 وصل الطاعون إلى كمبردج، فعاد نيوتن إلى موطنه ولزثورب طلباً للسلامة. وهنا نلتقي بقصة لطيفة. كتب فولتير في كتابه "فلسفة نيوتن" (1738):
"ذات يوم من أيام 1666، حين كان نيوتن معتكفاً في الريف رأى ثمرة تسقط من شجرة كما أخبرتني بنت أخته السيدة كوندويت، فاستغرق في تفكير عميق في السبب الذي يجذب جميع الأجسام في خط إذا مد مر قريباً جداً من مركز الأرض(22)".

وهذا أقدم ما نعرفه من ذكر لقصة التفاحة. وهي لا ترد في كتب مترجمي نيوتن القدامى، ولا في روايته لكيفية اهتدائه لفكرة الجاذبية الكونية، والفكرة السائدة اليوم عن القصة أنها أسطورة. وأرجح منها قصة أخرى رواها فولتير، وهي أن غريباً سأل نيوتن كيف اكتشف قوانين الجاذبية، فأجاب "بإدمان التفكير فيها(23)" ومما لا ريب فيه أنه بحلول عام 1666 كان نيوتن قد حسب قوة الجذب التي تحفظ الكواكب في أفلاكها وانتهى إلى أنها تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع بعدها عن الشمس(24). ولكنه لم يستطع إلى ذلك الوقت التوفيق بين النظرية وحساباته الرياضية، فنحاه جانباً، ولم ينشر عنها شيئاً طوال الأعوام الثمانية عشر التالية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> أصل نظرية الجاذبية

ولم تكن فكرة الجاذبية بين النجوم جديدة قط على نيوتن. فقد ذهب بعض فلكيي القرن الخامس عشر إلى أن السماوات تؤثر في الأرض بقوة تشبه قوة تأثير المغنطيس في الحديد، وما دامت الأرض تتجذب بالتساوي من جميع الاتجاهات فإنها تبقى معلقة في مجموع هذه القوة (25). وقد نبه كتاب جليبرت "المغنطيس" (1600) أذهاناً كثيرة إلى التفكير في التأثيرات المغنطيسية المحيطة بكل إنسان، وقد كتب هو نفسه في كتاب لم ينشر إلا بعد موته بثمانية وأربعين عاماً (1651) يقول:

"إن القوة المنبعثة من القمر تصل إلى الأرض، وبالمثل فإن القوة المغنطيسية للأرض تعم منطقة القمر، وكلتاهما تتجاوب وتتألف بتأثيرهما المشترك، حسب تناسب الحركات وتطابقها، ولكن تأثير الأرض أكبر نتيجة لأكبر كتلتها(26)".

وكان اسماعيلس بوريار قد قر في كتابه " (Astronomia Philolacia 1645) أن جذب الكواكب بعضها لبعض يتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينهما(27)، وذهب ألفونسو بوريللي في كتابه "نظريات الكواكب المديشية" (1666) إلى أن "كل كوكب وتابع يدور حول كرة كبرى في الكون بوصفها مصدراً للقوة، تجذب الكوكب وتابعه وتمسكها بحيث لا يمكن إطلاقاً أن ينفصلا عنها، بل يضطران لإتباعها أينما ذهبت، في دورات ثابتة مستمرة"، وقد فسّر مدارات هذه الكواكب والتتابع بأنها نتيجة القوة المركزية الطاردة لدورانها ("كما نجد في العجلة أو الحجر يدوم في مقلاع") تقابلها قوة شمسها الجاذبة(28). وذهب كيلر إلى أن الجاذبية ملازمة لجميع الأجرام السماوية، وقدر في فترة من حياته أن قوتها تتناسب عكسياً مع مربع المسافة بينها، وكان هذا خليقاً بأن يكون سيقاً واضحاً لنيوتن، ولكنه عاد فرفض هذه الصيغة، وافترض أن الجذب يتناقص تناقصاً طردياً مع زيادة المسافة(29). على أن هذه المدخل إلى نظرية في الجاذبية حرفتها عن طريقها نظرية ديكرات في الدوامات التي تكونت في كتلة بدائية، ثم عينت عمل كل جزء ومداره.

وقد فكر كثير من المستقرين البيقطين في الجمعية الملكية تفكيراً

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> أصل نظرية الجاذبية

عميقاً في رياضيات الجاذبية. وفي 1674 سبق هوك بكتابه "محاولة لإثبات حركة الأرض السنوية" "إعلان" نيوتن لنظرية الجاذبية بأحد عشر عاماً. قال هوك:

"سأشرح نظاماً للكون مختلفاً في تفاصيل كثيرة عن أي نظام عرف إلى الآن، متفقاً في جميع الأشياء مع القواعد الشائعة للحركات الميكانيكية. وهو يعتمد على فروض ثلاثة: (أولها) أن كل الأجرام السماوية أياً كانت ذوات قوة جاذبة إلى مراكزها، لا تجذب بها أجزاءها فحسب وتحفظها من أن تنتطير منها... بل تجذب كذلك سائر الأجرام السماوية الواقعة في مجال نشاطها... (وثانيها) أن جميع الأجسام أياً كانت، التي تحرك حركة طردية وبسيطة، تستمر

في الحركة قدماً في خط مستقيم إلى أن تحرفها عن طريقها قوة فعالة أخرى... (وثالثها) أن قوى الجذب هذه يشتد فعلها بقدر قرب الجسم الواقع تحت جاذبيتها من مراكزها" (30). ولم يحسب هوك في بحثه هذا أن الجذب يتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة، ولكنه أنهى هذا المبدأ إلى نيوتن-إذا صدقنا رواية أوبري-بعد أن توصل إليه مستقلاً (31). وفي يناير 1684 شرح هوك صيغة المربعات العكسية لرن وهالي، اللذين كانا قبلها من قبل. فذكر لهوك أن الحاجة ليست إلى مجرد فرض، بل إلى إيضاح رياضي يثبت أن مبدأ الجاذبية يفسر مسارات الكواكب. وعرض رن على هوك وهالي جائزة قدرها أربعون شلناً (100 دولار) أن أتاه أحدهما ببرهان رياضي على الجاذبية. ولم يأت به البرهان على قدر علمنا (32). وفي أحد أيام أغسطس 1684 ذهب هالي إلى كمبردج وسأل نيوتن ماذا يكون مدار كوكب ما إذا تناسب جذب الشمس له تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينهما. وأجاب نيوتن أنه يكون قطعاً ناقصاً (اهليلجاً) ولما كان كبلر قد استخلص من دراسته الرياضية لمشاهدات نيكو براهي أن مدارات الكوكب اهليلجية، فقد بدا أن الفلك الآن تأيد بالرياضة، والعكس بالعكس. وأضاف نيوتن أنه أجرى الحسابات تفصيلاً في 1679، ولكنه نحاها جانباً، من جهة

صفحة رقم : 11298

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> أصل نظرية الجاذبية

لأنها لم تتفق تماماً مع التقديرات السائدة يومها لقطر الأرض والبعد بين الأرض والقمر، وأرجح من هذا السبب أنه لم يكن واثقاً من أنه يستطيع تناول الشمس، والكواكب، والقمر على أنها نقط مفردة في قياس قوتها الجاذبية. ولكن في عام 1671 أذاع بيكار قياسه الجديد لنصف قطر الأرض ولدرجة من درجات خطوط الطول، التي حسب أخيراً أنها تبلغ 69.1 ميلاً قانونياً إنجليزياً، وفي عام 1672 تمكن بيكار بفضل بعثته إلى سايبين من حساب بعد الشمس عن الأرض فقرر أنه 87.000.000 ميل (والرقم الحالي 92.000.000) واتفقت هذه التقديرات الجديدة اتفاقاً طيباً مع رياضة نيوتن في الجاذبية، وأقنعه المزيد من الحسابات في 1685 بأن الكرة تجذب الأجسام وكان كتلة هذه الكرة كلها تجمعت في مركزها. وشعر الآن بمزيد من الثقة في فرضه. ثم قارن سرعة حجر على الأرض بسرعة سقوط القمر على الأرض إذا نقصت قوة جذب الأرض له بمربع المسافة بينهما. فوجد أن نتائجها تتفق وأخر البيانات الفلكية. فخلص من هذا إلى أن القوة التي تسقط الحجر، والقوة الجاذبة للقمر نحو الأرض رغم قوة طرد القمر المركزية، هما قوة واحدة. وسر الإنجاز الذي حققه هنا كامن في تطبيقه هذه النتيجة التي انتهى إليها على جميع الأجسام التي في الفضاء، وفي تصوره أن جميع الأجرام السماوية مترابطة في شبكة من التأثيرات الجاذبية، وفي بيانه كيف أن حساباته الرياضية والميكانيكية تتفق وملاحظات الفلكيين، لا سيما قوانين كبلر الكوكبية. وبدأ نيوتن إجراء حساباته من جديد، وأنهاها إلى هالي في نوفمبر 1684. وأدرك هالي أهميتها فحثه على تقديمها للجمعية

صفحة رقم : 11299

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> أصل نظرية الجاذبية

الملكية فوافق، وأرسل إلى الجمعية رسالة في "قضايا الحركة" (فبراير 1685)، لخص فيها آراء في الحركة والجاذبية. وفي مارس 1686 قدم للجمعية مخطوط الكتاب الأول من كتب الحركة، عن المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية. وللتو لفت هوك النظر إلى أنه سبق نيوتن في 1674. ورد نيوتن في رسالة إلى هالي أن هوك أخذ فكرة المربعات العكسية عن بوريللي وبويار. وتفاقم الخلاف حتى أصبح سخطاً من الطرفين، وحاول هالي أن يصلح ذات البين، وهدأ نيوتن ثائرة هوك بتضمين مخطوطته حاشية، تحت القضية الرابعة، أقر فيها بفضل "أصدقائنا رن، و هوك، وهالي"، في أنهم "استنتجوا من قبل" قانون المربعات العكسية. ولكنه ضاق بالنزاع أشد الضيق حتى أنه حين أعلن لهالي (20 يونيو 1678) أن الكتاب الثاني جاهز، أضاف قائلاً "في نيبي الآن أن أوقف الكتاب الثالث. فالفلسفة أشبه بامرأة مشاكسة وقحة تزج بمن يتعامل معها في قضايا أمام المحاكم". وأقنعه هالي بأن يواصل الكتاب. وفي سبتمبر 1687 نشر المؤلف كله برعاية الجمعية الملكية ورئيسها آنذ، صموئيل بيبببس. ولما كانت الجمعية في ضائقة مالية، فقد أنفق هالي على النشر بأكمله من جيبه الخاص، مع أنه لم يكن بالرجل الميسور. وهكذا، وبعد عشرين عاماً من الإعداد، ظهر أهم كتاب في علم القرن السابع عشر، كتاب لا يضارعه في عظم تأثيره في ذهن أوروبا المثقفة سوى كتاب كوبرنيك في الدورات (1543)، وكتاب دارون في أصل الأنواع (1859). هذه الكتب الثلاثة هي أهم الأحداث في تاريخ أوروبا الحديثة.

صفحة رقم : 11300

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> كتاب المبادئ برنكيبا

4- كتاب المبادئ "برنكيبا"

Principia

فسرت عنوان الكتاب مقدمته:

"بما أن القدماء (كما يخبرنا بابوس) علقوا أهمية عظمى على علم الميكانيكا في بحثهم في الأشياء الطبيعية، وبما أن المحدثين، بعد أن نحو أشكال المادة (التي قال بها السكولاستيون) والصفات الغيبية، حاولوا إخضاع الظواهر الطبيعية لقوانين الرياضة، فقد

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> كتاب المبادئ برنكيبا

طورت الرياضيات في هذا البحث على قدر اتصالها بالفلسفة (الطبيعية)... و عليه فإننا نقدم هذا المؤلف على أنه المبادئ الرياضية للفلسفة، ذلك لأن كل معضلة الفلسفة هي في بحث قوى الطبيعة من ظواهر الحركة، ثم توضيح الظواهر الأخرى من هذه القوى".

أما وجهة نظر الكتاب فستكون ميكانيكية خالصة:

"وددت لو استطعنا استخلاص باقي الظواهر الطبيعية بنفس نوع الاستدلال من الأسس الميكانيكية، لأن مبررات كثيرة تحملني على الظن بأنها ربما كانت كلها تتوقف على قوى معينة تدفع بواسطتها جزيئات الأجسام بأسباب مجهولة إلى الآن بعضها نحو البعض، وتتماسك في أشكال منتظمة، أو تصد وتراجع بعضها عن البعض، وإذا كانت هذه القوى مجهولة، فقد حاول الفلاسفة إلى الآن البحث في الطبيعة عيئاً، ولكني أرجو أن تلقي المبادئ الموضوعية هنا بعض الضوء على تلك الطريقة، أو على طريقة أصح، من طرق الفلسفة".

وبعد أن وضع نيوتن بعض التعاريف والبديهيات، صاغ ثلاثة قوانين للحركة:

1- كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة في خط مستقيم ما لم يضطر إلى تغيير تلك الحالة بقوى واقعة عليه.

2- تغيير الحركة يتناسب مع القوة المحركة الواقعة، ويتم في اتجاه الخط المستقيم الذي تقع فيه تلك القوة.

3- كل فعل يقابله دائماً رد فعل مساو له.

أما وقد تسلم نيوتن بهذه القوانين، وبقانون التربيع العكسي فقد تقدم إلى صياغة مبدأ الجاذبية. وصورة المبدأ الحالية، وهي أن كل جزيء من المادة يجذب كل جزيء بقوة تتناسب تناسباً طردياً مع حاصل ضرب كتلتيهما وتناسباً عكسياً مع مربع البعد بينهما، هذه الصورة لا نجدها بهذا النص في أي موضوع في كتاب المبادئ، ولكن نيوتن أعرب عن الفكرة في التعقيب العام الذي ختم به الكتاب الثاني: "إن الجاذبية... تعمل... حسب كمية المادة الجامدة التي تحتويها (الشمس والكواكب)، وتنتشر قوتها على جميع الجهات... متناقضة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> كتاب المبادئ برنكيبا

أبدأ بما يتناسب مع المربع العكسي للمسافات(33)". وقد طبق هذا المبدأ، وقوانينه في الحركة، على مدارات الكواكب، ووجد أن تقديراته الحسابية تتفق والمدارات الاهليلجية التي استنتجتها كبلر. وزعم أن الكواكب تحول عن حركاتها المستقيمة، وتحفظ في مداراتها، بقوة تميل صوب الشمس وتتناسب تناسباً عكسياً مع مربع أبعادها عن مركز الشمس. وعنى أساس مبادئ مماثلة فسر جذب المشتري لتوابعه، والأرض للقمر. وبين أن نظرية ديكارت في الدوامات باعتبارها الشكل الأول للكون لا يمكن التوفيق بينها وبين قوانين كبلر. وحسب كتلة كل كوكب، وقدر كثافة الأرض من خمسة إلى ستة أمثال كثافة الماء. (والرقم الحالي 5.5). وعلل رياضياً تفرطح الأرض عند القطبين، وعزا إنبعاجها عند الاستواء إلى قوة الشمس الجاذبة، ووضع رياضيات المد والجزر باعتبارها راجعين إلى جذب

الشمس والقمر الموحد للبحار، ويمثل هذا الفعل القمري-الشمسي فسر مبادرة نقطتي الاعتدالين، ورد مسارات المذنبات إلى مدارات منتظمة، وبهذا أيد نبوءة هالي. وقد صور كوناً أعظم تعقيداً من الناحية الميكانيكية مما ظن من قبل، لأنه نسب لجميع الكواكب والنجوم صفة الجذب، فأصبح الآن كل كوكب أو نجم ينظر إليه على أنه متأثر بكل كوكب أو نجم آخر. ولكن في هذا الحشد المعقد من الأجرام السماوية وضع نيوتن قانوناً يحكمه: فأبعد النجوم يخضع لذات الميكانيكا والرياضة اللتين يخضع لها أصغر الجزيئات على الأرض. إن رؤية الإنسان للقانون لم تغامر قط بالتحليق في الفضاء إلى مثل هذا البعد، ولا يمثل هذه الجراءة.

ونفذت الطبعة الأولى من "المبادئ" سريعاً، ولكن لم تظهر طبعة ثانية إلا في 1713. وعزت نسخة حتى أن عالماً نسخ الكتاب كله بيده (34). واعترف القراء بأنه عمل فكري من أرفع طراز، ولكن بعض ملاحظات النقد كدرت صفو الثناء عليه. فرفضت فرنسا النظام النيوتني لتشيبتها بدوامات ديكارت، إلى أن عرضه فولتير في 1738 عرضاً ملؤه الإعجاب والتبجيل. واعتراض كاسيني وفونتيل بأن الجاذبية ليست سوى قوة أو صفة غيبية تضاف إلى القوى الماضية، وقالوا أن نيوتن شرح بعض العلاقات بين الأجرام السماوية، ولكنه لم يكشف عن طبيعة الجاذبية، التي ظلت سرّاً خفياً كسر الله. وقال ليبنتز بأنه

صفحة رقم : 11303

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> كتاب المبادئ برنكيبا

ما لم يستطع نيوتن بيان المكنية التي تستطيع الجاذبية أن تؤثر بها، خلال فضاء يبدو فارغاً، في أجسام تبعد عنها ملايين الأميال، فإنه لا يمكن قبول الجاذبية على أنها شيء أكثر من مجرد كلمة (35). ولم تحظ النظرية الجديدة بالقبول السريع حتى في إنجلترا. وزعم فولتير أن المرء كان بالجهد يجد عشرين عالماً يرضون عنها بعد أن نشرت لأول مرة بأربعين عاماً. وبينما شكوا النقاد في فرنسا من أن النظرية ليست ميكانيكية بالقدر الكافي إذا قيست بدوامات ديكارت البدائية، كانت الاعتراضات عليها في إنجلترا في أغلبها دينية، فأسف جورج باركلي في كتابه "مبادئ المعرفة الإنسانية" (1710) لأن نيوتن يرى الفضاء والزمان والحركة مطلقة، سرمدية فيما يبدو، وموجودة مستقلة عن المساندة الإلهية. فالميكانيكية تطغى على النظام النيوتوني طغياناً لا يترك فيه مكاناً لله.

فلما وافق نيوتن بعد ما عهد فيه من تسويات على أن يعد طبعه ثانية الكتاب، حاول أن يهدئ من ثائرة نقاده. فأكد لليبنتز والفرنسيين أنه لا يفترض قوة تعمل عن بعد خلال الفضاء الفارغ، وأنه يعتقد بوجود ناقل متخلل، رغم أنه لن يحاول وصفه صم اعترف بصراحة أنه لا يفقه طبيعة الجاذبية. وبهذه المناسبة كتب في الطبعة الثانية كلماته التي كثيراً ما ياء فهمها، وهي أنه "لا يضع فرضاً (36)" وأضاف "يجب أن تتسبب الجاذبية من عامل يعمل بثبات وفق قوانين معينة، ولكني أترك لقارئ النظر في هل هذا العامل مادي أو غير مادي (37)".

ورغبة في المزيد من الرد على الاعتراضات الدينية ألحق بالطبعة الثانية تعقيماً عاماً عن دور الله في نسفه. فقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادي، ورأى حتى في ذلك العالم أدلة على وجود خطة إلهية، فالآلة الكبرى تتطلب مصدراً أول لحركتها، لا بد أن يكون هو الله، ثم إن في النظام الشمسي شذوذات في المسلك يصححها تعالى دورياً كلما ظهرت (38). ولكي يفسح نيوتن مجالاً لهذه التدخلات الخارقة نزل عن مبدأ عدم فناء الطاقة. وافترض الآن أن آلة العالم تفقد بعض طاقتها بمضي الوقت، وستفقد كلها إن لم يتدخل الله ليرد لها

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> كتاب المبادئ برنكيبا

قوتها(39). واختتم بهذه العبارة "إن هذا النظام البديع، نظام الشمس، والكواكب، والمذنبات، لا يمكن أن ينبعث إلا من مشورة كائن ذكي قوي ومن رحابه(40)". وأخيراً تحرك صوب الفلسفة يمكن أن تفسر بمعنى حيوي، أو تفسر بمعنى ميكانيكي قال:

"وقد نصيف الآن شيئاً يتصل بروح غاية في الدقة، روح تنتشر وتختفي في جميع الأجسام الكبيرة، وبقوتها وفعلها تتجاذب جزيئات الأجسام في المسافات القريبة، وتتماسك إذا تجاوزت، وتعمل الأجسام الكهربائية إلى أبعاد أعظم، فتصد وتجذب الجزيئات المجاورة، ويرسل الضوء، ويعكس، ويكسر، ويثني، ويسخن الأجسام، وكل إحساس يثار، وتحرك أعضاء الأجسام الحيوانية بأمر الإرادة، أعني بتموجات هذه الروح، ميثوثة بالتبادل على خيوط الأعصاب المتينة، من أعصاب الحس الخارجة إلى المخ، ومن المخ إلى العضلات. على أن هذه أشياء لا يمكن تفسيرها في بضع كلمات، ثم أننا لم نزود بما يكفي من التجارب التي يتطلبها التقرير والإيضاح الدقيقان للقوانين التي تعمل وفقاً لها هذه الروح الكهربائية المرنة(41)".

ترى ماذا كان إيمانه الديني الحقيقي؟ لقد تطلبت أسناده في كمبردج الولاء للكنيسة الرسمية، وكان يختلف بانتظام إلى الخدمات الكنسية الأنجليكانية. أما صلواته الخاصة فيقول فيها سكرتيره "لا أستطيع أن أقول عنها شيئاً، وأميل إلى الاعتقاد بأن دراساته المفرطة حرمتها من النصيب الأفضل(42)". ومع ذلك فقد درس الكتاب المقدس بنفس الغيرة التي درس بها الكون. وقد أتى عليه رئيس أساقفة بقوله "إنك تعرف من اللاهوت أكثر مما نعرف كلنا مجتمعين(43)" وقال لوك عن معرفته بالأسفار المقدسة "لست أعرف من أمثاله إلا القليلين(44)" وقد خلف كتابات لاهوتية يفوق حجمها كل مؤلفاته العلمية.

وقادته دراساته إلى نتائج أشبه بالأريوسية، وهي قريبة الشبه بنتائج ملتن، ومجملها أن المسيح وإن كان ابن الله إلا أنه ليس مساوياً لله الأب في الزمن أو القوة(45). وفيما عدا ذلك كان نيوتن، أو أصبح، مستقيم العقيدة تماماً. ويبدو أنه أمن بكل كلمة من كلمات

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> كتاب المبادئ برنكيبا

الكتاب المقدس على أنها كلمة الله، وأنه قبل سفري دانيال ورؤيا يوحنا على أنهما الحقيقة بحذافيرها. لقد كان أعظم علماء عصره صوفياً نسخ في شغف فقرات طويلة من يعقوب بومي، وطلب إلى لوك أن يناقش معه معنى "الحصان الأبيض" الوارد في سفر الرؤيا. وقد شجع صديقه جون كريج على كتابه "الأسس الرياضية للاهوت المسيحي" (1699) الذي حاول أن يثبت بالرياضة تاريخ مجيء المسيح الثاني، والنسبة بين أقصى ما يمكن بلوغه من السعادة الأرضية وسعادة المؤمن التي يجزي بها في الفردوس(48). وقد كتب تعليقا على سفر الرؤيا، وزعم أن المسيح الكاذب المتنبأ به في السفر هو بابا روما. لقد كان ذهن نيوتن مزيجاً جمع بين ميكانيكا جاليليو وقوانين كبلر وبين لاهوت بومي. ولن يطالعنا الزمان بمثله عن قريب.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الأصيل

5- الأصيل

لقد كان بمعنى آخر مزيجاً شاذاً، رجلاً مستغرقاً بشكل واضح في النظرية الرياضية والصوفية، وهو مع ذلك ذو مقدرة عملية وفطرة سليمة اختارته جامعة كمبريدج عام 1687 ليذهب مع آخرين للاحتجاج لدى جيمس الثاني على محاولة هذا الملك أن يفرض على الجامعة أن تمنح راهباً بندكتياً درجة جامعية دون أن يحلف الإيمان العادية التي يستحيل على الكاثوليكبة أن يقبلها. وفشلت البعثة في ثني الملك عن قراره، ولكن لا بد أن الجامعة رضيت عن رئاسة نيوتن لها، لأنه اختير عضواً ممثلاً لكمبريدج في برلمان 1689. وظل عضواً حتى حل البرلمان عام 1690، ثم أعيد انتخابه عام 1701، ولكنه لم يشارك في السياسة بدور مذكور. وتخللت حياته العملية عام 1692 سنتان من المرض الجسمي والعقلي. فقد كتب إلى بيببس ولوك رسائل يشكو فيها من الأرق والسوداء، ويعرب على مخاوف الاضطهاد، ويتحسر على فقده "تماسك ذهنه القديم(47)". وفي 16 سبتمبر 1693 كتب إلى لوك يقول:

سيدي: إن ظني أنك حاولت توريطي في علاقات نسائية وبطرق

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الأصيل

أخرى أثر في نفسي تأثيراً شديداً، حتى أنني أجبت حين أخبرني أحدهم بأنك مريض ولن تعيش، بأن من الخير أن تموت. وأود أن تغتفر لي هذه القسوة لأنني الآن مقتنع بأن ما فعلته صواب، وأسألك الصفح عن إساءتي الظن بك في هذا الأمر، وعن قولتي أنك أصبت الفضيلة في الصميم بمبدأ وضعته في كتاب "الأفكار" الذي ألفته، ونويت أن توصله في كتابه آخر، وعن أنني حسبتك خطأ من أنصار هوبز. كذلك أسألك الصفح عن قولتي أو ظني بأن هناك خطة لبيعي منصباً، أو لتوريطي....

وأنني خادمك الخاضع المنكود الحظ

وذكر بيبيس في خطاب تاريخه 26 سبتمبر 1693 "اضطراباً في... الرأس أو العقل" تدل عليه رسالة تلقاها من نيوتن. وقد خلف هويجنز عند وفاته (1695) مخطوطة فيها دون فيها تحت يوم 29 مايو 1694 أن "مستر كولين، وهو رجل اسكتلندي، أنبأني أن عالم الهندسة الشهير إسحاق نيوتن أصابه لوثة قبل ثمانية عشر شهراً" ولكنه استعاد صحته فبدأ يفهم كتابه "المبادئ". وأرسل هويجنز التقرير إلى ليبنتز في رسالة مؤرخة 8 يونيو 1694 قال فيها: "إن الرجل الطيب المستر نيوتن أصيب بنوبة من الخبل لازمته ثمانية عشر شهراً، وقيل أن أصحابه شفوه منها بالعقاقير وإبقائه محبوساً(49)" وظن البعض أن هذا الانهيار العصبي صرف نيوتن عن العلم إلى سفر الرُّوبيا، ولكننا لا نستطيع الجزم بهذا. وقيل "أنه لم يركز قط كما ألف أن يركز، ولم يقم بأي جهد جديد(50)" ومع ذلك ففي 1696 حل على الفور تقريباً مسألة حسابية اقترحها يوهان برنولي "على أذكى الرياضيين في العالم"، وكذلك فعل بمسألة وضعها ليبنتز عام 1716(51). وقد أرسل رده على برنولي غفلاً من الاسم بطريق الجمعية الملكية، ولكن برنولي حزر على الفور أن صاحبه نيوتن، إذ تبين "الأسد من مخلبه" على حد قوله. وفي عام 1700 اكتشف نظرية آلة السدس، ولم يكتشف النقاب عنها إلا بخطاب لهالي، ووجب أن يعاد اختراعها عام 1730. ويبدو أنه شرف المناصب العسيرة التي بادرت الدولة بتعيينه فيها.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الأصيل

وكان لوك، وبيبيس، وغيرهما من أصدقاء نيوتن قد فاضوا حيناً للحصول له على منصب حكومي يخرج من سجن حجرته ومختبره في كمبردج. وفي عام 1695 أقنعوا اللورد هاليفاكس بأن يعرض عليه وظيفة أمين دار سك النقود. ولم تكن الوظيفة شرفية ولا صدقة، إذ أرادت الحكومة أن تفيد من علم نيوتن بالكيمياء والمعادن في ضرب عملة جديدة. ففي 1695 انتقل إلى لندن، حيث عاش مع ابنة أخته كاترين بارتون، خليعة هاليفاكس(52). وقد خيل إلى فولتير أن افتتاح هاليفاكس ببنت الأخت هذه حمل هاليفاكس وهو وزير للخزانة على أن يعين نيوتن مديراً لدار سك النقود في 1699(53)، ولكن هذه الشائعة لا تكاد تفسر استمرار نيوتن في شغل ذلك المنصب طوال الثمانية والعشرين عاماً الباقية له في أجله، وشغله على نحو حاز الرضاء العام.

وكان خليفاً بشيخوخته أن تكون سعيدة. فقد كرمته الدولة بوصفه أعظم العلماء الأحياء، ولم يحظر رجل من رجال العلم حتى وقتنا هذا بمثل ما حظي به من ثناء عريض. وقد انتخب رئيساً للجمعية الملكية عام 1703، وظل ينتخب سنوياً بعد ذلك حتى وفاته. وفي عام 1705 خلعت عليه الملكة أن لقب الفروسية. وحين ركب عربته مخترقاً شوارع لندن تفرس الناس برهبة في وجهه الوردية، وقد فاض جلالاً وطيبة تحت لمة من الشعر الأبيض. ولم يستطعوا طوال الوقت أن يلحظوا أنه قد عرض بأكثر مما يتناسب مع طوله المتواضع. وكان يستمتع براتي طبيب بلغ 1.200 جنيه في العام، وقد استثمر مدخراته بحكمة حتى أنه خلف عند وفاته 32.000 جنيه(54)، رغم سخائه في الهدايا والصدقات. وقد أفاق من خسارته في انهيار شركة "ساوث سي". على أنه كان منقلب المزاج، وأحياناً سريع الغضب سيئ الظن، كتوماً، ودائماً شديد التهيب رغم كبريائه(55). كان يجب اعتزال الناس ولا يصنع الأذقاء بسهولة. وفي عام 1700

عرض الزواج على أرملة غنية، ولكن العرض لم يسفر عن نتيجة، ولم يتزوج قط. وإذ كان عصبي المزاج حساساً بشكل مرضي، فقد كان لا يطيق النقد إلا متألماً، ويغتاظ منه غيظاً شديداً، ويرد الصاع صاعين في الجدل. وكان يعرف قدر عمله وكفايته، ولكنه عاش عيشاً متواضعاً إلى أن أتاح له راتبه

صفحة رقم : 11309

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الأصيل

ومدخراته أن يستخدم ستة خدم ويستمتع بمكان مرموق في المجتمع اللندني. فلما بلغ التاسعة والسبعين بدأ يرد دينه للطبيعة. فأصابته الأمراض التي لا تقيم للعبقرية وزناً -حصاة المثانة وسلس البول، وحين بلغ الثالثة والثمانين أصيب بالنقرس، وفي الرابعة والثمانين بالبواسير. وفي 19 مارس 1727 اشتدت به آلام الحصاة حتى فقد وعيه. ولم يفق قط، ومات في الغد وقد بلغ الخامسة والثمانين، ودفن في كنيسة وستمنستر بعد أن شيع بجنازة تصدرها رجال الدولة والنبلاء والفلاسفة، وقد سجي في نعش حمله الأذواق والايبرلات. وأغرقه الشعراء بمراثيهم، وألف بوب قبرية شهيرة قال فيها: "إن الطبيعة وقوانينها كان يلفها ظلام الليل، وقال الله ليكن نيوتن، فأصبح الكل ضياء" ولم يملك فولتير عواطفه، حتى في شيخوخته، وهو يروي كيف شاهد، أثناء منفاه في إنجلترا، رياضياً يدفن بمظاهر تكريم الملوك(56).

وبلغ صيت نيوتن ذرى أشرفت على السخف. فقد لبينتز أن إسهامات منافسه في الرياضة تعدل في قيمتها كل المؤلفات السابقة في ذلك العلم(57). وذهب هيوم إلى أن نيوتن "أعظم وأندر عبقرى ظهر ليشراف النوع الإنساني ويعلمه(58)" ووافق فولتير في تواضع(59). ووصف لجرانج كتاب المبادئ بأنه "أعظم إنتاج أنتجه الذهن البشري"، وضمن له لابلاس إلى الأبد "مكان الصدارة على جميع إنتاجات العقل البشري"، وأضاف أن نيوتن أوفر الناس حظاً، لأنه ليس هناك سوى كون واحد، وليس سوى مبدأ مطلق واحد له، وقد اكتشف نيوتن ذلك المبدأ(60). ومثل هذه الأحكام لا ثبات لها، لأن "الحقيقة" حتى في العلم، تذبل كالزهرة.

ولو أننا قسنا عظمة إنسان بأقل المقاييس ذاتية، وهو انتشار تأثيره وطول بقاء هذا التأثير، لما وجدنا لنيوتن نظيراً إلا في مؤسسي الأديان العالمية والفلسفات المحورية. لقد كان تأثيره على الرياضة الإنجليزية -حيناً- تأثيراً ضاراً، لأن "فروقه وتنويتها كانا أقل يسراً من حساب التفاضل والتنويت اللذين هيمن بهما لبينتز على القارة. ويبدو أن نظريته في جسيمات الضوء عاقت تقدم البصرييات قرناً، وإن وجد بعض

صفحة رقم : 11310

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الأصيل

الطلاب الآن عوناً كبيراً في نظرية نيوتن (61). أما في الميكانيكا فقد أثبت عمله أنه خلاق إلى غير حدود. كتب ارنسنت ماخ يقول: "إن كل ما أنجز في الميكانيكا منذ أيامه لا يعدو أن يكون تطويراً إستنتاجياً، شكلياً، رياضياً... على أساس قوانين نيوتن (62)".

وقد خشي اللاهوتيين لأول وهلة من تأثير كتاب "المبادئ" على الدين، ولكن محاضرات بويل التي ألفها بنتلي (1692)، بتشجيع من نيوتن، حولت النظرة الجديدة إلى العالم إلى تأييد الإيمان، لأنها أكدت على وحدة الكون ونظامه وعظمته الواضحة أدلة على حكمة الله وقوته وجلاله. على أن هذا النسق النيوتوني ذاته قبله الربوبيون على أنه يدعم إيمانهم، وهو القبول البسيط لإله واحد، أو حتى اعتبار الله واحداً هو والطبيعة وقوانينها، بدلاً من اللاهوت المسيحي. وأغلب الظن أن تأثير نيوتن النهائي في الدين كان ضاراً، فقد افترض أحرار الفكر أنه برغم تأكيدات، وملايين الكلمات التي احتوتها كتاباته اللاهوتية، أنه تصور عالماً قائماً بنفسه، وأنه أدخل الإله فيه فكرة لاحقة معزبة. وفي فرنسا على الأخص شجعت كونيانات نيوتن، رغم عرض فولتير لها عرضاً ربوبياً، إلحاد الكثيرين من "الفلاسفة" إلحاداً يقوم على ميكانيكية الكون.

وفي الفترة بين اضمحلال نظرية ديكارت في نشأة الكون في فرنسا (حوالي 1740) وظهور نظريات النسبية وميكانيكا الكم في القرن العشرين، لم يصادف "نسق العالم" النيوتوني أي تحدٍ خطير، وبدا مؤيداً من كل تقدم أو كشف في الفيزياء أو الفلك. والخلافات الرئيسية بين الفيزيائيين المعاصرين وميكانيكا نيوتن، على قدر ما يستطيع غير المتخصص فهم هذه الألغاز، هي:

- 1- ذهب نيوتن إلى أن المكان والبعد، والزمان والحركة، أشياء مضافة-أي أنها لا تختلف كما باختلاف أي شيء خارجها (63). أما أينشتاين فقد اعتبرها نسبية-تختلف باختلاف موقع وحركة المشاهد في المكان والزمان.
- 2- افترض أول قوانين نيوتن للحركة، في وضوح، أن الجسم قد "يستمر في حالة سكون، أو حركة منتظمة في خط مستقيم" ولكن

صفحة رقم : 11311

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> إسحاق نيوتن -> الأصل

"السكون" نسبي دائماً، كسكون مسافر في طائرة بسرعة، وكل الأشياء تتحرك، ولا تتحرك أبداً في خط مستقيم، لأن كل خط أو حركة أو فعل تحرفه الأجسام المحيطة (كما أدرك نيوتن).

3- كانت فكرة نيوتن عن الكتلة أنها من الثابت، وفكرة بعض الفيزيائيين المعاصرين عنها أنها تختلف باختلاف السرعة النسبية للمشاهد والشيء.

4- النظرة السائدة الآن إلى "القوة" هي أنها فكرة ميسرة. ولكنها ليست ضرورية في العلم، الذي يهدف إلى الاكتفاء بوصف التتابعات، والعلاقات، والنتائج. فلننا نعلم، ولا حاجة بنا إلى أن نعلم (كما يقول لنا العلماء) ما هو "هذا" الذي يسري من جسم متحرك إلى آخر يصدمه ذلك الجسم، فالحاجة فقط لتسجيل التتابعات، والعلاقات، والنتائج، وللافتراض (دون أي يقينية مطلقة) بأن هذه ستكون في المستقبل ما بدته في الماضي. والجاذبية وفقاً لهذا الرأي ليست قوة، بل نظام علاقات بين الأحداث في الزمان والمكان.

ومما يعزينا أن نعلم أن هذه وغيرها من التفتيحات الطارئة على ميكانيكا نيوتن لا أهمية لها إلا في ميادين (كالظواهر الكهربائية-المغناطيسية) لا تبدو الجزينات فيها تتحرك بسرعة تقرب من سرعة الضوء، وفي غير هذا فالفرق بين الفيزياء القديمة والحديثة يمكن أن نتجاهله مطمئنين. وللفلاسفة-الذي شفاهم التاريخ من اليقينية-أن يحتفظوا بارتياح متواضعة من نحو الأفكار المعاصرة، بما في ذلك أفكارهم هم، وسوف يحسون نسبية متدفقة في صيغ النسبية، وسوف يذكرون كل المنقبين في الذرات والنجوم بتقدير نيوتن النهائي لإنجازه الخطير:

"لست أعلم كيف أبدو للعالم، ولكني أبدو لنفسي وكأنني صبي يلعب على شاطئ البحر، ألهو بين الحين والحين بالعثور على حصاة أملس أو صدفة أجمل من العادة، بينما ينبسط محيط الحقيقة العظيم مغلق الأسرار أمامي(64)".

صفحة رقم : 11312

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

الفصل العشرون

الفلسفة الإنجليزية

1715 - 1648

1- توماس هوبز

1679 - 1588

أ - المؤثرات التي شكلت شخصيته

ولد هوبز في 5 إبريل 1588، ولما يكتمل المدة المقررة للحمل، وتعزو أمه ولادته المبكرة قبل الأوان إلى فزعها من مجيء الأسطول الأسباني "الأرمادا"، ومن الخطر الذي يتهدد إنجلترا بغزو ساحق على أيدي الوثنيين السفاحين. أما الفيلسوف فينسب إلى خروجه غير المرتقب قبل الأوان إلى الحياة نزعة الجبن التي تملكته وغلبت عليه، ولكنه كان

أجرأ الهراطقة في عصره. وربما ورث الوالد- وكان قسيساً أنجليكانياً في مامز بري في ولنتشير- ابنه بعض نزوع إلى المشاكسة، فان هذا الوالد اشتبك يوماً في شجار على باب كنيسة ثم اختفى، تاركاً أبناءه الثلاثة ليتولى تربيتهم أخ له.

وأثرى هذا الخ وأيسر، والتحق توماس بكلية مجدلين في أكسفورد، هياًباً جباناً، ولا ريب، مثله في ذلك مثل أي شاب يجرؤ على اقتحام المغارات المخصصة لأصنام العشييرة. ولم يجد في الفلسفة التي تدرس هناك إلا قليلاً مما يروقه، فتسلى بقراءات خارج المنهج المقرر، وتعرف بطريق مباشر على الآداب الإغريقية واللاتينية. ولما تخرج في سن العشرين أسعده الحظ ليكون معلماً خاصاً لوليم كافندش الذي أصبح أرل ديفو نشير الثاني. وقد ثبت أن الحماية التي بسطتها عليه هذه الأسرة كانت ذات قيمة كبيرة له أيام هرطقته. وفي 1610 طاف في صحبة تلميذه بأرجاء القارة. وعند عودته أشتغل لبعض الوقت سكرتير لفرنسيس بيكون، وربما أسهمت هذه الخبرة المثيرة في تكوين فلسفته التجريبية بكل ما في هذه الكلمة من معنى. ويروي أوبري أنه حوالي هذه الفترة "كان مستر بنجامين جونسون شاعر التاج صديقه الحميم الذي يكثر التردد عليه(1) وكان أغزر علماً من هوبز. ولم

صفحة رقم : 11313

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

يكن قد أشتد عودته بعد، وسرعان ما عاد هوبز إلى أسرة كافندش، واحتفظ بصلته بها طيلة ثلاثة أجيال، ومن الجائز أن الفيلسوف اقتبس من هؤلاء الحماة الكرام ذوي المنعة والقوة الآراء المتعلقة بالنظام الملكي والكنيسة التقليدية، وتلك الآراء هي التي غفرت له ميثافيزيقيته المادية وخلصته من الموت حرقاً. وكان اكتشافه لإقليدس نقطة تحول في حياته العقلية. ذلك أنه وهو في سن الأربعين، وقع بصره في مكتبة خاصة، على كتاب "العناصر" مفتوحاً على المسألة رقم 47 من القسم الأول. وما أن قرأها حتى صاح "يا إلهي، هذا مستحيل" وأشار شرحها إلى أنها برهان على مسألة سابقة، وهذه على أخرى، وهكذا، حتى رجع إلى التعاريف الأولية والبيديهيات. وابتهج بهذا البناء المنطقي، وأغرم بعلم الهندسة(2) ولكن أوبري بضيف "أنه كان منصرفاً- إنصرافاً كبيراً إلى الموسيقى ومارس العزف على الكمان الكبير". وفي 1629 نشر ترجمة لتيوكيديدس (المؤرخ اليوناني في القرن الرابع ق.م) وكان غرضه السافر المزعوم من ذلك هو أن يحذر إنجلترا من أخطار الديموقراطية. وفي تلك السنة أستاذت رحلاته، معلماً آنذاك لأين أول تلاميذه، أرل ديفونشير الثالث. وربما قوت زيارته لجالييليو (1636) من نزوعه إلى تفسير الكون على أسس ميكانيكية.

وعاد إلى إنجلترا في 1637، ولما أشتد الصراع بين البرلمان والملك شارل الأول، كتب رسالة بعنوان "مبادئ القانون الطبيعي والسياسي"، دافع فيها عن السلطة المطلقة للملك، بوصفها أمراً لا غنى عنه للنظام الاجتماعي والوحدة الوطنية. وجرى تداول هذه الرسالة مخطوطة، وربما- كانت تؤدي إلى القبض على المؤلف لولا أن شارل حل البرلمان. وعندما احتدم النزاع فقد رأى هوبز أنه من الحكمة أن يعود أدراجه إلى القارة (1640)، وبقي هناك، ومعظم وقته في باريس، طيلة الأحد عشر عاماً التالية. وفي باريس كسب صداقة مرسن وجاسندي، ولكن جلب على نفسه عداوة ديكرات. فإن مرسن دعاه إلى تدوين بعض التعليقات على "تأملات" ديكرات، فاستجاب هوبز في شيء من الكياسة ولكن في كثير من الحدة، ولم يغتفر له ديكرات هذا قط. وعندما نشبت الحرب الأهلية في إنجلترا

صفحة رقم : 11314

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

(1642) أسس المهاجرون الملكيون لأنفسهم مستعمرة في فرنسا، وربما أخذ هوبز عنهم مزيداً من التعاطف مع الملكية، فإنه لمدة عامين (1646/1748) اشتغل بتدريس الرياضيات لأمير ويلز المنفي، الملك شارل الثاني فيما بعد. وجاءت حركة الفروند ضد لويس الرابع عشر في فرنسا- وكانت مثل الثورة في إنجلترا، تهدف إلى الحد من سلطة الملك- فأكدت اقتناعه بأن الملكية المطلقة وحدها هي التي يمكن أن تحافظ على الاستقرار والأمن الداخلي. وفي ببطء شديد وصل هوبز إلى صياغة محددة واضحة لفلسفته. ويقول أوبري: "أنه سار طويلاً وأعمل الفكر وتأمل، وكان في رأس عصاه قلم ومحبرة، وكان يحمل في جيبه دائماً كراسة، حتى إذا عرضت له فكرة، فسرعان ما كان يدونها على الفور حتى لا تضيع(3)" وأصدر سلسلة من التأليف الأقل قيمة ، التي ليس لها الآن ذكر، ولكنه- في 1651 جمع كل أفكاره في كتاب يجمع بين طرافة الفكر والأسلوب وعدم المبالاة، هو "لوايثان" (التنين) أو "المادة والشكل"، و "سلطة الدولة دينية ومدنية" (التنين) أو "المادة في تاريخ الفلسفة، وجدير بنا أن نتوقف عنده في شيء من التروي.

ب - المنطق وعلم النفس

يكاد أسلوب هوبز يقارب أسلوب بيكون في الجودة، ولكنه ليس غنياً بالصور الوضاعة مثله، ولكنه قوي متميز فعال صريح مثله تماماً، مع شيء من التهكم اللاذع بين الحين والحين. وليس فيه زخرف ولا تظاهر بالبلاغة والفصاحة، فما هو إلا تعبير واضح عن فكر واضح، مع اقتصاد حكيم في الوسائل اللفظية. يقول هوبز "إن الكلمات بالنسبة للعقلاء ليست سوى أنضاد "فيشات" أي وسائط للعد

صفحة رقم : 11315

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

والحساب، ولكنها ثروة الأغبياء، التي تضيء قيمة وقدرأ، استناداً إلى أرسطو شيشرون أو توما الأكويني(4)". وبهذا السلاح الجديد- قضى هوبز على كثير من الكلام الطنان الرنان الأجوف الذي لا يحمل معنى. وعندما وقع بصره على تعريف توما الأكويني "للأبدية" بأنها "الحاضر الخالد" هم كتفيه استهجاناً لهذا التعريف على أنه "من البسيط جداً أن يقال، ولكن على الرغم من أنني قد أسر به، فأني لم أستطع أن أفهمه قط، وأولئك الذين يستطيعون فهمه أسعد مني حظاً". وعلى كذلك كان هوبز "اسمياً صريحاً" (مذهب الاسمين: مذهب فلسفي يقول بأن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقي، وأنها مجرد أسماء ليس غير): فالإنماء أو الأسماء المجردة مثل "الرجل، الفضيلة" هي مجرد أسماء لأفكار تعميمية، ولا تمثل شيئاً مدركاً بالحواس، فكل الأشياء لها وجود فردي- أعمال فاضلة فردية، ورجال فرديون....

إنه يحدد مصطلحاته وألفاظه تحديداً دقيقاً. وعلى الصفحة الأولى من كتابه يعرف "الوايثان" بأنه مصلحة مشتركة أو رابطة أو دولة. إنه وجد اللفظ في التوراة (سفر أيوب- الإصحاح 41) حيث استعملها الرب اسماً لحيوان بحري هائل غير ذي نوع محدد، رمزاً للقوة الإلهية، واقترح هوبز أن يجعل من الدولة نظاماً ضخماً عليه أن يستوعب كل النشاط الإنساني ويوجهه. ولكنه قبل أن يصل إلى قضيته الأساسية ألقى نظرة شاملة على المنطق وعلم النفس بيد لا ترحم. إن هوبز فهم الفلسفة على أنها ما نسميه الآن علماً: "معرفة الآثار والظواهر المكتسبة من معرفة الأسباب، أو بالعكس معرفة العلة أو الأسباب الممكنة كما تدلنا عليها معرفة آثارها المعروفة لدينا(5)". وتبع بكون في توقعه أن يجني من وراء هذه الدراسة أو هذا- المنهج فوائد عملية عظيمة للحياة الإنسانية. ولكنه تجاهل دعوة بكون إلى التعليل الاستقرائي، وأخذ "بالاستدلال المنطقي" أي الاستنتاج من التجربة. وفي إعجابه بالرياضيات أضاف "أن الاستدلال المنطقي هو بعينه من الجمع والطرح" أي الجمع بين الصور والأفكار، أو الفصل بينهما. وذهب إلى أننا لا نفكر إلى التجربة، ولكن الذي نفكر إليه هو التعليل الصحيح لها، أننا إذا استطعنا أن نقضي على خبث

صفحة رقم : 11316

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

الألفاظ الخالية من المعنى في الميتافيزيقا، وعلى التحيزات التي نقلناها بحكم العادة أو التعليم أو روح التشيع والتحزب، إننا إذا استطعنا هذا فأى عبء نطرحه على كواهلنا، والعقل على أية حال ليس معصوماً من الخطأ! ولا يمكن إلا في الرياضيات، أن يزودنا بالحقيقة اليقينية التي لا ريب فيها. "إن معرفة النتيجة، التي قلت من قبل أنها تسمى العلم، ليست مطلقة، بل هي مشروطة. ولا يستطيع أحد أن يعرف عن طريق التعليل أن هذا الشيء أو ذلك كان أو يكون أو سيكون، مما يعرف بشكل مطلق، بل يعرف أنه حين يكون هذا يكون ذلك، وإذا كان هذا كان ذلك، وحين سيكون هذا سيكون ذلك، أي أن هذا الشيء أو ذلك يعرف مشروطاً"(6). وكما سبقت هذه العبارة حجة هيوم في أننا نعرف النتائج فقط دون الأسباب، فإن هوبز كذلك سيق لوك في علم النفس الحسي. أن كل المعرفة تبدأ بالحس "ليس ثمة فكرة في عقل الإنسان إلا تولدت بادئ ذي بدء، تامة أو على دفعات، في أعضاء الحس(7)". وهذا علن نفس مادي صريح: لا يوجد شيء خارجنا أو داخلنا- إلا المادة والحركة، وكل الصفات المحسوسة "أو حسية (الضوء، اللون، الشكل، الصلابة، النعومة، الصوت، الرائحة، الطعم، الحرارة، البرودة، هي في الشيء الذي يسببها أو يحدثها ليست إلا عدة حركات كثيرة للمادة تؤثر بها على أعضائنا بأشكال مختلفة، كما أنها، فينا نحن الذين تأثرنا بها، ليست إلا حركات مختلفة، لأن الحركة لا تنتج إلا حركة(8)", فالحركة في شكل تغيير أمر ضروري للحس- إن إحساسك- بنفس الشيء دائماً يساوي أنك لا تحس بشيء مطلقاً(9). (وهكذا فإن الرجل الأبيض أو الرجل الملون لا يتنبه أي منهما إلى رائحته لأنها دائماً تحت أنفه).

ومن الحس يتابع هوبز سيره ليستخلص التصور والذاكرة عن طريق تطبيق فريد لما صار قانون الحركة الأول عند نيوتن:

أنه إذا بقي جسم ساكناً ما لم يحركه شيء آخر، فإنه يظل ساكناً إلى الأبد، فتلك حقيقة لا يشك فيها أحد. أما إذا كان الجسم متحركاً، فإنه يظل إلى الأبد إلا إذا أوقفه شيء آخر، فإنه على الرغم من أن

صفحة رقم : 11317

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

السبب واحد في الحاليين (وهو على التحديد أن أي شيء لا يمكنه التغيير بذاته) فهذا أمر لا يمكن التسليم به بسهولة.. إذا تحرك الجسم مرة، فإنه يظل يتحرك إلى الأبد (إلا إذا عاق حركته شيء آخر)، وهذا الذي يعطل حركته، أيًا كان، لا يستطيع أن يعطلها دفعة واحدة إنما يعطل حركته تماماً في الوقت المناسب وشيئاً فشيئاً. وكما نرى في الماء، فقد تسكن الرياح ولكن الأمواج لا تهدأ إلا بعد فترة طويلة من سكون الريح. وهذا ما يحدث للحركة التي تتم داخل الأجزاء الداخلية في الإنسان، ثم حين يرى أو يحلم.... الخ، حيث أنه عندما يزول ويختفي الشيء أو تغلق العين، فإننا نظل نستبقي صورة الأشياء التي رأيت، ولو أنها تكون أكثر غموضاً منها حين كنا نراها. وهذا ما يسميه اللاتينيون "خيالاً".... وهو على هذا الأساس ليس إلا "حساً يضعف"، فإذا عبرنا عن هذا الضعف، فما يدل على أن الحس يتضاءل وأنه قديم، وأنه غابر، فإن هذا يسمى "الذاكرة"..... والذاكرة العامرة، أو تذكر أشياء كثيرة يسمى "الخبرة أو التجربة"(10).

والأفكار عبارة عن تصورات ينتجها الحس أو الذاكرة. والفكر هو نتيجة لمثل هذه التصورات. ولا تتحكم الإرادة الحرة في هذه النتيجة، بل إنها تخضع لقوانين ميكانيكية تحكم توارد الخواطر. إن الأفكار أو الخواطر لا يعقب الواحد منها الآخر اعتباراً، ولكن يحدث إننا لا يكون لدينا تصور لما لن نكن قد أحسنا به جملة أو تفصيلاً من قبل، فإننا كذلك لن ننقل من تصور إلى تصور ليس لدينا عهد به في حواسنا من قبل. وهذا هو السبب: إن كل التصورات (الأخيلة والأفكار) إنما هي حركات في داخلنا، وهي بقايا ما تم في حواسنا. وهذه الحركات التي تعاقبت الواحدة منها بعد الأخرى في الحس تستمر أيضاً مجتمعة بعد الحس.... ولكن بما أنه في الحس بالنسبة لشيء واحد بعينه يدرك، قد يأتي أحياناً شيء. وأحياناً يأتي شيء آخر، فقد يحدث عاجلاً أو آجلاً، في تصور شيء ما، ألا نكون على يقين من أننا سنتصور شيئاً بعده. وهذا مؤكداً فقط إذا كان ثمة شيء قد أعقب مثيلاً له من قبل في وقت من الأوقات(11). وقد تكون هذه السلسلة من الأفكار مشوشة أو غير موجهة، كما

صفحة رقم : 11318

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

هو الحال في الأحلام، وقد تكون "مضبوطة أو محددة طبقاً لرغبة أو هدف أو خطة ما". وفي حالة الأحلام نجد أن الصور الساكنة الهاجعة في المخ "توقظها أو تهيجها أية إثارة في الأجزاء الداخلية في جسم الإنسان". لأن كل أجزاء الجسم مترابطة، بطريقة ما، بأجزاء معينة في المخ. "أعتقد أن هناك تبادلاً في الحركة من المخ إلى الأجزاء الحيوية، ومنها ثمانية إلى المخ، بهذا لا يولد التصور حركة في تلك الأجزاء فحسب، بل أن الحركة في تلك الأجزاء كذلك تولد تصوراً شبيهاً بهذا الذي أنتجها(12)". وأحلامنا هي شكل معكوس لتصوراتنا في اليقظة: الحركة ونحن متيقظون بادئة بطرف، وبادئة بالطرف الآخر حين نحلم(13)" والتسلسل المنطقي للصور في الأحلام يرجع إلى عدم وجود أي إحساس خارجي يضبطها أو أي غرض يوجهها.

وليس للإرادة الحرة أي مكان في علم النفس عند هوبز. والإرادة نفسها ليست موهبة أو وجوداً مستقلاً، بل هي مجرد الرغبة الأخيرة أو النفور الأخير في عملية التدبر (حركتان جسميتان أساسيتان هما الإشتهاء أو الحركة نحو الأشياء

والنفور أو الحركة بعيداً عن الأشياء)، والتدبير تتأوب بين حالات الرغبة أو النفور، وهو ينتهي عندما يمكث أحد الدوافع وقتاً كافياً ليتحول إلى عمل أو تصرف ما. "في التدبير نجد أن الأشياء أو النفور الخبير الذي يقترن في الحال بالعمل أو بالإغفال الناتج عنه (عن الاشتهااء أو النفور) هو ما نسميه الإرادة(14)" "إن الشهوة والخوف والأمل وغيرهما من الانفعالات لا تسمى اختيارية، لأنها لا تتبع من الإرادة، بل هي الإرادة نفسها، والإرادة ليست اختيارية(15)" "لأن كل فعل من أفعال إرادة الإنسان وكل رغبة وكل ميل، إنما ينتج عن سبب ما، وهذا السبب ينتج عن سبب آخر، وهكذا في سلسلة متصلة (حلقتها الأولى في يد الله أول كل الأسباب) وكلها تتبع من الضرورة. وعلى هذا فإن الذي يستطيع أن يدرك الصلة بين تلك الأسباب، قد تبدو له واضحة جلية "ضرورة" إلى كل أفعال الإنسان الاختيارية(16)". وهناك في الكون بأسره سلسلة متصلة الحلقات من الأسباب والنتائج أو الآثار. وليس هناك شيء طارئ غير متوقع، أو خارق معجز، أو من قبيل الصدفة.

صفحة رقم : 11319

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

والعالم كله آلة من المادة، متحركة طبقاً لقانون، والإنسان نفسه آلة شبيهة بهذه. والأحاسيس تدخل إليه كأنها حركات، وتولد صوراً وأفكاراً وكل فكرة هي بداية حركة، وتصبح فعلاً إذا لم تعقها فكرة أخرى(17). وكل فكرة، مهما تكن مجردة، تحرك الجسم بدرجة ما، مهما تكن غير منظورة. والجهاز العصبي عبارة عن تركيب آلي لتحويل الحركات الحسية إلى حركة عضلية. والأرواح موجودة ولكنها مجرد أشكال دقيقة للمادة(18). والنفس والعقل ليسا غير ماديين، ولكنهما اسمان للعمليات الحيوية للجسم ولأعمال المخ. ولا يحاول هوبز أن يفسر السبب في أن الوعي ينمو بمثل هذه العملية الميكانيكية من الحس إلى الفكرة إلى الاستجابة. إنه باخترال كل الصفات المدركة للأشياء إلى صور في "الذهن"، يقترن كثيراً من الموقف الذي اتخذته باركلي فيما بعد في دحض المادية. إن كل الحقيقة المعروفة لنا إدراك حسي، وذهنى.

ج - الأخلاق والسياسة

إن هوبز مثل ديكرارت قبله، وسبينوزا بعده، تولى تحليل الانفعالات، لأنه يرى فيها مصدر كل أفعال الإنسان، ويستخدم الفلاسفة الثلاثة جميعهم لفظة "الانفعال" على نطاق واسع لتشمل أية غريزة أو وجدان أو عاطفة- وبصفة أساسية، الاشتهااء (الرغبة) والنفور، الحب والكراهية، الفزع والخوف، ووراء هذه كلها اللذة والألم- العمليات النفسية التي ترفع أو تخفض من حيوية الكائن الحي. والاشتهااء بداية حركة نحو شيء يبشر باللذة. والحب ضرب من الاشتهااء، موجه نحو شخص. وكل الإندفاعات (كما كان يقول لاروشفوكولد بعد ذلك بأربعة عشر عاماً) هي أشكال من حب الذات، وكلها تتبع من غريزة المحافظة على الذات. فالإشفاق هو تصور المصائب تنزل بنا في المستقبل، يثيره علمنا بمصائب الغير، والصدقة إرضاء للشعور بالقوة في مساعدتنا للآخرين. والاعتراف بالفضل ينطوي أحياناً على شيء من العداة "أن حصولنا ممن نرى أنه مساو لنا على فوائد أو منفعة أعظم مما كنا نأمل منه، ينزع بنا إلى التظاهر بالحب، والحق أنه بغض خفي، وهو يضع المرء في موقف المدين اليائس، حتى

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

أنه في حالة تصنعه عن رؤية دائنه، إنما يرغب ضمناً في أن يذهب هذا الدائن إلى حيث لا يراه المدين أبداً . لأن المنفعة التي حصل عليها منه طوق بها عنقه، وفي هذه المنة أو الفضل عبودية(19)". والنفور الأساسي هو الخوف. والاشتياؤ الأساسي هو اشتهاؤ السلطة. "إنني أرى في البشر جميعاً نزعة عامة. هي الرغبة الدائمة التي لا تهدأ في السلطة فوق السلطة، وتلك الرغبة لا يخمد أو أراها إلا عند الموت(20)". إننا نرغب في الثراء والمعرفة بوصفها وسائل للسلطة. وفي الأوسمة ومظاهر الحفاوة والتكريم، لأنها دليل على السلطة، ونحن نريد السلطة لأننا نخشى التعرض للخطر. والضحك تعبير على التفوق والسمو والسلطة.

إن الانفعال بالضحك ليس إلا تألقاً أو اعتزازاً مفاجئاً (رضي ذاتياً) ينشأ عن إدراك مفاجئ لبعض السمو والرفعة فينا، بالمقارنة بوهن الآخرين وعجزهم، أو بوهننا وعجزنا فيما مضى، لأن الناس يضحكون من حماقاتهم السابقة عندما تخطر ببالهم فجأة، إلا إذا استحضروا معها شيئاً من مواطن الخزي والعار في حاضرهم.... ويكون الضحك أكثر ما يكون عارضاً لأولئك الذين يكونون على وعي تام بقدراتهم البالغة الضالة، الذين يضطرون إلى التماس شيء من الراحة في ملاحظة نقائص الآخرين. ومن ثم فإن كثرة الضحك من عيوب الناس دليل على ضعة النفس. فإن من أروع الأعمال التي ينهض بها ذوو العقول الكبيرة أن يساعدوا الآخرين ويحرروهم من الذل والازدراء، وألا يقارنوا أنفسهم إلا بأقدر الناس(21).

والخير والشر مصطلحان ذاتيان يختلفان في المضمون، لا من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان فحسب، بل من شخص إلى شخص أيضاً. "إن الإنسان يسمى موضوع شهوته أو رغبته خيراً، وموضوع كراهيته أو نفوره شراً، لأن هاتين الكلمتين تستعملان دائماً في ما يتعلق بالشخص الذي يستخدمهما، لأنه ليس ثمة خير أو شر بسيط أو مطلق، وليس هناك قاعدة عامة للخير أو الشر يمكن استنباطها من طبيعة الأشياء ذاتها(22)". وقد تكون الانفعالات خيراً، وقد تؤدي إلى العظمة. "وهذا الذي ليس لديه رغبة قوية.... وفي السيطرة أو

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

الثروة أو المعرفة أو الشرف والمهابة. لا يمكن أن يكون لديه خيال واسع أو عقل راجع". إن ضعف الانفعال غباء، وقوته بشكل غير طبيعي جنون وانعدام الرغبات موت(23).

إن بهجة هذه الحياة لا تكمن في هجوع الذهن في حالة من الرضي والاكتفاء. لأنه ليس هناك ما يسمونه "الغرض الأسمى" و "الخير الأسمى" كما تحدثت عنهما كتب الفلاسفة الأخلاقيين القدامى.... فالبهجة هي تقدم الرغبة المستمر من هدف إلى هدف، وتحقيق الهدف السابق يظل طريقاً لتحقيق ما بعده(24).

إن حكم رجال هكذا تكوينهم وميلهم إلى الكسب، والمنافسة وحدة الأهواء والانفعالات فيهم، ونزعتهم إلى النضال والكفاح، نقول أن مثل هذا الحكم هو أشد مهام البشر تعقيداً ومشقة، ويجدر بنا أن نهيب لمن يتولونه كل عون أو سلاح

من علم النفس ومن القوة والسلطان. وعلى الرغم من أن إرادة الإنسان غير حرة فإن للمجتمع ما يبرر تشجيعه لبعض الأعمال ويطلق عليها "أعمالاً فاضلة" ويثيب عليها، على حين يندد بأعمال أخرى، ويقول بأنها "أعمال مردولة" ويعاقب عليها. وليس ثمة تناقض هنا مع "الحتمية"، فإن هذه الاستحسانات والتنديبات الاجتماعية تضاف، من أجل خير الجماعة ومصالحها، إلى الدوافع التي تؤثر في السلوك. "إن العالم يحكمه الرأي(25)"، فالحكومة والدين والقانون الأخلاقي، هي إلى حد كبير تلاعب بالرأي، للتخفيف من الضرورة ونطاق القوة. إن الحكومة ضرورية، لا لأن الإنسان شر بالطبيعة- لأن "الرغبات وسائر الانفعالات ليست آتمة في حد ذاتها(26)"- بل لأن الإنسان بطبيعته أكثر نزوعاً إلى الفردية منه إلى الروح الاجتماعية، إن هوبز هنا لم يتفق مع أرسطو في أن الإنسان "حيوان سياسي"، أي مخلوق مهياً بالطبيعة للاجتماع. إنه على النقيض من ذلك أدرك "حالة طبيعية" أصلية (وهي على ذلك الطبيعة الأصلية للإنسان)، على أنها حالة تنافس وعدوان متبادلين لا يوقفهما إلا الخوف، لا القانون. ويمكننا (كما يقول هوبز) أن نتصور هذه الحالة الافتراضية إذا لاحظنا العلاقات الدولية في زمننا هذا، فإن الأمم

صفحة رقم : 11322

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

لا تزال إلى حد كبير في "حالة من الطبيعة"، ولم تخضع بعد لقانون أو سلطة مفروضة عليها. إن الملوك وأصحاب السلطان في كل الأزمان، بسبب استقلالهم، يعيشون وسط الأحقاد والحذر، يقفون وقفة المصارعين والمجادلين دائماً، أسلحتهم مشروعة، وعيونهم مثبته كل منهم على الآخر- أي قلاعهم وحامياتهم ومدافعهم على حدود ممالكهم- يبنون العيون والأرصاء على جيرانهم، وتلك هي وقفة الحرب، لا توجد سلطة عامة، لا يوجد قانون ولا يوجد ظلم ولا جور. والقوة والخداع هما في الحرب فضيلتان أساسيتان(27). وهكذا أعتقد هوبز أن الأفراد والأسرات كانت قبل ظهور التنظيم الاجتماعي، تعيش في حالة حرب دائمة، فعلية أو محتملة، "كل إنسان ضد الآخر(28)". ولا تقتصر الحرب على الالتحام في المعركة فقط، بل قد يأتي وقت يبدو فيه بشكل واضح، عزم الإنسان على الاستيلاء في معركة(29). ونبذ نظرية فقهاء الرومان وفلاسفة المسيحية في أن هناك، أو كان هناك إطلاقاً، "قانون طبيعي" بمعنى قوانين الصواب والخطأ، مؤسسة على طبيعة الإنسان بوصفه "حيواناً عاقلاً". وسلم بأن الإنسان كان عقلياً في بعض الأحيان، ولكنه أدرك أنه "مخلوق ذو انفعالات وأهواء- ورغبة السلطان والقوة فوق كل شيء- يستخدم العقل أداة للرغبة أو الاشتها، ولا يحكمه إلا الخوف من القوة. والحياة البدائية- أي الحياة قبل التنظيم الاجتماعي- كانت بلا قانون، عنيفة مخيفة، "قذرة كريهة وحشية فقيرة(30)". وفي تصور هوبز أنه من "حالة طبيعية" المفترضة هذه، خرج الناس باتفاق ضمنى بين بعضهم بعضاً، على أن يخضعوا جميعاً لسلطة عامة. وتلك هي نظرية "العقد الاجتماعي التي أصبحت مألوفة شائعة بفضل رسالة روسو التي تحمل هذا الاسم (1762). ولكنها كانت بالفعل قديمة مطروقة في أيام هوبز. فإن ملتون في رسالته "ولاية الملك والحكام" (1649) كان قد فسر العقد بأنه اتفاق بين ملك ورعاياه- على أنهم يطيعونه، وعلى أنه سيقوم بمهام منصبه

صفحة رقم : 11323

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

على خير وجه، فإذا أخفق هذا، كما قال ملتون (مثل ما قال بوكاتان وماريانا وكثيرون غيرهما)، كان للشعب الحق في خلعه. واعترض هوبز على النظرية بهذه الصيغة، على أساس أنها لم تؤسس سلطة مخولة أن تنفذ العقد، أو تحدد كيف ومتى نقض. وأثر القول بأن هذا الاتفاق ميرم، لا بين الحاكم والمحكومين، بل بين المحكومين الذين اتفقوا فيما بينهم:

إنهم منحوا كل سلطانهم وقوتهم (أي حقهم في استخدام القوة بعضهم ضد بعض) لرجل واحد أو لجماعة من الرجال.... فإذا تم هذا، أتحد الجميع في رجل واحد يسمى الدولة. وهذا هو منشأ اللواياتان الكبير.... بل على الأرجح منشأ "الرب الفاني" الذي ندين له، في ظل "الإله الحي الباقي" بسلامنا والدفاع عنا لأنه بمقتضى هذه السلطة التي خولها إياه كل فرد في الدولة، له الحق في أن يستخدم كثيراً من السلطات والقوة اللتين منحتا له، ومن ثم فإنه بالإرهاب يكون قادراً على تشكيل إرادة الناس جميعاً.... غايته من ذلك أن يستخدم كل قوتهم وكل ما يملكون من وسائل. كلما وجد الضرورة تدعو إلى ذلك، من أجل سلامهم والدفاع المشترك عنهم. وهذا الذي يمثل هذا "الشخص" ويحمل هذا العبء يسمى ملكاً، ويقال أن له سلطة ملكية، وكل من عداه من رعاياه(31).

وفي شيء من الطيش افترضت النظرية ف هؤلاء الهمج "القذرين المتوحشين" الذين سبق ذكرهم، درجة من النظام والعقلانية والاتضاع، وهي درجة تسمح بتنازلهم عن سلطاتهم. وأجاز هوبز في شيء من الحكمة، أن تنشأ الدولة على أصول بديلة:-

ويكمن الوصول إلى هذه السلطة الملكية الحاكمة عن طريقين، أولهما القوة الطبيعية، كما هو الحال حين يعتمد رجل ما على إخضاع بنيه وذرياتهم لحكومته، لأنه قادر على تدميرهم والقضاء عليهم إذا أبو عليه ذلك، أو يخضع أعداءه لإرادته عن طريق الحرب. أما ثانيهما فهو حين يتفق الناس فيما بينهم على الخضوع طواعية واختياراً لرجل أو جماعة من الرجال، ثقة من الناس بأن هذا الرجل أو جماعة الرجال سيتولون حمايتهم ضد الآخرين. ويمكن أن يطلق على هذا "رابطة سياسية"(32) (الدولة).

صفحة رقم : 11324

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

ومهما كان الأساس الذي قام عليه الحاكم، فإنه لكي يكون حاكماً وملكاً حقاً، لا بد أن يكون ذا سلطة مطلقة، فإنه بدونها لا يستطيع أن يحقق أمن الفرد أو سلام الجماعة. ومقاومته إنما تعني نقض العقد الاجتماعي الذي أقره ضمناً كل فرد في الجماعة بقبوله حماية رأس الدولة له. وقد تسلم هذه "الاستبدادية المطلقة" النظرية ببعض قيود وحدود عملية.

فيمكن مثلاً الوقوف في وجه الملك إذا أمر إنساناً بأن يقتل نفسه أو يبتز عضواً من جسمه ليعطله أو يشوهه، أو يعترف بجريمة لم يرتكبها، أو إذا لم يعد الحاكم قادراً على حماية رعاياه. "المفهوم إن التزام الرعايا نحو الملك يبقى ما بقيت سلطته التي يستطيع بها حمايتهم، ولا بقاء لهذا الالتزام إذا فقد السلطان(33)". والثورة دائماً جريمة إلا إذا حققت نجاحاً. إنها دائماً غير مشروعة وغير عادلة، لأن القانون والعدالة كلتيهما يحددهما ويحكمهما الملك، ولكن إذا أقامت الثورة حكومة مستقرة فعالة، فإن على المواطن أن يلتزم بطاعة السلطة الجديدة.

ولا يحكم هذا الملك بمقتضى الحق الإلهي، حيث أنه يستمد سلطته من الشعب، ولكن يجب أن تقيد سلطته جمعياً شعبية أو قانون الكنيسة. ويجدر أن تمتد هذه السلطة إلى الملكية، فيجب على الملك أن يحدد حقوق الملكية (التملك)، وعليه أن يعيد توزيع الممتلكات الخاصة، حيثما يقدر أن هذا يحقق المصلحة العامة(34). "والحكم المطلق"

ضروري، لأنه إذا كانت السلطة شركة، بين الملك والبرلمان مثلاً، فسرعان ما ينشب النزاع، ثم الحرب الإلهية، فتعم الفوضى وتتعرض الحياة والممتلكات للخطر. وحيث أن الأمن والسلام هما الضرورتان الأساسيتان للمجتمع، فإنه لا ينبغي أن يكون هناك فصل، بل وحدة كاملة وتركيز تام في السلطات الحكومية. وحيثما توزعت السلطات لا يكون هناك ملك، وحيثما لا يكون ملك، لا تكون هناك دولة(35).
وبناء على هذا يكون الشكل المنطقي للحكومة هو الملكية. ولا بد أن تكون وراثية، لأن حق اختيار الخلف جزء من سيادة الملك، ونكرر القول بأن البديل لهذا هو الفوضى(36). وقد تصلح الحكومة عن طريق الجمعية ولكن شريطة أن تكون سلطتها مطلقة، غير

صفحة رقم : 11325

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

خاضعة لرغبات متقلبة لدى شعب غير متعلم. "إن الديموقراطية لا تعدو أن تكون أرسقراطية خطباء(37)" فما أسهل أن يهيج زعماء الدهماء مشاعر الشعب، ومن ثم كان لزاماً أن تمارس الحكومة الرقابة على الخطابة والصحافة، وينبغي أن تكون هناك رقابة صادقة على المطبوعات والواردات وقراءة الكتب(38). ولا يجوز أن يكون هناك جدل عقيم حول الحرية الفردية والآراء الخاصة والضمير. وينبغي أن يقتلع من الجذور كل ما يهدد سيادة الملك، ومن ثم السلام العام(39). فكيف يتسنى حكم دولة أو حماية علاقاتها الخارجية إذا بقى كل فرد حراً في طاعة القانون أو مخالفته وفقاً لرأيه الخاص؟

د - الدين والدولة

وكذلك يجب على الملك أن يحكم دين شعبه، لأن الدين يمكن أن يكون قوة مدمرة متفجرة إذا تشدد فيه الناس. ويقدم هوبز تعريفاً موجزاً: "إن الخوف من القوة الخفية التي يلفقها العقل أو تصورها الأفاصيص، إذا سمح بانتشاره فهو "الدين".
وإذا لم يسمح فهو "الخرافة"(40). وهذا يهبط بالدين إلى مجرد الخوف والخيال والادعاء، ولكن في مواضع أخرى نرى هوبز يعزوه إلى التسائل الملهوف عن علل الأشياء والحوادث وبداياتها(41). وتقود ملاحقة الأسباب هذه في النهاية إلى الاعتقاد (كما أعترف الفلاسفة الوثنيون) "بأنه لا بد أن يكون هناك "محرك" واحد، أي سبب واحد لكل الأشياء، وهو ما يعنيه الناس بقولهم الله(42)" وذهب الناس بشكل طبيعي إلى أن هذا "السبب الأول" كان مثلهم: شخصاً ونفساً وإرادة، ولكنه فقط أقوى منهم بكثير. ونسبوا إلى هذا "السبب" كل الأحداث التي لم يستطيعوا تبين محدداتها الطبيعية بعد، ورأوا في الأحداث العجيبة معجزات ونبوءات للإرادة الإلهية.
في هذه الأشياء الأربعة: فكرة الأرواح، والجهل بالأسباب الثانوية، والتفاني فيما يخشاه الناس، وأخذ الأشياء الطارئة على أنها نذر أو بشائر، تنطوي البذور الطبيعية للدين، التي نمت بسبب

صفحة رقم : 11326

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

مختلف أو هام الكثير من الناس وأحكامهم وأهوائهم، نقول نمت حتى أصبحت طقوساً متباينة إلى حد أن ما يقوم به فرد، يعتبر في معظم الأحوال سخيلاً مردولاً عند الآخر (43).
كان هوبز "ربوبياً" لا ملحداً. فأعترف "بكاين أسمي (44)" نكي، ولكنه أضاف "قد يعرف الناس... بالطبيعة أن الله موجود، ولو أنهم لا يدركون ما هو (45)". ويجب ألا ندرك أن الله شكلاً، لأن كل شكل محدود، أوله أجزاء، أو له مكان ما هنا أو هناك، "لأن أي شيء له مكان، لا بد أن يكون مقيداً محدوداً"، أو أنه يتحرك أو يظل في مكانه، لأن هذا مكانه، لأن هذا ينسب له مكان، كما يجب ألا نقول إلا عن طريق المجاز بأنه يمارس الحزن والندم والغضب والرحمة والحاجة والشهوة والأمل أو أية رغبة أخرى (46). وخلص هوبز إلى أن "طبيعة الله خافية لا يمكن فهمها (47)" وقد لا يصفه هوبز بأنه روعي غير مادي، لأننا لا نستطيع أن ندرك شيئاً بلا جسم، ويحتمل أن كل "روح" جسدية ولكن بشكل دقيق (48).
وبعد أن حدد هوبز لكل من الدين والرب مكانه، عرض أن يستخدمها أداتين للحكومة ليكونا في خدمتها، ومن أجل هذا أورد سوابق ذوات شأن خطير.
إن المؤسسين والمشرعين الأولين للدول بين "الأمميين (غير اليهود) الذين كانت غاياتهم الإبقاء على طاعة الناس وعلى السلام، عنوا في كل مكان:
أولاً: بأن يطبعوا في أذهان الناس أن تلك التعاليم التي جاؤوا بها فيما يتعلق بالدين، لا يجوز الظن بأنها جاءت من عندياتهم، بل أنها جاءت بأمر من بعض الآلهة أو الأرواح، وإلا كانوا (المؤسسون والمشرعون من الطبيعة أسمى وأرقى من مجرد بشر معرضين للفناء، حتى يمكن تقبل قوانينهم في كثير من اليسر. وهكذا زعم "توما بومبليوس" (ثاني كلوك روما) أنه تلقى الطقوس التي أقامها بين الرومان من الحورية اجريا، كما زعم مؤسس بيرو وأول ملوكها أنه وزوجته من أبناء الشمس.

صفحة رقم : 11327

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

ثانياً: أن يشيعوا الاعتقاد بأن الأشياء التي تغضب الآلهة هي نفسها الأشياء التي حرّمها القانون (49).
ولكيلا يستنتج أحد أن موسى أستخدم وسائل شبيهة بهذه في نسبة شرائعه لله، يضيف هوبز، في نفور خاص من النار، أن "الرب بنفسه، بوحى خارق، أقام الدين" بين اليهود.
ولكنه يشعر بأنه على حق، بالأمثلة التاريخية، في أن يوصي بأن يصبح الدين أداة للحكومة، وبناء على هذا الغرض يفرض الملك مبادئ الدين وتعاليمه. وإذا كانت الكنيسة مستقلة فإنه يكون هناك ملكان، ومن ثم لا يكون ملك أبداً، وتكون الرعية موزعة بين السيدين.
إذا انتحلت السلطة الروحية حق الحكم بأن هذا أو تلك أثم، فإنها تنتحل، نتيجة لذلك، حق الحكم بأن هذا هو القانون (لأن الإثم ليس إلا مخالفة القانون).... وإذا كانت هاتان السلطتان (الكنيسة والدولة) تناوئ الواحدة منهما الأخرى فإن الدولة تتعرض لخطر كبير هو خطر الحرب الأهلية والتمزق (50).

وفي مثل هذا الصراع يكون للكنيسة اليد العليا "لأن أي إنسان وهو في كامل وعيه ورشده لا بد أن يدين في كل الأمور. بالطاعة المطلقة، للرجل الذي يعتقد أن حكمه عليه سينجي أو يقضي عليه". وحين تنشر السلطة الروحية نفوس الرعايا "بالخوف من العقاب أو الأمل في الثواب" من هذا النوع الخارق للطبيعة"، وتخفق تفكيرهم وتعطل عقولهم بالكلمات الغريبة القاسية، فلا بد أنها بذلك توقع الشعب في حيرة، وأما أن ترهق البلاد بالظلم والجور، وأما أن تلقي بها في أتون حرب أهلية(51). ويرى هوبز أن المخرج الوحيد من مثل هذا المأزق الحرج أن تكون الكنيسة خاضعة للدولة. ولما كانت الكنيسة الكاثوليكية ترى في هذا رأياً آخر، فإن هوبز، في الجزء الرابع من "الواياتان" يهاجمها على أنها ألد وأقوى عدو لفلسفته. ثم يورد هوبز "نقداً أشد" للكتاب المقدس- يرتاب في تأليف موسى للأسفار الخمسة الأولى من التوراة، ويؤرخ "الأسفار"

صفحة رقم : 11328

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

التاريخية" في زمان متأخر عما هو وارد في النواميس التقليدية. ويرى ألا تتطلب المسيحية من معتنقيها إلا الإيمان "بيسوع المسيح" أما بالنسبة لبقية أركان العقيدة، فيجدر بها أن تجيز اختلاف الرأي بين الناي في نطاق الحدود الآمنة للنظام العام. ولمثل هذه العقيدة البسيطة المطهرة لا يوفر هوبز مجرد تأييد الحكومة فحسب. بل كل قوة الدولة لنشرها ما وسعها الجهد. ويتفق مع البابا في أن يكون للدولة دين واحد(52). ويشير على المواطنين بأن يتقبلوا لاهوت مليكهم دون تردد محرر، لأن هذا واجب أخلاقي، كما هو واجب الدولة. "لأن الحال بالنسبة لأسرار ديانتنا هي الحال بالنسبة للأقراص الصحية هند المرضى، إذا بلغت دفعة واحدة كان لها فضل الشفاء، أما إذا مضغت، فإنها في معظم الأحوال تلفظ ثانية ولا يكون لها أي تأثير(53)". وانتهى أشد هجوم شنه إنجليزي على المسيحية، بمسيحية قامت وكأنها قانون لا مفر منه لدولة استبدادية مطلقة.

هـ - اصطلياد الدب

جاء في الفقرة الأخيرة من "الواياتان": "وهكذا أختم دون تحيز، حديثي عن الحكومة المدنية والدينية التي تضطرب بفوضى العصر الحاضر... وليس لي من هدف إلا أن أضع تحت أنظار الناس العلاقة المتبادلة بين الحماية والطاعة". ولم يتحقق الناس من عدم التحيز على نطاق واسع. فإن المهاجرين الذين تجمعوا حول شارل الثاني في فرنسا رحبوا بدفاع هوبز من النظام الملكي، ولكنهم استنكروا ماديته على أنها حمق وطيش إن لم تكن تجديفاً، وعراهم الأسي والأسف لما استنفذ فيلسوفهم العنيد من صفحات في مهاجمة الكنيسة الكاثوليكية، على حين كانوا لقورهم يلتمسون العون من ملك كاثوليكي. أما رجال الدين الأنجليكانيون الذين كانوا بين اللاجئيين إلى فرنسا من وجه البيوريتانيين المنتصرين، فقد تعالت صيحاتهم ضد الكتاب إلى حد أن هوبز "أمر ألا يعود إلى بلاط شارل الثاني(54)". ولما ألقى هوبز أنه بات بلا صديق ولا صاحب، وبلا حماية في فرنسا، قرر أن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

يتصلح مع كرومول ويعود إلى إنجلترا. وطبقاً لما رواه الأسقف بيرنت، أدخل هوبز بعض تعديلات على نصوص اللواياتان "إرضاء للجمهوريين(55)" وليس هذا مؤكداً، ولكن المؤكد، على أية حال، أن نظرية الثورة غير ذات الأصل الشرعي، والتي بررها نجاحها، التأمت بشكل مبتور وكأنها ترفيع، مع نظرية الطاعة المطلقة لحاكم مطلق. إن كتاب "العرض والنتيجة" النهائيتان الذي يبدو وكأنه تفسير متأخر جاء بعد أوامره، شرح الظروف التي يمكن فيها لمواطن كان يدين بالولاء لملك من قبل، أن يخضع في الوقت المناسب، وفي لباقة، للنظام الجديد الذي كان قد أطاح بالملك. ونشر الكتاب في لندن في 1651 بينما كان هوبز في باريس. وفي آخر هذا العام، وسط شتاء قاس، عبر البحر إلى إنجلترا، حيث أوى إلى ملاذ طيب عند أرل ديفونشير الذي كان قد استسلم منذ أمد طويل لبرلمان الثورة. وأعلن هوبز ولاءه وخضوعه للحكم القائم، فلقى قبولاً، ومن ثم أنتقل الفيلسوف إلى دار في لندن، مستعيناً بمعاش ضئيل أجراه عليه أرل ديفونشير، "لأن الافتقار إلى حديث العلم والعلماء كان أشد ما يضايق الفيلسوف في الريف(56)". وكان آنذاك في الثالثة والستين من العمر.

وشياً فشيئاً، كلما وجد الكتاب قراء، تكاثر النقاد على المؤلف أسراباً. فإبيرى رجال الدين الواحد تلو الآخر للدفاع عن المسيحية، وتساءلوا: من هو "وحش مامزبري" الذي قام يتحدى أرسطو وأكسفورد والبرلمان والله؟ وكان هوبز جباناً ولكنه مقاتل، وفي 1655 أثبت من جديد في "أصول الفلسفة" آراءه في المادية والحتمية. وفي كتاب "اصطياد اللواياتان (1658) نصب جون برامهول، أسقف دري العلامة، شراكة لهوبز وسدد الضربات إليه جديداً، وقال أسقف آخر "أن هوبز لا يزال في الشرك(57)". واستمرت الهجمات في كل عام تقريباً حتى قضى الفيلسوف نحبه. ولما اعتزل أرل كلارندون منصبه (وكان قاضي القضاة) تسلي في منفاه بنشر "رأى و عرض موجزان للأخطاء الخطيرة المؤذية في الكنيسة والدولة في كتاب مستر هوبز- لواياتان" (1676). وفي 322 صحيفة تابع تقنين المجلدات بشكل منظم، وهو يقرع الحجة بالحجة في نثر مشرق رفيع. وتحدث

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

كلاوندون بوصفه رجلاً ذا خبرة طويلة في المناصب السياسية، وسخر من فلسفة هوبز على أنه رجل لم يسبق له أن تقلد مناصب ذات مسئولية، حتى يلطف من نظرياته عن طريق الممارسة والتجربة، وتمنى لو أن "مستر هوبز أتيج له أن يتبوأ مقعداً في البرلمان أو في المجلس، أو في دور القضاء أو أية وحكمة أخرى، حيث كان يحتمل أن يتبين أن تأملاته في عزلته، مهما تكن عميقة، واطرانه المتعجرف الزائد عن الحد ببعض أفكار فلسفية، بل حتى ببعض قواعد الهندسة، نقول يتبين أن هذا كله قد ضلله وحاد به عن جادة الصواب في بحثه في السياسة(58).

ولم تكن كل الحملات على هذا النسق من الهدوء والاعتدال. وفي 1666 أمر مجلس العموم إحدى لجانته "بكتابة تقارير عن الكتب التي تنزع إلى الإلحاد والتجديف وانتهاك حرمة المقدسات أو تتناول بالتعريض لسمة الله وصفاته. وبخاصة الكتاب الذي نشر باسم "هوايت" (قسيس كاثوليكي سابق إرتاب في خلود النفس)، وكتاب هوبز،

"الواياتان(59)". يقول أوبري "كان هناك تقريراً (صحيح يقيناً) بأن بعض الأساقفة في البرلمان قدموا اقتراحاً بإحراق الرجل الطيب العجوز بجريمة الهرطقة(60)". وأعدم هوبز كل ما كان يمكن أن يورطه أو يدينه بعد ذلك من أبحاثه التي لم تنشر، ثم كتب ثلاث محاورات حاول فيها أن يبرهن بأسلوب العالم المتفقه على أن أية محكمة في إنجلترا لا تستطيع أن تحاكمه بتهمة الهرطقة.

وهك الملك الذي أستعاد عرشه لإنقاذ الفيلسوف. ذلك أن شارل الثاني بعد وصوله إلى لندن بزمن قصير، رأى هوبز في الشارع، وعرف فيه معلمه السابق، ورحب به في البلاط. وكان بلاط عودة الملكية ينزع بالفعل إلى شيء من التشكك الديني ويدافع عن الملكية المطلقة، ومن ثم وجد في فلسفة هوبز بعض العناصر التي تتماشى مع الأفكار السائدة في هذا البلاط. ولكن رأسه الأصلع وشعره الأشيب وزيه الشبيه بزي الليبوريتانيين، كل أولئك مدعاة للسخرية وأطلق عليه الملك شارل نفسه أسم الدب، وكلما اقترب منه قال: "ها قد جاء الدب لنقدم له الطعام ونغويه(61)". ومع ذلك استساغ الملك إجاباته البارعة وسرعة بديهيته، وأمر برسم صورة للفيلسوف العجوز، وتعليقها في حجراته الخاصة، وخصص له معاشاً

صفحة رقم : 11331

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

سنوياً قدره مائة جنيه، ولم يكن الراتب يدفع بانتظام، ولكنه مع ذلك، بالإضافة إلى خمسين جنيهاً أخرى في السنة من أسرى كافندش، كان كافياً لسد حاجيات الفيلسوف البسيطة. وبصفة أوبري بأنه كان عليلاً في شبابه، موفور الصحة نشيطاً في شيخوخته، ومارس لعب التنس حتى بلغ الخامسة والسبعين. فإذا لم يتيسر ملعب التنس، عمد إلى المشي لفترة طويلة في خفة وسرعة، حتى "يتصبب منه العرق، وعندئذ ينقد الخادم بعض النقود لتدليكه". وكان معتدلاً في أكله وشربه، وامتنع عن أكل اللحم وشرب الخمر بعد السبعين. وكان يفاخر بأنه "كان قد أفرط في حياته مائة مرة" ولكن أوبري حسب أن هذا الإفراط لم يحدث لأكثر من مرة في كل عام، ولذلك لم يكن شيئاً فظيماً. ولم يتزوج الفيلسوف قط، ولكن يبدو أنه كان له ابنة غير شرعية وفر لها سبل العيش الكريم بسخاء(62). وكان يقرأ قليلاً في سنيه الأخيرة، "وتعود أن يقول أنه إذا كان قد قرأ الآخرون لما عرف أكثر مما عرفوا". وفي الليل عندما كان يأوي إلى الفراش، والأبواب موصدة، وهو واثق أن أحداً لا يسمعه، كان يغني بصوت عال (لا لأن صوته رخيم ولكن من أجل صحته)، حيث أعتقد بأن الغناء يفيد رئتيه ويؤدي إلى إطالة العمر(63). ومهما يكن من أمر، فإنه أصيب منذ 1650 بشلل ارتجافي في يديه، واشتدت به هذه العلة حتى كادت كتابته في 1666 أن تكون غير مقروءة.

وعلى الرغم من هذا استمر هوبز يكتب. وتحول من الفلسفة إلى الرياضيات، وهنا انزلق في غير ما حرص ولا حذر، إلى خلاف من عالم خبير هو جون واليس الذي انتقص من قيمة ادعاء الرجل العجوز بأنه كشف تربيعة الدائرة. وفي 1670، وهو في الثانية بعد الثمانين نشر كتابه "بهيموث" وهو عبارة عن تاريخ الحرب الأهلية في إنجلترا، كما كتب عدة ردود على ناقديه، وترجم إلى اللاتينية كتابه "الواياتان" ترجمة رائعة. وفي 1675 كتب سيرة حياته نظماً باللاتينية، كما نظم في نفس العام الألياذة والأوديسية شعراً بالإنجليزية، حيث "لم أجد عملاً أؤديه أفضل من هذا". وفي تلك السنة، حيث بلغ السابعة والثمانين، عاد من لندن

صفحة رقم : 11332

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

إلى الريف حيث قضى أيام حياته في ضيعة آل كافندشي في دربيشير. وفي تلك الأثناء اشتد عليه الشلل، كما عانى من عسر البول. ولما انتقل أرل كافندشي آنذاك من تسانتورت إلى هاردويك هول أصر هوبز على مرافقته. وثبت أن الرحلة مرهقة، وبعدها بأسبوع انتشر الشلل في جسمه ولم يعد قادراً على الكلام. وفي 4 ديسمبر 1679 فاضت روحه بعد أن تناول الأسرار المقدسة، أنجليكانيًا مخلصاً، وقد بلغ من العمر اثنين وتسعين عاماً إلا أربعة أشهر.

و - النتائج

كان علم النفس الذي جاء به هوبز رائعة الاستنتاج من مقدمات غير وافية، وقد يبدو منطقيًا لأول وهلة، ولكنه مفكك الأوصال مهلهل بما فيه من فروض غير دقيقة وبما صوب منها مزيد من التحقيق والتمحيص والحتمية منطقية، ولكن قد يحددها طراز منطقيًا ويشكلها معالجتنا للأشياء لا الأفكار. ووجد هوبز مشقة في أن يتصور أن أي شيء غير مادي، ويبدو أنه من الصعب بنفس القدر الذي نتصور أن الفكر والشعور ماديان، ومع ذلك فإن هذه هي الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر - وكل ما عداه فرضيات. وانتقل هوبز من الشيء المدرك بالحواس إلى الإحساس إلى الفكرة دون أن يلقي ضوءاً كافياً أو يوضح تماماً العملية الخفية التي يولد بها الشيء المادي ظاهرياً الفكر غير المادي ظاهرياً. إن علم النفس الميكانيكي يترنح أمام الوعي. وعلى الرغم من ذلك فإنه في مجال علم النفس أسهم هوبز أكثر ما أسهم في تراثنا. ففضي على "الأرواح" الميتافيزيقية مثل "الملكات" التي جاءت بها المذاهب السكولاسية (مذاهب العصور الوسطى) ولو أن هذه يمكن على الفور تفسيرها، لا على أنها كيانات عقلية. بل مظاهر للنشاط العقلي. وأرسى قواعد المبادئ الأكثر وضوحاً في تداعي المعاني والخواطر، ولكنه انتقص من قيمة الفرض والانتباه في تحديد انتقاء الأفكار وتسلسلها وتشبثها. وأود وصفاً ناجحاً للتروي والاختيار. ولكن تحليله للانفعالات ودفاعه عنها خلاصة رائعة، ردت

صفحة رقم : 11333

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

إلى سبينوزا الفضل الذي كانت مدينة به لديكارت. ويفضل أبحاث علم النفس هذه، طور لوك كتابه الأكثر دقة وتفصيلاً "رسالة في العقل البشري". وفي الرد على هوبز، (الفلمر)، كان تطوير لوك لرسالته عن الحكومة. وأعدت فلسفة هوبز السياسية صياغة ميكيافلي بلغة شارل الأول، ونبعث هذه الفلسفة من الاستبدادية المطلقة الموقفة التي انتهجها هنري الثامن وإليزابيث في إنجلترا، وهنري الرابع وريشيليو في فرنسا، كما أنه لا ريب في أنها استمدت بعض القوة من مخالطته لأصدقائه الأدواق والملكيين المهاجرين. ومن حيث الأثر المباشر بدا أن لهذه الفلسفة ما يبررها، في العودة السعيدة لملك من آل ستيوارت ما زال يدعى ويطالب بسُلطان مطلق غير محدود، وينتهي فترة من

الفوضى المدمرة. ولكن بعض الإنجليز النابيين أحسوا بأنه إذا كانت موافق الهمجيين "القذرين المتوحشين" كافية لإقامة حكومة، فإنه موافقة الناس، وهم في حالة يفترض أنها أكثر تقدماً ورقياً، قد يكون من شأنها أن تكبح جماح هذه الحكومة أو تطيح بها. وهكذا نجد في الثورة الجليلية 1688 أن فلسفة الحكم الاستبدادي المطلق سقطت أمام إعادة البرلمان توكيد سيادته، وسرعان ما حل مكانها تحررية "ليبرالية" لوك التي تدعو إلى تحديد السلطات والفصل بينها. وبعد ديمقراطية القرن التاسع عشر النسبية، التي نمت في إنجلترا التي يحرسها القنال، وفي أمريكا التي تحميها البحار، عادت استبدادية مطلقة معدلة في دول دكتاتورية تمارس رقابة حكومية على الحياة والممتلكات والصناعة والدين والتعليم والمطبوعات والفكر. وتخطت الاختراعات الجبال والخنادق، واختفت الحدود، وتلاشت العزلة القومية والأمن القومي. إن نظام الحكم المطلق ابن الحرب، والديمقراطية ترف السلم. ولسنا ندري هل كان "الحالة الطبيعية" التي قال بها هوبز، وجود يوماً ما، فربما كان النظام الاجتماعي سابقاً للإنسان، فالقبيلة سبقت الدولة، والعرف أقدم وأوسع وأعمق من القانون. والأسرة هي أساس بيولوجي لا يثار ينمي الذات (الأنا) وولاداتها. وربما أصبح "علم الأخلاق" الذي جاء به هوبز أكثر ملائمة لو أنه عمد إلى تنشئة أسرة، أما أن يترك للدولة تحديد الأخلاقيات (ولو أن هذا انتقل إلى

صفحة رقم : 11334

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> توماس هوبز

النظم الدكتاتورية) فمعناه تدخير إحدى القوى التي تعمل على تحسين الدولة والأخذ بيدها. إن الحس الخلفي يوسع في بعض الأحيان دائرة التعاون أو الإخلاص والحب الشديد، ثم يستحث القانون على توسيع مجال حمايته تبعاً لذلك. وفي المستقبل البعيد قد يتسنى لدولة أن تكون مسيحية، كما كان الحال يوماً مع أشوكا الذي كان بوذياً. وبرز أقوى تأثير لفلسفة هوبز في "ماديته". وسرت "أفكار هوبز" من الجماعات المفكرة إلى طبقات المهنيين ورجال الأعمال. وفي هذا قال بنتلي الغضوب 1693 "لقد زحرت بها الحانات والمقاهي بل وستمس هول (البرلمان) والكنائس ذاتها كذلك(64)". وتقبلها كثير من رجال الحكومة فيما بينهم وبين أنفسهم، ولكنهم في العلن حجبوها باحترام أبدوه للكنيسة الرسمية على أنها شكل مفيد للانضباط الاجتماعي لا يقوم على تدميره إلا الحمقى والأغبياء. وأثرت هذه الفلسفة المادية في فرنسا في تشكك بيل، وأنت عليها تطورات أشد جرأة عند لامتري ودي هولباخ وديدرو.

وكان بيل بعد هوبز من أعظم عابرة القرن السابع عشر(65). ومهما أصاب من مدح أو قذح فقد اعترفوا بأنه أقوى فيلسوف أنجبته إنجلترا منذ عهد بيكون، وأول إنجليزي يعرض بحثاً منهجياً أساسياً في النظرية السياسية. وإنما لندين له بفضل واضح، ذلك أنه صاغ فلسفته في ترتيب منطقي وف ينثر مشرق. وإنما إذ نقرأ هوبز وبيكون ولوك، أو فوننتل وبل وفلتير لنذكر من جديد ما أنسانا الألمان إياه، من أنه ليس من الضروري أن يكون الغموض هو العلامة المميزة للفيلسوف، وأنه يجدر بكل فن أن يتقبل الالتزام الأدبي والأخلاقي واضحاً أو خامداً.

صفحة رقم : 11335

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> يوتوبيا هارنجتون

2- يوتوبيا هارنجتون

في الوقت الذي دافع فيه هوبز عن ملكية مزعجة موجعة، اقترح جيمس هارنجتون يوتوبيا ديموقراطية، والآن وقد كانت الكشوف الجغرافية والتجارة تفتح آفاقاً سحيقة من الكرة الأرضية، وجاءت الأساطير إلى أوروبا مع كل بضاعة من وراء البحار، فقد كان من اليسير

صفحة رقم : 11336

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> يوتوبيا هارنجتون

على أرباب الخيال والقلم أن يسبحوا في الخيال إلى ركن سعيد على الخريطة-إلى القمر أو إلى الشمس مثل سيرانو دي برجرانك وتوماسو كمانلا-ركن قد تخزي أعرافه السياسية والاجتماعية طغيان الناس الذين تظلمهم "المدنية" وبؤسهم. إن إعجاب عصر النهضة بالقديم قد أفسح المجال لقصص خيالية عن دول مثالية بشكل أو بآخر في أرض بعيدة لم يعترها فساد. وهكذا قدم هارنجتون في 1656 إلى مقاهي لندن "الأوقيانوسية". ولد هارنجتون في بيت كريم، وكان طبيعياً أن ينحاز إلى فلسفة سياسية تناصر صغار مالكي الأرض في إنجلترا. وبعد تخرجه في أكسفورد طاف بإرجاء القارة، وأعجب بجمهورية الأراضي الوطئية، وخدم في جيشها، وزار البندقية، وتأثر بنظمها الجمهورية، ورأى البابا وأبى أن يقبل إصبع قدمه، ولما عاد إلى إنجلترا اغتقرت له كل خطاياها حين ذكر لشارل الأول إنه لم يستطع أن يفكر تقبيل قدم أي سيد أجنبي بعد أن سبق له تقبيل يد ملك إنجلترا. وعندما شارل عين هارنجتون لملازمته. فأحب السجين البائس، ولكنه أوضح له أن "الجمهورية" أمر مرغوب فيه. ولازمه حتى النهاية، وكان على المنصة ساعة إعدام شارل، ويقولون أنه كاد يموت جزعاً وحزناً(66). وهدأ من روعه مولد "الجمهورية الإنجليزية"، فأنصرف إلى شرح آرائه الجمهورية في شكل روائي. ولكن بينما كان هارنجتون يكتب، غير كرومول الجمهورية الجديد إلى حامية شبه ملكية، وحين كانت "دولة الأوقيانوسية" في طريقها إلى طبع أمر "الحامي" بوقف العمل فيها. وهنا تدخلت ابنة كرومول الأثيرة لديه، السيدة كلايبول، من أجل الكتاب، وأهداه المؤلف إلى أبيها، وخرج إلى النور في 1656.

إن "الأوقيانوسية" هي إنجلترا بالشكل الذي كان المؤلف يأمل من كرومول أن يعيد تشكيلها فيه. إنه يضع مبدأ فصل تفصيلاً بعد فرنين من الزمان ليصبح التفسير الاقتصادي للتاريخ. ويقول هارنجتون بأن السيطرة السياسية تتبع، بشكل طبيعي وبحق، السيطرة الاقتصادية، وبهذا الانسجام وحده يمكن لأية دولة أن تنعم بالاستقرار. "على قدر ما يكون التناسب في ملكية الأرض تكون طبيعة الإمبراطورية-"

صفحة رقم : 11337

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> يوتوبيا هارنجتون

أي الحكومة(67)" فإذا امتلك فرد واحد الأرض كلها (كما هو أقلية لأصبحت الحكومة "ملكية مختلطة" تؤيدها كما تحد من سلطانها الأرستقراطية. "وإذا كان كل الناس ملاكاً للأرض، أو إذا وزعت الأرض بينهم، بحيث لا يطغى فرد أو مجموعة أفراد، فإن الإمبراطورية أي الحكومة (دون فرض بالقوة) تكون دولة جمهورية(68)" ورد هانجتون على هوبز الذي ذهب إلى أن كل الحكومات تستند إلى القوة، رد عليه بأنه لا بد من إطعام الجيوش وتسليحها، ومن ثم تنتقل السلطة إلى أولئك الذين يوفر المال اللازم لهذا وذلك(69). أن أي تغيير في توزيع الملكية. وعلى هذا الأساس فسر هارنجتون انتصار البرلمان الطويل، حيث كان يمثل صغار الملاك على الملك الذي كان يمثل كبارهم. وللحيلولة دون أن تصبح الحكومة أوليغارشية من ذوي الضياع الكبير، اقترح هارنجتون قانوناً "لإعادة توزيع الأراضي توزيعاً عادلاً" يحدد للفرد الواحد أرضاً لا تدر أكثر من ألفي جنيه في العام. إن الديمقراطية الفعلية تتطلب التوسع في توزيع الملكية، وخير ديموقراطية هي التي يكون فيها لكل مالك أرض دورة عمل في الحكومة وفي الجمهورية الإنجليزية الحقبة يمكن للمواطنين أن يرسلوا ملاك الأراضي ليعملوا في جمعية شعبية وسناتو (مجلس الشيوخ). والسناتو وحده يقترح القوانين، والجمعية وحدها تقرها أو ترفضها. ويسمى أعضاء السناتو المرشحين للوظائف العامة، وينتخب المواطنون من هذه القائمة الحكام بالاقتراع السري(70). وفي كل عام يحل محل ثلث أعضاء الجمعية والسناتو والحكام أفراد آخرون في انتخاب جديد. وفي هذه الدورة يتسنى لكل ملاك الأرض أن يكون لهم في النهاية دور للعمل في الحكومة. أن هذا الانتخاب الشعبي يحمي المجتمع من المحامين الذين يخدمون المصالح الخاصة، ومن رجال الدين-"وهم الأعداء السافرون الألداء لسلطة الشعب(71)". ولسوف يكون هناك تعليم عام شامل وفي مدارس وكليات وطنية، وحرية تامة مطلقة في العقيدة الدينية.

صفحة رقم : 11338

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> يوتوبيا هارنجتون

"وكانت النظرية أخاذة جذابة جداً. "كما قال أوبري. وسرعان ما وجدت مؤيدون متحمسين لها. وجمع هارنجتون بعضهم (ومن بينهم أوبري) في أحد نوادي "روتا" (1659Rota) حيث أهاجوا الشعور العام للمطالبة بتسريع برلماني يقر هذه الجمهورية الدورية التي أقرتها هارنجتون الذي نسب الانهيار الذي أصاب الدولة آنذاك إلى عجزها عن مصادرة الضياع الكبيرة وإعادة توزيع الأرض على بمساحات أصغر، وكان هذا سبباً في احتفاظ النبلاء بقوتهم وسلطانهم. وبقاء الشعب على حاله من الفقر والضعف، على أساس أن ملكية الأرض هي التي تفرض الحكومة، وأن عودة الملكية الأوليغارشية أمر لا مفر منه إذا لم يقر البرلمان قانون "إعادة توزيع الأراضي". ويقول أوبري: "ولكن القسم الأكبر من رجال البرلمان كانوا يمقتون كل المقترح مشروع "دورة العمل بالاقتراع العام، لأنهم كانوا طغاة ملعونين مولعين بسلطنتهم وقوتهم(72)"، وآثروا أن يستدعوا شارل الثاني. وحيث استمر هارنجتون بنشر دعوته، حتى بعد عودة الملكية، فإن الملك أمر بإيداعه برج لندن (السجن) بتهمة التآمر (1661). ولما بذلت المساعي لإخلاء سبيله بمقتضى "التحقيق في قانونية حبس المتهم"، نقلوه إلى معتقل أكثر تضييقاً وأحكاماً في جزيرة بعيدة عن بليموث، وهناك أصابته نوبات من الجنون. وأطلق سراحه ولكنه لم يسترد صحته قط.

وكانت "اليوتوبيا" التي نادى بها هارنجتون عملية أكثر من معظم "المدن الفاضلة المثالية"، وتحقق قدر كبير منها. وربما كانت إحدى نقاط الضعف فيها أنها افترضت أن الأرض هي الشكل الوحيد للثروة. إن هارنجتون ذكر سلطان المال في التجارة والصناعة، ولكنه لم يتوقع أو لم ينبأ بتبوءه السلطة السياسية، وربما كان قد أحس بأنه حتى الثروة التجارية والصناعية لا بد خاضعة في خاتمة المطاف لملاك الأرض. وكان التوسع في حق الانتخاب وفي الاقتراع السري يتفق مع آماله المرجوة، وعلى الرغم من أن بريطانيا رفضت فكرته في "دورة العمل والوظائف"، على أنها تبيد سنوي للخبرة والتجربة فإن الولايات المتحدة أخذت في التجديد الدوري لجزء من الكونجرس الأمريكي، ووافق لوك ومنتسكيو وأمريكا على نظريته في الفصل بين السلطات في الحكومة. فلا تياسوا أيها الحالمون، فلعل

صفحة رقم : 11339

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> يوتوبيا هارنجتون

الزمان يفاجئكم بتحقيق أحلامكم ويحول شعركم إلى نثر، أو وهمكم إلى واقع ملموس.

صفحة رقم : 11340

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> الربوبيون

3- الربوبيون

وكما أضرت الحروب الدينية بالعقيدة الدينية في فرنسا، فإن الحرب الأهلية في إنجلترا أسهمت في إثارة الشكوك اللاهوتية. وأشاعت ذكريات الحكم البيوريتاني الزندقة والمروق عن الدين حتى بات أمراً مألوفاً بين الملكيين المنتصرين، كما جعلت الإلحاد يقترن بالمرح الصاخب والبذاءة في بلاط الملكية العائدة. واشتبه في إلحاد أرل شافتسبري الودوق بكنجهام الثاني وأرل روشستر الثاني، كما أشتبه في إلحاد هاليفاكس وبولينبروك بعد ذلك. وأدى اتساع دائرة المعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية وانتشارها إلى ارتفاع موجة التشكك. وفي كل يوم، كان أحد السائحين أو المؤرخين يطلع على الناس بأنباء أمم عظيمة دياناتها وأخلاقها عن المسيحية بشكل مثير فظيع، ولكنها عادة فاضلة مستقيمة مثلها. ويندر أن كانت نزاعة إلى القتل متعششة إلى سفك الدماء مثل المسيحية. كما بدا أن النظرة الميكانيكية إلى العالم التي رسمها ديكارت النقي الورع، ونيوتن العالم البصير، نقول بدا أن هذه النظرة تصرف النظر عن دور العناية الإلهية" في تسيير الكون، وكان اكتشاف القانون في الطبيعة يجعل من المعجزات أمراً غير مستساغ غير مقبول. وأسهم الانتصار البطيء الذي أحرزه كوبرنيكس، والمحاكمة المثير التي عانى منها

جاليليو، في تزعزع الإيمان وتقويض أركانه. بل أن المحاولة الجريئة التي قام بها كثير من رجال اللاهوت المسيحيين لشرح العقيدة على أساس من العقل، أضعفت العقيدة. ويقول أنطوني كولنز: لم يكن ثمة أحد يشك في وجود الله، حتى جاءت "محاضرات بويل" وأخذت على عاتقها إثبات وجوده (73).
إن تنفيذ الإلحاد كان شاهداً على انتشاره. وفي 1672 كتب سيروليم تمبل "عن أولئك الذين يبدون أنهم أذكيا لأنهم يذكرون أشياء قالها الجاهل في نفسه، كما جاء على لسان داود (74)" وفي نفس العام قال سير تشارلز ولزلي "إن المروق عن الدين كان أمراً واقعاً

صفحة رقم : 11341

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> الربوبيون

في كل عصر، ولكن يبدو أن الدفاع عنه صراحة وعلانية من خصائص هذا العصر (75)".
ويقول رئيس الشمامسة صمويل باركر 1681:
..... إن الجهال وغير المتفهمين منا أصبحوا أكبر المتظاهرين بالتشكك والكفر... وأصبح الإلحاد والمرق عن الدين في النهاية شائعين شيوع الرذيلة والفسوق. وفلسف الأجلاف والميكانيكيون لأنفسهم مبادئ بعيدة عن التقوى، وقرأوا دروسهم في الإلحاد على الناس في الشوارع والطرق العامة، وإنهم لقادرون على أن يستخلصوا من كتاب "الواياتان" أنه ليس هناك إله (76)".
وبين الطبقات المتعلمة التمس الشك حلاً وسطاً في التوحيد-الدين الطبيعي-والربوبية. وأرتاب التوحيديون في المساواة بين المسيح والأب، ولكنهم عادة ارتضوا الكتاب المقدس نصوصاً إلهية. وأثر المدافعون عن الدين الطبيعي عقيدة مستقلة عن الأسفار المقدسة ومحصورة في المعتقدات التي رأوا أنها شاملة كلية في الله وفي الخلود. أما الربوبيون، الذين قاموا بحركتهم أساساً في إنجلترا، فإنهم طالبوا فقط بالإيمان بالله الذي اعتبره أحياناً مفهوماً تجريدياً غير مشخص، مرادفاً للطبيعة، أو "الدافع الأصلي" لإله الدنيا التي قال بها ديكرت ونيوتن. وبرزت لفظة "ربوبي" Deist في 1627 في "رسالة إلى ربوبي" لرئيس الشمامسة إدوارد ستلنجفليت، ولكن مطبوعات الربوبيين كانت قد بدأت لورد هربرت شربري "الحقيقة" 1624.
وتابع تشارلز بلونت، أحد مريدي لورد هربرت، رسالته في كتاب "النفس البشرية" (1679). وكانت حجته أن كل ديانة أسست إنما كانت من خلق أو ابتداع دجالين أفاكين سعوا إلى السلطة السياسية أو الكسب المادي، وأن الجنة والجحيم كانت من بين المخترعات البارعة التي اصطنعوها للتحكم في الأهالي واستغلالهم. إن الروح تموت مع الجسد. إن الإنسان والحيوان منتسابهان إلى حد أنه "من رأى بعض الكتاب أن الإنسان ليس إلماً قادراً مصقولاً". وفي "عظمة ديانا إلهة أهل أفسوس" أو "منشأ الوثنية" (1680) جعل بلونت من القساوسة

صفحة رقم : 11342

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> الربوبيون

أدوات في أيدي الطبقات الغنية التي سمتت واكتنرت بفضل كدح الشعب الصابر وسداجته. وفي دقة ماكرة مؤذية ترجم بلونت كتاب فيلوستر اتوسي "حياة أبولونيوس أوف تيانا"، وحدد أوجه الشبه بين المعجزات المنسوبة إلى صانع الأعاجيب الوثني والمعجزات المنسوبة إلى المسيحيين، وأوحى برفق إلى التشكك فيها وعدم تصديقها جميعاً على حد سواء. وفي "بيان موجز عن ديانة الربوبيين- (1686) اقترح بلونت ديانة خالية من أي عبادة أو طقوس، اللهم إلا عبادة الله بحياة فاضلة قائمة على الأخلاق". وفي "وحي العقل" (1693) أوضح بلونت أن اللاهوت المسيحي قام أول الأمر على توقيح خاطئ لانتهاج العالم في وقت قريب أو مبكر، وسخر من قصص الكتاب المقدس عن الخليفة، ومن مولد حواء من ضلع آدم، ومن الخطيئة الأصلية، ومن إيقاف يسوع الشمس، على أنها جميعاً سخافات صيبانية. وأوماً إلى أن "الاعتقاد بأن أرضنا الحديثة (جسم مظلم تافه في الكون، أصغر شأناً من النجوم الثابتة في الحجم والمنزلة معاً) هي قلب هذا الكون الشاسع الهائل وأعظم أجزائه سمواً وحيوية، إنما هو اعتقاد غير منطقي وغير عقلاني، يتعارض مع طبيعة الأشياء". وحاول كتاب آخر غفل من اسم المؤلف، منسوب إلى بلونت بصفة غير مؤكدة، عنوانه "معجزات لا خرق لقوانين الطبيعة (1683)"، حاول تفسير كثير من قصص المعجزات بأنها أفكار خاطئة راودت العقول البسيطة عن الأسباب والأحداث الطبيعية، وأضاف الكتاب نفسه أن الكتاب المقدس إنما كتب "ليثير مشاعر التقى والورع"، لا ليعلم الفيزياء، وينبغي تفسيره على هذا الأساس: "إن كل ما هو مناف للعقل، وكل ما هو مناف للعقل سخيف يدعو إلى السخرية وينبغي رفضه (77)" على أن بلونت نفسه لم يعيد العقل إلى النهاية، إذا صدقنا ما يروى من أنه قتل نفسه (1693) لأن القانون الإنجليزي لم يكن ليحيز له الزواج من أخت زوجته المتوفاة. وتابع جون تولاند الحملة. وبحكم مولده في إيرلندا نشأ كاثوليكياً، ولكنه أرتد إلى البروتستانتية في شبابه. ودرس في جلاسجو ولندن وأكسفورد. وفي سن السادسة والعشرين أصدر كتاباً غفلاً من اسم المؤلف "المسيحية لا تكتفها أسرار" (1696) وصفه بأنه "رسالة

صفحة رقم : 11343

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> الربوبيون

توضح أنه ليس في الإنجيل شيء ينافي العقل "أو يسمو فوق العقل". ومد تقبل بقبول حسن كتاب لوك الحديث "بحث في العقل البشري" حيث أثبت أن الإحساس هو أصل كل المعرفة، فإنه أي جون تولاند، خرج منه بعقلانية متطرفة. أنا أعتقد أن "العقل" هو الأساس الوحيد لكل حقيقة يقينية، ولا يستثنى من مجال بحث هذا العقل أي وحي أكثر مما يستثنى الظواهر العادية للطبيعة "..... إن الاعتقاد بالوهية الأسفار المقدسة أو معنى أية قطعة فيها، دون برهان عقلاني أو حجة دامغة قوية، إنما هو سداجة أو سرعة تصديق جديرة باللوم... ومن المؤلف أن يميل بعض الناس إلى سرعة التصديق عن جهل وعن عمد، لكن الأكثر من هذا أن ما يتوقعون من نفع هو الذي يدفعهم إلى سرعة التصديق (78).

وكان هذا بمثابة إعلان للحرب. ولكن تولاند في سياق حديثه بعد ذلك رفع غصن الزيتون، حيث أردف أن المبادئ المسيحية الأساسية عقلانية باستثناء تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه. وعلى الرغم من ذلك لم يسكتوا على هذا التحدي، فقد اجتمع كبار المحلفين في مدلسكس وديلن عبر بحر إيرلندا ليستتكرروا الكتاب، فأحرق بصفة رسمية أمام أبواب البرلمان الأيرلندي، وحكم على تولاند بالسجن، ولكنه هرب إلى إنجلترا، ولما عجز عن إيجاد عمل له فيها، هاجر إلى القارة. ولبعض الوقت لقي ترحيباً لدى صوفيا هانوفر وابنتها صوفيا شارلوت ملكة بروسيا.

وإلى صوفيا شارلوت هذه وجه تولاند "رسائل إلى سيرينا" (1714). وفي إحداها حاول أن يتعقب أصل عقيدة الخلود ونموها، وكانت هذه إحدى المحاولات الأولى في التاريخ الطبيعي للمعتقدات الخارقة للطبيعة. وفي رسالة ثانية عارض تولاند الرأي القائل بأن المادة في حد ذاتها جامدة لا حركة فيها، وقال أن الحركة صفة أساسية للمادة ملازمة لها، وليس ثمة جسم في سكون مطلق. وكل الظواهر المدركة بالحواس إن هي إلا حركات في المادة، بما في

صفحة رقم : 11344

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> الربوبيون

ذلك الأفعال التي يأتيها الحيوان، وقد يصدق هذا على الإنسان كذلك (79). ومهما يكن من أمر فإن تولاند عرض نفسه هنا للخطر، فإن مثل هذه الأفكار ينبغي أن لا تنتشر علانية، حيث يجب ترك الجمهور غير المتعلم على معتقداته التقليدية دون إزعاج أو تشويش، باعتبار أن هذا وسيلة للسيطرة عليه أو التحكم فيه من الناحيتين السياسية والاجتماعية. ويجدر أن يكون التفكير الحر واجب الأقلية المتعلمة وامتيازاً مقصوراً عليها، وينبغي ألا يكون ثمة رقابة على هذه الأقلية "فلندع كل الناس يتحدثون بما يفكرون فيه كما يحلو لهم، دون أن يوصموا بالعار أو يعاقبوا إلا على ما يأتون من أعمال سيئة ضارة" (80). وظاهر أن تولاند هو الذي ابتكر مصطلحي "المفكر الحر" و "المؤمن بوحدة الوجود" (81) (القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد، وأن الكون المادي والإنسان ليسا إلا نواحي للذات الإلهية). ويوحى بحته "ابن الناصرة" (1718) بأن المسيح لم يكن يقصد الفصل بين أتباعه وبين اليهودية، وأن المسيحيين اليهود الذين ظلوا يتبعون شريعة موسى وكانوا يمثلون "الخطأ الأصلية الحقبة للمسيحية" وهناك رسالة صغيرة "الإيمان بوحدة الوجود" شرح فيها مذهب وطقوس جمعية سرية وهمية. وربما كان تولاند عضواً في Mother Grand D lodge الماسونيين الأحرار التي أسست في لندن 1717. إن هذه الجمعية كما وصفها تولاند نبذت كل الوحي الخارق للطبيعة، وقدمت ديناً جديداً يتفق مع الفلسفة، وقالت بالتمائل بين الله والكون، واستبدلت بالقدسيين في التقويم المسيحي أبطال الحرية والفكر. وأجازت الجمعية لأعضائها القيام بالعبادات العامة المألوفة ما داموا، عن طريق نفوذهم السياسي يستطيعون الحيلولة دون أن يكون التعصب أمراً مؤذياً ضارياً (82). وزاول تولاند أعمالاً مختلفة لفترات متقطعة، وركن تولاند إلى حياة الفقر والعوز، لم ينفذه منها من الموت جوعاً إلا لورد مولزورث والفيلسوف شافنبري. واحتمل في صبر وجلد حملات التقنين التي شنت على كتبه (54 مرة في ستين عاماً). وزعم أن الفلسفة أسبغت

صفحة رقم : 11345

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> الربوبيون

عليه "هدوءاً تاماً"، وحررته من "فزع الموت" (83). وفي سن الثانية والخمسين أصيب بداء عضال يستعصي البرء منه (1722) وكتب بنفسه عبارة قصيرة ملؤها الزهو والفخر لتنتقش على قبره: هنا يرقد جون تولاند الذي ولد.. بالقرب من لندندري... نهل من مختلف الآداب والمعارف، وكان ملماً بأكثر من عشر لغات، وكان نصير الحق والمدافع عن الحرية، لم يربط نفسه بإنسان، ولم يتملق إي إنسان، ولم يحد تحت تأثير التهديد أو تحت ضغط البؤس والفاقة عن نهجه المرسوم الذي سار عليه حتى النهاية، مضحياً بمصلحته في سبيل السعي وراء الخير العام، إن نفسه متحدة مع الأب الذي في السماء الذي جاء منه في البداية، وليس ثمة أدنى شك أنه سيحيا ثانية في الخلود، ومع ذلك فإنه لن يكون هناك تولاند آخر.... لأن سائر الناس سوف يسترشدون بكتاباتته (84). وحمل أنطوني كولنز أمانة مذهب الربوبية بعد تولاند، في براعة وتواضع أكثر. وكان خير عون له في مهمته أنه كان ثرياً، وأن له بيتاً في الريف وآخر في المدينة، فلم يكن لينبذ لأنه معدم يتضور جوعاً. وكان ذا سلوك قويم، وخلق ليس فيه مطعن. كتب إليه لوك الذي عرفه كل المعرفة: "إن حب الحق من أجل الحق وحده هو الجانب الأساسي في الكمال الإنساني في هذه الدنيا، ومنبت كل الفضائل، وإذا لم أكن مخطئاً، فإنك جمعت منها قدر ما وجدته في أي إنسان (85)". إن كتاب كولنز "بحث في التفكير الحر" (1713) أحسن شرح للربوبية في هذا العصر. إنه عرف التفكير الحر بأنه "استخدم الفهم في إيجاد معنى لأية قضية أياً كانت، والتأمل في طبيعة الدليل، لها أو ضدها، والحكم عليها وفقاً لنقاط القوة أو الضعف الظاهرة في الدليل" وليس ثمة وسيلة أخرى للكشف عن الحقيقة (86). إن تباين المذاهب والتفسيرات المتناقضة لنصوص الكتاب المقدس لتضطرنا إلى قبول حكم العقل، فلمن نتحكم بعده اذن، اللهم إلا أن نحتكم إلى القوة؟ وكيف يتسنى إلا طريق البيينة والتأمل والاستنتاج، أن نقر أي

صفحة رقم : 11346

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> الربوبيون

الأسفار في الكتاب المقدس حجة موثوقة، وأبها يطرح جانباً على أنها مشكوك في صحتها. وينقل كولنز عن أحد رجال الدين أن أحصي ثلاثين ألف قراءة مختلفة اقترحها العلماء لنصوص العهد الجديد (الإنجيل) وحده. ويشير إلى ريتشارد سيمون ونقده المتعلق بنصوص الأسفار المقدسة (87). ويحاول كولنز أن يرد على الاعتراضات التي أثارها المحاذرون من الرجال ضد الفكر الحر: حيث ذهبوا إلى أن معظم الناس لم يؤتوا القدرة على أن يفكروا تفكيراً حراً لا يضر ولا يؤدي في أمهات المسائل الأساسية، وأن مثل هذه الحرية قد تؤدي إلى انقسامات لا نهاية لها في الرأي وفي الشيع والمذاهب، ومن ثم تؤدي إلى الخلل والاضطراب في المجتمع، وأن حرية التفكير قد تقضي إلى الإلحاد في الدين والفجور والخلاعة في الخلق. ويضرب كولنز اليونان القديمة وتركيا الحديثة مثلاً للنظام الاجتماعي الذي يحتفظان به على الرغم من حرية الرأي واختلاف الأديان. وينكر أن حرية الفكر تؤدي إلى الإلحاد. ويقتبس عن بيكون قوله المأثور بأن الفكر الضيق ينزع بنا إلى الإلحاد، وبأن التفكير الواسع بصرفنا عنه، ويؤيد كولنز حكمة بيكون، ثم يضيف في إخلاص واضح، أن الجهل "هو أساس الإلحاد، والتفكير الحر هو علاجه (88)". ويعدد المفكرون الأحرار الذين كانوا "أفضل الناس في كل العصور": سقراط، أفلاطون، أرسطو، ابيقور، بلوتارك، فارو، كاتو الوقيب، كاتو أوتيك، شيشرون، سنكا، سليمان، الرسل، أوريجن ارازمز، مونتاني، بيكون، هوبز، ملتون، تلوستون، ولوك. وهنا وعند تولاند أيضاً، نجد نموذجاً لقائمة أوجست كونت عن أعلام مذهب الوضعية، ويرى كولنز أنه في الإمكان وضع قائمة أخرى تضم أعداء الأفكار الحرة الذين جلبوا الخزي والعار على الإنسانية بقساوتهم الوحشية بحجة تمجيد الله. وأثيرت له المناير والجامعات وأمطرته وابلاً من الردود، وقالت أن كولنز رأى أن التعقل يتطلب الترحال. أنه ربما تأثر أثناء إقامته في هولندا بأراء سبينوزا وبيل، ولدى عودته إلى إنجلترا أثار عاصفة أخرى بكتابه "بحث في الحرية الإنسانية" (1715) الذي بسط فيه ببيان قوي واضح موضوع "الجبرية" أو الإيمان بالقضاء والقدر،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> الربوبيون

حيث وجد كولنز نفسه مفكراً حراً عباً لإرادة غير حرة. وبعد ذلك بتسع سنين أثار جو اللاهوت برسالته "بحث في أسس الدين المسيحي وتفسيره". واقتبس عن الرسل وعن بسكال ما بنوا به شرحهم للمسيحية على نبوءات العهد القديم التي حققتها الشريعة الجديدة فيما يبدو، وجادل في أن هذه النبوءات لم تتضمن أية إشارة إلى المسيحية والمسيح. ورد عليه خمسة وثلاثون من رجال اللاهوت في خمس وثلاثون رسالة. وكان الخلاف ما زال محتد ما حين وصل فولتير إلى إنجلترا 1726، وطابت به نفسه في عبث مزعج، ونقله إلى فرنسا حيث وجد طريقه إلى "الاستنارة" المتشككة. وواصل حركة الربوبية في إنجلترا وليم هويستون، ماتيو تندال، توماس تشب وكونيرز مدلتون، وانتقلت عن طريق بولنريك والفيلسوف شافتسبري إلى جيبون وهيوم. ولم تعد مقبولة عند الطبقات الحاكمة مذ ارتابوا في إنها تشجع الأفكار الديموقراطية، ولكن أثرها المباشر كان ملموساً في تزعرع عابر في العقيدة الدينية. وفي 1711 رفع إلى مجلس اللوردات تقرير رسمي عن هذا الموضوع. من المجلس الكنسي والإنجيلي في مقاطعة كنتربري. ويصف التقرير سعة انتشار الكفر والدنس، والشكوك في الخلود، وانتقاص من قدرة القساوسة على أنهم دجالون (89). وفي مطلع القرن الثامن عشر في إنجلترا "هبط الدين إلى الربوبية (90)"، وهنا في هذه الأزمة هب نفر من ذوي العقول الجبارة في بريطانيا في قوة ونشاط للدفاع عن المسيحية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> المدافعون عن العقيدة

4- المدافعون عن العقيدة

كان معظم هؤلاء المدافعين مستعدين لمواجهة مهاجمهم على أساس من العقل والعلم والتاريخ، وقد كشف هذا في حد ذاته عن روح العصر. وقاد تشارلز لزللي الدفاع برسالته "منهج قصير سهل مع الربوبين" (1697) قصد به في الأصل أن يكون رداً على بلونت. وحاول أن يدلل على أن شواهد صحة قصص الكتاب المقدس هي من نفس طبيعة الشواهد على أعمال الإسكندر وقيصر، وأنها مقنعة مثلها تماماً. كما أن المعجزات ثبتت ببيانات كثيرة موثوقة يعتد بها، قدر

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> المدافعون عن العقيدة

ما تعتبره المحاكم الإنجليزية أدلة كافية، وما كان الكهنة ليقنعوا الناس بمعجزات مثل "انشقاق ماء البحر الأحمر" لو لم يؤيدهم في ذلك كثير من شهود العيان. وأنهى لزلي بحثه بتصوير اليهودية بأنها ميثاق بدائي نسخته ظهور المسيح، والثنية بأنها مجموعة من الخرافات الصببانية إلى حد لا يقبله العقل. والمسيحية وحدها هي التي صمدت أمام البيئات والعقل .

أما صمويل كلارك الذي ألم بقدر كبير من الرياضيات والفيزياء، يكفي للدفاع عن نيوتن ضد ليبنز، فإنه أخذ على عاتقه إثبات الدين المسيحي ببراہين في دقة الهندسة وقساوتها. وفي محاضرات بويل للدفاع عن المسيحية في 1704، صاغ كلارك سلسلة من اثنتي عشرة قضية تثبت، في تقديره، وجود الله في كل زمان ومكان، وأنه قدير عليم كريم. وأن سلسلة الكائنات والأسباب المحتملة أو المعتمدة على غيرها لتفرض علينا أن نعتبر أمراً مفروغاً منه وجود كائن مستقل لا غنى عنه هو السبب الأول لكل الأسباب. ولا بد أن يكون الله متحلياً بالذكاء لأن الذكاء من صفات المخلوقات، وأن يكون الخالق أعظم كمالاً من المخلوق، ولا بد أن يكون الله حراً، وإلا كان ذكاؤه عبودية لا معنى لها. كل هذا بطبيعة الحال، لم يصف جديداً إلى الفلسفة القديمة أو فلسفة العصور الوسطى. ولكن في السلسلة الثانية من محاضراته، عرض كلارك أن يثبت "صدق الوحي المسيحي وأنه حقيقة لا ريب فيها". فقال بأن المبادئ الأخلاقية مطلقة مثل قوانين الطبيعة، وأن طبيعة الإنسان المنحرفة يمكن على أية حال توجيهها إلى الامتثال لقواعد الأخلاق عن طريق واحد هو غرس المعتقدات الدينية، ومن ثم كان لزاماً أن ينزل الله علينا الكتاب المقدس وفكرة الجنة والنار. ويضيف التاريخ، بسخريته المألوفة أن الملكة أن فصلت كلارك، وكان الكاهن الخاص لها، بتهمة ارتيابه في التثليث. وفي العهد التالي لحكم أن، كما يقول الشيطان الماكر فولتير، حيل بين كلارك وبين الوصول إلى منصب رئيس أساقفة كنتربري لأن أحد الأساقفة وشي به عند الأميرة كارولين، حين قال بأن كلارك أعلم الرجال في إنجلترا، ولكن به عيباً واحداً، ذلك أنه غير مسيحي(91).

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> المدافعون عن العقيدة

وكان بنتلي الأوسع علماً قد أوضح بالفعل "حماقة الإلحاد وبعده عن التعقل" في "محاضرات بويل" 1692/1693. وبعد ذلك بعشرين عاماً أثاره كتاب كولنز فأصدر "بعض ملاحظات على البحث الأخير في حرية التفكير". وتضمن هذا الكتاب بالدرجة الأولى عرضاً لأخطاء في بحث كولنز. وبدت الحجة دامغة والجدل عنيفاً، وقرر مجلس جامعة كامبردج بالإجماع تقديم الشكر إلى بنتلي. ورأى جونانان سويفت الذي كان آنذاك ملتحقاً بخدمة بولنبروك وهو "ربوبي"، أن كولنز يستحق مزيداً من العقاب لأنه كشف سراً يحتفظ به كل أفاضل الرجال

لأنفسهم ووقع عليه هذا العقاب في مقال بعنوان "بحث مستر كولنز في حرية التفكير بسط في لغة إنجليزية سهلة... ليستخدمه الفقراء" وسخر من الحجج التي ساقها كولنز في مبالغات فكاهاية، وأضاف قوله: حيث أن معظم الناس حمقى أغبياء فإنه لما يجلب الكوارث أن نتركهم أحراراً في التفكير، "إن معظم بني الإنسان مؤهلون للطيران قدر أهليتهم للتفكير(92)"-وتلك عملية متوقعة في أيامنا هذه أكثر مما كان يقصد سويفت. واتفق مع هوبز في أن الدكتاتوريات حتى في الروحانيات هي البديل الوحيد عن الفوضى. وقد رأينا أن الأنجليكانيين الأيرلنديين ذهبوا إلى أن الكاهن العابس المكتئب يمكن أن يكون مطراناً ممتازاً إذا أمن بالله.

أما أفلاطون كمبردج فقد دافعوا عن المسيحية بأسلوب أقل براعة وأشد إخلاصاً. إنهم ارتدوا إلى أفلاطون وفلوطين يلتمسون جسراً بين العقل وبين الله، ولم يستعينوا على إيضاح إيمانهم والتعبير عنه بالحجج والجدل قدر استعانتهم بالنزاهة والتقوى في حياتهم. وغمرهم إحساس قوي بالفضيلة والقدسية في أسمى مراتبها، حتى بدا هذا لهم أبلغ دليل وأقربه على العقل. ومن ثم زعم أول زعمائهم بنجامين هوتشكوت "أن العقل صوت الله(93)".

ذهب هنري مور العضو البارز في هذه الجماعة التي ذاع صيتها حيناً، إلى ما رواء فلسفات أوربا، إلى فكرة هندية تقريباً عن الفراغ، أو التفاهة الواقعية للمعرفة الحسية، وعدم قدرتها على إشباع تطلع النفس المنفردة المنعزلة إلى بعض الرفقة أو المعزى في الكون. ولم يرتح هنري مور إلى ميكانيكة الكون التي قال بها ديكارت. ولكن

صفحة رقم : 11351

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> المدافعون عن العقيدة

أشبعته حاجته الأفلاطونية الحديثة والمتصوفون اليهود وجاكوب بوم. وتساءل "هل معرفة الأشياء هي حقاً أسمى مصدر لسعادة الإنسان، أي شيء آخر أعظم وأقدس، أو إذا افترضنا أنه كذلك، فهل تلتبس السعادة في التلهف والإقبال على قراءة الكتب، أو التأمل وإمعان النظر في الأشياء، أو في تطهير العقل من كل ألوان الرذيلة. أياً كانت(94)".

وعقد العزم على تطهير نفسه من كل أنانية أو انشغال بأمور الدنيا، أو فضول عقلي. "فلما خمدت عندي هكذا هذه الرغبة الجامحة في معرفة الأشياء، ولم تتق نفسي إلا إلى هذه الطهارة والبساطة في العقل وحدها، أشرقت كل يوم بين جوانحي ثقة أعظم مما توقعت يوماً ما، حتى في الأشياء التي كنت أرغب أشد الرغبة في معرفتها من قبل(95)".

ويقول هنري مور أنه مذ طهر نفسه جسماً وروحاً بهذا الشكل، فقد فاحت من جسمه في فصل الربيع رائحة زكية، وأن البول عنده كان له عبير البنفسج(96).

ومذ تطهير هنري على هذا النحو، فقد بدا أنه يحس بحقيقة الروح في نفسه على أنها أعظم اختبار ممكن إقناعاً للإنسان، ومن هذا الاقتناع انتقل على الفور إلى الاعتقاد بأن العالم معمور بأرواح أخرى على درجات تصاعديّة، من أدناها إلى الله سبحانه وتعالى. وذهب إلى أن كل حركة في المادة هي من عمل نوع من الأرواح. وبدلاً من الحيز المادي الذي قال به هوبز، جاء هنري مور بكون روحاني ليست المادة فيه إلا وسيلة أو أداة للروح. وانتشرت بين أن وآخر هذه "الروح" المفعمّة بالحيوية فيما وراء مستقرها، وإلا كيف يمكن بغير هذا تفسير المغناطيسية والكهرباء والجاذبية؟ وتابع مور بحثه، وارتضى فكرة وجود الشياطين والسحرة والأشباح. وكان رجلاً لطيفاً غير أناني، رفض كل المناصب الرفيعة الدنيوية التي عرضت عليه، وظل على علاقته الودية بهوبز الذي يدين بالمادية، والذي قال أنه إذا وجد يوماً أن آراءه الخاصة يتعذر الدفاع عنها فإنها "لا بد أن يعتنق فلسفة الدكتور مور(97)".

أما رالف كودورث، أعلم الأفلاطونيين في كمبردج، فإنه أخذ على عاتقه أن يثبت أن آراء هوبز هشة يسهل دحضها. إن رسالة "الجهاز العقلي الحقيقي للكون" (1378) تحدثت هوبز أن يفسر لماذا، بالإضافة إلى مختلف الحركات الحسية والعضلية التي اختزل إليها كل عمليات

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> المدافعون عن العقيدة

الذهن، هناك أيضاً، في أحوال كثيرة، إدراك لهذه الحركات، وكيف تجد أي فلسفة مادية مجالاً أو وظيفة للوعي أو الشعور؟ وإذا كان كل شيء مادة متحركة، فلماذا لا يخدم الجهاز العصبي كل شيء عن طريق الإحساس والاستجابة، كما هو الحال في الأفعال المنعكسة اللاإرادية، ولا يزعجه الشعور الزائد أو غير الضروري؟ كيف يمكن أن ننكر حقيقة الشعور وواقعه بل أولويته وأهميته هو الذي لا ينسنى بدون معرفة أية حقيقة كانت؟ ليست المعرفة وعاء سلبياً غير فعال للأحاسيس، إنها تحول نشيط فعال للأحاسيس إلى أفكار (98). وهنا في كلام كودورث نرى أنه يستيق بزمن طويل، رد باكلي وكانت على هوبز وهيوم.

ولم يكن جوزيف جلافيل، كاهن شارل الثاني، من الناحية الجغرافية، واحداً من الأفلاطونيين في كمبردج، ولكنه أتفق معهم اتفاقاً قوياً. وفي "غرور الدوجماتية" (التمسك برأي دون دليل كاف) 13661 ألصق جوزيف جريمة الدوجماتية بالعلم والفلسفة، محتجاً بأنهما أقاماً نظاماً تتسم بالتكلف والمبالغة الحمقاء لوضع النظريات والمبادئ، على أسس مزعومة غير آمنة. وعلى هذا فإن فكرة العلة أو السبب (التي ظنها جلافيل أساسية لا غنى عنها للعلوم) افتراض غير معقول ولا مبرر له. فنحن نعرف التعاقبات والعلاقات والمناسبات، ولكن ليست لنا أي فكرة عما هو الحال في شيء يحدث أثراً في نفسه أو في شيء آخر (هاجس آخر لهيوم). ويقول جلافيل: تصور مدى جهلنا بالأشياء الأساسية جداً-طبيعة النفس ونشأتها، وعلاقتها بالجسم "كيف يتحد الفكر مع كومة من الطين؟ إن تجمد الكلمات في المناطق الشمالية، وحدث هذا الاتحاد العجيب، أمران لا يمكن تخيلهما أو تصديقهما، سواء بسواء. إن تعليق بعض الأثقال في أجنحة الريح يبدو أمراً أيسر كثير أن يدركه العقل (99)". واستيق جلافيل بيرجسون في أنه يسم العقل بأنه ذو بنية مادية ألف التعامل مع المادة إلى حد فقدان القدرة على التفكير في حقائق أخرى لا "بالرجوع إلى الصور المادية (100)". إلى أي حد نجد حواسنا عرضة للخطأ: إنها تظهر الأرض وكأنما هي ساكنة في الفضاء، على حين يؤكد لنا العلماء المحدثون أنها مشوشة الذهن بمجموعة مختلفة من الحركات المترامنة. وحتى من افتراض أن حواسنا قد خدعتنا، فما أكثر

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> المدافعون عن العقيدة

ما نخطئ في الاستنتاج من مقدمات صحيحة. إن مشاعرنا تضللنا المرة بعد المرة. "وما أسهل أن نؤمن بما نرغب فيه". وغالباً ما تسيطر بينتنا العقلية على تفكيرنا: إن للأفكار أجواءها وتنوعاتها الوطنية.... إن هؤلاء الذين لم يختلسوا النظر قط إلى ما وراء المعتقدات العامة التي أشرتها أفهامهم البسيطة منذ البداية، موقنون يقيناً راسخاً بصدق ما تلقوه وتقوه نسبياً على غيره.... أما النفوس

الكبيرة التي جاست خلال أجواء الفكر المختلفة (وهنا ولدت عبارة مشهورة) فإنهم أشد حرصاً وأكبر محاذرة فيما يتخذون من قرارات وأكثر اقتصاداً وتريناً في الفصل في الأمور (101). وعلى الرغم من هذه التحذيرات للعلوم، كان جلانفيل عضواً غيوراً في الجمعية الملكية ودافع عنها ضد اتهاماتها بالمرق عن الدين، وأثنى على منجزاتها، وتطلع إلى عالم زاخر بالأعاجيب يأتي به البحث العلمي: لا يخامرني شك في أن أعقابنا سيجدون أشياء كثيرة هي الآن مجرد إشاعات قد تأكد لهم حقائق عملية. وبعد عدة أجيال من الآن، قد لا تبدو رحلة إلى الأقاليم الجنوبية المجهولة، لا بل إلى القمر، أشد غرابة من رحلة إلى أمريكا. وسوف يكون أمراً عادياً لمن يأتون بعدنا أن يشتروا جناحين ليطيروا إلى المناطق النائية مثلما نشترى اليوم حذاء عالي الساق للركوب في رحلة. كما يكون التشاور مع أقاليم الأنديز البعيدة بوسائل مريحة أمراً مألوفاً للأجيال القادمة مثلما هو مألوف لدينا الآن أن نتبادل الرسائل الأدبية. إن إعادة الشعر الأشيب لليافعين وتجديد الحيوية المستنزفة قد يكون من الميسور على مر الزمن تحقيقهما دون معجزة، كما أن ليس من المستبعد في زراعة المستقبل أن تتحول الأرض القفر الآن إلى جنة (102).

ويجدد بنا أن نضيف إلى ما سبق أن جلانفيل، مثل كودورث

صفحة رقم : 11354

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> المدافعون عن العقيدة

وهنري مور آمن بالسحرة. إن هؤلاء احتجوا بأنه إذا كان هناك عالم روحي وعالم مادي سواء بسواء، فلا بد من وجود الأرواح والأجسام في الكون. وبناء على الخطر الكامن في الأشياء فلا بد أن تكون بعض هذه الأرواح شيطانية شريرة. وإذا كان الأتقياء الورعون يتصلون بالله أو القديسين أو الملائكة، فلماذا لا يتصل الأشرار بالشيطان وعفاريته؟ وقال جلانفيل إن آخر خدعة للشيطان أن ينشر الاعتقاد بعدم وجوده. "إن هؤلاء الذين لا يتجرأون على القول بصراحة بأنه لا يوجد إله، يقتنعون (كخطوة مقبولة أو نقطة بداية) بأن ينكروا أن هناك أرواحاً وسحرة (103)" إن الشيطان يجب إنقاذه من أجل الله.

صفحة رقم : 11355

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

5- جون لوك

أ - سيرة حياته

ولد أعظم فلاسفة العصر أترأ في رنجتون بالقرب من برستول، في نفس العام الذي ولد في سبينوزا. ونشأ وترعرع في إنجلترا التي قامت فيها ثورة دامية وقتلت مليكها، وأصبح الصوت المنادي بثورة سلمية وعصر يسوده الاعتدال والتسامح، ومثل التسوية الإنجليزية في أحكم صورة وأفضلها. كان أبوه محامياً بيوريتانياً ناصر مع شيء من التضحية قضية البرلمان، وشرح لابنه نظريتي سيادة الشعب والحكومة النيابية، وبقي لوك مخلصاً لهذه الدروس مؤمناً بها، شاكراً معترفاً بفضل أبيه في تعويده على الرصانة الدروس مؤمناً بها، شاكراً معترفاً ليدي ماشام عن والد لوك أنه:-

سلك معه في صغره نهجاً تحدث عنها الابن فيما بعد في استحسان بالغ. ذلك أنه كان قاسياً عليه بإبقائه في رعب شديد منه، وعلى أبعد منه، حين كان صيباً. ولكنه كان يخفف من هذه القسوة شيئاً فشيئاً حتى استوى جون رجلاً، أنس منه رشداً ومقدرة فعاش مع صديقاً حميماً (104).

ولم يقر لوك لمعلميه بمثل هذا الفضل. وفي مدرسة وستمنستر

صفحة رقم : 11356

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

أرهب باللاتينية واليونانية والعبرية والعربية، ومن الجائز أنه لم يسمح له بشهود إعدام شارل الأول (1649) في ساحة قصر هويتول القريب من المدرسة، ولكن هذه الحادثة تركت أترأ في فلسفته. ووقت اضطرابات الحرب الأهلية التحاقه بكلية كريست في أكسفورد حتى بلغ العشرين من عمره. وهناك درس أرسطو مصوغاً في قوالب سكولاسية باللاتينية، كما درس مزيداً من اليونانية، وبعض الهندسة والبلاغة، وكثيراً من المنطق وعلم الأخلاق، لفظ معظمها فيما بعد، على انها عتيقة مهجورة موضوعاً. غير مستساغة ولا مقبولة شكلاً. وبعد حصوله على درجة الماجستير (1658) بقي بكليته باحثاً في الدراسة العليا، يدرس ويحاضر. ووقع لبعض الوقت في غرام "سلبني عقلي(105)"، ثم استرد عقله وخسر عشيقته. ولم يتزوج لوك قط، مثله في ذلك مثل كل فلاسفة هذا العصر تقريباً. ماليرانش، بل، فونتيل، هوبز، سبينوزا، ليبنتز. ونصحوه بالالتحاق بإحدى وظائف الكنيسة، ولكنه تردد وقال: "إذا رقيت إلى مكان قد لا أستطيع أن أملاً فراغه فإن الهبوط منه لن يكون إلا سقوطاً مروعاً يسمع له دوي شديد(106)". وفي 1661 مات والده بالسل، تاركاً له ثروة ضئيلة ورئيتين ضعيفتين. ودرس الطب ولكنه لم يحصل على درجة فيه إلا في 1674. وفي الوقت نفسه قرأ ديكارت، وأحس بسحر الفلسفة حين تحدثت في جلاء ووضوح. وساعد روبرت بويل في تجاربه المعملية، وملاه الإعجاب بالمنهج العلمي. وفي 1667 تلقى دعوة للحضور والإقامة في قصر أكستر ليكون طبيباً خاصاً لأنطوني أشيلي كوبر الذي سرعان ما أصبح أرل شافيتسيري الأول، وعضو الوزارة أيام شارل

الثاني، ومنذ هذا التاريخ إلى ما بعده، وعلى الرغم من احتفاظه رسمياً بمنصبه في أكسفورد حتى 1683، وجد لوك نفسه غارقاً في خضم السياسة الإنجليزية حيث شكلت أحداثها ورجالاتها أفكاره. وأنقذ لوك، الطبيب، حياة شافتسبري حيث أجرى له عملية بارة لاستئصال ورم خبيث (1668). وساعد في المفاوضات لإتمام زواج ابن شافتسبري، وسهر على زوجه ابنة أخته الوضع، وأشرف

صفحة رقم : 11357

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

على تعليم حفيده، خليفته في الفلسفة. ويذكر هذا الحفيد، أرل شافتسبري الثالث أن: مستر لوك حظي بتقدير كبير لدى جدي، حتى وأنه وقد عرف بالتجربة أنه عظيم في الطب، رأى أن هذا جانب صغير من جوانب عظمته، وشجعه على الاتجاه بأفكاره إلى منحى آخر، ولم يسمح له بمزاولة الطب إلا في أسرته أو من قبيل العطف أو الرحمة بصديق حميم. وهياه لدراسة المسائل الدينية والمدنية التي تهتم البلاد، وكل مل يتصل بمهمة الوزير في الدولة. وقد أحرز في هذا نجاحاً كبيراً حدا بجدي إلى أن يتخذ منه صديقاً يسأله المشورة في أية قضية من هذا النوع(107).

ولمدة عامين (1673-1675) اشتغل لوك سكرتيراً لمجلس التجارة والزراعة (المستعمرات) الذي كان يرأسه شافتسبري. وساعده على وضع دستور لكارولينا التي أسسها شافتسبري وكان أكبر ملاك الأرض فيها. ولم تطبق هذه "النظم الأساسية" في المستعمرة بصفة عامة، ولكن حرية الضمير التي تضمنتها هذه النظم لقيت قبولاً حسناً إلى حد كبير لدى المستوطنين الجدد(108).

ولما تخلى شافتسبري عن مهامه السياسية 1675 جال ولك ودرس في فرنسا حيث التقى هناك بفرانسوا برنييه الذي أظهره على فلسفة جاسندي التي وجد فيها رفضاً معقولاً "للأفكار الفطرية" وهي مقارنة عقل الطفل الذي لم يولد باللوح النظيف الخالي من أي شيء، والجملة المأثورة التي نقلت فيما بعد عبر القنال الإنجليزي: "ليس ثمة شيء موجود في العقل إلا كان موجوداً أولاً في الحواس".

وفي 1679 عاد لوك إلى إنجلترا وإلى شافتسبري، ولكن الأزل زج بنفسه أكثر فأكثر في غمار الثورة، فأوى لوك إلى أكسفورد حيث أستاذتف الدرس والبحث. وأثار القبض على شافتسبري وهربه من السجن ثم فراره إلى هولندا شبهات الملكيين حول أصدقائه. وانبث الجواسيس في أكسفورد للقبض على لوك متلبساً بما يمكن أن يكون أساساً لتقديمه إلى المحاكمة(109). فلما أحس بالخطر وتنبأ باعتلاء

صفحة رقم : 11358

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

عدوه جيمس الثاني عرش إنجلترا، فإنه كذلك لجأ إلى هولندا (1683). على أن ثورة دوق مونموث القصيرة الأجل التي ماتت في مهدها (1681) استنفرت الملك جيمس الثاني إلى أن يطلب من الحكومة الهولندية تسليم خمسة وثمانين لاجئاً إنجليزياً بتهمة اشتراكهم في المؤامرة لقلب عرش الملك الجديد. وكان من بينهم لوك، فاخْتِياً وأتخذ اسماً زائفاً. وبعد سنة أرسل إليه جيمس عرضاً بالعفو عنه ولكنه أثار البقاء في هولندا. وأقام في أوترخت وامستردام وروتتردام، حيث لم يستمتع بصداقة الإنجليز اللاجئين فحسب، بل سعد كذلك بصداقة العلماء الهولنديين مثل جين لي كلرك وفيليب فان لمبروخ، وكلاهما من زعماء اللاهوت الأرميني المتحرر. وفي هذا الوسط وجد لوك تشجيعاً كبيراً لآرائه في سيادة الشعب والحرية الدينية. وهناك كتب "بحث في العقل الإنساني"، والمسودات الأولى لأبحاثه في التعليم والتسامح الديني.

وفي 1687 اشترك في مؤامرة لإحلال وليم الثالث محل جيمس الثاني على عرش إنجلترا (110). فلما نجحت حملة نائب الملك في هذه المغامرة أبحر لوك إلى إنجلترا (1689) على نفس السفينة التي أقلت الملكة المقبلة ماري (111). وقبل مغادرة هولندا كتب باللاتينية إلى لمبورخ رسالة تفيض بأحر العواطف. مما يدحض أو يصبح ما ظن من أن اعتداله المألوف ينبع من برودة طبيعه:

إني إذا أرحل عنكم، أكاد أشعر إني أفارق بلادي وعشيرتي وأهلي فإن كل شيء يتعلق بالقرابة والسنة الحسنة والحب والشفقة- كل ما يربط الناس بعضهم ببعض بوشائج قوى من رابطة الدم- وجدته بينكم موفوراً. إني أترك ورائي أصدقاء لا سبيل إلى نسيانهم أبداً. ولن أودع الرغبة في سnoch الفرصة لأستمتع ثانية بالرفقة الحقة لأصدقاء، لم اشعر وأنا بينهم بأي حنين أو رغبة، حيث كنت بعيداً عن ارتباطاتي الخاصة، وأعاني من أشياء كثيرة، أما أنت يا أفضل الرجال وأعزهم وأنبههم، فإني حين أفكر في علمك وحكمتك وشفقتك وصرحتك وإخلاصك ورفقتك ودمائة خلقك، يتضح لي إني وجدت في صداقتك أنت

صفحة رقم : 11359

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

وحدك ما يجعلني أنتهج دوماً لأنني أرغمت على قضاء هذا العديد من السنين في رحابك (112). وفي إنجلترا التي تولى فيها أصدقاء لوك مقاليد الحكم، تقل الفيلسوف عدة مناصب رسمية. ففي 1690 كان مفوض الاستئناف، وفيما بين 1696-1700 كان مفوض التجارة والزراعة، وكان صديقاً حميماً لجون سومرز النائب العام، وشارل مونتاجو أرن هاليفاكس الأول، وإيزاك نيوتن الذي ساعده لوك في إصلاح العملة. وبعد 1691 قضى معظم وقته في أوتس مور في أسكس مع سير فرانسيس ماشام وقربنته ليدي داماريس ماشام إحدى بنات رالف كودورت. وظل في هذا الركن الهادئ يكتب وينقح ما كتب حتى وافته المنية.

ب - الحكومة والملكية

كان لوك قد بلغ السادسة والخمسين من العمر حيث عاد من منفاه. ولم يكن قد نشر سوى بعض مقالات قليلة الشأن، وخلاصة بالفرنسية "المقال" في المكتبة العالمية التي كان يصدرها لي كلارك (1688) ولم يكن يعرف عن اشتغاله بالفلسفة إلا نفر قليل من أصدقائه. وما هي إلا سنة واحدة، هي "سنة العجائب" حتى دفع إلى المطبعة ثلاثة كتب سمت به إلى مصاف الشخصيات البارزة الكبرى في عالم الفكر في أوروبا. وظهرت "رسالة عن التسامح" في مارس 1689، في هولندا، ثم ترجمت إلى الإنجليزية في الخريف. وأعقبها في 1690 "رسالة ثانية عن التسامح". وفي

فبراير 1690 أصدر مقالته عن "الحكم المدني"، وهما حجر الزاوية في النظرية الحديثة للديموقراطية في إنجلترا وأمريكا، وبعد شهر واحد أخرج كتابه "بحث في العقل الإنساني"، وهو أعظم المؤلفات أثراً في علم النفس الحديث. وعلى الرغم من إتمامه هذا الكتاب الأخير قبل مغادرته هولندا فإنه عجل بطبع مقالتي "الحكم المدني" قبله، لأنه كان تواقاً إلى تزويد "الثورة الجليلية 1688\1689" بأساس فلسفي. وقد أثبت هذا الهدف صراحة في مقدمة المقال الأول "التثبيت عرش منقذنا العظيم ملكنا الحالي وليام الثالث، وتدعيم حقه الشرعي أمام الناس.... وأبرز عمل الشعب الإنجليزي في نظر العالم، ذلك الشعب الذي أنقذ حبه

صفحة رقم : 11360

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

لحقوقه الطبيعية العادلة وتصميمه على المحافظة عليها، أنقذ الأمة التي كانت شفا العبودية والدمار(113)". وكان المقال الأول والأصغر رداً على "دفاع عن السلطة الطبيعية للملك" الذي كان سير روبرت فيلمر قد ألفه حوالي 1642 تدعيماً لحقوق شارل الإلهية، والذي لم يكن قد وصل إلى المطبعة إلا مؤخراً (1680) في ذروة حكم شارل الثاني المطلق المنتصر. ولم يكن هذا الكتاب أحسن ما دبح قلم سير روبرت، فإنه نشر في 1648 دون أن يذكر اسمه، "فوضى الحكم المختلط المحدد" الذي استبق به آراء هوبز. وعلى الرغم من إيداع فيلمر السجن لدفاعه عن قضية خاسرة فإنه دافع عنها ثانية في "ملاحظات على كتاب السياسية لأرسطو" الذي نشر غفلاً من اسم المؤلف في 1652، قبل وفاته بعام واحد.

صور فيلمر الحكومة بأنها امتداد للأسرة. وأودع الله السيادة في الأسرة الإنسانية الأولى، في آدم الذي انحدر من الآباء. وعلى أولئك الذين (مثل خصوم فيلمر) يؤمنون بأن الكتاب المقدس منزل من عند الله، أن يسلموا بأن الأسرة الأبوية وسلطة الأب. أقرهما الله. وانتقلت هذه السيادة من الآباء إلى الملوك. وكان الملوك الأوائل آباء، وكان سلطانهم شكلاً من حكم الآباء، مشتقاً منه، فالملكية إذن ترجع إلى آدم، ومن ثم إلى الله. وسيادة الملوك، إلا إذا أمروا بخرق صريح للقانون الإلهي، مقدسة مطلقة. والتمرد عليها خطيئة وجريمة في وقت معاً(114). وعلى نقيض النظرية التي تقول بأن الإنسان ولد حراً، يقول فيلمر بأن الإنسان ولد خاضعاً لعادات الجماعة وقوانينها، وللحقوق الطبيعية والشرعية للوالدين على أولادهم. "إن الحرية الطبيعية" خرافة رومانسية. وأنها لخرافة أيضاً أن الحكومة قامت برضا أفراد الشعب واتفاقهم. "والحكومة النيابية" خرافة أخرى. فالممثل لا يختاره إلا أقلية ضئيلة نشيطة في كل دائرة انتخابية(115). وكل حكومة هي من أغلبية عن طريق أقلية. ومن طبيعة الحكومة أن تكون فوق القانون. فللهيئة التشريعية، بمقتضى تعريفها، سلطة سن القوانين وتغييرها أو إلغائها. "وأنا لنخدع أنفسنا إذا راودنا الأمل يوماً في

صفحة رقم : 11361

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

أن تحكمنا سلطة غير استبدادية(116)" وإذا كان للحكومة أن تعتمد على إرادة المحكومين، فسرعان ما ينتهي الأمر إلى عدم وجود حكومة البتة، فإن كل فرد أو مجموعة أفراد ستزعم لنفسها الحق في العصيان والتمرد وفقاً لما يمليه "الضمير". وتلك هي الفوضى أو حكم الرعاع". وليس هناك طغيان يمكن أن يقاس بطغيان الجماهير(117)". وأحس لوك أن مهمته الأولى، وهو المدافع عن الثورة الجلييلة أن يحض حجج فيلمر. وقال "أنه لم يكن هناك يوماً مثل هذا الهراء المرتجل دون ترو بمثل هذه الكثرة في لغة إنجليزية رنانة" كما جاء في مقالات سير روبرت(118). ليس لي أن أتحدث بمثل هذه الصراحة على رجل لم يعد يستطيع أن يرد"، لو لم يعتنق المنبر السنين الخوالي علانية نظريته ويجعل منها عقيدة مقدسة رائجة في هذا العصر"- يعني لو لم يعتنق رجال الكنيسة الأنجليكانية نظرية حقوق الملوك الإلهية حتى في عهد الملك الكاثوليكي جيمس الثاني، وانتقل لوك، في تهكم هازل، لاذع أحياناً، ليفترض على أن فيلمر أرجع سلطة الملك إلى ما افترض من سلطة آدم وأبائ التوراة، ولسنا في حاجة إلى تتبعه في طول دحضه للكتاب المقدس. ونحن اليوم نرير خلفاتنا السياسية بوسائل أخرى غير الأسفار المقدسة أن شأناً من تفكير فيلمر لا يزال باقياً بعد أن تناوله لوك بهذه الطريقة الخشنة- المحاولة مهما كانت خاطئة في تفصيلها لإلقاء الضوء على طبيعة الحكومة بالتماس أصولها في التاريخ، حتى في البيولوجيا. ومن المحتمل أن فيلمر ولوك كليهما انتقضا من قدر الدور الذي لعبه الغزو والقوة في إقامة الدول.

وفي المقال الثاني من "الحكم المدني" تحول لوك إلى مهمة البحث لحكم وليم الثالث في إنجلترا عن سند أقوى من الحق الإلهي الذي يعيد لسوء الحظ السلطة إلى جيمس الثاني. إن لوك حين اسندج ارتقاء وليم العرش من رضا المحكومين افترض أكثر مما استطاع إثباته بالتاريخ: إن الشعب لم يكن قد أعلن قبوله غزو وليم لإنجلترا، كما أن النبلاء أو أبناء الطبقة الأرستقراطية الذين كانوا قد وضعوا الخطة لهذا الغزو لم يكونوا فكروا في الحصول على موافقة الشعب، ولم يفكروا إلا في تجنب مقاومته، ومع ذلك فإن لوك في التماسه سناً من الفلسفة

صفحة رقم : 11362

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

لسلطة وليم، أتى بدفاع مؤثر عن سيادة الشعب. وفي سبيل دفاعه عن الملك الحاكم بسط نظرية الحكومة النيابية، وفي سياق عرضه الأساسي المنطقي لحركة الأحرار (الهُويجز) والمدافعين عن حق التملك، صاغ إنجيل الحرية السياسية، وأنهى هيمنة هوبز على الفلسفة السياسية الإنجليزية.

وحذا لوك حذو هوبز في افتراض "حالة طبيعية" بدائية. قبل نشوء الدول. وشكل- مثل هوبز وفيلمر- التاريخ وفقاً لأغراضه ولكنه على عكس هوبز، تصور أن الأفراد في "الحالة الطبيعية" كانوا أحراراً متساوين، واستخدم هذه اللفظة، كما استخدمها جفرسون حين نسج من منواله، لتعني أنه ليس لأحد بالطبيعة "حقوق" أكثر مما لسواه، وهو يبيح للإنسان في "الحالة الطبيعية" غرائز معينة بمثابة إعداد سايكولوجي للمجتمع، ويأتي لوك أحياناً بافتراضات لطيفة "من حيث أن كل إنسان حر بالطبيعة، فليس في إمكان أي شيء أن يخضعه لأية سلطة دنيوية إلا برضاه وموافقته... (119)" ولم يكن "الطور الطبيعي" في هذه النظرية- كما صور هوبز- حرباً بين الناس بعضهم بعضاً، لأن "سنة أو قانون الطبيعة" أيد حقوقهم بوصفهم حيوانات عاقلة. وذهب لوك إلى أنه بمقتضى العقل توصل الناس إلى اتفاق "عقد اجتماعي"، الواحد منهم مع الآخر تنازلاً فيه عن حقوقهم الفردية في القضاء والعقاب، لا لملك، بل للجماعة ككل. وعلى هذا تكون الجماعة هي السيد أو الحاكم الحقيقي، وهي تختار بأغلبية الأصوات رئيساً أعلى ينفذ مشيئتها(120). ويمكن أن يسمى ملكاً، ولكنه مثل أي مواطن آخر ملتزم بطاعة القوانين التي تسنها الجماعة. فإذا سعى (مثل جيمس الثاني) إلى خرقها أو المراوغة في تطبيقها، كان للجماعة الحق في سحب السلطة التي منحها إياه.

والحق أن لوك لم يكن يدافع عن وليم ضد جيمس، بل عن البرلمان (المنتصر الآن) ضد أي ملك، إن أعلى سلطة في الدولة ينبغي أن تكون السلطة التشريعية، التي يجب أن تختارها الأصوات الحرة غير المشتراة. ويجدر أن توقع القوانين أشد العقوبة على كل محاولة

صفحة رقم : 11363

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

لشراء أصوات المواطنين أو المشرعين. ولم يتنبأ لوك بأن وليم الثالث الذي أعجب الفيلسوف به قد يضطر إلى شراء أصوات أعضاء البرلمان، وأن الأسرات القوية قد تستمر لمائة وأربعين عاماً بعده تتحكم في أصوات "المدن الفاسدة القابلة للرشوة" أو تقرر مصيرها. وينبغي أن تكون السلطة التشريعية مستقلة تمام الاستقلال عن السلطة التنفيذية، وأن يكون كل من جهازي الحكومة هذين رقيقاً على الآخر.

ويقول لوك "ليس للحكومة من هدف إلا صيانة الملكية (حق التملك)(121)" لقد كانت هناك شيوعية بدائية، حين نما الطعام دون زراعة، واستطاع الإنسان أن يعيش دون كد ولا كدح، ولكن عندما بدأ العمل انتهت الشيوعية، لأن الإنسان أخذ لنفسه، ملكاً خاصاً به، أي شيء ذا قيمة أضافها عليه جهده هو. فالعمل إذن هو مصدر "99%" من كل القيم المادية(122). (وهنا قدم لوك للاشتراكية الحديثة على غير قصد منه إطلاقاً، أحد مبادئها الأساسية). إن المدنية تنمو عن طريق العمل، ومن ثم عن طريق نظم الملكية بوصفها نتاج العمل. ومن الناحية النظرية ليس لإنسان لأن يمتلك أكثر مما يستطيع استخدامه(123). ولكن اختراع النقود مكنه من بيع فائض نتاج عمله، مما لم يستطع الانتفاع به، وعن هذا الطريق ساد التفاوت الكبير أو عدم المساواة في الملكية بين الناس- وربما كنا نتوقع، عند هذه النقطة، من لوك أن ينتقد تركيز الثروة، ولكنه بدلاً من ذلك نظر إلى الملكية مهما كان سوء توزيعها، على أنها أمر طبيعي مقدس، فاستمرار النظام الاجتماعي والمدنية يستلزم أن تكون حماية الملكية أسمى غرض للدولة. "وليس في مقدور السلطة العليا أن تستولي على أي جزء من أملاك الإنسان إلا بموافقتهم ورضاه(124)".

وعلى هذا الأساس لم يقر أية ثورة تنطوي على التجريد من الملكية. ولكنه بوصفه نبي الثورة الجليلية وصوتها لم يستطع أن ينكر "الحق في قلب الحكومة(125)". إن الشعب في حل من الطاعة إذا كان ثمة محاولات غير مشروعة للاعتداء على حرياته وممتلكاته، "لأن" هدف الحكومة هو الصالح العام للبشر. وأيهما أفضل لبني الإنسان: تعرض الناس دائماً للرغبة الجامحة في الطغيان، أو أن

صفحة رقم : 11364

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

يتعرض الحكام أحياناً للمقاومة إذا أسرفوا في استخدام سلطتهم واستغلالها في القضاء على ممتلكات الشعب، لا في المحافظة عليها(126)؟" وعلى حين أجاز بعض الهيجونوت والفلاسفة اليسوعيين الثورة لحماية الدين الحق الواحد، نجد لوك لا يقرها إلا لحماية الممتلكات. إن النزعة الدنيوية كانت تغير من مركز القداسة وتعريفها. وظل تأثير لوك على الفكر السياسي مسيطراً حتى ظهور كارل ماركس. وكانت فلسفته عن الدولة ملائمة لحكم الأحرار (الهويجز) وللخلق الإنجليزي إلى حد تجاهل أخطائها طيلة قرن من الزمان باعتبارها هبات هينات في عهد أعظم (مجنا كارتا) جليل الشأن للبرجوازية. إنها لم تضيف هالة على 1689 فحسب، بل، مع سبق مشهود، كذلك على 1776 و1789- أعني المراحل الثلاث لثورة العمل ضد المحتد. والمال ضد الأرض. ويسخر النقاد اليوم من لوك اشتقاقه للحكومة من رضا الأفراد الأحرار وموافقهم في الطور الطبيعي، كما سخر هو من فليمر اشتقاقه الحكومة من الآباء ومن آدم ومن الله. إن "الحقوق الطبيعية" مشبوهة ونظرية، والحق الطبيعي الوحيد في المجتمع ليس فيه قانون هو القوة المتفوقة، كما هو حادث الآن بين الدول. أما في المدنية فالحق هو الحرية التي يرغب فيها الفرد ولا تكون ضارة بالجماعة "وقد يوجد حكم الأغلبية في الجماعات الصغيرة في الأمور غير الحيوية" وتمارس الحكم عادة أقلية منظمة. والحكومات الآن تضطلع بالتزامات أكبر من مجرد حماية الملكية. ومع ذلك فإن تحقيق هذه الرسالة الثانية يظل إنجازاً عظيماً. إنه وسع من قيمة انتصار البرلمان و "الأحرار Whigs على "المحافظين" Tories، حتى صاغ من هذا الانتصار نظرية الحكومة النيابية المسؤولة. تلك النظرية التي ألهبت مشاعر الشعوب الواحد منها بعد الآخر في تسلمها مراقي الحرية. ونبذت إنجلترا فكرة السلطات التي جاء بها لوك، وأخضعت الحكومة بأسرها للسلطة التشريعية، ولكن نظريته كانت تهدف إلى الحد من قوة السلطة التنفيذية. وقد تحقق هذا الهدف تحقيقاً كاملاً. أن كثيراً من ثقته في

صفحة رقم : 11365

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

حصافة الناس ولباقتهم، واعتداله في تطبيق النظرية على الممارسة أو العلم على العمل، أصبح منهجاً قياسياً ذا قيمة معترف بها في السياسة الإنجليزية، جعل الثورة أمراً تدريجياً دقيقاً لا يكاد يدرك، بينما هي حقيقة واقعة. وانتقلت آراء لوك من إنجلترا إلى فرنسا مع فولتير في 1729، واعتنقها مونتسكيو عند زيارته لإنجلترا 1729/1731، وكان لها صدى عند روسو وغيره قبل الثورة الفرنسية وفي أثنائها، وبرزت باحلى معانيها في "إعلان حقوق الإنسان" الذي أصدرته الجمعية التأسيسية 1789. وعندما ثار مستعمرو أمريكا في وجه جورج الثالث حين استعاد قوة الملك وسلطانه، نراهم اقتبسوا آراء لوك وصيغوه بل ألفاظه تقريباً في "إعلان الاستقلال" الذي أصدره. كما أن الحقوق التي أثبتتها لوك أصبحت "وثيقة الحقوق" في التتقيحات العشرة الأولى للدستور الأمريكي. أما نظريته في فصل السلطات، كما وسعها مونتسكيو لتشمل السلطة القضائية، فقد أصبحت عنصراً أساسياً في شكل الحكومة الأمريكية، كما أخذت عنايته البالغة بالملكية طريقها إلى التشريع الأمريكي، وأثرت مقالاته عن التسامح في الآباء المؤسسين في فصل الكنيسة عن الدولة وإقرار الحرية الدينية ويندر أن نجد في تاريخ الفلسفة السياسية رجلاً بمفرده كان له مثل هذا الأثر الخالد الباقي.

ج - الذهن والمادة

كان تأثير لوك شاملاً وعميقاً في علم النفس قدر تأثيره في نظرية الحكم المدني. وظل يكتب رسالته عن "العقل الإنساني" منذ 1670 ويتميز هذا البحث بأنه دفع به إلى المطبعة بعد عشرين عاماً قضاها في مراجعته وتنقيحه، ثم تسلم عن هذه التحفة الرائعة في علم نفس التحليلي ثلاثين جنيهاً. ويعزو لوك نفسه مشروعه في هذا البحث إلى مناقشة جرت في لندن 1670:

اجتمع في حجرتي خمسة أو ستة من الأصدقاء، وكنا نناقش موضوعاً بعيداً عن هذا كل البعد، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في مأزق نتيجة الصعوبات التي اعترضتنا من كل النواحي، وبعد أن تملكنا الحيرة لبعض الوقت دون

صفحة رقم : 11366

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

الوصول إلى حل قريب لهذه الشكوك... خطر ببالي أننا نهجنا نهجاً خاطئاً. وأنا قبل أن نشرع في التحقيق في طبيعة هذا الموضوع، كان لزاماً علينا أن نختبر قدراتنا نحن، ونرى أن "الموضوعات" تصلح، أو لا تصلح أفهامنا لمعالجتها، وعرضت هذا على الرفاق الذين وافقوا جميعاً من فورهم، ومن ثم اتفقنا على أن يكون هذا أول ما نبحث فيه. وكانت بعض الأفكار السريعة المهوشة التي عرضتها في اجتماعنا التالي، هي المدخل الأول لهذا المبحث (127). ومن الواضح أن الذي حفز لوك إلى كتابة "مقال عن العقل الإنساني" هو الخلاف الذي نشب بين الأفلاطونيين في كمبريدج من الذين حذوا هنا حذو الفلاسفة السكولاسيين- في أننا نستمد أفكارنا من الله ومن المثل الأخلاقية العليا، لا من التجربة والخبرة، بل من الاستبطان، وأن هذه الأفكار فطرية أصيلة فينا، وجزء من جهازنا العقلي، مهما كنا غير واعين عند الولادة وهذه الفكرة، لا بيانات ديكرت الثانوية عن "الأفكار الفطرية"، هي التي أدت بلوك إلى النظر في مسألة هل هناك أية أفكار لم تكن وليدة تأثيرات العالم الخارجي (128). وخلص لوك إلى القول بأن كل المعرفة بما في ذلك أفكارنا عن الله وعن الصواب والخطأ مستمدة من الخبرة، وليست جزءاً من التركيب الفطري للعقل. وعرف أنه في محاولته للبرهنة على هذه النظرية التجريبية قد يسئ إلى كثير من معاصريه الذين أحسوا بأن الأخلاق تتطلب مساندة الدين لها، وأن الأخلاق والدين كليهما ينهار ويضعف إذا نبعت أفكارها الأساسية من منبع أقل شرفاً من الله سبحانه وتعالى. وطلب إلى قرانه أن يتجملوا بشيء من الصبر معه، أما هو من جانبه فقد كان قاب قوسين أو أدنى من منزلق المناقشة الخطيرة، في روح من الشك المتواضع. "أنا لا أزع أي ألقى درساً، بل أنا أسأل (129)". وفي إيجاز، اعترف بأنه كان "كسولاً مشغولاً إلى حد بالغ (130)". ولكنه على الأقل استطاع أن يحدد مصطلحاته، وهو يعترض على "الغموض المتكلف عند بعض الفلاسفة (131)". إن معرفتنا الدقيقة بما تدل عليه وتعنيه ألفاظنا قد ينهي... النزاع... في كثير من

صفحة رقم : 11367

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

الأحوال(132)". وينبغي التسليم بأن مذهب لوك في هذه النقطة يفضل ممارسته له. أنه يعرف "العقل" بأنه "قوة الإدراك الحسي"، ولكنه يستخدم الإدراك الحسي ليشمل: (1) إدراك الأفكار في عقولنا. (2) وإدراك معاني الألفاظ، (3) وإدراك التوافق أو التناظر بين الأفكار(133). ولكن ما هي الفكرة؟ إن لوك يستخدم هذا الاصطلاح ليعني: (1) تأثير الأشياء الخارجية على حواسنا(وهو ما يجب أن نسميه الإحساس)، أو (2) الوعي الداخلي بهذا التأثير (وهو ما يجب أن نسميه الإدراك الحسي)، أو (3) صورة الفكرة أو الذكرى المتصلة بها (وهو ما يجب أن نسميه الفكرة)، أو (4) "الحركة التي تجمع صوراً منفردة كثيرة لتكون مفهوماً عاماً أو مجرداً أو شاملاً لمجموعة من الأشياء المتشابهة. إن لوك لا يوضح دائماً في أي معنى يستخدم اصطلاحه المزعج".

لكن لوك يبدأ بنبذ "المبادئ الفطرية". أن هناك رأياً ثابتاً لدى الناس بأن هناك في العقل بعض "مبادئ فطرية معينة، أو بعض مفاهيم غامضة أولية مطبوعة في ذهن الإنسان تتلقاها النفس منذ بداية نشأتها، وتأتي بها معها إلى الدنيا". ويأخذ في إيضاح "بطلان هذه الفرضية(135)". أنه لا ينكر "النزعات" الفطرية التي سميت فيما بعد الانتحاء (النزعة إلى الحركة استجابة لمنبه ما) أو الأفعال المنعكسة اللاإرادية أو الغرائز، ولكن هذه في رأيه عادات سيكولوجية، وليس أفكاراً. وحذا حذو هوبز فوصف مثل هذه العمليات بأنها "سلاسل من الحركات في روح الحيوانات، إذا انطلقت استمرت في الخطوات التي اعتادت عليها، والتي تصبح بعد كثرة ارتيادها طريقاً ممهداً، كما تصبح الحركة فيه سهلة، وكأنها طبيعية" أو فطرية(136).

صفحة رقم : 11368

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

وهو يميل إلى أن يجوز توارد الخواطر في أنها طرق سيكولوجية. وكان ديكرت فقد ذهب إلى أن فكرة الله فطرية أصيلة فينا، ولكن لوك ينكر هذا الرأي. فإن بعض القبائل وجدت دون أن تكون لديها فكرة عدالة، كما إن بعض الذين يعتقدونها تتباين لديهم المفاهيم أو الصور عن الآلهة إلى حد يكون معه من الحكمة أن نرفض فكرة "نشوئها بالفطرة أو بالسليقة"، وأن نبني إيماننا بالله على "آيات البيئات على كمال حكمته وقدرته... فيما خلق وأبدع(137)". أعني الخبرة. وبالمثل ليس هناك "مبادئ عملية فطرية". ليس هناك مفاهيم فطرية عما هو صواب وما هو خطأ. فالتاريخ يوضح لنا مجموعة متباينة، عظيمة أحياناً متناقضة أحياناً أخرى، من الأحكام الخلقية، مما لا يمكن معه اعتبارها جزءاً من التراث الطبيعي للإنسان، بل هي تراث اجتماعي يختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان(138). وبعد أن تخلى لوك عن "الأفكار الفطرية" جاء ليتساءل: كيف تولد أو تنشأ الأفكار؟ "فلنفترض أن العقل (عند الولادة)، كما يمكن أن يقال، صفحة بيضاء خالية من أي رسم أو نقش، ومن أية أفكار، فكيف يتأتى تزويده؟... وعلى هذا السؤال نجيب بكلمة واحدة، من الخبرة، وعليها تبنى كل المعرفة، ومنها تستمد في النهاية(139)". فكل الأفكار مستمدة أما من الإحساس والانعكاس على نتاج إحساسنا. والأحاسيس كلها مادية، ونتائجها العقلية هي الإدراك الحسي، وهو "أولى مواهب العقل"(140).

ولم يجد لوك سبباً للارتياح في إمكان حصولنا على معرفة حقيقية صحيحة عن العالم الخارجي، ولكنه قبل الرأي الذي أستقر منذ أمد طويل، ألا وهو التمييز بين الصفات الأولية والصفات الثانوية للأشياء المدركة. أما الصفات الأولية "وهي التي لا يمكن فصلها عن الجسم إطلاقاً، في أية حالة مهما كانت" مثل: الصلابة، الامتداد، الشكل، العدد، والحركة أو السكون. أما الصفات الثانوية "فليست شيئاً في هذه الأشياء نفسها، بل مجرد قوى تحدث فينا إحساسات متعددة بصفاتها الأولية". فالألوان والأصوات والطعوم والروائح صفات ثانوية تحدث فينا بكتلة هذه الأشياء وشكلها ونسيجها أو حرارتها. أما الأشياء نفسها فليس لها لون ولا وزن ولا طعم ولا رائحة ولا صوت ولا حرارة. وكان هذا

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

التمييز قد ظهر منذ البرتوس ماجنوس وتوما الأكويني (القرن 13)، وقد قبله ديكارت وجاليليو وهويز وبويل ونيوتن، ولكن عرض لوك لفكرة التمييز هذه وتوكيده لها هياً لها انتشاراً واسعاً من جديد. فقد تصور العلم الآن أن العالم الخارجي محايد صامت غير متحيز، فقدت أزهاره وثماره وعطرها ونكهتها. وربما هبط هذا المفهوم بالشعر إلى الشعر المنثور في "العصر الأوجستي" - أوائل القرن الثامن عشر في إنجلترا، عهد الملكة آن، ولكنه اكتشف في آخر الأمر أن الصفات المحسة حقيقة مثل الأجسام نفسها، وثار الرومانسية لنفسها من الكلاسيكية حيث جعلت المشاعر أسمى حقيقة.

وأدى تحليل الشيء أو الجسم إلى صفات، على هذا النحو، إلى هذا السؤال: ما هو الجوهر الذي يبدو أن الصفات الأولية تلازمه باعتبارها جزءاً منه؟ وأعترف لوك بأننا لا نعرف من هذا الجوهر الخفي الغامض شيئاً إلا صفاته، فإذا نزلت هذه الصفات فإن الجوهر - أي الأساس الضمني أو المفهوم ضمناً لهذه الصفات - يفقد كل معنى له، وظاهراً أيضاً أنه يفقد وجوده (141). وهنا يتدخل باركلي: إذا كنا لا نعرف إلا صفات الأشياء أو الأجسام، ونعرف أن هذه الصفات هي مجرد أفكار، فكل الحقيقة إذن إدراك حسي، وعندئذ يصبح لوك، بطل التجريبية العظيم - الخبرة هي مصدر كل المعرفة - يصبح مثالياً يحيل المادة إلى فكرة: أضف إلى ذلك أن "العقل" افتراضي مثل الجوهر أو الجسم أو المادة تماماً. وفي فقرة مشهورة يتجاوز لوك باركلي ويسبق هيوم: ونفس الشيء يحدث فيما يتعلق بعمليات الذهن، مثل التفكير والاستنتاج والخوف وغيرهما، التي لا نخلص إلى القول بأنها توجد من نفسها ولا نعي كيف تتبع الجسم أو كيف يمكن أن يحدثها الجسم، ولكننا نميل إلى الظن بأنها نشاط جوهر ما نسميه الروح، بواسطتها، ولو أنه من الواضح أنه ليس لدينا فكرة أو مفهوم آخر من المادة إلا أنها شيء توجد هذه الصفات المحسوسة التي تؤثر على حواسنا، فإنه كذلك بافتراض جوهر فيه التفكير والمعرفة والشك والقدرة على الحركة وغيرها، فيكون لدينا فكرة واضحة عن الروح كما هو الحال بالنسبة للجسم: الأولى يفترض (دون أن نعرف

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

ماهيتها)، إنها جوهر لتلك الأفكار البسيطة التي نستمدّها من الخارج، والآخر يفترض (مع نفس القدر من الجهل بماهيتها) أنه جوهر لهذه العمليات التي نمارسها في داخل أنفسنا (142). وحيث أقر حينئذ "بأن فكرتنا عن الجوهر غامضة، أو ليس لدينا فكرة إطلاقاً عنه في "العالمين" (الخارجي والداخلي) كليهما، وأن الأمر لا يعدو "أن يكون افتراض الجهل بما يدعم هذه الأفكار التي نسميها أحياناً، فإن لوك يخلص إلى

أنه في كلتا الحالتين يسوغ لنا الاعتقاد بوجود جوهر، على الرغم من أننا لا يمكن أن نعرفه: في مادة وراء الصفات المحسوسة أو أنها تبعثها، وفي عقل وراء الأفكار أو يحتويها- عامل روحي يؤدي مختلف عمليات الإدراك والتفكير والشعور والإرادة(143).

ومهما يكن من أمر العقل، فإن عملياته كلها من نوع واحد- حركة الأفكار أو نشاطها. ويرفض لوك فكرة السكولاسية عن "المواهب" في العقل، مثل التفكير والشعور والإرادة. فالتفكير هو اتحاد الأفكار أو الجمع بينها، والشعور هو ترجيح فكرة سيكولوجية أو صداها، والإرادة فكرة تنطلق إلى العمل أو التصرف، مثلما تنزع كل الأفكار إلى العمل إلا إذا عوقبتا فكرة أخرى. ولكن كيف يمكن أن تصبح العملية "الروحية" عملية فسيولوجية وحركة مادية؟ إن لوك يقبل كارهاً ثنائية الجسم المادي والعقل غير المادي، ولكنه في فترة من فترات الطيش يوحى بأن العقل يمكن أن يكون شكلاً من "المادة". وهناك في هذا الصدد عبارة مأثورة عن لوك:

من الممكن أنه لن يكون في مقدورنا أبداً أن نعرف أن مجرد كائن مادي يفكر أو لا يفكر، وحيث أنه يستحيل علينا، بالتأمل في أفكارنا نحن، دون وحي أو إلهام، أن

صفحة رقم : 11371

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

نكتشف هل زودت القدرة الإلهية بعض أنواع المادة المادية بطبعها، بالقدرة على الإدراك والتفكير، أو أنها (أي القدرة الإلهية) ضمت إلى المادة الميالة على هذا النحو، أو ثبتت فيها جوهرًا مفكرًا غير مادي، فإنه بالنسبة لأفكارنا، ليس يبعد عن الفهم أن ندرك أن الله قادر إذا شاء أن يضيف إلى المادة "موهبة للتفكير"، أكثر من أنه سبحانه وتعالى يمكن أن يضيف إليها جوهرًا آخر فيه موهبة للتفكير.. إن من يرى كيف أنه من الصعب، في أفكارنا، توافق الإحساس مع المادة الممتدة، أو توافق الوجود مع شيء ليس له امتداد إطلاقاً، سوف يقر ويعترف بأنه بعيد كل البعد عن معرفة ماهية نفسه على وجه اليقين... وهذا الذي يطلق لنفسه العنان ليتأمل في حرية... بندر أن يجد في عقله القدرة على تحديد موقفه تحديداً تاماً من "مادية النفس" سلباً أو إيجابياً(145).

وعلى الرغم من أن لوك كان قد تغلب بالفعل على الجانب المادي من المعضلة، فإن الإيحاء باحتمال صدقه أو حقيقته، بالنسبة لتيار الفكر في ذلك العصر، أساء إلى الدين القويم إلى حد أن مائة من المدافعين عن الديانة هاجموه بتهمة أنه أيد "في طيش وتهور" آراء الملحددين. ولم يلقوا بالاً لاحترامه وإجلاله للوحي، وليبيانه القديم "أن الرأي الأرجح والأكثر احتمالاً هو ان الشعور مرتبط بجوهر فرد غير مادي، وهو حب هذا الجوهر والتعلق به(146)"، وربما تنبأ هؤلاء المدافعون بأن لامتري وهولباخ وديدرو وغيرهم من فلاسفة المادية قد يرون في كلام لوك نزوعاً خفياً إلى وجهة نظرهم.. واتهمه الأسقف سنلنجفليت بمثل هذه النزعة المادية على وجه التحديد، وأذره بأنها تعرض اللاهوت المسيحي كله للخطر. وتناسى لوك حرصه العهود، وأكد من جديد بقوة، احتمال صدق الفرضية المادية وظل على خلاف بشأنها مع سنلنجفليت وغيره حتى 1697.

على أن مقال "العقل الإنساني" على الرغم من نقاده وما فيه من تناقضات وغموض وإبهام، وغير ذلك من الأخطاء، تزايدت قيمته وأهميته وأثره عاماً بعد عام. وتهافت الناس على طبعاته الأربع في

صفحة رقم : 11372

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

الأربعة عشر عاماً التي انقضت بين ظهوره ووفاته مؤلفه لوك. وظهرت له الطبعة بالفرنسية في عام 1700 ، وتقبلوه هناك في إعجاب حماسي. وأصبح حديث الناس في قاعات الاستقبال في إنجلترا. وأكد ترسترام شاندي لسامعيه أن الرجوع إلى "المقال" يمكن أي إنسان من "الابتعاد بنفسه عن التفكير في الميتافيزيقيا(147)". وكان تأثيره على باركلي وهيوم عظيماً إلى حد أننا نستطيع أن نؤرخ بظهوره تحول الفلسفة البريطانية من الميتافيزيقيا إلى المعرفة. وربما كان لوك ماثلاً في ذهن بوب حين كتب "أن الدراسة الصحيحة للجنس البشري هي الإنسان". وفي 1700 ظهرت طبعة بالفرنسية للمقال، ولقيت هناك ترحيباً حماسياً بالغاً. وكتب فولتير يقول: "بعد أن صاغ بعض السادة المفكرين أسطورة رومانسية للمقال، ولقيت هناك ترحيباً حماسياً بالغاً. وكتب فولتير يقول: "بعد أن صاغ حالة من التواضع يمكن تصورها. إن مستر لوك قد كشف للإنسان تشريح النفس، كما لو أن بعض علماء التشريح يشرحون الجسم(148)". ونعود فنقول "إن لوك وحده" بسط العقل الإنساني في كتاب لا يضم إلا حقائق وهو كتاب بلغ حد الكمال والإتقان. لأن هذه الحقائق مبسطة فيه بأعلى بيان(149)" وبات المقال الإنجيل السيكولوجي لعصر الاستنارة في فرنسا. وتبنى كونديللاك "المذهب الحسي الذي جاء به لوك وتوسع فيه وذهب إلى أن شيئاً لم يستجد في علم النفس فيما بين أرسطو ولوك(150)- وهذا إجحاف واضح بالفلاسفة السكولاسيين (العصور الوسطى) وهوبز وينسب دالمبرت، في "بحث تمهيدي في دائرة المعارف" إلى لوك الفضل في خلق الفلسفة العلمية، كما خلق (في رأيه) نيوتن الفيزياء العلمية. وعلى الرغم من مجاهرات المقال بالمعتقد القويم، فإنه مهد لتجريبية عقلانية، سرعان ما نبذت النفس باعتبارها فرضية غير ضرورية، وانطلقت إلى تطبيق نفس التفكير بالنسبة لله سبحانه وتعالى.

د - الدين والتسامح

لم يتعاطف لوك نفسه مع مثل هذا التطرف، ومهما يكن من أمر شكوكه الخاصة، فإنه أحس، كأى رجل إنجليزي مهذب، بأن السلوك

صفحة رقم : 11373

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

القويم والخلق الكريم يتطلبان من الكنيسة المسيحية دعماً شاملاً. وإذا كانت الفلسفة تنزع عن الناس إيمانهم بعدل الهي كامن وراء جور الحياة وشقائها، فماذا عساها تقدم لتقوية آمال الناس والإبقاء على شجاعتهم؟ تقدم بطيء نحو يوتوبيا ديموقراطية؟ ولكن في مثل هذه اليوتوبيا هلا يبتدع الجشع الطبيعي في الناس وعدم المساواة بينهم وسائل جديدة ليستخدم الدهاء والأقوياء غيرهم من البسطاء والضعفاء أو يسيئوا استغلالهم؟ وكان أول همه أن "يضع المقاييس والحدود بين العقيدة والعقل". وعمد إلى تحقيق هذا في الفصل الثامن عشر من الباب الرابع من المقال. "إنني أجد كل شيعة تحاول جهدها، بقدر ما يسعها العقل، أن تفيد منه عن طيب خاطر،

وحيثما يخفق العقل تصرخ وتصيح بأعلى صوت: تلك مسألة إيمان وعقيدة فوق العقل(151)". إن كل ما أوحى به الله حق على وجه اليقين(152)". ولكن التأمل وحده في الدليل المتاح هو الذي يبيننا إذا كانت الأسفار المقدسة هي كلمة الله، "وليس ثمة قضية يمكن تقبلها على أنها وحي إلهي، إذا كانت تناقض معرفتنا الأكيدة البديهية(153)". وإذا كان في مقدورنا تقرير مسألة ما بمثل هذه الملاحظة المباشرة، فإن معرفتنا تسمو على أي وحي مزعوم، لأنها أوضح وأكثر تأكيداً من أي تأكيد بأن هذا الوحي الذي نحن بصددده إلهي حقاً. ومهما يكن من أمر "فهناك أشياء كثيرة لدينا عنها أفكار غامضة ناقصة، أو ليس لدينا عنها أفكار البتة، وثمة أشياء أخرى لا نستطيع بالاستخدام الطبيعي لمواهبنا، الوصول إلى معرفة شيء عن وجودها في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، مطلقاً، ولكننا فوق العقل، فإنها إذا كشفت، تكون "المادة الصحيحة للعقيدة والإيمان(154)". ويخلص لوك إلى القول: "ليس هناك شيء يناقض أوامر العقل الواضحة البديهية أو لا يلتئم معها، يحق له أن يشجع أو يؤكد على أنه مسألة عقيدة لا دخل للعقل فيها(155)" "وثمة أمانة لا تخطئ" على حب الحق. "ألا نهال ونرحب بأية قضية في تأكيد أكبر مما تجيزه الأدلة التي تقوم عليها القضية(156)". "وينبغي أن يكون العقل أول حكم ومرشد لنا في كل شيء(157)".

صفحة رقم : 11374

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

ومن ثم نشر لوك في 1695 "معقولية المسيحية كما تتقلها الأسفار المقدسة". وأعاد قراءة العهد الجديد، كما يمكن أن يقرأ الإنسان كتاباً جديداً، طارحاً كل التعاليم والتعليقات جانباً (كما قال). وسيطر عليه نيل السيد المسيح المحبب إلى النفس، وجمال كل تعاليمه تقريباً، باعتبارها خير آمال الإنسان وأكثرها إشراقاً. وإذا كان ثمة شيء يمكن أن يكون رسالة إلهية فإن هذه القصص وذاك المذهب تبدو وكأنهما من عند الله. ورأى لوك أن يتقبلها جميعاً على أنها مقدسة، بل أن يقرها أيضاً، في كل أساسياتها، باعتبارها متفقة كل الاتفاق مع العقل. ولكن بدا له أن هذه الأساسيات أكثر اعتدالاً وبساطة من اللاهوت المعقد في المواد التسع والثلاثين، أو اعتراف وستمنستر أو مذهب أثناسيوس. واقتبس من الإنجيل فقرة بعد فقرة، لا تطلب كلها من المسيحي إلا أن يؤمن بالله وبأن المسيح رسول من عند الله. وهنا- كما يقول لوك ديانة بسيطة صريحة واضحة، صالحة لكل إنسان، لا تعتمد على أي فقه أو لاهوت. وفيما يتعلق بوجود الله، فقد شعر لوك "بأن أعمال الطبيعة بكل دقائقها أوفى دليل على وجود الله(158)" وحاول لوك من وجوده هو نفسه أن يبرهن على "سبب أول"، وانتهى إلى أن مثل هذه الخصائص لا بد أن تنسب أيضاً إلى الله، والله "عقل سرمدى خالد(159)" وحينما شكنا نقاد لوك من أنه أغفل بعض التعاليم الحيوية مثل خلود النفس والعذاب المقيم والنعيم المقيم، أجاب بأنه في الاعتراف بالمسيح ارتضى تعاليمه التي شملت تلك الآراء والتعاليم. ومن ثم خرج لوك من الباب الذي دخل منه. ومهما يكن من أمر، فإن لوك ألح على أن تتمتع بالحرية الكاملة في إنجلترا كل المذاهب المسيحية فيما خلا الكاثوليكية. وكان قد كتب مقالاً عن التسامح في 1666. وعندما ارتحل إلى هولندا 1683 وجد هناك من حرية العبادة أكثر مما كان في إنجلترا. ولا بد أنه قرأ أثناء أقامته في هولندا دفاع بيل القوي عن التسامح الديني(1686). وحركت مشاعره هجرة الهيجونوت واضطهادهم (1685) فكتب إلى صديقه لمبروخ رسالة استحثت نشرها. فطبعت باللاتينية 1689 تحت عنوان

صفحة رقم : 11375

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

"رسالة في التسامح" ظهرت ترجمتها إلى الإنجليزية قبل نهاية العام. واستنكرها أحد أساتذة أكسفورد، فدافع عنها لوك، وكان آنذاك في إنجلترا، في رسالة ثانية وثالثة" عن التسامح في 1690/1692. ولم يحقق قانون التسامح الذي صدر في 1689 من مقترحات لوك إلا قليلاً جداً، ذلك أن القانون استبعد الكاثوليك والتوحيديين واليهود والوثنيين وحظر تولي الشؤون العامة على المخالفين. إن لوك أيضاً أتى باستثناءات فلم يكن ليتسامح مع الملحدين حيث رأى أنهم غير أهل للثقة ما داموا لا يخشون إلهاً ولا ديانة توقع عذاباً مادياً، بالتضحية بالإنسان مثلاً، ولم يتسامح مع مذهب يتطلب الولاء لسلطة أجنبية، ومفهوم أنه كان يعني الكتلثة (160). ودعا صراحة إلى التسامح مع المشيخيين والمستقلين، وأنصار تجديد العمامة، والأرميين والكويكرز. ولم يتجاسر على القول بالتسامح مع التوحيديين ولو أن أرل شافتسبري الأول الذي قضي نحبه في أمستردام 1683 كان قد ذكر أنه قد استقى مذهب الأرميين والتوحيديين من سكرتيره لوك (161).

وقال لوك بأن القانون ينبغي أن يهتم فقط بالحفاظ على النظام الاجتماعي. فإن القانون الحق في القضاء على كل ما من شأنه العمل على التخريب في الدولة، ولكن ليس له ولاية ولا سلطان على نفوس الناس، وليس لآية الكنيسة سلطة لإرغام الناس على مشايعتها.. فما أسخف أن يعاقب الناس في الدنمرك لأنهم غير لوثرينيين، أو في جنيف لأنهم لا يتبعون مذهب كلفن، أو في فيينا لأنهم لا يعتقدون المذهب الكاثوليكي. وفوق كل شيء، أي فرد أو أية جماعة أتيح لها إدراك الحقيقة كاملة عن حياة البشر ومصير الإنسان؟ ولحظ لوك أن معظم الديانات تنادي بالتسامح في أياض ضعفها، ولكنها تأباه في أيام قوتها.. ورأى أن الاضطهاد مصدره شهوة السلطان والسيطرة، والحقد المقنع في ثياب الغيرة الدينية. والاضطهاد يصنع المنافقين، أما التسامح فإنه يشجع المعرفة والحق، وكيف يعمد المسيحي إلى الاضطهاد والتعذيب والإساءة، وقد أخذ على نفسه عهداً بالبر والإحسان ومحبة الناس؟ وواصل لوك حملته من أجل التسامح حتى غابت شمس حياته.

صفحة رقم : 11376

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جون لوك

وكان منهمكاً في كتابة رسالة رابعة في نفس الموضوع حين وافته المنية. وعاجله الموت 1704 بينما كان جالساً يصغي إلى ليدي ماشام تتلو المزامير.

وحتى قبل موته كان قد وصل في مجال الفلسفة إلى مكانة لم يسم عليها إلى نيوتن في ميدان العلوم. وتحدثت عنه بالفعل بأنه "الفيلسوف" وعلى حين ختم حياته على تقوى قوية تقليدية تقريباً، فإن كتبه التي لم تكن لتتغير مع الزمن، انتقلت عن طريق الطبقات والترجمات العديدة إلى فكر أوروبا المتعلمة المثقفة. قال شبنجلر: "إن الاستتارة الغربية من أصل إنجليزي ونبعت كلا عقلانية القارة من لوك (162)". وليست كلها بطبيعة الحال. ولكن فيمن يمكن للمرء الآن أن يغامر بمثل هذه المبالغة أو الإغراق؟

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> شافنيسبري

6- شافنيسبري

1713-1671

كان أنطوني آشلي كوبر، أرل شافنيسبري الثالث، تلميذ لوك. مفخرة معلمه. لا لأن لوك كان مسؤولاً عن أسلوبه، فإن العالم النفساني البحاثة كتب نثرًا مبتذلاً، بسيطاً واضحاً عادة (وهنا يكمن الخطر)، ولكنه قلما كان نثرًا جميلاً، فإن شافنيسبري ذا الفراغ والجدة، كتب في تهذيب واثق، ودعابة متسامحة، ورشاقة عالية (فرنسية) تقريباً فقد تنازل السيد الإقطاعي الإنجليزي أن يكون فيلسوفاً. ويجدر بنا أن نقف عنده قليلاً لأنه يكون مؤسس علم الجمال في الفلسفة الحديثة، وبإنقاذه الوجدان والتعاطف من أيدي هوبز ولوك، غدى فيض العاطفة الذي بلاغ ذروته عند روسو. وتحت إشراف لوك، وعلى نهجه في تعليم اللغة بالمحادثة، مكنت اليزابث بيرش التي كانت تحذق اليونانية واللاتينية، أنطوني من قراءة كلتا اللغتين بسهولة وهو في سن الحادية عشرة، ثم التحق بمدرسة ونشستر، وتجول لمدة ثلاثة أعوام تعلم في أثنائها الفرنسية وأساليب الحياة الفرنسية، ومال إلى الفن ميلاً لا بد أنه بدا غير لائق بلورد إنجليزي. ودخل البرلمان لمدة عام واحد وهذا كاف جداً ليظهره على "جور وفساد الحزبين كليهما (163)". ولكن دخان لندن زاد من وطأة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> شافنيسبري

الربو عليه فعاد أدرجه إلى هولندا، حيث وجد الجو الفكري نابضاً بفلسفة سبينوزا وبيل، ومذ حصل على لقب أرل 1690 فإنه قضى بقية أيام حياته في ضيعته الريفية. وتزوج قبل وفاته بأربع سنوات، وكم كانت دهشته حين وجد أنه سعيد كما كان من قبل (164). وفي 1711 نشرت مجموعة مقالاته تحت عنوان شامل "خصائص الإنسان، العادات، الآراء، العصر الحاضر. ولم يمتد به الأجل لأكثر من اثنين وارعين عاماً، حيث فارق الحياة في 1713.

ولم يكن متوقعاً من رجل ورث هذا الثراء العريض على الأرض أن يعنى بأمر السماء أو يقلق باله من أجلها. إنه استنكر "الغيرة"- التي كان زمانه يعنى بها التعصب-غيرة الإنجليز الذين ظنوا إنهم إنما ينطلقون بالوحي الإلهي. إن أية عاطفة جامحة أو كلام عنيف في رأي شافنيسبري دلالة على سوء التربية، ولكنه رأى أنه من الحكمة أن يسخر منهم أكثر من أن يعذبهم. والحق أنه بدا له أن الظرف والدعابة اللتين جعلهما موضوع رسالته الأصلية الخلاقة، هما خير مدخل لأي شيء، حتى اللاهوت. واتفق مع بيل على أن الملحدين مواطنون مهذبون، وأنهم أساءوا إلى الدين والأخلاق أقل مما فعلت وحشية العقائد التي سيطرت واستغلت نفوذها. واعترض على "عبادة وحب اله قلب حول شديد الغيظ، عرضة للحنق والغضب، مهتاج محب للانتقام... يشجع الخداع والخيانة بين الناس، يرضى على قلة من الناس ويقسو على سائر الناس(166)". وعجب مما كان لمتل هذا المفهوم عن المعبود من أثر على خلق الإنسان وسلوكه. وذهب إلى أنه من الخسة والجبن ألا يتحلى الإنسان بالفضيلة إلا أملاً في الثواب أو خوفاً من العقاب. فالفضيلة لا تكون حقيقية صادقة إلا إذا تحلى بها المرء من أجلها هي. ومهما يكن من أمر، وما دام الإنسان هو على ما هو عليه، فمن الضروري أن يغرس في نفسه الإيمان بمتل هذا الثواب والعقاب في المستقبل(167). "إنه من صادق الإنسانية والشفقة إخفاء الحقائق الهامة عن القلوب الواهنة... وقد يكون لزاماً ألا يتحدث العقلاء إلا رمزاً(168)"، وهكذا دافع شافنيسبري عن الكنيسة الرسمية، وحاول أن يوفق بين الإيمان بوجود إله واحد في الفلسفة متفائلة أو جزت الرذيلة في أنها هوى إنساني(169). ومع

صفحة رقم : 11379

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> شافنيسبري

ذلك فإن الكساندر بوب رأى أن كتاب "خواص الإنسان" أساء إلى الديانة المنزلة في إنجلترا أكثر مما أساءت كل مؤلفات الكفار السافرين غير المتحفظين(170). واتفق شافنيسبري مع أرسطو ولوك على أن السعادة هي الهدف المشروع لأفعال الإنسان، وعرف الفلسفة بأنها "دراسة السعادة(171)". ولكنه عارض الهبوط بكل الدوافع الإنسانية إلى مجرد أنانية أو مصلحة شخصية، وطبقاً لهذا التحليل (الذي بسطه هوبز ولاروشفوكول حديثاً): يكون التلطف والكرم الإنساني تجاه الغرباء أو الناس في وقت الشدة، مجرد أنانية أكثر تعمداً. والقلب المخلص الأمين قلب أشد مكرراً، والأمانة والود مجرد حب للذات، ولكنه حب أحسن تنظيمياً وضبطاً. وحب الأقارب والأبناء والذرية إنما هو حب خالص للنفس وللدن المباشر للإنسان... والشهامة والشجاعة، لا ريب، تكيف أو تعديل لحب النفس الشامل هذا(172). وعلى عكس هذا الرأي، زعم شافنيسبري أن الطبيعة الإنسانية مزودة بشكل مضاعف بغرائز للنفخ الشخصي، وغرائز للعيش في جماعة. وأتعد أن المجتمع والدولة ما نشأتا عن العقد الاجتماعي. بل عن "مبدأ القطيع" أو نزعة التزامل... وهي نزعة طبيعية قوية في معظم البشر(173) وهناك "عواطف طبيعية قائمة في حب الجنس البشري. وفي محاولة إرضائه، والشعور الودي نحوه والتعاطف معه... وتوافر هذه العواطف في بالغ قوتها معناه توافر الوسائل الأساسية للمتعة الذاتية، أما الافتقار إليها فهو التعاسة والسقم المحققان(174)". وكون المرء "طيباً صالحاً" معناه توجيه كل ميوله ونزعاته توجيهاً مستقيماً ثابتاً نحو خير الجماعة، وكلما كبرت الجماعة التي توجي بهذه المشاعر وتبثها، حسنت حال النساء فيها. والشعور بهذا التعاطف الاجتماعي هو الوعي الأخلاقي. وهذا شيء فطري، لا من حيث المتطلبات النوعية (التي تختلف من جماعة إلى جماعة) ولكن من حيث أساسه الغريزي، "الإحساس بالصواب

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> شافيتسبري

والخطأ، وهو فنياً أمر طبيعي مثل الميل الطبيعي نفسه، وهو من أول المبادئ في تكويننا(175)". وانتقل شافيتسبري من علم الأخلاق إلى علم الجمال بالمطابقة بينهما. فالطيب والجميل شيء واحد، فالخلق الحسن "هو تذوق الجمال واستساغة كل ما هو مهذب محتشم"، ومن ثم نتحدث عن أعمال معادية لمصلحة المجتمع بأنها قبيحة، حيث أنها تسيء إلى هذا التناسق بين الجزء والكل، وهو صلاح وجمال معاً. ويستطيع المرء أن يجعل من حياته عملاً من أعمال الفن من الوحدة والتناسق بجنسية إحساس جمالي ستكون الأخلاقيات فيه أحد العناصر، والرجل "الذي نشأ خير تنشئة" (هكذا اعتقد الأرستقراطي شافيتسبري) يفعل هذا. وهو بحكم تربيته وتدريبه "لا يقبل أن يأتي عملاً نكراً أو وحشياً(176)" إن ما تشكل لديه من ذوق طيب لا بد أن يوجهه في السلوك وفي الفن معاً. والحق أيضاً لون من الجمال فهو تناسق أجزاء المعرفة مع الكل. ومن هنا نحنا شافيتسبري نحو الكلاسيكية في الفن. وبدأ له الشكل والوحدة والتناسق أساسيات التفوق في الشعر والعمارة والنحت، وهي أقل ضرورة وامتياز في الرسم بالألوان منها في الرسم العادي. وكان في العصر الحديث أول من جعل الجمال مسألة أساسية في الفلسفة، وهو الذي بدأ البحث الذي بلغ ذروته، في أواخر القرن الثامن عشر بلورد كامس وبيرك.

كان هذا جانباً من تأثير شافيتسبري، وهناك جوانب أخرى كثيرة. إن توكيده على الوجدان أثر على الحركة الرومانتيكية، وبخاصة في ألمانيا، عن طريق لسنج وشيلر وجوته وهردر-الذين أسموه "أفلاطون أوربا المحبوب(177)" وظهر هذا الأثر في فرنسا في ديرو وكما ظهر في روسو. أما تفسيره للدين بأنه ضعيف من الناحية النظرية، ولكنه أمر لا يستغني عنه من الناحية الأخلاقية، فقد كان له أثر في أفكار كانت العملية. وظهر توكيده على التعاطف مرة ثانية باعتباره أساس الأخلاق، عند هيوم وآدم سميث. وأسهمت أفكاره عن الفن في تشكيل نشوة ونكلمان الأصيلة الممتازة. إنه بدأ حياته تلميذاً لجون لوك المفكر والذي لم يعن كثيراً بالجماليات فأصبح (وربما بحكم المقاومة الطبيعية في كل جيل لمنشئه) فيلسوف الوجدان والعاطفة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> شافيتسبري

والجمال. وحيث كان يحب الأسلوب الكلاسيكي في الفن، فقد أصبح مصدر إحياء الرومانتيكية في قارة أوربا، ولو أن الشعر والعمارة في إنجلترا تبعنا نزعة الكلاسيكية. وكان له الفضل والفخر في أنه جعل الفلسفة تشرق بركة الأسلوب ورشاقته مما أعاد إلى الذاكرة أفلاطون، ولم ينافسه في هذا بعد ذلك إلا باركلي.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جورج باركلي

7- جورج باركلي

1753-1685

ولد في ديرت كاسل في مقاطعة كيلكني. وفي سن الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتي في دبلن. وفي سن العشرين أسس نادياً لدراسة "الفلسفة الجديدة"، ويقصد بها لوك. وفي الحادية والعشرين بدأ في "الكتاب العادي" وتلك فكرة كان يأمل من ورائها أن يقضي على "المادية" إلى الأبد: أي أنه ليس ثمة شيء موجود إلا إذا كان مدركاً بالحواس، ومن ثم فإن العقل هو الحقيقة الواقعة، والمادة أسطورة أو خرافة: كما كان مذهب المادة أو الجوهر المادي، السند والدعامة الأساسيتان للتشكك، فإنه على نفس الركيزة أقيمت المبادئ البعيدة عن التقى والورع في الإلحاد والمروق عن الدين.... وكما كان الجوهر المادي صديقاً حميماً للملحدين في كل العصور، ممن لسننا في حاجة لذكرهم. أن كل نظمهم الرهيبة البشعة تعتمد عليه اعتماداً سافراً أساسياً، حتى إذا ما انهارت يوماً هذه الركيزة، أو حجر الزاوية في مذهبهم، فإن كل الكيان لم يلبث أن أنهار، مما لا يستحق معه أن نلقي نظرة خاصة إلى حماقات كل شيعة من هؤلاء الملحدين(178).

وهكذا في السنين السبع التالية، وقبل أن يتم التاسعة والعشرين أصدر باركلي أهم أعماله: "بحث عن نظرية جديدة للرؤية" (1709)، رسالة عن أصول العقل البشري (1710)، "ثلاث محاورات بين هيلاسي وفيلونوس في معارضة المتشككين والملحدين" (1713). وكانت الرسالة الأولى إضافة رائعة إلى علم النفس والبصريات، كما هزت الرسائلتان الخيرتان الفلسفة من الأعماق.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جورج باركلي

ونبعث رسالة الرؤية من قطعة لجون لوك يروي فيها كيف أن وليم مولينكس (مدرس في كلية ترنتي، دبلن) أثار أمامه مسألة: هل يستطيع إنسان ولد أعمى، أن يميز بعد استرداد بصره، بالبصر وحده، بين جسم كروي وآخر مكعب إذا كان كلاهما من نفس المادة وفي نفس الحجم. واتفق رأي مولينكس ولوك سلباً. واتفق باركلي معهما وأضاف تحليله الخاص. إن البصر لا يهين لنا إدراكاً حسياً للبعد والحجم والمواقع أو الحركات النسبية للأجسام، إلا بعد التصحيحات

التي تجربها حاسة اللمس، وعن طريق التجارب المتكررة يصبح هذا التصحيح لحظياً تقريباً، وعندئذ يزودنا البصر بمثل هذا الحكم على شكل الأجسام المرئية وبعدها ومكانها وحركتها، كما لو أننا لمسناها: إن الإنسان الذي ولد أعمى، ثم أعيد إليه بصره، لن يكون لديه في أول الأمر فكرة عن البعد عن طريق البصر فإن الشمس والنجوم، وأبعد الأجسام وأقربها على حد سواء، تبدو في عينه، بل في عقله، فالأجسام التي تدخل عن طريق البصر، لا تبدو له (كما هي في الحقيقة) إلا مجرد طائفة جديدة من الأفكار والأحاسيس، كل منها قريب الإحساس بالألم واللذة أو أشد الأحاسيس الداخلية في النفس.. أما حكمنا على الأجسام المدركة بالبصر، على أي بعد، أو بدون العقل، فإنه حكم مبني تماماً على التجربة (180).

فالفناء حينئذ تركيب عقلي، إنه أسلوب للعلاقات التي تبني عن طريق الخبرة للتوفيق بين مدركاتنا بالبصر وباللمس. وأكدت العمليات التي وردت في تقارير الجمعية الملكية (1709-1728) وجهة النظر هذه: فإن فرداً مولوداً أعمى، أعيد إليه بصره عن طريق جراحة أجريت له، كان في أول الأمر "أبعد ما يكون عن الحكم على الأبعاد، إلى حد أنه ظن أن كل الأجسام أياً كانت لمست عينيه... ولم يدرك شكل أي شيء، ولم يميز بين الأشياء، مهما اختلفت في الشكل أو الحجم (181)".

وكان كتاب "أصول المعرفة الإنسانية" نتاجاً رائعاً جديراً بالذكر

صفحة رقم : 11384

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جورج باركلي

لفتى في الخامسة والعشرين. ومرة أخرى تعرض باركلي لمقال لوك. إذا كانت كل المعرفة تأتي عن طريق الحواس، وليس ثمة شيء له حقيقية واقعة لدينا إلا إذا كنا ندركه أو قد أدركناه إدراكاً حسيماً، "موجود أي أنه مدرك". وكان لوك كان قد ذهب إلى أن المدركات قد أحدثتها أشياء خارجية تضغط على أعضاء الحس فينا. وهنا تسأل باركلي: كيف تعرف أن مثل هذه الأشياء (الخارجية) موجودة؟ أسنا نرى في أحلامنا أفكاراً واضحة مشرقة. وضوح وإشراق ما نراه منها في اليقظة. أن لوك حاول أن ينفذ استقلال الحقيقة الواقعة للأشياء بالتمييز بين صفاتها الأولية والثانوية، فهذه الخبرة ذاتية "في العقل"، والصفات الأخرى-الامتداد، الصلابة، الشكل، العدد، الحركة، السكون-موضوعية، توجد في جوهر خفي غامض اعترف لوك بأنه لا يعرف عنه شيئاً، ولكنه، هو والعالم بأسره، جعلوه "والمادة" شيئاً واحداً. والآن أعلن باركلي أن الصفات الأولية ذاتية مثل الثانوية تماماً، وأننا لا نعرف امتداد الأشياء وصلابتها وشكلها وعددها وحركتها وسكونها، إلا عن طريق الإدراك الحسي، وأن الصفات الأولية، بناء على ذلك، ذاتي أيضاً، أي أنها أفكار. والعالم بالنسبة لنا طائفة من المدركات الحسية، "إن العقل هو الذي يشكل هذه المجموعة المتنوعة من الأجسام التي يتألف منها العالم المرئي، ولا يتأتى لأي منها أن يكون موجوداً لفترة أطول مما هو مدرك (182) انزع عن "المادة" صفاتها الأولية والثانوية معاً، تصبح المادة عدماً لا معنى له. وعندئذ يترك "المادي" ليلق عدماً (183).

وكان باركلي على وعي تام بأن آخرين، فضلاً على الماديين قد يعترضون على تبخر العالم الخارجي بمثل هذه البراعة الخادعة. ولم يعجز عن الرد حين سئل: هل يتوقف وجود أثاث المنزل في حجراتنا إذا لم يوجد من يدركه أو يراه (184). إنه لم ينكر حقيقة عالم خارجي لمدركاتنا (185)، وكل ما أنكره هو "مادية" العالم. ويمكن أن تستمر الأشياء الخارجية موجودة ولو لم ندركها أو نراها، وما ذاك إلا لأنها موجودة باعتبارها مدركات في عقل الله (186)، واستطرد يقول إن احساساتنا في الحقيقة تسببها، لا المادة الخارجية، بل القوة الإلهية التي تؤثر في حواسنا. والروح

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جورج باركلي

فقط هي التي تؤثر في الروح. والله هو المصدر الوحيد لكل أحاسيسنا وأفكارنا (187).
 وذهب معاصرو باركلي إلى أن هذا لهو إيرلندي، وكتب لورد تشستر فيلد إلى ابنه:-
 أن الدكتور باركلي الرجل الفاضل العبقرى العالم، ألف كتاباً ليثبت أنه ليس هناك شيء مما يسمونه المادة، وأنه لا يوجد شيء إلا فكرة... وحججه مفحمة، بكل معنى الكلمة، ولكنني أبعد ما أكون عن الاقتناع بها، إلى حد أنني مصمم على أن أكل وأشرب وأمشي وأركب، حتى أحفظ تلك "المادة" التي أتصور خطأ، في الوقت الحاضر، أن جسمي يتكون منها، على أحسن حالة ممكنة (188).
 وكل العالم يعرف ما بذل دكتور جونسون من جهد عظيم في الرد على دكتور باركلي:
 يقول بوزول: بعد خروجنا من الكنيسة، وقفنا لبعض الوقت معاً نتحدث عن سفسطة الأسقف باركلي أو مغالطته البارعة لإثبات عدم وجود المادة، وأن كل شيء في الكون مجرد أفكار، ولاحظت أنه على الرغم من أننا قانعون بأنها غير صحيحة، فإنه من المتعذر إر دحضها. وأن أنسي لن أنسي اندفاع جونسون في الرد، وهو يضرب بقدمه وبقوة شديدة حجراً كبيراً حتى أزاحه فارتد وسمع له صوت، وقال: "إني أدحضها هكذا (189)".
 وربما كان من الجائز بطبيعة الحال أن يوضح باركلي للرجل العظيم (دكتور جونسون) أن كل ما عرف عن الحجر، بما في ذلك الألم الذي أصاب إصبع قدمه، كان ذاتياً: مجموعة من المدركات الحسية تسمى حجراً، مختلطة مع طائفة أخرى من الأحاسيس السمعية تسمى بوزول، ومجموعة من الأفكار التي تعلمتها والتي أشرب بها تسمى

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جورج باركلي

فلسفة، ولدت كلها استجابة أنتجت طاقة أخرى من الأحاسيس. واتفق هيوم مع بوزول وتشستر فيلد في أن حجج باركلي "لا تدع مجالاً لأي رد، ولا تؤدي إلى اقتناع" (190).
 ورأى هيوم أن لغز باركلي ساحر، ولكنه استخلص منه نتيجة مدمرة. وسلم بأن "المادة" تتلاشى عندما نسلبها صفاتها التي تنسبها إليها مدركاتنا الحسية ولكنه أوحى بأن نفس الشيء قد يقال عن "العقل". ولقد رأينا عرض لوك المسبق لهذه النقطة. لكن باركلي تنبأ بها أيضاً. فإنه في المحاوراة الثالثة جعل هيلاس يتحدى فيلونوس:
 أنت تعرف، حقاً بأنك ليس لديك أية فكرة عن نفسك.... وتسلم مع ذلك بأن هناك جوهرأ روحياً، وعلى الرغم من أنه ليس لديك أية فكرة عنه، بينما تتكرر إمكان وجود جوهر مادي، لأنه ليس لديك أي مفهوم أو فكرة عنه. فهل هذا من الإنصاف في شيء؟... أما أنا فيبدو لي، طبقاً لطريقة تفكيرك، وبناء على مبادئك، أن هذا يستتبع أنك مجرد جهاز من أفكار عائمة، دون جوهر يساندها. أن الكلمات لا يمكن استخدامها دون معنى وحيث أنه ليس في الجوهر الروحي معنى أكثر مما هو في الجوهر المادي، فيجب تسفيه كليهما سواء بسواء (191). ويرد فيلونوس (نصير العقل) على هيلاس (الذي يمثل المادة):

كم من مرة يجب أن أعيد وأكرر أنني اعرف أو أنني أعني وجودي وجوهري، وإني أنا نفسي، لا أفكاري، بل شيء آخر عنصر مفكر فعال يدرك بالحواس، ويعرف، ويريد، ويعمل حول الأفكار. أنا أعرف أنني بالذات، أدرك الألوان والأصوات، وأن اللون لا يدرك الصوت، ولا الصوت يدرك اللون، وأني لذلك عنصر فرد، متميز عن اللون والصوت(192).

ولم يقتنع هيوم بهذا الجواب، وانتهى إلى أن باركلي، طوعاً

صفحة رقم : 11387

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جورج باركلي

أو كرهاً، دمر المادة والروح كليهما، وأن كتابات الأسقف اللامع الذي تطلع إلى الدفاع عن الدين، "تشكل أحسن دروس التشكك التي يمكن العثور عليها عند الفلاسفة القدامى والمحدثين على حد سواء، ودون استثناء بيل(193)".

وعمر باركلي أربعين عاماً بعد نشر رسائله الثلاث. وفي 1724 عين رئيساً لكاتدرائية دري. وفي 1728 أبحر، بناء على وعد من الحكومة بإمداده بمعونة مالية، إلى برمودا لينشئ فيها كلية "التقويم عادات الإنجليز في مزارعنا في الغرب-المستعمرات-، ونشر الإنجيل بين الأمريكيين الهمجيين-(194). ووصل إلى نيويورك في رود أيلند ينتظر ورود المنحة الموعودة وقدرها عشرون ألفاً من الجنيهات التي لم يصل منها شيء. وهناك ألف كتاب "الفيلسوف الصغير" ليضع حداً لكل الشكوك الدينية. وترك بصماته على ذهن جونانان ادواردز، وكتب بيتاً مشهوراً "أن الإمبراطورية تشق طريقهما غرباً". وبعد ثلاث سنوات من توقعات لا طائل تحتها عاد إلى إنجلترا. وفي 1734 عين أسقفاً في كلوين. وقد رأينا كيف أن فانيسا صديقة سوبفت جعلته أحد منفذي وصيتها وتركت له نصف ثروتها. وفي 1744 نشر رسالة غريبة "مزايا ماء القطران" الذي قدمه إليه هؤلاء الهمجيين الذين سبق ذكرهم، والذي أوصى به الآن علاجاً للجذري. وقضى نحبه في أكسفورد في 1753 بعد حياة دامت ثمانية وستين عاماً.

ولم يبزه أحد في إثبات عدم واقعية الواقع. وفي جهوده لاستعادة الإيمان الديني وتطهيره البلاد من مادية هوبز التي كانت تلوث إنجلترا وتفسدها، قلب الفلسفة رأساً على عقب، وجعل "كل طبقات السماء وكل ما على الأرض.... كل تلك الأجسام التي تؤلف هيكل الجبار للعالم بأسره(195)"، موجودة بالنسبة للإنسان، باعتبارها مجرد أفكار في عقله. وكانت مغامرة محفوظة بالمخاطر، وربما ارتاع باركلي نفسه إذا وجد هيوم وكانت يقتبس من مبادئه النقية الورعة نقداً للعقل لم يترك أية تعاليم أساسية في صرح الديانة المسيحية العريقة الحبيبة إلا زرع أركانها. أننا لنعجب بدقة نسيج العنكبوت الذي جاء به، ونسلم بأنه منذ أفلاطون لم يكتب أحد مثل هذا الهراء الخلاب. وسنرى أثره في كل مكان من بريطانيا وألمانيا في القرن الثامن عشر، وكان الأثر أقل في

صفحة رقم : 11388

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الفلسفة الإنجليزية -> جورج باركلي

فرنسا، ولكنه تعاضم في تعويذة نظرية المعروفة غير المفهومة عند أتباع كانت في القرن التاسع عشر. وحتى في يومنا هذا لم تقرر الفلسفة الأوربية بعد قراراً حاسماً وجود العالم الخارجي. وحتى توطن هذه الفلسفة نفسها على أقصى احتمال في هذا المجال، وتواجه مشاكل الحياة والموت، فإن العالم سوف يغفلها ويتغاضى عنها. أن هذه الفترة كانت في حقيقتها أزهى فترات الفلسفة الإنجليزية. أن الناقد الذي كان فرانسيس بيكون قد دعه لدعوة المفكرين للعمل بعضهم مع بعض، كان قد سمع بعد أن خمد أوار الحرب الأهلية. وكان هوبز جسراً فوق هذا الفراغ الغبي، وكان نيوتن الرافعة التي حرك عليها نيوتن اللاهوت. وكان لوك القمة التي تحدرت منها مسائل الفلسفة الحديثة في رؤية صافية واضحة. ومن هذا الرباعي الإنجليزي الذي سرعان ما أغراه هيوم الحكيم الغريب بالإثم، دخل إلى فرنسا وألمانيا تأثير قوي. ولم يكن المفكرون الفرنسيون في تلك الفترة على نفس القدر من العمق والأصالة مثل الإنجليزي، ولكنهم أكثر لمعاناً وإشراقاً، من ناحية لأنهم "غالليون"، ومن ناحية أخرى لأن الرقابة الأشد صرامة أرغمتهم على إفراغ همهم في الشكل، ووضع حكمتهم في الرقة والظرف. ثم جاء فولتير إلى إنجلترا 1726، فلما عاد حمل في جعبته أفكار نيوتن ولوك بعد ذلك علم إنجلترا وفلسفتها أسلحة لتمحو ضلالة الخرافة والغموض والجهل. إن قابلة إنجليزية سهرت على ولادة الاستنارة الفرنسية.

صفحة رقم : 11389

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> تقلبات الديكارتية

الفصل الحادي والعشرون

الدين والعقل في فرنسا

1715-1648

1- تقلبات الديكارتية

في 1694 عرف قاموس الأكاديمية الفرنسية الفيلسوف:

بأنه رجل توفر على البحث في مختلف العلوم، واستقصاء آثارها ونتائجها سعياً للوصول إلى أسبابها وأصولها ومبادئها، ويطلق الفيلسوف كذلك على رجل يحيا حياة عادية منعزلة، بعيداً عن صخب الدنيا ومناعبها. ولقد يطلق أحياناً على الرجل الهوش الذهن الذي يعتبر نفسه فوق مسؤوليات الحياة المدنية وتبعاتها (1). ومن الفقرة الأولى من هذا التعريف يتبين أنه لم يكن بعد ثمة تمييز بين الفلسفة والعلم، فالعلم باعتباره "فلسفة طبيعية" يمكن أن يكون فرعاً من الفلسفة، حتى القرن التاسع عشر. ومن العبارة الأخيرة من هذا التعريف نستنتج أن "الأربعين الخالدين" في عهد لويس الرابع عشر قد اشتهوا رائحة الثورة في جو الفلسفة، وكان المبشرين بعصر الاستنارة أو رواده الأوائل كانوا قد افتتحوها بخطاب تمهيدي.

وبين التفرعات الثلاثة لهذا التعريف تذبذب التراث العقلي لرينيه ديكارت بين ذبوع الصيت والإنكار. وكان للتراث نفسه ثلاثة أبواب، ردد أحدها صوت الشك أساساً واستهلاً لكل فلسفة، وأعلن الثاني عن الآلية الشاملة للعالم الخارجي، وأما الثالث فقد عزف ألحان الترحيب بالعقيدة التقليدية، وأخرج الله والإرادة الحرة والخلود من دوامة العالم. وكان ديكارت قد بدأ بالشك وانتهى بالتقوى، واستطاع خلفاؤه أن يتناولوه على أي من الوجهين. إن نساء الندوة القديمة-

صفحة رقم : 11390

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> تقلبات الديكارتية

السيدات المثققات-اللائى هاجن مولير 1672-وجدن بعض الراحة المثيرة من المسبحة في دوامة الكوزمولوجيا الجديدة (علم الكونيات) وقالت مدام سيفيني عن فلسفة ديكارت بأنها موضوع حديث ما بعد العشاء في ندوتها، وأنها، ومام جرينان، ومام دي سابل، ومام دب لافاييت كن جميعاً من نصيرات الديكارتية.. وكانت النساء البارزات في المجتمع تشهدن المحاضرات التي يلقيها أتباع ديكارت في باريس (2). وتبنى كبار النبلاء النهج الفلسفي. وكانت الندوات الديكارتية تعقد أسبوعياً في قصر دوق دي لوين، وف يقصر الأمير دي كونديه في باريس، "وفي أفخم فنادق العاصمة (3). وعلمت الطوائف الدينية-الوعاظو-البندكت والأوغسطين-الفلسفة الجديدة في مدارسها. وأصبحت أسلوباً جديداً لتمجيد العقل في العلم والشؤون الإنسانية، مع إخضاعه بدقة، في الدين، للوحي الإلهي كما فسرتة الكنيسة الكاثوليكية. وتقبل أنصار جانيس وكنيسة يورت رويال الديكارتية باعتبارها توفيقاً رائعاً بين الدين والفلسفة. ولكن ألمع المرئدين فيهم، بليزبسكال استنكر الديكارتية مدخلاً للإلحاد، وقال "لن لأغفر لديكارت، ربما كان مغتبطاً، وفي كل فلسفته، بالاستغناء عن الله، ولكنه ما كان في مقدوره أن يتحاشى السماح له بنقرة بطرف الإصبع ليحرك العالم، بعد أن في غير حاجته إلى الله (4)". وفي هذه النقطة اتفق اليسوعيون مع بسكال، وبعد 1650 نبذوا الديكارتية باعتبارها وسيلة مأكرة خبيثة لتقويض أركان العقيدة الدينية. وأرادت السوربون حرمان ديكارت من حماية القانون، فدافع عنه بوالو، وحرص نينودي لنلكوس وغيره مولير على هجاء السوربون، فأذعنت للنقد وتوقفت (5). أما العلامة هيوت الذي ناصر الديكارتية لأمد طويل. فإنه انقلب عليها لأنها لم تقف من المسيحية موقفاً ثابتاً، تناولها بالمديح تارة وبالتجريح تارة أخرى. وتزايد انزعاج رجال اللاهوت لصعوبة التوفيق بين تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، وبين وجهة مظر ديكارت في "المادة" باعتبارها امتداداً خالصاً. وفي 1665 حرم لويس الرابع عشر تدريس الفلسفة في الكلية الملكية، وفي 1671 امتد هذا الحظر إلى جامعة باريس، وفي 1687 اشترك بوسويه في الهجوم على الديكارتية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> تقلبات الديكارتية

وأثارت هذه الاتهامات وتلك الإدانة الاهتمام بالديكارتية من جديد. وجذبت الأنظار إلى مذهب الشك الذي أدخله "بحث في المنهج"، وانتشر الشك الأولى الذي جاء به هذا المقال خفية، أما ملحقاته أو ذبوله القويمة المستقيمة فقد ذبلت وانطفأت جذوتها. وما كان يبقى في القرن الثامن عشر شيء من هذا "المنهج" الذي كان يوماً ظافراً منتصراً اللهم إلا محاولته الهبوط بالعالم إلى مجرد آلة "ماكينة" تدعن لقوانين الفيزياء والكيمياء. وبدا أن كل اكتشاف جديد في العلوم يؤيد "آلية" ديكارت، ويضعف الثقة في لاهوت ديكارت. ولم يوجد مكان لرب إبراهيم واسحق ويعقوب في الصورة التي وضعها ديكارت للكون، كما أن المسيح لم يكن ماثلاً فيها. ولم يبق إلا رب عملاق أعطى العالم دفعة أولية، ثم تقاعس، اللهم إلا بوصفه كفيلاً وضامناً لأحداس ديكارت، وهذا لم يكن الرب المهيب الرهيب الذي ورد ذكره في العهد القديم، ولا الأب الرحيم الذي ورد ذكره في العهد الجديد، أنه كان رب "الربوبيين"، غير مشخص ولا عمل له، جدير بالإهمال، تخضع لمختلف القوانين، فمن ذا الذي يفكر في الصلاة من أجل هذا العبث الأبيقوري؟ وبالفعل في عامي 1669 و1678 شرحت كتب غليوم لامي الأستاذ بكلية الطب في جامعة باريس، علم نفس ميكانيكي تماماً، واستنقت بذلك كتب كوندياك "في الأحاسيس" (1704) كما شرحت فلسفة مادية استنقت كتاب لامتري "الإنسان آلي" (1748). وفي غمرة هذا العراك قام سيرانو دي برجرانك برحلاته المخزية إلى القمر والشمس.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> سيرانو دي برجرانك

2- سيرانو دي برجرانك

سيرانو بالنسبة لمعظمنا هو العاشق الولهان الذي قلده الروائي روستان ساخرأ، والذي خسر في كل سباق مع ربوات الجمال وهو على وشك الفوز بالوصول. ولكن سيرانو الحقيقي لم يخب رجاؤه إلى هذا الحد، بل تتعم بالحياة وبالحب، وقضى وقت مستمتعاً كل المتعة. وإلى التعليم المألوف الذي يتلقاه كل فتى كريم المحتد، أضاف سيرانو (مع موليير) الاستماع في شغف ولهف إلى محاضرات بيير جاسندي القسيس المحبوب الذي أولع بأبيقور المادي ولوكريشس الملحد. وأصبح سيرانو روحاً قوية بشكل خاص، فاسقاً بما تحمل هذه الكلمة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> سيرانودي برجر الك

من معنيين، منكرأ حراً يحيا حياة خليعة مطلقة من كل قيد. وانضم في باريس إلى جماعة دأبت على الصخب والعريضة وتدنيس المقدسات، وذاع صيته في المبارزة. وخذ في الجيش، وأعدته جراحة لبعض الوقت من العمل. ثم انصرف عن الملذات الجنسية إلى فلسفة. وكتب أول رواية فلسفية فرنسية، وفتح الطريق أمام سويقت بالسخرية من بني الإنسان في رحلات إلى أجزاء من العالم لم تطأها قدم. وسخر من القديسين أو غسطين الوقور "الشخصية العظيمة" الذي يؤكد لنا، على الرغم من أن الروح القدس أنار جوانب عقله، أن الأرض كانت على عهد مسطحة مثل التتور، عائمة على الماء مثل نصف برتقالة(6).

وجرب سيرانو قلمه في كل ألوان الأدب تقريباً، وقلما كان يأخذ أي لون مأخذ الجد، ولكنه كان عادة يضرب على الوتر الحساس-وبدت ملهاته "المتحدلق اللعوب" في نظر موليير صالحة لأن يسرق منها مشهداً أو مشهدين، أما مأساته "موت أوجربين" فقد مثلت مرة في 1640، حتى تصل خشبة المسرح ثانية في 1660، ولكنها نشرت في 1654، وسرعان ما تغنى شباب باريس الطائش المتهور بأبيات الإلحاد التي وردت على لسان سيجان: "ماذا يكون هؤلاء الأرباب إذن؟ نتاج مخاوفنا وهرائنا التافه، نعيها دون أن ندرك لهذا سبباً.... أرباب لم يصنعهم إنسان، ولم يصنعوا هم إنساناً قط". ثم الأبيات تتحدث عن الخلود: "بعد ساعة واحدة من الموت تعود نفوسنا التي زالت من الوجود، سيرتها قبل الخروج إلى الحياة بساعة".

وبعد طبع هذه الرواية سرعان ما سقطت على أم رأسه عارضة أودت بحياته وهو في سن السادسة والثلاثين، وترك وراءه مخطوطة طبعت في جزأين تحت عنوان "التاريخ الهزلي لدول وإمبراطوريات القمر" (1657) "والتاريخ الهزلي لدول وإمبراطوريات الشمس" (1662)، وكانتا نوعاً من القصص العلمي، المبني على "كُونيات" ديكارت، مستمداً الكواكب من دواماتها التي كونتها الإهاجة الثورية

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> سيرانودي برجر الك

في المادة البدائية. وذهب سيرانو إلى أن الكواكب كانت يوماً متوهجة مثل الشمس ولكن، بمرور الزمن فقدت كثيراً من ضوئها وحرارتها بفعل الانبعاث المستمر لخلاياها التي تحدث مثل هذه الظاهرة، حتى أصبحت باردة معتمة، وليابياً وهناً تقريباً. إننا نرى حتى البقع الشمسية يكبر حجمها يوماً بعد يوماً. وما يدرينا الآن أن هذه البقع ليست إلا قشرة على سطح الشمس كتلتها التي تبرد تبعاً لفقدان الضوء، أن الشمس لن تصبح كرة معتمة مثل الأرض(7)؟

ودفعته الصواريخ فغادر الأرض حتى وصل بسرعة إلى القمر. ولحظ أنه طيلة ثلاثة أرباع المسافة، كان يحس بأن الأرض تشده إلى الوراء، وفي المربع الأخير أحس بجاذبية القمر. "فقلت في نفسي أن هذا راجع إلى أن كتلة القمر أصغر من كتلة الأرض، ومن ثم يكون محيط تأثيره أصغر من حيث المسافة(8). وعندما هبط وقد أصابه الدوار، وجد نفسه في جنة عدن، ويدخل في مناقشة مع الياهو (الله) حول الخطيئة الأولى، فيطرد من الجنة إلى القفار البدائية في القمر. وهناك يواجه قبيلة من الحيوان طول الواحد منها تسعة أذرع، في زي الرجال، ولكنها تمشي إلى أربع. ولما كان أحدهم الروح الحارسة لسقراط أو شيطانه في أثينا من قبل، فإنه تحدث بلغة يونانية فلسفية، ويقول لسيرانو أن المشي على أربع هو الطريقة الطبيعية الصحية، وأن هؤلاء السادة القمريين لديهم مائة حاسة لا خمساً أو ستاً فقط، وأنهم يدركون من الحقائق ما لا يحصى ولا يعد، مما يخفى على بني البشر (وقد تلاعب فونتيا وفولتير وديدرو بهذه الأفكار). ويجمع خيال سيرانو: أن هؤلاء القمريين يتغذون على الأبخرة التي تتصاعد من الأطعمة لا على الأطعمة ذاتها، ومن ثم يتخلصون من متاعب الهضم ومضايقاته، ومن مهانة خروج الفضلات من الجسم ومفارقاته. وقوانين القمر يسنها الشبان الذين يجلبهم ويحترمهم الشيوخ، وأهل القمر هؤلاء يستكرون العزوبة والتبتل والعفة، ويمتدحون الانتحار وإحراق جثث الموتى والأنوف الكبيرة. ويوضح شيطان سقراط سالف الذكر أن الدنيا لم تخلق، بل

صفحة رقم : 11395

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> سيرانودي برجر الك

أزلية، وأن الخلق من الهدم (تعلم هذا عن الفلاسفة السكولاسيين) أمر لا يمكن تصوره، وأن أزلية الكون فكرة ليست أصعب تقبلاً من أزلية الإله، والحق أن فرضية وجود إله ليست ضرورية على أية حال، حيث أن العالم آلة تتدفع وتستمر بذاتها. ويجادل سيرانو في أنه لا دب أن يكون هناك إله لأنه رأى بعيني رأسه علاجات خارقة معجزة، فيسخر الشيطان من هذا كله باعتباره ضرباً من الإيحاء أو التخيل، ويثار أثيوبي قوي جبار للعقيدة القويمة، حيث يمسك بسيرانو بإحدى يديه، وبالشيطان باليد الأخرى، ويلقي بالشيطان في الجحيم، وفي الطريق يقذف بسيرانو في إيطاليا، حيث تتبجح كل الكلاب من حوله حين اشتمت منه رائحة القمر. وكذلك انجذب انتباه جونانان سويفت.

صفحة رقم : 11396

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> مالبرانش

في مقابل افتتاح الموصوم بالكفر والمروق عند جاسندي وديكارت، وجد الإيمان سندا قويا، لا في باسكال وبوسوييه وفنيلون فحسب، بل في واحد من أدق وأبرع الميافيزيقيين في العصور الحديثة كذلك. كاد نيقولا مالبرانش أن يكون معاصراً للويس الرابع تماماً، فقد ولد قبله بشهر، ومات بعده بشهر. ولم يكن ثمة شبه بينهما إلا هذا. وكان نيقولا وديع النفس طاهر الذيل، ومذ كان أبوه سكرتير لويس الثالث عشر، وعمه نائب الملك في كندا، فقد اجتمع له كرم المحتد وحسن التنشئة، اللهم إلا صحته، فقد كان جسمه ضعيفاً مشوهاً. وليس ثمة ما يفسر أنه عمر حتى السابعة والسبعين إلا التزامه بساطة العيش وهدوء الحياة في الدير. وفي الثانية والعشرين من عمره انضم إلى "جماعة المصلين" وهي طائفة دينية تفرغت للتأمل والوعظ، ورسم قسيساً في السادسة والعشرين. وفي العام نفسه وقع على كتاب ديكارت "رسالة عن الإنسان"، وابتهج رطيقه المناقشة والأسلوب معاً، وأصبح ديكارنياً ذا إيمان راسخ بالعقل. وعقد العزم لفوره على أن يبرهن بالعقل على المذهب الكاثوليكي الذي نبتت فيه جذور حياته ووضع فيه كل أماله، وكانت هذه خطوة جريئة، ارتداداً من بسكال إلى توما الأكويني. وهي خطوة كشفت عن الثقة العميقة في الشباب، ولكنها عرضت حصون

صفحة رقم : 11397

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> مالبرانش

الإيمان لغارات العقل. وبعد عشر سنوات من الدرس والكتابة أصدر مالبرانش في أربعة مجلدات (1674) تحفة من روائع الفلسفة الفرنسية تحت عنوان "البحث عن الحقيقة". وهنا، كما هو الحال في كل فلاسفة فرنسا، كان وضوح الالتزام الخلقي وإدراكه أمراً مقبولاً، وأصبحت الفلسفة أدباً. ولم يكن ديكارت قد بدأ دراساته المضنية عن النفس فحسب، بل كان قد وضع مثل هذه اللهو بين الجسم مادياً وميكانيكياً وبين العقل روحياً وحرراً، بحيث لا يمكن تصور أي تفاعل بينهما. ومع ذلك بدأ هذا التفاعل أمراً لا نزاع فيه: إن فكرة قد تحرك ذراعاً أو جيشاً، مخدراً قد يشوش الذهن. وكان نصف حيرة خلفاء ديكارت في عبور الهوة بين الجسم والفكر. إن فيلسوفاً فلمنكياً هو أرنولد جيلنكس مهد الطريق أما مالبرانش-وسبينوزا وليبنتز-بانكاره التفاعل. إن الجسم المادي لا يؤثر في العقل غير المادي، والعكس بالعكس، وإذا بدا أن أحدهما يؤثر في الآخر، فما ذلك غلا لأن الله قد خلق الحقيقة في مجريين متميزين للأحداث، أحدهما مادي والآخر عقلي، وتزامنها أشبه بتزامن ساعتني حائط على نفس الوقت والسرعة، تدقان نفس الساعات في وقت واحد، ولكنهما الواحدة منهما مستقلة عن الأخرى، اللهم إلا أن كليهما من مصدر واحد-الذكاء الذي وضعهما وبأهما. ومن ثم يكون الله هو المصدر الوحيد لكل من سلسلتي الأسباب والنتائج المادية والعقلية. والحالة العقلية هي الفرصة المناسبة، لا السبب، للحركة المادية الناشئة ظاهرياً، والحركة المادية-عملاً أو إحساساً-هي مجرد فرصة للحالة العقلية التي تبدو أنها تسببها، والله، في كل حالة، هو وحده العلة أو السبب. وعند هذه النقطة نقض جيلنكس، الذي

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> مالبرانش

كأنه يخشى الجبرية، منهجه، حيث أجاز القول بأنه في العمال الإرادية يمكن أن تكون الإرادة الإنسانية المتعاونة مع الله، سبباً حقيقياً للنتائج المادية.

وأكمل مالبرانش من مذهب "الاتفاقية" المتردد هذا. فإله دائماً هو سبب كل من العمل المادي والحالة العقلية، وتفاعلها صوري، ولا يتفاعل أي منهما مع الآخر. "أن الله وحده يرد الهواء الذي جعلني هو أتتفسه... لست أنا الذي أتتفس، أنني أتتفس على الرغم مني. لست أنا أتحدث إليك، وكل ما هنالك أنني أرغب في التحدث إليك(9)". أن الله (الطاقة الكلية للكون) هو القوة الوحيدة. وكل ما يتحرك ويفكر، إنما يفعل هذا لأن القوة الإلهية تعمل من خلال العمليات المادية (البدنية) أو العقلية. والحركة هي الله يعمل في أشكال مادية، والتفكير هو الله يفكر في داخلنا.

إن هذه الفلسفة الجبرية بشكل واضح تكتنفها صعاب لا تحصى حاول مالبرانش أن يتغلب عليها في رسائل لاحقة. وحاول جاهداً التنسيق بين درجة من الإرادة الحرة في الإنسان وبين قوة الله الشاملة للكون، والتوفيق بين الشر والشقاء والنزعات الشيطانية المتعددة، وبين السببية أو العلية الوحيدة الموجودة في كل الوجود لنزعة خيرة علية قديرة، ولن نتعقبه في هذه المتاهات، ولكنه في أثناء جولاته وصولاته يترك لنا قيساً معيناً في علم النفس. فهو يرى أن الأحاسيس في الجسم لا في العقل. وفي العقل أفكار، وهو يعرف الأشياء باعتبارها فقط طوائف من الأفكار من التركيب، والحجم واللون والرائحة والصلابة والصوت والحرارة والطعم. ومكبات الأفكار هذه ليست في الشيء نفسه، وكثير من أحكامنا على شيء-أنه كبير أو صغير، منير أو مظلم ثقيل أو خفيف، حار أو بارد، يتحرك بسرعة أو ببطء-تصف موقع المشاهد وحالته ووضع، لا لصفات الشيء الذي يشاهده. ونحن لا نعرف الأشياء. وكل ما نعرفه هو مدركاتنا وأفكارنا المتحيزة المتحولة. (وكل هذا قبل لوك باركلي بجيل واحد).

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> مالبرانش

وعلى الرغم من الخلفية الروحانية عند مالبرانش فإنه، بعد ديكارت وهوبز، يمدنا بتفسير فسيولوجي للعادة والذاكرة وتوارد الخواطر فالمادة هي خفة أو رشاقة تفيض بها الأرواح الحيوانية، نتيجة للخبرات أو الأفعال المتشابهة التي غالباً ما تتكرر، إلى أحماد أو فنوات معينة في الجسم. والذاكرة هي استعادة نشاط الخواطر التي نشأت في الخبرة، فإن الخواطر تميل إلى الترابط تبعاً لتسلسلها أو امتدادها المتصل السابق، وقوة الشخصية وقوة الإرادة هما قوة الروح الحيوانية التي تندفق في أنسجة المخ، فتعمل على تعميق مجاري الترابط، وزيادة نشاط الخيال والتصور.

وعلى الرغم من تمسك مالبرانش بأهداب التقوى فقد كان في فلسفته عناصر كثيرة أزجعت بنين بوسويه الحارس اليقظ الأمين على العقيدة التقليدية القويمة. وفي حركة بارعة لتحويل أنطوان أرنولد ذي القلم اللاذع عن المنطق الجانسيني إلى نجدة العقيدة القويمة، نجد بوسويه يحرض أرنولد هذا على تأنيب مالبرانش لهرطقته المستنزة. ودافع الفيلسوف عن نفسه في عدة رسائل فصيحة لا تصدق مثل الرسالة الأولى، واستمر الجدل من 1683-1697، وجلب

بوسيويه مدفعية فنليون الخفيفة إلى ساحة المعركة. ولما رأت مدام سفيني Sevine الفيران تلتهم محصولاتها، ويرقات الفراشات تلتهم أشجارها، شكت من أنها لم تجد إلا قليلاً من العزاء في وجهة نظر مالبرانش من أن البشر عنصر ضروري في أحسن ما يمكن من العوالم (10).

وكان لمالبرانش أصدقاء غيرون كثيرين يمكن أن يتوازنوا مع هؤلاء النقاد، فقد وجد الشباب وعجائز النساء في نظريته عن الله عاملاً وحيداً في كل الأفعال، سروراً باطنياً في الاستسلام لأمر الله والاتحاد مع الله. وشق الفرنسيون والأجانب طريقهم إلى صومعته. وقال أحد الإنجليز أنه ما قدم إلى فرنسا إلا ليرى اثنين طبقت شهرتهما الآفاق: لويس الرابع عشر ومالبرانش (11).

وجاء باركلي، وقدم لفيلسوفنا كل إجلال واحترام ودخل مع الكاهن العجوز في نقاش طويل. وسرعان ما دب الضعف إلى مالبرانش بعد ذلك، وكان في السابعة والسبعين، وأخذ في الذبول والنحول

صفحة رقم : 11400

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> مالبرانش

يوماً بعد يوم، حتى لم يكده عقله يجد في جسمه مجالاً أو حيزاً للتفكيره. وفي 13 أكتوبر 1715 فاضت روحه وهو نائم. وخبث جذوة شهرته وشيكا بعد موته، لأن فلسفته الدينية لم تتسجم مع تشكك وصاية العرش وعربدتها، كما أنها كانت أقل انسجاماً مع النزعة الناشئة عند الفلاسفة لإحلال "ماكينة" العالم محل العناية الإلهية. ولكن تأثيره ظهر في محاولة ليبنتز لإظهار أن الواقع هو أفضل عالم ممكن، من وجهة نظر باركلي أن الأشياء موجودة فقط في إدراكنا الحسي أو في أدراك الله، وفي تحليل هيوم المدمر لسبب أو العلة باعتبارها صفة خفية مستترة، وفي تأكيد كانت على العناصر الذاتية في تكوين المعرفة، حتى في نظرية الجبرية في عصر الاستنارة. فإن القول بأن الله هو السبب الوحيد في كل الحركات والرغبات والأفكار، لا يختلف كثيراً عن القول بأن كل تغيير في المادة أو في العقل نتيجة لا مناص منها للقوى التي تعمل في الكون تلك اللحظة. وفي ساعة نشوة كان مالبراش قد اقترب -ولو أنه أنكر ذلك- من جبرية جعلت من الإنسان آلة ذاتية الحركة (إنساناً أوتوماتيكياً).

إن مذهب الاتفاقية كان، فوق كل شيء حلاً وسطاً بين ديكرت وسبينوزا. رأى ديكرت الآلية أو الميكانيكية في المادة. ولكن الحرية في العقل. ورأى مالبرانش أن الله هو السبب الوحيد في كل عمل في كل عقل. واتفق سبينوزا، وهو ثمل بنشوة الوجد الإلهي "مثل أي راهب، مع مالبرانش في أن سلسلتي الأعمال العقلية والمادية كلتيهما هما نتاج متواز لقوة خلاقة واحدة. أن العابد المتأمل الورع مذ رأى الله موجوداً في كل الوجود، كان قد لقن، عن غير عمد منه، حتى المؤمنين، "وحدة وجود" (الله والطبيعة شيء واحد، الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية)، لم ينقصها إلا عبارة "الله أو الطبيعة" لتصبح فلسفة سبينوزا أو فلسفة عصر الاستنارة.

صفحة رقم : 11401

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

كان "أبو الاستتارة" ابن قسيس من الهيجونوت يعمل في مدينة كارلا في مقاطعة فوا في سفح البرانس، حيث قضى بيير هناك الاثني عشر عاماً الأولى من عمره، يتعلم اليونانية واللاتينية والكلمانية.

صفحة رقم : 11402

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

وكان شاباً رقيق الشعور سريع التأثر. وفي 1669 أرسل إلى الكلية صائراً. وفي 1669 اليسوعية في تولوز ليتلقى أحسن تعليم كلاسيكي يمكن أن توفره له أسرته ومواردها، فأحب أساتذته حباً جماً، وسرعان ما تحول إلى الكاثوليك في حماسة بلغت به إلى درجة محاولته تحويل أبيه وأخيه إليها. فاحتملاه في صبر وجلد، وبعد ذلك بسبعة عشر شهراً عاد إلى مذهب أبيه. ولكنه بات الآن هرطيقاً مرتداً. فكان عرضة لملاحقة الكنيسة الكاثوليكية له. فأرسله أبوه حماية له منها، إلى الجامعة الكلمانية في جنيف (1670)، أملاً في أن يلتحق بيير بخدمة الكنيسة البروتستانتية وهناك على أية حال وقع بيل على مؤلفات ديكارت، وبدأ يتسرب إلى نفسه الشك في كل أشكال المسيحية.

وبعد استكمال دراسته أقام في جنيف وروان وباريس مشغلاً بالتدريس، ثم ارتقى إلى أستاذ للفلسفة في معهد الهيجونوت في سيدان (1675). ولكن المعهد أغلق في 1681 بأمر من لويس الرابع عشر كجزء من حرب الاستنزاف ضد مرسوم ناننت، ووجد بيير له ملجأ في روتردام، والتحق بوظيفة أستاذ للتاريخ والفلسفة في "المدرسة الكبيرة"، أكاديمية البلدية. وكان من أوائل المفكرين المهاجرين الكثيرين الذين اتخذوا من الجمهورية الهولندية في ذلك الزمان قلعة للفكر المستقل.

وكان راتبه ضئيلاً، ولكنه قنع بالعيش البسيط ما دام في مقدوره الحصول على الكتب. ولم يتزوج قط، مؤثراً المكتبة على الزوجة. ولم يكن غير مدرك لمفاتيح النساء وأفضالهن، وربما شكر لأية سيدة فاضلة كريم عنايتها به، ولكنه عانى طوال حياته من الصداع، ومن "دوار نصفي" أو انقباض في الصدر واكتئاب يلازمه، ولا ريب في أنه تردد في إشراك قرينة له فيما يعانیه من علل وأمراض. ومهما يكن من أمر فقد كانت تمر به لحظات ينزع فيها إلى السخرية، ذلك أنه عندما حاول الأب ميمبورج اليسوعي الفرنسي في كتابه "تاريخ الكلمانية" أن يبرهن على أن القساوسة الكاثوليك كانوا قد قبلوا التحول إلى البروتستانتية رغبة في الزواج، تساءل بيل: كيف يمكن أن يكون هذا، "فأية محنة أكبر من الزواج؟" (12).

وعرض بيل كتاب ميمبورج في مجلد من الرسائل ظهر في

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

1682. وعجب كيف يتسنى لرجل التزم التزاماً قوياً بمذهب معين، أن يكتب تاريخاً صادقاً نزيهاً غير متحيز. كيف يمكن أن يوثق في مؤرخ مثل ميمبورج نعت معاملته لويس الرابع عشر لهيجونوت (قبل 1682) بأنها معاملة "عادلة رقيقة كريمة؟" ووجه الخطاب إلى لويس الرابع عشر، فكتب من هولندا التي كانت فرنسا قد اجتاحتها حديثاً بشكل وحشي أليم، متسائلاً: أي حق لملك في فرض مذهبه الديني على رعاياه؟ وإذا كان له هذا الحق، لكان للأباطرة الرومان ما يبزر اضطهادهم المسيحية. وذهب بيل إلى أن الضمير هو وحده الذي يحكم عقيدة المرء. ورد ميمبورج على ذلك رداً حاسماً بالحصول على أمر من لويس الرابع عشر بإحراق أية نسخة توجد في فرنسا من كتاب بيل بواسطة السلطات المختصة.

وفي العام نفسه، 1682، أصدر بيل أول أعماله الهامة "آراء شتى حول المذنب" وهو النجم المذنب الذي كان قد عبر السماء في ديسمبر 1680. وتولى الفرع أوربا بأسرها لهذا النجم الذي بدا أن النار في ذنبه تنذر بإحراق العالم. أننا إذا رجعنا إلى الوراء لنشارك ذلك العصر خوفه وجزعه حين فسر الكاثوليك والبروتستانت على السواء هذه الظاهرة بأنها نذر إلهية، واعتقدوا أن الله سيرسل صاعقة من السماء على الأرض الخاطئة الأثمة في أية لحظة، فإننا عندئذ فقط نستطيع أن ندرك مدى الرعب الذي انتاب الناس عند ظهور هذا اللهب على غير انتظار، أو أن نقدر مدى الشجاعة والحكمة في تعليقات بيل عليه. إن العلامة ملتون نفسه كان قد قال حديثاً "أن النجم المذنب ينشر من شعره المروع الطاعون والحرب" (13). أن بيل أسس بحثه على الدراسات الحديثة التي أجراها الفلكيون (ولكن لم يكن نجم هالي 1682 قد ظهر بعد)، ومن ثم أكد لقرائه أن النجوم المذنبية تتحرك في السموات طبقاً لقوانين ثابتة وليس لها أي علاقة بشقاء البشر أو سعادتهم. ورأى لانتشار الخرافات وإلحاحها على عقول الناس. "أن الذي يقفون زلات العباد ملتصقاً بأسبابها لن ينتهي من ذلك أبداً (14)". ونبذ الإيمان بكل المعجزات إلا ما ورد منها في العهد الجديد "الإنجيل"، (ولولا هذا الاستثناء، لما سمح بطبع الكتاب في هولندا). "في الفلسفة الصحيحة، ليست الطبيعة إلا الله نفسه،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

يعمل وفق قوانين معينة استنتها سبحانه وتعالى بمحض إرادته. ومن ثم فإن أعمال الطبيعة هي من آثار قدرة الله وقوته مثل المعجزات سواء بسواء، كما أن هذه العمال تدل على وجود قدرة عظمى مثل تلك التي تدل عليها المعجزات. وأن خلق إنسان وفق قوانين التناسل الطبيعية، لا يقل صعوبة عن قيامة إنسان من بين الأموات (معجزة المسيح) (15). وانتقل بيل في جراءة إلى واحدة من أكثر مسائل التاريخ تعقيداً: هل يمكن أن يكون هناك علم أخلاق طبيعي-هل يمكن الاحتفاظ بقانون أخلاقي دون عون من معتقد خارق للطبيعة؟ هل أدى الإلحاد إلى إفساد الأخلاق؟ يقول بيل: إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن نستنتج من الجريمة والفساد وسوء الخلق السائد في أوربا أن معظم المسيحيون ملحدون في

قرارة أنفسهم. أن اليهود والمسلمين والمسيحيين والكفار يختلفون في عقائدهم الدينية، لا في أفعالهم وتصرفاتهم. وظاهر أن المعتقد الديني والأفكار بصفة عامة ليس لها إلا تأثير ضئيل على السلوك، فهذا السلوك ينبع من الرغبات والانفعالات، وهي عادة أقوى من المعتقدات. وأي تأثير كان لتعاليم المسيح على مفهوم الأوربيين للشجاعة والشرف؟ ذلك المفهوم الذي أختص بأعظم المديح والثناء الإنسان الذي يثار في عنف وقوة للإساءة والأذى، والذي يبرع في فنون الحرب باختراع ما لا يحصى من الآلات حتى يكون الحصار أشد فتكاً وإرهاباً وإزعاجاً. أن الكفار يتعلمون منا أن مجتمعاً من الملحدين قد لا يكون أسوأ خلقاً من مجتمع من المسيحيين. ليس الذي يحمل معظمنا على التمام جادة الصواب والنظام هو الخشية من الجحيم، وهذا أمر بعيد غير يقيني، قدر خوفنا من رجل الشرطة ومن القانون، ومن إدانة المجتمع لنا. ومن العار الذي يلحق بنا، ومن الجلال، خل بيننا وبين هذه العوائق تعم الفوضى فإذا تمسكت بها لأمكن أنه يقوم مجتمع من الملحدين والحق أنه قد يضم رجالاً كثيرين على درجة رفيعة من الشرف ونساء كثيرات طاهرات عفيفات (17). وإنا لنسمع عن نماذج من هؤلاء الملحدين في الأزمنة القديمة، مثل أبيقور وبليني الأكبر وبليني الأصغر، وفي العصور الحديثة مثل ميشيل دي لوبيتال وسبينوزا، (أما انحطاط أخلاق الفرد العادي عما هي عليه إذا لم تكمل الديانة القانون، فتلك مسألة لم يتعرض لها بيل).

صفحة رقم : 11405

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيبير بيل

ونشر موضوع "النجم المذنب" غفلاً من اسم المؤلف. واتخذ بيل نفس الحيلة حين افتتح واحدة من أكبر الدوريات في ذلك العصر: "أنباء جمهورية الأدب". وظهر العدد الأول منها في مائة وأربع صفحات، في أمستردام في مارس 1684 وعرضت المجلة أن تزود قراءها بكل التطورات الهامة في الأدب والعلوم والفلسفة والبحوث والكشوف والتاريخ الرسمي. ومبلغ علمنا أن بيل نفسه كتب محتويات المجلة شهراً بعد شهر لمدة ثلاثة أعوام. وقد ندرك مبلغ الجهد الذي استلزمه هذا العمل. وسرعان ما أصبح استعراضه للكاتب ذخيرة قوية في دنيا الأدب. وفي 1685 جمع أطراف شجاعته وأهلن أنه المؤلف. وبعد ذلك بعامين تدهورت صحته فترك تحرير المجلة لآخرين غيره. وفي تلك الأثناء وقع أربعة من أسرة بيل فريسة اضطهاد الهيجونوت في فرنسا. وكنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لعنف اضطهاد القوات الفرنسية للبروتستانت، ماتت أمه في 1681، ومات أبوه في 1685، وفي نفس العام سجن أخوه ثم قضى نحبه نتيجة للتعذيب والقسوة. وبعد ذلك بستة أيام ألغى مرسوم ناننت. وصعق بيل لهذه التطورات، ولم يكن له، مثل فولتير، من سلاح غير قلمه، وفي 1686 تحدى الطغاة المستبدين بإحدى الروائع في أدب التسامح الديني.

وكان عنوان هذه الرسالة "تعليق فلسفي على كلمات يسوع المسيح": أخرج إلى الطرق والسيارات وألزمهم بالدخول. (لوقا 14-23).

وكان هؤلاء الطغاة الوحشيون قد التمسوا سنداً لإجراءاتهم التعسفية في القصة التي رواها المسيح عن الرجل الذي قال لعهدده، حين لم تلب ضيوفه دعوته إلى عشاء عظيم أعد لهم "أخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقتها، وأدخل إلى هنا المساكين والجدع. والعرج والعمي.... وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي (18)" (إنجيل لوقا-14: 16-23). ولم يجد بيل مشقة في إيضاح أن هذا الكلام ليس له علاقة بارغام الناس على أتباع دين أو مذهب واحد، بل العكس، وجدنا فرض نعتقد ديني موحد قد خضب نصف أوربا بالدماء، وأن تباين المذاهب الدينية في الدولة حال دون

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

وصول أحدهما إلى درجة من القوة تمكنه من الاضطهاد. فضلاً عن هذا: من منا يثق بأنه على حق إلى حد يستند إليه في إيذاء من يخالفونه؟ واستنكر بيل اضطهاد البروتستانت للكاتوليك، والمسيحيين لغير المسيحيين، والعكس بالعكس سواء بسواء. وعلى النقيض من لوك، اقترح بيل أن تمتد حرية العبادة أو اللاعبادة إلى اليهود والمسلمين والمفكرين الأحرار. ونسي ما ذهب إليه من قبل من أن الملحدين يحتمل أن يكونوا مواطنين صالحين مثل المسيحيين، فنصح بعدم التسامح مع الطوائف التي لا تؤمن بالعناية الإلهية وبوجود إله يحاسب ويعاقب، فإن هؤلاء لا تظهر من نفوسهم خشية الله ومن ثم قد يجعلون من الصعب تطبيق القانون (19). أما بالنسبة للآخرين فلا يجوز التسامح مع المتعصبين منهم. فهل يجوز لدولة بروتستانتية أن تتسامح في أن تقوم فيها كاثوليكية دافعت عن التعصب على اعتبار أن الكتلثة وحدها هي العقيدة الحقة الصحيحة؟ ورأى بيل أن الكاثوليك في مثل هذه الحالات -"يجب أن يسلبوا سلطة إلحاق الأذى والضرر بغيرهم... ومع ذلك فأما لا أقر تعرضهم ممارستهم لديانتهم، ولا أقر حرمانهم من اللجوء إلى القانون (20).

ولم يكن البروتستانت أكثر ارتياحاً من الكاثوليك لبرنامج التسامح هذا، من ذلك أن بيير جوريو-الذي كان صديق بيل وزميله في العمل في سيدان، وكان الآن راعياً لأبرشية كللفية في روتردام-هاجمه في بحث بعنوان: "حقوق السيدين في أمور الدين-الضمير والأمير- (1687) وذهب جوريو إلى هدم نظرية عدم الاهتمام بالأديان، وفكرة التسامح العام والشامل، معارضاً كتاباً بعنوان "تعليقات فلسفية". واتفق مع البابوات في أن للحكام أو الملوك الحق في القضاء على أية عقيدة زائفة، وقد روعه بخاصة التسامح مع اليهود والمسلمين والسوسنيين والوثنيين. وفي 1691 أهاب جوريو بعمد مدينة روتردام أن يفصلوا بيل من عمله، فرفضوا. ولكن في 1693 جاءت الانتخابات بهيئة حكام جديدة، وجدد جوريو حملته منتمها بيل بالإلحاد، فطرد مكن وظيفته، فقال الفيلسوف "اللهم أنقذنا من محكمة التفتيش البروتستانتية، فلن تنقضي خمس أو ست سنوات حتى تشتد

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

وطأتها إلى درجة يتطلع الناس معها إلى عودة محاكم التفتيش الكاثوليكية (21). وسرعان ما أسترد بيل هدوء نفسه وعاد إلى طبيعته، فتكيف مع الظروف، وكان له كل العزاء والسلوى أنه استطاع أن يخصص كل ساعات عمله لإنجاز "قاموس" العصر الذي كان قد شرع في تأليفه فعلاً. وراض نفسه على العيش على مدخراته، وعلى بعض مكافآت شرفية من ناشري كتبه. وتلقى عروضاً بالرعاية من سفير فرنسا في هولندا ومن ثلاثة من النبلاء الإنجليز يحملون لقب أربل، ولكنه رفض في لطف وكياسة، بل أنه رفض مائتي جنيه عرضها عليه أربل شروزبري نظير إهداء القاموس إليه. وكان له أصدقاء، ولكنه لم يكن له من وسائل اللهو والتسلية إلا القليل. "لم أهتم بالملاهي العامة أو الألعاب أو الرحلات الريفية... أو غيرهما من أسباب الترفيه والمتعة، ولم أضيع وقتي فيها ولا

في المهام المنزلية، ولم أطمع قط في منصب... إني أجد كل الحلاوة والراحة في الدراسات التي شغلت نفسي بها، وهي كل متعتي وبهجتي إني سأعني لنفسي وللموزيات (ربات الشعر والفنون والعلوم(22)). وهكذا قبع هادئاً في حجرته يعمل أربع عشرة ساعة في اليوم، يضيف صحيفة إلى صحيفة في المجلدات الغربية التي أصبحت منبع "الاستنارة". وظهر المجلدان الضخمان في 2600 صحيفة في روتردام في 1697 تحت اسم "قاموس تاريخي نقدي"، ولم يكن معجم مفردات، بل دراسة نقدية للأشخاص والأماكن والآراء، وفي التاريخ والجغرافيا وعلم الأساطير واللاهوت والأخلاق والأدب والفلسفة وصاح وهو يدفع بالتجارب النهائية إلى المطبعة "سبق السيف العذل" وكان هذا العمل مقامرة ثقيلة بالحياة وبالحرية. لأنه أحتوى على هرطقات أكثر مما ضم أي كتاب آخر في هذا القرن، وربما أكثر من حفيده، "موسوعة" ديرو ودالميرت (1751). وكان ببيل قد بدأ وأمامه هدف محدود هو تصحيح الأخطاء وسد النقص في "القاموس التاريخي الكبير" الذي كان موريري قد أصدره في 1674 من وجهة النظر الكاثوليكية التقليدية، ولكن الهدف اتسع

صفحة رقم : 11408

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> ببير ببيل

مع تقدم العمل. ولم يزعم قط أنه كتب دائرة معارف، فلم يتعرض لشيء ليس لديه ما يقول عنه. ومن ثم يتضمن "القاموس" أية مقالات عن شيشرون، بيكون، مونتاني، جاليليو هوراس، نيوتن، توماس مور، وأغفل العلم والفن إلى حد كبير، ومن ناحية أخرى كانت هناك مقالات عن الأفذاذ غير البارزين مثل أكيبيا، وأوربيل اكوستا، وايزاك أبرابائل. ولم تخصص المساحات الكبيرة طبقاً للأهمية التاريخية، بل تبعاً لرغبة وهوى ببيل نفسه، وعلى هذا فإن أرزم الذي خصص له موريري صحيفة واحدة، أفرد له ببيل خمس عشرة صحيفة، كما أفرد لأبيلارد ثمان عشرة. وكان الترتيب أبجدياً، ولكنه أشبه بترتيب التلمود، وكانت الحقائق الأساسية مثبتة في النص، ولكن في كثير من الأحيان أضاف ببيل حاشية في حروف صغيرة، أطلق فيها لنفسه العنان للدخول "في مناهة من البراهين والمناقشات.. بل في بعض الأحيان مجموعة كبيرة من تأملات فلسفية". وفي وسط هذه الحروف الصغيرة الدقيقة ستر ببيل هرطقاته عن النظرة العامة. وأثبت مراجعه في الهوامش، وهذه في جملتها تنبوء عن سعة إطلاع ودرس يندر أن تتسع لهما حياة فرد. وتضمنت بعض الحواشي التي كتبها ببيل بعض النواذر المكشوفة البعيدة عن الاحتشام، أملاً في أن يزيد هذا من مبيعات الكتاب. ولكن لا ريب في أنه وجد فيها هي نفسها متعة لشخصه وهو وحيد عاكف على الدرس والبحث. وألوع القراء مقدرين شاكرين، بأسلوبه اللاذع الأنيق المتجول بين أبواب المعرفة، وعرضه الماكر لنقاط الضعف في المذاهب الدينية السائدة، واعتزافاته الصريحة الجريئة بالعقيدة الكفنية الصحيحة. وبيعت الطبعة الأصلية وعددها ألف نسخة عن آخرها في أربعة أشهر.

وكانت طريقة ببيل هي أن يوازن بين المراجع، ويتتبع الحقائق ويشرح الآراء المعارضة والمتناقضة، وكان يتمشى مع العقل إلى آخر الشوط حتى إذا لم تلتئم النتائج التي يتوصل إليها مع العقيدة الصحيحة أو أساءت إليها نبذ النتائج في تقي وورع. انحيازاً إلى جانب الأسفار المقدسة والإيمان. وتساءل جوريو غاضباً "إذا عرضت عبارة أو لفظة تؤيد الإيمان ضد العقل. فهل لها أن تحمل الناس على التخلي عن الاعتراضات التي قال ببيل بأنه لا سبيل إلى دحضها(23)". وفيما

صفحة رقم : 11409

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

عدا هذا فإن ترتيب القاموس هزيل. وتندرج بعض أبحاثه الكبرى تحت موضوعات تافهة أو عناوين مضللة. "أنا لا أستطيع أن أطيل التأمل في موضوع واحد بانتظام شديد، فأنا مولع أشد بالتحريك، وغالباً ما أتحوّل عن الموضوع، وأفقر إلى مواضع قد يكون من الصعب تلمس الخروج منها(24). وكانت المناقشة عادة مهذبة متواضعة بعيدة عن التزمّت ودية، ومهما يكن من أمر، فإن بيل كان من حين لآخر، لاذعاً حاد اللسان، ومن ذلك أن مقاله عن القديس أوغسطين لم يغفر للكلفني العظيم طول انصرافه عن العفة ولاهوته الكئيب وتعصبه الديني. وأعلن بيل ارتضاعه الكتاب المقدس على أنه كلمة الله، ولكنه أشار في خبث إلى أنه يجدر بنا ألا نؤمن إطلاقاً ببعض قصص المعجزات إلا إذا صدرت عن شخصية ممتازة. ووضع بعض الأساطير الوثنية-إبتلاع الحوت لهركيوليز مثلاً-جنباً إلى جنب مع القصص المماثلة في الكتاب المقدس، ثم ترك القارئ في حيرة: لماذا نرفض قصة ونقبل أخرى. وفي واحدة من أشهر مقالاته أنكر مذابح الملك داود وخياناته واغتصابه للنساء. وترك القارئ يعجب ويتساءل: لماذا يمجّد المسيحيون مثل هذا الوعد المتوج بأنه من أجداد المسيح.

ووجد بيل أنه من الأيسر عليه أن يبتلع يونس والحوت معاً (أن يصدق القصة) عن أن يقبل سقوط آدم وحواء. كيف يتسنى لرب قدير أن يخلقهما وهو يعلم سلفاً أنهما سيلطخان الجنس البشري كله بخطيئتهما الأولى ويلحقان به من البؤس والشقاء ما لا يحصى ولا يقدر:

إذا كان الإنسان مخلوقاً من أصل غاية الطيبة، بالغ القداسة، قديراً غاية القدرة، فهل يمكن أن يتعرض للأمراض، للحر والبرد، للجوع والعطش، للألم والحزن؟ وهل يمكن أن يكون لديه مثل هذه النزعات السيئة الكثيرة؟ وهل للقداسة الكاملة أن تنتج مخلوقاً مجرماً؟ وهل لهذا الخير التام أن ينجب مخلوقاً تعساً؟ هلا يتسنى لهذه القدرة؟ مع الخير الذي لا حدود له، أن تزود خلقها بأفضل الأشياء في وفرة وسخاء وتباعد بينه وبين كل عدوان أو إزعاج وإساءة(25)؟.

صفحة رقم : 11410

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

أن إله سفر التكوين أما أن يكون قاسياً أو ذا قدرة محدودة. وعلى هذا شرح بيل في كثير من التعاطف والقوة مفهوم المانوية من الهين، للخير والشر (النور والظلام) يتصارعان للسيطرة على العالم وعلى الناس. وبما أن "البابويين والبروتستانت متفقون على أن قلة ضئيلة من الناس هي التي تنجو من العقاب السرمدي "فقد يبدو أن الشيطان سيكسب المعركة ضد المسيح، وفوق ذلك، فإن انتصاراته أبدية لأن رجال اللاهوت يؤكدون لنا أنه لا منجاة من النار. وحيث أنه عناك، أو سيكون هناك، في الجحيم عدد من الأنفس أكبر مما هو في الجنة، "فإن الذين في الجحيم سيلعنون دوماً اسم الرب، فإن المخلوقات التي تكره الرب ستكون أكثر ممن يحبونه: . وانتهى بيل، في خبث، إلى القول "ينبغي ألا نركن إلى المانوية حتى نفر أولاً مبدأ الرفع من شأن الإيمان والعقيدة والانتقاص من قدر العقل(26).

وعبرت مقالة بيل عن "ببرهو" عن الشكوك في التثليث، "لأن الشينيين اللذين لا يختلفان عن ثالث، لا يفترق الواحد منهما عن الآخر(27). أما بالنسبة لتحويل الخبز والنبذ-لا يمكن أن دممه، فإن أحوال المادة-ومن ثم ظهور الخبز والنبذ-لا يمكن أن توجد بدون المادة التي تعدل منها(28). وبالنسبة لتراث كل الناس في خطيئة آدم وحواء، يقول بيل:

"ما دام المخلوق غير موجود فلا يمكن لأن يكون شريكاً في عمل خاطئ(29). ولكنه وضع كل هذه الشكوك على السنة آخرين غيره، ثم استكرها هو باسم الدين. واقتبس بيل "باعتبار أن هذا من أشد ما قال المارقون زيفاً" أن "الدين ليس إلا مجرد بدعة من عمل الإنسان، ابتدعها الملوك ليلزموا رعاياهم بالطاعة والإذعان لهم(30). وفي المقال الذي كتبه عن سبينوزا تعمد أن يتهم اليهودي الذي يعتقد مذهب وحدة الوجود بالإلحاد، ومع ذلك فإنه لا بد أنه عثر عند هذا الفيلسوف على شيء يسحر ليه ويستوقف نظره، لأن هذا أطول مقال في القاموس. وزعم بيل أنه يؤكد لرجال اللاهوت من جديد أن كل هذه الشكوك التي أوردها في كتابه لا تهدم العقيدة الدينية-لأن هذه مسائل فوق مستوى عقول الناس(31).
وذهب فاجويه إلى أن بيل "ملحد بغير جدال(32) ولكن قد

صفحة رقم : 11411

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيبير بيل

يكون أكثر إنصافاً أن ندرجه في عداد الشكاكين، وأنه كان كذلك يشك في مذهب الشك. ومن حيث أن الصفات الثانوية للحس ذاتية إلى حد كبي، فإن العالم الموضوعي (الخارجي) يختلف كل الاختلاف عما يبدو لنا. "إن الطبيعة المطلقة للأشياء غير معروفة لنا، وكل ما نعرفه هو بعض علاقات بعضها ببعض(33). وفي 2600 صحيفة من الاستنتاج والحجج والبراهين اعترف بضعف العقل، فإن العقل، مثل الحواس التي يعتمد عليها، قد يخدعنا. لأنه غالباً ما يتغشاه الانفعال. والرغبة والهوى، لا العقل، هما اللذان يحددان سلوكنا. فالعقل يمكن أن يعلمنا أن نشك ولكنه قليلاً ما يحررنا للعمل.

إن أسباب الشك مشكوك فيها هي الأخرى. ومن ثم يجب على الإنسان أن يشك فيما إذا كان ينبغي له أن يشك. أية فوضى. وأي عذاب للذهن... إن عقلنا يؤدي بنا إلى أن ننتيه ونهيم على وجوهنا على غير هدى. لأنه حين يكشف عن أكبر قدر من حدة الذهن والدقة، يلقي بنا في الهاوية... أن العقل البشري أداة هدم، لا أداة بناء، إنه لا يصلح إلا ليبدأ الشك، ويجول وينتقل هنا وهناك ليديم الصراع(34).

وبناء على هذا أشار بيل على الفلاسفة ألا يقيموا للفلسفة وزناً كبيراً، ونصح المصلحين بالابتعاد عن كثير من الإصلاح. وحيث أنه واضح أن الطبيعة الإنسانية هي على مر القرون، فإنها بفعل الجشع وحب المشاكسة والشهوة الجنسية، ستظل تثير من المشاكل ما يفسد المجتمعات ويؤدي إلى فناء أية مدينة فاضلة (بوتوبيا) في مهدها. أن الناس لا يتعلمون من التاريخ، وكل جيل يتمخض عن نفس الأهواء والأوهام الخادعة والجرائم. ومن ثم فإن الديموقراطية خطأ في التقدير قدر ما هي حقيقية، فالسماح للدهماء المشغولين المضللين المتهورين باختيار الحكام ورسم السياسة هو انتحار للدولة. وأي نوع من الملكية أمر ضروري، حتى في ظل أشكال ديموقراطية(35). والتقدم أيضاً وهم وخداع، إننا خطأ نحسب الحركة تقدماً، ولكن يحتمل أنها مجرد تذبذب(36). أن خير ما نأمل

صفحة رقم : 11412

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

فيه، هو حكومة يمكنها، على الرغم من أنها مزودة برجال شيمتهم الفساد ويعوزهم الكمال، أن تسن لنا من القوانين ما يكفل لنا أن نزرع حدائقنا في أمان ونصرف إلى دراستنا وهوياتنا في هدوء وسلام. ولم يستمتع بيل بمثل هذا الهدوء في السنوات التسع التي بقيت له في حياته، وحين انتقل قراؤه من متن الكتاب إلى حواشيه المطبوعة بحروف صغيرة جداً ثارت موجة من الاستياء بينهم. ودعا مجلس كنيسة والون في روتردام بيل- وهو عضو في مجمعها للمثول أمامه ليرد على الاتهامات الموجهة إليه بأن قاموسه تضمن "تعبيرات ومسائل غير لائقة، وكثيراً جداً من الاقتباسات الفاجرة، وملاحظات عدائية عن الإلحاد وأبيقور، وبخاصة مقالات كريهة مثيرة للاعتراض على داود وبيرهو والمانويين. ووعد بيل "بمزيد من التأمل في مذهب المانوية حتى إذا عثر على أية ردود، أو أمده قساوسة المجلس بشيء منها، فإنه "يسعده أن يضعها في أحسن صيغة ممكنة(37)". وفي الطبعة الثانية من القاموس (1702) أعاد كتابة المقال الوارد عن داود وخفف من حدته. ولم يهدأ روع جوريو، وجدد الحملة على بيل، وشن عليه في 1706 هجوماً عنيفاً تحت عنوان "اتهام فيلسوف روتردام ومهاجمته وإدانته". وانهارت صحة بيل بعد هذه الطبعة الثانية. وعانى مثل سبينوزا من السل. وفي تلك السنوات لازمه السعال بشكل دائم تقريباً، وانتابته الحمى الراجعة، وزاد الصداق من اكتنابه وجزعه. واقتنع بالآمل في البرء من علته، استسلم للموت، وزاد اعتكافه في حجرته، واشتغل ليل نهار في إعداد رده على ناقديه. وفي 27 ديسمبر 1706 أرسل الصيغة النهائية إلى المطبعة. وفي صباح اليوم التالي وجده أصدقاؤه ميتاً في فراشه. وانتشر تأثيره طوال القرن الثامن عشر. وأعيد طبع قاموسه عدة مرات، حتى أصبح مصدر ابتهاج خفي لآلاف العقول الثائرة. وما وافى علم 1750 حتى كان القاموس قد طبع تسع مرات باللغة الفرنسية، وثلاث مرات بالإنجليزية مرة بالألمانية. وحاول المعجبون

صفحة رقم : 11413

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيير بيل

به في روتردام أن يقيموا له تمثالاً إلى جوار تمثال ارمز (38)، وأغروا الناشرين بطبع المقال الأصلي عن داود. وعلى مدى عشر سنين من وفاته كان الطلاب يقفون صفوفاً في مكتبة مازاران في باريس حتى يأتي دورهم في قراءة القاموس(39). وجاء في تقرير عن المكتبات الخاصة أن الطلب عليه كان أكثر من كلب أي كتاب آخر(40). وقد أحس بتأثيره كل مفكر ذي شأن تقريباً. وكان معظم كتاب لينتزر "الفلسفة الإلهية" أو تبرير حكمة العدالة الإلهية في وجود الشر، محاولة صريحة للرد على بيل. كذلك نبع منه كتابات لسنج عن تحرير العقل ودفاعه عن التسامح- ويحتمل أن فرديريك الأكبر استمد تشككه أصلاً من بيل، لا فولتير، وأطلق على القاموس "عصارة الإحساس السليم"(41). واقتنى أربع مجموعات منه في مكتبته، وأشرف على إصدار طبعة رخيصة موجزة منه في مجلدين لجذب عدداً أكبر من القراء(42). وكان تأثير بيل على شافيتسبري ولوك أخف، وعرفه كلاهما في هولندا، وسار لوك في "رسالة التسامح" (1689) على خطى بيل في "التعليقات" (1686). ولكن أعظم تأثير لبيل كان بطبيعة الحال على فلاسفة الاستنارة وكان فطامهم على القاموس. ومن الجائز أن مونتنسكيو وفولتير أخذوا عنه أسلوب الاستشهاد بالمقارنات والنقد الآسيوي للنظم الأوروبية. ولم تكن "دائرة المعارف" (1715)، كما حكم فاجويه "مجرد طبعة منقحة مزيدة قليلاً من قاموس بيل(43). ولكن كثيراً من وجهة نظرها وآرائها التوجيهية نبع من هذين المجلدين، كما أن المقال الذي كتب في دائرة المعارف عن التسامح كثيراً ما أحال القارئ على قاموس بيل على اعتبار أنه "وفي الموضوع حقه". كما أن ديرو أعترف في صراحته المعهودة، بفضل بيل

عليه، وحياء بأنه "أعظم شارح مهيب لمذهب الشك في العصور القديمة والحديثة معاً(44). أما فولتير فكان بيل ولد من جديد، مع رنتين أصح ومزيد من النشاط والطاقة والسنين والثراء والذكاء. وأطلق بحق على "القاموس الفلسفي" أنه ترديد لقاموس بيل(45). وكثيراً ما اختلف قرد فرني الفاتن عن بيل، مثال ذلك أن فولتير ذهب إلى أن الدين كان قد ساعد على تشجيع الأخلاق ورعايتها، وأنه لو أن بيل كان لديه خمسمائة أو

صفحة رقم : 11414

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> بيبير بيل

ستمائة فلاح ليحكمهم. ولما تردد في أن هناك إلهاً يعاقب ويكافئ(46)، ولكنه اعتبر بيل "أعظم منطيق جدلي ألف(47)" وجملة القول. كانت فلسفة فرنسا في القرن الثامن عشر هي بيل في تكاثر متفجر. إن القرن السابع عشر بدأ، بهوبز وسبينوزا، وبيل وفونتيل، الحرب الطويلة المريرة بين المسيحية والفلسفة، تلك الحرب التي بلغت ذروتها في سقوط الباستيل وعيد آلهة العقل.

صفحة رقم : 11415

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> فونتيل

5- فونتيل

1757-1657

في السنوات الأربعة الأولى من حياته التي امتدت مائة عام، شن برنارد لي بوفيه دي فونتيل، حرب الفلسفة، مستقلاً عن بيل، وأحياناً قبله، وواصل الحرب، بلا هوادة، طيلة نصف قرن بعد وفاة بيل. وهو إحدى ظواهر طول العمر، وملاً الفراغ بين بوسويه وديدرو، ونقل إلى معترك الحياة العقلية في القرن الثامن عشر شكوكية القرن السابع عشر الأكثر اعتدالاً وحرصاً.

ولد في روان في 11 فبراير 1657، ضئيلاً هزياً إلى حد أنهم عمدوه فور ولادته خشية أن يموت قبل أن ينقضي عليه اليوم. وظل على هذه الحال من الضعف طوال حياته، كانت رثائه عليتين وكان يبصق دماً إذا أجهد نفسه حتى في لعب "البليارد"، ولكن بالقصد والاعتدال في استخدام قواه إلا بمقدار والامتناع عن الزواج، وكبح جماح شهواته وأهوائه، والإغراق في النوم، استطاع أن يعمر بعد كل معاصريه، وتذكر موليير حين كان يتحدث مع فولتير. وكان به بعض الميل إلى الأدب مثل ابن شقيق مورني. وكذلك كان يحلم هو الآخر بالمسرحيات، ولكن الروايات والأوبرات التي ألفها، وأنشيدته الرعوية وقصائده الغزلية ومقطوعاته، كانت تعوزها العاطفة فماتت من البرودة. وكان الأدب الفرنسي يفقد الفن ويكسب الأفكار. ولم يجد فونتيل نفسه إلا حين وجد أن العلم يمكن أن يكون رؤياً أكثر إدهاشاً من سفر الرؤيا، وأن الفلسفة معركة تثير الأسي، وتفوق كل الحروب. ولم يكن ذلك لأنه محارب، فقد كان رقيقاً إلى حد لا يقوى معه على الصراع، شعوقاً بالدنيا لا يحب أن يفقد صبره أو يملكه الغضب في المناقشة، وواعياً

صفحة رقم : 11416

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> فونتيل

كل الوعي لنسبية الحقيقة فلا بد يقيد فكره المطلق. ومع ذلك أشعل نيران الحرب (48). وحيثما سار في محادثاته المختلفة مع مركزته الوهمية، هب جيش الاستتار بفرسان فولتير الخفيفة السريعة الاندفاع ومشاة دولباخ الثقيلة، ومهندسي دائرة المعارف العسكريين الخبراء في بث الألغام، بالإضافة إلى مدفعية دييرو. وكان أول اقتحامه مجال الفلسفة رسالة من خمس عشرة صحيفة "أصل الخرافات" والحق أنها كانت استقصاء سيولوجيا (اجتماعياً) عن نشأة الآلهة. ونحن لا نكاد نصدق كاتب سيرة حياته في أن الموضوع كتب وهو في سن الثالثة والعشرين، ولو أن مخطوطته تركت في حرص وحذر، حتى خفت وطأة الرقابة في 1724. وتكاد تكون هذه الرسالة "عصرية" في روحها، تعقبت الأساطير، لا إلى مجرد اختراع الكهنة لها، بل إلى تخيلها البدائي، فوق كل شيء، إلى استعادة العقول البسيطة لتجسيد العمليات، فإن نهراً فاض لأن إليها صب ماءه، فكل عمليات الطبيعة من عمل الأرباب.

اعتقد الناس أن كثيراً من العجائب فوق قدرتهم: حلول الصواعق وقصف الرعود، وهبوب الرياح وإثارة الأمواج.... وتخيل الناس كائنات أقوى منهم، قادرة على أحداث هذه الآثار. وكان لا بد لهذه الكائنات الأسمى أن تتخذ شكلاً آدمياً، فأى شكل آخر يمكن تصوره؟... وعلى هذا كان الأرباب آدميين، ولكن أسبغت عليهم قدرة علياً.... وما كان في كقدور الناس البدائيين أن يدركوا صفة أدعى إلى الإعجاب من القوة المادية. ولم يكونوا قد أدركوا بعد الحكمة والعدالة، ولم يكن لديهم أسماء لهما (49).

وقبل ورسو بنصف قرن نبذ فونتيل ما قاله روسو عن مثالية الهمج غير المتمدنين، ففي رأيه أنهم كانوا أغبياء، متوحشين. ولكنه أضاف "كل الناس متشابهون شبيهاً كبيراً، وليس ثمة جنس أو عرق، لا نرتعد نحن فزعاً من حماقاته وسخافات (50)". وكان حريصاً على أن يضيف أن تفسيره للأرباب، ذلك التفسير المبني على المذهب الطبيعي، لم يطبق على آلهة المسيحيين أو اليهود.

صفحة رقم : 11417

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> فونتيل

ووضع هذه الرسالة جانباً وانتظاراً لوقت أكثر أمناً واطمئناناً. وأمسك بالقرطاس واستعار عنواناً من لوشيان، ونشر في يناير 1683 كتاباً صغيراً أسماه "محاورات الموتى". واكتسب هذه المناقشات الخيالية بين مشاهير الموتى شعبية إلى حد اشتد معه الطلب على طبعة ثانية في مارس، وثالثة وشيكاً بعدها. وامتدحها بيل في صحيفته "الأخبار"، وقبل أن ينصرم العام، ترجمت الرسالة إلى الإيطالية والإنجليزية، وذاع صيت فونتيل وهو في سن السادسة والعشرين، في كل أوروبا، وكانت الرسالة ميسرة في متناول الجميع في عالم يعج بالرقباء، وكادت كل فكرة يعبر عنها أحد المتكلمين، يدحضها آخر ويبرأ منه المؤلف، وكان فونتيل على أية حال أميل إلى الدعاية منه إلى الهرطقة. وكانت الأفكار التي ناقشها معتدلة، ولم تمس أي كاهن بسوء. فإن ميلو لاعب كروتونا الرياضي النباتي يتباهى بأنه قد حمل ثوراً على كتفيه في الألعاب الأولمبية، فيعيره سمنديريد من سيبارس المجاورة بأنه ينمي عضلاته على حساب عقله، ولكن السسياريثي يعترف بأن الحياة الأبيقورية (الانغماس في الملذات) عقيمة كذلك، حيث تصبح اللذة مملة بالترار، وتضاعف من مصادر اللذات ودرجاته. ويثني هومر على عيسوب لتعليمه مع الخرافات، ولكنه يحذره من أن الحقيقة هي آخر ما يرغب به البشر". إن روح الإنسان تتعاطف مع الباطل إلى أبعد حد.... وينبغي أن تلبس الحقيقة ثوب الباطل حتى يتقبلها البشر بارتياح(51)". وقال فونتيل "لو أن الحقيقة كلها بين يدي فلا بد من أن أحرص على ألا أفتحها(52)", ولكن ربما كان هذا من قبيل العطف والإشفاق على البشر بقدر ما هو من قبيل الحب الطائش للمطاردة. وفي لطف المحاورات يلتقي مونتاني بسقراط، في الجحيم لا ريب، ويناقد فكرة التقدم، مونتاني-أهذا أنت، سقراط المقدس؟ ما أسعدني بلقائك لقد جئت لفوري إلى هذا المكان، ومنذ تلك اللحظة كنت أبحث عنك. وأخيراً وبعد أن ملأت كتابي باسمك وبامتداحك وبالنشأ عليك، أستطيع أن أتحدث إليك. سقراط-أني سعيد أن أرى إنساناً ميتاً يبدو أنه كان فيلسوفاً، ولكن حيث أنك جئت من هناك أخيراً... دعني أسألك عن الأخبار كيف حال الدنيا؟ ألم تتغير كثيراً؟

صفحة رقم : 11418

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> فونتيل

مونتاني حقاً تغيرت كثيراً. قد لا تعرفها. سقراط-حكم ابتهج بسماع هذا. أنا لم أشك قط في أنها ستصبح أحسن أو أعقل مما كانت في زمني. مونتاني-ماذا تقول؟ إنها أشد خيلاً وفساداً من أي وقت مضى. وهذا هو التغيير الذي أردت أن أناقشه معك. وكنت مترقباً أن أسمع منك أبياتاً عن العصر الذي عشت فيه، والذي سادته كثير من الأمانة والعدل. سقراط-وأنا، على العكس، كنت أنتظر لأعرف منك عجائب العصر الذي عشت فيه منذ أمد قصير. ماذا؟ ألم يصلح الناس من الأخطاء والحماقات القديمة؟.... كنت أؤمل أن تتجه الأمور نحو العقل، وأن يستفيد الناس من خبرة السنين الطوال. مونتاني-ماذا تقول؟ يستفيد الناس من الخبرة؟ إنهم مثل الطيور التي كثيراً ما تركت نفسها نهياً للشراك التي وقع فيها بالفعل مئات الآلاف من نفس النوع. إن كل فرد يدخل جديداً إلى الحياة، وتقع أخطاء الآباء على الأبناء.... وللناس على مر القرون نفس الميول والنعات التي لا سيطرة للعقل عليها. ومن فإنه حيثما وجد الناس وجدت الحماقات والأخطاء، بل هي هي نفسها....

سقراط-إنك أضعفت مثالية على العصور القديمة لأنك غاضب على عصرك.... إننا في حياتنا كنا نقدر أسلافنا أكثر مما كانوا يستحقون. والآن يمجدا أعقابنا فوق ما نستحق. ولكن أسلافنا وأنفسنا وذريتنا كلهم سواء. مونتاني: ولكن أليست هناك أزمان أفضل وأزمان أسوأ؟
سقراط-ليس هذا بالضرورة. فالملابس تتغير، ولكن هذا لا يعني أن شكل الجسم يتغير كذلك. فالتهديب والفظاظة والمعرفة والجهل.... ليست إلا خارج الإنسان، وهي التي تتغير، ولكن القلب لا يتغير بأية حال، وكل الإنسان هو في القلب.... وبين الجمهور الغفير من الناس الذين يولدون على مدى مائة من السنين،

صفحة رقم : 11419

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> فوننتيل

تنثر الطبيعة هنا وهناك نقرأ قليلاً لا يتجاوز عددهم ثلاثين أو أربعين. ممن يتمتعون بعقول راجحة(53).
وبعد بضع سنين من هذه الخاتمة المتشائمة، مال فوننتيل إلى نظرة أكثر تفاؤلاً إلى حد ما في "استطراد القدامى والحديثين (يناير 1688)"، وهنا أوضح المؤلف فارقاً بيناً صغيراً. وفي الشعر والفن لم يكن ثمة تقدم ملموس، لأن هذين يعتمدان على الشعور والخيال اللذين لا يكادان يتغيران من جيل إلى جيل. أما من حيث العلوم والمعرفة والثقافة التي تعتمد على تراكم المعرفة تراكمًا بطيئاً، فقد نتوقع التفوق على القدامى. وذهب فوننتيل إلى أن كل أمة تمر بمراحل، مثل الفرد، ففي عهد الطفولة تعكف على مواجهة حاجياتها المادية، وفي شبابها تضيف الخيال والشعر والفن، أما في مرحلة النضج فإنها قد تدرك العلوم والفلسفة(54). وقال فوننتيل بأنه رأى الحقائق تبرز وتنمو من خلال عملية التخلص التدريجي من الأفكار الخاطئة. "نحن مدينون للقدامى لأنهم لم يبقوا على شيء من النظريات الزائفة التي كان يمكن تكوينها، تقريباً"-أي أن ننسى أن بكل حقيقة عدداً لا يحصى من الأخطاء الممكنة. ورأى أن ديكارت قد وفق إلى طريقة جديدة أفضل للتفكير والاستنتاج-الطريقة الرياضية، وتمنى للعلم الآن أن يتقدم بخطوات سريعة.

حين نرى التقدم الذي أحرزته العلوم في المائة عام الأخيرة، على الرغم من الأهواء والعقبات وقلة عدد الأفراد العلميين، فقد يغرينا هذا إلى حد كبير بأن نؤمل كثيراً في المستقبل، ولسوف نرى علوماً جديدة تتبع من لا شيء، على حين أن ما عندنا منها لا يزال في المهد(55).

وهكذا صاغ فوننتيل نظرية التقدم "تقدم الأشياء" وتصور، مثل كوندراسيه، أنه ليس لهذا التقدم حدود معينة يقف عندها في المستقبل، وهنا كان "بلوغ البشر حد الكمال بلا حدود". لقد وضعت النظرية القديمة قدمها على الطريق تماماً، وسارت بخطى ثابتة طيلة القرن الثامن عشر لتصبح أداة من أصلح أدوات الفكر الحديث. وأنا لنجد، في تلك الأثناء، أن فوننتيل الذي كان خياله الرائع

صفحة رقم : 11420

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> فوننتيل

يسبح محاذراً غاية الحذر، قد بات قاب قوسين أو أدنى من سجن الباستيل. ذلك أنه حوالي 1685 نشر رسالة مختصرة "علاقة جزيرة بورنيو"، وهي رحلة وهمية، صورها الكاتب في صورة واقعية (استيق به شبيهاً عند ديفو وسويفت) إلى حد أن بيل طبعها في "الأخبار" على أنها تاريخ فعلي. ولكن الصراع الذي وصفته هذه الرسالة بين أنيجو ومريو كان هجاء سافراً للصراع الديني بين جنيف وروما. ولما اطلعت السلطات الفرنسية على الجنس التصحيفي (تغيير ترتيب الحروف في الكلمة) بدا أن اعتقال فونتيل أمر لا مفر منه، لأن الملاحظة الساخرة بدت وكأنها تنطبق على إلغاء مرسوم ناننت تماماً. فأسرع في نشر قصيدة يمتدح فيها "انتصار الدين في عهد لويس العظيم". وقبل اعتذاره. ومن تلك اللحظة حرص فونتيل على أن تكون فلسفته غامضة يصعب على الحكومات إدراك مراميها.

وعاد إلى العلوم، وجعل من نفسه مبشراً بها في المجتمع الفرنسي. وكان شديد الكلف بالدعة والراحة، فلم يعكف بطريق مباشر على التجارب والأبحاث، ولكنه وعي العلوم وعياً حسناً، فقدمها لجمهور مستمعيه المتزايد، في جرات صغيرة مغلقة بفن الأدب. ورغبة منه في تقريب فلك كوبرنيكس إلى الأذهان وجعله في متناول الناس، ألف "محادثات في تعدد العوالم" (1686). وعلى الرغم من أن مائة وثلاثة وأربعين عاماً كانت قد انقضت على ظهور كتاب كوبرنيكس فإن قلة من الناس في فرنسا، حتى بين المتخرجين في الجامعات، كانت قد قبلت نظرية أن الشمس هي مركز العالم، وأدانت الكنيسة جاليليو لأنه اعتبر أمراً مفروغاً منه أن هذه الفرضية حقيقية، وما يجرو ديكارت على نشر رسالته "العالم" التي اعتبر فيها أن نظرية كوبرنيكس قضية مسلم بها. وتناول فونتيل الموضوع في كياسة تبعد عن النقمة، فتصور أنه يناقشه مع مركيزة مليحة يتحرك شكلها-غير مرئي ولكنه محسوس-أثناء الحوار بصورة مغرية فانتة، لأن الجمال إذا اتخذ لقب البطولة أمكنه أن يكسف النجوم. وكانت "المحادثات" الست أمسيات. وكان المشهد في حديقة قصر المركيزة بالقرب من روان. وكان الهدف من ذلك هو أن يفهم الناس في فرنسا-أو على الأقل سيدات المجتمع-حركة

صفحة رقم : 11421

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> فونتيل

الأرض وتعاقب دوراتها، ونظرية ديكارت في الدوامات. وزيادة في الإغراء أثار فونتيل مسألة أخرى: هل القمر وسائر الكواكب مسكونة؟ وكان ميالاً إلى أن يعتقد هذا. ولكنه تذكر أن بعض القراء قد تزعجهم فكرة أن في العالم نساء ورجالاً لم ينحدروا من آدم وحواء، ومن ثم أوضح في حزم ولباقة أن سكان القمر والكواكب لم يكونوا بشراً حقيقيين. ومهما يكن من أمر فإنه أوحى بأنه قد يكون لهم حواس أخرى، ربما كانت أدق من حواسنا، وإذا كان الأمر كذلك فإنهم قد يرون الأشياء مختلفة عما نراها نحن، فهلا تكون الحقيقة عندئذ نسبية؟ وقد يقلب هذا كل شيء رأساً على عقب، حتى أكثر مما فعل كوبرنيكس. وأنقذ فونتيل الموقف بالإشارة إلى جمال الكون ونظامه، مقارناً إياه بساعة، مستدلاً بميكانيكية الكون على صانع بارع ذي ذكاء خارق.

ولما كانت الرغبة في التعليم من أقوى الرغبات فينا، فإن فونتيل عاود المخاطرة بالاقتراب من الباستيل بإصداره في ديسمبر 1688 رسالة غفلاً من اسم المؤلف، هي أجراً رسائله الصغيرة تحت عنوان "تاريخ الوحي". واعترف بأنه اقتبس مادتها من كتاب "الوحي" الذي ألفه أحد الباحثين الهولنديين، فان وايل، ولكنه حورها بأسلوبه الواضح الرشيق. وقال أحد القراء: "أنه يتملقنا لمعرفة الحقيقة" وهكذا قارن الرياضيين بالعاشقين. "ضع أمام الرياضي أقل قاعدة أو مبدأ، ولسوف يستنتج منه نتيجة، ويجدر بك أن تسلم له بها، ومن هذه النتيجة أخرى وهكذا... (56). إن رجال اللاهوت كانوا قد قبلوا بعض الوحي الوثني باعتباره صحيحاً صادقاً، ولكنهم كانوا قد نسوا دقته المعارضة إلى أحياء

شيطاني، واعتبروا برهانهم على قدسية أصل الكنيسة، أن هذا الوحي انقطع منذ مجيء السيد المسيح، ولكن فونتنيل أوضح أن الوحي استمر حتى القرن الخامس الميلادي. وبرأ الشيطان من أنه صانعه، فالإيحاءات كانت حياً من الكهنة الوثنيين الذين تحركوا في المعابد ليأتوا بمعجزات ظاهرة، أو ليستولوا على الطعام المقدم من العابدين للآلهة. وادعى أنه ما تحدث إلا عن الوحي الوثني، وأنه استثنى صراحة الوحي والكهنة المسيحيين من هذا التحليل. ولم يكن هذا المقال ومقال "أصل الأساطير" مجرد ضربتين إيداناً بعصر الاستنارة، بل كانتا كذلك، مثليين لمدخل جديد إلى المسائل اللاهوتية-

صفحة رقم : 11422

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> فونتنيل

تفسير للمناخ البشرية للمعتقدات الدينية، وبهذا يضيف الحالة الطبيعية على كل ما هو خارق للطبيعة. وكان "تاريخ الوحي" آخر العمليات التي استنزفت حيوية فونتنيل. وفي 1691 انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية برغم معارضة راسين وبوالو. وفي 1697 أصبح، وبقي لمدة اثنين وأربعين عاماً، السكرتير الدائم للأكاديمية للعلوم. وكتب تاريخها، وأطنب في امتداح من فارقوا الحياة من الأعضاء. وهذا يشكل سجلاً وعرضاً وضاعين للعلوم في فرنسا لمدة نصف قرن تقريباً. ويمثل هذه الجلسات العلمية استطاع فونتنيل أن ينفذ بمثل القدر من الغبطة والسرور إلى الصالونات-صالون مدام دالمبرت أو لا، ومدام دي تنسين، ثم مدام دي جيوفرين. وكان موضع الترحيب، لا لمجرد شهرته باعتباره كاتباً، بل لأن روح الكياسة واللطف والمجاملة لم تقتر فيه قط. أنه مزج الحقيقة بالتعقل، واستتكف أن يعكر جو المناقشة بالخلافات، ولم يكن ذكاًؤه لاذعاً. "لم يكن في عصره من هو أكثر منه تفتحاً في الذهن أو تجرداً من الحقد والضغينة والتحيز (57)" واتهمته في حمق مدام دي تنسين، التي كانت سريعة الانفعال والغضب، بأن له مآخراً لا بد أنه كان يحتفظ فيه بقلبه (58). ولم يستطع الشباب قتلة الآلهة الذين كانوا يتكاثرون حوله أن يفهموا اعتداله أكثر مما استساغ هو تعصبيهم وعنفهم. "أني لتز عجني الحقائق التي تسيطر من حولي (59)". ولم ير شراً محضاً في ضعف سمعه حين تقدمت به السنون. وظاهر أنه في نحو الخمسين من العمر اعتزم ألا يقدم بعد ذلك إلا خدمات أفلاطونية للسيدات، ولكن كياسته لن تتداع. وعندما قدموه إلى سيدة جميلة، وهو في سن التسعين، قال: "أه: لو أني الآن في الثمانين فقط! (60)" وفي سن التاسعة والثمانين تقريباً افتتح حفل عام جديد بالرقص مع ابنة هلفيشيوسي البالغة من العمر عاماً ونصف العام (61). ولما قالت مدام جريمود متعجبة، وكانت في مثل سنه تقريباً "حسناً. ها نحن كلانا حي يرزق" وضع إصبعه على شفثيه وهمس "صه يا سيدتي، إن الموت قد نسينا (62)". ولكن الموت عثر عليه أخيراً في 9 يناير 1757، واختطفه في سكون، ولم يكن قد مرض إلا يوماً واحداً. وأوضح لأصحابه أنه كان

صفحة رقم : 11423

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> الدين والعقل في فرنسا -> فوننتيل

"يعاني من وجوده" وربما كان قد أحس بأنه قد بلغ من العمر أذله. وبقي له ثلاثة وثلاثون يوماً ليتم من العمر قرناً كاملاً. لقد كان مولده قبل أن يتسلم لويس الرابع عشر دفة الحكم، وشب وسط انتصارات بوسويه، وإلغاء مرسوم ناننت واضطهاد البروتستانت. وعاش ليرى "دائرة المعارف"، وليستمع فولتير وهو يدعو الفلاسفة لشن الحرب على الموبقات.

صفحة رقم : 11424

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الهرطيق الصغير

الفصل الثاني والعشرون

سبينوزا

1632 - 1677

1- الهرطيق الصغير

إن هذه الشخصية الغربية المحببة التي بذلت في التاريخ الحديث أجراً محاولة للعثور على فلسفة يمكن أن تحل محل عقيدة دينية ذائعة، ولدت في أمستردام في 24 نوفمبر 1632. ويمكن تتبع أسلافه إلى مدينة سبينوزا بالقرب من برجوس في مقاطعة ليون الأسبانية. وكانوا يهوداً، ثم ارتدوا إلى المسيحية فكان منهم العلماء والقساوسة، وكان منهم كاردينال ديبجو، كبير المحققين يوماً (1). وهاجر جزء من الأسرة إلى البرتغال، والمفروض أنهم لجأوا إلى الهجرة هرباً من محاكم التفتيش الأسبانية. وبعد فترة من الإقامة هناك في فيديجويرا بالقرب من باجه، انتقل جد الفيلسوف ووالده إلى ناننت في فرنسا. ومنها في 1593 إلى أمستردام، كانا من أوائل اليهود الذين استوطنوا هذه المدينة، تلهفاً على التمتع بالحرية الدينية التي كفلها "اتحاد أوترخت" في 1579. وما جاءت سنة 1628 حتى أعتبر الجد زعيم الجالية الصفردية "اليهودية" في أمستردام، وكان الوالد في فترات مختلفة ناظراً للمدرسة اليهودية، ورئيساً لصندوق

الصدقات المنتظمة للجالية اليهودية البرتغالية. وقدمت الأم: حنه ديبورا دي سبينوزا من لشبونة إلى أمستردام. وماتت عندما كان ابنها باروخ في السادسة من عمره. وأورثته السل. وتولى تربيته والده زوجة ثالثة. ولما كانت لفظة باروخ تعنى في العبرية "المبارك" فقد سمي الصبي فيما بعد "بندكت" في الوثائق الرسمية اللاتينية. وفي مدرسة الجالية اليهودية تلقى باروخ التعليم الديني المألوف المبني على التوراة والتلمود، كما تلقى بعض الدراسات للفلاسفة الحبرانيين وعلى الأخص إبراهيم بن عزرا، وموسى بن ميمون وهاسداي

صفحة رقم : 11425

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الهرطيق الصغير

كرسا، وربما كان إلى جانب هذا بعض إطلاع يسير على "القبالة" وكان من بين أساتذته من ذوي المكانة العالية والمقدرة في الجالية: شاعول مورتيرا، ومنشه بن إسرائيل. وتلقى باروخ، بالإسبانية خارج المدرسة، قدراً لا بأس به من العلوم الدنيوية، لأن والده رغب أن يعده ليكون رجل أعمال. وبالإضافة إلى اللغتين الإسبانية والعبرية تعلم البرتغالية والهولندية واللاتينية مع قدر يسير من الإيطالية والفرنسية فيما بعد. ونما في نفسه ولع بالرياضيات. وجعل الهندسة المثل الأعلى لمنهجه الفلسفي والفكري.

وكان طبيعياً أن شاباً يمثل هذا الذهن المتوقد بشكل فذ أن يثير بعض المشاكل حول النظريات والمبادئ التي تلقاها في المدرسة اليهودية، بل أنه ربما سمع في تلك المدرسة عن هرطقات عبرية. وكان ابن عزرا قد أثار منذ أمد طويل إلى الصعاب التي تنطوي عليها نسبة الأجزاء المتأخرة من أسفار موسى الخمسة إليه. وكان أتباع ابن ميمون قد اقترحوا تفسيراً مجازياً لغير هذه الأجزاء من الكتاب المقدس(2). وأثاروا شيئاً من الشكوك حول الخلود الشخصي(3)، وحول الخلق باعتباره مناقضاً لأزلية العالم(4). وكان كريسكاسي قد نسب الامتداد إلى الله، واستنكر كل المحاولات التي قامت لتثبيت العقل حرية الإرادة وبقاء الروح بعد الموت، بل حتى وجود الله. وبالإضافة إلى هؤلاء اليهود التقليديين إلى حد كبير، لا بد أن سبينوزا قرأ ليفي بن جيرسون الذي كان قد هبط بمعجزات الكتاب المقدس إلى مجرد أسباب طبيعية، وأخضع الإيمان للعقل قائلاً "أن التوراة لا يمكن أن تحول دون أن نعتبر حقاً كل ما يستحسنا عقلاً على أن نؤمن به أو نصدق(5)" وحديثاً جداً في جالية أمستردام اليهودية هذه، كان أوريل أكوستا قد تحدى الاعتقاد في الخلود، فحز في نفسه إصدار حكم الحرمان عقاباً له وأطلق النار على نفسه (1647). ولا بد أن الذكرى الغامضة لهذه المأساة زادت من حدة الثورة التي تعتمل في ذهن سبينوزا حين أحس بأن لاهوت عشيرته وأسرته العتيدي يفلت منه. ومات أبوه في 1654. وطالبت أخت له بكل الضيعة والثروة، فقاضاها سبينوزا أمام المحكمة وكسب القضية، ثم عاد ونزل لها عن كل التركة إلا سريراً واحداً. واعتمد الآن على نفسه فكسب عيشه بالاشتغال

صفحة رقم : 11426

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الهرطيق الصغير

بشحن العدسات وصقلها من أجل النظارات والمجهر والمقرب. وبالإضافة إلى القيام بتعليم بعض تلاميذ خصوصيين اشتغل بالتدريس في مدرسة فرانس فان دن اند اللاتينية، وهو يسوعي سابق، حر التفكير كاتب روائي ثائر. وهناك أثن سبينوزا اللاتينية، وربما حفزه فان دن اند إلى كراسة ديكرت وبيكون وهوبز، وربما أطلع الآن على "المجموعة اللاهوتية" لتوما الأكويني. ويبدو أنه وقع في غرام مع ابنة الناظر التي أثرت خطيباً أكثر ثراء، ومبلغ علمنا أن سبينوزا لم يخط خطوة أخرى نحو الزواج.

وكان في تلك الأثناء قد بدأ يفقد إيمانه. ويحتمل أنه قبل سن العشرين، وبكل الألم والذعر اللذين تجلبهما التغيرات في مثل هذه السن إلى الأرواح المرهفة الحس، كان قد قام ببعض الأفكار المثيرة-أن المادة قد تكون جسم الله، وقد تكون الملائكة أو هام الخيال، وأن الكتاب المقدس لم يذكر شيئاً عن الخلود، وأن النفس متماثلة مع الحياة(7). وربما احتفظ بهذه الهرطقات المغرورة لنفسه لو أن أباه بقي على قيد الحياة، بل ربما التزم الصمت حتى بعد موت أبيه، لولا أن بعض أصدقائه أزغوه بالأسئلة، وبعد كثير من التردد اعترف لهم باهتزازات عقيدته وإيمانه، فوشوا به إلى الكنيس. وينبغي ألا يغيب عن الأذهان ما كثرت الإشارة إليه من أن زعماء الجالية اليهودية في أمستردام كانوا يجدون حرجاً في معالجة الهرطقات التي تهاجم أساسيات المسيحية واليهودية على حد سواء. أن اليهود في الجمهورية الهولندية نعموا بتسامح ديني أنكرته عليهم سائر الأقطار المسيحية، ولكن كان من الميسور حرمانهم منه، إذا تسامحوا فيما بينهم في أفكار تززع الأساس الديني للأخلاق والنظام الاجتماعي.. وطبقاً لما جاء في سيرة حيان سبينوزا التي كتبها في السنة التي مات فيها أحد اللاجئين الفرنسيين في هولندا، وهو جين مكسميليان لوكاس، وأضاف الطلبة الذي أبلغوا عن شكوك باروخ-أضافوا كذباً وبهتاناً اتهامه بأنه أبدى احتقاره للشعب اليهودي لاعتقاده بأنه شعب الله المختار بصفة خاصة وأن الله هو مؤلف شريعة موسى(8). ولسنا ندري إلى أي حد

صفحة رقم : 11427

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الهرطيق الصغير

يمكن تصديق هذا الكلام. وعلى أية حال، فلا بد أن زعماء اليهود كرهوا أي تمزق في العقيدة التي كانت في ذروة القوة كما كانت معيناً لا ينضب من العزاء والسلوى لليهود طوال قرون الشقاء المرير.

واستدعى الأبحار سبينوزا وسلقوه بالسنة حداد لأنه خيب الآمال الكبار التي كان معلومه قد عقدها على مستقبله في الجالية اليهودية وكان أحد هؤلاء المعلمين، وهو مشنه بن إسرائيل، متغيباً في لندن. أما المعلم الآخر، وهو شؤول مورتيير، فقد توسل إلى الشاب أن يتخلى عن هرطقاته. وإنصافاً للأبحار، يجدر بنا أن نذكر أن لوكاس، برغم تعاطفه الشديد مع سبينوزا يسجل أنه عندما استرجع مورتيير ذكرى العناية الفائقة التي أولاها تلميذه الأثير لديه في تعليمه اللغة العبرية، "رد باروخ بأنه يسعده الآن، مقابل ما بذله معلمه مورتيير من جهد، أن يعلمه كيف يصدر قرار الحرم (الحرم الديني)(9)" ويبدو هذا منافياً إلى أبعد حد لما نسمع عن طباع سبينوزا، ولكن ينبغي ألا نترك لعواطفنا اختيار الدليل، (وخلافاً لما قال شيشرون) ينذر أن يكون ثمة شيء بالغ غاية الحمق إلا أمكنك أن تجده في حياة الفلاسفة.

وقيل أن زعماء الكنيس عرضوا على سبينوزا معاشاً سنوياً قدره ألف جولدن إذا هو وعد ألا يتخذ خطوة عدائية ضد اليهودية، وحضر إلى الكنيس من وقت لآخر(10)، ويبدو أن الأبحار أصدروا ضده في بداية الأمر قرار "الحرم الأصغر" فقط، وهو مجرد حرمانه من الاتصال بالجالية اليهودية لمدة ثلاثين يوماً فقط(11). وقيل أنه قبل هذا الحكم عن طيب خاطر قاتلاً "حسناً، إنهم أرغمني على ألا أفعل شيئاً ما كنت لأفعله بمحض إرادتي(12)"، وربما كان بالفعل يعيش آنذاك خارج الحي اليهودي بالمدينة. وحاول أحد المتعصبين أن يقتله، ولكن السلاح لم يصب إلا سترته. وفي 24 يولييه 1656 أعلنت السلطات الدينية والمدنية في الجالية اليهودية من فوق منبر الكنيس البرتغالي، في مهابة

وكتابة، "الحرم التام" لباروخ سبينوزا، بما يقترن بذلك من اللعنات والمحظورات المعتادة: ألا يتحدث إليه أحد ولا يكتب إليه، ولا يؤدي له أية خدمة، ولا يقرأ كتاباته، أو يقترب منه على مسافة أربعة أذرع (13). وقصد مورتييرا إلى السلطات الرسمية في أمستردام، وأبلغها بالاتهامات وقرار الحكم، وطلب إليها طرد سبينوزا من المدينة،

صفحة رقم : 11428

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الهرطيق الصغير

فأصدرت حكمها بنفي سبينوزا لبضعة أشهر (14)، فذهب إلى قرية أودركيرك القريبة، ولكنه سرعان ما عاد إلى أمستردام. وأكسبته معرفته باللاتينية عدة صداقات في دائرة محدودة من الطلبة تزعمهم لودفيك ميير وسيمون دي فريس، وكان ميير حاصلًا على درجات جامعية في الفلسفة والطب، ونشر في 1666 "فلسفة تفسير الأسفار المقدسة". وفيه أخضع الكتاب المقدس للعقل. وربما عكس هذا الكتاب آراء سبينوزا-أو أثر عليها. أما دي فريس فكان تاجراً ثرياً ناجحاً، شديد الولع بسبينوزا إلى حد أنه رغب في منحه ألفي فلورين ولكن الفيلسوف أبي. فلما أحس التاجر بدنو الأجل (1667) وكان غير متزوج، فإنه عرض أن يكون سبينوزا وريثاً، ولكنه أقنعه بأن يترك كل ثروته لأخ له. وقدم الأخ الشكور المعترف بجميل سبينوزا منحة سنوية قدرها 500 فلورين، ولكن سبينوزا اكتفى بثلاثمائة (15). وكتب صديق آخر من أمستردام، هو جوهان بوفميستر إليه "أحبني لأنني أحبك من كل قلبي" (16). وإلى جانب الفلسفة كانت الصداقة هي الأساس الرئيسي في دعم حياة سبينوزا. وكتب في إحدى رسائله:-
من بين كل الأشياء التي فوق طاقتي لا أقدر شيئاً أكثر من تقدير لي لأن يكون لي شرف عقد أواصر الصداقة مع أناس يحبون الحقيقة في إخلاص، فإنه من بين الأشياء التي فوق طاقتنا، ليس في العالم شيء يمكن أن نحبه في هدوء إلا مثل هؤلاء الرجال (17).
ولم يكن سبينوزا منعزلاً متعشفاً زاهداً كل العزلة والنقشف والزهد، بل أنه استحسن "جيد الطعام والشراب، والتمتع بالجمال وتربية الأزهار والاستماع إلى الموسيقى والتردد على المسرح (18)" وفي إحدى هذه الزيارات كانت محاولة قتله. وكان عليه أن يظل يخشى اغتياله. ونقشت على خاتمه كلمة واحدة "حذار 19" ولكنه أحب، أكثر كثيراً من تلك المتع والتسلية، بل حتى أكثر من الصداقات، أحب العزلة والدراسة وهدوء الحياة البسيطة. ويقول بيل: "إن زيارات أصدقائه له كانت تفسد عليه تأملاته كثيراً (20)". ومن أجل هجر أمستردام ليقيم في قرية هادئة "وينزبرج"- (مدينة على الراين)-

صفحة رقم : 11429

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الهرطيق الصغير

على مسافة ستة أميال من ليدن. واتخذت شيعة من أتباع ابن ميمون (وهي تشبه الكويكرز) مقراً لها في تلك القرية. ولقي سبينوزا ترحيباً بين إحدى أسر هذه الجماعة.

وفي هذا المنزل المتواضع، الذي يحتفظون به الآن باعتباره "متحف سبينوزا" كتب الفيلسوف عدة رسائل صغيرة والجزء الأول من "الأخلاق". وفي 1622 كتب "رسالة موجزة عن الله والإنسان وسعادته"، ولكنها كانت إلى حد كبير انعكاساً لديكارت. والأكثر منها إمتاعاً وتشويقاً رسالته عن "إصلاح العقل" التي طرحت جانباً دون إتمامها في تلك السنة نفسها. وأنا لنجد في صفحاتها الأربعين عرضاً مسبقاً لفلسفة سبينوزا. وأنا لنحس من أول عبارة فيها وحشة الرجل المنبوذ من المجتمع.

بعد أن علمتني التجربة أن كل الأشياء التي يكثر وقوعها في الحياة العادية عقيمة غير ذات جدوى، وحين رأيت أن كل الأشياء التي كنت أخشاها، والتي خوفتني، ليس فيها في حد ذاتها شيء حسن أو سيئ إلا بقدر ما يتأثر ذهن بها، فإني اعترمت آخر الأمر أن أتحري هل يمكن أن يوجد شيء حسن حقاً، وقادر على أن ينقل حسنه وخيره، ويمكن أن يتأثر به ذهن إلى حد استبعاد سائر الأشياء.

وأحس سبينوزا بأنه لا الثراء ولا الشهرة ولا الملذات الجسمية يمكن أن تفعل هذا، وغالباً ما يختلط الاهتياج والأسى بهذه المباحج، وليس إلا حب شيء خالد لا متناه هو الذي يغذي ذهن باللذة والمتعة... مجردة من كل ألم (21)، وربما أمكن أن يكتب هذا بقلم توماس كمبيس أو جاكوب يوم، والحق إنه بقي دائماً في سبينوزا إثارة أو حالة من التصوف ربما جاءت من القبالة، والآن غدتها عزلته وزادتها قوة، أن الخير الخالد اللامتأهي "في ذهنه يمكن أن يسمى "الله" ولكن فقط في تعريف سبينوزا الأخير للإله باعتباره ذا طبيعة لها قدرتها الخلافة وقوانينها. ويقول كتاب "إصلاح العقل": "الخير الأعظم هو معرفة اتحاد الذهن مع الطبيعة بأسرها..."

صفحة رقم : 11430

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الهرطيق الصغير

وكلما زاد الذهن فهماً لنظام الطبيعة، ازدادت قدرته على التحرر من الأشياء العقيمة غير المجدية (22). وهنا نجد أول التعبير لسبينوزا عن "الحب العقلي لله" -التوفيق بين الفرد وبين طبيعة الأشياء وقوانين الكون. وهذه الرسالة البليغة الموجزة تبين كذلك هدف تفكير سبينوزا وفهمه للعلم والفلسفة، بوعي أن أوجه كل العلوم إلى وجهة واحدة أو غاية واحدة بالذات، الوصول إلى أقصى درجة ممكنة من الكمال الإنساني، ومن ثم ينبغي نبذ أي شيء في العلوم بلا يسعى لهذه الغاية، باعتباره عقيماً غير مجد (23). وهنا نجد اتجاهاً مختلفاً كل الاختلاف عما سمعنا من فرانسيس بيكون، أن تقدم العلوم يكون وهماً وخداعاً إذا أدت إلى مجرد زيادة سيطرة الإنسان على الأشياء، دون تحسين أخلاقه وورعاته. وهذا هو السبب في تسمية "تحفة" الفلسفة الحديثة "بالأخلاق" على الرغم من مقدمتها الميتافيزيقية الطويلة، وأن كثيراً منها سوف يحلل استرقاق رغبات الإنسان له، ونحرره عن طريق العقل.

صفحة رقم : 11431

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> اللاهوت والسياسة

2- اللاهوت والسياسة

ترامى إلى أسماع الطلبة الشبان الذين تركهم سبينوزا وراءه في أمستردام، أنه كان قد شرع، من أجل تلميذ في راينزبرج، في ترجمة هندسية لكتاب ديكارت "المبادئ الفلسفية". وألحوا عليه في إكمالها وإرسالها إليهم، ففعل، ودفعوا هم نفقات طبعتها (1663) بعنوان "عرض المبادئ الفلسفية لديكارت على أساس هندسي". ويهمنا أن نذكر عنها ثلاث نقاط: أنها عبرت عن آراء ديكارت (في الإرادة الحرة مثلاً) لا عن آراء سبينوزا، وأنها الكتاب الوحيد الذي طبع في حياة سبينوزا حاملاً اسمه. وأنه في جزء ملحق بها "تفكير ميتافيزيقي"، قال سبينوزا بأن الزمن ليس حقيقة موضوعية بل طريقة تفكير (24)، وهذا واحد من عناصر "كانت" في فلسفة سبينوزا. وكسب سبينوزا في راينزبرج أصدقاء جدد، فقد تعرف عليه هناك عالم التشريح العظيم ستيو. وكان هنري أولدنبرج عضو

صفحة رقم : 11432

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> اللاهوت والسياسة

الجمعية الملكية قاصداً إلى لندن 1661، فحاد عن طريقه المرسوم ليزور سبينوزا، وكان لذلك وقع شديد في نفسه، ولدى عودته إلى لندن بدأت مراسلات طويلة بينه وبين الفيلسوف الذي لم تكن مؤلفاته قد طبعت بعد، بيد أنه كان ذا شهرة واسعة. وثمة صديق آخر من راينزبرج أورليان كورباج، استدعي للمثول أمام إحدى محاكم أمستردام (1668) بتهمة دأبه على معارضة اللاهوت السائد، وسعى أحد القضاة إلى توريط سبينوزا في القضية باعتباره مصدر هرطقة كورباج، ولكن هذا أنكر أية علاقة لسبينوزا بالأمر، فأنقذ الفيلسوف. ولكن حكم على المهترق الشاب بالسجن عشر سنين، حيث قضى نحيبه بعد أن أمضى فيه خمسة عشر شهراً. ومن هنا ندرك لماذا لم يتعجل سبينوزا طباع مؤلفاته. وفي يونيو 1663 انتقل إلى فوربورج قرب لاهاي. وأقام لمدة ستة أعوام في بيت أحد الفنانين يصفق العدسات، ويؤلف "الأخلاق". وكانت المقاطعات المتحدة في حرب دفاعية مستميتة ضد لويس الرابع عشر، وقد أزج هذا الحكومة الهولندية ودعاها إلى فرض قيود أشد صرامة على حرية التعبير عن الآراء. ومع ذلك نشر سبينوزا في 1670، دون أن يفصح عن اسمه "رسالة اللاهوت والسياسة" أصبحت حدثاً أو معلماً هاماً من معالم نقد الأسفار المقدسة. وأوضحت صحيفة العنوان في رسالة اللاهوت والسياسة "الغرض منها": وهو إيضاح أنه يمكن منح حرية الفكر والكلام دون تحيز للدين والسلام العام، كما أنه يمكن كذلك عدم كبت هذه الحرية دون تعريض الدين والسلام العام للخطر". وتتصل سبينوزا من الإلحاد وأنكره، وأيد أساسيات العقيدة الدينية. ولكنه أخذ على عاتقه إظهار قابلية الإنسان للخطأ في هذه الأسفار المقدسة، وهي ما بنى عليه رجال الدين الكلفنيون لاهوتهم تعصبهم، وكان رجال الدين في هولندا يستخدمون نفوذهم ونصوص الكتب المقدسة لمناهضة الجماعة التي تزعمها "دي ويت" والتي أيدت الفكر المتحرر ومفاوضات السلام، وكان سبينوزا مخلصاً أشد الإخلاص لهذه الجماعة ولجان دي ويت:

مذ رأيت الخلافات الحادة التي نشبت بين الفلاسفة في الكنيسة والدولة، وهي مصدر الكراهية المريرة والانتشاق...

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> اللاهوت والسياسة

فإني اعتزمت أن أنتاول بالبحث من جديد، الكتاب المقدس، بدقة وروح غير متحيزة، طليقة غير مقيدة، دون أن أضع افتراضات أو نظريات لا أرى بوضوح أنها موجودة فيه. ومع هذه الاحتياطات وضعت طريقة لتفسير الأسفار المقدسة(26).

إن سبينوزا تنبّه إلى صعوبة فهم لغة العهد القديم العبرية وضرب لذلك أمثلة، فإن النص المازوري-الذي زود بالحروف اللينة وحركات النطق التي أهملها ناسخو التوراة الأصليون كان حدساً وتخميناً إلى حد ما، ولا يكاد يوفر نموذجاً أصلياً موثقاً لا يقبل الجدل، واستفاد في الفصول الأولى من هذه الرسالة كثيراً من رسالة ابن ميمون "دليل الحيران". وحذا حذو إبراهيم بن عزرا وآخرين في الارتياح في تأليف موسى للأسفار الخمسة الأولى. وأنكر أن يشوع هو الذي ألف سفر يشوع، ونسب الأجزاء التاريخية في العهد القديم إلى القسيس الكاتب عزرا في القرن الخامس قبل الميلاد. أما سفر أيوب فقد ذهب إلى أنه من عمل الأمميين (الكفار) ثم ترجم إلى العبرية. ولم تلق كل هذه النتائج قبولاً لدى الباحثين المتأخرين، ولكنها كانت خطوة جريئة نحو التعرف على ريتشارد سيمون 1678 تحت عنوان "نقد العهد القديم". وأوضح سبينوزا أنه في حالات كثيرة، تكررت نفس القصة أو القطعة في مواضع مختلفة من الكتاب المقدس، بنفس الألفاظ أو في روايات محرّفة، توحى إحداها بالاقتراب العادي من مخطوطة قديمة، وتثير أخرى التساؤل عن بيان "كلمة الله(27)" وكانت هناك استحالات وتناقضات من حيث التوقيت الزمني، وفي رسالة بولس الرسول إلى الرومان (3: 20-28) لقنهم أن خلاص الإنسان يمكن أن يكون بالإيمان وحده لا بالعمل، ولكن رسالة بولس جيمس (2: 24) أوردت نقيض هذا على خط مستقيم، فأيهما تتفق مع "كلمة الله وتوجيهه"؟ وأشار الفيلسوف إلى أن مثل هذه النصوص المتباينة قد خلقت بين رجال اللاهوت صراعات مريرة أشد المرارة، بل دامية، بدلاً من السلوك القويم الذي يحث عليه الدين. وهل أنبياء العهد القديم صوت الله؟ واضح أنهم لم يتفوقوا

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> اللاهوت والسياسة

من حيث المعرفة على الطبقات المثقفة في زمانهم، فإن يشوع، على سبيل المثال، كان يسلم تسليمًا جازماً بأن الشمس، حتى "أوقفها" يشوع، كانت تدور حول الأرض(28). ولم يتفق هؤلاء الأنبياء في العلم، بل برزوا في قوة الخيال والحماسة والغيرة والشعور، كانوا شعراء وخطباء عظاماً. ومن الجائز أن الوحي نزل عليهم من عند الله وإذا كان الأمر كذلك فإن عملية الوحي قد تكون تمت بطريقة اعترف سبينوزا بعجزه عن إدراكها(29). وربما حلموا بأنهم رأوا الله، وربما اعتقدوا في صحة أحلامهم. فإننا نقرأ "أبيمالك" أن الله جاء إليه في حلم الليل "سفر التكوين 20: 6).

إن العنصر الإلهي في الأنبياء ليس نبوءاتهم، بل حياتهم الفاضلة، والفكرة الرئيسية في عظاتهم هي أن الدين يكمن في السلوك القويم، لا في الطقوس المرهقة.

وهل كانت المعجزات التي دونت في الكتاب المقدس اضطرابات حقيقية في مجرى الطبيعة العادي؟ وهل أدت خطايا البشر إلى الحريق والفيضان؟ وهل أنت صلواتهم ودعواتهم بخصوصية الأرض؟ ذهب سبينوزا إلى أن مثل هذه القصص استخدمها مؤلفو الأسفار المقدسة لينفذوا إلى أفهام البسطاء من النساء ويحثوهم على الفضيلة والتقوى، ويجدر بنا ألا نأخذها بحروفها:

ومن ثم، فإننا، حين يقول الكتاب المقدس بأن الأرض مجدية بسبب خطايا البشر، أو أن الإيمان يبرئ الأعمى، يجدر بنا ألا نغير هذا التفاتاً أكثر من التفاتنا إلى قوله، أي الكتاب المقدس، بأن الرب غاضب على خطايا البشر. وأنه حزين وأنه نادم على وعد أو فعل من خير، أو أنه عند رؤية علامة يتذكر شيئاً كان قد وعد به، فإن هذه التعبيرات وأضرابها أما أنها أقيمت إلقاءً شاعرياً، أي من قبيل خيال الشعراء، أو رويت وفقاً لآراء الكتاب وأهوائهم. وينبغي أن نكون على يقين، كل اليقين من أن كل شيء وصفته الأسفار المقدسة وصفاً صادقاً حقيقياً، حدث حتماً مثل سائر الأشياء وفقاً للقانون الطبيعي، وأن شيئاً دون فيها مما يمكن إثباته على أسس موضوعية تتنافى مع نظام الطبيعة أو يتعذر استنتاجه منها، فإنه يجدر بنا أن نؤمن

صفحة رقم : 11435

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> اللاهوت والسياسة

بأنه مدسوس إلى الأسفار المقدسة عن طريق أيدٍ مارقة عن الدين. فإن أي شيء مناقض للطبيعة مناقض للعقل، وأي شيء مناف للعقل سخيف مضحك(30).

وربما كان هذا أصرح إعلان لاستقلال العقل وضعه فيلسوف حديث بعد. ويقدر ما حاز هذا الإعلان قبلاً، فإنه انطوى على ثورة ذات معنى ونتائج أعمق من كل حروب ذلك العصر وسياسته. بأي معنى إذن يكون الكتاب المقدس "كلمة الله؟". وبهذا المعنى وحده، وهو أنه يحتوي على قانون أخلاقي يربط الناس بالفضيلة. إنه يحتوي كذلك على أشياء كثيرة أدت إلى نزعة شديدة إلى الشر في الإنسان-أو هيأت لها، وبالنسبة للكثرة الكثيرة من الناس المرهقين إلى حد كبير بمشاغلهم اليومية إلى درجة أنهم لا يجدون فراغاً أو قدرة على تنمية عقولهم، يمكن أن تكون قصص الكتاب المقدس خير عون لهم على التمسك بالأخلاق الفاضلة. ولكن التعليم الديني يجب أن يتركز على السلوك لا على العقيدة. ويكفي أن تقتصر العقيدة على الإيمان "بوجود الله، كائن أسمى يجب العدل والإحسان"، وخير عبادة له هي معاملة الجار بالعدل والانصاف وحبه. ولا ضرورة لمبدأ آخر(31).

وإلى جانب هذا المبدأ ينبغي لأن يكون الفكر حراً، أن الكتاب المقدس لم يقصد به أن يكون كتاباً مدرسياً للعلوم أو الفلسفة، فهذه العلوم والفلسفة مكتشوفة أمام أعيننا في الطبيعة، وهذا الوحي الطبيعي هو أصدق وأشمل صوت الله. ليس بين العقيدة أو اللاهوت وبين الفلسفة... أية علاقة أو صلة نسب... وليس للفلسفة غاية تصبو إليها إلا الحقيقة، أما العقيدة... فلا تفتش إلا عن الطاعة والامتثال والتقوى. فالعقيدة إذن تهيب أعظم مدى للتأمل الفلسفي، وتسمح لنا دون عتب أو ملام أن نفكر كيف نشاء، ولا تتهم بالهرطقة والانشقاق إلا أولئك الذين يميلون إلى إثارة الكراهية والغضب والنزاع(32).

وهكذا نرى سبينوزا في تحوله المتقائل قد جدد تمييز بومبوناتي

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> اللاهوت والسياسة

بين حقيقتين: اللاهوتية والفلسفية ويمكن أن تنهياً كل منهما، برغم تناقضهما، لشخص بعينه في حالة كونه مواطناً، ثم في حالة كونه فيلسوفاً وقد يجيز سبينوزا للموظفين الرسميين المدنيين حق فرض طاعة القوانين، كما أن الدولة، شأنها شأن الفرد، الحق في حماية ذاتها، ولكنه يضيف:

إن الأمر بالنسبة للدين يختلف اختلافاً كبيراً، فمن حيث لأنه لا يتألف من عمل ظاهري بقدر ما يتألف من بساطة الخلق وصدقته، فإنه يقف خارج نطاق القانون والسلطة العامة. أن بساطة الخلق والصدق فيه لا تنتجها قيود القوانين ولا سلطة الدولة، وليس ثمة فرد العالم بأسره يمكن أن يفرض عليه التمتع بالسعادة الروحية أو تسن له القوانين من أجلها. والوسيلة المطلوبة لتحقيق هذا هي النصح المخلص الأخوي والتعليم الصحيح، وفوق كل شيء الاستخدام الحر للحكم أو الرأي الشخصي.... إن في مقدور كل إنسان أن يستخدم بنجاح حقه العظيم في حرية الرأي والحكم، ويستخدم سلطته في ذلك.... وأن يشرح ويفسر الدين لنفسه(33).

وينبغي أن تخضع الممارسة العلنية للدين لرقابة الدولة. ذلك أنه على الرغم من أن الدين قد يكون عنصراً حيويًا في تشكيل الأخلاق، فإن الدولة يجب أن تكون صاحبة السلطان الأعلى في كل الأمور التي تؤثر في السلوك العام. وكان سبينوزا أرسطوسياً (يقول بأن الدولة السلطة العليا في الشؤون الكنسية) عتيداً مثل هوبز، وحذا حذوه في إخضاع الكنيسة للدولة، ولكنه حذر قراءة قائلًا: "إنني أتحدث هنا عن الشعائر الظاهرية فحسب.... لا عن.... العبادة الباطنية(34)". وكان ناقماً أشد النقمة (وربما تمثل في خاطره لويس الرابع عشر) حينما استنمر استخدام الدولة للدين في أغراض تتنافى مع مفهومه عن الديانة الأساسية العدل وعمل الخير. إذا كان اللغز للغز الرهيب الأساسي في الدولة الاستبدادية هو التغرير بالرعايا وتقنيع الخوف الذي يكبح جماحهم بلباس

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> اللاهوت والسياسة

خداع من الدين، حتى يقاتل الناس من أجل العبودية بمثل البسالة التي يناضلون بها من أجل أمنهم وسلامتهم، ولا يعتبرونه عاراً بل شرفاً كبيراً أن يبذلوا دماءهم وحياتهم رخيصة من أجل زهو وخيلاء وعظمة جوفاء ينعم بها طاغية جبار، فإنه في الدولة الحرة يتعدى تدبير وسائل نفعية شريرة، أو محاولة اللجوء إليها، وأن ليتعارض مع الحرية العامة كل التعارض، أن ينفذ القانون إلى مجال الفكر المتأمل وتتعرض الآراء للتحقيق والمساءلة، وتوضع موضع الاتهام والعقاب مثل الجرائم سواء بسواء، على حين يضحى بالمدافعين عنها وبأتباعها، لا من أجل الأمن والسلامة العامة، بها على مذبح كراهية خصومها وقساوتهم. ولو أمكن اتخاذ العمال وحدها أساساً لتوجيه الاتهام بالجرائم، وأطلقت حرية القول... لتجرد التحريض على الفتنة من أية شبهة لتبريره، لأمكن الفصل بينه وبين مجرد الخلاف فصلاً شديداً(35).

وواجه سبينوزا أثناء دراسته الكتاب المقدس قضية الخلاف الأساسية بين المسيحيين واليهود. هل كانت المسيحية غير مخلصه للمسيح أو خائنة لعهدده حين نبذت شريعة موسى؟ ومن رأيه أن تلك الشريعة سنت لليهود في نطاق دولتهم هم، لا لأية أمم أخرى، حتى ولا لليهود أنفسهم إذا كانوا يقيمون في مجتمع غريب عنهم، والقوانين الأخلاقية وحدها في شريعة موسى (مثل الوصايا العشر) هي التي تتمتع بصلاحيّة أبدية عامة لكل زمان ومكان (36). وتتم بعض الأجزاء في سبينوزا في اليهودية عن استياء شديد من صدور قرار "الحرم" ضده، وعلى حرص شديد منه على تبرير نبذه لتعاليم الكنيس، ولكنه انضم إلى اليهود فيما يراودهم من أمل في عودة عاجلة إلى دولة مستقلة. "قد أذهب بعيداً إلى حد الاعتقاد بأنهم... سيقومون دولتهم من جديد، وأن الله سيختارهم للمرة الثانية (37)". وتناول المسيحية عدت مرات، ووضح أنه قرأ العهد الجديد في إعجاب متزايد بالمسيح. ونبذ فكرة قيامة المسيح بجسده من بين الأموات (38). ولكنه ألقى نفسه يتعاطف تعاطفاً شديداً مع موعظة

صفحة رقم : 11438

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> اللاهوت والسياسة

يسوع إلى حد أنه أقر بأن وحياً خاصاً نزل عليه من عند الله: إن إنساناً يستطيع بفطرته النقية أن يدرك أفكاراً ليست موجودة، كما لا يمكن استنتاجها من أساس معرفتنا الطبيعية، لا بد أنه بالضرورة يتمتع بعقل أسمى بكثير من عقول رفاقه، بل إنني لا أعتقد أن أحداً اختص بهذا غير المسيح، وقد أوحيت إليه مباشرة أوامر الله التي تؤدي إلى الخلاص، بغير كلمات ولا رؤى. ومن ثم فإن الله كشف عن ذاته للرسول عن طريق عقل المسيح، كما فعل من قبل مع موسى عن طريق الصوت الخارق للطبيعة. وبهذا المعنى يمكن أن يسمى صوت المسيح، مثل الصوت الذي سمعه موسى-صوت الله-، وقد يقال بأن حكمة الله (وهي أسمى من حكمة البشر) ظهرت في طبيعة المسيح البشرية، وأن المسيح كان طريق الخلاص. وعند هذه النقطة لا بد لي أن أعلن أن هذه النظريات، التي تقدمها بعض الكنائس فيما يتعلق بالمسيح، ليس في وسعي أن أؤكد لها أو أنفيها لأنني أعترف بكل صراحة أنني لا أفهمها... أن المسيح اتصل بالله عقلاً لعقل وبناء على هذا يمكن أن نستخلص أنه لا أحد غير المسيح تلقى الوحي من الله، دون عون من الخيال في الكلمات أو الرؤى (39). أن غصن الزيتون هذا، الذي قدم إلى الزعماء المسيحيين، لم يكن ليخفي عنهم أن "الرسالة اللاهوتية السياسية" مانته من أجراء ما صدر من بيانات وآراء في الصراع بين الدين والفلسفة. وما أن ظهرت الرسالة حتى احتج مجلس كنيسة أمستردام (30 يونيو 1670) لدى رئيس الدولة في هولندا على السماح بتداول مثل هذا الكتاب المملوء بالهرطقة في دولة مسيحية. وتوسل إليه أحد المجامع الكنسية في لاهاس أن يلعن ويصادر "مثل هذه الكتب التي تعمل على تخريب النفوس (40)". وانضم النقاد العلمانيون إلى الهجوم على سبينوزا. وسماه أحدهم "شيطاناً مجسداً (41)". ووصفه جان لي كلرك بأنه

صفحة رقم : 11439

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> اللاهوت والسياسة

"أشهر ملحد في زماننا(42)". واتهمه لامبرت فافلتسون بأنه "يحتال في مكر ودهاء على بث الإلحاد... وتقويض أركان العبادة والديانة من أساسها(43)". ومن حسن حظ سبينوزا أن جان دي ويت رئيس الدولة كان من المعجبين به. وكان لفوره قد أجرى عليه معاشاً ضئيلاً، وما دام دي ويت حياً متربعا في دست الحكم، فإن سبينوزا كان في مقدوره أن يعتمد على حمايته له. ولم تدم هذه الحماية لأكثر من عامين فقط.

صفحة رقم : 11440

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الفيلسوف

3- الفيلسوف

في مايو 1670، بعد نشر الرسالة اللاهوتية السياسية بقليل، انتقل سبينوزا إلى لاهاي، ربما ليكون على مقربة من دي ويت وغيره من الأصدقاء ذوي النفوذ. وأقام لمدة عام في بيت "الأرملة فان فيلين"، ثم انتقل إلى دار هندريك فان درسيك على بافليونجراشت، وفي 1927 اشترت لجنة دولية هذا المبنى، واحتفظ به على أنه "مسكن سبينوزا"، وبقي فيه إلى آخر حياته. وشغل منه حجرة واحدة في الطابق الأعلى، ونام على سرير يمكن أثناء النهار أن يطوى إلى حائط(44). ويقول بيل "وفي بعض الأحيان كان يقبع في عقر الدار لا يخطو خارجها لمدة ثلاثة أشهر بأكملها"، وربما أخافته رثاه المسلولتان من رطوبة الشتاء. ولكن كان زواره كثيرين، ومرة أخرى يقول بيل أنه بين الحين والحين "كان يقصد إلى زيارة نفر من ذوي المكانة والنفوذ... للتحدث معهم في شؤون الدولة التي كان يفهمها جيدا(45)". واستمر يشغل بصقل العدسات، وأطرى العالم الفيزيائي الرياضي كريستيان هيجينز درجة اتقانها(46). واحتفظ الفيلسوف ببيان عن نفقاته، ومنه نعلم أنه عاش على نحو خمسة وعشرين سنتاً في اليوم، وأصر أصدقاؤه على مد يد المعونة له، حيث لا بد أنهم رأوا أن اعتكافه في الدار والغبار الذي ينتج عن صقل العدسات كانا بضاعفان من علته.

وانتهت الحماية التي بسطها دي ويت على سبينوزا حين اغتال بعض الرعاع الأخوين دي ويت في شوارع لاهاي (أغسطس 1672). ولما سمع نبأ اغتيالهما رغب في مغادرة الدار ليعلن إلى هؤلاء الرعاع

صفحة رقم : 11441

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الفيلسوف

استنكاره لفعلتهم باعتبارهم "أحط المتوحشين"، ولكن صاحب الدار غلق الأبواب ومنعه من مغادرة الدار(47). وترك جان دي ويت لسبينوزا في وصيته راتباً سنوياً قدره مائتا فرنك(48). وبعد موت دي ويت انتقلت السلطة المدنية إلى الأمير وليم هنري الذي كان في حاجة إلى تأييد رجال الدين الكلفنيين. ولما صدرت الطبعة الثانية من "الرسالة اللاهوتية السياسية" 1674، أصدر الأمير ومجلس هولندا مرسوماً يحظر بيع الكتاب، وفي 1675 أذاع مجلس الكلفنيين في لاهاي بياناً يأمر فيه كل المواطنين بالإبلاغ فوراً عن أية محاولة لطبع أية مؤلفات لسبينوزا(49). وفيما بين عامي 1650 و1680 صدر من سلطات الكنيسة نحو 50 مرسوماً بتحريم قراءة مؤلفات الفيلسوف أو تداولها(50).

وربما ساعدت قرارات الحظر هذه على ذبوع شهرته في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا. وفي 16 فبراير 1673 كتب جوهان فابريشيوسي الأستاذ بجامعة هيدلبرج "إلى الفيلسوف الأعمى المشهور بندكت سبينوزا، باسم ناخب البلاتينات المتحرر، الأمير شارل لويس:

طلب إلى صاحب العظمة الأمير، أن أكتب إليكم.. لأسألكم إذا كنتم ترغبون في قبول منصب الأستاذية العادية للفلسفة في جامعته الشهيرة. وسيعطيك الراتب السنوي الذي يتقاضاه الأساتذة العاديون الآن. إنك لن تجد في أي مكان آخر أميراً أشد إيثاراً وأكثر عطفاً على العباقرة المرموقين الذين يعدك واحداً منهم. وسيكون لك مطلق الحرية في اتخاذ أي اتجاه فلسفي يعتقد الأمير أنك لن تسيء استخدامه في الفساد جو الديانة الرسمية علانية....

وأجاب سبينوزا في 30 مارس:
السيد الجليل،

إذا كانت قد راودتني الرغبة يوماً في شغل منصب

صفحة رقم : 11442

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الفيلسوف

الأستاذية في أية كلية، لما رغبت في منصب غير هذا الذي عرضه على ناخب البلاتينات المعظم عن طريقكم. ولما كنت على أية حال، لم أفكر قط في الاشتغال بالتعليم العام، فإنه يصعب أن أقنع نفسي باغتنام هذه الفرصة العظيمة... أو لا لأني أعتقد إذا أردت أن أوفر الوقت اللازم لتعليم الشباب فلا بد أن أتخلى عن تنمية فلسفتي وتطويرها. ثانياً لست أدري ما هي حدود الفكر الفلسفي التي يجب أن أعمل في نطاقها، حتى أتجنب ظهور أية رغبة في تعكير جو الديانة الرسمية المعلنة. فإن الإنشقاكات والخلافات لا تثور نتيجة للحب الشديد للدين أكثر منها بسبب الميول والنزاعات المتباينة في الناس أو حب المعارضة والمخالفة في الرأي... ولقد خبرت هذه الأشياء بالفعل بينما كنت أعيش عيشة خاصة منعزلة، ولا بد أن أكون أشد خشية من حدوثها، إذا رقيت إلى هذه المرتبة العظيمة (الأستاذية). وهكذا ترى يا سيدي الجليل أنني لا أحجم، أملاً في مال أكثر، أو حظ أوفر، ولكنه حب الهدوء والرغبة في السلام(51).

وكان سبينوزا سعيد الحظ في رفضه هذا المنصب، فإن المارشال الفرنسي تورين اجتاح البلاتينات في العام التالي وأغلقت أبواب الجامعة.

وفي مايو 1673، وفي غمرة الهجوم الذي شنه جيش فرنسي على المقاطعات المتحدة تلقى سبينوزا دعوة من زعيم في هذا الجيش لزيارة كوندية الكبير في أوترخت. واستشار سبينوزا في أمر هذه الزيارة السلطات الهولندية التي ربما رأت فيها فرصة لفتح باب المفاوضات لعقد هدنة تدعو إليها الحاجة الملحة. وأمن له الطرفان كلاهما سبل الانتقال، وشق الفيلسوف طريقه إلى أوترخت. وفي تلك الأثناء كان لويس الرابع عشر قد أرسل كونديه إلى جهة أخرى. فبعث

إلى سبينوزا (كما يروي لوكاس) (52) برسالة يطلب إليه فيها أن ينتظره، وبعد بضعة أسابيع وصلت رسالة أخرى تقول أنه سيتأخر إلى أجل غير مسمى. والظاهر

صفحة رقم : 11443

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الفيلسوف

أن مارشال دي لسمبورج نصحه إذ ذاك أن يهدي إلى الملك لويس كتاباً مؤكداً له سيلقي من الملك استجابة تتسم بالتحزر (53). ولم يؤد الاقتراح إلى نتيجة. وعاد سبينوزا أدراجه إلى لاهاي ليجد كثيراً من المواطنين يشبهون في أنه خائن. وتجمع حشد معاد حول بيته يكيلون السباب ويقذفون الأحجار. وقال لصاحب البيت "لا تنزعج، فأنا بريء، وهناك كثيرون من ذوي المناصب العالية يعرفون لماذا ذهبت إلى أوترخت. وحالما تسمع أي صخب أو شغب عند الباب، فسأخرج أنا إلى الناس حتى ولو كانوا سيفعلون بي مثل ما فعلوا بجان دي ويت الطيب. أنا جمهوري مخلص أمين، وهدفي خير الجمهورية (54) ولم يدعه صاحب الدار يخرج. وتفرق الجمهور.

وكان سبينوزا آنذاك في الحادية بعد الأربعين. وهناك في مسكن سبينوزا في لاهاي صورة تمثله نمطاً دقيقاً ليهودي سفردى، ذي شعر أسود متدل، وحاجبين كثيفين، وعينين سوداوين برأقتين مكتنبتين قليلاً، وأنف مستطيل مستقيم، ووجه تغلب عليه الوسامة في جملته، إذا قورن فقط بالصورة التي رسمها هالس لديكارت. ويقول لوكاس: "كان أنيقاً غاية الأناقة في مظهره، ولم يغادر قط بيته دون أن يرتدي من الثياب ما يميز السيد المهذب الماجد عن المتحذلق (55). واتسم سلوكه بالرزانة والوقار مع الظرف والرقّة. وقال أولدنبرج "أن علمه الراسخ اقتنن بالروح الإنسانية والدماثة (56)". وكتب بيل "أن كل الذين تعرفوا على سبينوزا يقولون بأنه كان اجتماعياً لطيف المعشر، أميناً، ودوداً حسن الخلق (57)". ولم يتحدث إلى جيرانه بأية هرطقة، بل على العكس شجعهم على الاستمرار في الذهاب إلى الكنيسة، ورافقهم من أن لآخر ليستمع إلى موعظة (58). وكان أكثر من أي فيلسوف حديث آخر يتمتع بالهدوء الناجم عن ضبط النفس. وقلما رد على النقد، وتناول في رده الأفكار والآراء، لا الأمور الشخصية. وعلى الرغم من اعتناقه مذهب الجبرية، واقتلاعه من بين قومه، ومرضه، كان أبعد ما يكون عن التشاؤم، وقال "تصرف تصرفاً حسناً، وابتهج وقر عيناً (59)" وربما كان شعار تفكيره أن يعرف أسوأ الأشياء، ويؤمن بأحسنها.

وتردد الأصدقاء والمعجبون به على داره. وأقنعه والترفون

صفحة رقم : 11444

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الفيلسوف

تشيرنهو بأن يطلعه على مخطوطة "الأخلاق". وكتب إليه هذا العالم الرياضي الفيزيائي: "أرجو أن تساعدني بلطفك المعهود حيثما أعجز عن فهم ما تقصد إليه فهماً صحيحاً (60). وربما تم وصول ليبنتز إلى سبينوزا عن طريق هذا

التلميذ المتلهف (1676) ومن الجائز كذلك وصوله إلى الراعة التي لم تكن قد نشرت بعد. وقدم لرؤيته الأعضاء الباقون على قيد الحياة من ندوة دكتور ميير في أمستردام أو كانوا يتبادلون معه الرسائل وألقت رسائله من وإلى العلماء والباحثون في أوربا ضوءاً غير متوقع على المناخ العقلي في ذلك العصر. وحثه هوجو موكسلي مراراً وتكراراً على التسليم بحقيقة وجود الأرواح الشريرة والأشباح. وفي 1675 أرسل إليه من فلورنسا عالم التشريح ستينو نداءً مؤثراً ليتحول إلى الكتلكة:

إني أخذ على عاتقي عن طيب خاطر، إذا أردت أنت، مهمة هدايتك إلى الطريق.... وعلى الرغم من أن علمك يفوق علمنا، فإني أود لو أنك تقدمت إلى الله فبرئت من أخطائك ونبذتها، حتى إذا كانت كتاباتك السابقة قد صرفت ألفاً من الأنفس عن المعرفة الحقيقية لله، فإن رد هذه النفوس إلى الطريق الحق على أن تكون أنت قدوة تشد من أزرها، قد يعيد إلى الله ألف ألف معك، كما لو كنت أو غسطين آخر أرجو من كل قلبي أن تحل بك هذه البركة والنعمة. وداعاً (62).

كذلك سحرت فتنة الكتلكة لب ألبرت بيرج ابن صديق سبينوزا كنراد بيرج وزير مالية المقاطعات المتحدة. وكان ألبرت، مثل ستينو، قد تحول إلى الكاثوليكية أثناء رحلته في إيطاليا. وفي سبتمبر 1675 كتب إلى سبينوزا متحدياً، أكثر منه متوسلاً، إياه أن يعتنق المذهب الكاثوليكي: من أين لك أن تعرف أن فلسفتك هي أفضل التعاليم التي لقنت في العالم فيما مضى، أو أنها أفضل ما يتلقاه العالم الآن بالفعل، أو ما سيتلقاه في المستقبل؟ هل درست كل الفلسفات قديمها وحديثها، مما يتعلمه الناس هنا وفي الهند وفي سائر أصقاع المعمورة؟ حتى إذا كنت

صفحة رقم : 11445

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الفيلسوف

درستها جميعاً.. كيف يتسنى لك أن تدرك أنك اخترت أحسنها؟... وإذا كنت، على أية حال، لا تؤمن بالمسيح فإنك أياً وأجدر بالازدراء مما يمكن أن أتصور لك. ولكن العلاج الميسور: أرجع عن خطاياك، وتحقق من الغطرسة القاتلة التي ينطوي عليها تفكيرك الحقير المجنون.... هل تجسر أيها الرجل الحقير، يا حشرة الأرض الدنيئة... في تجديفك الذي لا يصح أن يوصف، أن تضع نفسك فوق "الحكمة المتجسدة اللامتناهية"؟... إنك بقواعدك زمبادتك لا تستطيع أن تفسر تفسيراً كاملاً حتى واحداً من هذه الأشياء التي يأتي بها السحرة.... كما أنك لا تستطيع أن تفسر أيّاً من الظواهر المذهلة بين الذين يمتلكهم الشياطين، مما رأيت منه بعيني رأسي أمثلة كثيرة منه أو سمعت صدق الأدلة اليقينية عليه (62).

وفي ديسمبر 1675 رد سبينوزا رداً جزئياً:

أخيراً فهمت من كتابك ما لم أكن أصدقه حين رواه لي آخرون... وهو أنك لم تصيح عضواً في الكنيسة الكاثوليكية فحسب... بل أنك كذلك كم أشد أنصارها وحماتها غيرة وحماسة، وأنت تعلمت الآن كيف تصب لعنتك وجام غضبك في وقاحة على خصومك ومخالفيك. ولم أكن أعترم الرد على رسالتك... ولكن جماعة بعينها من الأصدقاء، ممن علقوا أكبر الآمال على مواهبك الطبيعية ألحوا علي في الرجاء ألا أقصر في حق صديق، وأن أفكر فيما كنت عليه منذ فترة وجيزة لا فيما أنت عليه الآن... وأقنعتني تلك الحجج بكتابة هذه السطور إليك، راجياً كل الرجاء أن تتفضل بقرائها بنفس هادئة.

ولن أعدد لك هنا من جديد مساوئ القساوسة والباباوات، لأصرفك عنهم، كما أعتاد أعداء الكنيسة الكاثوليكية أن يفعلوا. لأنهم عادة ينشرون هذه المساوئ بداعي الحقد والغضب، ورغبة في الإزعاج لا التقويم والتعليم. والحق إنني أقر بأنه يوجد في الكنيسة الكاثوليكية

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الفيلسوف

رجال على قدر كبير من العلم والمعرفة واستقامة الحياة أكثر مما يوجد منهم في أية كنيسة مسيحية أخرى، فإنه حينما توافر عدد أكبر من أتباع الكنيسة، فلا بد أن يوجد عدد أكبر من الرجال من كل صنف. وهناك في كل كنيسة كثيرون من الأمناء المخلصين غاية الأمانة والإخلاص، ممن يعبدون الله في عدل وإحسان،... لأن العدل والإحسان أصدق أمارات المذهب الكاثوليكي الحق... وحينما يوجد هؤلاء، يوجد المسيح حقاً وصدقاً، وحينما يفتقدون، يفتقد المسيح كذلك. لأن روح المسيح وحده هي التي يمكن أن تقودنا إلى حب العدل والإحسان. وإذا كنت قد اعتزمت عزمياً أكيداً من قبل، التفكير ملياً بينك وبين نفسك في هذه الحقائق، لما ضللت، ولما سببت لأبيوك أشد الحزن والأسى.... إنك سألتني كيف أدرك أن فلسفتي أفضل الفلسفات التي ظهرت في العالم من قبل، والتي تلقن الآن، أو ستلقن في المستقبل. والواقع أن لي حق أكبر في أن أسألك هذا السؤال. لأنني لا أزعج إنني وقعت على أفضل فلسفة. ولكني أدرك أنني أظنها الفلسفة الحقّة.... ولكنكم أنتم الذين تزعمون أنكم وجدتم آخر الأمر أحسن ديانة، أو على الأرجح أفضل رجال واسرعتم إلى تصديقها كيف تعرفون أنهم أفضل من علم سائر الديانات، أو يعلمونها الآن، أو سيقومون بتلقيها في المستقبل؟ هل درست كل تلك الديانات قديمها وحديثها تلك التي تلقن هنا وفي الهند وفي سائر أنحاء العالم؟ وحتى لو كنتم درستوها حق الدرس، كيف تعرفون أنكم اخترتم أحسنها؟ هل تعتبرونه عجرفة وغروراً أن أستخدم عقلي في الإذعان لكلمة الله الموجودة في العقل، ولا يمكن بأية حال افسادها أو تحريفها؟ أناوأ بأنفسكم عن هذه الخرافة المهلكة، واعترفوا بالعقل الذي حياكم الله إياه، وتعهدوه إذا لم تكونا في عداد البهائم.... إنكم إذا أمعنتم النظر في تاريخ الكنيسة (وأني لأدرك أنكم على أكبر درجة من الجهل به) لتدركوا مدى زيف كثير من

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الفيلسوف

التقاليد البابوية، ولكي تعرفوا... بأية حيل وأفانين استطاع البابا الروماني، بعد ستمائة سنة من ميلاد المسيح أن يسيطر على الكنيسة، فإني لا أشك لحظة في أنكم آخر الأمر ستقيفون من غفلتكم. وإني لأود من صميم قلبي أن يتم لك هذا، وداعاً(63).

والتحق بيرج بطائفة الفرنسيين، وقضى نحبه في أحد الأديار في روما. ومعظم رسائل سبينوزا الباقية كانت مع أولدنبيرج. وأنا لتتولانا الدهشة أن نجد أن كثيراً منها عالج العلوم، وأن سبينوزا قام بتجارب في الفيزياء والكيمياء، وأن رسائله كانت موضحة بالرسوم البيانية والتخطيطية، وانقطعت هذه الرسائل في 1665، فقد اعتقل أولدنبيرج في 1667 وسجن في برج لندن للاشتباه في اتصاله بدولة أجنبية، وأنصرف إلى الدين عند اخلاء سبيله، وعندما استأنف مكاتبه سبينوزا (1675) انضم إلى المساعي المبذولة لضمه إلى أية فرقة

من فرق المسيحية الصحيحة، ورجاه أن يأخذ قصة قيامة المسيح حرفياً لا رمزاً ولا مجازاً. وقال "أن العقيدة المسيحية بأسرها وحقيقتها تركزان على موضوع القيامة، فإذا نحن استبعدناه، إنهارت كل رسالة المسيح وتعاليمه السماوية(64)". وفي خاتمة المطاف تخلى عن سبينوزا باعتباره نفساً ضالة ضائعة، وانقطع عن مراسلته (1677). وطوال الوقت ابتداء من عام 1663 كان سبينوزا يعمل في كتاب "الأخلاق". وفي إبريل 1662 كتب إلى أولدنبرج أنه كان يفكر في نشره ولكنه "كان من الطبيعي أن يخشى من رجال اللاهوت أن تأخذهم العزة بالاثم، فيشنون عليه الهجوم بكرهيتهم المعهودة، وأنا أنفر من الشجار والنزاع كل النفور(65)". ولكن أولدنبرج استحثه على النشر "مهما يكن من أمر تدمير رجال اللاهوت المشعوذين ونباحهم(66)". ولكن سبينوزا ظل بين الأحجام والإقدام. ورخص لبعض أصدقائه في قراءة بعض أجزاء من المخطوطة، وربما أفاد من بعض تعليقاتهم لأنه أعاد مراجعة الرسالة عدة مرات. أن الضجة التي أثارها "الرسالة اللاهوتية السياسية" كانت تبرر ما تذرعه به من

صفحة رقم : 11448

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الفيلسوف

حرص وحذر، كما ضايقه أكثر من ذلك قتل الأخوين دي ويت، والشبهات التي حامت حوله بعد زيارته للجيش الفرنسي، ولم يشرع في اتخاذ أية خطوة أخرى لطبع "الأخلاق" إلا في 1675، وأبلغ النتائج إلى أولدنبرج: في الوقت الذي تسلمت فيه رسالتك المؤرخة في 23 يولييه كنت على وشك الرحيل إلى أمستردام بغية البدء في طبع الكتاب الذي كتبت إليك عنه. وبينما كنت مشغولاً بهذا الأمر انتشرت في كل مكان شائعة تقول بأن في المطبعة كتاباً لي عن "الله"، وأني حاولت فيه أن أبين أنه ليس هناك إله. واعتقد كثيرون في صحة هذه الشائعة. ومن ثم انتهز بعض رجال الدين الفرصة ليتقدموا بالشكوى ضدي إلى الأمير والقضاة... وعندما ترامى هذا إلى سمعي... قررت تأجيل النشر الذي كنت أعد له العدة(67). وطرح المخطوطة جانباً، وانصرف إلى كتابة رسالة عن الدولة "الرسالة السياسية"، ولكن المنية عاجلته قبل الانتهاء منها.

وفي 6 فبراير 1677 كتب الطبيب الشاب جورج هرمان شوللر إلى ليينتزر "أخشى أن يفارقنا مستر بندكت سبينوزا وشيكاً، حيث يبدو أن حالة السل عنده تزداد سوءاً يوماً بعد يوم(68)، وبعد ذلك بأسبوعين، وحين كان سائر أهل البيت متغيبين عنه، دخل الفيلسوف في النزاع الأخير. وكان شوللر وحده (لامبير كما كان مظنوناً من قبل) معه في تلك الفترة. وترك سبينوزا تعليمات ببيع أمتعته المتواضعة لتسديد ديونه، ونشر مؤلفاته التي لم يسبق له إحراقها، غفلاً من اسمه. وقضى نحبه في 20 فبراير 1677 دون أية طقوس كهنوتية(69). ودفن في مقبرة في كنيسة لاهاي الجديدة بالقرب من مقبرة جان دي ويت. أما المخطوطات وبخاصة "الأخلاق" و "الرسالة السياسية" و "رسالة في إصلاح العقل" فقد أعدها للمطبعة ميير وشوللر وغيرهما، وطبعت في أمستردام في أواخر 1677. وهكذا نأتي في خاتمة المطاف إلى الكتاب الذي صب فيه سبينوزا عصارة حياته ونفسه التي إنزوى بها عن الناس.

صفحة رقم : 11449

إن سبينوزا سمي هذا الكتاب "الأخلاق العادية وعرض هندسي"، أولاً لأنه ذهب إلى أن الفلسفة هي إعداد السلوك الصحيح والحياة الحكيمة، وثانياً، لأنه مثل ديكارت، حسد الزهد العقلي والتسلسل المنطقي في الهندسة، وراوده الأمل في أن يبني على غرار أفلاطون، كياناً للتفكير، تتعقب كل منه بصورة منطقية ما سبقها من براهين. وهذه تشتق آخر الأمر بشكل لا يمكن دحضه من بديهيات أو حقائق مقررة يتقبلها الناس جميعاً. وأدرك سبينوزا أن هذا مثل أعلى، وكان من العسير عليه أن يتصوره حائلاً دون خطأ، لأنه كان بطريقة شبيهة بهذه شرح فلسفة ديكارت التي لم يوافق عليها.

إن المخطط الهندسي قد يؤدي على الأقل إلى الوضوح، وقد يحول دون اضطراب العقل بالانفعال، وإخفاء المغالطة والفسطحة بالفصاحة والبلاغة. ورأى أن يناقش سلوك الإنسان، بل حتى طبيعة الله، في هدوء وموضوعية، كما لو كان يتناول الدوائر والمثلثات والمربعات. ولم يخل نهجه من أخطاء، ولكنه أدى به إلى ابتداء صرح للعقل مهيب في عظمته الهندسية ووحدته. وهذا المنهج استنتاجي، وربما عبس له وجه فرانسيس بيكون، ولكنه زعم أنه كان متناسقاً مع كل الخبرة.

وبدأ سبينوزا بتعريفات مأخوذة في معظمها من فلسفة العصور الوسطى. وغيّرت الألفاظ التي استخدمها معانيها منذ ذلك اليوم، وبعضها الآن يكسو فكره بالغموض والإبهام. والتعريف الثالث الأساسي: حيث عرف الجوهر بأنه "ما هو في ذاته ومنتصور بذاته، أعني أن تصوره لا يعتمد على تصور شيء آخر لا بد أن يكون مكوناً منه". وهو لا يقصد الجوهر بالمعنى الحديث أي المقومات والمكونات المادية، واستخدامنا لهذه اللفظة بمعنى الماهية والأهمية الأساسية أقرب إلى ما قصد إليه هو. وإذا أخذنا اللفظة اللاتينية *Substantia* استخدمها بمعناها الحرفي، فإنها تعني "يقع تحت، يشكل الأساس، يدعم". وفي مراسلاته (70) يتحدث سبينوزا عن "الجوهر أو الكينونة" أي أنه يعادل الجوهر بالوجود أو الحقيقة. ومن ثم يمكن

أن يقول "إن الوجود يتعلق بطبيعة الجوهر" أي أنه في الجوهر تكون ماهية الشيء أو طبيعته الأساسية ووجوده شيئاً واحداً (71). وقد نخلص من هذا أن الجوهر عند سبينوزا يعني الحقيقة الأساسية التي تشكل أساس كل الأشياء. ونحن ندرك هذا الواقع في شكلين: الامتداد أو المادة ثم الفكر أو الذهن، وهاتان "صفتان مميزتان" للجوهر، لا صفتان به قائمتان فيه. بل هما نفس الحقيقة التي ندركها خارجياً بحواسنا باعتبارها مادة، والحقيقة التي ندركها بشعورنا باعتبارها فكراً. وسبينوزا "واحد" تماماً يقول بأن الحقيقة كل واحد، فإن جانبي الحقيقة هذان-المادة والفكر ليسا وجودين متميزين مستقلين الواحد منهما عن الآخر، بل هما جانبان، الخارجي والداخلي لحقيقة واحدة، وهكذا الجسم والذهن، وهكذا الأحداث الفسيولوجية (الجسدية) والحالة العقلية المناظرة لها. والحقيقة التي لا مرأى فيها أن سبينوزا كان يدين بالمثالية قدر ابتعاده عن المذهب المادي، إنه يعرف الصفة بأنها "ما يدركه العقل عن الجوهر كما لو كان

يؤلف ماهيته (72) " ويسلم سبينوزا (قبل مولد باركلي بزم طويل) بأننا نعرف الحقيقة، أما مادة أو فكراً، عن طريق الإدراك الحسي أو الفكرة فقط. ويعتقد بأن الحقيقة تعبر عن نفسها في مظاهر لانهاية لها، عن طريق "عدد لا متناه من الصفات" التي لا ندرك منها، نحن الكائنات الناقصة، إلا اثنتين. وعند هذا الحد، يكون الجوهر أو الحقيقة، هو كل ما يظهر لنا من مادة أو ذهناً، والجوهر وصفاته شيء واحد: والحقيقة اتحاد من المادة والذهن، وهذان متميزان فقط في الشكل الذي ندرك به الجوهر. وتتحلل قليلاً من صيغة سبينوزا، ونقول بأن المادة هي حقيقة مدركة خارجياً والذهن حقيقة مدركة داخلياً. فإذا استطعنا أن ندرك كل الأشياء بطريقة مزدوجة-خارجياً وداخلياً كما ندرك أنفسنا، فإننا نجد، كما يعتقد سبينوزا، "أن كل الأشياء حية نشيطة بشكل ما (73)". فهناك شكل أو درجة من الذهن أو الحياة في كل شيء. والجوهر دائماً حي أو نشيط: والمادة في حركة دائمة، والذهن دائماً يدرك أو يحس أو يفكر أو يرغب أو يتخيل وينتكر، في اليقظة أو النوم. والعالم في كل جزء من أجزائه حي.

صفحة رقم : 11451

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الله

ويعادل سبينوزا بين الله وبين الجوهر، فهو الحقيقة التي تشكل أساس المادة والذهن وتوحد بينهما. والله لا يتعادل مع المادة (فلهذا لا يدين سبينوزا بالمذهب المادي) ولكن المادة صفة ملازمة متأصلة أساسية، أو مظهر من الله (وهنا تظهر من جديد إحدى هرطقات سبينوزا في شبابه). ولا يتعادل الله مع الذهن (ومن ثم لا يدين سبينوزا بالروحانية) ولكن الذهن صفة أو مظهر ملازم متأصل أساسي لله. والله والجوهر متعادلان مع الطبيعة والمجموع الكلي للكينونة أو الوجود (ولهذا كان سبينوزا يقول بوحدة الوجود: إن الله والطبيعة شيء واحد، وأن الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية).

وللطبيعة مظهران. فباعتبارهما القدرة على الحركة في الأجسام، والقدرة على التوالد والنمو والإحساس في الكائنات الحية، فإنها طبيعة "خالقة" أو ولودة. وباعتبارها جماع كل الأشياء والأجسام والنبات والحيوان والإنسان. فهي طبيعة "محدثة أو مخلوقة". وهذه "الموجودات الفردية" في الطبيعة المخلوقة يسميها سبينوزا حالات-أو تعديلات أو تجسيدات طارئة في الجوهر، والحقيقة والمادة والعقل والله. وهي جزء من الجوهر، ولكننا نميزها في إدراكنا الحسي، باعتبارها أشكالاً عابرة سريعة الزوال لكل داخلي. فهذا الحجر وهذه الشجرة، وهذا الإنسان أو الكوكب أو النجم-هذا المشهد المتغير العجيب من الأشكال الفردية التي تظهر وتتلاشى-تؤلف كلها "النظام المؤقت" الذي قابله سبينوزا في "رسالة إصلاح العقل" "بالنظام الأزلي" وهو بمعنى أدق الحقيقة والله المفهومين ضمناً:

لا أفهم من سلسلة العلل والموجودات الحقيقية... سلسلة من الأشياء الفردية المتحولة، بل سلسلة من الأشياء الثابتة الأزلية. لأنه قد يكون من المتعذر على الضعف البشري أن يتتبع سلسلة الأشياء الفردية المتحولة (كل حجر، وزهرة وإنسان). إن وجودها ليس له علاقة بماهيتها (قد توجد، ولكن ليس لها ثمة ضرورة لأن توجد)، أو أن وجودها ليس حقيقة أزلية... وهذه الماهية يمكن التماسها من الأشياء الثابتة الأزلية، ومن القوانين المنقوشة في هذه الأشياء وكأنها

صفحة رقم : 11452

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الله

دستورها الذي بمقتضاه صنعت ورتبت، بل أن هذه الأشياء الفردية المتحولة تعتمد اعتماداً وثيقاً أساسياً (هكذا يقال) على هذه الأشياء الثابتة، وبدونها لا يمكن وجودها ولا إدراكها(74). وهكذا يكون مثلث واحد بعينه "حالة"، وقد لا يكون ثمة ضرورة لوجوده، ولكن إذا وجد يكون لزاماً عليه أن يطيع القوانين-وسيكون لديه كل صلاحيات-المثلث بصفة عامة، والرجل بعينه حالة. وقد يوجد أو لا يوجد، ولكن إذا وجد، فإنه سيشترك في ماهية وقدرة المادة-الذهن، ويكون عليه أن يطيع القوانين التي تحكم عمليات الأجسام والأفكار، وهذه القدرات والقوانين تؤلف نظام الطبيعة باعتبارها طبيعة "خالقة"، وهي تشكل في لغة اللاهوت "إرادة الله". وحالات المادة هي في مجموعها جسم الله، وحالات الذهن في مجموعها هي ذهن الله، والجوهر أو الحقيقة. في كل حالاتها وصفاتها هي الله. "كل ما يوجد هو في الله(57)". ويتفق سبينوزا مع الفلاسفة السكولاسيين في أن الماهية والوجود في الله شيء واحد، إن وجوده متضمن في تصورنا الماهية لأنه يتصور أن الله هو كل الوجود نفسه يحتوي على الوجود كله. ويتفق مع السكولاسيين في أن "الله علة ذاته" حيث لا يوجد شيء خارج عنه. ويتفق معهم في أننا نستطيع أن نعرف وجود الله، ولكننا لا نعرف طبيعته الحقيقية. ويتفق مع توما الأكويني في أن استخدام ضمائر المذكر للدلالة على الله سخيف مضحك ولكنه مريح. ويتفق مع اتباع ابن ميمون في أن معظم الصفات التي ننسبها إلى الله يمكن تصورها عن طريق القياس الضعيف مع صفات الإنسان. يوصف الله بأنه واضع القوانين أو الأمير أو الملك ويوصف بأنه عادل رحيم... الخ، لمجرد الاعتراف أو

صفحة رقم : 11453

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الله

التسليم بالفهم العادي ونقص المعرفة العادي(77)... والله مجرد من الانفعالات، ولا يتأثر بأية عواطف من الفرح أو الحزن(78).... أن أولئك الذين يخلطون بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، إنما ينسبون بساطة الانفعالات الإنسانية إلى الله، وبخاصة إذا كانوا لا يعرفون كيف تحدث الانفعالات في الذهن(79). وليس الله شخصاً، لأن هذا يعني عقلاً مفرداً خاصاً محدوداً متناهيًا، ولكن الله هو مجموع كل عقل (كل الحيوية والنشاط والإحساس والفكر)-بقدر ما هو كل المادة-الموجود(80). العقل البشري جزء من عقل معين غير متناه لا حدود له(81) (مثل التقليد الأرسطي-السكندري). ولكن "إذا كان العقل والإرادة تتعلقان بالماهية الأزلية لله، فإن شيئاً آخر بعيداً يجب أن يفهم من هاتين الصفتين أكثر مما يفهمه الناس عامة(82)". "فالعقل الفعلي... مع الإرادة والرغبة والحب، الخ، يجب إرجاعها إلى الطبيعة المخلوقة لا الطبيعة الخالقة(83)" أي أن العقول الفردية برغباتها وعواطفها واختياراتها، هي حالات أو تعديلات موجودة في الله باعتباره جماع كل الأشياء، ولكنه لا تتعلق به باعتباره قانون وحياة العالم. فهناك في الله إرادة، ولكن بمعنى القوانين التي تعمل في كل مكان. فإن إرادته قانون. وليس الله أباً ملتجئاً يجلس على سحابة، يحكم الكون. إنه "علة المقيمة الكامنة، غير العابرة، لكل الأشياء(84)". وليس يوجد "خلق" إلا بمعنى الحقيقة غير المتناهية-المادة-الذهن-تتخذ دوماً أشكال أو حالات جديدة فردية. وليس الله في مكان واحد، ولكنه في كل مكان تبعاً لماهيته(85). والحق أن لفظة "الهة" هنا غير ملائمة. وأن الله هو الهة الشاملة العامة، لا بمعنى علة سابقة على نتيجتها، ولكن فقط بمعنى أن سلوك أي شيء ينبع بالضرورة من طبيعته.

والله هو علة كل الأحداث، بنفس الطريقة التي تكون بها طبيعة المثلث هي علة خواصه وسلوكه. والله حر، فقط بمعنى أنه غير خاضع لأية علة أو قوة خارجية، وأنه غير محكوم إلا بماهيته أو طبيعته

صفحة رقم : 11454

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الله

الخاصة، ولكنه "لا يتصرف عن حرية الإرادة(86)"، وكل أفعاله تحددها وتحكمها ماهيته وهذا يعني أن الطبيعة المتأصلة الملازمة للأشياء وخواصها هي التي تحكم كل الأحداث. وليس في الطبيعة خطة بمعنى أن الله يرغب في غاية أو هدف بعينه، فليس لديه رغبات أو خطط ومشروعات، اللهم إلا أن جماع الأشياء تحتوي رغبات وخطط كل الحالات، ومن ثم خطط ورغبات كل الكائنات الحية. وليس في الطبيعة إلا نتائج، تتبع بالضرورة عللاً سابقة لها وخواصاً متأصلة. وليس هناك معجزات، لأن إرادة الله و"نظام الطبيعة الثابت الذي لا يتغير" شيء واحد(87)، وأي خرق أو اضطراب في "سلسلة الأحداث الطبيعية" يكون تناقضاً ذاتياً.

والإنسان مجرد جزء صغير من الكون. والطبيعة تقف على الحياد بين الإنسان وسائر الأشكال. وينبغي ألا نطلق على الطبيعة أو الله ألفاظاً مثل الخير أو الشر، جميل أو قبيح، فتلك مصطلحات ذاتية، مثل ساخن أو بارد وإنما يحددها إسهام العالم الخارجي في منفعتنا أو إستيائنا.

إن الحكم على كمال الأشياء يكون بطبيعتها وقدرتها فحسب، فهي ليست أكثر أو أقل كمالاً بسبب أنها تسر أو تسيء إلى حواس الإنسان، ولا يسبب أنها نافعة أو ضارة للطبيعة البشرية(88)... وبناء على ذلك، فإنه إذا كان في الطبيعة شيء يبدو لنا سخيفاً أو مضحكاً أو شراً، فما ذلك إلا لأننا لا ندرك إلا القليل، بل نكاد نجهل كل الجهل، نظام الطبيعة واتكالتها بعضها على بعض ككل، كذلك لأننا نريد أن يكون كل شيء وفقاً لميليه عقلاً بشري. والواقع أن ما يعتبره العقل شراً، ليس شراً بالنسبة لنظام الطبيعة وقوانينها ككل، بل بالنسبة لقوانين عقلمنا فقط(89).

وبالمثل لا يوجد في الطبيعة جمال أو قبح.

ليس الجمال... إلى حد كبير صفة في الشيء المرئي، تحدث أثراً في الرائي. وإذا كان أبصارنا أطول أو أقصر، وإذا كانت بنياتنا متفاوتة، فإن ما نراه الآن جميلاً، يجب

صفحة رقم : 11455

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الله

أن نظنه قبيحاً. أن أجمل يد بالمجهر ستبدو مخيفة(90)... أنا لا أنسب إلى الطبيعة الجمال أو التشويه ولا النظام أو الفوضى والاضطراب. وبالنسبة لخيالنا أو تصورنا فقط، يمكن أن توصف الأشياء بأنها جميلة أو قبيحة، حسنة الترتيب أو مهوشة(91).

والنظام موضوع بمعنى واحد، هو أن كل الأشياء تتحد في نهج واحد من القانون ولكن في هذا النظام تكون العاصفة المدمرة طبيعية، بقدر ما تكون روعة غروب الشمس أو رهبة البحر الطبيعية.

وهل نحن على حق، على أساس هذا "اللاهوت" إذا نعتنا سبينوزا بالإلحاد؟ لقد رأينا أنه لم يكن مادياً، لأنه لم يعادل بين الله والمادة، فإنه يقول في وضوح بأن أولئك الذين يذهبون إلى أن "الرسالة باللاهوتية والسياسية" قائمة على تعادل بين الله مع الطبيعة آخذين الطبيعة على أنها كتلة معينة من مادة عينية-مخطنون غاية الخطأ(92). "إنه تصور الله ذهنياً ومادة على حد سواء. ولم يختزل الذهن إلى مادة واعترف بأن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة المباشرة. وذهب إلى أن ثمة شيئاً مجانساً للذهن. يختلط بكل مادة، وكان من هذه الناحية ممن يقولون بوحدة الوجود، كان مؤمناً بوحدة الوجود، حيث يرى الله في كل الأشياء، ويرى كل الأشياء في الله. واعتبره بيل وهيوم، وغيرهما(93) ملحداً. وقد يبدو ما يبرر هذا الوصف في إنكار سبينوزا للشعور والرغبة أو الفرض عند الله(94). إنه هو نفسه على أية حال، اعتراض على "رأي العامة في حيث لا يكفون عن اتهامي خطأ بأنني ملحد(95)" والظاهر أنه شعر بأن نسبته ذهنياً وذلكاء إلى الله غفرت له تهمة الإلحاد. ويجب التسليم بأنه تحدث مراراً وتكراراً عن ربه في عبارة تتسم بالإجلال الديني، مما يتفق تمام الاتفاق مع مفهوم الله عند ابن ميمون أو توما الأكويني، بل قد يسميه نوفاليس "الرجل الثمل بحب الله".

والواقع أنه كان نشواناً بنظام الطبيعة بأسره، ذلك النظام الذي بدا له في تماسكه وحركته الأزليتيث مثيراً للإعجاب مهيباً. وفي الكتاب الأول من "الأخلاق" كتب عن نهج للاهوت وميتافيزيقا العلوم معاً. وفي دنيا القانون أحس بوحى إلهي، أعظم من أي كتاب مهما كان

صفحة رقم : 11456

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الله

كريباً وجميلاً. وأن الفرد العلمي الذي يدرس ذلك القانون، حتى في أتفه تفاصيله وأصغرها شأناً، إنما يفك مغاليق هذا الوحي لأننا "كلما ازدادنا فهماً للأشياء الفردية ازدادنا فهماً لله(96)" (وقد هزت هذه الجملة مشاعر جوته باعتبارها أعمق عبارة في الأدب كله). وبدا لسبينوزا أنه قبل وواجه في أمانة وإخلاص التحدي الضمني في كوبرنيكس-ليعيد تصور الإله على أساس جدير بالكون الذي يتكشف يوماً بعد يوم. ولم يعد ثمة صراع بين العلم والدين عند سبينوزا، فهما شيء واحد.

صفحة رقم : 11457

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الذهن

إن أكبر لغز في الفلسفة والعلم، بعد طبيعة الكون وعمله، هو طبيعة الذهن وعمله. وإذا كان من الصعب التوفيق بين نزعة خيرة بالغة القدرة وبين حياد الطبيعة وحتمية المعاناة والألم، فإنه يبدو من الصعوبة بنفس القدر أن نفهم كيف يستطيع شيء ظاهر أنه خارجي مادي محدود ذو حيز أن يولد فكرة واضح أنها غير مادية وغير محدودة بحيز، وكيف تصبح فكرة في الذهن حركة في الجسم، أو كيف تستطيع فكرة أن تدقق التأمل في فكرة أخرى في غياب الواعي.

ويتقاضي سبينوزا بعض هذه المشاكل بنبذه فرضية ديكرات القائلة بأن الجسم والذهن جوهران مختلفان. ويعتقد أن الجسم والذهن شيء واحد، وأنهما نفس الحقيقة، وأنهما يدركان في مظهرين أو صفتين مختلفتين مثلما أن الامتداد والفكر شيء واحد في الله. من ثم لا تكون هناك مشكلة في كيفية تأثير الجسم في الذهن أو العكس بالعكس. وكل حدث هو العملية المترامنة الموحدة للجسم والذهن كليهما. ويعرف سبينوزا الذهن بأنه "فكرة الجسم (97)" أي العمل السيكولوجي (وليس بالضرورة عملاً واعياً) المتلازم والمرتبط بأية عملية فسيولوجية. فالذهن هو الجسم نحس به من الداخل، والجسم هو الذهن نراه من الخارج والحالة الذهنية هي المظهر الداخلي أو الباطني لأي عمل جسدي. وأي عمل "الإرادة" هو المرافق الذهني لأية رغبة جسدية تتحول إلى تعبير بدني. وليس هناك عمل "الإرادة" في الجسم، ولكن هناك عمل واحد للكائن السيكوفسيولوجي

صفحة رقم : 11458

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الذهن

(الذهني المادي)، وليست "الإرادة" هي العلة، بل هي وعي الحدث أو العمل. "إن قرار الذهن، ورغبة الجسم وتصميمه... شيء واحد ليس إلا، إذا أدرجناه تحت صفة الفكر نسميه قراراً، وإذا اعتبرناه من صفا الامتداد، واستنتجناه من قوانين الحركة والسكون نسميه تصميماً" فعلاً منتهياً (98). "ومن ثم فإن نظام أفعال وانفعالات أو حركات جسمنا مترامنة مع نظام وانفعالات أو حركات الذهن (99)". وفي كل أحوال التفاعل المفروض بين الذهن والجسم، ليست العملية الواقعية تفاعلاً بين حقيقتين أو جوهرين أو عاملين متميزين، بل هي عمل جوهر واحد، إذا رئي من الخارج سميناه جسماً، وإذا رئي من الداخل سميناه ذهناً. ولكل عملية في الجسم إلا أدركه الذهن (100)" ولكن هذا المتلازم الذهني قد لا يكون فكراً، بل قد يكون شعوراً، وقد لا يكون بالضرورة واعياً، وهكذا يأتي الذي يمشي وهو نائم بسلسلة من الأفعال وهو "غير واع (101)" وهذه النظرية تسمى "التوازي السيكوفسيولوجي"، وهي تفرض عمليات متوازية، لا في وجودين مختلفين، بل في وحدة سيكوفسيولوجية (عقلية جسدية) ترى رؤية مزدوجة. وعلى هذا الأساس ينتقل سبينوزا إلى وصف ميكانيكي لعملية المعرفة. ومن المحتمل أنه هذا حدو هوبز في تعريف الإحساس والذاكرة والتصور على أسس بدنية (102). ويستدل على هذا بأن معظم المعرفة ينشأ من تأثيرات تحدثها فينا أشياء خارجية. ولكنه يسلم بما يذهب إليه المثالي من أن "الذهن البشري لا يدرك أن جسماً خارجياً موجود بالفعل إلا عن طريق أفكار عن تعديلات في جسمه (103)". فالإدراك الحسي والعقلي، وهما شكلان للمعرفة، مشتقان من الإحساس. ولكن هناك شكل ثالث أسمى "المعرفة البديهية"، ولا يستمد (هكذا يعتقد سبينوزا) من الإحساس، بل من وعي واضح متميز مباشر شامل لفكرة أو حادث باعتبارها جزءاً من نظام كوني له قانون. واستبق سبينوزا لوك وهيوم حيث نبذ فكرة أن الذهن قوة أو وجود له أفكار، "فالذهن" تعبير عام أو مجرد عن تسلسل المدركات الحسية والذاكرات والتصورات والمشاعر وغيرها من الحالات العقلية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الذهن

"وفكرة الذهن، والذهن نفسه" في أية لحظة "شيء واحد بعينه(104)". كما أنه ليس هناك "ملكات" متميزة، مثل العقل أو الإرادة، فهذه أيضاً تعبيرات مجردة عن مجموع المدركات والاختبارات. إن للعقل أو الإرادة صله بهذه الفكرة أو تلك، وبهذه الرغبة أو تلك، بنفس أسلوب الصلة بين الحجرية وهذا الحجر أو ذاك، أو الرجل بينير أو بول(105). كما أن الفكرة والرغبة لا تختلفان. فالرغبة وعمل "الإرادة" هي مجرد فكرة "أكدت نفسها(106)" (أي أنها طال على بقائها من الوقت ما يكفي لاستكمال نفسها أو تحقيقها في فعل-كما تفعل الأفكار تلقائياً إذا لم يقف في طريقها عائق). "وليس قرار الذهن.... إلا مجرد توكيد تنطوي عليه الفكرة بقدر ما هي فكرة(107).... والإرادة والفكر شيء واحد بعينه(108)".

وثمة وجهة نظر أخرى، تلك هي أن ما نسميه إرادة هو ببساطة ذروة الرغبات ونشاطها، "أنا أفهم الرغبة... على أنها كل محاولات الإنسان واندفاعاته وشهوته واختياراته التي لا يندر أن يتعارض بعضها مع بعض، إلى حد أنه يتخبط هنا وهناك، وهو لا يدري أية جهة يتجه(109)". والتروي هو تعاقب سيطرة الرغبات المتصارعة على الجسم والفكر. وهذا ينتهي عندما تثبت رغبة ما أنها بلغت من القوة مبلغاً تحتفظ معه بالحالة العقلية بها وقتاً كافياً للتنقل إلى فعل. ويقول سبينوزا بأنه واضح أنه لا توجد "إرادة حرة"، فالإرادة في أية لحظة ليست إلا أقوى الرغبات. فنحن أحرار بقدر ما يجاز لنا أن نعبر عن طبيعتنا أو عن رغباتنا دون عائق خارجي، ولسنا أحراراً في اختيار طبيعتنا أو رغباتنا، إنما نحن رغباتنا. وليس الذهن إرادة مطلقة أو حرة ولكن الذهن محكوم عليه بأن يريد هذه أو ذاك لعله هي نفسها بدورها محكومة بعله أخرى، وهذه بعله ثالثة، وهكذا إلى ما لا نهاية(110)". ويظن الناس أنفسهم أحراراً لأنهم يعون اختياراتهم ورغباتهم، ولكنهم يجهلون العلل التي تؤدي بهم إلى أن يتخيروا ويرغبوا(111)، ومثل هذا مثل حجر يقذف به في الفضاء فيظن أنه يتحرك ويهوي بمحض إرادته(112).

ومن الجائز أن الجبرية الكلفنية في "جو الرأي" الذي عاش

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الذهن

فيه ديكارت وسبينوزا أثناء إقامتهما في هولندا، قد أسهمت مع ميكانيكا جاليليو (ولم تكن قاعدة نيوتن قد ظهرت بعد) في تشكيل النظرية الميكانيكية عند ديكارت، وعلم النفس الجبري عند سبينوزا. والجبرية هي الإيمان بالقضاء والقدر دون لاهوت. وهي تحل محل الدوامة أو السديم البدائي لله، وتتبع سبينوزا منطق الميكانيكا إلى نهايته المريرة، فإنه مثل ديكارت لم يقصره على الأجسام والحيوانات، بل طبقه على الأذهان كذلك، وكان لزاماً أن يفعل ذلك، حيث أن الذهن والجسم عنده شيء واحد. وخلص إلى أن الجسم آلة(113). ولكنه أنكر أن الجبرية تجعل الأخلاق عقيمة منافقة،

إن عظمات رجال الأخلاق والمثل العليا عند الفلاسفة، ووصمة عار الاستنكار العام وعقوبات المحاكم لا تزال ضرورية ذات قيمة، وإنها لتدخل في تراث وخبرات الفرد الذي يكبر وينمو، ومن ثم في العوامل التي تشكل رغباته وتحدد إرادته وتحكمها.

صفحة رقم : 11461

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الإنسان

6- الإنسان

يدخل سبينوزا في فلسفته التي يظهر أنها جامدة عاملين فعالين، أولهما وبصفة عامة، هو أن المادة والذهن متحدان في كل مكان، وأن كل الأشياء مفعمة بالحياة والنشاط، وأن فيها شيئاً مماثلاً لما نسمعه في أنفسنا بالذهن أو الإرادة، والثاني، وعلى وجه التخصيص، هو أن هذا العنصر الحيوي يشتمل في كل شيء على "محاولة للإبقاء على الذات". أن كل شيء بقدر ما هو في نفسه يسعى للمحافظة على وجوده هو نفسه. و "قدرة أي شيء أو سعيه... للإصرار على وجوده، ليس إلا... مجرد ماهية ذلك الشيء"(114)". ومثل الفلاسفة السكولاسيين الذين قالوا "أن تكون هو أن تعمل"، وأن الله "نشاط محض"، ومثل شوبنهاور الذي رأى في الإرادة ماهية كل الأشياء، ومثل الفيزيائيين الحديثين الذين يختزلون المادة إلى طاقة يعرف سبينوزا ماهية كل كائن عن طريق قدراته على الفعل أو العمل. "وقدرة الله هي من نفس ماهيته(115)"، وفي هذه الناحية "يكون الله طاقة (ويمكن أن تسمى الطاقة، بالإضافة إلى المادة والذهن، صفة ثالثة ندرك أنها تولف ماهية الجوهر أو الحقيقة)". ويحذو سبينوزا حذو هوبز في تصنيف الوجودات حسب قدرتها على الفعل

صفحة رقم : 11462

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الإنسان

وتأثيرها. "ويقدر كمال الأشياء حسب طبيعتها وقدرتها فحسب(116)" ولكن "كامل" عند سبينوزا معناه "تام". ونتيجة لهذا يعرف سبينوزا الفضيلة بأنها القدرة على التصرف والفعل، "أني أفهم من الفضيلة والقدرة نفس الشيء(117)". ولكننا سنرى أن هذه القدرة تعني القدرة على أنفسنا، حتى أكثر من القدرة على الآخرين(118) كلما ازداد المرء سعياً وراء ما فيه نفعه سعياً وراء المحافظة على وجوده-ازداد تنعمه بالفضيلة... فالسعي للمحافظة على الذات هو الأساس الوحيد للفضيلة(119). فالفضيلة عند سبينوزا حيوية (بيولوجية)، داروينية على الأغلب، إنها أية

صفة تعمل على البقاء. وبهذا المعنى، على الأقل، تكون الفضيلة جزءاً من الفضيلة. "فهي مرغوب فيها من أجلها هي وحدها، وليس ثمة شيء أكثر امتيازاً أو نفعاً لنا... من أجله ينبغي أن تكون الفضيلة مرغوباً فيها(120)". ولما كان السعي للمحافظة على الذات (التنازع من أجل البقاء) هو الماهية الفعالة لكل شيء. فإن كل الدوافع تتبع منه، وهذه الدوافع في أساسها أنانية. ومن حيث أن العقل لا يطالب بشيء ضد الطبيعة، فهو يطالب، لذلك، بأن يحب كل إنسان نفسه، ويلتمس ما هو مفيد له-أعني ما هو حقاً له-ويرغب في كل ما يؤدي بالإنسان حقاً إلى حالة كمال أعظم، وأخيراً أنه يجب على كل إنسان أن يسعى جاهداً للمحافظة على وجوده قدر استطاعته(121). وليس ضرورياً أن تكون هذه الرغبات واعية، فقد تكون شهوات لا واعية قائمة في الجسد. وهي تؤلف في جملتها ماهية الإنسان(122). ونحن نحكم على كل الأشياء على أساس رغباتنا. نحن لا نناضل من أجل أي شيء أو نريده أو نتمسكه ونرغب فيه لأننا نظن أنه خير، بل نحكم على شيء بأنه خير... لأننا نرغب فيه(123). "أني أفهم أن الخير هو ما نعلم علم اليقين أنه نافع لنا(124)" (وهنا نجد، في جملة واحدة، مذهب المنفعة عند بنتام). وكل رغباتنا تهدف إلى اللذة أو تجنب الألم. "اللذة هي انتقال الإنسان من حالة كمال أدنى(125)" واللذة تصاحب أية ممارسة

صفحة رقم : 11463

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الإنسان

وشعور يعزز ويزيد من قيمة النشاط أو التقدم الذاتي الجسدية العقلية(126). ويتمثل الفرح في أن قدرة المرء تزداد(127). وكل شعور يوهن من حيوتنا إنما هو ضعف لا فضيلة. وما أسرع ما يتخلص الرجل السليم من مشاعر الحزن والندم والاتضاع والأسف(129)، وهو على أية حال أكثر من الرجل الضعيف استعداداً لمديد المساعدة، لأن الكرم فائض القوة الواثقة. وأية لذة تكون مشروعة إذا لم تعوق لذة أعظم أو أبقى، ويمتدح سبينوزا، مثل أبيقور، اللذات العقلية باعتبارها أو فضلها، ولكنه يسوق كلمة طيبة في تشكيلة كبيرة من اللذات: لا يمكن أن يكون ثمة مرح بالغ.... وليس هناك ما يحرم الضحك إلا الخرافة الكنيية.... والإفادة من كل الأشياء والابتهاج بها قدر الإمكان (لا إلى حد التخمّة حقاً، لأن هذه ليست ابتهاجاً) جزء من الرجل الحكيم العاقل.. فيتناول المعتدل الطيب من الطعام والشراب، ويستمتع بالعطور والحدايق والثياب والموسيقى والألعاب والمسارح(130). أن المشكلة في مفهوم اللذة باعتبارها تحقيقاً للرغبات، تكمن في أن الرغبات قد تتصارع، فإن الرغبات لا تنتظم في تسلسل متناسق منسجم إلا عند الإنسان العاقل الحكيم. والرغبة عادة هي المتلازم الواعي لشهوة متأصلة في الجسم، وقد يبقى قدر كبير من الشهوة غير واع، إلى حد أننا لا يكون لدينا إلا مجرد "أفكار مشوشة غير واقية" عن علها ونتائجها. ومثل هذه الرغبات المشوشة يسميها سبينوزا عواطف أو انفعالات. ويعرفها بأنها "تعديلات في الجسم تزيد أو تنقص بها قدرة الجسم على العمل.... وفي نفس الوقت أفكار هذه التعديلات(131)" وهو تعريف يسلم تسليماً غامضاً بدور الإفرازات الباطنية في العواطف، يستبقي بشكل ملحوظ نظرية س.ج. لانج ووليم جيمس التي تقول بأن التعبير الجسدي عن العاطفة هو النتيجة المباشرة الغريزية لليلة، وأن الشعور الواعي مصاحب أو نتيجة، لا علة، لتعبير الجسم أو استجابته. ويقترح سبينوزا دراسة العواطف-الحب والبغض والغضب والخوف الخ-وسيطرة العقل

صفحة رقم : 11464

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الإنسان

عليها "بنفس الطريقة... كما لو كنت أعالج الخطوط والسطوح والأجسام(132)" لا لأمتدحها ولا لأنتقص منها، لا لأفهمها، لأننا "كلما ازدادنا معرفة بالعاطفة ازدادت سيطرتنا عليها، وأصبح الذهن أقل سلبية بالنسبة لها(133)". ودان تحليل العواطف الناتج عن هذه الدراسة ببعض الفضل لديكارت، وربما بفضل أكبر لهوبز، ولكنه بزهما، حتى أن جوهانس موللر، عندما عالج موضوع العواطف في كتابه الممتاز "فسيولوجية العواطف" (1840) كتب يقول "بالنسبة لعلاقات العواطف بعضها ببعض، بعيداً عن ظروفها الفسيولوجية، فإنه يتعذر الإداء ببيان أوفى مما ذكره سبينوزا في براعة لا تفوقها براعة(134)" وأخذ يقتبس كثيراً من كتاب "الأخلاق".
وتصبح العاطفة هوى أو انفعالاً، إذا كانت علتها الخارجية بسبب أفكارنا المهوشة الناقصة عن منشئها ومغزاها- تفرض علينا شعورنا واستجابتنا، كما هو الحال في البغض أو الغضب أو الخوف". أن الذهن يخضع بشكل أو بآخر للأهواء والانفعالات، تبعاً لما لديه بنفس القدر من أفكار كافية أو ناقصة(135). والإنسان ذو المقدرة الضعيفة على الإدراك الحسي والفكري خاضع بصفة خاصة للأهواء. ومثل هذه الحياة يصفها سبينوزا في كتابه الفذ، الجزء الرابع، "استرقاق الإنسان"، فإن هذا الإنسان مهما كان تصرفه عنيفاً، سلبي بليد، مسوق بمؤثر خارجي، بدلاً من أن يتماسك ويثبت ويعمل فكره. "إن أسباباً خارجية تقودنا على غير هدى في دروب متشعبة كثيرة، وكما تسوق الرياح الهوج غير المواتية الأمواج سوقاً، فإننا نضطرب ونتردد على غير وعي بالعاقبة ولا بالمصير(136)".
ترى هل نستطيع فكاكاً من هذا الاسترقاق، ونصبح بدرجة ما سادة أنفسنا وحياتنا؟.

صفحة رقم : 11465

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> العقل

7- العقل

لن تكون لنا سيادة تامة على أنفسنا أبدأ، لأننا سنبقى جزءاً من الطبيعة، خاضعين (كما كان يقول نابليون) "لطبيعة الأشياء". وحيث أن العواطف هي قوتنا الدافعة، والعقل مجرد ضوء، وليس

صفحة رقم : 11466

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> العقل

لهيباً، "فإن أية عاطفة لا يمكن تعويقها أو القضاء عليها إلا بعاطفة أخرى متعارضة وأشد قوة(137)". ومن هنا كان المجتمع بحق يحاول جاهداً أن يلطف من انفعالاتنا وأهوائنا بالجوء إلى حينا للثناء وحسن الجزاء وخوفنا من العتاب والعقاب(138). كما يسعى المجتمع جاهداً بحق ليغرس فينا الشعور بالصواب والخطأ وسيلة أخرى لكبح جماح الأهواء والانفعالات. والضمير، بطبيعة الحال، نتاج اجتماعي، وليس هبة أو منحة فطرية إلهية(139). ولكن في استخدام الثواب والعقاب الوهميين في الحياة بعد الموت، حوافز على الخلق القويم، تشجيعاً على الخرافة، لا يليق أبداً بمجتمع ناضج. وينبغي أن تكون الفضيلة -وهي فعلاً كذلك- جزءاً نفسها، إذا عرفناها، مثل الرجال، بأنها المقدره والذكاء، والقوة، لا مثل الجبناء، بأنها الإذعان والطاعة والتواضع والخوف. وشمأز سبينوزا من النظرة المسيحية إلى الحياة بأنها واد من الدموع، وإلى الموت بوصفه مدخلاً للنعيم أو الجحيم، وقد أحس بأن هذا يلقي حجاباً كثيفاً من الكآبة على نشاط البشر، ويغشي بفكرة الخطيئة آمال الناس وأمنياتهم ومسراتهم المشروعة بالظلام والقتام. إن التفكير في الموت ليل نهار سبة في جبين الحياة وامتهان لها "أن أقل ما يفكر فيه الإنسان الحر هو الموت، وأنه ليفرغ كل حكمته وعقله في التأمل في الحياة، لا في الموت(140)". وعلى الرغم من ذلك كان سبينوزا يبدو في بعض الأحيان وكأنه يحوم حول فكرة الخلود أن نظريته في الذهن والجسم باعتبارهما جانبيين لنفس الحقيقة أدت به منطقياً إلى أن يرى فناءها مترامناً. وهو يؤكد هذا في وضوح تام: "أن الوجود الراهن للذهن، وقدرته على التصور ترولان بمجرد أن يكف الذهن عن تأكيد الوجود الراهن للجسم(141)". ثم "أن الذهن لا يمكن أن يتصور شيئاً، ولا أن يتذكر شيئاً مضي إلا حين يكون الجسم موجوداً(142)". وتظهر في الجزء الخامس بعض فروق غامضة: "أننا إذا نظرنا إلى الرأي السائد بين الناس لرأينا أنهم يعون حقاً خلود أذهانهم، ولكنهم يخلطون بين هذا وبين البقاء أو الدوام، وينسبون إلى التصور والذاكرة اللتين يعتقدون أنهما تبقيان بعد الموت(143)". وما دام الذهن عبارة

صفحة رقم : 11467

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> العقل

عن سلسلة من الأفكار والذكريات والتصورات المؤقتة المرتبطة بجسم معين، فإنه ينقطع وجوده عندما يفنى الجسم، وهذا هو "البقاء الفاني" للذهن. ولكن ما دام الذهن البشري يدرك الأشياء في علاقاتها الأبدية، باعتبارها جزءاً من المنهج الشامل الذي لا يتغير للقانون الطبيعي، فإنه يرى الأشياء كأنها في الله، ويصبح جزءاً من الذهن الإلهي ويكون خالداً: أننا نتصور الأشياء واقعية بطريقتين: أما بقدر ما نتصور وجودها بالنسبة لزمان ومكان معينة، أو بقدر ما نراها متضمنة في الله (وفي النظام والقوانين الأزلية) وأنها تنشأ عن ضرورة الطبيعة الإلهية (أي تلك القوانين). ولكن الأشياء التي ترى في الحالة الثانية على أنها صادقة أو حقيقية إنما نتصورها نوعاً معيناً من الأزلية (في جانبها الأزلي). وأفكارها تتضمن ماهية الله الأزلية اللامتناهية(144). وعندما نرى الأشياء بهذه الحالة السرمدية، فإننا نراها كما يراها الله، وعند هذا الحد تصبح أذهاننا جزءاً من الذهن الإلهي، وتشارك في الأزلية.

أننا لا ننسب إلى ذهن الإنسان بقاء يحدد بزمن. ولكن حيث أن هناك، على الرغم من ذلك، شيئاً آخر يتصور في ظل ضرورة أزلية معينة، عن طريق ماهية الله، فإن هذا الشيء الآخر سيكون بالضرورة الجزء الأزلي الذي يتعلق بالذهن (145).... ونحن على يقين من أن الذهن أزلي طالما أنه يتصور الأشياء في ظل الأبدية (146). ولنفترض أنه في التأمل في التسلسل المهيّب للعلّة والنتيجة الظاهرتين طبقاً لقوانين واضح أنها أبدية، أحس سبينوزا أنه قد هرب، مثل بوذي بلا خطيئة، من أغلال الزمن، وشارك في وجهة نظر الذهن الأزلي وهدونه.

صفحة رقم : 11468

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> العقل

وعلى الرغم من الوصول الظاهري للقمر، خصص سبينوزا معظم ختام الجزء الخامس "الحرية الإنسانية" لصياغة علم أخلاق طبيعي، ينبوع ومنهج الأخلاق، مستقلين عن الحياة بعد الموت، ولو أن استخدم في ولع شديد تعبيرات دينية، وأن جملة واحدة لتكشف عن نقطة البداية. "أن العاطفة التي تكون انفعالاً أو هوى لا تعود انفعالاً ولا هوى إذا نحن كونا عنها فكرة واضحة متميزة (147)" -أي أن العاطفة التي تثيرها أحداث خارجية يمكن الهبوط بها من الانفعال إلى شعور منضبط إذا هيأنا لمعرفتنا أن نحتال عليها حتى تصبح علتها وطبيعتها واضحتين، كما يصبح التنبؤ بعاقبة التصرف أمراً ممكناً من خلال الخبرة المختزنة في الذاكرة. وثمة طريقة لإيضاح الحالة العاطفية، تلك هي أن نرى الأحداث التي أنشأتها، بوصفها جزءاً من سلسلة من علل طبيعية ونتائج ضرورية لها. "وبقدر ما يفهم الذهن كل الأشياء على أنها ضرورية لازمة، يكون أكثر سيطرة على العواطف، وأقل سلبية نحوها (148)" -أي أقل نهياً للانفعالات والأهواء. ولن يصبح أي إنسان انفعالياً لما يعتبره طبيعياً لازماً. ويمكن التخفيف من حدة الغضب لأية إساءة، إذا نظرنا إلى المسيء باعتباره نتاج الظروف التي لم يستطع التحكم فيها. كما يمكن التخفيف من الحزن على فقد الدين مسنين بتذكر أن الموت أمر طبيعي. "ومحاولة الفهم هي الأساس الأول الوحيد للفضيلة (149)"، بمعنى هذه الكلمة عند سبينوزا، لأنها تنقص من خضوعنا للعوامل الخارجية، وتزيد من قدرتنا على ضبط أنفسنا والمحافظة عليها. والمعرفة قدرة أو قوة، ولكن أفضل وأنفع شكل لهذه القمة هو سيطرتنا على أنفسنا. وهكذا يطبق سبينوزا طريقته الرياضية (طريقة إقليدس) على حياة العقل. ويسترجع الأنواع الثلاثة التي وضعها للمعرفة، فيصف المعرفة الحسية، بأنها تتركنا عرضة إلى حد كبير للمؤثرات الخارجية، والمعرفة العقلانية (المكتسبة عن طريق التفكير والتأمل) بأنها تحررنا تدريجياً من استرقاق الانفعالات حيث تمكننا من رؤية العلل المحتمومة غير الشخصية للأحداث، وأخيراً المعرفة البديهية أو الحدسية-الوعي المباشر بنظام الكون-ويصفها بأنها تجعلنا نحس أنفسنا جزءاً من ذلك

صفحة رقم : 11469

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> العقل

النظام، "ومتحدين مع الله". وينبغي ان نتوقع ونحتمل وجهي الحظ كليهما بنفس الذهن، لأن كل الأشياء تنشأ من القانون الأبدي لله، بنفس الطريقة التي ينشأ بها من ماهية المثلث أن زواياه الثلاث تشكل زاويتين قائمتين(150). أن هذا الهروب من التفكير الطائش هو الحرية الحقيقية الوحيدة(151). وهذا الذي يستطيع بلوغها، يملأن-كما اعتاد الرواقيون أن يقولوا-أن يكون حراً في كل الظروف في كل حالة تقريباً. أن أكبر هبة يمكن أن تمنحنا إياها المعرفة هي أن نرى أنفسنا كما يرانا العقل.

وعلى هذا الأساس من المذهب الطبيعي يصل سبينوزا إلى بعض نتائج أخلاقية، مثل تلك التي وصل إليها المسيح، بشكل يدعو إلى الدهشة:

أن الذي يعرف بحق أن كل الأشياء تنشأ من ضرورة الطبيعة الإلهية، وتسير وفق قوانين أزلية طبيعية منتظمة، لن يجد إطلاقاً شيئاً جديراً بالكراهية، أو السخرية أو الازدراء، كما أنه لن يرثى لأحد، ولكنه، بقدر ما تسمح الفضيلة البشرية، سيسعى جهده ليعمل صالحاً.... ويبتهج(152).... أن الذين يعترضون على الناس ويؤثرون استنكار الرذائل، لا غرس الفضائل... مصدر از عاج لأنفسهم وللآخرين معاً(153).... أن الرجل القوي لا يبغض أحداً، ولا يثير غضبه أحد، ولا يحسد أحداً، ولا ينقم على أحد، وليس بأية حال مغروراً(154). أن الذي يعيش على هدى من العقل، يحاول قدر طاقته أن يقابل الكراهية والغضب والاحتقار... الخ، بالحب والكرم... وهذا الذي يرغب في الانتقام للأذى بالكراهية المتبادلة، إنما يعيش حليف اليأس والشقاء. فالكراهية تتفاقم إذا كانت متبادلة، وعلى العكس يمكن القضاء عليها بالحب(155).... والناس، بهدى من العقل،.... لا يرجون لأنفسهم شيئاً لا يحبونه لسائر البشر(156). (أحب لأخيك ما تحب لنفسك).

صفحة رقم : 11470

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> العقل

وهل ضبط العاطفة بالعقل على هذا النحو، يتعارض كما يطن بعضهم(157)، مع تسليم سبينوزا بأنه ليس ثمة إلا عاطفة يمكن أن تقهر عاطفة؟ من الجائز أن يكون هذا إلا إذا كان من الميسور أن يرتفع التزام جادة العقل إلى مستوى عاطفي وتحمس. أن المعرفة الحقة بالخير والشر لا يمكن أن تكبح جماح أية عاطفة بقدر ما تكون المعرفة حقة، بل يقدر ما تعتبر هذه المعرفة عاطفة(158). إن تلك الحاجة، وربما الرغبة في الهاب العقل وأثارته بعبارات تكملها التقوى والزمن بالتبجيل والاحترام، هي التي أدت بسبينوزا إلى الفكر الأخير الذي توج به عمله-وهو أن "الحب العقلي لله" يجب أن يلهم حياة العقل ويرفع من شأنها. وحيث أن "الله" في رأي سبينوزا، هو الحقيقة الأساسية، والقانون الثابت الذي لا يتغير للكون نفسه، فإن هذا الحب العقلي لله ليس مجرد استرضاء مذل لسلطان جالس على طبيعة الأشياء ونظام العالم. إن احترام إرادة الله، والامتثال الواعي لقوانين الطبيعة شيء واحد. ويقدر ما يجد العالم الرياضي من رهبة ونشوة في أن يرى العالم خاضعاً لقواعد قياسية رياضية، قد يجد الفيلسوف أعمق سرور في تأمل عظمة الكون يسير رابط الجأش في تواتر القانون الكوني الشامل. وحيث أن "الحب لذة مصحوبة بفكرة علة خارجية(159)، فإن الحب الذي نستمد من رؤية نظام الكون-وتكليف أنفسنا معه-يسمو إلى حب الله الذي هو حياة ونظام الكل. وحينئذ يغمر حب الكائن السرمدى اللامتناهي، يغمر الذهن تماماً بالفرح والبهجة(160)". أن هذا التأمل في العالم، كنتيجة لازمة لطبيعته-طبيعة الله-هو المصدر الآخر للرضا والاطمئنان في ذهن الإنسان العاقل، وهو يوفر له هدوء التفكير والارتياح إلى قيود أو الحدود المعترف بها للحق المحبوب المقبول. "أن أعظم خير للذهن هو معرفة الله، وأسمى فضيلة في الذهن هي معرفة الله(161)".

وهكذا زواج سبينوزا في نفسه بين العالم الرياضي والمتصوف. وأبى أن يرى في ربه روحاً قادرة على مقابلة حب الإنسان أو مكافأة الابتهالات والصلوات بالمعجزات، ولكنه خص ربه بالعبارات الرقيقة التي ألهمت لآلاف السنين أبسط المتدينين المتحمسين وأعمق المتصوفين

صفحة رقم : 11471

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> العقل

في البوذية واليهودية والمسيحية والإسلام، ووجدوا فيها السلوى والراحة. ومذ قبع سبينوزا واهناً مقررراً وحيداً في علياء فلسفته، تواقاً إلى أن يعثر في الكون على شيء يتقبل عبادته وثقته، فإن المهرطق الوديع، الذي كان قد أبصر الكون رسماً هندسياً، انتهى برؤية كل الأشياء في الله وفقدانها في الله، حيث أصبح "الملحد" المنشوان بحب الله. مما أدى إلى أرتابك الأجيال القادمة وحيرتها. أن الدافع الذي لا يقاوم للعثور على معنى في الكون جعل النأي عن كل عقيدة يختم محاولته برؤية إله قدير، وبإحساس مثير رفيع بأنه كان قد بلغ الأبدية، ولو للحظة واحدة.

صفحة رقم : 11472

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الدولة

8- الدولة

إن سبينوزا، بعد أن كان قد انتهى من كتاب "الأخلاق" ربما أحس، مثل معظم القديسين المسيحيين، بأنه قد صاغ فلسفة لمنفعة الفرد وخلصه، لا لتوجيه وهداية جماعة المواطنين في دولة. ومن ثم فإنه حوالي 1675 تفرغ لدراسة الإنسان "حيواناً سياسياً"، وليطبق العقل على مشاكل المجتمع. وشرع في تدوين شذرات "الرسالة السياسية"، موطداً العزم، كما فعل في تحليل الانفعالات، على أن يكون موضوعياً ينتهج أسلوب عالم الهندسة أو الفيزياء: رغبة في بحث مادة هذا العلم بنفس الروح الحرة التي تنتهجها بصفة عامة في الرياضيات، بذلت غاية الجهد في الحرص على ألا أسخر من أفعال البشر أو أرثى لها، بل على أن أتفهمها، ولهذا الغرض نظرت إلى انفعالات الحب والكرهية والغضب، والحسد والطمع والحسرة وسائر إرهابات الذهن، لا في ضوء رذائل الطبيعة البشرية، بل باعتبارها من خواص الذهن، وهي وثيقة الصلة به، مثل الصلة الوثيقة بين الحرارة والبرودة، والعاصفة والرعد، وما إليها، وبين طبيعة الجو(162).

ومذ كانت الطبيعة الإنسانية هي مادة علم السياسة، فإن سبينوزا أحس بأن دراسة الدولة ينبغي أن تبدأ ببحث الخلق الأساسي للإنسان. وقد نفهم هذا بشكل أفضل إذا تيسر لنا أن نتصور الإنسان قبل أن يعدل

صفحة رقم : 11473

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الدولة

التنظيم الاجتماعي من سلوكه، بالقوة والأخلاق وبالقانون، وأن نتذكر أن تحت خضوعه الهم الكريه لهذه المؤثرات التي تؤهله لبيئة اجتماعية، لا تزال تضطرم بين جنبه دوافع غير مشروعة لم يكن يجد منها في "حالة الطبيعة" إلا الخوف من القوة العدائية. وحذا هوبز وكثيرين غيره في القول بأن الإنسان عاش يوماً في مثل هذه الحالة، وبأن صورته في هذه الوحشية الافتراضية تكاد تكون قائمة مثل صورته في "اللواياتان" تقريباً. وفي "جنة الشر" هذه كانت قوة الفرد هي الحق الوحيد، ولم يكن ثمة شيء يعتبر جريمة لأنه لم يكن هناك قانون ولم يكن ثمة شيء عدل أو ظلم، صواب أو خطأ، لأنه لم يكن هناك قانون أخلاقي. وبناء على هذا "كان قانون الطبيعة وأوامرها لا تخطر شيئاً.. ولا تقاوم الصراع أو الكراهية أو الغضب أو الخيانة أو بصفة عامة أي شيء توحى به الشهوة (163)". وبمقتضى "حق الطبيعي حينذاك، أعنى بعملية الطبيعة، متميزة عن قواعد المجتمع وقوانينه-يكون لأي إنسان الحق هذا فيما تمكنه قوته من اكتسابه أو الاستيلاء عليه، ولا يزال هذا أمر مسلماً به بين الأجناس استغلال الحيوانات لخدمته أو لغذائه (165).

ويلطف سبينوزا من هذه الصورة الوحشية بالإيحاء بأن الإنسان، حتى في أول ظهوره على الأرض، ربما كان يعيش بالفعل في جماعات اجتماعية. ومن حيث أن الخوف من الوحدة كان في كل الناس-لأن أي إنسان في الوحدة لا يملك من القوة ما يدافع به عن نفسه، ويحصل به على ضرورات حياته-فإن هذا يستتبع ينزع الناس بالطبيعة إلى تنظيم اجتماعي (166). ومن ثم فإن في الناس غرائز اجتماعية وغرائز فردية على حد سواء. وللمجتمع وللدولة جذور في طبيعة الإنسان. وكيفما حدث هذا وحيثما حدث، فإن الناس والأسرات اتحدت في جماعات، وحد أنذاك حق الجماعة أو قوتها من "الحق الطبيعي" للفرد أو من قوته. ولا ريب في أن الناس قبلوا هذه القيود أقوى أداة للإبقاء على الفرد ولتنميته وتطويره. وعلى ذلك فإن تعريف الفضيلة بأنها أية صفة تعمل على البقاء-مثل "النزوع للمحافظة

صفحة رقم : 11474

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الدولة

على الذات (167)"- كان ينبغي التوسع فيه (أي التعريف) ليشمل أية صفة تعمل على بقاء الجماعة. أن التنظيم الاجتماعي، والدولة على الرغم من تقييداتها، والمدنية على الرغم من خداعها، كل هذه هي أعظم المخترعات التي ابتدعها الإنسان للمحافظة على ذات وتنميتها وتطويرها.

ولذلك يستبق سبينوزا رد فولتير على روسو:

دع الهجانين يسخروا ما طابت لهم السخرية من شئون البشر، ورجال اللاهوت يلعنوهم، ودع المكتنبيين يمتدحوا قدر طاقتهم الحياة الانعزالية القاسية الوحشية، فليزدروا الإنسان ويعجبوا بالوحوش، فعلى الرغم من هذا كله، سيجد الناس أنهم، بالعون المتبادل، وفي يسر أكثر كثيراً، يستطيعون إعداد ما يحتاجون إليه... والإنسان الذي يسير بهدى من العقل أكثر حرية من دولة يعيش فيها وفق القانون العام، منه في وحدة لا يخضع فيها لأي قانون(168). ويرفض سبينوزا كذلك الطرف الآخر من حلم "لا قانون" -يوتوبيا الفوضوي الفيلسوف: إن العقل يستطيع حقاً أن يصنع الكثير ليكبح جماح الانفعالات والتخفيف منها، ولكننا رأينا... أن الطريق الذي يحدده العقل نفسه شديد الوعورة، ومن ثم فإن الذين يقنعون أنفسهم بأن الجمهور قد يغيره يوماً أن يعيش وفق أوامر العقل المجردة، لا بد أنهم يحملون بالبيضة الذهبية الوارد ذكرها في الأشعار، أو برواية مسرحية(169). وينبغي أن يكون هدف الدولة مهمتها تمكين أعضائها من أن يحيوا حياة العقل: ليست الغاية القصوى للدولة أن تهيمن على الناس، ولا أن تكبح جماحهم بالرهبة، بل أن تحرر الإنسان من الخوف، حتى يعيش ويعمل آمناً مطمئناً كل الاطمئنان، دون أن يلحق به أو يجاره أي أذى. وليست غاية الدولة أن تجعل من الكائنات العقلانية حيوانات ضارية وآلات

صفحة رقم : 11475

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الدولة

(كما هو الحال في الحرب) بل تمكين أجسامهم وأذهانهم من أداء وظيفتها في أمان، أن غايتهم أن توجد الناس ليعيشوا على العقل السليم الصادق ويمارسوه... أن غاية الدولة حقاً هي الحرية(170). ونتيجة لذلك يجدد سبينوزا دعوته إلى حرية التعبير، أو على الأقل حرية الفكر، ولكنه استسلم مثل هوبز، للخوف من التعصب والصراع الديني، فاقترح، لا مجرد إخضاع الكنيسة للدولة، بل أن تحدد الدولة أي المذهب الدينية يلحق للناس.

وينتقل سبينوزا إلى بحث الأشكال التقليدية للحكومة، وإذا أصبح وطنياً هولندياً منبرماً يغزو لويس الرابع عشر لهولندا، فإن الملكية لم ترق في عينيه، وهاجم بشدة نظرية هوبز في الحكم الاستبدادي المطلق: المظنون أن التجارب تعلمنا أن وضع السلطة في يد رجل واحد مدعاة للسلام والهدوء والانسجام، لأن أي نظام سياسي لم يكتب له البقاء طويلاً دون تغيير يذكر، مثل النظام التركي، على حين أن أي نظام لم يكن قصير الأجل تعتروه الفتن والمشاعبات سوى الدول ذات النظام الشعبي أو الديموقراطي. ولكن إذا كانت العبودية والوحشية والدمار تسمى سلاماً، لكان السلام أشد محنة تبتلى بها الدولة... إن الاسترقاق. لا السلام، هو الذي ينتج عن وضع السلطة في يد رجل واحد. فإن السلام لا يكمن في عدم وجود الحرب، بل في اتحاد نفوس الناس وانسجامها(171). وقد تكون الأرسقراطية "حكومة الصفوة" ممتازة، لو لم تكن هذه الصفوة خاضعة للروح الطبقية والحزبية العنيفة وجشع الفرد أو الأسرة. إذا تجرد الأرسقراطيون أو الأشراف من كل الأهواء وكانوا لا يصدر عن أعمالهم إلا عن غيرة على المصلحة العامة، لما كان ثمة دولة يمكن أن تقارن بالأرسقراطية. ولكن التجربة تعلمنا علم اليقين أن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، أي أن الأمور تجري على عكس ما نريد(172).

صفحة رقم : 11476

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> الدولة

وهكذا شرع سبينوزا في أواخر أيام حياته وهو على سرير الموت يخطط آماله في دولة أرستقراطية. أن الرجل الذي أحب جان دي ويت الذي قتله الرعاع، لم تساوره أية أوهام بالنسبة للجمهور. أو أولئك الذين خبروا تقلب مزاج الناس، كاد يتغلب عليهم اليأس، لأن الناس تحكمهم العاطفة، لا العقل، لأنها تغلب على كل شيء، وما أيسر أن يفسدها الجشع والترف (173). ومع ذلك "أعتقد أن الديموقراطية أقرب أشكال الحكم إلى الطبيعة وأكثرها انساقاً مع حرية الفرد. وفيها لا ينقل أحد حقه الطبيعي أو يفرض به تفويضاً مطلقاً إلى حد لا يعود له معه أي صوت في أمور الحكم، بل هو لا يفعل إلا أن ينقله إلى الأغلبية (174)" واقترح سبينوزا منح حق الاقتراع العام لكل الذكور فيما عدا القاصرين والمجرمين والأرقاء. واستبعد النساء لأنه رأى أنهن بحكم طبيعتهن وأعبائهن أقل صلاحية من الرجال للتداول والتشاور والحكم (175). ورأى أنه يمكن تشجيع الموظفين الرسميين على السلوك القويم وانتهاج سياسة سليمة، إذا "أمكن أن تؤلف الميليشيا (القوات المسلحة) من المواطنين وحدهم، دون إعفاء أحد منهم لأن الرجل المسلح أكثر استقلالاً من غير المسلح (176)". وأحس بأن رعاية الفقراء والمساكين التزام إجباري على المجتمع بأسره (177). وما ينبغي أن يكون هناك إلا ضريبة واحدة: الحقول والأرض كلها، والبيوت إذا أمكن تدبيرها أن تكون ملكاً عاماً، أي ملكاً لمن له حق الحكم في الدولة، وهذا بدوره يؤجرها للمواطنين مقابل إيجار سنوي... وبهذا الاستثناء وحده، دعهم أحراراً معفين من أي نوع من الضرائب في زمن السلم (178). وفي اللحظة التي أقبل فيها على أتمن جزء من رسالته اختطف الموت القلم من يده.

صفحة رقم : 11477

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> سلسلة من التأثيرات

9- سلسلة من التأثيرات

في السلسلة الضخمة من الأفكار التي تربط تاريخ الفلسفة إلى مجرى كريم واحد يتلمس فيه الفكر البشري الحائر طريقه، نجد منهج سبينوزا يتشكل في عشرين قرناً وراءه، ويسهم في تشكيل العالم

صفحة رقم : 11478

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> سلسلة من التأثيرات

الحديث. أنه أولاً، بطبيعة الحال، كان يهودياً، وعلى الرغم من أنه كان محروماً من الكنيس، فإنه لم يستطع أن يخرج عن هذا التراث الضخم، ولا أن ينسى سنين تأمله في العهد القديم والتلمود وكثير من الفلاسفة اليهود. ولنعد بالذاكرة إلى الهرطقات التي روعت انتباهه في ابن عزرا وابن ميمون، وهاسادي كريسكاس، وليفي بين جيرسون وأورييل أكوستا. ولا بد أن دراسته للتلمود ساعدت على شحذ الإحساس المنطقي الذي جعل من رسالة "الأخلاق" معبداً ممتازاً للعقل. قال سبينوزا "أن بعض الناس" يبدعون فلسفتهم من الأشياء المخلوقة، وبعضهم من الذهن البشري، أما أنا فأبدأ من الله(179). وتلك كانت الطريقة اليهودية.

إن سبينوزا أخذ القليل عن الفلاسفة الذي جرت التقاليد على أشد الإعجاب بهم ولو أنه في تمييزه بين عالم الأشياء العابرة وعالم الله ذي القوانين الأزلية. قد نجد صيغة أخرى لتفريق أفلاطون بين الوجودات الفردية ونماذجها الأصلية في ذهن الله. وأمكن تتبع تحليل سبينوزا للفضائل إلى كتاب أرسطو "الأخلاق" عند نيقوماخوس(180). ولكنه قال لأحد أصدقائه "لم يكن أفلاطون وأرسطو وسقراط كبيرون عندي(181)". أنه مثل بيكون وهوبز، أثر ديمقريطس وأبيقور ولوكريشيوس. وقد يرجع مثل الأعلى في الأخلاق صدى الرواقيين، وقد ترن في آذاننا بعض نبرات ماركوس أوريليوس، ولكنه كان منسجماً كل الإنسجام مع أبيقور.

أن سبينوزا دان للفلاسفة السكولاسيين بفضل أكثر مما وضح له. إنهم تسربوا إليه عن طريق ديكارت. إنهم كذلك مثل توما الأكويني في "الرسالة الجامعة" الرائعة. كانوا قد حاولوا عرضاً هندسياً للفلسفة، وزودوه بكثير من المصطلحات، مثل الجوهر، والطبيعة الخالقة، والصفة والماهية والخير الأسمى وكثير غيرها. أن قولهم بتعادل الوجود والماهية في الله، أصبح ما قال به هو تعادل الوجود والماهية في الجوهر، ومد إلى الإنسان إدماجهم العقل والإرادة في الله. وربما قرأ سبينوزا أعمال برونو (كما يظن بيل)، وارتضى تمييز جيوردانو بين الطبيعة الخالقة والطبيعة المخلوقة. وربما أخذ التعبير

صفحة رقم : 11479

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> سلسلة من التأثيرات

والفكرة عن كتاب برونو "المحافظة على الذات(182)" وربما عثر عند الإيطالي على وحدة الجسم والذهن، ووحدة المادة والروح، ووحدة العالم والله، ومفهوم المعرفة الأسمى، بمعنى رؤية كل الأشياء في الله-ولو أن المتصوفة الألمان لا بد نشروا هذا الرأي حتى في المدينة التجارية أمستردام. وعن طريق مباشر أكثر أوحى إليه ديكارت بمثل فلسفته، ونفره وثبط من همته بتقاهات لاهوتية. وألهبت خياله محاولة ديكارت أن يجعل الفلسفة تتمشى مع أفليدس شكلاً ووضوحاً. وربما تبع ديكارت في رسم قواعد لتوجيه حياته وعمله. واقتبس عن طيب خاطر وجهة نظر ديكارت في أن أية فكرة لا بد أن تكون صادقة، إذا كانت "واضحة متميزة". وقيل وعم رأي ديكارت في أن العالم آلة من علة ونتيجة، نابعة من دوامة بدائية قدماً إلى الغدة الصنوبرية، واعترف بأنه مدين بالفضل لتحليل ديكارت للانفعالات(183).

وواضح أن "لواياتان" هوبز في ترجمته اللاتينية لقي ترحيباً كبيراً من فكر سبينوزا، وهنا صيغ مفهوم الآلية (ميكانيكية العالم) دون رحمة وبلا وجل. أن الذهن الذي فرق ديكارت بينه وبين الجسم ومنحه الحرية والخلود، أصبح عند هوبز وسبينوزا خاضعاً لقانون كوني عام، وهو قابل لمجرد خلود غير ذاتي، أو لا خلود مطلقاً. ووجد سبينوزا في "لواياتان" تحليلاً مقبولاً للإحساس والإدراك والذاكرة والفكرة، وتحليلاً غير عاطفي للطبيعة الإنسانية. ومن نقطة البداية المشتركة "الحالة الطبيعية" و "الميثاق الاجتماعي" انتهى المفكران كلاهما إلى نتائج عكسية حيث أنهى هوبز من "دوائره الملكية" إلى الملكية المطلقة، وانتهى سبينوزا من الوطنية الهولندية إلى الديمقراطية. وربما كان هوبز هو الذي وجه اليهودي الوديع إلى مكيافلي، فيشير إليه بأنه "الفلورنسي البالغ الذكاء"، ومرة أخرى بأنه "أعظم عبقرى... بعيد النظر (184)" ولكنه تجنب الخلط بين الحق والقوة، معترفاً بأن هذا أمر يمكن التجاوز عنه بين الأفراد فقط في "حالة طبيعية" وبين الدول قبل سن قانون دولي فعال. وخفف سبينوزا من كل هذه التأثيرات وصاغها في كيان فكري يبعث الرهبة في منطقته واتساقه ووحده البارزة. وكان ثمة بعض

صفحة رقم : 11480

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> سلسلة من التأثيرات

تصدع في المعبد، كما أثار الأصدقاء والأعداء على السواء. وفي براعة كبيرة انتقد أولدنبرج البيدهيات والقضايا التي صدر بها كتاب الأخلاق (185). وتناولها أولدنبرج بتحليل دقيق مفصل يتسم بالدقة الألمانية (186). وكان المنطق مشرقاً، ولكنه استنتاجي إلى حد مرهق، وكان، ولو أنه مبني على خبرة شخصية، عبارة عن براعة الفكر ترتكز على اتساق ذاتي، لا على حقيقة موضوعية. إن وثوق سبينوزا باستنتاجاته وتفكيره (وإلا فيم يسترشد؟) كان التوقع الوحيد في عمله. لقد عبر عن ثقته في قدرة الإنسان على فهم الله، أو الحقيقة الأساسية أو القانون الكوني، وكم من مرة أعلن عن اقتناعه بأنه أثبت نظرياته فوق كل شك أو جدل أو غموض أو لبس، وتحدث أحياناً في لهجة تأكيد لا يتأتى صدورها عن رذاذ من الزبد تحليلاً وتفسيراً للبحر. وأية جدوى إذا كان كل المنطلق وسيلة عقلية أو آلة موجهة مساعدة للذهن الباحث، لا كيان العالم؟ وهكذا يختزل منطق الجبرية الذي لا مفر منه، الوعي إلى ظاهرة ثانوية (كما اعترف هكسلي) لاحقة، ظاهر أنها زائدة غير ضرورية لعمليات سيكولوجية، قد تجري بدونها بمقتضى ميكانيكية أو آلية العلة والنتيجة. ومع ذلك ليس ثمة شيء يبدو حقيقياً، أو شيء يبدو مثيراً، أكثر من الوعي. ويبقى اللغز الأكبر بعد أن قال المنطق كلمته.

وربما أسهمت هذه الصعوبات في عدم شعبية فلسفة سبينوزا في أول قرن مضى بعد وفاته. ولكن أشد الاستياء أنصب على نقده للكتاب المقدس والنبوءات والمعجزات، وعلى فهمه لله جديراً بالحب ولكن غير مجسم متصام لا يريد الإصغاء. واعتبر اليهود ابنهم خائناً لقومه، وصب المسيحيين عليه اللعنة شيطاناً بين الفلاسفة، مسيحاً دجالاً سعى لسلب العالم من كل معنى ورحمة وأمل، بل أن المهترطين أنفسهم أدانوه واستنكروه. ونفر بيل من وجهة نظر سبينوزا في أن كل الأشياء وكل الناس أشكال من نفس الجوهر الواحد أو العلة الواحدة أو الله، وحينئذ كما قال بيل فإن الله هو العامل الحقيقي في كل الأفعال، والعلة الحقيقية في كل الشرور، وكل الجرائم. وكل الحروب، حتى إذا ذبح أحد الأتراك رجلاً من المجر، كان الله هو الذي قتل نفسه، ثم احتج بيل (ناسياً ذاتية الشر) على أن هذا "أسخف وأبشع فرضية (187)" وكان لبينتز، لعقد من السنين (1676-1686) متأثراً أشد التأثير بسبينوزا. أن نظرية "الجواهر الروحية

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> سلسلة من التأثيرات

المونادولوجيا (عناصر الوجود الإلهية) "قد يرجع بعض الفضل فيها لسبينوزا. وأعلن لبينتز يوماً أن شيئاً واحداً في فلسفة سبينوزا أزعجه نيز فكرة العزل النهائية أو تدابير العناية الإلهية في عملية الكون (188). وعندما علت صيحات الاستنكار ضد "الحاد" سبينوزا انضم إليها لبينتز "حماية لشخصه".

أن لسبينوزا نصيباً متواضعاً، يكاد يكون خفياً، في تنشئة الاستنارة في فرنسا، فإن زعماء الثورة العنيفة استخدموا نقد سبينوزا للكتاب المقدس سلاحاً في حربهم ضد الكنيسة، وأعجبوا بمذهب الجبرية عنده، "وبأخلاقه" القائمة على المذهب الطبيعي، وبرفضه للتدابير في الطبيعة، ولكن حيرتهم مصطلحاته الدينية، والتصوف أو المذهب الباطني البارز في كتاب "الأخلاق"، وقد نتخيل رد الفعل في فولتير أو ديرو، وفي هلفيشيوس أودي هو لباخ، لعبارات مثل "أن الحب الروحي العقلي لله هو نفس الحب الذي يجب به الله نفسه (189)".

وكانت الروح الألمانية أكثر استجابة لهذا الجانب من فكر سبينوزا. واستناداً إلى حديث رواه فرديريك جاكوبي (1780) لم يعترف لسنج بأنه لم يكن طوال سني نضجه متأثراً بسبينوزا فحسب، بل كذلك أنه "لا فلسفة إلا فلسفة سبينوزا (190)" أن التعادل بين الطبيعة والله، ذلك التعادل القائم على مذهب وحدة الوجود، هو بالتحديد الذي اهتزت طرباً له ألمانيا أثناء الحركة الرومانتيكية بعد أن جرت حركة الاستنارة في عهد فرديريك الأكبر مجراها. وكان جاكوبي، بطل "فلسفة الوجدان" الجديدة من بين أوائل المدافعين عن سبينوزا (1785) وثمة ألماني رومانتيكي آخر، هو نوفاليس، أطلق على سبينوزا "الثلث بحب الله". وقال هرردر بأنه "وجد في رسالة الأخلاق" التوفيق بين الدين والفلسفة. وكتب شليماخر، رجل الدين المتحرر، عن "سبينوزا المقدس المحروم من الكنيس (191)" و "وارتد" حبه الشاب عندما قرأ "الأخلاق" لأول مرة، ومنذ ذلك الوقت غلبت السبينوزية على شعره (غير الجنسي) ونثره. ويرجع بعض الفضل إلى تنسمة جو الهدوء في كتاب "الأخلاق"، في انصرافه عن الرومانتيكية المتطرفة الجامحة عند جوتز فون بريخنجين وآلام فرتر الشاب، إلى الاتزان

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> سلسلة من التأثيرات

المهيب في أخريات حياته. وعوق كانت مجرى هذا التأثير لبعض الوقت. ولكن هيجل صرح بأنه "الكي تكون فيلسوفاً ينبغي أول أن تكون سبينوزياً"، وعبر من جديد عن إله سبينوزا بأنه "العقل المطلق" وربما تسرب شيء من "نزعة المحافظة على الذات" عند سبينوزا إلى "إرادة الحياة" عند شوبنهاور، و "إرادة القوة" عند نيتشه.

ولمدة قرن من الزمان عرفت إنجلترا سبينوزا عن طريق الهرطقة أساساً، واستنكرته غولاً بشعاً بعيداً عنها. وأشار إليه ستالنجفليت (1677) بصورة غامضة "مولف متأخراً أسمع منه أن تمتع بشعبية كبيرة بين كثير ممن ينادون بأي شيء يتصل بالإلحاد". وكتب الأستاذ الإسكتلندي جورج سنكلير (1685) عن "حفنة شاذة من الرجال ممن يشايعون هوبز وسبينوزا، يستخفون بالدين وينتقصون من قدر الأسفار المقدسة". وتحدث سيرجون ايفليف عن "الرسالة

اللاهوتية السياسية" بأنها "كتاب مخز، عقبة فاجعة في طريق الباحثين عن الحقيقة المقدسة" أما بركلي (1732) فإنه بينما عد سبينوزا من المؤلفين الضعاف الأشرار، قال أنه "زعيم كبير للكفرة الحديثين (192)". وفي 1739 ارتاع هيوم-وهو من أتباع مذهب اللاأدرية في حذر من "الفرضية البشعة" التي جاء بها "ذلك الملحد المعروف، سبينوزا الذي ساءت سمعته في كل الأنحاء (193)". ولم يصل سبينوزا إلى أذهان الإنجليز إلا عند ظهور الحركة الرومانتيكية عند انصرام القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وحينئذ أوحى، أكثر من أي فيلسوف غيره، بالميتافيزيقا العنيفة القوية عند وردزوث وكوليردج وشللي وبيرون. وأقتبس شللي من "الرسالة اللاهوتية السياسية في حواشيه الأصلية في "ملكة الأحلام كوين ساب" وبدأ ترجمة للرسالة، وتعهد بيرون بكتابة مقدمة لها. ووقع جزء من هذه الترجمة في يد ناقد إنجليزي حسيها من تأليف شللي نفسه فقال عنها "تفكير أحد صبية المدارس، فح لا يصلح للنشر إطلاقاً". وترجم جورج اليوت "الأخلاق" بعزيمة صادقة. واعترف جيمس فرود، وماتيو أرنولد بتأثير سبينوزا على تطورهما العقلي، ويبدو أن الدين والفلسفة أثبت كل نتاج الإنسان على مر الزمان. أن بركليز مشهور لأنه عاش زمن سقراط.

أننا نحب سبينوزا بصفة خاصة بين الفلاسفة، لأنه كان كذلك

صفحة رقم : 11483

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> سبينوزا -> سلسلة من التأثيرات

قديمًا، ولأنه عاش الفلاسفة كما كتبها. أن الفضائل التي مجدتها الديانات الكبرى كرمت وتجسدت في المنبوذ الذي لفظته كل الديانات، حيث لم تجزله أية ديانة أن يصور الله على أسس يمكن أن يسيغها العلم. أن نظرة إلى الورا، إلى هذه الحياة الموقوفة على البحث، وإلى هذا الفكر المكتف، لتجعلنا نحس بأن فيهما عنصراً من النبل يشجعنا على أن نحسن الظن بالإنسان. فلنسلم بنصف الصورة المرعبة التي رسمها سويفت للبشرية، ولنتفق على أننا في كل جيل، وفي كل مكان تقريباً، نجد الخرافة والنفاق والفساد والقسوة والجريمة والحرب: فلنضع في مقابل هذا في كفة أخرى، ثبناً طويلاً بالشعراء والملحنين والفنانين ورجال العلم والفلاسفة والقديسين. أن ذلك الجنس البشري بعينه، الذي ثار منه سويفت المسكين عجز جسده، هو الذي كتب روايات شكسبير، وموبيقي باخ وهاندل، وقصائد كينيس الغنائية، وجمهورية أفلاطون "وقواعد" نيوتن. و "أخلاق" سبينوزا، وهو الذي شاد البارثينون وسقف كنيسة سستين، وهو الذي حمل المسيح وأعزاه ودلله، ولو أنه صلبه، أن الإنسان فعل كل هذا الذي أسلفنا، فيجدر ألا يدع اليأس يتطرق إلى نفسه.

صفحة رقم : 11484

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> لبينتز -> فيلسوف القانون

كان ثمة هوة في الشخصية والخلق والفكر تفصل بين سبينوزا وليبنتز، فهناك اليهودي المنعزل، الذي لفظته اليهودية، والذي لم يتقبل المسيحية، الذي عاش في أحضان الفقر في حجرة متواضعة، وأنجز كتابين أثنين، وأخرج في أناة فلسفة أصيلة جريئة يمكن أن تنفر منها كل الديانات، والذي قضى نحبه متأثراً بالسل في الرابعة والأربعين، إلى جانب الألماني رجل الدنيا المشغول برجال الدولة والبلاط، الذي جال في كل أنحاء أوروبا الغربية تقريباً، الذي دس بأنفه في روسيا والصين، وقبل البروتستانتية والكاثوليكية، ورحب بعدد من مناهج الفكر واستخدمها. وكتب خمسين رسالة، وأحب الله كما أحب الدنيا، في تقاؤل شديد، وعمر سبعين عاماً، وليس بينه وبين سلفه من وجه شبه إلا أن جنازة كل منهما كانت موحشة. وهنا في جبل واحد ظهر النقيضان في الفلسفة الحديثة.

ولكن قبل أن نتناول الصورة المتقلبة والمتعددة الألوان لرجل، فلنتعرف ببعض فضل يسير للفكر الألماني. فقد بدأ صمويل فون بوفندورف مسيرته في 1632، وهو نفس العام الذي بدأ فيه سبينوزا ولوك. وبعد أن درس في ليبزج وبيننا قصد إلى كوبنهاجن معلماً في أسرة أحد الدبلوماسيين السويديين، واعتقل معه عندما أعلنت السويد الحرب على الدنمرك، وخفف من سجن السجن بوضع نهج للقانون الدولي، فلما أطلق سراحه رحل إلى ليدن حيث نشر نتائج بحثه تحت عنوان "عناصر القانون الدولي" (1661)، الذي سر به شارل لويس ناخب البلاتينات (وهو نفس الأمير الذي دعا سبينوزا فيما بعد) إلى حد أن الناخب استدعى المؤلف إلى هيدلبرج، وأنشأ له كرسي الأستاذية

لوند (1670) حيث نشر أروع أعماله "القانون الطبيعي والناس" (1672). وفي محاولته اتخاذ موقف وسط بين هوبز وجروتيوس، لم يطابق "القانون الطبيعي" وبين صراع الأفراد بعضهم بعضاً، بل طابق بينه وبين "العقل الصحيح" وأضفى "الحقوق الطبيعية" (وهي حقوق كل الكائنات العقلانية) على قدم المساواة. وسبق جان جاك روسو بنحو قرن من الزمان، حين أعلن أن إرادة الدولة، هي، وينبغي أن تكون، جماع إرادات الأفراد الذين تتألف منهم الدولة. ولكنه ذهب إلى أن العبودية أمر مرغوب فيه، وسيلة لإنقاذ عدد المتسولين والأفاقين والصوص (1). وظن بعض القساوسة السويديين أن هذه النظريات لم تقم كبير وزن لله والكتاب المقدس في الفلسفة السياسية، وحرصوا على وجوب إعادة بوفندورف إلى ألمانيا. ولكن شالر الحادي عشر دعاه إلى ستوكهلم وقلده منصب المؤرخ الملكي. وقابل الأستاذ حسن الصنيع بأن كتب سيرة حياة الملك، وتاريخاً للسويد. وفي 1687، وربما تطلعاً إلى التجوال أهدى بوفندورف إلى ناخب براندنبيرج الأكبر، رسالة عن "العلاقة بين العقيدة المسيحية والحياة البدنية" يدافع فيها عن التسامح. وسرعان ما قبل دعوة إلى برلين، وأصبح مؤرخاً لفرديريك ولیم، وعين باروناً، وقضى نحبه (1694). وظلت كتاباته لمدة نصف قرن أبرز الأعمال وأكثرها أثراً وانتشاراً في الفلسفة السياسية والقانونية في أوروبا البروتستانتية، وساعد تحليلها الواقعي للعلاقات الاجتماعية في الأحداث التي عملت على انكماش نظرية حقوق الملوك الإلهية.

وبرز تدهور التفسيرات اللاهوتية لأعمال البشر في أنشطة بلنزار بكر Bkker وكريستيان توماسيوس. وكان بكر كاهناً يتولى المهام الدينية لجماعة من الناس في فريزلند، أفسد عقيدته بقراءة ديكرت، فاقترح تطبيق العقل على الأسفار المقدسة، وفسر الشياطين

صفحة رقم : 11486

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> لبينتز -> فيلسوف القانون

التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس بأنها أوام شعبية أو مجازات، زنتتت فكرة الشيطان في تاريخ ما قبل المسيحية وكان من رأيه أنها فكرة مدسوسة على المسيحية، وانتهى إلى أن الشيطان خرافة، ونفى وجوده في بيان باللغة الهولندية، "العالم المسحور" (1691). ووجهت الكنيسة أعنف اللوم والتفريع إلى بكر، إحساساً منها بأن الخوف من الشيطان بداية العقل والحكمة، وعانى الشيطان بعض الخسارة في مكانته لا في أتباعه.

وواصل توماسيوس المعركة. وعلى حين ظل يتقبل الأسفار المقدسة هادياً إلى العقيدة والخلص، تاققت نفسه إلى اتباع منهج العقل لمجرد الوصول إلى الدليل، ولتشجيع التسامح الديني. ولما كان أستاذ القانون الطبيعي في ليبزج (1684-1690) فإنه أساء إلى الكلية والكنيسة بأصالة آرائه وأساليبه ولغته. وهاجم خرافات عصره في سخيرية ألمانية عنيفة. واتفق مع بكر في استبعاد "الشيطان" من الديانة، وشجب الاعتقاد في السحر باعتباره جهالة فاضحة، وتعذيب السحرة باعتباره وحشية إجرامية. وبفضل تأثيره ونفوذه، وضع حد لمحاكمات السحرة والمشعوذين في ألمانيا. وليزيد الطين بلة حاضر تلاميذه بالألمانية بدلاً من اللاتينية، منتقياً نصف جلال أصول التدريس. وفي 1688 بدأ ينشر عرضاً أوربا للكتب والأفكار، وربما كان لزاماً علينا أن نسميه أول صحيفة جادة في ألمانيا، ولكنها عرضت ألوان المعرفة في شيء من اليسر، وغلفت البحث الجاد بالدعابة، وسميت "أفكار هازلة وجادة، عقلانية وسخيفة حول كل أنواع الكتب والقضايا السارة والنافعة". وأزعج دفاعه عن "التقويين" (التقوية حركة دينية ظهرت في ألمانيا في القرن السابع عشر أكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية) ضد رجال السلطات إلى حد أنهم حظروا عليه كتابة أو إلقاء المحاضرات، وأمروا في النهاية باعتقاله (1690). فهرب إلى برلين، وعينه الناخب فرديريك الثالث أستاذ في هالي، وأسهم في تنظيم الجامعة هناك، وسرعان ما جعلها أقوى مراكز للفكر في ألمانيا. وفي 1709 دعتة ليزج للعودة ولكنه أبى، وبقي في هالي أربعة وثلاثين عاماً حتى آخر حياته، وافتتح عصر الاستنارة الذي أنجب لسنج وفرديريك الأكبر.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> فيلسوف القانون

وتابع بعض المتحمسين ثورتهم إلى أقصى درجات الإلحاد، فنبذ مانياس كنوتزن من هولشتين أي معتقد خارق للطبيعة "أنا فوق كل شيء ننكر الله(2)". واقترح أن يستبدل بالمسيحية وكنائسها وكهننتها "ديانة وضيفة" "ديانة الإنسانية" مستبقاً بذلك أوجست كومت، وأن يؤسس الخلاق على تربية الضمير تربية قائمة على المذهب الطبيعي فقط (1674) وقيل أنه كان له 700 من الأتباع، وربما كان في هذا مبالغة، ولكننا نلاحظ أنه فيما بين عامي 1662، 1713 نشر على الأقل اثنان وعشرون كتاباً في ألمانيا، وهدفها نشر الإلحاد أو تفنيده(3). ورثى ليبنتز "لانتصار المفكرين الأحرار الواضح"، فكتب حوالي عام 1700 "في أيامنا هذه"، بيدي كثير من الناس قليلاً من الاحترام والإجلال للوحي... أو المعجزات(4)". وأضاف في 1715: أن الديانة الطبيعية ينتابها كثير من الضعف، ويعتقدون كثيرون أن النفوس جسدية، وآخرون أن الله نفسه جسدي. ويرتاب مستر لوك وأتباعه في أن النفوس غير مادية ومآلها الهلاك بشكل طبيعي(5). ولم يكن ليبنتز راسخ العقيدة إلى حد كبير، ولكنه رجل الدنيا ورجل البلاط، فتساءل إلى أين تنتهي العقلانية المتصاعدة، وماذا عساها أن تفعل بالكنائس والأخلاق والعروش. وهل من المستطاع الرد على العقلانيين بلغتهم وإنقاذ عقيدة الآباء والأجداد من أجل سلامة الأبناء؟.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> سني العمل الجاد

2- سني العمل الجاد

كان جوتفريد ولهم ليبنتز في الثانية من العمر حين وضعت حرب الثلاثين عاماً أوزارها. ونشأ في فترة من أكثر فترات التاريخ الألماني عمقاً وشفاء. ولكن تهيأت له، كل فرص التعليم المتاحة آنذاك، لأن أباه كان أستاذاً لفلسفة الأخلاق في جامعة ليبزج، وكان جوتفريد فتى ذكياً متلهفاً على المعرفة، ولو عاً بالكتب. وكانت مكتبته أبيه مفتوحة الأبواب أمامه تدعوه ليأخذ ويقرأ. وبدأ دراسة اللاتينية في سن الثامنة، واليونانية في الثانية عشرة. والتهم التاريخ فأصبح متعدد جوانب العلم والمعرفة. وفي سن الخامسة عشرة التحق بالجامعة حيث

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> سني العمل الجاد

كان توماسيوس المثير من بين معلميه. وغي سن العشرين تقدم لنيل درجة الدكتوراه في القانون، ولكن جامعة ليبزج رفضت لصغر سنه. ولكنه سرعان ما حصل عليها من جامعة نورمبرج في ألتدورف. وكان لرسالة الدكتوراه التي قدمها هناك دوي كبير إلى حد أنهم عرضوا عليه في الحال منصب الأستاذية، ولكنه أبى محتجاً بأن "في مخيلته أشياء مختلفة"، أن قليلاً جداً من كبار الفلاسفة شغلوا كراسي الجامعة.

ونراه الآن، وهو آمن ميسور الحال من الناحية المادية، حر منطلق من الناحية الفكرية، يغمس يديه في كل الحركات والفلسفات التي كانت تهيج ألمانيا التي بعثت من جديد، وكان قد درس مناهج فلاسفة السكولاسية في ليبزج، واحتفظ بمصطلحاتهم الفنية وكثير من أفكارهم، مثل برهانهم الأونطولوجي (أونطولوجيا: علم الوجود) على وجود الله، وتشرب تعاليم ديكارت تماماً، ولكنه لجعلها سائغة أضاف إليها شيئاً من الملح من اعتراضات جاسندي ومذهبه الذري. وانتقل إلى هوبز وامتدحه بأنه مدقق. وغازل المذهب المادي(6). وأقام حيناً من الزمن في نورمبرج (1666-1667) حيث اختبر التصوف أو المذهب الباطني عند أخوة الصليب الوردي "التي كان قد أسسها المشتغلون بالكيمياء القديمة والأطباء ورجال الدين حوالي عام 1654، وأصبح سكرتيراً لها، وأخذ ينقب في الكيمياء القديمة، وهو في هذا كثير الشبه بما كان يفعل منافسه اللاحق نيوتن في كمبردج. ولم يترك فكرة إلا جربها واقتبسها. وقبل بلوغه الثانية والعشرين من عمره كان قد كتب عدة رسائل ذات مجال ضيق، ولكنه تقيض بالثقة.

ولفتت إحدى هذه الرسائل "طريقة جديدة لتعليم القانون ودراسته" نظر أحد الدبلوماسيين المقيمين في نورمبرج آنذاك، هو جوهان فون بوينبرج، الذي أشار على المؤلف الشاب بإهدائها إلى الأسقف ناخب ميونخ، ورتب أن تقدم إليه شخصياً. ونجحت الخطة، وفي 1667 التحق ليبنتز بخدمة الناخب، في أول الأمر، مساعداً في مراجعة القوانين، ثم عضواً في المجلس. وبقي في ميونخ خمس سنين اعتاد فيها على رجال الدين واللاهوت والطقوس الكاثوليكية، وبدأ يروده حلم إعادة توحيد المذاهب المسيحية الممزقة، ومهما يكن من أمر فإن الناخب كان أكثر اهتماماً بلويس الرابع عشر منه بلوتر، لأن الملك

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> سني العمل الجاد

المنهوم الذي لا يشبع كان يسير جيوشه إلى الأراضي الوطيدة واللورين، وهي جد ملاصقة لألمانيا، وكان واضحاً أن الملك متلهف على ابتلاع أراضي الراين. فكيف يتسنى وقفه؟

وكان لدى ليبنتز خطة لهذا في الحق خطتان، بلغتا حد البراعة من شاب في الرابعة والعشرين. وكانت الخطة الأولى هي توحيد ولايات ألمانيا الغربية في "اتحاد الراين" للدفاع المتبادل (1670). أما الثانية فكانت تعتمد على صرف نظر لويس الرابع عشر عن ألمانيا بإغرائه بالاستيلاء على مصر التي كانت آنذاك تحت حكم الأتراك. وكانت

العلاقات آنذاك متوترة بين فرنسا وتركيا. فإذا قدر الملك لويس أن يرسل حملة لفتح مصر (فيسبق بذلك نابليون بمائة وثمانية وعشرين عاماً) فإنه ستكون له السيطرة على التجارة بما في ذلك تجارة هولندا-التي تمر عبر مصر إلى الشرق، ولأبعد الحرب عن أرض فرنسا، ووضع نهاية لتهديدات تركيا للعالم المسيحي، ولأصبح المنقذ الذي ترنو إليه الأبخاز بالتبجيل والإجلال بدلاً من السوط الذي تخشاه أوربا، وكتب بوينبرج بهذا إلى الملك لويس الرابع عشر، وطوى كتابه على مخطط للمشروع بقلم ليبنتز نفسه. فدعا سيمون أرنولد دي بومبون وزير الخارجية الفرنسية، ليبنتز (فبراير 1672) ليجيء ليعرض المشروع على الملك. وفي مارس شخص رجل الدولة ذو السنة والعشرين ربيعاً إلى باريس.

ولكن القادة أحبطوا مشروع ليبنتز كما دمروا أنفسهم. ذلك أنه لدى وصوله إلى باريس كان لويس قد سوى نزاعه مع الأترک، وقرر مهاجمة هولندا، وفي 6 إبريل أعلن الحرب. وأبلغ بومبون ليبنتز أن الحرب الصليبية لم تعد ملائمة لهذا العصر، ورفض السماح له بالمثل بين يدي الملك. فكتب الفيلسوف الذي ظل يراوده الأمل، مذكرة إلى الحكومة الفرنسية، أرسل خلاصة لها "مشروع مصر" إلى بوينبرج.

صفحة رقم : 11491

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> سني العمل الجاد

ولو تم تنفيذ الاقتراح بنجاح، لاستولت فرنسا-لا إنجلترا- على الهند، ولكانت لها السيادة على البحار. وقال الجنرال ماهان: "إن قرار لويس، ذلك القرار الذي أودى بحياة كولبير وقضى على رخاء فرنسا وازدهارها، أحس الناس به جيلاً بعد جيل من خلال نتائجه(8).

ومات بوينبرج قبل أن يصله "المشروع". وحزن ليبنتز لفقدان صديق يؤثر المصلحة العامة، غير أناني. ولهذا السبب، من ناحية، لم يعد إلى مينز. أضف إلى ذلك أن التيارات الفكرية في باريس أسرت ليه، حيث وجدها أكثر إثارة من جاذبية تلك التي أحاطت حتى بالناخب المتحرر المستنير. وهناك التقى بإنطوان أرنولد أوف بورث رويال، ومالبرانش، وكريستيان هوجنز، وبوسويه. وجذبه هوجنز إلى الرياضة العالية، وبدأ ليبنتز "حساب اللامتاهيات في الصغر" الذي أفضى به إلى "التفاضل والتكامل".

وفي يناير 1673 عبر المانش إلى إنجلترا في بعثة أوفدها ناخب مينز إلى شارل الثاني. وفي لندن تعرف على أولدنبرج وبويل، وأحس بفتنة العلم المستيقظ. ولما عاد إلى باريس في مارس خصص جزءاً أكبر فأكبر من وقته للرياضيات. واخترع آلة حاسبة أدخلت بعض التحسينات على آلة بسكال، إذ زاد بها على الجمع والطرح، عمليات الضرب والقسمة. وفي إبريل انتخب، غيابياً، عضواً في الجمعية الملكية. وما وافت سنة 1675 حتى كان قد أكتشف التفاضل، وسنة 1676 حساب المتاهيات في الصغر، كما كان قد بلور طريقته الناجحة في استخدام الرموز. ولم يعد أحد يتهم ليبنتز بأنه انتحل لنفسه وضع "حساب اللامتاهيات في الصغر" بدلاً من نيوتن(9). والظاهر أن نيوتن أجرى اكتشافه 1666، ولكن لم ينشره إلا في 1692. ونشر ليبنتز "حساب التفاضل" في 1684، و "التكامل" في 1686(10) وليس ثمة شك في أن نيوتن كان أول من أكتشف، وأن ليبنتز توصل إلى اكتشافه مستقلاً عنه، وأنه سبق نيوتن إلى نشر الاكتشاف وأن طريقة ليبنتز في "الرموز" ثبت أنها أفضل من طريقة نيوتن(11).

وقضى أسقف مينز في مارس 1673 تاركاً ليبنتز بلا وظيفة رسمية، وسرعان ما وقع اتفاقاً للاتحاق بخدمة دوق روما جون فرديريك

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> سني العمل الجاد

أوف برونزويك-لونبرج، أميناً لمكتبته في هانوفر. وظل مفتوناً بباريس، فبقى بها حتى 1676، ثم ارتحل على مهل إلى هانوفر عبر لندن، وأمستردام ولاهاي. وفي أمستردام تحدث مع تلاميذ سبينوزا، وفي لاهاي التقى بالفيلسوف نفسه. وتردد سبينوزا في أن يوليه ثقته، لأن ليبنتز عرض التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية، مما قد يساعد على خنق حربة الفكر (12). وتغلب ليبنتز على هذه الشبهات، وسمح له سبينوزا بقراءة-بيل بنسخ بعض أجزاء من مخطوطة "كتاب الأخلاق" (13)-وجرت بين الرجلين أحاديث طويلة. وبعد وفاة سبينوزا لقي ليبنتز مشقة كبيرة في إخفاء تأثيره العميق بالقديس اليهودي.

ووصل إلى هانوفر في أواخر 1676، وبقي في خدمة أمراء برونزويك المتعاقبين طوال الأربعين عاماً الباقية من عمره. وكان يأمل في تعيينه مستشاراً للدولة، ولكن الأدواق خصصوه لتولي شئون مكنتاتهم وكتابة تاريخ أسرهم. ونهض بهذه المهام بشكل متقطع على خير وجه. وزين التاريخ الضخم الذي كتبه في عدة مجلدات، وملاه بوثائق أصيلة بذل جهداً كبيراً في الحصول عليها. وأثبتت أبحاثه المتعلقة بسلسلة الأنساب في إيطاليا، الأصل المشترك لأسرتي أست وبرونزويك. وعلى الرغم من موضوع هذا الكتاب كان مقيداً بشكل مزعج لهذه العبقرية الطموحة، فقد أمتد به الأجل ليرى بيت برونزويك يرث إنجلترا. وحاول جاهداً أن يكون وطنياً محباً لألمانيا. وكم ناشد الألمان أن يستخدموا لغتهم الوطنية في القانون، ولكنه كتب رسائله وأبحاثه باللاتينية أو الفرنسية وكان نموذجاً لامعاً "للأوروبي الصالح" و "الذهن العالي". وحذر الأمراء الألمان من أن الأحقاد التي تمزقهم، وتعمدهم إضعاف سلطان الإمبراطورية، كل أولئك حكم على ألمانيا بأن تكون فريسة الدول الأكثر تماسكاً ومركزية. وميداناً للحروب التي يتكرر نشوبها بين فرنسا وإنجلترا وأسبانيا (14). وكان أمله الذي يطويه بين جوانحه، أن يخدم الإمبراطور والإمبراطورية، لا أمراء الولايات المشتتة. وكان لديه مائة مشروع للإصلاح السياسي والاقتصادي والديني والتعليمي. واتفق مع فولتير في أنه من الأيسر إصلاح الدولة بهداية حاكمها، منه بتعليم الجماهير في

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> سني العمل الجاد

بطي، وهم مرهقون بالتماس أسباب العيش فلا يجدون فسحة من الوقت للتفكير (15). وعندما مات أمين المكتبة الإمبراطورية في 1680، تقدم ليبنتز لشغل المنصب، ولكنه أضاف بأنه لا يريد أن يشغله إلا إذا عين معه عضواً في المجلس الإمبراطوري الخاص. ورفض طلبه، عاد إلى هانوفر حيث وجد بعض السلوى والعزاء في صداقة الناخبة صوفيا، وبعد ذلك في صداقة ابنتها صوفيا شارلوت التي ألحقت بالبلاط البروسي، وساعدته في تأسيس أكاديمية برلين (1700)، وأوحت إليه بكتابة "التبويدسية"، وكرم في بقية أيام حياته، مركزه المتواضع بتبادل الرسائل مع زعماء الفكر في أوروبا، وبإسهاماته الضخمة في الفلسفة، وتقديمه خطة جريئة لإعادة التوحيد الديني للعالم المسيحي.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> ليبنتز والمسيحية

3- ليبنتز والمسيحية

هل كان ليبنتز مسيحياً؟ الجواب الإيجاب "ظاهرياً" بطبيعة الحال، فإن رجلاً يمثل حماسه وتلفه على العبور من الفلسفة إلى فن الحكم وسياسة الدولة كان لزاماً عليه أن يلبس لاهوت الزمان والمكان اللذين عاش فيهما. وقال في مقدمة "التيوديسية": "لقد حاولت في كل الأشياء لأدرس الحاجة إلى التنوير والتهديب (16)". وكانت كل الكتابات التي نشرها في حياته أمثلة تحتذى في إخلاصها للعقيدة فقد دافعت عن التثليث والمعجزات والنعمة الإلهية، والإرادة الحرة، والخلود، كما هاجمت مفكري العصر الأحرار لانتقاصهم من قيمة الأسس الأخلاقية للنظام الاجتماعي على أنه "ذهب إلى الكنيسة قليلاً... ولم يتناول القربان المقدس لسنوات كثيرة (17)". ولقبه البسطاء من الناس في هانوفر "الوفينكس الذي لا يؤمن بشيء (18)". ونسب إليه بعض الطلبة فلسفتين متعارضتين، واحدة للاستهلاك العام وتسليية الأميرات، والأخرى "توكيد واضح المعالم لكل مبادئ سبينوزا (19)". "أن ليبنتز كان يلجأ إلى سبينوزا كلما سمح لنفسه أن يكون منطقياً. وفي كتبه المنشورة حرص، تبعاً لذلك، على أن يكون غير منطقي (20)".

إن مساعبه للتوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية جعلته عرضة للاتهام بعدم التفريق بين الأديان أو الإيمان بأنها جميعاً متساوية في

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> ليبنتز والمسيحية

صحتها (21). إن رغبته الملحة في الوحدة والتوفيق سيطرت على لاهوته. وعلى حين تجنب الوعاظ حاول جاهداً أن يؤلف بينهم. أنه قلل من شأن الفروق السطحية لأن نظريته كانت عميقة. ولو كانت المسيحية شكلاً من أشكال الحكومة، فإن تنوعاتها المذهبية لم تبد له أدوات للتقوى والغيرة والحماسة، بل عقبات في طريق النظام والسلام.

وفي 1677 أرسل الإمبراطور ليوبولد الأول كريستوفر روجا دي سبينولا أسقف تينا في كرواتيا، إلى بلاط هانوفر ليقتراح على الدوق جون فردريك، وكان مرتداً إلى الكاثوليكية أن ينضم إلى حملة لإعادة توحيد البروتستانت مع روما. وربما كان لهذه الخطة ذيول سياسية: فإن الناخب رغب إذ ذاك في دعم الإمبراطور له، كما أن ليوبولد راوده الأمل في وحدة وروح ألمانيين أقوى لمواجهة الأتراك. وتنتقل سبينولا لفترة من الوقت بين فينينا وهانوفر، وأحرز المشروع تقدماً. وعندما وضع بوسويه في 1682 "الإعلان الفالكياني" (الفالكيانية حركة نشأت في فرنسا تنادي

بالاستقلال الإداري للكنائس في البلدان الكاثوليكية عن سيطرة البابا). الذي تحدى فيه رجال الدين الفرنسيون البابا، ربما راود ليبنتز بعض الملل في انضمام فرنسا إلى ألمانيا ككتلة مستقلة عن البابوية إلى حد يخفف من عداوة الباروتستانتيّة للمذهب العتيق وفي 1683، عندما كان الأترك يتقدمون لحصار فيينا، عقد سبينولا في هانوفر مؤتمراً يضم رجال اللاهوت البروتستانت والكاثوليك، وقدم إليهم "قواعد التوحيد الكنسي لكل المسيحيين". وربما كان من أجل الاجتماع (22) أن ليبنتز كتب، غفلاً من اسمه أغرب الوثائق العديدة التي وجدت بين أوراقه بعد وفاته، وكان عنوانها "منهج لاهوتي"، وفهمت على أنها بيان للمذهب الكاثوليكي يمكن أن تقبله أي بروتستانتي حسن النية. وفي 1819 نشرها ناشر كاثوليكي دليلاً على أن ليبنتز كان قد ارتد سراً، والأرجح أنها كانت محاولة دبلوماسية لتضييق هوة الخلاف الديني بين الفريقين. ولكن كان للناس عذره في اعتبار الوثيقة كاثوليكية إلى أبعد حد، واتسم مطلعها بالتجرد أو عدم التحيز لأي من المذهبين في إيجاز:

صفحة رقم : 11496

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> ليبنتز والمسيحية

بعد التماس العون من الله، بالابتهالات والصلوات الطويلة الخاشعة، طارحاً جانباً، قدر ما يطيق الإنسان، كل روح حزبية، ناظراً إلى الخلافات الدينية نظرة رجل قدم من كوكب آخر، تلميذ مبتدئاً متواضعاً، لا يدري شيئاً هن أي من الفرق المختلفة، غير مقيد بأية التزامات، انتهت بعد دراسة وافية إلى النتائج التي أدونها هنا. لقد قدرت أنه لزام على أن أعتقها جميعاً لأن الكتاب المقدس والتقليد الديني العريق، وما يفرضه العقل، والشواهد الأكيدة للحقائق، يبدو لي أنها جميعاً تتضافر في إقرارها في ذهن أي إنسان غير متحيز (23).

وتلا ذلك اعتراف بالإيمان بالله، وبالخلق والخطيئة الأصلية، والمطهر، وتحول الخبز والنبذ إلى جسد المسيح ودمه، ونذور الأديار والتشفع بالقدسين واستخدام البخور والصور الدينية والأردية الكهنوتية وإخضاع الدولة للكنيسة (24). وربما ألقى كرم الكاثوليكية ظللاً من الشك في الوثيقة، ولكن صحة صدورها من ليبنتز أمر مقبول اليوم بصفة عامة (25)، وربما جاش صدره بالأمل في الحصول على وظيفة ملائمة في بلاط الإمبراطور الكاثوليكي في فيينا بتأييده لوجهة النظر الكاثوليكية على هذا النحو. وأعجب ليبنتز، مثل أي متشكك فاضل، بمنظر الطقوس الكاثوليكية وأنغامها وعبيقها.

وهكذا فإن ألحان الموسيقى، وتناغم الأصوات العذب، وشعر الترانيم وجمال الطقوس الدينية وتلاها الأضواء، وعبق العطور، والملابس الفاخرة، والأواني المقدسة المزدانة بالأحجار الكريمة، والهدايا الثمينة، والتماتيل واللوحات التي توظف الشعور الديني، والناتج المبدع للعبقرية الفنية،... وجلال المواكب العامة وروعها، والستائر والأعطية الثمينة التي تزين الطرقات، وموسيقى النواقيس، وصفوة القول كل الهدايا والهبات وعلامم التكريم والإجلال التي يغدقها الناس في سحاء بحكم غرائز التقوى فيهم، كل أولئك، فيما أحسب، لا تثير في ذهن الله من الأزدراء ما تريدنا البساطة الصارخة عند بعض

صفحة رقم : 11497

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> ليبنتز والمسيحية

المعاصرين أن نعتقد أنها مثيرة له. وهذا في كل الأحوال ما يؤكد العقل والتجربة على السواء (26). وأخفقت كل هذه الحجج في أن تحرك مشاعر البروتستانت. وأفسد لويس الرابع عشر الخطة ومزق معالم الزينة بإلغاء مرسوم نانت، وشن حرب وحشية على البروتستانت في فرنسا، ووضع ليبنتز مشروعه جانبا انتظاراً لفرصة ملائمة. وفي 1687 قام ليبنتز بثلاث جولات فيربوع ألمانيا والنمسا وإيطاليا، ليبحث في السجلات والمحفوظات المتناثرة هنا وهناك عن حوليات أسرة برنزويك. وفي روما، وعلى إقتراض أنه قد يقبل الارتداد إلى الكاثوليكية، عرضت عليه السلطات هناك أن يكون أميناً لمكتبة الفاتيكان، ولكنه رفض هذا المنصب. وقام بمسعى جريء بغية إلغاء المراسيم الكنسية التي صدرت عند كوبرنيكس وجاليليو (27). وبعد رجوعه إلى هانوفر، بدأ في 1691 ثلاث سنين من المراسلات مع بوسويه أملاً في إحياء حركة توحيد العالم المسيحي من جديد. هل يمكن أن توجه الكنيسة الكاثوليكية الدعوة لعقد مجلس عالمي بالمعنى الصحيح يشهده البروتستانت والكاثوليك ليعيدوا النظر في القرار الذي اتخذه مجلس ترنت ودمغ فيه البروتستانت بالهرطقة ويلغيه؟ أن الأسقف الذي كان لفوره قذف هؤلاء "المهرطيين" بمقاله "خلافات الكنائس البروتستانتية" (1688)، رد رداً لا يبشر بالوصول إلى تسوية: إذا رغب البروتستانت في العودة إلى حظيرة الكنيسة المقدسة، فإن عليهم أن يرتدوا إلى الكتلثة ويضعوا حداً للحوار. وتوسل إليه ليبنتز أن يعيد النظر في موقعه. وساند بوسويه هذا الأمل وقال: إني أنضم إلى المشروع... ستسمع عما قريب ما يجول بخاطر ي (28). وفي 1691 كتب ليبنتز إلى مدام برينون في تفاؤله المعهود: إن الإمبراطور يقف موقفاً ودياً. كما أن البابا أنوسنت الحادي عشر ونفراً من الكاردينالات والقواد، وطوائف الرهبان وكثيراً من رجال الدين الوقورين الذين درسوا الموضوع بعناية، قد أدلوا بأرائهم بطريقة مشجعة غاية التشجيع.. وليس من المبالغة في شيء أن أقول بأنه لو أن ملك

صفحة رقم : 11498

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> ليبنتز والمسيحية

فرنسا والقساوسة الذين يستمع إليهم الملك في هذا الشأن، اتخذوا إجراء مناسباً متفقاً عليه، فإن الأمر لن يكون مجرد احتمال، بل يكون في حكم المنتهي (29). ولما وصل رد بوسويه كان مخيباً لكل رجاء: ليس من سبيل للرجوع عن قرارات مجلس ترنت، أنها كانت على صواب في دفع البروتستانت بالهرطقة، والكنيسة معصومة من الخطأ، ولن يصل أي مؤتمر يضم زعماء الكاثوليك والبروتستانت إلى نتائج بناءة ما لم يوافق البروتستانت سلفاً على قبول قرارات الكنيسة في المسائل التي هي موضوع النزاع (30). وأجاب ليبنتز بأن الكنيسة كثيراً ما غيرت آراءها وتعاليمها، وناقضت نفسها، وأدانت أناساً وحرمتهم دون سبب عادل. وأعلن "أنه نفض يده من أية مسؤولية عن أية مصاعب أو اضطرابات قد يسببها في المستقبل الشقاق القائم في الكنيسة المسيحية (31)". وولى شطره نحو المهمة التي بدت أكثر أملاً، وهي التوفيق بين جناحي البروتستانتية، وهما اللوثرية والكلفنية، ولكنه واجه في هذا السبيل عناء وتصلباً أشد وأقسى من عناد بوسويه وتصلبه، وأخيراً، تمنى، بينه وبين نفسه أن يحل الطاعون بكل المذاهب المتنافسة، وصرح بأنه ليس ثمة كتب ذات قيمة إلا نوعان منها: تلك التي تتناول الظواهر والتجارب العلمية، ثم التي تتناول التاريخ والسياسة والجغرافيا (32). وظل، ظاهرياً وبشكل غامض لوثرانياً حتى انتهى أجله.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> نظرة عامة في فلسفة لوك

4- نظرة عامة في فلسفة لوك

كان نصف نتاج ليبنتز "أبحاث وتعليقات" قام بع عرضاً تقريباً لدراسة أفكار بعض الكتاب. وأعظم كتبه الذي بلغ 590 صفحة بدأ في 1696 بعرض في سبع صفحات لمقال لوك عن العقل الإنساني (1690) الذي لم يعرفه ليبنتز آنذاك إلا عن طريق خلاصة له أعدها لكرك في "المكتبة العالمية" وعندما ظهرت ترجمة فرنسية لهذا المقال (1700) كتب ليبنتز من جديد نقداً له لمجلة ألمانية. وبادر فأعرب عن أهمية تحليل لوك وأطنب في امتداح أسلوبه. وفي 1703 عقد العزم على التعليق عليه فصلاً فصلاً. وهذه التعليقات هي التي يتألف منها كتاب

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> نظرة عامة في فلسفة لوك

ليبننتز "أبحاث جديدة في العقل الإنساني". وإذ علم بوفاة لوك 1704 لم يتق التعليق، ولم ينشر إلا في 1765، فتأخر ظهوره، فلم يكن له دخل في تأثير لوك العميق على فولتير وغيره من النجوم اللامعة في عصر الاستنارة في فرنسا، ولكنه جاء في الوقت المناسب ليسهم في تشكيل الفتح الجديد في كتاب كانت "نقد العقل الخالص". وهو من أهم مؤلفات في تاريخ علم النفس.

إنه من حيث الشكل حوار بين "فلاليس Philalethes (حبيب الحق) الذي يمثل لوك، "وثيوفيلوس Theophilus (حبيب الله) الذي يمثل ليبنتز. والحوار رصين مفعم بالحبيوية، لا يزال تطيب قراءته لكل من أوتي ذهنًا حاداً وفراغاً بغير حدود. وتظهر المقدمة لليبنتز في أعظم حالاته النفسية دماثة وكياسة، مصرحاً في تواضع بأنه يكسب قراءاً بالتزامه البحث في "مقال في العق الإنساني" الذي كتبه رجل إنجليزي لامع، وهو من اجمل المؤلفات التي حظيت بأعظم التقدير في هذه الفترة. والمسألة المطروحة للبحث، مبسطة بوضوح جدير بالثناء: نريد أن نعرف هل النفس في حد ذاتها خالية تماماً، مثل الألواح الت يلم يكتب عليها شيء بعد، طبقاً لما قال به أرسطو وكتب المقال، وهل كل ما يمكن تبعه بعد ذلك، يأتي فقط من الحواس والخبرة، أو هل تحتوي النفس أساساً على أصول كثير من الأفكار والمبادئ التي توقظها الأشياء الخارجية مجرد إيقاظ في المناسبات، كما اعتقد أنا ويعتقد أفلاطون (33). ومن رأي ليبنتز أن الذهن ليس وعاء سلبياً للخبرة، بل هو عضو مركب يحول بمقتضى تركيبه ووظائفه معطيات الإحساس، مثلما أن الجهاز الهضمي ليس مجرد كيس فارغ، بل جهاز أعضاء لهضم الطعام وتحويله إلى متطلبات الجسم

وأعضائه. وفي عبارة شهيرة معبرة بارعة لخص ليبنتز كلام لوك ونقحه، ليس في الذهن شيء لم يكن في الحواس إلا الذهن نفسه(36)". أن لوك، كما لاحظ ليبنتز، كان قد اعترف بأن الأفكار قد تأتي من "التفكير" الإستبطاني، مثلما قد تأتي من الإحساس الخارجي، ولكنه كان قد نسب إلى أصل حسي كل

صفحة رقم : 11501

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> نظرة عامة في فلسفة لوك

العناصر الداخلية في التفكير. وعلى النقيض من ذلك، جادل ليبنتز في أن الذهن من نفسه يمد بأصول أو ألوان معينة من الفكر، مثل "الوجود، الجوهر، الوحدة، الهوية، العلة، الإدراك الحسي، العقل، وانطباعات كثيرة أخرى لا يمكن أن تعطى الحواس(37)"، وأن أدوات العقل هذه، أو أعضاء الهضم العقلي "فطرية"، لا بمعنى أننا على وعي بها عند الولادة، أو أننا دائماً على وعي بها عند استخدامها، بل بمعنى أنها جزء من التركيب أو الكيان الأصلي، أو "الاستعدادات الطبيعية" للذهن. وأحس لوك بأن هذه الأصول المفترض أنها فطرية تجري تميمتها وتطويرها تدريجياً بتفاعل الأفكار الحسية أصلاً، في الفكر، ولكن بدون مثل هذه الأصول، كما قال ليبنتز منازعاً، لن يكون هناك أفكار، بل مجرد تعاقبات مهوشة من الأحاسيس، تماماً مثلما أنه بدون عمل المعدة وعصاراتها الهضمية لا يغذي الطعام، ولن يكون طعاماً. وعند هذا الحد أضاف في جراءة: أن كل الأفكار فطرية-أي أثر عملية التحويل في الذهن على الأحاسيس. ولكنه سلم بأن الأصول الفطرية عند الولادة مهوشة وغير متميزة، ولا تصبح واضحة إلا عن طريق الخبرة والاستخدام.

والأصول الفطرية، في رأي ليبنتز، تشمل كل "الحقائق الضرورية، مثل تلك الموجودة في الرياضة البحتة(38)، لأن الذهن، لا الإحساس، هو الذي يزود بأصل الحاجة والضرورة، وكل شيء حسي هو فردي طارئ أو احتمالي، ويمدنا، على أحسن الفروض، بتعاقب متكرر، لا بتعاقب ضروري أو علة ضرورية(39). (وكان لوك قد سلم بهذا(40)). واعتبر ليبنتز أن كل غرائزنا وإثاراتنا اللذة على الألم وكل قوانين العقل، فطرية(41)-ولو أنها جميعاً لا تصبح واضحة إلا بالخبرة: مبدأ التناقض-فالبيانات المتناقضة لا يمكن أن تكون صحيحة في وقت واحد. "إذا كانت أ دائرة، فهي ليست مربعاً"، ومبدأ السبب الكافي-"لا يحدث شيء دون سبب لحدوثه على النحو الذي حدث عليه" لا على نحو آخر(42) "وذهب ليبنتز إلى أن الذكاء البشري يختلف عما لدى الحيوان من معرفة، في أنه يستنتج أفكاراً عامة من خبرات معينة، عن طريق استخدام أصول العقل الفطرية، أما الحيوانات فهي تعتمد كل الاعتماد على الخبرة العملية،

صفحة رقم : 11502

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> نظرة عامة في فلسفة لوك

توجه نفسها عن طريق الأمثلة فحسب"، فهي، بقدر ما نستطيع الحكم عليها، لا يمكن أن تصل أبداً إلى تشكيل القضايا أو الافتراضات الضرورية(43).

أن مبدأ "السبب الكافي" بكفي "لإقامة الدليل على وجود الله وكل أجزاء الميتافيزيقا الأخرى أو اللاهوت الطبيعي(44)". وبهذا المعنى تكون فكرتنا عن الله فطرية، ولو أن الفكرة في بعض الأذهان أو عند بعض القبائل لا واعية أو مهوشة، ويمكن أن نقول مثل هذا على فكرة الخلود(45) والإحساس الخلقي فطري، لا في مضمونه النوعي أو الخاص، أو في أحكامه التي قد تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان، بل بوصفه وعياً للفرق بين الصواب والخطأ. وهذا الوعي عام شامل(46).

والذهن، في علم النفس عند ليبنتز، فعال نشيط، لا لمجرد أنه يدخل بمقتضى تركيبه وعمله في تكوين كل فكرة فحسب، بل كذلك في استمرار نشاطه دون انقطاع. وحيث أن ليبنتز استخدم لفظة "يفكر" بمعناها الواسع عند ديكارت، بمعنى أنها تشمل كل العمليات العقلية، فإنه اتفق مع الديكارتيين في أن الذهن يفكر دائماً. سواء أكان مستيقظاً أم غير واع أو نائماً. "أن أية حالة بلا تفكير في النفس ولا راحة مطلقة في الجسم، تبدو لي مناقضة للطبيعة، ولا مثل لها في الدنيا، بقدر سواء(47)". وبعض العمليات العقلية تتم فيما وراء نطاق العقل (في العقل الباطن) "من الخطأ البين الاعتقاد بأنه ليس في النفس مدركات إلى جانب تلك المدركات الحسية التي تعيها(48)". وبمثل هذه القضايا التي أوردها ليبنتز، بدأ علم النفس الحديث جهوده في التقيب عما أسماه بعض الباحثين الذهن اللاواعي، وما اعتبرته الأرواح القوية متعلقاً بالمخ، أو عمليات أخرى جسدية لم نثر الوعي. ولدى ليبنتز الشيء الكثير مما يمكن أن يقول عن العلاقة بين الجسم والنفس، ولكنه هناك يترك علم النفس، ويخلق في الميتافيزيقا، ويطلب إلينا أن ننظر إلى العالم بأسره على أنه موندات نفسية بدنية، ذوات صفات عقلية وبدنية معاً.

صفحة رقم : 11503

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> الموندات

5- الموندات

التقى ليبنتز عندما كان في فيينا في 1714 بالأمير يوجين من سلفوي، الذي كان هو ومالبورو قد أنقذا أوروبا من ريقة الخضوع للملك لويس الرابع عشر، وطلب الأمير الفيلسوف أن يعد له بياناً موجزاً عن فلسفته بشكل يتيسر معه على القائد العسكري قراءته. واستجاب ليبنتز لهذا الطلب بإعداد رسالة محكمة موجزة من تسعين فقرة، تركها بين أوراقه عند مماته. ونشرت لها ترجمة ألمانية في 1720. ولم يطبع النص الأصلي الفرنسي إلا في 1839، والمحرر هو الذي أسماه "الموندولوجيا" (علم الجواهر الروحية) وربما أخذ ليبنتز اصطلاح موندات عن جيورانو برونو(49)، أو عن فرانس فان هلمونت (ابن الكيمياء ج، ب)(50)، الذي استخدم اللفظة لوصف "البذور" الدقيقة جداً، التي خلقها الله هي وحدها مباشرة، والتي تورطت إلى كل أشكال المادة والحياة. وكان أحد الأطباء الإنجليز، فرانسيس جليسون قد نسب، لا القوة وحدها، بل كذلك الغريزة والأفكار إلى كل أشكال المادة والحياة. وكانت نظرية شبيهة بهذه قد نبئت في ذهن ليبنتز المتفتح الدؤوب منذ 1686. وربما تأثر بعمل الميكروسكوبيين الحديثين الذين عرضوا الحياة النابضة في أصغر الخلايا. وخلص ليبنتز إلى أن "هناك عالماً من الكائنات المخلوقة-الأشياء الحية، والحيوانات..... والأنفس....، في أصغر جزء من المادة-(151)". وكل جزء من المادة يمكن تصوره على أنه الأسماك الميكروسكوبية، إنما هي بركة أخرى مملوءة بالسلك، وهكذا إلى ما لا نهاية-لقد هزت مشاعره كما كانت قد روعت بسكال-قابلية القسمة اللامتناهية لأي شيء ممتد.

وأوحى لبيبتز بأن قابلية القسمة التي لا نهاية لها، لغز ناشئ عن مفهومنا للحقيقة بأنها مادة، ومن ثم فهي ممتدة وقابلية للقسمة إلى حد الغثيان. أننا إذا اعتبرنا الحقيقة النهائية طاقة وتصورنا العالم مكوناً من مراكز قوة، لاختفى سر أو لغز قابلية القسمة، لأن القوة مثل الفكر لا تتطوي ضمناً على امتداد. وعلى هذا رفض ذرات ديكرت على أنها المكونات النهائية للكون، وأحل محلها المونادات، وهي وحدات غير

صفحة رقم : 11504

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> لبيبتز -> المونادات

ممتدة من القوة. وعرف الجوهر، لا بأنه مادة، بل طاقة. (إلى هذه النقطة كان مفهوم لبيبتز متفقاً تمام الاتفاق مع فيزياء القرن العشرين)، "المادة" أينما وجدت ومشحونة بالحركة والنشاط والحياة. وكل موناد يحس ويدرك، أن له ذهنًا أولياً أو بدائياً، بمعنى أنه حساس ويستجيب للتغيرات الخارجية. وقد نفهم المونادات فهماً أفضل إذا فكرنا فيها "بطريقة تشبه الانطباعية التي لدينا عن الأنفس(52)" وكما أن كل نفس "عبارة عن شخص بسيط مستقل(53)"، ذات منعزلة تشق طريقها مناضلة بإرادتها الباطنية ضد كل ما هو خارج عنها، فإن كل موناد كذلك وحيد، مركز قوة منفصل مستقل ضد كل مراكز القوة الأخرى. والحقيقة كون من القوى الفردية، موحد ومنسجم بفضل قوانين الكل أو المجتمع أو الله فقط. وكما أن كل نفس تختلف عن سائر الأنفس، فإن كل موناد كذلك فريد. وليس في الكون بأسره كائنات متشابهان كل الشبه، لأن الفروق بينهما تشكل فرديتهما، أن شيتين لهما نفس الصفات، لا بد أن يكونا واحداً متطابقاً بتعذر تمييزه ("قانون الأشياء التي يتعذر تمييزها") (54) وكما أن كل نفس تحس أو تدرك الحقيقة المحيطة بها، ويقف هذا وذاك وضوحاً كلما كانت الحقيقة بعيدة عنها، ولكنها تشعر بالحقيقة بدرجة ما، فإن كل موناد يشعر بالكون كله، مهما كان الشعور مهوشاً أو غير واع. وهو بهذه الطريقة مرآة تعكس وتمثل العالم بدرجة أو بأخرى من الغموض. وكما أن أي ذهن فردي لا يستطيع بحق أن ينعم النظر في ذهن آخر، فكذلك لا يستطيع موناد واحد أن ينعم النظر في موناد آخر. فليس فيه أية نافذة أو فتحة لتمثل هذا الاتصال المباشر، ومن ثم فإنه لا يستطيع مباشرة إحداث أي تغيير في أي موناد آخر. والمونادات تتغير لأن التغيير أساسي لحياتها-ولكن التغييرات تأتي من كفاها الداخلي(55). فكما أن كل نفس هي رغبة واردة، فكذلك كل موناد يحتوي على-أو هو-غرض داخلي وإرادة، سعى للنمو والتطور. وتلك هي "الفعلية" التي قال عنها أرسطو بأنها لب كل حياة. وبهذا المعنى (كما كان يقول شوبنهاور) فإن القوة والإرادة شكلان أو درجتان من نفس الحقيقة الأساسية(56). وفي الطبيعة غائية

صفحة رقم : 11505

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> لبيبتز -> المونادات

متأصلة: فهناك في كل شيء سعى أو "محاولة" أو "اشتقاء"، أو غرض موجه يحدد قلبه، حتى ولو كان ذلك الغرض أو تلك الإرادة تعمل في حدود القانون الآلي أو عن طريقه. وكما أن الحركة الجسمية فينا هي تعبير مرئي ميكانيكي عن رغبة أو إرادة باطنة، فكذلك في المونادات، فإن العملية الميكانيكية التي نراها من الخارج، هي مجرد الشكل أو الهيكل لقوة داخلية: "وهذا الذي يظهر بشكل آلي أو بالامتداد، في المادة يتركز بشكل دينامي أو فعال، وبشكل عضوي (أو مونادي) في "الفعالية" (أو السعي الداخلي) نفسها (57). ونحن في إدراكنا المشوش المضطرب نعاذل الأشياء الخارجة "بالمادة" لأننا نرى أيتها الخارجية فقط، ولا نرى-كما هو الحال في الاستبطان، الحيوية الداخلية ذات الأثر الفعال في التكوين. وفي هذه الفلسفة تفسح الذرات العاجزة غير الفعالة عند الماديين، مكاناً للمونادات أو الوحدات التي هي مراكز حية للفردية والقوة. ولا يعود العالم آلة ميتة ويصبح مسرحاً لحياة نابضة متنوعة.

وأهم المعالم في هذا التنوع هي درجة الوعي في "الذهن" الموناد. فإن لكل المونادات أذهاناً، بمعنى الحساسية والاستجابة، ولكن ليس كل ذهن واعياً. وحتى نحس الكائنات البشرية العجيبة، نمر بعمليات عقلية كثيرة دون وعي، كما هو الحال في الأحلام، أو حين نكون مستغرقين في أشد الانتباه إلى جوانب معينة من موقف ما، فإننا لا نعي أننا ندرك عناصر أخرى كثيرة في هذا المشهد-وهي عناصر قد تكون على أية حال مختزنة في الذاكرة، وقد تدخل إلى أحلامنا، وقد تتنبثق من زوايا خفية في الذهن إلى الوعي الذي يحدث فيما بعد، أو حين نكون على وعي بزئير الأمواج المنكسرة على الشاطئ أو هسيسها، فإننا لا نتحقق من أن كل موجة، أو كل جزء صغير من كل موجة، يطرق أذننا ليحدث ألفاً من الآثار الفردية، التي تشكل أو تصبح هي سماعنا للبحر. وعلى ذلك فإن أبسط المونادات تحس وتدرك كل شيء حولها، ولكن بشكل مهوش مضطرب إلى حد اللاوعي. والمشاعر في النبات تصبح أوضح وأكثر تخصصاً وتؤدي إلى استجابات أكثر تحديداً. وفي الموناد، أي نفس الحيوان تصبح المدركات المرردة للصدى ذكريات يولد تفاعلها وعياً. والإنسان عبارة عن مستعمرة من المونادات (الخلايا؟) لكل منها جوهره وحاجياته وأغراضه، ولكن هذه

صفحة رقم : 11506

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> المونادات

الجزينات تصبح جماعة موحدة من كائنات حية بتوجيه من موناد مسيطر، وهو "فعالية" الإنسان ونفسه (58). وإذا ارتفعت الوعي إلى مستوى العقل فأنها... تعتبر ذهناً (59) وتسمى في المرتبة تبعاً لدرجة إدراكها للعلاقات الضرورية والحقائق الباطنية، وعندما تدرك نظام الكون وذهنه تصبح مرآة الله. والله، الموناد الرئيسي، ذهن خالص واع تماماً الواعي، مجرد من كل آلية وجسم (60).

وأشق جانباً في هذه الفلسفة هو نظرية ليبنتز في "التناسق الأزلي". ما هي العلاقة بين حياة الموناد الداخلية، ومظهره الخارجي أو هيكله المادي؟ وكيف نفسر التفاعل في الجسم المادي والذهن الروحي في الإنسان؟ وكان ديكارت قد نسب هذه المسألة عجزاً إلى الغدة الصنوبرية. ورد عليها سبينوزا بإنكار أي انفصال أو تفاعل بين المادة والذهن، حيث كان هذان، في رأيه، مجرد المظهرين الخارجي والداخلي لعملية وحيدة. وجدد ليبنتز المشكلة بالقول بأن العمليات الجسمية والعقلية إلى تواطؤ مستمر رتبته الله ترتيباً أزلياً بشكل عجيب:

أن النفس تتبع قوانينها الخاصة بها، وكذلك الجسم يتبع قوانينه الخاصة به، وهي تتلاءم وتتفق بفضل "التناسق الأزلي بين الجواهر، حيث أنها كلها تمثل كوناً واحداً (61).... وتعمل الأجسام كما لو أنه ليس هناك نفوس، وتعمل النفوس كما لو أنه ليس هناك أجسام، ويعمل كلاهما كما لو أنه يؤثر في الآخر.... (62) ويسألونني كيف يحدث أن الله غير راض عن إنتاج كل أفكار وتكيفاتها بغير هذه الأجسام العديمة الفائدة التي لا تستطيع النفس (كما يقولون) أن تحركها أو تعرفها. والجواب سهل: أن إرادة الله هي التي اقتضت أن يكون هناك عدد أكبر، لا عدد أقل، من الجواهر، كما وجد، سبحانه، أنه من الخير أن تقابل هذه التكيفات شيئاً خارجياً (63).

وارتباباً في أن الاستغلال اللطيف للإله بديلاً عن الفكر قد لا يلقى

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> المونادات

استحساناً عاماً، وعمد ليبنتز إلى زخرفته بفرضية جليتكس وساعاته: فالجسم والذهن يعمل كل منهما مستقلاً عن الآخر، ومع ذلك يعملان في تناسق محير، مثل ساعتين صنعتنا وملننا ثم بدأتنا، في حثق وبراعة إلى درجة أنهما تسجلان الثواني وتدقان الساعات في توافق تام، دون تفاعل أو تأثير متبادل، وهكذا العمليات الجسدية والنفسانية، على الرغم من استقلالهما، دون أن تؤثر إحداهما في الأخرى، فإنهما تتوافقان عن طريق "تناسق وجد منذ الأزل بوسيلة إلهية بارعة توقعية" (64).

ولنفترض أن الذي جال بخاطر ليبنتز، ولكنه لم يهتم بذكره، هو أن العمليات التي هي في الظاهر منفصلة ولكنها متزامنة، عمليات الآلية والحياة، عمليات الفعل والفكر، هي عملية واحدة بعينها، نراها من الخارج مادة ومن الداخل ذهنًا. ولو أنه ذكر هذا لكان تكراراً لسبينوزا، ومشاركة في مصيره.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> هل كان الله عادلاً؟

6- هل كان الله عادلاً؟

أن هذه الحاجة إلى ستر عرى الفلسفة بأغطية لاهوتية، هي التي أدت بليبنتز إلى تأليف الكتاب الذي أثار حنق فولتير وسخريته، وكاد يضيع مفكراً عميقاً حقاً في صورة الأستاذ بانجلوس الهزلية، دفاعاً عن أحسن العوالم الممكنة. أن العمل الفلسفي الكامل الوحيد الذي نشر في حياة ليبنتز هو "مقال الثيوديسية عن طبيعة الله وحرية الإنسان وأصل الشر"، (1710) -وهو تقريباً سند مشجع مثل كتاب ديكارت "مبادئ الفلسفة الأولى، التي توضح وجود الله وخلود النفس" (1641). والثيوديسية معناها عدالة الله أو تبريره (أو الفلسفة الإلهية).

فهذا الكتاب، مثل سائر الكتب أصل عرضي. وفي مقال عن القديس جيروم، في "القاموس التاريخي النقدي" نجد بيل، على حين يبدي إعجابه الشديد بليبنتز، يعرض رأي الفيلسوف بأنه يمكن التوفيق بين العقل والدين، أو بين حرية الإنسان وقدرة الله، أو بين الشر الدنيوي والطيبة والقوة الإلهيتين. وخير لنا كما يقول بيل، أن نتخلى عن فكرة إثبات المذاهب الدينية، فإن هذا لا يعني إلا إبراز

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> هل كان الله عادلاً

المتاعب والصعوبات. وأجاب ليبنتز (1698) في مقال كتب لصحيفة جاك باسناج "تاريخ أعمال العلماء". وأضاف بيل في الطبعة الثانية لقاموسه إلى المقال الذي كتبه عن القديس جبروم ملاحظة هامة يجي فيها ليبنتز "ذلك الفيلسوف العظيم" ولكنه أشار إلى غوامض أخرى، وبخاصة في نظرية التناقض الأزلي. وأرسل ليبنتز رده إلى بيل مباشرة، ولكنه لم يطبعه. وفي العام نفسه كتب ثانية إلى عالم روتردام يمتدح "تأملاته الأخاذة" و "أبحاثه التي لا حد لها (65)". ولم يتسم إلا القليل من فترات تاريخ الفلسفة بمثل ما اتسمت به من الرقة واللفظ تلك المجاملة المتبادلة بين بيل وليبنتز في تبادل الأفكار. وأبدت صوفيا شارلوت رغبته في الاطلاع على جواب ليبنتز على شكوك بيل. وكان بالفعل يعد مثل هذا البيان حين ترامت إليه الأنباء بوفاة بيل. وراجع ردوده وتوسع فيها ونشرها تحت عنوان "التيوديسية". وكان آنذاك في الرابعة بعد الستين من العمر، وأحس بدنو الأجل، وربما هفت نفسه إلى الإيمان بعدالة الله مع الإنسان. كيف يتأتى أن يتلوث عالم خلقه العلي القدير الخير بمثل هذه المذابح العسكرية والفساد السياسي والقساوة البشرية والشقاء والزلازل والمجاعات والفقر والمرض؟

أن "الرسالة التمهيدية عن مواجهة الإيمان بالعقل" وصفت العقل والكتاب المقدس بأن كليهما وحي من عند الله، ومن ثم كان التناقض بينهما أمراً بعيد الاحتمال.

ويتساءل بيل كيف أن الإله الطيب الخير المطلع سلفاً "على كل ما هنالك من ثمار" يمكن أن يجيز إغراء حواء، فرد ليبنتز على هذا بأن الله، لكي يؤهل الإنسان للمبادئ الأخلاقية، خلق له إرادة حرة، ومن ثم حرية الخطيئة، وحقاً أن الإرادة الحرة تبدو غير ملتزمة مع العلم واللاهوت كليهما، فالعلم يرى في كل مكان حكم قانون لا يتغير، والحرية الإنسانية مضيعة في سباق علم الله وحتمية كل الأحداث قضاء وقدر. ولكننا، كما قال ليبنتز، واعون في عناد وإصرار وبشكل مباشر أننا أحرار غير مقيدين. أننا، على الرغم من عدم قدرتنا على البرهنة على هذه الحرية، يجدر بنا أن نقبلها شرطاً أساسياً لأي معنى من معاني المسؤولية الأخلاقية، بديلاً وحيداً لاعتبار الإنسان آلة سيولوجية عاجزة بشكل سخيف مضحك.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> هل كان الله عادلاً

أما بالنسبة لوجود الله، فإن ليبنتز مقتنع بالحجج التقليدية السكولاسية. نحن نتصور كائناً كاملاً، وحيث أن الوجود عنصر ضروري في الكمال، فالكائن الكامل لا بد أن يكون مزدوجاً. ولا بد أن يكون هناك عنصر ضروري وكائن موجود بذاته (غير مخلوق) وراء كل العلل القريبة والأحداث المحتملة الوقوع. وليس من مفهوم أن يكون لعظمة الطبيعة ونظامها أي مصدر إلا "ذكاء أسمى". ولا بد أن يكون للمخالق في ذاته، وبدرجة غير متناهية، كل القوة والعلم

والمعرفة والإرادة التي كشفت في مخلوقاته. والتدبير الإلهي والآلية الكونية غير متعارضتين. فالعناية الإلهية تستخدم الآلية لإنجاز عجائبها، ويستطيع الله أن يربك أو يوقف آلة العالم من أن إلى أن، ليظهر معجزة أو معجزتين (66). والنفس بطبيعة الحال، خالدة، والموت، مثل الولادة، هو مجرد تغيير في الشكل في مجموعة من المونادات، وتبقى النفس والطاقة المتأصلتان. وفيما عدا الله تكون النفس دائماً ملازمة للجسم، والجسم ملازم للنفس، ولكن سيكون هناك بعث للجسم، كما سيكون هناك بعث للنفس (67) (وليبتنر هنا كاثوليكي فاضل) وفيما دون الإنسان يكون خلود النفس غير شخصي (مجرد إعادة توزيع للطاقة)، والنفس العقلانية في الإنسان وحدها هي التي تتمتع بخلود واع. والخير والشر اصطلاحان من صنع الإنسان نحددهما تبعاً للذات أو ألما، ولا يمكن تطبيقهما على الكون دون افتراض أن للإنسان من العلم ما لا يجوز إلا لله. وقد يكون النقص في الجزء مطلوباً لكامل أعظم في الكل (68). وعلى هذا فالخطيئة شر، ولكنها نتيجة الإرادة الحرة التي هي خير. وحتى خطيئة آدم وحواء كانت من بعض النواحي "خطيئة سعيدة" حيث كان من نتيجتها مجيء المسيح (69) "وليس في الكون.. فوضى ولا اضطراب إلا من حيث المظهر (70)". إن آلام الناس ونوائبهم "تسهم في الخير الأعظم عند من يعانون منها (71)". وحتى: لو تمسكنا.... بالرأي السائد بأن عدد الناس المقدر عليهم الشقاء الأبدي، سيكون أكبر بشكل لا يقارن، من

صفحة رقم : 11511

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> لبينتز -> هل كان الله عادلاً

الذين كتب لهم الخلاص، فيجد بنا أن نذكر أن الشر لا يمكن أن يبدو ضئيلاً إلى حد العدم بالمقارنة مع الخير، إذا تأمل المرء السعة الحقيقية "المدينة الله" (للجنة).... وحيث أن هذا الجزء من الكون الذي نعرفه ليس إلا شيئاً لا يذكر إلى جانب الجزء الذي لا نعرف عنه شيئاً.... فقد يكون كل الشر ضئيلاً إلى حد العدم تقريباً، إذا قورن بالأشياء الطيبة الموجودة في الكون (72).... ولسنا بحاجة حتى إلى الموافقة على أن في الجنس البشري شراً أكثر مما فيه من خير، فإنه من الممكن، بل أنه لشيء معقول أن تكون سعادة غير المغضوب عليهم وكمالهم أعظم بكثير من شقاء المغضوب عليهم ونقصهم (73).

وهذه الدنيا، مهما بدا من نقصها أمام أعيننا المشبعة بالأناية هي أحسن ما كان يمكن أن يخلقه الله، حيث ترك البشر أناسي وأحراراً. وإذا كانت ثمة دنيا أحسن في حيز الإمكان فلنكن على يقين من أن الله يمكن أن يخلقها. أن الكمال الأسمى لله يستتبع أنه في خلق الكون، اختار (سبحانه) أفضل خطة ممكنة، بما فيها أعظم تنوع مع أعظم نظام، وأفضل وضع ومكان وزمان ترتيباً، وأعظم النتائج توفرها أبسط الوسائل وأعظم قوة وأعظم معرفة وأعظم سعادة وأعظم خير في الأشياء المخلوقة التي سلم بها الكون أو أفسح لها مجالاً، وبما أن كل الأشياء الممكن وجودها تطالب بحق الوجود في عقل الله بنسبة درجة كمالها، فإن نتيجة كل هذه المطالبات لا بد أن تكون أكمل دنيا ممكنة فعلاً (74).

ولا يمكن أن نوصي اليوم بقراءة شيء أكثر من ذلك في "ثيودوسية" لبينتز، اللهم إلا الذين يقدرول لأعظم تقدير سخرية "كانديد" المريرة.

صفحة رقم : 11512

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> اهتمامات فكرية متنوعة

7- اهتمامات فكرية متنوعة

ومهما يكن من امر فإن "الثيوديسية" أصبحت أوسع كتب ليبنتز انتشاراً وأكثر ما أقبل الناس على قراءته منها، وعرفه الناس بأنه "رجل أفضل العوالم الممكن وجودها". وإذا كان لنا أن نأسف لهذا السخف الذي يهذب ويتقف في هذا العمل العظيم، فإن إجلالنا للمؤلف يحيا ويتجدد إذا أجلنا الطرف في التنوع الغزير لاهتماماته الفكرية. وقد افتتن بالعلم ولو أنه كان جانباً من فكره. وقال ليبنتز لبيل يوماً لو أنه عاش حياة ثانية لأصبح عالماً بيولوجياً (75). وكان من أعمق الرياضيين في عصر زخر بهم. ونبذ ديكارت في صياغة "مقياس القوة". أما تصوره للمادة على أنها طاقة فكان في نظر عصره لحناً ميثافيزيقياً، ولكنه الآن في أيامنا هذه أمر مألوف في الفيزياء. ووصف المادة بأنها إدراكنا المهوش أو المضطرب لعمليات القوة. ونبذ، مثل معاصرنا من أصحاب النظريات "الحركة المطلقة" التي افترضها نيوتن، وقال بأن "الحركة هي مجرد تغيير في الأوضاع النسبية للأجسام، ومن ثم ليست شيئاً مطلقاً، بل منضمنة في علاقة (76)". واستبق كانت في تفسير المكان والزمان، لا على أنهما حقائق موضوعية، بل علاقات مدركة حسيّاً: المكان مدرك حسيّاً على أنه تصاحب في التواجد، والزمان مدرك حسيّاً على أنه تعاقب. وهي آراء تتبناها اليوم نظريات النسبية. وفي عامه الأخير (1715) دخل ليبنتز في مراسلات طويلة مع صمويل كلارك عن الجاذبية الأرضية، التي بدت له صفة خاصة تكتنفها الأسرار، تعمل على مسافات هائلة جداً عبر فراغ ظاهر، واعترض ليبنتز بأنها قد تكون معجزة متصلة لا تنقطع، فأجاب كلارك بأنها ليست اعظم من "التناسق الأزلي (77)", وأبدى ليبنتز خوفه من أن تؤدي نظرية نيوتن في الآلية الكونية إلى كثير من الإلحاد، فأجاب كلارك، على العكس، أن النظام المهيب الذي كشف نيوتن غوامضه قد يقوي الإيمان بالله (78). وبررت الأحداث اللاحقة رأي ليبنتز.

صفحة رقم : 11513

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> اهتمامات فكرية متنوعة

وفي علم الحياة (البيولوجيا) تصور ليبنتز "التطور" بشكل غامض. ورأى، مثل كثير من المفكرين قبله وبعده "قانون الاستمرار" نافذاً في العالم العضوي، ولكنه امتد بالفكرة كذلك إلى العالم المظنون أنه غير عضوي: فكل شيء نقطة أو طور في سلسلة لا نهاية لها، مرتبط بكل شيء غيره عن طريق عدد غير محدود من أشكال وسيطة (79)، فهناك كما يقال، حساب اللامتاهيات في الصغر يجري في الحقيقة. ليس ثمة شيء يتم على الفور. ومن حكمي البليغة... أن الطبيعة لا تقوم بقفزات.... ويعلن قانون الاستمرار أننا ننتقل من الأصغر إلى الأكبر والعكس بالعكس عبر الوسط، درجة درجة، وجزءاً جزءاً على حد سواء (80). (وينازع في هذا كثير من الفيزيائيين اليوم)... والناس مترابطون مع الحيوانات. والحيوانات مترابطة مع النبات، وهذه ثانية مع الأحافير والمستحدثات، وهي بدورها مرتبطة بتلك الأجسام التي يصورها لنا الإحساس والخيال ميتة وغير عضوية تماماً (81).

وفي هذا "الاستمرار" المهيب تذوب كل التناقضات، عن طريق سلسلة ضخمة من فوارق توجد ونادراً ما يتيسر إدراكها إدراكاً حسيّاً، من أبسط المواد إلى أكثرها تعقيداً، ومن أصغر الحيوانات الدنيا التي ترى بالمجهر إلى أعظم حاكم أو عيقي أو قديس.

ويبدو أن ذهن ليبنتز قاس كل هذا الاستمرار الذي وصفه، وكان حسن الاطلاع على كل علم، وعرف تاريخ الأمم والفلسفة. وكم مس مساً رقيقاً الشئون العالمية للكثير من الدول، كما كان على علم تام بالذات وبالله. وفي 1693 نشر بحثاً عن نشأة الأرض وبدايتها متجاهلاً سفر التكوين تجاهلاً تاماً. وطور أفكاره الجيولوجية وتوسع فيها في رسالة "بروتوجيا" نشرت 1749 بعد وفاته. وذهب إلى أن كوكبنا كان يوماً كرة ملتهبة، ثم بردت شيئاً فشيئاً، كونت قشرة، وعندما بردت تكاثف البخار بها إلى مياه ومحيطات وأصبح الماء ملحاً بذوبان ما في القشرة من معادن. وكانت التغييرات الجيولوجية، التي تلت ذلك، أما نتيجة لفعل المياه التي فاضت على السطح تاركة تكوينات رسوبية، أو نتيجة

صفحة رقم : 11514

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> اهتمامات فكرية متنوعة

انفجار الغازات التي تحت الأرض، مخلفة صخوراً بركانية. وأوردت نفس الرسالة تفسيراً بارعاً للأحافير أو المستحاثات(82)، وخطت نحو نظرية للتطور. وبدا له "جديراً بالاعتقاد، أنه من خلال هذه التغييرات البعيدة المدى" في القشرة الأرضية"، "تحولت مرات ومرات حتى أجناس الحيوان(83)". وقال بأنه من المحتمل أن أقدم الحيوانات الأولى كانت بحرية، انحدرت منها البرمائيات والحيوانات البرية(84). ورأى ليبنتز مثل بعض المتفائلين في القرن التاسع عشر، في هذا التحول التطوري، أساساً للاعتقاد "بتقدم الكون تقدماً متصلاً لا يعوقه شيء... لن يقف التقدم عند حد أبداً(85)".

وانتقل ليبنتز من علم الحياة (البيولوجيا) إلى القانون الروماني، ومنه إلى فلسفة الصين. وأفادت رسالته "آخر الأخبار من الصين" 1697 في لهف شديد، من تقارير التي كان يرسلها المبشرون والتجار من "المملكة الوسطى". ورأى أنه من الجائز أن يكون الصينيون قد وصلوا في الفلسفة والرياضة والطب إلى كشوف يكون فيها أكبر العون للحضارة الغربية. وحث على إقامة روابط ثقافية مع روسيا، لتكون من ناحية، وسيلة لبدء الاتصال الثقافي مع الشرق. وتبادل ليبنتز الرسائل مع الباحثين ورجال العلوم ورجال السياسة والحكم في عشرين بلداً بثلاث لغات. وكتب نحو ثلاثمائة رسالة في العام. و 15 ألفاً منها محفوظة(86). وقد تناقسه رسائل فولتير من حيث الكم، لا من حيث التنوع الفكري. واقترح ليبنتز ندوة عالمية ثقافية يتبادل رجال العلم والمعرفة عن طريقها، أفكارهم وآراءهم ويعرضونها للبحث والمقارنة(87)، وعمل على إيجاد لغة عالمية - "حروف عالمية" يكون فيها لكل فكرة في الفلسفة والعلوم رمزاً وحرف خاص، حتى يتمكن المفكرون من معالجة هذه الأفكار بهذه المجموعة من الرموز، مثلما استخدم الرياضيون العلامات للكميات. وبهذا اقترب من تأسيس المنطق الرياضي والرمزي(88). وبشيء من هذا العبث اللطيف وزع ليبنتز نفسه بين مجالات كثيرة إلى حد أنه لم يكن يترك وراءه إلا قصاصات أو شذرات. ولم يجد فيلسوفنا الشغوف بالعلم المتعدد جوانب المعرفة فسحة من الوقت للزواج. وأخيراً وهو في سن الخمسين فكر في الزواج،

صفحة رقم : 11515

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> اهتمامات فكرية متنوعة

ولكن، كما يقول فوننتيل "أمهله السيدة التي طلب يدها، لتدبر الأمر، وحيث تهيأت له فرصة لإعادة النظر في الموضوع، فإنه لم يتزوج قط(89)". وبعد جولاته وتحقيقاته في الدبلوماسية طوى نفسه على دراساته معتزلاً بالعكوف عليها في عزلة. أن الرجل الذي كان قد نقب بذهنه في نصف العالم، باعد الآن بينه وبين أصدقائه. وتفرغ للقراءة والكتابة، حتى أثناء الليل. وقلما تنبه لأيام الأحاد أو العطلة. ولم يكن لديه خادم، وكان يبعث في طلب وجبات الطعام من الخارج، وتناولها وحيداً في غرفته(90). فإذا غادرها يوماً، كان ذلك من أجل القيام ببعض الأحداث، أو لمتابعة مشروعاته من أجل النهوض بالمعرفة أو العلوم أو خلق جو من التقاهم. وراوده حلم إنشاء أكاديميات في العواصم الكبرى، ونجح في واحدة منها، فأسست أكاديمية برلين (1700) بناء على مبادرته، وانتخبته أول رئيس لها. وقابل بطرس الأكبر في تورجو (1712)، ثم في كارلسباد وبيرمونت، واقترح أكاديمية مماثلة في سانت بطرسبرج، وحمله القيصر بالهدايا، وتبنى اقتراحه في حكم روسيا عن طريق "وحدات" إدارية، ولكن ليبنتز، لم يعمر حتى يرى أكاديمية سانت بطرسبرج صرحاً قائماً في 1724. ونلتقي به في 1712 في فيينا متلهفاً للحصول على منصب إمبراطوري، حاملاً معه مشروع أكاديمية أخرى. وقدم لشارل السادس خطة لإنشاء معهد لا يقتصر على العلوم، بل يضم التربية والزراعة والصناعة، وعرض خدماته لإدارة المعهد. ورفع الإمبراطور إلى مرتبة النبلاء، وعينه عضواً في المجلس الإمبراطوري (1712).

وأغضب طول تعيبيه عن هانوفر الناخب الجديد جورج. وقطع راتبه فترة من الزمن وأنذر بأنه قد أن الأوان بعد مضي ربع قرن من التعويق والتسويق، ولانتهاء من كتابه عن تاريخ أسرة برنزويك. وعند وفاة الملكة أن غادر جورج هانوفر ليتسلم عرش إنجلترا. وبعد ثلاثة أيام من هذا الرحيل، وصل ليبنتز من فيينا 1714. وكان يأمل في أن يذهبوا به إلى لندن حيث ينعم هناك بمنصب أرفع ورواتب أكبر، وبعث إلى الملك الجديد برسائل يسترضيه فيها. ولكن جورج رد بأنه من الخير أن يبقى ليبنتز في هانوفر حتى ينجز الحوليات(91).

صفحة رقم : 11516

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> اهتمامات فكرية متنوعة

ناهيك بأن إنجلترا لم تكن غفرت له نزاعه مع نيوتن حول أيهما وضع حساب التفاضل والتكامل. واستبد به اليأس والوحدة، وعاش عامين آخرين كافح فيهما من أجل الإيمان بحسن نية الكون ومقاصده، أن الرجل الذي عرفوه في القرن الثامن عشر بأنه رسول التفاؤل قضى نحبه متأثراً بداء النقرس وحصاة الكلى في هانوفر، وفي 14 نوفمبر 1716. ولم تحفل بموته أكاديمية برلين، ولا رجال الحاشية الألمان في لندن، ولا أي من أصدقائه في البلد، ولم يحضر أحد من رجال الدين للقيام بالطقوس الدينية للفيلسوف الذي كان يدافع عن الدين ضد الفلسفة. ولم يشيع جنازته إلا رجل واحد، هو سكرتيره السابق، وكتب اسكتلندي كان آنذاك في هانوفر "ووري ليبنتز التراب أقرب شبهاً بلص، منه بما كان عليه حقاً: درة في جبين بلاده ومفخرة لها(92)".

وجدير بنا ألا نشغل الصفحات ببيان أوجه الخلل والنقص في هذا الركام المتعدد الأشكال من الأفكار، فقد قام الزمن منذ عهد بعيد بهذه المهمة الثقيلة. واتهم النقاد ليبنتز بسرقات كثيرة واضحة في كل ما كتبه أو قال به. وعثروا على علم النفس الذي جاء به أفلاطون، والعدل الإلهي عند الفلاسفة السكولاسيين، والمونادات عند برونو، والميتافيزيقيا والأخلاق وعلاقة الذهن بالجسم عند سبينوزا، ولكن من الذي يستطيع أن يقول عن هذه المسائل شيئاً غير ما قيل منذ مائة عام. أن لايسر أن يكون المرء أصيلاً وأحمق من أن يكون أصيلاً وحكيماً. وهناك ألف من الأخطاء المحتملة في كل حقيقة ولم يستنفذ الجنس البشري بعد كل الإمكانيات مع ما بذل من جهود ومحاولات. وهناك هراء كثير في ليبنتز، ولكننا لا نستطيع الجزم بأنه كان هراء أميناً، أو أنه كان تغييراً وقائياً في اللون، أنه يقول لنا بأنه الله حين خلق الدنيا رأى سبحانه في ومضة، كل ما كان سيحدث في أدق تفاصيله (93). وقال "أنا دائماً أبدأ فيلسوفاً، ولكنني دائماً أنتهي رجلاً من رجال اللاهوت (94)". أي أنه أحس أن الفلسفة تخطئ هدفها إذا لم تؤد إلى الفضيلة والتقوى. وهياً له حوار الطويل الذكي مع جون لوك واحداً من ادعاءاته

صفحة رقم : 11517

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> اهتمامات فكرية متنوعة

الكثيرة، إلا وهو ادعاء الفكر الثاقب ذي القيمة والأهمية. وربما بالغ في الفطرية "الأفكار الفطرية"، ولكنه سلم بأنها قدرات أو مواهب أو استعدادات، وليست أفكاراً وأفلاح في إظهار أن المذهب الحسي عند لوك كان قد بالغ في تبسيط عملية المعرفة، وأن "الذهن" بطبيعته-إذا كان خالياً فجاً عند الولادة-إنما هو عضو للاستقبال الفعال للأحاسيس ومعالجتها وتحويلها، وهنا، يقف ليبنتز، كما يقف في آرائه عن المكان والزمان، شامخاً، مبشراً بكانت. واكتفت الصعوبات نظرية المونادات (إذا لم تكن ممتدة، فكيف يتسنى لأي عدد منها أن يحدث امتداداً؟ وإذا كانت "تترك" الكون إدراكاً حسيّاً فكيف يكون لديها مناعة ضد أي تأثير خارجي؟)، ولكنها كانت محاولة بارعة أن يجتاز الهوة بين الذهن والمادة، حين جعل المادة عقلية، ولم يجعل الذهن مادياً، وأخفق ليبنتز بطبيعة الحال في التوفيق بين الآلية والتدبير في الطبيعة، أو بين الآلية في الجسم والحرية في الإرادة. وكان فصله بين الذهن والجسم من جديد، بعد أن كان سبينوزا قد وحد بينهما في عملية ذات جانبيين، خطوة إلى الوراء في الفلسفة. وكان زعمه أن هذا أفضل العوالم الممكنة مسعى حميداً مشجعاً مفعماً بالأمل، من جانب رجل البلاط، للتسرية عن ملكة، أن أعلم الفلاسفة (أكاديمية بأسرها في شخصه-كما قال عنه فردريك الأكبر) كتب لاهوتاً، كأن شيئاً لم يحدث في تاريخ الفكر منذ سانت أوغسطين. ولكن مع كل مواطن الضعف فيه كانت إنجازاته في العلوم والفلسفة ضخمة. وكان محباً لوطنه ومع ذلك "أوروبياً صالحاً"، فأعاد إلى ألمانيا مكاناً مرموقاً في تنمية الحضارة الأوروبية وتطويرها. وكتب فردريك الثاني "من كل الذين رفعوا من شأن ألمانيا، قام توماسيوس وليبنتز بأجل الخدمات للروح الإنسانية (95)". وضعف تأثير ليبنتز عندما قلت قيمة لاهوته أمام الوعي الأخلاقي عند الناس، وعلى مدى جيل بعد وفاته أعاد كريستيان فون ولف صياغة فلسفته صياغة مرتبة. وفي هذا الشكل المعدل أصبحت النمط الفكري السائد في الجامعات الألمانية. وكان أثره خارج ألمانيا يسيراً. ولو أن معظم كتاباته كانت باللغة الفرنسية، فإنها كانت عبارة عن قصاصات لا تشكل عملاً قوياً متماسكاً أو مركزاً. ولم تظهر حتى 1868 أية طبعة تجمعها، بل أنه في تلك السنة أيضاً استبعدت بعض الفقرات

صفحة رقم : 11518

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> اهتمامات فكرية متنوعة

الهامة، ولكنها كانت مشوبة بالهرطقة، وكان لزاماً أن تنتظر حتى 1901 لتطبع. وكتب الفوز للرموز التي وضعها لحساب التفاضل والتكامل، ولكن لمدة نصف قرن حمل منافسها نيوتن ولوك كل شيء أمامهما، وأصبحا معبودي عصر الاستنارة في فرنسا. ولكن حتى وسط نشوة العقل هذه، قدر بوفون أن ليبنتز أعظم عبقرية في عصره (96). أما المفكر الألماني اللامع في القرن العشرين أوزوالد شينجلر فقد اعتبر ليبنتز "أعظم عقل في الفلسفة الغربية بلا منازع (97)".

ولكي تنظم هذه الذرى جميعاً في عقد واحد، يمكن القول في جملة واحدة بأن القرن السابع عشر كان أخصب حقبة في تاريخ الفكر الحديث. فهنا في بيكون وديكارت وهوبز وسبينوزا ولوك وبييل وليبنتز، كانت سلسلة متعاقبة من رجال حميت صدورهم بخمرة العقل، واثقين ابتهاج بأنهم (أو معظمهم) استطاعوا أن يفهموا الكون، حتى إلى حد تكوين فكرات "واضحة متميزة" عن الله، وإلى حد أنهم جميعاً فيما عدا الأخير قادوا تلك الاستنارة الذكية العارمة التي كان لزاماً أن تهز الدين والحكومة كلتيهما معاً هزاً عنيفاً في الثورة الفرنسية. وتنبأ ليبنتز بهذه النهاية، وعلى حين ظل الآخر لحظة يدافع عن حرية الكلام (98). فإنه حث المفكرين الأحرار على التفكير في أثر كلماتهم الملفوظة أو المكتوبة على أخلاق الناس وروحهم وفي "الأبحاث الجديدة" حوالي سنة 1700 كتب تحذيراً رائعاً: إذا كان الإنصاف يقتضي الإبقاء على المفكرين الأحرار، فإن التقوى تقتضي إبراز الآثار السيئة لمبادئهم وتعاليمهم، كلما أمكن ذلك، إذا كانت تتعارض مع الإيمان بتدبير إله بالغ الكمال في الحكمة والخير والعدل، وتتعارض مع خلود الأنفس، ذلك الإيمان الذي يجعلهم سريع التآثر والحساسية لآثار عدالته، فلا يتحدثون عن آراء خطيرة بالنسبة للأخلاق والشرطة. وإني لأعلم أن رجالاً ممتازين يتسمون بحسن النية يرون أن لمثل هذه الآراء النظرية على السلوك والممارسة أثراً أقل مما يظن. كما أعلم أيضاً أن هناك أشخاصاً ذوي ميول طيبة فلا تحذوهم مثل هذه الآراء إلى الإتيان بأي شيء غير جدير بهم... وقد يقال بأن أبيقور

صفحة رقم : 11519

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> اهتمامات فكرية متنوعة

وسبينوزا عاشا حياة مثالية تماماً، ولكن هذه الدواعي غالباً ما تنقطع في تلاميذهم ومقلديهم الذين يطلقون، اعتقاداً منهم بأنهم تخلصوا من الخوف المزعج من عناية إلهية متربصة مراقبة، ومن الخوف من المستقبل ينذر بالويل والثبور - يطلقون العنان لشهواتهم البهيمية وأهوائهم الوحشية، ويصرفون أذهانهم إلى إغواء الآخرين وإفسادهم. وإذا استبد بهم الطموح والطمع، أو كانوا ذوي ميول جافية نوعاً ما، فقد يسوغون لأنفسهم، رغبة في البهجة والسرور أو التقدم والرقى، أن يشعلوا النار في أربعة أركان المعمورة. لقد عرفت هذا من طبيعة وخلق بعض من طواهم الردى، وإني لأجد كذلك آراء شبيهة، تندس، شيئاً فشيئاً إلى أذهان رجال من ذوي المكانة الرفيعة المتلافيين الذين يحكمون الناس ويتحكمون في مصائر الأمور، كما تندس في الكتب العصرية، وهي آراء تنزع بكل شيء إلى الثورة العامة التي تهدد أوربا (99).

وإننا لنلمح في ثنايا هذه السطور روح القلق الموسوم بالإخلاص، وينبغي أن ننظر بالتقدير والإجلال إلى نصيحة التحذير التي تعبر عنها. ومع ذلك فإنه بعد أن محقت الاستتارة كل المذاهب الدينية، وأشعلت الثورة الفرنسية النار بشكل عابر، استطاع مؤرخ كبير أن ينظر إلى الوراء، إلى هذا العصر الأول من عصور العلوم والفلسفة الحديثة، ويرى في المغامرين فيه، لا مدمرين للحضارة، بل محررين للجنس البشري، قال لكي Lecky هكذا درب معلمو القرن السابع عشر العظام... أذهان الناس ونظموها من أجل البحث والتحقيق المجريين غير المتحيزين، وفجروا، بعد أن حطموا التعويذة التي شلت حركتهم زمناً طويلاً، ينبوعاً من الحب الخالص للحقيقة التي أحدثت ثورة وتغييراً في كل جوانب المعرفة. وإلى هذا الدافع الذي انتقل آنذاك، يمكننا أن نتعقب حركة حاسمة كبيرة جددت كل التاريخ. وكل العلوم،

صفحة رقم : 11520

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> المغامرة الفكرية -> ليبنتز -> اهتمامات فكرية متنوعة

وكل اللاهوت - وهي حركة نفذت إلى أخفى الأعماق، مدمرة الحزازات القديمة، مبددة الأوهام، معيدة ترتيب... معرفتنا، مغيرة كل مدى وطبيعة تعاطفاتنا واهتماماتنا وربما كان ضرباً من المحال أن يتم كل هذا لولا انتشار روح عقلانية (100). وهكذا من حسن الحظ أو لسوء الحظ، وضع القرن السابع عشر أسس الفكر الحديث. ولقد كانت النهضة مقيدة بالأراء القديمة التقليدية والطقوس الكاثوليكية والفن الكاثوليكي. وكان الإصلاح الديني مرتبطاً بالمسيحية البدائية وعقيدة العصور الوسطى. أما هذه الحقبة الغنية الحاسمة، من جاليليو إلى نيوتن، ومن ديكارت إلى بيل، ومن بيكون إلى لوك، فقد ولت وجهها شطراً مستقبلاً غير معلوم بشر بكل أخطار الحرية، وهي حقبة استحققت ربما حتى أكثر من القرن الثامن عشر أن تسمى "عصر العقل"، لأنها على الرغم من أن المفكرين فيها ظلوا أقلية ضئيلة، فإنهم أظهروا اعتدالاً حكماً، وسيراً أعمق لأغوار العقل والحرية، وما يكتنفهما من مشاق، من أبطال الاستتارة الفرنسية الذين فك وثاقهم ومهما يكن من أمر فإن المسرحية الكبرى في التاريخ الحديث، كانت قد مثلت فصلها الثاني، وقاربت نهايتها.

صفحة رقم : 11521

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> مدام دي مينتون

الكتاب الخامس

الفصل الرابع والعشرون

غروب الشمس

1- مدام دي مينتون

بعد وفاة "ماري تريز" (30 يولييه 1683) كانت الملكة المتوجة لفرنسا "الأرملة سكارون" المركيزة دي مينتون، مربية أبناء الملك غير الشرعيين، وسرعان ما أصبحت (يناير 1684؟) زوجته غير المتكافئة والتي لا تترث عرشه، وكانت منذ ذلك التاريخ ذات أكبر نفوذ شخصي طيلة حكمه.

ومن العسير اليوم أن نعرف حقيقة خلقها، ولا يزال المؤرخون يختلفون عليه. وكان لها أعداء كثيرون كرهوا صعودها وقوتها. وكتب بعضهم التاريخ وأسلمها إلينا وغداً أنانياً مكرراً مدبراً للمكائد. ومهما يكن من أمر، فإنها حين كان من الميسور لها أن تحل محل مدام مونتسبان "خليلة الملك" بكل ما يأتي به هذا من نفوذ وسيطرة-أبت، وبدلاً من ذلك، حرصت الملكة آنذاك في الثانية والأربعين من العمر، أصغر من دي مينتون بثلاثة أعوام، ولم يكن ثمة ما يبرر توقع موتها الباكر. وظاهر أن المركيزة، في هذه الأونة، أثرت الفضيلة على السيطرة والنفوذ، وعندما اختطفت يد المنون الملكة ظلت المربية على رفضها أن تكون خليعة، وسعت وراء أهداف عليا، مغامرة بوظيفتها الحالية. وإذا كانت فضيلتها طموحاً فإنها لم تتلطح به أكثر ما تلطح به تواضع عانس متعلقة ليس لها أمناً إلا مفاتها تسام بها من أجل حياتها، وتظن أن مضاجعة ليلة واحدة أقل أمناً من خاتم العرس. ولما تزوج لويس من مينتون كان عمرها ثمانية وأربعين عاماً. ورسمها مينارد عقيلة لطيفة جاوزت مرحلة الإغراء أو الفتنة الجسدية، وكانت في أحسن الأحوال تقية مخلصه في تقواها، وفي أسوأ الأحوال قامرت مقامرة جريئة وكتبت لها الفوز.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> مدام دي ميننتون

وخصص لها أنذاك مسكناً قريباً من مسكن الملك، فعاشت في قصر فرساي في بساطة برجوازية تقريباً. "كانت حياة البلاط تضايقها، ولم تجد لذة في التباهي والتفاخر (1)". ولم تجمع ثروة، وحتى في قمة صعود نجمها لم تكن تملك إلا القليل إلى جانب قصر ميننتون الذي تركته غير مؤثث ولم يستخدم. ويقال أن لويس، في أعوامها الأخيرة، قال لها يوماً "ولكنك يا سيدتي لا تملكين شيئاً، وإذا ما مت فستكونين فقيرة خاوية الوفاض، خبريني ماذا يمكن أن أفعل من أجلك؟". فطلبت بعض الامتيازات والرعاية المتواضعة لذوي قرباها، ومبالغ كبيرة من المال لمشروعها الأثير لديها: الكلية التي أسست 1686 في سان سير لبنات الأسرات الكريمة اللاتي أفنى عليها الدهر. ولم يكن خيالها بل خيلاء الملك هو الذي جند الرجال وخصص الأموال لقناة الماء التي لم يتم بناؤها، والتي حملت اسمها. وكانت دي ميننتون، من نواح كثيرة، زوجة صالحة. وكان شغلها الشاغل في يوم حافل أن تقف حائلاً بين الملك وبين العالم، وأن تحافظ على السلام والهدوء، وسط أطماع أفراد البلاط ودسائسهم، وتلاطف سرباً من الطامعين في المناصب، وتعمل خالة عطوفة لحفدة زوجها، وتفي بمتطلباتهم بوصفه رجلاً، وتواسيه في إخفاقه وهزائمه. وترفه "عن الرجل الذي من أصعب الصعب الترفيه عنه في مملكة بأسرها (3)", وتخلق جواً من الهدوء المنزلي، في حياة كان لزاماً في كل ساعة تقريباً أن تتخذ فيها قرارات يتأثر بها مليون حياة. وفي أوقافها الخاصة التي وجدت بعد وفاتها، عثر على هذا الدعاء، وظاهر أنه كتب فور زواجها:

يا إلهي، لقد بوأنتي هذا المكان الذي أنا فيه الآن، وإنني لأترك نفسي رهن تدبيرك وعنايتك دون قيد أو شرط، امنحني النعمة الإلهية، حتى أستطيع، كمسيحية، أن أحتمل الآلام، وأقدس المسرة، والنمس في كل شيء مجدك، و.... أعاون على خلاص الملك، وحل بيني وبين الاستسلام لتبهجات ذهن قلق. ولتكن مشيئتك يا إلهي، مشيئتي، فإن السعادة كل السعادة، في هذه الدنيا وفي الآخرة هي موضوع لمشيئتك أنت دون تحفظ.

صفحة رقم : 11523

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> مدام دي ميننتون

اغمر نفسي بهذه الحكمة، وبسائر الهبات الروحية اللازمة لتلك المنزلة العالية التي وضعتني فيها. ولتجعلها مثمرة تلك القدرات التي طاب لك أن تمنحني إياها. يا إلهي، أنت يا من تمسك بين يديك قلوب الملوك، افتح قلب الملك حتى أصب فيه من الخير ما تشاء أنت سبحانك. أو عزني أن أسعده وأسره وأواسيه وأشجعه، بل حتى أن أزعه وأطلب عليه الحزن إذا اقتضى الأمر تمجيداً لك. هيئ لي ألا أخفي عنه شيئاً يجدر أن يعلمه مني، مما لا يجد الآخرون في أنفسهم الشجاعة ليبلغوه إياه. هيئ لي أن أنقذ نفسي وأنقذه معي، وأن أحبه فيك ومن أجلك يا إلهي. وهيئ له أن يحبني بنفس الطريقة. هب لنا أن نسير معاً في ملكوتك دون لوم أو خزي حتى يوم قدومك (4).

وهذا الدعاء جميل قدر جمال أية رسالة من ألواز إلى أيبيلارد، ونأمل أن يكون أصح وأصدق. ومثل هذا الدعاء يمكن أن يمنح القوة، بصرف النظر عن أية استجابة خارجية، وربما كانت ثمرة إرادة خفية للسيطرة والسلطة في ثنايا الرغبة في إصلاح الآخرين وهدايتهم، ولكن السنوات الباقية من عمر ميننتون أثبتت أصدق تقواها وضيق أفق هذه النقوى معاً. يقول سان سيمون "لقد وجدت ملكاً يعتقد في نفسه أنه رسول أو حوارى لأنه طيلة حياته يضطهد الجانسينة.... وهذا أوحى إليها بنوع الحب الذي تبذر به الحقل لتجني أعظم حصاد (5)". (عرفت من أين تؤكل الكتف).

هو شجعت مينتون على اضهاد الهجونوت؟ وهكذا يظن سان سيمون(6)، ولكن التحقيقات اللاحقة تميل إلى تبرئتها من هذه الوحشية التي كان بطلها عدوها اللود لوفوا. ورأى فيها لورد أكتون، وهو مؤرخ كاثوليكي، نادراً ما كان مناصراً للكاثوليكية:
أعظم امرأة ثقافة وتفكيراً وإدراكاً. وكانت بروتستانتية من قبل. واحتفظت لأمد طويل بحماسة المرتدة وغيرتها.
وكانت تعارض الجانسية معارضة شديدة، وكانت تحظى بثقة أفضل رجال الدين إلى حد كبير، وساد

صفحة رقم : 11524

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> مدام دي مينتون

الاعتقاد بأنها شجعت الاضطهاد وحرضت الملك على إلغاء مرسوم نانتي. وأبرزت رسائلها شواهد على ذلك. ولكن رسائلها كانت قد حرفت بواسطة محرر كان مزيفاً مشوهاً(7).
أن مينتون مثل فنيلون، ومام دي سفيني ومعظم الكاثوليك في ذلك العصر. أقرت إلغاء مرسوم نانتي، ولكنها استخدمت نفوذها بنجاح غالباً، كما يروي البروتستانت ميشيليه في وقف قساوة الاضطهاد أو الحد منها(8).
وحتى لا تطغي النزعة الرومانتيكية على إضفاء المثالية على المرأة، فتلون الصورة بألوان وردية زاهية، فلننظر إلى المركزية من خلال آراء أخرى فيها تحامل عليها. أن كبرياء سان سيمون النابعة من لقب الدوق أو الدوقة، لم تكن لتغفر صعود البرجوازية الوضيعة إلى مرتبة سيده فرنسا:
أن العوز والفقر اللذين عاشت في براتهما لفترة طويلة قد ضيقا من أفق تفكيرها، وهبطا إلى الحضيض بقلبها وعواطفها. أن مشاعرها وأفكارها كانت محدودة، إلى درجة أنها كانت دائماً في الحقيقة أقل حتى من مدام سكارون...
وليس ثمة شيء أشد إثارة للنفور والاشمئزاز من منبت وضيع ينبؤ مكاناً متألماً إلى هذا الحد(9).
ولكن الدوق نفسه وجد بعض المزايا والفضائل وسط أخطائها وعيوبها:

صفحة رقم : 11525

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> مدام دي مينتون

كانت مدام دي مينتون امرأة على جانب كبير من الذكاء الذي احتملته الرفقة الطيبة التي عاشت بين ظهرانيها أولاً، ولكن تألفت فيها سريعاً، وصقلتها كثيراً وزودتها بزينة المعرفة الدنيوية، التي جعلتها الكياسة البالغة من أكثر ألوان المعرفة استساغة وقبولاً. وجعلتها المناصب المختلفة التي شغلتها ماهرة متململة راضية تسعى دائماً إلى إرضاء الناس. أن حاجتها إلى الدانس، وأولئك الذين النقت بهم من كل الأنماط، واختلطت بهم من أجل شخصها ومن أجل الآخرين، أضفوا عليها ذوقهم وعاداتهم. أن كياسة لا تضاهي وسلوكاً هيناً ليناً رضيعاً، ولكنه كدروس، يدعو إلى الاحترام، وكأنه نتيجة لطول خمول ذكرها قد أصبح أمراً طبيعياً بالنسبة لها، كل أولئك ساعد على تنمية مواهبها

بشكل عجيب، إلى جانب لغة مهذبة محكمة حسنة للتعبير، فصيحة موجزة بشكل طبيعي. أما أسعد أيامها، حيث كانت تكبر الملك بثلاث أو أربع سنوات، فكانت فترة التودد ومطارحة الغرام والمغازلة الرقيقة.... وبعدها أحاطت نفسها بهالة من الأهمية وجلال الشأن. وتقلص ظل هذه تدريجياً لتحل محلها هالة من التقوى أحاطت بها نفسها بطريقة تدعو إلى الإعجاب. ولم تكن نزاعة إلى الخداع والغدر، ولكن الحاجة ألجأتها إلى أن تكون كذلك. وجعلها طيشها الطبيعي تبدو مخادعة ضعف ما هي عليه في حقيقة الأمر (10).
وأثار بعد الشقة في نفس ماکولي شيئاً من الشفقة، فنظر إلى مدام دي ميننتون نظرة أكثر اتساماً بالشهامة والاحترام، وربما أحس بأنه يمكن أن يغتفر الكثير لسيدة كانت "تمتاز بالفصاحة والإيجاز معاً":
أنها حين جذبت انتباه مليكها، لم تكن في وضع تستطيع معه أن تنتبه عجباً بشبابها أو بجمالها، ولكنها، وبدرجة غير عادية، كانت تتمتع بتلك المفاتن الأبقى على الزمن، والتي يقدرها أعظم التقدير الرجال الذين يتحلون بحسن

صفحة رقم : 11526

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> مدام دي ميننتون

الإدراك في شريكة الحياة... كانت دي ميننتون تتميز بعقل منصف، ومعين لا ينضب، ولكنه غير ممل إطلاقاً، من حديث عقلاني رقيق مرح، ومزاج لا يتكدر صفوه أبداً، ولباقة فاقت لباقة بنات جنسها، بقدر ما فاقت لباقة جنسها لباقة جنسنا نحن. تلك هي المناقب التي جعلت من أرملة المهرج في أول الأمر صديقة جديرة بالثقة، ثم زوجة لأقوى ملوك أوروبا وأكثرهم غطرسة وغروراً (11).

وأخيراً نراها من خلال قلم هنري مارتن، وهو مؤرخ فرنسي غير مشهود له بالبراعة كثيراً:
كان ثمة توافق في الذهن والطباع بين الاثنين (المركيزة والملك)، وهو توافق قدر له أن يزداد على مر الأيام، كما أن جمالها الناعم المتناسق الرزين الذي زاد منه وقار طبيعي نادر، كان هو الجمال الذي يرضي لويس أساساً. وأحببت هي التأمل والبحث، وأحب هو العظمة والمجد. وكانت مثله متحفظة حذرة، ومع ذلك تفيض جاذبية ورقة. ولحديثها نفس السحر والفتنة، اللتين دعمتهما طويلاً بفضل خيال أخصب وتعليم ذي جوانب أكثر تعدداً. وكانت ذات شخصية تتميز بالأنانية واتخاذ التدابير القوية، ومع ذلك كانت أهلاً لعواطف متينة ثابتة وإن لم تكن حارة، وكانت في نفس الوقت أقل انفعالاً وأشد ثباتاً من الملك الذي لم يكن مخلصاً حقاً في الصداقة وفي الحب، إلا لها وحدها. ولكنها لم تعرف قط بم تضحي من أجل عواطفها، بمصالحها أو بهدونها، وعلى النقيض من لويس الرابع عشر، كانت تهتم بالبسيط من الأمور، ولا تتسامح في عظائمها. أن طبيعتها الهادئة المفطورة على التأمل والتفكير، البعيدة عن الانفعالات والأوهام، ساعدتها على الدفاع عن الفضيلة غالباً كانت محصورة (12).

ومهما يكن من أمر، فلا بد أن هذه السيدة تحلت بمناقب جديرة بالإعجاب، حدث بملك مستبد إلى أن يختارها زوجة له، وبعهد إليها بالنظر في أدق شئون الدولة. وكان عادة يلتقي بوزرائه في حجرتها الخاصة، تحت سمعها وبصرها، وعلى الرغم من أنها كانت تجلس

صفحة رقم : 11527

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> مدام دي ميننتون

على مسافة معقولة منهم، تلتزم الصمت، حكمة وحزماً منها، منهكة في أشغال الإبرة، كان لويس "أحياناً يتجه إليها ويسألها رأياً(13)" وأطلق عليها المنشكون "سيدة اللحظات الراهنة" مقدرين أنها لن تلبث حتى ينضم إليها المنافسات أو يجلبنها عن مكانتها ليحللن محلها، ولكن على النقيض من ذلك، ظل الملك الزوج المحب الوفي لها حتى وفاته.

وعظم نفوذها عاماً بعد عام. وكان مقروناً بالخير والإحسان قدر ما سمحت به تقواها. وحاولت أن تحد من إسراف الملك وتبذيره، وأن تصرفه عن الحرب. ومن هنا كان عداؤ لوفوا لها. ووفرت دي ميننتون إعانات ملكية للصدقات والمستشفيات والأديار، ومساعدة النبلاء المفلسين، ومهور البنات(14) ولم يحظ بالترشيح للوظائف من جانبها إلا الكاثوليك الأخير، وكست التماثيل العارية والصور الزيتية العادية التي ازدان بها قصر فرساي بالأستار أو النباتات المعترشة(15). وحولت كنيسة سان سير إلى دير (1693) أغلقت أبوابه بعد ذلك أمام العالم. وأصبحت هي نفسها راهبة في قصر، "كانت قعيدة القصر تقضي الساعات وحيدة، ومن ثم بدت وكأن لها قدماً في الدير(16)". وبدأ الملك بالسخرية من تقواها، وانتهى بتقليدها في هذا التواضع. وابتهج القساوسة المحيطون به ليروا مداومته على تأدية طقوس العبادة، ولكن زوجته كانت تفهمه فهماً جيداً، فقالت "أن الملك لا يخطأ موضعاً في الصليب، أو موقفاً للكفارة أبداً، ولكنه لا يستطيع أن يدرك الحاجة إلى الخشوع أو إلى إذلال نفسه حتى تتجلى فيه الروح الحقيقية للتوبة والندم(17)". وكان البابا اسكندر الثامن راضياً على أية حال، وهنا مدام دي ميننتون على هداية الرجل الفرنسي الذي كان يوماً معادياً للبابوية، وربما زاد من تقوى الملك اعتلال صحته وضعف جسمه بعد 1680، ومعاناته من ناسور في الشرج، حيث ذكره هذا كله بأنه فان. وفي 18 نوفمبر 1686 استسلم لعملية أليمة، احتملها في شجاعة أملاها عليه وعيه الطبيقي أو إدراكه أنه ملك لا ينبغي أن يخور أو يضعف. ولفترة من الوقت ابتهج الائتلاف المعادي لفرنسا للشائعات التي راجت بأنه على وشك أن يقضي نحبه(18). ولكنه بقي على قيد الحياة. وعندما قصد كنيسة نوتردام (30 يناير

صفحة رقم : 11528

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> مدام دي ميننتون

(1687) ليقدم الشكر لله على شفائه، حيث كل فرنسا الكاثوليكية وابتهجت لإبلاله من مرضه وكأنه يوم عيد. قال فولتير "ومنذ ذلك الوقت لم يذهب الملك إلى المسرح قط(19)، أن المرح المقرون بالوقار والعظمة، والذي كان يميز النصف الأول من حكمه، وقد ولى ليحل محله وقار ورزاة قاربنا أحياناً الصرامة القاتمة والتزمت، ولكنه سمح بين الحين والحين بشيء من الإفراط في النوم والطعام(20). وقد أضناه الإرهاق والتعب، وحيث شجعته ميننتون، فإنه أنقص من حفلات البلاط وعروضه، وأوى إلى حياة أكثر انعزلاً، قانعاً بألفة الحياة الأسرية التي عودته إياها زوجته. وظل مسرفاً في الإنفاق على القصور والحدائق، وظل مزهواً أليماً مثل صولجانته، حساساً مثل فكيه. وفي مارس 1686 أجاز لرجل متدلل خنوع من رجال الحاشية، فرنسوا دي أوبيسون دوق دي لا فياد فيما بعد، أن يقيم له في "ميدان الانتصارات" تمثالاً يرمز إلى أنه "الرجل الخالد". على أننا يجب أن نضيف أنه عندما أراد أوبيسون أن يضع، وفاء بنذر، أمام التمثال مصباحاً يضاء ليل نهار، حظر عليه الملك افتراض الألوهية والقداسة بهذا الشكل المبتسر غير الجائز.

وضربت جماعة محدودة من الأرسقراطيين المخلصين، على رأسهم دوق ودوقة شفريز، ودوقتي بوفليير ومورتمار، وبنات كولبير الثلاث، ضربت حول الملك وزوجته "نطاقاً كريماً من الأتقياء" وكان كثير منهم متمسكين بأهداب الدين حقاً، كما نقل بعضهم عن مدام جويون طمأنينتها المتصوفة. وحوالي هذا الوقت ألف شاعر فرنسي غير معروف الترنيمة الذائعة الصيت والمعروفة باسم "المؤمنون الأخيار" وشارك بقية أفراد البلاط، الملك مزاجه الجديد، ظاهرياً فقط. وتخلوا عن اللهو والعبث، وكثيراً ما حضروا القداس وتناولوا القربان المقدس، وقل شيئاً فشيئاً ذهبهم إلى الأوبرا والمسرح اللذين هبطا آنذاك بسرعة من عليائهما على عهد للي ومليير، واستمر الصيد والقنص والمآدب الباذخة وحفلات الرقص، ولعب الورق بمبالغ ضخمة، ولكن في جو من الاعتدال تشوبه مسحة من الكآبة. وأخفى المعربدون الصاخبون والمفكرون الأحرار في باريس رؤوسهم، انتظاراً للنار في ظل وصي

صفحة رقم : 11529

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> مدام دي مينتون

يرقبون مجيئه بفارغ الصبر. ولكن شعب فرنسا ابتهج لقداسة مليكه، واحتمل الصمت، في الموت وفي الضرائب، أعباء الحرب المتزايدة.

صفحة رقم : 11530

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

2- الحلف الأعظم

1689 - 1697

زادت الضرائب حتى بعد هبوط مستوى الرخاء والازدهار. وكان مشروع كولبير لتنظيم التجارة والصناعة بواسطة الحكومة، قد بدأ ينهار قبل موته (1683). لقد مات المشروع، من ناحية نتيجة لسوق الرجال من المزارع والمصانع إلى المعسكرات وميادين القتال، ولكنه انهار أساساً نتيجة الاختناق الذاتي: ذلك أن التنظيمات الحكومية عوقت النمو

الذي كان يمكن أن يوتي ثماره في ظل رقابة وقيود أخف، وفي ظل مزيد من الحرية للتنفس والتجريب والخطأ. ووجد حب العمل والمغامرة أنه مقيد بمتاهة من الأوامر والعقوبات. وضجت وتعثرت الكثرة من الناس والجشع المبدع الخلاق عند فئة قليلة منهم، تحت ضغط عبء ثقيل من القواعد، حتى هددت هذه الآلة بالتوقف. وما وافى عام 1685 حتى ترددت صيحة "أتركه يعمل"، قبل ظهور فرانسوا كسانتي وترجو بخمسة وستين عاماً، وقبل ظهور آدم سميث بواحد وتسعين عاماً. وقال أحد أتباع لويس الرابع عشر "أن السر الأعظم يكمن في الطلاق الحرة الكاملة للتجارة. أن أصحاب المصانع لم يصابوا قط بمثل هذا الخراب والدمار في هذه المملكة إلا منذ فكرنا أن ندعمهم بقوانين من الدولة(21)". وثمة عوامل أخرى أسهمت في هذا الانهيار. وذلك أن الهيجونوت الذين فروا من الاضطهاد، حملوا معهم مهاراتهم الاقتصادية، وفي بعض الأحيان مدخراتهم أيضاً. وعانت التجارة من رغبة الملك في الغزو والفتح، لا الاتجار. ووقفت الرسوم الأجنبية صادرات فرنسا انتقاماً من رسوم الواردات الفرنسية. وأثبت الإنجليز والهولنديون أنهم رجال بحر واستعمار من الغالبيين (الفرنسيين) المتعطرسين النافذي الصبر. وأخفقت شركة الهند، ووقفت الضرائب الزراعية. وأفسدت العملة المزيفة مرفق المال، وثلت حركته وأحدثت فيه الاضطراب.

صفحة رقم : 11531

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين الوزراء الذين حملوا لويس الرابع عشر بعد وفاة كولبير. وبين أولئك الذين ورثهم عن ريشليو ومازاران. وتولى ابن كولبير، جان بابتيست، مركز سينلي وزارتي التجارة والبحرية، وتولى كلود بلنتيه الشؤون المالية، ولكن سرعان ما خلفه فيها لويس فيليبو سنيور دي بونتشارتران. أما لوفوا فقد بقي وزيراً للحربية. ولكن أذهب الوزراء الجدد ما جمع لويس الرابع عشر من مجد وسلطان، فقعد بهم الخوف عن اتخاذ أي قرار، واعتمد دولايب الحكومة على ذهن الملك المكود المرهق. ولم يكن يتصرف بمحض إرادته إلا لوفوا، من أجل الحرب ضد الهيجونوت، وضد الأراضي الوطيئة، وضد أي أمير أو شعب اعترض طريق فرنسا المتوسعة. وكان لوفوا قد أنشأ أحسن جيش في أوروبا، ودربه على النظام والانضباط والبسالة، وزوده بأحدث الأسلحة، وعلمه الفن الرشيق في استخدام الحراب. فكيف يتيسر إطعام مثل هذه القوات والمحافظة على روحها المعنوية إلا إذا حاربت وانتصرت؟

ونظرت فرنسا إلى الجيش بعين الإعجاب والفخر، على حين استشاطت أوروبا غضباً وارتعدت فزعاً لدى سماعها به. وفي مايو 1685، عندما طالب لويس الرابع عشر بجزء من أملاك ناخب البالاتين، ميراثاً يستحقه عن أخت الناخب المتوفاة شارلوت اليزابيث، دوقة أورليان آنذاك، تساءل أمراء الإمبراطور عجباً: ماذا عسى أن تكون كطالب الملك المغامر المعتدي بعد ذلك. وزادت حدة التوتر عندما ربط لويس بالفعل، كولون وهدشيم ومنستر بفرنسا، بضمن انتخاب مرشحيه حكماً أسقفين لهذه البلاد (1686). وفي 6 يولييه انضم الإمبراطور الكاثوليكي ليوبولد الأول، والناخب الكاثوليكي مكسيمليان الثاني وأمانويل أمير بافاريا، إلى ناخب براندنبرج الأعظم البروتستانتي، وفي تكوين عصابة أوجزبرج للدفاع ضد أي هجوم على أراضيهم أو عدوان على دولهم، وكان الإمبراطور مشغولاً مع الأترك

صفحة رقم : 11532

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

المتقهقرين، ولكن هزيمتهم في "موهاكز" الثانية (1687) وفي بلغراد (1688) أطلقت يد القوات الإمبراطورية للعمل على الجبهة الغربية للإمبراطورية.

وارتكب ملك فرنسا آنذاك أكبر خطأ في سجل حياته العسكرية. وكان حاكم هولندا يتوقع منه أن يجدد هجومه على هولندا، ولكن لويس، بدلاً من ذلك، قرر غزو ألمانيا قبل أن تتمكن القوات الإمبراطورية من الاحتشاد على جبهته. وفي 22 ديسمبر 1688 تقدمت قواته الرئيسية نحو الراين. ومع توجيه خاص متميز إلى الدوفين ذي السبعة والعشرين ربيعاً: "أي بني، إنني إذ أبعث بك لتتولى إمرة جيوشي، إنما أهيبك لك كل الفرص لتثبت جدارتك، فاكشف عنها لكل أوروبا، حتى إذا حان أجلي، لا يشعر أحد بأن الملك قد قضى نحبه(23)". وفي 25 سبتمبر اجتاحت الجيش الفرنسي ألمانيا. وفي غضون شهر واحد استولى على كايزرسلوترن، ونيوستاد، وورمز وبنجن ومينز وهيدلبرج. وفي 29 أكتوبر سقطت قلعة فيليبسبرج المنيع، وفي 4 نوفمبر تقدم الدوفين المنتصر لمهاجمة مانهيم. وربما كان في هذه الانتصارات بداية سقوط الملك، لأنها ورطت الملك في حرب طويلة الأجل ضد عدد متزايد من العداء، لقد حرروا هولندا من الخوف من غزو مبكر، وأقنعوا برلمان المقاطعات المتحدة بالموافقة على أن يغزو وليم الثالث إنجلترا ويعاونه على أعمال الغزو. وما أن وثق وليم من قوته حتى حول إنجلترا من بلد تابع لفرنسا إلى عدو لها. وعاهد رعاياه الجدد على الوقوف إلى جانبهم في الدفاع عن أوروبا السياسية والدينية. وتردد برلمان إنجلترا، مرتاباً في أن وليم معني في الدرجة الأولى بإنقاذ هولندا، وهي أكبر منافس تجاري لإنجلترا، ولكن انتصارات فرنسا قوت من جديد حجة وليم.

وكان لوفوا قد استحث لويس على السماح له باكتساح البالاتينات وتخريبها حتى يحرم العدو المقرب من أية معونة محلية، ووافق لويس على كره منه. وفي مارس 1689 أعمل الجيش الفرنسي السلب والنهب وأحرق هيدلبرج ومانهيم ثم سبير، وورمز وأوينهايم وأجزاء من أسقفية تريبه ومنطقة بادن، حتى دمرت كل أراضي الراين الألمانية

صفحة رقم : 11533

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

تقريباً. ووصف فولتير هذه الفظائع حيث استيقظ فيه ضمير "الرجل الأوربي الطيب":
كنا في قلب الشتاء. وما كان ينبغي للقواد الفرنسيين إلا أن يمتثلوا وبناء على ذلك أعلنوا لمواطني هذه المدن المزدهرة المنظمة أحسن نظام، ولسكان القرى، ولأصحاب أكثر من خمسين قصراً، أن عليهم أن يغادروا مساكنهم التي سيعملون فيها النار والسيف، فأسرع الرجال والنساء والشيوخ والأطفال إلى الرحيل. وهام بعضهم على وجوههم في الريف، والتمس بعضهم مأوى في الأراضي المجاورة، على حين نهب الجنود المنطقة وأحرقوها، وبدعوا بمدنيتي هيدلبرج ومانهيم، ومقار الناخبين، ودمرت قصورهم وبيوت المواطنين العاديين على السواء. وللمرة الثانية اجتاحت جيوش لويس الرابع عشر هذه البلاد الجميلة وخربتها. ولكن السنة النيران في المدينتين والعشرين قرية التي أحرقها تورين عندما اجتاحت البالاتينات 1674، كانت شيئاً لا يذكر أو شرراً بسيطاً إلى جانب الحرائق في هذه المرة(24).
وتعالت الصيحات تطالب بالانتقام من ملك فرنسا في كل أنحاء ألمانيا والأراضي الوطينة وإنجلترا ووصم الكتاب الألمان الجنود الفرنسيين بأنهم متوحشون (هون) مجردون من أية مشاعر إنسانية. ونعنوا لويس بأنه مسخ كافر مجدف همجي بالغ الهمجية. وعير المؤرخون الألمان الشعب الفرنسي بأنه تلقى حضارته من الفرنجة (أي الألمان)

وأنة نقل جامعاته عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة (أي الألمان كذلك)(25). وكان بيير جوريرو، أحد المنفيين في هولندا قد نشر هناك لفوره نقداً ساخراً عنيفاً تحت عنوان "منظر فرنسا المستعبدة"، ودمغ فيه لويس بأنه طاغية شديد التعصب، وأهاب بالشعب الفرنسي أن يطيح به، ويشكل ملكية دستورية. وردت الصحافة الفرنسية بتوجيه النداء إلى المواطنين ليفذفوا بهذه الشتائم فيوجه العدو، ويهبوا إلى إنقاذ مليكهم الشجاع المحبوب المحاصر. وفي 12 مايو 1689 انضمت إنجلترا إلى الإمبراطورية وأسبانيا والمقاطعات

صفحة رقم : 11534

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

المتحدة والدنمرك وسافوي، في الحلف العظم الأول، الذي تعهد بالدفاع عن أي من أعضائه ضد أي عدوان خارجي. وكانت الحرب آنذاك حرب أوروبا ضد فرنسا.

فكان جواب لويس على ذلك أنه زاد عدد جنوده إلى أربعمائة وخمسين ألفاً، وبحريته إلى مائة ألف، ولم تشهد أوروبا قط من قبل مثل هذه القوات المسلحة. وصهر الملك كل ما لديه من أدوات فضية ليعاون الضرائب على دفع نفقات هذه الحشود الضخمة، وأصدر أوامره إلى كل الأفراد المرموقين وإلى كثير من الكنائس ليفعلوا مثل ما فعل، وأجاز ليويننتشارتران أن يعيد سك الفضة وينقص قيمة العملة بمقدار 10%. وخلق الوزير مناصب جديدة، وأعاد وظائف قديمة كانت قد ألغيت، وباعها لطلاب الوظائف المفتونين بالألقاب، وقال للملك: "كلما خلقتم جلالتم وظيفة خلق الله مغفلاً يشترها(26)".

وأشار سينلي على الملك بأن يأمر أسطوله بسلخ إيرلندا عن إنجلترا. وكان من الجائز أن يتم ذلك، ففي 30 يونيو 1690 هزم أمير البحر تورفيل بخمس وسبعين سفينة، أسطولا إنجليزياً وهولندياً في بيتشي هيد بالقرب من شاطئ سسكس الغربي. ولكن لويس لم يرسل سوى ألفي جندي لمساندة جيمس الثاني في إيرلندا. وكان من المحتمل أن تكسب قوة أكبر معركة بوين (أول يولييه 1690)، وأن تشغل إنجلترا ومليكها الهولندي في إيرلندا، إلى حد يصعب معه الاشتراك في القتال في القارة. ولكن انتصار وليم الثالث مكنه من الذهاب إلى هولندا ليقود قوات إنجليزية وهولندية ضد الفرنسيين (1691)، وحاول لويس في 1692 غزو إنجلترا، وصدرت الأوامر إلى أسطول في تولون بالإبحار شمالاً لينضم إلى أسطول تحت إمرة تورفيل في برست وكان عليهما أن يقضيا على كل مقاومة من جانب الإنجليز، ويحملا ثلاثين ألف جندي عبر القتال الإنجليزي. ولكن عاصفة في جبل طارق عطلت مسيرة أسطول طولون، فأخفق في اللحاق بتورفيل الذي كان عليه أن يواجه وحده الأسطولين الإنجليزي والهولندي مجتمعين، وهزم في التحام حاسم عند لاهوج بالقرب من شربورج (19 مايو 1692). وتوقف غزو إنجلترا. وظلت إنجلترا سيدة البحار بعد هذه المعركة، ومطلقة اليد في الاستيلاء على مستعمرات

صفحة رقم : 11535

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

فرنسا الواحدة تلو الأخرى. وحمل القتال إنجلترا حتى يومنا هذا. وتابع الفرنسيون انتصارهم في البر، ولكن بأبهض التكاليف في العتاد والرجال. وفي إبريل 1691 استبد بهم الزهو والغرور إلى حد الجنون أمام مليكهم حين حاصروا واستولوا على هونز الحصينة. وقضى لوفوا نحبه في 7 يولييه، ولكن الملك لم يأسف كثيراً على تخليصه من وزير حربيته الذي كان ينتهج سياسة العدوان، ورأى منذ ذلك الوقت أن يتولى توجيه السياسة العسكرية بنفسه. واتبع تقليداً فرنسياً قديماً حين عهد بمنصب لوفوا إلى ابنه، وكان شاباً لطيفاً سهل الانقياد في الرابعة والعشرين من العمر مركيز باربيزييه. وفي يونيه 1692 قاد لويس قواته بنفسه للاستيلاء على نامور. ثم ترك القيادة لدوق دي لكسمبرج وعاد ليرشف خمره والمجد والنصر في فرساي. وفاجأ وليم الثلاث الدوق في ستينرك في يولييه، ودارت الدائرة على الفرنسيين في أول الأمر، ولكنهم أعادوا تنظيم صفوفهم واستعادوا شجاعتهم بفضل توجيه قائدهم الذي كان قدوة حسنة لهم، وكان مريضاً ولكنه كان لا يقهر، فكانت الغلبة للفرنسيين مرة أخرى، ولو لأنهم حققوا بثمن غال، وهناك قاتل في طليعة الجيش فيليب الثاني دي أورليان الوصي على عرش فرنسا في المستقبل، والذي لم يبلغ آنذاك الخامسة عشرة من العمر، فأصيب بجرح ثم عاد فاستأنف القتال. وهناك أظهر لويس الشاب، ودوق دي بوربون كونديه (حفيد كونديه الأكبر) الذي عرك الحرب في ثلاثة حصارات، وفرنسا لويس دي بوربون وأمير كونتي، ولويس جوزيف دوق فندوم (ابن حفيد هنري الرابع) وكثير غيرهم من نبلاء الفرنسيين-أظهر هؤلاء جميعاً من ضروب البسالة والشجاعة والشهامة ما جعلهم، على الرغم من حياتهم المترفة الخاملة زمن السلم، معبودات في نظر شعبهم زمن الحرب، ونماذج حتى لأعدائهم، حتى لقد تساءل متعجباً أحد أسراهم وهو الكونت سالم: "أية أمة أنتم: أشد الأعداء بأساً ورهبة في الحرب، وأكرم الأصدقاء عند النصر(27)".

وبعد ذلك بعام واحد هزم نفس الجيش تحت إمرة نفس القائد، وليم في نيروندين بالقرب من بروكسل، وهنا أيضاً كان عدد القتلى ضخماً(0عشرون ألفاً من الحلفاء وثمانية آلاف من الفرنسيين. ومهما

صفحة رقم : 11536

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

يكن من أمر الهزائم التي مني بها وليم، فإنه ظهر على رأس جيش جديد وتوافرت لديه أموال جديدة. فاسترد نامور في أغسطس 1694، واكتشفت فرنسا أنها بعد خمس سنوات أريققت فيها الدماء، عجزت عن غزو حتى الأراضي الوطية الأسبانية. وانتصرت جيوش فرنسية أخرى في أسبانيا، ولكنها وجدت من العسير عليها الاحتفاظ بثمرات انتصاراتها أمام أعداء خرجوا عليها من كل جانب، وقد استكملوا ما ظهر لديهم من نقص في العتاد والرجال، وفي يولييه 1694 أبحر أسطول إنجليزي لمهاجمة برست. وكان بعض الأصدقاء في إنجلترا (من بينهم كما يقال مالبرو نفسه(28)) قد أبلغوا جيمس الثاني عن هذه الخطة سراً، ومن ثم فإن الفرنسيين الذين أذروا بها من قبل، نصبوا المدافع على الشاطئ عند برست، وصدوا الإنجليز عنها بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. وفي يناير 1695 قضى مارشال دي لوكسمبرج نحبه، فلم يعد مع لويس الرابع عشر إلا قواد من الدرجة الثانية، أن الحلفاء نادراً ما وطئت أقدامهم أرض فرنسا، ولكن فرنسا نفسها كانت تحس بوطأة حرب من نوع جديد، لم يكن يحارب فيها مرتزقة مأجورون، بل أمم بأسرها جندت ليناكس بعضها بعضاً في القتل والتكليل. وحتى في الوقت الذي كان الشعب الفرنسي يهتف لقواده وأبطاله ويهلل لهم ويحي انتصاراتهم، فإنه، وقد أثقلت الضرائب كاهله بشكل لم يسبق له مثيل، قارب حد الاستنزاف جسداً وروحاً. وانضم القحط إلى الفقر والعوز في 1694 فكان ضغناً على إبالة.

وفي أبرشية واحدة مات 450 شخصاً جوعاً (29) وكان الاقتصاد القومي على شفا الانهيار. وعمت الفوضى وسائل النقل، حيث توقف تقريباً إصلاح الجسور والطرق أثناء الحرب. واختنقت التجارة الداخلة نتيجة المكوس التي كانت تجبي في مائة موقع عبر الأنهار أو في البر. وكانت التجارة الخارجية قد شلت حركتها نتيجة لرسوم الصادرات والواردات. وكادت الآن تكون متعذرة تماماً لوجود أساطيل الأعداء والقرصان. وساعت أحوال أولئك الذين كانوا يعتمدون على صيد الأسماك والتجارة على الشواطئ. ونضبت موارد منات من المدن بما كانت تقدم من معونة ومؤونة للفرق العسكرية التي تنزل بها، وهبط الفقر والقحط والمرض والحرب بعدد سكان فرنسا من نحو 23

صفحة رقم : 11537

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

مليوناً في 1670 إلى نحو 19 مليوناً في 1700 (30). وفقدت محافظة تورين ربع سكانها. ولم يبق من سكان العاصمة تور إلا 33 ألفاً من 80 ألفاً كانوا يقطنونها في عهد كولبير. وهاك نموذجاً من تقارير المحافظين والحكام من مختلف أقاليم فرنسا في أحرىات القرن السابع عشر:

أن هذه المدينة التي كانت ف يسابق أيامها غنية مزدهرة، باتت الآن بلا صناعة... وكان في هذا الإقليم مصانع كثيرة، ولكنها اليوم هجرت.... وكانت الأرض تدر في سابق الأيام أكثر مما تفعل الآن، ومنذ عشرين عاماً كانت الزراعة أكثر ازدهاراً بشكل غير محدود. وتناقص السكان بمقدار الخمس في السنين الثلاثين الأخيرة (31)...

وفي 1694 وجه فنيلون، الذي سيصبح عما قريب رئيس أساقفة كمبراي، إلى لويس الرابع عشر خطاباً غفلاً من التوقيع، يعد أبلغ تعبير عن الروح الفرنسية:

مولاي، أن هذا الذي يسمح لنفسه أن يكتب إليك هذه الرسالة، ليس له مصلحة دنيوية، ولا يكتب بدافع اليأس ولا الطمع، ولا بدافع الرغبة في التدخل في أمهات المسائل. أنه يحبك دون أن يكون معروفاً لديك، ويرى الله في شخصك.... أنه لا يبالي بأي أذى يحتمله عن طيب خاطر، في سبيل إدراكك للحقائق الضرورية لخالصك. ولا تدهش إذا وجه إليك حديثاً شديد اللهجة، فما ذاك إلا لأن الحق حر وفوي، ولو أنك لم تألف سماعه. ويخطئ الذين تعودوا الملق والنفاق، فيظنون الحق الصراح الخالص استيئاً أو مرارة أو إفراطاً ومبالغاً. وقد يكون خيانة للحق أن نحجبه عنك. والله خير شاهد على أن الذي يحدثك الآن، إنما يفعل ذلك بقلب عامر بالغيرة والحماسة وبالإجلال والثقة والإخلاص، لكل ما فيه مصلحتك الحقيقية...

أن كبار وزرائك، طيلة الثلاثين عاماً الماضية، قلبوا المبادئ الأساسية والقواعد العامة في الدولة، حتى يرفعوا

صفحة رقم : 11538

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

من شأنك ويزيدوا من سلطانك إلى أقصى حد، لأن هذه السلطة كانت في أيديهم. ولم يرتفع صوت بالكلام عن الدولة وقوانينها، بل تحدث الجميع عن الملك ووسائل إرضائه. وزادوا في مواردك وفي نفقاتك بغير حدود، أنهم رفعوك إلى السماءين حتى تمحو، كما يقولوا، آثار عظمة أسلافك مجتمعين. ولكنهم في الواقع أفقروا فرنسا بأسرها، ليمتعوا البلاط بترف رهيب لا شفاء منه. أن هؤلاء الوزراء أرادوا أن يرفعوك على أنقاض كل طبقة في الدولة، وكأنما يمكن أن تكون عظيماً حين تدمر كل رعاياك الذين يعتمد عليهم مجدك وعظمتك. إنك حقاً حريص على الاحتفاظ بسلطانك.. ولكن الواقع أن كل وزير سيد متصرف في نطاق اختصاصه، وكانوا قساة متعطرسين ظالمين غلاظاً ضعيفي الإيمان. ولم يعرفوا في الشؤون الداخلية والخارجية إلا مبدأ واحداً، هو التهديد والوعيد، أو القضاء على كل ما يقف في طريقهم وتدميره. لقد عودوك على أن تتلقى دوماً أعظم المدح والثناء، مما يقارب عبادة الأوثان تأليهاً لك، ما كان يجدر بك أن تأباه سخطاً وازدراء، من أجل شرفك وكرامتك أنت. ولقد جعلوا اسمك كريهاً بغيضاً. والأمة الفرنسية بأسرها غير محتملة لدى الشعوب المجاورة. ولم يحتفظوا بأي من حلفائك القدامى، لأنهم لم يريدوا إلا عبيداً أرقاء. وكانوا طيلة عشرين عاماً، سبباً للحروب الدامية-التي لم يكن من دافع لها إلا المجد والانتقام.... أن كل التوسع الذي أتت به الحروب كان غصباً وظلماً. أنك أردت دوماً أن تلمي الصلح وتقرض الشروط، بدلاً من تسوية الأمور في شيء من الاعتدال. وهذا هو السبب الذي من أجله لم يدم أي صلح طويلاً. ولم يكن أعداؤك الذين هزمتهم ولطختهم بالعار والخزي، يفكرون إلا في شيء واحد، هو أن ينهضوا من جديد، ويوحداً أنفسهم ضدك. هل في هذا ما يدهش؟ أنك لم تتمهل قط في نطاق شروط الصلح التي أمليتها في زهو وخيلاء، وفي زمن السلم قمت بحروب وفتوحات هائلة.. ومثل هذا التصرف

صفحة رقم : 11539

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

أثار كل أوروبا ووحدها ضدك. وفي نفس الوقت، فإن شعبيك الذي كان يجدر بك أن تحبه حبك لأبنائك، والذي ظل حتى هذه اللحظة مخلصاً لك، يموت جوعاً. لقد تخلوا تقريباً عن زراعة الأرض. وهبط عدد السكان في المدن والريف، وانحطت الصناعة فلم تعد تفي بحاجيات العمال. وانهارت التجارة بأسرها. إنك استنزفت نصف ثروة الأمة وحيويتها للقيام بفتوحات عقيمة في الخارج والدفاع عنها. أن كل فرنسا عبارة عن مستشفى ضخم مقفر بائس تنقصه المؤن. والحكام مرهقون محتقرون، وتترايد الثورات الشعبية التي لم نعهدها منذ زمن طويل، ولا يستثنى من ذلك باريس القريبة منك جداً. ولزام على موظفيها أن يحتلموا وقاحة العصاة والتائرين. وينثروا عليهم الأموال ليهدنوا من روعهم. لقد انحط بك الحال إلى النتيجة المؤسفة المخزية، وهي التراخي في عقاب الفتن، وبذلك نتفقم، أو قتل أناسي بلا شفقة ولا رحمة، زرعت أنت في قلوبهم اليأس، حين اختطفت من أفواههم، بفعل ضربية الحرب، الخبز الذي كدحوا للحصول عليه بعرق الجبين.... لقد كان سيف الله مسلطاً فوق رأسك منذ أمد طويل، ولكنه سبحانه تمهل في أن يهوي به عليك، لأنه يرثي لأمير أحيط طيلة حياته بمنمقلين أذلاء، وكذلك لأن أعدائك هم أعداؤه.... أنك لا تحب الله، ولكنك تخافه فقط، خوفاً حقيراً من قبيل التقليد والمحاكاة. ولا تقوم ديانتك إلا على الخرافات، وعلى بعض طقوس تافها سطحية... إنك لا تحب إلا عظمتك ومكاسبك، وترد كل شيء إلى ذاتك، وكأنما أنت إله هذه الأرض، وكأنما خلقت كل الأشياء للتضحية بها من أجلك. ولكن الأمر على النقيض من ذلك، فإن الله قد أقامك في هذه الدنيا من أجل شعبيك....

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

لقد راودنا يا مولاي الأمل في أن يردك مجلسك عن الطريق غير المستقيم. ولكن لم يكن لديه القوة والجرأة. وكان من الجائز أن تستغل مدام دي ميننتون، ومسيو بوفيليه، على الأقل، الثقة التي أوليتها إياها ليمحضاك النصح دون خداع ولا تضليل، ولكن ضعفهما وجبنهما خزي وعار وسية لنا أمام العالم أجمع. وربما تساءلت يا مولاي: ماذا عساهما أن يفعلا... والجواب بأنه كان عليهما أن يرشداك إلى أن نذل وتخضع بين يدي الله القوي القدير، إذا أردت ألا يفرض عليك سبحانه وتعالى الذلة والهوان، وأنه يجدر بك أن تطلب الصلح، وتكفر بهذا الخشوع والتواضع عن العظمة التي جعلت منها معبوداً لك. وأنه من أجل إنقاذ الدولة ينبغي عليك بأسرع ما يمكن أن ترد إلى أعدائك ما لا يحق لك أن تحتفظ به عدلاً وإنصافاً.

مولاي: أن هذا الذي يبسط لك هذه الحقائق، وهو أبعد ما يكون عن الوقوف في وجه مصالحك، مستعد أن يضحي بحياته في سبيل أن يراك كما يريد الله لك أن تكون، ولن يكف عن الدعاء لك والصلاة من أجلك . ولم يجرؤ فنليون على إرسال هذه الرسالة مباشرة إلى الملك، فرتب أمر تسليمها إلى مدام دي ميننتون، وربما كان يأمل في أنها قد تتأثر بها، حتى ولو لم تطلع لويس عليها، باعتبار أن الرسالة تعكس حالة الشعب، فتستخدم السيدة نفوذها من أجل الصلح والسلام، ولكنها حولتها إلى رئيس الأساقفة دي نواي، مع تعليق منها نصه: "لقد أحسن الكاتب، ولكن مثل هذه الحقائق قد تهيج الملك أو تقف في عضده.... وينبغي علينا أن نوجهه برفق في الطريق الذي يجب أن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

يسلكه(33)". وكانت قد كتبت في 1692. "أن الملك يدرك ما يعانيه شعبه، وهو يتلمس كل الوسائل للتخفيف عنه(34)", ومما لا شك فيه أنها كانت تعرف ما كان يمكن أن يرد به الملك على فنيلون: أن مبادئ المسيحية لا يمكن أن تستخدم في إدارة شؤون الدول، وأنه يمكن عدلاً التضحية بجيل من الفرنسيين، إذا كان في هذه التضحية تأمين لمستقبل فرنسا، بفضل حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها، وأن أية محاولة للوصول إلى الصلح والسلام من أعداء متحالفين متعطشين إلى الانتقام، قد تعرض فرنسا للغزو والتمزيق. وإذ وقعت السيدة ميننتون في صراع بين دين الأخوة وبين فلسفة الحرب، فقد كثر ترددها على سان سير، والتمست في رفقة الراهبات الشابات السعادة التي فقدتها في الجاه والسلطان(35).

وقبيل انتهاء الحرب قدم بييرلي بيزان، حاكم بواجلبرت، وقائد المنطقة المحيطة بروان، إلى وزير المالية بونتشارتران مشروعاً لتخفيف الفوضى الاقتصادية والصائفة العامة: "أصغ إلي في شيء من الصبر، إنك ستحسبني أول الأمر مجنوناً، ثم تتبين فيما بعد أنني استحق أن تعيرني انتباهك، وسترضيك آخر الأمر أفكاري". ولكن بونتشارتران سخر منه وطرده. ونشر الحاكم الغاضب مخطوطته المرفوضة بعنوان "مشكلة فرنسا" (1697) واستكرت هذه الرسالة تعدد الضرائب التي يقع العبء الأكبر فيها على عاتق الفقراء، ولا يصيب الأغنياء منها إلا

النزر اليسير، واتهمت الكنيسة بابتزاز الكثير من الأرض والثروة، وأنحى بأشد اللانمة على مديري المال الذين تمتد أصابعهم البغيضة إلى الضرائب التي يجمعونها للملك(36). وأضعف من حجة الرسالة ما جاء بها من مبالغات وإحصاءات غير مدروسة، وآراء خاطئة عن تاريخ الاقتصاد الفرنسي قبل كولبير، ولكن زاد من قيمة الرسالة ما تضمنته من آراء ثاقبة ليست على استعداد لفهما أي حكومة تعودت تقنين كاشيء وتحديده. وكان بواجلبرت من أوائل من رفضوا تضليل "المركنتلية" (نظام اقتصادي قائم على تنظيم حكومي استغلالي صارم)، بأن المعادن النفيسة تشكل في حد ذاتها ثروة، وأن الغرض من التجارة هو تكديس الذهب. وكان من رأيه أن الثروة هي توافر السلع والقدرة على أنتجها، وأن الثروة الأساسية هي الأرض، وأن الفلاح عماد الاقتصاد، وأن دمار هذا الفلاح يعني دمار الجميع، حيث

صفحة رقم : 11542

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

أن كل الطبقات في النهاية، مرتبطة بمجتمع ذي مصالح. وكل منتج مستهلك، وأية فائدة يجنيها بوصفه منتجاً لا بد عاجلاً أو آجلاً أن يفقدها نتيجة لما يلحقه من خسارة باعتباره مستهلكاً. وكان نظام كولبير في التقنين والتحديد، نظاماً خاطئاً، لأنه عوق الإنتاج وسد منافذ التجارة. وأحكم أسلوب هو ترك الناس أحراراً ينتجون ويبيعون ويشتررون، دون قيود في نطاق الدولة، دعوا الطموح وحب الكسب الطبيعيين في الناس يعملان عملهما بحد أدنى من القيود المشروعة. فإنهم حين يتحررون على هذا النحو، سيبتدعون أساليب ومشروعات واستخدامات وأدوات جديدة، وسيضاعفون من خصوبة الأرض، ومنتجات الصناعة، ومدى التجارة ونشاطها، وهذه الزيادة الناتجة في الثروة ستوفر للدولة دخلاً جديداً. ولا بد أن ينشأ عن هذا بعض المظالم والجور، ولكن العملية الاقتصادية ستعالجها جميعاً. وهنا نجد مرة أخرى "اتركه يعمل" قبل أن تبلغ حرية العمل الرأسمالي ذروتها في عالم الغرب، بقرنين من الزمان. وقد يغتفر للملك ووزرائه، إذا أحسوا أن الحرب ضد نصف أوروبا لم تكن وقتاً ملائماً لمحاولة القيام بانقلاب اقتصادي بعيد المدى، فزادوا من الضرائب بدلاً من إصلاح الاقتصاد. وفي 1695 فرضت ضريبة الرعوس، وكان المفروض أن تكون على كل ذكر في فرنسا، وبررها بأنها مؤقتة، ولكنها استمرت حتى 1789. وكان النبلاء ورجال الدين والحكام خاضعين لها من الوجهة النظرية، ولكن من الوجهة العملية اشترى رجال الدين الإعفاء منها نظير إعانة متواضعة، على حين وجد النبلاء والماليون ثغرات في القانون ينفذون منها إلى الإعفاء. ولجئوا إلى كل وسائل الابتزاز المال من الشعب. ونظم "اليانصيب" وبيعت على عقد قروض للدولة. واحتفى الملك نفس برجل من أصحاب المصارف، هو صمويل برنارد، وتقاضى من الملايين بعد أن بهرته هالة العظمة التي أحاط بها الملك نفسه، وفقد وعيه بسحر الملك وفتنته، وعلى الرغم من كل الضرائب ووسائل الابتزاز، قديمها وجديدها. بلغ مجموع دخل الدولة في 1697، 81 مليوناً من الجنيهات، على حين بلغت المصروفات 219 مليوناً.

صفحة رقم : 11543

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1689

واعترف لويس آخر الأمر بأن انتصاراته استنزفت حياة فرنسا، فأصدر أوامره إلى سفرائه ومبعوثيه بمحاولة الوصول إلى تفاهم مع أعدائه. وقد أنقذته براعتهم، إلى حد ما. فأقنعوا دوق سافوي في 1696 بعقد صلح منفرد مع لويس. وسمح بنتاثر الأنباء بأنه سيكف عن تأييده لآل ستيوارت، ويعترف بوليم الثالث ملكاً على إنجلترا. وكان وليم نفسه يرى أن المال أغلى من الدماء، وشكا من أن "فقره أمر لا يصدق". واشتدت معارضة البرلمان لاعتماد الأموال اللازمة لقواته. وطالب، تمهيداً لعقد الصلح، بطرد جيمس الثاني من فرنسا، ولكن لويس رفض. إلا أنه عرض أن يعيد تقريباً كل المدن والأراضي التي كسبتها قواته أثناء الحرب. وفي 20 سبتمبر 1697 أنهى صلح ريزويك (بالقرب من لاهاي) "حرب البالاتينات" مع إنجلترا وهولندا وأسبانيا. واحتفظت فرنسا بستراسبورج وفرانش كومتيه، واستردت بوندشيري في الهند، ونوفاسكوشيا في أمريكا، ولكن الرسوم الجمركية الفرنسية خفضت على تجارة هولندا، وفي 30 أكتوبر وقع صلح تكميلي مع الإمبراطورية. وتوقع الإمبراطور والملك كلاهما قرب وفاة شارل الثاني ملك أسبانيا. وأدرك كبار رجال السياسة في أوروبا تمام الإدراك أن ما وقع لم يكن إلا مجرد هدنة، استعداداً لحرب أكبر كانت جائزة المنتصر فيها أغنى إمبراطورية في العالم.

صفحة رقم : 11544

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> المسألة الإسبانية

3- المسألة الإسبانية

1700-1698

دنا أجل شارل الثاني دون عقب، فمن ذا الذي يرث ممتلكاته التي تمتد من الفيليبينات عبر إيطاليا وصقلية إلى شمال أمريكا وجنوبها؟ لقد طالب بها لويس، لا باعتبارها ابن كبرى بنات فيليب الثالث ملك أسبانيا فحسب، بل كذلك بمقتضى حق زوجته المتوفاة ماري تريز كبرى بنات فيليب الرابع. والحق كل الحق أن ماري تريز تخلت، عند زواجها، عن أي حق لها في عرش أسبانيا. ولكن هذا التخلي كان مشروطاً بأن تدفع الحكومة الإسبانية لفرنسا صدقات قدره خمسمائة ألف كراون ذهباً. ولكن أسبانيا لم تدفع شيئاً من هذا الصداق، لأنها كانت مفلسة. وكان للإمبراطور ليوبولد مزاعم مضادة: فهو ابن ماريانا أنا صغرى بنات فيليب الثالث. وكان قد تزوج في 1666 من مرجريت تريزا

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> المسألة الإسبانية

صغرى بنات فيليب الرابع، ولم تتخل أي من هاتين السيدتين عن حقوقها في احتمال ارتقاء عرش أسبانيا. ولما كان الأتراك يزعمون ليوبولد دائماً بغاراتهم المتكررة، فإنه رغبة منه في الإبقاء على السلام مع فرنسا، عمد إلى حل وسط بالنسبة لمطالبه، بتوقيع معاهدة سرية مع لويس الرابع عشر، (في 19 يناير 1668)، نص فيها على التقسيم النهائي للإمبراطورية الأسبانية. ويقول مؤرخ إنجليزي أنه بمقتضى هذه المعاهدة "سلم فعلاً بقوة الحجة التي تذرع بها لويس الرابع عشر ببطلان تخلي ملكة فرنسا عن حقوقها في عرش أسبانيا(37)" ولما تزوج ليوبولد للمرة الثانية، وأنجب له هذا الزواج ابناً ثانياً، حدد مطالبه، ولكنه عرض أن يتنازل عنها للأرشيدوق كارل الجديد.

ونظرت إنجلترا والمقاطعات المتحدة والولايات الألمانية بعين الفزع إلى احتمال أن تؤول مملكة أسبانيا المترامية الأطراف إلى فرنسا أو إلى النمسا، وفي كلتا الحالتين إخلال بتوازن القوى، فلو أن لويس ربح في هذه الجولة لسبى على أوروبا وعرض البروتستانتية للخطر، ولو أنها كانت من نصيب ليوبولد، لهدد الإمبراطور، بحكم استيلائه على الأراضي الوطنية الأسبانية، جمهورية هولندا، وزرع استقلال الولايات الألمانية. وتدخلت المصالح الاقتصادية إلى جانب مصالح الأسرات الحاكمة: فالمصدرون الإنجليز والهولنديون كانوا يزودون معظم أسواق أسبانيا ومستعمراتها بالمنتجات الصناعية، ويحصلون منها في مقابل ذلك على كميات هائلة من الذهب والفضة، فكانوا يكرهون أن تصبح هذه التجارة احتكار لفرنسا. وذكرت الحكومة البريطانية في 1716 "أن الاحتفاظ بالتجارة بين مملكو بريطانيا العظمى وأسبانيا كان من أهم الدوافع التي حفزت ملكينا السابقين إلى دخول الحرب الأخيرة الطويلة الأجل الباهظة التكاليف(38)".

ورغبة من وليم الثالث في إرضاء التجار في موطنه الأول وفي البلاد التي آلت إليه، وفي المحافظة على توازن القوى في القارة، اقترح على لويس أن تتخلى فرنسا عن دعوها، وتتفق مع إنجلترا على ترك أسبانيا الأولى". ورفض ليوبولد هذا المشروع غاضباً. وأمل في صون أمير بافاريا الناخب، حفيد ليوبولد، وعلى أن يحصل الدوفين ولي عهد فرنسا على ثغور تسكانيا وإيطاليا جنوبي الولايات البابوية. على حين

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> المسألة الإسبانية

يمكن تسكين من روع الأرشيدوق كارل وإرضائه بدوقية ميلان. وقبل لويس الاقتراح، ووقع في 11 أكتوبر 1698 مع وليم "معاهدة تقسيم أسبانيا الأولى". ورفض ليوبولد هذا المشروع غاضباً. وأمل في صون الإمبراطورية الأسبانية من هذه التجزئة والتفتيت، أعد شارل الثاني في 14 نوفمبر 1698 وصيته التي جعل أمير بافاريا الناخب بمقتضاها وريثه الوحيد. ولكن موت الأمير في 5 فبراير أحدث ارتباكاً وتعقيداً في الموقف.

وعرض لويس إلى وليم تقسيماً جديداً: يحصل ولي عهد فرنسا بمقتضاه على ثغور تسكانيا، وإيطاليا جنوبي الولايات البابوية، ودوقية اللورين، ويعوض دوق اللورين بميلان، ويؤول باقي الإمبراطورية الأسبانية، بما في ذلك أمريكا والأراضي الوطنية الأسبانية، إلى الأرشيدوق كارل، ووقع لويس ووليم اتفاقية التقسيم الثانية في 11 يونيو 1699،

ووافقت عليها المقاطعات المتحدة. ولكن شارل الثاني احتج على أي تقنين لممتلكاته، كما أن الإمبراطور، أملاً منه في الحصول على كل شيء لابنه، أيد موقف أسبانيا ورفض الموافقة على التقسيم، على أن شارل، باعتباره من آل هابسبرج، كان ميالاً إلى ترك كل شيء للأرشيدوق، وبوصفه أسبانياً، على أية حال، كان يكره النمساويين، وباعتباره لاتينياً كان يؤثر الفرنسيين، ومذ كان شارل كلثوليكياً غيروراً، فإنه التمس النصح والمشورة من البابا. فأجاب إنوسنت الثاني عشر في 27 سبتمبر 1700 بأن خير طريقة هي التوصية بكل الإمبراطورية الأسبانية لأمير بوربوني شريطة تخليه عن أي حق في عرش فرنسا، وبذلك تحتفظ أسبانيا بوحدتها. ووضح أن الدبلوماسيين الفرنسيين كانوا يفوقون النمساويين حيلة ودهاء، وفي مدريد وفي روما على حد سواء. ونفر الرأي العام في أسبانيا من غطسة مليكتهم الألمانية، فوافق على مشروع البابا، وذكر السفير الإنجليزي في مدريد "أن الاتجاه العام فرنسي تماماً (39)". وفي أول أكتوبر وقع شارل الوصية المشنومة، التي أوصى فيها بكل أسبانيا وممتلكاتها لفيليب ذي السبعة عشر ربيعاً، ودوق أنجو، الابن الثاني للدوفين، شريطة ألا يجتمع تاجا فرنسا وأسبانيا لملك واحد، وقضى شارل نحبه في أول نوفمبر.

ولما ترامت أنباء هذه الوصية إلى باريس، سر بها لويس، ولكنه

صفحة رقم : 11547

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> المسألة الإسبانية

كان متردداً. فقد أدرك أن انتقال أسبانيا من أيدي آل هابسبرج إلى أسرة البوربون، لا بد أن يلقى معارضة شديدة من الإمبراطور، وأن إنجلترا وهولندا لا بد أن تنضم إلى صف المعارضة. وأتى أحد المؤرخين الألمان على هذه الالتفاتة من جانب لويس نحو الأهداف السلمية:

قد لا يكون من الإنصاف القول بأن لويس الرابع عقد العزم منذ البداية على نقض معاهدة التقسيم، بمجرد الحصول على وصية ملائمة لأسرته، وحتى وهو على يقين من مثل هذه الوصية، وكان شارل لا يزال على قيد الحياة، أمر لويس سفيره في هولندا، أن يؤكد لحاكمها أنه يعترف بالتمسك بالترامات، ولا يقبل أية عروض تقدم له. وبالإضافة إلى هذا، واصل مساعيه للحصول على انضمام بلاط فيينا إلى معاهدة التقسيم (40).

وفي 6 أكتوبر أرسل لويس نداءً عاجلاً إلى الإمبراطور ليقبل معاهدة التقسيم الثانية (41). ورفض ليوبولد. ومن ثم اعتبر لويس أن المعاهدة لاغية.

وفور وفاة شارل، أوفد مجلس الوصاية الأسباني إلى باريس رسولاً ليبلغ الملك لويس أن حفيده سيكون ملكاً على أسبانيا بمجرد قدومه وتأديته اليمين بمراعاة قوانين المملكة. وصدرت التعليمات إلى السفير الأسباني في باريس بأنه في حالة إي رفض من جانب فرنسا، عليه أن يأمر الرسول بالإسراع إلى فيينا ليقدم نفس العرض إلى الأرشيدوق (42). وينبغي ألا تجزأ الإمبراطورية الأسبانية على أية حال. وفي 9 نوفمبر دعا لويس الأمير ولي العهد، ومستشاره بوننتشارتران ودوق دي بوفيليه ومركز دي تورسي وزير الخارجية إلى اجتماع في جناح مدام دي ميننتون، وسألهم الرأي والمشورة. ورأى بوفيليه أن يرفض العرض الأسباني، لأنه يؤدي قطعاً إلى الحرب مع الإمبراطورية وإنجلترا والمقاطعات المتحدة، وذكر الملك بأن فرنسا ليست في ظروف تهيئ لها مواجهة مثل هذا الائتلاف، أما تورسي فقد دافع عن فكرة القبول، حيث اعتقد بأن الحرب لا محالة واقعة على

صفحة رقم : 11548

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> المسألة الإسبانية

أية حال، ولا بد أن الإمبراطور ليوبولد سيعارض معاهدة التقسيم والوصية كليهما. هذا فضلاً عن أنه رفض الملك لويس العرض الإسباني، فإنه من المؤكد أن يرحب به الإمبراطور، وتطوق فرنسا من جديد بنفس النطاق الذي كان مضروباً حولها-أسبانيا، شمال إيطاليا، النمسا، الأراضي الوطية الإسبانية والذي كلف فرنسا طيلة المائتي عام الأخيرة كثيراً من الدماء لتحتيمه. خير لنا أن ندخل في حرب بسبب عادل-الوصية من أن نحاول فرض تقسيم أسبانيا بالقوة ضد رغبة حكومتها وشعبها(43).

وبعد ثلاثة أيام قضوها في مزيد من المشاورات والمداولات، أعلن لويس إلى المبعوثين قبوله الوصية. وفي 16 نوفمبر 1700 قدم دوق أنجو إلى الحاشية المجتمعة في فرساي قائلاً: "أيها السادة، إنكم ترون هنا ملك أسبانيا. أن النسب الذي تحدر منه دعاه إلى حمل ذلك التاج، بهذا أمر الملك الراحل في وصيته، وهذا ما رغبت فيه الأمة الإسبانية بأسرها، وتوسلت إليّ توسلاً جدياً أن أقبله. وتلك إرادة الله، حققها في غبطة وسرور، ثم أضاف موجهاً الحديث إلى الملك الشاب "كن أسبانياً" صالحاً-فهذا هو الآن واجبك الأول، ولكن تذكر أنك ولدت فرنسياً، وحافظ على الوحدة بين الأمتين، فهذا هو الطريق لإسعادهما، وللمحافظة على السلام في أوربا(44)" ونادى مجلس الوصاية الإسباني بفيليب ملكاً في مدريد، وأسرت كل قطاعات أسبانيا وممتلكاتها بإعلان موافقتها، واعترفت الحكومات، الواحدة تلو الأخرى، بالملك الجديد: سافوي، الدنمرك، البرتغال، المقاطعات المتحدة، إنجلترا، وعدة ولايات إيطالية وألمانية، بل أن ناخب بافاريا الذي ظن أن الإمبراطور دس السم لابنه-كان من أول الأمراء الذين قدموا اعترافهم. وبدأ أن الأزمة قد تم التغلب عليها، وأن العداوة التي استعرا أوارها طيلة قرن من الزمان بين فرنسا وأسبانيا قد خمدت بطريقة سلمية، وجنا السفير الإسباني في فرساي بين يدي مليكه الجديد إجلالاً وولاء، ونطق بعبارته المشهورة "لا برانس بعد اليوم(45)".

صفحة رقم : 11549

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1701

4- الحلف الأعظم

1701 - 1702

وكتب لورد تشستر فيلد "أن أسبانيا استقبلت في هدوء وابتهاج فيليب الخامس الذي استهل عهد البوربون الأسبان، واعترفت به ملكاً

صفحة رقم : 11550

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1701

معظم الدول التي انضمت فيما بعد في تحالف لخلعه(46)" ولكن الإمبراطور ليوبولد أحس بأن هذا الاتحاد الفعلي بين فرنسا وأسبانيا، لا بد أن يكون، إذا تهيأت له أسباب البقاء والاستمرار، كارثة على أسرة هابسبورج التي ألفت منذ أمداً طويلاً أن تحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة والإمبراطورية الأسبانية كليهما. وعكس الكتاب استياءه فأهاجوا الرأي العام في النمسا وعبروا عنه، مرددين أن شارل الثاني لم يكن في كامل قواه العقلية حين أوصى بأسبانيا لعدوتها القديمة، وزعموا أن تشريح جثة الملك أظهر حقاً أن قلبه ومخه كانا مصابين بشكل خطير، ومن ثم تكون وصيته باطلة لاغية، وتكون ممتلكات أسبانيا تابعة للإمبراطور ليوبولد، بمقتضى حقوق أمه وزوجته التي لم يحدث أي تدخل أو تنازل عنها. واستحث ليوبولد حليفه السابقين هولندا وإنجلترا إلى إنكار أو سحب اعترافهما بفيليب الخامس. حتى ولو كان هذا يعني حرباً.

وكان زعيم المقاطعات المتحدة في هذا الوقت أنطونيوس هينسيوس الذي كان قد اختير حاكماً بعد رحيل وليم إلى إنجلترا، وكان في سابق أيامه مبعوثاً هولندياً إلى فرنسا، وهدده لوفوا بالبقاء القبض عليه، خرقاً للحصانة الدبلوماسية، ولم ينس قط هذه الإساءة، وأقام الآن، وقد بلغ التاسعة والخمسين، في دار متواضعة في لاهاي، وأحب المكتب، وسار يوماً على قدميه إلى مكتبه، واشتغل عشر ساعات في اليوم، وكان بمثابة تحد صارخ من جانب البساطة البرجوازية والحكومية الجمهورية للأرستقراطيين المترفين والملوك المستبدين. وفي نوفمبر 1700، وبتوجيه من الجمعية الوطنية الهولندية، أرسل أنطونيوس هذا إلى الملك لويس الرابع عشر مذكرة يبرجوه فيها رفض وصية شارل الثاني باعتبارها ضارة أبلغ الضرر بالإمبراطور، والعودة إلى سياسة التقسيم. ضرورياً حتماً هو تكرار رفض الإمبراطور لأي مشروع للتقسيم، وتؤكد فرنسا من أن الإمبراطور سيقبل العرض الأسباني إذا هي رفضته. وزادت تصرفات لويس من خوف أوروبا من قوة فرنسا. ففي أول فبراير 1701 حمل برلمان باريس على تسجيل مرسوم ملكي ينص على المحافظة على الحقوق التي يمكن أن تنشأ لفيليب وأعقابه في تاج فرنسا.

صفحة رقم : 11551

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1701

وهذا لا يعني بالضرورة أن لويس تطلع إلى وحدة فرنسا وأسبانيا تحت حكم ملك واحد، وربما قصد به تأمين نظام لارتقاء عرش فرنسا في حالة وفاة الورثة السابقين، ففي مثل الضرورة الطارئة يمكن لفيليب أن يتخلى عن تاج أسبانيا

ليرتقي العرش في وطنه الأول، وبذلك يستمر التاج في أسرة البوربون دون انقطاع. ولكن إجراء آخر اتخذته الملك برر أن يفسر عمله تفسيراً غير ودي. ذلك أنه كانت هناك كعاهدة مع أسبانيا تثبت حق الهولنديين في حماية هولندا ضد الغزو، بالاحتفاظ بحاميات مسلحة في بعض "مدن الحدود" في الأراضي الوطية الأسبانية. وفي فبراير، بناء على تفاهم بين لويس وناخب بافاريا الذي تولى حكم الأراضي الوطية الإسبانية آنذاك، دخلت القوات الفرنسية مدن الحدود هذه، وأمرت الحاميات الهولندية بمغادرتها. وأبلغ السفير الأسباني في لاهاي الجمعية الوطنية بأن هذا العمل تم بناء على رغبة الحكومة الأسبانية. واحتجت الجمعية الوطنية ثم استسلمت، ولكن هينسيوس اتفق مع وليم الثالث على ضرورة تجديد الحلف الأعظم ضد فرنسا.

أن وليم ارتكز في موقفه على أن معاهدة التقسيم الثانية كانت اتفاقاً بينه وبين لويس، وأنها ظلت سارية المفعول سواء وقعها أو لم يوقعها ليوبولد، وأن قبول فرنسا للوصية الإسبانية كان نقضاً لهذا الميثاق القانوني المقدس. وكان البرلمان على أية حال يكره استئناف النزاع الباهظ التكاليف مع فرنسا. وعندما أبلغت الحكومة الفرنسية إنجلترا بنياً ارتقاء فيليب الخامس عرش أسبانيا، راض وليم نفسه على تهنئة "أخيه العزيز ملك أسبانيا بهذه المناسبة السعيدة، مناسبة ارتقائه العرش(47)". وبهذا قدم اعترافاً رسمياً بنظام الحكم الجديد (17 أبريل 1701(48)). ولكن عندما تجلت النتائج الخطيرة للاتحاد الفرنسي الأسباني للعيان بشكل أوضح، حيث أن احتلال القوات الفرنسية للفلاندرز جعلت لويس قاب قوسين أو أدنى من هولندا، وأن امتلاكه لثغر أنتورب مكنه من التحكم في التجارة الإنجليزية التي تستخدم هذا الثغر فإن الإنجليز بدعوا يدركون أن المشكلة لم تكن مجرد مشكلة بين البوربون وآل هابسبورج، ولا هي مشكلة كاثوليكية تستعيد نشاطها وبروتستانتية يتهدهدها الخطر، ولكنها قضية الصراع بين إنجلترا وفرنسا حول السيادة على البحار، والسيطرة على المستعمرات الأوروبية وعلى تجارة العالم، وفي يونيه 1701، ودون

صفحة رقم : 11552

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1701

إعلان الحرب، تعهد البرلمان بتأييد وليم في أية أحلاف قد يدخل فيها بهدف الحد من سيطرة فرنسا المترابطة. وتحقيقاً لهذا الهدف أقر تجنيد ثلاثين ألفاً من جنود البحر واعتمد مبلغ مليونين وسبعمائة ألف جنيه. واستجابة لنداء من الجمعية الوطنية الهولندية أمر وليم عشرين سفينة وعشرة آلاف جندي بالإبحار إلى هولندا. وفي يولييه عبر هو نفسه البحر إلى لاهاي.

وكان الإمبراطور الذي يطالب بأراضي الإمبراطورية الأسبانية بأسرها، بالفعل في حرب. وفي مايو 1701 أرسل جيشاً مكوناً من ستة آلاف من الفرسان وستة عشر ألفاً من المشاة للاستيلاء على ممتلكات أسبانيا في شمال إيطاليا، وعهد بقيادة هذا الجيش إلى أمير شاب، قدر له أن ينافس مالبرو نفسه باعتباره قائداً. هو ويجين سافوي. وكان جده شارل أمانويل دوق سافوي، أما والده الأمير يوجين مورييس فقد استقر به المقام في فرنسا بلقب كونت دي سواسون. أما والدته فهي أولمب مانسيني إحدى بنات أخي مازاران الفاتنات. وطلب يوجين نفسه في 1683، وهو في سن العشرين، من لويس الرابع عشر أن يولييه قيادة فوج من الجنود، فأبى عليه ذلك نظراً لصغر سنه، فهجر فرنسا والتحق بخدمة الإمبراطور، واشترك مع سوبسكي في تخليص فيينا وتعقب الأتراك، وجرح في الاستيلاء على بودا، وجرح ثانية في حصار بلجراد، وقاد القوات الإمبراطورية إلى الانتصار الحاسم على الأتراك في سنتنا 1697، وتحلى يوجين بكل المزاي اللهم إلا جمال الوجه والجسم. ووصفه فرنسي عدو له بأنه "هذا الرجل القبيح الضئيل الجسم الذي ينقلب أنفه فوق شفة عالية قصيرة إلى حد أنها لا تغطي أسنانه(49)"، على حين تبين فيه فولتير "صفات البطل في الحرب، ومناقب الرجل العظيم زمن السلم، وذهناً مشرباً بروح العدل والإنصاف والاعتداد بالنفس، وشجاعة لا تلبس ولا تهن في قيادة الجيوش(50)". والآن وهو في الثامنة والثلاثين قاد قواته فوق الألب، وتفوق على

الكتائب الفرنسية هناك، ومع توالي انتصاراته على كاتينا وفيلروا، كسب الإمبراطور كل دوقية مانتوا تقريباً (سبتمبر 1701)، قبل إعلان حرب الوراثة الأسبانية بزمن طويل. وفي الوقت عينه كانت الدبلوماسية قد مهدت لعشر سنين من

صفحة رقم : 11553

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1701

المذابح. ففي أغسطس منحت أسبانيا فرنسا "عقداً" بدر ربحاً وفيراً، لتزويد المستعمرات الأسبانية في أمريكا بالعبيد. ووضح أن فرنسا قصدت أن تستخدم نفوذها الطاعي في أسبانيا، للاستيلاء على تجارة ممتلكاتها في قارات ثلاث. وفي 7 سبتمبر وقع مندوبو إنجلترا والمقاطعات المتحدة والإمبراطورية معاهدة لاهاي بتكوين حلف أعظم ثان. ونصت المادة الثانية منها على أنه من الضروري لإقرار السلام في أوروبا أن تراعى حقوق الإمبراطوري في الوراثة الأسبانية، وأن تكون إنجلترا والمقاطعات المتحدة أمنتين في ممتلكاتهما وفي تجولهما في البحار وفي تجارتها، ووعدت المعاهدة الإمبراطور بممتلكات أسبانيا في شمال إيطاليا والأراضي الوطنية، ولكنها تركت الباب مفتوحاً أمام احتمال الاعتراف بفيليب الخامس ملكاً على أسبانيا، وتعهدت الأطراف المتعاقدة بعدم القيام بأية مفاوضات منفصلة، أو توقيع أي صلح منفرد، والحيلولة دون توحيد تاجي فرنسا وأسبانيا. واعترض طريق التجارة الفرنسية مع المستعمرات الأسبانية والدفاع عن أية فتوحات تقوم بها إنجلترا والمقاطعات المتحدة في الأندلس الإسبانية والمحافظة عليها (51). ومنحت فرنسا مهلة مدتها شهران للموافقة على هذه الشروط، فإذا لم تتم الموافقة، كان للدول الموقعة أن تعلن الحرب. وقابل لويس هذا التحدي بكبرياء شديدة متميزة، فأعلن أنه مرتبطاً رباطاً شريفاً بالدفاع عن وصية شارل الثاني وتصميم الشعب الأسباني على عدم تمزيق إمبراطوريته، ولثقتة التامة في قوة قضيته وعدالتها، ظهر إلى جان سرير جيمس الثاني الذي كان يعان يمن سكر الموت، وواسى الملك المحتضر بوعد أنه سيعترف بجيمس الثالث ملكاً على إنجلترا ويسانده. ولما قضى الوالد نحيبه حافظ لويس على عهده، ولسنا ندري إذا كان هذا "عملاً جليلاً يتسم بالشهامة"، (كما قال عنه مؤرخ إنجليزي شهيم (52)) أو أنه استسلام لتوسلات الأرملة الباكية (53)، أو أن خطة عسكرية لتقسيم إنجلترا إلى معسكرين: فريق يناصر ولیم، وفريق يناصر جيمس، ويدعو إلى عودة آل ستيوارت إلى العرش من جديد. وعلى أية حال كانت حرب الوراثة الأسبانية حرباً للوراثة الإنجليزية أيضاً، بل حرب الكيان الإنجليزي كله، فإن عودة ملك من أسرة ستيوارت قد يعني استئناف المحاولة لتحويل إنجلترا إلى

صفحة رقم : 11554

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> الحلف الأعظم 1701

الكاثوليكية، وعلى الرغم من أن فرنسا أحست بأن تصرف الحلفاء نقض الاعتراف الذي كانت قد أعلنته كل دولة بفيليب الخامس ملكاً على أسبانيا. فإن معظم إنجلترا أحست بأن لويس قد نقض معاهدة روزيك التي كان قد اعترف فيها بوليم الثالث ملكاً على إنجلترا، واستنكرت الاعتراف بجيمس الثالث على أنه تدخل وقح في شؤون إنجلترا. وأضيفت إلى شروط الحلف الأعظم فقرة تلزم الموقعين بالألا يعقدوا صلحاً مع فرنسا، حتى يتلقى وليم ترضية عن الإساءة التي ألحقها به التصرف لويس. وفي يناير 1702 جرد البرلمان جيمس الثالث من حقوقه المدنية-أي أعلن أنه خائن خارج عن القانون. وفي نفس الوقت أقر بأغلبية صوت واحد، "قانون القسم" الذي يتطلب من كل إنجليزي أن يبرأ من "المطالب بالعرش" ويقسم يمين الولاء لوليم الثالث وورثته. وفي 8 مارس 1702 توفي وليم الثالث في سن الثانية والخمسين. في وقت مبكر جداً لم يستطع أن يتبين فيه أنه قام بتوثيق عرى تحالف قد يحدد خريطة أوروبا لمدة نصف قرن. وفي 15 مايو أعلن الإمبراطور والمقاطعات المتحدة وبرلمان إنجلترا الحرب على فرنسا في وقت واحد.

صفحة رقم : 11555

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

5- حرب الوراثة الإسبانية

1702-1713

كانت كل أوروبا غربي بولندا والإمبراطورية العثمانية، من الناحية العلمية، مشغولة بهذه الحرب. وانضم إلى التحالف الدنمرك وبروسيا وهانوفر وأسقفية مونستر، وناخباً مينز والبلاتينات وبعض الولايات الألمانية الصغيرة. وانضم إلى هؤلاء في 1703 سافوي والبرتغال، وحشدوا جميعاً 250 ألف جندي، وجمعوا قوة بحرية تفوق كثيراً القوة البحرية الفرنسية عدداً وعتاداً وقيادة. وكان لفرنسا أنفذ مانتا ألف جندي، ولكن هذه القوات كانت موزعة على جبهات مختلفة في إقليم الراين وإيطاليا وأسبانيا. وكان الحلفاء الوحيدون لها أسبانيا وبافاريا وكولون، ثم سافوي لمدة عام واحد. وكانت أسبانيا عبئاً عليها، تريد من الجيوش الفرنسية أن تدافع عنها، كما كانت المستعمرات الأسبانية تحت رحمة الأساطيل الهولندية والإنجليزية. ويجدر بنا ألا ننسى في متاهات اللعبة الملكية، الشطرنج البشري،

صفحة رقم : 11556

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

التي أعقبت ذلك، وكانت لعبة دامية إلى حد لم يسبق له مثيل تقريباً. والآن جاءت حملات مالبرو ويوجين سافوي البارعة المثيرة الملطخة بالدماء. وربما لم تجتمع منذ عهد قيصر عبقرية الحرب وفن الدبلوماسية مثل ما اجتمعا في مالبرو: كان بارعاً في استراتيجية تخطيط العمليات وتحريك الجيوش، وفي أساليب استخدام المشاة والخيالة والمدفعية، مع سرعة في تقدير الموقف واتخاذ القرار، وفق متطلبات المعركة، ومع ذلك فهو أيضاً صبور لبق في التعامل مع الحكومات من ورائه، والشخصيات من حوله، حتى مع العداء اللذين اعتبروه رجل دولة يدرك الحقائق، ذا وزن وقوة ونفوذ. وكان في بعض الأحيان قاسياً لا يرحم، وفي أغلب الأحيان مجرداً من المبادئ الخلقية والإنسانية. وسفك من دماء جنوده أي قدر لازم لتحقيق النجاح، واتصل بجيمس الثاني وجيمس الثالث ليضمن لنفسه نصيراً باسماء مشرقاً إذا عاد آل ستيوارت إلى الحكم. ولكنه كان منظم وصانع النصر.

وحيث أدرك لويس الرابع عشر أن كل عظمة عصره معلقة في كفة الميزان، وأن النزاع حول أسبانيا بات صراعاً من أجل قارات، فإنه هاب بفرنسا أن تبعث إليه بأبنائها وذهبها. وما وافى عام 1704 حتى كان لديه 450 ألف رجل مسلحين-قدر ما لدى أعدائه مجتمعين(54). وأملاً منه في التكبير بحسم هذا الصراع الباهظ التكاليف، أصدر أوامره إلى قواته الرئيسية بالتقدم عبر بافاريا الصديقة، ومهاجمة قلعة العدو الأخيرة، ألا وهي فيينا التي عجزت الحشود التركبية نفسها عن الاستيلاء عليها. وانشغلت القوات الإمبراطورية في الشرق بعصيان مسلح وقع في المجر، وتركت عاصمتها مجردة من وسائل الدفاع تقريباً. وعلى حين كان مفروضاً أن يضيق جيش فرنسي بقيادة فيلروا الخناق على مالبرو في الأراضي الوطنية، فإن القوات الفرنسية بقيادة مارسان وتلارد انضمت إلى قوات ناخب بافاريا، وأسرت في التقدم إلى النمسا. ومرة أخرى هرب الإمبراطور من فيينا، كما حدث في 1683، إدراكاً منه بأن وقوعه في أيدي الأعداء لا بد أن يكون كارثة على موقف الحلفاء.

وفي هذه الأزمات، وعلى الرغم من توسلات الجمعية الوطنية الهولندية، ولكن بموافقة سرية من جانب هينسيوس، قرر مارلبرو أن يغامر بوقوع هولندا في يد فليروا، ويجد السير ليلاً ونهاراً من بحر

صفحة رقم : 11557

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

الشمال إلى الدانوب (مايو-يونيه 1704) لينفذ فيينا. وتظاهر بأنه يسعى لعبور الموزل، فسار جنوباً في محاذة النهر، مغرباً فليروا بحركة موازية على الجانب الآخر. وفجأة عند كوبلنز انعطف شرقاً وعبر الراين على جسر عائم، وسار إلى مينز، وعبر المين إلى هيدلبرج، وعبر نهر نكر إلى راستاد، فأحدث الآن نقاط اتصال هامة مع الإمدادات القادمة من هولندا، ومع جيش إمبراطوري بقيادة يوجين سافوي، ومع جيش آخر بقيادة الحاكم العسكري لمنطقة بادن-بادن-لويس ولیم الأول-ودهش الفرنسيون والبافاريون ليجدوا مالبرو بعيداً عن المواقع التي كان من المتوقع أن يطبق عليه فليروا فيها. وجمع مارسان وتلارد وناخب بافاريا، 35 ألفاً من المشاة و18 ألفاً من الفرسان بين لوتزنجين وبلنهم، على الضفة اليسرى للدانوب. وهناك في 13 أغسطس 1704 اشتبك معهم مارلبرو ويوجين بثلاثة وثلاثين ألفاً من المشاة وتسعة وعشرين ألفاً من الخيالة فيما تحاول فرنسا أن تنسى فيه معركة هوستاد وما تحتفل به إنجلترا باعتباره النصر في بلنهم. واخترقت خيالة مارلبرو المتفوقة قلب القوات الفرنسية وسأقت جيش تللارد المنهزم إلى بلنهم، حيث استسلم الأثني عشر ألفاً الباقون منه على قيد الحياة، وأسر تللارد نفسه. ثم أسرع فرسان مارلبرو لنجدة يوجين،

وكان في مازق، إلى اليمين، وعاونوه حتى أجبر مارسان على التقهقر بانتظام، وكانت الخسارة في الأرواح جسيمة، اثني عشر ألفاً من الحلفاء، و14 ألفاً من الفرنسيين والبافاريين. وحطم استسلام سبع وعشرين كتيبة من المشاة واثنتي عشرة سرية من الخيالة سمعة القوات المسلحة الفرنسية. وفر ناخب بافاريا إلى بروكسل. واحتل الجيش الإمبراطوري بافاريا، وأخلى نحو ثلاثمائة ميل مربع تقريباً من الأرض من القوات الفرنسية، وعاد ليوبولد في أمان إلى عاصمته. وفي 4 أغسطس سجل أسطول إنجليزي هولندي يوماً مشهوداً آخر في التاريخ باحتلاله صخرة جبل طارق المقفرة. وقد حولها الإنجليز إلى قلعة ضمنت لهم السيادة على البحر المتوسط لمدة قرنين من الزمان واستمرت الحرب تسع سنوات أخرى، دون أن يظن أحد إلى أن هذين الإنتصارين قد حددا مصيرها. وفي 9 أكتوبر 1705 استولى

صفحة رقم : 11558

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

أسطول إنجليزي على برشلونة، وساند أحد جيوش الحلفاء ثورة قامت في قطالونيا ضد فيليب الخامس، وأقام الأرشيدوق كارل في مدريد ملكاً تحت اسم شارل الثالث (25 يونيو 1706). ولكن منظر النمساويين والإنجليز يحكمون البلاد أيقظ الأسبان من سباتهم الروحي، بل أن رجال الدين أنفسهم حرضوهم على المقاومة. وسلاح الفلاحون أنفسهم بأحسن ما وصلت إليه أيديهم، وقطعوا خط مواصلات الحلفاء بين برشلونة ومدريد. وقاد دوق بروك إنجليزي، وجيمس فتر جيمس الابن الشرعي لجيمس الثاني قوة فرنسية أسبانية من الغرب. استردت مدريد لفيليب الخامس (22 سبتمبر) وردت الأرشيدوق ومن معه من المهراطيين الإنجليز إلى قاطالونيا. وفي تلك الأثناء، وبعد أن تغلب مالبرو على بعض العقبات السياسية في لندن ولاهاي، جمع هذا القائد جيشاً قوامه ستون ألفاً من الإنجليز والهولنديين والدنمركيين، وتقدم بالجيش الفرنسي الرئيسي المؤلف من 58 ألف جندي بقيادة فليروا عند راميه بالقرب من نامور. وفي اشتداد وطيس المعركة، ناسياً أنه يجدر بالقواد أن يموتوا في فراشهم، اندفع إلى مقدمة الصفوف، فأسقط عن جواده. وبينما كان الضابط المرافق له يعاونه على امتطاء ظهر الجواد ثانية، اخترقت رأس الضابط قذيفة، واسترد مالبرو عافيته وأعاد تنظيم قواته، وقادها إلى نصر دام آخر. وبلغت الخسائر في جيشه خمسة آلاف رجل، وفي جيش الفرنسيين خمسة عشر ألفاً. وتقدم وسط مقاومة لا تذكر للاستيلاء على أنتورب وبروجز وأوستند. وهناك توفر له خط مواصلات مباشر مع إنجلترا، وكان على مسافة عشرين ميلاً فقط من فرنسا. وأوى فيلروا، وكان آنذاك في الثانية والستين، إلى ضيعته محزوناً، ولكن دون تأنيب من الملك الذي قال له في أسى وأسف "إن يواتينا الحظ بعد ذلك (55)". وفي كل مكان، باستثناء أسبانيا، كان الفرنسيون الآن في خطر، أو كانوا يتقهقرون. وفي فيينا خلف جوزيف الأول، وكان في السابعة والعشرين، أباه على عرش الإمبراطورية (1705)، وشد من أزر قواده بدرجة كبيرة. ورد يوجين سافوي الفرنسيين عن تورين

صفحة رقم : 11559

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

(1706) وعن إيطاليا (1707). وبمقتضى اتفاق ميلان أصبحت دوقينا ميلان ومانتوا جزءاً من إمبراطورية النمسا، وانتهى حكم "جونزاجات مانتوا" الذي كان قد بدأ 1328. أما مملكة نابلي التي كان يحكمها نائب الملك الأسباني منذ عهد طويل، فقد ارتمت بدورها في أحضان النمسا، ولو أنها استمرت من الوجهة الشكلية ولاية بابوية، واحتفظت الولايات البابوية بأوضاعها بإذن من الإمبراطور الذي اخترقتها قواته الألمانية ضد إرادة البابا الذي لا حول له ولا قوة (56). واحتفظت فينيسيا وتسكانيا باستقلال مزعزع الأركان. وكان لويس الرابع عشر رجلاً قد تغير. وكان غرور السلطان قد زال عنه تقريباً، ولكنه احتفظ بالوقار الهادئ لدولته. وفي 1706 عرض على الحلفاء شروطاً للصلح كان يمكن أن يقبلوها فرحين مسرورين قبل خمس سنين، وبمقتضاها تترك أسبانيا للأرشيدوق كارل، ويكتفي فيليب بميلان ونابلي وصقلية، وتعاد مد الحدود والحصون إلى السيطرة الهولندية في الأراضي الوطنية الأسبانية. وكان الهولنديين مبالين إلى التفاوض، ولكن الإنجليز والإمبراطور أبوا. وتولى لويس السأم والضجر، واتجه إلى تجنيد جيوش جديدة وفرض ضرائب جديدة، حتى التعميد والزيجات لا بد أن يدفع عنها ضريبة حتى تصبح قانونية. فلجأ الفرنسيون الذين أضناهم الفقر إلى تعمد أبنائهم وإلى الزواج دون طقوس دينية، ولو أن نتاج مثل هذا القران دمع بأنه غير شرعي من الوجهة الرسمية (57). وقامت الثورة في كاهور، وفي كرسى، وفي بريجور. واستولت جموع الفلاحين على الحكم في المدن، وعلى قصور الإقطاعيين. وصاحت الهياكل العظمية الحية أي أهالي الذين يتضورون من الجوع، عند أبواب قصر فرساي، مطالبين بالخبز، فصددهم الحرس السويسري. وظهرت اللافتات على الجدران في باريس منذرة لويس بأنه لا يزال في فرنسا رجال يريدون قتل الملك (58). ومنعت الضرائب الجديدة. وفي أوائل 1707 نشر مركز دي فوبان الذي كانت هندسته العسكرية عنصراً أساسياً في الانتصارات الفرنسية في الجيل الماضي،

صفحة رقم : 11560

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

نشر وهو في الرابعة والسبعين، "اقتراحاً بضريبة أعدل". وصف المركز شقاء فرنسا وبؤسها: "أن عشر السكان تقريباً انحطوا إلى درجة التسول، أما غالبية التسعة الأعشار الباقية منهم فهم أقرب إلى تلقي الصدقات منهم إلى بذلها... يقيناً أن السوء قد بلغ أقصى مداه. فإذا لم يتخذ أي علاج فلسوف يقع الشعب في براثن فقر لا فكاك له منها أبداً". وذكر الملك بأن "الطبقة الدنيا من الشعب هي التي تنثري الملك ومملكته بكدها وجدها، وإسهاماتها في الخزنة الملكية" ومع ذلك فإن "هذه الطبقة، نتيجة لمطالب الحرب وفرض الضرائب على مدخراتها، هي التي تعيش الآن في أسمال بالية وأكواخ متداعية، على حين توقفت الزراعة في أراضيها" لتغيب أبنائها الذين جندوا للحرب (59). ولإنقاذ هؤلاء الناس، وهم أعظم الطبقات إنتاجاً، اقتبس فوبان بعض أفكار بواجلبرت، فاقترح إلغاء كل الضرائب القائمة، والاستعاضة عنها بضريبة دخل تصاعدي لا تعفي منها أية طبقة، فيدفع ملاك الأرض ما بين 5 و10% ويدفع العمال ما لا يزيد عن 3% Islash2. وتحفظ الدولة باحتكار المح، وتفرض الرسوم الجمركية عند الحدود الوطنية فقط (60).

ويصف سان سيمون هذا الكتاب، وكيف استقبله الناس، فيقول:

كان الكتاب زاخراً بالمعلومات والأرقام، مرتبة بأقصى درجة من الوضوح والبساطة والدقة. ولكنه وقع في خطأ جسيم ذلك أن يبسط منهجاً لو اتبع لكان فيه دمار الجيش من الرأسماليين والكتبة والموظفين من كل الأنواع،

ولأرغمهم على أن يعيشوا على حسابهم بدلاً من العيش على حساب الشعب، وقوض أساس هذه الثورات الضخمة التي نراها تنمو وتزداد في وقت قصير. وكان هذا شياً كافياً لسقوط هذا الكتاب.. وتعاليت الصيحات من جانب أولئك الذين يهيمهم معارضته... ولا عجب إذن، في أن الملك الذي يلتف حوله هؤلاء الناس، أصغى إلى حججهم، واستقبل المارشال فويان أسوأ استقبال حين قدم إليه كتابه(61).
وأنبه لويس بأنه رجل حالم، قد يقلب مشروعه مالية البلاد رأساً

صفحة رقم : 11561

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

على عقب، وسط أزمة الحرب. وفي 14 فبراير 1707 صدر قرار من المجلس بمصادرة الكتاب وعرضه في مشهورة. وبعد ستة أسابيع مات المارشال العجوز، وقذفت في عضده وأجزائه ما أصاب من خزي وعار. وتفوه الملك ببعض كلمات عن أسف جاء متأخراً "فقدت رجلاً كان يحبني حباً شديداً كما يحب الدولة(62)".
واستمرت الضرائب والحروب. وفي أغسطس 1707 انضم فكتور أماديس الثاني دوق سافوي-الذي كان قد بدأ حليفاً لفرنسا-إلى يوجين سافوي وأسطول إنجليزي في حصار طولون. براً وبحراً، حتى إذا سقطت في أيديهم عمدوا إلى مهاجمة مسيليا، فإذا سقطت هذه أيضاً لأصبحت فرنسا معزولة عن البحر المتوسط. وأعد جيش فرنسي جديد وأرسل ليصد الغزاة، وألح في صدهم، ولكن في هذه الحملة بات معظم أراضي بروفانس خراباً بلقياً. وفي 1706 حشد الملك جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً تحت قيادة مارشال فندوم. ودوق برجندي المحبوب ابن الدوفين. وسيره ليوقف تقدم الحلفاء في الفلاندرز فقابله سارلبرو ويوجين بجيش مماثل في العدد في أودينارد على نهر شلدت (11 يولييه 1708)، ودارت الدائرة على الفرنسيين وخسروا 20 ألفاً بين قتل وجريح، كما أسر منهم سبعة آلاف. وأراد مارلبرو التقدم إلى باريس، ولكن يوجين أقنعه بمحاصرة ليل أولاً، حتى لا تقطع حاميتها خط مواصلات الحلفاء وإمداداتهم. وسقطت ليل بعد حصار دام شهرين، بخسارة في الأرواح قدرها خمسة عشر ألفاً.
وأحس لويس بأن فرنسا لم تعد قادرة على مواصلة القتال. وزاد من بؤس الشعب وشفائه أن شتاء 1708\1709 كاد أفسى شتاء وعته الذاكرة، وتجمدت النهار طيلة شهرين، بل تجمدت مياه البحر على طول الشواطئ، إلى أن العربات ثقيلة الأحمال كان تسير في أمان فوق جليد المحيطات(63). وهلك كل المزروعات بما في ذلك أقدر أشجار الفاكهة على احتمال قسوة المناخ، وكل الحبوب في الأرض. كما مات في هذا الفصل القاسي معظم الأطفال الحديثي الولادة(64). باستثناء ابن حفيد الملك، لويس الخامس عشر فيما بعد، الذي ولد لدوق ارجندي في 15 فبراير 1709. وفي أعقاب ذلك جاءت المجاعة في الربيع والصيف، واختزن المحتكرون الخبز واحتفظوا له بسعر

صفحة رقم : 11562

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

عال. ويذكر سان سيمون، وهو عادة لا يحب الملك، أن لويس نفسه كان متهماً باقتسام مغانم الاختكارات (65). ولكن هنري مارتن يقول "أن التاريخ يروي كثيراً إلى حد أنه لا يسلم بالوصف البغيض الكئيب الذي أورده سان سيمون دون شيء من الريبة" (66). وأنقذ الموقف باستيراد 12 مليون كيلو جرام من الحبوب من دول المغرب العربي وغيرها، وزراعة الشعير بمجرد ذوبان الثلوج وعودة الدفء إلى الأرض (67). وأحس لويس الرابع عشر بالذلة والهوان بسبب هزائم جيوشه ونكبات شعبه، فأرسل في 22 مايو 1709 المركيز دي تورس إلى لاهاي، يطلب الصلح. وكان دي تورسي مزوداً بالتعليمات ليعرض النزول عن كل الإمبراطورية الأسبانية إلى الحلفاء، وعن نيوفونلند إلى إنجلترا، وإعادة مدن الحدود إلى الهولنديين، والتخلي عن تأييد حق آل سنيورات في العرش. وحاول المركيز أن يرشو مالبرو، فأخفق (68). وفي 28 مايو قدم الحلفاء إلى دي تورسي إنذاراً نهائياً يطالبون فيه، لا بمجرد التنازل عن كل أسبانيا وممتلكاتها للأرشيديوق، بل كذلك يطالبون بانضمام الجيش الفرنسي إلى قوات الحلفاء في طرد فيليب من أسبانيا إذا لم يكن قد غادرها في بحر شهرين، وإلا، (كما قدروا) تركت فرنسا حرة في إعادة تنظيم قواتها الضاربة أثناء انشغالهم في شبه الجزيرة. وأجاب لويس بأنه يعز عليه أن يطلب منه استخدام القوة لطرد حفيده من أسبانيا التي كانت قد هبت من فورها لمساندة فيليب. وقال "إذا كان لا بد من مواصلة القتال، فل أقاتل أعدائي، لا أبنائي (96)".

وأثارت مطالب الحلفاء شعور الاستياء في فرنسا. وانضم الرجال عن طيب خاطر إلى القوات المسلحة، وكان كل مهم أن يجدوا الطعام، وأرسل النبلاء ما لديهم من فضة إلى دار سك العملة، وراوغت السفن الفرنسية الإنجليز الهولنديين، وأحضرت من أمريكا سبائك تقدر قيمتها بثلاثين مليوناً من الفرنكات. وحشد جيش جديد قواته تسعون ألفاً، وضع تحت إمرة فللار الذي لم يتمكن الحلفاء من هزيمته من قبل. وفي الوقت نفسه جمع مالبرو مائة وعشرة آلاف جندي. والتقى الجمعان في مالبلانك (على الحدود المواجهة لبليجكا) في أعنف

صفحة رقم : 11563

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

معركة في القرن الثامن عشر. وفقد مارلبرو 22 ألف رجل في انتصاره الأخير، وخسر الفرنسيون 12 ألفاً، من بينهم فللار الباسل، الذي كان في السادسة والخمسين، واندفع على رأس قواته، ثم حملوه من الميدان وقد بترت إحدى ركبتيه قذيفة مدفع. وتقهر الفرنسيون بانتظام واتجه الحلفاء للاستيلاء على مونز. وكتب مارلبرو إلى زوجته يقول "الحمد لله والشكر لله، أن في مقدورنا الآن أن نحصل على الصلح الذي نريده (70)".

ويبدو أن الأمر كان كذلك. فمن الواضح أن فرنسا كانت قد بذلت أقصى ما في جعبتها، فمن أين لها بجيش ثان من بين أسراتها المنهوكه التي استنزفت دماء أبنائها، وكيف تطعمه وحقولها مهجورة مقفرة؟! لقد عمت الفوضى الزراعة والصناعة والنقل والتجارة والمالية لقد أصاب كل هذا المرافق دمار وانحلال، يهيئان للأعداء المتقدمين احتلال فرنسا وتمزيق أوصالها. أن الملك الذي كان يوماً معبود الشعب "الذي بعثه الله إليهم" بدأ يفقد حبه بل احترامهم له. أنه كان ينأى بنفسه عن باريس، لأنه لن تغب عن ذاكرته جماعة الفروند المعادية، واستاءت المدينة لطول نفوره منها وتباعده عنها، وما أشد ما استهجنت النكات والشائعات والنشرات واللافقات كبرياءه الاستبدادية استهجاناً لاذعاً (71). وتساءل الناس متعجبين، كيف تكتظ قاعات فرساي، وسط إملاق فرنسا وعوزها، برجال الحاشية المقامريرن الخاملين المترفين، على حين أن الملك وزوجته قد ركنا إلى شيء من النقوى وكبح جماح النفس. "ولم تخفض نفقات الحاشية ولم ينقص عدد موظفيها حتى النهاية (72)". وأنشد بعض الباريسييين الذين لا يجدون الخبز رواية معدلة من "دعاء الرب"، لم يستثنوا فيها لويس ولا زوجته ولا وزير خارجيته ومالبيته الجديد:

يا إلهنا الذي في فرساي، لم يعد أسماك يقدر، ولم تعد مملكتك عظيمة، ولم تعد مشينتك تنفذ في البر والبحر، أعطنا الخبز الذي نفتقد في كل مكان، اغفر لأعدائنا الذين قهرونا، لا لقوادك الذين هيئوا لهم لأن يفعلوا ذلك. لا تستسلم لكل إغواءات لامينتون، ولكن خلصنا من شاميلارد(73).

صفحة رقم : 11564

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

وقالت مدام مينتون ترثي لحال الملك: "أنهم يلومونه ويؤنبونه بسبب نفقاته، أنهم يودون الاستغناء عن جياده وكلابه وخدمه.... أنهم يريدون أن يرجموني بالحجارة لأنهم يتصورون أنني لا أبلغه شيئاً كريهاً خشية إيلاهم(74)". وكان النبلاء لا يزالون على ولائهم للملك الذي أكرمهم وحماهم، ولكن وطنيتهم تزعزت، حين طالب الملك، كآخر سهم في جعبته، بعشر دخولهم (1710). أن الضريبة العامة التي اقترحها فوبان قبل ذلك بثلاثة أعوام لتحل محل كل الضرائب الأخرى، أضيفت الآن إلى سائر الضرائب. وكان للفقراء بعض العزاء في أن يروا جياة الضرائب الكريهون يدخلون بيوت الأغنياء لفحص حساباتهم. وكره الملك أن يقم الخزائن السرية الخاصة، ولكن قسيس اعترافه، الأب تلييه، أكد له أن من رأي أساتذة السوربون "أن كل ثروة رعاياه ثروته، فإذا أخذها فكأنما يستولي على شيء يخصه(75)". وبالمثل عانت الطبقات الوسطى العليا شيئاً من الخلطة في الحماسة العسكرية، حيث أنقطع دفع الفوائد عن السندات الحكومية. وقال سان سيمون: "أن إعادة سك العملة وتخفيض قيمتها: أتاحا للملك بعض الأرباح، ولكنهما جلبا الدمار على أناس بعينهم، كما أدبا إلى الخلل في التجارة مما كان فيه توقفها التام(76)". وأعلن كبار رجال المصارف، مثل صمويل برنارد، الإفلاس، فأدى ذلك إلى تعطل كل العمال في ليون. "كان كل شيء ينهار شيئاً فشيئاً، واستنزفت المملكة بأسرها، ولم تدفع للجند رواتبهم، على أن أحداً لم يكن يتصور ماذا فعل بالملايين التي وصل إلى خزائن الملك(77)".

وفي مارس 1710 عاد لويس فطلب إلى الحلفاء عقد الصلح، وعرض أن يعترف بالأرشيدوق ملكاً على أسبانيا، وألا يقدم أي عون لفيليب، بل أن يدفع بعض الأموال للعمل على خلعه، وأن يتخلى للحلفاء عن ستراسبورج، وبريزاخ، والالزاس وليل وتورني وايبير ومينن، وفورن ومبرج، ولكنهم لم يعرضوا عليه صلحاً، بل هدنة مدتها شهران، وكان على لويس بقواته الفرنسية وحدها دون أية مساعدة من أي جانب آخر، أن يطرد فيليب من أسبانيا، فإذا عجز عن تحقيق ذلك في فترة شهرين، استأنف الحلفاء القتال(78).

صفحة رقم : 11565

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

ونشر لويس هذه الشروط على شعبه الذي اتفقت كلمته على أنها شروط يستحيل قبولها.

وحشدت فرنسا، بطريقة ما جيوشاً جديدة، وعندما غزا الأرشيدوق أسبانيا مرة ثانية بقوات إنجليزية ونمساوية، وشق طريقه لإخراج فيليب من مدريد مرة أخرى، أرسل لويس لحفيده خمسة وعشرين ألف جندي بقيادة دوق فنوم. واستطاع الدوق بمساعدة المتطوعين الأسبان أن يهزم الغزاة في بريهوجا وفلافيكوزا (ديسمبر 1710). وبهذا أعاد فيليب بشكل قاطع إلى عرشه، وبقيت أسبانيا تحت حكم البوربون حتى عام 1931.

وفي نفس الوقت كانت ربح السياسة تغير اتجاهها في إنجلترا. وكانت الملكة قد كتبت في 1706 "لست أطمع في شيء.. إلا أن أرى صلحاً مشرفاً، حتى إذا اقتضت مشيئة الله أن أفارق الحياة، وجدت كل الارتياح والطمأنينة في أن أترك بلدي المسكين وكل أصدقائي في سلام وهدوء (79)". وكانت الملكة أن تلتزم سياسة الحرب تحت تأثير دوقة مارليرو العنيفة الملتهبة حماساً، ولكن ضعف هذا التأثير الآن، وعزلت الملكة الدوقة (ساره) من خدمتها (1710)، وانحازت صراحة إلى "المحافظين"، وكان التجار والصناع والرأسماليين قد أفادوا من الحرب (80)، وأيدوا "الأحرار" صانعي الحرب. أما ملاك الأراضي فقد خسروا لأن الحرب أدت إلى زيادة في الضرائب وتضخم غي العملة، ومن ثم شجعوا الملكة في تطلعها إلى السلام. وفي 8 أغسطس عزلت جودولفين، مساعد مارليرو الأيمن، ورأس هارلي وزارة من المحافظين. ومالت إنجلترا نحو السلام.

وفي يناير 1711 أرسلت الحكومة الإنجليزية إلى باريس سرّاً، قسيساً فرنسياً، هو الأب جولثييه الذي كان قد أقام في لندن زمناً طويلاً، وقصد إلى تورسي في فرساي، وسأله "هل تريد السلام؟ لقد جئتك بوسائل تحقيقه، مستقلاً عن الهولنديين (81)". وتقدمت المفاوضات ببطء، وفجأة، وفي سن مبكرة بشكل يثير الدهشة، سن الثانية والثلاثين توفي جوزيف الأول (17 إبريل 1711) وأصبح الأرشيدوق إمبراطوراً يحمل أسم شارل السادس، ووجد الإنجليز والهولنديين الذين كانوا قد وعدوه بأسبانيا كلها، أنهم يواجهون، نتيجة لانتصاراتهم الباهظة

صفحة رقم : 11566

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

التكاليف، إمبراطورية هابسبرجية مترامية الأطراف، تهدد بالخطر الشعوب البروتستانتية وحريتها، مثلها في هذا وذلك مثل إمبراطورية شارل الخامس. وهنا عرضت الحكومة الإنجليزية على لويس الاعتراف بفيليب ملكاً على أسبانيا ومستعمراتها الأمريكية، مع بعض شروط معتدلة نسبياً: منها الضمانات ضد اتحاد فرنسا وأسبانيا تحت تاج واحد، وحصون على الحدود لحماية المقاطعات المتحدة وألمانية من غزو فرنسا لها في المستقبل، وإعادة الفتوح الفرنسية إلى وضعها السابق، والاعتراف بحق ارتقاء الملوك البروتستانت إلى العرش في إنجلترا، وطرده جيمس الثالث من فرنسا وتجريد دنكرك من السلاح، وتثبيت ملكية إنجلترا لجبل طارق ونيوفونلند ومنطقة خليج هدسن، ونقل حق بيع الرقيق للمستعمرات الأسبانية في أمريكا، من فرنسا إلى إنجلترا. ووافق لويس على هذه الشروط مع تعديلات طفيفة. وأبلغت إنجلترا لاهاي أنها تحبذ عقد الصلح على هذه الأسس. ووافق الهولنديين عليها، أساساً صالحاً للمفاوضات، واتخذت الترتيبات لعقد مؤتمر للسلام في أوترخت. وعزل مارليرو الذي كان يرى الحرب أكثر ربحاً (31 ديسمبر 1711) وعين مكانه جيمس بتلر، دوق أورمن الثاني، الذي زود بتعليمات تقضي بعدم الاشتباك في أي قتال إلا عند تلقي أوامر جديدة.

وعلى حين انعقد المؤتمر في أوترخت (أول يناير 1712)، واصل القتال يوجين الذي اعتبر الشروط الإنجليزية للصلح خيانة لقضية الإمبراطورية. وتقدم يوماً بعد يوم ليهاجم خط الدفاع الذي أقامه فيلار المجد النشط. وفي 16 يوليو أبلغت لندن أورمند أن إنجلترا وفرنسا وقعتا هدنة، وأنه يجب بناء على ذلك انسحاب قواته الإنجليزية إلى دنكرك. وامتثلت هذه القوات للأمر، ولكن الكتائب التي كانت تحت إمرة أورمند في القارة، اتهمت الإنجليز بأنهم يقون هاربون من الجندية، ووضعت نفسها تحت قيادة يوجين. وكان لدى الأمير آنذاك نحو مائة وثلاثين ألفاً، ولدى

فللار نحو تسعين ألفاً. ولكن في 24 يوليه انقض المارشال اليقظ على كتيبة قوامها اثني عشر ألفاً من الهولنديين عند دنين (بالقرب من ليل) وأبداها قبل أن يمكن يوجين من القدوم لندجتها. وتراجع الأمير عبر الشلدة ليعيد

صفحة رقم : 11567

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

تنظيم جيشه الصعب الانقياد، وتقدم فيلار للاستيلاء على دواي ولي كزنوي، وبوشان، وتشجع لويس وفرنسا، لأن هذه كانت الانتصارات الفرنسية الوحيدة على الجبهة الشمالية، ولكنها، بالإضافة إلى انتصارات فنوم في أسبانيا أضفت قوة جديدة على المفاوضين الفرنسيين في أوترخت.

وبعد خمسة عشر شهراً من المراسم والشكليات والمناقشات، وقع أطراف النزاع، فيما عدا الإمبراطور، صلح أوترخت (11 إبريل 1713) وتنازلت فرنسا لبريطانيا عن كل ما وعدت به من قبل في المفاوضات التمهيدية، بما في ذلك احتكار تجارة الرقيق الرانجة، التي تعتبر وصمة عار ذلك العصر. وقدم العدوان القديم تنازلات متبادلة عن رسوم الواردات، وأعاد الهولنديون لفرنسا ليل واير وبيتون، ولكنهم احتفظوا بالسيادة على كل الأراضي الوطنية حتى يتم عقد الصلح مع الإمبراطورية، على حين يستولي ناخب بافاريا على شارلروا ولكسمبرج ونامور، وأعيدت نامور إلى دوق سافوي. واحتفظ فيليب الخامس بأسبانيا وأمريكا الأسبانية. ورفض ثم عاد فوافق (13 يوليه) على التخلي عن جبل طارق ومينو رقة لإنجلترا. وواصل يوجين سافوي القتال ضد البريطانيين لشعوره بالمرارة نحوهم لتوقيع صلحاً منفرداً. ولكن خزانة الإمبراطورية أصبحت خاوية، ونقص جيشه إلى 40 ألفاً، على حين كان فيلار يتقدم نحوه بمائة وعشرين ألفاً. وأخيراً قبل دعوة لويس الرابع عشر له للقاء فيلار لوضع شروط للصلح. وبمقتضى معاهدة راستات (6 مارس 1714) احتفظت فرنسا بالألزاس وستراسبورج، ولكنها أعادت إلى الإمبراطورية كل الفتوحات الفرنسية على الضفة اليمنى لنهر الراين، واعترفت بحلول النمسا محل أسبانيا في حكم إيطاليا وبلجيك.

وبذلك حققت معاهدتا أوترخت وراستات أكثر قليلاً مما كان يمكن أن تحققه الدبلوماسية بالوسائل السلمية في 1701. وبعد ثلاثة عشر عاماً من القتل والإبادة والفقر والتخريب. ثبتت هاتان المعاهدتان خريطة أوروبا لمدة ستة وعشرين عاماً، كما ثبتتها معاهدات وستاليا لمدة جيل واحد بعد حرب الثلاثين عاماً. وكانت المهمة في كلتا الحالتين إقامة توازن القوى بين أسرتي هابسبورج والبوربون. وقد تم هذا بالفعل. وقام شبيه لهذا التوازن بين فرنسا وإنجلترا في أمريكا واستمر حتى نشوب حرب

صفحة رقم : 11568

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

السنين السابع (1756-1763).

وأهم الخاسرين في هذا النزاع الدموي حول الوراثة الأسبانية هما هولندا وفرنسا، لقد كسبت الجمهورية الهولندية أرضاً، ولكنها خسرت سيادة البحر، فلم تعد قادرة على مباراة إنجلترا في حمولة السفن أو في فن الملاحة أو في الموارد أو في الحرب، أن انتصارها استنزفها وأنهكها، فبدأت تضمحل. كذلك ضعفت فرنسا إلى حد يكاد يكون خطيراً. لقد بقت على مرشحها لعرش أسبانيا، ولكنها أخفقت في الإبقاء على إمبراطوريته سليمة لم تمس، ودفعت ثمناً لهذا النصر القاتم الذي فقد بريقه، حياة مليون من أبنائها بالإضافة إلى ضياع سيادتها على البحار، وانتهيار حياتها الاقتصادية بصفة مؤقتة. ولم تكن فرنسا لتفقد وتلتقط أنفاسها من عصر لويس الرابع عشر، قبل ظهور نابليون، ولكن لمجرد أن تعيد مأساة لويس.

أما الفائزان في الحرب فهما النمسا داخل القارة، وإنجلترا في كل مكان خارجها. فقد استولت النمسا آنذاك على ميلان ونابلي وصقلية وبلجيكا، وأصبحت أعظم قوة في أوروبا حتى ارتقاء فرديريك الأكبر العرش (1740). وفكرت إنجلترا في السيادة على البحار أكثر مما فكرت في التوسع في الأرض. وحصلت على نيوفونلند ونوفا سكوشيا، ولكن كان تحكمها في طرق التجارة أكبر قيمة لديها. وأرغمت فرنسا على تخفيض رسومها الجمركية، وعلى أن تجرد من السلاح قلعة دنكرك وثرغها اللذين كانا يشكلان خطراً على السفن الإنجليزية. ويفضل جبل طارق في أسبانيا، وبورت ماهون في مينورقة استطاعت إنجلترا أن تسيطر على البحر المتوسط. ولم يكن لهذه المكاسب مشهد مثير في 1713، ولكن كان لا بد أن تدون نتائجها في تاريخ القرن الثامن عشر. وفي نفس الوقت أمنت العقيدة البروتستانتية وارتقاء البروتستانت إلى العرش شر العوادي، اللهم إلا نسبة المواليدين.

وثمة نتيجة هامة للحرب، تلك هي اشتداد الروح القومية، وروح الكراهية بين الدول، حيث نسبت كل أمة مكاسيها وتذكرت جراحها. فما كان لألمانيا أن تغفر اجتياح البالاتينات وتخريبها مرتين. ولم تكن فرنسا لتنتسى بسرعة المذابح التي لم يسبق لها مثيل في انتصارات

صفحة رقم : 11569

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> حرب الوراثة الإسبانية

مارلبرو، وكانت أسبانيا تعاني كل يوم عار وقوع جبل طارق في أيد أجنبية. وباتت كل أمة ترقب أن تحين الفرصة للانتقام.

أن بعض ذوي النفوس الكريمة الذين اعتقدوا أن أوروبا قارة المسيحيين راودهم حلم الوصول إلى بديل عن الحرب. وكان شارل كاسل، من رهبان كنيسة القديس بطرس قد رافق الوفد الفرنسي إلى وترخت، فلما عاد نشر خطة لتثبيت دعائم السلام الجديد، وتمنى لو أن أمم أوروبا أتيح لها أن تتحد في "عصبة أمم" مع مؤتمر دائم من المندوبين عنها، ومجلس للتحكيم في النزاع، ونظام لقانون دولي، وقوة مسلحة مختلطة للوقوف في وجه أية دولة متمردة، وتخفيض أي جيش وطني إلى ستة آلاف رجل، وإيجاد مقاييس وعملة موحدة تستخدم في كل أنحاء أوروبا (82). وقدم الراهب مشروعاً إلى ليننتز، الذي لم يعد يثق بأن هذا أفضل العوالم الممكنة، فذكر الراهب "بأن ثمة قدراً مشئوماً يعترض دوماً طريق الإنسان إلى تحقيق سعادته (83)" فالإنسان حيوان نزاع إلى المنافسة، وخلقه هو قدره.

صفحة رقم : 11570

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> أفول نجم الإله

6- أفول نجم الإله

1713-1715

أن لويس الرابع عشر، لو حكمنا عليه بمعايير عصره، لم يكن الغول البشع، الذي صورته المؤرخون المعادون، وكل الذي أقرته هذا الملك هو أنه طبق على نطاق أوسع، ولفترة من الزمن، مع نجاح بغيض، نفس أساليب الحكم المطلق والتوسع الإقليمي، والغزو العسكري التي تميز بها سلوك أعدائه ومطامعهم، بل أن وحشية جيوشه في البالاتينات كانت لها سابقة في أعمال السلب والنهب في مجدبرج (1631)، وخاتمة في مذابح مارليرو. على حين أن لويس تميز بأنه قد امتد به الأجل حتى تتأثر منه في شخصه، لا في أبنائه، "ربات الانتقام" لكل ما جنى عليه غروره وصلفه وسلطانه من آثام.

ولم يبخره التاريخ حقه في شيء من الإعجاب بما أبدى من شجاعة ووقار عند هزيمته، كما استشعر شيئاً من الإشفاق عليه في الكوارث التي دمرت تقريباً أبنائه وجيوشه وأساطيله في وقت معاً. وفي 1711 مات ابنه الشرعي الوحيد "الدوفين الأكبر" لويس، تاركاً وراءه الملك وحفيدين صغيرين لويس دوق برجندي، وشارل دوق بري. وتحلى

صفحة رقم : 11571

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> أفول نجم الإله

لويس الأصغر بمناقب عظيمة بفضل رعاية فنليون وسهره على تربيته وتهذيبه، وأصبح عزاء الملك وسلواه في شيخوخته. وفي 1697 تزوج لويس الأصغر من ماري أدليد سافوي، التي ذكر جمالها وذكائها ومفاتها، الملك بدمام هنريتا وشبابه السعيد معها. ولكن في 12 فبراير 1712 أودت الحمى المتقطعة بهذه الروح المرححة في سن السادسة والعشرين. وأبى زوجها المخلص أن يتخلى عن سير مرضها، فانتقلت إليه العدوى، ومات بنفس المرض في 18 فبراير وهو في سن التاسعة والعشرين، بعد وفاة أبيه بعام واحد. وانتقلت العدوى منهما إلى طفليهما، ومات أحدهما في 8 مارس في سن الثامنة، أما الأصغر فقد بقي على قيد الحياة، في حالة من الضعف والهزال لم يكن أحد يحلم معها بأنه سيعيش ليحكم فرنسا حتى 1774 باسم لويس الخامس عشر. ولو أن هذا الصبي الهزيل قضى نحبه لكان وريث العرش شارل دوق بري، ولكن شارل توفي في 1714.

وكان ثمة خليفة آخر يمكن أن يوول إليه العرش-هو فيليب الخامس ملك أسبانيا الابن الأصغر للدولفين الأكبر، ولكن نصف أوربا تعهد بالحيلولة بينه وبين الجمع بين التاجين. وكان يليه في ترتيب الوراثة، فيليب دوق أورليان حفيد لويس الثالث عشر، وابن أخي الملك وزوج ابنته. ولكن فيليب هذا كان له معمل واصل فيه تجاربه في الكيمياء. ولذلك

تناقل الناس اتهامه بدس السم لدوق ودوقة برجندي وابنهما الأكبر. وقد اختلف الأطباء حول استخدام السم، واستشاط فيليب غضباً لهذه الشبهات، وطلب إلى الملك أن يقدمه لمحاكمة علنية، واعتقد لويس أنه بريء، وأبى تعريضه للمحاكمة والتعذيب حتى تثبت براءته أو إدانته، وأن يلحق به هذا العار. وكان ثمة ملجأ أو حل أخير، إذا أخفقت فروع الوراثة هذه. وذلك أن الملك كان قد أضفى الشرعية على ابنه غير الشرعيين دوق مين وكونت وف تولوز. وفي ذلك الوقت (يوليه 1714) أصدر الملك مرسوماً سجله برلمان باريس دون معارضة، ينص على أنه في حالة عدم وجود أمراء يجري في عروقهم الدم الملكي، يكون لهذين الابنين غير الشرعيين سابقاً حق وراثة العرش. وبعد سنة من ذلك، أصدر

صفحة رقم : 11572

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> أقول نجم الإله

مرسوماً آخر بمساواتهما في الرتبة من الوجهة القانونية بالأمراء الشرعيين، وكان لهذا القرار وقع الصاعقة على سان سيمون والنبلاء الآخرين(84)، وكانت أمهما مدام دي مونتسبان قد ماتت، ولكن أمهما بالتشنه، زوجة الملك، أحبتهما مثل أولادها. واستخدمت نفوذها للنهوض بهما في مراقي الشرف والسلطة والجاه. وفي غمرة هذه المشاكل وفقدان الأولاد، واجه لويس الأزيمة الأخيرة في الحرب. وعندما كان يودع فيلار الذي كان في طريقه لملاقاة يوجين الذي كان يتقدم إلى جبهة بلجيكا، انهارت فجأة قوى الملك الذي كان آنذاك في الرابعة والسبعين، وهو يقول "أنت ترى الآن حالي أيها المارشال، ليس ثمة إلا أمثلة قليلة لما أصابني-أفقد في نفس الشهر حفيدي وحفيدي وابنهما وكانوا جميعاً واعدين مبشرين بحسن المستقبل، وكنت أحبهم. أن الله يعاقبني، وأنا استحق العقاب، سيخف عذابي في الدار الآخرة". ولما أفاق استطرد يقول: "فلنطرح جانباً المآسي والنوائب المنزلية، لنرى كيف نتفادى كوارث المملكة. أني أعهد إليك بقوات الدولة وبخليصها. قد لا يحالفك الحظ، فإذا حلت الكارثة بالجيش الذي تتولى قيادته، فماذا في رأيك هي الخطة التي انتهجها أنا شخصياً؟" ولم ينبس فيلارد ببنت شفة. فقال الملك "لا يدهشني ألا تجيبيني على الفور. وفيما انتظر أن تفصح لي عن رأيك، أبلغك أنا رأيي. أني أعرف تفكير رجال حاشيتي، إنهم جميعاً تقريباً يريدونني أن أوى إلى بلوا (مدينة في أواسط فرنسا على نهر اللوار) إذا حلت الهزيمة بجيشي. أما بالنسبة لي، فأنا أعلم، أن جيوشاً بمثل هذه الضخامة لا يمكن أبداً أن تنهزم إلى الحد الذي لا يستطيع معه الجزء الأكبر منها أن يرتد إلى السوم. وهو نهر من الصعب عبوره، وينبغي أن أذهب إلى بيرون أو سانت كنتان، وأجمع هناك كل ما أستطيع جمعه من قوات، وأبذل معك محاولة أخيرة، فأما هلكتنا معاً أو أنقذنا الدولة(85)". وخذع انتصار فيلار في معركة دنين الملك بالأمل في مينة بطولة. ولكنه بقي على قيد الحياة بعد المعركة بثلاثة أعوام، وبعد الصلح بعامين. وفيما عدا الناصور الشرجي الذي شفي منه منذ فترة طويلة، ظل الملك يتمتع بالصحة إلى حد معقول لمدة سبعين عاماً. ولم

صفحة رقم : 11573

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> أقول نجم الإله

يعتدل في مأكله، ولكنه لم يصبح بديناً قط. ولم يسرف في الشراب، ولم يهمل القيام بتمارين رياضية قوية في الهواء الطلق، إلا لأيام قلائل، حتى في الشتاء الفارس 1708-1709. ومن العسير أن نجزم بأنه كان يمكن أن يعمر أطول مما عاش، إذا كان عدد أطبائه أقل مما كان عليه، أو أن الأدوية المسهلة والفضد وامتصاص العرق وغير ذلك مما استخدموا في علاجه، كانت أسوأ أثراً من الأمراض التي قصدوا إلى إنقاذه منها. وفي 1688 أعطاه أحد الأطباء دواء مسهلاً قوياً إلى حد أن مفعوله ظهر إحدى عشرة مرة في ثمان ساعات، أحس بعدها بشيء من التعب، كما قالوا (86). وعندما رسم ريجو في 1701 الصورة المتألفة في اللوفر، فإنه أبرز لويس وكأنه لا يزال متعطراً مزهواً بالقوة والنصر والغلبة والملابس الرسمية، والشعر الأسود المستعار الذي يخفي المشيب، والوجنات المنفخة التي تتم على الشهوة، وبعد ذلك بسبع سنين أبرزه كويسفوكس في التمثال الضخم في نوتردام، راکعاً يصلي، ولكن لا يزال أشد شعوراً بالملكية منه بالموت، وربما كساه الفنانون بزهو واعتداد بالنفس أكثر كما أحس هو به، لأنه كان قد تعلم في سنوات الخيبة والإخفاق والمحن المتفاقمة، أن يتقبل اللوم والعتاب في شيء من التواضع والخضوع، على الأقل من ميننتون (87). وأصبح كالطفل بين يدي يسوع متعصب هو تلميذه الذي كان قد خلف الأب لاشيز "كاهن الاعتراف للملك" في 1709. "أن خليفة شارلمان طلب الصفح عن خطاياها من ابن أحد الفلاحين (88)" وارتفعت إلى السطح المبادئ القوية للكتلثة والتقوى التي كان قد تلقاها من أمه، حين انحسرت الآن الأهواء والعواطف، وفقدت العظمة بريقها. وراجت شائعة بأن الملك في موجة تبثله كان قد انتسب إلى جماعة اليسوعيين في 1705، وأضافت أنه في مرضه الأخير أخذ على نفسه العهد الرابع أن يكون عضواً كامل العضوية في "جماعة يسوع (89)". وفي يناير 1715 فقد الملك شهيدته المعهودة، واشتد توجهه بشكل واضح إلى حد المراهنة في هولندا وإنجلترا على أنه لن يعيش عامه (90) فلما قرأ قصاصات الأنبياء عن هذا الرهان سخر منها وظل على منهجه المعتاد في حضور المؤتمرات واستقبال السفراء وعرض الجند والصيد،

صفحة رقم : 11574

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> أقول نجم الإله

وكان يختم يومه مع زوجته المخلصة المنهوكة ميننتون، وهي آنذاك في التاسعة والسبعين. وفي 2 أغسطس كتب وصية عين بمقتضاها دوق مين وصياً على لويس الخامس عشر، وعين الدوق رئيساً لمجلس وصاية يتولى حكم فرنسا حتى يبلغ الصبي رشده. وفي 12 أغسطس انتشرت القروح في ساقه وتسمت (أصببت بالغنغرينا) وأصبحت كريهة الرائحة، وانتابته الحمى ولزم الفراش وفي 25 أغسطس كتب ملحقاً للوصية عين فيه فيليب أورليان رئيساً لمجلس الوصاية. على أن يكون له الصوت المرجح عند انقسام الآراء. وقال لاثنين من القضاة تسلما الوثيقة: "لقد كتبت وصية، أنهم- (ربما كان يقصد ميننتون ودوق ودوقة مين وأنصارهم) ألحوا عليّ في كتاباتهم، وكان لزاماً أن اشتري راحتتي. ولكن لن يكون لها أية قيمة بمجرد أن ألفظ أنفاسي الأخيرة. أنني أعلم جيداً ماذا كان من أمر وصية والدي (91)". وقد لهذه الوصية المضطربة أن تكتب فصلاً في التاريخ الفرنسي. ومات لويس "ملكاً" تكلمه كل مظاهر الملكية. وبعد تناول الأسرار المقدسة وجه إلى رجال الدين الذين أحاطوا بسريره، اعترافاً إضافياً لم يقابلوه بالترحيب:

يؤسفني أن أترك شؤون الكنيسة في وضعها الراهن. أنني أجهل الموضوع جهلاً تاماً كما تعلمون. وأني لأدعوكم لتكونوا شهداء على أنني لم أفعل إلا ما أردتم أنتم، وأني فعلت كل ما أردتم، وستقفون أنتم بين يدي الله لتجيبوا عن كل

ما تم عمله. أني أحملكم مسئولية هذا أمام الله. أن لي ضميراً نقياً. وما أنا إلا جهول أسلمت نفسي لتوجيهكم(92). ثم وجه الحديث إلى رجال حاشيته:

أيها السادة، أسألكم الصفح عن المثل السيئ الذي ضربته لكم. وينبغي أن أقدم لكم أجزل الشكر على الطريقة التي خدمتموني بها، على الإخلاص الذي ظهرتموه دائماً. وأرجوكم أن تقدموا نفس الغيرة والإخلاص اللذين منحتموني إياها لحفيدي، أنه صبي قد يكون أمامه أن يعاني كثيراً. وكل أمني أن تعملوا جميعاً من أجل الاتحاد. فإذا قصر أحد في هذا فعليكم أن تحاولوا رده إلى جادة الصواب والواجب. أني الحظ أني أترك لمشاعري العنان فتستبد بي، أني أسبب لكم شيئاً من الضيق، فاعفروا لي هذا كله. وداعا

صفحة رقم : 11575

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> أقول نجم الإله

أيها السادة، أنا واثق أنكم ستذكرونني أحياناً(93). وطلب إلى دوقه فنتادور إحضار حفيده وكان في سن الخامسة، فقال له، طبقاً لرواية الدوقة:-
أي بني، انك ستصبح ملكاً عظيماً، لا تتبع مسلكي في البناء أو في الحرب، حاول، على العكس، أن تكون في سلام مع جيرانك. اترك ما لله الله، ووف بالتزاماتك نحو الله، واحمل رعاياك على تقديسه وطاعته، وحاول أن تخفف عن شعبك، وهذا ما لم أفعله أنا، لسوء الحظ. ولدي العزيز، أني أمنحك بركتي من كل قلبي(94).
والتقت إلى اثنين من الخدم رأهما يذرفان الدمع وقال "ماذا تكيان، هل ظننتما أني مخلد(95)؟. ثم اتجه إلى مدام ميننتون ليعيد إليها شيئاً من الطمأنينة وقال: "لقد ظننت أن الموت أصعب من ذلك. أوكد لك أنه ليس عملية فظيعة، أنه لا يبدو لي شاقاً مطلقاً(96)". وطلب إليها أن تتركه، وكأنما كان يدرك أنها ستصبح بعد موته نفساً ضائعة وسط الوعي الطبقي السائد بين أفراد حاشيته. فأوت إلى جناحها، ووزعت أثاثها بين مرافقيها وخدمها، ورحلت إلى سان سير التي لم تبرحه حتى وفاتها 1719.
وكان الملك يتحدث في ثقة بالغة، ثم قضى ليلة طويلة في كرب شديد يعاني سكرات الموت وهو في النزاع الأخير، حتى وافاه الأجل في أول سبتمبر 1715، ومن سنوات عمره السبع والسبعين، قضى اثنين وسبعين عاماً على العرش، وهذا أطول حكم في تاريخ أوروبا. أما رجال الحاشية القلقون على وظائفهم، فإنهم حتى قبل أن تحين اللحظة الأخيرة هجروه ليقدموا ولاءهم وإجلالهم إلى فيليب أورليان ودوق مين. واجتمع بعض اليسوعيين حول جثمانه ليقيموا بالطوقس المعهودة لمن مات من أبناء طائفتهم(97). وتلقى أهالي باريس نبأ موت الملك على أنه خلاص مبارك من حكم طال أكثر مما ينبغي، ورأى عظمته يلطخها البؤس والهزيمة. ولم يوفروا إلا القليل من مظاهر الأبهة والعظمة للجنزة التي سارت بجثمان أشهر ملك في تاريخ فرنسا إلى سان دنيس في 9 سبتمبر. قال فولتير "على طول الطريق رأيت خياماً صغيرة منصوبة يشرب فيها الناس ويغنون ويسمرون(98)" وكان دوكلاس آنذاك في الحادية عشرة، ولكنه تذكر فيما بعد "أن كثيراً من الناس بلغ من حقرتهم أنهم كانوا يصبون اللعنات والشتائم عند مرور النعش بهم(99)".

صفحة رقم : 11576

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> أقول نجم الإله

وفي تلك اللحظة تذكر الباريسيون أخطاء الملك الراحل، وبدت لهم في وضح غطى على ما عداها. وأحسوا أن حبه للجاه والسلطان والعظمة قاد فرنسا إلى حافلة الخراب. وكرهوا غطرسته واعتداده بنفسه اللذين دمرا الحكم الذاتي المحلي، وركزا كل الحكم في إرادة واحدة لا يستطيع أحد أن يتحداها. ورثوا لملايين الفرنكات التي أنفقت وآلاف الأرواح التي أزهقت في تجميل فرساي، وصبوا اللعنات على إهمال الملك شأن عاصمته المشاغبة المتمردة. وأبهجت فئة قليلة لأن اضطهاد الجانسينيين قد يتوقف بعد موته، على أن أغلبية كبيرة ظلت تمتدح طرد الهيجونوت. وفي استرجاع الأحداث الماضية والتأمل فيها، كان واضحاً أن غزو هولندا في 1672، وغزو ألمانيا 1688، والتسرع في الاستيلاء على مدن الحدود في 1701، كانت كلها أخطاء جسيمة جلبت على فرنسا عداوة الكثيرين من كل جانب. ولكن كم من الفرنسيين كانوا قد استنكروا هذه الفتوحات، ونطقوا بكلمة حق في اجتياح البالاتينات؟ لقد كانت الأمة أئمة مدانة قدر إثم مليكها وإدانته، أنها لم تأخذ عليه جرائمه بل هزائمها. بأنها، باستثناء بعض القساوسة، لم تشجب فسقه وفجوره وزناه. ولم تظهر تحمساً لإصلاحه الخلقي، أو تقواه أو إخلاصه لزوجته غير المتكافئة معه، ونسيت الآن أنه كان لعدة سنين قد زين سلطانه من اللطف والكرامة والإنسانية (100). وأنه إلى أن ركب شيطان الحرب، كان يؤيد كولبير في تنمية الصناعة والتجارة في فرنسا، وأنه كان قد حمى موليين من المتعصبين، وراسين من عصابات المتأمرين، وأن إسراره في الإنفاق لم يكن لحساب ترفه وبذخه فحسب، بل أنه كذلك هياً به لفرنسا تراثاً ضخماً من الفن.

أن ما اختلج في أعماق الشعب بشكل أوقع وأعدل، هو ما كانوا قد دفعوه من دمائمهم وأموالهم، ثمناً لمجد تقوضت أركانه يموت الملك وإفقار فرنسا وخرابها. فندر أن وجدت في الأمة أسرة لم تفقد أحد أبنائها في الحروب، ونقص عدد السكان إلى حد باتت معه الحكومة تقدم جوائز للوالدين الذين لديهم عشرة أبناء. وكانت الضرائب قد خنقت الحافز الاقتصادي، كما سدت الحرب منافذ التجارة، وأغلقت الأسواق الأجنبية في وجه البضائع الفرنسية، ولك تكن الدولة مفلسة فحسب، بل كانت كذلك مدينة بنحو ثلاثة آلاف مليون من الفرنكات (101). وضاع ما كان للنبلاء من نفع وأثر، حين انصرفوا عن الإدارة المحلية إلى التسكع في أروقة البلاط، ولم يتألقوا إلا في ملابسهم الثمينة وبسالتهم العسكرية. وظهرت طبقة جديدة من النبلاء

صفحة رقم : 11577

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا تواجه أوروبا -> غروب الشمس -> أقول نجم الإله

عن طريق بيع الألقاب بالجملة لعامة الناس. وفي سنة واحدة منح الملك لقب النبالة لخمسمائة شخص مقابل ستة آلاف جنيه دفعها كل منهم، وبذلك أصبح أبناء البيوتات العريقة أتباعاً لأبناء رقيق الأرض. وما لم تعد الحرب صراعاً بعيداً بين المرتزقة والمجادلين، بل اختبأ مضمناً مزعجاً للموارد والاقتصاديات ورجل الدين، وازدهر الرأسماليين وسط الاضمحلال العام. ذلك أنك تجد في الدول الحديثة أن الرجال الذين يستطيعون أن يسوسوا الناس، لا يسوسون إلا من يستطيعون أن يدبروا الأمور، وأن يستطيعون تدبير المال يسوسون الجميع.

وفي حكمنا على لويس الرابع عشر ينبغي أن نتذكر قوله جوتة الماثورة الإنسانية، بأن رذائل المرء هي من تأثير عصره. على حين أن فضائله نابغة منه، أو كما أوردها الرومان في إيجاز متميز "الرذائل هي رذائل الزمان لارذائل الإنسان (102)" أن حكمه الاستبدادي المطلق، والتعصب الذي حدا به إلى الاضطهاد والتعذيب، والتلهف على السلطة

والميل للحروب، ركبت كلها فيه باعتباره ابناً لعصره ولكنيسته. أما كرمه وسخاؤه وشهامته وكياسته، وتقديره وتشجيعه للأدب والفن، وقدرته على احتمال أعباء حكومة مركزية بعيدة المدى، فهي كلها صفاته الشخصية التي جعلت منه ملكاً بكل معاني الكلمة. وكتب جوتة: أن الطبيعة أبدعت في لويس الرابع عشر نوعاً كاملاً من الطراز الأول للنمط الملكي، وبهذا أنهكت نفسها وحطمت القياس (103). وقال نابليون "كان لويس الرابع عشر ملكاً عظيماً، وهو الذي رفع فرنسا إلى المرتبة الأولى بين الأمم. وأي ملك من ملوك فرنسا منذ عهد شارلمان يمكن أن يقارن به في كل نواحيه؟" (104). ومن رأي لورد أكتون أنه "كان إلى أبعد حد، أقدر من ولد في العصور الحديثة على درجات سلم أي عرش (105)". لقد شن حروباً مدمرة، وسخر كيرياه في إسراف في البناء والترف، وخنق الفلسفة، وأثقل كاهل شعبه بالضرائب إلى حد الإملاق والعوز، ولكنه هياً لفرنسا حكومة منظمة، ووحدة وطنية، وعظمة ثقافية، بلغت بها مرتبة الزعامة التي لا نزاع فيها على العالم الغربي. وأصبح علماً على أسمى عهد زاهر لبلاده ورمزاً له. أما فرنسا التي تعيش على المجد والعظمة، فقد تعلمت أن تغفر له تدميره لها في سبيل أن يجعلها عظيمة.

صفحة رقم : 11578

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> كلمة اعتذار

المجلد التاسع

عصر فولتير

تاريخ الحضارة في أوروبا الغربية من 1715 إلى 1756

مع التنويه الخاص بالصراع بين الدين والفلسفة

مقدمة

كلمة اعتذار

يجب أن يُلقى اللوم لطول هذا المجلد على المؤلفين اللذين أغرهما بالإسهاب الشديد افتتانهما بموضوعه المحوري- ونعني به الصراع الغالب، المتصل، بين الدين والعلم، مضافاً إليه الفلسفة، ذلك الصراع الذي استحال إلى مسرحية حية في القرن الثامن عشر، وتمخض عن علمانية عصرنا المستترة. فكيف حدث أن شطراً كبيراً من الطبقات المتعلمة في أوروبا وأمريكا فقد الإيمان بلاهوت ظل خمسة عشر قرناً يقدم خوارق الدعائم والأسانيد للقانون الأخلاقي القلق، المتنافر، الذي أرسيت فوقه الحضارة الغربية؟ وأي آثار في الأخلاق والأدب، والسياسة-سياسي عنها هذا التغيير، الأساسي رغم صمته؟

لقد ازداد التفصيل في كل مجلد بتكاثر أحداث الماضي وشخصياته التي لا تزال اليوم حية في تأثيرها وتشويقها. ولعل هذا التكاثر، بالإضافة إلى تعدد الموضوعات-التي تنتظم جميع مناحي الحضارة في أوروبا الغربية من 1715 إلى 1756-ينهض عن طوله قصة وتشعبها. وهكذا فجر "عصر فولتير" ضفافه وفاض بجزء عاشر نووي إصداره عن "روسو والثورة" يبلغ بالقصة عام 1789. وسيتناول هذا الجزء العاشر التغيير الذي أحدثته حرب السنوات السبع في خريطة العالم، والسنين الأخيرة التي اختتمت بها حياة لويس الخامس عشر، 1756-74، وعصر جونسون وريبولدز في إنجلترا، وتطور الثورة الصناعية وازدهار الأدب الألماني من لسنج على جوته، والفلسفة الألمانية من هردر إلى كانت، والموسيقى الألمانية من جلوك إلى موتسارت، وانهيار الإقطاع في فرنسا لويس السادس عشر، وتاريخ تلك الأمم المحيطة بالقارة-وهي السويد، والدنمرك، وبولنדה، وروسيا، وتركيا، وإيطاليا، والبرتغال، وأسبانيا-التي أرجأنا تناولها في هذا المجلد قصداً في المساحة من جهة، ولعدم تورطها مباشرة في الصراع العظيم بين العقل والإيمان من جهة أخرى (إلا عن طريق البابوية). وسينظر هذا المجلد الختامي في مراحل ذلك الصراع

صفحة رقم : 11579

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> كلمة اعتذار

اللاحقة، منمثلة في ثورة روسو على العقلانية، وجهد ايمانول كانت البطولي لإنقاذ اللاهوت المسيحي عن طريق الأخلاق المسيحية. وسوف تستكمل لوحة عصر فولتير في ذلك الجزء العاشر من قصة الحضارة" وتعرض خاتمة هذا المجلد التاسع الدفاع عن الدين، أما خاتمة "روسو والثورة" التي تلقي نظرة محيطية على المجلدات العشرة كلها، فستتصدى لسؤال يبلغ بموضوع الكتاب ذروته: ما هي عظات التاريخ وعبره؟

ولقد حاولنا أن نصور الواقع بالمزج بين التاريخ والسير. وستثير هذه التجربة نقد الناقدين-ولا ضير في هذا، ولكنها تحقق هدف "التاريخ المتكامل". ذلك أن الأحداث والأشخاص تسيرون جنباً إلى جنب خلال الزمن دون اعتبار لأبيها كانت الأسباب وأبيها النتائج، والتاريخ يتكلم في الأحداث، ولكن خلال الأفراد. وليس هذا المجلد سيرة لفولتير، إنما هو يستخدم حياته الجواله الثائرة نسبياً يربط بين الأمم والأجيال، ويقبله بوصف أعظم الأعلام دلالة وأكثر إيضاحاً في الفترة بين موت لويس الرابع عشر وسقوط الباستيل. فمن من بين جميع الرجال والنساء الذي عاشوا في تلك الحقبة المضطربة أنصع من فولتير صورة في ذاكرة الناس، وأعطى بقراعتهم الكثيرة لأعماله، وأبقى تأثيراً فيهم اليوم؟ يقول جيورج برانديس "إن فولتير خلاصة قرن من الزمان(1)". ويقول فكتور كوزان "إن الملك الحقيقي للقرن الثامن عشر هو فولتير(2)". فلنسر إذن خلف ذلك اللهب المتوهج خلال القرن الذي عاش فيه.

صفحة رقم : 11580

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير الشاب

الفصل الأول

فرنسا الوصاية

1723-1715

1- فولتير الشاب

1715-1694

لم يكن اسمه بعد فولتير ، بل كان حتى إطلاق سراحه من الباستيل في 1718 يدعى فرانسوا ماري أرويه. وقد ولد بباريس في 21 نوفمبر 1694 ، وأصبح خلاصتها المصفاة حتى 1778. أما الرجل الذي يفترض أنه أبوه، واسمه فرانسوا أرويه، فكان محمياً ميسور الحال، عرف الشاعر بوالو والغانية نينون دلانكلو، وكتب وصيتهما، وعرف المسرحي بيير كورني، ووصفه بأنه "أثقل من لقي من الناس ظلاً(1)". وأما أمه، ماري مارجريت دومار، فكان يجري في عروقتها قدر طفيف من الدم النبيل، وكانت ابنه موظف في "البرلمان" وأخت المراقب العام للحرس الملكي، ومن طريقهما استطاعت الوصول إلى بلاط لويس الرابع عشر. وقد جعلت حيويتهما ذكاًؤها المرح من بيتها صالوناً صغيراً. وذهب فولتير إلى أنها ملكت كل ما وهبت أسرته من ذكاء، كما ملك أبوه كل ما أوتيت من دراية مالية، وقد استوعب الابن الموهبتين جميعاً فيما ورثه. وماتت أمه في الأربعين وهو لم يجاوز السابعة. وكان أكبر أبنائها الخمسة أرمان، الذي كان غيوراً على لاهوت الجانسنيين حريصاً على ميراث الأسرة. أما أصغر الأبناء

فرانسوا ماري، فكان معتاداً في عامه الأول، حتى أن أحداً لم يصدق أن ستكتب له الحياة. وقد ظل حتى الرابعة والثمانين يتوقع موته المبكر ويذيعه على الناس.
وكان من بين أصدقاء الأسرة عدة "آباء" abb(s) وهو لقب كان يخلع على أي كنسي علماني، سواء كان قسيساً مرسوماً أو لم يكن. وقد أصبح كثير من هؤلاء الآباء رجال دنيا لا دين، لمعوا في المجتمع رغم تمسكهم برداء الكهنوت، ومنهم من ألفوا المشاركة المسافرة في

صفحة رقم : 11581

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير الشاب

مجالس خلت من الوار، ومنهم من عاش كما يشتهي متسترأ وإن حافظ على مظهر لقيه. مثال ذلك الأبويه دساتو نوف، آخر عشاق نينون دلاتكلو وأول معلم لفولتير. وكان رجلاً واسع الثقافة، ربح الأفق، وقد أشرب تلميذه وثنية نينون وارتياحه مونتيني. وفي رواية قديمة مشكوك فيها أنه قدم للصبي ملحمة هازلة تدعى "الملحمة الموسوية" كانت تتداول في مخطوطات سرية، ومؤداها أن الدين، إذا استثنينا الإيمان بكانن أعظم، ليس إلا نريعة يتذرع بها الحكام لإخضاع المحكومين وإرهابهم(2).

بدأ تعليم فولتير حين اصطحبه معلمه "الأبيه" في زيارة لنينون، وكانت الغانية الشهيرة يومها (1704) في الرابعة والثمانين. ووجدها فرانسوا "يابسة كالمومياء" ولكنها ما زالت فياضة بركة المرأة وعطفها. وقد تذكر في تاريخ لاحق صنيعها فقال "لقد طاب لها أن تذكرني في وصيتها، فتركت لي ألفي فرنك لأشتري بها كتاباً(13)". وماتت بعد ذلك بقليل.

ورغبة في موازنة هذا الغذاء ألحق الصبي وهو في العاشرة طالباً مقيماً بكلية لوي-لجران اليسوعية على شاطئ باريس الأيسر، التي اشتهرت بأنها أفضل مدرسة في فرنسا. وكانت تضم بين تلاميذها الألفين من أبناء الأشراف كل من أطاق أن يتعلم، وفي السنوات السبع التي أنفقها فولتير في مدرسته صنع الكثير من الأصدقاء الأرستقراطيين الذين احتفظ طوال حياته بالألفة الطبيعية معهم. وقد تلقى تدريبات حسناً في الدراسات الكلاسيكية، والأدب، ولا سيما المسرحية، ومثل في مسرحيات عرضت هناك، وكتب هو نفسه تمثيلية وهو بعد في الثانية عشرة. وكان متقدماً في دراسته، وظفر بجوائز كثيرة وأبهج معلميه وأفرعهم. فلقد أعرب عن عدم إيمانه بالجحيم، وسمى السماء "عنبر نوم الدنيا الكبير(4)". وتنبأ أحد معلميه في حزن بأن هذا الفكر الصغير سيحمل لواء الربوبية الفرنسية-أي الدين الذي يرفض كل لاهوت تقريباً فيما عدا الإيمان بالله. على أنهم احتملوه بما عهد فيهم من صبر وأناة، وبادلهم هذا الصنيع باحتفائه طوال هرطقاته كلها باحترام وعرفان بالجميل

صفحة رقم : 11582

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير الشاب

دافئين لليسوعيين الذين راضوا عقله على الوضوح ودربوه على النظام كتب وهو في الثانية والخمسين يقول: "تلقيت العام سبع سنين على يد رجال بذلوا جهوداً مضنية لم ينالوا عليها جزاء ليربوا عقول الشباب وأخلاقهم... ولقد أشربوني ميلاً إلى الأدب، وعواطف ستكون عزاء لي إلى نهاية عمري. وما من شيء سيمحو من قلبي ذكرى الأب بوريه، الذي هو عزيز بالمثل على كل من أخذوا عنه العلم. فإن أحداً من المعلمين لم يحب تلاميذه في الدرس والفضيلة كما فعل ذلك الأب... وقد أسعدني الحظ بتلقي العلم على أكثر من أب يسوعي جعلته أخلاق الأب بوريه.. فما الذي رأيته خلال السنين السبع التي قضيتها مع اليسوعيين؟ أكثر ضروب الحياة جداً وقصداً وتنظيماً، أوقاتهم كلها قسمة بين رعاية يبذلونها لنا وممارسات لمهنتهم الشاقة. وأني لأستشهد بالآلاف الذين علموهم كما علموني وليس بين هؤلاء فرد يكذبني(5)".

وبعد أن تخرج فرانسوا نوى أن يجعل الأدب مهنته، ولكن أباه أصر على أن يدرس القانون، محذراً أياه من احتراف الأدب الذي هو كلمة المرور السحرية إلى الفقر والعوز. وظل فرانسوا ثلاث سنين "يدرس قوانين تيودوسيوس وجستنيان سبباً لمعرفة مهنة المحاماة الباريسية" على حد قوله. وقد كره "كثرة الأشياء عديمة الجدوى التي أرادوا أن يشحنوا بها ذهني؛ إن شعاري هو: التركيز على صميم الموضوع(6)". وبدلاً من أن يستغرق في مجموعات القوانين والسوابق القانونية، سعى لصحبة جماعة من شكاك الأبيقوريين كانوا يجتمعون في التأميل وهو بناء تخلف من دير قديم لفرسان الهيكل (الداوية) في باريس. وكان أمامهم فيليب دفاندوم، كبير رؤساء أديار فرنسا، صاحب الموارد الكنسية الضخمة والإيمان الديني الهزيل، ومعه الأباء سيرفيان، ودبوسي، ودشوليو، ومركيز دلافار، وأمير كونتي، وغيرهم من الأعيان الذين يتمتعون بدخل ميسر وحياة مرحة... وكان الأبييه دشوليو يجهر بأن الخمر والنساء أطيب النعم التي جادت بها على الإنسان طبيعة حكيمة خيرة(7). وقد لاثم فولتير بين نفسه وبين هذا النظام دون عناء، وصدم أباه بالسهر خارج

صفحة رقم : 11583

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير الشاب

البيت مع أمثال هؤلاء السمار المعرّبين حتى العاشرة مساءً، وكانت تعد يومها ساعة متأخرة تأخيراً منكرأ. وعين فولتير ملحقاً للسفير الفرنسي بلاهاي (1713)، ربما بناءً على طلب الأب. ويعرف العالم كله كيف وقع الفتى البالغ الحساس في غرام أوليمب دنواييه، وكيف لاحقها بأشعاره، وقطع لها العهد بعبادتها إلى الأبد. كتب لها يقول: "لم يوجد حب يعدل حبي، لأنه لم يوجد إنسان أجدر بالحب منك(8)". وأبلغ السفير أرويه الأب بأن فرانسوا لم يخلق للدبلوماسية. فاستدعى ولده إلى وطنه، وحرمه من ميراثه، وهدد بنفيه على مركب إلى جزر الهند الغربية. وكتب فرانسوا من باريس إلى "بامبيت" بأنه قاتل نفسه إن لم تبادل بالحضور إليه. وإذ كانت أعدل منه بسنتين اثنتين، وبجنس واحد، فقد ردت عليه بأن من الخير له أن يصلح أباه، ويصبح محامياً فالحأ. وصفح عنه أبوه شريطة أن يدخل مكتب محام ويقوم معه، فوافق. أما بامبيت فتزوجت كونتا. ويبدو أنها كانت آخر مغامرات فولتير الغرامية. لقد كان إنساناً مرفه الشعور كأى شاعر، كله أعصاب وحساسية، ولكنه لم يكن عارم الشهوة، وسوف يقع بعد ذلك في غرام مشهور، ولكنه لن يكون تجاذباً بين جسدين بقدر ما هو تألف بين عقليين. لقد فاضت طاقته من خلال قلمه. كتب إلى المركيزة ديمور وهو لم يجاوز الخامسة والعشرين يقول "إن الصداقة أئمن ألف مرة من الحب. ويخيل إلي أنني لم أخلق قط للفرام. فأنني أجد في الحب شيئاً سخيماً نوعاً ما.. وقد قررت أن أطلقه إلى الأبد(9)".

وفي أول سبتمبر 1715 مات لويس الرابع عشر، فتنفست أوروبا البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء. لقد كان موته خاتمة ملك ونهاية عصر: ملك اتصل اثنتين وسبعين سنة، وعصر -عصر القرن العظيم بدأ بأمجاد الانتصارات الحربية، وبهاء الروائع الأدبية، وفخامة فن الباروك، وانتهى بانحلال الفنون والأداب، وإرهاق الشعب وإفكاره،

وهزيمة فرنسا وإذلالها. وتطلع الجميع في أمل وشك إلى الحكومة التي ستخلف الملك المهيب الذي راح غير مبكى عليه.

صفحة رقم : 11584

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الصراع على الوصاية

2- الصراع على الوصاية

1715

كان هناك ملك جديد، هو لويس الخامس عشر، ابن حفيد

صفحة رقم : 11585

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الصراع على الوصاية

لويس الرابع عشر، ولكنه لم يكن قد جاوز الخامسة. مات جده، وأبوه، وأمه، وأخوته، وأخواته، وأخيراً جد أبيه. فمن يكون وصياً عليه؟

لقد سبق وليان للعهد الملك الشمس إلى الموت: ابنه لويس الذي مات في 1711، وحفيده دوق برجنديا الذي مات في 1712. وقبل حفيد آخر باسم فيليب الخامس ملكاً على أسبانيا، شريطة تنازله عن جميع حقوقه في عرش فرنسا، وبقي على قيد الحياة بعد موت الملك الشيخ ابنان غير شرعيين، وكان قد اعترف بينوتهما شرعاً، وأصدر مرسوماً بأن يرثا تاجه في حالة عدم وجود أمراء بجري في عروقهم الدم الملكي. أما أكبرهما وهو لوي أوجست، دوق مين، البالغ آنئذ الخامسة والأربعين، فكان رجلاً هزيل الجسم لطيف المعشر زادت قدمه المشوهة من حياته وجبته، ولعله كان يقنع بما تتيح له ضيعته الكائنة بضاحية سو (خارج باريس مباشرة)، والتي بلغ ثمنها 900.000 جنيه، من ترف ودعة، لولا أن زوجته الطموح كانت تحثه على أن ينافس غيره من الساعين للوصاية إلى العرش. ذلك أن دوقه مين لم تنس قط أنها حفيدته كوندية الكبير، فاحتفظت في سو ببلاط أشبه ببلاطات الملوك، بسطت في رعايتها على الفنانين والشعراء

(ومنهم فولتير)، وأحاطت نفسها بحاشية مرحة وفيه تمهيداً للملك وسبباً للوثب إليه، وكان لها مفاتيها، امرأة لا عيب في جسمها ولا شائبة في هدامها، شديدة القصر والنحافة حتى ليخالها الناظر صبية، ذكية ماهرة، تلقت تعليماً كلاسيكياً طيباً، وأوتيت بديهة حاضرة وحيوية لا تعيا وأن أعيت غيرها. وكانت واثقة أن زوجها سيكون وصياً رائعاً ما دام خاضعاً لسلطانها. وبلغت بالحاحها من إقناع القوى المحيطة بالملك المحتضر مبلغاً كفى لاستخلاص وصية منه (12 أغسطس 1715) تركت لدوق مين الأشراف على شخص الصبي لويس، وتعليمه، وعلى جنود القصر، ومنحته كرسيًا في مجلس الوصاية. ولكن ملحقاً للوصية (25 أغسطس) عن فيليب الثاني، دوق أورليان، رئيساً للمجلس. وأما فيليب هذا فكان ابن فيليب الأول (المسيو) الأخ الخنثوي للملك الشيخ من زوجته ثانية-هي شارلوت إليزابيث أميرة البالاتين

صفحة رقم : 11586

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الصراع على الوصاية

الخشنة الواقعية النزعة. وكان تعليم الفتى قد نبط بأب ديني تصفه "مذكرات" سان-سيمون، كما تصفه "المذكرات السرية لفترة الوصاية" "الدكلو" بأنه "بالوعة ننتة" من الرذائل. فلقد كان جيوم دبوا هذا ابناً لصيدلاني إقليمي، بذل جهداً كثيراً في الدرس، وكسب قوته بالاشتغال مدرساً خصوصياً، وتزوج، ثم ترك زوجته برضاها ليلتحق بكلية سان-ميشيل بباريس، حيث كان يدفع نفقات تعليمه بأداء الأعمال الحقيرة بهمة لا تقتر. فلما تخرج قبل وظيفة مساعد لسان-لوران، ضابط بيت "المسيو" وجز شعر أسه ليطرهب، ورسم كاهناً صغيراً، ناسياً فيما يبدو زوجته. فلما مات سان-لوران عين دبوا مدرساً خصوصياً للوصي المستقبل. يقول دكلو-الذي قل أن توخى النزاهة وعدم التحامل "أن الأبييه أحس أن تلميذه سيحتقره عما قليل ما لم يفسد أخلاقه، فلم يدخر وسعاً في تحقيق هذا الهدف، وأفلح في هذا فوق ما دبر لسوء الحظ(10)". أما سان-سيمون الذي كان يكره الموهبة المجردة من عراقة الأصل، فكان يجد متعة في وصف دبوا، قال فيه:

"رجل قصير القامة، حقير الهيئة، ذابل الوجه، مخلوع القلب، بلبس باروكة صفراء باهتة، له وجه عرسة يضيئه بعض الذكاء. لقد كان في كلمتين مألوفتين-وغدا أصيلاً. اضطرعت في داخله دون هوادة كل الرذائل لتظفر بالسيادة، حتى ملأ ذهنه الضجيج المتصل-ألتهته الحرص والفجور والطمع، ووسائله الغدر والملق والتذلل، ودينه الفسوق المطلق، ورأيه الذي كان به كأنه المبدأ العظيم هو أن الاستقامة والأمانة من الأوهام التي يتجمل بها الناس دون أن يكون لها وجود... كان فيه ذكاء، وعلم ودراية بشئون الدنيا، ورغبة شديدة في إرضاء الناس والتودد إليهم، ولكن هذا كله أفسدته رائحة كذب وزيف انبعثت رغم إرادته من مسام جسده كلها... شريير... خائن، عاق، خبير بأخبث الخبائث، صفيق أشد الصفاقة حين يكشف أمره. يشتهي كل شيء، ويحسد كل شيء، ويود أن يظفر بكل شيء(11)".

وكان سان-سيمون وثيق الصلة بأسرة فيليب، وعلينا ألا نتعجل

صفحة رقم : 11587

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الصراع على الوصاية

في تكذيبه، ولكن لا بد أن نضيف أن هذا الأبيه كان دارساً كفاً، ومساعداً قديراً، ودبلوماسياً حكيماً موفقاً، وأن فيليب لخبرته بالرجل ظل وفاقاً له إلى النهاية. أما التلميذ، الذي ربما كان نسبه من ناحية الأب قد أفسده، فقد تلقف تعليمات أستاذه وبزها عقلاً ورذيلة. أبهج معلمه بذاكرته القوية، وفطنته العقلية، وذكائه الثاقب، وفهمه وتذوقه للأدب والفن. وأتاه دبوا بفونتيل ليعلمه أصول العلوم، وبهوميبرج ليعلمه أصول الكيمياء، وسيكون لفيليب فيما بعد مختبره الخاص كما كان لتشارلز الثاني ملك إنجلترا ولفولتير في سيريه، وسيلتمس في التجارب الكيميائية بعض الراحة من حياة الزنا والفجور. وكان يرسم صوراً لا بأس بها، ويعزف على القيثارة، ويحفر الرسوم للكتب، ويجمع التحف جمع ذواقة خبير ولم يتعمق واحداً من هذه الميادين، فقد اهتماماته شديدة التنوع، وملاهيه تستأثر بوقته. وكان بريئاً كل البراءة من الإيمان الديني، وحتى أمام الناس "تظاهر باستهتار مخز بالدين(12)" وفي هذا، كما في إباحته الجنسية، كان رمزاً وحافزاً لبلده وللقرن الذي عاش فيه.

لقد كان كأكثرنا خليطاً مضطرباً من الشخصيات. يكذب في يسر وفي ابتهاج خبيث عند الحاجة أو للنزوة الطارئة، وينفق ملايين الفرنكات المنتزعة من شعب مملق على ملاهيه وهو اياته الشخصية؛ على أنه كان جواداً عطوفاً، بشوشاً متسامحاً، "بطبيعته طبيب القلب عطوف، رءوف (كما قال سان-سيمون(13)) أكثر وفاء لأصدقائه منه لخليلاته. وكان يثمل بالشراب كأن السكر شعيرة يؤديها كل ليلة قبل أن يمضي إلى فراشه(14). فإذا وبخته أمه أجابها "من السادسة صباحاً حتى الليل يفرض على العمل الطويل المضني، ولولا أنني ألهو بعد ذلك لما أطقته، ولمت كمداً(15)". وربما كان له من إجهاض حبه الأول عذر في إسرافه في الجنس. ذلك أنه شغف حياً بالأنسة سيرى، وكانت وصيفة شرف لأمه، عريفة المولد. فراح ينظم لها القوافي، ويعني لها، ويזורها مرتين في

صفحة رقم : 11588

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الصراع على الوصاية

اليوم، وأراد أن يتزوجها. ولكن لويس الرابع عشر عيس، وزكى له ابنته غير الشرعية، دوقة بلوا، تركية قوية. وأطاع فيليب (1692)، ولكنه واصل تعلقه الشديد بالأنسة سيرى حتى ولدت له ابناً. فنفاها الملك الغاضب من باريس. وبعث لها فيليب بالمال الكثير، ولكنه حاول أن يكون وفاقاً لزوجته، دون أن يوفق في ذلك طويلاً. ومنحته ابنة، هي دوقة بيري المستقبلية، التي أصبحت أعلى حب له وأمر مأساة في حياته. وبعد موت أبيه (1701) خلفه فيليب على لقب الدوقية وثروة الأسرة، دون أن يلتزم بشيء، إلا أن يستمتع بحياته في السلم ويخاطر بها في الحرب. وكان قد قاتل قبل ذلك ببسالة ضد الحلف الأعظم (1692-97)، وأصابته من جراء ذلك جراح كبيرة. ثم نال الآن مزيداً من الامتياز ببسالته المستهتره في حرب الوراثة الأسبانية (1702-13). فلما نجا من الموت كافأ نفسه بوليمة من البغايا. وكان في أئامه كلها، وفي غير استهتاره الديني، يحتفظ بلطف في السلوك وتهذيب وأدب في الحديث يذكر الناس بشباب "الملك الشمس" الحالم. ولم يخطر ببال فيليب أن من حقه أن يطالب بالوصاية على العرش إلا بعد أن أزيح جميع الوراثة المباشرين من الطريق، أما بالموت وأما بالمعاهدة. واتهمته الشائعات بأنه سم أمراء البيت المالكي ليخلو له الطريق إلى الملك، ولكن الأجيال التالية وافقت لويس الرابع عشر على رفضه هذه الفرية. وبدأت عدة جماعات ترى فيه شراً أهون من دوق مين ودوقتها. فالبروتستنت الفرنسيون الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية تحت الإكراه بالتهديد تمنوا ارتقائه إلى منصب الوصي لما توسموا فيه من ميل ملحوظ إلى التسامح. كذلك الجانسونيون الذين قاسوا من الاضطهاد الملكي والمراسيم

البابوية، وكذلك أصحاب "العقول القوية" أو أحرار الفكر الذين أبهجتهم فكرة حكم رجل حر الفكر لفرنسا، وكذلك جمهور باريس الذي سئم صرامة الملك المتوفى وتزمته الذي جاء متأخراً، وكذلك جورج الأول ملك إنجلترا، الذي عرض على فيليب المعونة المالية فرفضها، وأهم من هؤلاء جميعاً أن "نبلاء السيف".

صفحة رقم : 11589

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الصراع على الوصاية

أي الأسر النبيلة التي أنزلت عن سلطانها القديم بأمر ريشليو ولويس الرابع عشر ليصبح أفرادها طفيليات تعيش حالة على البلاط- هذه الأسر راودها الأمل بأنها عن طريق فيليب ستثأر لنفسها من الإهانة الملكية، إهانة الخضوع للأبناء غير الشرعيين في الحكم، وللتجار في الإدارة. وحث سان-سيمون فيليب على التخلي عن تبطله وفجوره، وعلى الكفاح في سبيل حقه في الوصاية، وكان هو نفسه واحداً من أكبر النبلاء مقاماً. وأما فيليب فكان يحب اللهو أكثر من السلطة، ولعله كان يؤثر أن يترك شأنه. أما وقد راح أصحابه يحضونه، فقد همز همته لتفور فورة قصيرة، فاشترى هو- أو هم- تأييد جنود القصر الملكي (تحت بصر دوق مين)، وكسبوا كبار السياسيين والعسكريين بوعدهم بالوظائف، واسترضوا البرلمان بأمال رد امتيازاته السابقة. وفي 2 سبتمبر 1715- غداة موت لويس الرابع عشر- دعا فيليب برلمان باريس، وقادة النبلاء، وكبار موظفي الدولة، للاجتماع في قصر العدالة. وذهب دوق مين مؤملاً الظفر بمنصب الوصي، ولكن جسارة دوق أورلين، وكذبه، وفصاحته، كلها غلبته في هذه اللعبة. قال فيليب في معرض بذل الوعود "لن يكون لي هدف غير التخفيف من آلام الشعب، وتوطيد النظام الحسن من جديد في مالية الدولة، والمحافظة على السلام في الوطن وفي الخارج، وإعادة الوحدة والهدوء إلى الكنيسة، وسيعينني على هذا اعتراضات هذا المحفل الجليل الحكيمة، وهأنذا ألتمسها سلفاً(16)". أي أنه عرض أن يرد للبرلمان "حق الاعتراض" (على المراسيم الملكية) الذي أنكره الملك السابق وأغفله. وتحقق النصر لهذه الحركة البارعة، وباع البرلمان فيليب بالإجماع تقريباً وصياً على العرش وأعطاه الإشراف الكامل على مجلس الوصاية. واحتج دوق مين بأن هذه الترتيبات تخالف وصية الملك الراحل، وأنه والحالة هذه لا يمكن أن يظل بعد ذلك مسئولاً عن شخص الملك الصبي، وأنه مضطر إلى طلب إعفائه من ذلك الواجب. فأخذه فيليب والبرلمان عند كلمته، وانكفأ مين ساخطاً عاجزاً إلى ضيعته في سو، وإلى تقريرات زوجته العنيفة. وأصبح فيليب أورليان وصياً على عرش فرنسا ثمانية أعوام، وكان يومها في الثانية والأربعين.

صفحة رقم : 11590

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

كانت مهمته الأولى إعادة النظام والاستقرار الماليين إلى الدولة. لقد ورث حكومة مفلسة، بلغ دينها 2.400.000.000 جنيه، أضيف إليه دين قصير الأجل بلغ 590 مليون جنيه على شكل "سندات على الدولة" وهي كمبيالات ملكية تتداولها الأمة، ولم تكد تساوي آنذاك ثلث قيمتها الاسمية. وكان صافي إيرادات الحكومة عام 1715 لا يتجاوز 69 مليون جنيه، ومصروفاتها 147 مليوناً. وكان أكثر الدخل المنتظر في 1716 قد أنفق مقدماً (17). وأشار سان-سيمون بأن تشهر الحكومة إفلاسها. ولكن الدوق أدريان موريس دنواي احتج. ووفق الوصي بين الرأيين بإجراءات اقتصاد وإصلاح معتدلة. فخفض الجيش إلى 25.000 مقاتل، وأعطى الجنود المسرحون من الضرائب ست سنوات، وأعطى آباء الأطفال الثمانية إعفاءً دائماً. وخفضت ضرائب "التاي"، والجاييل، والرغوس، وغيرها من الضرائب. وندد بالفساد الذي استشرى في جميعها، وعولج بعض هذا الفساد، ورفقت مئات من شاغلي الوظائف الحكومية الزاندين عن الحاجة مومئهم 2.400 في باريس وحدها. وأنشئت "غرفة عدالة" (مارس 1716) دعي للمثول أمامها كل الماليين، والتجار، وأصحاب مصانع الذخيرة، وغيرهم ممن اشتبه في أنهم غشوا الحكومة. وهنا أقام نواي، الذي ألف الإجراءات العسكرية، حكم إرهاب حقيقياً، فوعد بالرافة كل من يكشف عن زملائه من المذنبين، ووعد المبلغون بخمس المبالغ التي تسترد بفضل مساعدتهم. وشرعت عقوبة الإعدام لكل من يعوق عمل المبلغين، وتقررت مصادرة الأملاك والحكم بالتشغيل على سفن الأسرى والعبيد مدى الحياة عقاباً لمن يدلون بشهادة زور عن وضعهم المالي. وشنق بعض من حكم عليهم، ووضع البعض الآخر في المشهرات أمام جمهور مبتهج، وانتحر بعض رجال المال بعد أن يسوا من تبرئة أنفسهم. على أن النتائج لم تكن متناسبة مع هذه الوسائل. ذلك أن أكثر المذنبين اشتروا الإعفاء من الفحص أو الإدانة برشوة موظفي الغرفة، أو أصدقاء الوصي، أو خليلاته. وتقاوم الفساد حتى بلغ حداً كان أفراد الحاشية

صفحة رقم : 11591

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

يسعون فيه إلى الرشوة بدلاً من أن يعرضها المذنبون عليهم، من ذلك أن أحد رجال المال حكم عليه بغرامة قدرها 1.200.000 فرنك، فوعده أحد رجال البلاط برفع الغرامة لقاء مبلغ 300.000 جنيه. قال له رجل المال "سيدي الكونت العزيز، لقد تأخرت كثيراً، لأنني أبرمت للتو اتفاقاً مماثلاً مع زوجتك لقاء نصف هذا المبلغ (18)". وأعلن المرسوم الذي ألغى غرفة العدالة (مارس 1717)، في صراحة ندر أن تتحلّى بها الحكومات، أن "الفساد استشرى حتى وصلت عدواه إلى جميع الطبقات تقريباً، بحيث لا يمكن توقيع العقوبات العادلة على مثل هذا العدد الغفير من المذنبين دون الإخلال بالخطر بالتجارة والنظام العام والدولة". وكان صافي ربح الحكومة حين انتهى التحقيق نحو سبعين مليون فرنك (19). فلما خاب أمل الوصي في هذه النتائج، استمع إلى رجل اسكتلندي ممتاز اقترح عليه نظاماً جديداً للمالية. واسم الرجل جون لو، وقد ولد لمصرفي من أدنبرة في 1671، ودرس علم المصارف في لندن، وشهد افتتاح بنك إنجلترا في

1694، واشترك في مبارزة بسبب الحب، وقتل غريمه، ثم فر إلى القارة يحمل على رأسه حكماً بالإعدام. وكان وسيماً، بشوشاً، مولعاً بالعلوم الرياضية، ضارب بنجاح في سوق النقد الأجنبي، وأعانتته قدرته على حساب ارتباطات أوراق اللعب وتذكرها على كسب قوته في مختلف الأقطار. وقد راقب الطرق التي تعمل بها المصارف في أمستردام، وهامبورج، والبندقية، وجنوة. وفي أمستردام على الأخص أخذ بسحر نظام الائتمان، الذي أتاح للمصرف أن يصدر أوراقاً نقدية بأضعاف القيمة الذهبية لرصيده، بحيث شغل عشرة جولدنات بغطاء جولدن واحد، وبهذه الطريقة حفز الأنشطة الصناعية والتجارية، ويسرها، وضاعفها. ورأى هناك كيف يمكن، في مصرف يتق به رجال الأعمال، إجراء المعاملات بمجرد نقل الأرصدة المصرفية، دون عناء حمل الفضة أو الذهب أو مبادلتهما. وساءل نفسه: لم لا يمكن إنشاء مصرف قومي ونظام ائتمان كهذين في فرنسا؟ وراح يفكر في وضع "نظامه" وهو الاسم الذي أطلق عليه بعد ذلك.

وكان محور فكرته زيادة توظيف الناس والمواد بإصدار أوراق النقد، بضمان الحكومة، لمثلي قيمة الاحتياطات القومية من الفضة والذهب

صفحة رقم : 11592

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

والأرض، ويخفض معدل الفائدة، تشجيعاً لرجال الأعمال على اقتراض المال للمشروعات والطرق الجديدة في الصناعة والتجارة. وبهذه الطريقة تخلق النقود الأعمال، وتزيد الأعمال من التوظيف والإنتاج، وتزداد الإيرادات والاحتياطات القومية، ويتيسر إصدار المزيد من النقود، ويتصاعد الخير والنفع. ولو أمكن إقناع الشعب -عن طريق المدفوعات من الفوائد-بإيداع مدخراته في مصرف قومي بدلاً من اختزان المعندين النفيسين، لأضيفت هذه المدخرات إلى الاحتياطات، وأصدر المزيد من العملة، وهكذا يشغل المال العاطل، ويزداد رخاء البلاد.

وفي عام 1708 شرح لو أفكاره للحكومة الفرنسية، فرفضها لويس الرابع عشر. فلما أصبح فيليب أورليان وصياً، عرض لو أن ينفذ بنظامه هذا مالية فرنسا المفلسة. وتساءل: لم تنفرد فرنسا، وأسبانيا، والبرتغال، دون سائر دول أوروبا الكبرى بخلوها إلى ذلك الحين من المصارف القومية؟ ولم تردت فرنسا في مهاوي الركود الاقتصادي برغم ما تميزت به تربتها من خصب وأهلها من ذكاء؟ ووافق فيليب على السماح له بأن يؤسس "مصرفاً عاماً" (1716) على أن يكون هذا مشروعاً أهلياً. وقبل المصرف الودائع، ودفع الفوائد، وأقرض القروض، وأصدر أوراق نقد من فئات عشرة ومائة وألف فرنك-سرعان ما أصبحت وسيطاً مفضلاً في المبادلة بفضل قيمتها الثابتة، المربوطة بوزن ثابت من الفضة. وكانت هذه الأوراق النقدية أول نقود ورقية قانونية، وهكذا وضع مصرف لو، وفروعه الإقليمية، أول طرق الائتمان المنتظمة في فرنسا. وفي أبريل 1717 تقرر قبول أوراق المصرف سداداً للضرائب.

وفي سبتمبر تقدم لو إلى مرحلة من أفكاره أشد مغامرة. ذلك أنه حصل من الوصي على امتياز شركة جديدة سماها "شركة الغرب" لاستغلال حوض المسيسيبي بأكمله، وكان يومها خاضعاً لفرنسا. وباع للجمهور 200.000 سهم في شركة الغرب هذه سعر السهم منها 500 جنيه، وكان الثمن عالياً، ولكن يجوز دفع ثلاثة أرباعه سنداً حكومية بقيمتها الاسمية، التي بلغت ثلاثة أمثال قيمتها الفعلية.

صفحة رقم : 11593

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

وبادر الجمهور إلى شراء الأسهم كلها مغتبطاً بهذه الفرصة التي أتاحت له أن يستبدل بالأوراق المنخفضة القيمة أسهماً في مشروع يرجى من ورائه الريح. وأصدر لو في تافول متزايد تعليماته لمصرفه بأن يشتري الاحتكار الملكي للتبغ، وجميع الشركات الفرنسية التي تشغل بالتجارة الخارجية، ثم ضم هذه الشركات إلى شركة الغرب فألف منها "شركة جزر الهند" التي ستحتكر كل التجارة الخارجية. وبدأ لبعض رجال الأعمال أن الاشتراكية في التجارة الخارجية نذير بالاشتراكية في الإنتاج والتوزيع الداخليين، فبدأت تختمر حركة معارضة للو. وفي 4 ديسمبر 1718 أعيد تأسيس مصرف لو باسم "المصرف الملكي"، واعترف بأوراقه أوراقاً نقدية قانونية، وأعطى الإشراف الكامل تقريباً على مالية الأمة. وأصدر لو إصداراً جديداً من الأسهم في شركة الهند بسعر السهم منها 550 جنيهًا. وسرعان ما تم الاكتتاب. وزاد توقع الناس للأرباح المرتفعة في تقديرهم لقيمة الأسهم، فتبادلوها بأسعار مطردة الزيادة في موجة مضاربة، حتى طلبت بسعر 5.000 جنيه، أي بتسعة أو عشرة أمثال قيمتها الاسمية. وتصادف أن مرت بباريس في 1718 الليدي ماري ورتلي مونتاجيو، فابتسمت لرؤية فرنسا تترك التصرف في حياتها الاقتصادية لرجل بريطاني. وسمح لو نفسه لخياله بأن يشطح متجاوزاً صواب حكمه. فلم يكتف المصرف الملكي الجديد بتسلم دار سك النقود وكل جبايات الضرائب، بل تلقى الدين القومي بإعطائه حصة في شركة جزر الهند نظير كل قيمة اسمية قدرها 5.000 جنيه في تعهدات الحكومة، وخيل إليه أن رأس المال العاطل سيصبح بهذه الطريقة عاملاً في مشروعاته المنوعة. ثم عرض قدرة المصرف على الوفاء بديونه لمزيد من الخبز بإعطائه منحة للوصي قدرها 2400 سهم. وظلت ثقة الناس به كاملة برغم هذه المغامرات الطائشة، واشتدت حماسهم للشركة، وزايد المشترون بأسعار أعلى وأعلى على أسهمها. وزاد المزيفون هذه الضجة بإنزال شهادات أسهم مزيفة إلى السوق. وظل شارع كانكمبوا، الضيق القدر، الذي اختار "النظام" فيه مكانه، مدى عامين المركز المالي الرئيسي لباريس (أشبه ببول ستريت في

صفحة رقم : 11594

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

نيويورك). وتجمع فيه المشترون والبائعون من جميع الطبقات، والدوقات والمومسات، والباريسيون والريفيون والأجانب، في أعداد مطردة وانفعال اشتد يوماً بعد يوم. ومات البعض تحت الأقدام وسط الزحام، أو داستهم مركبات النبلاء. وكان المريشال الشيخ "دفيلاز" يمر بالمكان ركباً، فتوقف ليحاضر الجمع المحتشد عن جشعه المفرط. وكانت الأكواك الصغيرة المقامة في هذا الزقاق تغل كل شهر إيجاراً أكثر مما تغله البيوت في عشرين عاماً. وشكا السكان من شدة الضجيج الذي لا يحتمل. ومع ذلك لم يتوقف المشترون عن المزايدة بأصوات مرتفعة، وكان سعر السهم يزداد كل يوم تقريباً، بل أحياناً كل ساعة، فبيع بعض الأسهم في نهاية عام 1719 بمبلغ 12.000 جنيه، وبلغت القيمة السوقية لكل الأسهم المعروضة آنئذ ثمانين ضعف قيمة كل الذهب والفضة المعروفين في فرنسا (20). وإذا كان المطلوب دفعه من ثمن السهم لا يتجاوز العشرة في المائة من قيمته الاسمية، فإن نقل الأسهم من مالك لآخر كان سريعاً، وحقق البعض ثروات في يوم واحد. فكسب مصرف 100 مليون جنيه، وخدم في فندق ثلاثين مليوناً (21). وسمع الناس لأول مرة كلمة "المليونير" (22).

وكان لو رجل الساعة. ففي 1720 عين مراقباً عاماً للمالية. وكان أساطين النبلاء والنبيلات يذرعن حجرة انتظاره ملتصقين نصحه في شئون المال أو تأييده في دسائس البلاط. وقد كتب فولتير مستعيداً ذكرى ذلك العهد فقال " رأيتُه يعيني يخترق أبيه الباليه-رويال ومن ورائه الأدواق والأشراف-ومارشيلات فرسا، وأساقفة الكنيسة(23)". وقبلت إحدى الدوقات يده في تذلل.

بيد أنه لم يبد عليه أن انتصار أفكاره الظاهرة أفسده، أو أن استفحال سلطانه الشخصي أطغاه، والواقع أنه ربع للقيمة المفرطة التي أوصل جشع الجمهور أسهم الشركة إليها(24). ولم يستغل مركزه ليثري. وقد صرح سان-سيمون، الذي كان يعارض هذا "النظام" بقوله:

"لم يكن في طبعه جشع ولا لؤم. فلقد كان رجلاً رقيقاً طيباً

صفحة رقم : 11595

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

محترماً، لم تقسده زيادة الثقة وكثرة المال، ولم يكن في مسلكه، ولا في بطانته، ولا في مائدة طعامه، ولا في أثاثه، ما يصدم الناس. وقد احتمل بصبر وثبات عجيبين كل المضايقات التي سببتها عملياته، حتى إذا قارب النهاية... أصبح سريع الغضب حاد الطبع".

ولكن بعض النبلاء لم يرضوا عنه لأنه أجنبي وبروتستنتي، ولاحظوا أنه هو وزوجته والإنجليزية لم يكونا متزوجين زواجاً شرعياً رغم ما بدا من إخلاصهما الواحد لصاحبه. ورغبة منه في التخفيف من هذا العداء، قبل المواطنة الفرنسية والمذهب الكاثوليكي الروماني.

واستعمل سلطانه مهمزاً يحفز به رضاء وطنه الثاني، فخفض الضرائب، وأنهى النظام السقيم الفاسد الذي كانت الوكالات الأهلية تتبعه في جميع الضرائب، وأظهر نحو جماهير الشعب عطفاً لم يعهد في رجال المال. وقسم ضياعاً كبيرة ملكاً للكنيسة أو النقابات ليزرعها الفلاحون، لا بل اقترح عقب تعيينه مراقباً عاماً إلزام الكنيسة ببيع جميع الأملاك التي اقتنتها بعد عام 1600- أعني نصف جميع ممتلكاتها الفرنسية(25)-وسبق طورجو بإلغائه الرسوم المفروضة على نقل الأغذية والسلع داخل فرنسا، ونظم بناء الطرق والكباري والتقنات أو ترميمها، واستقدم مهرة الصناع من الخارج ليؤسسوا صناعات جديدة، وشجع التوسع الصناعي بتخفيضه نسبة الفائدة على القروض، وزادت المشروعات الفرنسية ستين في المائة في مدى العامين (1719-20) اللذين بلغ فيهما قمة سلطته، وأحيا البحرية التجارية وضاعفها بالتوسع في التجارة مع آسيا وأفريقيا، وأمريكا، وكانت السفن الفرنسية التي تحمل التجارة الخارجية، تبلغ ست عشرة في مارس 1719، فأصبحت 300 في يونيو 1720، وعادت التجارة الخارجية الفرنسية في عهد لو إلى الأوج الذي أدركته تحت كولبير. وأقنع النبلاء الفرنسيين بتمويل إنتاج البن والتبغ في لوزيانا، ومول هو نفسه تطوير منطقة نهر أركنساس. وفي 1718 أسست نيو أورليانز، واتخذت لها اسماً من اسم أسرة الوصي.

على أن المشروع الأمريكي لم يكتب له التوفيق رغم جهود لو

صفحة رقم : 11596

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

وفيليب المتعددة النواحي. فلقد كان شطر كبير من وادي المسيسيبي لا يزال برية لم تفتح، وعرض لو مهور العرائس و450 فدانا على الأسر المهاجرة إلى الوادي. فلما تبين أن الهجرة أقل إغراء من المضاربة، رحل المسجونون والمتشردون والبيغايا في لوزيانا، ودفع الشبان والشابات (أمثال مانون ليسكو في رواية بروس) إلى هذه المغامرة بالحيلة أو القوة. وكان هؤلاء الضحايا يطعمون أسوأ الطعام حتى مات كثير منهم في الطريق. وأوقفت مراسيم مايو 1720 هذا الإكراه الهمجي. أما في المستعمرة ذاتها فإن التجهيز الرديء، والإدارة السيئة، والتمرد كلها عوقت النهوض بالاقتصاد، وجعلت أرباح "شركة المسيسيبي" (كما سماها الناس) أقل كثيراً مما افترضه المضاربون. واتضح أن آمال استخراج الذهب أو الأحجار الكريمة من أرض المستعمرة وهم في وهم، رغم أن لو نفسه راوده هذا الحلم. ولا بد أن نبأ هذه الصعوبات قد وصل إلى فرنسا. وحكم أذكى المضاربين أن أسهم الشركة قد بلغت قممتها، أما غيرهم ممن لم يلقوا عن هؤلاء جشعاً وإن افتقروا إلى المعلومات أو الحكم الصائب، فقد حل بهم الخراب لأنهم تأخروا في بيع أسهمهم. وفي ديسمبر 1719 أصبح التهافت والتنافس على البيع أكثر مما كان على الشراء. ففي بحر شهر واحد باع الدوق بوربون أسهماً بعشرين مليون جنيه، وأمير كونديه بأربعة عشر مليوناً، وتطلب الأمر تخصيص ثلاث عربات لحمل الذهب الذي لم يجرؤ لو على الامتناع عن دفعه ثمناً لأوراقه النقدية وأسهم الشركة (26). وأفرغ مضارب بروسي ما يملكه منها، ثم مضى بثلاثين مليوناً من الجنيهات ذهباً. وصرف غير هؤلاء ثمن أسهمهم ليشتروا أرضاً أو بيوتاً أو حلياً أو أشياء أخرى مما تستند قيمته على أساس مكين من حاجة البشر وغرورهم. أما المليون الذين عاقبتهم غرفة العدالة فقد انتقموا لأنفسهم بصرف ثمن أوراقهم وإرسال الذهب خارج فرنسا. وحاول لو أن يقف تدفق الذهب من الخزانة، فحصل من الوصي على مراسيم تحرم على الشعب تملك المعادن النفيسة أو الاتجار فيها أو تصديرها، وتحتم تسليم كل الذهب والفضة مما تزيد قيمته على خمسمائة فرنك إلى المصرف الملكي. وخول لمندوبي المصرف أن يدخلوا البيوت ويفتشوا عن المعدن النفيس المخبوء، ومثل هذا

صفحة رقم : 11597

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

العدوان على حرمة البيوت لم يجرؤ عليه أحد قط حتى لويس الرابع عشر. يقول سان-سيمون "لقد أخفى الكثيرون أموالهم في تكتم شديد حتى أنهم بعد أن ماتوا دون الإقضاء بمكمن كنوزهم الصغيرة ظلت هذه مدفونة وضاعت على ورتتهم (27)". فلما واصل سعر الأسهم هبوطه حاول لو أن يدعمه بعرضه 9.000 جنيه (بأوراق النقد) ثمناً للسهم، ولكن الزيادة المطردة في أوراق النقد خفضت من قيمتها ورفعت من سعر البضائع. فلم يحل مايو 1720 حتى كانت الأسعار قد ارتفعت مائة في المائة، والأجور خمسة وسبعين في المائة بالمقارنة بسنة 1716، وفي يوليو كان زوج الجوارب الحريري الطويلة يباع بأربعين جنيهاً. وبدأ الذعر من التضخم، فاندفع الناس إلى تغيير أوراق النقد وشهادات الأسهم والبضائع، فجمع دوق دلافورس المقادير الكبيرة من الشموع، وكدس المريشال ديستري كميات ضخمة من البن والكاكاو. ولكي يحد لو من هذا الهروب من النقود إلى السلع، أعلن (21 مايو) تخفيض 50% في القيمة الرسمية لأوراق النقد وأسهم الشركة. وكان هذا خطأ كبيراً ربما كان السبب فيه ضغط الوصي المرتاع على لو، وكان هو ذاته يشعر بالضغط عليه من خصوم لو من النبلاء والكهنة (28)، وحاول فيليب تخفيف الأزمة برد كل أسهمه في الشركة إلى المصرف (29).

ومع ذلك استمرت موجة البيع. ففي يوليو اضطر المصرف إلى وقف الدفع على أية ورقة نقدية تزيد على عشرة فرنكات وحاصر حملة الأوراق المصرف. وطالبوا في صخب وضجيج برد قيمة أوراقهم ذهباً أو فضة. وفي باريس اشتد تراحم القوم حتى ديست عشر نساء تحت الأقدام وسط الفوضى، وحملت بعد ذلك ثلاث من جثثهن في موكب غاضب تحت نوافذ الوصي. واعتبر الشعب لو مسئولاً عن جميع الصعوبات مع أن مضاربتهم المجنونة هي التي سببت انهيار "النظام". وحاول بعضهم القبض عليه وقتله، فلما فشلت المحاولات هشمت مركبته تهشيماً في فناء الباليه-روبال-وأعربت حوادث الشغب المتكررة عن شعور الشعب بأنه كان ضحية الخدع المالية، وبأن الطبقات العليا كسبت على حساب جمهرة الأمة. وشارك البرلمان في الحملات

صفحة رقم : 11598

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

على لو، فنفي فيليب البرلمان إلى بوننواز (20 يوليو)، ودافع الشعب عن البرلمان. وفي أغسطس هبطت أسهم شركة المسيسيبي إلى 2.000 جنيه بعد أن بلغت في أوج ارتفاعها 12.000 جنيه، أما الأوراق النقدية فهبطت إلى عشرة في المائة من قيمتها الأصلية. وفي أكتوبر تسرب نبأ سري من فم إلى فم بأن الوصي سحب من المصرف الملكي أمان ازدهاره أوقافاً بلغت قيمتها الاسمية ثلاث بلايين من الفرنكات، أنفق أكثرها على الهدايا السخية للأصدقاء والمحظيات وحوالي هذا التاريخ هرب أحد صيارفة المصرف إلى بروسيا حاملاً كمية ضخمة من الذهب. فهبطت أسهم شركة المسيسيبي إلى 200 جنيه. وفي ديسمبر ألغى الوصي المصرف، وطرد لو، وأعاد البرلمان. وفي الرابع عشر من أكتوبر غادر لو فرنسا مع ابنه. وكان قد وظف ثروته في شركة جزر الهند الخاسرة، وشارك مصير معظم حملة الأسهم، ولم يكن قد أودع مالا في الخارج، فلم يأخذ الآن معه سوى ألفي جنيه وبعض الجواهر غير القيمة. وفي بروكسل تلقى من بطرس الأكبر دعوة بالحضور إلى روسيا والاضطلاع بشئون ماليتها، فرفض، واعتكف في البندقية، حيث لحقت به زوجته وابنته، وعاش مغموراً فقيراً، وهناك مات في 1729. لقد كانت المبادئ التي أقام عليها مصرفه سليمة نظرياً، ولولا جشع المضاربيين المفرط وإسراف الوصي لجعلت فرنسا قادرة على الوفاء بالتزاماتها ولحققت لها الرخاء. وحين فحصت حسابات لو الخاصة وجدت سليمة لا غبار عليها. وترك الاقتصاد الفرنسي مؤقتاً خراباً في ظاهر الأمر، فحملة الأسهم والأوراق النقدية يطالبون بدفع قيمتها والدفع مستحيل، وتداول النقود أصابه الشلل تقريباً، والصناعة محجمة، والتجارة الخارجية أصابها الركود، والأسعار فوق طاقة الشعب. ودعا الوصي أخوان "باريس" ليشيعوا شيئاً من النظام وسط هذه الفوضى. فطلبوا جميع أوراق النقد وعوضوا فئاتها المنوعة بحقوق على الدخل القومي، بخسارة على أصحابها تفاوتت من ستة عشر إلى خمسة وتسعين في المائة، أما الجمهور الذي استنفد سورة غضبه فقد أذعن لهذا الإفلاس العملي في صبر واحتمال.

صفحة رقم : 11599

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> ازدهار ثم انهيار

على أن شيئاً بقي بعد هذا الانهيار. فالزراعة أفادت من ارتفاع قيمة محاصيلها وهبوط العملة. وأفاقنت الصناعة سريعاً لأنها وجدت حافظاً من انخفاض الفائدة وارتفاع الأسعار، وظهرت المشاريع الجديدة في كل مكان. وانتفعت التجارة الداخلية من خفض الرسوم الداخلية، واستأنفت التجارة الخارجية توسعها فيما وراء البحار بعد انحسار الفوضى. وخرجت الطبقات الوسطى سليمة كبيرة-وسعيها وراء الكسب كالعهد بها طبيعي وضروري. وتضاعف عدد المالكين وازدادوا قوة على قوة. وكسب النبلاء لأنهم دفعوا ديونهم بعملة أرخص، ولكنهم ظهروا بمظهر مخز لأنهم أبدوا وسط حمى المضاربة شهوة ملحة للكسب لا تقل افتضاحاً عنها في أي طبقة. وظلت الوصاية ملوثة بالنكول عن التزاماتها المالية وبترفها الموصول وسط الخراب الشامل. وقال ناقد مجهول الاسم في معرض الشكوى من الحال "لا بد من انقضاء قرون حتى يمكن استئصال الشر الذي يسأل عنه لو، لأنه عود الناس الدعة والتزف، وجعلهم غير قانعين بحالهم، ورفع ثمن الطعام والعمل اليدوي، وجعل جميع طبقات التجار تتطلع إلى أرباح باهظة(30)" ولكن تلك الروح التجارية ذاتها حفزت اقتصاد فرنسا وفكرها، رغم هبوطها بالجور الأخلاقي للمجتمع الفرنسي. فما حل عام 1722 حتى انتعش الاقتصاد الفرنسي بقدر أتاح للوصي على العرش أن يعود، باطمئنان ضمير الحاكم، إلى أساليبه المعهودة من الحكم العطوف، والفجور الفاضح.

صفحة رقم : 11600

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الوصي

4- الوصي

لقد نبهته أمه الألمانية إلى ضرورة الحد من لطفه مع الناس، فقالت له "إن العطف خير من القسوة، ولكن العدالة تقوم بالعقاب كما تقوم بالثواب، ومن المؤكد أن من لا يجبر الفرنسيين على خشيتهم سيخشاهاهم بعد قليل، لأنهم يحتقرون من لا يخيفونهم(31)". أما فليب، الذي شكله مونتيني، فكان يعجب بالحرية الإنجليزية، ويتكلم بتفاؤل على حكمه رعية لا تطيعه طاعة عمياء، بل تكون من الذكاء بحيث تدعه يشرح لها الدواعي التي تبرر قوانينه. ورمز لروح نظامه بتركه فرساي وسكنى الباليه-رويال، في قلب باريس ومعمعاتها.

صفحة رقم : 11601

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الوصي

وكان يكره مراسم حياة البلاط والإعلان عنها، فترك ذلك كله وراء ظهره. ورغبة في المزيد من التيسير والخلوة رتب ألا يسكن الملك الصبي فرساي بل القصر الريفي في ضاحية فانسين. وبدلاً من أن يدس له فليب السم كما أرغفت الشائعات، عامله أرق معاملة، وأبدى نحوه كل الخضوع الواجب له، واحتفظ لويس الخامس عشر طوال حياته بذكرى شاكرة للرعاية التي أغدقها عليه الوصي(32).

بعد أن دفن لويس الرابع عشر بيومين أمر فيليب بالإفراج عن جميع المسجونين في الباستيل فيما عدا أولئك الذين عرف عنهم ارتكابهم جرائم خطيرة ضد المجتمع. وكانت مئات من هؤلاء الرجال قد سجنوا بمقتضى أوامر القبض المختومة lettres de cachet التي أصدرها الملك الراحل، وأكثرهم جانسونيون لم تكن تهمتهم سوى الانشقاق الديني، ومنهم من طال العهد بهم في السجن حتى لم يعرف أحد، حتى ولا هم أنفسهم، السبب في سجنهم. مثال ذلك أن رجلاً قبض عليه قبل خمسة وثلاثين عاماً لم يحاكم قط أو ينبأ بسبب سجنه، فلما أفرج عنه وهو شيخ وجد نفسه حائراً مذهولاً، فهو لا يعرف إنساناً في باريس، ولا يملك فلساً واحداً، وعليه فقد التمس أن يبقى في الباستيل إلى آخر عمره، وأجيب إلى ملتمسه.

ونفى من باريس ميشيل لوتليه، كاهن الملك الذي تعقب الجانسونيين من قبل. ونصح الوصي على العرش الحزبيين المتخاصمين في الكنيسة بأن يهدنا من خلافاتهما. وأغضى عن البروتستانت المتسترين، وعين عدداً منهم في وظائف إدارية. وأراد أن يجدد مرسوم ناننت السماح، ولكن اليسوعيين والجانسونيين اتحاداً في التنديد بمثل هذا التسامح، كذلك ثناه عن ذلك وزيره دوبوا الذي كان يحتال للظفر بقبعة الكردينالية(33). "ولم ينل البروتستانت الإنصاف الذي أنكره عليهم الحزبان المتنافسان في الكنيسة إلا بفضل الفلسفة(34)" فقد كان الوصي فولتيراً قبل فولتير. ولم يكن له عقيدة دينية واضحة، وكان على عهد لويس الرابع عشر التقى ومونتسكيو، بنشر كتب لو صدرت قبل بضع سنوات لحرم تداولها في فرنسا لما تنطوي عليه من تهديد للإيمان المسيحي.

صفحة رقم : 11602

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الوصي

وكان فيليب من الناحية السياسية حاكماً متحرراً مستنيراً حتى حين زج بفولتير في السجن. وكان يفسر قوانينه للشعب بعبارات بلغت من الاعتدال والإخلاص مبلغاً حاداً بميشليه إلى أن يرى فيها أرهاصاً بجمعية 1789 التأسيسية(36). وامتلات مكاتب الحكومة بالرجال الأكفاء دون نظر إلى عدائهم للوصي ذاته، فعين رجل كان قد هددته بالاعتقال رئيساً لمجلس المالية(37)، أما فيليب، الذي كان بطبعته أبيقورياً فكان يظل رواقياً حتى الخامسة مساءً، يقول سان-سيمون أنه كان إلى تلك الساعة "ينصرف بكليته إلى أعمال الدولة، واستقبال الوزراء والمجالس الخ. ولا يتناول طعامه أبداً خلال ذلك النهار، بل يكتفي بتناول الكاكاو بين الثانية والثالثة، حين يسمح للجميع بدخول غرفته... وقد أبهجت الناس جداً ألفته وسهولة الوصول إليه، ولكنهم أساءوا استعمالهما(38)". وكان فيليب أورليان، دون سلائل هنري الرابع جميعاً، أي جميع البوربون، في رأي فولتير "أشبههم بذلك الملك في شجاعته، وطيبة قلبه، وصرارته، ومرحه، وبشاشته، وسهولة الوصول إليه، مع فهم أكثر تهديباً وصقلاً(39)". وكان يربك السفراء والمستشارين بمعارفه الواسعة، وفكره الناقد، وحكمه الصائب(40). ولكنه شارك الفلاسفة ضعفهم وهو القدرة والرغبة في رؤية جوانب كثيرة جداً للموضوع الواحد، بحيث يضيق الوقت في النقاش ويؤجل العمل الحاسم.

ولم يكن على سماحته يطيق أي اختزال للسلطة الملكية التقليدية. فلما رفض البرلمان-الذي أراد استخدام حق الاعتراض الذي وعده به- أن يسجل بعض مراسيمه (أي أن يعتبرها ضمن قوانين البلاد المعترف بها)، دعاه (25 أغسطس 1718) إلى "سرير عدالة" مشهور- وهي جلسة يمارس فيها الملك وهو جالس على "سرير" القضاء سلطته في الإلزام بتسجيل مرسوم ملكي. ومضى القضاء البالغ عددهم 153، وقورين مهيين في عبااتهم القرمزية، إلى

التويلري سيراً على الأقدام. وإتباعاً لتعليمات فليب، أمرهم الملك الصبي بتسجيل مراسيم الوصي، ففعلوا. وانتهاز فرصة مواصلة دوق ودوقة مين معارضته سواء في المجلس الملكي أو بالتأمر عليه، فحرم أبناء الملك وحفدته غير الشرعيين من وضعهم كأمرأء من الدم الملكي. ورد الأذواق الشرعيون إلى سابق ترتيبهم وحقوقهم، الأمر الذي أبهج الدوق سان-سيمون، الذي رأس في هذه الخطوة أعظم إنجاز للوصاية، وكانت أسمى اللحظات في "مذكراته". على أن دوقة مين لم تقبل الهزيمة. فمولت بعض الظرفاء الذين راحوا يخزون الوصي بأهاجيهم اللاذعة. واحتمل هذه السهام بصبر القديس سبستيان، اللهم إلا "الفليبيات" وأهاجي "الأثنياء التي شاهدها" المنسوبة لفولتير. وفي ديسمبر 1718 اشتركت الدوقة في مؤامرة مع كيلامار، السفير الأسباني، وألبيروني رئيس الوزراء الأسباني، والكردينال ملشيبور دبولنباك، للإطاحة بالوصي وتنصيب فليب الخامس الأسباني ملكاً على فرنسا، على أن يكون الدوق مين كبير وزرائه. وكشف أمر المؤامرة، وطرد السفير، وزج بالدوق والدوقة في سجنين منفصلين، وأفرج عنهما في 1721. وادعى الدوق أنه يجهل أمر المؤامرة. وعادت الدوقة إلى بلاطها ومؤامرتها في سو. في وسط هذه المضايقات، وفي نطاق التقاليد وعلى قدر ما سمح به خلقه الشخصي، قام فليب ببعض الإصلاحات المعتدلة. فشق في حكمه القصير من الطرق أكثر مما شق في نصف القرن الذي حكمه لويس الرابع عشر. ووفر ملايين الفرنكات بتركة قصري مارلي وفرساي، واحتفاظه بحاشية متواضعة العدد. وقد بقي الكثير من ابتكارات "الو" ممثلاً في جباية للضرائب أشد قسراً وأكثر رحمة، وفي طرد الجباة المتهمين بالفساد أو التبتيد. وفكر فليب في ضريبة دخل تصاعديّة: وجربها في نورمنديّة، وفي باريس، وفي لاروشيل، ولكنها أبطلت بموته المبكر. وقد جاهد ليبقي فرنسا بنجوة من الحرب، فسرح آلاف الجنود، ووطنهم في الأراضي غير المزروعة. وأسكن الباقين في تكتات بدلاً من أن يسكنهم في بيوت الشعب. وبنظرة سمحة فتح أبواب جامعة باريس والمكتبة لجميع الطلبة المؤهلين دون أجر، ودفعت الدولة مصروفات تعليمهم(41). وأعان بمال الدولة الأكاديمية الملكية للعلوم، والأكاديمية الملكية للمأثورات والآداب البحتة، والأكاديمية الملكية للعمارة، ومول نشر المؤلفات العلمية، وأنشأ في اللوفر أكاديمية للفنون الميكانيكية نهوضاً بالاختراع والفنون الصناعية(42). وأجرى

صفحة رقم : 11603

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الوصي

المعاشات على الفنانين والعلماء والأدباء، وهياً لهم غرفاً في القصور الملكية، وكان يجب أن يتكلم مع هؤلاء الرجال على مهنتهم المختلفة. ولم تؤت تدابير وإصلاحاته ثمارها كاملة من جراء كبوس الدين وانهيار ثورة لو المالية من جهة، وعيوب الوصي البدنية والخلفية من جهة أخرى. ومن أفعج المآسي في تاريخ فرنسا أن هذا الرجل الذي وهب الكثير من فضائل الذهن والقلب لوته وأضعفه فجور طبيقته وفسق جيله. فهذا الابن الذي أنجب أب منحرفاً جنسياً، ورياه رجل فاجر من رجال الكنيسة، شب وهو يكاد أن يكون عاجزاً عن كبح جماح شهوة الجنس التي انغمس فيها. أقول ذلكوا "كان يمكن أن تكون له فضائل إذا كانت الفضائل ميسورة لإنسان بغير مبادئ(43)". وإذ كان قد أكره على الزواج من ابنة غير شرعية للويس الرابع عشر، وافقد الحب أو السلوى في زوجته، فإنه أولع بالسكر الكثير، وبمعاشره الخليلات في إسراف لم يعدله فيه حاكم خارج حريم السلاطين. واختار أصدقاءه من بين المعرّبين الذين كان يصفهم بكلمة nou(s) (أي الفاسقين)، والذين كانوا ينفقون الثروات على الفجور، ويؤثثون بيوتهم بالفن الغالي ويزودونها بالمشيرات الجنسية(44). وكان فليب يلحق بأصحابه في الباليه-رويال، أو في فللته في سان-كلو، ومعظمهم من شباب الأشراف، وفيهم أيضاً بعض الإنجليز المثقفين أمثال اللوردين ستير وستانهوب-في حفلات عشاء صغيرة تختلط فيها النساء المثقفات كمدام دوديفان بالمثلثات ومغنيات الأوبرا، والخليلات، في توفير إثارة الأنتى لذكاء الرجل. يقول سان-سيمون، ربما في شيء من التلوين المناق:

"في هذه الحفلات كانت تعرض أخلاق كل إنسان، الوزراء وأصحاب الحظوة كغيرهم سواء بسواء، بحرية هي الإباحة المطلقة: غزليات البلاط والمدينة في الماضي والحاضر، وكل قديم من القصص والخصومات والفكاهات والسخافات ينبش من مكانه، ولم يعف من هذا النبش أحد، وكان الدوق أورليان يدلي برأيه كالباقين؟. ولكن نادراً جداً ما كانت هذه الأحاديث تؤثر فيه أقل تأثير. وكان هؤلاء الأوصياء يسكرون ما شاء لهم السكر، ويلهبون أنفسهم، ويتكلمون بأقذر الأشياء

صفحة رقم : 11604

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الوصي

دون تحرج، ويتنافسون في التقوه بأفحش العبارات، حتى إذا فرغوا من أحداث الكثير من الضجيج وثلوا بالخمير، مضوا إلى فراشهم ليعاودوا اللعبة ذاتها في الغد(45)".
وقد أفحصت روح فليب القلقة المنزوعة الجذور عن نفسها في قصر تسلط محظياته عليه، فندر أن سيطرت عليه أحداً أكثر من شهر، ولكن المبعديات منهن كن يترقبن الفرصة حتى يعود دورهن مرة أخرى. وكان خدمه الخصوصيون، وحتى أصدقائه، يجلبون له العشيقات الجديديات في غير توقف. فنساء الطبقة العليا، كالكونتيسة بارابير، والنساء المغامرات كمدام تنسان، والمغنيات والراقصات من الأوبرا، والموديلات البارعات الجمال كمدام سابران (التي أثار "سمتها الرائع" و "وجهها الذي لا يدانيه في الحسن وجه في العالم" حتى مشاعر رجل فاضل كسان-سيمون)- هؤلاء كلهن وهين أنفسهن للوصي لقاء برهة من السلطان، أو لقاء الرواتب أو الإعانات أو المجوهرات، وكان يغدق العطايا عليهن من دخله الخاص أو من الخزانة التي على شفا الإفلاس. على أنه برغم إهماله لم يسمح قط لهؤلاء النسوة بأن ينتزعن من أسرار الدولة، أو أن يناقشن شئونها، فلما حاولت ذلك مدام سابران جعلها تنظر إلى صورتها في المرآة ثم سألتها، "أيمكن للإنسان أن يتحدث حديثاً جاداً إلى مثل هذا الوجه الجميل؟ إنني لا أحب ذلك أبداً(46)". وما لبث سلطانها عليه أن زال.
هذا العريبي ذاته كان يحب أمه، فيزورها مرتين كل يوم، ويحتمل توبيخها الحزين في حلم. ومع أنه لم يحب زوجته، فإنه بذل لها العناية والمجاملة، ووجد الوقت لينجب منها خمسة أطفال. وكان يحب أبناءه، وحزن حين لجأت صغرى بناته للدبير، ولم يمر به يوم دون أن يزور في قصر اللكسمبورج كبرى بناته، التي كانت حياتها فضيحة محزنة تكاد تعدل فضيحة حياته هو.
ذلك أن زوجها بشارل، دوق بيري، سرعان ما غدا تارحاً بين الحرب والهدنة. فبعد أن أمسكته متلبساً بين أحضان امرأة، وافقت على أن ترضى عن خياناته شريطة أن يغض عن خياناتها، ويضيف تاريخ إخباري معاصر أنهما "تعهدا" بأن يحمي الواحد صاحبه(47)"

صفحة رقم : 11605

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الوصي

هذه الحفيدة-حفيدة "المسيو"، "اللوطي"-وسليمة أسرة بافاروية ورثت الجنون في دمها، وجدت أن ثبات الذهن واستقرار الخلق أمر يفوق طاقتها، وزاد وعيها بعيوبها وأخطائها من حدة طبعات أرعب كل من كان لهم صلة بحياتها. وقد استغلت نبالة أصلها استغلالاً كاملاً، فكانت تتركب عربتها مخترقة باريس كأنها ملكة، وتحتفظ في اللكسمبورج بقصر مترف يخدمها فيه أحياناً ثمانمائة خادم(48). فلما مات زوجها (1714) راحت تستضيف سلسلة من العشاق. وصدمت كل إنسان بسكرها وفجورها، ولغتها النابية، وعجبها وغطرستها، وكانت تختلف عليها نوبات من التقوى، ومن الهجمات الشكاكة على الدين.

ويبدو أنها لم تحب إنساناً قط محبتها لأبيها، وأنه لم يحب إنساناً قط محبته لها. ولقد شاركته ذكاه، ورهافة حسه وظرفه كما شاركته خلقه، وكان حسنها في شبابها يضارع حسن أجمل خليلاته. واتهمتها شائعات باريس-التي لا قلب لها ولا حرمة-بسفاح القربى، لا بل زادت بأنه اقترف هذه الخطيئة مع بناته الثلاث جميعاً(49). وأغلب الظن أن بعض هذه الشائعات أطلقتها "شلة" مدام مين(50). وقد رفضها سان-سيمون، وهو أقرب الناس إلى الموقف، لأنها افتراءات قاسية وضيعة. أما فليب ذاته فلم يعبا بنفيها. وخلوه التام من الغيرة من عشاق ابنته (151)، وعدم غيرتها من خليلاته(52)، لا يكادان يتفقان وطبيعة الحب المستأثرة(53).

ولم يقو على فصلها عن أبيها سوى رجل واحد-هو الكبتن ريون الضابط بحرس قصرها، الذي سلبت فحولته لبها حتى خضعت له خضوع الإمام. ففي 1719 حبست نفسها في اللكسمبورج مع بعض أتباعها، وولدت ابنة للكبتن. ثم ما لبثت أن تزوجته سراً. وتوسلت إلى أبيها أن يأذن لها بإعلان هذا الزواج، فرفض، فانقلب حبها له غيظاً مجنوناً. ومرضت، وأهملت نفسها، فأصابتها حمى أنذرت بالخطر، وماتت وهي في الرابعة والعشرين اثر مسها أعطائها إياه طبيبها (21 يوليو 1719). وقد كشف تشريح جثتها عن تشوهات في مخها. ولم يرض أي أسقف بالصلاة عليها في جنازتها، وكان فليب

صفحة رقم : 11606

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الوصي

شاكراً أعمق الشكر حين سمح رهبان سان-دني بإيداع جثمانها في المدافن الملكية في كنيسة ديرهم. أما الأم فقد اغتبطت بموت ابنتها، وأما الأب فقد دفن نفسه في فراغ السلطة.

صفحة رقم : 11607

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> المجتمع في عهد الوصاية

كان ازدياد الثروة في فرنسا في الفترة بين صدور مرسوم ناننت (1598) وإلغائه (1685)، وانتشار حياة الحضرة، وازمحلال العقيدة الدينية عقب الحروب الدينية والخلافات الجانسية كان هذا كله قد جر على طبقة الأشراف تحللاً في الأخلاق رمز له لويس الرابع عشر في شباب حكمه. وكان زواج الملك من مدام دمانتينون (1685)، واهتدأؤه إلى القناعة بامرأة واحدة وإلى حياة الفضيلة، وما أحدثته الكوارث الحربية من تأثير منبه، كان أولئك أكره بلاطه على أن يغير على الأقل من سلوكه الخارجي، وكانت إصلاحات الأكليروس الذاتية قد أوقفت ضعف الكنيسة جيلاً، وفرض أحرار الفكر الرقابة على مؤلفاتهم، وستر الأبيقوريون لهوهم الصاخب عن أنظار الناس. ولكن حين جاء بعد الملك الصارم النائب هذا الوصي الشاك الإباحي المتسامح، تداعت هذه الضوابط، وتفجر غيظ الغرائز المكبوتة في موجة من الزندقة والاستغراق في اللذات شبيهة بالفورة الشهوانية التي أصابت المجتمع الإنجليزي عند عودة الملكية عقب جبل من تسلط البيورتان (1642-60). وأصبح التحلل من الأخلاق شارة التحرر ورقي الثقافة، وغدا الفجور نوعاً من "الاتيكيك(54)".

كانت المسيحية أخذة في الاضمحلال قبل أن تهاجمها "الموسوعة" بزمن طويل، لا بل قبل أن يصوب إليها فولتير أول سهام قلمه. ففي 1717 شكاً ديوياً من كثرة الماديين في باريس (55)، وقال ماسيون في 1718 "يكاد الكفر اليوم يضيء على أصحابه مظهر التميز والفخار، أنه فضيلة توصل إلى العظمة... وتجلب للمغمورين شرف الألفة بأمر الشعب(56)" وقد كتبت أم ذلك الأمير قبيل موتها في 1722 تقول "لست أعتقد أن في باريس، سواء بين رجال الدين أو الدنيا، مائة شخص يدينون بإيمان مسيحي صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا، وهذا يجعلني أرتعد فرقا(57)" وقل من أفراد الجيل الأصغر من فكر

صفحة رقم : 11608

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> المجتمع في عهد الوصاية

في التحول عن الكاثوليكية إلى البروتستنتية، فقد تحولوا إلى الإلحاد، الذي كان أسلم لهم. وكان مقهى بروكوب، ومقهى جرادو، شأنهما شأن التامبل، ملتقيات للمفكرين الملحدين. وإذا كان المروق عن الدين قد شارك في إطلاق الاستهتار الخلقي في الطبقة العليا، فإن الفقر تعاون مع جموح الناس الطبيعي على أحداث الفوضى الخلقية بين دهماً باريس. وقد حسب العالم لأكروا أن "الأشخاص الخطرين، والمتسولين، والمنشردين، واللصوص، والنصابين من شتى الأنواع، ربما ألفوا سدس مجموع الشعب(58)". ولنا أن نفترض أن الزنا كان يلطف من عناء الكدح بين فقراء المدن، شأنه بين أغنيائها. وأفرخت الجريمة في شتى أشكالها، من النشالين في باريس إلى قطاع الطريق العام. حقاً كان لباريس شرطة منظمة، ولكنها لم تستطع ملاحقة الجريمة، وكان رجالها أحياناً يقنعون بشطر من الغنيمة(59). وفي 1721 نجحت وزارة الحرب على الأقل في القبض على كارتوتن، قاطع الطريق الفرنسي الأشهر (قريب جاك شبرد الإنجليزي) وحاصرت خمسمائة من رجال عصابته التي جعلت السفر خطراً حتى على الملوك ولم يبق على الاستقرار الخلقي للحياة الفرنسية غير طبقة الفلاحين والطبقات الوسطى.

أما في طبقة الأشراف بباريس، وبين أعيان المدن الطليقيين، ومدمني الأدب أو الفن، ورجال المال ورؤساء الدين ذوي الخليلات، فقد بدا أن المبادئ الأخلاقية باتت نسبياً منسياً، ولم تذكر المسيحية إلا ساعة يلتقي فيها الناس في الكنائس أيام الأحاد. فإذا وفدت الزوجات على باريس أو فرساي تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقي المناق، الذي

حاول أن يحمي ميراث الأملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجها جريمة أخط كثيراً من خيانة الزوج لزوجته، هناك كانت الزوجة التي تقصر وصالها على زوجها تعد من الطراز القديم، وهناك نافست النساء الرجال في ربط الروابط وفكها. وكان الزواج يقبل للحفاظ على الأسرة، وأملاكها، واسمها، أما بعد هذا فلا يطالب عرف العصر والطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء(60). لقد كان الزواج في العصور الوسطى يعتمد عليه في أن يقود إلى الحب، أما الآن فنادر ما كان

صفحة رقم : 11609

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> المجتمع في عهد الوصاية

الزواج يقود إلى الحب أو الحب إلى الزواج، وحتى في الزنا لم يكن هناك كبير ادعاء للحب. على أن العهد لم يخل من زوجين وفيين يتألقان كأنهما استثناء جريء للقاعدة وسط هذا الحشد الفاسق، مثال ذلك دوق ودوقة سان-سيمون، وكونت وكونتيسة تولوز، ومسيو ومدام لون، ومسيو ومدام بونشارتران، ومسيو ومدام بيل-ايل. وتحولت الكثيرات من الزوجات المستهترات إلى جدات هادئات مثاليات وأنكفاً بعضهن، بعد أن بليت مفاتهن من كثرة التداول، إلى أديرة مريحة حيث يفرغن لأعمال البر ويعلمن الحكمة للراهبات.

ومن أجراً نساء عصر الوصاية كلورين الكساندرين دنتسان، التي أطلقت فجأة من الدير وهي في الثانية والثلاثين إلى سلسلة متلاحقة من العلاقات الغرامية. وكان لها أعارها: فأبواها زير نساء موفق ورئيس برلمان جرينوبل، وأمها لعوب طائشة، وكلودين ذاتها كانت واعية بجمالها الذي يتلهف على أن يباع. وكانت أختها الأكبر منها، مدام دجروليه، لا تقل عنها كثيراً في فوضى علاقاتها الغرامية، وقد قالت في اعترافها على فراش الموت حين بلغت السابعة والثمانين معللة مسلكها "كنت شابة، وكنت جميلة، وكان الرجال يقولون لي ذلك فأصدقهم، وعليكم أن تحزروا الباقي بعد هذا(61)". ورسم أخو كلودين الأكبر منها قسيساً، وشق طريقه إلى قبعة الكردينالية وإلى منصب رئيس أساقفة ليون متوسلاً إلى هدفه بالعديد من النساء، أما الأب فأدخل كلودين ديراً في منفلوري ليوفر مهرها. هنالك ظلت متبرمة ستة عشر عاماً في حياة تقوى فرضت عليها كرهاً. وفي 1713، حين بلغت الثانية والثلاثين، هربت واختبأت في حجرة الشفالييه دينوش، وهو ضابط في المدفعية، أصبحت بمعونته (1717) أم الفيلسوف دالمبير. على أنها لم تتوقع انبعاث "الموسوعة" من هذا الوليد، فتركته على سلم كنيسة سان-جاك-لرون بباريس. وانتقلت إلى ماتيو برايور واللورد بولنبروك ومارك رينيه دفواييه دارجنسون، وبعد أن جلست إلى مثال ينحت لها تمثالاً عارياً(62) فيما روى ارتمت بين أحضان الوصي نفسه. وكان مقامها هناك قصيراً، وقد حاولت أن تحوّل قبلاتها إلى وظيفة كهنوتية ذات إيراد لأخيها المحبوب، وأجاب فليب أنه لا يحب الغواني اللاتي يتحدثن في شئون العمل

صفحة رقم : 11610

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> المجتمع في عهد الوصاية

في الفراش (63)، وأمر بأن توصل أبوابه في وجهها. ثم نهضت من كبوتها تلك وغزت قلب دبوا. وسنلتقي بها مرة أخرى.

وفي وسط هذا التقلب الأخلاقي السريع واصلت بعض نساء باريس تلك الفضيلة الفرنسية المميزة، فضيلة الجمع بين أصحاب الألقاب، والذكاء، والجمال، في الصالونات. وكان أكثر المجتمعات تهديماً في العاصمة يلتئم شمله في مبنى الأوتيل دصلي الرائع العمارة، هناك كان يحضر الساسة والماليون والشعراء فوننتيل في سنتيناته الصامتة، وفولتير في عشرياته المندفعة. وكانت جماعة أكثر جلاً تجتمع في الأوتيل دويون، الذي خلده لساج في لحظة غضب، ذلك أنه دعى هناك ليقراً مسرحيته "توكاريه"، فوصل متأخراً، فوبخته الدوقة في خيلاء قائلة "لقد ضيعت علينا ساعة"، فأجاب "سأجعلكم تكسبون ضعف هذا الوقت" ثم غادر المنزل (64). وقد مر بنا من قبل صالون مدام دمين في سو، وكانت مرجريت جان كوردييه دلونيه، التي ستصبح البارونة دستال فيما بعد، تخدم الدوقة وصيفة شرف، وقد كتبت "مذكرات" بارعة (نشرت في 1755) تصف المهازل، والنزوات، والمهرجانات الليلية، والحفلات التكرية التي لم تترك مكاناً يذكر للأحاديث التي تخللت "ملاهي سو".

ولكن الحديث كان يغلب على الصالون الذي أدارته آن تيريز دكورسيل، ماركيزة دلامبير، في الأوتيل دنفير (وتشغله اليوم المكتبة الأهلية). وقد واصلت هذه المرأة الغنية الصارمة، خلال عصر الوصاية الصاخب، تلك العادات الرزينة الجليلة التي سادت سنوات لويس الرابع عشر الأخيرة. فلم تشجع لعب الورق، ولا الشطرنج، ولا حتى الموسيقى، بل كانت بجملتها نصيراً للفكر. وقد أولعت، كالمركيزة دشانتليه، بالعلم والفلسفة، وكانت أحياناً (كما يقول فولتير) تتكلم فوق ما يفقهه رأسها، ولكن الرأس كان جميلاً يحمل لقباً نبيلاً، ويحرك مشاعر أي ميتافيزيقي، وكانت في كل ثلاثاء تستضيف العلماء والنبلاء، وفي كل أربعاء الكتاب والفنانين والأدباء ومنهم فوننتيل ومونتسكيو وماريفو. وفي اجتماعاتها تلك كان العلماء يلقون المحاضرات والمؤلفون يقرءون ما يزمعون إصداره من كتب، والشهرة الأدبية

صفحة رقم : 11611

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> المجتمع في عهد الوصاية

تكتسب، ومن "ندوة العقل" تلك، قامت هذه المضيفة الكريمة الطموح بنحو عشرين حملة ناجحة لإدخال من بسطت عليهم حمايتها في عضوية الأكاديمية الفرنسية. لقد كانت واحدة من مئات النساء المهذبات، المنققات، المتحضرات، اللاتي يجعلن تاريخ فرنسا أكثر القصص فتنة في العالم.

صفحة رقم : 11612

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فاتو والفنون

عكست ثورة في الفن ذلك التغيير الذي طرأ على السياسة والأخلاق فبعد أن انهارت سياسة لويس الرابع عشر الإمبريالية في حرب الوراثة الأسبانية (1702-13)، تحولت روح فرسا من دماء المجد الحربي إلى مباحج السلام. فلم يجد مزاج العصر حاجة لكنائس الجديدة، بل وجد الحاجة أكثر للقصور المدنية كالأوتيل ماتينيون وقصر بوربون (1721-22). وإذا استثنينا هذه العمائر الضخمة، وجدنا أن المساكن والحجرات أصبحت الآن أصغر حجماً، وحليتها أكثر رقة وصقلاً. وبدأ الباروك يتحول إلى الروكوكو، أي أن طراز الأشكال غير المنتظمة والحلية الكثيرة غلبت عليه أنيقة تكاد تكون هشة، تصل إلى حد الخيال الجامع العاثر الذي لا يمكن التنبؤ به. وأصبح الولع بالصقل البديع، والألوان الزاهية، وتطويرات التصميم المدهشة، طابعاً لطراز الوصاية. وتلاشت الطرز الكلاسيكية تحت فرحة الثنايا الأنيقة، وأخفيت الأركان، ونقشت الحلي والقوالب المعمارية في إسراف. وهجر النحت فخامة فرساي الأولمبية إلى صور أصغر، صور الحركة الرشيقة والإغراء العاطفي. وتجنب الأثاث الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة، واستهدف الراحة أكثر من الوقار. فظهر الآن مقعد الشخصين ذو المسندين، وهو المقعد المصمم للصديقين والحببيين اللذين يكرهان عاطف البعد. وأرسي شارل كرسان كبيران نجاري الوصي، طراز أثاث عصر الوصاية بما حوى من مقاعد، وموائد، ومكاتب وخزائن ذات أدراج ومرابيا، تسطع بتطعيم الصدف وتشرق بالجمال المثمعد.

صفحة رقم : 11613

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فائو والفنون

ولقد رمز فليب ذاته، في شخصه وعاداته وميوله، إلى الانتقال إلى الروكوكو. فحين نقل الحكومة من فرساي إلى باريس أنزل الفن من وقار لويس الرابع عشر الكلاسيكي على روح العاصمة الأكثر خفة، ووجه ثروة الطبقة البرجوازية إلى رعاية الفن. وكان راعياً للفن بحكم منصبه وبتفرده في هذا المضمار، فهو غني بثروته أصلاً، سخي في البذل للفنانين. ولم يكن يسيغ الفخامة أو الضخامة، ولا مواضيع التصوير التقليدية-مواضيع الدين أو الأساطير أو التاريخ، بل الروائع الصغيرة ذات الصنعة المتقنة التي تغري الأصابع وتفتح العيون، أمثال علب الحلي المرصعة بالجواهر، والأنيقة الفضية، والطاسات الذهبية، والخزفيات الصينية الغربية الأشكال، ورسوم النساء الفاتنات اللاتي يلبسن روبرنز أو تترانينو رداء الطبيعة أو يرفلن في أرواب فيرونيزي الفاخرة. وقد فتح أبواب مجموعته الخاصة في الباليه-روبال على مصاربعها لجميع الزوار المسنولين، ولولا خليلاته اللاتي يطلبن وبينان ما يطلبن منها لضرارعت مجموعته أفضل نظائرهما. ووفد الفنانون على قاعاته للدرس والنسخ، وذهب فليب إلى مراسمهم لينظر ويتعلم. تحدث إلى كبير مصوريه، شارل أنطوان كوابيل، في أدب وتواضع تميز بهما فقال: "إنني يا سيدي لسعيد وفخور بأن أتلقى نصيحتك وأنتفع بدروسك(65)". ولولا ما عانى من ظمأ للجمال وتذوق عات له لكان رجلاً رفيع التحضر. وأفصحت روح العصر عن نفسها بأجلى بيان في التصوير. فقد نبذ الفنانون أمثال فاتو، وباتير، ولانكريه، وليمان، القواعد التي وضعها لبرون في الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة بعد أن حررهم الوصي ورعاتهم الجدد. واستجابوا عن طيب خاطر للطلب على الصور التي تعكس فهم الوصي للجمال والمتعة، وحسن نساء عهد الوصاية الفياض بالحيوية والمرح، والألوان الدافئة لأثاث الوصاية وسجفها، والحفلات المرحة في غابة بولونيا، والألعاب والتكريرات في قصر سو، والأخلاق المتراخية التي اتسم بها الممثلون والممثلات ومغنيات الأوبرا والراقصات. وحلت الأساطير الوثنية محل قصص الفديسين القائمة المتجهمة، وسمحت الأشكال العجيبة المستوردة من الصين، أو تركيا، أو فارس، أو الهند، للعقل الذي أطلق من عقاله بأن

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فاتو والفنون

يجوب في حرية خلال أحلام غريبة ودخيلة، وأخذت الرعويات الحالمة مكان "التواريخ" البطولية، وحلت صور أشخاص المشترين محل صور مآثر الملوك وجلال أعمالهم.

وواصل بعض الرسامين الذين اشتهروا في عصر لويس الرابع ازدهارهم في عصر الوصاية، ومنهم أنطوان كوابيل، فبعد أن زخرف فرساي بالطراز نفسه الذي زين به القصر القديم، رسم في الباليه-رويال نساء في أثواب طويلة فضفاضة ساحرة. أما نيكولا دلارجلير، الذي كان يبلغ التاسعة والخمسين عند موت الملك العظيم، فقد واصل الرسم ثلاثين سنة أخرى، وصورته معلقة في اللوفر الذي لا تنصب صورته، وهو يبدو في خياله وفي باروكته، بصحبة زوجته وابنته. وراح الكساندر فرانسوا ديبورت، الذي مات عام 1743 وهو في الثامنة والثمانين، يرسم الآن مشاهد طبيعية عريضة، كلوحة "منظر الايل دفرانس" المحفوظة بمتحف كومبيين. وزخرف فرانسوا لموان، الذي انتحر في التاسعة والأربعين (1737)، كنيسة سان-سوليبس بروح الخشوع والورع، ثم أشاع الدفء في صالون هرقول بفرساي بأجساد شهوانية سيفلدها بوشيه من بعده. وأدخل كلود جيو، مصمم مناظر المسرح وملابسه، ونقاش المناظر الطبيعية واللوحات المسرحية، أسلوب "المهرجانات الريفية" الذي يرتبط عندنا بتلميذه أنطوان فاتو.

وأنطون هذا فلمنكي، ولد لصانع بلاط في فالنسيين (1684)، وشكلته أول الأمر التأثيرات الفلمنكية-صور روبنز، وأوستاد، وتنييه، وتعليم مصور محلي يدعى جاك جيران. فلما مات جيران (1702) يمم فاتو شطر باريس وهو لا يملك شروى نقير. وكسب قوته بمساعدة رسام للمناظر، ثم بالعمل في مصنع ينتج بالجملة لوحات صغيرة وصوراً دينية. وكان أجره ثلاث فرنكات في الأسبوع مضافاً إليها من الطعام ما يمسك رفقته يفضي لأصابته بالسل. ولكن حمى أخرى كانت تعتمل في صدره وتكويه كياً-وتلك هي الجوع للعظمة والشهرة. فكرس أمسياته وعطلاته لرسم الأشخاص والأماكن من الطبيعة. واستهوى أحد هذه الرسوم التخطيطية جيو، الذي كان يرسم لوحات لمسرح الكوميدي-إيتاليين، فدعا فاتو للانضمام إليه. وجاء أنطوان، ووقع في غرام الممثلين، فرسم أحداثاً

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فاتو والفنون

من حياتهم البطولية، وغرامياتهم المتقبلة الطائشة، وألعابهم ونزهاتهم الخلوية، وفزعهم الأكبر حين قصرتهم مدام دماننتون على البانتوميم (التمثيل الإيمائي) بعد أن ساءها هجاؤهم. والتقط فاتو ما في قلعهم وعدم استقرارها من أسي، والتعبيرات المضحكة المرتسمة على وجوههم، وطيات ثيابهم الغربية، ثم أضفى على هذه الصور نسيجاً ذا ومض لعله أثار بعض الغيرة في نفس جيو. على أية حال تشاجر الأستاذ والتلميذ وافترقا، وانتقل أنطوان إلى مرسوم كلود

أودران في اللكسمبورج. وهناك درس في رهبة صور روبنز التي مجد بها ماري مديتشي، ووجد في الحدائق مناظر من الشجر والغيوم فتنت قلبه أو ريشته. تلك كانت سنوات مرة يساق فيها الغلمان الفرنسيون على عجل إلى المعركة تلو المعركة في حرب الوراثة الأسبانية الطويلة. وكان يقدم لتضحيتهم على هذا النحو بما ينبغي من العروض الوطنية وحفلات الوداع المثيرة للأسى. وقد وصفها فاتو في لوحته؟ "رحيل الجنود" برقة في الشعور والأسلوب جعلت أودران هو الآخر يوجس من تفوق فاتو عليه. ودخل أنطوان مسابقة نظمها الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت في 1709 أملاً في نيل "جائزة روما". فلم ينل الجائزة الثانية، ولكن الأكاديمية ألحقت عضواً بها في 1712. وبعد جهود صغيرة كثيرة بلغ قمة مجده بلوحته "الأبحار إلى جزيرة سينير (1717)" وهي اليوم من أروع كنوز اللوفر. وصفت لها باريس كلها، وعينه الوصي المغتبط مصوراً رسمياً للملك، وكلفته الدوقة بيري بزخرفة قصرها الريفي "لاموييت". وراح يعمل كالمحموم، وكأنه أدرك أن لن يفسح له في الأجل سوى أربع سنين آخر. وقدم أنطوان كروزا، منافس فليب ذاته في رعاية الفن، إلى فاتو المآكل والمسكن في قصره المترف. هناك درس أنطوان المصور "أصغر الأنطونين سنأ) أروع مجموعة جمعها مواطن إلى ذلك الحين. ورسم لكروزا أربع لوحات زخرفية، سماها "الفصول". وسرعان ما ذاق ذرعاً بالتترف، فراح ينتقل من مكان إلى مكان، حتى إلى لندن (1719)، ولكن غبار الفحم والضباب رده إلى باريس، حيث سكن فترة مع تاجر التحف جرسان. ورسم له أنطوان في ثمانية أصباح جانبي لافتة ظهر فيها باريسيون عصريون يفحصون صوراً في حانوت، وفوق النزعة

صفحة رقم : 11616

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فاتو والفنون

الواقعية العرضية ألقت طيات رقيقة لثوب امرأة ذلك الضوء الواهن الذي تميز به فاتو. وكان سعال سله يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، فاتخذ بيتاً في نوجن، قرب فانسين، معللاً نفسه بأن هواء الريف سيعينه على البرء. وهناك، بين أحضان جيرسان والكنيسة، مات (18 يوليو 1721) غير متجاوز السابعة والثلاثين. وقد سرت عدوى مرضه الطويل إلى خلقه وفنه. وكان، وهو الرجل النحيل الممرض العصبي الحيي، السريع الإعياء، النادر الابتسام، القليل المرح يقصي حزنه على فنه، فصور الحياة كما رأتها أحلامه وأمانيه مشهداً عريضاً من الممثلين المرحين والنساء اللدنات، وأغنية للفرح الملهوف. وإذا كان أضعف من أن يجري وراء شهوات الحس، فإنه احتفظ وسط إباحية عهد الوصاية بلياقة في الخلق انعكست في مزاج إنتاجه. صحيح إنه رسم بعض النسوة العاريات، ولكنهن خلون من إغراء اللحم، وفيما عدا هؤلاء كانت نساؤه يرتدين ثياباً مشرقة تخطر في خفة وحذر خلال دهاليز الحب. وتقلت فرشاته بين تقلبات الممثلين، ومراسم الغزل، ومشاكل الجو. فأضفى على شخص "غير المكتثر(66)" أعلى وأشرف ما استطاع تخيله من ثياب. وصور "الكوميديين الفرنسيين(67)" في مشهد درامي، والنقط صورة الممثل الإيطالي جوزيبي باليتي في دور المهرج جيل(68)، غارقاً في التفكير مرتدياً سراويل بيضاء. وفاجأ "عازف جيتار(69)" في لحظة اكتئاب غرامي، ورأى "حفلة موسيقية(70)" مسحورة بعزف العود. وقد وضع شخصياته أمام خلفيات حالمة، من نوافير عابثة، وأشجار متمائلة، وغيوم سابعة، يتخللها هنا وهناك تمثال وتشي يردد به صدى بوسان، كما نلحظ في "مهرجان الحب(71)" أو "الفراديس السعيدة(71)" كان يحب النساء على بعد متهيّب، بكل أشواق رجل أوهن من أن يلمس ودهن، وقد انفعل بأعطفاهن الدافئة أقل من انفعاله بهاء شعورهن وانسياب أتوابهن المتموج. فألقى على ثيابهن كل سحر ألوانه، وكان يعرف أن المرأة باتت بفضل هذا اللباس هذا السر الغامض الذي بعث نصف ذكاء العالم، وشعره، وإعجابه الشديد، فضلاً عن إنجابه النوع الإنساني.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فاتو والفنون

ومن ثم سكب روحه في أشهر صورة قاطبة، وهي "الإبحار إلى جزيرة سيثير" وفيها نساء رشيقات استسلمن لإثارة الرجال فركبن السفينة مع عشاقهن إلى جزيرة صغيرة قيل أن لفينوس فيها معبداً، وأنها طلعت هناك من البحر وهي تقطر جملاً. هنا يكاد الرجال يكسفون النساء في بهاء ملبسهم، ولكن الشيء الذي فتن الأكاديمية في اللوحة هو جلال الأشجار المتدلي، والقمة الثلجية للجزيرة البعيدة تصبغها الشمس، والغيوم الملامسة لها. وقد أحب فاتو هذا الموضوع الدقيق جداً أغراه برسمه في ثلاثة مناظر متنوعة واستجابت باريس باختيارها فاتو ليحمل راية عصر الوصاية، ويحيي مباحج الحياة في نظام حكم سيموت حالما يسلم شاباه. وغدا بلقبه الرسمي "مصور الأعياد المرححة"، رسام العشاق من أهل المدن ينتزهون نزاهات حالمة في ريف هادئ مطمئن، ويمزجون بين "ايروس" (إله الحب) و "بان" (إله المراعي والغابات) في الدين الوحيد الذي دان به العهد. على أن نسمة اكتتاب تهب على هذه المشاهد التي توهم بخلو البال، فهؤلاء الفتيات الناعمات الطبعات ما كان يمكن أن يصبحن بهذه الرقة لولا أنهن خبرن شيئاً من الألم، أو ربما لم يساورهن الظن في قصر برهة الهيام بهن. تلك هي ميزة فاتو-الترجمة المرهفة للحظات الكمال التي لا بد أن تنقضي.

وعاجله الموت قبل أن ينعم بشهرته. وبعد موته اكتشف الخبراء رسومه القلمية والطباشيرية، وفضلها بعضهم على لوحاته الزيتية، لأن الطباشير أو القلم بلغ هنا دقة في تفصيل الأيدي والشعر، ورهافة تميز في رسم العيون والوقف والمروحة المعابثة لم تكشف عنها قط ألوان الزيت كل الكشف(73). وأغرمت نساء باريس غراماً شديداً بأنفسهن كما رأيناها في أسواق الفنان الميت. وألبست "دنبا المجتمع الراقي" نفسها بأسلوب فاتو (ألا فاتو)، ومثت وانكأت بأسلوب فاتو، وزينت مخادعها وصالوناتها كما زينت هذه في أشكال خياله وألوانه. ودخل طراز فاتو في تصميم الأثاث، وفي حدات الزخرفة الريفية و "أرابسك" الركوك الرشيق. وتلقف الفنانون أمثال لانكريه وباتير تخصص فاتو، وصورا المهرجانات الريفية، وأحاديث الغزل، وحفلات الموسيقى في المنتزهات وحفلات الرقص على الخضرة،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فاتو والفنون

والمكاشفات بين العشاق بخلود الحب. أن نصف تصوير فرنسا خلال المائة السنة التالية كان ذكرى لفاتو. وقد استمر تأثيره حتى بوشيه، ثم فراجونار، ثم ديلاكروا، ثم مينوار، ووجد التأثيريون في أسلوبه إرهابات موحية بنظرياتهم في الضوء والظل والمزاج. لقد كان كما قال جونكور المفتون به "الشاعر العظيم للقرن الثامن عشر(74)".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> المؤلفون

7- المؤلفون

زكا الأدب في ظل أخلاقيات عصر الوصاية الهينة اللينة وما ساد من تسامح، ووجدت الهرطقة موطناً لقدمها لم تجل عنه قط بعدها. وأفادت المسارح والأوبرا من عيسات الملك الراحل ومدام دمانتون، وكان فليب، أو بعض أهل بيته، يختلفون كل مساء تقريباً إلى الأوبرا، أو الأوبرا-الهزلية، أو "المسرح الفرنسي، أو مسرح الإيطاليين. واحتفل المسرح الفرنسي بتمثيلات كورنيي، وراسين، وموليير، ولكنه فتح أبوابه لتمثيلات جديدة كمسرحية فولتير "أوديب"، التي سمع فيها صوت عصر جديد متمرد.

ونحن إذا استثنينا فولتير وجدنا أعظم كتاب هذا العصر محافظين شكلوا في ظل الملك العظيم. فكان الآن رينيه لساج المولود عام 1668، ينتمي روحاً وأسلوباً للقرن السابع عشر وإن عاش حتى 1747. وقد على باريس بعد أن تلقى العلم على يد اليسوعيين في فان، فدرس فيها القانون وكانت خليلته تدفع له نفقات تعليمه (75). وبعد أن قضى في خدمة جاب للضرائب فترة بغضته في رجال المال، تكفل بإعالة زوجته وأبنائه بتأليف الكتب، ولعله كان يموت جوعاً لولا أن رئيساً دينياً عطوفاً أجرى عليه معاشاً قدره ستمائة جنيه في السنة. وقد ترجم بعض التمثيلات عن الأسبانية، والتمتة التي كتبتها أفيلانيدا لرواية "دون كخوته". ثم استوحى قصة "الشیطان الأعرج" لفيليت دي جوفاراء، فوفق كل التوفيق في قصته "الشیطان الأعرج" (1707) التي صورت شيطاناً مؤذياً يدعى أسمودوس، يحط على قمة جبل في باريس، ويرفع أسقف البيوت كما يشاء بعصاه السحرية، ويكشف لصاحبه عن الحياة الخاصة والغراميات المحرمة للقطان الغافلين. والحصيلة فضح مرح لمكاند البشر القدرة، ونفاقهم، وردائهم،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> المؤلفون

وحيلهم. فترى مثلاً سيدة تفاجأ بزوجها في الفراش مع خادمه الخاص فتحل الكثير من المشاكل جملة بصياحها بأن الخادم يعتدي على عفافها، ويقتل الزوج الخادم، وتتخذ السيدة عرضها وحياتها، والموتى لا يتكلمون. واندفع كل إنسان تقريباً لشراء الكتاب أو استعارته، وقد أبهجه أن يرى افتتاح غيره من الناس. كتبت مجلة فردان في عدد ديسمبر 1707 تقول "أن سيدين من رجال الحاشية اقتتلا بالسيوف في دكان باربان للحصول على آخر نسخة من الطبعة الثانية (76)". وقد وجد سانت-جوف شبه خلاص للعهد في ملاحظة قالها أسمودوس عن شيطان من أخوانه تشاجر معه "لقد تعانقنا، ومن وقتها ونحن خصمان لدودان (77)".

وبعد عامين كاد لساج يسمو إلى مستوى موليير بهزلية تهجو رجال المال. وقد نمت إلى بعض هؤلاء نياً "توركاريه" هذه سلفاً فحاولوا منع تمثيلها، وقد صورتهم قصة ولعلها أسطورة-وهم يعرضون على المؤلف 100.000 فرنك ليسحب المسرحية(78)، وأمر الدوفان، ابن لويس الرابع عشر، بإخراجها. وتوركاريه هذا مقاول وتاجر ومراب يحيا حياة الترف وسط الفاقة التي جرتها الحرب. وهو لا يسخو إلا على خليلته التي تبتز ماله بنفس المثابرة التي يبتز بها الناس. يقول الخادم فرونتان "عجبا لمسار حياة البشر. نحن نلتقط مغناجبا، والمغناج تلتهم رجال أعمال، ورجل الأعمال ينهب غيره، وهذا كله يؤلف أمتع سلسلة من الخدع الدنيئة يمكن تخليلها(79)". وربما كان الهجو هنا ظالماً مرهقاً بشهوة الانتقام. وقد وفق لساج، في أشهر روايات القرن الثامن عشر الفرنسية، في رسم شخصية أكثر تعقيداً، وبموضوعية أكبر. وروايته هذه "مغامرات جيل بلاس دي سانتلاني" التي نسج فيها أيضاً على منوال الروايات الأسبانية، تتحرك بأسلوب روايات التشرذخلال عالم من اللصوصية، ونوبات السكر، وخطف الناس، وإغواء الناس، والسياسة-عالم الذكاء فيه هو الفضيلة العظمى، والنجاح يغتفر كل شيء. و "جيل" هذا يستهل حياته فتى بريئاً، رقيقاً، مثالياً، محباً للناس، ولكنه ساذج، ثرثار، مغرور. يقبض عليه اللصوص، فينضم إلى عصابهم ويتعلم حيلهم

صفحة رقم : 11621

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> المؤلفون

وأسالبيهم، ويشق طريقه إلى البلاط الأسباني، ويخدم دوق ليرما مساعداً وقوادماً. يقول "قبل أن التحق بالقصر كانت طبيعتي مترفة عطوفاً، ولكن رقة القلب ضعف يعونه هناك صفة عتيقة، لذلك أصبح قلبي أقسى من أي صخر. فهنا مدرسة ممتازة لتصحيح الأحاسيس الرومانسية للصدائة(80)". ويولي ظهره لأبويه ويرفض أن يعينهما. ويتعثر حظه، فيودع السجن، ويعتزم إصلاح ذاته، ثم يفرج عنه، فينزوي في الريف، ويتزوج، ويحاول أن يكون مواطناً صالحاً. ولكنه يجد هذا عيناً لا يطاق، فيعود إلى القصر وناموسه، ويخلع عليه لقب الفروسية، ويتزوج ثانية، ويدهش لفضيلة زوجته ولسعادته بأطفالها "الذين أومن مخلصاً بأنني أبوه(81)". وأصبحت "جيل بلاس" أحب الروايات للقراء الفرنسيين، إلى أن تحدت "بؤساء" هوجو (1862) ضخامتها وتفوقها. وأحب لساج كتابه حباً جعله يواصل العمل فيه عشرين سنة فظهر المجلدان الأولان في 1715، الثالث في 1724، والرابع في 1735، وكان آخر مجلداته لا يقل جودة عن أولها. وقد استعان على معاشه في شيخوخته بكتابة هزليات صغيرة لمسرح شعبي يدعى "مسرح السوق" وفي 1738 أصدر رواية أخرى تسمى "أعزب سلمنقة"، وأطال الكتاب بسرقات صغيرة لم يعترف بها، وهي عادة درج عليها كتاب ذلك العصر وكان قد أصبح تقريباً في الأربعين، ولكن كان في قدرته أن يسمع ببوق، فبها له من رجل محظوظ يستطيع أن يصم أذنيه حين يشاء كما نغمض أعيننا. وقرب نهاية حياته القدرة على استعمال مواهبه العقلية "إلا في منتصف النهار" بحيث "بدا أن ذهنه يشرق ويغرب مع الشمس(82)", كما قال أصدقاه. ومات عام 1747 شيخاً في الثمانين. وقصة لساج "جيل بلاس" تجد اليوم قراء أقل مما تجده "مذكرات" لوي دروفروا، دوق سان-سيمون. وما من إنسان يحب هذا الدوق الآن، لأنه يفتقد قدرة الرجل المتواضع على إخفاء غروره. فهو لم ينس قط أنه كان واحداً من "أدواق ونبلاء" فرنسا، الذين لا ييزهم فخامة غير أعضاء الأسرة المالكة ذاتها، ولم يغتفر قط للويس

صفحة رقم : 11622

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> المؤلفون

الرابع عشر الرابع عشر تفضيله كفاية البرجوازيين على عجز الإشراف في إدارة الحكومة، ولا رفعه الأبناء والحفدة الملكيين غير الشرعيين فوق "الأدواق والنبلاء" في مراسم البلاط وولاية العرش. يقول لنا في أول سبتمبر 1715: "نمى إليّ نَبأ موت الملك حيث استيقظت. فذهبت من فوري لتقديم احترامي للملك الجديد.. ومن هناك ذهبت إلى دوق أورليان، وذكرته بوعد قطعه على نفسه، وهو أن يسمح للأدواق بأن يحتفظوا بقبعاتهم على رؤوسهم حين يطلب إليهم التصويت(83)".

وقد أخلص في حب الوصي، وخدمه في مجلس الدولة، ونصح بالاعتدال في أمر خليلاته، وواساه في أجزائه وهزائمه. وإذ كان على كُتُب من الأحداث مدى خمسين عاماً، فقد بدأ تسجيلها في 1694 من زاوية طبخته منذ مولده عام 1675 إلى وفاة الوصي عام 1723. أما هو فقد مد في أجله إلى عام 1755، حتى أدرك عهداً لا يوافق طبيعته. وقد حكمت عليه المركزية كريكى بأنه "غراب مريض هرم، يحرقه الحسد ويأكله الغرور(84)". ولكنها كانت تكتب مذكرات مثله، ولم تطق تشبثه بالحياة.

فأما الدوق الثرثار فكان دائماً متحيزاً، وكثيراً ما كان ظالماً في أحكامه، ومرات مهملاً في التاريخ(85)، وأحياناً غير دقيق الرواية عن وعي(86)، كان يتجاهل كل شيء إلا السياسة، ويتوه بين الحين والحين في ثرثرة لا غناء فيها عن الأرستقراطية، ولكن مجلداته العشرين سجل مفصل نفيس لكاتب ذي عين لمامة ثاقبة وقلم سيال، فهي تمكننا من أن نرى مدام دمانتون، فنيلون، وقلب أورليان، وسان-سيمون، رؤية ناصعة نابضة بالحياة، وسان-سيمون يقرب في هذا من بوربين إذ يتيح لنا رؤية نابليون. ورغبة في إطلاق العنان لتحيزه، حاول أن يخفي مذكرته، ومنع نشرها قبل أن ينقضي قرن على موته، ولم يصل منها شيء للمطبعة حتى عام 1781، وكثير منها لم يصلها قبل عام 1830. ومن بين جميع المذكرات التي تثير لنا تاريخ فرنسا تقف هذه المذكرات على القمة دون منازع.

صفحة رقم : 11623

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الكريدينال العجيب

8- الكريدينال العجيب

لو صدقنا سان-سيمون لكانت سيرة جيوم دبوا النقيض لأعظم مبادئ شبابنا إلهاماً. فقد جمع كل رذيلة، وحقق كل نجاح إلا "نجاح الاحترام". فلنستمع مرة أخرى إلى سان-سيمون يقول في زميله عضو المجلس: "كان ذكاؤه من النوع العادي جداً، ومعارفه من أكثر المعارف شيوعاً، وكفايته صفراً، مظهره مظهر العرسة، مظهر الرجال المتحذلق، حديثه ثقيل، منقطع، غامض أبداً، زيفه مكتوب على قسّمات وجهه،... ما من شيء في رأيه جدير بالتقديس... يجهر باحتقاره للإيمان، والعهود، والشرف، والاستقامة، والصدق، ويلذه أن يهزأ بهذه الأشياء كلها، تستوي فيه الشهوة والطمع... وإلى هذا كله كان ناعماً، ذليلاً، ليناً، منافقاً، كاذباً في إعجابه، يتخذ كل لبوس بيسر

كثير... حكمه معوج برغم إرادته... ومن عجب أنه لم يستطع، وفيه هذه النقائص، أن يغوي من الناس إنساناً إلا دوق أورليان، الذي أوتي نصيباً موفوراً من الذكاء واتزان العقل، ووهب الكثير من الإدراك الواضح السريع لأخلاق الناس(87)".

وكان هذا خليفاً بأن يؤدي المؤلف القاسي إلى التشكك في صواب غيرته. على أننا يجب أن نعترف بأن دكلو يتفق مع سان-سيمون(88).

كان دبوا في عامه الستين حين قلده الوصاية السلطنة، متهدماً بعض الشيء بعد أن أصيب بعدة أمراض تناسلية(89)، ولكنه كان قادراً على الترفيه عن مدام دنتسان حين وقعت من أحضان فليب. على أية حال لا بد أن أوتي شيئاً من الفطنة العقلية، لأنه أدار الشؤون الخارجية إدارة لا بأس بها. وقد أخذ رشوة ضخمة من بريطانيا ليصنع ما ظنه خيراً لفرنسا. ذلك أن حزب الأحرار في إنجلترا، والإمبراطور شارل السادس في النمسا، كانا يتآمران للتكرار لمعاهدة أوترخت واستئناف الحرب ضد فرنسا. وكان فليب الخامس يتحرق شوقاً لعرش فرنسا غير قانع بعرش أسبانيا، وخيل إليه أن إبرام اتفاق مع إنجلترا سيزيح العقبات عن طريقه. فلو أن إنجلترا، وأسبانيا، والنمسا

صفحة رقم : 11624

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الكردينال العجيب

والأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) اتحدت في حلف أعظم جديد. لطوقت فرنسا بالأعداء من جديد، ولأبطلت كل سياسات ريشليو ولويس الرابع عشر وانتصاراتهما. ومنعاً لمثل هذا الاتحاد أبرم دبوا وفليب اتفاقاً مع إنجلترا والأقاليم المتحدة (هولندا) في 4 يناير 1717. وكان هذا الاتفاق نعمة لفرنسا، ولتوازن القوي الأوروبي، ولبريطانيا؛ فلو أن فرنسا وأسبانيا تملك عليهما ملك واحد لتحدي أسطولهما الموحد سيطرة إنجلترا على البحار. كذلك كان نعمة للملكية الهانوفرية الجديدة غير الآمنة في إنجلترا، لأن فرنسا تعهدت الآن بالابتعاد مزيداً من العون للمطالبين الاستيوارتيين بالتاج الإنجليزي.

وغلبت الحكومة الأسبانية على أمرها، ولم ترقها هذه الهزيمة فاشترك البيروني، وزيرها الحاكم، في مؤامرة كيلامار ودوقة مين للإطاحة بالوصي وجعل فليب الخامس ملكاً على فرنسا. واكتشف دبوا المؤامرة، وأقنع الوصي على كره منه بأن يحذو حذو إنجلترا في إعلانها الحرب على أسبانيا (1718). وأنهت معاهدة لاهاي (1720) هذا الصراع. ورغبة في دعم السلام رتب دبوا زواج ابنة الملك فليب بلويس الخامس عشر، وبنات الوصي بأبناء فليب. وعقدت الزيجات على جزيرة بيداسو الواقعة على الحدود (9 يناير 1722) واحتفل بها في حفل لإحراق المهرطقين(90). ولما كانت الأميرة الأسبانية ماريانا أنا فكتوريا لا تتجاوز الثالثة من عمرها، فلا بد أن ينقضي زمن قبل أن ينبج منها لويس الخامس عشر وريثاً للعرش، فإذا حدث أن مات الملك الصبي خلال هذه الفترة، فإن الوصي يصبح ملكاً على فرنسا، ويصبح دبوا وزيره الدائم.

وتسلق بدهاء خطوة فخطوة. ففي 1720 عُين رئيس أساقفة على كميري، وبمفارقة مضحكة من مفارقات التاريخ طلب ملك بروتستنتي هو جورج الأول، إلى الوصي الشاك أن يقنع البابا بأن يخلع على دبوا هذا الكرسي الرئاسي الشهير، الذي شرفه قبل ذلك فنيلون، وشارك أساقفة فرنسا بما فيهم التقى الورع ماسيون في الاحتفالات التي أضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من

صفحة رقم : 11625

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الكردينال العجيب

الفرنسيين جماع الرذائل. أما دبوا فأحس بأنه لم يكافأ بما يكفي جزاء على خدماته لفرنسا، واستخدم المال الفرنسي ليُجلس على عرش البابوية مرشحاً تعهد بأن يبعث إليه بقبعة حمراء (أي قبعة الكردينال). وأوفى إنوسنت الثالث عشر بوعده وهو أسف، وأصبح رئيس الأساقفة الكردينال دبوا (16 يوليو 1721). وبعد سنة عين وزيراً أول للملكة براتب قدره 100.000 جنيه. وإذا كان يتقاضى إيراداً قدره 120.000 جنيه من منصب رئيس الأساقفة، و204.000 من سبعة أديرة، و100.000 من نظارته على البريد، ومعاشاً إنجليزياً قدره سيمون بمبلغ 960.000، فقد بلغ إيراده السنوي الآن نحو 1.500.000 جنيه(91). ولم يكن له من هم إلا خوفه من أن ترفض زوجته-التي كانت لا تزال على قيد الحياة-ما يبعثه إليها من الرشا، وتكشف عن وجودها، وتبطل بذلك مناصبه الكنسية(92).

ولكن الزمن أدركه. ففي 5 فبراير 1723 بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وانتهى عهد الوصاية. وحين كان الملك لا يتجاوز الثالثة عشرة، وكان ينعم بالعيش في فرساي، طلب إلى فليب أن يواصل حكمه للمملكة، وظل دبوا أكبر مساعدي فليب. ولكن حدث في أول أغسطس أن انفجرت مئانة الكردينال، ومات فجأة وهو متقل بأمواله. واضطلع فليب بالإدارة، ولكن فسحة أجله هو أيضاً انتهت. ذلك أنه بعد أن أتخم بالنساء، وتخرت بإدمان السكر، وكف بصره، وفقد حتى عاداته المهذبة، تقبل في نصف وعي، ازدراء الناس لذلك النظام الذي بدأ في جو شامل من الود والارتياح، وقارب نهايته في انحدار رسمي واحتقار شعبي. وأذره الأطباء بأن أسلوب حياته سيقضي عليه، ولكنه لم يكتراث، فلقد أترع بخمر الحياة حتى الثمالة، ومات بنوبة فالج في 2 ديسمبر 1723، وتلقفته ذراعاً خليلته مؤقتاً. وكان يومها في التاسعة والأربعين.

على أن فليب أورليان لا يقع من نفوسنا موقع الرجل الشرير برغم تعدد آثامه. فردائله رذائل الجسد لا النفس: كان متلافاً سكيراً فاسقاً، ولكنه لم يكن أنانياً، ولا قاسياً، ولا خسيساً، بل كان رحيماً، شجاعاً، لطيفاً. كسب مملكة بمقامرة، وتركها بقلب خلي ويد مبسوطه. وقد

صفحة رقم : 11626

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> الكردينال العجيب

أتاح له ثراؤه كل الفرص، ولم تتح له سلطته أي انضباط. أنه لمنظر محزن حقاً-منظر رجل لامع الذكاء، سمح الرأي، يكافح لإصلاح ما أفسده في فرنسا تعصب الملك العظيم، ثم يترك الأهداف السامية تغرق في سكر لا معنى له، ويضيع الحب في دوامة من الفسق.

كانت فترة الوصاية، من الناحية الأخلاقية، أشد الفترات خزيًا وعاراً في تاريخ فرنسا. فالدين الذي كان نافعاً في القرى جلب على نفسه العار في القمة لأنه شرف رجالاً من أمثال دبوا وتنتسان، ففقد بذلك احترام الفكر الذي أطلق عقاله، وقد حظي الذهن الفرنسي بحرية نسبية، ولكنه لم يستخدمها لنشر الذكاء الرحيم المتسامح بقدر ما استخدمها لإطلاق الغرائز البشرية من ضوابط الهيمنة الاجتماعية التي تتطلبها الحضارة، ونسيت الإرتيابية فلسفة أبيقور، وانصرفت إلى اللذات الأبيقورية (أي الحسية). ولقد كانت الحكومة فاسدة، ولكنها حفظت السلام فترة كفت للسماح لفرنسا بأن تفيق من عهد مدمر، عهد الفخامة والحرب. وقد انهار "نظام" لو وانتهى بالإفلاس، ولكنه أعطى الاقتصاد

الفرنسي حافظاً قوياً. وشهدت تلك السنوات الثمان انتشار التعليم المجاني، وتحرر الأدب والفن من الوصاية والسيطرة الملكيتين؛ لقد كانت سنوات "الإبحار إلى سيتيرا"، و "جيل بلاس" و "أوديب" و "رسائل موتسكيو الفارسية". ولقد زجت الوصاية بفولتير في السجن، ولكنها أعطته من الحرية والتسامح ما لن يعرفه أبداً في فرنسا حتى في ساعة انتصاره وموته.

صفحة رقم : 11627

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

9- فولتير والباستيل

1517 - 1526

في مذكرات سان-سيمون فقرة مميزة تصف شاباً محدثاً أثار ضجيجاً كثيراً أيام الوصاية:

صفحة رقم : 11628

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

"نفى أرويه، وهو ابن مونتق كنا نعامله أنا وأبي حتى توفي.. إلى تل في ذلك الحين (1716) لنظمه أبياتاً من الشعر فيها هجو شديد ووقاحة بالغة. وما كنت لألهو بتدوين هذا الحدث التافه لولا أن أرويه هذا، الذي أصبح شاعراً وأكاديمياً كبيراً باسم فولتير، قد أصبح كذلك.. .. شخصية في دولة الأب، لا بل بلغ شيئاً من الأهمية بين بعض الناس(93)".

هذا الشاب المحدث، الذي بلغ الآن الحادية والعشرين، وصف نفسه بأنه "نحيل، طويل، لا لحم فيه ولا أرداف(94)" ولعله سبب هذا العيب كان يئب من مضيف (أو مضييفة) إلى آخر، ويجد الترحيب حتى في الدوائر العليا، بفضل شعره المتألق وذكائه الحاضر، ينتشر الهرطقة وينشرها، ويمثل دور زير النساء. وإذ لمع في قصر سو على الأخص، فإنه أثلج صدر دوقة مين بهجوه للوصي. وكان فليب قد اختزال إلى النصف خيوط المرابط الملكية، فعلق

أرويه على هذا بأنه كان خيراً له أن يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموه. وأسوأ من ذلك أنه فيما يبدو أذاع أبياتاً عن أخلاق دوقة بيري (ابنة الوصي) وأنكر فولتير أنه كاتبها، ولكن الأبيات نشر بعد ذلك في "أعماله" وقد اصل خطة الإنكار هذه إلى قرب ختام حياته، باعتبارها حماية مغترة من رقابة مصلته على أصحاب الأقلام. أما الوصي فكان في وسعه أن يغتفر الهجائيات اللاذعة الموجهة لشخصه، لأنها كثيراً ما كانت كاذبة، ولكنه كان يجرح جرحاً عميقاً من السخريات الموجهة لابنته، لأنها كانت صادقة في أغلبها. وعليه ففي 5 مايو 1716 أصدر أمراً "بارسال السيد أرويه الابن إلى تل" وهي مدينة على ثلاثمائة ميل جنوب باريس، اشتهرت بمدايغها الكريهة الرائحة، ولم تكن قد اشتهرت بعد بالنسيج الرقيق "التل" الذي نسب إليها في تاريخ لاحق. وأقنع الأب أرويه الوصي بأن يغير المنفى من تل إلى صلي-سيرلوار، على مائة ميل من العاصمة. وذهب إليها أرويه، واستقبله هناك الدوق صاحب لقب صلي آنذ، سليل الوزير الأكبر لهنري الرابع، ضيفاً في بيته. وقد استمتع هناك بكل شيء إلا الحرية. وما لبث أن وجه شعراً "رسالة للدوق أورليان" يؤكد فيه براعته ويلتمس إطلاق سراحه. واستجاب الوصي، وما وافى ختام العام حتى كان قد عاد إلى باريس وراح ينتقل في أرجائها تتقل الطائر وينظم الشعر، في بذاءة حيناً وفي سطحية في كثير من الأحيان، وفي ذكاء دائماً حتى نسب إليه كل هجو بارع يسري على موائد المقاهي دون معرفة كاتبه. وفي مطلع عام 1717 ظهر هجاء لاذع جداً، بدأت كل جملة فيه بكلمة "رأيت Jai vu" مثال ذلك:

صفحة رقم : 11629

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

"رأيت الباستيل وألف سجن آخر مملوءة بمواطنين شجعان ورعايا أوفياء. رأيت الناس أشقياء يرسفون في عبودية قاسية. رأيت الجند يهلكون جوعاً، وعطشاً... وسخطاً، رأيت شيطاناً في زي امرأة... يحكم المملكة... رأيت البور-رويال وقد هدم... رأيت وهذا ينتظم كل ما رأيت يسوعياً بعيد... رأيت كل هذه الشرور، وأنا لم أجاوز العشرين بعد(95)".

وواضح أن هذه الأبيات كانت تعرض بلويس الرابع عشر ومدام دمانتون، ولا بد أن كاتبها عدو جانسني لليسوعيين لا شك مستهتر لا يزال يحتفظ ببعض الحب في قلبه لجماعة اليسوعيين. أما الكاتب الحقيقي فهو أ. ل. ليورن، الذي التمس بعد ذلك الصفح من فولتير لأنه تركه يتحمل تبعه كتاباتها(96). ولكن السن المتقولين امتدحت أرويه على القصيدة، وألحت عليه الجماعات الأدبية في إلقائها، ولم يصدق أحد إنكاره تأليفها (إلا صاحبها). واتهمته الشائعات التي نقلت إلى الوصي بكتابة عبارة لاتينية-وبحق فيما يبدو فضلاً عن قصيدة "رأيت" المذكورة، ومطلعها Pueroregnante... يقول كاتبها ما ترجمته "صبي (لويس الخامس عشر) يملك، ورجل مشهور بتسميم خصومه وغشيان المحارم يحكم،... وثقة الشعب تنتهك (إفلاس مصرف لو)... والبلاد يضحى بها طمعاً في تاج، وميراث يعجل ميقاته بخسه، وفرنسا على شفا الدمار(97)". وفي 16 مايو 1717 أمر خطاب ملكي مختوم بأن "يقبض على السيد أرويه ويودع الباستيل". وفوجئ الشاعر في مسكنه، ولم يسمح له بأن يأخذ غير الثياب التي يرتديها.

ولم يتسع وقته لوداع خليلته آنذاك، واسمها سوزان دليفرية، واتخذ صديقه لفيفر دجنونفيل مكانه على صدرها، واغترق لها أرويه خيانتها في تفلسف-"علينا أن نحتمل هذه التواقه(98)" وبعد سنوات مات لفيفر فنظم فولتير في ذكره أبياتاً تبين موهبة الشاعر الشاب في قرص الشعر الجميل، والعواطف الرقيقة التي كانت دائماً أعرق في نفسه من الشكوك: "إنه يتذكرك، أنت والجميلة إيجيري (سوزان) في أيام حياتنا الحلوة، حين كنا ثلاثتنا يحب بعضنا بعضاً. فالفكر

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

والطيش، والحب، وسحر الأخطاء الرقيقة، كل أولئك ربط بين قلوبنا الثلاثة. ألا ما كان أسعدنا، إذا لم يقو على تكدير صفونا حتى الفقر، رفيق السعادة الحزين. كنا شباباً، مرجحين، قنوعين، خالين من الهموم، لا يشغلنا التفكير في المستقبل، رغباتنا كلها تحدّها مباهجنا الراهنة فأبي حاجة بنا بعد هذا لثراء لا غناء فيه؟ لقد كنا نملك شيئاً أفضل منه جداً، كنا نملك السعادة(99)".

وتزوجت سوزان رجلاً غنياً يدعى المركيز جوفرينه، وأبت أن تدخل فولتير بيتها حين أتى لزيارتها. وعزى نفسه بهذه الفكرة، وهي أن "كل الماسات واللآلئ التي تزينها الآن لا تعدل قبلة من قبلاتها في الأيام الخالية(100)". ولم يرها ثانية حتى عاد إلى باريس بعد إحدى وخمسين سنة ليموت، عندها أصر وهو في الثالثة والثمانين على زيارة المركيزة الأرملة، وكانت قد بلغت الرابعة والثمانين. لقد كان يسكن فولتير هذا شيطان، ولكن كان يسكنه أيضاً أرق قلب في الوجود.

على أنه لم يجد الباستيل سجنًا لا يطاق. فقد سمح له بأن يرسل في طلب الكتب، والأثاث، والثياب الداخلية، وطاقيّة النوم، والعطر، وأن يدفع ثمن هذا كله، وكثيراً ما كان يتناول طعامه مع مأمور السجن ويلعب البليارد والبولنج مع السجناء والحراس، وقد كتب فيه ملحمة "الهزينة". لقد كانت الألياذة من الكتب التي أرسل في طلبها، وساءل نفسه: لم لا ينافس هومر؟ ولم تقصر الملاحم على الأساطير؟ إن في التاريخ الحي رجلاً هو هنري الرابع، إنسان مرح، جسور، بطل، فاسق، متسامح، كريم، فلم لا تصلح تلك الحياة المغامرة الفاجعة لشعر الملاحم؟ ولم يكن مسموحاً للسجين بورق الكتابة لأنه قد يستحيل في يده سلاحاً فتاكاً، لذلك كتب النصف الأول من ملحمة بين سطور الكتب المطبوعة.

وأفرج عنه في 11 أبريل 1718، ولكنه منع من البقاء في باريس ومن شاتينه القريبة من سو كتب إلى الوصي رسائل يلتمس فيها الصفح، ولانت قناة الوصي ثانية، وفي 12 أكتوبر أصدر إنذا "السيد أرويه دفولتير بالمجيء إلى باريس حين يشاء(101)".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

ولكن متى وكيف جاءه هذا الاسم الجديد؟ الظاهر أن هذا كان حوالي فترة سجنه في الباستيل، فنحن نلقاه أول مرة في المرسوم الذي ذكرناه آنفاً. وظن بعضهم(102) إنه جناس تصحيفي anagram أي تغيير في ترتيب أحرف كلمة Arovet L(e) J(eune) باعتبار الـ U هي حرف V والـ I هي حرف J. أما المركيزة دكريكي(103) فردته إلى كلمة "فولتير"، وهي مزرعة صغيرة على مقربة من باريس ورثها فولتير عن أحد أبناء عمومته، ولم يرث معها أي حقوق سيادية، ولكن أرويه، كبلزك، اتخذ الإضافة التي يلحقها السادة بأسمائهم "de" بحق العبقريّة، ووقع كما في

إهداء تمثيلته الأولى بهذا الاسم "أرويه دفولتير" ولكنه عما قليل لن يحتاج لغير اسم واحد للدلالة على نفسه في أي بلد في أوروبا.

وكانت تلك التمثيلية-أوديب-حدثاً في تاريخ فرنسا الأدبي. لقد كانت وقاحة صارخة من فتي في الرابعة والعشرين ألا يكتفي بتحدي كورنيي، الذي أخرج تمثيلية "أوديب" في 1659، بل يتحدى سوفوكليس أيضاً، الذي ظهرت مسرحيته "أوديب ملكاً" في 330 ق. م. أضف إلى ذلك أن قصة فولتير كانت قصة سفاح للمحارم، يمكن أن تحمل على محمل التعريض بالعلاقات بين الوصي وابنته-وهي بالضبط التهمة التي سجن بسببها أرويه. وقد فسرتها هذا التفسير دوقة مين واعتبطت بها، وكان الشاعر قد فكر في تمثيلته أثناء وجوده في قصرها. وطلب فولتير بجرأته المألوفة إلى الوصي أن يأذن له بإهدائه التمثيلية، وتردد الوصي، ولكنه أذن بإهدائها لأمه. وأعلن أن حفلة الافتتاح ستكون في 18 نوفمبر 1718. وتكون حزبان من رواد مسارح باريس-أنصار الوصي، وأنصار دوقة مين، وتوقع الناس أن مباراة الفريقين في صحبات الاستهجان وهتاف الاستحسان ستجعل من التمثيل مهزلة صاخبة. ولكن المؤلف الذكي كان قد ضمن مسرحيته أبياتاً تسر أحد الفريقين، وأخرى تسر الفريق الآخر. فأرضت الفريق المناصر للوصي فقرة تصف كيف طرد الملك لابوس حرس القصر الغالي النفقة (كما فعل فليب)، وأرضى اليسوعيين أن يروا كيف أحسن تلميذهم الإفادة من المسرحيات التي كانوا يخرجونها في كلية لوي-لجران؛ أما أحرار الفكر فقد صفقوا بحماسة لبينتين من الشعر ورداً في المشهد

صفحة رقم : 11632

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

الأول من الفصل الرابع، بينتين سيصبحان الأنشودة التي تتردد في حياة فولتير. "ليس كهنتنا ما يحسبه جمهور غافل، فسأجتنا هي التي تصنع علمهم كله" وصفق كل فريق بدوره، وفي النهايات ظفرت المسرحية باستحسان الجميع. وتقول رواية قديمة أن والد فولتير ذهب وهو على وشك الموت ليشهد التمثيلية في أولى ليالي عرضها، وكان لا يزال يتميز سخطاً على ولده الحقيير السيئ السمعة، ولكنه بكى اعتزازاً بروعة الشعر وانتصار التمثيلية.

وحققت أوديب فترة عرض لم يسبق لها مثيل، بلغت خمسة وأربعين يوماً. وأطراها حتى فونتيل المكتهل، ابن أخت كورنيي، وأن أبدى لفولتير أن بعض أبياتها "بالغة الشدة تضطرم ناراً". وأجاب الفتى المندفع بتورية فظة: "لكي أهدب نفسي سأقرأ رعوياتك(104)" وأصرت باريس على أن ترى في أوديب (المذنب بغشيان المحارم) شخص الوصي، وفي جوكستا شخص ابنته. وتصدت دوقة بري (ابنة الوصي) للشائعات بشجاعة، فحضرت التمثيلية عدة ليال. أما الوصي فأمر بإخراجها في مسرح قصره، ورحب بالمؤلف في بلاطه.

وبعد بضعة أشهر نشر شاعر أفاك، لم يعلن عن اسمه، قصائد سماها "Les Philoioigues الفليبيات"، وهي هجائيات اتهمت فليب بأنه يبيت تسميم الملك الصبي واغتصاب العرش. واشتبه الكثيرون في فولتير مؤلفاً للقصائد، فأكد براءته، ولكنه كان قد كذب في حالات كهذه كذباً صارخاً فلم يصدقه الآن أحد إلا المؤلف. وبراه فليب لعدم كفاية الأدلة على التهمة، واكتفى بنصحه بأن يغيب حيناً عن نعيم باريس. فعاد إلى شاتو صلي (مايو 1719). وبعد سنة سمح له بالعودة إلى العاصمة، وهناك ظل فتي الأرستقراطية المدلل فترة من الزمان.

وإذ كان مؤمناً بأن المال حجر الفلاسفة، فقد استخدم ذكاه الحاد في فهم مشكلات المالية وحيلها. وسعى لمصادقة المصرفيين، وأجيز بمكافأة سخية للمعونة التي قدمها لأخوان باريس "للحصول على عقود

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

بتوريد مؤن وذخائر للجيش (105). وكان بطلنا من استغلاليي الحرب. وظل بعيداً عن "نظام" لو، واستثمر ثروته بحكمة، وأقرض النقود بالربا. وفي 1722 مات أبوه، واحتكم فولتير إلى القضاء في أمر الوراثة وثابر على دعواه بعزيمة ماضية، ففاز بوراثة دخل سنوي قدره 4.250 فرنكاً. وفي تلك السنة ذاتها أجرى عليه الوصي معاشاً قدره 2.000 جنيه، وغدا الآن رجلاً موسراً. واما قليل سيصبح مليونيراً، وعلينا ألا نفكر فيه ثائراً، إلا فيما يتصل بالدين. وقد أعن على تربيته وتهذيبه سقوط مسرحيته الثانية-أرتمير-(15 فبراير 1720). فجرى من مقصورتها إلى خشية المسرح وناقش النظارة في مزايا المسرحية، وصفقوا الخطابه ولكنهم ظلوا على استنكارهم لها، وبعد أن مثلت ثمانى مرات سحبها من المسرح، وفي تاريخ لاحق من تلك السنة قرأ قسماً من "الهريادة" على نفر في اجتماع، ووجه إليها بعض النقد، وبحركة فرجيلية ألقى بالمخطوطة في النار، وخطف ابنو الأوراق من اللهب، وشبه نفسه بأوغسطس وهو يستنقذ إنيادة فرجيل، وقال أن فولتير مدين له الآن بملمحة و "طوقى كم لطيفين(106)". واستعاد الشاعر كبرياءه في غير مشقة حين استمع الوصي نفسه إلى قراءة من القصيدة. وكان حينما ذهب يقرأ جزء منها. وفي 1723 زار اللورد بولنبروك وزوجته الفرنسية في فللتهما، لاسورس قرب أورليان، فأكد له أن ملحمته تيز "جميع الأعمال الشعرية التي صدرت في فرنسا(107)". وتظاهر بأنه يشك في صدق هذا الزعم. وتبادل خلال ذلك الفلسفات مع ذلك الشال النبيل، وسمع بالربوبيين الذين يكفرون صفو المسيحية في بريطانيا. وخامرته الظنون بأن إنجلترا سبقت فرنسا في العلم والفلسفة. ولكنه كان قد انتهى إلى هرطقات بولنبروك قبل أن يلتقي به أو يقرأ للربوبيين الإنجليز. وفي 1722 قبل دعوة من الكونتيسة ماري دروبلموند بأن يصحبها إلى الأراضي المنخفضة. وكانت أرملة في الثامنة والثلاثين، من نساء الفكر، ولكنها جميلة، وقد قبل دعوتها وهو في الثامنة والعشرين. وفي بروكسل التقى بشاعر منافس يدعى جان باتيست روسو، أثنى على "أوديب" ولكنه وبخ فولتير على استهتاره الديني.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

أما فولتير، الذي قلما كان يطيق النقد، فقد علق على قصيدة لروسو عنوانها "قصيدة غنائية للأجيال القادمة" بقوله "أتعلم يا سيدي أنني لا أعتقد أن هذه القصيدة ستصل أبداً إلى من وجهت إليهم؟(108)" وقد ظلا ينهش أحدهما الآخر حتى وفاة روسو. وبينما كان فولتير وكونتيسسته يواصلان رحلتها إلى هولندا كشفت له عن شكوكها الدينية، وسألته عن آرائه. وإذ كان فولتير جياشاً بالشعر، فقد رد بقصيدة شهيرة سماها "رسالة إلى أوراني" لم تنتشر إلا سنة 1732، ولم يعترف بها فولتير إلا بعد أربعين سنة. وكل شاب مسيحي مرهف الحس سيتبين فيها مرحلة في تطوره. يقول فولتير "إن أنت تودين أيتها الجميلة أوراني (اسم لأفروديت) وقد بعثت بأمرك في هيئة لوكريتيوس جديد، أن أمزق أمام عينيك بيد جريئة القناع عن الخرافات، وأن أعرض عليك ذلك المشهد الخطر، مشهد الأكاذيب المقدسة التي تزخر بها الأرض، وأن تعلمك فلسفتي ازدرأ أهوال القبر ومخاوف الحياة الآخرة".

ويسير الشاعر بـ "خطى ملؤها الاحترام". فيقول "إني أريد أن أحب الله، وألتمس فيه أبي"، ولكن أي نوع من الإله يقمه لنا اللاهوت المسيحي؟ "طاغية ينبغي أن نكرهه. خلق البشر "على صورته" ليجعلهم حقراء، وأعطانا قلوباً أثمة ليكون له حق عقابنا. جعلنا نحب اللذة لكي يعذبنا بالأم رهيبية... أبدية". وما أن خلقنا حتى فكر في إهلاكنا. فأمر المياه بأن تغرق الأرض. وأرسل ابنه ليفكر عن خطايانا، لقد مات المسيح، ولكنه مات عبثاً فيما يبدو، إذ يقال لنا أننا ما زلنا ملوثين بجريمة آدم وحواء، وابن الله الذي يمتدح كثيراً على رحمته، يمثل لنا وكأنه ينتظر بروح النار أن يقذفنا بأكثرتنا إلى الجحيم، بما فينا أناس لا حصر لهم لم يسمعوا به قط "لست أتبين في هذه الصورة المخزية الإله الذي على أن أعبد، وسأشينه يمثل هذه الإهانة والولاء". ومع ذلك ترى الشاعر يحس النبل والإلهام الحي في الفكرة المسيحية عن المخلص:

"انظري إلى المسيح، القوي المجيد.. يدوس الموت تحت قدميه الظافرتين، ويخرج منتصراً من أبواب الجحيم. إن مثله

صفحة رقم : 11635

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

مقدس، وفضيلته إلهية. ويعزى سراً تلك القلوب التي يضيئها بنوره، وفي أفدح الكوارث يهبها العون، وإذا كان قد أقام تعليمه على وهم وخداع، فإن من النعم أن نخدع معه".

وفي الختام يدعو الشارع أوراني أن تستقر على رأيي في الدين واثقة كل الثقة بأن الله "الذي وضع الدين الطبيعي في قلبك، لن يسوء العقل البسيط الصريح. ثقي أن نفس الإنسان البار ثمينه أمام عرشه، في كل زمان ومكان. ثقي أن الراهب البوذي المتواضع، والولي المسلم المعطف، يجدان نعمة في عينيه أكثر مما يجده جانسنسي (قدري) صارم، أو بابا يلوث الطمع روحه".

ولما عاد فولتير إلى باريس أقام في الأوتيل دبيريير بشارع بون وطريق فولتير الحالي (1723). وفي نوفمبر ذهب إلى اجتماع للأعيان في الشاتودميزون (على تسعة أميال من باريس)، حيث كانت أعظم ممثلات العصر أدريين لكوفرير ستقرأ تمثيليته الجديدة "ماريان" ولكن قبل أن يحل موعد الحفل أصيب بالجدري، وكان في تلك الأيام يفتك بنسبة عالية من ضحاياه. وكتب وصيته، واعترف، وراح ينتظر الموت. وهرب الضيوف الآخرون، ولكن المركز دميزون استدعى الكنتور جريفيه من باريس "وبدلاً من المنبهات التي تعطى عادة في هذا المرض، جعلني أشرب مائتي باينت من عصر الليمون(109)" ولعله كان لهذه الأكواب المائتين الفضل في "إنقاذ حياتي". ولم يتمثل للشفاء إلا بعد شهور كثيرة، والواقع أنه بعد هذا كان يعالج نفسه علاج عليل عاجز، يمرض تلك الحياة المتقطعة التي يحيها ذلك البدن الهش الذي فرض عليه أن يؤوي نار صاحبه الأكلة.

وفي 1724 بدأ تداول ملحمة الهنريادة سراً بين الصفوة المثقفة. لقد كانت إذاعة سياسية على مستوى ملحمي. واتخذت الملحمة مذبحاً القديس برتلميو نصاً لها، وتتبع الجرائم الدينية خلال العصور؛ الأمهات يقدمن أبناءهن محرقات على مذابح الإله ملخ، وأغا ممنون يتهاى لتقديم ابنته قرباناً للالهة التماساً لقليل من الريح، والمسيحيون يضطهدهم الرومان، والمهرطقون يضطهدهم المسيحيون، والمتعصبون

صفحة رقم : 11636

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

"يدعون الرب وهم يذبحون اخوتهم"؛ والأتقياء يوحى إليهم قتل الملوك الفرنسيين. وأشادت القصيدة باليزابيث لتقديمتها المعونة لهنري نافر، ووصفت معركة أفريه، وشفقة هنري، وعشقه لجابرييل ديستريه، وحصاره لباريس، وامتدحت تحوله للكاتوليكية، ولكنها انتقدت للبابوية لأنها "قوة لا ترحم المغلوبين، ويلين جانبها للغالبين، على استعداد للغفران أو الإذانة حسبما تمليه المصلحة".

وكان فولتير يأمل أن تقبل الهنريادة ملحمة قومية لفرنسا، ولكن الكاثوليكية كانت أعز على مواطنيه من أن تجعلهم يستقبلون القصيدة ملحمة لروحهم. ثم أن أخطاءها كانت تنبئ إلى العين الدارسة. فالتقليدات الواضحة لهومر وفرجيل- في مشاهد القتال، وفي زيارة البطل للجحيم، وفي إدخال التجريدات المجسدة في الحركة على غرار الآلهة الهومرية- كل أولئك ضحى بمفاتيح الابتكار والأصالة، ومع أن الأسلوب كان أسلوب النثر الجيد، فقد افتقد أخيلة الشعر المنيرة. أما المؤلف، الذي أسكره مداد المطبعة، فلم يخامر ظن في هذا. فكتب إلى تييريو يقول "إن شعر الملاحم موطن قوتي، وإلا كنت واهماً جداً(110)" ولقد كان واهماً جداً.

ومع ذلك بدأ أن المديح الذي ظفر به يبرر افتخاره بملحمته. فقد صرح ناقد فرنسي بأنها تسمو على الأنيادة، وذهب فردريك الأكبر إلى "أن أي إنسان تحرر من الهوى سيفضل الهنريادة على قصيدة هومر(111)". ونفدت الطبعة الأولى سريعاً، ونشرت طبعة منتحلة في هولندا وصدرت إلى فرنسا، وحظر البوليس الكتاب، ولكن جميع الناس اشتروه. وترجم إلى سبع لغات، وسنراه يحدث ضجة في إنجلترا. وقد لعب دوراً في إحياء شعبية هنري الرابع. وجعل فرنسا تخجل من حروبها الدينية، وتنقذ النظريات اللاهوتية التي أشعلت في الناس نيران هذه القسوة الضارية.

واستمع الآن فولتير حيناً بالشهرة والمال دون أن يكدرهما مكر. فقد اعترف به الناس أعظم شاعر حي في فرنسا، واستقبل في بلاط لويس الخامس عشر، وبكت الملكة من تمثيلياته، ونفحته بألف وخمسمائة جنيه من جيبها الخاص (1725). وكتب أكثر من عشرة

صفحة رقم : 11637

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

خطابات يشكو حياته عضواً في الحاشية ويفخر بهذه الحياة. وراح يتحدث في ألفة طبيعية من النبلاء، سواء منهم الشريف والخسيس. ولا شك أنه أسرف في الحديث، وهذا أيسر شيء في الوجود. وحدث ذات ليلة وهو في الأوبرا (ديسمبر 1725) أن الشفالييه دروهان-شابو سمعه يسترسل في الحديث في بهو الانتظار فسأله في خيلاء شديدة "مسيو فولتير، مسيو أرويه-ما اسمك؟" ولا علم لنا بم أجاب الشاعر. وبعد يومين التقيا في الكوميدي-فرانسيز، وأعاد دروهان سؤاله. ويختلف الرواة في الجواب الذي أجابه به فولتير، قالت رواية أنه أجاب "إنسان لا يتجرجر وراء اسم عظيم، بل يعرف أن يشرف الاسم الذي يحمله(112)"، وتقول رواية أخرى أنه أجابه "إن اسمي يبدأ بي، واسمك ينتهي بك(113)". ورفع السيد النبيل عصاه ليضربه، وأتى الشاعر بحركته ليستهل سيفه. وكانت أدريين لكوفرير تشهد المعركة، وكان لها ن حضور البديهة ما جعلها تقع مغشية عليها، وتهادن الخصمان.

وفي 4 فبراير كان فولتير يتغدى في بيت الدوق صلي، وإذا رسالة تتبئه أن باب القصر من يريد أن يراه، فذهب، وإذا ستة فتاك ينقضون عليه ويضربونه في شيء من الترفق. وحذرهم روهان الذي كان يدير العملية من مركبته قائلاً "لا تضربوا رأسه، فعسى أن يخرج منه شيء صالح(114)". واندفع فولتير عائداً إلى البيت، وطلب إلى صلي أن يعينه على اتخاذ إجراء قانوني ضد روهان. ولكن صلي أبى. فاعتكف الشاعر في ضاحية أخذ يتدرب فيها على المثاقفة. ثم ظهر في فرساي، مصمماً على المطالبة بـ "ترضية" من الشفالييه. وكان القانون يعد المباراة يعد جريمة كبرى. وصدر أمر ملكي للشرطة بأن تراقبه، ورفض روهان لقاءه. في تلك الليلة قبضت الشرطة على الشاعر، مما أراح كل من له صلة بالأمر، ووجد فولتير نفسه نزيل الباستيل ثانية. وقال القائد العام لشرطة باريس في تقريره "إن أسرة السجين أثنت بالإجماع... على حكمة الأمر بمنع الشاب من ارتكاب حماقة جديدة(115)" وكتب فولتير للسلطات يدافع عن مسلكه، وعرض أن ينفي نفسه في إنجلترا مختاراً إذا أفرج عنه. وقد عومل كما عومل من قبل. فوفرت له كل أسباب الراحة والرعاية.

صفحة رقم : 11638

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا الوصايا -> فولتير والباستيل

وقبل اقتراحه، وأفرج عنه بعد خمسة عشر يوماً، ولكن حارساً أمر أن يوصله إلى كاليه. وأعطاه أعضاء الحكومة خطابات تعريف وتوصية لبعض الإنجليز البارزين، وواصلت الملكة دفع معاشه. وفي كاليه استضافه أصدقاؤه ريثما يقلع المركب التالي. وفي 10 مايو ركب البحر، مسلحاً بالكتب لدراسة الإنجليزية، راغباً في رؤية البلد الذي سمع أن الناس والعقول فيه أحرار. فلنر ماذا وجد فيه.

صفحة رقم : 11639

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> مقدمة

الكتاب الأول

إنجلترا

1756-1714

الفصل الثاني

الشعب

1756-1714

كانت إنجلترا التي وجدها فولتير أمة تتمتع بربع قرن من السلام النسبي عقب جيل من انتصاراتها الغالية على فرنسا، أمة غدت الآن سيدة البحار، وإذن فسيده التجارة، وإذن فسيده المال، ممسكة برافعة القوى وميزانها فوق حكومات القارة، منتصرة في كبرياء على أسرة من الاستيوارتيين حاولت أن تفرض عليها الكتلكة، وعلى ملوك هانوفرين كانوا خداماً لجيب البرلمان المنتفخ. تلك هي إنجلترا التي أحرزت قبل ذلك التفوق العالمي في العلم بفضل نيوتن، وأنجبت لوك الثائر دون عمد منه، والتي كانت تقوض المسيحية بالربوبية، والتي ستحل الشاعر الكسندر "بوب" (= بابا) محل بابوات روما أجمعين، والتي سترقب بعد قليل في قلق عمليات ديفد هيوم العقلية المدمرة. إنها إنجلترا التي أحبها الفنان هوجارت وشجبتها بقوة في محفوراته، إنجلترا التي وجد فيها هندل وطناً وجمهوراً مستمعاً، وحجب فيها ضوء كل موسيقار من آل باخ إذ غدا أعظم "مايسترو" أنجبه العصر. ثم هنا، في هذه "القلعة التي ابتنتها الطبيعة لنفسها ضد الغارات.. هذه البقعة المباركة.. في إنجلترا هذه(1)"- بدأت الثورة الصناعية تغير وتبدل كل شيء إلا الإنسان.

صفحة رقم : 11640

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

1- التمهيد للثورة الصناعية

رسم ديفو، بعد أن جاب أرجاء إنجلترا في 1722، صورة مفعمة بمشاعر الوطنية لـ "أكثر بلاد الدنيا ازدهاراً وثراءً"، صورة الحقول الخضراء والمحاصيل الوفيرة، والمراعي تهيم فيها الخراف الذهبية الفراء، والعشب النضر الغزير يتحول أبقاراً سماناً، والفلاحين يضجون في ألعابهم الريفية، وكبار الملاك في الريف ينظمون شئون

صفحة رقم : 11641

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهد للثورة الصناعية

الفلاحين، والنبلاء ينظمون شئون الملاك، وكبار حكام الأقاليم يتولون القضاء ويقرون النظام في القرى، ثم هي إلى ذلك بلد يلوذ به بين الحين والحين الشعراء والفلاسفة (2). إن تجار الكلام ينزعون إلى تصوير الريف بصورة مثالية إذا أعفوا من مضايقات هذا الريف، وملله، وحشراته، وكده وكدحه. لقد كانت الحياة الريفية في إنجلترا سنة 1715 شديدة الشبه بما كانته منذ ألف سنة. كل قرية- بل كل بيت تقريباً- وحدة مكتفية بذاتها، تزرع طعامها، وتصنع ثيابها، وتقطع أخشابها للبناء والوقود من الغابات المجاورة. وكل أسرة تحبز خبزها، وتصيد غز لانها، وتملح لحومها، وتصنع زبدها وهلامها وجبنها، وتغزل وتنسج وتخييط وتدبغ الجلد وترقع الأحذية، وتصنع أكثر أنيتها وأدواتها وآلاتها. وهكذا وجد الأب والأم والأبناء والتعبير عن ذواتهم لا في حقول الصيف فحسب، بل في أمسيات الشتاء الطويلة أيضاً، وكان البيت مركزاً للصناعة والزراعة على السواء. فالزوجة هي الخبير المكرم بفنون كثيرة، من ترميض الزوج وتربية نحو اثني عشر طفلاً، إلى حياكة الفساتين وصنع الجعة. وهي تحفظ وتصرف الأدوية المنزلية، وتعني بالحديقة والخنازير والطيور. والزواج هو اتحاد بين ريفيين متعاونين والأسرة كائن حي اقتصادي كما أنها كائن حي اجتماعي، وبهذا توافر لها مبرر قوي وأساس مكين لوحدها وتكاثرها واستمرارها.

ولو قد ترك الفلاحون أحراراً في الإبقاء على أساليبهم القديمة في الحقول لقتعوا بما في بيوتهم من حيوية منوعة. لقد تذكروا أياماً كان مالك الأرض فيها يسمح لهم، أو لأسلافهم، بأن يطلقوا قطعانهم لترعى في حقول المنطقة المشاعة، وبأن يصطادوا السمك كما يشاءون في غدرانها، وأن يقطعوا الخشب في غاباتها، أما الآن، واثراً لعملية بدئ بها في القرن السادس عشر، فقد سور الملاك معظم الأراضي المشاعة، ووجد الفلاحون عنها في العيش على قدر دخولهم. صحيح أنه لم يكن هناك أثر لرق الأرض، ولا لضرائب إقطاع رسمية، ولكن الملاك المغامرين وتجار المدن الذين استثمروا مالهم في الأرض كانوا يزرعون على نطاق أوسع، برأسمال أكبر، وبأدوات أفضل، ومهارة

صفحة رقم : 11642

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

أعظم، وأسواق أوسع مما أتيج لصغار الزراع الذين يزرعون مساحاتهم الضيقة. وقد قدر جريجوري كنج أنه كان بإنجلترا في 1688 نحو 180.000 من هؤلاء الملاك الأحرار. وذكر فولتير حوالي 1730 أن "في إنجلترا عدداً كبيراً من الفلاحين ممن تبلغ قيمة ملكية الواحد منهم 200.000 فرنك، ولا يأنفون من أن يواصلوا فلاحاً الأرض التي أغنتهم، والتي يعيشون فيها أحراراً"، ولكن ربما كان قوله هذا من قبيل الدعاية، حفزاً لهمم الفرنسيين، أياً كان الأمر، فإنه بحلول سنة 1750 كان عدد الملاك الأحرار قد تناقص (3). فالملاك السمان يشترون المساحات العجاف، والبيت الصغير وما حوله من أرض، المقصود به إعالة الأسرة أو الأسواق المحلية، يخلي مكانه لمزارع أكبر قادرة على الإفادة من الوسائل والآلات المحسنة. والمزارع يصبح مستأجراً أو "يداً" أجيرة، أضف إلى ذلك أن نظام الفلاحة الذي ساد إنجلترا عام 1715 قسم أرض القرية إلى مناطق مختلفة حسب خصوبتها وسهولة الوصول إليها، وتسلم كل مزارع شريطاً أو أكثر في النواحي المنفصلة، وكان التعاون ضرورياً، وأحببت المبادرة الفردية، وتخلف الإنتاج. وكانت حجة مسوري الأراضي أن التشغيل الواسع النطاق تحت ملكية موحدة من شأنه أن يزيد الإنتاج الزراعي، وييسر رعي الأغنام، ويتيح ناتجاً مربحاً من الصوف، ولا ريب أنهم كانوا على حق. وأغمض التقدم الاقتصادي عيناً واحدة على الأقل عما أصاب الناس من اضطراب شديد في حياتهم نتيجة الارتحال والانتقال. وتركز التقدم في التكنولوجيا الزراعية على المزارع الموسعة. فاستصلح حافز الكسب الأراضي البور وزرعها، ودرب العمال على كفاية أعظم، وشجع اختراع الآلات والوسائل الجديدة وحفز إجراء التجارب على تربية الحيوان، ودعم الجهد المبذول في صرف المستنقعات والحد من تعرية التربة وتطهير الغابات. وأضيف بين عامي 1696 و1795 نحو مليوني فدان إلى المساحة المزروعة في إنجلترا وويلز. وفي 1730 أدخل تشارلز تاونشند النظام الرباعي لدورة المحاصيل بدلاً من الخطة المسرفة التي كان يترك بمقتضاها ثلث الأرض بوراً كل سنة؛ فزرع القمح أو الشوفان في السنة الأولى، والشعير أو الشوفان في الثانية، والبرسيم والجاودار والنباتات العلفية واللفت الأصفر والكرنب في

صفحة رقم : 11643

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

الثالثة، واللفت في الرابعة. ثم جاء بالأغنام لتأكل اللفت أو تدوس عليه فتدفعه داخل الأرض بينما يخصب روثها التربة، وبذلك أعدت الأرض لمحصول وفير من القمح في السنة الثانية. وسخر منه جيرانه، وأطلقوا عليه لقباً هو "تيرنب تاونشند" (أي تاونشند اللفت)، إلى أن حملهم على تقليده زيادة في محاصيله بلغت 30%. وإذا كان تاونشند فيكوننا، فقد حدا حذوه نفر آخر من الطبقة الأرستقراطية في تحسين أرضهم، وشاع بين أشراف الإنجليز أن يهتم الواحد منهم اهتماماً شخصياً بالزراعة، وانتقل حيث الضياع من الصيد والكلاب إلى اللفت والسماد (4). وكان جثرو ثل محامياً، اعتلت صحته فعاد مزرعة أبيه، واستهوت ذهنه المرهف معجزة النماء وأرباح الزرع، ولكن صدمه ما رأي من طرق الفلاحة المسرفة، - فالمزارعون يبنثرون تسعة أو عشرة أرتال من البذار على الفدان بإهمال شديد يترك "ثلثي الأرض خالية من الزرع، في تكتظ البذار في الباقي اكتظاظاً يمنع الزرع من أن يزكو (5)". ودرس أساليب الزراعة أثناء رحلاته في فرنسا وإيطاليا، فلما عاد إلى وطنه اشترى مزرعة، وأذهل جيرانه بمخترعات ضاعفت من الإنتاج. وقد بدأ (حوالي 1730) بصنع محراث ذي أربعة قواطع يقتلع الحشائش ويدفنها في التربة بدلاً

من مجرد إزاحتها جانباً. ولكن أكثر مخترعاته حسماً (حوالي 1733) كان آلة حفر تجرّها الخيل، تنتثر الحب خلال أنابيب مسننة على مسافات وأعماق معينة في خطين متوازيين، ثم تغطي الحب بمساحة متصلة بالحفار. ووفرت الآلة الحب والعمال، وأتاحت زرع التربة المحصورة بين الخطين المبدورين وتهويتها وريها وتنقيتها من الحشائش. وقد شارك هذا التغيير في بذر الحب، الذي يبدو تافهاً، وتحسين المحراث، في أحداث ما سمي بعد ذلك بالثورة الزراعية، التي يمكن أن تقاس نتائجها (حتى مع أخذ التضخم في حسابنا) بارتفاع قيمة الأراضي التي استخدمت فيها الوسائل الجديدة عشر أضعاف خلال القرن الثامن عشر. ومكنت الزيادة في إنتاجية التربة المزارع من أن تطعم المزيد من الصناع في المدن، وأتاحت ذلك العدد النامي من سكان المدن، الذي لولاه لاستحالت الثورة الصناعية.

صفحة رقم : 11644

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهد للثورة الصناعية

على أنه لا الفلاحون ولا عمال المدن كان لهم نصيب من الثروة النامية. فالملاك الفلاحون أمكن ضغطهم والتخلص منهم بالمنافسة الواسعة النطاق، والعمال الفلاحون تقاضوا من الأجور البخسة القدر الضئيل الذي أكرههم خوف التعطل على قبوله. فلنستمع إلى ما يقوله العلامة الرفيع المقام تريفيليان:

"كان الثمن الاجتماعي الذي دفع النظير الكسب الاقتصادي هو تناقص عدد الزراع المستقلين، وازدياد عدد العمال الذين لا يملكون أرضاً، وكان هذا إلى حد كبير شراً لا بد منه، ولو وزع الربح الزائد الذي حققته دنيا الزراعة توزيعاً عادلاً لخف الضرر. ولكن بينما ارتفع إيجار المالك، وعشور القسيس، وأرباح المزارع المالك والوسيط ارتفاعاً سريعاً، فإن فاعل الحق، الذي حرم حقوقه الصغيرة في الأرض المشاع وحقوق أسرته بتشغيلها في الصناعة إلى جانب الزراعة، لم يجز الجزاء الواجب بأجر أعلى، وكثيراً ما انحدر في المقاطعات الجنوبية إلى درك التبعية والفاقة(6)".

ومما خفف إلى حد ما من التركيز الطبيعي للثروة دفع الضرائب والإحسان المنتظم. ذلك أن أغنياء الإنجليز، بعكس النبلاء الفرنسيين كانوا يدفعون النصيب الأكبر من الضرائب التي أعالت الحكومة. فقد ألزمت "قوانين إعانة الفقراء" التي بدأت في 1536 كل أبرشية بإنقاذ الأشخاص الذين في خطر الموت جوعاً. وكان المتعطلون من القادرين صحياً يرسلون إلى الإصلاحيات، والعجزة إلى الملاجئ، والأطفال يشغلون صبياناً لمن يرغبون في إيوائهم وإطعامهم لقاء خدماتهم. وكانت نفقات هذا النظام تؤدي من ضريبة تفرض على أسر الأبرشية. وقد ذكرت لجنة برلمانية في تقرير لها أنه لم يبق على قيد الحياة من جميع الأطفال المولودين من الإصلاحيات، أو الذين استقبلتهم في حدائهم سنهم، في الأعوام 1763-65، إلا سبعة في المائة في 1766(7). حقاً لقد كان قرناً قاسياً.

ب - الصناعة

عطل البيت الريفي المكتفي بذاته تخصص العمل والثورة الصناعية

صفحة رقم : 11645

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

سواء كان هذا التعطيل خبيراً أو شراً. فلم يمول الرجل حديث العهد برأس المال مصنعاً ما دام في قدرته أن يجعل مائة أسرة تغزل وتنسج له تحت أسقفهم ووفق نظام المنافسة الأوتوماتي؟ لقد أنتجت هذه الصناعة البيئية في قسم "وست رايدنج" بيوركشير 100.000 قطعة قماش للسوق في 1740، و140.000 قطعة في 1750، وعلى عام 1856 لم يرد من المصانع سوى نصف إنتاج الصوف، أما النصف الثاني فظل يرد من البيوت (8). على أن تلك البيوت الشاغية بالحركة كانت في الواقع مصانع وليدة، فرب البيت يدعو الخدم والغرباء ليشاركوا في العمل، والحجرات الإضافية تجهز بدواليب الغزل وأنوال النسيج. فلما ازداد حجم تلك العمليات البيئية واتسعت السوق بفضل الطرق المحسنة والسيطرة على البحار، خلقت الصناعات البيئية ذاتها الطلب على آلات أفضل وكانت الاختراعات الأولى أدوات أكثر منها مكنأ. وكان في الإمكان تركيبها في المنزل، مثل مكوك "كي" الطائر، ولم يحل نظام المصنع محل الصناعة المنزلية إلا حين صنع المخترعون آلات تتطلب القوة الميكانيكية.

وكان الانتقال تدريجياً، فقد اقتضى قرناً تقريباً (1730-1830)، وربما كانت كلمة "ثورة" لفظاً أعنف مما يحتمله تغيير بطيء كهذا. ولم يكن الانتقال على الماضي حاداً بالدرجة التي أوحى بها في الماضي النزعة الروائية في كتابة التاريخ، فالصناعة قديمة قدم الحضارة، وقد تقدم الاختراع بسرعة متزايدة منذ القرن الثالث عشر، وكانت المصانع في فلورنسة على عهد دانتي كثيرة كثرة الشعراء، والرأسماليون في هولندا أيام رمبرانت كثيرين كثرة المصورين. ولكن التغيير الصناعي الذي طرأ في القرنين الأخيرين (1760-1960) إذا نظرنا إليه في مراحل المتصاعدة، من البخار إلى الكهرباء إلى النفط إلى الإلكترونيات والطاقة الذرية، بالقياس إلى معدل التغيير الاقتصادي في أوربا قبل كولمبس- هذا التغيير يشكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والصناعة فحسب تغييراً أساسياً، بل غيرت كذلك السياسية والعادات والأخلاق والدين والفلسفة والفن.

وقد تضافرت عوامل عديدة على فرض التغيير الصناعي. فالحروب التي أعقبت سقوط وزارة ولبول (1742) حثت على زيادة سرعة

صفحة رقم : 11646

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

الإنتاج والتوزيع. ونمو السكان نتيجة لازدياد موارد الطعام أتاح سوقاً داخلية متضخمة للزراعة والصناعة، وشجع على صنع آلات أحسن وشق طرق أفضل. وقد تطلبت الآلات المهارات، مما أفضى إلى تخصص وتقسيم للعمل نهضاً بالقوة الإنتاجية. وقد جلب الهيجونوت وغيرهم من المهاجرين إلى إنجلترا ما استنقذوه من مدخراتهم كما جلبوا إليها حرفهم، ومخترع أول آلة للنسيج (1738) كان سلباً للهيجونوت. وكان لتقرير البرلمان تعريفات جمركية حامية (كقانون الكاليكوت- أي الشيت- الصادر في 1721، والذي حرم استعمال الشيت المطبوع المستورد) الفضل في الحد من المنافسة الأجنبية، وإتاحة السيطرة الكاملة لصناعة النسيج الإنجليزية على السوق الداخلية، في حين أعان نفوذ التجار المتزايد في التشريع على توسيع الاقتصاد البريطاني. وشجعت التقاليد البيورانية- التي ستنعها بعد قليل

حركة الموثوديين- فضائل الجد والإقدام والاقتصاد في الطبقات الوسطى والدنيا وتراكم رأس المال، وأجيز الإثراء، وبدا أن الله اختص اليورجوازية بنعمته.
وأتاح تطوير التعدين في الوقت ذاته موارد متزايدة من الفحم وقوداً للصناعة. وكان الخشب إلى ذلك الحين هو الوقود الأهم للبيوت والمتاجر، ولكن الغابات كانت تتضاءل حتى أوشكت على الانقراض، فمن بين تسع وستين غابة كبيرة عرفتها إنجلترا الوسيطة، اختفت خمس وستون بحلول القرن الثامن عشر (9). واقتضى الحال استيراد الخشب من إسكندنافيا أو أمريكا، وكان يكلف أكثر فأكثر، وظهر الطلب على وقود أرخص. ولكن تعدين الفحم كان لا يزال عملية بدائية، وكانت المناجم ضحلة، والتهوية رديئة، والميثان وغاز الكربون يخفقان المعدنين، وظلت مشكلة ضخ المياه من المناجم بلا حل حتى جاءت آلات سافري ونيكومن البخارية. والواقع أن هذه المشكلة كانت أكبر حافز لتطوير هذه الآلات. على إنتاج الفحم تصاعد وانتشر رغم هذه الصعوبات، فما وافى عام 1750 حتى كان الفحم الذي يشعل في البيوت والمصانع يحجب سماء لندن (10).
كانت أهمية الفحم للثورة الصناعية تكمن بوجه خاص في استعماله

صفحة رقم : 11647

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

لتنقية خام الحديد ليصبح حديداً أقوى وأصفى وأطوع بفصل الفلز عن المواد المعدنية العالقة به. والتنقية استلزمت الصهر، الذي استلزم درجة عالية من الحرارة؛ وكانت هذه الحرارة منذ القرن الرابع عشر تنتج بإشعال الفحم النباتي (وهو الخشب المتفحم) في أفران عالية تسلط عليها تيارات قوية من الهواء؛ ولكن الفحم النباتي أصبح الآن أعلى ثمناً بسبب تناقص موارد الخشب. وفي 1612 أشار سيمون ستورتفانت باستخدام الفحم الحجري وقوداً صاهراً. وزعم "د" دلي (أي الفاشل) في 1619 أنه خفض تكاليف صهر الحديد بهذه الوسائل إلى النصف، ولكن منافسيه الذين استخدموا الفحم النباتي تضافروا لإقصائه عن هذه الصناعة. وأخيراً (حوالي 1709) وفق أبراهام داربي الأول، الذي استوطن كولبروكديل حيث الفحم كثير، في صهر خام الحديد بنجاح وبتكاليف قليلة، وذلك بتسخينه فحم الكوك- أي الفحم المحرق بقدر يكفي لتخليصه من عناصره الطيارة. أما الكوك فكان معروفاً منذ عام 1590. وطور أبراهام داربي الثاني استعمال الفحم أو الكوك في الصهر، وحسن الأفران العالية بمنفاخ يشغله دولا ب مائي، وسرعان ما استطاع أن يفوق في مبيعاته كل أصحاب مصانع الحديد في إنجلترا وفي 1728 أنشئ أول مصنع إنجليزي للحديد لتمرير الحديد بين سلسلة من الأسطوانات تضغطه لإخراج الأشكال المطلوبة. وفي 1740 اخترع بنيامين هننسمان طريقة البوتقة التي كان ينتج بها الصلب العالي الرتبة بتسخين المعدن وتنقيته في قدور من الفخار. هذه التطورات في المزوجة بين الفحم والحديد هي التي يسرت اختراع آلات الثورة الصناعية.

ج - الاختراع

لم يشهد النصف الأول من القرن الثامن عشر زيادة لافتة للأنظار في سرعة الاختراع بالقياس إلى القرنين السابقين، وقد نحتاج إلى نصف مجلد لتعدد الاختراعات التي ورثها هذا العصر من سابقه. مثال ذلك أن الساعة الكبيرة، التي لا غنى عنها في العلم والصناعة والملاحة، أبلغت مرتبة الكمال تقريباً في القرن السابع عشر، وبحلول عام 1758 وصلت إلى درجة من الدقة (لا يعدو الانحراف فيها دقيقة كل ستمائة

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

يوم) لم تتجاوز إلا في 1877(11). وكان العمال أنفسهم يثبطون المخترعات، وإن كانوا في كثير من الأحيان مصدرها، خشية أن تهددهم بالتعطيل التكنولوجي، وهكذا فرض عداء العمال هجر أول منشرة خشب إنجليزية(1663)، ولم تجدد المحاولة بنجاح إلا سنة 1767. وزادت الطرق الرديئة من تعطيل الاختراع الصناعي، ولم يكن هناك كبير حافز على زيادة الإنتاج ما دامت صعوبات النقل تفوق توسيع السوق. على أن النقل البحري كان أخذاً في التحسن، وكانت المستعمرات، التي غلبتها الزراعة، تتهاقت على طلب المنتجات المصنوعة، هنا وجد حافز متزايد على الاختراع. وقد أعان عليه دافع الربح، ومنح البرلمان حقوق امتياز تمتد أربع عشرة سنة. وجاء حافز آخر من المنافسة الأجنبية في تجارة الصادر، فحثت منسوجات الهند، التي أنتجتها عمال مهرة منخفضوا الأجور أصحاب المصانع الإنجليزية على الاقتصاد في الإنتاج باستعمال الأجهزة المكنية المحسنة. فصناعة النسيج إذن هي التي افتتح الاختراع في ميدانها ذلك التغيير العظيم.

كان "المكوك الطائر" الذي ابتكره جون كي (1733) أول اختراع بارز في إنتاج المنسوجات، ولنا أن نعتبر هذا التاريخ بداية للثورة الصناعية فمن قبله كان عرض القماش المراد نسجه محدوداً بطول ذراعي النسيج باستثناءات صغيرة- إذ كان عليه أن يقذف بالمكوك (وهو الأداة التي تمرر خيوط اللحم خلال خيوط السدى) من أحد جانبي النول بيد، ويلقعه باليد الأخرى في الجانب المقابل. ورتب كي جهازاً من العجلات، والمطارق، والعصي، يتيح لدقة حادة باليد أن تجعل المكوك يمرق من أحد الجانبين إلى وقفة أوتوماتيكية عند أي عرض محدد سلفاً، مما ينجم عنه وفر كبير في الوقت. فلما حاول تركيب اختراعه في مصنع بكونلتنستر اتهمه النساجون بأنه يحاول حرمانهم من قوتهم القومي. ففر على ليدز (1738) وعرض اختراعه المسجل على أصحاب مصانع القماش لقاء رسم، فأخذوا اختراعه، ولكنهم قبضوا عنه إتاوته، فرفع أمره إلى القضاء، واستنزفت مصاريف التقاضي كل ماله. فذهب إلى وطنه في بري، ولكن الأهالي هاجوا عليه هناك (1753)، ونهبوا بيته، وهددوه بالقتل. غير أن امرأة رحبت بألته في حماسة وصاحت قائلة بلهجتها العامية "حسناً، حسناً،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

أن أعمال الله عجيبة، ولكن حيل الإنسان تغلبه تعالى في النهاية(12) " وجد كي قبولاً أكثر من فرنسا، التي تبنت حكومتها اختراعه وكافأته بمعاش. ولم يتغلب المكوك الطائر على كل معارضة ويعم استعماله إلا عام 1760. وعطل صناعة النسيج أن النساجين كانوا يستطيعون نسج الخيوط بأسرع مما يستطيع الغزلون غزلها وإمدادهم بها. وكان الغزل إلى سنة 1738 غزلاً يدوياً، على دوليب ما زالت تجمل البيوت التي تمجد الماضي. في ذلك العام سجل

لويس بول، وهو ابن مهاجر هيجونوتي، آلة غزل يبدو أنها مبنية على أسس اقترحها جون فيات، وهي مجموعة من البكر تسحب للخارج حبال القطن أو الصوف المشدودة لتصبح خيوطاً بأي رفع مطلوب، وتغزلها على مغازل، وذلك كله بأقل جهد. وباع بول وفيات براءة الاختراع إلى أدوارد كيف، صديق الدكتور جونسون، وأقام كيف خمس آلات بمصنع نورثامبتن في 1742- وهو الأول في سلسلة طويلة من مصانع الغزل في إنجلترا القديمة والجديدة. أما وقد تيسر الآن الحديد لصنع الآلات القوية، وتطلبت الأحوال الاقتصادية الإنتاج الواسع النطاق، فقد بقيت مشكلة العثور على قوة ميكانيكية يستعاض بها، بثمن رخيص، عن عضلات الرجال وصبر النساء. وأقدم الحلول استخدم القوة المائية. ففي مائة قطر كان الدولاب المائي العظيم، الذي يدور على مهل مع جريان للأنهار، يسير منذ زمن سحيق المضخات، والمنافخ، والبكر، والمطارق، لا بل الآلات الحديدية الثقيلة منذ عام 1500. وظل المصدر الأهم للطاقة الميكانيكية خلال القرن الثامن عشر. وقد عاش إلى القرن العشرين، وما التركيبات الهيدروليكية في زماننا سوى قوة مائية حولت إلى كهرباء قابلة للنقل. ولا يمكن الركون إلى القوة المحركة للرياح بهذا القدر، ولم ينتفع بها إلا انتفاعاً قليلاً نسبياً في بلاد الجنوب الهادئة الريح، ولكن في العروض الشمالية سخرت التيارات الهوائية في إدارة طواحين هواء توجه "قلوعها" إلى "عين الريح" بونش في أسفلها يدار باليد. وقد بلغت هذه الآلة الثقيلة، التي لا يركن إليها، أوجهاً في الأقاليم المتحدة في القرن الثامن عشر، ثم بدأت اضمحلالها الرائع.

صفحة رقم : 11650

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

وكان المخترعون خلال ذلك يجاهدون ليبلغوا بالآلة البخارية درجة الكفاءة المجزية. وكانت قد قطعت قبل ذلك شوطاً طويلاً، من أبواب ولعب "هيرو" التي يشغلها البخار في القرن الثالث الميلادي، مروراً بجيروم كاردان (1550)، وجامباتستا ديلابورتا (1601)، وسالمون دي كاوس (1615)، وجوفاني برانكا (1629)، ومركيز ورستر (1663)، وصموئيل مورلاند (1675) وكريستيان هويجنز (1680)، ودني بابان (1681)، وتوماس سافري (1698)، إلى آلة توماس نيوكومن البخارية في 1712؛ تلك قصة رويت ألف مرة. وهنا أيضاً، أي في عام 1712، يمكن أن يبدأ تاريخ الثورة الصناعية، لأن آلة نيوكومن "النارية" كانت مجهزة بمكبس، وذراع متذبذب، وصمام أمن، واستخدمت بنجاح في نزع الماء في المناجم العميقة. وقد ظلت النموذج الأساسي للطمبات مدى ثلاثة أرباع القرن.

د - رأس المال والعمال

حين ازدادت الآلات حجماً وتكلفة، وتطلب تشغيلها القوة الميكانيكية، وجد نفر من المغامرين أنه أربح لهم أن يستبدلوا بالصناعة في البيوت مصانع تجمع الرجال والنساء في أبنية يحسن اختيار مواقعها قرب أنهار توفر الطاقة والنقل معاً. والمصانع، كما سلف، لم تكن بدعاً، فقد كان منها مئات في إنجلترا اليزابيث وفرنسة كولبير. غير أن "نظام" المصانع- إذا عرفناه بأنه اقتصاد صناعي يتم فيه الإنتاج بصفة رئيسية في مصانع- لم يكد يوجد في أي مكان قبل القرن التاسع عشر. ولكن بعد اختراعات كي وبول بدأت مصانع المنسوجات تقوم بالمزيد من الغزل والنسيج الذي كان يتم في البيوت، وفي 1717 أنشأ توماس لوم في داربي مصنع نسيج طوله 660 قدماً، يشغل ثلاثمائة عامل يقومون على 26.000 دولاب. وسرعان ما قامت منشآت مماثلة الضخامة في ستوكبورت، وليك، وبرمنجهام، وليومنستر، ونرثامتن.

وشرء الآلات وإيواؤها، والحصول على الخامات، واستتجار العمال والإدارة، ونقل النتائج وتسويقه، كل هذا يتطلب رأس المال. كذلك كان الرأسمالي- مقدم رأس المال أو مديره- ظاهرة قديمة، ولكن بزيادة الطلب على رأس المال ازدادت الأهمية الاقتصادية والقوة السياسية

صفحة رقم : 11651

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

للرجال الراغبين في المخاطرة بتقديمه. وقاومت الطوائف الحرفية، التي كانت من الناحية النظرية لا تزال تحكم معظم الصناعة الأوربية، التنظيم الرأسمالي للإنتاج والتوزيع. ولكن نظام الطوائف الحرفية بنى عليها الحرف اليدوية لا الآلات، وقد هبى لتلبية الحاجات المحلية لا السوق القومية فضلاً عن السوق الدولية، ولم يستطع تلبية المطالب المتزايدة للجيوش، والمدن، والمستعمرات، وقد عوقه الولاء للوسائل والقواعد التقليدية، وأخذ ينحدر إلى درك "الشلل" من معلمي الحرف الذين يستغلون الصبيان وعمال اليومية. وكان الرأسمالي أقدر على تنظيم الإنتاج الكبير والتوزيع البعيد؛ فلقد كان عليماً بذلك الفن البالغ الرهافة، فن جعل المال يلد المال؛ وظاهره برلمان تواق لأن تمون الكفاية الصناعية التجارة المترامية والحروب.

وبانتشار المصانع والرأسمالية تغيرت علاقة العامل بعمله. فلم يعد يملك أدوات حرفية، ولا يحدّد ساعات كده وظروفه. ولم يكن له غير نصيب صغير في تقرير معدل أجوره أو نوعية ناتجه. ولم يعد حانوته مدخلاً إلى بيته، ولا صناعته جزءاً من حياته الأسرية. ولم يعد عمله ذلك التشكيل الفخور لأداة في جميع مراحلها، بل أصبح يحكم تقسيم العمل- الذي سيعجب آدم سمث كثيراً- التكرار اللا شخصي، الممل، لجزء من عملية لم يعد ناتجها المصقول يعبر عن حذقه وتقننه؛ إنه لم يعد صانعاً ماهراً، بل "يداً" أجيرة. وقد حدد أجره جوع رجال ينافسون النساء والأطفال على العمالة. فإذا كان عاملاً في منجم فمتوسط أجره شلن وستة بنسات في اليوم، وإذا كان فاعلاً في البناء تقاضي شلنين، وسمكرياً ثلاثة شلنات، وقد اختلفت هذه المعادلات اختلافاً يسيراً بين عامي 1700 و1770(13). وكان النسيج يتقاضى حوالي سنة 1750 ستة شلنات في الأسبوع، والنساجة خمسة شلنات وستة بنسات، والطفل شلنين وستة بنسات. أما النساء الغزالات فمن شلنين إلى خمسة في الأسبوع، وأما البنات من السادسة إلى الثانية عشرة فشلن ونصف(14). على أن الأسعار كانت منخفضة، وظلت ثابتة حتى 1760(15). وكان يضاف إلى هذه الأجور أحياناً علاوة للخبز والجمعة أثناء العمل، وكان معظم عمال المناجم يعطون الفحم مجاناً.

صفحة رقم : 11652

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

وكانت حجة أصحاب العمل أن عمالهم لا يستحقون أكثر من هذه الأجور، لأنهم أدمنوا الكسل والسكر والاستهتار والفجور. وزعم أحدهم (1739) أن السبيل الوحيد لجعل العمال عيوفين مجدّين "أن تفرض عليهم ضرورة الكد طوال الوقت الذي يستطيعون اقتطاعه من الراحة والنوم ليحصلوا على الضروريات العادية للحياة(16)". وقال كاتب في 1714 "ليس للفقراء ما يحفزهم للخدمة النافعة سوى الحاجة، وهذه حال من الحكمة تخفيفها، ولكن من الحماسة شفاؤها(17)" أما يوم العمل العادي فيمتد من إحدى عشرة ساعة إلى ثلاث عشرة، ستة أيام في الأسبوع، ويهون من طول هذه الفترة ساعة ونصف لتناول الوجبات، ولكن المتباطئين بلا مبرر في تناولها يفقدون ربع أجر اليوم(18). وشكا أصحاب العمل من أن عمالهم يتوقفون عن العمل ليختلّفوا إلى المهرجانات، أو مباريات الملاكمة التكبسية، أو مشاهد الشنق، أو الاحتفالات بأعياد القديسين الشفعاء. ورغبة في حماية أنفسهم من هذه المخالفات وأشباهها كان أصحاب العمل يجوبون أن يكون لديهم رصيد من العمال المتعطلين في المنطقة، يستطيعون أن يعتمدوا عليه في الطوارئ أو أوقات الطلب المتزايد(19). فإذا كسدت الأحوال كان في الإمكان تسريح العمال وتركهم ليعيشوا على قروض من التجار المحليين.

ونشأت في المدن ببطء بروتاريا تابعة. وكانت تجمعات الطبقة العاملة محظورة بمقتضى قانون قديم أصدره أودارد السادس، فجدد البرلمان هذا الحظر في 1720. ولكن عمال اليومية مضوا في تنظيم أنفسهم، ولجئوا إلى البرلمان لتحسين أجورهم، وأصبحت اتحادات هؤلاء العمال- لا الطوائف الحرفية- هي الرائدة لحركة النقابات العمالية التي تشكلت في إنجلترا في نهاية القرن الثامن عشر. وفي 1756، بناءً على التماس من عمال النسيج في جلسترشير، أمر مجلس العموم قضاة الصلح بالمحافظة على الحد الأدنى القانوني للأجر، ويمنع تخفيض الأجور في الصناعة، ولكن هذا المر سحب بعد عام، واتخذ البرلمان سياسة ترك تحديد الأجور للعرض والطلب على العمل(20). لقد بدأ عهد "المشروع الحر" وسياسة "عدم التدخل Laissez-Faire".

صفحة رقم : 11653

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهد للثورة الصناعية

هـ - النقل والتجارة

توقف نمو الاقتصاد على التحسينات في المواصلات والنقل. وكانت إنجلترا تتمتع بميزة ساحلها البحري وأنهاها، وكان نصف السكان يعيشون على أبعاد معقولة من البحر، ويستطيعون استخدامه في نقل السلع؛ وتغلّغت الأنهار مسافات بعيدة من الداخل، فأتاحت بذلك طرقاً مائية طبيعية. ولكن حال الطرق الإنجليزية كانت دائماً قذى في عين الحياة الإنجليزية. فترتبه هذه الطرق لينة، وأخاديد صلبة يغمرها الماء، وكثير منها حولته أمطار الربيع أو الصيف إلى نهيرات أو بالوعات من الوحل كان المرور عليها عسيراً بحيث اقتضى إخراج المركبات من فوقها استخدام أعداد إضافية من الخيل والثيران، وكان على المسافرين على الأقدام أن يتحولوا إلى الحقول والغابات القريبة. ولم تتكفل الحكومة، لأغراض حربية، ببناء مجموعة من الطرق الرئيسية "صالحة لمرور الجنود والخيل والمركبات على مدار السنة(21)" (1751) إلا بعد أن قاد "الأمير تشارلي الجميل" رجاله الاسكتلنديين الثائرين وأوغل جنوباً حتى داربي في 1745، لأن حالة الطرق عرقلت مسيرة القوات الملكية الموجهة ضده. ومع ذلك ظل للصوص يعيشون فساداً في الطرق، وكانت تكاليف النقل غالية.

وكان الناس يسافرون على ظهور الخيل أو في مركباتهم الخاصة إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وكان في إمكانهم استئجار الخيل الجديدة في نقط أو مواقع على الطريق Posts في الرحلات الطويلة، وانتشرت هذه البيوت Post-houses في جميع أرجاء أوروبا الغربية. ثم استخدمت كلمة "بوست" (الواسطة) للدلالة على نقل البريد، لأنه في مثل هذه النقط كان حاملو البريد يستطيعون تسليم البريد أو تسلمه وتغيير الخيل؛ وبفضل هذا النظام أمكنهم أن يقطعوا 120 ميلاً في اليوم. ومع ذلك كتب تشستر فيلد (1749) يشكو الحال "إن رسائنا على أحسن تقدير تنقل نقلاً مضطرباً، وكثيراً ما تضيع تماماً(22)". وذهب إلى أن من "السرعة غير المألوفة" أن يستغرق خطاب مرسل من فيرونا ثمانية أيام ليصل إلى لندن. وكان أكثر السفر بالمركبات العامة يجرها جوادان أو أربعة ولها سائق وحارس

صفحة رقم : 11654

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

مسلح خارجها، وبدخلها ستة ركاب يترنحون. وكانت المركبات تغادر لندن بجدول منتظم صباحين أو ثلاثة في الأسبوع قاصدة كبريات مدن جنوبي إنجلترا، ومعدل سرعتها سبعة أميال في الساعة، ورحلتها من لندن إلى نيوكاسل تستغرق ستة أيام.

وظلت التجارة الداخلية بهذه الطرق المعوقة بدائية على نحو جدير بالتصوير. فكان تاجر الجميلة يرافق عادة جواد الحمل التي تنقل بضاعته من بلد إلى بلد، والباعة الجوالون يسرحون بسلعهم من بيت إلى بيت. أما الحوانيت فتميز عن البيوت بعلامات أهمها اللافتات الحافلة بالألوان، وتحفظ السلع بداخلها، وليس هناك عادة "أي عرض في الفترينات". وكل متجر تقريباً متجر عام لمختلف السلع، مثال ذلك أن "الخردي" كان يبيع الثياب، والعقاقير، والمصنوعات الحديدية، والبدال سمي باسم grocer لأنه يبيع بالجملة gross؛ فالبدال هنري كوارد مثلاً كان يبيع كل شيء من السكر إلى المسامير. وكان لكل مدينة يوم ساق يعرضه فالتجار - إذا سمح الجو - عينات من بضائعهم. ولكن المراكز الكبرى للتجارة الداخلية كانت الأسواق السنوية التي تتعقد في لندن، ولين، وبوسطن، وجينزبورو، وبفرلي، وأهم منها كلها ستوربردج. في هذه الأسواق، في أغسطس وسبتمبر من كل عام، كانت تقوم مدينة حقيقية لها حكومتها وشرطتها ومحاكمها، تتوفر فيها كل منتجات الصناعة الإنجليزية تقريباً، ويلتقي فيها رجال الصناعة من جميع أرجاء الجزيرة ليتبادلوا الحديث عن الأسعار والنوعيات والكوارث.

وكانت التجارة الخارجية بسبيلها إلى التوسع لأن بريطانيا تسلطت على البحار. وزادت الصادرات إلى أكثر من مثلها قيمة وكمية في النصف الأول من القرن، وارتفعت حمولة السفن المبحرة من الثغور الإنجليزية من 317.000 طن في عام 1700 إلى 661.000 في عام 1751 إلى 1.405.000 في عام 1787(23). وضاعفت لفربول حجمها وأرصفتها كل عشرين سنة. وأقبلت الواردات من عشرات الأقطار لتداعب أحلام الأغنياء أو بطونهم، أو تزين تسريحات كرائم السيدات بالعبور ومساحيق التجميل التي تخب الألباب. وبلغت

صفحة رقم : 11655

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

أرباح شركة الهند الشرقية من شراء السلع رخيصة في الهند، وبيعها غالية في أوروبا، حداً أتاح لها أن تغري بالانضمام إلى مساهميتها خمسة عشر دوقاً أو ايرلاً، واثنى عشرة كونتيسة، واثنين وثمانين فارساً، وستة وعشرين قساً وطبيباً(24). ولم تنتظر الطبقة الأرستقراطية في إنجلترا إلى التجارة نظرة استعلاء والازدراء كما فعلت في فرنسا، ولكنها ساعدت على تمويلها وشاركت في رخائها. وقد أبهج رجلاً من الطبقة الوسطى كفولتير أن يجد نبلاء الإنجليز يهتمون اهتماماً نشيطاً بالتجارة. قال موجهاً حديثه إلى فرنسا في 1734 "أن لولع الإنجليز بالتجارة وحده الفضل في أن بزت لندن باريس حجماً وسكاناً، وفي أن إنجلترا استطاعت أن تملك مائتي بارجة وتعين بالمال الملوك من حلفائها(25)".

وأصبح كبار التجار ينافسون الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض ثراءً وسلطاناً، فيقررون العلاقات مع الدول الأجنبية، ويثرون ويمولون الحروب في سبيل الأسواق والموارد والطرق التجارية. وسيطر القائمون على التجارة الإنجليزية في السكر، والتبغ، والعبيد، على حياة برستول، وحكم أصحاب السفن لفربول، وساد أصحاب مناجم الفحم على نيوكاسل. وكانت ثروة السير جوسيا تشايلد التاجر صاحب 50.000 سهم في شركة الهند الشرقية، تعدل ثروة الكثير من اللوردات وحدائقه في وانستد من أشهر مشاهد إنجلترا. كتب هيوم في 1748 يقول "في معظم أقطار أوروبا ترى أملاك الأسرة- أي الأملاك الوراثية- التي تميزها الألقاب والشارات التي يخلعها عليها الملك، هي أهم أسباب التمايز. أما في إنجلترا فإن الاعتبار الأكبر للثراء الراهن(26)". وحدث قدر كبير من التبادل والامتزاج بين الطبقتين العليا والوسطى، فتنزجت بنات التجار الأغنياء بأبناء النبلاء ملاك الأرض، واشترى أبناء التجار ضياعاً من الأرستقراطيين الذين افتقروا ودخل عليه القوم ميادين التجارة والقضاء والإدارة. لقد كانت الأرستقراطية تتحول إلى بلوتوقراطية (أي حكومة الأغنياء)، والمال يحل محل النسب سبيلاً سريعاً إلى السلطان.

و - المال

كان المصرفيون الأوروبيون الآن يؤدون جميع الخدمات المالية

صفحة رقم : 11656

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

تقريباً، يتسلمون الودائع، ويحمونها من الحريق والسرقة، ويرتبون المدفوعات بين المودعين بمجرد النقل من حساب الواحد إلى حساب الآخر، ويصدرون أوراق النقد التي يمكن أن يستبدل بها الذهب أو الفضة عند الطلب. وإذا لم يكن من المتوقع أن يطلب جميع حملة هذه العملة الورقية هذا الاستبدال في وقت واحد، فقد كان في استطاعة المصارف أن تصدر أوراقاً بلغت من خمسة إلى عشرة أضعاف قيمة احتياطياتها المشتركة. وأتاح تداول النقود المتكاثرة على هذا النحو رأس مال إضافياً للمشروعات التجارية، وشارك في توسيع الاقتصاد الأوربي. وحفز المصرفيون الصناعة بإقراض النقود بضمان الأرض أو المباني أو المواد، أو بمجرد التسليف على مسئولية شخص ما. ويسرت التجارة بخطابات تبادل أو ضمان مكنت رأس المال من الانتقال بمجرد نقل الوزن المصرفي حتى عبر حدود معادية.

وتألفت في إنجلترا شركات محاصة كما حدث في هولندا وإيطاليا وفرنسا. ونظم مؤسسوها، الذين كانوا وقتها يسمون "أصحاب المشروعات" الاتحادات الصناعية أو التجارية، وأصدروا أسهماً، ووعدوا بدفع أرباحها، وأمكن تحويل شهادات الأسهم أو السندات من شخص إلى آخر، ولهذا الغرض أسست في لندن سوق للأوراق المالية (بورصة) في 1698. وشهد مطلع القرن الثامن عشر نمواً سريعاً في المضاربة بأسهم الشركات، وسماسرة للأوراق المالية يتلاعبون في أسعار السوق رفعاً وخفضاً. وقد وصف ديفو في 1719 واحداً من هؤلاء المتلاعبين فقال: "لو خطر للسير جوسيا تشايلد أن يشتري، فإن أول ما يفعله هو أن يكلف سماسرته بأن يتكفوا العيوس والتهجم، ويهزوا رؤوسهم، ويلمحوأ بأن هناك أخباراً سيئة من الهند.. وربما باعوا فعلاً بعشرة آلاف أو ربما بعشرين ألف جنيه. وللتو ترى السوق.. وقد امتلأت بالبائعين، ولا أحد يشتري ولو بشلن، حتى تهبط الأسهم ستة، أو سبعة، أو ثمانية، أو عشرة في المائة، وأحياناً أكثر. هنا يكون لدى السمسار الخبيث طاقم آخر منهم يستخدمه.. في الشراء، ولكن في

صفحة رقم : 11657

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

تكنم، وتحوط، حتى يشتري- بعد أن باع بعشرة آلاف جنيه بخسارة أربعة أو خمسة في المائة- أسهماً بمائة ألف جنيه، بأقل من السعر بعشرة أو اثنتي عشرة في المائة. وفي ظرف أسابيع، بعكس هذه الطريقة لا أكثر، يدفعهم جميعاً للتهافت على الشراء، فيبيعهم أسهمهم ثانية بريح يبلغ عشرة أو اثنتي عشرة في المائة(27)". ولم تكذ تفتتح أسواق الأوراق المالية، حتى كان حرص الجمهور على تحقيق كسب دون عرق يثير موجات من المضاربة والانكماش. وقد جاء تضخم "فقاعة" بحر الجنوب (أي مشروعه الوهمي) في إنجلترا، ثم انهيار المشروع تالياً، في اتفاق غير عادي، لظهور وسقوط "فقاعة المسيسيبي" وصاحبها جون لو في فرنسا. ذلك أن الحكومة الإنجليزية، التي تأثرت بشكاوي بولنبروك، وسويفت، وغيرهما من أن الدين القومي- البالغ 52.000.000 جنيه في عام 1714- يفرض على الدولة عبئاً سنوياً مدمراً قدره 3.500.000 جنيه من الفائدة- فكرت في خطة لتحويل 31.000.000 جنيه من الدين إلى شركة بحر الجنوب. وكانت الشركة قد أسست في 1711 بمنحها احتكاراً للتجارة الإنجليزية مع المستعمرات الأسبانية في أمريكا وجزر المحيط الهادي. ودعى حملة الأوراق الحكومية ليستبدلوا بها أسهماً في الشركة. وأصبح الملك جورج الأول "محافظاً لها"، وبذلت كل الجهود لنشر الاعتقاد بأن مرسوم احتكارها يعد بأرباح عالية. وسرت العدوى من النجاح الظاهري لنظام لو في فرنسا المعاصرة إلى إنجلترا، فاعترتها حمى مضاربة مماثلة. وما مضت ستة أيام على عرض الشركة قبولها الأوراق الحكومية ثمناً لأسهمها حتى قبل الاقتراح ثلثاً حملة الأوراق واشترى كثيرون غيرهم أسهماً ارتفعت في ظرف شهر واحد من 77 جنيهاً إلى 123.5 (1719). ولكي يضمن مديرو الشركة استمرار التعاون الحكومي قرروا تقديم هدايا سخية من الأسهم لأعضاء الوزارة ولائنتين من خليات الملك(28). وقد حذر روبرت ولبول، ولم يكن قد تولى منصب الوزارة بعد، مجلس العموم من المشروع لأنه "مضاربة... مؤذية"، وقال إن المشروع يستهدف رفع قيمة الأسهم رفعاً مفتعلاً بإثارة تهافت الناس عليها والإبقاء عليه، وبالوعد بأرباح من أموال لن تفي بالغرض، وتنبأ، في دقة عجيبة، بأن المشروع سيفشل، وأنه لو ترك

صفحة رقم : 11658

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

ليورط جماهير الشعب لجر فشله سخطاً شاملاً وخطرأ(29). وقال إنه ينبغي وضع حد ما على الأقل لارتفاع أسهم الشركة. ولكن مجلس العموم أبى الاستماع إلى تحذيره. وفي 7 أبريل 1720 وافق كلا مجلسي البرلمان على اقتراحات الشركة.

وفي 12 أبريل أصدرت الشركة أسهماً جديدة بسعر 300 جنيه للسهم، فتم الاكتتاب فيها على الفور. وفي 21 أبريل أعلنت، وهي منتعشة ناضرة بفضل دفع الحكومة فائدة على الأوراق الحكومية التي أصبحت الآن ملكاً للشركة، أنها ستدفع أرباحاً صغيرة تبلغ عشرة في المائة، واستغلت الحماسة التي أثارها هذا الإعلان لطرح إصدار آخر من الأسهم بسعر 400 جنيه (23 أبريل). فلم تمض ساعات حتى تم الاكتتاب فيه. ورفع التهاافت على شراء الأسهم ثمنها إلى 550 جنيهها في 28 مايو، وإلى 890 جنيهها في 2 يونيو، وفي يوليو بيع إصدار جديد بسعر 1.000 جنيه للسهم. وتهاافت المجتمع الراقي كله على الاكتتاب، الأدواق والقساوسة والسياسيون والموسيقيون والشعراء، فأصبح شارع البورصة مشهداً لمنافسة هائجة مانجة على الشراء لم ير لها نظير إلا في شارع كانكمبوا بباريس في الفترة ذاتها تقريباً؛ فلقد كشفت طبيعة البشر عن نفسها عبر الحدود. وكان الناس يعقدون صفقات الأسهم في الحانات، ومشرب القهوة، ودكاكين صانعات القبعات، وفي لك ليلة يحسب الرجال والنساء أي ثراء أصابوا، وما كان يمكن أن يصيبوا من مزيد لو أنهم اشتروا في تاريخ سابق، أو قدرأ أكبر من الأسهم. وبلغت لهفة المال العام على المضاربة مبلغاً أغرى الشركة بطرح إصدارات صغيرة بلغت ستة وثمانين إصداراً. وبيعت أسهم أصدرتها شركات أنشئت لتحويل المعادن إلى فضة، ولتشديد المستشفيات للأطفال غير الشرعيين، ولإستخراج الزيت من الفجل، ولإحداث الحركة الدائمة، ولإستيراد الحمير من أسبانيا. وأعلن مؤسس عن "شركة لمواصلة مشروع عظيم النفع، ولكن أحداً لن يعرف كنهه" إلا فيما بعد، فتلقي ألف اكتتاب كل منها بجنيهين قبل أن ينتصف النهار، ثم اختفى بعد الظهر(30).

صفحة رقم : 11659

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

وكان شطط بعض هذه "الفقاعات" الصغرى (وهو الصف الذي وصفهم بعد ذلك العهد) بداية رد الفعل ضد مشروع بحر الجنوب. وجدد وليول وغيره تحذيراتهم وباعوا أسهمهم. وفي 11 يونيو حرم الملك جميع إصدارات الأسهم إلا للشركات التي رخص لها البرلمان بذلك. وسرعان ما انهارت المشروعات الصغرى، فهدأ فشلها من حمى المضاربة. وانتشرت شائعة بأن الحكومة الأسبانية أخذت تضيق تجارة الشركة في المستعمرات الأمريكية تضيقاً شديداً. وفي يوليو وصل نبأ بأن مشروع لو أو "فقاعة المسسبي" قد انفجرت في باريس. وباع السير جون بلاونت وغيره من مديري شركة بحر الجنوب أسهمهم سرأ بربح كبير. وخلال أغسطس كله توالى هبوط الأسهم حتى إذا جاء 2 سبتمبر لم يتجاوز سعرها سبعمائة جنيه.

هذا استحال التهاافت على البيع ضرباً من الهلع والذعر الجماعي، فازدحمت مدخل شارع البورصة ازدحاماً خانقاً. وهبطت الأسهم إلى 570 جنيهها، ثم إلى 400 جنيهه، ثم إلى 150 جنيهها، ثم إلى 135 جنيهها (29 سبتمبر). وخسرت مئات الأسر الإنجليزية مدخراتها في هذا الانهيار. وسرت بين الناس قصص الإفلاس والانتحار(31). وأفلست

المصارف التي كانت قد أقرضت المال بضمان شهادات أسهم شركة بحر الجنوب. وطالبت الاجتماعات العامة في جميع أرجاء إنجلترا بعقاب المديرين، ولكنها غفرت للجمهور غروره وجشعه. وعجل الملك بالعودة من هانوفر ودعا البرلمان للانعقاد. وفر أمين صندوق الشركة إلى فرنسا مصطحباً الكثير من السجلات التي كانت سئدين المديرين وفي يناير 1721 وجدت لجنة برلمانية بعد فحصها دفاتر الشركة، "صورة للظلم والفساد(32)" مذهلة حتى بمقاييس ذلك العهد، حين كان التشريع عن طريق إفساد البرلمان كأنه جزء من دستور إنجلترا. والظاهر أن المديرين كانوا قد أنفقوا 574.000 جنيه في رشوة كبار رجال الحكومة. وطالب بعض أعضاء البرلمان بعقوبات عنيفة، وأقترح أحدهم بأن يخاط المديرون المذنبون في زكبية ويلقوا أحياء في التيمز(33). وحمل وطيس الجدل حتى تحدى الأعضاء بعضهم بعضاً للمبارزة،

صفحة رقم : 11660

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> التمهيد للثورة الصناعية

وأصيب عضو منهم بأزمة ضغط مرتفع ومات في الغد. ودعا المديرون ووزراء الحكومة إلى المحاكمة أمام المجلس. فحكم على جون ايزلابي، وزير الخزانة، بالسجن في برج لندن، وصودرت ممتلكات المديرين - منهم إدوارد جيون، جد المؤرخ - فلم يترك لهم سوى عشرة في المائة من ثروتهم. ولوحظ أن السير جون بلاونت، الذي كان من أوائل منظمي الشركة، ومن أول من بدأوا ببيع أسهمهم، كان رجلاً "ذا مسلك غاية في التقوى" وكان "دائماً يهاجم ما يشين العصر من سرقة وفساد" ويندد بجشع الأغنياء(34). أما روبرت ولبول الذي برر الحدث تنبؤاته، فقد أشار بالاعتدال في روح الثأر الذي اتسم به رد الفعل، وخفف من انهيار الشركة بإقناع مصرف إنجلترا وشركة الهند الشرقية بامتصاص نحو 18.000.000 جنيه من الأسهم الخاسرة. وقد وجد في شركة بحر الجنوب من الاحتياطات ما يسمح بدفع ثلاثة وثلاثين في المائة لحملة أسهمها في وقت مبكر. وجردت الشركة من امتيازاتها وسحرها، ولكنها كانت تكسب من بيع العبيد، فطلت على قيد الحياة، في حيوية هابطة حتى عام 1853.

صفحة رقم : 11661

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> مظاهر الحياة في لندن

2- مظاهر الحياة في لندن

يقدر الإحصائيون الأجرياء سكان أوروبا بنحو 100 مليون نسمة في 1650، و140 في 1750. وقد قدر فولتير في 1750 سكان فرنسا بعشرين مليوناً، وألمانيا والنمسا بأثنين وعشرين، وبريطانيا العظمى وأيرلندا بعشرة، وروسيا الأوروبية بعشرة، وأسبانيا والبرتغال بثمانية، وبولندا بستة، وخص كلاً من تركيا وأوروبا، والسويد، والدنمرك (مضافاً إليها النرويج) والأقاليم المتحدة، بثلاثة ملايين (35). وذهب قانوني ألماني إلى أن الزيادة في سكان شمالي أوروبا مردها إلى حد كبير انتقال الرهبان والراهبات من حياة العزوبة إلى الأبوة والأمومة نتيجة لحركة الإصلاح البروتستنتي، وحض على "إقامة تمثال للوثر بوصفه حافظ النوع الإنساني" (36). ولكن علينا ألا نغالي في عفة رهبان العصر الوسيط. وأغلب الظن أن زيادة

صفحة رقم : 11662

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> مظاهر الحياة في لندن

السكان مرجعها تحسينات الزراعة والنقل التي زادت من كميات الطعام وتوزيعه، وخطوات النهوض بالصحة العامة والعلاج الطبي التي خفضت نسبة الوفيات في الأطفال والبالغين. ويبدو أن سكان إنجلترا وويلز الذين نيفوا على ثلاثة ملايين في 1500، بلغوا أربعة في 1600 وستة في 1700، وتسعة في 1800 (37). وكل الزيادة تقريباً كانت من نصيب المدن التي غذت الصناعة والتجارة وتغذت منهما. وفي عام 1740 فاخرت لندن بنحو 725.000 من الأهالي، فأصبحت الآن الحفل مدن العالم بالسكان، وندد بها ديفو في 1722 لأنها "تضخمت" (38) وتلتها باريس التي بلغ سكانها 675.000 في 1750، ثم أمستردام وفيينا، ونابلي، وبلرمو، وروما. وبلغ سكان لندن عشرة أضعاف سكان برستول، التي كانت ثاني أكبر المدن الإنجليزية، وثمانية عشر ضعف سكان نورثس، ثالث أكبر المدن الإنجليزية. وكانت مراكز العواصم تجمع في يدها خيوط الحياة الاقتصادية للأمة، وتحول كدّ الحقول والمناجم والمتاجر ومنتجاتها إلى أرباح المال اللطيفة الرقيقة.

وأعان لندن موقعها على النمو من نمو التجارة والمستعمرات الإنجليزية. فكان في استطاعة السفن عابرة المحيط أن تبحر مصعدة في النيمز، ومع أن أرصفة الميناء (حتى 1794) لم يكن في طاقتها أن تؤويها، فإن جيشاً من عمال التفريغ والشحن والغلاظ، يستخدم أسطولاً من ثلاثمائة صندل، كان مهياً لنقل البضائع من السفينة إلى الساحل أو على سفينة أخرى، وهكذا غدت لندن مركز توزيع شاعياً بالحركة لإعادة تصدير الواردات من وراء البحار إلى القارة. ولم يكن شاطئ النهر أنيقاً كما نجده الآن، فقد كان يزخر بعمال الشحن المفتولي العضل، والملاحين المتعطشين للجنس، والنساء المتحللات ملبساً وخلقاً، القذرات مظهِراً ولفظاً، الساكنات الأكواخ والحانات، المنافسات للبحارة في السكر والعنف (39). أما النهر نفسه فكان عجيب المنظر، فيه خليط من السفن التي تتفاوت من قوارب الصيد الشراعية إلى البوارج الضخمة، بينما تعبر المعديات الصغيرة النهر غدواً ورواحاً. وكان الملك، وعمدة لندن، ونفر من الأعيان، يملكون "ذهبيات" أنيقة، ويستخدمونها للرحلة صعداً إلى ونزور أو غيرها من البلاد-وظل كوبري لندن حتى 1750 الطريق الوحيد لاختراق المدينة على الأقدام

صفحة رقم : 11663

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> مظاهر الحياة في لندن

من شمالها إلى جنوبها، ولكن في ذلك العام تم بناء كوبري وستمنستر، وفي 1757 أزيل عن كوبري لندن عبء البيوت والمتاجر الذي كان يثقله. وقد أعجب الرسام البندقي أنطونيو كاناليتو، الذي زار لندن في 1746 و1751، بمشاهد الحركة التي يعج بها الماء فخلف لنا بعض الصور الشهيرة التي ترينا التميز كما عرفه وأحبه بوب وجونسون.

ولعل جونسون أحب شوارع لندن أكثر حتى من حبه لنهرها، مع أنها كانت لا تزال سيئة الإضاءة رديئة الصرف، لا ينظفها في الغالب سوى ماء المطر الهاطل عليها. وكان قد تقرر في 1684 نظام لإضاءة الشوارع يقام بمقتضاه مصباح مضاء بالشمع عند كل عاشر بيت، ولكن المصابيح لم تضاء إلا في الليالي التي يحتجب فيها القمر، وحتى منتصف الليل فقط، ومن عيد الملاك ميخائيل (29 سبتمبر) إلى عيد السيدة العذراء فقط (25 مارس). وفي 1736 وافقت سلطات المدينة على إقامة خمسة عشر ألف مصباح زيتي في أنحاء لندن كلها، تظل مضيئة من غروب الشمس إلى شروقها، وكان هذا حدثاً مشهوداً في حياة العاصمة حسن كثيراً من أمن شوارعها في الليل.

كان أكثر الشوارع منذ حريق 1666 الكبير مرصوفاً بالحجارة الصغيرة المدورة، وظل الرصف بهذه الطريقة قاعدة متبعة إلى القرن التاسع عشر. وكانت تجري في وسط كل شارع قناة تتلقى الكثير من النفايات وتصرف المطر. ولم يكن هناك أفاريز بل صف من الشواخص حدد طريقاً للمشاة عرضه ستة أقدام. وكانت الشوارع تعج بأصوات عربات النقل، وخبول الجر، والحناطير، والمركبات الخاصة، وكلها تجرها الخيل التي تقف حوافرها على أحجار الرصف، كذلك كان هناك الباعة الجوالون وكثير منهم نساء يسرحون بعشرات الأطعمة أو الثياب، والصناع المهرة المنتقلون يعرضون إصلاح ما فسد، وسائقو العربات يتشاجرون والكلاب تنبح، والمتسولون يستجدون، ومغنو الشوارع يصبحون بالأغاني الشعبية، والأراغن تقفز بألحانها من جدار إلى جدار. وكان الناس يشكون من هذه الضوضاء ولكنهم يحبونها، فهي السبيل الذي لا غنى عنهم إلى معاشهم. ولم يعمل الناس في صمت سوى النشالين والمومسات.

صفحة رقم : 11664

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> مظاهر الحياة في لندن

وبدأ تثبيت أرقام الشوارع على البيوت في سنة 1708. وكان أكثرها في سنة 1750 مزوداً بالمياه الجارية. وأخذت وسائل النظافة تتحسن. وكان القانون يطالب رب كل أسرة بأن يحتفظ برصيف الشارع نظيفاً أمام بيته، ولكل حي زبال ينظم جمع القمامة. أما المراحيض فكانت عادة مراحيض خارجية توضع وتستر في الحديقة أو الحوش. وكان لبعض المناطق مجار، ولكن لم يتح لندن نظام مجار عام إلا سنة 1860. أما المداخن فيظهرها منظفو المداخن، الذين يتسلقونها بضغط كيغانهم وركبهم على جدرانها الداخلية المصنوعة من الطوب أو الحجر، واستمر هذا التشويه القاسي لأجسام الأطفال حتى عام 1817.

وكان شطر كبير من السكان يحشرون في أحياء فقيرة مزدحمة تلوثها القمامة والفضلات فتولد عشرات الأمراض (40). وفي حين من أحياء لندن -هما وابلج ولايمهاوس- كان واحد من كل اثنين من السكان تقريباً يعيش عيش الكفاف، معتمداً على الإحسان، أو السرقة، أو البغاء، في الحصول على المسكن والطعام. أما الأطفال فيجرون حفاة قذرين شعناً في الشوارع لا تسترهم غير أسمال ولا يتعلمون غير الإجمام. في هذه الشوارع الفقيرة ندر أن اهتم الرجال والنساء بالزواج فالعلاقات الجنسية حدث عابر، وسلعة تسوق دون احتفال أو قانون. ولم يكد يوجد في هذه الأحياء كنائس على الإطلاق، أما دكاكين الجعة والحانات فكثيرة. وفيها أيضاً كانت بؤر اللصوص، والنشالين، وقطاع

الطرق، والقتلة المحترفين. وكان كثير من المجرمين ينتظمون في عصابات. فإذا تعرض لهم الحراس جدعوا أنوفهم. وألفت جماعة منهم يدعون "الموهوك" أن يخرجوا إلى الشوارع سكارى، ويخزوا المارة بالسيوف، ويكرهوا النساء على الوقوف على رؤوسهن، ويسلموا عيون من يقاومونهم من ضحاياهم. أما لصوص العصابات الأقل ضراوة فكانوا يقتنعون بكسر نوافذ الدكاكين والبيوت. ذكر سموليت في 1730 "أن اللصوص والسارقين أصبحوا الآن أشد استهتاراً وضراوة مما كانوا في أي عهد منذ عرف البشر الحضارة(41)". وفي 1744 حرر عمدة لندن وحاكمها خطاباً للملك قرأ فيه أن "عصابات شتى قوامها أعداد كبيرة من الأشخاص ذوي النزعة الشريرة، المسلحين بالهراوات، والطبجات، والسيوف، وغيرها من الأسلحة الخطرة، يعيشون فساداً

صفحة رقم : 11665

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> مظاهر الحياة في لندن

لا في الأزقة والممرات الخاصة فحسب، بل في الشوارع العامة وأماكن الاحتشاد العادية، ويقتربون أخطر الاعتداءات على أشخاص رعايا جلالكم(42)". وقال هوراس ولبول في 1752: "إن المرء ليضطرب إلى السفر، حتى في الظهيرة، وكأنه ماض إلى ساحة قتال(43)". وكانت العاصمة الكبرى بالطبع شيئاً أكثر كثيراً من هذه الحصيلة المتكاثرة من الفقر والجريمة، فلقد كانت إلى ذلك بلد البرلمان والقصور الملكية، ووطن ألف محام وتاجر وصحفي وشاعر روائي وفنان وموسيقي ومعلم وكاهن ورجل بلاط. ويجب ونحن ماضون في طريقنا أن نضيف على رؤيتنا للنزعة الثامن عشر بيوت الطبقات المتعلمة الفخمة وأخلاقها وعاداتها، وجمهور المصلين في الكنائس، والشكاك، والعلماء، والفلاسفة، وظرفاء "المجتمع الراقى" وحسانه وعشاقه، وحدائق اللهو في فوكسهول ورينلاج، والمنتزهين في الحدائق العامة وشارع بل مل، وسباقات الزوارق والمهرجانات والذهبيات على نهر التيمز، والأحاديث المتداولة في مشارب القهوة والنوادي، ودكاكين الحرفيين، وتجار الملابس، والجواهرية، وأسباب الترويج في البيت والرياضة في الخلاء، والجموع المحتشدة في معارك الديكة، ومباريات الملاكمة التكسية، وعروض الدمى، والمسارح، والأوبرا-عندها فقط نكون رؤيتنا للحياة اللندنية منصفة كاملة إلى حد معقول، نتيج لنا أن نحس التاريخ في كل نواحيه ينساب خلال أجساد وأرواح جيلين و700.000 نفس.

صفحة رقم : 11666

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> المدارس

كانت الحياة في إنجلترا كما في غيرها من الأقطار في هذه الحقبة تبدأ بنسبة عالية من وفيات الأطفال، يموت 59% من مجموع الأطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا الخامسة، و64% قبل العاشرة (44). وكان كثير من الأطفال يلقون خارجاً عقب ولادتهم، ومن بقي من هؤلاء اللقطاء على قيد الحياة يربون على نفقة الدولة ثم يوضعون في إصلاحيات للأحداث. ونجم الكثير من التشوهات الجسمية عن إهمال المولودات والأمهات.

صفحة رقم : 11667

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> المدارس

فإذا كان الأبنون فقيرين لم ينل الطفل حظاً من التعليم في المدرسة إطلاقاً. وكان هناك "مدارس خيرية" تقدم التعليم الأولي للجنسين ولجميع الطبقات مجاناً، ولكن حملة الملتحقين بها لم يتجاوز 28.000 في 1759، وكانت لا تقبل المنشقين عن الكنيسة الأنجليكانية، ولا تصل إلا لنسبة ضئيلة من الفلاحين، ولا تكاد تصل إلى فقراء المدن إطلاقاً. يقول حجة إنجليزي "إن الكثرة العظمى من الإنجليز كانوا يمشون إلى قبورهم دون تعليم" (45). أما في طبقة الصناع فالتلمذة الصناعية تعد خير تعليم. وأما أطفال الطبقة الوسطى فيجدون مدارس يقوم عليها عادة "رجال محطمو الأعصاب، أو مفلسون، أو مطرودون من وظائف أخرى" (46) وإلى ذلك "مدارس نسوية" تعلم فيها المعلمات المتواضعات مبادئ القراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين للصبيان والبنات الذين يستطيع أبؤهم دفع مصروفاتهم. وفي جميع المدارس كان التركيز على تعليم الطلاب الفناعة بمرتبهم التي ولدوا فيها، وإبداء الخضوع الواجب للطبقات العليا.

وكانت قلة قليلة تدخل المدارس الثانوية حيث يستطيع الصبيان أن يضيفوا شيئاً من اللاتينية واليونانية إلى مبادئ القراءة والكتابة والحساب، لقاء رسوم متواضعة تبصر المعلمين بمكانهم الوضيع في السلم الاجتماعي. وكان النظام صارماً، وساعات الدرس طويلة تمتد من السادسة إلى الحادية عشرة والنصف صباحاً، ومن الواحدة إلى الخامسة والنصف مساءً. وأجود من هذه المدارس، المدارس الخاصة، وأشهرها إيتون، ووستمنستر، وونشستر، وشروزبري، وهارو، ورجبي حيث يستطيع الشباب من الصفوة التحضير للجامعة نظير ستة وعشرين جنبهاً أو نحوها في العام، وإدخال شارات كلاسيكية يتفخرون بها في المستقبل. وإذا كانت هذه المدارس الخاصة لا تقبل غير صبيان الكنيسة الأنجليكانية، فإن المنشقين على هذه الكنيسة من معمدانيين، ومشيخيين، ومستقلين، وتوحيديين، وكويكرين، ومجمعيين، ومثوديين- هؤلاء أنشئوا أكاديميات لشبابهم قل التركيز فيها على الكلاسيكيات القديمة، وازداد على اللغات الحديثة،

صفحة رقم : 11668

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> المدارس

والرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا، والملاحة-وهو تعليم أنسب لأبناء الطبقة الوسطى. وجرم المنشقون من دخول الجامعات. وكان أكثرها طلاباً ينتمون إلى أسر موسرة، ولكن بعض الصبيان رقيقي الحال تلقوا منحاً دراسية من المحسنين أو المؤسسات الخيرية، وبعض الطلاب الذين يقومون بخدمات للجامعة لقاء مكافآت (ويسمون servitors أو sizars) مثل نيوتن، شقوا طريقهم خلال قاعات الدرس الواعية بالفوارق الطبقيّة. وقد عانت أكسفورد وكمبردج من الركود في هذه الفترة بسبب النزعة المحافظة في المناهج والطرق والأفكار. وأبدت كمبردج استعداداً أكبر للتوسع في الدراسات العلمية على حساب الدراسات الكلاسيكية واللاهوت، ومع ذلك وصفها تشستر فيلد بأنها "غارقة في أحلك الظلمات". أما أكسفورد فقد تشبثت باللاهوت القديم وبأسرة سنيورات الساقطة، ولم تسمح لملوك أسرة هانوفر الغشم بزيارتها. وقال آدم سميث، الذي كان يطلب العلم بأكسفورد في 1745، إنه لم يتعلم فيها إلا القليل، أما جيون الذي درس فيها في 1752، فقد ندّد بمدرسيها لأنهم سكيرون جهلة، وندم على السنين التي ضيعها في الجامعة. وأثر الكثير من الأسر استخدام المدرسين الخصوصيين(47). أما البنات فكان يتلقين تعليماً أولياً في مدارس القرية أو المدارس الخيرية-فيتعلمن القراءة والكتابة، والخياطة، وأشغال الإبرة، والغزل، وقليلاً من الحساب، وكثيراً من الدين. وتلقى بعضهن التعليم على يد معلمين خصوصيين، ومنهن من درس اللغات والأدب الكلاسيكية خفية كما فعلت الليدي ماري ورتلي مونتاجيو. قالت الليدي ماري "إن بنات جنسي تحظر عليهن عادة دراسات من هذا النوع، والجهل يعد مجالنا المناسب لنا، بحيث أي إسراف فيه من جانبنا يغتفر لنا أكثر مما يغتفر أقل تظاهر بمعرفة القراءة أو بالإدراك السليم... وليس في الوجود مخلوق... أشد تعرضاً للسخرية العامة من المرأة المثقفة". وكانت تميل إلى الظن بأن الرجال كانوا يبقون النساء في جهلن ليستطيعوا إغواءهن بتكلفة أقل(48). وإذا كان لنا أن نحكم من دخول محظيات الملك، فإن النساء وفقن كل التوفيق بغير

صفحة رقم : 11669

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> المدارس

الدراسات الكلاسيكية، ولم يكن بهن حاجة إلى شاعر كأوفيد ليعلمهن لعبة الحب.

صفحة رقم : 11670

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الأخلاق

لعل العلاقات السابقة على الزواج كانت بين النساء أقل شيوعاً في ذلك العهد مما هي عليه اليوم (1965)، ولكن البغاء ازدهر إلى حد لم يكده يعرف ثانية حتى يومنا هذا. وقد قدر مراقب أجنبي عدد المومسات بخمسين ألف في لندن، يوجدن في حانات المدينة، وفي الفنادق الصغيرة على الطرق، وفي حدائق المدينة، وفي المراقص العامة، وحفلات الموسيقى، والمسارح، وكن في شارع اكستر وحي ستراند يجلسن إلى النوافذ تشجيعاً للمتردددين من الزبائن. وفي "دروري لين" (شارع المسارح بلندن) كما تغنى الشاعر جون جاي في تمثيليته "تريفيا": هي التي تمشي في الليل بخطى وثيدة، لا يضم جسدها اللدن مشد قاس، وتحت المصباح تتوهج شرائطها المبهجة، والمعطف حديث التنظيف، وسيماء المومس... وبأصوات التملق تستميل الأذن الساذجة قائلة "يا فارسي الهمام! يا فاتني! يا حبيبي! يا عزيزي!" (49).

ولم تأخذ القانون بهن رحمة. فإذا أمسكت إحداهن وهي تتحرش برجل، زج بها في السجن وضربت بالسوط ووضعت في المشهرة (آلة التعذيب). وقد وصفت "مجلة جرب ستريت" في عدد 6 مايو 1731 مصير إحدى هؤلاء "المدامات" فقالت "وقفت أمس الأم نيدهام في المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس، ونكل بها الجمهور تنكيلاً شديداً. وقد اشتد بها الإعياء حتى استلقت بطول المشهرة، ورغم ذلك ظلوا يحصبونها بقسوة، ويظن أنها ستموت بعد يوم أو يومين (50).

ولكن لم يكن يصل على المشهرة غير أفقر البغايا. فقد كن يتقادين القانون عادة بالرشا، أو يخرجهن صاحبهن بكفالة، وأحسن بعض حفظة القانون-ربما لأنهم تعرفوا فيهن على "مضيفات" سابقات لهم بعض العطف على نساء عاقبتهن القوانين على فسق الرجال.

صفحة رقم : 11671

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الأخلاق

وأغلب الظن أنه لم يأت إلى فراش الزوجية محتقظاً بعفته عشرة من كل مائة ذكر من أهل لندن. لقد ندد القوم بالرديلة علانية، ولكنهم احتقروا الفضيلة سراً.. وكتاب جون كلياند المسمى "مذكرات غانية" (1749)، والذي عرف فيما بعد باسم "فاني هل"، وهو سلسلة من الأغواءات المفصلة، كان (وما زال) من أفحش كتب ذلك القرن وأكثرها شعبية. وألف بعض الرجال جماعات للاستمتاع المتبادل فيما بينهم. وروت جريدة لندن في عددي 23 و30 أبريل 1725 نبأ القبض على سبعة لوطيين، وفي 14 مايو سجلت نبأ شق ثلاثة آخرين بتهمة اللواط، ثم أضافت "نمى إلينا أنهم (أي الشرطة) اكتشفوا عشرين بيتاً أو نادياً يجتمع فيها اللوطيون، وهم يراقبون أيضاً مننديات ليلية يلتقي فيها هؤلاء الوحوش في جمع كبير". وفي 7 يوليو روت الجريدة أدانة "روبرت هويل ويورك هورنر بفتحها بيتاً في وستمنستر يستقبلان فيها هواة هذه الرديلة المنكرة". وفي 23 يوليو أعلنت أن: "مرجريت كلاب، التي أدينبت بفتحها بيتاً سرياً يستخدمه اللوطيون... حكم عليها بوضعها في المشهرة، وبدفع غرامة قدرها تسعون ماركا، وبالسجن سنتين" (51). وينبنا مصدر وثيق بأن "نسبة كبيرة جداً من أهل لندن كانوا يعاشرون النساء حراماً دون زواج (52)". وكانت زيجات الحب في ازدياد، على الأقل في روايات رتشرسن وفيلدنغ، ولكن معظم الزيجات كان يرتبها الآباء بعد الوزن الدقيق لمهر العروس بالقياس إلى دخل العريس الفعلي أو المنتظر. وقد حرم قانون صدر في 1753 على الأشخاص دون الحادية والعشرين الزواج بغير موافقة والديه أو الأوصياء عليهم. ولما كان هذا القانون لا ينطبق إلا على إنجلترا، فإن كثيرين من العشاق الفارين من آباءهم كانوا يعبرون الحدود إلى إسكتلندا، حيث يتبع القساوسة في قرية جريبتنا جرين قانوناً أكثر يسراً. وكان هناك مزيد من التيسيرات على العاشقين المتلهفين يوفرها رجال الدين

الجشعون الذين يعتقدون الزيجات السرية في الحانات أو المواخير أو العليات أو غير ذلك من الأماكن في شارع فليت أو على

صفحة رقم : 11672

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الأخلاق

مقربة منه (وفي الشارع سجن للمدينين). وكان في كل حانة تقريباً في تلك المنطقة كاهن من هذا النوع على استعداد لتزويج أي إنسان لقاء رسم، دون أن توجه إليه أسئلة أو يطالب بتزويج. وشاع عن أحد هؤلاء القساوسة أنه كان يعقد ستة آلاف قران في السنة. وكانت الزيجات تبرم في عاطفة مشبوبة، ثم تفسخ وقد ذابت حرارتها؛ وكان آلاف النساء يهجرن رجالهن، وكان البحارة يتزوجون وهم يقضون يوماً على البر، ويحبون، ثم يرحلون. ورغبة في القضاء على هذا المنكر أصدر البرلمان قانوناً (1753) بالألا يعتبر أي زواج شرعياً، باستثناء زيجات الكويكرز أو اليهود، ما لم يعفده قسيس أنجليكاني في كنيسة أبرشية، بعد نشر إعلان بالزواج في الكنيسة على مدى ثلاثة آحاد متعاقبة؛ وكل مخالف لهذا القانون يعاقب بالنفي إلى المستعمرات.

ولم يكن الطلاق مسموحاً به في إنجلترا (قبل 1857) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان (53)، وكانت تكاليف هذا الإجراء تجعل منه ترفاً مقتصراً على الأغنياء. وفسا الفسق في جميع الطبقات إلا الوسطى، وضرب جورج الأول والثاني مثلاً في ذلك والناس على دين ملوكهم. ففي عام 1700 كتب كونجريف يقول "كل إنسان في هذا المجتمع ولد بقرون طالعة (54)". ولم تتغير الحال إلا قليلاً في 1728، حين جعل الكاتب المسرحي "جاي" السيدة بيتشم في "أوبرا الشحاذ" تسأل زوجها عن ابنتها "بالله لم يجب أن تشذ ابنتنا بوللي عن بنات جنسها فتقصر حبها على زوجها؟.. كل الرجال لصوص في الحب، ويزداد عشقهم للمرأة إن كانت ملك رجل آخر (55)". على أنه يمكن القول عموماً بأن أخلاق النساء كانت في إنجلترا خير منها في فرنسا، وأنه في الطبقات الوسطى، التي ظلت التقاليد البيورتانية فيها قوية، أو شكت العفة أن تكون إفراطاً في الاحتشام، وقد تجد من النساء زوجات من الطراز الذي يحلم به الرجال صبوراً، مجدات، وفيات. وكان المعيار ذو الوجهين مفروضاً ومقبولاً. فكانت النساء المهذبات يسمعن الكثير من الحديث النابي ويقرأن فيلدنج وسموليت، ولكن كان ينتظر منهن أن تحمر وجوههن خفراً مغرباً، وأن يغشي عليهن في لمح البصر.

صفحة رقم : 11673

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الأخلاق

وكان ينظر إلى المرأة في جميع الطبقات على أنها أدنى من الرجل بحكم الطبيعة وبقضاء لا سبيل إلى رده. ولقد ارتضت هذه النظرة حتى الليدي ماري المتكبرة المتمردة، ولو ساخرة كارهة:

"لست أحاول الآن المطالبة بمساواة الجنسين، إذ لا شك في أن الله والطبيعة قد ألقيا بنا في مرتبة أحط، فنحن جزء أدنى من الخليفة، وعلينا إطاعة الجنس الأعلى والإذعان له، وكل امرأة تسمح لغرورها وحمافتها أن ينكرا ذلك إنما تتمرد على ناموس الخالق ونظام الطبيعة الذي لا ينازع(56)". وكانت فترة حكم البيورتان قد أنزلت المرأة عن مقامها الذي ارتقت إليه أيام اليزابيث. وحكم أحد الطلاب بأنه "حوالي عام 1750 كانت النساء في إنجلترا قد نزلن إلى مستوى منحط جديد لم يكدهن يفضل وضعهن في القرن الثاني عشر(57)".

وتردت الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلى الدرك الأسفل. فالقمار الذي قاومته الملكة آن من قبل رد إلى الخطوة الملكية بفضل جورج الأول والثاني. وكان موظف خاص يسمى "الحاجب" منوطاً بالإشراف على القمار في البلاط الملكي. وكان لعب الورق التسلية المفضلة للأغنياء والفقراء، وندر أن يرى من المراهنة، وكثيراً ما شابه الغش. ولم يكن من غير المألوف للمتبل المتلاف من أبناء الطبقة العليا أن يكسب أو يخسر مائتي جنيه في جلسة واحدة، وقد خسر دوق ديفونشير ضيعته في لعبة واحدة؛ وكان اللورد تشستر فيلد يقامر باستهتار فيما بين المحاضرات التي يلقيها على ابنه، وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس أجمعين في عهد جورج الأول إلى درجة لعلها لم تضارع بعده. وفتحت ملاعب القمار في نادي هوايت، وفي تشيرنج كروس، وفي لستر فيلدز، وفي جولدنز سكوير، وفي باث. وفي حفورة للمصور هوجارت سماها "رحلة الفاجر" نرى رجالاً ونساء يقامرون في نادي هوايت، ولا يعاؤون بإنذار ينبئهم بأن المبنى يحترق، فلا بد من مواصلة معركة اللعبة إلى نهايتها الحاسمة. وقد

صفحة رقم : 11674

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الأخلاق

حظر جورج الثاني هذا القمار المنظم، ولكنه اعتمد يانصيب الحكومة الذي كان قد تقرر في 1569 وعمر حتى 1826. وكانت تذاكر اليانصيب تباع للجمهور بكل وسيلة من وسائل الترويج، واشتد الانفعال والتحمس لها إلى حد أغرى الخدم بسرقة سادتهم، والكتابة بسرقة أرباب عملهم، طمعاً في نصيب من الغنيمة(58). ولعل السكر كان أكثر انتشاراً من القمار. وكانت الجعة بنوعها (البيرة والمزر ale) هي الشراب الوطني. وكان الرجل اللندني يستهلك مائة جالون منها في السنة، أو ربع جالون في اليوم، باعتبارها أسلم وألطف مذاقاً من الماء. وخلق المناخ الرطب طلباً على الروم، والبنش، والبرندي، والجن، والكوردبال، والوسكي، وكان النبيذ دواء مفضلاً. وانتشرت الحانات ومخازن الخمر في كل مكان، وكان 1.350 بيتاً من بين 7.066 في أبرشية هوبورن تباع الخمر. وأغضى ملاك الأرض والبرلمان إذن-عن تجارة الوسكي، لأنها فتحت سوقاً إضافية لشعيرهم وقمهم(59)، وكان ثلث الأرض المنزرعة في إنجلترا تقريباً يزرع شعيراً. وأخذ الوسكي يحل عند عليّة القوم محل النبيذ لأن الحروب المتكررة مع فرنسا عاقت التجارة مع بوردو وأبورتو، وأدخل الهولنديون والألمان إلى البلاد تفضيل الخمر القوية. وهنا، كما في القمار، ضربت الحكومة المثل للشعب. فقد روي عن هارلي، رئيس وزراء المملكة آن، إنه كان يمثل بين يدي الملكة مخموراً. وكان بولنبروك يسهر أحياناً الليل كله وهو يحتسي الخمر، أما روبرت ولبول فقد علمه السكر أبوه، الذي عقد النية على ألا يراه مخموراً ابن له صاح(60).

وأزعج الحكومة ولع الجماهير بشراب الجن. فقد زادت الخمر المقطرة في بريطانيا من 527.000 جالون في 1684 إلى 5.394.000 في 1735، دون ارتفاع مقابل في عدد السكان؛ لا بل أن الأطباء أنذروا الحكومة بأن شرب الجن قد زاد معدل الوفيات بسرعة في لندن؛ وعزت هيئة المحلفين الكبرى في مدلسكس الكثير من فقر العاصمة وجرأتها إلى ذلك المسكر. وعلق باعة الجن بالتجزئة لافتات تعهدوا فيها لربائهم بأن يسكروهم نظير بنس، وعرضوا عليهم النوم على حصر من القش مجاناً في قبو المؤونة.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الأخلاق

وجاوب الحكام المرتاعون حظر شرب الجن بفرض الضرائب. ففرض قانون أصدره البرلمان في 1736 رسماً على الجن قدره عشرون شلناً للجالون، واشترط دفع خمسين جنيهاً في العام نظير الترخيص ببيعه. وقام الفقراء الظالمون باضطرابات عنيفة. وأفضى الحظر، كما تنبأ ولبول، إلى تهريبه وتقطيره خفية والاتجار به سراً. وارتفع عدد دكاكين بيع الجن إلى سبعة عشر ألفاً، وعدد الجالونات المقطرة إلى نيف وسبعة ملايين، واستشرت الجريمة. فتخلت الحكومة عن التجربة، وخفض رسم الرخصة إلى عشرين جنيهاً، والضريبة إلى بنس للجالون؛ واعتبط الشعب وراح يشرب ما شاء. وفي 151 أفضت سلسلة من التدابير المعتدلة الذكية (كجعل الديون الصغيرة لتجار الخمر غير قابلة للإلغاء أمام القضاء) إلى تحسين خفيف (61). وأثار الفيلسوف باركلي الموقف بتنديده بالطبقات العليا لما ضربوا لجماهير الشعب من مثل سيئ، وبإذاره إياهم بأن "أمة تشتعل عند طرفيها لا بد أن تحترق سريعاً (62)".

كذلك كان المستوى الخلفي منحنياً في ميدان المال والأعمال، فجنى بعضهم أموالاً طائلة من التهريب، والقرصنة، واقتناص العبيد أو بيعهم. وشكا الناس من تلوث مياه التيمز بالأقذار والنفائات التجارية والبشرية، ومن غش النبيذ بعصير التفاح وأرواح الحبوب، ومن خلط الخبز بالشب والجير، ومن تنضير بشرة اللحوم الكبيرة السن بالكيمياء والخطرة على الصحة والحياة. فلما بذلت محاولات للحد من هذه الأعمال تصايح أبطال التجارة مطالبين بالحرية وبحق "كل إنسان في العيش على طريقته دون قيد (63)".

وتدخلت الحكومة في الحريات، ولكن تدخلها كان أكثره لإكراه الرجال على الخدمات العسكرية. فلما أخفقت مختلف المرغبات المالية في تزويد البحرية بالرجال، جردت الدولة (من 174 فصاعداً) "كتائب تجنيد" لاقتناص الرجال أو تخديرهم، أو لإقناعهم بالانخراط في سفن صاحب الجلالة. وكان أيسر هذه الوسائل إسكار الضحية، إذ كان في الإمكان وهو على هذه الحال أن يحمل على النزول

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الأخلاق

عن سنة أو أكثر من حياته. ذكر الأميرال فيرنون (1746) أن هؤلاء الرجال، بعد أن يؤتى بهم إلى السفينة، كانوا في الواقع محكوماً عليهم بالموت، إذ لا يسمح لهم بتنا أن تطأ أقدامهم البرّ ثانية، ولكنهم ينقلون من سفينة إلى أخرى.. دون أي اعتبار للمشاق التي يتكبدونها (64)". ويقول صموئيل جونسون "لا يرضي رجل بأن يكون بحاراً إذا كان له من الحيلة ما يكفي لأن يدخل نفسه السجن.. فالسجين يحظى بمكان وطعام أحسن وبرفقة أفضل عادة (65)". وكان أكثر البحارة الذين يجندون كرهاً ضعاف الأجسام والعقول، ولكن النظام الصارم والانتقام القاسي بامتحان النار والجلد

(كما هو موصوف ومبالغ فيه بلا شك في قصة سموليت "رودريك راندوم") جعلاً الباقيين منهم على قيد الحياة أصعب المقاتلين في البحر مراساً وأشدّهم اعتداداً بأنفسهم.

وكانت القرصنة لا تزال تلقى الإغضاء عنها بوصفها ضرباً من التجارة، ولكنها أخذت تضمحل بازدياد قوة البحريات. أما تجارة العبيد فقد زكت، وتنافست السفن الإنجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية على امتياز بين الزوج الأفريقيين للمسيحيين الأمريكيين. وبمقتضى معاهدة أوترخت (1713) نقلت أسبانيا عقد "الأربنتو"، الذي تمد بمقتضاه المستعمرات الأسبانية سنوياً بـ 4.800 عبد، من فرنسا إلى إنجلترا. ومن بين 74.000 عبد نقلوا إلى أمريكا في سنة واحدة (1790) نقل الفرنسيون 20.000، والهولنديون 4.000، والدنمركيون 2.000، والبرتغاليون 10.000، والبريطانيون 38.000- وهو أكثر من نصف المجموع (66). يقول مصدر إنجليزي وثيق "إن الإنجليز وحدهم، على أقل تقدير، حملوا أكثر من مليوني زنجي إلى أمريكا في الفترة بين 1680 و1786 (67)". واقتنت بعض الأسر الإنجليزية عبيداً من الزوج للخدمة في البيوت. واشتملت الصحف على وعود بدفع مكافآت لمن يعيد العبيد الأبقين، وعرض إعلان "صبياً زنجياً يناهز الثانية عشرة.. للبيع (68)", وكان العبيد يباعون في باريس حتى سنة 1762، وحتى البابوات كانوا يفتنون عبيداً من سفن تشغيل العبيد التركية من القرن السادس عشر إلى الثامن عشر (69). وفي 1727 بدأ الكويكرز حركة لإنهاء مشاركة بريطانيا في تجارة العبيد. وناصرهم سنيل وبوب، ودعم المثوديون هذه الحرب

صفحة رقم : 11677

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الأخلاق

الدينية، ولكن الحملة لإلغاء الرق لم تتقدم تقدماً يذكر قبل 1772.

كانت الأخلاق في دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجارية المتحجرة. فلم يكد عمل ينجز دون رشوة ولكل موظف تقريباً ثمنه، والمناصب تباغ، والأصوات في البرلمان تشتري كالمسلع سواء بسواء. وقد باع أعضاء البرلمان امتياز إعفاء رسائلهم من أجره البريد، وباع كبار النبلاء المناصب في بيوتهم (70)، و "وضعوا العراقل أمام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان، أو شراء أعضاء مجلس العموم (71)". وأرسلت الدوائر الانتخابية الفاسدة أو العفنة rotten boroughs التي لا يسكنها غير حفنة من الأهالي إلى البرلمان عدداً من الممثلين يعدل العدد الذي أرسلته أقاليم ترخر بالسكان والصناعة وأرسلت "أولد سارم" التي لا يسكنها إنسان واحد، ممثلين لها، وكانت أمثال هذه الدوائر يتحكم فيها بسهولة ذوو الحسب والمال. وكان رجال الأعمال، توسلاً لنفوذ سياسي مكافئ لسلاطنتهم الاقتصادية، يشنرون الترشيحات أو المرشحين للبرلمان بنحو 1.500 جنيه للمرشح (72). ويمكن القول على الجملة بأن نصف القرن الذي نحن بصددده كان أقسى العهود في التاريخ الإنجليزي، ومن العسير على المؤرخ أن يفسر كيف استطاعت بريطانيا أن تنهض من فساد ذلك العصر حتى بلغت ذلك الصيت الذائع بأمانة رجال أعمالها ونزاهة حكومتها.

على أنه كان هناك الكثير من لمسات العاطفة الرحيمة يتخلل انحطاط الأخلاق والسياسة. فهناك ملاجئ وإن كانت سيئة الإدارة-للشيوخ والعجزة والفقراء؛ وهناك طوائف حرفية كان المعلمون فيها آباء رحماء على صبيانهم، وهناك أسر تؤوى الأيتام وتربيتهم؛ وهناك جمعيات تسمى "أندية الصندوق" للمعونة المتبادلة في أيام العسرة. وضربت إنجلترا مثلاً رائعاً- هو الأول في التاريخ الحديث- للبر الدولي حين اكتنبت بمائة ألف جنيه للبرتغال، حليفها الاقتصادية إغاثة منكوبي زلزال لشبونة الذي وقع في 1755 (73)، وقد فتح في الفترة بين 1700 و1825 مائة وأربعة وخمسون مستشفى ومستوصف جدد في بريطانيا، منها أربعة في لندن في جيل واحد

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الأخلاق

(1700-45). وكان أكثر هذه المؤسسات تموله التبرعات الخاصة. وخير ما أسس منها في النصف الأول من القرن الثامن عشر مستشفى اللقاه الذي نظمه الكابتن توماس كورام، وقد صور هوجارث هذا الكابتن عام 1740 صورة أهداها إلى المستشفى، رجلاً ممثليّ البدن، أبيض الشعر، لطيفاً، يمسك بيمناه المرسوم الملكي، وعند قدميه كرة أرضية، ذلك أن كورام جمع ثروته ضابطاً في البحرية التجارية. فلما تقاعد هاله ارتفاع نسبة وفيات الأطفال في لندن، وكثرة الأطفال الذين يلقون في العراء أو تهجرهم أمهاتهم دون مال للعناية بهم أو اسم أب يطلق عليهم، وأقنع كورام بعض نساء الطبقة العليا بتوقيع ملتمس بإنشاء مستشفى للقطاء، وحصل من جورج الثاني على مرسوم وألفي جنيه، ولقي النداء الذي ناشد فيه الناس التبرع للمستشفى سخاء غير متوقع، وتبرع هندل العظيم بأرغن وبموسيقى لحنه "المسيّا" التي عظمت قيمته الآن، وأدار حفلات موسيقية غلت عشرة آلاف جنيه، وفي 1739 عهد الأوصياء إلى تيودور جاكوبسن بتصميم مجموعة فسحة من المباني والملاعب أصبحت من أروع مشاهد لندن.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الجريمة والعقاب

5- الجريمة والعقاب

كان أهل إنجلترا في القرن الثامن عشر سلالة صلبة تمرست بالمشاق وألفت العنف، سلالة قادرة على مغالبة كل صعب عسير إلا الموت. ومن الأمثلة على هذه الصفات أن عريفيين اقتتلا بغير سلاح حتى مات كلاهما؛ وأن رقيبين تبارزا حتى أصيب كلاهما بجراح مميتة؛ وأن جندياً استأذن في الزواج من إحدى مومسات الجيش فعوقب بمائة جلدة. ثم مثل في الغد وظهره كله مثخن بالجراح أمام الضابط نفسه وأعاد الطلب، فأجيب إليه هذه المرة. وفاخر قارع طبل بأنه جلد 26.000 جلدة في الأعوام الأربعة عشر التي خدم فيها الجيش، ثم جلد أربعة آلاف أخرى في عام واحد (1727) وأفاق منها وهو مبتهج، وقيل في وصف حالته بعد قليل أنه "صحيح معافى، لا يكدره مكرر على الإطلاق(74)".

وكانت العقوبات الوحشية التي وقعت علناً مشجعاً على انتشار

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الجريمة والعقاب

الوحشية بين الشعب. مثال ذلك أن قانوناً ألغي في 1790 كان يقضي على المرأة التي تدان بخيانة وطنها أو بقتل زوجها بالحرق حية، ولكن العرف كان يبيح خنقها قبل أن تحرق (75). أما الرجال المدانون بخيانة الوطن فيجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء، وتخرج أعماؤهم وتحرق أمام أعينهم، ثم تقصل رؤوسهم ويقطعون أرباعاً. وعلقت المشانق في كل أحياء لندن، وكانت الأجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطير. وقد يظل الرجل مشنوقاً نصف ساعة قبل أن يموت. على أنه كان من المألوف أن تخدر بالبرندي حواس المحكوم بإعدامه، وإذا كان الجلاد عطوفاً شاد ساقه المتدليتين ليعدل بموته.

وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظر الشنق طابع المهرجان، فالناس يصطفون على جانبي الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم يركبون العربات إلى تيبيرن، وتتبع الأوكشاك والباعة المتجولون الجن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد؛ وينشد المغنون الجوالون الأغاني الشعبية دون أن يجيدوا إجادة الكابتن مكبث في "أوبرا الشحاذ". وكانت الجماهير، التي لم تتحمس قط للقوانين أو الشرطة، ترفع على مقام البطولة المجرمين الذين حالفهم التوفيق في مغامراتهم، أو الذين أمسكوا واجهوا المحاكمة والموت بالازدراء أو الابتسامات. فجاك شبرد، و "روب روي" (وهو روبرت ماكجريجور)، ودك تيرين، وجوناثان وايلد-هؤلاء كلهم ترعرعوا وازدهروا في هذه الفترة. أما جاك فقد وشي به جوناثان وايلد للشرطة بعد أن كان يمارس السرقة في لندن أو قربها كل يوم تقريباً، ففر، وقبض عليه من جديد، ثم فر ثانية، وقبض عليه وهو يعاقر الخمر، وشنق وهو بعد في الثانية والعشرين على مرأى جمهور من آلاف مؤلفة يتوقعون منه أن يهرب حتى وحبل المشنقة يطوق عنقه. وقد روى ديفو واينزورث قصته في روايات عادت عليهما بالريح، ورسم السير جيمس ثورنها صورته. أما تيرين فوزع النقود على المشيعين ليسيروا خلف عربته إلى المشنقة في موكب مهيب، ولكن ما أذاع صيته هو الرواية الخيالية التي كتبها اينزورث عن رحلة دك تيرين الشديدة الخطر على جواده من لندن إلى يورك. كذلك خلد كتاب فيلدينج "حياة مستر جوناثان وايلد العظيم" ذكرى هذا الوغد على مر القرون. ومعظم

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الجريمة والعقاب

ذلك الهجو الشديد مكتوب على صورة قصص خيالية، ولكن الخيال هنا ليس أطراف من الواقع. فقد كان لجوناثان وجهان مثل جانوس، ينظم اللصوص ويدير شئونهم ويستغلهم، ويشترى بضائعهم المسروقة بالثمن الذي يفرضه، ثم يشي بهم للقضاء إذا تمرد عليه شركاؤه. وفتح في الوقت ذاته مكتباً لطيفاً يستقبل فيه ضحايا السرقات، وكان يعد لهم لقاء مكافأة كبيرة بأن يرد لهم بضائعهم أو مالهم، ومن حصيلة هذا كله يحتفظ بعدة خليات ويعيش في ترف قرابة خمسة عشر عاماً. ولكن ثراهه فاق حكمته، فقبض عليه بتهمة الاتجار في بضائع مسروقة، وشنق، فابتهج جمهور غير بشنقه (1725). وربما كان هو المثال الذي نسج على منواله مستر بيتشم في "أوبرا الشحاذ".

وساد العيب بالقانون المجتمع كله علواً وسفلاً، من النشال المهذب إلى التاجر المهرب إلى المبارز الحامل لقب النبالة. وكان هناك مئات المبارزات، جرى بعضها على قارعة الطريق، وبعضها في هايد بارك أو حدائق كنزنجتن، ولكن أكثرها في "حقل الأربعين خطوة" خلف قصر مونتاجيو (المتحف البريطاني الآن). وندر أن كانت المبارزات قتالية، لأن المسدسات كانت رديئة الصنع، وقل من الرجال من استطاع تصويبها بدقة على ثلاثين خطوة، وأغلب الظن أن كثيراً من المقاتلين حرصوا على إطلاقها فوق رأس الغريم؛ على أية حال كان الصلح يتم عادة بعد أول جرح. وكانت المبارزات غير مشروعة، ولكن يغضى عنهما بحجة أنها تشجع على التأدب في الحديث. وندر أن اعتقل مبارز إلا في الإصابات المميته، وإذا استطاع الخصم الحي أن يثبت أنه اتبع قواعد اللعبة كان يفرج عنه بعد قضائه فترة قصيرة في السجن.

وفي سنة 1751 نشر فيلدينج، وكان يومها قاضياً، "تحقيقاً في أسباب الزيادة الأخيرة في عدد اللصوص، الخ، مشفوعاً ببعض المقترحات لعلاج هذا الشر المتفاقم". ولم يعز الزيادة في أكثرها إلى الفقر بل إلى ظهور "الترف" بين الطبقات الدنيا؛ فعامه الشعب لديهم الآن من المال ما يتيح لهم ارتياد الحانات، وحدائق اللهو، والمسارح، والمراقص التنكرية، والأوبرات، وهناك يلقون بأشخاص خبروا الفجور وحذقوا

صفحة رقم : 11682

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الجريمة والعقاب

الجريمة. أما السبب الثاني في رأي الروائي العظيم فهو الزيادة في استهلاك الجن. يقول: "إن شراب الجن هو القوت الرئيسي (إن جاز لنا أن نسميه كذلك) الأكثر من مائة ألف شخص في هذه العاصمة. وكثير من هؤلاء التعساء يترعون عدة أكواب من هذا السم خلال أربعة وعشرين ساعة، ومن سوء حظي أنني أرى وأشم أيضاً كل يوم ما يخلفه هذا من آثار رهيبه(76)". وأما السبب الثالث هو القمار، والرابع قصور القوانين، فقد ترك مهمة القبض على المجرمين لحراس أو خفراء: "يختارون من بين أنس فقراء، شيوخ، عجزة... يطلب إليهم وهم لا يحملون من السلاح غير عمود لا يكاد يقوى بعضهم على رفعه، أن يؤمنوا أشخاص رعايا صاحب الجلالة وبيوتهم من هجمات عصابات أو غاد صغار السن، شجعان، أشداء، مستهترين، مدججين بالسلاح(77)". وحتى إذا لم يهرب الحارس عن اللصوص، فإن في الإمكان رشوته، وكذلك الضابط الذي يرفع إليه بلاغاته، وكذلك القاضي الذي يأتيه الضابط بمجرم. وكانت واجبات الشرطة في لندن موكولة إلى 1.000 ضابط، و 474 معاوناً، و 747 حارساً. وبين القبض والإدانة قام 2.214 محامياً بلندن بعضهم ذوو ثقافة قانونية ونزاهة معقولة، وبعضهم لم يبلغوا هذا المبلغ تماماً. قال الدكتور جونسون في رجل برح الغرفة لتوه، إنه "لا يحب أن يغتاب إنساناً، ولكنه يعتقد أن الرجل محام(78)". ولم يوافق فيلدينج على رأي كوك الذي ذهب على أن "حكمة جميع الحكماء في العالم، لو اجتمعوا معاً في وقت واحد، ما كانت لتعدل" فضائل الدستور الإنجليزي. ولعله كان يسلم بأن ذلك الدستور

صفحة رقم : 11683

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الجريمة والعقاب

كما لاحظ فولتير ومونتسكيو قبيل ذلك، دبر بطريقة تدعو إلى الإعجاب حماية الفرد وممتلكاته من طغيان أي ملك، ولعله كان يثني على "الهابياس كوربس"، ومحاكمة المتهمين على يد محلفين، وعلى مدارس الحقوق العظيمة في جمعيات لندن القانونية. ولم يكن بالأمر الهين حقاً أن يحرم اعتقال أي شخص إنجليزي دون إذن قانوني، أو سجنه دون محاكمة، أو عقابه دون إدانة من محلفين من نظرائه، وألا تفرض عليه ضرائب دون موافقة البرلمان، وأن يكون في استطاعته أن يجتمع مع زملائه شريطة ألا يخل بالنظام، وأن من حقه أن يقول ما يشاء، إلا أن يكون ذلك تحريضاً، أو قذفاً، أو فحشاً، أو تجديفاً. ولكن مشرعي إنجلترا كانوا من الحرص الشديد على حماية الفرد من الدولة بحيث أخفقوا في حماية المجتمع من الفرد. لذلك كان جهاز تنفيذ القانون ينهار أمام تقشي الجريمة وتنظيمها. وكان يقوم على تنفيذ القانون العام قضاة صلح، يمكن أن تستأنف قراراتهم أمام قضاة يقضون في وستمنستر أو يسافرون ستة أشهر في السنة ليعقدوا جلسات دورية في مدن المقاطعات. وكان هؤلاء القضاة يتمتعون بمناصب مدى الحياة، ويبدون مستوى معقولاً من النزاهة. وبقيت المحاكم الكنسية على قيد الحياة وإن اقتصر على نظر القضايا غير الجنائية التي يتهم فيها الكهنة فقط، أو الفصل في صحة الزيجات، أو تنفيذ الوصايا. وكان لمحكمة الأميرالية اختصاص على القضايا البحرية دون غيرها. وفوق هذه المحاكم كانت تقوم المحكمة العليا التي يرأسها قاضي القضاة. أما المحكمة العليا للبلاد فهي البرلمان ذاته، يحاكم مجلس العموم عامة الناس ومجلس اللوردات النبلاء. وكانت المساواة أمام القانون لا تزال ناقصة، لأن النبلاء كانوا عادة ينجون من العقاب. فقد اعدم إيرل فرز الرابع عام 1760 لقتله وكيله، ولكن حوكت دوقة كنجتزن أمام مجلس اللوردات في 1776 وأدين بتهمة الزواج برجلين في وقت واحد، أطلق سراحها دون عقاب سوى تغريمها الرسوم. وظلت اللاتينية لغة المحاكم حتى سنة 1730 حين حلت الإنجليزية محلها، الأمر الذي تألم له بلاكستن أشد الألم. وفي محاكمات الجنايات الكبرى (ومعظم الجنايات كانت كبرى)

صفحة رقم : 11684

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الجريمة والعقاب

كان يسمح للمتهم بأن يوكل محامياً إذا كان ميسور الحال، وللمحامي أن يستجوب شهود الادعاء، ولكن لم يكن مسموحاً له أن يوجه خطابه إلى المحكمة، فهذا متروك للسجين، الذي كثيراً ما كان ضعف بدنه أو عقله يعجزه عن تقديم دفاعه. فإذا برئ رد إلى السجن حتى يدفع كل "البقاشيش" التي يفرضها عليه الحراس لقاء خدماتهم، وقبل أن يلغي هذا النظام في 1774 كانت هناك عدة حالات لرجال ماتوا في السجن بعد أن برئت ساحتهم. أما إذا أدين السجين فإنه يواجه قانون عقوبات من أقسى ما عرف في تاريخ القضاء. لقد كان هذا القانون يفضل ما سبقه، كما يفضل الإجراءات المتبعة في القارة الأوروبية، بتحريمه التعذيب والعقاب على الدوالب، ولم يعد يجدع الأنوف أو يصلم الأذان. ولكن فيما عدا ذلك كان يتسم بكل الوحشية التي كان الإنجليز الشديدي المراس يومها يرونها ضرورية للسيطرة على جموح الإنسان الفطري. فإذا كانت العقوبة هي الجلد في ذيل عربة تجر في الشوارع، كان منفذها أحياناً يتلقى مبلغاً إضافياً، بجمع من المتفرجين، لكي يضاعف من شدة ضربات سوطه(79). وكان السجين الذي يرفض الإجابة في تهمة كبرى يطرح بحكم القانون على ظهره عارياً في حجرة

مظلمة، وتوضع أثقال من الحجر أو الحديد على صدره إلى أن يعصر عصاراً أو ترهق روحه(80)، على أن هذا القانون لم ينفذ بعد 1721، ثم ألغي في 1772. وطوال القرن الثامن عشر أضافت قوانين أصدرها البرلمان إلى عدد الجرائم التي يعاقب عليها القانون بالموت. ففي 1689 كان عددها خمسين، وفي 1820 ارتفع إلى 160. فالقتل، والخيانة، والتزيف وجرق الممتلكات عمداً، وهناك العرض، واللواط، والقرصنة، والتهرب المسلح، والتزوير، وتدمير السفن أو إشعال النار فيها، والتفليس بالتدليس، وقطع الطريق، والسطو على المنازل، وسرقة أكثر من أربعين شلناً، وسرقة سلع من المتاجر تزيد قيمتها على خمسة شلنات، وتشويه الماشية أو سرقتها، وإطلاق النار على موظف الضرائب، وقطع الأشجار في شارع أو متنزه، وإحراق غيط غلال، وإرسال خطابات التهديد، وإخفاء موت زوج أو طفل، والاشترار في

صفحة رقم : 11685

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الجريمة والعقاب

حادث شغب، وإطلاق النار على الأرناب، وهدم بوابة طريق رئيسية والفرار من السجن، وتدنيس المقدسات- هذه كلها، وعشرات غيرها، كانت عد جرائم كبرى أيام جورج الأول والثاني والثالث. وقد عكست هذه القوانين تصميم البرلمان على حماية الملكية. وربما كانت إلى حد ما النتيجة- والسبب- لما شاع بين الناس من تمرد على القانون ووحشية ولعلها أعانت على تكوين ما يتصف به الشعب البريطاني اليوم من عادات التزام القانون. وخفف من صرامة القانون رفض القضاة أو المحلفين غير مرة أن يدينوا المتهمين، أو إبطال الاتهام لخطأ فني، أو تحديد قيمة سلعة مسروقة تحديداً تعسفاً بأقل من المبلغ الذي يجعل السرقة جناية كبرى. وفي وقت الحرب قد يصدر عفو عن المذنبين شريطة أن ينخرطوا في الجيش أو البحرية.

أما عقاب الجرائم الأقل خطراً فكان السجن، أو المشهرة، أو الجلد، أو الأشغال الشاقة في الإصلاحيات، أو النفي إلى المستعمرات. وقضي قانون صادر في 1718 ببيع المسجونين المحكوم عليهم إلى متعهد يشحنهم بالمراكب على نفقته إلى ميريلاند وفرجينيا عموماً، ويبيعهم بالمزاد عادة "إلى زراع التبغ نظير قضائهم المدة المحكوم بها عليهم" وأسفر سوء حال السجناء وهم في الطريق عن نسبة عالية من الوفيات، وعن إنهاك الباقين منهم إنهاكاً يعجزهم عن العمل حيناً. وقرر أحد هؤلاء المتعهدين بأنه يخسر سبع شحناته البشرية في الرحلة المتوسطة(81). ولم يقض على هذه التجارة غير حرب الاستقلال الأمريكية.

وكثيراً ما كان ترحيل المذنب يفضل على سجنه، لأن السجن كانت سيئة السمعة بسبب قسوتها وقذارتها. فقد كان السجن الجديد يكبل بمجرد دخوله بالأغلال التي تتفاوت ثقلاً بتفاوت ما يدفعه للحارس. أما فرأشه فمن القش. وأما طعامه فرطل من الخبز في اليوم، إلا إذا استطاع استكماله بالهدايا من الخارج. وإذا استثنينا سجن نيوجيت، وجدنا أنه لم تبدل محاولات تذكر لتنظيف السجن. فكانت الأوساخ والجراثيم تنراكم فيها فتعدى كل سجين تقريباً بما سمي "حمى السجن" وهي في الغالب التيفوس أو الجدري. وذهب جونسون إلى أن 25% من السجناء كانوا يموتون بـ "حميات عفنة". وبلغ نتن العفونة والمرض مبلغاً كان يحمل القضاة

صفحة رقم : 11686

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الجريمة والعقاب

والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مراراً نشقات من الكافور أو الخل أو الأعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة. وفي مايو 1750 جيء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا في "الأولد بيلي" وهي محكمة جنابات لندن الكبرى. وبلغ من خبث الحمى التي أفسوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا، ومات من المحلفين وصغار الموظفين أربعون، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغسل جميع السجناء القادمين للمحاكمة بالخل، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة في قفص المتهمين(82).

وكان الرجل الذي يقاضي بسبب الدين، ويدان، ويعجز عن الوفاء بدينه أو لا يرغب في الفراء به، يودع مثل هذا السجن حتى يوفي الدين أو حتى يسحب دأئنه الدعوى. وكان الدائن ملزماً بحكم القانون بدفع أربعة بنسات في اليوم مساهمة في إعاشة سجينه، ولكنه إذا لم يفعل لم يكن أمام المدين سبيل إلا مقاضاته وهذا يلفه مالا. على أنه إذا استطاع الحصول على نقود من خارج السجن كان في إمكانه رشوة الحارس وغيره ليسمحوا له بالتمتع بفراش وطعام أفضل، وبحريات أرحب، وبالاتناس بزوجته، لا بل بقضاء إجازة في المدينة بين الحين والحين. أما المدين المفلس فقد يموت جوعاً موتاً بطيئاً من ضالة جرابته من الخبز إذا عجز عن شراء الطعام. وقد قدر صموئيل جونسون أن خمسة آلاف سجين من كل عشرين ألف مفلس يسجنون في السنة في المتوسط، يموتون من الحرمان(83). وهكذا لم تجد إنجلترا وسيلة أكثر رفقا لحماية طبقة رجال الأعمال الصاعدة من الاقتراض المستهتر أو الإفلاس بالتدليس. وارتفعت بعض الاحتجاجات الخفيفة على صرامة قانون العقوبات. ولاحظ جونسون، الذي لم يكن بالرجل العاطفي، في 1751 خطر اعتبار هذا العدد الغفير من الجرائم جرائم كبرى فقال: "إن تسوية السرقة بالقتل... معناها التحريض على اقتراف جريمة أكبر منعاً لاكتشاف جريمة أخطر(84)". وظهرت أقوى الانتقادات لإدارة السجن في روايات فيلدنج وسموليت وفي رسوم هوجارث. وقد لطف من قسوة هذا النظام تلطيفاً متواضعاً جيمس أوجتورب، الذي تكشف حياته العملية المنوعة النشيطة عن الجانب الأنبل لجون بول. ففي 1714 ترك الكلية وهو

صفحة رقم : 11687

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> الجريمة والعقاب

في الثامنة عشرة لينخرط في جيش يوجين أمير سافوي، وقاتل في عدة معارك ضد الترك. فلما عاد إلى إنجلترا انتخب عضواً في البرلمان. وإذا كان له صديق سجن بسبب الدين ومات في سجنه بالجدي الذي أصابه فيه، فقد أُنقذ مجلس العموم بتعيين لجنة-عين على رأسها للتحقيق في أحوال سجون لندن. وأُفزع القدر والمرض والفساد والظلم الذي أماط التحقيق اللثام عنه ضمير إنجلترا لحظة. فرفت بعض الحراس الذين وجه إليهم أكثر اللوم، وخفت بعض اللوائح الجديدة من المفاصد القديمة، ولكن معظم المساوئ بقي على حاله، وكان على الإصلاح الحقيقي للسجون أن ينتظر مجيء جون هوارد والرابع الأخير من القرن الثامن عشر. واتجه أوجتورب إلى الهجرة وسيلة لتخفيف وطأة الفقر في إنجلترا. ففي 1733 أسس مستعمرة جورجيا، وعمل فترة والياً عليها، فحظر استيراد العبيد، ورحب بالمورافيين، وجون ويسلي، واللاجئين البروتستانت من النمسا. ولما عاد إلى إنجلترا والبرلمان، حصل على قانون يعفي المورافيين الإنجليز من حلف اليمين أو حمل السلاح. وأصبح الصديق الحميم لجونسون، وجولدمست، وبيرك، وعمر إلى التاسعة والثمانين. وتوج الشاعر بوب هامته بيتين فقال فيهما "إن إنساناً يدفعه حب الخير الشديد سيطير مثل أوجتورب من قطب إلى قطب(85)".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

6- آداب السلوك

ظل الرجال الذين ينتزهون في الحدائق العامة أو في بل مل-كما كانوا أيام اليزابيث أو عودة الملكية-هم الجنس الأفخم هندياً. يرتدون في غير العمل أو البيت قبعات مثلثة الأركان ممالة، تزهو غالباً بالشراريب أو الأشرطة أو العقد، ويعقصون غدائرهم بـ "فيونكات" جميلة خلف العنق، أو يغطون رؤوسهم بباروكة مبدرة. وكانت ستراتهم الجميلة التي تحدث حفيفاً حول ركبهم تزهو بأزرار قصد بها أن تبهير الناظر أكثر مما تربط السترة، وكانت الأكمام المصنوعة من القماش المقصب الفاخر تعلن عن ثراء لابسها أو طبقته. واجتذبت صداريهم المزوقة الأنظار بألوانها الفاقعة-الصفراء أو البرتقالية أو القرمزية أو القرنفلية أو الزرقاء-وتدلّت منها دلالية ساعة من الذهب على سلسلة ذهبية.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

وكانت قمصانهم المصنوعة من الكتان الرفيع تغطي حواشيها بأهداب تخفي ملابس داخلية من الفانلا، وكانوا يطوقون أعناقهم في تأنق بالأربطة (الكرافات) المصنوعة من شاش "اللون" (وهو قماش مستورد من لاون بفرنسا)، ويثبتون بنطلونات الركوب القصيرة بمشابك عند ركبهم وبثلاثة أزرار في الخصر، وثلاثة مخفاة في لسان يغطيها. أما جواربهم الطويلة فهي عادة حمراء اللون، ولكنها قد تكون من الحرير الأبيض في المحافل الرسمية. واقتضى الزر في 1730 أن تكون أحذيتهم حمراء عند الأصابع والكعب. على أن فتى العصر كان يرغم هذا الجهاز كله يحس أنه عريان إذا لم يتقلد سيفاً. فلما صعّدت الطبقات الوسطى في سلم المجتمع استبدلت بالسيوف العصي التي كانت تتوج عادة بمعدن نفيس وتنقش نقشاً بديعاً، ولكن بما أن الشوارع كانت لا تزال محفوفة بالخطر، فإن العصا كثيراً ما احتوت سيفاً. وكانت المظلات قد دخلت الصورة في أواخر القرن السابع عشر، ولكنها لم تعم حتى ختام الثامن عشر. واقتضى الركوب في الحدائق العامة أو خلال الصيد بالكلاب ارتداء أزياء خاصة طبعاً، وقد حاول الشبان المغالون في التأنق (وكانوا يسمون المكروني) جاهدين لفت الأنظار بالإسراف في الزينة أو التلون. وفريق آخر سمي

"سلوفينز" غالوا في الظهور بعبادات رثة وثياب مهملة، فنكشوا شعورهم بعناية متمردة وتركوا بنطلوناتهم دون ربطها بالمشابك، وتباهوا بالوحل على أحذيتهم، إعلاناً لاستقلالهم ودليلاً على أصالة التفكير. أما النساء فكان إذا طلعن على الناس يلبسن كما نتخيلهن في شبابنا الدهش، حين كان جسد الأنثى سرّاً غامضاً مبهراً عزيز الرؤية. وكانت تنوراتهن الكثيرة الوبر تنفخها عادة أطواق ترفعها في خفة من خطوة إلى خطوة وتكشف كشفاً خاطفاً عن كعوب متألثة وأقدام رشيقة. وكانت الأطواق التي قد تتمتع تسع ياردات حول الجسم سدوداً، والمشدات تروساً، فتطلبت غزوات الحب كل حماسة الفارس ينفذ إلى الدروع ويتسلق الأسوار، وكان هذا الوضع أحفز لخيال الشعراء. وضاع بعض ما لشعر المرأة من بريق وبهاء في الطبقات المقواة التي علت فوق رأسها علواً اقتضى حمايتها من أن تحرقها الثريات. وأخفيت وجوه النساء وراء الغسولات والطلاءات ولصوق التجميل والمساحيق والحواجب

صفحة رقم : 11690

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

المتحركة؛ وجددت كل جواهر الشرق لتزين شعورهن وأدانهن ونحورهن وأذرعتهن وثيابهن وأحذيتهن. وكانت المرأة العصرية، من قبعاتها الشامخة وغداثرها المعطرة حتى حدانها الحريري المرصع بالأحجار الكريمة، تلبس لتطيح بأي تردد من جانب الذكور المحققين بها. وفي عام 1770 كانت فنوج التبرج قد بلغت من السحر حداً حمل البرلمان في نوبة مرح على إقرار قانون قصد به حماية الجنس الطائش المتهور:

"كل النساء-أياً كان عمرهن أو مقامهن أو مهنتهن أو طبقتهن، وسواء كن عذارى أو صبايا وأرامل، اللاتي يخدعن أو يغوين أو يوقعن في الزواج-ابتداء من هذا القانون وبعده-أ يذكر من رعايا صاحب الجلالة بالعبور أو الطلاء أو دهانات التجميل أو الأسنان الصناعية أو الشعر المستعار أو الصوف الأسباني أو الكورسيهات الحديدية أو الأطواق أو الأحذية العالية الكعوب الخ، يقعن تحت طائلة العقاب بمقتضى قانون الذي يطبق الآن على السحر وما أشبه من جنح، ويصبح الزواج بمجرد إدانتهم باطلاً(86)".

وحاولت القوانين المنظمة للأنفاق جاهدة أن تحد من الغلو في الإنفاق على اللباس، ولكن العرف قضى على جميع البريطانيين المخلصين بارتداء ثوب جديد في عيد ميلاد الملكة كارولين، التي لبست عند تتويجها ثوباً تكلف 2.400.000 جنيه-أكثرها أحجار كريمة مستعارة.

وكان البيت مكاناً يستطيع المرء فيه أن يخلع كل ملابس عسير يقتضيه الظهور، فيرتدي فيه أي شيء أو أقل القليل من الثياب. ولم تكن النوافذ معينة على الفضول لأن عددها خفضه قانون إلى خمس، وفرض على المزيد ضريبة باعتبارها ترفاً. وكان داخل البيوت مظلماً كتماً لم يصمم ليساعد على التنفس. أما الإضاءة فبالشموع، وهي عادة لا تزيد على شمعة في وقت واحد لكل أسرة؛ ولكن الأغنياء كانوا ينفقون غزواً بالثريات المتألقة وبالمشاعل الزيتية. وفي قصور الموسرين كانت الجدران تجلد بخشب القرو، والسلالم تصنع من الخشب الضخم والداربزينات المتينة، والمدفآت من الرخام الفاخر، والكراسي تحشي بالشعر، وتتجد بالجلد. أما الأثاث فمصمم بالطراز

صفحة رقم : 11691

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

"الجورجي" الثقيل، تشابك فيه النقوش ويتلألأ بالتعشبية بالذهب. وحوالي 1720 أدخل خشب "المجنة" من جزر الهند الغربية، وكان أصلب من أن تنفذ فيه الأدوات المستعملة آنذاك، فصنعت أدوات أحد، وسرعان ما أبدع الخشب الجديد أروع قطع الأثاث في البيوت الإنجليزية.

وكانت البيوت تدفأ بحرق الفحم في المواقف والأفران المكشوفة أو حرق الخشب في مدفآت واسعة. وكان هواء لندن غائماً بالدخان. وأصبح تنظيف البيوت مهمة عسيرة ولكن لا مناص منها بسبب ما يتهددها دائماً من غبار وسناج. واعتبر الفرنسيون أعداءهم الإنجليز أحفل الشعوب بنظافة بيوتهم بعد الهولنديين. كتب نيكولا دسوسير في 1726 يقول:

"لا يمضي أسبوع إلا والبيوت المعنتى بها تغسل مرتين في الأيام السبعة علواً وسفلاً، لا بل تدعك معظم المطابخ والسلالم والمدخل كل صباح. وينال الأثاث كله، خصوصاً أنية المطبخ جميعها، أعظم قدر من النظافة. وحتى المطارق الكبيرة والإقفال التي على الأبواب تدعك حتى تلمع(87)".

وهذا برغم غلاء الصابون وقلة الماء. أما غرف الاستحمام فكانت ترفاً لا يستمتع به غير الأقلين، وكان أكثر الناس يستحمون بالوقوف في حوض ورش الماء على أجسادهم.

وكان العامة ينفقون أكثر ساعات البيت وأوقات الصحور في المطبخ يلودون فيه بالموقد الكبير، فيأكلون ويتجاذبون الأحاديث وأحياناً ينامون في المطبخ لأنها واسعة جداً. أما حجات الطعام فلمناسبات الخاصة. والغداء عند جميع الطبقات يكون بعد الظهر، فهو عند الطبقات الوسطى في الساعة الثانية أو الثالثة، وعند الأغنياء في الخامسة أو السادسة، فالحال يومها هي الحال اليوم، كلما كثر مالك طال انتظارك للغداء. وكانت النساء في البيوت العصرية يبرحن القاعة إذا فرغن من الطعام، لأن الرجال يبدعون عندها الشراب والتدخين وشرب الأناخاب وقص الحكايات. وكان الغداء وافرأ، ولكنه كان أول ما يتناوله بريطاني المدينة من طعام بعد الفطور وتصبيره في الحادية عشرة صباحاً. وقد أدهش الفرنسيين مقدار الطعام

صفحة رقم : 11692

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

الذي يأكله الإنجليزي في جلسة واحدة. وكان معظم الطعام في الطبقتين العليا والوسطى من اللحم، أما الخضر فزخرف لا يؤبه به؛ والبودنج الدسم هو التحلية المفضلة والشاي شراب الجميع وإن كان ثمن الرطل منه عشرة شلنات. وكن عشاء التاسعة مساء مسك الختام لمنجزات اليوم.

وكان أكثر الإنجليز يلودون بأمان بيوتهم في الليل، ويتسلون بالحديث والشرب والشجار والقراءة والموسيقى والرقص والشطرنج والداما والبليارد والورق. قالت دوقة ملبره "بريك لا تحدثني عن الكتب فكا ما أعرف من كتب هم الرجال والورق(88)". وكان الأساقفة والقساوسة، وحتى الوعاظ المتمزمتون من أتباع المذاهب المنشقة على الأنجليكانية، يلعبون الورق، وكذلك الفلاسفة، فنذر أن مضى هيوم إلى فراشه دون أن يلعب دوراً من الهويست (وهو البردج الآن). وفي 1742 نسق أدموند هويل قوانين الهويست في "رسالة موجزة" وبعدها وجب أن تلعب اللعبة "وفق قوانين هويل"، وذلك حتى عام 1864. وكانت الحيوانات البيئية الأليفة ضرورة في الأسرة، ولا تقتصر على الكلاب والقطط، بل قد تجد هنا وهناك سناساً أو اثنين(89). وكل امرأة تقريباً تربي الأزهار، وكل بيت تقريباً حديقة.

وجعلت إنجلترا من تصميم الحدائق غراماً قومياً، وهي التي أغدقت عليها الطبيعة نعمة المطر حتى ضاقت به. ففي عهد تشارلز الثاني كانت الحدائق الإنجليزية تنسج على منوال النماذج الفرنسية-لا سيما فرساي-، فتصمم الحدائق "النظامية" على خطوط هندسية، سواء المستقيمة أو المستطيلة أو نصف القطرية أو الدائرية، ويوفر لها الأفق الجميل والمنظور الرائع (وقد دخلت هذه الألفاظ الثلاثة perspective, vista, picturesque اللغة الإنجليزية في القرن السابع عشر)، والأشجار ومنابت الشجيرات، والسيارات المقلمة في خط منسق، والتمائيل الكلاسيكية الموزعة توزيعاً متناسقاً. وكانت حدائق اللهو بفوكسهول ورينلاج تصمم على هذا النحو، ونستطيع أن نجد عينة من هذا الطراز النظامي اليوم في هامتن كورت. ومع أن الطراز كان منسجماً مع أدب "العصر الأوغسطي" الكلاسيكي الجديد، فإن خير

صفحة رقم : 11693

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

ممثلي ذلك العصر من الأدباء، وهما أديسون وبوب، تمرداً على الحديقة النظامية، وألحا بأدب في المطالبة بـ "حديقة طبيعية"، تترك على الأقل جزءاً من سخاء الطبيعة وخصبها دون تشذيب أو تهذيب، وتولد المفاجآت البهيجة باحتفاظها بشذوذات الطبيعة غير المتوقعة. وشاركت التأثيرات الصينية في هذا التمرد، فحلت هياكل الباجودا محل التماثيل في بعض الحدائق، وبنى دوق كنت في حدائقه كيو بيتا لكونفوشيوس. وكامنت الحديقة الطبيعية انعكاساً لطومسن وكولنز العاطفيين أكثر من أديسون المحتشم وبوب المتأنق المرتب؛ وشاركت هذه الحديقة "شعراء الوجدان" في سوبرانو "رومانسي" لباص كلاسيكي. واتفق بوب وطومسن في إطار الحدائق التي صممت على ضيعة "ستو" التي يملكها رتشرد تمبل، فيكونت كوبم. وكان تشارلز برجرمان قد بدأها على تصميم نظامي. فأعاد وليم كنت ولانسلوت "كيبابلتي" براون تشكيلها وفق نمط طبيعي، فأصبحت حديث هوادة فلاحة البساتين في إنجلترا وفرنسا، وظفرت ببناء جان جاك روسو.

ومن وراء الحدائق انسابت النهيرات يجدف فيها ركاب الزوارق ويحلم عندها هواة الصيد الكسالي باقتناص السمك، والغابات يطلق فيها الرجال رصاصهم على الديوك البرية أو القطا أو الحجل أو الدجاج البري، أو يتبع فيها الصيادون ذو الأردية القرمزية كلابهم ليلحقوا بالثعلب المحاصر في ركن أو الأرنب البري المرهق. أما البريطانيون الأقل يساراً فيتسلون بالكريكيت والتنس والفايف (كرة اليد) والبولنج (الكرات الخشبية) وسباق الخيل، وقاتل الديكة، وتحريش الكلاب بالدببة، ومباريات الملاكمة بين النساء أو بين الرجال على السواء. وكان المتكسبون بالملاكمة أمثال فج وبابير معبودي كل الطبقات، يجتذبون إلى الحلبة الحشود الكبيرة، ويتلاكمون-إلى عام 1743-بقبضاتهم عارية بغير قفازات؛ ثم أدخل استعمال قفازات الملاكمة، ولكن سنين كثيرة انقضت قبل أن يغير المتفرجون رأيهم فيها، وهي أنها ليست سوى وسيلة مخنثة لا تليق بجون بول. وكان من الملاهي التي أعلن عنها في لندن في 1729-30

صفحة رقم : 11694

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

"ثور هائج ترشق فيه الصواريخ ويطلق حراً" في حلب، و "كلب ترشق فيه الصواريخ من فوقه، ودب يطلق في الوقت ذاته، وقد يربط إلى ذيل الثور (90)". وفي لعبة سموها "قذف الديوك" كان ديك يربط إلى عمود، ثم يقذف بالعصي من بعيد حتى يموت. وكانت أحب مباريات الديكة إلى الشعب تلك التي تطلق فيها مجموعة منها تصل إلى ستة عشر ديكاً على مجموعة أخرى معادلة حتى يقتل كل الديكة في أحد الجانبين، ثم تقسم الديكة المنتصرة إلى معسكرين متقاتلين، يقتلان حتى يفنى جميع الديكة في أحدهما، وهكذا دواليك حتى يموت الجميع إلا ديكاً واحداً. وكانت الأقاليم والمدن والقرى تحرش ديوكها بعضها ببعض وطنية ريفية، وقد أطرى كاتب لطيف هذه الرياضات باعتبارها معادلاً أخلاقياً للحرب (91). وكانت كل الرياضات تقريباً تشفع بالمراهنات. أما الذين لم ترقهم هذه المناظر فكان في وسعهم أن يلتمسوا التسلية في فوكسهول أو رينلاج، ففي حدائقهما الظليلة يستطيعون لقاء شلن أن يستمتعوا بما تستشعره الجماهير من دعة وأمان شريطة أن يحرصوا على جيوبهم، هناك يستطيعون أن يرقصوا أو يشاركوا في الحفلات التكرية، ويجلسوا تحت أغصان مضاءة بالمصباح، أو يرشفوا الشاي ويرقبوا سيدات المجتمع وفتيان العصر ونجوم المسرح العابرين بهم، وينطلقوا إلى الصواريخ النارية أو الألعاب البهلوانية، ويستمعوا إلى الموسيقى الشعبية، ويتناولوا الطعام في أبهة رسمية، أو يلتمسوا المغامرات في أزقة العشاق المتوارية عن الأنظار في شكر وعرقان. وفي رينلاج، تحت سقف قاعة "الروتندا" الكبرى، كانوا يستطيعون أن يرقوا بأنفسهم إلى موسيقى أسمى في وسط قوم من طبقة أوجه. كتب هوراس ولبول في 1744 يقول "في كل ليلة أذهب إلى رينلاج التي هزمت فوكسهول هزيمة ساحقة، فما من إنسان يذهب إلى غيرها، وكل الناس يذهبون هناك (92)". وكانت فوكسهول ورينلاج تعلقان أبوابهما شتاء، ولكن الأنهار قد تتجمد، وهنا تزده رياضات الشتاء. وحدث في عيد ميلاد 1739 أن تجمدت الأنهار حتى التيمز، وأبدى اللندنيون روحهم العالية بتنظيم كرنفال من الرقص والأكل على الجليد، واستمتع بعضهم بنشوة ركوب العربات على النهر من لامبث إلى كوبري لندن (93). وأخيراً كان هناك المهرجانات الكبيرة حيث يلتقي المرء

صفحة رقم : 11695

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

بكل العالم من غير أصحاب الألقاب، ويستمتع بشتى المشاهد من صندوق الدنيا إلى الرجال الطانرين. أما آداب السلوك، فإننا إذا استثنينا بعض النساء المثقات، وجدنا فيها الخشونة وفحش الكلام. وسيرينا المصور هوجارث حياة العامة، ولكنه لن يرينا حديثهم. فالعاهرات، والفاسق، وسائقو عربات الجر، والمراكبية، والجنود والبحارة، كلهم كانوا أساتذة في اللعن وفحش القول، وقد خلد باعة السمك في بلنجزيت (واللفظ معناه لغة السوق) ذكرى سوقهم بذاعتهم التي لا مثيل لها. وكان الحديث في الفنادق والحانات أقل مرحاً ولكنه متحرر إلى حد البذاءة وكان الرجال حتى في بيوتهم يروعون النساء بقصصهم وسبابهم وأنخابهم. ولم تكن السيدات أنفسهن يترفعن عن الشتيمة العنيفة أو يتورعن عن القباحة المرحية. أما في مشارب القهوة والأندية فاللغة أكثر تهديباً. وقد كتب ستيل وسويفت وفيلدنج وكوبر وجونسون عن الحديث، بوصفه فناً مهذباً. وفي وسعنا أن نتصور الرجال في اجتماعاتهم التي يحرصون على إقصاء النساء عنها، يرشفون قهوتهم أو جعنتهم، ويترعون خمرهم، ويدخنون ببياتهم، ويتجادلون حول المناقشات البرلمانية، وحول شراء روبرت ولبول للأصوات، والسياسة المنكرة التي ينتهجها أولئك "الكلاب الفرنسيون" وراء المانش. وكان الضحك عميقاً في البطون، عالياً في الحناجر، رغم مناقشات الأخلاقيين أمثال شافنيسري وغيرهم ممن لا نزعة أخلاقية تميزهم مثل

تتسدر فيلد، بوجوب ترك الضحك للوضعاء، وبأن يخفف حتى يصل إلى مجرد الابتسامة(94). أما تعاطي النشوق أو السوط، الذي ورد ذكره أول مرة في 1589، فكان قد بات شعيرة مرعية عند الجنسين، وقد ظن القوم أن للنشوق (وهو التبغ المسحوق) قيمة دوائية كالكهوة، فالعطس الذي يحدثه يظهر المسالك الأنفية، ويشفي من الصداع، والبرد، والصمم، والخمول، ويهدئ الأعصاب، ويصلح الدماغ. ولم ير شخص، رجلاً كان أو امرأة كامل الهدام بغير علبة النشوق، وعلى تلك الحاشية الملحقة

صفحة رقم : 11696

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

بصاحبها (أي العلبة) أفرغ الصانع والجواهري، وصانع الميناء، ورسام المنمنمات، أرق ما جاد به فنههم. وكانت مشارب القهوة الثلاثمائة في لندن مراكز للقراءة كما كانت منتديات للسمر. فقد اشتركت في الجرائد والمجلات، وأدارتها على زبائنها، ووفرت الأقلام والورق والحبر، وتسلمت الخطابات لإرسالها بالبريد، وقبلت أن تحفظ البريد المرسل إلى عناوينها. وتطورت بعض مشارب القهوة أو الكاكو، مثل مشرب هوايت، في هذه الفترة إلى أندية خاصة يطمئن الرجال إلى أن يجدوا فيها الصحبة التي يؤثرونها على غيرها، ويستطيعون أن يلعبوا القمار بمنأى عن عيون الرقباء. وما اختتم القرن الثاني عشر حتى كان عدد الأندية مماثلاً لما كان عليه عدد مشارب القهوة في بدايته. ويبدو أن الماسون (البنائين الأحرار) بدعوا تاريخهم الإنجليزي على هيئة ناد سموه "المحفل الكبير" نظم بلندن في 1717. وشجعت الأندية الشرب والقمار والدس السياسي، ولكنها علمت الرجال على الأقل نصف فن الحديث. أما النصف الآخر من هذا الفن فكان مفقوداً، لأن الأندية كانت خلوات للعزاب، ولم يجد الأدب الأرفع والفكاهة الأرق اللذان يتطلبهما وجود النساء ما يحفزهما هناك. فلقد كانت إنجلترا بلد الرجال، أما النساء فلم يكن لهن في حياتها الثقافية إلا حظ ضئيل، ولم يكن بها صالونات، فلما حاولت الليدي ماري مونتاجيو أن تقيم صالوناً نظرت القوم إليها كأنها مخلوق غريب الأطوار لا يعرف أين مكانه(95).

واستطاعت النساء في الطبقات العليا أن يستخدمن مهارتهن في الاستقبالات، والمراقص، وحفلات الموسيقى في البلاط أو في بيوتهن. وكانت نهاية الأسبوع في بيوت الريف حدثاً جميلاً في الحياة الإنجليزية لا يكدره بعض الشيء غير تلك "البقاشيش" الكبيرة التي ينتظر الخدم أن ينفحوا بها، وكان على الضيف وهو يغادر البيت أن يغامر بالمرور وسط الأتباع، والسقا، والخدم، والقهرمانات، والبوابين، والخادمت، والطباخين وغيرهم من الخدم والحشم يقفون في صفين عند الباب، في حين ينتظر سائق المركبة وسائس الخيل خارجاً في عبوس وتجهم. وما ذاع عن ولاء الخدم البريطانيين لساداتهم لم يكن

صفحة رقم : 11697

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

له كبير سند من الواقع في النصف الأول من القرن الثامن عشر، فقد كانوا في كثير من الحالات عديمي المبالاة، وقحين، متمردين، لا يترددون في التنقل من بيت إلى بيت لقاء أجر أفضل. وكان كثير منهم يسرقون رب البيت وربته والضيوف إذا استطاعوا، ويشربون خمر مولاهم، وتلبس الخادما حلي سيداتهن أو ملايسهن. وكانت قمة انتماء شخص ما إلى المجتمع العصري، بعد أن يقبل في البلاط الملكي، أن يلم بمنجوع للمياه المعدنية، يشرب فيه المياه الطبية، أو يستحم مع صفوة القوم بعيداً عن البحر المختلط. واشتهرت تنبردج بينايبعها، ولكن روادها كانوا أخلاطاً. أما عيون ابسوم فكانت تقدم لروادها الموسيقى، ورقصات المريسة، والكلاب المؤدية للألعاب، والمياه المسهلة وإن لم تجمع بعد معادنها في "أملاح ابسوم". ولم يكن الاستحمام في البحر رياضة محببة، وإن لحظ تشستر فيلد شيئاً منه في سكاربرو، ولكن في 1753 تدفقت إلى البحر موجة بشرية بفضل كتاب الدكتور رتشرد رسل "في سل الغدد وفائدة مياه البحر في أمراض الغدد"، وتفتحت قرى ساحلية مثل برايتون لتزدهر منتجعات للاستحمام، مع أنها لم تعرف من قبل غير أسر صيادي السمك المتواضعة. أما الأرسقراطيون ففضلوا مدينة باث. فهناك، وسط أرقى البريطانيين من ذوي الأسماء، يشرب الروادويستحمون في مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من أنخموا بالغذاء الطيب. وكانت مدينة الينابيع الصغيرة قد فتحت أول غرفة ذات مضخة في 1704، وأول مسارحها في 1707، وبعد عام أول "عرف اجتماعاتها" التي نوهت بها قصص فيلدنج وسموليت. وفي 1755 اكتشف الحمام الروماني الكبير. وأعاد جون وود وابنه بناء المدينة بالطراز الكلاسيكي كما سنرى. وفي 1705، أصبح ناش "الجميل"، وكان حمامياً ومقامراً، دكتاتور حياتها الاجتماعية. فحظر السيوف في أماكن اللهو العامة، ووفق في أن يجعل المبارزات في باث-عملاً ضاراً بالسمعة. وأقنع الرجال بأن يلبسوا الأحذية المكشوفة بدلاً من الطويلة. وكان هو ذاته يلبس قبة بيضاء هائلة، وسترة كثيرة الوشي

صفحة رقم : 11698

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> آداب السلوك

غنية التطريز، ويركب عربة تجرها ستة خيول يتحتم أن تكون شهياً، ويعلن عن قدومه بنفير فرنسي مرح. وقد أصلح من شأن الطرق والمباني، وخطط الحدائق الجميلة، ووفر الموسيقى، وسحر الجميع إلا قلة منهم بلطفه وظرفه. وتوافد نبلاء الإنجليز على مملكته، لأنه وفر لهم موائد القمار كما وفر الحمامات، فلما سنت قوانين تحرم القمار ابتكر ألعاب حظ جديدة تتفادى القوانين. وأخيراً وفد على باث جورج الثاني، والملكة كارولين، والأمير فرديريك لويس، وغدت باث حيناً بلاطاً ثانياً. ولا ريب في أن إيرل تشستر فيلد الذي كان يعيش المدينة كان مطبقاً على صفوفها ذلك الوصف الذي وصف به جميع البلاطات بقوله أنها أماكن "يجب أن تتوقع أنك ستلقى فيها بارتباطات دون صداقة، وعداوات دون ضغينة، ونباله دون فضيلة، ومظاهر تنقذ وحفاق تضحى؛ آداب حسنة مشفوعة بأخلاق سيئة، وكل الرذائل والفضائل مقنعة، حتى أن كل من كان يميز بينها بعقله فقط لن يتبين الواحدة من الأخرى حين يلقاها أول مرة في البلاط(96)".

صفحة رقم : 11699

فلننق نصف ساعة مع هذا النبيل المرفه الحس. فقد تمثلت فيه خصائص أرسنقراطية العصر الإنجليزية، اللهم إلا تأليفه كتاباً حسناً. ذلك أن هذا الكتاب "رسائل لولده"، الذي درج الناس على الغض من قدره، هو خزنة من الحكمة في نثر مشرق، ومرشد محكم لعادات طبقتة ومثله العليا، وإعلان جذاب عن ذكاء مرفه مهذب.

كان اسمه بالعماد (1694) فليب درومر ستانهوب، بن فليب ستانهوب، إيرل تشستر فيلد الثالث، والليدي اليزابث سافيل، ابنة جورج سافيل، مركيز هاليفاكس، المسامر الماكر للعهود الملكية السابقة. ماتت أمه في طفولته، وأهمله أبوه، فكلنته مركيزة هاليفاكس. وحذق تعلم الكلاسيكيات واللغة الفرنسية على يد معلم خاص، فأصبحت ثقافة روما وفرنسا إبان نضجهما جزءاً من عقله. وأنفق سنة في كميردج، ثم انطلق في 1714 في الرحلة الكبرى. وفي لاهاي قامر بمبالغ كبيرة، وفي باريس جرب عينات من النساء تجربة

صفحة رقم : 11700

الفاسق الذواق للنساء، ومن باريس كتب (7 ديسمبر 1714) يقول:

"لن أبدي لك رأيي في الفرنسيين، فكثيراً جداً ما يخالني الناس واحداً منهم، وقد حياني العديدون منهم بأسمى تحية يمكن في اعتقادهم-أن يحيوا بها إنساناً، وهي: "سيدي، إنك على شاكلتنا تماماً" حسبي أن أقول إنني وقح، كثير الكلام، عالي الصوت، أمر ناه، أغني وأرقص أثناء سيرتي، وأهم من هذا كله أنني أنفق مبلغاً باهظاً على شعري، ومساحيقي، وريشي، وقفازي الأبيض(97)".

فلما عاد إلى إنجلترا عين وصيفاً لمخدع أمير ويلز وقتها (الذي أصبح جورج الثاني). وكان جيمس ستانهوب، الوزير الأثير لدى جورج الأول، قريباً لفليب. وعثر له على دائرة يمثلها في البرلمان، فظل أحد عشر عاماً عضواً من أعضاء حزب الأحرار في مجلس العموم. فلما أصبح إيرل تشستر فيلد الرابع بعد موت أبيه (1726) نقل إلى مجلس اللوردات، الذي قال في وصفه فيما بعد أنه "مجلس ذوي الأمراض المستعصية". وحين أوفد إلى لاهاي سفيراً (1728) قام بمهمته خير قيام، فخلع عليه وسام ربطة ساق الفروسية وعين وكيلاً أكبر للبيت الملكي. وفي 1732 أنجبت له خلية تدعى الأنسة بوشيه ولداً هو فليب ستانهوب، الذي وجهت إليه فيما بعد "الرسائل" التي كتبها أبوه. وبعد عام تزوج الكونتيسة ولزنجهام، ابنة جورج الأول غير الشرعية من دوقة كندال. ولعل توقع أن تأتيه بمهر ملكي، ولكنها لم تفعل، فكان زواجاً شقياً شقياً أرسنقراطياً.

وكان من الجائز أن يرتقي إلى منصب أرفع لولا معارضته مشروع قانون لولبول بفرض ضريبة إنتاج على التبغ والنيبيذ. وقد عاون على هزيمة القانون، وما لبث أن طرد من الحكومة (1733). وكافح ليسقط ولبول، وضيع صحته، واعتكف في القارة (1741)، وزار فولتير في بروكسل، واختلط بفونتيل ومونتسكيو في باريس. فلما قفل إلى إنجلترا واصل سياسة المعارضة للحكومة. وقد أبهجت المقالات التي كتبها تحت اسم "جفري برودوتوم" لصحيفة جديدة

تدعى "إنجلترا القديمة" سارة، دوقة ملبره، فأوصت له بعشرين ألف جنيه. وفي 1744 فاز حزبه، حزب "البرودوتوم" (الأحرار). وانضم

صفحة رقم : 11701

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> تشستر فيلد

إلى بلام في الوزارة، وأوفد إلى لاهاي ليقنع الهولنديين بالانضمام إلى إنجلترا في حرب الوراثة النمساوية. فآدى المهمة بلباقة وحذق، ورقى إلى منصب نائب الملك في إيرلندة (1745) وكانت السنة الوحيدة التي قضاها في إيرلندة أنجح سني حياته. فقد أنشأ المدارس والصناعات وطهر الحكومة من الفساد والرشوة، وصرف شئون الحكم بكفاية ونزاهة. وأنهى اضطهاد الكاثوليك، ورق العديدين منهم إلى مناصب الحكومة وبلغ من اكتسابه احترام السكان الكاثوليك له أنهم حين غزل المطالب الشاب بالعرش الإنجليزي إنجلترا من إسكتلندة، وتوقعت إنجلترا ثورة في إيرلندة تنشب في الوقت ذاته، رفضوا أن يثوروا على تشستر فيلد. ورد إلى إنجلترا وزيراً (1746). ولكن أستاذ الرقة واللباقة اقتترف غلطة مدمرة. ذلك أنه تودد إلى خليفة الملك لا إلى الملكة، فنجحت كارولين في تدبير سقوطه. وفي 1748 طلق الحياة العامة، وانكفأ كما قال إلى "حصاني، وكتبي، وأصحابي(98)" وعرض عليه جورج الثاني لقب الدوقية، ولكنه رفضه. وفي 1751 قاد حركة تبنى التقويم الجويجوري، وتحمل وطأة استياء الشعب من "السرقة البابوية" لأحد عشر يوماً من الشعب الإنجليزي. وفي 1755 سلط عليه جونسون ناره بمناسبة إهداء المعجم الذي ألفه، ونلقى نظرة على هذه المعركة الصاخبة في موضع لاحق. وكان خلال ذلك يكتب الرسائل لولده منذ 1737. وينم حبه لهذه الثمرة الجانبية لسفارته الأولى في هولندة على الحنان الذي أخفاه عن الجماهير خلال أكثر حياته. قال للفتى: "منذ رأيت عينك نور الحياة أصبح شغلي الشاغل، المحبب إلى نفسي، أن أكمل ما يسمح به قصور الطبيعة البشرية(99)". وقد خطط لتعليم فليب، لا ليجعله مسيحياً مثالياً، بل ليعده للسياسة والدبلوماسية. وبدأ الغلام في الخامسة بخطابات عن الأساطير الكلاسيكية والتاريخ القديم. وبعد عامين راح يعزف النغمة التي لن يفتأ يلح عليها في رسائله. يقول:

"في خطابي الأخير كتبت لك عن أدب المجتمع العصري،

صفحة رقم : 11702

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> تشستر فيلد

كأولئك الذين ألفوا ارتياد القصور، وهم القطا الأنيق من النوع الإنساني. وأدبهم عفوي طبيعي، وعليك أن تميز بينه وبين تأدب الدهماء والريفيين، وهو تأدب مقيد أو مزعج دائماً. فالرجل المهذب يبدي رغبة دائمة في أن يسر من يتحدث إليه، ويحرص على ألا تكون تحياته مزعجة. وقل من الإنجليز من يتصفون بالأدب الكامل فهم أما خجلون

وأما وقحون، في حين تجد معظم الفرنسيين طبيعيين مؤدبين في سلوكهم. وبما أنك بحكم النصف الأفضل فرنسي صغير، فإني أرجو أن تكون على الأقل "نصف" مهذب. وستكون أميز وأبرز في بلد ليس الأدب فيه فضيلة غالية(100)".

وعليه فحين بلغ فليب الرابعة عشرة أرسله أبوه إلى باريس باعتبارها المدرسة التي تنتهي صقل عاداته وإن كان عليماً بأنها ستنتهي فضائله أيضاً. وكان على الفتى أن يتعلم أساليب الحياة أن أراد أن ينفع حكومته. والدراسة المناسبة لرجل الدولة هي دراسة الإنسان، فبعد أن علم الوالد ولده العلوم الكلاسيكية وفنون الأدب عن طريق المعلمين الخصوصيين والرسائل، رده الأيرل-الذي كان خبيراً بهذه العلوم والفنون-من الكتب إلى البشر. قال:
"يا صديقي العزيز، إن قلة قليلة من المفاوضين المشهورين هم الذين برزوا بفضل علمهم... فدوق ملبره الراحل، الذي كانت كفايته مفاوضاً تعدل على الأقل كفايته قائداً حربياً، كان جاهلاً جهلاً مطبقاً بالكتب، ولكنه كان خبيراً بالرجال، في حين ظهر أن جرونثوس العلامة كان وزيراً خائباً غاية الخيبة، سواء في السويد أو في فرنسا(101)".
فإذا شاء فليب أن يلتحق بالحكومة فينبغي له أولاً أن يدرس الطبقات الحاكمة، بينتهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وغاياتهم، ووسائطهم؛ وألا يقرأ غير أجود الأدب ليكتسب أسلوباً حسناً في الكتابة، لأن هذا أيضاً جزء من فن الحكم؛ وأن يلم بالموسيقى والفنون، ولكن، حذار أن يتطلع لأن يكون مؤلفاً أو موسيقياً(102). وينبغي له أن يدرس بعناية تاريخ الدول الأوروبية الحديث، ملوكها ووزرائها، قوانينها ودساتيرها، مالياتها ودبلوماسياتها، وليقرأ ما كتبه لاروشفوكو ولايروبير

صفحة رقم : 11703

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> تشستر فيلد

عن طبائع البشر، إنهما حقاً "كليبان"، ولكنك لن تخطئ خطأ كبيراً، في السياسة على الأقل، إن أنت توقعت من كل إنسان أن يسعى لتحقيق مصلحته كما يراها، ولنسيء الظن بأي سياسي يتظاهر بغير هذا. ولا نتوقع من الناس أن يكونوا معقولين، بل خذ في حسابك أهواءهم. "إن أهواءنا هي خليلاتنا، أما العقل فهو الحليمة على أحسن تقدير، يُسمع كثيراً جداً بلا ريب، ولكن نادراً ما يعبأ به(103)" تعلم أن تتملق، لأنه لا يمتنع عن الملق سوى أحكم الحكماء وأقدس القديسين، ولكن كلما صعدت وجب أن يكون تملقك أرفه وأحوط. وأدرس أنساب أهم الأسر، لأن البشر أكثر افتخاراً بأنسابهم منهم بفضائلهم(104). وتودد للنساء، أولاً لتحصل على معاونتهن، فحتى الحكام الأقوياء يتأثرون بالنساء الضعيفات، لا سيما إذا لم يكن أزواجهن.

أما في مسائل الجنس، فإن نصيحة تشستر فيلد لولده أضحكت الفرنسيين وروعت الإنجليز. فقد ذهب إلى أن طرفاً من العلاقات الغرامية الحرام إعداد ممتاز للزواج والنضج. واكتفى بالإصرار على أن تكون خليلات فليب نساء مهذبات، حتى يصفقنهن وهن يأتين معه. وزكى له مدام دويان لما كانت عليه من "حسن التربية ورقة الطبع(105)" ولقن ابنه فن الإغواء. فعليه ألا يقبل أي تمنع وهو مستسلم، لأن:

"أكثر النساء فضيلة لن يسوءها أن يبوح لها رجل بحبه، بل إن ذلك يشبع غرورها شريطة أن يكون بأسلوب مؤدب لطيف. فإذا استمعت إليك، وسمعت لك أن تقصص ثانياً عن حبك، فتق أنك إن لم تغامر بالباقي كله سخرت منك.. فإذا لم تلق منها أدناً مصغية فحاول ثانية، وثالثة، ورابعة. وثق، إذا لم يكن المكان قد احتل من قبل، إن في الإمكان غزوه(106)".

قد أفضى الأيرل، الذي لم يكن محظوظاً في الزواج ولا مولعاً به، إلى ولده برأيه في النساء، وهو رأي لم يكن بالحسن جداً:

"في هذا الموضوع سأفضي إليك ببعض الأسرار التي سيفيدك جداً أن تلم بها، ولكن عليك أن تحرص أشد الحرص على إخفائها وعلى ألا تبدو

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> تشستر فيلد

ملماً بها. فاعلم إذن أن النساء ما هن إلا أطفال كبار، فيهن ثرثرة مسلية، وأحياناً ذكاء، أما من حيث التفكير الرصين والإدراك السليم، فما عرفت في حياتي امرأة أتيج لها هذان، أو فكرت أو تصرفت منطقياً ولو أربعاً وعشرين ساعة كاملة.. والرجل الفطن إنما يلهو بهن، ويلعب معهن، ويلطفهن، ويتملقهن.. ولكنه لا يستشيرهن أبداً في الخطير من الأمور ولا ياتمنهن عليها وإن موّه عليهن كثيراً بأن يفعل الاثنين، وهو أشد ما يفخرون به في هذه الدنيا، لأنهن ولوعات بالتسلي بالتجارة (التي يفسدنها دائماً).. وليس هناك ملق يرينه فوق ما يستأهلهن أو دونه، إنهن يبتلعن أبلغ الملق في شراهة، ويقبلن أقله في شكر وعرفان، وفي وسعك أن تتملق أي امرأة مطمئناً، بادناً بقوة ذكائها ومنتهاياً بذوق مروحتها الرفيع. وخير ما تتملق به النساء الجميلات والقيحات جمالاً أو قبحاً غير منازع هو الإشادة بذكائهن(107).

وقال الأيرل أن النساء في فرنسا يجب تملقهن في مثابة وكياسة لسببين: فإن في استطاعتهن أن يقررن مصير الرجل في بلاط الملك، وأن يعلمنه لطائف الحياة وفنونها. فالنساء يحتقطن بسحرهن برشاقة الحركة والسلوك والحديث لا بجمالهن، فالجمال بغير الرشاقة لا يجتذب أي رجل، وأما الرشاقة بغير الجمال فما زالت لها القدرة على الفتنة. "إن النساء هن المهذب الأوحى لكفاية الرجال. صحيح أنهن لا يستطعن إضافة وزن لها، ولكنهن يصقلنها ويضيفن عليها بريقاً(108)". وحذر الأيرل ولده من الكلام بسوء عن النساء، فهذا أمر مبتذل، سوقي، أحمق، ظالم، لأن النساء اقترفن في هذه الدنيا من الأذى أقل كثيراً مما اقترفه الرجال. ثم إنه ليس من الحكمة أبداً مهاجمة "فئات بجمالها" أو طبقات أو جماعات، "فقد يصفح الأفراد، أما الهيئات والجماعات فلا(109)". ولم يمل تشستر فيلد من تلقين ولده أصول السلوك المهذب. "فالعادات المهذبة هي الوسيط الثابت المستقر للحياة الاقتصادية، كما أن نوع السلعة هو الوسيط المقرر في دنيا التجارة. والناس يتوقعون عائداً في الحالين على السواء، وهم لا يقدمون احترامهم لإنسان فظ، أكثر مما يقرضون مالههم لإنسان مفلس(110)".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> تشستر فيلد

ومما يعين في هذا المجال أستاذ رقص قدير، فهو يعلمنا على الأقل كيف نقعد، أو نقوم، أو نمشي دون تبديد في الجهد والطاقة. وإذ كان الأيرل أرسنقراطياً، فقد سمي السلوك المهذب "تربية طيبة"، فلقد تبين دون وعي منه، وربما محقاً، كيف يصعب على إنسان اكتساب العادات المهذبة دون أن يكون قد ربي في أسرة وتحرك في محيط لهما هذه العادات.

"إن من سمات الرجل الطيب النشأة أن يتحدث إلى من هم أدنى منه دون صلف، وإلى من هم أعلى منه باحترام ويسر (111)" فعلى المرء ألا يستغل علواً في المقام جاء وليد الصدفة.
"لا تستطيع أن تحسب، وأنا واثق أنك لا تحسب، أنك أرقى بحكم الطبيعة من ذلك السافواوي الذي ينظف حجرتك، أو الخادم الذي ينظف حذاءك، ولكن لك أن تغتبط، وبحق، لما حباك به الحظ دون غيرك. فاستمتع بتلك المزايا، ولكن دون إهانة أولئك الذين قضى القدر بحرمانهم منها، أو حتى الأتيان دون موجب بأي عمل قد يذكرهم بذلك الحرمان. وأقول لك عن نفسي أنني أشد حرصاً على سلوكي نحو خدمي وغيرهم ممن يدعون أدنى مني، مني نحو نظرائي، مخافة أن أتهم بتلك العاطفة القبيحة الوضيعة، وهي الرغبة في أشعار غيري بذلك الفارق الذي أوجده الحظ بيننا، ربما دون استحقاق على الإطلاق(112)".
والسلوك المهذب يصدق على العقل كما يصدق على الجسم، وكلا النوعين يتأثر بعشائرننا.
"هناك نوعان من الخلطاء المهذبين، الأول وهو المسمى المجتمع الراقى "beau monde"، وهم أصحاب الصدارة في قصور الملوك وفي الجوانب المرححة من الحياة، والثاني هم أولئك الذين يتميزون بكفاية خاصة، أو يتفوقون في فن أو علم خاص عظيم القدر. أما عن نفسي فقد ألفت أن أراني وأنا جالس إلى (الكاتب) أديسون أو (الشاعر) بوب في صحبة أشخاص يعلون عني علو جميع ملوك أوربا وأمراتها لو جلست إليهم(113)".

صفحة رقم : 11706

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> تشستر فيلد

ومن الحكمة أن يسلك المرء في كلتا الصحبتين بشيء من التحفظ، فلا يسرف في الكلام ولا يغالي في الصراحة، وأن يكون "من الحدق بحيث يخفي حقيقة دون أن يكذب"، وأن يبدو صريحاً وهو متحفظ:
"تظاهر بأنك مرتاب حتى حيث تكون على يقين من الأمر... وإن شئت أن تقنع غيرك فليبد عليك استعدادك للاقتناع. وأودع علمك كما تودع ساعتك جيباً خاصاً فلا تبرزه.. لمجرد الإعلان عن نفسك(114). وهم من هذا كله، احذر الحديث عن نفسك ما استطعت(115).
"وأمسك عن الحديث في الدين، فلو أنك أطربته لابتسم أصحاب الثقافة والحكمة، ولو ذمته لحزن الشيوخ الناضجون. وسوف يفيدك أن تقرأ تواريخ فولتير، ولكن احترس من جماعة "الفلاسفة" الذين يهاجمون الدين.
"لا يبد عليك أنك توافق على تلك الأفكار الإباحية التي تهاجم الأديان على السواء، أو أنك تشجعها أو تصفق لها، والتي هي الحديث الحقيقير المهلهل الذي يخوض فيه أنصاف العقلاء وصغار الفلاسفة. وحتى أولئك الذين بهم من الحمق ما يجعلهم يضحكون على نكاتهم، لهم وزعم ذلك من الحكمة ما يشككهم ويبغضهم في أخلاقهم، ذلك أننا حتى لو وضعنا الفضائل الخلقية في أسمى مكان لها، والدين في أدناه، فلا بد رغم ذلك من أن نعتزف للدين بأنه ضمان إضافي على الأقل للفضيلة، وكل إنسان حصيف يؤثر الركون إلى ضمانين خيراً من ضمان واحد. لذلك فأينما اتفق وجودك في صحبة أصحاب "العقول القوية" المزعومة هذه، أو في صحبة إباحيين عديمي التروي ممن يسخرون بالدين كله إعلاناً عن ذكائهم وظرفهم، فلا تدع كلمة أو نظرة تبدر منك دليلاً على أقل استحسان لما يقولون، بل على العكس من هذا فلتصحح رزانك الصامته عن كرهك له، ولكن لا تخض في الموضوع واجتنب مثل هذه المجادلات العقيمة النابية(116)".

صفحة رقم : 11707

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> تشستر فيلد

وفي 1752 تبين تشستر فيلد في التهجم على الدين أول مراحل الثورة الاجتماعية، "أنتبأ أنه قبل أن ينقضي هذا القرن لن تبلغ صناعة الملك والقسيس نصف ما بلغته من احترام إلى الآن(117)". وفي 1753، بعد ظهور "الموسوعة" المعادية لرجال الدين بعامين، كتب إلى ابنه يقول:

"إن أحوال فرنسا... تزداد خطورة، وفي ظني أنها ستمضي في هذا قُدماً كل يوم. فالملك محتقر... والأمة الفرنسية تفكر في أمور الدين والحكم بغير قيود، وهو ما لم تفعله قط من قبل، وقد بدأت تصبح "محايدة" في هذه الأمور؛ كذلك يفعل الموظفون، وباختصار توجد الآن في فرنسا، وتزداد كل يوم، جميع الأعراض التي صادفتها دائماً في التاريخ قبل وقوع التغييرات والثورات الكبرى في الحكم(118)".

وقد كون اثنان من قرائه، بعد دراسة ممتعة لصفحات تشستر فيلد الثمانمائة، رأياً ممتازاً عن عقله، إن لم يكن عن أخلاقياته. أما معاصروه الإنجليز فكانوا لعدم قراءتهم رسائله أميل إلى أن يسلكوه، دون ترو، في زمرة الأدباء الظرفاء لا الفلاسفة. وطابت لهم ملاحظته في مجلس اللوردات حين قال "من حقنا يا سادتي اللوردات أن نشكر السماء لأن لدينا شيئاً نركن إليه خيراً من أدمغتنا(119)". ورأوه يقامر مقامرة المستهترين أو الحمقى، وعرفوا أنه لم يكن مثلاً يحتذى في العفة (وهو ما اعترف به لولده). وقد وصف جونسون الغضوب "الرسائل" بأنها تغرس في النفس "أخلاق عاهرة وسلوك معلم رقص(120)". وفي هذا الحكم، كما في الكثير جداً من أحكام هذا "الخان الأكبر" بعض القصور والتحامل، فلقد كان تشستر فيلد يعلم الفتى أخلاق جيله وطبقته، وعادات المجتمع السياسي المتأدب، وعليناً أن ننذكر أنه كان يهيب ولده للدبلوماسية، وما من دبلوماسي يجروء على تطبيق المسيحية وراء حدود بلاده. غير أن الكثير من التعليم الخلفي الذي محضه فليب كان رغم هذا ممتازاً. "لقد طالما أخبرتك في رسائلي الماضية (وهو حق بكل تأكيد)

صفحة رقم : 11708

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> تشستر فيلد

أنه ما من شيء يكسبك احترام البشر وتقديرهم غير أشد ضروب الشرف والفضيلة صرامة وتدقيقاً(121)". وأغلب الظن أن نصيحته له في أمر الخليلات كانت محاولة لصرف الفتن عن الفوضى الجنسية. لاحظ هذا التحذير "أما عن الجري وراء النساء، فإن نتائج تلك الرذيلة إنما هي فقدان المرء أنفه، والتدمير الشامل لصحته، وطعنات السلاح تصيبه في حالات غير قليلة(122)". وقد ذهب جونسون نفسه، في لحظة غافرة، إلى أن "رسائل اللورد تشستر فيلد لولده قد يخرج منها كتاب لطيف جداً، وإذا انتزعت منه الجانب اللا أخلاقي، وجب أن يوضع في يد كل شاب مهذب(123)". وربما كان في "الرسائل" قصور في غرس مبادئ الشرف واللباقة والشجاعة والوفاء. ولكن ليس صحيحاً أن تشستر فيلد حسب الثراء أو المنصب فضيلة أو حكمة. وقد امتدح ملتن، ونيوتن، ولوك أكثر كثيراً مما امتدح سياسي زمانه، ورأينا ينشد صداقة خيرة كتاب عصره. وقد أوتي تقديرًا حاراً للأدب الجيد، حتى ولو لم يفتنه معجم من معاجم اللغة. وقد كتب هو نفسه إنجليزية لم يبيها كاتب في النثر المعاصر له، لغة بسيطة، قوية، واضحة، فيها من الخفة والمرح القدر الذي يكفي لتعويم الفكر الذي يثقله. وقد أثر الألفاظ الأنجلو سكسونية القصيرة المفعمة

بالحيوية رغم إحاطته بالكثير من اللغات، ووزارة علمه بالكلاسيكيات. وفي رأي فولتير أن الرسائل "أفضل ما كتب إطلاقاً في التربية" (124). ووصفها سانت جوف بأنها "كتاب غني، لا تقرأ فيه صفحة دون تحملك قراءتها على أن تتذكر ملاحظة سعيدة (125)".

ولو حكمنا على عمل ما بثمراته المباشرة لقلنا أن الرسائل فشلت. ذلك أن الفتى فليب ستانهورب لم يتغلب قط على روحه البليدة، وعاداته الرثة، وأسلوبه المتناقل، وحديثه المتردد، فبعد كل هذا الحث والحض، كما تقول فاني بيرني، "كان حظه من حسن التربية ضئيلاً كأبي رجل لقيته (126)". ويبدو أن انحرافاً سببه مولد الفتى أو ظرفه أبطل فعل خمسة أرتال من التعاليم. لقد كان فليب يعاني من معوق هو أن له أبا غنياً ومكاناً مضموناً ومريحاً، فلا خوف الجوع ولا كره الخضوع حفزه إلى الطموح والمغامرة؛ لقد افتقد الدفعة الحية للروح "vivide vis animi" كما قال له أبوه المغلوب على أمره

صفحة رقم : 11709

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الشعب -> تشستر فيلد

"تلك القوة التي تهزم الشباب وتثيرهم للإرضاء، والتألق، والتفوق (127)". ومن المؤثر أن نرى الأيرل المسن يصدق كل هذه النصائح الحكيمة والحب الأبوي فلا يجني غير هذه الثمرة الهزيلة. كتب لولده حين كان في الرابعة عشرة "ثق أنني سأحبك حباً جماً ما دمت تستأمله، ولكن لن أحبك لحظة واحدة بعد هذا (128)", على أن رسالته الأخيرة لولده بعد اثنتين وعشرين عاماً فيها حرارة المحبة والتوسل (129). ولم يمض عليها شهر حتى مات فليب في باريس (1768) وهو في السادسة والثلاثين تاركاً أرملة وولدين. فلقد تزوج دون علم أبيه، ولكن تشستر فيلد غفر له، وراح الأيرل الآن يكتب للزوجة التكلّي رسائل هي نماذج في المجاملة والاحترام (130). أما هو فكان في تلك الفترة كثير التردد على باث بعد أن أقعده النقرس وأصابه الصمم إلى حد محزن. "إنني أزحف في هذا المكان على أرجلي الثلاث، ولكن يعزيني عن محنتي هذه إخواني الزاحفون معي؛ إن نهاية لغز أبي الهول تقترب، وسأختم حياتي بعد قليل كما بدأتها، على أربع (131)". وقد اهتم بتربية حفيديه، ولا غرو فالأمل لا يخبو أبداً في الصدر العجوز. فلما عاد إلى ضيعته في بلاكهيث اتبع نصيحة فولتير وزرع حديقته فخوراً بشمامه وتقاحه، وقال إنه قانع بأن "يحيا حياة راكدة في صحبتها (132)". وكتب له فولتير رسائل معزية، مذكراً إياه بأن الهضم الجيد (الذي احتفظ به الأيرل) أجلب للذة من الأذان السليمة. وقابل النهاية بمرح لم يفتر. قال عن نفسه وعن صديقه اللورد تيرولي، وكان مثله شيخاً مقعداً، (وربما كان في قوله هذا متذكر فونتيل) "لقد كنت وتيرولي ميتين في السنين الأخيرتين، ولكننا لا نود أن يعرف عنا هذا (133)". ومات في 24 مارس 1973 بالغاً التاسعة والسبعين، غير عالم أن رسائله التي منع نشرها قد احتفظ بها ابنه وتركها في وصيته، وأنها بعد طبعها في العام التالي ستسلكه في عداد أساطين الحكمة الدنيوية وفحول النثر الإنجليزي.

صفحة رقم : 11710

الفصل الثالث

الحكام

1- جورج الأول

1727-1714

كان الإنجليز أكثر حدقاً من الفرنسيين في شئون الحكم، كما سيتبين ذلك عما قليل فولتير ومونتسكيو. فبعد أن قطعوا رأس ملك، وأرسلوا آخر يهرول رعباً عبر المانش، استوردوا الآن ملكاً خلف قلبه وعقله وراءه في ألمانيا، ملكاً يقضي الإجازات الطويلة في وطنه هانوفر، ولا يصعب أن يهيمن عليه برلمان لم يوفق هذا الملك قط في فهم أساليبه ولغته.

كان بيت هانوفر يمد جذوره في ألمانيا الوسيطة، ويرجع بنسبه الملكي إلى أدواق برونزيك-لونبورج، ثم إلى هنري الأسد (1129-95)، ومن قبله إلى أجداده الولف أو الجوليف. وقد أصبحت هانوفر نفسها إمارة ناخبة للإمبراطورية الرومانية المقدسة في 1692. وتزوج ناخبها الأول، ارنست أو غسطس، من صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك إنجلترا. وبعد موت ارنست أصبحت أرملته وريثة للعرش الإنجليزي بقانون تسوية الوراثة الذي أصدره البرلمان في 1701. ولكن ولدها جورج لويس، ناخب هانوفر الثاني، كدر هناة هذا الميراث السعيد بزواج تعس. ذلك أن زوجته صوفيا دوروثيا قد استنكرت خياناته، فدبرت أن تهرب مع الكونت فليب فون كوينجز مارك، قائد الحرس الجميل. واكتشف جورج المؤامرة، ولم يسمع بخير للكونت بعدها قط، وأغلب الظن أنه أعدم (1694). وقبض على صوفيا دوروثيا وحوكمت، وأبطل زواجها، وزج بها في السجن طوال الأعوام الاثني والثلاثين الباقية من عمرها في قلعة آلدن. وكانت قد ولدت لزوجها بنتاً أصبحت أم فردريك الأكبر، وولداً أصبح جورج الثاني ملك إنجلترا.

صفحة رقم : 11711

وماتت صوفيا، ناخبة هانوفر الأرملة، وفي 1714، قبل أن تموت الملكة آن، فقدت بذلك منصب الملك، ولكن ولدها نودي به على الفور ملكاً لبريطانيا العظمى وإيرلندا باسم جورج الأول. وفي سبتمبر وصل إلى إنجلترا، بادئاً عهداً جديداً في التاريخ الإنجليزي. وجلب معه ابنه وزوجة ابنه، وعددًا من المساعدين الألمان، وخليتين، شارلوت فون كيلمانريجي، التي خلع عليها لقب كونتيسة دارلنجن، والكونتيسة ميلوزينا فون در شولبورج، التي خلع عليها لقب كونتيسة كندال، وربما تزوجها. ولعل إنجلترا كانت متقبلة هذا الترتيب باعتباره متفقا وأخلاقيات ذلك الزمان، لولا أن كلتا السيدتين كانت في عيون البريطانيين قبيحة غالية التكلفة، فميلوزينا تبيع نفوذها بأثمان باهظة، حتى أن وليول شكها منها وهو رب الفساد والرشوة، وكان جواب جورج أن سأل وليول: ألا يتقاضى هو نفسه أتعاباً لقاء توصياته على طلاب المناصب(1)؟

في 1714 كان جورج الأول في الحادية والخمسين من عمره، فارغ الطويل عسكري السم، "رجلاً بسيطاً فظاً". لا يكثر مثقال ذرة للكتب، ولكنه كان قد أثبت بسالته في أكثر من ساحل قتال. وقد قالت الليدي ماري مونتاجيو في وصفه أنه "رجل أبله أمين(2)"، ولكنه لم يكن بالغباء الذي يبدو عليه، وقد اعترفت بأنه "كان طيباً على نحو سلبي، يود أن يستمتع الناس جميعاً بالهدوء لو أنهم تركوه يفعل ذلك(3)". وما كان أحد يتوقع أن هذا الرجل سيشر بالاطمئنان واليسر في بيئة غريبة عليه كهذه البيئة، ومنصب قلق كهذا المنصب. فلقد استأجرته أولجارية بريطانية ليحول دون رجوع الملكية الإستيوارتية مرة أخرى؛ ثم رأى أن هؤلاء الإنجليز المسيطرين، الذين هيمنوا على البرلمان، مصممون على الهيمنة عليه هو أيضاً؛ ولم يستطع أن يغتفر لهم تحديثهم الإنجليزية. واعتقد أنهم أدنى من عشرائه الهانوفرين. فاعتكف في خلوات قصر سانت جيمس، وهرب إلى هانوفر كل سنة تقريباً، وبذل ما وسعه من جهد ليوحده الأموال والسياسة الإنجليزية لحماية إمارته المحبوبة. وضاعف من محنته كره ابنه له لأنه اعتبره قاتلاً. ذلك أن جورج

صفحة رقم : 11712

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> جورج الأول

أوغسطس، الذي أصبح الآن أمير ويلز (ولي العهد)، ندد بسجن أمه المتصل، وتمرد على سطوة خليات الملك وغطرستهن، وتشاجر مع وزراء الملك، وأفصح عن آرائه في صراحة حملت أباه على إقصائه من القصر. واعتزل الأمير وزوجته كارولين، اللذان فصلهما أمر ملكي عن أبنائهما، ليفتتحا بلاطاً منافساً في قصر لستر (1717). ووفد عليهما نيوتن، وتشستر فيلد، وهرفي، وسويفت، وبوب، وسيدات المجتمع المغرور الأكثر حيوية ومرحاً، فوجدوا الأمير أشد فظاظاً وغباء حتى من الملك.

وكان هذا التصدع في الأسرة المالكة منسجماً في عمومته مع انقسام الأقلية الحاكمة والبرلمان إلى حزبي التوري (المحافظين) والهويجز (الأحرار). وقد قدر فولتير أن نحو ثمانمائة رجل هيمنوا على الحكم في المجالس البلدية، والانتخابات البرلمانية، والتشريع القومي، والإدارة والقضاء(4). وتوقف كل حديث مزعج عن الديمقراطية، كذلك الذي أثاره "مستقلو" كرومويل "والمسبون". وكان التصويت للبرلمان وفقاً على أصحاب الملكيات -وهم لم يتجاوزوا 160.000 في هذه الحقبة(5)- وهؤلاء كانوا عادة يقبلون المرشح الذي يركبه المالك الرئيسي للأرض أو اللورد(6) المحلي. وانتمى الساسة لأحد الحزبين حسب تأييدهم أما النبلاء أصحاب الألقاب، وأما للأعيان وأصحاب المصالح التجارية. فأما "رجال الكنيسة الأنجليكانية" فاتبعوا مذهب المحافظين، وأما المنشقون عن الكنيسة فأيدوا الأحرار. وكان المحافظون قد عارضوا في أن يخضع الملك للبرلمان، وتشبثوا مع الكنيسة الرسمية بنظرته حق الملوك الإلهي، وفكروا قبيل وفاة الملكة آن في رد الاستيوارتيين المنفيين إلى السلطة؛ أما وقد تربع بيت هانوفر الآن على العرش فقد كان طبيعياً أن يزيحهم الأحرار المعادون لأسرة استيوارت، وبينما كانت الوزارة إلى ذلك الحين تضم عادة رجالاً من

كلا الحزبين، نرى ورج الأول يقصر المناصب العليا على الأحرار، وهكذا أرسى نظام الحكم بواسطة الحزب عن طريق مجلس للوزراء. فلما توقف الملك بعد قليل عن رئاسة اجتماعات الوزارة لعدم فهمه الإنجليزية، أصبح العضو المهيمن "وزيراً أول" أو رئيساً للوزارة، وتقلد شيئاً فشيئاً المزيد من وظائف الملك وسلطاته.

صفحة رقم : 11713

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> جورج الأول

ورأس الوزارة جيمس ستانهوب سبع سنين. ومن أول قوانينه وأكثرها شعبية رده جون تشرشل، دوق ملبره-الذي اتهمه المحافظون من قبل لجميع مناصبه السابقة، خصوصاً القيادة العامة للجيش. وبعد عودة الدوق من منفاه اعتكف في قصر بلنهييم، وهناك عانى الالم المرض الطويل، ومات في 16 يونيو 1722، أما الأمة التي اغتقرت له مقتنياته وتذكرت انتصاراته المتعاقبة، فقد قبلت هذا الحكم الذي أصدره عليه بولنبروك-"لقد كان رجلاً عظيماً إلى حد لا أتذكر معه هل كانت له أخطاء أو لم تكن(7)". وأما أرملته، وهي سارة تشرشل التي ظلت عشر سنوات تحكم حكم الملكات، فقد أنفقت اثنتين وعشرين سنة تقديس ذكراه وتذود عنها. فلما طلب الدوق سمرست يدها أجابت "لو أنني عدت صبية جميلة كما كنت، لا عجوزاً ذابلة كما أنا الآن، ولو كان في وسعك أن تطرح ملك الدنيا بأسرها تحت قدمي، لما استطعت أبداً أن تقتسم قلباً ويبدأ كانا في يوم من الأيام ملكاً لجون تشرشل(8)". وفي 1743، قبل وفاتها في الرابعة والثمانين بعام، فكرت في إحراق رسائلها الغرامية القديمة، ولكنها حين أعادت قراءتها شعرت "بأنني لم أستطع أن أحرقها"، فتركها لتعيش(9). ولا بد أنه كان هناك خير كثير في امرأة استطاعت أن تحب بهذا القدر من الوفاء، وفي رجل استطاع أن يظفر بمثل هذا الحب من امرأة عصية إلى هذا الحد.

وحل بولنبروك محل ملبره في المنفى. ذلك أنه بعد أن طرده جورج الأول من الحكومة، وهدد بتقديمه إلى المحاكمة بتهمة التفاوض سراً مع الأسرة المالكة التي سقطت، وكرهه الأحرار والمنشقون عن الكنيسة الذين وخزهم بسخريته وخزراً موجعاً، واجتنبه رجال الكنيسة لآزدرائه اللاهوت المسيحي-بعد هذا كله فر إلى فرنسا (مارس 1715)؛ وانضم إلى جيمس الثالث، وأصبح وزير دولة لدولته التي لا وجود لها، وعاون على تنظيم تمرد استيوارتي في إنجلترا، واقترح غزوها من فرنسا. فأعلن البرلمان إدانته بالخيانة، وصادر ثروته، وحكم عليه بالإعدام. وأوشكت حركة رد الاستيوارتيين أن تطيح بعرش جورج الأول،

صفحة رقم : 11714

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> جورج الأول

فالمحافظون الكارزون للهانوفرين لأنهم أحلاف غاصبون؛ وعامة الناس في إنجلترا، الراسخون في الولاءات القديمة، والتواقون سراً للأسرة المنفية؛ وطبقات إسكتلندا العليا والدنيا، الفخورة بأنها أعطت إنجلترا ملكاً إسكتلندياً،

الضيقة أشد الضيق بقانون الاتحاد (1707) الذي قضى على البرلمان الاسكتلندي كل أولئك كانوا على استعداد للتحريض على غزوة يقودها الشاب الذي اعترف به لويس الرابع عشر ملكاً شرعياً أوحد على إنجلترا. وكان جيمس فرانسيس ستيوارت قد بلغ الآن (1715) السابعة والعشرين، وإن عرفه التاريخ باسم "المطالب المسن بالعرش". كان قد ربي في فرنسا، وأشرية المذهب الكاثوليكي معلمه الرهبان ومعاناة أبيه جيمس الثاني إشراباً رفض معه حجة بولنبروك الذي زعم له أنه سيقوى الميل لأسرته في إنجلترا إذا هو وعد باعتناق البروتستنتية. قال له بولنبروك وهو يحاوره، كيف يمكن حمل الاسكتلنديين المشيخيين (أتباع كلفن)، والانجليكان المحافظين، على تأييد رجل يأتي إلى عرشهم بالمذهب الذي قاتلوا للإطاحة به وال قرن حافل بأشد الاضطراب؟ ولكن جيمس كان صلباً لا يلين، فصرح أنه يؤثر أن يكون كاثوليكياً بغير عرش، على أن يكون ملكاً بروتستنتياً. أما بولنبروك، البريء من الإيمان والمبادئ، فقد حكم على جيمس بأنه أصلح للرهبنة منه للملك (10). وكان البرلمان خلال ذلك (أغسطس 1714) قد عرض دفع 100.000 جنيه مكافأة لمن يقبض على جيمس الثالث إذا وطئ تراب بريطانيا. ثم بدا أن عاملاً شخصياً يحول الأحداث إلى خدمة قضية المطالب بالعرش، ذلك أن جون ايرسكين، إيرل مار، كان وزيراً لشؤون إسكتلندا في السنوات الأخيرة للملكة آن. فلما طرده جورج الأول، وضع الخطط لثورة استيوارتية في إنجلترا، ثم أبحر إلى إسكتلندا واستتفر الاسكتلنديين لينضوا تحت لواء ثورته (6 سبتمبر 1715) وظاهره نفر من النبلاء، فارتفع عدد قواته إلى ستة آلاف راجل وستمائة خيال؛ ولكن أدنبره وجلاسجو والسهول الجنوبية ظلت موالية للملك الهانوفرى. وقررت الحكومة البريطانية الإعدام عقاباً للخيانة

صفحة رقم : 11715

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> جورج الأول

ومصادرة الملكية لجميع العصاة. وعبأت ثلاثة عشر ألف رجل، ودعت ستة آلاف آخرين للأسطول، ثم أمرت دوق أرجيل قائد حاميتي أدنبره وستيرلنج بأن يخمد التمرد. فالتقى بقوات مار عند شريفموير (13 نوفمبر 1715) في معركة لم يستطع أي الفريقين أن يدعى لنفسه فيها نصراً حاسماً. وتقدمت قوة اسكتلندية أخرى في تهور إلى ثلاثين ميلاً من ليفربول بدلاً من أن تتضم إلى مار، مؤملة عبثاً أن تثير وتحمي حركات التمرد الاستيوارتية في المدن الإنجليزية. وفي برستون طوقها جيش حكومي وأكرهها على التسليم دون قيد أو شرط (14 نوفمبر). ولا بد أن جيمس الثالث كان على علم بهذه الأحداث قبل أن يلق من دنكرك في 27 ديسمبر. وكان بولنبروك قد أذره بأن ثورة استيوارتية لن تنشب في إنجلترا. ولكن المطالب بالعرش دفعة للمضي في هذه المغامرة إيمانه بالشرعية الإلهية لقضيته، مضافاً إليه 100.000 كراون من الحكومة الفرنسية وثلاثين أفلاً من الفاتيكان. فلما رسا على أرض إسكتلندا انضم إلى جيش مار في بيرث، ووضع الخطط لحفل تتويج مهيب في "سكون". ولكن صمته واكتنابه، وشكواه من أنه خدع في مدى انتشار التمرد، كل أولئك لم يضيف شيئاً إلى حماسة الاسكتلنديين، فشكوا بدورهم من أنهم لم يروه قط بيتسم، ونادراً ما سمعوه يتكلم (11). أضف إلى ذلك أنه كان يرتعد من الملاريا، ولم يحتمل شتاء الشمال. ورأى مار أن جنده لا يصلحون للمعركة، فأمرهم بالنقهر إلى مونتروز، وبحرق جميع المدن والقرى والمحاصيل في أثرهم لتعطيل أرجيل عن مطاردته. وأسف جيمس على هذا التدمير، وترك نقوداً ليعوض بعض ما خسر أولئك الذين تضررت أملاكهم. فلما اقترب جيش أرجيل الذي كان متفوقاً جداً من مونتروز فر جيمس، ومار، وغيرهما من قادة الثورة مسرعين إلى الساحل، وأبحروا إلى فرنسا (4 فبراير 1716). واستسلمت القوات الثائرة أو تفرقت في كل مكان.

ورحل معظم الأسرى ليخدموا عبيداً في المستعمرات، وأعدم سبعة وخمسون، وتقرر إعدام اثني عشر نبيلاً اسكتلندياً التجأوا إلى فرنسا، إذا عادوا منها. وكان جيمس قد راوده الأمل في أن يرسل فليب أورليان

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> جورج الأول

جنوداً يخفون لنجدته في إسكتلندا، ولكن فرنسا كانت الآن تفكر في التحالف مع إنجلترا، فحث جيمس على أن يرحل عن أرض فرنسا. ومن ثم أقام حيناً في أفنيون البابوية، ثم في روما. وبقي ولنبروك في فرنسا حتى 1723، وإذ كان يجيد الفرنسية فإنه انطلق على سجيته في الصالونات بين الفلاسفة. وكان يحذق كل شيء إلا السياسة، فاشترى أسهماً في مشروع لو، ثم باعها بربح كبير قبل أن تنفجر "الفقاعة". وإذ كان قد ترك زوجته في إنجلترا، فإنه اتصل اتصالاً كاد يكون شريفاً بماري ديشان دمارسيي، وهي مركيزة فيليب الأرملة. وكانت في الأربعين، وهو في الثامنة والثلاثين. وكانت ككثيرات جداً من النساء الفرنسيات قد احتفظت بجاذبيتها مع أنها فقدت بعض جمالها، ولعل تهذيبها وحيويتها وذكاءها هو ما جذبها إليها، فعشقها، ولما ماتت الليدي بولنبروك تزوج المركيزة، وذهب ليعيش معها في لاسورس. وهناك زاره فولتير كما سبق القول (1721)، قال الفيلسوف الشاب "وجدت في هذا الإنجليزي الشهير كل علم أمته، وكل أدب أمتنا(13)".

على أن قمع الثورة كان قد أطاح برعوس بعض النبلاء، ولكنه لم ينتقص من العطف على الاستيوارتيين في بريطانيا. وقد قضت القوانين الثلاثية الأعوام التي صدرت في 1641 و1694 بألا يستمر أي برلمان أكثر من ثلاث سنين. ومن ثم واجه أول برلمان لجورج الأول في 1717 احتمال انتخابات قد تعود أغلبية فيها للمحافظين والمنتشيعين للاستيوارتيين. وتقادياً لهذا الخطر قرر البرلمان، بمقتضى قانون السبع السنين الذي أصدره في 1716، أن يمد في عمره أربع سنوات أخرى، وقضى بأنه يجوز بعد ذلك لجميع البرلمانات أن تستمر سبع سنين. قال ألمع حفده مليره "كان هذا أجراً وأكمل تأكيد لسيادة البرلمان عرفته إنجلترا إلى ذلك الحين(13)". وصدق جورج الأول على القانون الجديد لخشيته هو أيضاً من فوز المحافظين، وكان معنى هذا فعلاً أن الهانوفرين اضطروا للتخلي عن سلطتهم لكي يملكوا.

ورغبة في المزيد من الحماية للأسرة المالكة الجديدة أبرم ستانهوب

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> جورج الأول

مع فرنسا وهولندا (1717) حلفاً ثلاثياً أنهى التأييد الفرنسي لمطالب أسرة ستوارت، والتأييد الإنجليزي لأسبانيا ضد فرنسا. وفي 1720 وقعت فرنسا صلحاً ينطوي على الخضوع، واستطاع جورج الأول أن يتربع على عرشه الأجنبي في السنين السبع الباقية له من أجله بقدر أكبر من الاطمئنان. وفي 1726 أرسلت إليه زوجته التي ما زالت حبيسة خطاباً مرأ، وتحذته أن يلقاها بعد عام أمام كرسي قضاء الله. وما لبثت أن ماتت بالحمى المخيبة. وتقول رواية أن عرافاً تنبأ بأن جورج الأول لن يعمر أكثر من عام بعد زوجته. ففي 1727 بدأت صحة الملك تتدهور. وفي يوليو

غادر إنجلترا ليزور بلده الحبيب هانوفر. وقرب أوزنابروك ألقيت في عربته ورقة مطوية، وكانت تحوي لعنة تركتها له زوجته وهي في النزاع. فلما قرأها الملك اضطرب اضطراباً شديداً، وما لبث أن قضى نحبه في 11 يونيو (14).

صفحة رقم : 11718

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> جورج الثاني والملكة كارولين

2- جورج الثاني والملكة كارولين

وتلقى ابنه وعدوه النبأ كأنه القصاص العادل الذي أصدرته العناية الإلهية وأمهلته تنفيذه إهمالاً غير معقول. وحين قدم رئيس أساقفة كنتبري لجورج أوغسطس وصية الملك الراحل حشاها في جيبه ولم يذعها قط. وقال بعضهم إنه تكتم أمرها لأنها اقترحت الفصل بين تاجي هانوفر وإنجلترا، وزعم آخرون أنها تركت لحفيده فردريك لويس، ولخيلته أو زوجته دوقة كندال، ولابنته ملكة بروسيا، مبالغ كبيرة كانت كفيلة بالانتقاص من ثروة الملك (15). ولكن التاريخ يجهل الحقيقة.

كان جورج الثاني كأبيه جندياً باسلاً، ففي الخامسة والعشرين أبلى بلاءً حسناً تحت قيادة يوجين وملبره في معركة أودينارد (1708)؛ وفي الستين سيقود جنده إلى النصر في ديتنجن (1743). وكثيراً ما كان ينقل عادات المعسكر إلى البلاد، فيصيح غاضباً، ويغدق على وزرائه نعتاً مثل "الأوغاد" و "الشديدي الغباء" و "المهرجين (16)" ولكنه جاهد ليتقن صناعة الملك، وتكلم الإنجليزية دون خطأ وإن شابتها لكنه وستفالية ثقيلة (17)، ولاحظ في ضيق ولكنه في حذر تلك القبول

صفحة رقم : 11719

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> جورج الثاني والملكة كارولين

التي فرضها البرلمان على سلطاته ودخله، وظل ثلاثة عشر عاماً يساند وليول في جهوده لتمكين جون بول من إيفاء ديونه ونشر السلام في ربوعه. وكان كأبيه كثير التردد على هانوفر، الأمر الذي أبهج كل من يعنيه الأمر. ثم تشاجر كأبيه مع أمير ويلز (ولي العهد) لأنه "كان من بعض تقاليد الأسرة الموروثة كراهية الابن البكر (18)" كما قال هوراس وليول. وكان له كأبيه خليلات، ولو لمجاراة المجتمع العصري، ولكنه على عكس أبيه أحب زوجته حباً جماً. كانت كارولين، ابنة الحاكم جون فردريك أمير برندنبورج-أنزباخ، قد نشأت في بلاط شارلوتتبورج، وهو بلاط أخت جورج الأول، صوفياً شارلوت، أول ملكة على بروسيا. وهناك التقت بليبنتر واستمتعت بمناقشات الفلاسفة،

و اليسوعيين، واللاهوتيين البروتستنت، وبلغت درجة فاضحة من التحرر والتسامح الدينيين. وقد عرض عليها شارل السادس، الإمبراطور "الروماني المقدس" يده وعقيدته، فرفضتها جميعاً، وتزوجت (1705) من جورج أوغسطس، أمير هانوفر الناخب "القصر القامة الأحمر الوجه(19)"، وظلت وفيه مخلصه له على النهاية رغم حدة طبيعه وطبعها، وخلال كل عثراته وخليلاته. وكان جورج يعنف في معاملتها، ويكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقته الغرامية، ولكنه كان يحترم عقلها وخلقها احتراماً كفى لتركها تحكم إنجلترا (بمساعدة لبلول) خلال فترات غيابه الطويلة، وتوجه سياساته حين يعود.

ولم يكن لها فيما عدا شبابها البض النضر من مفاتن الجسد التي تسيطر بها على زوجها غير يدين حلوتين، وبعض لطائف في السلوك والحديث؛ ولكنه كان معجباً بتكوين صدرها، وأمرها أن تعرضه عرضاً مقنعاً(20). وازدادت بدانة مع كل حمل، وترك الجدي في وجهها ندوباً، وكان صوتها عالياً صادراً من الحنجرة، وكانت تحب الدس وتولع بالسلطة. ولكن الإنجليز بدعوا شيئاً فشيئاً يحبون دعابتها الصادرة من القلب، وأدركوا آخر الأمر أي تضحية من صحتها وسعادتها كانت تيدل لتكون زوجة وملكة صالحة؛ ورأى مفكرو إنجلترا في دهشة أن هذه البرندنبورجية الجلفة كانت تملك ذهنًا وأدناً يتدوقان

صفحة رقم : 11720

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> جورج الثاني والملكة كارولين

أدب العصر، وعلمه، وفلسفته، وموسيقاه.
وكان بلاطها يستحيل صالوناً. فقد استقبلت فيه نيوتن، وكلارك وباركلي، وبطلر، وبوب، وتشستر فيلد، وجاي، والليدي ماري مونتاجيو. وأيدت المبادرة التي اتخذتها الليدي ماري في التطعيم ضد الجدري. وانتشلت ابنة لملتن من وهدة الفقر، وناصرت هندل طوال نزوات الجمهور والملك. وتبرعت من جيبها الخاص بالمال اللازم لتشجيع المواهب الشابة التي تفتقر إلى المال(21)، وأنقذت المهرطق هويستن بمعاش أجرته عليه، وأمنت الحرية الدينية للاسكتلنديين المتشيعين لأسرة ستيوارت ودبرت تعيين الأساقفة الأنجليكان على أساس علمهم لا سلامة عقيدتهم. وكانت هي نفسها من القائلين بالربوبية المتشككين في الخلود(22)؛ ولكنها رأت أن الكنيسة الرسمية يجب أن تمولها الدولة باعتبارها معيناً للشعب على الفضيلة والهدوء(23). قال فولتير "لا شك أن هذه الأميرة ولدت لتشجيع الفنون ولخير النوع الإنساني.. إنها فيلسوفة لطيفة تتربع على عرش(24)".
وكان لها من الفلسفة حظ بصرها بالجانب الفكه في مآسي الحياة، حتى في ساعة احتضارها. وكانت مصابة إصابة قاتلة بفنق أخفته طويلاً عن الجميع إلا الملك، فنصحته وهو يومها في الخمسين بأن يتزوج ثانية بعد موتها. وكشف جوابه، وهو مخلص في حزنه، عن طبيعة عصره "لا، سأأخذ خليلات" قالت "رباه، هذا لا يمنعك من الزواج(25)" وقد بكاه في عاطفة لم تعهد فيه فقال "لم أر قط امرأة تستحق أن تربط حذاءها(26)". وبعد ثلاثة وعشرين عاماً، وتنفيذاً لوصيته، فتح نعشها في كنيسة وستمنستر لترقد عظامه إلى جوارها.

صفحة رقم : 11721

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> روبرت ولبول

3- روبرت ولبول

لقد كان لانتصارها الباسل لولبول أمام عصابة من الأعداء طلاب المناصب وتجار الحروب الفضل في تمكينه من أن يعطي إنجلترا عشرين عاماً من الرخاء والسلام. ولم يكن ولبول "بالولي" أو القديس، ولعله كان أفسد وزير عرفته إنجلترا في تاريخها، ولكنه كان أيضاً من خيرة

صفحة رقم : 11722

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> روبرت ولبول

وزرائها ففي ذلك العصر الفاسد ما كان للحكم أن تحكم إلا عن طريق الرشوة والفساد. كان روبرت قد نذر للكنيسة باعتباره أصغر الأبناء في أسرة نورفوكية عريقة، وفي ايتن التي زامل فيها غريمه المستقبل بولنبروك كان هذا هدف دراسته. ولكن موت اخوته الكبار جعله الوريث لثروة الأسرة؛ ولما كانت الأسرة تسيطر على ثلاث دوائر انتخابية، فإنه لم يجد عناء في التحول بنجاح من اللاهوت إلى السياسة. وحين بلغ الخامسة والعشرين دخل مجلس العموم عضواً في حزب الأحرار (1701)، وعين وزيراً للحرب (1708) بفضل اتصالاته، وماله، وذكائه الحاضر، وتمكنه من المالية الإدارية. وفي 1712 عزله المحافظون الفائزون، وزجوا به في برج لندن بتهمة الفساد، ولكن رائحة الذهب كانت قد غدت من الثبات وقوة السلطان بحيث أحدثت تبديلاً في الأتوف فلم يلبث أن أفرج عنه، وأعيد انتخابه، وعين وزيراً للخزانة (715). وحملته تعقيدات السياسة على الاستقالة في 1717. وفي 1720 أقنع انهيار شركة بحر الجنوب وتبرير إنذاراته الجميع حتى خصومه بأنه أصلح الرجال لرد إنجلترا إلى حالة الاستقرار المالي. فلما عاد إلى منصب وزير الخزانة (1721) أوقف حالة الذعر كما سبق القول، بوضعه مصرف إنجلترا ظهيراً لالتزامات الشكّة، وسدد بالتدريج كل دين الشركة للشعب وقدره 7.000.000 جنيه (27). وكافاً المقامرون الشاكرون ولبول باثنين وعشرين عاماً من السلطة. وقطع اعتلاء جورج الثاني العرش سلطان ولبول برهة. ذلك أن الملك الجديد قد أقسم ليكون خصماً لدوداً لكل من خدموا أباه؛ فعزل ولبول، وطلب إلى السير سينسر كونتن أن يشكل وزارة جديدة. ولكن سرعان ما أظهر كونتن قصور مواهبه واعترف به. فنصحت كارولين زوجها بأن يرد ولبول الذي دعم حجتها بوعده الملك والملكة براتب أكبر. وقبل السير سبنسر لقب الأيرل شاكراً، واستعاد ولبول حكمه. وكان أول من أطلق عليه لقب "الوزير الأول"، على سبيل التحقير (كما كانت الحال في أفاظ "المسيحي"، و"البورتاني")

صفحة رقم : 11723

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> روبرت ولبول

و"المثودي"). وكان أول رئيس للوزراء يتخذ داوننج ستريت قصرًا رسمياً له. ويلقي خلقه بعض الضوء على فن النجاح السياسي. فهو لم ينفق في الجامعة غير سنة، وكان ضعيفاً من حيث الإعداد التعليمي المعهود في رؤساء الوزارات البريطانيين. ولم يكن في سلوكه أو كلامه كبير تأنق. يقول ماكولي إنه "إذا كف عن حديث السياسة لم يستطع أن يتحدث إلا عن النساء، وكان يفيض في موضوعه المحبب بحرية صدمت حتى ذلك الجيل الذي لم يتحرج في ألفاظه(28)". ولم ير ابنه هوراس أن فيه قصوراً لأنه لم يقرأ من الكتب إلا القليل، "فلقد عرف البشر، لا كتاباتهم، واسترشد بمصالحهم لا بنظمهم(29)". وكان ملماً بقدر من اللاتينية يكفي لاستعمالها وسيط تفاهم بينه وبين جورج الأول، لأن ذلك الملك كان يجهل الإنجليزية، ولبول لم يعرف إلا الألمانية ولا الفرنسية. وكانت له صفات جون بول، اللهم إلا المشاكسة، فهو بدين، صريح، مخلص، ودود، عملي، يستمتع بالولائم والشراب، ولكنه يكذ ويكذب إذا دعاه داعي العمل؛ وربما كان فيه أيضاً من أوجه الشبه بجون بول أنه أثر خشخشة كبسه على صليل سيفه.

أما الأخلاق فلم يكذب بملك منها أي حظ. فقد عاش سنين في زنا مفضوح دون أن يبدي كبير احترام للياقة المهذبة التي تراعيها الأرستقراطية في رذيلتها. وكان يمزح مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها، فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليسرين عن الملك المحزون. وكان يسخر من الدين، وحين دنت منية كارولين أرسل في طلب رئيس أساقفة كنتز بري قائلاً "لا بأس بتمثيل هذه المهزلة، وإن رئيس الأساقفة لكفيل بحسن تمثيلها. ولكم أن تطلبوه بأسرع ما تريدون. فلن يضر الملكة، ولن ينفعها، وسيرضي هذا جميع المغفلين العقلاء الطيبين، الذين سينعتوننا بالكفر إذا لم نتظاهر بأننا مثلهم من كبار المغفلين(30)". ولم يكثر للدوافع النبيلة أو إدعاءات التجرد من الأناثية. وقد توسل بمنصب الدولة لجمع ثروة خاصة كما فعل ملبره. ووجد المناصب السياسية المجزية لولده هوراس وغيره من ذوي قرباه. وأنفق

صفحة رقم : 11724

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> روبرت ولبول

200.000 جنيه ليشيد بيوتاً فخمة في ضيعة بهوتون، وزينها بلوحات قدرها هوراس بمبلغ 40.000 جنيه، وكان بيته فيها مفتوحاً لأهل نورفوك جميعاً(31). وكان في سخاء جون بول لأنه (إذا صدقنا خصومه) لم يستطع أن يفرق تقريباً واضحاً بين مال جون بول وماله الخاص.

واستعمل المال ليشترى أعضاء البرلمان كما استعمله ريشليو ليشترى الجيوش، وهنري الرابع ليسكت الأعداء. وكان ولبول يستخدمه ملاذاً أخيراً بعد أن تعييه الجحج الأكثر ليناً. ذلك أن الفساد البرلماني الذي ظهر في عهد تشارلز الثاني بلغ النقطة التي لم يمكن عندها التعامل مع البرلمان، خيراً كان الهدف أم شراً، إلا "بالتشحييم" على نطاق واسع. واحتفظ ولبول باحتياطي سري وحتى بحجرة خاصة لشراء الكراسي والأصوات ومحرري الصحف، وقيل أنه أنفق 50.000 جنيه كل عام لإعانة الدوريات لتشرح وجهة نظره(32). وفي 1725 حث جورج الأول على إنشاء "وسام الحمام الأسمى" الذي يتألف من الملك، ورئيس أكبر، وستة وثلاثين فارساً من الزملاء، فقد رأى لولبول، كما رأى نابليون من بعده، أن حكم الرجال بالأوشحة أقل تكلفة من حكمهم بالمال.

وقد استخدم هذه الأساليب الفاسدة ليحتفظ لإنجلترا بالرخاء والهدوء. ولم تبرر غاياته وسائطه، ولكنها كشفت عن الجانب الأفضل في خلقه. فلقد كان رجلاً حسن النية، عقد العزم على أن يحفظ لبلده الاستقرار والثبات رغم كل زعازع السياسة الحزبية، وأنواء المصالح الطبقية، وصيحات غلاة الوطنية المطالبين بالحرب. وقال إن شعاره أن يترك الشرّ نائماً. وإذا كان هذا المبدأ قد ترك حكمه غير متميز بفتوح أو إصلاحات، فإنه اكتسب ثناء المنصفين. واضطر خصومه إلى الاعتراف بأنه لم يكن محباً للثأر ولا حقوقاً، وأنه كان أجدر بالثقة، لا بل أكثر إيماناً، في صداقاته مما ينتظر من إنسان خبر جوانب البشر الأكثر انحطاطاً (23). ولم يكن لديه خطط بعيدة للمجد والعظمة، ولكنه عالج كل مشكلة حين تعرض له بالكثير من الدهاء والتسامح واللباقة، حتى اغتفرت له إنجلترا في النهاية كل أخطائه إلا حبه للسلام. وقد وفق تشريعه الاقتصادي بين الأعيان وملاك الأرض وطبقة

صفحة رقم : 11725

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> روبرت ولبول

رجال الأعمال. فحاول أن يخفض الضرائب على الأرض، وأيد العقوبات الصارمة على العدوان على الملكية. ثم رحب في الوقت ذاته بظهور الرأسمالية. وخص التجار ورجال الصناعة بمنح التصدير ورسوم الاستيراد، وبدا غير مكترث لفقر العمال المحرومين من الأرض في القرى، والبرولتاريا المتكاثرة في المدن؛ والظاهر أنه أحس أن سوء توزيع الثروة نتيجة لا مفر منها لسوء توزيع الطبيعة للكفايات. وإذا استثنينا تلك المنح والرسوم فإنه نادى بسياسة حرية التجارة قبل الفزيوقراطيين الفرنسيين وأدم سميث بزمن طويل؛ وقد خفض الضرائب على 106 سلعة تصدير في سنة واحدة، وعلى ثمان وثلاثين سلعة استيراد، وأزال الكثير من القيود على تجارة المستعمرات الأمريكية، وكان رأيه أن الاقتصاد الإنجليزي يزكو في ظل أقل القليل من التشريع الحكومي. وقد برر الزمن رأيه، فنمت الثروة القومية بسرعة رغم ما شابها من سوء توزيع، وزادت إيرادات الحكومة، وبفضل التصرف فيها بقصد وكفاية كسب ولبول الثناء عليه باعتباره "خير وزير للتجارة أنجبته البلاد (34)".

على أن مشروع قانونه الخاص بضريبة الإنتاج مني بأفدح الهزائم (1733). ذلك أن مهربي التبغ والنبيد كانوا يحرمون الخزنة من الرسوم الجمركية، ويحملون الملكيات بأكثر من نصيبها في الضرائب. ونقادياً لهذا الضرب من المشروعات الحرة اقترح ولبول ضريبة إنتاج (وهي شريحة "تجنب" للحكومة) تقرض على هذه السلع حيثما اختزنت أو بيعت في إنجلترا. وخول لموظفي الضرائب ("رجال الإنتاج") أن يفتشوا أي بيت في أي وقت، وكان الأشخاص الذين يتضح أنهم أخفوا سلعة خاضعة للضريبة يعاقبون بالغرامة أو السجن. وهب إلى الاحتجاج كل من له صلة باستيراد التبغ أو النبيذ أو تهريبهما أو بيعهما أو استهلاكهما. وندد خصوم ولبول في مجلس العموم بالضريبة، وطريقة تنفيذها، قائلين إنها إجراء تعسفي من طاغية مستبد، وعدوان فظيع على الحرية البريطانية. "لقد أخبر أعضاء البرلمان ولبول بأنهم لا يرون بأساً في أن ينقدهم أجراً على شروهم العادية، أما هذا الاقتراح فهو يتجاوز حدود فسادهم (35)" كما أوضح فردريك الأكبر -أو لعلمهم أملوا أن يحلوا محله في الإشراف على

صفحة رقم : 11726

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> روبرت وليول

المال العام. وراحت النشرات من آلاف النسخ تسبب الوزير بلغة سوقية مفعمة بالحماسة. وتقاطرت الحشود حول وستمنستر هول، وأحرقوا دمي تصور وليول في عشرات الحرائق، وحاول تمزيقه إرباً وهو يغادر كنيسة القديس ستيفن؛ لقد استثيرت الأمة إلى شفا الثورة. وخافت الملكة كارولين على ولاء الجيش، وارتعدت فرقاً على سلامة الأسرة المالكة الجديدة. وسحب وليول القانون مسلماً بالهزيمة، ومن هذه اللحظة اضمحل سلطانه. وتكثرت خصومه ليجهزوا عليه.

صفحة رقم : 11727

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> بولنبروك

4- بولنبروك

وكانوا خصوماً كثيرين متنوعين. فتأمرت جماعة منهم ما زالت منشعبة لأسرة ستيوارت، مع المطالب بالعرش، وسنراها بعد قليل تنتشي بمغامرة "الأمير الجميل الشاب تشارلي "Bonnie Prince Charlie". و "شلة" أخرى راحت ترقص حول فرديريك لويس، أمير ويلز (ولي العهد)، عدو الملك ووريثه. وكان أعظم كتاب العصر الإنجليز يناوئون الوزير سويفت، وبوب، وفيلدنغ، وأربنتوت، وطومسن، وأكينسايد، وجاي؛ تهكموا بسلوكه، وفضحوا أخلاقه، وعابوا سياساته، ولاموه على قطع تلك المعونة السخية التي كانت تغدق على المؤلفين والتي تقدرت بها الحكومة في عهد وليم الثالث والملكة آن. أما المحافظون المتعطشون لرحيق المنصب فقد استعدوا عليه أصحاب السلطان سراً، واستعانوا بالشعراء وأثاروا ثائرة البرلمان في عزمهم على أن يخلفوا هذا الوزير الشبيه بفولستاف على مزود الوزارة. وعبر وليم بلنتي، وتشترفيلد، وبت الصاعد، بأصواتهم عن قضيتهم، ودافع عنها بولنبروك في غير هوادة بقلمه القتال.

وكان بولنبروك قد نال في 1723 عفواً ملكياً يسمح له بالعودة إلى إنجلترا واستعادة أملاكه، ولكنه أبعد بنفوذ وليول عن ناصب الدولة وعن عضوية البرلمان باعتباره رجلاً تعددت خياناته وشك في ولاءه. على أن هذا لم ينتقص من سلطانه. ففي بيته بلندن التقت صفوة إنجلترا، مفتونة بوسامته وألمعيته وعبير اسمه. هناك، وفي بيته الريفي، راح يتراشق بالسخریات مع سويفت، وبالهرطقات مع

صفحة رقم : 11728

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> بولنبروك

بوب، وبالأغاني الشعبية مع جاي؛ وهناك أفضل ناضل ليوحد بين المحفظين الجياح وبين الأحرار الذين لم يظفرهم بما يشبههم من الرشا، في معارضة منكملة ضد وليول؛ وهناك نظم محرري وبرنامج مجلة-سميت أو لا (1726) "السيد الريفي" ثم "الفنان" راحت تكيل اللطامات، أسبوعاً بعد أسبوع، لكل شيء صنعه وليول أو أراد أن يصنعه. وكتب بولنبروك بقلمه أشد المقالات أذى، وهي أروع نثر سياسي شهده العصر بعد اضمحلال سويقت. وقد أهدى سلسلة من تسعة عشر خطاباً (1733-34) "رسالة في الأحزاب"- إلى وليول تهكماً منه. كتب تشستر فيلد لابنه يقول "لم أكن أعرف مبلغ قوة اللغة الإنجليزية حتى قرأتها(36)".

أما آفة بولنبروك فكانت خلقه. فلقد كان أدبه الجم (وهو ناموسه الخلفي الوحيد) يفارقه إذا أحببت مشيئته أو عورضت رأؤه. وفي يونيو 1735 تشاجر مع بلنتي الزعيم الأسمى للمعارضة وعاد غاضباً إلى فرنسا. وهناك استقر مع مركزيته قرب فونتنبلو وواسي جراحه بالفلسفة. وفي كتابه "رسائل في دراسة التاريخ وفائدته" (الذي ألفه في 1735) وصف التاريخ بأنه معمل هائل أجرت فيه الأحداث تجارب لا حصر لها على الرجال، والاقتصاد، والدول، ومن ثم كان خير مرشد إلى طبيعة البشر، وأذن فالي تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل. "إن التاريخ هو الفلسفة التي تعلم بالمثال... فنحن نرى الرجال بطولهم الكامل في التاريخ(37)". وينبغي "أن نعكف عليه بروح فلسفية" وألا يقتصر همنا على فهم الأسباب والآثار والنتائج المتماثلة، بل نجاوز هذا إلى الطرق التي تبين إلى الآن أنها معينة على تطور البشر وسعادتهم(38). والعقبة في مثل هذه الدراسات هي "أن قليلاً من كتب التاريخ يخلو من الأكاذيب، وليس بينها كتاب يخلو من الأخطاء.. ولقد سرت روح الكذب من المؤرخين الكنسيين إلى غيرهم(39)". ولكن قد يستطيع الطالب القوي العزم بمواجهة كاذب بأخر أن يشق طريقه بينهما إلى الحقيقة. وفي 1736 عاد بولنبروك إلى حلبة السياسة بكتابه "رسائل في الروح الوطنية" الذي هاجم فساد حكومة وليول ودعا إلى روح جديدة من الولاء المنكر للذات في السياسة الإنجليزية.

صفحة رقم : 11729

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> بولنبروك

"لا مونتييني وهو يكتب "مقالاته"، ولا ديكرات وهو بني عوالم جديدة، ولا... نيوتن وهو يكتشف ويرسي القوانين الصحيحة للطبيعة على التجربة وعلى هندسة رقيقة، لا أحد من هؤلاء شعر بابتهاج عقلي أكثر من الوطني الصادق الذي يسخر كل قوة فهمه، ويوجه كل أفكاره وأفعاله، لخير وطنه(40)".

وتطلع أمه إلى الجيل الأصغر. فلما زار إنجلترا في 1738 سعى إلى صداقة الأمير فرديريك لويس، ولي العهد، الذي كان الآن يقود حركة المعارضة لوليول. ووجه بولنبروك إلى سكرتير فرديريك الخاص أشهر كتبه وهو "مفهوم الملك الوطني". وقد مات فرديريك في 1751، ولكن ابنه، وهو الذي سيصبح جورج الثالث، استقى من هذه الصفحات بعض مواد عقيدته السياسية(41). وكان المقال في جوهره دعوة لنظام ملكي خير كذلك سيحل به فولتير و "الفلاسة" في الجيل التالي. فقد زعم بولنبروك أن إنجلترا قد تردت في هوة لا يقوى على انتشالها منها سوى ملك يرتفع فوق الشيع والأحزاب، لا بل فوق البرلمان، ملك يقبض على زمام السلطة، ويعاقب الرشوة، ويحكم كما يملك. ولكن الملك الوطني سينظر إلى سلطته لا على أنها حق إلهي بل أمانة عامة؛ لا مطلقة، بل مقيدة بالقانون الطبيعي وحرية رعاياه وحرية الصحافة وتقاليده المملكة؛ وسيحكم على جميع المسالك حسب تأثيرها في رخاء الشعب وسعادته(42). سيشجع

التجارة باعتبارها أهم مصدر لثروة الأمة؛ وسيقي البحرية في بريطانيا باعتبارها الحارس للاستقلال القومي ولتوازن القوى في القارة.

كان "مفهوم الملك الوطني" محاولة لبناء حزب جديد من المحافظين يلبس مبادئ الأحرار ويتألف من المحافظين الذين أفسوا عن الحكم والأحرار الساخطين؛ حزب يرفض الولاء للاستيوارتيين، يستهدف التوفيق بين الأرض والتجارة، وبين الإمبراطورية والحية، وبين الخدمة العامة والثروة الخاصة. فلما نشر المقال (1749) أصبح

صفحة رقم : 11730

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> بولنبروك

الصيحة التي احتشد حولها الشباب المتحمس الذين تطلخوا إلى الملكية بوصفهم "أصدقاء الملك" لتظهر حكومة إنجلترا. وقد شكل الفلسفة السياسية لسموئيل جونسن وبت الأب والابن. وأوحى بالمحافظة الليبرالية التي دان بها بنيامين دزرايلي، الذي أشاد كتابه "دفاع عن الدستور الإنجليزي" (1835) ببولنبروك أباً للديمقراطية المحافظة، والرجل الذي أرسى بإعادة تنظيمه العقل العام تنظيمياً كاملاً الأساس لعودة المحافظين على الحكم(44)". لقد كان تأثير بولنبروك ودزرايلي هو الذي صب من جديد حزب التورى المهزوم ليخرج منه حزب "المحافظين" التقدمي في إنجلترا اليوم.

صفحة رقم : 11731

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> كيف تنزلق الدول إلى الحرب

5- كيف تنزلق الدول إلى الحرب

وخلال ذلك تعاونت دعاية بولنبروك مع تلك الروح المقاتلة، التي اتسم بها برلمان تسلط المال على تفكيره، على إنهاء حكم وليول الطويل وكان الوزير الحذر، الذي أقم سلطته على صون السلام، ينفر من التورط في خصومات مع الدول الأجنبية، فاتفق مع الكردينال فلوري-الذي كان يحكم فرنسا وفق مبادئ مماثلة-على الاحتفاظ أطول ما يستطيع بالسلام الذي أرسنه معاهدة أوترخت، وترك فيما عدا ذلك إدارة العلاقات الخارجية لأخيه الكفء أوراتيو. ولكن احتفاظ إنجلترا بجبل طارق، وتنافس إنجلترا وأسبانيا على السيطرة على أمريكا والبحار، ولدا عنفاً أشد بمضي الزمن. وكان جورج الأول ووزيره ستانهوب قد أكدا لفليب الخامس ملك أسبانيا في يناير ويونيو 1721 أن إنجلترا ستتخلى عن جبل طارق حالما تسمح بذلك مالية بريطانيا ويرتضيه مزاج البرلمان. ولكن الشعب البريطاني أبى أن

يرتضي هذا الاستسلام(45). فلنتابع الآن الرواية الإنجليزية في كيفية انزلاق إنجلترا إلى الحرب، فهي تبين غلو الجماهير في وطنيتهم ونزاهة المؤرخين البريطانيين(46). تقول الرواية أن شركة بحر الجنوب "استغلت استغلالاً فاضحاً" ذلك الامتياز الذي منحه أسبانيا لإنجلترا، وهو السماح لها بإرسال سفينة تجارية واحدة في السنة إلى الممتلكات الأسبانية في الدنيا

صفحة رقم : 11732

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> كيف تنزلق الدول إلى الحرب

الجديدة، وأن "تجارة كبيرة غير مشروعة قامت"، تدير الشركة بعضها، وتعضي عن بعضها الآخر. وكان رد أسبانيا على هذا تفتيش السفن الإنجليزية المشتبه في قيها بالتهريب. وزعم روبرت جنكنز أنه في أحد هذه التفتيش (731) فقد إحدى أذنيه، وقد احتفظ بها، وعرضها على الناس في بريطانيا، وطالب عالياً بالانتقام. وصادر الأسبان بعض السفن الإنجليزية المشتغلة بالتجارة المشروعة، وأبقوا الأسرى الإنجليز راسفين في الأغلال، وقبض القراصنة الإنجليز على بعض الأسبان وباعوهم رقيقاً في المستعمرات البريطانية. واستمر التهريب، واحتجت الحكومة الأسبانية، وتباطأ ولبول الذي كان يكره الانتفاص من دخل شركة بحر الجنوب المكافحة للبقاء، رغم أنه اشتد في عقاب التهريب على السواحل الإنجليزية. وحبذت طبقة التجار الإنجليز الحرب، واثقين من التفوق البحري، أمين من الغزو، متطلعين إلى أسواق جديدة وتجارة متسعة. وأثارت نائرة الشعب قصص الوحشية الأسبانية، الصحيح منها والباطل. وكان الإنجليز المطالبون باتخاذ إجراء في الأمر يشاد بهم وطنيين بواصل، أما الذين نصحوا بالاعتدال فرموا بالجبن والخور. وعرض جنكنز على البرلمان أذنه في زجاجة (مارس 1738)، فألقى ببلنتي، وبت، وغيرهما من المعارضين لولبول خطباً حماسية عن شرف إنجلترا. وفي لحن عسكري معارض نددت جماهير الشعب الأسباني بالإنجليز كلاباً مهرطقين، وانطلت عليها قصة زعمت أن ضابطاً إنجليزياً أكره أسبانيا نبيلاً على جدع أنفه وأكله. أما الحكومتان فقد تصرفتا تصرفاً معقولاً. فنشر لأكوادرا، كبير الوزراء الأسبان، للاستهلاك الجماهيري خطاباً ساخناً وجهه إلى ولبول، ولكنه أخبره سراً بأن أسبانيا ترحب بتسوية النزاع بعد المفاوضات. ثم وقعت الحكومة البريطانية في تحد لهذه الصورة

صفحة رقم : 11733

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> كيف تنزلق الدول إلى الحرب

الجماهيرية الصاخبة-اتفاقية أباردو مع أسبانيا (14 يناير 1739) وفيها نزل كل من الجانبين عن أشياء، وشكلت لجنة لتسوية كل الشكاوي المعلقة. وقبل نصف الشعب الأسباني المعاهدة، ولكن إنجلترا بأكملها تقريباً أعلنت سخطها عليها. وشكت شركة بحر الجنوب من أن المعاهدة ستنتقص من دخلها وأرباحها انتقاصاً شديداً، وكان السفير الإنجليزي

بمدريد وكيلا للشركة أيضاً. يضاف إلى هذا أن "الأزبنتو" الذي سمحت أسبانيا بمقتضاه لإنجلترا بإمداد أمريكا الأسبانية بالعبيد الزوج انتهى أجله في 6 مايو 1739، ورفض فليب الخامس تجديد العقد (45). ومع ذلك استدعى ولبول الأسطول الإنجليزي من البحر المتوسط مواصلاً سياسته السلمية، ثم ألغى الأمر بعد أن اشتبه خطأ في أن أسبانيا تبرم حلفاً سرياً مع فرنسا، وأمر الأسطول بحماية جبل طارق. واحتج لأكوادرا، وقطع ولبول المفاوضات مستسماً لنوبة الحرب التي أصابت البرلمان والشعب، وفي 19 أكتوبر 1739 أعلنت إنجلترا الحرب على أسبانيا. واغتبط الشعب الذي كان لا يزال ينعى ولبول بالجبن، وراحت أجراس الكنائس تفرع في إنجلترا طويلاً وعرضاً. وكتب الآن جيمس طومسن أغنيته الشعبية المثيرة "احكمي يا بريطانيا" التي أقسمت أن "البريطانيين لن يذلوا أبداً". وما من شيء يشد من أزر الحكومة عادة أكثر من إعلان الحرب، فعندها تكتم المعارضة المخلصة للوطن مدافعها. بيد أن وزارة ولبول كانت استثناء للقاعدة. فلقد أحس خصومه بحق أن وزارته غير متحمسة للجيش الزاحفة أو للأساطيل التي تنفت النيران؛ وحملوا سوء إدارته تبعاً الهزائم العسكرية كلها، وعزوا كل الفضل في انتصار بحري عند بورتو بيلو (على برزخ بنما) لعبقرية الأميرال فيرنون الذي كان أحد أعضاء المعارضة. وفي فبراير 1741 اقترح صموئيل ساندنيز على البرلمان أن ينصح الملك بإقالة رئيس وزرائه. وهزم الاقتراح، ولكنه لم يهزم إلا بفضل استجداء ولبول لأصوات الاستيوارتيين. وأفسح له في الوزارة عاماً آخر، غير أنه أدرك أنه قد حان حينه؛ وأن البلاد تريد تغييراً. ثم أنه أرق. كتب ابنه يقول "هذا الذي كان في السنين الماضية

صفحة رقم : 11734

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> كيف تنزلق الدول إلى الحرب

يستغرق في النوم حالماً يمس رأسه الوسادة.. لا ينام الآن أبداً أكثر من ساعة دون أن يصحو؛ والذي كان على المائدة ينسى دائماً أنه وزير، وكان أكثر مرحاً وخلواً من الهموم من جميع رفاقه، يجلس الآن دون كلام، وعيناه جامدتان، ساعة بطولها(50)". وجاءت الانتخابات الجديدة ببرلمان معاد له عداً ساحقاً، فهزمه في أمر قليل الشأن، وفي 13 فبراير 1742 استقال. وإذا كان أعجز من أن يواجه صخب مجلس العموم، فإنه لم يجد مشقة في إقناع جورج الثاني بأن يمنحه لقب إيرل أكسفورد، ويوصفه هذا هبط صعداً إلى مجلس اللوردات. وكان قد جمع ثروة طائلة تحسباً ليوم سقوطه. ومات في 18 مارس 1745 بالغا الثانية والستين، بعد أن تجلد لمرض طويل مؤلم. وودعت إنجلترا السلام، وانطلقت لتغزو العالم بزعامه "بت" بعد "بت".

صفحة رقم : 11735

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> أرنلدة

لم يعرف التاريخ أمة ظلمت كما ظلم الإيرلنديون، إلا فيما ندر. فطوال الانتصارات المتكررة التي أحرزتها الجيوش الإنجليزية على الثورات الوطنية، شرّعت مجموعة من القوانين قيدت الإيرلنديين بالأغلال جسداً وروحاً. فصودرت أرضهم حتى لم يبق غير حفنة من الملاك الكاثوليك، وامتلكتها كلها تقريباً بروتستنتت عاملوا فلاحهم معاملة العبيد. يقول تشستر فيلد "إن الفقراء في إيرلندة يلقون من الملاك والسادة معاملة أسوأ مما يلقاه الزوج (51)". ويقول ليكي "لم يكن من الغريب في إيرلندة أن يكون للكبار ملاك الأراضي سجون دائمة في بيوتهم لعقاب الطبقات الدنيا عقاباً عاجلاً (52)". وكان كثير من الملاك يعيشون في إنجلترا، وينفقون فيها (حسب تقدير سويفت) ثلث الإيجارات التي يدفعها المستأجرون الإيرلنديون (53). أما المستأجرون-الذين طحنتهم الإيجارات التي يؤدونها للمالك، والعشور التي يؤدونها للكنيسة الرسمية التي يمقتونها، والفروض التي يؤدونها لقساوستهم فكانوا يسكنون أكوخاً من الطين يرشح الماء من سقفها، ويمشون نصف عراة، ويتضورون جوعاً في أكثر

صفحة رقم : 11736

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> أرلندة

الأحايين، وذهب سويفت إلى أن "المستأجرين الإيرلنديين يعيشون حياة أسوأ من حياة المتسولين الإنجليز (54)". وأما الملاك الذين ظلوا يقطنون إيرلندة، وكلاء الملاك الغائبين، فكانوا يستعينون على همجية بيوتهم وعداؤها بحفلات الطعام والشراب الصاخبة المخمورة، والضيافة المسرفية، والشجار والمبارزة، والمقامرة على رهانات كبيرة. ولما كان للبرلمان البريطاني مطلق السلطان على إيرلندة، فإنه خنق أي صناعة تنافس إنجلترا. وقد رأينا في غير هذا الموضوع كيف قضي قانون صدر في 1699 على الصناعات الصوفية الوليدة بحظره تصدير الأصواف الإيرلندية إلى أي بلد كائناً ما كان. وبالمثل خنقت القوانين الإنجليزية بغير رحمة كل ما احتفظت به إيرلندة من تجارة خارجية وسط زعازع السياسة وخراب الحروب. فأثقلت الصادرات الإيرلندية برسوم التصدير التي عزلتها عن جميع الأسواق تقريباً إلا إنجلترا (55)، وكان كثير من الإيرلنديين يعيشون على تربية الماشية وتصديرها لإنجلترا، ولكن قوانين 1665 و1680 حظرت استيراد إنجلترا لماشية إيرلندة أو أغنامها أو خنازيرها، أو لحم البقر أو الضأن أو الخنزير، حتى الزيد أو الجبن. وكانت إيرلندة تصدر حاصلاتها للمستعمرات الإنجليزية، فاشتراط قانون صدر في 1663 ألا تستورد سلع أوروبية للمستعمرات الإنجليزية، باستثناءات قليلة، إلا من إنجلترا، في مرابك إنجليزية، بحارتها إنجليزية. وماتت البحرية التجارية الإيرلندية. يقول سويفت "إن مزايا الموائى والمرافئ التي سخرت بها الطبيعة على هذه المملكة، ليست أكثر فائدة لنا من حلم جميل يراود رجلاً حبس في زنزانة (56)". وأرهقت القوانين التي شرعتها إنجلترا لرعابها الإيرلنديين البروتستنتت كما أرهقت الكاثوليك؛ وفي مناسبة مشهودة انضموا إلى الكاثوليك في التمرد على الحكم البريطاني. وكان تصدير مال الإيجارات للملاك الغائبين عن إيرلندة قد

خلق عجزاً في العملة المعدنية بإيرلندا في 1722. وعرض ولبول تخفيف هذا العجز بإصدار عملة نحاسية. وكانت الخطة معقولة، ولكن لوئها الفساد المألوف، فقد مُنحت دوقه كندال امتياز سك النقود الجديدة، فباعته لوليم وود صاحب مصانع الحديد نظير 10.000 جنيه؛ ولكي يجمع وليم هذا المبلغ مضافاً إليه ربحه

صفحة رقم : 11737

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> أرلندا

اقترح أن يسك 100.800 جنيه أنصاف بنسات أو أرباعها. ولما كانت جملة عملة إيرلندا المعدنية آنذ لا تتجاوز 400.000 جنيه، فقد احتج الإيرلنديون بأن سيكون ضرورياً استعمال النقود النحاسية في المدفوعات وفي الصرافة، ودفع الحسابات الأجنبية بما فيها إيجارات الملاك الغائبين بالفضة أو العملة الورقية، وأن العملات الأرخص ستحمل الناس على اختزان العملات الأفضل أو تصديرها، وأنه لن يكون في إيرلندا عمل قليل عملة غير النقود النحاسية المزعجة. ورغبة في علاج هذه الشكاوي وافقت الحكومة البريطانية على خفض الإصدار الجديد إلى 40.000 جنيه وقدمت تقريراً من إسحاق نيوتن، مدير دار سك النقود، يقرر أن أنصاف بنسات وود وافية من حيث محتواها المعدني بشروط الامتياز، وأنها أفضل كثيراً من العملات الموروثة عن العهود السابقة. عند هذا المنعطف دخل الجدل جوناثان سويقت، الناظر الأنجليكاني لكاتدرائية القديس باتريك بدبلن، بنشره سلسلة من الرسائل تحت اسم مستعار هو م. ب. درايبير، هاجم فيها العملة الجديدة بكل ما في روجه من عنف وما في جعبته من هجو، لأنها محاولة لغش الشعب الإيرلندي. وزعم أن العملة التي أرسلت إلى نيوتن لاختبارها سكت خصيصاً لهذا الغرض، وأن الكثرة الغالبة من أنصاف بنسات وود تساوي أقل كثيراً من قيمتها الاسمية؛ والواقع أن بعض الاقتصاديين أيدوا دعواه بأن قدروا أن إيرلندا ستخسر 60.480 جنيهاً بالإصدار الذي اقترح أولاً (57). وفي الرسالة الرابعة انتقل سويقت إلى اتهام قوي للحكم الإنجليزي كله في إيرلندا، ووضع هذا المبدأ "إن كل حكم بغير رضي المحكومين ما هو إلا العبودية بعينها (58)". واستجاب الإيرلنديون، بما فيهم أغلبية البروتستنت لهذه النغمة الجريئة في لهفة، وراح الناس يغنون في الشوارع أغاني شعبية تحض على مقاومة إنجلترا. ووجدت الحكومة الإنجليزية نفسها تتقهقر أمام قلم واحد، وهي التي تحدثت شعباً بأكمله قروناً طوالاً. وقدمت مكافأة من ثلاثمائة جنيه للقبض على الكاتب، ولكن أحداً لم يجرؤ على اتخاذ إجراء ضد الناظر العابس وإن عرفه المئات منهم. كذلك لم يجرؤ أي إيرلندي على أن يواجه غضب الشعب بقبوله العملة الجديدة. وسلم ولبول بالهزيمة، وألغى الإصدار، وعوض

صفحة رقم : 11738

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> أرلندا

وود بمبلغ 24.000 جنيه نظير مصروفاته التي أنفقتها عبثاً ومكاسبه التي تبخرت.

وقد استحوطت كل مقاومة للسيطرة الإنجليزية إلا أن تكون من فعل الغوغاء أو عنف الأفراد، وذلك بسبب بنيان السياسة الإيرلندية. ذلك أن البرلمان الإيرلندي بعد 1692 كان كله من البروتستنت، لأن شرط المنصب كان الولاء للكنيسة الإنجليزية (59)، وكان الآن خاضعاً كل الخضوع لإنجلترا. وفي 1719 أكد البرلمان الإنجليزي من جديد حقه الأعلى في التشريع لإيرلندا. فالقوانين التي حمت الحرية البرلمانية أو الفردية في إنجلترا، كقانون هابياس كوريس وقانون الحقوق، لم تطبق على إيرلندا؛ أما الحرية النسبية للصحافة، التي كانت تتمتع بها إنجلترا، فلم يكن لها وجود في إيرلندا. ولم يكن بين البرلمانيين شبه إلا في فساد ناخبتهما وأعضائهما. وكان بينهما خلاف آخر في غلبة نفوذ الأساقفة الأنجليكان في مجلس اللوردات الإيرلندي.

كانت الكنيسة الرسمية تضم نحو سبع السكان بين أتباعها، ولكنها تعتمد على العصور التي تجنى من الفلاحين، وكل هؤلاء تقريباً كاثوليك. واتبعت نسبة صغيرة من السكان المذهب المشيخي (الكلفني) أو غيره من المذاهب المنتشرة، ونالت قسطاً من التسامح، إلا حقها في مناصب الدولة. ولم يقتصر حرمان الكاثوليك على مناصب الدولة فقط بل تجاوزه إلى كل المهن الراقية إلا الطب، وكل سبيل تقريباً إلى التعليم العالي، أو الثروة، أو النفوذ (60). وحظر عليهم شراء الأرض، أو الاستثمار في رهون على الأرض، أو حيازة أي إيجار طويل الأجل أو ذي قيمة. وحظر عليهم أن يكونوا محلفين إلا عند الافتقار إلى محلفين بروتستنت. ولم يكن في استطاعتهم التعليم في المدارس، ولا التصويت للمناصب البلدية أو القومية، ولا الزواج زواجاً شرعياً من بروتستنتية (61). وكان شرط عبادتهم أن يقوم بها كاهن سجل اسمه في الحكومة وأقسم يمين التخلي التي تتبذ الولاء لأسرة ستيوارت. أما غير هؤلاء من الكهنة فعاقبهم السجن. ولكن هذا القانون نادراً ما طبق بعد 1725؛ وفي 1732 ذكرت لجنة في البرلمان الإيرلندي في تقرير لها أن في إيرلندا 1.445 كاهناً، و229 كنيسة كاثوليكية،

صفحة رقم : 11739

قصة الحضارة - عصر فولتير - إنجلترا - الحكام - أرنلدا

و549 مدرسة كاثوليكية. وبعد 1753 خفف الإنجليز من غلوائهم وتحسنت حال الكاثوليك في إيرلندا. وتضافر اضطراب الحياة الدينية، وفقر الشعب، واليأس من التقدم الاجتماعي، ليهبط كل أولئك بمعنويات الحياة الإيرلندية. فهاجر إلى فرنسا أو أسبانيا أو أمريكا أكثر الكاثوليك كفاية وجرأة، ممن كانوا قادرين على النهوض بمستوى الكفاية والذكاء والأخلاق الإيرلندية. وانحدر الكثير من الإيرلنديين إلى درك التسول أو الجريمة اتقاء الموت جوعاً. واختبأت عصابات اللصوص في الريف، واتخذ المهربون ولصوص السفن الغارقة من السواحل ممكناً، واحتفظ ببعض أصحاب الملكيات "ببطلجية" وصل عددهم أحياناً إلى الثمانين لتنفيذ أوامرهم، ضاربين بالقانون عرض الحائط. وذبحت العصابات الجوابة آلاف الماشية والأغنام، انتقاماً كاثوليكياً - على ما يبدو - من الملاك البروتستنت. وكان عسيراً على شعب أن يحترم القوانين التي يصدرها برلمان إيرلندي طالما تحدث عن الكاثوليك - وهم ثلاثة أرباع السكان - بوصفهم "العدو المشترك".

على أن الحياة الإيرلندية لم تخل من عناصر أكثر إشراقاً. فقد بقي للشعب مزاجه البشوش، الهادئ، الضحوك، خلال شدائده كلها، وأحاطت خرافاته وأساطيره بحياته بالسحر والشعر دون أن تقضي به إلى عنف كذلك الذي اتسمت به اضطهادات السحرة والساحرات في إسكتلندا وألمانيا. وكان بين الأكليروس الأنجليكاني في إيرلندا علماء أفذاذ (كالأسقف آشر، أسقف أرم)، وفيلسوف نابيه (هو جورج باركلي أسقف كلوين)، وأعظم كتاب الإنجليزية قاطية في الربع الأول من القرن الثامن عشر، وهو جوناثان سويفت، ناظر كاتدرائية القديس باتريك. وجاهدت جمعية دبلن المؤسسة في 1731 لتحسن التكنولوجيا في الزراعة والصناعة، وتحفز الاختراع، وتشجع الفن. وكان هناك أمثلة كثيرة لأفراد من البروتستنت مدوا يد المعونة للكاثوليك الفقراء، وقضاة لانوا في تطبيق اللوائح الوحشية التي تضمنها قانون العقوبات.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> أرنلدة

ولكن صورة الحياة الإيرلندية كانت في جملتها من أشد ما حواه التاريخ خزيًا وعاراً. فقر مذل، وتمرد فوضوي على القانون، وإملاق مترحل، و34.000 متسول، وعدد لا حصر له من اللصوص، وطبقة عليا تعيش في إسراف مخمور بين فلاحين يتضورون جوعاً، وكل إخفاق في المحصول يجر مجاعة واسعة الانتشار - "فالشيوخ والمرضى يموتون وينتفون من البرد والمجاعة والقذارة والحشرات(62)" - على حد قول سويفت. هذه الصورة الرهيبة يجب أن تجد مكاناً في مفهومنا عن الإنسان. وبعد الصقيع الطويل القاسي الذي أصاب إيرلندا في 1739 جاءت مجاعة 1740-41 القاسية، التي هلك فيها حسب أحد التقديرات عشرون في المائة من السكان، مخلفين الكثير من القرى المهجورة. ففي مقاطعة كيري هبط عند دافعي الضرائب من 14.346 في عام 1733 إلى 9.372 في عام 1744. وقدر باركلي أن "الأمة في أغلب الظن لن تعوض هذه الخسارة بعد قرن(63)" ولكنه أخطأ التقدير. فما لبثت النساء أن ولدن الأطفال في صبر ليعوضن من فقد من الموتى. وفترت الحماسة الدينية بين البروتستانت بانتشار التعليم، واشتدت بين الكاثوليك كلما وحد الدين بينه وبين صراع الأمة في سبيل الحرية. وسرعان ما عوضت النسبة العالية للمواليد، التي حذتها الكنيسة الكاثوليكية سلاحاً سرياً لها ضد معارضة، عما سلبته المجاعة والوباء والحرب؛ فما حلت سنة 1750 حتى ارتفع سكان إيرلندا من قرابة 2.000.000 في 1700 إلى نحو 2.370.000 وفي نهاية الشوط غلب إيمان المظلومين وخصوصيتهم سلاح الغزاة وجشعهم.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> اسكتلندا

لم كان حظ إسكتلندة مختلفاً أشد الاختلاف عن حظ إيرلندة؟ أولاً لأن إسكتلندة لم تقهر قط، بل إنها على العكس من ذلك أعطت إنجلترا ملكاً اسكتلندياً. وكان لها في شيوخ قبائل مرتفعاتها (الهايلاندرز) الذين لم يذلوها بعد، طبقة من المقاتلين قادت الاسكتلنديين المرة بعد المرة في غزوات لإنجلترا. وكان أهل سهولها سلالة أنجلو-سكسونية، ينتمون أساساً إلى الأصل الذي ينتمي إليه الإنجليز. أما تربتها فطلت

صفحة رقم : 11742

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> اسكتلندة

في قبضة أهلها الشديد المراس. وأما دينها، شأنه شأن الأنجليكانية، فكان نتاج حركة الإصلاح البروتستنتي، لا تركة موروثه عن الكنيسة الوسيطة، وقد وحد صفوف الأمة بدلاً من أن يقسمها، وبعد قانون الاتحاد (1707) شاركت إسكتلندة بنسبة السكان في انتخاب البرلمان الذي أصبح الآن يسمى البرلمان البريطاني (أي الإنجليزي-الويلزي-الاسكتلندي)، وأذعنت لأن تحكم من لندن، ولكن بعد أن انتزعت تنازلات تجارية أثرت الشعب الاسكتلندي. وحاولت كل أبرشية في إسكتلندة أن تنشئ مدرسة لأطفالها، ووفرت أربع جامعات بها أفضل ما وجد في الجزر البريطانية آنذ من تعليم عال. وقد ازدهر هذا النشاط التعليمي خلال القرن الثامن عشر في حركة "تنوير اسكتلندي" دفعت الفكر الإنجليزي دفعة قوية-أبطالها هيوم، وهنتسن، ورايد، وروبرتسن، وأدم سميث. على أن هذا الإنجاز الرائع اقتضى تحقيقه الكفاح الطويل، وانقضت خمسون عاماً قبل أن يؤتى الاتحاد أكله. فقد كانت إسكتلندة في 1714 لا تزال إقطاعية النظام. كل إقليم فيها خارج المدن يحكمه نبيل كبير بوساطة أتباعه المقطعين، والأرض تفلحها طبقة من المستأجرين الفلاحين، موالين لسادتهم، ولاحظ لهم من التعليم. ولكن الاتحاد السياسي مع إنجلترا أخذ الآن يقوض ذلك البناء. كان النبلاء يسيطرون على البرلمان الاسكتلندي، فلما اختتم عهد ذلك البرلمان وجد الممثلون الاسكتلنديون في البرلمان البريطاني أنفسهم في بيئة يناقش فيها نفوذ التجارة والصناعة نفوذ الأرض؛ ففتبنوا الأفكار والتكنولوجيا الإنجليزية، وما وافت سنة 1750 حتى كان أصحاب صناعات إسكتلندة وتجارها يتحدثون الزعامة القومية التي احتكرها الأرجيليون، والأثوليون، والهاملتونيون، والماربون. وكانت مغامرة 1745 الاستيوارتية آخر انتفاضة من انتفاضات السلطة الإقطاعية الاسكتلندية، فلما أخفقت اندمجت حياة إسكتلندة الاقتصادية في الاقتصاد الإنجليزي، وبدأ حكم الطبقات الوسطى. وفتح الاتحاد المستعمرات الإنجليزية للتجارة الاسكتلندية، وفي 1718 أطلقت جلاسجو أول سفينة اسكتلندية لتعبر الأطلنطي، وما لبث التجار الاسكتلنديون أن انتشروا في كل مكان. وتحسنت التكنولوجيا الزراعية

صفحة رقم : 11743

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> اسكتلندة

ووسائل النظافة الصحية في المدن، وهبطت نسبة الوفيات، وزاد السكان من 1.000.000 في 1700 إلى 1.652.000 في ختام القرن وكانت أدنبرة بسكانها البالغين خمسين ألفاً في 1751 ثلاثة أكبر المدن في بريطانيا العظمى، فلم يبقها غير لندن وبرستول.

وظلت الكنيسة المشيخية على ولائها للاهوت الكالفني ولاء يقرب من التعصب. ففي كل أحد يمشي الناس-أحياناً مليون أو ثلاثة-ليختموا إلى كنائس عطلت من الزينة عطلاً صارماً، ويستمعوا الساعات إلى عظات وصلوات تؤكد حتمية الجبر وأهوال الجحيم. وكان الكتاب المقدس الإلهام اليومي لكل أسرة اسكتلندية. وقدّر هيوم، حتى سنة 1763، في مبالغة مَرَّة، إن لكل رجل وامرأة وطفل في إسكتلندا كتابين مقدسين (64)؛ أما الوعاظ فقليلو الحظ من التعليم ولكن فيهم تقوى صادقة وورعاً مؤثراً، يعيشون في بساطة متقشفة، وتدعم قدوتهم وتعاليمهم من ثبات الخلق الاسكتلندي ونزاهته. وكان شيوخ كل كنيسة وراعيها يراقبون في تشدد كثير سلوك الرعية وكلامهم، يوزعون العقوبات على الحلف، والنميمة، والشجار، والسحر، والفسوق، والزنا، وأي كسر ليوم الرب (الأحد)، وأي انحراف عن عقيدتهم الرهيبة. وأداة الرعان الرقص، وحفلات الزفاف، والتفرج على المسرح. واستمروا يعقدون المحاكمات بتهمة السحر وإن أخذت أحكام الإعدام بسببها تقل. ففي 1727 أدينّت أم وابنتها بهذه التهمة، وفرتّ البنّت، ولكن الأم أحرقت كل الموت في برميل من القار (65). فلما ألغى البرلمان الإنجليزي (1736) القانون الذي يعاقب السحر بالموت، ندد شيوخ الكنائس الاسكتلندية بالإلغاء لأنه انتهاك لأمر صريح أصدره الكتاب المقدس (66). وكانت مدارس الأبرشيات التي تتفق عليها الكنيسة الاسكتلندية، ومدارس الحضر التي تعينها المدن، تعد الطلاب للجامعات. فوفد على أدنبرة وأبردين وسانت أندروز وجلاسجو شبان تواقون للعلم من كل طبقة من المزارع والمصانع ومن قصور الإقطاعيين وقاعات البارونات على السواء، يدفعهم الشوق إلى المعرفة، ويتحملون في سبيلها كل عناء؛ يعيش كثير منهم في حجرات باردة على السطوح، ويصيبون

صفحة رقم : 11744

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> اسكتلندا

أكثر غذائهم من زكية من الشوفان يحملونها دورياً من مزارع آبائهم. وكذلك كان الأساتذة قوماً ذوي جلد وزهد، ندر أن تقاضي أحدهم أكثر من سنتين جنبهاً في العام. وكاد اللاهوت في الجامعات أن يكون لب المنهج كما كان في مدارس الأبرشيات. ولكن الآداب الكلاسيكية كانت تدرس ومعها قليل من العلوم؛ وتأثر الذهن الاسكتلندي بفكر أوربا العلماني. من ذلك أن فرانسس هنتسن، الذي شغل كرسي الفلسفة الأخلاقية في جلاسجو (1729-46)، تحى الدجل الدجماطيقي، وأرسى علم الأخلاق على أسس طبيعية. وشابت الهرطقة الأريوسية عقيدة الطلاب والأساتذة على السواء وهي التي زعمت أن المسيح، رغم ألوهيته، لم يكن معادلاً لله الأب أو مساوياً له في أزليته. وذكر مؤلف اسكتلندي في 1714 "الرواج الشديد بين شباب الأعيان والطلاب" لأفكار هوبز وسبينوزا (67). وكونت جماعات صغيرة من الشبان الذين ثملوا بخمر التحرر أندية مثل "الجمعية الكبريتية" و "نار الجحيم" و "الفرسان سيئي السمعة" تبشر بالإلحاد في تقاخر؛ ولعلمهم اختلطوا بالساخطين الاستيوارتيين. ذلك أن إسكتلندا-إذا استثنينا طبقات التجار التي ارتبطت بالاقتصاد الإنجليزي-كانت لا تزال تنتشي بذكرى أسرة ستيوارت، وتحلم باليوم الذي يقود فيه جيمس الثالث، أو ابنه، الاسكتلنديين مرة أخرى عبر الحدود ليرد أسرة اسكتلندية إلى العرش البريطاني.

صفحة رقم : 11745

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> الأمير تشارلي الجميل

8- الأمير تشارلي الجميل

1745

سكان جيمس الثالث قد أفنى نفسه في محاولات عقيمة لقيادة حملة على إنجلترا أو إسكتلندا. وفي 1719 تزوج ماريا كلمنتينا سوبيسكا، حفيدة أشهر ملوك بولندا، وكان الزواج تعسفاً، ولكنه أعطى جيمس ولداً كان وجهه الحلو وطبعه المرح-اللذان ربما ارتدا إلى ماري ملكة الاسكتلنديين-مفخرة ومشكلة لأبويه. وأطلقت إنجلترا على تشارلز أدرد ستيوارت هذا لقب "المطالب الشاب"، أما إسكتلندا فسمته "الأمير تشارلي الجميل". وشب تشارلز دون أن ينال من التعليم حظاً كبيراً لأنه نشأ في بيت يسوده الشقاق، وتعلم مذهبين متناقضين على يد مهديه الكاثوليك والبروتستنت، ولكنه وهب كل مفاتن الشباب

صفحة رقم : 11746

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> الأمير تشارلي الجميل

الرياضي، وكل حماسة الرأس الملهوف على تاج. وقد افتتن دون ليريا بما كان عليه الغلام من "جمال رائع"، بعينييه العسليتين المرحتين، وشعره البني الفاتح؛ فهو راكب جريء، وهداف ماهر، ذو قوام فارغ طوله ستة أقدام خلق للحرب، و "لاعب جولف جبار"، وموسيقي ماهر، وراقص رشيق-وقال الدوق أن هذا "على الجملة أكمل أمير لقيته(69)" وكان تشارلز عليماً بفضائله، وهو ما جعله صعب المراس أحياناً. وفي 1734، حين كان غماً بعد لا يجاوز الرابعة عشرة، سُمح له بأن يذوق طعم الحرب في الجيش الأسباني في جابينا، فلما أيقظ روحه خوض أول معاركه، راح يترقب الفرصة على أحر من الجمر للاستيلاء على إنجلترا. وبدأت الفرصة مواتية حين بدأ البرلمان البريطاني، رغم معارضة وليول، الاشتباكات مع أسبانيا (1739). واستفحل هجوم فردريك الأكبر على سيليسيا (1740) حتى أفضى إلى حروب الوراثة النمساوية. وأرسلت إنجلترا جيشها الرئيسي إلى القارة، فأى وقت أنسب من هذا ليضرب فيه الاستيوارتيين ضربة سريعة أخرى للظفر بالعرش الإنجليزي؟ ومن ثم كونوا في إسكتلندا "الرابطة" (1736) التي التزمت بتلك المغامرة، وأوفدوا المبعوثين إلى إنجلترا ليحرضوا على قيام ثورة استيوارتية، وأرسلوا النداءات إلى فرنسا طالبين المال، والسلاح، والجنود. وأمر لويس الرابع عشر سبع سفن حربية وإحدى وعشرين ناقلة جنود بالتجمع في برست والاستعداد لنقل عشرة آلاف مقاتل تحت إمرة المرشال دساكس من دنكرك إلى إنجلترا.

وانتظر الأمير تشارلز في إيطاليا بفارغ الصبر دعوة من باريس لينضم إلى الحملة. ولكن الدعوة لم تصل، فغادر روما في 10 يناير 1744، وركب ليل نهار إلى فراسكاتي، وليريشي، وجنوة واستقل سفينة إلى أنتيب، وركب كالمجنون إلى باريس. أما أبوه المسن فظل في روما، ولم تقع عليه عيناه بعد ذلك قط. واستقبل الملك تشارلز بالترحيب، وأمدّه بمعونة مالية معتدلة. فمضى إلى جرافلين، وانتظر بصبر نافذ الأوامر بالإبحار مع المرشال دساكس، الذي انتظر الأسطول الفرنسي هو الآخر بصبر نافذ. وحالفت الرياح والأمواج إنجلترا كالعادة. فصادف الأسطول الفرنسي بعد إقلاعه من برست (6 فبراير) "بحراً رهيباً" و "ريحا

صفحة رقم : 11747

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> الأمير تشارلي الجميل

معاكسة كل يوم". واصطدمت مراكبه، وتحطمت صواريخه، وعمت الفوضى حين وصل النبا بأن أسطولاً إنجليزياً من اثنتين وخمسين سفينة يقترب. وفر الفرنسيون رجوعاً إلى برست، ولكن كثيراً من سفنهم فقد، وأصيب الباقي بضرر بليغ من الأنواء. ومن هذا النبا المثبط وصل فرنسا نبا بأن الاستيواريين الإنجليز مختلو النظام خانرو العزيمة، وأنه لا أمل في معونة منهم إذا وصل الفرنسيون. وأخبر لويس ساكس بوجود الإقلاع عن مشروع الغزو. أما إنجلترا، التي لم تدخل بعد الحرب مع فرنسا رسمياً، فشكت من أن وجود تشارلز على أرض فرنسا انتهاك لالتزامات المعاهدة. وأما تشارلز فقد اختبأ في باريس متنكراً، وأقسم لأصحابه أنه سيغزو إنجلترا ولو اضطر إلى الذهاب وحيداً في زورق مكشوف. وأسل له أبوه رجاء بأن يحذر الاندفاع "الذي قد ينتهي بدمارك ودمار كل من يشاركوك فيه(70)". وفي أثناء ذلك كان مؤيدو تشارلز يدس بعضهم لبعض سعيًا وراء النفوذ والمنح، ويتهم بعضهم بعضاً عنده، حتى كتب يائساً "لقد ابتليت بلاء يزهدني في الحياة" (16 نوفمبر 1744). وأخيراً، ورغم كل التحذيرات، ودون استشارة البلاط الفرنسي، قرر أن "يجرب حظّه" و "يغزو أو يموت" وأرسل عملاء إلى إسكتلندا ليثير العشائر، وبلغ عدم استعداد هؤلاء مبلغاً جعلهم يفكرون في منعه من المجيء، وكان المتشيعون من الإنجليز لأسرة ستيوارت، يلتمسون التراضي مع جورج الثاني، محتذين في ذلك حذو بولنبروك. ورغم ذلك اقترض تشارلز 180.000 جنيه، وقبل عرضاً بسفينتين مسلحتين، وأبحر إلى إسكتلندا (15 يوليو 1745). وعلى مقربة من "لاندر اند" التقت القافلة الصغيرة ببارجة بريطانية، ولحق بإحدى سفينتي تشارلز من العطب ما حملها على العودة إلى برست. وانطلق هو في الأخرى شمالاً إلى غربي إنجلترا، وفي 3 أغسطس رسا على أرض إسكتلندا عند اريسكا، في جزر الهبريد الخارجة. ونصح زعيم عشيرة بأن يعود إلى وطنه. فأجاب الأمير "إنني في وطني". وأندز بأن الحكومة البريطانية قد أعلنت في أول أغسطس عن مكافأة تبلغ 30.000 جنيه لمن يأتي به أسيراً، حياً أو ميتاً. وكان جواب تشارلز أن صرف السفينة التي أقلته، وهكذا قطع على نفسه خط

صفحة رقم : 11748

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> الأمير تشارلي الجميل

الرجعة. وفي 19 أغسطس رفع راينه في جلينفينان بإقليم المرتفعات، ودعا كل أنصار أسرته ليعينوه. وظل معظم زعماء العشائر متحفظين، وتآمر بعض من زعموا أنهم أتباع له ليشوا به، وأعلن ستة أشراف انضمامهم إليه، وكان ألف ومائتان من بين رجاله الألفين من عشيرتي مكدونلد وكمرون. وقاد تشارلز جماعته جنوباً متحاشياً قوات الحكومة التي يقودها السير جون كوب. وفي 17 سبتمبر دخل أدنبرة، واستولى على الحرس والبابوات، وثبت رئيسهما في قصر هوليرود، الذي كان يوماً ما القصر الملكي الذي جادلت فيه ماري ستيوارت جون نوكس، ونسي فيه جيمس السادس والأول أمه. وكان مظهر الأمير البالغ من العمر آنذ خمسة وعشرين ربيعاً يأخذ بالألباب في بزة أهل المرتفعات، بسرأويله المخملية الحمراء وقلنسوته المخملية الخضراء، وعقدة شريطها البيضاء. وركع كثير من الاسكتلنديين الذين ظنوا أن مجد أمتهم قد عاد من جديد في شخص ذلك الفتى المليح وقبلوا يده، وصلت كل النساء من أجله وهفت قلوبهن إليه. وما كاد يزوق حلاوة استقباله حتى نمت إليه نبا اقترب كوب من أدنبرة في ألفين من جنوده. وفي 21 سبتمبر قاد تشارلز رجاله الذين بلغوا الآن ثلاثة آلاف، والتقى بجيش كوب برستونبانز، ودحره، وأسر أسرى كثيرين، وترفق بهم، ثم عاد إلى هوليرود مكللاً بالغار، وبدأ أنه قد ظفر بإسكتلندا. وأمر تشارلز وهو مطمئن شهراً بعد المعركة بالطعام والثياب لجنده، ورحب بانضمام عشائر أخرى إليه. وبعث له لويس الخامس عشر بالمال والسلاح من فرنسا. وفي 8 نوفمبر عبر الأمير السعيد الحدود راجلاً إلى إنجلترا على رأس 4.500 مقاتل، وحاصر كرليل واستولى عليها، ولقي الترحيب في مانشستر، ثم سار حثيثاً إلى داربي، أملاً بتقدمه المثير أن يحمل إنجلترا على استقباله ملكاً شرعياً لها. وأذاع منشوراً تعهد فيه بأنه لن يصيب الأنجليكان والمسيحيين بعد اليوم منه، وهو الكاثوليكي الروماني، أدى أكثر مما أصابهم على يد جورج الأول اللوثري (72). غير أن إنجلترا لم تصدقه، وكرهت أن تعاود من جديد ذلك الصراع المضني الذي خاضه المذهب الجديد ضد القديم.

صفحة رقم : 11749

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> الأمير تشارلي الجميل

ومع أن أحداً في إنجلترا لم يكذب يهيباً ليقاوم تشارلز، فإن حفنة من الجند الإنجليز فقط هي التي خفت لنجدته. واتخذ الإنجليز المتشيعون لأسرة ستيوارت موقف الحذر والسلامة. وكان جورج الثاني قد هرع عانداً من هانوفر ليحمي عرشه المههدد وأمر ثلاثة جيوش إنجليزية بالتجمع في داربي. وكان رأي تشارلز أن يتجاهلها ويندفع في طريقه إلى لندن بألأفه الستة، ولكن زعماء عشائره الاسكتلنديين أبوا أن يتبعوه. ونبهوه إلى أن كل جيش من جيوش الحكومة الثلاثة عدته عشرة آلاف مقاتل، وأن هؤلاء إذا لحقوا بمؤخرة جيشه ضيقوا عليه الخناق وتكاثروا عليه بعد قليل، وأن الانتفاضة الإستيوارتية التي وعدهم بها لا أثر لها، وأصروا على العودة إلى إسكتلندا حيث يتاح لهم أن يثيروا مزيداً من العشائر ويتلقوا الإمداد من فرنسا. وأذعن تشارلز، وقاد التقهقر الأليم من داربي إلى جلاسجو. وعند فالركرك القريبة منها هزم بتسعة آلاف مقاتل قوة إنجليزية عدتها عشرة آلاف بقيادة هوللي (17 يناير 1746). ولكنه كان نصراً باهظ الثمن، فقد أضعفت جيشه الخسائر وهروب الجنود منه، وكانت إمداده أخذة في النضوب، ورواتبه تدفع دقيفاً، وقواده يتشاجرون شجار العشائر. وعادوا ينصحونه بالتقهقر، ودافع الأمير عن رأيه بالصمود، فهو لم ير في المزيد من التقهقر غير التفكك والدمار، فلم يهربون من عدو ليس أقوى من ذلك الذي هزمه من قبل؟ ثم أذعن مرة أخرى، ولكنه أيقن الآن أنه مغلوب. وعاد الجيش الاسكتلندي متجهاً إلى إقليم المرتفعات. وسرى تشاؤم قواته بقوة في صفوف الجند، فبلغ الهاربون منه ألوفاً، وما بقي كان أقرب إلى الحشد المختل اليائس منه إلى الجيش.

وخلال ذلك دخلت القوة الإنجليزية الرئيسية بقيادة دوق كمبرلاند إسكتلندة، وسيطرت على الساحل الشرقي، وتلقت عند ليث تعزيزاً من خمسمائة هسي جلبهم جورج الثاني من النمسا. وزحف كمبرلاند بجيش عده 8.800 مقاتل شمالاً مختاراً مقاطعة انفرنيس. وهناك التقى به تشارلز عند كلودن مور في 6 أبريل 1746، بسبعة آلاف مقاتل

صفحة رقم : 11750

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> الأمير تشارلي الجميل

سيئي السلاح والغذاء والقيادة، قاتلوا ببسالة اسكتلندية، ولكن بطشت بهم مدفعية كمبرلاند المتفوقة التي قذفت قنابل الشظايا (كما قال شاعر اسكتلندي) "أكياساً من الرصاص حصدهم حصداً، أجل بالعشرات، كما يتساقط العشب أمام المنجل(73)". وركب تشارلز هانجاً، وحاول جمع شتات رجاله المتقهقرين، ولكنهم لانوا بالفرار منطلقين فرادي، وأرغمه مساعدوه على الانسحاب من المعركة بالقبض على عنان جواده. فر في نفر من أصحابه وقد تحطمت روحه، وهام على وجهه مختبئاً من ملجأ إلى آخر، مكرراً مأساة تشارلز الثاني، بعد أن فارقه المجد. وأخيراً (20 سبتمبر) وجد مركباً أقله لفرنسا. وطارد كمبرلاند أعداءه المنحورين وأصدر أوامره لجيشه "بألا تأخذ بهم رحمة". فكل اسكتلندي ثائر يجب قتله فوراً. وفتشت البيوت، وضرب بالنار على عجل كل الاسكتلنديين الذي عثر على سلاح معهم. وأطلقت العشائر الموالية لجورج الثاني على تلك التي انضمت إلى الثورة، وأحرقت مئات المنازل(74). وقال الدوق "إن الإجراءات المعتدلة لن تجدي، وكل الخير الذي صنعناه ليس إلا فُصداً ضئيلاً لم يشف من الجنون وإن خففه(75)". وألحق أن العشائر المتمردة حاولت المرة بعد المرة أن تجدد التمرد. وظل دعاة الاستيوارتية الاسكتلنديون يتغنون ويحلمون بهزائم الماضي وانتصارات المستقبل، إلى أن تحطم إيمانهم بالانحلال الذي أصاب من كان يوماً أميرهم الجميل في روما.

ذلك معاهدة اكس-لاشاييل (1748) المبرمة بين إنجلترا وفرنسا اشترطت طرد تشارلز من الأرض الفرنسية. ولكنه رفض الرحيل، فأكرهته عليه الجنود الفرنسية، وعاد متنكراً إلى باريس، لا بل إلى لندن في 1750، وعبثاً حاول أن ينفخ روحاً جديدة في قضية الاستيوارتيين، وأن يعد بالتخلي عن المذهب الكاثوليكي(76). وأخيراً، وبعد أن سلم بالهزيمة، تردى في مهاوي السكر والفسق تردياً حمل كل القوى الكاثوليكية الكبرى على التتكر له. ومات في روما عام 1788، بالغا الثامنة والسنتين. وكان فولتير قبل ذلك

صفحة رقم : 11751

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> الأمير تشارلي الجميل

بثلاثين عاماً قد كتب قبرية منصفة للثورة الاستيوارتية الثانية قال فيها:
"وهكذا، (برجوع تشارلز إلى فرنسا في 1746) انتهت مغامرة كان من الجائز أن توفق في أيام الفروسية الجواله
بحثاً عن المغامرات، ولكن ما كان يمكن أن تنجح في عصر يقرر فيه الانضباط العسكري، والمدفعية، وأهم من ذلك
المال، كل شيء في نهاية الأمر(77)".

صفحة رقم : 11752

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> صعود وليم بت

9- صعود وليم بت

1756-1708

أسلم سقوط ولبول إنجلترا إلى سلسلة من الوزارات الصغيرة التي تخبطت في فوضى سياسية وحروب غير حاسمة.
فحكم اللورد ولمنجتن بوصفه وزير الخزانة (1742-43) في أرض الوطن بينما كان جورج الثاني يقاتل ببطولة
مسرحية، ولكنها حقيقية، في معركتين ديتنجن (27 يونيو 1743). كتب فرديريك الأكبر يقول "لزم ملك إنجلترا مكانه
على رأس كتيبته الهانوفرية طوال المعركة، وقدمه اليسرى إلى الخلف، وسيفه في يده وذراعه مبسوطة، أشبه ما
يكون بمعلم المتأقفة(78)"، ولكنه على أي حال ألهم رجاله بشجاعته، في حين أطاع بتواضع أوامر قواده. وأعدت
وزارة هنري بلام (1743-54) إنجلترا إلى حظيرة السلام، ولكنها واصلت طريقة الحكم بشراء الأصوات في الدوائر
والبرلمان. وحدد أخوه دوق نيوكاسل تسعية لسانسة إنجلترا، ضمّتها لدواعي الموازنة-جدولاً بسعر السوق الحالي لكل
نفس(79) وأبقى مآثره لهاتين الوزارتين أنهما ضمّتا الرجل الذي صنع الإمبراطورية البريطانية، والذي برز في
زمانه المضطرب ذلك شخصية من أقوى شخصيات التاريخ.

ولد وليم بيت (1708) ابناً للمال، لأن جده توماس بت كان جمع ثروة طائلة في الهند. وكان توماس نفسه رجلاً
يحسب له حساب. فقد عمل بحاراً في سفينة تجارية واستقر في البنغال، واشتغل بالتجارة في منافسة مشروعاً لشركة
الهند الشرقية التي كان البرلمان قد منحها احتكاراً. وقد غرم 1.000 جنيه، وواصل منافسته للشركة، وأكرهها على
الصلح، ثم انضم إليها، وظل اثنتي عشرة سنة حاكماً على

صفحة رقم : 11753

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> صعود وليم بت

مدارس. فما حل عام 1701 حتى كان قطباً مالياً يملك من المال ما يمكنه من شراء "ماسة بت" الشهيرة بعشرين ألفاً من الجنيهات، ومن الذكاء ما يمكنه من بيعها لفليب أورليان، الوصي على عرش فرنسا، بمبلغ 135.000 جنيه، وهي محفوظة الآن بعد أن ارتفعت قيمتها إلى 480.000 جنيه، بين مجوهرات الدولة الفرنسية في متحف اللوفر شاهداً متاقلاً على هبوط العملات. واستثمر توماس مكاسبه في العقارات الإنجليزية، واشترى مقعداً في البرلمان، ومثل فيه دائرة أولد ساروم "العفنة" من 1710 إلى 1715. وأوصي بممتلكاته لروبرت بت، أكبر أبنائه الذي تزوج هاربيت فليبه، التي أنجبت له سبعة أطفال، كان وليم بت ثاني ولد فيهم.

واحتج وليم على النظام المفروض على الطلاب وهو في إيتن، وذهب إلى تسخير كبارهم لصغارهم يحطم روح الطلبة؛ على أنه لم يحطم روحه.. وقد اشتهر في أكسفورد بمعاناته من النقرس وهو في الثامنة عشرة. وإذ راوده الأمل في البرء من هذا الداء إذا عاش في مناخ أدفأ، فإنه ترك الجامعة دون أن يحصل على درجة منها وسافر إلى فرنسا وإيطاليا، ولكن النقرس ظل صليبه الذي حمله طوال انتصاراته. ومع ذلك انخرط في الجيش، وخدم فيه أربع سنين، ولم يشهد معركة، ولكنه خرج مقتنعاً بأن الحرب هي فيصل التاريخ وقدر الدول. وفي 1735 اشترت له أسرته أصوات دائرة أولد ساروم، رغم أنها تركته في فقر نسبي باعتباره ابناً أصغر، وهكذا بدأ سيرته في البرلمان. وسرعان ما أسع الناس صوته هناك، لأنه كان أبلغ خطيب عرفه كهف الجدل والمناظرة ذاك إطلاقاً. فلقد سكب في خطبه كل قوة خلقه العاطفي المشبوب، وكل تصميمه على الوصول إلى السلطة، وعزمه على خلع ولبول، وعلى السيطرة على البرلمان والملك، وأخيراً إعادة تشكيل أوربا على هواه. وتحقيقاً لهذه الأهداف توسل بالمنطق، والدراما، والخيال، والحماسة، والشعر، والعبارة الطنانة، والقدح والتهكم، والهجو واستنفار الروح الوطنية، واستثارة المصلحة والمجد الشخصي والقوميين. وبمضي السنين طور براعته الخطابية حتى

صفحة رقم : 11754

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> صعود وليم بت

استوعبت كل أفانين الخطباء المفوهين كديموستين أو شيشرون؛ فكان في وسعه أن يحطم خصماً بعبارة واحدة. وقد اتبع قاعدة ديموستين فجعل الحركة حياة الخطاب، فكان لكل سطر إيماعته، وكانت كل عاطفة تشكل وجهه الشبيه بوجه الصقر وتتقد في عينيه الغائرتين، حتى لينفعل بدنه كله وكان الكلمة صارت جسداً. لقد كان أعظم ممثل اجتناب خشية المسرح.

ولم يكن ولياً ولا قديساً. فالطمع كان صارياً خلقه والريح التي تدفع في قلوبه. ولكن هذا الطمع كفر عن نفسه بانتظامه إنجلترا بأسرها، وأفنى نفسه بجره إنجلترا، رضيت أو كرهت، فوق البحار الإمبراطورية لبلوغ السيادة على العالم. وإذ شعر وليم بأنه الصوت المعبر عن الدولة أكثر من أي صوت حلقى هانوفري، أو أي رشا ولبولية، فقد اتخذ لنفسه مبدأ الحكومات الخلقية وهو أن كل ما ينفع الدولة فهو خير؛ وإذ كان قد توسل بالخديعة، والافتراء، والتخويف، والدس، ونكران الجميل، والحنث باليمين، والغدر، فإن تلك بضاعة رجل الدولة، ولا يحكم عليها الوعاظ بل الملوك. وكان في كل خطوة تقريباً في صعوده يتنكر لموقف دافع عنه قبيل ذلك بكل سمو العاطفة الخلقية (80)، وندر أن توقف ليُفسر أو يعتذر، بل كان يركب كل مركب يُبلغه هدفه، وقد أضفى نجاحه الذي كان نجاحاً لإنجلترا القداً على ذنوبه وطوق رأسه بهالة المجد والفخر. وكان في كبريائه شي جليل؛ فقد كان يحتقر شراء الترقى بالتذلل، واحتفظ بنظافة يده وسط الفساد والرشوة، وحقق غاياته بقوة شخصية عاتية لا يقف في طريقها عائق.

وقد طارد ولبول لأنه رأى بانعاً يتجر بالسلام، وإنساناً جباناً لا يجرؤ على خوض حرب ضد أسبانيا، شديد الخنوع لملك بيدي-في رأي بت- "نحو هانوفر تحيزاً سخيفاً ناكراً للجميل غادراً"، ملك "لا يعتبر إنجلترا غير إقليم من أقاليم إمارة حقيرة(81)". ولقد واصل الخطيب الغيور سياسته الحربية في قوة وحدة حملت دوقه ملبره وهي على فراش الموت سنة 1744 على أن توصي لبت بعشرة آلاف جنيه، ولا غرو فقد ورثت سارة ولع زوجها الدوق الراحل بالحرب.

صفحة رقم : 11755

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الحكام -> صعود وليم بت

فلما تقلد بلام الوزارة طلب إلى الملك تعيين بت وزيراً للحرب، ورفض جورج الثاني وكان لا يزال محترفاً بنار بت، ولكن بلام ألح، ووصف بت بأنه "أكفاً وأنفع رجل بيننا، شريف حقاً وأمين بكل ما في الكلمة من معنى(82)"، وأذعن الملك، وفي 1746 دخل بت الوزارة، أولاً بوصفه مناوياً لوزير الخزانة الإيرلندية، ثم خاناً للقوات المسلحة. وكان هذا المنصب قد أصبح بحكم التقاليد منجم ثروة لمن يتقلده، فالخازن يأخذ لنفسه نصفاً في المائة من جميع الأعانات التي يقررها البرلمان للأمرء الأجانب ويستثمر بالفائدة-التي يحتفظ بها لنفسه-الرصيد السائل الكبير المتروك لديه لدفع رواتب الجند. وأبى بت أن يأخذ غير راتبه الرسمي، فلما ألح عليه ملك سردانيا في أن يقبل هدية تعادل الاستقطاع العادي من إعانته رفض الهدية. وشفقت إنجلترا لنزاهة بت الشاذة، وهي التي طالما اعتبرت مثل هذه المنح إشباعاً عادياً لطبيعة الإنسان، وأصغت في شوق إلى مرافعاته المطالبة ببريطانيا شامخة الرأس فوق العالم بأسره.

وفي يناير 1755، ودون إعلان الحرب، نشب القتال بين إنجلترا وفرنسا في أمريكا. وفي يناير 1756 وقعت إنجلترا معاهدة مع بروسيا. وفي مايو أبرمت فرنسا حلفاً دفاعياً في النمسا. وفي نوفمبر أصبح بت، وزير الخارجية الآن، صوت إنجلترا وذرعاها في حرب السنوات السبع تلك التي ستقرر خريطة أوربا حتى الثورة الفرنسية.

صفحة رقم : 11756

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الموقف الديني

الفصل الرابع

1- الموقف الديني

كان لقصة القرن الثامن عشر في غرب أوروبا موضوع ذو شقين، انهيار النظام الإقطاعي القديم، والانهيار الوشيك للدين المسيحي الذي أضفى على ذلك النظام سنده الروحي والاجتماعي. فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برباط المعونة المتبادلة، وبدا أن سقوط الواحد يجز الآخر إلى مأساة مشتركة. وقد لعبت إنجلترا الفصل الأول في كلتا ناحيتي هذا التغيير العظيم. في المسرح السياسي سبقت حربها الأهلية (1642-49) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاماً في خلع أرستقراطية إقطاعية وضرب عنق الملك. أما في مجال الدين فإن نقد الرُبوبيين للمسيحية سبق الحملة الفولتيرية في فرنسا بنصف قرن، وسبقت مادية هوبز مادية لامتري بقرن، وسبقت رسالة هيوم "في الطبيعة البشرية" (1739) ومقالة "في المعجزات" (1748) هجوم "الفلاسفة" الفرنسيين على المسيحية في "الموسوعة" (1751). وكان فولتير قد تعلم شكوكيته في فرنسا وبعضها أخذه عن بولنبورك الإنجليزي المبعد عن وطنه قبل أن يحضر إلى إنجلترا ولكن السنوات الثلاث التي قضاها في إنجلترا (1726-28) روعته بمشهد السنية وقد أصابها الانحلال والكاثوليكية وقد ذلت، والبروتستنتية وقد تفرقت شيعاً مستضعفة، والرُبوبيين يتحدون كل شيء في المسيحية إلا الإيمان بالله وهو بالضبط التحدي الذي سيحمله فولتير إلى فرنسا. يقول فولتير "في فرنسا ينظر الناس إليّ على أنني مقلّ في الدين، وفي إنجلترا على أنني مُسرف فيه (1)". وقد كتب مونتسكيو بعد أن زار إنجلترا في 1731 يقول "ليس

صفحة رقم : 11757

قصة الحضارة - عصر فولتير - إنجلترا - الدين والفلسفة - الموقف الديني

في إنجلترا دين (2)". وهذا بالطبع تدريب على المبالغة اللافتة للأنظار، لأنه في تلك الفترة بعينها كان جون وشارلز وسلي يؤسسان الحركة الميثودية في أكسفورد. ولكن مونتسكيو، وهو رجل أرستقراطي، تنقل أكثر ما تنقل بين أقطاب النبالة أو العلم، وهو يخبرنا أنه في هذه الجماعات "إذا ذكر الدين ضحك الجميع (3)". وهذا أيضاً يبدو غلوّاً في القول؛ ولكن لنستمع إلى اللورد هرفي، الذي كان يعرف تقريباً كل رجل وامرأة ومنحرف بين عليّة القوم: "إن خرافة المسيحية هذه... قد نسفت الآن (1718) في إنجلترا، حتى ليكاد أي رجل عصري أو ذي مكانة يخجل من الاعتراف بمسيحيته خجله في الماضي من الجهر بتجرده من أي دين. وحتى النساء اللاتي كن يفخرن بذكائهن حرصن على أن يفهم الناس أن الميول المسيحية هي ما يحتقرن الالتزام به (4)". في تلك الطبقات أو العقول الرفيعة كان الدين يعني أما نعاس صلاة القديس الأنجليكاني أو "حماسة" المذاهب المنشقة، و عما قليل سيعرف الدكتور جونسن الحماسة بأنها "إيمان مغرور بالإلهام الخاص" -وبالمعنى الحرفي "إله في باطن الإنسان". وكانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفرين وحزب الأحرار المنتصر؛ وخضعت الآن للدولة، وغدا قساوستها أتباعاً أدلاء للطبقة الحاكمة. وكان القسيس الريفى هو الهدف المفضل لهجو الأدباء أو سخرية السوق، وقد كرم فيلدنج من شدوا عن هذه القاعدة في شخص القس آدمز.

وغلبت الفوارق الطبقيّة في الكنائس، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر، وجلس عامة الناس أو وقفوا في المؤخرة، فإذا قضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم ريثما يخرج صف الكبراء في وقار بطيء (5). وفي بعض كنائس لندن، حيث يكثّر عدد الفقراء القادمين للعبادة، كان المصلون من أصحاب البواريك يهربون بعد أن يقفوا مقاعدهم خلفهم (6)، ملتسبين هواء أكثر نقاء. وكان بعض الأساقفة الأنجليكان أمثال بطرر، وباركلي، ووربرتون، رجالاً متبحرين في العلم؛ وكان اثنان من هؤلاء على خلق عظيم، ولكن

صفحة رقم : 11758

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الموقف الديني

أكثر كبار الأكليروس كانوا في مناوراتهم للتزقي يشاركون في لعبة السياسة شكاك البلاط ومحظياته، ويفنون في حياة الترف دخول كثير من الأبرشيات. وقد روي أن الأسقف تشاندلر دفع 9.000 جنيه لترقيته من لتشفيلد إلى درم، أما ويليز أسقف ونشستر، وبوتر رئيس أساقفة كنتربري، وجبسن وشرلوك أسقفاً لنندن، هؤلاء جميعاً ماتوا "أغنياء غنى مخزياً" وبلغت ثروة بعضهم 100.000 جنيه (7). ولم يكن تكرر يطيقهم، فقال:

"قرأت أن الليدي يارموث (خليلة جورج الثاني) باعت أسقفية لكاهن بمبلغ 5.000 جنيه... أكان هو الحبر الوحيد في عصره الذي قادته أيد كهذه إلى المحراب؟ إنني إذ أختلس النظر إلى داخل قصر سانت جيمس الذي يقطنه جورج الثاني، أرى الثياب الكهنوتية الكثيرة تحدث حفيفاً وهي تصعد السلم الخلفي لسيدات البلاط؛ قساوسة متسترين يدسون أكياس النقود في حجورهن، وذلك الملك العجوز الفاجر يتناهب تحت مظلته في المصلى الملكي أثناء عظة القسيس، الواقف أمامه، (أو) يثرثر بالألمانية... بصوت يبلغ من علوه أن القسيس... انفجر صارخاً في منبره لأن حامي الإيمان وموزع الأسقفيات لا يريد الإصغاء إليه! (8)".

وكان من سمات العصر أن الكنيسة الرسمية أصبحت شديدة التسامح مع عقائد أعضائها وطقوسهم المختلفة، وقد وصفها بت بأنها "عقيدة كلفنية، وطقوس بابوية، وأكليروس أرمنيوسي (9)" أي أن العقيدة الرسمية كانت جبرية، والطقوس شبيهة بطقوس روما الكاثوليكية، ولكن روحاً متحررة سمحت للقساوسة الأنجليكان برفض حتمية كلفن واعتناق تعليم المهروطق الهولندي أرمنييو القائل بحرية الإرادة. لقد ازداد التسامح لأن الإيمان اضمحل، وأية ذلك أن هرطقات كهرطقة هيوم، كانت تروغ إنجلترا القرن السابع عشر لو جهر بها إنسان، لم تُحدث غير موجة طفيفة على نهر الفكر البريطاني. وقد وصف هيوم نفسه إنجلترا بأنها استكانت إلى حال من عدم الاكترات الهادئ بأمر الدين لا تجدها في أية أمة أخرى من أمم الأرض (10)".

صفحة رقم : 11759

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الموقف الديني

وكان كل الإنجليز ملزمين بالعبادة الأنجليكانية حسب نص القانون. فكل متخلف عن صلوات الأحد عرضة لتغريمه شلناً عن كل تهرب، وكل من يسمح لهذا المتخلف بمساكنته يعاقب بغرامة عشرين جنيهاً في الشهر (11)؛ على أن هذه القوانين ندر أن طبقت. وكانت العبادة الكاثوليكية محرمة، قانوناً أيضاً لا تطبيقاً. فالقس الكاثوليكي الذي يؤدي وظيفة كهنوتية عقابه الحبس المؤبد. ومثل هذه العقوبة فرضت لثني أي كاثوليكي عن فتح مدرسة؛ وحرّم على الوالدين إرسال أبنائهم إلى الخارج ليتعلموا تعليماً كاثوليكياً وإلا غرموا 100 جنيه. ولا يحق شراء الأرض أو ورثتها إلا للمواطنين الذين أقسموا يميني الولاء والسيادة (اللتين تعترفان بملك إنجلترا رأساً للكنيسة) وقرروا رفضهم لعقيدة التحول. وكل كاثوليكي يرفض أداء هاتين اليمينين يحرم من المناصب المدنية أو العسكرية، ومن ممارسة المحاماة، ومن إقامة أي دعوى أمام القضاء، ومن العيش في نطاق عشرة أميال من لندن؛ يضاف إلى هذا أن الكاثوليكي يجوز في أي وقت نفيه من إنجلترا والحكم عليه بالإعدام إذا عاد إليها. على أن الذي حدث فعلاً أيام جورج الأول والثاني هو أن الكاثوليك كانوا يورثون ثروتهم وعقيدتهم بانتظام لأبنائهم، ويستطيعون الاستماع إلى القداس في كنائسهم الصغيرة وبيوتهم دون معوق، وأن الكثيرين منهم أدوا اليمينين المطلوبتين مع تحفظ بينهم وبين أنفسهم (12). وكان كل البروتستانت الإنجليز الغيورين الآن يتبعون المذاهب المنشقة على الكنيسة الرسمية. وقد ضحك فولتير واغتنب لكثرة عددهم: مستقلون (بيورتان)، ومشيخيون، ومعمدانيون، ومجمعيون، وكويكريون، وتوحيديون. فأما المشيخيون (البرزبتيرون) فكانوا في طريقهم إلى التسامح بعد أن فقدوا سلطتهم السياسية، ولم يأخذوا عقيدة الجبر مأخذ الجد الشديد، وكان كثير منهم قانعاً في صمت بمسيح بشري (13). وفي 1719 قرر مجمع للقساوسة المشيخيين بأغلبية 77 إلى 69 أن التعهد بالتزام عقيدة الثالث التقليدي ينبغي ألا يكون شرطاً يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة (14). وأما الكويكريون فكانوا في نمو لا في العدد بل في الثراء، وكلما ارتقوا في مدارج المجتمع أصبحو أكثر تقبلاً لأساليب حياة البشر وذنوبهم. على أن ميلاً إلى الاكتئاب

صفحة رقم : 11760

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الموقف الديني

أصاب كل المنشقين تقريباً حتى وهم ينعمون بالثراء، وبينما كانت طبقات المجتمع العليا تجعل من يوم الأحد يوم جذل كانت الطبقة الوسيطة الدنيا-حيث يتكاثر المنشقون-تواصل "الأحد العبوس" الذي ورثته عن البيورتان. في ذلك اليوم كانت الأسرة عقب صلوات الصباح في البيت تمضي إلى قاعة الاجتماع لحضور خدمة دينية تمتد ساعتين، فإذا عادت إلى البيت قرأ الأب الكتاب المقدس أو الكتب التقوية على زوجته وأبنائه الذين قد يجلسون على وسائد فوق أرض عطلت من الأبسطة. وكانوا عادة يذهبون ثانية إلى خدمات دينية تقام عصرًا ومساءً، ويصلون جماعة، ويسمعون عظة أخرى، ويجدون بعض اللذة في ترتيل الترانيم الجهورية. ولم يكن مسموحاً بأي غناء في ذلك اليوم المقدس، ولا بلعب الورق، ولا بأي تسلية من أي نوع كانت بصفة عامة. ويجتنب السفر في يوم الرب، فيعطي قطاع الطرق بهذه الطريقة يوم راحة.

ووجد فولتير في معرض وصفه للمشهد الديني في إنجلترا الكثير مما يصلح درساً لفرنسا التي ما زال التعصب يحكمها. قال:

"انظر إلى بورصة الأوراق المالية الملكية بلندن... هناك يُجري اليهودي والمسلم والمسيحي معاملاتهم معاً وكأنهم من دين واحد، ولا ينعنون بالكفر غير المفلسين. هناك يثق المشيخي بالقائل بعماد الكبار، ويعتمد الأنجليكاني على كلمة الكويكري. فإذا انفض هذا الجمع الحر مضي بعضه إلى مجمع اليهود، وبعضه ليشرّب كأساً من الخمر. هذا الرجل يذهب ويعمد في حوض هائل باسم الأب والابن والروح القدس؛ وذلك يأمر بختان ولده ويتمتمة طائفة من

الكلمات العبرية التي يجهل كل الجهل معناها فوق الطفل؛ وآخرون (الكويكرون) يمشون إلى كنائسهم حيث ينتظرون الوحي وقبعاتهم على رؤوسهم؛ والكل راضون.
"ولو أن إنجلترا لم تسمح بغير دين واحد، لأصبحت الحكومة في أغلب الظن مستبدة؛ ولو كان هناك دينان فقط لذبح الناس بعضهم بعضاً؛ أما والأديان بهذه الكثرة، فإنهم جميعاً يعيشون في سعادة وسلام(15)".

صفحة رقم : 11761

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> التحدي الربوبي

2- التحدي الربوبي

تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسيحية في إنجلترا: ارتباط الكنيسة بصعود الأحزاب السياسية وسقوطها؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة في طبقات المجتمع العليا، ودولية الأفكار بفضل التجارة والسفر، والإلمام المتزايد بالأديان والشعوب غير المسيحية، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها، وتطور العلم، وازدياد الإيمان بالأسباب الطبيعية والقوانين الثابتة، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس، واستيراد أو ترجمة كتب خطيرة مثل "معجم" بيل و "الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا"، والكف عن رقابة الدولة على المطبوعات (1694)، ومكانة العقل الصاعدة، والمحاولات الجديدة للفلسفة، في أعمال بيكون، وهوبز، ولوك، لتفسير العالم والإنسان تفسيرات طبيعية وتلخيصاً لكثير من هذه العوامل حملة الربوبيين (المؤلهة) Deists لاخترال المسيحية إلى مجرد الإيمان بالله والخلود.

وكانت تلك الحركة قد بدأت بكتاب "الحقيقة لهربرت" لورد تشربري في 1624، ونمت خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر بنشارلز بلاونت، وجون تولاند، وأنتوني كولنز، وواصلت الآن سيرها بأثر متراكم في أعمال هويستن، وولستن، وتندال، ومدلتن، وتشب، وأنت، وبولنبروك. وقد طرد وليم هويستن الذي خلف نيوتن أستاذاً "لوكازياً" للرياضة في كمبردج من منصبه ذلك (1710) لأعرابه عن بعض الشكوك في الثالوث، فدافع عن أريوسيته في كتاب "أحياء المسيحية البدائية" (1712)، وأجهد نفسه ليثبت أن تنبؤات العهد القديم لا تشير إلى المسيح. فلما أفلح المدافعون عن المسيحية عن اتخاذ الحجج من التنبؤات، وبنوا ألوهية المسيح على المعجزات المروية في العهد الجديد، أطلق توماس وولستن سورته التي خلعت من التوقير للمسيحية في "سنة أحاديث عن معجزات مخلصنا" (1727-30). يقول فولتير "لم يهاجم المسيحية قط مسيحي بمثل هذه الجرأة(16)". وقد زعم وولستن أن بعض المعجزات لا تصدق، وبعضها غير معقول. ووجد أن مما لا يصدقه

صفحة رقم : 11762

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> التحدي الربوبي

العقل أن يعلن المسيح شجرة تين لأنها لم تثمر تيناً في وقت مبكر من العام كوقت الفصح. وتساءل ماذا كان مربو الأغنام لصوفها فاعلين بيسوع لو أنه دفع أغنامهم إلى الموت كما فعل بخنازير الجديين؛ إنهم كانوا "يستصدرون حكماً بإعدامه شنقاً"، لأن القانون الإنجليزي يعتبر هذا العمل جنائية كبرى (17). وذهب وولستن إلى أن قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم. وغطى هذا كله بتأكيدات زعم فيها أنه ما زال مسيحياً "قوياً كالصخرة". ومع ذلك أهدى كل حديث إلى أسقف مختلف، مع التنديد بكبرهم وجشعهم تنديداً حملهم على رفع دعوى القذف والتجديف عليه (1729). وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها مائة جنيه، وبتقديم ضمان لسلوكه سلوكاً حميداً في المستقبل. فلما عجز عن جمع المبالغ المطلوبة زج به في السجن. وقدم فولتير ثلث المبلغ، وجمع الباقي، وأفرج عن وولستن. ولا شك أن المحاكمة كانت إعلاناً عن "الأحاديث"، فبيع منها ستون ألف نسخة في بضعة سنوات (18). روت "سيرة لوولستن" بقلم كاتب مجهول (1733) كيف أنه وهو سائر في سانت جورجز فيلدز، "لقينته شابة وسيمة وخاطبته بهذه الكلمات... أيها الوغد العجوز، ألم تشنق بعد؟" فأجابها وولستن "أيتها المرأة الطيبة، أنا لا أعرفك. فقولي لي من فضلك بما أسأت إليك"؛ فأجابت المرأة "لقد هاجمت مخلصي، فما الذي يحدث لنفسي الخاطئة المسكينة، لولا مخلصي الحبيب؟-مخلصي الذي مات من أجل الخطاة الأشرار أمثالي (19)".

وبلغت الدعوى الربوبية ذروتها في ماثيو تتدال، زميل كلية جميع النفوس بأكسفورد. فبعد حياة هادئة محترمة كان أهم ما ميزها اعتناقه الكاثوليكية ثم تحوله عنها، نشر وهو في الثالثة والسبعين أول مجلد من كتابه "المسيحية قديمة قدم الخليفة" (1730). وخلف عند موته بعد ثلاث سنوات مخطوطة مجلد ثان وقع في يد أسقف فأتلفه. وفي وسعنا أن نقدر وقع المجلد الأول من الردود التي حاولت مناقضته وعددها 150، وهذا الكتاب هو الذي ابتعث كتاب الأسقف بطر "أوجه الشبه بين الدين والطبيعة" وكتاب الأسقف باركلي "السيرون" (أو الفيلسوف الصغير).

صفحة رقم : 11763

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> التحدي الربوبي

وقد طوف تتدال في غير ترفق بكل أوهام اللاهوت. فتساءل لم أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود، وجعله حكراً عليهم أربعة آلاف سنة، ثم أرسل إليهم ابنه بوحى آخر ما زال بعد ألف وسبعمئة سنة مقتصرأ على أقلية من الجنس البشري. فأى نوع من الآلهة يمكن أن يكون هذا الإله الذي استعمل هذه الطرق السقيمة بمثل هذه النتائج البطيئة الناقصة؛ وأي إله رهيب هذا الذي عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة، ثم عاقب كل ذراريهم لمجرد أنهم ولدوا؟ يقول لنا أن السخافات التي يتضمنها الكتاب المقدس سببها أن الله وفق كلامه لغة سامعيه وأفكارهم. فيا له من هراء! لم لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومة؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له بدلاً من أي يتحدث مباشرة إلى نفس كل إنسان. ولم سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد، وإرهاب، وحرب، لا يخرج منه البشر بعد قرون من هذا التدبير الإلهي أكثر فضيلة منهم عن ذي قبل؟ بل جعلهم في الواقع أشد ضراوة وقسوة مما كانوا في ظل العبادات الوثنية! أليس في كونفوشيوس أو شيشرون فضيلة أرفع مما في مسيحية التاريخ؟ إن الوحي الحقيقي موجود في الطبيعة ذاتها، وفي عقل الإنسان الممنوح من الله؛ والإله الحقيقي هو الإله الذي كشف عنه نيوتن، المهندس لعالم عجيب يعمل بعظمة وجلال وفق قانون ثابت؛ والفضيلة الحققة هي حياة العقل في انسجام مع الطبيعة، "فكل من ينظم ميوله الفطرية بحيث تؤدي إلى أقصى حد لاستخدام عقله، وصحة جسده، ولذات حواسه، مجتمعة كلها معاً (لأن في هذا سعاده) له أن يثق بأنه لا يمكن أن يُغضب خالقه الذي إذ يحكم كل الأشياء حسب

طبائعها فهو لا بد يتوقع من مخلوقاته العاقلة أن تسلك وفق هذه الطبائع(20)". تلك هي الفضيلة الحقة، تلك هي المسيحية الحقة "القديمة قدم الخليقة".
وواصل كونيرز مدلتن الهجوم من الزاوية التاريخية. فيعد أن تخرج في كلية ترنتي بكميردج رسم قسيساً، وبينما كان يكيل الضربة تلو الضربة للإيمان السني، واصل الممارسات الخارجية للعبادة المسيحية. وقد كتب طرفاً من أفضل النثر في عصره، وكتابه "سيرة شيشرون" (1741) ما زال إلى اليوم سيرة رائعة رغم كثرة

صفحة رقم : 11764

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> التحدي الربوبي

ما استعارة من سير شيشرون التي سبقته. وقد أبهج زملاءه القساوسة حين أرسل إلى إنجلترا "رسائل من روما" (1739)، التي بين فيها بتفصيل ينم عن علم ودراية رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة في مجموعة الطقوس الكاثوليكية-البخور، والماء المقدس، وأثار القديسين، والمعجزات، والقرايين المنذورة والأنوار القائمة أمام المزارات المقدسة، و "كبير الأبحار Pontifex Maximus" القديم الذي أصبح كبير أبحار روما Pontiff. وصفقت إنجلترا البروتستنتية للرسائل، ولكنها سرعان ما تبينت أن ولع مدلتن بالتاريخ يمكن أن يكدر صفو اللاهوت البروتستنتي كالكاثوليكي سواء بسواء. فلما دافع دانيال ووترلاند عن حرفية صدق الكتاب المقدس ووحية رداً على تندال، أنذر مدلتن في "رسالة الدكتور ووترلاند" (1731) اللاهوتيين البروتستنت بأن تشبثهم بكل أساطير الكتاب المقدس باعتبارها تاريخاً فعلياً ليس إلا عملاً انتحارياً، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ أن عاجلاً أو آجلاً مثل هذه الخرافات ويكره المدافعين المسيحيين على التفهق في خجل إلى موقف أكثر تواضعاً. ثم لجأ مدلتن إلى حجة فضحت ما كان لدراسته للتاريخ من أثر في إيمانه الديني فقال: "حتى ولو كان اللاهوت المسيحي لا يصدق، فإن المواطن الصالح سيساند المسيحية والكنيسة المسيحية باعتبارهما درعاً للنظام الاجتماعي يوفر روادع ممتازة للهمجية الكامنة في طبيعة البشر(21)".

وأخيراً أصدر مدلتن أهم أعماله ، تحقيق حر في القوى الأعجازية المزعون أنها وجدت في الكنيسة المسيحية خلال العصور المتعاقبة" (1748)-وهو كتاب عدّه هيوم بعد ذلك أسمى من مقالة المعاصر "في المعجزات" (1748). وقد بدأ بالتسليم بحجية المعجزات المنسوبة في الأسفار القانونية من العهد الجديد إلى المسيح أو رسله، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة إلى آباء الكنيسة وقديسيها وشهادتها بعد القرن الميلادي الأول غير جديرة بالتصديق، ومجرد سرد تلك القصص يكفي للكشف عن سخفها. وقد آمن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها؛ ونقل مدلتن عن موزهايم، المؤرخ الكنسي العلامة، تصريحه بالخوف من أن "الذين يبحثون بشيء من العناية كتابات أعظم وأقدس لاهوتيي القرن الرابع

صفحة رقم : 11765

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> التحدي الربوبي

سيجدونهم كلهم وبلا استثناء ميالين إلى الخداع والكذب كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين(22)". وفي كتاب مدلتن عيوب كثيرة. فقد فاته أنه هو أيضاً زكى الخداع بالجملة دعماً للمسيحية، وغفل عن أن من التجارب الغربية، كإخراج "المس الشيطاني"، أو كسماع القديس أنطونيوس للشيطان واقفاً ببابه، ما يمكن أن ينشأ عن قوة الإيحاء أو الخيال، وربما بدت هذه التجارب من قبيل المعجزات لمن رووها بأمانة. على أي حال كان من أثر هذا "التحقيق الحر" أنه سلط على معجزات العهد القديم ثم على معجزات العهد الجديد، طرق النقد ذاتها التي طبقتها مدلتن على عصر آباء الكنيسة، وكان خصومه الكاثوليك محقين تماماً حين زعموا أن حججه من شأنها إضعاف كل الأساس الإعجازي للإيمان المسيحي. ولعل مدلتن قد قصد إلى هذا. ولكنه احتفظ بترقياته الكنسية إلى النهاية. كان اعتناق بولنبروك للربوبية سراً مخفي وعدوى متفشية في الطبقة الأرستقراطية. ففي كتاباته التي حبسها عن النشر في حياته صوّب قدحه المفعم بالازدراء إلى جميع الفلاسفة تقريباً فيما عدا بيكون ولوك. فلقب أفلاطون بأبي الكذب اللاهوتي، وسمي القديس بولس "حالمًا متعصبًا" وليبنتر "مشعوذاً كيميائياً(23)" والميتافيزيقيين "مجانين مثقفين" ووصف كل القائلين بتميز النفس عن الجسد بأنهم(24) "معتوهون روحيون" وسخر من العهد القديم لأنه خليط من الهراء والأكاذيب(25). ولقد صرح بإيمانه بالله، ولكنه رفض ما بقي من العقيدة المسيحية. فكل المعرفة عنده نسبية وغير يقينية. يقول: "ينبغي لنا دائماً أن نكون غير مؤمنين... ففي الدين، والحكم، والفلسفة، ينبغي أن نتشكك في كل شيء مقرر(26)" وألقى وراء ظهره بآخر تعزيبات الشكاك وهي الإيمان بالتقدم؛ فكل المجتمعات تمر بدورات "من النشوء إلى الفساد، ومن الفساد إلى النشوء(27)". وفي 1744 ورث بولنبروك ضيعة الأسرة في باترسي، وغادر

صفحة رقم : 11766

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> التحدي الربوبي

فرنسا لينفق هناك آخر سني صراعه مع المرض واليأس. وهجره أصحابه القدامى لانتهيار نفوذه السياسي وحدة طبعه. وأنهى موت زوجته الثانية (1750) اهتمامه بشئون البشر، "في كل سنة ازداد عزلة في هذه الدنيا(28)" وهذا عقاب الأنانية. وفي 1751 ابتلى بالسرطان الذي انتشر في وجهه فأملئ وصية تتسم بالنقوى، ولكنه رفض أن يسمح لأي قسيس بالاهتمام بروحه(29). ومات في 12 ديسمبر بعد ستة شهور من العذاب، بغير أمل لالنفسه ولا للبشر. لقد أخذ اضمحلال الإيمان الديني يولد ذلك التشاؤم الذي سيصبح العلة الخفية التي تبتلي بها النفس العصرية.

صفحة رقم : 11767

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الدفع الديني

أما المدافعون عن المسيحية فلم يقابلوا الهجوم الربوبي بأي استسلام أو هزيمة، بل إنهم على العكس من ذلك ردوا الهجوم بكل ما أوتي تندال أو مدلتن أو بولنبروك من قوة عارمة، وعلم واسع، وأسلوب مقذع. واعتمد المدافعون الأضعف شأنًا، مثل تشاندلر أسقف لنتسفيلد، ونيوتن أسقف لندن، على الحجج البالية، وهي أن اليهود كانوا ينتظرون في حرارة وشوق مجيء "المسيا" حين أتى المسيح، وإن كثيراً من النبوءات اليهودية تحققت على يديه؛ أو رجعوا- كما فعل شرلوك أسقف لندن وبيرس أسقف روتشستر- إلى الشواهد الكثيرة على قيامة المسيح. وركز شرلوك وغيره على أن الأدلة على معجزات المسيح غامرة ساحقة، وفيها كفاية لدعم ألوهية المسيح والمسيحية. وقال شرلوك إن رفض حدث توافرت الأدلة على صدقة لأنه يناقض تجربتنا عمل شديد الخطر، فعلى الأساس نفسه رفض سكان المدارين أن يؤمنوا بحقيقة الثلج. فإذا زعمنا أن الأشياء لا يمكن أن تكون غير ما عرفناها، "تجاوزنا أعلام حواسنا، وقامت النتيجة على الهوى لا على العقل(30)". وليس في إمكاننا التأكد من أن الإنسان لن يقوم من الأموات برغم تجربتنا الواسعة، الضيقة في حقيقتها. فانظر كم من العجائب التي نقبلها الآن على أنها أحداث عادية في حياتنا كنا من قبل نظنها بعيدة التصور!

صفحة رقم : 11768

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الدفع الديني

أما جورج باركلي، الذي ترك بصمته على الفلسفة في السنوات 1709-13، فقد أدلى بدلوه في الجدل من جزيرة رود بكتاب "السيرون" أو الفيلسوف الصغير (1733)، وهو حوار يتألق بالتفكير الجريء والأسلوب المرح. والسيرون هذا يصف نفسه بأنه رجل حر التفكير، تقدم من التسامح الديني إلى الربوبية إلى الإلحاد، وهو الآن يرفض الدين كله باعتباره خداعاً يمويه به الكهان والحكام على الناس؛ وهو يأبى الإيمان بأي شيء غير الحواس، والعواطف، والميول الفطرية؛ ويندز بوفرانور (لسان حال باركلي) الربوبيين بأن عقيدتهم مفضية إلى الإلحاد، وأن الإلحاد سيفضي إلى انهيار الفضيلة. قد يكون هناك بعض الملحدون الأفاضل، ولكن ألا تولد عقيدتهم، إذا ما قبلتها الجماهير، الإباحية والتمرد على القانون؟ وهؤلاء المنتسكون في الدين ينبغي أن ينتسكوا في العلم أيضاً، لأن كثيراً من دعاوي العلماء- كما هي الحال في الرياضة العليا- تتجاوز تماماً شهادة حواسنا أو تناول فهمنا. وما من شك في أن عقيدة التثليث ليست أعصى على الفهم من الجذر التريبيعي لناقص واحد.

وأما وليم وربرتن فلم يكن بالرجل الذي يرسي إيمانه أو موارده الكنيسة على أساس واه كجذور باركلي الصماء. فبعد أن دُربَ لممارسة المحاماة، ورُسم قساً أنجليكانياً، شق طريقة وسط غابة اللاهوت بكل ما أوتي الذهن القانوني من براعة يقظة. ولعله كان أصلح للجيش منه للمحاماة أو لرداء الكهنوت، فقد كان يستطيب العراك، وما كان يستطيع النوم في الليل إلا إذا أُردي خصماً في النهار. وقد وصف حياته بأنها "حرب على الأرض، أي على المتعصبين والمنحليين، الذين أعلنت عليهم الحرب الأبدية كما فعل هانيبال أمام المذبح(31)". واتسع مرمى سهامه وبعد، فإذا أخطأت الخصوم قتلت الأصدقاء. وقد وصف معاصريه بأوصاف محكمة. فجونسن "بلطجي" خبيث وقح، وجاريك "إذا انحرف مرة وتكلم كلاماً له بمعنى كان أقرب إلى الهراء"، وسموليت "اسكتلندي متشرد" يكتب "لغوياً مضروباً في عشرة الاف"، وفولتير "وغد" يتمرغ في "أقدر بالوعات التفكير الحر(32)".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الدفع الديني

وقد ظهرت رائعته الضخمة ذات المجلدين في 1737-41 بعنوان "رسالة موسى الإلهية مفسرة طبقاً لمبادئ ربوبي ديني" وكانت حجتها مبتكرة وفذة. فالإيمان بحالة مستقبلية من الثواب والعقاب لا غنى عنه للنظام الاجتماعي (وهو ما وافق عليه الكثير من الربوبيين)، ولكن موسى وفق في تنظيم الحياة اليهودية وأبلاغها حالة من الرخاء والفضيلة بغير ذلك الإيمان، ولا تفسير لهذه المعجزة إلا بالإرشاد الإلهي لموسى واليهود، ومن ثم فرسالة موسى ونواميسه الهية، والكتاب المقدس كلمة الله. وأحس وربرتن أن هذا الإيضاح "قريب كل القرب من اليقين الرياضي(33)" ولم يكن زملاؤه اللاهوتيون سعداء كل السعادة برأيه في أن الله أرشد اليهود خلال 613 قانون وأربعة آلاف سنة دون أن يعلمهم أن نفوسهم خالدة. ولكن المؤلف القوي ملأ صفحاته ببحوث علمية-عن طبيعة الفضيلة، وعن التحالف الضروري بين الكنيسة والدولة، وعن ديانات الأسرار والشعائر في العصور القديمة، وعن أصل الكتابة، وعن معنى الرموز الهيروغليفية، وعن التاريخ المصري، وعن تاريخ سفر أيوب، وعن أخطاء أحرار الفكر، والأثريين، والعلماء، والمؤرخين، والتوحيديين والأثر الك، واليهود-حتى لقد ذهلت إنجلترا بأسرها لتقل علمه واتساع مداه. وتقد وربرتن من معركة إلى معركة-ضد كروساز، وثيوبورد، وبولنبروك، ومدلتن، ووسلي، وهيوم-حتى بلغ أسقفية جلوستر المريحة المجزية.

وأما جوزيف بطر فكان ألين عوداً ولكنه أكثر رهافة وتهذيباً، رجلاً بالغ الرقة والتواضع والإحسان، حَزَّ في نفسه كثيراً أن يرى الدين الذي أعان على فطن الحضارة الأوربية من الهمجية، يواجه امتحاناً من أجل حياته. وقد صدمه الإقبال الذي لقيته مادية هوبز في الطبقات العليا. فلما عرضت عليه (1747) رأسه أسقفية كنتربري-وهي أعلى منصب كنسي في إنجلترا-رفضها معتذراً بأنه قد "فات وقت محاولة دعم كنيسة متداعية(34)". وفي 1751 أعرب عن فزعه "لما أصاب الدين من انحلال شامل في هذه الأمة.. فتأثيره يبلي أكثر فأكثر في أذهان الناس... وعدد الذين يجهرون بالكفر في ازدياد، وتحمسهم للكفر يزداد بتزايد عددهم(35)". وقد أدهش

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الدفع الديني

صديقه "دين تكرر" بسؤاله: ألا يجوز أن تصاب الأمة كما يصاب الفرد بالجنون؟ وكأنه شعر أن شعباً من الشعوب قد يصاب بفقد الذاكرة الروحي إذا تخلى عن تراثه الديني والخلقي.

ومع ذلك كرس حياته في محاولة لرد اعتبار عقلي للإيمان المسيحي. فنشر وهو ما زال قسيساً شاباً في الرابعة والثلاثين "خمس عشر عظه" (1726) لطف فيها من تحليل هوبز المتشائم للطبيعة البشرية، فزعم أن الإنسان وإن كان في نواح كثيرة شريراً بطبيعته، إلا أنه بطبيعته أيضاً كائن اجتماعي أخلاقي، فيه إحساس فطري بالحق والباطل.

وقال إن العناصر الأسمى في كيان الإنسان تدين بأصلها لله، الذي هي صوته، وعلى هذا الأساس أقام نظرية عامة تقول بأن هناك قصداً إلهياً يتخلل العالم. وأعجبت كارولين بحجته، وفي 1736 عين بطزر كاهناً خاصاً للملكة. في ذلك العام نشر كتاباً ظل طوال قرن أهم حصن لحجج المسيحية ضد الإلحاد، واسمه "وجه الشبه بين الدين الطبيعي والموحي، وبين تكوين الطبيعة ومسلكتها" وقد كشفت مقدمة الكتاب عن مزاج العصر: "لقد انتهينا-ولا أدري كيف انتهينا-إلى حال أصبح فيها من القضايا المسلمة عند الكثيرين، إن المسيحية ليست موضوعاً يكثر فيه البحث والتحقيق إلا لأنه قد تبين آخر الأمر أنها ديانة زائفة. ومن ثم يتناولونها وكأن هذا بات الآن نقطة يجمع عليها كل أصحاب الفطنة والتميز، فلم يبق إلا أن يجعلوا منها هدفاً رئيسياً للهزء والسخرية، وكأنهم يعاقبونها لأنها قطعت على الناس لذات الدنيا هذا الزمان الطويل(36)".

وإذ قصد بالكتاب أن يكون رداً على الربوبيين، فإنه افترض وجود الله. وكان "الدين الطبيعي" الذي يدين به الربوبيون يقبل "إله الطبيعة"، مخطط العالم وصانعه الأعظم، ولكنه يرفض الإله الذي صورته الكتاب المقدس، وهو إله ظالم ظملاً بيناً، لأنه لا يتفق أبداً وهذا المفهوم السامي. وأراد بطزر أن يبين أم في الطبيعة من علامات الظلم

صفحة رقم : 11771

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الدفع الديني

والقسوة ما لا يقل عما في "يهوه" كما صورته العهد القديم؛ وأنه لا تناقض بين إله الطبيعة وإله الوحي، وأن الذين قبلوا أحدهما ينبغي منطقياً أن يقبلوا الآخر. ويبدو أن كاهن الملكة الخاص، الطيب، لم يدر بخلده قط أن بعض الشكاك الوحيين قد يخلصون من هذه الحجة (كما خلص جيمس مل) إلى أنه لا هذا الإله ولا ذلك جدير بأن يعبد المتحضرون.

وأقام بطزر حجته في وجود الإلهين، وفي أنهما واحد، على الترجيح والاحتمال. فقال إن عقولنا ناقصة، وأنها عريضة لكل ضروب الخطأ، فليس في إمكاننا أن نصل إلى اليقينية لا في مر الله ولا في أمر الطبيعة؛ وحسبنا الترجيح، والترجيح يؤيد الإيمان بالله والإيمان بالخلود. وواضح أن النفس أسمى من الجسد، لأن أعضاء الجسد أدوات النفس وخدامها. والنفس، التي من الواضح أنها جوهر الإنسان، لا داعي لفنائها مع الجسد، وأغلب الظن أنها عند الموت تبحث عن أدوات جديدة في مرحلة أعلى. وليس من المريح للطبيعة أن يتغير كائن من صورة أدنى إلى صورة أعلى- كتغير الكائنات الزاحفة مثلاً إلى كائنات مجنحة، أو تغير الخادرة إلى فراشة؛ وقياس آخر يرجح أنه سيكون في حياة النفس بعد موت الجسد ألوان من الثواب والعقاب مع الافتراض دائماً بأن الله موجود. فكما أننا نعاقب المجرمين على جرائمهم ضد المجتمع، كذلك تعاقب الطبيعة في معظم الحالات الناس على ما اقترفوا من آثام؛ ولكن بما أن هناك أمثلة كثيرة لا تلقى فيها الرذيلة عقاباً واضحاً، في هذه الحياة، لذلك كان مما لا يصدق أن الله لن يعيد، في حياة أخرى، علاقة أكثر إنصافاً بين السلوك والمصير. وضميرنا، حسنا الخلقي، لا يمكن أن يكون قد جاءنا إلا من لدن إله عادل. وأكثر ما لحجج بطزر من أهمية في عصرنا هذا مرجعه أنها توضح مرحلة في تطور العقل العصري. ونحن إذا نظرنا إليها باعتبارها موجهة أصلاً ضد الربوبيين وجدنا فيها فكرة لا يستهان بها؛ فالذين قبلوا شهادة القصد الإلهي في الطبيعة، لا مبرر لهم في فرض الكتاب المقدس بسبب الإله القاسي المعلن عنه في العهد القديم، لأن إله الطبيعة

صفحة رقم : 11772

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الدفع الديني

لا يقل عنه قسوة. لقد كانت طريقة غاية في الأصالة في الدفاع عن المسيحية. والظاهر أن بطريرك لم يتوجس من أن هذه الحجة قد لا تقضي إلى المسيحية، بل إلى شيء أشد دفعا من اليأس إلى الكفر- إلى النتيجة التي خلص إليها توماس هنري هكسلي، وهي أن القوى المطلقة في الكون أو وراءه غير أخلاقية، تتناقض أشد التناقض مع ذلك الإحساس بالحق والباطل الذي بنى عليه بطريرك، كما بنى عليه كانط، الكثير من لاهوته. على أية حال كان كتاب "وجه الشبه" خطوة إلى الأمام ولو في هدوئه ولطفه، فهنا لا توجد كراهية لاهوتية، ولا قدحا دينيا، بل محاولة جادة من الكاتب للتأدب حتى مع أولئك الذين بدوا أنهم يدمرون أعز آمال البشر. ورحبت الملكة كارولين بالكتاب لأنها رأت فيه أفضل دفاع ظهر إلى ذلك الحين عن العقيدة المسيحية. وأوصت وهي على فراش الموت بترقية بطريرك، فعينه جورج الثاني أسقفاً على برستل، ثم ناظراً على كاتدرائية القديس بولس، وأخيراً أسقفاً على درم. وهناك ضرب بطريرك المثل لزملائه بالعيشة البسيطة والتصدق على الفقراء بجانب كبير من دخله.

وقد ترك كتابه للكفر منافذ كثيرة حتى إن كثيراً من رجال الكنيسة أشاروا بالكف عن هذا الجدل، وأثروا أن يرسوا إيمانهم عن الحاجات والعواطف الدينية بعيداً عن سهام العقل. مثال ذلك إن كتاب هنري دودويل "المسيحية دون أساس من الجدل" (1742) يرفض الجدل العقلي في المسائل الروحية، لأنه لا يهدي إلى الحقيقة، وأقل من ذلك إلى السعادة، إنما هو رقصة موهنة ترقص فيها الحجج المؤيدة والمعارضة، وما من إنسان يقيم إيمانه على مثل هذه الأسس المائعة. وذهب دودويل إلى أن حجج كلارك، ووربرتن، وبيطريرك، وغيرهم من المدافعين المسيحيين، قد هزت من الإيمان الديني أكثر مما قوت، وربما لم يكن هناك إلحاد لولا أن المحاضرين في محاضرات بويل التنكارية دأبوا كل عام على تنفيذ الإلحاد. إن المسيح لم يجادل، بل علم كمن له سلطان. فانظر إلى أي شخص متدين حقاً، تجد فيه اقتناعاً باطنياً، لا استنتاجاً عقلياً؛ فالإيمان للنفس البسيطة يجب أن يكون تقليداً مقبولاً، وللروح الناضجة يجب أن يكون شعوراً مباشراً بواقع فوق الطبيعة.

صفحة رقم : 11773

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الدفع الديني

أما وليم لو، فبعد أن ترك بصمته على الجدل مع الربوبيين، دفعته قراءة يعقوب بومي إلى التحول من الجدل إلى الصوفية؛ وفي نصف القرن الذي نحن بصدد، والمنتسم بالمادية والكليبية الظافرتين، كتب عن الوجود الباطن للمسيح ومحبه الفادية بحرارة وثقة كأنه توماس أكيمبيس مولوداً من جديد دون أن يطرأ على تغيير. وقد ضحى بكل المطامع الدنيوية برفضه حلف اليمين التي تعترف بجورج الأول رأساً للكنيسة الإنجليزية؛ فحرم زمالته بكمبردج، واستردت درجاته الجامعية. ثم أصبح معلماً خاصاً لأبي إدوارد جيبون، ومكث مع تلك الأسرة رداً كفى لأن يذكره المؤرخ (جيبون). قال هذا الشاك "لقد ترك في أسرتنا سمعة الرجل الفاضل النقي الذي يؤمن بكل ما يصرح به، ويمارس كل ما يأمر به (37)" وقد أتى جونيس على كتاب لو "دعوة جادة إلى حياة تقية مقدسة" (1729) وقال أنه "أروع قطعة من اللاهوت الوعظي في أي لغة (38)" فمن المؤكد أن صوفية الكتاب أصح من تلك التي تتوه في رؤى خارقة، سماوية كانت أو جهنمية. كتب لو يقول: ليس هناك شيء خارق للطبيعة في نظام فدائنا كله، فكل جزء فيه له أساس في أعمال الطبيعة وقواها، وكل فدائنا إنما هو الطبيعة مصححة. "وليست الجحيم مكاناً، بل هي حالة النفس

المضطربة، ولا الجنة مكاناً، ولا "حالة غريبة، منفصلة، مفروضة"، بل هي سعادة نفس في نظام وسلام(39). ومع أن لو كان عضواً مخلصاً في الكنيسة الإنجليزية، فإنه كان يحلم برهينة مجددة بروستنتية. يقول:
"أذن لو أن أشخاصاً من الجنسين... تواقين إلى الكمال، تجمعوا في جماعات صغيرة، تنذر الفقر الاختياري، والتبذل، والعزلة، والعبادة، حتى تخفف صدقاتهم حاجة البعض، ويتبارك الجميع بصلواتهم وينتفعوا بقوتهم... هؤلاء لا يتعرضون للاتهام بأي ميل للخرافة أو تعبد أعمى... بل يمكن أن يقال حقاً وصدقاً أنهم يستعيدون تلك القوى التي كانت فخر الكنيسة ومجدها على حياة قديسيها العظام(40)".
وقد أثرت مثل لو العليا ونثره الرائع في عمة جيبون، هستر جيبون،

صفحة رقم : 11774

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> الدفع الديني

تأثيراً حملها هي وأرملة غنية على الذهاب للعيش بقربه في مسقط رأسه كنجز كليف بنورثموتونشير، وكريستا أكثر دخلهما لأعمال البر تحت إشرافه. وقد وجد هذا الرجل سعادته في توزيع الطعام والثياب والعطبات على الفقراء والمرضى والمحرومين، وهو الذي كان في يوم ما طالب علم شغوفاً بالبحث، محباً للصحبة المثقفة المهذبة. فأنكر جميع لذات الدنيا تقريباً، وجدد الحملة البيورثانية على المسرح باعتباره "بيت الشيطان" أو على الأقل "شرفة الجحيم(41)". ولم يكن الخلق الإنجليزي، ولا مزاج العصر، حفيين بصوفية لو، وبدا أنه مختتم حياته في خمول ذكر عقيم، وإذا جون وسلي يأتي ليجلس عند قدميه.

صفحة رقم : 11775

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

4- جون وسلي

1791-1703

إذا أردنا أن نفهم مكانه في التاريخ وجب أن نذكر أنفسنا ثانية بأنه حين أسس هو وأخوه تشارلز الحركة الميثودية Methodism في أكسفورد (1729) كان الدين في إنجلترا أخط منزلة مما كان في أي فترة من فترات التاريخ الحديث. فلم يكن يختلف إلى الكنيسة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة أو ستة (42). وكان رجال الأكليروس الأنجليكاني قد غالوا في قبولهم العقلانية علوا جعلهم يبنون كل كتاباتهم تقريباً على الجدل العقلي. وندر أن ذكروا الجنة أو النار، وكانوا يؤكدون على الفضائل الاجتماعية دون الغيبيات. والعظة الإنجليزية كما وصفها فولتير كانت "رسالة جدية ولكنها جافة أحياناً، يقرأها رجل على الشعب دون إيماء ودون أن يرفع صوته رفعا ملحوظاً (43)". ولم يكن الدين نشيطاً حاراً إلا في المذاهب المنشقة التي تتبعها الطبقة الوسطى. وكان عمال المدن مهملين إهمالاً كلياً تقريباً من الأكليروس الأنجليكاني، "كان هناك فرقة ضخمة تتألف من أدنى الطبقات، أفرادها يعيدون عن تناول التعليم أو الدين، لا دين لهم، ولم يعلموا ديناً على الإطلاق (44)"، وقد أسلموا إلى فقر لا يضيئه نور الأمل الديني إلا قليلاً. في هذه الخلفية أحيا جون وسلي وجورج هويتفيلد العقائد والآداب البيورانية أحياء قوياً وأسسا الكنيسة الميثودية.

صفحة رقم : 11776

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

كان اللاهوت والثورة يجريان في عروق آباء وسلي. فجده الأكبر برتلميو وسلي طرد من وظائف القسوسية في دورست لأنه واصل العبادة المنشقة بعد أن رُدّ الاحتكار الكنسي في إنجلترا للكنيسة الأنجليكانية. وأصبح جد جون، جون وسلي، قسيساً في دوريست، وسجن لرفضه أن يستعمل كتاب الصلاة العامة، وطرد من القسوسية، وأصبح راعياً منشقاً في بول. وأسقط والد جون، واسمه صموئيل وسلي، حرف التاء من اسمه، وشق طريقه إلى أكسفورد، واجر المنشقين، ورسم قسيساً أنجليكانياً، وتزوج سوزانا أنزلي (وكانت بنت واعظ) وأصبح قسيس إيبورث في لنكولنشير، ومات من أبنائه التسعة عشرة ثمانية في طفولتهم وفي هذا بيان لشقاء النساء، وفحولة القساوسة المستهتر، ونوعية الطب في إنجلترا القرن الثامن عشر. وكان الأب مؤدباً صارماً في البيت وعلى المنبر، نشأ أبناءه على الخوف من إله منتقم، وأدان إحدى رعايا أبرشيته بالزنا، وأجبرها على السير في الشارع في مسوح التوبة (45). وكانت زوجته ضريباً له في الصرامة والتقوى. فلما بلغ ابنها الأشهر التاسعة والعشرين شرحت له فلسفتها في التربية الخلقية فقالت:

"إنني أصر على قهر إرادة الأطفال في وقت مبكر، لأن هذا هو الأساس القوي والمعقول الوحيد للتربية الدينية، الذي بدونه لا يكون للتعاليم ولا للقدوى جدوى. ولكن متى قهرت هذه الإرادة قهراً تماماً أصبح في الإمكان أن يحكم الطفل بعقل أبويه وتقواهما، إلى أن يبلغ فهمه درجة النضج... فإذا بلغ الطفل عاماً كانوا (أي أطفالها) يعلمون أن يخافوا العصا ويكوا بصوت خافت، وبهذه الطريقة وفروا على أنفسهم الكثير من العقاب الذي كان يصيبهم إن لم يفعلوا (46)".

وأصبح أكبر أبنائها، صموئيل وسلي الثاني، شاعراً وعالمًا وقسيساً أنجليكانياً أنكر على أخويه مذهبهما الميثودي. وكان الطفل الثامن عشر هو تشارلز وسلي، الذي دعم مواعظ أخيه جون دعماً قوياً بترانيم بلغ

صفحة رقم : 11777

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

عددها 6,500. أما جون فكان الخامس عشر، وهو مولود ببايورث في 1703. فلما بلغ السادسة احترق بيت القسيس، وتركته الأسرة وسط النيران ظناً منها أنها قضت عليه، ولكنه أطل من شبك في الطابق الثاني، فأنقذه جار وقف على كتفي آخر، وسمى نفسه بعد ذلك "جمرة اختطفت من بين المحترقين" ولم يتغلب قط على خوفه الشديد من الجحيم. وفي بيت أبيه كانت أي ضوضاء غير واضحة السبب، تفسر على أنها وجود خارق للطبيعة، شيطاني أو إلهي. وحين بلغ جون الحادية عشرة أرسل إلى مدرسة تشارتر هاوس الحرة، وفي السابعة عشرة إلى كرايست تشيرش بأكسفورد. وقد تغلب على ضعف صحته بإدمان المشي والركوب والسباحة، فعمراً حتى بلغ الثامنة والثمانين. وقرأ كثيراً، واحتفظ بمذكرات ومقتطفات من قراءته توخى فيها التدقيق والعناية. وكان أحب الكتب إليه كتاب جيرمي تيلر "الحياة المقدسة والموت المقدس"، وكتاب توماس أكيمس "محاكاة المسيح". وبدأ حتى في أيام دراسته بالكلية تلك اليومية التي هي إحدى آيات الأدب الإنجليزي والتقوى البروتستانتية. وقد كتب بعضها بالشفرة والاختزال. وفي 1726 عين زميلاً بكلية لنكولن، وفي 1728 رسم قسيساً أنجليكانياً. وأخوه تشارلز هو الذي بدأ بجمع في أكسفورد جماعة صغيرة من نحو خمسة عشر طالباً ومعلماً اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية. وأعداؤهم هم الذين خلعوا عليهم تهكماً وازدراء أسمى "النادي المقدس" و "المثوديين". وكانوا يقرءون معاً العهد الجديد اليوناني والآداب القديمة، ويصومون كل أربعاء وجمعة، ويتناولون العشاء الرباني كل أسبوع، ويتفقون المسجونين والمرضى ليقدموا لهم العزاء والأمل الديني، ويرافقون المحكوم بإعدامهم إلى المشنقة. ووصل جون وسلي إلى تزعم الجماعة بفضل شدة حماسه وتقواه، فكان يستيقظ كل يوم في الرابعة - وهي عادة احتفظ بها حتى وهو طاعن في السن،

صفحة رقم : 11778

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

ويخطط منهجياً في كل صباح الأعمال التي تؤدي في كل ساعة من ساعات اليوم. وكان يعيش على ثمانية وعشرين جنياً في العام، ويوزع باقي دخله على أعمال البر. وقد أكثر من الصوم حتى بدا مرة أنه قد دمر صحته تدميراً لا يبرء منه. وكان يحج رجالاً إلى وليم لو يلتمس منه النصيحة، وأصبح كتاب لو "دعوة جادة إلى حياة تقيّة مقدسة" مرشده الروحي. تقول يومياته أنه من هذا الكتاب "فاض النور على نفسي بقوة حتى ظهر كل شيء في صورة جديدة(47)".

وفي 1735 دعا الجنرال أوجتورب جون وتشارلز ليرافقاه مبعوثين دينيين إلى جورجيا. وإذا كان أبوهما قد مات فإنهما التمساً مشورة أمهما. فقال لهما "لو كان لي عشرون ولداً لأبهجنني أن إلى يدعوا إلى مثل هذا، حتى ولو لم أرهم بعد ذلك أبداً(48)". فليت شعري أني لنا نحن المجريين من التقوى أي نفهم هذه التقوى؟ وأرجنت جلسات "النادي المقدس" إلى أجل غير مسمى، وفي 14 أكتوبر أبحر جون وتشارلز و "مثوديان" آخران على السفينة سيموندز قاصدين سافانا. وفي السفينة أثرت فيهم التقوى المرححة التي أنسوها في بعض "الأخوة المورافيين" الذين قدموا من ألمانيا ليستوطنوا أمريكا، فلما هاجمت عاصفة هوجاء المركب الصغير لم يبد على المورافيين أثر لخوف، وقارعوا رياح العاصفة بترانيمهم القوية، وأحس الوسليان أن هذا إيمان يفوق إيمانهما قوة.

فلما بلغا جورجيا (5 فبراير 1736) اتخذوا منصبتين مختلفين، فأصبح تشارلز سكرتيراً للحاكم أوجنتورب، وجون راعياً للجالية الجديدة، ومرسلاً بين الحين والحين للهنود الحمر المجاورين. وأثنى أول الأمر على الهنود لشوقهم إلى تقبل الإنجيل، ولكنه وصفهم بعد عامين بأنهم "شرون، لصوص، مراعون، كذابون، قتلة لأبائهم، قتلة لأمهاتهم، قتلة لأبنائهم"، وقيل إنه "لم يوفق مع الهنود(49)". أما السكان البيض، الذين كانوا يضمون مئات من

صفحة رقم : 11779

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

المجرمين المنفيين، فقد أنكروا لهجته الأفسوردية وروحه الأمرة الناهية وإصراره على أدق قواعد الطقوس والنظام. ففي العماد اشترط التغطيس الكامل ثلاث مرات، فإذا اعترض والد رفض أن يعمد الطفل. وإذا كان لا يزال "كنسياً طقسياً من النوع الشديد التزمتم(50)". فإنه أقصي عن تناول القربان رجلاً كريماً اعترف بأنه من المنشقين، وأبى أن يقرأ صلاة الجنازة على مستعمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته، وحرّم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلي الذهبية، وأقنع الحاكم أن يحرم صيد السمك وكنص الحيوان في يوم الأحد- هو اليوم الوحيد الذي كان يتاح فيه لرعيته فراغ من الوقت للصيد أو القنص. وقد افتتن بصوفيا هوبكي، ابنة أخت كبير قضاة سافانا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعاً. ولكن أصحابه المورافيين لم يرضوا عنها. فلما سئمت تردده تزوجت رجلاً يعي ولكنسون. وحين تقدمت لتناول القربان أبى أن يناولها السر بحجة أنها لم تتناول سوى ثلاث مرات في الشهور الثلاثة الأخيرة، وأنها أهملت أن تطلب إلى راعيها إذاعة إعلان زواجها. فرفع زوجها عليه الدعوى لتشهيره بخلق زوجته، وأدانت المحكمة سلوك وسلي خطيباً وخدماته كاهناً، فرفض الاعتراف بحقها في محاكمته، وتفاقم عداء الشعب له، ففر على تشارلزتن واستقل سفينة إلى إنجلترا (22 ديسمبر 1737).

وفي لندن استأنف تقشفاته أملاً في أن ترد إليه ثقته بنفسه، ولكن بيتر بولر، وكان واعظاً مورافياً في طريقه إلى أمريكا، أكد له أن إيمانه ما زال ناقصاً، وأنه مهما كانت فضائله كاملة وتقواه وطقسيته حارنتين، فسيظل في حالة الهلاك الأبدي، حتى يدرك بومضة إلهية من الإشراق واليقين، مختلفة كل الاختلاف عن أي عملية استدلال عقلي-أن المسيح قد مات لأجله هو، وأنه كفر عن خطايا هو؛ فبعد هذا التغيير دون سواه يكون الإنسان في مأمن من ارتكاب الخطايا وعلى ثقة من الخلاص. وقد خلد وسلي في يوميته ذلك "اليهود المشهود" 24 مايو 1738 الذي وافته فيه هدايته النهائية، قال:

صفحة رقم : 11780

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

"ذهبت في المساء على مضض شديد إلى جمعية في شارع أولدرزجيت، حيث كان أحدهم يقرأ مقدمة لوثر لرسالة بولس إلى أهل رومية. وفي نحو التاسعة إلا ربعاً، بينما كان يصف التغيير الذي يحدثه الله في القلب بالإيمان بالمسيح، شعرت بقلبي يدفأ على نحو عجيب. شعرت بأنني فعلاً أتق بالمسيح، والمسيح وحده، للخلاص، وأعطيت تأكيداً بأنه نزع خطاياي، خطاياي أنا، وخلصني من ناموس الخطية والموت. وبدأت أصلي بكل ما أوتيت من قوة لأجل أولئك الذين أساءوا إليّ واضطهدوني أشد من غيرهم. ثم شهدت علانية لجميع الحاضرين بما شعرت به الآن في قلبي لأول مرة(51)".

ويمكن القول بإيجاز أنه لخص تطور المسيحية من الخلاص بالإيمان والأعمال، إلى الخلاص بالإيمان وحده (لوثر)، إلى الخلاص بإشراق شخصي وإلهي (الكويكرز). وعبر وسلي البحر إلى ألمانيا في صيف 1738 وهو عارف بصنيع بولر، وأنفق عدة أسابيع في هرنوت، القرية السكسونية التي أنشئت فيها مستعمرة للاخوة المورافيين على ضياع كونت زنزendorف.

وكان تشارلز وسلي خلال ذلك قد جاز بتغيير مماثل عند عودته إلى إنجلترا، وبدأ بطريقته الأكثر رقة في وعظ المسجونين في نيوجيت والوعظ من كل منبر يسمح له بارتقائه، وأهم حتى من هذا أن شخصية لا يبزها قوة غير شخصية جون وسلي كانت في طريقها إلى الصدارة في الحركة الميثودية، وهي شخصية جورج هوينغتون. وقد ولد لصاحب نزل بجلوستر في 1714. وعمل سنة أو أكثر ساقى خمر لضيوف أبيه. ثم شق طريقه إلى كلية بومبروك بأكسفورد، وكان من الرعيل الأول في "النادي المقدس". وتبع الوسليين إلى جورجيا في 1738 ولكنه عاد إلى إنجلترا في خريف ذلك العام ليرسم قسيساً أنجليكانياً. وإذ كان غير قانع بالفرصة المتاحة له في المنابر، توافقاً لأن يبث الهام إيمانه في جماهير الشعب، فقد بدأ في فبراير 1739، في الخلاء

صفحة رقم : 11781

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

قرب برستل، وعظ عمال مناجم الفحم الذين ندر أن جر عوا على دخول كنيسة أو اهتماموا بدخولها. وكان في صوته من الوضوح والقوة ما مكنه من الوصول إلى أسماع عشرين ألف مستمع، وأثرت مقدرته الخطابية المشبوبة في هؤلاء الرجال المتحجرين، المرهقين، تأثراً جعله يرى (كما قال) "المسارب البيضاء التي أحدثتها دموعهم التي هطلت بغزارة على خدودهم السوداء(52)" وأثارت خيال إنجلترا سمعة الواعظ الجديد، وأخبار عظاته في الهواء الطلق. فكانت الحشود الهائلة تتجمع أينما ذهب لتستمع إليه.

ولم يكن وعظه بالشيء الذي ينسي. فهو لم يدع لنفسه تبحراً في العلم، ولكنه ادعى أنه يتكلم كلاماً حميماً مع الله(53). ويقول وسلي أن لغته كانت تميل إلى "الحلاوة والحب" وأنه يستعمل فيها بعض الأخيطة المذهلة؛ من ذلك أنه كان يقول عن المسيح أنه "كالمشوي بغضب الأب، ومن ثم يوصف بحق بأنه حمل الله(54)". وكما فعل بت في البرلمان كذلك فعل هو اينفيلد في الحقول، إذ استعان في خطبه بفنون التمثيل، فكان في قدرته أن يبكي في التو والساعة بكاء من الواضح أنه اقترب بعاطفة صادقة؛ وكان في قدرته أن يشعر سامعيه بالإحساس بالخطيئة، ورهبة الجحيم، ومحبة المسيح، إحساساً قوياً فورياً. وقد اعترف بقوته الخطابية أمثال بولنبروك وتشستر فيلد، والشكاك أمثال فرانكلين وهيوم، والممثلون أمثال جاريك. وإذ كان يلقي الترحيب أينما حل، فإنه جعل إنجلترا، وويلز، وإسكتلندا، وإيرلندا، وأمريكا، أيرشيتها. فغبر المحيط إلى أمريكا ثلاث عشرة مرة، واخترق إسكتلندا اثنتي عشرة مرة. ولم يكن غريباً عليه أن يعظ أربعين ساعة في الأسبوع. فما بلغ الخمسين حتى حل به الإرهاق، وخفض برنامج بعد فوات الوقت إلى "الحد الدقيق المسموح به"- أي أنه اكتفى بالوعظ مرة واحدة كل يوم من أيام الأسبوع، وثلاث مرات فقط يوم الأحد. وفي 1769 قام بزيارته السابعة للمستعمرات، ومات في نيويورك بولاية ماساتشوستس في العام التالي.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

وحين عاد جون وسلي من هيرنوت، لم يستطع أن يوافق تماماً على طريقة هوايتقيلد الخطابية، وتردد في الاقتداء به في الخطابة في الخلاء. قال: "إذ كنت طوال حياتي (إلى عهد قريب جداً) شديد التمسك بكل قواعد اللياقة والنظام،... فقد كان المفروض أن أرى في تخليص النفوس شيئاً يكاد يبلغ مبلغ الخطيئة إذا لم يتم في الكنيسة(55)". على أنه تغلب على نفوره هذا، وحمل رسالته إلى الحقول والشوارع، "وسلمت بأن أكون أكثر نزولاً إلى العامة في الخلاء" (أبريل 1739). وكانت خطابته أقل حرارة من خطابة هوايتقيلد، ولغته لغة العالم والجنتمان، ولكنه هو أيضاً خاطب عواطف سامعيه، وجعل الحياة اليومية لبسطاء الناس تبدو كأنها جزء من مسرحية هائلة، نبيلة، نفوسهم فيها ساحة معركة بين الشيطان والمسيح، فتحركوا في عالم من العجائب والمعجزات، وسمعوا فيه (أي في وسلي) كما زعم- صوت الله. وبينما ألف هوايتقيلد أن يعظ الجميع ثم ينصرف عنه، راح وسلي ينظم أتباعه في "جماعات صغيرة" في المدينة تلو المدينة، ويرشدهم إلى الثبات والاستمرار. وكانت اجتماعاتهم أحياء للقاءات المحبة التي استنتها المسيحيون الأولون-أعياد من الفرحة الدينية ومحبة الجماعة، يعترف بعضهم لبعض بخطاياهم، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية، ويشتركون في الصلاة وترتيل الترانيل الوردية. وكان جون قد ألف أو ترجم بعض الترانيم المؤثرة، وكان تشارلز قد بدأ مجموعة ترانيله الضخمة. وفي 1740 كتب تشارلز أشهر ترانيمه الرائعة الكثيرة "يسوع يا حبيب روجي".

في هذه الجماعات المتحمسة درب جون وسلي وعاظاً علمانيين حملوا البشارة الجديدة إلى حيث لا يستطيع القادة البقاء. فقد انتشر هؤلاء "المساعدون"-دون رسامة، ودون أي أبرشيات محددة، بمنبر أو بغير منبر في أرجاء إنجلترا، وإسكتلندا، وويلز، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهوت البروتستنتي للطبقات العاملة، وحضروا لزيارات الإنعاشية التي سيقوم بها وسلي وهوايتقيلد. وكان

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

وسلي نفسه يسافر- إلى أقصى أركان إنجلترا راكباً جواداً أو مركبة أو رجلاً-وكثيراً ما كان يقطع ستين ميلاً في اليوم، وبلغ متوسط ما قطعه أربعة آلاف ميل في السنة على مدى أربعين عاماً. وكان يعظ في كل فرصة. في السجون للمسجونين، وفي المركبات لرفاقه الركاب، وفي الفنادق للمسافرين، وفي السفن العابرة البحر إلى إيرلندا أو من ثغر إلى ثغر. وفي ايبويرت، حين منع من الوقوف على منبر أبيه، وعظ في فناء الكنيسة واقفاً فوق قبر أبيه. فماذا كان يعظ؟ العقيدة البيورثانية أساساً، تلك التي خيل إلى الناس أن الفوضى الخلقية التي صاحبت عودة الملكة الاستوارتية عصفت بها عصفاً مميئاً. لقد رفض الجبرية (التي قبلها هوايتقيلد)، وأصر على ما دان به الجناح

الأرمنيوسي من الكنيسة الرسمية، وهو أن للإنسان من حرية الإرادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره أو يرفضه من النعمة الإلهية. ورفض كل لجوء إلى العقل، وأحس أن الدين يصل إلى أبعد مما يصل إليه المنطق الذي صنعه الإنسان، وأنه يعتمد على الوحي الإلهي والافتتاح الباطن، ولكنه ابتعد عن الصوفية بحجة أنها تترك كل شيء لله ولا تحفز الإنسان إلى التقوى النشيطة. وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما: فكان يؤمن بالأشباح، وبالأصل الشيطاني للأصوات الغريبة، وبحقيقة السحر وإجرامه؛ وقال إن التخلي عن الإيمان بوجود السحر معناه التخلي عن الإيمان بالكتاب المقدس. ولم يساوره شك في المعجزات، وذهب إلى أنها تحدث كل يوم بين أتباعه. فكان الصداغ، أو الورم المؤلم، أو الفتق الشديد، أو الساق المكسورة، تشفى بصلواته أو صلوات الجماعة الموثودية؛ وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلما قرأت كتاب القديس الكاثوليكي، ولكنها تستعيده دائماً حين تقرأ العهد الجديد. وقد قبل روايات النساء اللاتي زعن أنهن رأين الملائكة أو المسيح أو الجنة أو النار، وسجل في يوميته عدداً من الحالات التي عوقب فيها خصوم الموثودية بعقوبات خارقة(56).

صفحة رقم : 11784

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

وقد بلغ وعظه من الحيوية مبلغاً أفضى بالكثيرين من جمهوره إلى الهستريا والتشنجات. وتبتنا اليومية عن خطاة غلبهم الألم البدني بعد سماعه فراحوا يتقلبون على الأرض من فرط العذاب، بينما ركع مؤمنون آخرون إلى جوارهم وصلوا لخلاصهم من مس الشيطان(57). ويصف وسلي اجتماعاً في شارع بلدوين بلندن في 1739 فنقول:
"لم يكد صوتي يسمع وسط أنين البعض وصراخ الآخرين.. وساء كويكريا واقفاً يتفرج... أن يسقط هو نفسه على الأرض كأنه المصعوق. وكان الكرب الذي يعانیه رهيباً حتى لمن يشهده. وقد تضرعنا إلى الله ألا يؤاخذة بالحماسة والجهل، وسرعان ما رفع رأسه وصاح "الآن أعرف أنك نبي من أنبياء الرب(58)".
ويصف شاهد عيان نقل عنه وسلي اجتماعاً للمثوديين بفارتن في 1759 كما يلي:
"كان بعضهم يصرخون، وبعضهم يجأرون... وأكثر ما سمع كان شهيقاً عالياً كذلك الذي يصدر عن قوم نصف مخنوقين يلهثون طلباً للحياة؛ أن الصيحات كلها تقريباً كانت كصيحات مخلوقات آدمية تعالج سكرات الموت الأليم. وكان الكثيرون يبكون دون ضجيج، وغيرهم سقطوا كالأموات... ووقفت على مقعد كما فعل شاب في المقعد المقابل، وكان ريفياً قوياً نضراً صحيح البدن، ولكن حين بدا أنه لم يخطر له شيء آخر خر على الأرض في عنف لا يتصوره الإنسان.. وسمعت خبط أقدامه يكاد يحطم الألواح الخشبية وهو راقد يتشنج تشنجات شديدة في أسفل المقعد... وأكثر الذين وضع الله عليهم يده احمررت وجوههم احمرراً شديداً أو كادت تسود.. وسقط وراءه على الجدار رجل غريب حسن الهندام كان يقف أمامي، ثم خر على ركبتيه وهو يعصر يديه ويهدر كالثور.. ثم قام وراح يخبط الحائط حتى أمسك به مستر كبلنج ورجل آخر. وصرخ قائلاً "أواه ماذا أصنع، ماذا أصنع؟ أواه، ليت لي قطرة واحدة من دم المسيح!" وبينما كان يتكلم حرر الله روحه، فعلم أن خطاياها مُحيت، وبدا أن نشوة الفرح التي غمرته أعظم من أن تحتملها الطبيعة البشرية(59)".

صفحة رقم : 11785

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

ولعل هذه التفجرات الهستيرية سببتها أحوال أثرت في الضحايا قبل الاجتماع المثودي، فجاءت كعظة عن نار الجحيم وكانت مجرد تنويج لذروة لا يمكن السيطرة عليها. أما وسلي فقد فسّر هذه التشنجات بأنها مس شيطاني أعقبه شفاء إلهي. وذهب إلى أنها أحياناً لم تأت بإصلاح دائم للسلوك أو الخلق، ولكنه أحس بأنها في كثير من الحالات ظهرت النفس من الخطيئة وافتتحت حياة جديدة.

وقد حققت المثودية أعظم نجاح لها بين الفقراء. فقد كان الوعاظ أنفسهم رجالاً ذوي ثقافة متواضعة، بسطاء في مشاعرهم وحديثهم، ولم يرق حاجز طبقي أو ثقافي بينهم وبين جمهورهم. وقد حملوا رسالتهم، رسالة الخطيئة والتوبة، إلى الفلاحين وعمال المناجم والمجرمين؛ ومع أنهم بشروا بإيمان قام على الخوف أكثر مما قام على المحبة، فإنهم أعطوا غير المتعلمين ناموساً أخلاقياً شارك بنصيب في رد اعتبار الأخلاق إلى إنجلترا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. هذه الأخلاق البيورنانية هي التي انتقض عليها عصرنا انتقاضاً متطرفاً. لقد كان وسلي عدواً لكل ألوان الترفيه تقريباً. صحيح أنه سمع بلعب الورق، ولكنه رأى إن من الإثم الذهاب إلى المهرجانات، ولبس الحلي أو الملابس الغالية، والاختلاف إلى المسرح أو المرقص. ولم يخصص أي وقت للعب في المدرسة التي أنشأها في كنجزوود، لأن "من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل (60)". ولكن الأخلاق البيورنانية انسجمت مع الخلق الإنجليزي، واستطاع أن يتحملها الرجال الأشداء والنساء الصبوراء، وقد منحت الطبقات العامة الإنجليزية إحساساً فخوراً بالاختيار سندها في الفقر وجعلها عدواً لأي ثورة تتشكك في المسيحية. وأحس المحافظون بعد حين بعرفان الجميل لوسلي لأنه أنقذ الفقراء البريطانيين من الربوبية والإلحاد، وحول تطلعاتهم من الثورة الاجتماعية إلى الخلاص الفردي، ومن عالم مثالي على هذه الأرض إلى فردوس بعد الممات (61).

وكان وسلي نفسه يميل إلى المحافظة في السياسة. وقد تقدم طبقته في المطالعة ببعض الإصلاحات التي طال تأخرها: فندد بنظام "الدوائر العفنة"، وبتفاوت التمثيل النيابي في البرلمان، وبفساد

صفحة رقم : 11786

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

السياسة الإنجليزية الصارخ، وبوحشية الرق، وبأهوال السجون البريطانية. ولكنه تقبل الهيكل الطبقي للمجتمع باعتباره طبيعياً وعادلاً، وعارض أي انفراج في القوانين الموجهة ضد الكاثوليك، وكانت ميوله كلها مع جورج الثالث في ثورة المستعمرات الأمريكية.

وقد ظل أنجليكانياً بالعقيدة، ولكنه رفض الرأي الأنجليكاني القائل بأن رسامة القسيس لا تكون قانونية إلا على يد أسقف في سلسلة الأساقفة الرسوليين؛ ورسم هو بنفسه قساوسة لإسكتلندا وأمريكا. وحين قال "إن العالم أبرشيتي (62)" كان يقصد أنه سيعط حيثما شاء، دون إذن أو تعيين أسقفي، وإلى هذا الحد كان انشقاقه على الكنيسة الرسمية. ولكنه حض أتباعه على حضور الخدمات الأنجليكانية، وتجنب الاجتماعات والعقائد المنشقة على هذه الكنيسة، والامتناع عن مخاصمة الأكليروس الأنجليكاني. وفتحت أول الأمر بعض المنابر الأنجليكانية للقساوسة المثوديين، ولكن اتخذ وعاظ وسلي العلمانيون لأنفسهم حق منازل القربان، وارتدت العقيدة المثودية إلى توكيد العصر الوسيط على الجحيم والانشغال البيورناني بالخطيئة، سحب الكهنة الأنجليكانيون تأييدهم، تماماً كما انسحب أرزم مع لوثر، وآثروا تطوراً منظماً، وأقصوا المثوديين عن المنابر الأنجليكانية.

وكان الاضطهاد الذي ابتلى به المذهب الجديد على يد الكنيسة الرسمية أقل كثيراً من ذلك الذي جاءه من العامة البسطاء الذين لم يطبقوا الطرق الجديدة في التبشير بالأفكار القديمة. ففي المدينة بعد المدينة هوجم وعاظ الهواء الطلق كما سيهاجم نظراؤهم اللاحقون الذين سييخرون بإنجيل اجتماعي جديد-من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون خوف ولا لوم. ففي مونتوموت ضرب واعظ علماني على رأسه بصخرة فمات من الضربة. وفي دنزبري حطم جمع بيوت الميثوديين، وأذى نساءهم، وضرب رجالهم. فلما ظهر وسلي طالب الجميع بدمه، وصفق للذين ضربوه بالهراوات، وصلّى هو بصوت عال، فأطلق الجمع سراحه. وفي بولتنن أغار جمع غاضب على البيت الذي كان يعظ فيه، وواصل هو عظته إلى النهاية وسط وابل من الحجارة والبلاط الأبيض. وفي ديفيزيه صوبت طلّمة مائية على مسكن تشارلز وسلي، وأطلقت الكلاب البولدوج على

صفحة رقم : 11787

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

أتباعه. وفي اكستر رُجم هو ابتليد حتى كاد يلقى حتفه. وفي هوكستن دُفع ثور بمهماز إلى محفل ميثودي، وفي بنسفورد سيق عجل هاجه تحريش الكلاب به إلى المائدة التي كان جون وسلي يعظ عندها. وراقت شجاعة الوعاظ الخلق الإنجليزي، وأكسبتهم التسامح والتأييد.

كان وسلي رجلاً قصير القامة، طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات، ووزنه 128 رطلاً. وكان في شيخوخته يقع من نفوس ناظر به وقعاً طيباً بشعره الأبيض، ولكنه كان من قبل في كهولته يسترعي الاهتمام بقسماته الدقيقة المتقشفة وعينيه المسيطرتين. وكان من القضايا المسلمة عنده أنه خلق ليحكّم؛ ووضع نشاطه العصبي وقوته الذهنية في مكان الزعامة بحكم الطبيعة، واشتطت به أحياناً ثقته بنفسه ثقة لا يتشكك فيها إلى اعتداء بالنفس، رأى فيه أسقف ميثودي "عطرسة" شديدة (63). ولم يكن بالرجل الذي يسهل الانسجام معه، لأنه كان يفكر ويتحرك بسرعة لا يستطيع الآخرون أن يجاروه فيها. وتزوج في 1751، بعد أن أحب كما نحب كلنا الممرضة التي اعتنت به في مرضه.

وسافرت معه زوجته في جولاته المحمومة طوال عامين، ثم انهارت صحتها وأعصابها فتركته كما يقفز إنسان من فوق ظهر حصان جموح. وكان يعزو الفضل في صحته وحيويته لرحلاته المتصلة راكباً أو راجلاً، وقد نضيف أن الخطابة رياضة تهوي الرنتين. وفي 1735 أصبح نباتياً، وبعد عام قرر هو صديق له أن يعيش على الخبز القفار دون غيره، وأن "يجربا إمكان الحياة بلون واحد من الطعام كما هي ممكنة بمختلف ألوانه... ولم تكن أشد قوة وعافية منا حين لم نذق طعاماً آخر (64)"، ولكنهما سرعان ما انتكسا إلى التنويع في الطعام.

ماذا كانت نتائج الوعظ الميثودي؟ في جيل واحد أصبح الدين، الذي لاح من قبل أنه يموت من أثر الوفار الأنجليكاني والشكوك الربوبية عنصراً متوياً في الحياة الإنجليزية، لا يعلو عليه إلا السياسة والحرب. فلما مات وسلي (1791) كان أتباعه يعدون 79.000 في إنجلترا، 40.000 في أمريكا الشمالية، وفي 1957 كان هناك 2.250.000 ميثودي في بريطانيا العظمى، و12.000.000 في الولايات المتحدة و40.000.000 في العالم (65). وفضلاً عن تكاثر أتباع المذهب كان

صفحة رقم : 11788

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> جون وسلي

له تأثير في المذاهب الأخرى؛ مثال ذلك ما حدث في الكنيسة الأنجليكانية التي رفضت الميثودية، إذ بعثت المثل الميثودية العليا الحركة "الإنجيلية" في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ولعلها دخلت في حركة أكسفورد في القرن التاسع عشر. أما من الناحية السياسية فإن النتائج كانت استسلاماً محافظاً بين الطبقات العاملة حتى 1848. وأما من الناحية الخلقية فإن الميثودية حسنت السلوك الشخصي والحياة العائلية بين الفقراء وشاركت في تقليل الفساد الانتخابي والرسمي، وأخذت الكثيرين من طبقة السادة فأقلعوا عن الطيش والرذيلة، وهيات لنفور الإنجليز من تجارة الرقيق. وأما من الناحية الثقافية فإن الحركة كانت سلبية. لقد أعطت الشعب ترانيم مقدسة، ولكنها واصلت العداء البيورتاني للفن. وأما من الناحية الفكرية فإنها كانت خطوة إلى الوراء فقد أرست عقيدتها على الخوف، وشعائرها على العاطفة، وأدانت العقل بوصفه فحاً للإنسان. وفي الصراع الكبير بين الإيمان والعقل علقت كل آمالها على الإيمان، ولم تضع أي ثقة في تقدم المعرفة والعلم، وتجاهلت أو احتقرت "التنوير" الذي أخذ يشعل النار في فرنسا. وشعرت أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدي، وأن الشيء الوحيد المطلوب لهذه الغاية هو الإيمان بالموت الفادي الذي مات به المسيح.

وفي يناير 1790، حين بلغ وسلي السادسة والثمانين، كتب في يوميته يقول "بت الآن شيخاً متهدماً من رأسي إلى قدمي. عيناي معتمتان، وبمناي تهتز بشدة، وفمي ساخن جاف كل صباح، وتتابني حمى طويلة كل يوم تقريباً. ولكني بفضل الله لا أخفف من جهدي. ففي استطاعتي أن أعظ وأكتب إلى الآن (66)". وبعد شهرين بدأ جولة خطابية اتصلت خمسة أشهر وجابت به أرجاء إنجلترا وإسكتلندا. وقضى نحبه في العام التالي (2 مارس 1791). ولو حكمنا على عظمة الأفراد بمدى تأثيرهم لقلنا أنه باستثناء بت كان أعظم الإنجليز في زمانه.

صفحة رقم : 11789

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> في النحل والبشر

5- في النحل والبشر

هناك شخصيتان أقل شأنًا توقفنا في طريقنا إلى ديفد هيوم. أولهما برنارد ماندفيل، وكان طبيباً لندنيا من أصل فرنسي ومولد هولندي، نشر في 1705 كراسة في عشر صفحات تباع بست بنسات، مكتوبة بشعر مرح عنوانها "الخلية المتذمرة". وموضوعها مفارقة مؤداها أن رخاء الخلية راجع إلى رذائل أفرادها من النحل-إلى جشعها الأناني ونشوتها التناسلية ومشاكلتها الجماعية. وبتطبيق هذا التناقض على الخلية الإنسانية، ذهب الطبيب الخبيث إلى أن ثروة الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التي يندد بها الأخلاقيون المتذمرون بحماقة. فلننتصروا ما يحدث لو كفت فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشغبة-لو لم يأكل الرجال والنساء من الطعام إلا بقدر ما يحتاجون إليه، ولم يلبسوا من الثياب إلا ما يقيم الفرح والحر، ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضاً، ولم يتشاجروا، وأدوا ديونهم دائماً، واحتقروا أسباب الترف، وكانوا أوفياء لأزواجهم. لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجأة، فترى المحامين يتضورون جوعاً، والقضاة يتزكون بغير قضايا أو رشا، والأطباء يذوون لانعدام المرضى،

وزراع الكروم يفسون، والحانات تغلق أبوابها لانعدام شاربي الخمر، وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطعمة أو الحلي أو الملابس أو البيوت يتعطلون؛ ولن يرغب أحد في أن يكون جندياً؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد.

وعطل تأثير الخلية المتدمرة صباغتها في شعر هزلي محطم الوزن، وغاز هذا الطبيب المغرور، الجشع، المشاغب، فأعاد إصدارها في 1714، وثالثة في 1723، باسم "خرافة النحل" موسعاً إياها المرة بعد المرة بالمقدمات، والملاحظات، والتعليقات التي بلغت بالصفحات العشر مجلدين. وأصغت إنجلترا وفرنسا هذه المرة، لأن هذه الملاحق كانت ن أقذع ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية.

واتخذ ماندفيل من إيرل شافتسبري الثالث هدفاً رئيسياً لكتابه بكل معنى الهدف. ذلك أن الأيرل كان قد فسر الطبيعة البشرية ببلاغة

صفحة رقم : 11790

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> في النحل والبشر

متفائلة، فافترض في الإنسان "إحساساً باطنياً بالصواب والخطأ... فطرياً فيناً كالمحبة الفطرية، وهو مبدأ أول في كياننا". ورد ماندفيل على بأنه هراء بديع؛ فالطبيعة البشرية قبل التربية والتدريب الخلقي لا تميز بين الفضيلة والرذيلة، إنما تحكم المصالح الذاتية دون غيرها. وقد وافق اللاهوتيون على أن الإنسان بطبيعته "شريف" (متمرد على القانون)، ولكنه بدلاً من أن يهدد الناس بالحجيم، هنأهم على الملائمة البارعة بين رذيلة الفرد وخير المجتمع. فالبغاء السري مثلاً يحمي العفة العامة، والنهم للإنتاج والخدمات يحفز الاختراع، ويدعم الصناعة والتجارة؛ والثروات الكبيرة تتيح البر بالناس والفن الضخم. وبينما بشر اللاهوتيون بالتقشف، دافع ماندفيل عن الترف، وحجته أن الرغبة في الكماليات (وهي أن شيء خلاف الضروريات المجردة للحياة) هي أصل الصناعة والحضارة؛ فلو أزلنا الترف كله عدنا هماً. وبينما يفترض في الأخلاقيين أن يدينوا الحرب قال ماندفيل أن الأمم عاشت بفضل قدرتها على شن الحرب، لأن معظم الدول وحوش ضارية.

ولم ير في الطبيعة أي فضيلة. فالخير والشر كلمتان تصدقان على الأفعال الاجتماعية أو المعادية لمصلحة المجتمع في الإنسان، أما الطبيعة نفسها فلا تأبه بكلماتنا أو عظائنا، وهي تحدد الفضيلة بأنها أي صفة تعين على البقاء؛ وعالم الطبيعة في عبارتنا المتحيزة مسرح للجشع والشهوة والقسوة والقتل والتبديد الذي لا معنى له. ومع ذلك فمن ذلك الصراع الرهيب، كما يقول ماندفيل، طور الإنسان اللغة والنظام الاجتماعي والنواميس الأخلاقية أدوات للتماسك الاجتماعي وبقاء المجتمع. والثناء واللوم لا تبررهما الطبيعة، ولكنهما مبرران باعتبارهما وسائل نستعين بها-لأنها تروق غرور الإنسان وخوفه وكبرياءه،-على أن نشجع في غيرنا ألواناً من العلم مفيدة لنا أو للجماعة.

ومعظم الذين سمعوا بماندفيل رموه بالنزعة المادية الكلبية، ولكن فولتير اتفق معه على نفع الكماليات، وصفق فيزوقراطيو فرنسا القائلون بسياسة "عدم التدخل" لرأيه في أن عدم التدخل في طمع الإنسان

صفحة رقم : 11791

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> في النحل والبشر

كفيل بأن يجعل عجلات الصناعة تدور. وأغلب الظن أن الطبيب الكثير النزوات كان مسلماً بأن فارقتة هذه، "الردائل الخاصة هي فضائل عامة" كانت إلى حد كبير لعباً بألفاظ فضفاضة التعريف. إن "الردائل" كحج الاقتناء، والعشق الجنسي، والمشغبة، والكبرياء، كانت يوماً ما "فضائل" في الصراع البدائي للبقاء. ولم تصبح ردائل إلا حين مورست في المجتمع ممارسة تجاوزت الخير الاجتماعي؛ وقد أصبحت منافع عامة بفضل التحكم فيها بالتعليم، والرأي العام، والدين، والقانون.

وشتان بين فرانسس هتشنس وبين هذا الطبيب المفترى. وقد ولد هتشنس في إيرلندا لقس مشيخي، ثم انحرف عن جادة أبيه وفتح معهداً خاصاً في دبلن. وإذا كان شديد الوعي بالتزامه بأن يجعل من المتوحشين الصغار مواطنين، فقد كتب من معهده "تحقيقاً في الخير والشر الأخلاقيين" (1725) عرّف فيه المواطن الصالح بأنه ذلك الذي يعزّز الخير العام، ووصف فيه الخير العام (بعبارة سبقت بحذافيرها صيغة بنتام في مذهب المنفعة) فقال إنه "أعظم سعادة لأكثر عدد من الناس (69)" فلما رقي إلى كرسي الفلسفة الأخلاقية في جامعة جلاسجو، أزج المشيخين بدفاعه عن حق الفرد في إصدار حكمه على الأشياء، وعن مشروعية اللذة، وعن "الفنون الإبداعية كالموسيقى والنحت والتصوير، وحتى الملاهي الرجولية" (70)، ولم يشارك ماندفيل فكرته المتشائمة عن الطبيعة البشرية. وقد سلم بأخطاء الناس وذنوبهم، وبشهواتهم الجامحة وجرائمهم العنيفة، "ولكن الجانب الأكبر من حياتهم يستخدم في القيام بمهام من المودة الطبيعية، أو الصداقة، أو حب الذات البريء، أو حب الوطن". ثم أضاف تحذيراً نافعاً للمؤرخين فقال: "إن الناس ميلون إلى إطلاق العنان لخيلاتهم في أمر جميع ما سمعوا عنه أو قرءوا في التاريخ من سرقات، وقرصنات، وجرائم قتل، وأيمان كاذبة، وتزويرات، ومذابح، واغتيالات، فيستتجون من هذا كله أن النوع الإنساني كله شرير جداً، وكان دار القضاء هي المكان الصحيح لتقييم أخلاق البشر، أو المستشفى لتقييم ملاءمة المناخ

صفحة رقم : 11792

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> في النحل والبشر

للصحة. أفلا يجدر بهم أن يروا أن عدد المواطنين والمزارعين الشرفاء يفوق كثيراً عدد كل أنواع المجرمين في أي دولة... وأن ندرة الجرائم بالقياس إلى الأفعال البريئة أو الخيرة هي التي تلتفت انتباهنا لها، وتبعث على تسجيلها في التاريخ، في حين تغفل أفعال شريفة سمحة مألوفة، تفوقها بما لا يقاس، لا لشيء إلا أنها عادية جداً؛ وما أشبه هذا بخطر جسيم واحد، أو شهر يقضي في المرض، فيصبح قصة تتردد كثيراً، خلال حياة طويلة من الصحة والسلامة". ذلك عقل سليم!

صفحة رقم : 11793

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

6- ديفيد هيوم

1776 - 1711

أ- الفيلسوف الشاب

كان هتشن جزءاً متواضعاً من حركة "التوير الاسكتلندي"، أما هيوم فكان ألمع كواكبها. وهو يروي لنا في ترجمته الذاتية البسيطة، ذات الصفحات الست، أنه ولد بأدنبرة في 26 أبريل 1711، "لأسرة طيبة أباً وأماً، فأسرة أبي فرع من إيرل Home أو Hume وكانت أمي ابنة السر ديفد فوكنر عميد كلية الحقوق". ومات الأب في 1712، تاركاً ممتلكاته لشقيق ديفد الأكبر، جون هيوم، ولديفد دخلاً يبلغ ثمانين جنيهاً في السنة. يكفي لمعيشة متقشفة. أما الأسرة التي كانت كلها تدين بالمذهب المشيخي، فقد أشربت الصبي اللاهوت الكلفني اشراً قوياً تخلف على شكل الحتمية في فلسفة ديفد. كان في بكرة كل أحد يختلف إلى صلاة في الكنيسة تتصل ثلاث ساعات، منها ساعتان من الوعظ؛ ثم يعود عشية كل أحد إلى الكنيسة ساعة؛ يضاف إلى هذا صلوات الصباح في البيت (72). ولم يكن مندوحة من أن ينتقض ديفد على هذا كله بالانحراف إلى الهرطقة ما دام فيه نرة من صلابة الخلق. وحين بلغ الثانية عشرة دخل جامعة أدنبرة. ثم تركها بعد ثلاث

صفحة رقم : 11794

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

سنوات دون درجة، عازماً على أن يفرغ بكليته للأدب والفلسفة. وفي السادسة عشرة كتب إلى صديق يلوم نفسه. "لأن سلامي العقلي لا تدعمه الفلسفة دعماً يكفي للثبات للطلمات القدر. فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل إليه إلا في الدرس والتأمل... فاسمح لي بأن أتكلم هكذا كفيلسوف، فذلك موضوع أطيل التفكير فيه ولا يعيبي الحديث فيه اليوم كله (73)".
وسرعان ما تبخر إيمانه الديني:

"وجدت ضرباً من جرأة الطبع يتملكني، وهي جرأة لا تميل إلى الخضوع لأي سلطة في هذين الموضوعين (الفلسفة والأدب)... فلما ناهزت الثامنة عشرة بدا كأنه قد انفتح أمامي مشهد جديد من الفكرة، أطرني منتهى الطرب، وحملني بحماسة الشباب الطبيعية على أن أنبذ كل لذة أو شغل آخر لأعكف عليه العكوف كله (74)". وقال في فترة لاحقة أنه "لم يشعر بأي إيمان بالدين منذ بدأ قراءة لوك وكلارك (75)". فما أن بلغ السابعة عشرة حتى كان قد خطط لرسالة في الفلسفة.

وألح عليه أقرباؤه في أن الفلسفة وثمانين جنبها في العام لن يتيحاً له سوى عيش ضنك، وأن عليه أن يقنع بضرورة التكسب. فهل في استطاعته أن يدرس القانون؟ وحاول ذلك طوال ثلاث سنوات مؤلمة (1726-29). وانهارت صحته، وأوشكت روحه أيضاً أن تنهار، وفقد اهتمامه بالأفكار فترة. "رأيت دراسة القانون شيئاً يثير في الغيتان" (76)، فطلقها، وعاد إلى الفلسفة، ربما بانحراف واحد. ففي أواخر فبراير 1734 رحل عن أدنبرة على لندن "لأبذل محاولة هزيلة جداً لولوج مجال من الحياة أكثر نشاطاً (77)". وفي 5 مارس مثلت آجنس جلبريث أمام القس جورج هيوم (عم ديفد) واعترفت بأنها حبلى. فلما جاء بها أمام جلسة لمجلس الكنيسة المشيخية صرحت بأن "المستر ديفد هيوم... هو أبو الطفل" وارتاب المجلس في صدقها فأحالها إلى الاجتماع التالي للمجلس المشيخي

صفحة رقم : 11795

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

المطلي؛ وأمام هذا المجلس في 25 يونيو، كررت التهمة. وقد جاء في محضر مجلس تشيرنسايد:
"إن رئيس الجلسة... ناشدها أن تقول الصدق وتعترف هل أذنب معها شخص آخر... وبعد أن نظر المجلس في الأمر، وأحيط أعضاؤه علماً بأن ديفد هيوم المذكور خرج من المملكة، أحوها إلى دائرة مجلس تشيرنسايد امتثالاً لقواعد الكنيسة (78)".
وهذا يتطلب مثلها في المسرح أمام الكنيسة وعرضها في المشهرة ثلاثة أعاد. وفي 1739 أدين آجنس مرة أخرى بالزنا بس
ومضي هيوم إلى برستل بعد أن توقف في لندن، واشتغل في مكتب تاجر "ولم تمض عليّ شهور حتى وجدت ذلك الجو لا يلائمني إطلاقاً" فعبر البحر إلى فرنسا، حيث المعيشة أرخص منها في إنجلترا. ومكث فترة في رانس، ثم رحل إلى لافليش (على نحو 150 ميلاً جنوب غربي باريس)، لأن كلية اليسوعيين فيها كانت تملك مكتبة كبيرة، واتصل الاسكتلندي المدير اتصالاً ودياً بالكهنة فسمحوا له باستعمال كتبهم. وقد وصفه أحد الآباء في نظرة لاحقة بأنه "كان شديد الاعتداد بنفسه.... في روحه حيوية أكثر مما فيها من التماسك وفي خياله توقد أكثر مما فيه من العمق، وقلبه أشد انغماساً في الأشياء المادية والعجب الروحي من أن يتغلغل إلى الخفايا المقدسة للحقائق الإلهية (79)".
وفي ظل اليسوعيين ألف هيوم أول جزئين من رائعته الشكوكية "رسالة في الطبيعة البشرية". وفي سبتمبر 1737، عاد إلى إنجلترا منتقلاً بمخطوطته. وقد لقي عنناً مع الناشرين، لأنه كتب في ديسمبر إلى هنري هيوم يقول: "إنني الآن أجب كتابي، أي اقتطع منه أجزاء الممتازة، محاولاً أن أقلل ما استطعت من إيذائه لشعور الناس (80)". وكان أهم ما حذف منه "مناقشات حول المعجزات فنحاهها لاستعمالها في أوقات أسلم. أما الباقي، الذي ضمن أنه يدق على أفهام المتشبهين بالقديم، فقد نشره جون نون اللندني غفلاً من اسم المؤلف في مجلدين في يناير 1739. وباع هيوم المجلدين إجمالاً

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

بخمسين جنيهاً واثنتي عشرة نسخة- وهي صفقة ليست خاسرة جداً بالنسبة لكتاب في المنطق ونظرية المعرفة بقلم شاب مغمور في السابعة والعشرين. على أنه كان قمم من قمم الفلسفة الحديثة.

ب- الغض من شأن العقل

كشف "الإعلان" الذي تصدر الكتاب عن ثقة هيوم في قدراته. فقد قال فيه أنه يستهدف دراسة الطبيعة البشرية من حيث الفهم والانفعالات، ثم في مجلد ثالث قادم من حيث الأخلاق والسياسة. وشرع في تحليل "الانطباع" (الإحساس)، والإدراك الحسي، والذاكرة، والخيال، والفكر، والعقل، والاعتقاد. وهذا البحث في كيفية وصولنا إلى أن "نعرف" بحث أساسي، لأن صحة العلم والفلسفة والدين والتاريخ تتوقف على طبيعة المعرفة، وأصلها، وإمكان وثوقنا بها. وهو فرع من الدراسة عسير، لأنه يتناول الأفكار المجردة لا الأشياء المحسنة، والفكر آخر شيء يحاول الفكر أن يفهمه. وبدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق لبحثه، فكل الأفكار مستقاة في النهاية من التجربة بطريق الانطباعات. وهذا أما أحاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والنوق؛ وأما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم. والإدراك الحسي إحساس مفسر؛ "فالموضوعات" إحساس، ولكن "نقرة على الباب" إدراك حسي (وهيوم ليس دقيقاً أو ثابتاً دائماً في استعماله هذين المصطلحين). والمولود أعمى أو أصم ليس لديه "فكرة" عن الضوء أو الصوت، لأنه لم يكن لديه إحساس بأحدهما. وفكرتا المكان والزمان نابعتان من التجربة، فالأولى "فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين"، والثانية إدراك التعاقب في انطباعاتنا (81) ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات إلا في ضعف "القوة والحيوية التي تقع بهما على الذهن" (82). والاعتقاد "ليس إلا فهماً أكثر حيوية وحدة لأي فكرة... إنه شيء يشعر به الذهن، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال" (83).

ويبدو أن هيوم في تعريفاته هذه يرى في "الذهن" كياناً أو أداة

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

حقيقة تمارس الانطباعات أو الأفكار، أو تمتلكها، أو تتذكرها، أو تحكم عليها. على أنه إذ يمضي في البحث ينكر وجود أي ذهن ملحق بالحالات النفسية- الإحساس، أو الإدراك الحسي، أو الفكرة، أو الشعور، أو الرغبة التي تشغل الوعي في لحظة بعينها يقول:

"إن ما نسميه "الذهن" لي إلا كومة أو مجموعة من مختلف الإدراكات الحسية توحدت معاً بشتى الارتباطات، ويفترض فيها- وإن كان الفرض خطأ- أنها وهبت غاية البساطة والتطابق... أما أنا فإنني حين أتغلغل فيما أسميه

"نفسى" أعرث دائماً على إدراك حسي معين أو آخر، للحرارة أو البرودة، للضوء أو الظل، للحب أو الكره، للألم أو اللذة. ولا أستطيع إطلاقاً أن ألاحظ شيئاً غير الإدراك الحسى. فإذا زالت عني إدراكي الحسية أي فترة، كما يحدث بالنوم العميق، فإنني طوال هذه الفترة أكون عادم الحس "بنفسى"، ويمكن القول حقاً إنني غير موجود. وإذا زالت إدراكي الحسية كلها بالموت، فعجزت عن التفكير والشعور والإبصار والحس والكره بعد تحلل جسمي، فإنني أمحق محقاً، ولست أتصور ما يلزم بعد ذلك لجعلي عدما في عدم... وإذا ضربنا صفحاً عن بعض الميثافيزيقيين.. فقد أجرؤ على التأكيد بأن باقي البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من مختلف الإدراكات الحسية التي يعقب بعضها بعضاً بسرعة فائقة، والتي تتدفق تدفقاً دائماً... وهذه الإدراكات الحسية المتعاقبة... تشكل الذهن(84)".

وهكذا بضرورة واحدة من هذا الفتى المتهور سقطت ثلاث فلسفات: الفلسفة المادية، لأننا (كما أثبت باركلي) لا ندرك "المادة" أبداً، ولا نعرف غير عالمنا العقلي عالم الأفكار والمشاعر؛ والفلسفة الروحانية، لأننا لا ندرك أبداً "روحاً" ملحقاً بمشاعرنا وأفكارنا الخاصة؛ وفلسفة الخلود، لأنه ليس هناك "ذهن" يبقى حياً بعد الحالات الذهنية العابرة. وكان باركلي قد هدم المادية برده المادة ذهناً، فضاعف هيوم التدمير برده الذهن أفكاراً. فلا "المادة" ولا "الذهن" موجودان. لا لوم على ظرفاء العصر أن أن "يرفضوا الفيلسوفين جميعاً بهذه

صفحة رقم : 11798

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

العبارة "No matter, never mind" (وفيها تورية، لا يهيم (لا مادة)، لا بأس (ولا ذهن)).

وحرية الإرادة في هذه النظرة المدمرة مستحيلة، فليس هناك ذهن يختار بين الأفكار أو الاستجابات، وتعاقب الحالات النفسية يقرره ترتيب الأحاسيس، وترابط الأفكار، وتناوب الرغبات؛ إن "الإرادة" ليست سوى فكرة تتساق فتصبح حركة، والهوية الشخصية هي شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وتربط بينها بفكرة العلة بس ولكن العلة أيضاً ليست سوى فكرة؛ فليس في قدرتنا أن نثبت أنها واقع موضوعي. فإذا أدركنا أن: أ (اللهب مثلاً) تعقبه بانتظام ب (الحرارة)، استنتجنا أن أ كانت العلة في ب، ولكن كل ما لاحظناه هو تعاقب الأحداث، لا عملية عليا، فليس في استطاعتنا أن نعرف أن ب ستعقب أ دائماً. "كل استدلالنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة لا مصدر لها غير العادة(58)". وليست "قوانين الطبيعة" التي نتحدث عنها إلا تعاقبات مألوفة في تجربتنا؛ لا روابط ثابتة وضرورية في الأحداث، ولا ضمان أنها ستصدق غداً. فالعلم إذن تراكم للاحتمالات المعرضة للتغيير دون إندار. والميثافيزيقي مستحيل إذا زعمت أنها نسق من الحقائق حول واقع مطلق، لأنه لا سبيل إلى معرفة "الأسباب" الكامنة وراء النتائج، ولا "المادة" الكامنة وراء الأحاسيس، ولا "الذهن" الذي يقال أنه كامن وراء الأفكار. وما دمنا نبني إيماننا بالله على سلسلة من الأسباب والنتائج يفترض أنها تتردد إلى "محرك أول لا يتحرك"، فإن علينا أن نتخلى عن تلك السفسة الأرسطاطالية. إن الأشياء كلها تتدفق، وما اليقينية إلا حلم من الأحلام.

وبعد أن ينشر هيوم الدمار من حوله بسيف عقله البتار، يتوقف لحظة تواضع فيقول "حين أتأمل القصور الفطري في حكمي، تقل تقتي بأرائي عنها حين أتأمل الأشياء التي أتناولها بالاستدلال(86)" فهو يعلم مثلنا أن اليقينية ليست ضرورية للحياة، ولا للدين، ولا حتى للعلم؛ وإن درجة كبيرة من الاحتمال تكفي لعبور شارع أو بناء

صفحة رقم : 11799

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

كندرائية أو لتخليص نفوسنا. ويسلم في تذييل للكتاب بأنه قد يكون هناك رغم ذلك نفس وراء الأفكار، وواقع وراء الأحاسيس، وعلاقة عليية وراء التعاقبات المتصلة. وهو ثابت على موقفه نظرياً "الم يسعدني الحظ إلى الآن بأن اكتشف أي أخطاء جسيمة في الاستدلالات المعروضة في المجلدين السابقين (87)". ولكنه يتعرف في لطف أنه، عملياً، يتخلى عن شكوكيته حالما يضع قلمه.

"لو سئلت هل أوافق مخلصاً على هذه الحجة الذي بذلت هذا الجهد في إقرارها، وهل أنا حقاً واحد من هؤلاء الشكاك الذين يذهبون إلى أن كل الأشياء غير يقينية... لأجبت... أنني لا أنا لا أي شخص آخر دان بهذا الرأي في أي وقت بإخلاص وثبات (88)... إنني أتناول غذائي، وألعب النرد، وأتحدث وأسمر مع أصحابي، فإذا عدت بعد ثلاثة أربع ساعات من الترويح إلى هذه التأملات، بدت لي باردة مفتعلة سخيفة جداً بحيث لا أستطيع أن أجد في صميم نفسي ما يدفعني لمزيد من الإيغال فيها (89)... وهكذا يواصل الشاك استدلاله العقلي واعتقاده، وأن أكد أنه لا يستطيع الدفاع عن استدلاله العقلي بالعقل؛ وعلى هذه القاعدة نفسها يجب أن يوافق على مبدأ وجود الجسد وأن عجز عن الادعاء بأي حجج من الفلسفة بأنه أثبت صحته (90)".

وأخيراً ينتكر هيوم للجدل العقلي باعتباره هادياً للحياة ويضع ثقته في الإيمان الحيواني، في الاعتقاد القائم على العرف بأن الواقع عقلائي تتخلله العلية. وحين يؤكد هيوم أن "الاعتقاد هو على الأصح فعل من أفعال الجانب الحساس لا الجانب العارف من طبائعنا (91)" فإنه - وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره - يلقي بجان جاك روسو، ذي الستة والعشرين، في الشباب والنظرية، كما قدر له أن يلتقي به بعد ذلك في الصداقة والمأساة. ولم يقتصر أبرع المجادلين العقليين في عصر العقل على اتهام المبدأ العلي للعقل، بل أنه فتح باباً لرد الفعل الرومانسي الذي سينزل العقل عن عرشه ويجعل من الوجدان لها له.

و"الكتاب" والمجلد الثاني من "الرسالة" يواصل إنزال العقل

صفحة رقم : 11800

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

عن عرشه. فنرى هيوم يرفض محاولات الفلاسفة بناء مبدأ أخلاقي على تحكم العقل في العاطفة. وهو يعني بكلمة العاطفة الرغبة الوجدانية. "الكي أثبت مغالطة هذه الفلسفة بأكملها، سأحاول أن أثبت أولاً أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعاً لأي فعل من أفعال الإرادة؛ ثانياً إنه لا يستطيع إطلاقاً معارضة العاطفة في اتجاه (ضد قوة) الإرادة (92)". "فلا شيء يستطيع مقاومة أو تعطيل دافع العاطفة إلا عاطفة مضادة" (أهذا صدق لسبينوزا؟).

ويضيف هيوم إمعاناً منه في ترويع المتشبهين بالقديم "إن العقل عبد، وينبغي أن يكون عبداً، للعواطف (الأداة المنيرة والمنسقة للترغبات) ولا يمكن أن يزعم لنفسه أي وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها (93)".

ثم يمضي إلى تحليل دقيق للعواطف - وأهمها الحب، والكره، والعطف، والغضب، والطمع، والحسد، والكبرياء. "إن العلاقة التي تحدث في الكثير الغالب عاطفة الكبرياء هي علاقة الملكية (94)". وكل العواطف تقوم على اللذة والألم، وتميز اتنا الأخلاقية تنبع في النهاية من هذا المنبع الخفي ذاته "إننا نميل إلى إطلاق اسم الفضيلة على أي صفة في

الأخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على نفعنا، وإلى إطلاق اسم الرذيلة على أي صفة بشرية تعطينا الألم(95)". وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم. يقول:
"لو تأملنا جميع الفروض التي وضعت... لتفسير الفرق بين الجمال والقبح، لوجدناها كلها تنحل إلى هذا، وهو أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء، مهياً لإعطاء اللذة والرضي للنفس، أما بسبب التكوين الفطري لطبائعنا (كما نرى في جمال الجسم البشري) أو بسبب العرف (كما نرى في الإعجاب بنحافة القوام في النساء) أو بسبب النزوة العارضة (كما نرى في إضفاء الكمال على أو هام الرغبة المعاقبة)... فاللذة والألم إذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح، ولكنهما يكوّنان جوهرهما ذاته،... وما الجمال إلا شكل يحدث اللذة، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم(96)".
والحب بين الجنسين يتركب من هذا الإحساس بالجمال، مضافاً إليه "الرغبة الجسمية في التناسل ورقة ومودة سمحتان(97)".

صفحة رقم : 11801

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

وفي مارس 1739 عاد هيوم إلى أدنبرة. وراح يقلب الدوريات في لهفة بحثاً عن نقد لمجلديه، وعانى من نتائج تقليبها. قال "لم تلق محاولة أدبية قط حظاً أعثر مما لقيت "رسالتي في الطبيعة البشرية" فلقد ولدت ميتة من المطبعة، ولم تحظ حتى بإثارة دمدمة سخط بين المتعصبين(98)" ولكنه حين كتب هذا في شيخوخته كان قد نسي، ربما بسبب الرغبة في نسيان الذكريات الكريهة، أن عدة مقالات نقدية ظهرت خلال سنة بعد نشر كتابه. وقد شكّت كلها تقريباً من أنه عسير الفهم، وأن المؤلف سمح لشبابه بالإعلان عن ذاته بتكرار الإشارة إلى نفسه وإلى الجدة الخطيرة التي تنطوي عليها أفكاره. قال ناقد نموذجي من أعدائه: "إن ما يؤدي القارئ أشد الأذى هو تلك الثقة التي يسوق بها مفارقاته.. فما عهدنا شاكاً أشد من هذا قطعاً بأرائه... وأمثال لوك وكلاارك ليسوا في الغالب في نظره سوى مجادلين تافهين سطحيين بالقياس إليه(99)".
وأعد هيوم للمطبعة، في عزيمة صادقة رغم حزنه، المجلد الثالث من رسالته، المحتوي على الكتاب الثالث "في الأخلاق". وقد ظهر في 5 نوفمبر 1740. وساء تحليله للفضيلة العقلانيين بقدر ما ساء اللاهوتيين. فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست إلهامات خارقة، ولكنها أيضاً ليست استنتاجات خلص إليها العقل، وذلك- كما يكرر هيوم القول "لأن العقل ليس له تأثير على عواطفنا أو أفعالنا(100)". وحسنا الخلق ليس مصدره السماء بل التعاطف- شعور الزمالة مع إخواننا من البشر، وهذا الشعور جزء من الغريزة الاجتماعية التي بها نلتمس الارتباط بالغير لخشيتنا من العزلة. "إن أول حالة وموقف للإنسان يمكن أن يوصفا بحق بأنهما اجتماعيان"؛ و "الحالة الطبيعية" التي عاش فيها الناس دون تنظيم اجتماعي "يجب اعتبارها حديث خرافة(101)", فالمجتمع قديم قدم الإنسان. وإذا كان الناس أعضاء في جماعة، فإنهم سرعان ما تعلموا أن يمتدحوا التصرفات

صفحة رقم : 11802

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

النافعة للجماعة، ويزموا الضارة بها. ثم إن مبدأ التعاطف جعلهم يميلون إلى تقبل أو محاكاة الآراء التي سمعوها من حولهم؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللوم، وطبقوا هذه الأحكام بوعي أو بلا وعي على سلوكهم. هذا في رأي هيوم أصل الضمير، لا صوت الله (كما سيتصور روسو وكانت). ويقول هيوم إن قانون التعاطف هذا، قانون التجاذب الجماعي، هو عام ومنير في العالم الأخلاقي شأن قانون الجاذبية في الكون المادي، ثم يختم بهذه العبارة "وهكذا يحذوني على الجملة الأمل بأنه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق(102)". وكان المجلد الثالث أقل لفتاً للأنظار حتى من المجلدين السابقين. وظلت بقايا النسخ الألف والمائة، وهي مجموع نسخ الطبع الأولى للرسالة، إلى سنة 1756، مكدسة على رفوف الناشر، ولم يعيش هيوم ليرى طبعة ثانية من كتابه.

ج- الأخلاق والمعجزات

كان واضحاً أنه لا يستطيع كسب قوته بقلمه. وفي 1744 بذل محاولة فاشلة للوصول إلى كرسي الأستاذية بجامعة ادنبره. ولا شك أنه قبل في شيء من الإحساس بالهوان (أبريل 1745) وظيفة معلم خاص لمركز أنانديل الصغير لقاء راتب قدره 300 جنيه في العام. أما المركز فقد اختلط عقله، وتبين هيوم أنهم يتوقعون منه أن يكون حارساً لمجنون؛ ونشبت المشاجرات، فطرد (أبريل 1746) واضطر إلى رفع دعوى مطالباً برأيه. ثم اشتغل سنة (1746-47) سكرتيراً للجنرال جيمس سانت كلير، وكان يتقاضى راتباً طيباً، ويتناول طعاماً طيباً. وفي يوليو 1747 عاد هيوم إلى أدنبرة وهو يملك ويزن من الجنيهات أكثر كثيراً منه حين غادرها. وفي 1748 أعاد الجنرال استخدامه سكرتيراً وياوراً في بعثة إلى تورين، واكنسي ديفد الآن ستررة قرمزية متوهجة.

صفحة رقم : 11803

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

وأعجب جيمس كولفيلد (أيرل تشارلمونت فيما بعد) وكان يوماً طالباً بتورين، بذكاء هيوم وخلقه، ولكن أفرغته سمنته. قال:
"إن سحنته حيرت علم الفراسة وأعبت قدراته... في الكشف عن أقل أثر لمواهبه العقلية في ملامح وجهه التي تخلو من المعنى. كان وجهه عريضاً سميناً، وفمه واسعاً، بغير أي تعبير غير تعبير البلاهة... وكانت بدانة جسمه كله أجدر بأن توحى للناظر بفكره العمدة أكل الترسة، لا الفيلسوف المهذب(103)".
ويدعى كولفيلد هذا أنه رأى هيوم (وهو في السابعة والثلاثين) جاثياً على ركبته أمام كونتيسة متزوجة (في الرابعة والعشرين)، يبيها غرامه ويعاني عذاب الحب المحترق؛ أما السيدة فرفضت أن تبادلها هذا الغرام قائلة إنه ليس إلا "عملية طبيعية في نسقك الفلسفي". ويقول المصدر نفسه أن هيوم أصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم، ويروي اسكتلندي آخر أن هيوم "تناول القربان الأخير" أثناء مرضه على يد كاهن كاثوليكي. وقيل إن هيوم اعتذر عن مطارحة الغرام وعن تناول القربان الأخير قائلاً "إن نظام دماغي كان مختلاً، وكنت مجنوناً لأي نزول لمستشفى المجاذيب(104)" وفي ديسمبر 1748 عاد إلى لندن وفرغ للفلسفة بعد أن بلغت ثروته ألف جنيه.

واعترم أن يجدد أدناً مصغية من جديد لأفكار "الرسالة"، فنشر في 1748 "تحقيقاً عن الفهم البشري"، وفي 1751 "تحقيقاً عن مبادئ الأخلاق". وفي "إعلان" قدم به لطبعه لهذين التحقيقين صدرت بعد وفاته (1773) تنكراً للرسالة باعتبارها "عملاً صيبانياً" ورجا أن "تعتبر المقالات التالية وحدها هي المحتوية على آرائه ومبادئه الفلسفية (105)". أما تلاميذ هيوم فقد وجدوا عموماً في أعمال هيوم الأولى من الدسم أكثر مما وجدوا في أعماله الأخيرة، فهذه تغطي الأرض نفسها ربما بأسلوب أقل عدواناً وقطعاً، ولكنها تخلص إلى النتائج ذاتها.

صفحة رقم : 11804

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

وبعد أن أعاد هيوم تحليله الشكي للعقل قدم القسم العاشر من التحقيق الأول، وهو مقالة "في المعجزات" الذي رفض الناشر من قبل أن يطبعه ضمن الرسالة. واستهله باعتداده العادي بنفسه، "إني أغبط نفسي على أنني عثرت على حجة... إذا صدقت كانت للعقلاء والمتقفين رادعاً دائماً لكل ضروب الوهم الخرافي وستكون إذن نافعة أبد الدهر". ثم يطلق أشهر فقراته فيقول:

"ما من شهادة تكفي لإثبات معجزة، إلا إذا كانت الشهادة من يكون فيه كذبها أكثر إعجازاً من الواقعة التي تحاول إثباتها... فإذا أنبأني إنسان بأنه رأى ميتاً يبعث، سألت نفسي للتو أيهما أكثر احتمالاً، أن يكون هذا الشخص خادعاً ومخدوعاً، أو أن الواقعة التي يرويها وقعت فعلاً. فأوازن بين المعجزتين، وطبقاً لرجحان إحدهما... أرفض المعجزة الأكبر. ولن تجد في التاريخ كله معجزة شهد عليهما عدد كاف من الناس، أوتوا من صادق الإدراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا أي انخداع قد ينخدعون به، ومن النزاهة التي لا ريب فيها ما يرفعهم فوق أي شبهات من أي قصد في خديعة غيرهم، ومن الثقة وحسن السمعة في أعين البشر ما يجعلهم يخسرون الكثير إذا ضبطوا متلبسين بأي كذبة؛ ويشهدون في الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية، وفي جزء مشهور من العالم، مما يجعل الضبط أمراً لا يمكن تجنبه؛ وهذه الظروف كلها لازمة لإعطائنا الثقة الكاملة في الشهادة البشر..

"إن القانون الذي نهدي به عادة في استدلالنا العقلية هو أن الأشياء التي لا خبرة لنا بها تشبه تلك التي لنا بها خبرة؛ وأن ما وجدناه أكثر الأشياء عادية هو دائماً أكثرها احتمالاً؛ وأنه حيث يكون هناك تعارض في الحجج ينبغي لنا أن نفضل تلك القائمة على أكبر عدد من الملاحظات الماضية.. وأنها لقرينه قوية ضد جميع العلاقات الخارجة والإعجازية ما يلاحظ من أنها تكثر على الأخص بين الأمم الجاهلة

صفحة رقم : 11805

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

والهمجية،... ومن الغريب أن مثل هذه العجائب لا تحدث أبداً في أيامنا. ولكن لا غرابة... في أن يكذب الناس في جميع العصور(106)".

واسترسل هيوم في ادعاء عقبات أخرى في طريق الإيمان المسيحي: حياد الطبيعة الهادئ إزاء الإنسان ومنافسية على الأرض؛ وتنوع الشرور المتكاثر في الحياة والتاريخ؛ ومسئولية الله الواضحة عن خطيئة آدم، وعن جميع الخطايا، في عالم لا يمكن أن يقع فيه شيء - طبقاً لفرض المسيحي - إلا برضى الله. ودرءاً لتهمة الكفر عنه، أجرى هيوم على لسان "صديق يحب المفارقات الشكية" "لا أستطيع أبداً الموافقة" على مبادئه، دفاعاً عن تخيل أبيقور أن الآلهة موجودة ولكنها لا تعبأ بالبشر. ويتساءل الصديق لم لا يمكن أن يتفق الدين والفلسفة على ألا يزجج أحدهما الآخر كما اتفقا - فيما يظن - في الحضارة الهلنستية:

"بعد أن انتهى الفرع الأول الذي نجم عن مفارقات ومبادئ الفلاسفة الجديدة، يبدو أن هؤلاء المعلمين عاشوا طوال العصور القديمة في انسجام عظيم من الخرافة المقررة، وقسموا البشر قسمة عادلة بينهما: فالقسم الأول يدعى لنفسه جميع العلماء والحكماء، والثاني جميع السوقة والأميين(107)".
فيا له من أسلوب للمهادنة!

وفي 1749 عاد هيوم إلى إسكتلندا ليعيش مع أخيه وأخته في ضيعتهما بناينويلز. وبعد عامين تزوج جون هيوم، وانتقل ديفيد إلى أدنبرة، وأرسل إلى المطبعة الآن "التحقيق في مبادئ الأخلاق" الذي أما أن يحل محل المجلد الثالث من الرسالة، وأكد من جديد أن الحس الأخلاقي مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية؛ ورفض ما ذهب إليه سقراط من أن الفضيلة والذكاء شيء واحد؛ واستنكر استنكاراً قاطعاً فكرة لأرشفوكو القائلة بأن الأفعال "الغيرية" مدفوعة أنانياً بأمل اللذة الحاصلة من التقدير الاجتماعي الذي يتوقع أن تحظى به. فاللذة

صفحة رقم : 11806

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

التي نستشعرها في مثل هذه الأفعال، في رأي هيوم، ليست سبباً لها بل مرافقاً ونتيجة لها؛ أما الأفعال ذاتها فهي عملية من عمليات غرائزنا الاجتماعية(108).

ولكن أبرز ملامح هذا التحقيق الثاني هو تفصيله لمبدأ منفعة أخلاقي. فبعد هتشنس بثلاثة وعشرين عاماً، وقبل بنتمام بثمانية وثلاثين، عرف هيوم الفضيلة بأنها "كل صفة في العقل نافعة أو لذبية للشخص نفسه أو لغيره(109)". وعلى هذا الأساس برر الذات الصحية للحياة باعتبارها نافعة للفرد، والمعيير المزدوج للفضيلة باعتبارها نافعاً للمجتمع.
يقول:

"إن طفولة الإنسان الطويلة العاجزة تقتضي تضافر الوالدين للإبقاء على حياة صغارهما، وهذا التضافر يحتاج إلى فضيلة العفة أو الوفاء للفرش الزوجي.. والخيانة من هذا النوع أشد أذى في المرأة منها في الرجل. ومن ثم كانت قوانين العفة أشد صرامة على أحد الجنسين منها على الآخر(110)".

وقد كتب المؤلف المفتون بكتابه عن هذا التحقيق في مبادئ الأخلاق يقول: "في رأيي (أنا الذي ينبغي ألا أكون حكماً في هذا الموضوع) أنه من بين جميع مؤلفاتي... أفضلها بما لا يقاس" وأضاف "لقد ولد غير ملحوظ ولا مرموق في هذه الدنيا(111)".

د- الداروينية والمسيحية

وفي 1751 ألف "حوارات في الدين الطبيعي". وهو أشد ما أخرج مزاجه الشيطاني تخريباً وعدواناً على المقدسات. هنا يتحدث ثلاثة أشخاص، ديميا الذي يدافع عن السنية، وكليانثيس الربوبي، وفيلو الذي هو هيوم لا يخطئه النظر. ويزعم ديميا أنه ما لم نفترض وجود عقل أعلى وراء ظواهر الطبيعة فإن العالم يصبح غير مفهوم إلى

صفحة رقم : 11807

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

حد لا يطاق، ولكنه يسلم أن إلهه غير مفهوم بتاتاً للعقل البشري(112). ويلوم كليانثيس ديميا على محاولته تفسير غير المفهوم بغير المفهوم، ويؤثر أن يثبت وجود الله بأدلة القصد في الطبيعة. أما فيلو فيسخر من الحجتين، ويزعم أن العقل لا يمكن أبداً أن يفسر العالم أو يثبت وجود الله. "فأي امتياز خاص تمتاز به حركة الدماغ الصغيرة هذه التي نسميها الفكر، حتى يتحتم علينا أن نجعلها نموذجاً للكون كله؟"(113). وأما عن القصد، فإن تكييف الأعضاء لتلائم الأغراض ربما لم ينشأ عن إرشاد إلهي، بل عن تجارب الطبيعة، البيئية المتخبطة، خلال آلاف السنين(114). (هنا نجد "الانتخاب الطبيعي" بعد 1.800 سنة من لوكرينيوس، وقبل 108 سنة من داروين). وحتى لو سلمنا بالقصد فوق الطبيعي، فإن قصور التكييفات وعيوبها، وآلاف الآلام في دنيا الإنسان والحيوان، تكشف لنا- على أحسن الفروض- عن إله محدود القدرات والذكاء، أو إله غير مكترث للبشر بتاتاً. "فحياة الإنسان في النهاية ليست أعظم أهمية للكون عن حياة المحارة(115)" يقول:

"يخيل للمرء أن هذا الإنتاج الفخم لم يتلق آخر اللمسات من خالقه، فكل جزء فيه ناقص الصقل جداً، والخطوط التي تُفد بها غاية في الخشونة. فالرياح مثلاً تساعد الناس على الملاحظة، ولكن وما أكثر أن تصبح مؤذية حين تتقلب زوابع وأعاصير! والأمطار ضرورية لتغذية جميع نباتات الأرض وحيواناتها، ولكن ما أكثر ما تكون شحيحة وما أكثر ما تكون مسرفة!... ليس في الكون شيء كثير النفع إلا انقلب المرة بعد المرة مؤذياً لإفراطه أو قصوره، ثم أن الطبيعة لم تتخذ حيلتها بالدقة المطلوبة من جميع ألوان الخلل أو الفوضى(116)". وأسوأ من هذا أن الأمر لا يقتصر على وجود الخلل وسط النظام (إذا نظرنا إلى العالم على أنه مخطط)، بل إن في وسط الحياة الزاخرة صراعاً عقيماً على الدوام مع الموت.

صفحة رقم : 11808

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

"إن حرباً لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية. فالضرورة، والجوع، والعوز - تحفز الأقوياء والشجعان، والخوف، والقلق، والرعب، تقلق الضعفاء والعاجزين. وأول مدخل للوليد إلى الحياة فيه ألم مبرح له ولأمه المسكينة، والضعف والعجز والضيق رفقاء كل مرحلة من مراحل تلك الحياة، ثم يختم آخر الأمر بالعذاب والرعب.. لاحظ

أيضاً.. حيل الطبيعة العجيبة، لتكرر حياة كل كائن حي... تأمل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التي تنترى على جسم كل حيوان، أو تغرز حمتها فيه وهي تطير من حوله... فكل حيوان يحدق به أعداء يسعون على الدوام إلى إشقائه وتدميره.. ولإنسان ألد خصوم الإنسان. فالقهر، والظلم، والاحتقار والإهانة، والعنف، والإغواء، والحرب، والافتراء، والغدر، والتزيف؛ بهذه يعذب الناس بعضهم بعضاً(117).

"انظر إلى هذا الكون نظرة محيطية. يا لها من وفرة هائلة في الكائنات، الحية المنظمة، الحساسة النشيطة! إنك لتعجب بهذا التنوع الضخم وهذه الخصوبة الهائلة. ولكن افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات الحية... ما أشد عداها وتدميرها بعضها لبعض!... والكل لا يمثل سوى فكرة الطبيعة العمياء، التي تزخر بمبدأ محي عظيم، ويتدفق من حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية أطفالها الشائهن المجهزون(118)".

وتوحي الأدلة المتضاربة على الخير والشر في العالم إلى فيلو بثنائية الآلهة المتنافسين أو تعددهم، بعضهم "أخيار" وبعضهم "أشرار"، وربما كانوا مختلفي الجنس. وهو يلمع في خبث إلى أن العالم:

"لم يكن سوى المحاولة الفجة الأولى لإله طفل أقلع عنها بعد ذلك خجلاً من إنجازه الأعرج.. أو أنه نتاج الشيوخوخة والخرف في إله طعن في السن، وبعد موته واصل العالم مسيرته مغامراً، مدفوعاً بالدفعة والقوة الفعالة الأولى التي تلقاها منه(119)".

صفحة رقم : 11809

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

ولعل العالم كما أكد البراهمة "نشأ عن عنكبوت لا نهائي غزل خيوطه المعقدة كلها من أمعائه... فلم لا يغزل نسق منظم من البطن كما يغزل من الدماغ؟(120)". فتكون الخليقة والحالة هذه أنسلاً. أو ربما "كان العالم حيواناً وإله روح العالم التي تحركه وتتحرك به(121)".

وبعد هذا المزاج كله يعود فيلو إلى القصد، فيسلم بأن "علة النظام أو علله في الكون فيها على الأرجح بعض الشبه بالذكاء الإنساني(122)". ثم يعتذر عن آرائه المخزية عن الكون:

"يجب أن أعتزف أنني أقل حذراً في موضوع الدين الطبيعي مني في أي موضوع آخر... وأنتك على الأخص يا كلبانثيس، أنت الذي أعيش معه في علاقة حميمة بغير قيود، تدرك أنني رغم تحور حديثي، وحبتي للحجج الغريبة، فليس هناك من طبع ذهنه بإحساس بالدين أعمق من إحساسي، أو من يعبد الكاهن الإلهي عبادة أعمق إذ يكتشف في نفسه أنه يناقش أساليب الطبيعة وحيلها التي لا يمكن تفسيرها. فالقصد، أو النية، أو التخطيط، يسترعي في كل مكان نظر أشد المفكرين غفلة وغباء، وما من رجل يمكن أن يتجمد في المذاهب الفلسفة السخيفة تجمداً يجعله يرفض هذا القصد على طول الخط(123)".

على أن أصحاب هيوم ناشدوه ألا ينشر الحوارات رغم هذا العرض بالمصالحة. فأذعن، وحبس المخطوطة في مكتبته، فلم تر النور إلا في عام 179، بعد موته بثلاث سنوات. ولكن افتتاحه بالدين أغراه بالعودة إلى الموضوع، وفي 1757 نشر "أربع مقالات" تناولت إحداها "تاريخاً طبيعياً للدين". وسحب مقالين آخرين بناء على إلحاح ناشره، وقد طبعا حين كان أبعد من أن يناله خوف أو لوم؛ وأحد المقالين عن الخلود، والآخر تبرير للانتحار حين يصبح الشخص عبثاً على إخوانه.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

ومقال "التاريخ الطبيعي للدين" هذا يجمع بين اهتمام هيوم بالدين، واهتمامه الجديد بالتاريخ. فقد فات مرحلة الهجوم على المعتقدات القديمة إلى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الإنسان إلى اعتناقها. ولكنه لا يميل إلى البحث الصابر المستأنى، حتى بين المواد الشحيحة المتاحة آنذ عن الأصول الاجتماعية، بل يؤثر أن يتناول المشكلة بالتحليل السيكولوجي والاستنباط العقلي. فعقل الإنسان البدائي فسر العلية كلها قياساً على إرادته وسلوكه، فوراء أعمال الطبيعة وأشكالها- كالأنهار والمحيطات والجبال والعواصف والأوبئة والعجائب الخ- تصور هذا الإنسان أعمالاً إرادية يقوم بها أشخاص مختفون ذوو قدرة خارقة؛ ومن هنا كان الشرك أول ضروب الإيمان الديني. وإذ كانت قوى أو أحداث كثيرة مؤذبة للإنسان، فقد كان لخوف نصيب موفور في أساطيره وعباداته، فجسد هذه القوى الشريرة والشياطين وحاول أن يسترضيها. ولعل الإله لذي أمن به كلفن كان شيطاناً قاسياً، خبيثاً، مستبداً، صعب الإرضاء (وهذه إشارة خبيثة من هيوم)(124). وإذ تصور الإنسان الآلهة الخيرة على شكل البشر- إلا من حيث القوة والدوام، فإنه افترض أنها تمنح العون والراحة بقاء الهدايا والزلقى، ومن ثم كانت طقوس القرابين، والضحايا، والعبادة، وصلاة التضرع. وبازدياد التنظيم الاجتماعي حجماً واتساعاً، وبخضوع الحكام المحليين لملوك أعظم، موت دنيا اللاهوت بتغيير مشابه، فعزا الإنسان في الخيال إلى الآلهة نظاماً هرمياً تسوده الطاعة، وانبعث التوحيد من الشرك، وبينما كانت الجماهير لا تزال تجنو للآلهة أو القديسين المحليين، عبد المتقفون زيوس، أو جوبتر، أو الله. ولسوء الحظ أصبح الدين أكثر تعصباً كلما غدا أكثر توحيداً. فالشرك سمح بألوان كثيرة من العقيدة الدينية، أما التوحيد فقد طالب بالتماثل. وانتشر الاضطهاد، وغدت الصيحة المطالبة بالعقيدة السنية "أعنف العواطف الإنسانية وأعتاها جميعاً(125)". وأكرهت الفلسفة على أن تكون خادماً لإيمان الجماهير ومدافعاً عنه بعد أن كانت مطلقة

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

نسبياً بين القدامى باعتبارها دين الصفوة. وفي هذه العقائد التوحيدية- اليهودية والمسيحية والإسلام- فصل الاستحقاق و "الخلاص" أكثر فأكثر عن الفضيلة، وربط بحفظ الشعائر والإيمان الأعمى. وترتب على هذا أن المتعلمين أصبحوا أما شهداء وأما منافقين، وبما أنهم قلما اختاروا الاستشهاد، فإن حياة البشر لوثها النفاق وعدم الإخلاص. على أن هيوم كان يغضي عن قدر من النفاق، وذلك في نوباته الأقل ولعاً بالقتال. مثال ذلك أنه حين استشاره قسيس شاب فقد إيمانه أبقى في الكنيسة ويقبل وظائفها، أجاب ديفيد، ابق: "إن الوظائف المدنية الصالحة للمتقفين نادرة... ومن المغالاة في احترام العامة ونزعاتهم الخرافية أن يعتر المرء بإخلاصه معهم. فهل حدث مرة أن التزم إنسان بشرفه بأن يقول الصدق للأطفال أو المجانين؟... والوظيفة الكنسية إنما تضيف القليل إلى الخداع أو قل التظاهر- البريء- الذي يبدونه يستحيل على المرء أن يشق طريقه في هذه الدنيا(126)".

اتجه هيوم في أخريات عمره أكثر فأكثر إلى السياسة والتاريخ بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقررها الوجدان- في رأيه أكثر مما يقررها العقل. ففي 1752 نشر "أحاديث سياسية". وقد أدهشته إقبال القراء عليها. وأبهج إنجلترا أن تنسي نزعه لاهوته المدمرة في النزعة المحافظة لسياسته. كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات إلى مساواة شيوعية: "لا بد في الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الإنسان سخاء يتيح لكل فرد أن يتمتع بجميع ضروريات الحياة، بل أكثر كمالياتها، لو أن عطاياها كلها قسمت بالقسط بين الأنواع، وحسنت

صفحة رقم : 11812

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

بالفن والصناعة،.. كذلك لا بد من الاعتراف بأننا أينما خرجنا على هذه المساواة سلبنا من الفقراء رضي أكثر مما نضيف إلى الأغنياء، وبأن الإشباع الطفيف لغرور طائش في فرد واحد، كثيراً ما كلف أكثر مما يكلفه الخبز لكثير من الأسر بل الأقاليم".

ولكنه أحس أن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التي تسودها المساواة ضرباً من المحال: "إن المؤرخين ينبئوننا، لا بل الفطرة السلمية تتبئنا، بأن هذه الأفكار عن المساواة "التامة" مهما بدت قيمة إلا أنها في صميمها "غير ممكنة عملياً"، وألا لألحقت أشد الأذى بالمجتمع الإنساني. فلو أنك سويت تسوية كاملة بين الملكيات، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فوراً. أو لو فرضت الرقابة على هذه الفضائل... لأحتجت إلى أكثر محاكم التفتيش صرامة لمراقبة أي ضرب من عدم مساواة بمجرد ظهوره، وأشد السلطات القضائية صرامة لعقابه وإصلاحه... فمثل هذا السلطان المفرط لا بد أن ينحدر سريعاً إلى درك الطغيان(127)".

ونالت الديمقراطية من هيوم، كما نالت الشيوعية، رفضه المتعاطف. فالمبدأ في رأيه "مبدأ... نبيل في ذاته... ولكن تكذبه كل التجارب، أن الناس هم الأصل في كل ضروب الحكم العادل(128)". ورفض النظرية (التي سيحييها روسو بعد قليل) القائلة بأن الحكومة نشأت أصلاً من "تعاهد اجتماعي" بين الناس، أو بين الشعب والحاكم، لأنها نظرية صبيانية:

"فكل الحكومات الموجودة الآن تقريباً، أو التي خلفت لنا أي سجل في التاريخ، أسست أصلاً إما على الاغتصاب، أو على الغزو، أو عليهما جميعاً، دون أن تزعم بأنها حظيت بموافقة الشعب، أو

صفحة رقم : 11813

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

بخضوعه الاختياري. وأغلب الظن أن أول سيطرة الإنسان على الجماهير بدأت في حالة الحرب... وكان من أثر استمرار تلك الحالة طويلاً... وهو أمر مألوف لدى القبائل المتوحشة، أن الشعب تعود الخضوع (129). وهكذا أصبحت الملكية أكثر أشكال الحكم انتشاراً، ودواماً، وأذن فأكثرها عملية على الأرجح. "إن الأمير الوراثي، والنبلاء دون أتباعهم، والشعب الذي يصوت بواسطة ممثليه، يؤلفون خبير ملكية، وأرستقراطية، وديمقراطية (130)". وبالإضافة إلى تنفيذ هيوم لروسو سلفاً، استخدم أسلوبه "الأديسوني" لينبذ سلفاً نظرية مونتسكيو التي تزعم أن مناخ البلد يقرر طبع أهله. كتب يقول في "مقالات أخلاقية وسياسية" ظهرت طبعته الثانية في أن واحد تقريباً (1748) مع "روح القوانين": "أما عن الأسباب الطبيعية فإني أميل إلى الشك في مفعولها في هذا المجال. كذلك لا أظن أن الناس يدينون بأي شيء في طبيعهم أو نبوغهم للهواء أو الغذاء أو المناخ (131)". فالخلق القومي يترتب على الحدود القومية لا المناطق المناخية، وأهم ما يقرره هو القوانين والحكومة وهيكل المجتمع وأعمال السكان ومحاكاة الجيران أو الرؤساء.

في ظل هذه العوامل المختلفة المحلية تكون الطبيعة البشرية أساساً طبيعة واحدة في كل زمان ومكان؛ فالدوافع والغرائز ذاتها، التي تفرضها دواعي البقاء، تنتج أساساً، في جميع العصور والأقطار، الأفعال والنتائج ذاتها. "فالطموح والشجع ومحبة الذات والغرور والصدقة والكرم وروح الجماعة- هذه العواطف، المختلطة بدرجات متفاوتة، والموزعة بين أفراد المجتمع، كانت منذ أن وجدت الدنيا وما زالت مصدر جميع

صفحة رقم : 11814

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

الأفعال والمشروعات التي لوحظت بين بني البشر. أتريد أن تعرف عواطف اليونان والرومان وميولهم وسير حياتهم؟ إذن فادرس جيداً طبائع الفرنسيين والإنجليز وأفعالهم، فلن تخطئ كثيراً أن طبقت على الأولين معظم الملاحظات التي لاحظتها على الآخرين- فالبشر شديدي التشابه في كل زمان ومكان حتى إن التاريخ لا يضيف إلى علمنا جديداً أو غريباً في هذا الباب. وأهم فائدة له أن يكشف عن المبادئ الثابتة والعامّة للطبيعة البشرية بعرضه البشر في شتى الظروف والمواقف، ويمدنا بالمواد التي نكون منها ملاحظتنا ونحيط منها علماً بالمنابع المنتظمة لأفعال البشر وسلوكهم. فهذه السجلات للحروب والدياسات والأحزاب والثورات هي مجموعات كبيرة من التجارب يستعين بها فيلسوف السياسة أو الأخلاق على تحديد مبادئ علمه (132)".

وقد أضاف هيوم إضافات قيمة للفكر الاقتصادي في كتابيه "أحاديث سياسية" و "مقالات ورسائل في موضوعات مختلفة" (1753). ذلك أنه رفض رأي الفيزوقراطيين الفرنسيين القائل بأن جميع الضرائب تقع في النهاية على الأرض. وذهب إلى أنها تقع في النهاية على العمل، لأن "كل شيء في العالم يشتري بالعمل (133)" (وهو هنا مردد صدى لوك). وحتى قبل أن تتشكل الثورة الصناعية تتبأ بأن العمال "سيرفعون أجورهم بالتكتل"، وندد بتمويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعة والإصدارات المتكررة للسندات، وتنبأ بأن مثل هذه الإجراءات الضريبية ستجر "الحكومات الحرة" إلى "حالة العبودية التي تزرخ تحتها جميع الأمم المحيطة بنا" (134). والنقود ليست هي الثروة، وسك مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها إنما يرفع الأسعار ويعرقل التجارة الخارجية. والنظرية "المركنتلية" الخاطئة التي ما زالت تحمل الدول الأوروبية على التركيز على الصادرات، ومنع الواردات، وتجميع

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

الذهب، ستحرم أوروبا من المنافع الدولية الناشئة عن قدرة كل أمة على إنتاج سلع نوعية بفضل التربة والمناخ والمهارات الخاصة بأدنى تكلفة وأعلى جودة. ثم جرؤ على أن يصلي:
"لا بوصفي إنساناً فحسب، بل أحد الرعايا البريطانيين،.. لأجل التجارة المزدهرة لألمانيا، وأسبانيا، وإيطاليا، بل وفرنسا ذاتها. وإني على الأقل واثق أن بريطانيا العظمى وهذه الأمم جميعاً سيزيد ازدهارها لو أن ملوكها ووزراءها اعتنقوا هذه الآراء السمحة الخيرة نحو بعضهم البعض... فازدياد الثروة والتجارة في أي أمة لا يؤدي وإنما على العكس من ذلك يدعم عادة ثروة وتجارة جيرانها جميعاً(135)".
هذه الأفكار، التي ربما كانت متأثرة بمذهب "عدم التدخل" الذي نادى به الفيزيوقراطيون، أثرت بدورها في آدم سميث، صديق هيوم، ولعبت دوراً في تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة، وهي تجد تحقيقها في أوروبا الغربية في عصرنا هذا.

و- التاريخ

في 1752 بعد حملة شنّها عليه الحزب السني الذي اتهمه بأنه زنديق وقح، انتخب هيوم أميناً لمكتبة كلية المحامين بأدنبرة. وكان المنصب كبير المعنى في نظره رغم تواضع راتبه الذي لم يزد على أربعين جنيهاً في العام، لأنه جعله السيد المتصرف في ثلاثين ألف مجلد. وبفضل وجود هذه المكتبة في متناوله استطاع أن يؤلف كتابه "تاريخ إنجلترا". وكان في عام 1748 قد اعترف إلى صديق له بهذه الكلمات "لقد طالما نويت أن أولف كتاب تاريخ في سني حياتي الأكثر نضجاً(136)". وكان يسمى التاريخ "الخليلة العظمى للحكمة(137)", ويؤمل أن يجدد فيه أسباب نهوض الأمم وسقوطها، يضاف إلى هذا:

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

"أن نرى النوع الإنساني كله يمر بنا وكأنه في عرض أمامنا. بادياً على سجيته، دون أي من هذه الاستخفافات التي طالما شوشت حكم المتفرجين على هؤلاء الناس أثناء حياتهم- فأى مشهد آخر يمكن أن تتصوره بهذا البهاء والتنويع والتشويق؟ وأي متعة للحواس أو الخيال يمكن أن تقارن به؟(138)".

إن مظاهر القرن الثامن عشر أنه أنجب في جبل واحد ثلاثة من أعظم مؤرخي العالم؛ فولتير، وهيوم، وجبون، وكلهم مؤسس في الفلسفة، محاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير اللاهوت، وفي أعرض منظور للمعرفة حشده زمانه. ولم يملّ جبون من الثناء على هيوم والإقرار بفضل تأثيره، وكان يقدر إطرء هيوم للمجلد الأول ممن "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" (1776) فوق كل إطرء آخر. فهل كان هيوم بدوره مديناً بالكثير لفولتير؟ كان قد توصل إلى فلسفته وصاغها كباحث مدين للربوبيين الإنجليز لا للشكاك الفرنسيين. "والرسالة في الطبيعة البشرية" سبقت كل الأعمال الكبرى التي كتبها فولتير وديدرو ومونتسكيو. ولكن ربما كان كتاب هيوم "تاريخ إنجلترا" (1754-62) مديناً بشيء لكتاب فولتير "عصر لويس الرابع عشر" (1751)، وحتى لكتاب "مقال في العرف" الذي طبعت أجزاء منه في 1745 و 1755. هؤلاء المؤرخون الثلاثة كلهم أجمعوا على فضح الخرافة، ورفض التفسيرات الخارقة، والتوحيد بين التقدم وتطور المعرفة والعادات والفنون.

وكتب هيوم تاريخه إلى الخلف. فغطى مجلده الأول الصادر في (1754) عهدي جيمس الأول وتشارلز الأول- السنوات 1603-49، والثاني (الصادر في 1756) امتد من 1649 إلى 1688، والثالث والرابع (الصادران في 1759) من 1485 إلى 1603، والخامس والسادس (الصادران في 1761) من غزو يوليوس قيصر لإنجلترا إلى ارتقاء هنري السابع العرش في 1485.

صفحة رقم : 11817

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

وقد أدهشه عنف النقد الذي هوجم به المجلد الأول. كان يؤمن بأن تسلط حزب الأحرار على إنجلترا منذ استقدموا وليام الثالث في 1688، وخوفهم من الثورتين الأستيواريتين الناشبتين في 1715 و 1745، قد لوثا كتابة التاريخ الرسمي الإنجليزي بالعداء لأسرة ستيوارت، ثم زعم أنه بريء من النزعات المضادة. "رأيتي المؤرخ الوحيد الذي أهمل في وقت واحد الحكومة والمصلحة والسلطة الراهنة من جهة، وصيحة التحيز الجماهيري من جهة أخرى(136)". ولكنه نسي أنه اسكتلندي، وأن إسكتلندة ما زالت تكي سرأ أميرها الجميل تشارلي، وأن الاسكتلنديين، وأغلب الظن أن هيوم لم يشذ عنهم، لم يغفروا قط لإنجلترا قتلها تشارلز الأول نصف الاسكتلندي، واستقدمها أولاً رجلاً هولندياً، ثم آخر ألمانياً، لحكم إنجلترا وإسكتلندة وويلز. فبينما نراه يسلم بأن تشارلز الأول جاوز حدود الامتيازات الملكية واستحق أن يخلع، نجده بصور البرلمان متجاوزاً بالمثل حقه، ومذنباً بالمثل في أمر الحرب الأهلية. ولقد سلم بحق لامة في خلع الملك الصالح، ولكنه تمنى لو أن أحداً لم يدفع هذا الحق قط إلى نهايته، وخاف من "هياج الشعب وظلمه" وأحس أن إعدام تشارلز "الرجل المعتدل الكريم النفس" قد زرع بشكل خطر عادات الشعب في احترام الحكومة. واحتقر البيورتان لأنهم "منافقون منظاهرون بالتقوى" لوثوا "لغتهم" "برطانه" غامضة و "ووشوا آثامهم بالصلوات(140)".

وحكم على فترة الكومونولث (جمهورية كرومويل) بأنها فترة تقوى قاتلة، وطغيان عسكري، وفوضى اجتماعية، لم تبرأ البلاد منها إلا بعودة أسرة ستيوارت إلى العرش. وقد ذهب فولتير في عرضه لتاريخ هيوم إلى أنه منصف تمام الإنصاف!

"إن المستر هيوم... غير متحيز للبرلمان ولا للملكية، ولا هو أنجليكاني ولا مشيخي، إنما هو رجل منصف لا أكثر. فلقد طالما حرم جنون الحزبية إنجلترا من المؤرخ النزيه كما حرمها من الحكومة الصالحة. فما كتبه محافظ كان يرفضه الأحرار، الذين يكذبهم المحافظون بدورهم... ولكننا نجد في المؤرخ الجديد ذهنًا يسمو فوق مظانه،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

يتحدث عن مواطن الضعف وعن الأخطاء الجسمية وأفعال القسوة حيث الطبيب عن الأوبئة(141)". أما النقاد البريطانيون فلم يوافقوا فولتير. فهو لم يأخذوا على هيوم إنه قل أن رجع إلى المصادر الأصلية، بل (كما ذكر فيما بعد) "هوجم بصيحة واحدة كلها لوم واستنكار، بل بغض وكرهية. فالإنجليز، والاسكتلنديون، والإيرلنديون، والأحرار، والمحافظون، ورجال الكنيسة الأنجليكانية وأتباع المذاهب المنشقة، وأحرار الفكر المتدينون، والوطنيون والحاشية- كل أولئك أجمعوا على السخط على الرجل الذي جرؤ على أن يذرف دموعاً كريمة على مصير تشارلز الأول وإيرل سترافورد. وبعد أن همدت السورة الأولى لغضبتهم، كان أشد خزيًا ما بدأ من أن الكتاب طوى في زوايا النسيان. وقد أخبرني المستر ملر أنه لم يبع خلال اثني عشر شهراً إلا خمسة وأربعين نسخة منه(142)". وقد فت هذا في عضده حتى لقد حدثته نفسه حيناً بأن يرحل كما رحل في شبابه إلى مدينة من مدن الأقاليم في فرنسا، حيث يستطيع العيش باسم منتحل. ولكن فرنسا وإنجلترا كانتا تقتتلان، وقد أوشك المجلد الثاني على نهايته، فاعتزم أن يواصل العمل. وازداد تحيزه بسبب ما لقي من معارضة، ففي تنقيحه للمجلد الأول أدخل "نيفاً ومائة تغيير". ولكنه يقول بكل البهجة الخبيثة التي يستشعرها عفريت ضخم "جعلتها كلها في صف المحافظين(143)" ومع ذلك يبع من المجلدات التالية عدد لا بأس به، ورحب به المحافظون الآن محامياً شديداً المرس، وسلم بعض الأحرار بسحر أسلوبه البسيط، الواضح، البتار، الصريح، الذي سبق أحياناً وقار جيون الحضيف. فوصفه للصراع المثير بين هنري الثاني وتوماس أبيكيت يضارع رواية جيون لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية. ورفع تأثير المجلدات الستة المتراكم صيبت هيوم إلى ذروته. وفي 1762 ذهب بوزويل في تقديره له إلى أنه "أعظم الكتاب في بريطانيا(144)"- ولكن بوزويل كان اسكتلندياً. وفي 1764 صرح فولتير في تواضع بأن الكتاب "ربما كان أفضل تاريخ كتب في أي لغة إطلاقاً(145)" وقد زاحه جيون وماكولي إلى الظل، ووازن ماكولي تحيزه بتحيز معادل، ولا ينصحنا

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

المؤرخون بقراءة كتاب هيوم اليوم، لأن تسجيله للوقائع قد طرأت عليه تحسينات منذ أمد بعيد، ولكن قارئاً بدأ قراءته باعتباره واجباً فوجده فيه الإنارة والمتعة.

في 1755 بدأت حركة يقودها بعض رجال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العامة بتهمة الزندقة، وكان "التتوير الاسكتلندي" قد أنجب حركة متحررة بين شباب القساوسة، فاستطاعوا أن يحولوا دون أي إدانة علنية للفيلسوف- المؤرخ؛ ولكن الهجمات الكنيسة اتصفت هذه، ولدغته لدغات جعلته يعود إلى التفكير في الفرار. وواتته فرصته حين دعاه إيرل هرتفورد (1763) ليكون نائب سكرتير له في سفارة لفرنسا، وحصل له على معاش قدره 200 جنيه مدى الحياة.

وكان منذ أمد بعيد معجباً بالفكر الفرنسي، وقد تأثر بالرعييل الأول من كتاب "التتوير" الفرنسي، وراسل مونتسكيو وفولتير. وكانت أعماله تحظى في فرنسا بثناء يفوق كثيراً ما حظيت به في إنجلترا. وعشفته الكونتيسة دوفليه من قراءة كتبه، وكتبت له تتملقه، وجاءت لندن إلى لتراه، فأقلت منها. ولكن حين وصل باريس بسطت عليه رعايتها، وجعلته بطل صالونها، وناضلت لتوقظ صدره عاطفة الرجولة، ولكنه وجدته أثبت وأرسي من أن تجربته رياح الغرام. وكان يدعى للمآدب في الاجتماع تلو الاجتماع. قالت مدام ديبنيه "لانتكتمل بدونه". وفتحت له الأرسنقراطية ذراعيها، ورفت من حوله عظيماات النساء- حتى بومبادور العليلة. وكتب يقول: "إني واثق أن لويس الرابع عشر لم يكابد قط في أي ثلاثة أسابيع من حياته مثل هذا التملق الكثير". والتقى بطورجو ودالمبير ودولباخ وديدرو، ودعاه فولتير من عرشه النائي في فرنيه "يا قديسي ديفد". وأدهش إيرل هرتفورد أن يجد الناس يسعون وراء سكرتيره وينحنون له أكثر كثيراً مما يفعلون معه. ولكن هوراس ولبول غاظه هذا كله، وسخر بعض "الفلاسفة" من بدانة هيوم غيرة منه. وفي

صفحة رقم : 11820

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

إحدى الحفلات بعد أن دخل هيوم عقب دالمبير بأية من الإنجيل الرابع (يوحنا) "والكلمة صار جسداً" وقيل إن إحدى السيدات المعجبات بهيوم ردت عنها على الملاحظة بحضور بديهية عجيب "والكلمة صار محبوباً(146)". لا عجب أن يكتب هيوم، الذي ناكده خصومه في أدنبرة، وكرهون في لندن، "إن الحياة في باريس تبعث على الرضي الحقيقي لوفرة مجتمع الأشخاص المعقولين الأذكيا المهذبين، الذين تزخر بهم المدينة(147)". وفي نوفمبر 1965 أقبل سفير بريطاني جديد، فأنهى استخدام هيوم فعاد إلى أدنبرة، ولكن في 1767 قبل وظيفة وكيل في وزارة الخارجية بلندن. في هذه الفترة أتى بروسو إلى إنجلترا، فخلق له متاعب مشهورة، ولا بد من إرجاء هذه القصة الآن. وفي أغسطس 1769، حين بلغ الثانية والخمسين، عاد نهائياً إلى أدنبرة، وقد غدا الآن "غنياً جداً (لأنني كنت أملك دخلاً قدره ألف جنيه في العام) صحيح البدن، أتوقع- رغم أنني طعنت في السن بعض الشيء- أن استمتع طويلاً بالراحة، وأن أرى شهرتي في اتساع(148)".

وأصبح بيته في شارع سانت ديفد صالوناً يجتمع فيه من حوله آدم سمث ووليم روبرتسن وغيرهما من مشاهير الاسكتلنديين كأنه ملكهم المعترف به. ولم يجبه لرجاحة ذهنه فحسب، فقد رأوا أنه رغم استدلالات العقلية المحطمة للمقدسات، محدث ظريف بشوش معتدل في الجدل متسامح مع الآراء المعارضة، لا يسمح للخلاف في الأفكار بالانقاص من حرارة صداقته. ويبدو أنه (كمونتيني وفولتير) كان يضع الصداقة فوق الحب. "إن الصداقة بهجة الحياة الإنسانية الكبرى(149)". ومع ذلك كان محبوباً من النساء، ربما لأنه لم يكن متزوجاً. وكان الضيف الأثير في بيوت كثيرة، وإذا كانت سمته تتلف المقاعد(150)، فإن خفة روحه عوضت عن ثقل بدنه، وقد اقترح ضريبة على السمنة، ولكنه توقع أن "بعض القساوسة قد يدعون أن الكنيسة في خطر"، وكان يبارك ذكرى يوليوس قيصر لأنه أثر السمان من الرجال- قال آدم سمث: "كنت على الجملة أعده دائماً.. أقرب ما تسمح به طبيعة الضعف البشري من فكرة عن الرجل الكامل الحكمة والفضيلة(151)".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

وإذا لم يكن بد من البحث عن نقائص في هذا الخلق الذي بلغ غاية اللطف، أو عن بقعة معتمدة في هذا الذهن الألمعي، فإن أكبر أخطائه التي يصعب اغتقارها له هي إشارات إلى "الفرض البشع" الذي افترضه سبينوزا "الكافر" (152)، وهي إشارات لا بد أن الهدف منها كان تغيير لون جلده ليحمي نفسه. ولقد كانت سيكولوجية هيوم أكثر سيكولوجيات زمانه نفاذاً، ولكنها لم تعلق تماماً الإحساس بالهوية الشخصية؛ فإن حالة نفسية ما لا تستدعي حالة نفسية أخرى فحسب، بل قد تستدعيها باعتبارها حالتي "أنا"، وإحلال "النتابع المنتظم" محل "العلة" لا يتطلب سوى تغيير في العبارة؛ و "النتابع المنتظم" كاف للعلم والفلسفة؛ وكتابه "تاريخ إنجلترا" لا يفتأ يحاول تفسير الأحداث بالأسباب (153). وإن شكوكه تعلق عنها صاحبه صراحة في الحياة العملية، لا بد أن تكون خاطئة من حيث نظريتها، لأن الممارسة هي المحك النهائي للنظرية. ومن الغريب أن هيوم مع رده العلة إلى العرف، والفضيلة إلى شعور التعاطف، لم يعط وزناً يذكر للعرف والشعور في تفسيره للدين، وأبدى أقل التعاطف مع وظائف الدين الملحة في التاريخ. وكان عديم الإحساس بتعزيات الإيمان، والراحة التي كان يسمح بها على النفوس المقشعرة أمام سر الوجود وضخامته، أو وحشة الزن، أو حتمية الهزة القاسية. لقد كان نجاح وسلي رد التاريخ على هيوم. على أننا برغم هذه الاعتراضات التافهة نعود إلى الإقرار بما اتسم به ذهن هيوم النفاذ من رهافة بتارة. لقد كان هو وحده "التنوير للجزر البريطانية، ونحن إذا استثنينا مجال الرؤية السياسية، وجدنا أن أثر هيوم أساساً كان في بريطانيا معادلاً لأثر نيف وعشرة فلاسفة في فرنسا.. ومع أنه كان يشعر بالتأثير الفرنسي شعوراً عميقاً، فإنه توصل إلى أفكار التنوير، وكان بعض لطماته البالغة الشدة قبل أن يجرد "الفلاسفة" - بل فولتير - مخالبيهم على "العار" $l'inf(me)$ ، لقد كانوا مدينين له بقدر دينه لهم. كتب إليه ديرو يقول: "إني أحبيك، إني أحبك، إني أجلك" (154) وفي إنجلترا أنهى مذهب الربوبية بتحديه قدرة العقل لا إلى أسوار العقيدة القديمة فحسب، بل إلى

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

قلعته الحصينة. وكان جيون سليل هيوم في الفلسفة، وتلميذه الذي بزغ في التاريخ. وفي ألمانيا أيقظ كتابه "تحقيق في الفهم البشري" كانت من "سباته الجمائقي" بما بدا من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقا واللاهوت عن طريق تشككه في موضوعية العلة. وبعد أن قرأ كانت مخطوطة الترجمة التي قام بها هامان لكتاب "الحوارات حول الدين الطبيعي" أدمج في إعداده النهائي لكتابه "نقد العقل الخاص" (1781) انتقادات هيوم للحجة القائمة على القصد، واعتبر هذه الانتقادات مستعصية على الرد (155).

وقد كتب هيوم يقول "أتمنى أن يكون حظي- لأجلي ولأجل أصدقائي جميعاً- أن أقف دون عتبة الشيخوخة فلا أوغل في ذلك الإقليم الكئيب(156). واستجاب له الحظ. تقول ترجمته الذاتية:
"في ربيع 1775 أصبت باضطراب في أمعائي لم يفز عني في لأول وهلة، ولكنه أصبح بعد ذلك، كما خشيت، قتالاً لا شفاء منه. وإني الآن أعلق أملتي على الانحلال السريع. لقد عانيت ألماً طفيفاً جداً من اضطرابي هذا، وأعجب من ذلك أنني برغم التدهور الشديد الذي ألم ببديني، لم أعان قط ولو للحظة واحدة أي هبوط في معنوياتي، بحيث لو طلب إلي أن أسمى فترة حياتي التي أوثر أن أعيشها من جديد ربما أغربت بأي أسمى هذه الفترة الأخيرة. فعندي الحماسة ذاتها التي ألفتها في الدرس، والمرح في صحبة الإخوان، ثم أنني أحسب أن الرجل إذا مات وهو في الخامسة والستين إنما يوفر على نفسه بضع سنين من العلل والإسقام(157)".
وانتمر عليه الإسهال، ذلك الانتقام الأثير إلى الآلهة من عطاء البشر، مع النزيف الداخلي، فهبطا بوزنه سبعين رطلاً في عام واحد (1775). وكتب إلى الكونتيسة بوفليه يقول "إني أرى الموت يدنو شيئاً فشيئاً دون أن أشعر بقلق أو أسى. أحبيك بكثير من الود والاحترام لآخر مرة(158)" وذهب لاستشفاء بالمياه المعدنية في باث، فلم تجد فتيلاً في التهاب المعى الغليظ المقرح المزمن. ولكن ذهنه ظل هادئاً صافياً.

صفحة رقم : 11823

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الدين والفلسفة -> ديفيد هيوم

وعاد إلى أدنبرة في 4 يوليو واستعد للموت "بالسرعة التي يشتهيها أعدائي إن كان لي أعداء، واليسر والبشاشة اللذين يتناهما لي أصدقائي(159)" فلما قرأ في كتاب لوكان "حوارات الموتى" مختلف الأعدار التي تذرعيها المحتضرون لشارون حتى لا يستقلوا تجاربه من فورهم ليعبر بهم نهر الجحيم إلى الأبدية، لاحظ أنه لا يستطيع أن يجد عذراً مناسب حالته إلا بأنه قد يكون متوسطاً "قليلاً من الصبر أي شارون الطيب. لقد كنت أحاول فتح عيون الجماهير. فلو عشت بضع سنين أخر لطبت نفساً بأن أرى سقوط بعض مذاهب الخرافة السائدة". ولكن شارون أجاب "أيها الوغد المتكئ، لن يحدث هذا ولو بعد مئات السنين. أنتوهم أنني مانحك فسحة طوال هذه السنين؟ فادخل الزورق إذن من فورك".

أما بوزويل، الملحاح الوقح، فقد أصر على توجيه هذا السؤال إلى الرجل المحتضر- أيؤمن الآن بحياة آخرة؟ وأجاب هيوم "إنه لوهم غير معقول للغاية أن نعيش إلى الأبد". وثابر بوزويل على إلحاحه قائلاً "ولكن من المؤكد أن فكرة الحياة المستقبلية تسر النفس؟" وأجاب هيوم "أبدأ، إنها فكرة كئيبة جداً". وأقربت النساء ورجونه أن يؤمن، فصرفهن عن الموضوع بمزاحه(161).

ومات في هدوء، "بغير ألم كثير" (كما قال طبيبه) في 27 أغسطس 1776. ومشى ف جنازته جمع غفير برغم هطول المطر الغزير. وسمع صوت يقول "كان كافراً"، وأجاب صوت آخر "لا يهم، فلقد كان رجلاً أميناً(162)".

صفحة رقم : 11824

الفصل الخامس

الأدب والمسرح

1756-1714

1- دولة القلم

كانت إنجلترا تشغى بالطباعة على الأقل إن لم تشغ بالأدب. ففضلاً عن زيادة سكانها، لا سيما في المدن وخصوصاً في لندن، كان الإلمام بالقراءة قد انتشر بينهم باعتبارها ضرورة للتجارة والصناعة وحياة المدينة. وعكفت البورجوازية المزدهرة على قراءة الكتب تميزاً وترويحاً، وعكفت النساء على الكتب فوفرن القراء والحوافز لرتشاردسن والرواية. وزاد من جمهور القراء المكتبات الدائرة، التي أنشئ أول مكتبة فيها يعيها التاريخ المدون في 1740، وسرعان ما أصبح عددها اثنتين وعشرين في لندن وحدها. وبدأت الطبقة الوسطى الجماعية تحل محل الطبقة الأرستقراطية الفردية بوصفها راعية للأدب، وهكذا استطاع جونسن أن يهزأ بنثسترفيلد. ولم تعد الإعانات الحكومية تتحكم في كبار الأقلام بالمغريات السياسية كما حدث من قبل مع أديسون وسويغت وديفو. وشحذت شهية الجمهور للأخبار تلك الصراعات المرة بين الأحرار والمحافظين، وبين الهانوفرين والاستيوارتيين، وتورط إنجلترا المتزايد في الشؤون الأوروبية والاستعمارية، وأصبحت الجريدة قوة يعتد بها في تاريخ بريطانيا. ففي 1714 كان هناك إحدى عشرة جريدة تصدر بانتظام في لندن، وأكثرها أسبوعي، وفي 1733 زادت إلى سبع عشرة، وفي 1776 إلى ثلاث وخمسين. وكان كثير منها تعنيه الأحزاب السياسية، فكلما رفع الشعب صوته اشترت الأقليات الموسرة الجرائد لتملي أفكارها. واشتملت كل الجرائد تقريباً على إعلانات. وخصصت "الديلي أدفرتيزر" التي أسست في 1730 أول الأمر

صفحة رقم : 11825

للإعلانات دون سواها، ولكنها سرعان ما أضافت عنصراً مثيراً من الأنباء، كما تفعل جرائدنا الصباحية العملاقة، لدعم توزيعها وزيادة أجور إعلاناتها. وولدت في هذه الفترة بعض المجلات الهامة مثل "الكرافتسمان" (1726) وهي السوط الذي راح بولنبروك بسوط به ولبول، ومجلة "جراب ستريت" (1730-37)، وهي لسان بوب الحاد، ومجلة "الجنتمان" (1731) التي أعطت جونسون وظيفة فيها، ومجلة "أدنبرة" (1755) التي ماتت إلى أجل فقط في 1756. وكثير من الجرائد والمجلات الإنجليزية ما زال حياً بعد مضي مائتي عام على صدوره.

هذه الدوريات كلها-اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية-أعطت المطبعة قوة أضافت إلى مخاطر الحياة البريطانية وحيويتها. ومع أن روبرت ولبول حظر نشر المناقشات البرلمانية، فقد أباح للصحفيين أن يهاجموه بكل ما في أدب القرن الثامن عشر من قسوة وخبث. وقد عجب مونتسكيو القادم من فرنسا التي فرضت عليها رقابة المطبوعات، لتلك الحرية التي كانت صحيفة "جراب ستريت" تقذف بها داوننج ستريت (مقر الحكومة) بالمدمم المسموم (1). وشكا عضو في البرلمان إلى مجلس العموم في 1738 من أن: "شعب بريطانيا العظمى تحكمه قوة لم يسمع بها قط من قبل، باعتبارها السلطان الأعلى، في أي عصر أو بلد. وهذه القوة باسيدي لا تكمن في إرادة الملك المطلقة، ولا في توجيه البرلمان، ولا في قوة الجيش، ولا في نفوذ الأكليروس، إنها حكومة الصحافة. فالبضاعة التي تحفل بها صحفنا الأسبوعية يتقبلها الشعب باحترام يفوق احترامه لقوانين البرلمان، وأراء هؤلاء الكتاب التافهين لها عند الجماهير وزن أثقل مما لرأي خيرة السياسيين في المملكة (2)".

ورح الطباعون يعملون بحماسة جديدة ليلبوا الطلب المتزايد فكان في لندن 150 منهم، وفي إنجلترا كلها ثلاثمائة، اثنان منهم في هذا العهد-هما وليم كاسلون وجون باسكرفيل-خلفاً أسميهما على طقم حروف طباعية. وظل الطبع والنشر وبيع الكتب في معظم الحالات موحداً في شركة واحدة. ومن الشركات الباقية إلى يومنا شركة لونجمان التي ولدت في 1724. وكانت كلمة "publishere"

صفحة رقم : 11826

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> دولة القلم

الناشر "تدل على عائدة المؤلف، أما الذي يخرج الكتاب فهو بائع الكتب أو تاجرها bookseller. وألف بعض باعة الكتب، كأبي جونسن، أن يحملوا بضاعتهم إلى الأسواق، أو يسرحوا بها من مدينة إلى مدينة، ويفتحوا كشكاً في أيام السوق، وكان الثمن الذي يطلبوه عن كتاب مجلد يتفاوت بين شلنين وخمسة، ولكن الشلن عام 1750 كان يساوي دولاراً وربعاً تقريباً. وكان البرلمان قد أقر قانوناً بحقوق الطبع في 1710، وكفل للمؤلف أو من يخصصهم حقوق الملكية في كتابه أربعة عشر عاماً، تمتد إلى ثمانية وعشرين عاماً إذا عمر بعد الفترة الأولى. على أن هذا القانون لم يحمه إلا في المملكة المتحدة، وكان في استطاعة الطباعين في إيرلندا وهولندا أن ينشروا طبعات مسروقة ويبيعوها (حتى 1739) في إنجلترا منافسين بذلك بائع الكتب الذي دفع الثمن الكتاب.

في هذه الظروف المنطوية على المجازفة تشدد باعة الكتب في مساوماتهم مع المؤلفين. وكان الكتاب يبيع حقه في الكتاب عادة بمبلغ محدد، فإذا راج الكتاب على غير توقع فقد ينفخ البائع المؤلف بمبلغ إضافي، ولكن هذا لم يكن لزاماً عليه. أما ثمن الكتاب الذي يؤلفه مؤلف معروف فكان يتفاوت بين مائة ومائتي جنيه. وقد تسلم هيويم خمسمائة جنيه ثمناً للمجلد من كتابه "تاريخ إنجلترا" وهو ثمن مرتفع ارتفاعاً استثنائياً. وكان للمؤلف الحق في قبول الاكتتابات لكتابه، كما فعل بوب في ترجمة للألياذة؛ وفي هذه الحالات كان المكتتب يدفع عادة نصف ثمن الشراء سلفاً، والنصف الثاني عند تسلمه الكتاب، وكان المؤلف يتولى الدفع للطابع.

وعاشت الكثرة العظمى من المؤلفين في فقر مسخط. من ذلك أن سيمون أوكلي، الذي ظل عاكفاً عشر سنوات على تأليف كتابه "تاريخ المسلمين" (1708-57)، اضطر إلى استكماله في سجن المدينين؛ وكان رتشرد سفدج يتسكع في

الشوارع ليلاً لافتقاره إلى مسكن، وظل جونسون ثلاثين عاماً يعاني مرارة الفقر قبل أن يصبح أمير الأدب الإنجليزي. وكان شارع جراب (شارع ملتن الآن) الموطن التاريخي "للشعر والفقر" (كما قال جونسن)، حيث الكتاب المأجورون-

صفحة رقم : 11827

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> دولة القلم

من صحفيين، مترجمين، ومصنفين، وقراء تجارب الطبع، وكتاب المقالات للمجالات، ومحققين-ينامون ثلاثة في فراش واحد ويرتدون البطاطين لافتقارهم إلى غيرها من الملابس. ولم تكن العلة في هذا الفقر شح باعة الكتب وعدم الكثرات ولبول بقدر ما كانت إتمام السوق الأدبية إتماماً لم يسبق له نظير بأصحاب المواهب الهزيلة ينافس بعضهم بعضاً في قبول الأجر المنحطة. وشارك طغيان حالات الإخفاق على حالات الفلاح في المال والأعمال، مع انسلاخ الأدب عن الحماية الأرستقراطية، على الحط من المكانة الاجتماعية للمؤلفين. وفي الوقت الذي كان فيه الشعراء والفلاسفة والمؤرخون في فرنسا يستقبلون بالترحيب في أرواح البيوت والصدور، كانوا في إنجلترا-باستثنائين أو ثلاثة-يقصون عن "المجتمع المهذب" باعتبارهم بوهيميين غير مغتسلين. وربما كان هذا هو السبب في أن كونجريف رجل فولتير ألا يدرجه في زمرة الكتاب. وقد تحدى الكسندر بوب تحيزات عصره بادعائه إنه شاعر وجنتلمان معاً. وقد عنى بكلمة جنتلمان الرجل "الكريم المولد" لا الرجل الكريم السلوك. ولكن الأمر كان على النقيض!.

صفحة رقم : 11828

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

2- ألكسندر بوب

1744 - 1688

يستهل جونسن، الذي كان يحقّر الترجمات التي تبدأ بنسب صاحبها وتنتهي بمأتمه، ترجمته الممتازة لبوب بأنباننا أن "الكسندر بوب ولد بلندن في 22 مايو 1668، لأبوين لم يتحقق لأحد قط من مرتبتهما أو مركزهما(3)". أما أبوه فتاجر كتان جمع ثروة متواضعة ثم اعتزل في بنفيلد قرب غابة ونزر. وكان أبواه كلاهما يتبعان المذهب الكاثوليكي الروماني، والسنة التي ولد فيها بوب كانت أيضاً السنة التي حطم فيها خلع جيمس الثاني أمال الكاثوليكية في تخفيف القوانين المعادية للكاثوليك. وخصت الأم الصبي الذي كان وحيدها بكثير من الترفق، وقد ورث عنها استعداداً للصداع، وعن أبيه تقوساً شديداً في عموده الفقري، فلم يزد طوله على أربعة أقدام ونصف. وقد عهد بتعليمه الأول إلى القساوسة الكاثوليك، فأعانوه على إجادة اللاتينية، واليونانية بقدر أقل، وعلمه معلمون خصوصيون

صفحة رقم : 11829

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

آخرون الفرنسية والإيطالية، وإذ أقفلت في وجهه الجامعات والمهن الرأية بسبب مذهبه، فقد واصل دراساته في البيت، فلما عاقه جسمه المحدودب وصحته الهشة عن العمل النشط، ترك أبواه العنان لولعه بكتابة الشعر. يقول:

"كنت وأنا بعد طفل، لم تغرر بي الشهرة بعد،

ألثغ ببحور الشعر، لأن بحوره وافتتي طوعاً(4)".

وحين بلغ الثانية عشرة أتاحت له نظرة خاطفة إلى دريدن يحتل مكان الصدارة في مقهى ولز، وأثار المنظر فيه رغبة عارمة في المجد الأدبي. فلما بلغ السادسة عشرة كتب بعض "الرعويات" التي تناولها الناس مخطوطة وحظيت بثناء أدار رأسه، وقبلت للنشر في 1709. وفي 1711، وبكل الحكمة الناضجة التي احتوتها سنوه الثلاث والعشرون، أدهش أدباء لندن بقصيدته "مقال في النقد" نراه- حتى وهو يحذر المؤلفين من أن:

"العلم القليل شيء خطر؛

فأنهلوا من الأعماق، وألا فلا تذوقوا ينبوع الشعر(5)".

يضع بحسم القاضي قواعد الفن الأدبي. هنا هضم الشاعر "فن الشعر" لهوراس، و "الفن الشعري" لبوالو في 744 بيتاً جيدة المعاني هضماً عجبياً، نظمت نظماً رائعاً، بألفاظ لا يزيد كثير منها على مقطع واحد- "أفكار طالما خطرت بالبال، ولكن لم يعبر عنها بمثل هذه الروعة(6)". وكان للفتى ولع "بالابجرام"، وبضغط جوامع الحكمة في بيت واحد، ولقف كل فكرة بقافية. وقد أخذ مذهبه في النظم عن داريدن، ونظيته عن بوالو. وإذ كان لديه من الفراغ ما يتسع لصقل شعره، فإنه لم يتردد في قبول النصيحة الكلاسيكية، نصيحة تهذيب الشكل وصقله، وجعل الكأس أثنى نبيذها. ومع أنه ظل يجهر بكتلكته، فإنه اعتنق مبدأ بوالو القائل بأن الأدب ينبغي أن يكون العقل مفرغاً في ثوب لائق. أما الطبيعة فنعم، ولكنها الطبيعة التي روضها

صفحة رقم : 11830

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

الإنسان؛ وأما الوجدان فنعم، ولكن الوجدان الذي هذبه وصفاه الذكاء. وأي مرشد أهدى إلى مثل هذا الفن المحكوم المنحوت من أعمال قدامى الشعراء والخطباء، وتصميمهم على أن يكونوا عقلانيين، وعلى أن يجعلوا كل جزء من عمل أدبي عنصراً منظماً مدمجاً في كل متناغم؟ هنا التقليد الكلاسيكي، المنحدر بطريق إيطاليا وفرنسا، بطريق بترارك وكورنيي، والذي يغزو الآن إنجلترا ويقهرها على يد الكسندر بوب، كما قهر شكسبير بمسرحية أديسون "كانو" (في زعم فولتير)، وكما كست العمارة الكلاسيكية المنحدرة عن طريق بالاديو وسيرليو، وعن طريق بارو ورن، الخيالات القوطية والشطحات الجامحة أو غلبتها بقواصر رزينة وصفوف أعمدة هادئة. وهكذا تكون مفهوم الشاعر الشاب عن العقل الكلاسيكي الذي يعمل في ناقد مثالي:

"ولكن أين هو الرجل الذي يستطيع أن يمحض النصح،

الذي مازال يغبطن بأن يعلم، ومع ذلك لا يطغيه علمه؟.

رجل لا يحرفه رضي ولا يميله حقد، لا هو متحيز في غباوة ولا مستقيم في عمى،

مهذب رغم علمه، مخلص مع تهذيبه،

جريء في تواضع، صارم في إنسانية،

يبصر الصديق بعيوبه في غير تحرج

ويطري العدو على فضائله وهو مبتهج،

رجل أوتي ذوقاً مدققاً دون ترمت،

ووهب العلم بالكتب والبشر جميعاً، محدث سمح، ونفس

تنزهت عن الكبرياء،

يحب أن يثني ثناء يؤيده فيه العقل(7)؟"

وقد وجد نفر من أمثال هذا الناقد، على استعداد للترحيب بمثل هذا الشعر وهذه الفضيلة المحسوبة من فتى في الثالثة والعشرين؛ وعلى ذلك خلع أديسون، الذي لا بد قد شعر أنه المقصود بهذه الأبيات، على الشاعر في العدد 253 من صحيفته "اسبكتيتور" ثناءً عظيماً لم يلبث أن ينسي في معارك الكلام. أما الشاعر جون دنيس، مؤلف مسرحية

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

"أبيوس وفرجينيا" فقد خيل إليه أنه المذموم في أبيات بوب الطائشة:

"ولكن أبيوس يحمر لكل كلمة نقولها

ويحملق حملقة رهيبة بعين مهددة

وكانه طاغية متوحش مرسوم على قطعة نسيج قديمة(8)

فرد عليها بكتابة "تأملات نقدية وهجائية" (1711). وقد انتقى عيوباً حقيقية في فكر بوب وأسلوبه، وعرضها في إطار مفذع. فوصف بوب بالمنافق القبيح الذي خلق على شكل قوس كيوبيد أو ضفدع أحذب، وهناه على أنه لم يولد في اليونان القديمة، وألا لألقت به عارياً بعد ولادته لقبحه(9). ولحق بوب جراحه وترقب فرصته. ثم تابع نجاحه بنشر قصيدته "اغتناب خصلة شعر" (1712) وكانت تقليداً لسافراً لقصيدة بوالو Le Lutrin المقرأ (1674)، ولكن الناس أجمعوا على أنها فاقت أصلها. وخلاصة الموضوع أن اللورد روبرت بيتر أعرب عن حماسه للمسز فيرمر بقصة خصلة من شعرها الجميل وهروبه بها، وتلا ذلك فتور بين الغاصب والمغتصبة. واقترح رجل يدعى كاريل على بويل أن أربلا قد يهدأ سخطها إذا قص الشاعر القصة في شعر مازح وقدم لها القصيدة. وهكذا فعل، وهكذا انتهى الأمر. فصفت المسز فيرمر عن اللورد، ووافقت على نشر القصيدة. ولكن بوب وسع الخطة، مخالفاً نصيحة أديسون، وكدهسها بعدة من الشعر الملحمي- الهزلي ضمت الكائنات الخرافية: السيلفات، والسمنذلات، والحوريات، والأقزام المشاركة في الملحمة؛ وراقت هذه "المليشيا الخيفة للسماء السفلى" خيالات العصر وميوله، ولقيت قصيدة "الاعتصاب" المعدلة استحسان الجميع إلا الشاعر دنيس. وتوقف جورج باركلي في حملته على المادة ليهنئ المؤلف على لدونة ربة شعره. ولباقة بوب النظمية كلها، ومعين أخيلته وعباراته الذي لا ينضب، يجعلان القصيدة تتألق تألق الأحجار الكريمة التي رصعت بها الحسناء "بليندا" شعرها. وهو يصف بخبرة النساء مستحضرات التجميل التي يسلم بها أحد الجان البطلة لحروب الغرام، ويعدد في مرادفات تهكمية ما سيحفل به يومها من جلائل الأمور:

صفحة رقم : 11832

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

"ترى هل تحطم الحورية (بليندا- أرابيلا) قانون ديانا (قانون العفة)،

أم أن قارورة هشّة من الصين سيصيبها شرخ،

أتراها تلوث شرفها، أم ثوبها الموشي الجديد؟

أتتسي أن تتلو صلواتها، أم يفوتها عرض بالأقنعة،

أتضيع قلبها، أم قلاذتها، في حفل راقص... (1)"

وتشارك بليندا في تراثات جماعة الأشراف، وقمارهم في هامتن كورت، حيث:

"تموت سمعة عند كل كلمة (11)!"؛

ويحشد الشاعر براعته الفنية ليصف لعبة ورق. فإذا انحنت بليندا لتشرب، قصّ البارون القوي خصلتها وهرب (وهذا السيل المتدفق) من البحر العميق "الإيامبي iambic" يأخذ بالألباب). فتطارده وقد أخذ الغضب منها كل مأخذ، وتعثر عليه، وتلقي قبضة من الشوق في وجهه؛

"وبغنة تفيض كل عين بالدموع المنهلة

وتردد قبة السماء صدى عطسه(12)"

وفي هذه الأثناء يغتصب الأقرام أو السيلفات أو السمندلات الخصلة ويجرونها وفي أثرها سحب الفخر إلى السماوات حيث تصبح نجماً مذنباً يفوق بريقه تلالؤ شعر بليندا. وقد أبهج هذا كله نبلاء لندن ونيبيلاتها، وأنديتها ومهايتها. ووجد بوب نفسه رجلاً يشيد به الناس أبرع شاعر في إنجلترا، وغدا كل من عداه من الشعراء خصوماً له. ولم يصف جديداً لشهرته بالأبيات المملة التي وصف بها غابة ونزر (1713)، كذلك لم ينس له الأحرار بعد انتصارهم في 1714 أنه في تلك القصيدة كشف عن ميوله الكاثوليكية نحو الأسرة المالكة التي سقطت(13). ولكنه عاد فأسر جمهوره في 1717 بنظمه في مقطوعات من بيتين

صفحة رقم : 11833

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

مقفيين couplets رسائل هلويز وأبيلاز المختلفة. فنرى "الوزير" التي حبست نفسها في دير للراهبات تطلب إلى أبيلاز المخصي أن يضرب بقوانين الكنيسة والدولة عرض الحائط ويأتي إلى حضنها:

"تعال إن جرؤت بكل ما فيك من فتنة!"

تحد السماء، وطلبت بقلبي،

تعال، وبنظرة واحدة من تلك العيون المضلة

امح كل فكرة ذكية من أفكار السماء...

اخطفني، وأنت تهمّ بامتطاء جوادك، من مسكني المبارك، أعن الأصدقاء، وانتز عني من إلهي!"

وفي نزوة أخرى تقول له:

"لا أبعد عني بعد المشرفين،

لترتفع جبال الألب حاجزاً بيننا، ولتهدر محيطات بأسرها!

أواه، لا تأت، ولا تكتب، ولا تفكر في ولو مرة،

ولا تشاركني وخزة واحدة من وخزات الألم الذي ذقنه لأجلك(14)".

ومع ذلك تنق أنه أت إليها في ساعة احتضارها، لا عاشقاً بل كاهناً:

"لينك تقف في ثياب مقدسة

والمشعل المقدس يرتعش في يدك

وتمد الصليب أمام عيني التي تهفو إليك،

وتعلمني وتعلم مني الموت(15)".

وكان بوب يحلم ككل شاعر في زمانه بأن ينظم ملحمة، وقد بدأ كتابة ملحمة وهو بعد في الثانية عشرة. فلما شب ودرس هومر خطر له أن يترجم الألياذة إلى ذلك المقطوعات ذات البيتين المقفين التي كانت تكون منطقته الذي فطر

عليه. واستشار أصدقاءه فأمنوا على الفكرة. وقدمه أحدهم وهو جوناثان سويفت إلى هارلي وبلونبروك وغيرهما من كبار رجال الحكومة أملاً في أن يحصل له على وظيفة شرفية يرتزق منها. فلما أخفق في هذا تكفل في أن يجمع له اكتتابات تعول "الكسندر" الجديد وهو يطفر بشعره فوق طرودة. وإذ كان سويفت في موقع

صفحة رقم : 11834

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

استراتيجي بين طلاب الوظائف والكهنوت، فقد أعلن أنه "أفضل شعراء إنجلترا هو المستر بوب، بابوي بدأ ترجمة لهومر بالشعر الإنجليزي، لا بد له أن يكملها من أن يكتبوا فيها جميعاً، لأن المؤلف لن يبدأ الطبع حتى أجمع له ألف جنيه! (16)". واقترح بوب أن يترجم الألياذة في ست مجلدات من قطع الربع، ثمن كل المجموعة منها ستة جنيهات (180 دولاراً؟). وقبلت الاكتتابات تترى رغم هذا الثمن الغالي، واشتدت الحماسة للمشروع حتى أن برنارد لنتو تاجر الكتب وافق على أن ينقد بوب مائتي جنيه لقاء كل مجلد، وأن يقدم له نسخاً مجانية لمكتنتيه. وبما أن المكتتبيين (وعددهم 575) أخذوا 654 مجموعة، فإن بوب كسب 5320 جنيهاً (148.960 دولاراً؟) ثمناً للألياذة، وهو مبلغ لم يطفر بمثله مؤلف في إنجلترا إلى ذلك الحين. وظهر المجلد الأول المحتوي على أربعة أقسام في 1715. وقد لقي منافسه غير متوقعة بسبب نشر ترجمة في اليوم ذاته للقسم الأول بقلم توماس نيكل. وأثنى أديسون على ترجمة نيكل، التي اعتقد بوب أنها ليست في الحقيقة إلا بقلم أديسون، وأحس أن نشرها في أن واحد مع ترجمته عمل غير ودي، فأضاف أديسون إلى قائمة أعدائه.

ولو كان التفقه في العلم هو المحك الوحيد لما استحقت ترجمة بوب ثناء يذكر. فعلمه باليونانية متواضع، وقد اضطر إلى الاستعانة بالشراح المدرسين، وأنجز أكثر مهمته بالمضاهاة بين الترجمات السابقة وإعادة صياغتها بالأبيات الزوجية المقفاة من البحر الأيامي (العميقي) الخماسي التفاعيل iambic- pentameter couplets التي برع فيها. فأما بنتلي، أمير علماء الدراسات اليونانية الأحياء يومها، فقد أصاب في حكمه على هذا الأداء: "قصيدة لطيفة يا مستر بوب ولكن يجب ألا تسميها هومر (17)" فالأبيات الزوجية ونقر قوافيها الشبيه بنقر الطبل، والعبارات والفقرات والطباقات المتوازنة، هذه كلها عطلت أسلوب الشعر الإغريقي السداسي التفاعيل، الأسلوب السريع المتدفق. ومع ذلك كان هناك فخامة زاحفة، ومعين زاحر من اللغة، في تلك الأبيات التي ساقها الشاعر على نحو معجز، عبراً بها- رغم اعتراضات بنتلي- إلى القرنين الثامن والتاسع عشر، كأحب

صفحة رقم : 11835

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

ترجمة للألياذة. قال فيها جونسن "إنها أسمى ترجمة للشعر شهدها العالم إلى اليوم(18)" وقال جراي إنه لن تضارعها أية ترجمة أخرى(19). كذلك كان رأي إنجلترا إلى أن أجال كيتس بصره في ترجمة تشامبن لهومر، واستمطر وردزورت اللعنة على الأسلوب المصطنع الطنان الذي أبهج الكثيرين جداً في عصر إنجلترا الأوغسطيني. ونشرت ألياذة بوب في 1715-20، وأتى نجاحها بتجار الكتب المتنافسين إلى بابه. ورجاه أحدهم أن يعلق على طبعه حديثه لمسرحيات شكسبير، فوافق بغباوة، غافلاً عن الهوة التي تفصله عن شكسبير عقلاً وفناً. وراح يكذب ويكذب بصبر ذاهب في تلك المهمة التي لا تلائمه، وظهرت الطبعة في 1725، وما لبث لويس ثيوبولد، أقر المتخصصين في دراسة شكسبير يومها، أن أوسعها طعناً لقصورها، فصلبه في بوب في قصيدته "الدنسيادة" (أي ملحمة المغفلين). وأقنعه لنتوت أثناء ذلك بأن يترجم الأوديسة، عارضاً عليه مائة جنيه ثمناً لكل مجلد من مجلداتها الخمسة، وأخذ المكتتبون 819 مجموعة، ولكن بوب، وقد افتقد الآن حافز الشباب والحاجة، سئم نحت مقطوعاته، وعهد بنصف العمل إلى دارسين كمبردج لم يطل بهما الوقت حتى تعلمتا محاكاة أسلوبه. وكان قد نبه المكتتبين سلفاً إلى أنه سيستخدم معاونين له، ولكنه حين نشر الأوديسة (1725-26) - التي قصرت كثيراً عن ألياذته - نسب إلى مساعديه هذين الفضل في خمسة كتب من الكتب الأربعة والعشرين، في حين أنهما ترجما اثني عشر كتاباً في الواقع(20). ونقدتهما 770 جنيهاً، أما هو فبلغ صافي ربحه 3.500 جنيه، إذ شعر بحق أن اسمه هو الذي باع الكتاب. وكفلت له الترجمات الاستقلال المالي، فقال إن في وسعه الآن "بفضل هومر أن يعيش ويزكو غير مدين لإنسان أميراً كان أو نبياً(21)". وفي 1718 اشترى فيللا في تويكنهام وحديقة مساحتها خمسة أفدنة تنحدر إلى نهر التيمز. وصمم الحديقة بالطراز الطبيعي، متحاشياً الرقابة الكلاسيكية التي مارسها في شعره. وقال "إن الشجرة شيء أنبل من الملك في ثيابه تتويجه(22)". وحفر له من بيته نفق

صفحة رقم : 11836

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

تحت شارع معترض ليخرج منه إلى الحديقة؛ وزين هذه "المغارة" زينه حالمة فيها الأصداف، والبلورات، والمرجان، والمتحجرات، والمرايا، والمسلات الصغيرة. في هذه الخلوة اللطيفة الجو استضاف الكثير من الأصدقاء المشهورين - سويقت، وجراي، وكونجريف، وبولنبروك، وأربثوت، والليدي ماري ورتلي مونتاجيو، والأميرة كارولين، وفولتير. وكانت الليدي ماري جارتها في حي أطلقا عليه اسم "تويتنام"؛ وكان بولنبروك يسكن دولي على مقربة منه، ولندن لا تبعد أكثر من أحد عشر ميلاً في تزهة لطيفة بالقارب على التيمز، وأقرب منها القصور الملكية في رتشموند، وهامتن كورت، ووكيو.

وانضم الدكتور جون أربنتوت، الذي أضفى كتابه "تاريخ جون بول" (1712) على إنجلترا شخصية واسماً، إلى سويقت، وكونجريف وجراي، وبوب، في نادي سكريليروس الشهير (1713-15)، الذي كرس للتهكم على كل ضروب الدجل والعجز. وأضيف كل ضحاياهم إلى القائمة المتعاضمة من خصوم بوب. وكان له مع الليدي ماري مغامرة اختلط فيها الواقع بالأدب وانتهت بعداوة مرة. وساكنه سويقت أحياناً، كما حدث أيام نشره "رحلات جلفر" (1726)، وتبادل الاثنان بغضهما للبشر، وبعض الرسائل التي كشفت عن رقة مخبؤه تحت دروعهما القاسية(23). أما معرفة بوب ببولنبروك فقد بدأت حوالي 1713، وتطورت إلى تأثير فلسفي. وقد أثنى الواحد منهما على صاحبه ثناء يبعث على الغثيان لغوه، فقال بوب "أعتقد حقيقة أن في ذلك الرجل العظيم شيئاً يبدو أنه وضع هنا خطأ من عالم أعلى"، وقال بولنبروك وبوب يحتضر "لقد عرفته هذه السنين الثلاثين، ويزيد تقديرك لنفسني بسبب حبي لهذا الرجل" - وهنا خانه صوته كما تقول القصة(24).

ولا بد أنه كان هناك شيء يحب في هذا الشاعر الذي صورته الرواية المتواترة، بل صورته قلمه هو أحياناً، إنساناً مشاغباً خداعاً خسيساً مغروراً. وينبغي أن نذكر دائماً أنه كان ممروراً - وله العذر - بسبب ما استشعره كل يوم من مذلة عجزه البدني. لقد كان في صباه جميل الصورة، لطيف الطبع، وقد ظل وجهه دائماً جذاباً، ولو

صفحة رقم : 11837

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

لمجرد توقد عينيه. ولكنه كلما شب أصبح تقوس عموده الفقري سافراً بصورة أكثر إبلاماً له. وقد وصف نفسه بأنه "مخلوق قصير، كله حيوية، طويل الساقين والذراعين، لا تخطئ إذا رمزت له بالعنكبوت، وقد حسبته البعض على بعد طاحونة هواء صغيرة (25)". (ويذكرنا هذا بسكارون المسكين). فإذا جلس إلى المائدة وجب أن يسند على مقعد عال كالطفل ليحاذي غيره. وكان يحتاج إلى من يخدمه طوال الوقت تقريباً. وما كان في استطاعته أن يمضي إلى فراشه أو ينهض منه دون أن يعان عليه، ولا أن يرتدي ثيابه أو يخلعها بنفسه، وكان يجد مشقة في الاحتفاظ بنظافة جسمه. فإذا نهض لم يستطع أن ينصب عوده حتى يشده خادمه إلى صدر من القنب المقوي، وبلغ من نحافة ساقيه أنه كان يلبس ثلاثة جوارب طويلة ليضخمهما ويدفنهما، وكان بسبب حساسيته الشديدة للبرد يرتدي "نوعاً من الصدر الضيقة المصنوعة من الفراء"، تحت قميص من الكتان الثقيل الخشن. وقل أن عرف لذة العافية. وقد قال عنه اللورد باثورست أنه كان يشكو الصداع أربعة أيام في الأسبوع، ويمرض في الثلاثة الباقية. ومن المعجز أن استطاع جوناثان ريتسردس أن يرسم لبوب لوحة يمثل هذه الطلعة الحسنة (26) - كلها تيقظ وحساسية، ولكننا نستطيع في التمثال النصفي الذي صنعه له روبياك أن نتبين الجسم المعذب يعذب العقل.

ومن القسوة أن نتوقع من رجل كهذا أن يكون هادئ الطبع، أو لطيفاً، أو بشوشاً، أو رقيقاً. فلقد أصبح شأن كل عليل نزقاً، كثير المطالب، نكد المزاج. وندر أن نتجاوز في ضحكه الابتسامة، وإذ حرم كل فتنة الجسد، فقد عزى نفسه بكبرياء المقام وغرور الفكر. وكما يفعل حيوان ضعيف أو جريح، وكما يسلك فرد من أقلية مظلومة، تعلم المكر والمرارة والدهاء، وما لبث أن تعلم الكذب، لا بل ممارسة الخيانة مع أصدقائه. وتملق النبلاء، ولكنه ترفع عن كتابات الإهداءات التي تستهدف الكسب. وكان فيه من الشجاعة ما حمله على رفض معاش عرضته عليه حكومة يحتقرها.

ونحن نرى في حياته الخاصة بعض الخلال الجديرة بالحب. قال سوفييت عنه إنه "أعظم من عرفت أو سمعت عنه من الأبناء قياماً

صفحة رقم : 11838

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

بواجبهم نحو آبائهم(28)". فلقد كان حبه لأمه أظهر عاطفة وأبقاها من عواطف روحه المضطربة. كتب في عامها الحادي والتسعين يقول إن صحبتها اليومية جعلته لا يحس أي افتقار إلى علاقات عائلية أخرى. وكانت أخلاقياته الجنسية أفضل تطبيقاً منها كلاماً؛ ولم يكن هيكله يصلح للزنا، ولكن لسانه وقلمه كان في وسعهما أن يكونا إباحيين إلى حد مقزز(29). وحتى في رسائله للمرأتين اللتين ظن أنه يعشقهما كان يكتب بتحرر مفرط لا تطيقه اليوم سوى بغي. ومع ذلك فإن إحداهما، وهي مرتا بلاونت، أحببت الشاعر العاجز حباً حسب المتقولون علاقة أئمة. وفي 1730 وصفها بأنها "صديقة... كنت أتفق معها كل يوم ثلاث ساعات أو أربعة طوال هذه السنين الخمس عشرة(30)". وبات في شيخوخته المبكرة معتمداً على محبتها، وأوصى لها بكل تركته الكبيرة تقريباً.

وإذ كان دائم الوعي بعيوبه البدنية، فقد كانت تكويه كياً كل كلمة تنتقد خلقه أو شعره. لقد كان العصر عصرراً يغلب عليه حب الثأر في معاركه الأدبية، وكان بوب يرد على السباب بسباب لا يصح طبعه أحياناً. وفي 1728 حشد خصومه ونقاده في زريبة شعره، وأطلق عليهم كل سهام غضبه في أقوى أعمالهم الأدبية وأبلغها إيذاءً. ولم ينشر اسمه عليه، ولكن كل لندن القارئ استنشت توقيعه في أسلوب الكتاب. وسيراً على الطريق الوعر الذي سلكته من قبل قصيدة دريدن "ماك فلكنو" (1628)، أشادت قصيدة بوب "الدنسيادة" بكتابة جراب ستريت أقطاباً للمغفلين في بلاط الغباء الذي يتربع ثيوبولد على عرشه. وقد بكى على موت رن وجراي، وعلى إقصاء سويقت في منفاه الإيرلندي، حيث يموت "كفار مسموم في حجر" يعني كندرائية دبلن. أما عن الباقيين فلم ير من حوله إلا عجز فاسدين لا طعم لهم ولا مذاق. وتلقى ثيوبولد، ودينيس، وبلاكمور، وأوزبورن، وكيرل، وكبير، وأولدملكسون، وسميدلي، وأرنل- كل في دوره جزاءهم من الجلد والتهمم والقدر- ولا غرو فقد كان لشاعر ولع بالقذارة، ربما لأن هذه صفة تلازم العجز البدني(31).

وفي طبعة لاحقة ذكر بوب في ابتهاج، على لسان الشاعر سفدج، كيف أن حشداً من الكتاب حاصروا تاجر الكتب في تاريخ نشر القصيدة

صفحة رقم : 11839

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

لأول مرة، وهددوه باستعمال العنف معه إذا نشرها، وكيف أن هذا جعل الجمهور أشد تهافتاً على النسخ، وكيف أن الطبعة تلو الطبعة كانت تطلب وتنفد، وكيف أن الضحايا ألفوا أندية ليكتلوا الثأر من بوب، وصنعوا دمية على صورته وأحرقوها. وجاء ابن دنيس بهراوة ليضرب بوب، ولكن اللورد باثورست صرفه عنه، وبعدها ظل بوب يأخذ معه في جولاته مسدسين وكلبه الدنمركي الضخم. ورد عليه عدد من ضحاياه بكتيبات، وبدأ بوب وأصحابه (1730) "مجلة جراب ستريت" ليواصلوا الحرب. وفي 1742 أصدر جزءاً رابعاً من "ملحمة المغفلين"، هاجم فيه المرابين وأحرار الفكر تعطشاً لخصوم جدد- هؤلاء الذين يفخرون قائلين:

"إننا نتخذ في فخر ذلك الطريق الأعلى

ونجادل هابطين حتى نشك في الله،

ونجعل الطبيعة تعدو على قصده،

وندفعه إلى أبعد ما نستطيع... ..

أو، بوثبة واحدة تقفز فوق كل قوانينه،

نجعل الله صورة للإنسان، والإنسان العلة النهائية،

ونجد الفضيلة شيئاً محدوداً، ونحتقر كل الصلات،

نرى الكل في أنفسنا، وأنا لم نولد إلا لأنفسنا،

لا نوقن بشيء يقيننا بعقولنا،

ولا ننتشكك في شيء تشككنا في الروح والإرادة(32)".

وواضح أن بوب كان ينقب في الفلسفة، وليس مع بولنبروك وحده؛ فقد صدرت رسالة هيوم "في الطبيعة البشرية" في 1739، قبل هذا الجزء الرابع من "ملحمة المغفلين" بثلاث سنوات. وهناك بعض الأدلة على أن الفيكونت كان قد نقل إلى الشاعر روبرية شافتنسيري مشحوذة بحكمة الدنيا(33). وقال له بولنبروك، حسبك هجاء وسفاسف، ووجه ربة شعرك وجهة الفلسفة الدينية. يقول جوزف وارتن "لقد أكد لي اللورد باثورست غير مرة أنه قرأ كل خطة "مقال عن

الإنسان" مكتوبة بخط بولنبروك، ومفصلة في سلسلة من القضايا كان على بوب أن ينظمها شعراً ويوضحها(34)".
ويبدو

صفحة رقم : 11840

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

أن بوب فعل هذا، إلى درجة استعماله عبارات بعينها من وضع المتشكك الكبير(35)، ولكنه أضاف بعض البقايا المنقذة التي تخلفت عن عقيدته المسيحية. وهكذا أصدر "مقالة عن الإنسان" فصدرت الرسالة الأولى في فبراير 1733، والثانية والثالثة في تاريخ لاحق من تلك السنة، والرسالة الرابعة في 1734. وسرعان ما ترجم المقال إلى الفرنسية، وأشاد به أكثر من عشرة فرنسيين باعتباره من ألمع ما ألف من جوامع الشعر والفلسفة معاً. واليوم يذكر هذا المقال أولاً لما حوي من أبيات يعرفها كل إنسان، فلننصب بوب في رؤيتها في إطار فنه وفكره. وهو يستهلها بمناجاة لبولنبروك:

"استيقظ يا قديسي جون: واترك كل التوافه

للطمع الدنيء وكبرياء الملوك.

وما دامت الحياة لا تستطيع أن تهينا

غير نظرة فيما حولنا يعقبها الموت،

فطوف ببصرك حراً فوق هذا المشهد كله، مشهد الإنسان،

يا له من مائة هائلة، ولكنها ليست بغير خطة،..

فلنضرب معاً في هذا الحقل الفسيح،

ولنضحك حيث يجب الضحك، ونصارع حيث نستطيع المصارحة، ولكن لنبرر طرق الله مع الإنسان(36)".

"فهل يستطيع الجزء أن يحتوي الكل؟" فلنكن شاكرين لأن عقولنا حدود ومستقبلنا مجهول:

"فذلك الحمل الذي قضى استهتارك بذبحه اليوم،

لو أوتي عقلك، أكان يطفر ويلهو؟

إنه في ابتهاجه إلى النهاية يقضم طعامه اللينع

ويلعق التي رفعت لتريق دمه(38)".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

هاهنا تشاؤم خفي، فالرجاء لا يمكن أن يبقى حياً إلا بالجهل:

"فارج في تواضع إذن، وحلق بجناحين مرتعشين،

وانتظر الموت، ذلك المعلم العظيم، وأعبد الله.

إنه لا يهبك العلم بالنعيم الآتي،

ولكنه يسمح بأن يكون ذلك الرجاء بركتك الآن.

فالرجاء ينبعث أبدأ في صدر الإنسان،

وهو لا ينعم بالسعادة بل لا يفتأ يرجوها أبدأ(39)".

ولا قدرة لنا على رؤية المبرر لما يبدو في الحياة من مظالم؛ وعلينا أن ندرك أن الطبيعة لم تخلق الإنسان، وأن الله لا بد يرتب كل الأشياء لكل الأشياء، لا للإنسان وحده. ويصف بوب "سلسلة الوجود الشاسعة" ابتداء من أدنى المخلوقات ومروراً بالإنسان والملاك إلى الله، ويحتفظ بإيمانه في نظام إلهي وإن خفي عن علمنا:

"إن الطبيعة كلها ليست إلا فناً لا علم لك به؛

وكل المصادفات توجيه لا تستطيع رؤيته؛

وكل تنافر تناغم غير مفهوم؛

وكل شر جزئي خير كلي؛

ورغم ما حقد في العقل الضال من كبرياء،

فإن هناك حقيقة واحدة واضحة، وهي أن كل الوجود صواب (40)".

أما الدرس الأول فهو التواضع العقلي. ثم هذه الأبيات المذكرة تذكيراً رائعاً ببسكال:

"فاعرف نفسك إنن، ولا تجسر على فحص الله،

فالدراسة الصحيحة للبشر هي الإنسان.

هذا الذي وضع هذا البرزخ في حالة وسط،

كائن حكيم في غموض، عظيم في فجاجة...

حكم أوحّد في أمر الحقيقة، مدفوع إلى أخطاء لا تنتهي،

مفخرة الدنيا، وأضحوكتها، ولغزها المحير! (41)".

صفحة رقم : 11842

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

فلنوافق في إطار هذه الحدود البشرية على أن "محبة الذات، منبع الحركة، تحفز الروح"، ولكن لا بد للعقل أيضاً أن يدخل لبيث النظام والتوازن في عواطفنا وينقذنا من الرذيلة. لأن"

"الرذيلة مخلوقة متوحشة رهيبة السحنة،

نكرها حالماً نراها،

ولكننا لكثرة ما نراها نألف وجهها،

ونحتملها أولاً، ثم نرثي لها، ثم نعانقها(42)".

هذه العواطف وإن كانت كلها ألواناً من محبة الذات إلا أنها جوانب من المخطط الإلهي، وقد تقضي إلى نهاية طبيعية حتى لبصرنا الأعمى. فشهوة الجسد تبقى على النوع، وتبادل المصلحة ولد المجتمع. والنظام الاجتماعي والإيمان الديني نعمتان واضحتان، رغم أن الملوك وأصحاب المذاهب لطحوا التاريخ بدماء البشر:

"ليختلف الحمقى حول أشكال الحكم

فأصلحها هو أفضلها إدارة وتصريفاً

وليقتتل المتعصبون الثقلاء حول ضروب الإيمان،

فلن يخطئ من عاش حياة فاضلة(43)".

أما الرسالة الرابعة من مقال الإنسان فتتنظر في السعادة، وتحاول جاهدة أن تسوي بينها وبين الفضيلة. فإذا رأيت الرجل الصالح يبنتلي بالكوارث، والأشرار يفلحون أحياناً، فإنما السبب أن:

"العلة الكونية

لا تعمل وفق قوانين جزئية بل كلية(44)؛"

والله ينظم بالكل، ولكنه يترك الأجزاء لقوانين الطبيعة ولإرادة الإنسان الحرة. وقد يأسى البعض لفوارق الملكية باعتبارها مصدراً للشقاء، ولكن الفوارق الطبيعية ضرورية للحكم:

"فالنظام أول قوانين السماء، وإذا سلمنا بهذا

كان البعض، ولا بد أن يكونوا، أعظم من الباقين(45)".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

وليس هذا واضحاً وضح النهار، ولكن أي كلام آخر يمكن أن يقال للفيلسوف بولنبروك، (أو يقوله بولنبروك)؟ والسعادة موزعة بالقسط رغم عدم المساواة في العطايا الطبيعية والمكتسبة؛ فالفقير سعيد بسعادة الأمير. وليس سعيداً ذلك الوغد الغني؛ فهو يحتضن أمواله ولكنه يشعر باحتقار العالم له، أما البار فتتعم روحه بالسلام حتى في الظلم. أما ما يسترعي نظرنا لأول وهلة في مقال الإنسان، فهو هذا الأسلوب المحكم الذي لا يضارع في إيجازه. يقول بوب "لقد اخترت الشعر لأنني رأيتني قادراً على التعبير عن هذه الأفكار بالشعر بأوجز مما بالنثر (46)". ولم يبلغ شاعر، حتى شكسبير نفسه، ما بلغه بوب من مقدرة على حشد ذخائر لا حصر لها- وحشد المعنى الكبير على الأقل- في حيز ضيق. فهنا في 652 بيتاً زوجياً، هي أدعى لأن تعيها الذاكرة من نظيرها في أي ميدان أدنى معادل غير العهد الجديد. وكان بوب عليمًا بحدود قدراته، فقد أنكر صراحة أصالة أفكاره، وأراد أن يصوغ من جديد فلسفة ربوبية متفائلة بفن موجز، ووفق فيما أراد. وفي هذه القصيدة نحى عقيدته الكاثوليكية ولو إلى الحين. ورأى في الله علة أولى فقط، لا يعني "عناية إلهية خاصة" ليقى الرجل الفاضل من خبث الأشرار. وليس في هذا النسق معجزات، ولا أسفار مقدسة موحاة من الله، ولا آدم ساقط أو مسيح مكفر، إنما هو رجاء مبهم في الجنة، ولكن لا ذكر للنار إطلاقاً. وقد هاجم نقاد كثيرون القصيدة باعتبارها فلسفة "إنسانية أو بشرية" منظومة. فالقول بأن "دراسة البشر الصحيحة هي الإنسان" عرف وجهاً من وجوه هذه الفلسفة، وبدأ أنه يغرق اللاهوت كله. فلما ترجم المقال إلى الفرنسية انقض عليه قسيس سويسري يدعى جان كروزاز، فزعم أن بوب قد ترك الله في طريق جانبي في قصيدة مفروض فيها أنها تبرر طرق الله للإنسان. ولم يخف للدفاع عن بوب أمام هذا الهجوم من الخارج رجل غير وليم وريرتون الفحل، فقد شهد أسقف المستقبل أن القصيدة عملاً من أعمال التقوى المسيحية التي لا شأن فيها. ورغبة في تهدئة رجال الدين نشر بوب في 1738 ترنيمة

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

حلوة سماها "الصلاة العالمية". ولم يقتنع السنيون تماماً، ولكن العاصفة هدأت. أما في القارة فقد استقبلت القصيدة بعواطف مسرفة. فقال فولتير في حكمه عليها "إنها في رأيي أبداع وأنفع وأسمى قصيدة وعظيمة نظمت في أي لغة (47)". وفي 1735 كتب بوب مقدمة لمجلد من الهجائيات سماها "رسالة إلى الدكتور أربنتوت" دافع فيها عن حياته وأعماله، وقتل خصوصاً جدداً. هنا وردت صورته الشهيرة لأديسون الذي سماه "أتيكوس"، وفضيحتة القتالة للورد هرفي المخنث الذي كان قد زل فوصف بوب بأنه "قاس كقلبك"، مجهول كأصلك (48)". وطعنه بوب طعنات نجلاء تحت اسم "سبوراس" في أبيات يتجلى فيها الشاعر في أروع صورة وأسوأها. قال:

"ماذا؟ ذلك الشيء المصنوع من الحرير،

سبوراس، ذلك الخنثارة البيضاء من لبن الحمير،

وا أسفاه! لا يجدي معه هجاء ولا كلام معقول! أيستطيع سبوراس أن يحس،

وهو الذي يحطم فراشة على دولا ب التعذيب،

ولكن دعوني أصفح هذه البقة المذهبة الأجنحة،

ابن القدر هذا المزوق، الذي ينتن وبلدغ...

وسواء تكلم وهو عاجز عجزاً فاضحاً

وزيق كالدمية حين ينفخ فيها الملقن؛

3 أو جلس إلى إذن حواء، كأنه الضفدع الأليف،

ينفث حديثاً نصفه زبد ونصفه سم،

في توريات أو أحاديث سياسية، أو حكايات، أو أكاذيب،

أو غل أو سناج أو قوافي أو كفريات.

ذكاؤه متأرجح كله هنا وهناك،

صاعد حيناً، هابط حيناً، سيد مرة وفتاة مرة،

وهو ذاته تناقض حقير.

شيء ذو وجهين، يلعب كلا الدورين،

الرأس التافه، أو القلب الفاسد؛

صفحة رقم : 11845

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

غندور في زينته، متملق في مجلسه،

يخطر أنا كالنساء، ويتبختر أنا كالسادة(49)".

وكان بوب فخوراً ببراعته في هذه الهجمات القتالية-

"أجل إني فخور، ويجب أن أفخر بروية

الرجال الذين لا يخشون الله يخشونني(50)".

وقد اعتذر عن مرارته بأن العصر يتهدده انتصار الغباوة، وأنه في حاجة إلى عقرب يلدغه ليفيق ويعقل، ولكنه انتهى في 1743 إلى أنه خسر المعركة. ففي آخر تنقيح لملمحة المغفلين رسم صورة قوية- هي نذر الشاعر "دون" بالويل والثبور صاغها بلهجة ملتن ونيراته للدين، والأخلاق، والنظام، والفن، وقد لفها كلها ظلام واضمحلال شاملان. فالإهانة الغباء المتوجة تتنأب فوق عالم محتضر:

"إنها قادمة، إنها قادمة، تأمل العرش الأسود،

عرش الظلمة الأزلية والفوضى القديمة!

أمامها تتبدد كل سحب الخيال الذهبية،

وتلاشى كل أفواسه القزحية... ..

بينما تأفل النجوم الذابلة نجماً بعد نجم

من الأفق الأثيري، عند سماع لحن ميديا الرهيبية

وهكذا عند الإحساس بدنوها، وخشية جيروتها الخفي،

ينطفئ الفن تلو الفن، وتمسي الدنيا ظلاماً في ظلام.

فانظر إلى الحقيقة وقد هربت متسللة إلى كهفها القديم،

وفوق رأسها أهيلت جبال من الفتاوي!

والفلسفة التي كانت من قبل تستند إلى السماء،

تتكمش إلى علتها الثانية ثم تموت.

والطبيعة (العلوم) تسأل ما بعد الطبيعة الدفاع (ضد هيوم؟)

وما بعد الطبيعة يستجد بالحس الطبيعي (لوك؟)!

وترى الأسرار الخفية تلجأ إلى الرياضيات (نيوتن؟)!

ولكن عبثاً تحاول! فهي تحمق، وتترنح، وتهذي، ثم تموت.

ويستر الدين نيرانه المقدسة وقد احمر وجهه خجلاً،

صفحة رقم : 11846

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

وتذوي الفضيلة دون أن تدري...

فهناك دولتك الرهيبة وقد عادت أيتها الفوضى،

و النور ينطفئ أمام كلمتك القاتلة،

ويدك أيتها الفوضى الجبارة تنزل الستار

فإذا الظلام الدامس يلف كل شيء(51)".

ولعله حسب انحلاله هو انهياراً للكون كله. فقد كان وهو بعد في الخامسة والخمسين يموت من الهرم. وأصبح المشي عسيراً عليه لإصابته بالاستسقاء، والتنفس مؤلماً لإصابته بالربو. وفي 6 مايو 1744 أصابه هذيان كان يفوق منه فترات، وأعرب في إحداها عن إيمانه بحياة بعد الموت. وسأله صديق كاثوليكي أيستدعي له كاهناً فأجاب بوب "لست أراه ضرورياً ولكنه سيكون عين الصواب، وشكراً لأنك ذكرتني بهذا"(52). ومات في 30 مايو، "هادئاً رابط الجأش" (إذا صدقنا جونسن)، "حتى أن خدمه لم يتبينوا بالضبط وقت وفاته". ولم يكن من حقه أن يدفن في دير وستمنستر لأنه كاثوليكي، فووري التراب إلى جوار أبيه وأمه في تويكنهام. أكان جنتلماناً؟ لا، فإن أحقاده الفيضة بالقدح والدم شاركت في تسميم هواء إنجلترا الأدبي في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وقد أخرجت آلامه الجسدية أمماً لاذعة وحرمته العافية التي تفيض بالحب والود على من حولها. أكان عبقرياً؟ بالطبع، لا في الفكر الذي استعاره، بل في الشكل الذي بلغ به مرتبة الكمال في النوع الأدبي الذي اختاره. وقد وصفه تاكري بأنه "أعظم فنان أدبي شهده العالم(53)". ففي لباقة الكلام، وإيجاز التعبير، وخصب العبارة، كان أمام عصره غير منازع. وحتى الفرنسيون قبلوا أعظم شاعر في جيله، وتطلع إليه فولتير مثلاً له وقلده، كما نرى في "أحاديثه عن الإنسان". ولقد ظل ثلاثين عاماً - أطول من أس شاعر آخر - أمير الشعر الإنجليزي، وثلاثين عاماً آخر نموذجاً يحتذى الشعراء الإنجليز، إلى أن جاء وردزورت بشيراً بعصر جديد. ونحن الذين نهول ف حياتنا اليوم رغم فراغنا كله، نرى في مقطوعات بوب، في تشطيرها الآلي، أو في صعودها وهبوطها

صفحة رقم : 11847

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

"كالأرجوحة"(54) على القدرة والتنويم، فلا توقظنا إلا بين الحين والحين بالإجراءات، وحتى مقاله البارع عن الإنسان، ليس شعراً إلا في أوزانه وقوافيه. والصنعة فيه ظاهرة فوق ما ينبغي، فلقد نسي الفنان نصيحة هوراس له بستر فنه. كذلك غفل عما نبه إليه هوراس من أن الشاعر لا بد أن يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله؛ وقد شعر بوب، ولكن غالباً ليحتقر ويسب؛ وقد افتقد الإحساس بالجمال لا بد أن يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله؛ واستنفذ خياله في العثور على ألفاظ رقيقة، بنارة، مركزة، لأفكار قديمة؛ فلم يتناول ليمسك بالأشكال المثالية التي تلهم عظماء الشعراء والفلاسفة. ولم تعطه الأجنحة سوى أحقاده.

وهو لم يزل إلى اليوم الرمز الشعري الأكبر لعصر إنجلترا الأوغسطي- الذي يجوز أن نرسم حدوده بعمره، 1688-1744. فمعرفة الذهن الإنجليزي المتزايدة بعيون الأدب اليوناني والروماني، وبمسرحية "القرن العظيم" الفرنسية؛ وتأثير الأرسطراطية- تأثير الطبقة المسيطرة على الكثرة- في الحديث، والعادات، والألفاظ المهذبة، ويسر السلوك ولطفه؛ وانتقاض العقل والواقعية على الشطط الإليزابيثي وعلى التدين البيورتاني المتمتت، وانتقال المعايير الفرنسية إلى إنجلترا مع عودة الملكية، والمكانة الجديدة للعلم والفلسفة- كل أولئك تضافر لإخضاع أشكال الشعر الإنجليزي السائدة لقواعد هوراس وبوالو الكلاسيكية. وجاء عصر من النقد بعد عصر الخيال، فبينما غزا الشعب في إنجلترا الإليزابيثية النثر ولونه، نرى النثر في إنجلترا الأوغسطينية يحط من قدر الشعر ويغير لونه. وكان أثر هذا الأدب "الكلاسيكي الجديد" على اللغة الإنجليزية حسناً وسيئاً: فقد أعطاهما دقة ووضوحاً ورشاقة جديدة، ولكنها خسرت حيوية الكلام الإليزابيثي وقوته ودفنه. وخضعت فورة الشخصية والتعبير وفردانيتهما القديمة لنظام مفروض من فوق، ألزم بالتطابق في الحياة، وبالشكل في الأدب. وهكذا استحالت الشباب كهولة. على أن الأسلوب الكلاسيكي الجديد لم يعبر إلا عن شطر من الحياة الإنجليزية، فلم يكن فيه متسع للتمرد ولا للعاطفة ولا للحب.

صفحة رقم : 11848

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> ألكسندر بوب

وقام شعراء بريطانيون، حتى أيام سلطان بوب، نددوا بالصنعة والمنطق، وتحولوا من العقد إلى الطبيعة، ووجدوا صوتاً يعبر عن الوجدان، والدهشة، والخيال، والاكتئاب المتفكر، والأمل المحزون. فبدأت ذلك الحركة الرومانسية في ذروة عصر إنجلترا الكلاسيكي.

صفحة رقم : 11849

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> أصوات الوجدان

3- أصوات الوجدان

لم يكد الشعر الكلاسيكي الجديد يتأمل شيئاً غير عالم الكتب. فقد رأى هومر وهوراس، وأديسون وبوب، رؤية أوضح من رؤيته للرجال والنساء الذين يمرون في الشوارع، أو الطقس والمناظر الطبيعية التي تتفعل بها أمزجة الناس كل يوم. ولكن الأدب كشف الآن من جديد ما كان الفلاسفة يزعمونه طويلاً، وهو أن "الإنسان" فكرة عامة غامضة؛ وأنه

لا وجود إلا "للناس"، المعترزين بفرديتهم الحريصين على واقعهم. وعمق الشعراء ذواتهم بلمس الأرض، وشعورهم بالحقول والتلال والبحر والسماء واستجابتهم لها، وبتغلغلهم إلى ما وراء الأفكار ليصلوا إلى المشاعر الدفينة التي يعلنها الكلام أقل مما يخفيها. فلم يبالوا كثير بالكلام واعتزموا الغناء، وعادت القصيدة الغنائية وذوت الملحمة. وغلب الشوق إلى العزاء المنبعث من الإيمان بما فوق الطبيعة، وإلى الانبهار الصوفي الذي يوسع الحياة، هجوم الربوبية على المعجزات، والتمس بازدياد، في أساطير العصور الوسطى، ورومانسيات الشرق، والأشكار القوطية، شيئاً من الهروب من الواقع القاسي لهذه الحياة الدنيا.

وبالطبع لم يخل عصر من أصوات الوجدان. ألم يشد "البطل المسيحي" للكاتب ستيل (1701) بالإيمان القديم والعاطفة الرقيقة؟ وألم تركز "السمات المميزة" لشافنبري (1710) حياة البشر في "العاطفة" و "المحبة"؟ وألن يشق المنتشك هيوم والاقتصادي سمث كل الفضيلة من شعور الأخوة والتعاطف؟ ولكن جيمس طومسن هو الذي ضرب أول ضربة واضحة جلية دفاعاً عن قضية الإحساس ورقة الشعور.

وكان ابن قسيس فقير في تلال إسكتلندا. نزل إلى أدنبرة ليدرس للقوسية، ولكن عاقه من غايته إدانة الأساتذة لأسلوبه لأنه شعري

صفحة رقم : 11850

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> أصوات الوجدان

بصورة لا تتفق ولغة الدين. فهاجر إلى لندن، وسرق ماله في الطريق، وأشرف على الهلاك جوعاً، وباع قصيدته "الشتاء" (1726) ليشترى حذاء (55). على أن إهداءه إياها إلى السر سبنسر كونتن أناه بعشرين جنيهاً ثمناً لثناؤه؛ ولا غرابة فإن النبلاء الإنجليز لم يكونوا صماً أو بخلاء بالقدر الذي خاله جونسون. وتصور طومسن في قصيدته صوت النعال وهي تطحن قشرة الجليد، وكيف:

"سمع الرياح تزار والسييل العميق يهدر،

أو رأي العاصفة العميقة الثوران تتجمع

في سماء المساء الكالحة؛"

وكيف راقب من الشاطئ الرياح وهي تحرث البحر، وتقلب "اليوم من قاعه وقد تغير لونه"، وتمزق المراكب من مراسيها، وترفعها رفعاً خطراً فوق موجة تهوي بها هويًا منذراً تحت أخرى، وتقذف بها فوق "صخر مدبب أو مياه ضحضاة غادرة" ثم تبدها "شظايا متناثرة... تطفو في حركة دائرة". وصور الفلاح وقد اقتنصته عاصفة من الثلج

الذي يعمي العيون، تغوص قدماه المتجمدتان في الثلوج العميقة وهو يكافح في سيره، حتى يعجز عن رفع حذائه، فيقع منهوكاً فريسة للموت متجمداً.

"أواه، ما أقل ما يخطر ببال المستكبرين، المستبيحين المرحين، كم من الناس يحسون في هذه اللحظة بالموت

وكل ضروب الألم الحزينة... ..

وكم يذوون في الفاقة وغياب السجون محرومين مما ينعم به الخلق كلهم من تنسم الهواء

وتحريك الأطراف، وكم يتجرعون كأس

الحزن القاتل، أو يأكلون خبز الضيق المر، وقد اخترمت أجسامهم رياح الشتاء،

وكم ينكمشون في ذلك الكوخ القذر،

كوخ الفقر التعس".

هنا نغمة جديدة من الشفقة تخزي "بل مل" وداوننج سترنت،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> أصوات الوجدان

وعودة تتعش النفس إلى شعر ملتن المرسل عقب ما وصف به طومسن قوافي بوب من "بهرجة تافهة".
وشهد عام آخر، وراع جديد لطومسن، طبع قصيدته "الصيف (1727)؛ وفي ذلك العام شارك بقصيدة شهيرة في
صيحة الحرب على أسبانيا:

"حين انبعثت بريطانيا أول مرة

بأمر السماء من اليم الأزرق،

كان هذا دستور أرضها،

وتغنت ملائكتها الحارسة بهذا اللحن.

احكمي يا بريطانيا، تسلطي على الأمواج؛

إن البريطانيين لن يستعبدوا أبداً.

ومن لندن راح يجول الأيام والأسابيع في الريف، مستوعباً بحواس الشاعر المرهفة "كل مشهد ريفي، وكل صوت ريفي"، يحب "رائحة الألبان" المنبعثة من المزارع، وينتشي بمنظر الشمس منتصرة عقب المطر، أو يسبق كينس في اكتتابه لمرأى الخريف. وهكذا نشر قصيدته "الربيع" في 1728، وبإضافة قصيدة "الخريف" ومطلعها ("حين تبدأ الورقة المسمومة في الالتواء") جمع القصائد الأربع كلها في ديوان "الفصول" (1730). وقد كوفئ بجولة في القارة رقيقاً لتشارلز تالبوت، ابن وزير الخزانة في ذلك الحين، فلما عاد عاش في دعة ونظم الشعر الرديء إلى أن مات الوزير (1737). وبعد أن صاحب الفقر فترة أخرى قدموه إلى ولي العهد (أمير ويلز) الذي سأله عن أحواله، فأجاب "إنها في وضع أكثر شاعرية من ذي قبل". وتلقى معاشاً قدره مائة جنيه مكافأة على ملاحظته الساخرة هذه. ثم قضى عليه برد أصيب به على التيمز، ومات غير متجاوز الثامنة والأربعين.

وقد قررت "الفصول" أسلوباً جديداً في شعر إنجلترا الأقل شأناً، ووجدت أتباعاً في فرنسا؛ هناك نظم جان فرانسوا دسان-لامبير،

صفحة رقم : 11852

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> أصوات الوجدان

الذي سرق أميلي من فولتير، قصيدته "الفصول" (1769). وبينما كانت مقاطع الشعر الملحمي تختال عبر القرن، كان إدوارد ينج، ووليم كولنز، ووليم شنستون، ومارك أكينسايد، وتوماس جراي، يوسعون الطريق الرومانسي المفضي على وردزورث ونشاترتن. أما ينج فبعد أن ظل ينظم الشعر التافه المرح حتى الستين من عمره، عمل لآخرته بديوان شعر اسمه "خواطر ليلية في الحياة والموت والخلود" (1742-44). وقد شجب فولتير هذا النتاج الليلي لأنه "مزيج مهوش من الشعر الطنان والتوافه الغامضة"، ولكن ربما كان دافعه إلى هذا الحكم أن ينج كان قد وخزه ببيتين لاذعين قال فيهما:

"إنك مسرف في الذكاء، والخلاعة، والنحول،

حتى لنحسبك ملتن، الموت، والخطيئة، مجتمعة كلها في رجل واحد(56)".

وأما وليم كولنز فعاش نصف عمر ينج، وكتب أقل مما كتب ينج وأجود منه مرتين. هرب من دعوة لاحتراف القسوسية، وأنفق آخر دراهمه في صقل الأبيات الألف والخمسة التي نظمها قبل أن يجن ويموت (1759) وهو بعد في الثامنة والثلاثين. وأجمل من قصيدته "نشيد المساء" التي ظفرت بالتقريظ القبرية التي كتبها رثاء للجنود البريطانيين صرعى المعركة في 1745:

"كيف ينام الشجعان الذين يسقطون ليرقدوا

وقد باركتهم كل دعوات وطنهم!

حين يعود الربيع الذي بلل الندى أصابعه الباردة

ليجمل ترابهم المقدس،

هنالك يكسو بالعشب ثري أعطر

مما وطنته أقدام الخيال.

أجراسهم تدقها أيدي الجان

ولحن الموت ترتله أفواه لا ترى،

هنالك يحضر "الشرف"، حاجاً أشيب الشعر،

صفحة رقم : 11853

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> أصوات الوجدان

ليبارك العشب الذي يكسو ثراهم،

وتذهب "الحرية" برهة

لتقيم كالناسك الباكي على قبورهم".

وأكثر مما يذكر من شعراء الوجدان هؤلاء ذلك الروح الغريب الذي أسبغ على اكتتاب الشباب كثيراً من العبارات الرقيقة. ذلك هو توماس جراي، الذي كان أحد اثني عشر طفلاً ولدوا لكاتب عمومي لندني، مات منهم أحد عشر في طفولتهم. ولم يتخط توماس هذه السن الخطرة إلا لأن أمه استعملت مقصها لتفتح وريده بعد أن رأته ينسج. فلما بلغ الحادية عشرة ذهب على آيتن، حيث بدأت صداقاته المشنومة مع هوراس ولبول ورتشرد وست ثم مضى إلى كمبردج، التي وجدها "مملوءة بالمخلوقات المكتتبة والمعلمين المجدبين". وأراد أن يدرس القانون، ولكنه انزلق إلى دراسة الحشرات وقرض الشعر، وانتهى إلى التبحر في اللغات والعلوم والتاريخ إلى حد خنق العلم فيه شعره. وفي 1739 جاب أوروبا مع هوراس ولبول. فلما عبر جبال الألب في الشتاء كتب يقول "ما من جرف، ولا سيل ولا منحدر فيها إلا وهو مفعم بالدين والشعر"، وفي 1740 حين كتب من روما أدخل إلى اللغة الإنجليزية كلمة جديدة هي picturesque (أي الشبيه بالصورة الرائعة). ولم يكن قاموس جونسون يعرف هذه الكلمة حتى في 1755. وفي ريدجو إيميليا تشاجر مع ولبول، فقد كان هوراس شديد الوعي بنبالته، وتوماس شديد الفخر بفقره، وشي "صديق للطرفين" لكل منها برأي الآخر المستتر فيه، فافترقا، وواصل جراي رحلته منفرداً إلى البندقية وجرينوبل وندن. وبغضه في الحياة موت صديقه وست (1742) في السادسة والعشرين من عمره. فاعتكف في بيت عم له في ستوك بوجز، وهناك، وسط دراساته المتصلة، كتب (1742) "قصيدة غنائية في نظرة من بعيد لكلية آيتن". إذ نظر من مسافة مأمونة إلى هذه المشاهد المدرسية، فقد تذكر صديقه الذي قصف الموت عمره قبل الأوان، ووراء ألعاب هؤلاء الشباب ومرحهم رأى يبصر مكتئب مصائرهم الشقية:

"هؤلاء ستمزقهم الانفعالات والعواطف الجامحة،

صفحة رقم : 11854

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> أصوات الوجدان

ونسور العقل الجارحة،

والغضب المفعم بالاحتقار، والخوف الشاحب الوجه،

والخجل الذي يتوارى مختبئاً؛

أو يفني الحب المعذب شبابهم،

أو الغيرة المكشرة عن نابها،

التي تقرض القلب في شغافه

والحسد الشاحب، والهم الذابل،

والياس المتجهم الذي لا يقبل العزاء،

وسهم الحزن الذي يخترم النفس.

انظر، في وادي الحياة أسفلك

تر رهطاً رهيباً،

هم أسرة الموت المؤلمة،

الأبشع منظرأ من ملكتهم.

فهذا يحطم المفاصل، وهذا يلهب الأوردة،

وذاك يوجع كل عضلة مجعدة،

وأولئك يحدثون ثورة في الأحشاء الدفينة.

ثم هاهو الفقر أقبّل ليكمل الفرقة،

الفقر الذي يخلد الروح بيده الباردة،

والهرم الذي يبيري الناس على مهل.

لكل إنسان آلامه، والكل بشر،

قضي عليهم كلهم بالآئين،

فالحنون يئن لألم غيره،

والقاسي يئن لألم نفسه،

ولكن واهاً لهم! فلم يبصرون بحظوظهم،

ما دام الحزن لا يبطئ مجيئه أبداً،

والسعادة سريعة الهروب؛

إن التفكير كفيل بأن يدمر فردوسهم،

فأمسك، لأنه حيث يكون الجهل نعيماً

فمن الحمافة أن تكون حكيماً".

وفي أواخر 1742 قفل جراي إلى كمبردج ليستأنف دراساته.

صفحة رقم : 11855

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> أصوات الوجدان

وأرسل إلى وليبول، بعد أن اصطالحا، (1750) "مرثية مكتوبة في فناء كنيسة ريفية". وداولها وليبول بين أخصائه وطبعها ناشر لص وحرفها.. وحماية لشعره سمح جراي لدسلي بأن يصدر نسخة أفضل وإن شابها النقص هي أيضاً (1751)، في هذه القصيدة التي تعد من أروع قصائد القرن ألبس جراي الاكتتاب الرومانسي ليوساً كلاسيكياً دقيق النحت، مستبدلاً بمقطوعات بوب الزوجية العالية الرنين رباعيات هادئة تتحرك في وقار شجي التي خاتمتها الحزينة. وفي 1753 ماتت أمه، فكتب لها قبرية رقيقة، ودفن همومه في الشعر. وفي قصيدة غنائية عن "تقدم الشعر" حياً انتقال ربات الفن والأدب من اليونان والرومان إلى "ألبيون"، واعترف بتطلعات صباه إلى مباراة الشاعر بندار، والتمس من الشعر أن يهبه عطية "العقل الذي لا يقهر". وفي قصيدة غنائية أكثر شموخاً حتى من هذه، واسمها "الشاعر"، رأى جراي في الشعراء ضرباً من التكفير عن سيئات الحياة البريطانية يفضح الرذيلة والطغيان. هاتان "القصيدتان الغنائيتان البنداريتان"، اللتان نشرتهما مطبعة وليبول في ستروبري هل، بلغتا في افتعال الشكل والازدحام بالشواهد القديمة والوسيلة مبلغاً جعل فهمها عسيراً على القراء إلا الراسخين منهم في الأدب. وقد لف جراي نزوعه هذه للعزلة في ثوب من الكبرياء فقال "ما كنت لأصيف حاشية (تفسيرية) أخرى لأنقذ أرواح جمع البوم الذين في لندن. إن الوضع الراهن حسد جداً فلا أحد يفهمني، وأنا راض بهذا تمام الرضي. وكان اليوم معتاداً على مثل هذا الصفير في الظلام.

وإذا انكفاً مكتئباً إلى غرفته ببيتتر هاوس في كمبردج يعاني من فقر وتهيب منعه من الزواج، ومن حساسية شديدة قعدت به عن النضال الحياة، فقد أمسى إنساناً منطوياً حزيناً؛ وروعه بعض الطلاب ذات ليلة، وقد ساءهم منه عزوفه ووقاره، وعرفوا فيه الخوف من النار، فصاحوا تحت نافذته بأن الردهة تحترق. وفي رواية مختلف عليها أنه أدلى نفسه من النافذة وهو في قميص النوم وانزلق على حبل ليقع في حوض ماء وضعه العابثون ليبتلاه(58). وفي 1769 جاب إقليم البحيرات الإنجليزية، وفي اليومية التي كتبها (بخط غاية في الجمال) جعل إنجلترا تدرك لأول مرة جمال ذلك الإقليم. وفي جولة أخرى

صفحة رقم : 11856

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> أصوات الوجدان

بالمفبرن تلقى نسخة من قصيدة "القريبة المهجورة" (لجولدسمث) فقال "هذا الرجل شاعر" ثم وضع النقرس نهاية لرحلاته، ثم لحياته بعد قليل (1771). وطبقت شهرته الأفاق حيناً. فانعقد الإجماع في 1757 على أنه يقف على قمة الشعراء الإنجليز، وعرضت عليه إمارة الشعر فرفضها. وقال فيه كوبر متخطياً شكسبير "إن جراي يضيف إلى سمو ملتن أنيقة بوب وتناغمه، ولا ينقصه شيء ليكون- أما آدم سمث فأضاف متخطياً شكسبير "إن جراي يضيف إلى سمو ملتن أنيقة بوب وتناغمه، ولا ينقصه شيء ليكون- ربما- أول شاعر في اللغة الإنجليزية، ألا يكون قد نظم شعراً أكثر قليلاً مما فعل(59)". وأعجب جونسن بالمرثية، ولكنه كان يملك من العلم ما عله يجد عشرات العيوب في القصائد الغنائية. "إن لجراي ضرباً من الوقار المختال، وأني لأعترف أنني أتأمل شعره برضي أقل مما أتأمل حياته(60)". ونستطيع أن نقول هذه الحكمة مطمئنين. فقد كانت حياة جراي تلسة لا إغراء فيها، من شجاره مع وليول إلى قصة الحوض. وكانت أنبل أحداثها ثلاث قصائد أو أربعاً سنظل أجيالاً كثيرة من أدمع البراهين على "تقدم الشعر من اليونان والرومان إلى ألبون.

صفحة رقم : 11857

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> المسرح

4- المسرح

ماذا كانت مسارح لندن تصنع في نصف القرن هذا الذي نحن بصدده؟ كان أهمها مسرح دروري لين. ثم (من 1733) كوفنت جاردن؛ وكان هناك مسارح صغيرة في لنكولنز أن فيلدز وجودمانز فيلدز، وكان في هيبماركت "مسرح صغير" للتمثيلات الهزلية، "ومسرح جلاله الملك" للأوبرا؛ وبلغت جملة المسارح في لندن مثلي عددها في باريس. وكانت حفلات التمثيل تبدأ في السادسة مساءً. أما النظارة فقد غيروا طابعهم منذ أيام عودة الملكية، فتحول "المجتمع الراقي" الآن على المسرح إلى الأوبرا. وكان المتفرجون المحظوظون أو الأثرياء لا يزالون يجلسون على خشبة المسرح. واتسع "قاع" المسرح وأعلاه قرابة ألفي شخص جالسين؛ هنالك غلبت الطبقة الوسطى، وقررت بتصفيق الإحسان استقبال التمثيلات ونوعيتها؛ ومن هنا ازدياد المنافسة بين الموضوعات البورجوازية والرومانسية. واستولت النساء على كل الأدوار النسائية وعلى كثير من قلوب الرجال؛ وبدأ الآن سلطان الممثلات الشهيرات من أمثال كتي كلايف، وبيج ووفنجتن- التي رسمها هوجارت، وحاك تشارلز ريد رواية حولها. ولقد قال جاريك، بما أن "هواية الممثلين الأولي، والعظمى، والمسيطرة، هي الأكل(61)" فإنهم فضلوا التمثيلات المثيلة بالجنس. وقال آدمز، القسيس الذي رسمه الروائي فيلدنج: لم أسمع قط بتمثيلات تصلح لأن يقرأها مسيحي إلا تمثيلات أديسون، ورواية ستيل "العشاق الواعون". على أن فيلدنج ذاته كتب هزليات فاجرة(62). وقد وصف فولتير المسارح في إنجلترا بأنها "مجردة من اللياقة". وناشد السرجون برنارد مجلس العموم في 1735 بأن يكبح شيئاً من جراح المسارح، وزعم أن "الأمة البريطانية... أصبحت شديدة الإدمان على الملاهي الداعرة العاطلة... لقد أدهش

أوروبا كلها أن يتقاضى السنيورات والخصيان الإيطاليون رواتب تعادل رواتب وزراء الخزانة(63)". ولم يفعل أحد شيئاً في أمر الناظر والعبارات الخلية، ولكن حين سخر فيلدينج وجاي المسرح للهجو السياسي فهاجما روبرت ولبول وجورج الثاني، استصدر الوزير، المتسامح عادة مع المعارضة، بطريق البرلمان قانون الرخص (1737)، الذي وجه أمين البلاط إلى المزيد من التشدد في منح الأذن بالحفلات المسرحية . وقد غالى ديدور في "موسوعته" في الثناء على مسرحية "التاجر اللندني"، التي أخرجت بلندن في 1731، والتي أثارت اهتمامه لأنها المسرحية التي أدخلت مأساة الطبقة الوسطى إلى المسرح البريطاني. وكانت الدراما الكلاسيكية الفرنسية قد أرست مبدأ مؤداه أن المأساة وقف على الأرستقراطية، وأنها تفقد مقامها ووقارها أن هي نزلت

صفحة رقم : 11858

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> المسرح

لى المشاهد البورجوازية. وقام جورج ليللو بمغامرة مزدوجة؛ أنزل المأساة إلى بيت تاجر، وكتبها نثراً. فترى فيها التاجر الأمين ثوروجود يعتر "بكرامة مهنتنا" ويثق بأنه "لما كان اسم التاجر لا يشين الجنتلمان أبداً، فهو إذن لا يقضيه إطلاقاً عن المجتمع الراقي". والفكرة في المسرحية هي تدمير حياة صبي تاجر على يد غانية أغوته، والموضوع موشي بالحض على مكارم الأخلاق وملفوف في العاطفة الرقيقة. وقد صفت للمسرحية طبقة وسطى أبهجها أن ترى فضائلها ومثلها العليا معروضة على مسرح بريطاني. ورحب بها ديدرو وحكاها في حملته لإدخال "المأساة البيئية والبورجوازية" في المسرح الفرنسي. ونقل لسنج نبرتها في "الأنسة سارا ساميسن" (1755). وهكذا راحت الطبقات الوسطى تؤكد ذاتها في الأدب كما تؤكد في السياسة.

أما في إسكتلندا، فقد أوج النار تحت قدر الدراما جون هيوم، الذي أغضب زملاءه رجال الدين بكتابته وإخراجه تمثيلية "دجلاس" (1756)، وهي أنجح مأساة في زمانها. وقد حياه ابن عمه ديفد هيوم في نوبة من الحماسة المتدفقة لا تكاد تليق بفيلسوف شاك، فقال أنه "تلميذ صادق لسوفوكليس ورأسين قد يوفق في الوقت المناسب لتبرئة المسرح الإنجليزي من تهمة الهمجية(64)". فلما رفض جاريك المسرحية، رتب هيوم، ولورد كيمس (هنري هيوم)، و "المعتدلون" من رجال الدين الاسكتلنديين إخراجها في أدنبرة، وقام ديفد ببيع التذاكر. وكان الحدث نصراً لآل هيوم جميعاً ولباقي إسكتلندا، لأن جون هيوم حول أغنية شعبية اسكتلندية قديمة إلى دراما وطنية ملأت عيون الاسكتلنديين بدموع الفرح، اللهم إلا هيئة شيوخ الكنيسة بأدنبرة، التي نددت بخيوم لأنه جلب العار على ردايه، وذكرته "بالرأي الذي كانت الكنيسة المسيحية تراه دائماً في تمثيلات وممثلي المسرح لأضرارهم بالدين والفضيلة(65)". قد صدرت اتهامات رسمية لهيوم وقسيس آخر يدعى الكسندر كاريل لحضوره التمثيل. أما ديفد هيوم الذي اضطر بالغيرة على قريبه فقد أهدى "المقالات الأربع" لابن عمه، وكتب اتهاماً حاراً للتعصب. واستقال جون من قسوسته، وذهب إلى لندن، وشهد مسرحيته "دجلاس" تخرج، وعلى رأس ممثلاتها بج ووفنجتن (1757). هناك أيضاً انتصرت المسرحية، واحتشد

صفحة رقم : 11859

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> المسرح

الاسكتلنديون الساكنون لندن ليصفقوا لها، وفي نهاية هذه الحفلة الافتتاحية في لندن هتف اسكتلندي من أعلى المسرح "اخشأوا يا قوم: فما قولكم الآن في ويلي شكسبيركم(66)؟" وظلت التمثيلية تتردد على المسرح جيلاً بأكمله، مع أنها اليوم ميتة موت تمثيلية أديسون "كانو". وحين مثلتها المسز سيدونز بأدبيرة في 1784، اضطر المجمع العام للكنيسة "إلى توقيت الاجتماع لأعماله الهامة بالتناوب مع أوقات تمثيلها، بحيث يجتمع في الأيام التي لا تمثل فيها(67)". أما أطرب نجاح حققه المسرح اللندني في هذه الفترة فكان "أوبرا الشحاذ". وقد بدأ مؤلفها جون جاي حياته صبياً في متجر، وارتقى حتى أصبح سكرتيراً لأيرل كلارندن، وواحداً من أكثر أعضاء نادي "سكريليروس" حيوية ومرحاً. وقد وصفه بوب بأنه:

"دمت الطبع، رقيق العاطفة،

في ذكائه رجل، وفي بساطته طفل؛

مفطور على مرح يخفف من غضبته للحق،

مخلوق ليبيح العصر ويسوطه معاً(68)".

وقد وضع جاي بصمته على المسرح عام 1716 بتمثيلية "تريفيا أو فن التسكع في شوارع لندن". فقعقة عجلات المركبات على أحجار الرصف، والسائقون يستحثون خيلهم بالسوط واللسان، و "الصبية الموحلة" تحمل السمك إلى بلنجزجيت، وهدوء "بل مل" بسيدات المعطرات يتكنن على أذرع العشاق، والسائق يشق طريقه الملتوي وسط مباراة في كرة القدم تسد الشارع، واللصوص المهذبون "يخففون جببك من أثقاله بأصابع لا تحس"، والحارس الضخم يهدي خطاك المضطربة بمصباحه المرشد إلى طريقه الأمين "ويقودك إلى بابك؛ كل هذا وأكثر منه يجده في تريفيا من يريد أن يتصور لندن في 1716. وفي 1720 نشرت "قصائد" جاي بنظام الاكتتاب، فوافته بألف من الجنيهات خسرهما في انهيار شركة بحر الجنوب. وخف بوب وغيره لنجدته، ولكنه أدرك الثراء من جديد عام 1728 بتأليفه "أوبرا الشحاذ". وتقد لنا مقدمتها الشحاذ، الذي يقدم لنا بدوره أوبراه.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> المسرح

وتبدأ بأغنية شعبية يغنيها بيتشوم، الذي يتظاهر (كما تظاهر جوناثان وايلد) بخدمة القانون بالإبلاغ عن النصوص (إذا رفضوا خدمته)؛، ولكنه في حقيقة الأمر يتجر في البضائع المسروقة. ويصف نفسه بالرجل الأمين لأن "كل أصحاب المهن الراقية يحتال بعضهم على بعض"، ويحدوهم الجشع للربح. ويفسد عليه أمره أن ابنته بولي وقعت في غرام قاطع الطريق الوسيم الأنيق الكابتن ماكهيث، وربما تزوجته، ومن شأن هذا الغرام أن يعطل تسخير مفاتن بولي في ملاطفة المشتريين والباطعين ورجال الشرطة. وتطمئنه المسز بيتشوم قائلة:
"بحقك لم يجب أن تختلف ابنتنا بولي عن غيرها من بنات جنسها، فلا تحب إلا زوجها، ولم يجب أن يقلل زواجها من ملاحقة الرجال الآخرين لها، على عكس ما نلاحظه في مل مكان؟ كل الرجال لصوص في الحب، ويزيد من حبهم للمرأة أن تكون ملكاً لغيرهم(69)". على أن الأم تحذر ابنتها قائلة:
"لست أعارض يا بولي، كما تعلمين، في أن تعبئي قليلاً مع زبون خدمة للعمل، أو سببلاً لاستخلاص سر أو نحوه، ولكني سأقطع رقبتك لو وجدتك تصرفت كالحمقى، وتزوجت. أيتها اللعوب".

وتعتذر بولي عن زواجها في أغنية شعبية:

"أيمكن أن تحكم النصيحة الغرام؟

أيطيع كيوييد أمهاتنا؟

لو كان قلبي بارداً كالثلج

لذاب من لهيب ناره.

حين قبلني ضمنى بشدة

وكان عناقه حلواً فلم أملك غير الامتثال،

ورأيته أسلم وأفضل

أن أتزوج مخافة لومك وتقرئك(70)".

ويشتعل غضب بيتشوم، وهو يخشى أن يقتله ماكهيث ويقتل زوجته ليرث ثروتهما عن طريق بولي. فيبيت أن يشي بماكهيث لرجال القانون

صفحة رقم : 11861

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> المسرح

ليشبقوه دون ريب. ويظهر ماكهيث على المسرح، ويهدئ روع بولي بعناقته، ويؤكد لها أنه منذ الآن سيكون ملكاً لها دون غيرها من النساء:

"لقد كان قلبي طليقاً

يبتقل كالنحلة،

حتى سلبت بولي لبي

كنت أشف رحيق كل زهرة،

وأنقلب كل ساعة،

ولكن هنا اجتمعت كل الزهور في واحدة".

وتضرع إليه أن يقسم أن يأخذها معه إذا نقل. فيقسم قائلاً "في استطاعة أي قوة... أن تنتزعني منك؟ أيسر من هذا أن تنتزعي راتباً من رجل بلاط، أو أتعباً من محام، أو امرأة جميلة من مرأة" ثم يشتركان في ثنائية جميلة:

"هو... لو ألقيت على شاطئ جرينلند،

واحتضنت فتاتي بين ذراعي،

دافئة الجسد وسط صقيع لا ينقضي

لا نقضي سريعاً ليل نصف العام.

هي... لو باعوني في أرض الهند

لاستطعت عقب انقضاء النهار المحرق

أن أهرأ بالكدح في القبط الشديد

ما دمت أستريح على صدر فانتني.

هو... ولأحبتك اليوم كله،

هي... ولتعاقتنا ولعبنا كل ليلة،

هو... لو سرحت معي في هيام

هي... فوق التلال، بعيداً جداً".

وتبوح له بأن أباه يدبر تسليمه للقانون، وتطلب إليه في أسي أن يختلف برهة. فينصرف، ولكنه يتوقف في حانة ليعطي أعوانه تعليماته بشأن إحدى سرقاته. فإذا انصرفوا رقص وعبث مع فتيات

صفحة رقم : 11862

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> المسرح

الحانة، وكان بيتشوم قد رشاهن ليشين به، فيسرقن مسدسيه وهن يدللنه، ثم يستدعين الشرطة، ونراه في سجن نيوجيت في المنظر التالي. هناك تتنافس عليه بولي وإحدى زوجاته، وتحررانه من السجن، ولكن يقبض عليه من جديد ويرسل إلى المشنقة، وفي طريقه إليها يعزي نساءه بهذه الأغنية:

"وداعاً إذن يا حبي- وداعاً يا ساحراتي العزيزات!

إني أموت راضياً- وهذا خير لكن.

هنا ينتهي كل نزاع طوال ما بقي لنا من حياة،

لأنني بهذا أرضي زوجاتي أجمعين(71)".

ويظهر الآن الشحاذ المؤلف، وبفخر بأنه جعل الرذيلة تلقى ما تستحقه من عقاب، كما هي الحال في جميع التمثيليات اللائقة، ولكن ممثلاً يعترض بأن "الأوبرا يجب أن تنتهي نهاية سعيدة" (لشد ما تتغير العادات!). ويذعن الشحاذ، وينقذ ماكهيث من حبل المشنقة ويحيط عنقه بحبل آخر هو بولي، ويرقص الجميع حولهما، بينما يتساءل الكابتن، أترأه لقي مصيراً شراً من الموت.

وكان من حسن حظ جاي أن أفاد من خدمات يوهان بوش، وهو مؤلف موسيقي ألماني يقطن إنجلترا، واختار يبوش موسيقى لأغاني جاي من الألحان الإنجليزية القديمة، وكانت النتيجة رائعة. فقد استجاب الجمهور بحماسة في حفلة الافتتاح بمسرح لنكولنز إن فيلدرز (29 يناير 1728) رغم ما جاء في المسرحية من هجو للرشوة والنفاق. واستمر عرضها ثلاث وستين ليلة متوالية، وفاقت في هذا كل ما سبقها من تمثيليات، وعرضها عروضاً طويلة في كبرى المدن البريطانية؛ وما زالت تشغل المسرح في قارتين، وقد حولت إلى فلم من أبهج الأفلام في عصرنا. أما الممثلة التي قامت بدور بولي فقد أصبحت معبودة الفتيان الطائشين المرحين، وتزوجت دوقاً. ولكن رجلاً من رجال الكنيسة الشديدة الاحتقال بالطوقوس ندد بجاي لأنه جعل قاطع طريق بطلاً لتمثيليتها ولأنه تركه يفلت من العقاب. فلما حاول جاي أن يخرج تمة للتمثيلية سماها "بولي" رفض كبير الأمناء الترخيص

صفحة رقم : 11863

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> المسرح

بها. فنشرها جاي، وراجت، وتساعدت حصيلة "أوبرا الشحاذ" تصاعداً ساراً، حتى قال ظريف إن التمثيلية جعلت جاي غنياً (rich) وجعلت رتش (المدير) مبهتجاً (gay). وبعد أربع سنوات من انتصار الشاعر أصيب بمغص أودى بحياته.

صفحة رقم : 11864

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

5- الرواية

كان الحدث البارز في التاريخ الأدبي لهذه الحقبة هو ظهور الرواية الحديثة. فروايتا "كلاريسا" و "توم جونز" من الناحية التاريخية أهم من أي قصيدة أو مسرحية إنجليزية في ذلك العهد. ومنذ عام 1740، باتساع مجال الحياة العامة وامتداده من البلاط إلى الشعب، ومن الأفعال إلى الأحاسيس، حلت الرواية محل الدراما صوتاً ومرآة لإنجلترا. أما القصص فكانت قديمة قدم الكتابة، فللهند حكاياتها وخرافاتها؛ واليهودية ضمنت أديها أساطير لراعوث واستير وأيوب؛ واليونان الهلنستية والأقطار المسيحية الوسيطة أخرجت رومانسيات مغامرة وحب، وإيطالية النهضة أنتجت آلاف "النوفلي" (أي المستحدثات الصغيرة)، كما في بوكاتشو وبانديلو، وأسبانية النهضة وإنجلترا الأليزابيثية كتبت حكايات تشرد لأوغاد رائعين، وفرنسة القرن السابع عشر أثقلت الدنيا بقصص حب أطول كثيراً من الحب. وقص لساج قصة جيل بلاس، وجود ديفو حكاية المغامرة بياناً لشجاعة الإنسان؛ وسخر سويفت قصة الرحلات ليسلخ بها جلد البشر.

ولكن أكانت هذه الآثار روايات بمعناها الحالي؟ لقد أشبهت قصص القرن الثامن عشر في كونها حكايات خيالية، وامتاز بعضها بميزة الطول الذي لا شك فيه، وصور بعضها الشخص بجهد يحاول تجسيد الواقع؛ ولكنها "ربما باستثناء كروسو) افتقدت الحكمة التي تربط بين الأحداث والشخص في كل متطور. لقد كان في قصة "الأورونوكو" للسيدة أفرا بن (1688)، وهي قصة عبد أفريقي، حبكة رابطة، وكذلك قصص ديفو "الكابتن سنجلتون" (1720)،

صفحة رقم : 11865

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

و "مول فلاندرز" (1722)، و "روكسانا" (1724)، ولكن هذه كلها كانت لا تزال سلسلة من الأحداث المترابطة أكثر منها وحدة بنائية يعمل كل جزء فيها على تقديم موضوع يوحد بينها. فلما ملك رتشاردسن وفيلدنج ناصية فن التطوير هذا، وصورا الشخصية وهي تنمو خلال الأحداث، وجعلا رواياتهما تصور العادات في عصرنا، كان هذا استهلالاً للرواية الحديثة.

أ- صموئيل رتشاردسن

1689 - 1761

كان الرجل الذي استهل عصر الرواية الجديدة ابن نجار من داربيشير انتقل إلى لندن عقب مولد صموئيل. وكانت الأسرة ترجو أن تجعل الصبي قسيساً، ولكن الفقر عاقها عن تأهيله التأهيل المدرسي المطلوب؛ على أنه وفق في أن يضمن كتبه شيئاً من الوعظ. وكان الوسط الذي شب فيه يحتفظ بالفضيلة البيورتانية. وألحق صبيّاً لطباع، وأعانه اشتهاؤه بجمال الخط على زيادة دخله بتدبيجه ال سنل للفتيات الأميات اللاتي أضناهن الحب، وقد قررت هذه المصادفة الشكل الذي اتخذته رواياته أعني شكل الرسائل، وما أفاضت فيه هذه الروايات من ريادة لسيكولوجية المرأة وسير لعواطفها. وأفاده جده واقتصاده، فأنشأ مطبعة خاصة به، وتزوج ابنة مخدومه السابق (1721)، وأنجب منها ستة أطفال، مات منهم خمسة في حدائتهم. كذلك ماتت أمهم (1730) وهي ما تزال صغيرة السن محبوبة، وأعانت هذه الأحزان على خلق مزاجه الذي تغلب عليه الكآبة. وتزوج ثانية، وأنجب ستة أطفال آخرين، واكتوى بمزيد من الأحزان، ثم ارتقى لوظيفة طباع مجلس العموم. وبلغ الخمسين من عمره قبل أن ينشر كتاباً. وفي 1739 كلفه صديقان طباعان بكتابة مجلد صغير من نماذج للرسائل مرشداً للقراء الريفيين الذين لا قدرة لهم على التحرير بأنفسهم"، ومعلماً في "التفكير والتصرف بصواب وحكمة في الشؤون العادية لحياة الإنسان(72)". وبينما كان رتشاردسن يعد هذا الكتاب-وهنا اعتنمت العبقرية فرصة الظرف-خطر له أن ينسج سلسلة من الرسائل في قصة حب تشرح الفضيلة الحكيمة في بطلتها العذراء. ولعل

صفحة رقم : 11866

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

الموضوع، وهو العفة المصونة خلال سلسلة طويلة من المغريات، قد أوحى به قصة "حياة ماريان" (1741-41) التي ألفها الكاتب الفرنسي ماري فو. أياً كان الأمر، فإن رتشاردسن أقام في نوفمبر 1740 معلماً على طريق الأدب الإنجليزي بإصداره كتاباً في مجلدين سماه "باملا، أو الفضيلة التي كوفئت؛ سلسلة من الرسائل العائلية من أنسة جميلة إلى أبويها؛ منشوراً لأول مرة ليربي مبادئ الفضيلة والدين في عقول الشباب من الجنسين" وراج الكتاب، وأضاف إليه رتشاردسن مجلدين آخرين في 1741، "باملا في أسمى حالاتها"، يقصان فضائلها وحكمتها بعد زواجها. وما زال نصف القصة الأول طريفاً، لأننا لا نكبر أبداً على استطرافنا لقصص الإغواء-وان كان كل شيء حتى الإغواء يصبح مملاً بعد ألف صفحة. ويبدأ التركيز على العاطفة في الصفحة الأولى، حيث تكتب باملا "أواه! لكم

تذرف عيناى الدمع مدراراً! لا تعجبا إذا رأيتما الورق شديد التلوث". وهي مثال الطيبة والتهديب والتواضع. فلما أرسلت خارج الأسرة لكي "تخدم" وهي في السادسة عشرة حولت لأبويها أول ما كسبت من مال "لأن العناية الإلهية لن تتركني في عوز... فإذا حصلت على المزيد فإنني واثقة بأنه من واجبي، وسيكون موضع اهتمامي أن أحبكما وأعتز بكما، لأنكما أحببتماني واعتزتما بي حين لم أكن أقوى على صنع شيء لنفسي(73)". أما الأبوان الحذران فيرفضان إنفاق المال حتى يطمنا إلى أنه ليس عربوناً يدفعه مخدمها الأعرز لوصالها. وينبهانها إلى أن جمالها يعرض عفتها للخطر "إننا نخاف-نعم، يا بنيتي العزيزة، إننا نخاف لئلا تشتطي في عرفان الجميل، فتكافئيه بتلك الجوهرة، بفضيلتك، التي لا يستطيع مال... أن يعوضك عنها". فتعدهما بأن تكون حذرة وتضيف "ما أجمل فعل الخير! إنه كل ما أحسد عليه العظماء". وعواطفها جديرة بالإعجاب وإن فقدت بعض فتنها لأنها تصرح بها. وفي مأساة متفارقة يدخل مخدمها مخدعها دون التمهيد الواجب، ويضمها إلى صدره المضطرب. فيعشي عليها، وتفسد خطته. فلما أفاق "وضعت يدي على فمه وقلت: أواه! قل لي، ولكن لا تقل لي، ماذا عانيت أنا في هذه المحنة؟(74)". فيؤكد لها أن مقاصده

صفحة رقم : 11867

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

أخفت. وإذ تقدر ما ينطوي عليه اشتهاؤه لها من تحية، تتعلم شيئاً فشيئاً أن تحبه، وتعد المراحل التي تتدرج فيها عاطفتها من الخوف إلى الحب، لمسة من اللمسات الرقيقة الكثيرة التي تدعم شهره رتشاردسن كاتباً سيكولوجياً. على أنها تقاوم كل حصاراته رغم ذلك، وينتهي به الحال إلى الانهيار، فيعرض عليها الزواج. وإذا أسعد باملا أنها أنقذت فضيلتها وروحه، فإنها تعزم أن تكون زوجة إنجليزية مثالية: تلزم بيتها، وتتجنب الحفلات الفخمة، وتمسك حسابات الأسرة بعناية، وتوزع الصدقات، وتطهو الهلام والكعك والحلوى والفاكهة المحفوظة، وتكون شاكراً إذا تفضل عليها زوجها بالحديث معها بين الحين والحين هابطاً السلم الطبقى إليها. ويختتم رتشاردسن المجلد الثاني بعظة في فوائد الفضيلة في المسامة بين الجنسين، "إن ناشر هذه الصفحات سيحقق هدفه إذا أوحى (فضيلة باملا) بالقنوة المحمودة في عقول أي أشخاص أفضل، قد يكتسبون بهذا حقاً فيما نالته باملا عن جدارة من أسباب الثواب والثناء والبركة". وأضحك هذا بعض الإنجليز، مثل فيلدنج القوي الصلب، ولكن ألقاً مؤلفة من قراء الطبقة الوسطى شاركوا باملا خفقات قلبها في تعاطف. وأطرى رجال الدين الكتاب، وقد سرهم أن يجدوا مثل هذه الدعوات لعظاتهم في أدب بدا أنه باع نفسه لرئيس الشياطين (بعلزبول). ونفدت أربع طبعات من باملا في ستة أشهر. وبالطبع حث الناشر رتشاردسن على مزيد من التنقيب في هذا المنجم الغني، ولكنه لم يكن بالكاتب المرتزق، ثم إن صحته بدأت تعتل. فتريث، ومضي في أعماله الطباعية. ولم يخرج راعته التالية التي جاءت بأوربا البورجوازية كلها عند قدميه إلا عام 1747.

وقد صدرت هذه الرائعة، واسمها "كلاريسا، أو تاريخ شابة" طولها ألفاً صفحة، في سبعة مجلدات، ما بين نوفمبر 1747 وديسمبر 1748. وكان قد ساء اتهامه بأن قصة باملا أظهرت الفضيلة مجرد خطة للمساومة، وأنها صورت فاسقاً صلحت حاله تصويرها لزوج صالح، لذلك عمد إلى إظهار الفضيلة هبة إلهية سوف تثاب في السماء، وإظهار فاسق سادر في غيه مقضياً عليه لا محالة بنهاية سبئة مدمرة،

صفحة رقم : 11868

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

وخلاصة القصة أن لفليس الطائش الذي اشتهر بأنه شيطان من النساء، يطلب يد كلاريسا هارلو، فلا تثق به، ولكنها مفتونة أشد الفتنة بشهرته. وتحظر عليها أسرتها لقاء وغد كهذا وتعلق أبوابه في وجهه، وتعرض عليه مستر سومز، وهو رجل لا رذائل فيه ولا شخصية، فترفضه؛ ولكي يكرهها على الإذعان يوبخونها ويعذبونها ويحبسونها. ويستأجر لفليس مساعداً ليزيف هجوماً مسلحاً عليها من أقاربها؛ ولكي تكفر منهم تسمح له بخطفها إلى سانت البانس. وهي راغبة في الزواج منه، ولكنه يرى في هذا مغامرة يائسة جداً. فيكتب صديق له: " ... كنت أصمم على الزواج لولا هذا الاعتبار، وهو أنني متى تزوجت مرة أصبحت متزوجاً مدى الحياة. تلك هي المصيبة! لو أن الرجل استطاع أن يفعل كما تفعل الطير ويغير (زوجاته) كل عيد من أعياد القديس فالنتين.. لما كان في الأمر بأس على الإطلاق... وتغيير كهذا سيكون وسيلة للقضاء على.. أربع أو خمس كباثر فظيعة: هناك العرض، الذي يطلق عليه هذه التسمية السوفية، والخيانة الزوجية، والزنا؛ كذلك لن يلهث الرجل وراء تعدد الزوجات، وستمتع كثيراً جرائم القتل والمبارزة، ولن يسمع الناس بشيء اسمه الغيرة (وهي العلة في أعمال العنف المفزعة)... ولن تكون هناك امرأة عاقر... فكلا الجنسين سيحتمل الآخر، لأن في استطاعتهما أن يرعى كل منهما مصلحته بعد بضعة أشهر... وستزدحم الصحف بفقرات.. .. تعني بتعارف المحبين. عندها ألن يكون التميز جميلاً جداً يا جاك؟ تماماً كما في الزهور، فهذا السيد، أو هذه السيدة، أما موسمي (أو موسمية)، وأما مستديم (أو مستديمة)(75)".

ويحاول إغواء كلاريسا، فتتذره بأنها قاتلة نفسها أن لمسها، فيحبسها حبساً خسيساً وأن تلطف معها فيه، وترسل خلاله الرسائل المفعمة حزناً لأنها هاو، صديقتها التي تأتمنها على سرها. أما هو فيخترع الحيلة تلو الحيلة ليخترق معاقل دفاعها، فتقاومه، ولكنها

صفحة رقم : 11869

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

ترى أن عرضها تلوث تلوثاً لا براء منه لأنها قبلت نصف قبول أن تهرب معه. وتكتب الرسائل الأليمة لأبيها ضارحة إليه أن يغفر لها بل أن يسحب اللعنة التي استمطرها عليه، والتي تعتقد أنها ستقفل في وجهها أبواب الجنة إلى الأبد، ولكنه يأبى، فتصيبها علة مدمرة لا يسندها فيها غير إيمانها. أما لفليس فيختفي في فرنسا ويقتل في مبارزة بيد عم كلاريسا، وأخيراً يأتي أبواها عارضين عليها المغفرة، فيجدانها ميتة.

إنها قصة بسيطة، طال عزفها على نغمة واحدة طويلاً لا يمكن أن يشد عقولنا المحكومة، ولكنها أصبحت في إنجلترا القرن الثامن عشر مثار خلاف قومي. فكتب مئات من القراء إلى رتشاردسن في فترات النشر يتوسلون إليه ألا يدع كلاريسا تموت(76). ووصف أحد الأباء بناته الثلاث بأنهن "في هذه اللحظة تمسك كل منهن بمجلدها الخاص (من كلاريسا)، وعيونهن كلها بللها الدمع كأنها زهرة مخضلة في الربيع(77)". أما الليدي ماري ورتلي مونتاجيو، التي بلغت غاية ما تبلغ نساء عصرها الإنجليزيات من علم وثقافة، فقد تقبلت الكتاب على أنه استرضاء لعواطف الطبقة الوسطى وحماسة الجماهير، ولكنه أذن ذوقها الأرستقراطي. قالت:

"كنت تلك الحمقاء العجوز التي بكت على كلاريسا هارلو كما تبكي أي بائعة لبن في السادسة عشرة لسماعها أغنية "سقوط السيدة" الشعبية. والحق أن المجلدات الأولى الأنتني بما حوت من شبه كبير بأيام صباي، ولكن الكتاب في جملته بضاعة غثة... إن كلاريسا تتبع قاعدة الإفشاء بكل أفكارها لكل من تراه، وقد غاب عنها في أوراق التين في وضعنا البشري الشديد النقص لازمة لعقولنا لزومها لأجسامنا، وليس من اللياقة أن نعرض كل أفكارنا، تماماً كما أنه ليس من اللياقة أن نعرض كل أبداننا(78)".

وألحت نساء إنجلترا الآن على رتشاردسن المنتصر في أن يصور لهن رجلاً مثالياً كما صور المرأة المثالية-في ظنهن-في باملا. فتردد أمام هذه المهمة الشائكة، ولكن حفزه إليها هجو فيلدنج لباملا في روايته

صفحة رقم : 11870

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

"جوزف أندروز"، كما حفزته اللوحة الكاملة المفصلة التي رسمها فيلدنج لرجل في روايته "توم جونز"، وعليه فقد أخرج بين نوفمبر 1753 ومارس 1754، في مجلدات سبعة، "قصر السر تشارلز جراندسين". ومزاج عصرنا الذي لا يبالي يصعب عليه أن يفهم لم لقيت هذه الرواية الثالثة نجاحاً عظيماً كما لقيت أختاها من قبل؛ فانقراض القرن العشرين على البيورانية، وعلى التوفيق الذي حاوله العصر الفكتوري الوسيط، ختم على قلوبنا فلم تعد ترى صور الطيبة المثالية، على الأقل في الذكور؛ فقد لقينا رجالاً طبيين، ولكن أحداً منهم لم يخل من عيوب تكفر عن طبيته. ولقد حاول رتشاردسن أن يجعل السر تشارلز بعض الهنات، ولكننا ما زلنا نكره هذه الشقة البعيدة بينه وبيننا. أضف إلى ذلك أن الفضيلة تفقد فتنتها إذا عرضت على الأنظار. ولقد أفلت جراندسين بالجهد من أن يسلكه صانعه في زمرة القديسين.

وألح رتشاردسن على الوعظ لإحاحاً جعله يسمح لبعض العيوب أن تشوب فنه الأدبي. فانعدمت أو كادت الفكاهة والنكتة الذكية عنده، وأوقعته محاولة حكاية قصة طويلة بالرسائل في أشياء بعيدة الاحتمال (كتذكر العدد الهائل من الأحاديث)، ولكنها أتاحت له عرض الأحداث نفسها من مختلف وجهات النظر، وأضف على الحكاية ألفة لا تكاد تتير في شكل أقل ذاتية. وكان مما يتمشى تماماً مع العرف في ذلك العصر أن يكتب الإنسان الرسائل الطويلة الحميمة إلى من يثق بهم من ذوي القربى أو الأصدقاء. ثم إن طريقة الرسائل هذه أفسحت المجال أمام موهبة رتشاردسن الكبرى- وهي عرض خلق المرأة. هنا أيضاً توجد عيوب. فعلمه بالرجال أقل من علمه بالنساء، وبالنبلاء أقل من العامة، وقل أن لقط ما في النفس الإنسانية من تقلبات وتناقضات وتطور-ولكن مئات التفاصيل تدل على ملاحظته الدقيقة للسلوك الإنساني. ففي هذه الروايات ولد القصص السيكولوجي الإنجليزي والنزعة الذاتية التي بلغت في روسو مبلغ الحمى. وتقبل رتشاردسن نجاحه في تواضع وواصل عمله طباعاً، ولكنه بنى لنفسه بيتاً أفضل. وكتب رسائل طويلة ضمنها النصائح لدائرة كبيرة من النساء، كان بعضهن يدعوه "بابا العزيز" وفي أخريات عمره

صفحة رقم : 11871

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

دفع ثمن الفكر المركز والفن المسهب حساسية عصبية وأرقاً. وفي 4 يوليو 1761 قضت عليه إصابة بالفالج. وكان تأثيره الدولي أعظم من تأثير أي إنجليزي آخر في عصره باستثناء وسلي وبت الأب. وقد أعان في وطنه على صوغ المزاج الخلفي لإنجلترا جونسن، وعلى الارتفاع بأخلاقيات البلاط بعد جورج الثاني. وأسهم التراث الخلفي والأدبي الذي خلفه في تكوين رواية جولدسمث "قسيس ويكفيلد" (1766) ورواية جين أوستن "العقل والوجدان" (1811). أما في فرنسا فقد عد كاتباً لا ضريب له في القصة الإنجليزية. يقول روسو "لم تكتب قط في أي لغة رواية تعدل أو حتى تقترب من كلاريسا (79)". وقد ترجم الأبييه بريغوست رتشاردسن، ومسرح فولتير بأملاً في "نانين" وصاغ روسو "هلويز الجديدة" على غرار كلاريسا موضوعاً وشكلاً وهدفاً خلقياً. وارتفع ديرو إلى المناجاة المفرطة الحماسة في مقاله "تقريب لرتشاردسن" (1761)، فقال لو أنه أكره على بيع مكتبته لما احتفظ من كتبه كلها إلا بهومر وبوربيديس وسوفوكليس ورتشاردسن. وفي ألمانيا ترجم جيلبرت باملا، وحاكاه، وبكى تأثراً من جراندسن (80)؛ واننشي كلوبشتوك طرباً بكلاريسا؛ وبنى فيلاند تمثيلية على جراندسن؛ وراح الألمان يحجون إلى بيت رتشاردسن (81). وفي إيطاليا مسرح جولدوني قصة باملا.

واليوم لا يقرأ أحد رتشاردسن إلا مضطراً بحكم الدرس، ونحن لا نملك الفراغ الذي يتسع لكتابة رسائل كهذه، فضلاً عن قراءتها؛ والناموس الأخلاقي الذي يدين به عصر صناعي دارويني يهرب في ضجر من المحاذير والقيود البيورانية. ولكننا نعرف أن هذه الروايات مثلت ثورة الوجدان على عبادة الفكر والعقل، أكثر مما مثله شعر طومسن، وكولنز، وجراي، ونبين في رتشاردسن الأب كما نتبين في روسو البطل-للتلك الحركة الرومانسية التي ستتتصر في أواخر القرن على صنعة بوب الكلاسيكية وواقعية فيلدينج العارمة.

صفحة رقم : 11872

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

ب- هنري فيلدينج

1754 - 1707

حين قدم إلى لندن في 1727 أعجب الناس كلهم بقوامه الفارع، وبنيته القوية، ووجهه الوسيم، وحديثه المرح، وقلبه المفتوح؛ فهنا رجل أعدته الطبيعة ليستمتع بالحياة في كل لذتها وواقعها السيئ السمعة. كان يملك كل شيء إلا المال؛ وإذ كان مضطراً-على حد قوله-إلى أن يكون سائقاً أجيراً، أو كويتباً أجيراً، فإنه شد نفسه إلى قلم، واكتسب قوت يومه بكتابة الهزليات والتمثيلات الكاريكاتورية. واستعملت الليدي ماري مونتاجيو، وهي ابنة خال له من المرتبة الثانية، نفوذها ليخرج له مسرح دروري لين تمثيلية "الحب وراء أقنعة عديدة" (1728)، وذهبت مرتين لتشهدا معلنة عن

نفسها في تفضل؛ وفي 1732 ساعدت على عرض تمثيلية "زوج عصري" فترة طويلة. وواصل تأليف المسرحية تلو المسرحية، وكلها غير ممتاز، ووقع على عرق من الهجاء المرح في "مأساة المآسي، أو حياة وموت توم ثم الكبير" (1731).

وفي 1734 تزوج شارلوت كرادوك بعد خطبة اتصت أربع سنين. وورثت عقب زواجهما 1.500 جنيه، فأخذ فيلدينج معها إلى حياة الدعة سيداً من سادة الريف. ووقع في حب زوجته. وقد وصفها وصف الزوج المفتون بزوجته في شخص صوفيا وسترن الجميلة في خفر، وأميليا بوث التي لا حد لصبرها وأناتها. وتؤكد لنا الليدي بيوت "أن اللغة المشرقة التي عرف كيف يستعملها لم تزد على أنصف محاسن الأصل وجمالها(82)". وفي 1736 عاد إلى لندن وأخرج تمثيلات لا تستحق الذكر. ولكن في 1737 وضع قانون الرخص قيوداً على الدراما، وانسحب فيلدينج من المسرح. ودرس القانون، وقبل محامياً (1740). وتحول مسار حياته في ذلك العام بظهور رواية رتشاردسن "باملا". وأثارت فضائل البطلة وخالفها المعتمدة كل ما في فيلدينج من نزوع إلى الهجو. و "قصة مغامرات جوزف أندروز وصديقه مستر ابراهام آدمز، مكتوبة بطريقة سرفانتيس" (1742) بدأها تقليداً ساخراً

صفحة رقم : 11873

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

لباملا. فجوزف، الذي يقدمه لنا المؤلف على أنه أخو باملا، فتى طاهر جميل بين الفتيان كباملا بين الفتيات، تراوده مخدومه المرة بعد المرة كما وقع لباملا، ويقاوم مثلها، ويفصل مثلها في رسائله المحاولات الخبيثة للعدوان على عنزيتة. ورسالته لأخته باملا رسالة تكاد تكون "رتشاردسونية"، وإن لم تكن كذلك تماماً:

"أختي العزيزة باملا:

"أرجو أن تكوني بخير، عندي خبر ويا له من خبر أفضي به إليك!... لقد وقعت سيدتي في غرام-أي ما يسميه عليه القوم بالوقوع في الغرام-وفي نيتها أن تدمرنني، ولكني أرجو أن يكون لدي من العزم والحصافة ما يعصمني من التفريط في عرضي لأي سيدة على ظهر البسيطة.

"لقد طالما أخبرني المستر آدمز أن العفة فضيلة كبرى في الرجل كما هي في المرأة سواء بسواء. وهو يقول إنه لم يعرف قط امرأة غير زوجته، وسأحاول أن أقتدي به. والحق أن أفضل كله لمواعظه ونصائحه الممتازة ولرسائلك في قدرتي على مقاومة إغراء يقول أن أحداً لا يذعن له إلا أن ندم في هذه الدنيا وهلك عقاباً في الآخرة... ما أجمل النصائح والمثل الطيبة! ولكني مسرور لأنها طردتني من مخدعها كما فعلت، فلقد كدت أنسي مرة كل كلمة قالها لي القس آدمز.

"ولست أشك يا أختي العزيزة في أن لك من الحصافة ما تصونين به فضيلتك من كل إغراء، وأتوسل إليك في إلحاح أن تصلي لكي منحني الله القوة على صون فضيلتي، لأنها في الحق تهاجم هجوماً عنيفاً من أكثر من امرأة، ولكني أرجو أن أقتدي بمثالك، وبمثال يوسف الصديق سمي، فأصون فضيلتي من كل إغراء(83)".

وينجح جوزف، ويظل بكرأ حتى يتزوج العذراء فاني. أما باملا، التي رفعت درجة في سلم المجتمع حين تزوجت مخدومها الغني، فتدين فاني لتجاسرها على الزواج من جوزف، الذي ارتفعت منزلته

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

في المجتمع بزواج باملا برجل من عليه القوم. ولام رتشاردسن فيلدنج لأنه اقترف "إضافة فاجرة خسيصة" إلى باملا(84).

ولم تشبع شهوة فيلدنج للهجو بتقليده الساخر لرتشاردسن، وراح يحاكي الألياذة محاكاة ساخرة، بالتضرع إلى ربات الفنون والآداب ويجعل كتابة ملحمة. وقد فاض ينبوع فكاهته في مختلف الشخصيات التي تلقاها جوزف وأدمز في طريقهما، لا سيما الفندقي تو-واوز، الذي تفاجئه المسز تو-واوز متلبساً "بالجرم الفاضح" مع الخادمة بتي ثم تصفح عنه، و "احتمل في هدوء ورضي أن يذكر بذنوبه... مرة أو مرتين كل يوم طوال حياته الباقية". وإذ لم يكن في طبع فيلدنج أن يصنع بطلاً، ورواية بأكملها، من شاب لا عيب فيه، فإنه سرعان ما فقد اهتمامه بجوزف، وجعل القس آدمز الشخصية المحورية لكتابه. وقد بدا هذا خياراً بعيد الاحتمال، لأن آدمز كن قساً سنياً في إخلاص وصدق، يحمل معه مخطوطه بمواعظه باحثاً عن ناشر متهور. ولكن المؤلف أعطاه "ببيرة" متينة، ومعدة قوية، وقبضتين صلبتين؛ ومع أن القس يعارض الحرب، فإنه مقاتل كفاء يصرع سلسلة من الأوغاد يتعقبونه لسرقة قصته. وإلى حد بعيد أحب شخص رسمه فيلدنج، ونحن نشارك لذة المؤلف في مواجهته مواجهات غريبة مع الخنازير، والوحل، والدم. والذين كانوا في شبابهم يتأثرون تأثراً عميقاً بالمثل المسيحي الأعلى، لا بد يستشعرون المحبة الحارة لرجل دين خلا تماماً من الغش وفاضت نفسه برأ. ويقابل فيلدنج بينه وبين القس ترالبير الجشع، الذي كان "من أضخم الرجال الذين يجدر بك أن تراهم، وكان في استطاعته أن يقوم بدور السر جون فلستاف دون أن يحشو بدنه(85)".

وازدهى النجاح فيلدنج، فأصدر في 1743 ثلاث مجلدات وضع عليها عنواناً متواضعاً هو "منوعات". وقد احتوى المجلد الثالث على آية من آيات التهكم المتصل في "حياة المستر جوناثان وايلد العظيم" ولم يكن ترجمة حقيقية للنص القرن الثامن عشر الأشهر، "فإن قصتي تروي على الأصح أفعالاً كان من الجائز أن يقوم بها(86)". وكان في شكله الأول سخرية من السر روبرت ولبول لاتجاره في الأصوات

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

الانتخابية المسروقة، فلما مات ولبول أصدره المؤلف الجديد في صور هجاء "للعظمة" كما درج الناس على تقديرها وتحقيقتها. وذهب فيلدنج إلى أن معظم "عظماء الرجال" أساءوا إلى البشر أكثر مما أحسنوا إليهم؛ وهكذا لقب الاسكندر الأكبر أو "العظيم" لأنه بعد أن "اجتاح إمبراطورية شاسعة بالحديد والنار وأهلك العدد الهائل من البؤساء الذين لا ذنب لهم، ونشر الخراب والدمار كأنه العاصفة الهوجاء يقال لنا من أعمال الشفقة التي تذكر له أنه لم يذبح عجوزاً ولم يغتصب بناتها(87)" واللص أحرى بضمير أكثر راحة واطمئناناً من ضمير رجل الدولة، لأن ضحاياه أقل وغنيمته أضال(88).

وبأسلوب التراجم السياسية يخلع فيلدنج على جوناثان شجرة نسب رفيعة، فيرجع بأصله إلى "ولفستن وايلد، الذي قدم مع هنجست". وكان لأمه صفة غروية في أصابعها غاية في العجب (89). ومنها تعلم جوناثان فن اللصوصية وآدابها، وسرعان ما مكنه ذكاؤه الفائق من تنظيم عصابة من الشبان البواسل الذين كرسوا حياتهم لإراحة الناس الزائدين عن الحاجة من سلعمهم الزائدة عن الحاجة، أو من حياتهم التي لا معنى لها. وكان يصيب حظ الأسد من مكاسيهم، ويتخلص من المتمردين من مساعديه بتسليمهم لسلطات القضاء والأمن. وقد أخفق في إغواء ليتيا المطاردة، التي أثرت أن يعتدي على عرضها مساعده فايربلود، الذي "اعتصب هذه المخلوقة الجميلة في دقائق، أو على الأقل كاد يغتصبها، لولا أنها منعتة من ذلك بامتثالها في الوقت المناسب (90)". وبعدها تزوجت وايلد. وبعد أسبوعين يدخلان في "حوار زوجي" نشرح فيه حقها الطبيعي في حياة الفسق، فيدعوها بالكلية، ثم يتبادل القبل ويتصالحان. ويتصاعد حجم جرائمه أكثر فأكثر حتى يطيب لزوجته أن تراه محكوماً عليه بالإعدام. ويرافقه قسيس إلى المشنقة. فينشله وايلد في الطريق، ولكنه لا يجد معه سوى فتاحة للقوارير، لأن الكاهن كان ذواقه للخمر، أما "جوناثان العظيم، فبعد كل مغامراته الجبارة، كانت خاتمة-التي قل من عظام الرجل من يستطيعون تحقيقها-أن علق من عنقه حتى مات (91)".

صفحة رقم : 11876

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

وفي أواخر عام 1744 فقد فيلدنج زوجته، وكدر موتها مزاجه حتى طهر حزنه بتصويرها تصوير المحب، خلال أسي البعد، في شخص صوفيا وأميليا. وبلغ به العرفان بالوفاء الصادق الذي أبدته خادمة زوجته التي بقيت معه لترعى أبناءه أنه تزوجها في 1747. وكان خلال ذلك يعاني من المرض والعوز، ثم أنقذه من الفقر تعيينه (1748) قاضي صلح لوستمنستر، ثم لمدلسكس بعد قليل. وكانت وظيفة ثقفة، ينقد عليها راتباً غير مضمون من رسوم المتقاضين الذين يوافونه بمحكمته بشارع بو. وقد وصف الجنيهاً الثلاثمائة التي تجمعت له من هذه الوظيفة كل عام بأنها "أقدر نقود على وجه الأرض (92)".

ولا بد أنه كان خلال هذه السنوات الحافلة بالشدائد (1744-48) عاكفاً على أعظم رواياته، لأنها صدرت في فبراير 1749 في مجلدات ستة باسم "قصة توم جونز اللقيط". وهو يروي لنا أن الكتاب ألف في "بضعة آلاف من الساعات" استنفذاً من القضاء والكتابة المأجورة، ولم يستطع أحد أن يتبين من فكاها الكتاب القوية وأدبه الفحل أن هذه كانت سنوات الحزن والنقرس والعوز. ومع ذلك فهانها ألف ومائتا صفحة في رواية بعدها الكثيرون أعظم الروايات الإنجليزية. فلم يسبق في الأدب الإنجليزي أن وصف رجل هذا الوصف الكامل الصريح، بدناً وعقلاً وخلقاً وشخصية. ويحضرنا في هذا المجال تلك الكلمات الشهيرة التي قدم بها تاكري لقصته "بندنييس".

"منذ أن ووري مؤلف توم جونز للتراب لم يؤذن لروائي منا أن يرسم "رجلاً" بأقصى ما يملك من قدرة. فحتم علينا أن نستره وأن نخلع عليه ابتساماً متكلفة تقليدية معينة. والمجتمع مصر على رفض "الطبيعي" في فننا... وأنت تأتي أن تسمع... ما يتحرك في دنيا الواقع، وما يدور في المجتمع، وفي الأندية، والكليات، وقاعات الطعام-تأبى أن تسمع واقع حياة أبنائك وحديثهم".

ويطالعنا توم أول ما يطالعنا طفلاً غير شرعي وجد في فراش المستر أولوردي الطاهر النقي. وبين هذه البداية وزواج توم في النهاية

صفحة رقم : 11877

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

حشر فيلدنج مائة حدث، بأسلوب يوهيم بأنه أسلوب قصص التشرد ذات الفصول المتتابعة في غير ترابط، ولكن القارئ سيدهشه أنه هو ثابر على القراءة إلى النهاية أن يجد أن هذه الأحداث كلها تقريباً ضرورية للحبكة البارعة، أو لعرض الشخص وتطويرها؛ وأن يجد الخيوط تحل والعقد تفك. والعديد من الأشخاص مرسومون في صورة مثالية، مثل أولوردي الذي يكاد يشبه جرانديسن، وبعضهم مبسطون تبسيطاً شديداً، مثل بلايفل الذي يكرهنا على احتقاره، أو القس نواكوم، المربي "الذي سيطرت العصا على أفكاره" (93). ولكن كثيراً منهم يظهر فيهم ماء الحياة، ومنهم سكوابر وسترن "الذي يعتز ببناذقه وكلابه وخيله" (94) أكثر من أس شيء في الدنيا، ثم تأتي زجاجة شرابه، ثم ابنته صوفيا الفريدة في بابها. هاهنا "كلاريسا" أخرى تعرف مسالكها بين فخاخ الرجال، وباملا أخرى تصيد رجلها دون أن تزعجها تجاربه الماضية قبل الزواج.

أما توم ففيه شيء من التحلل الجنسي، وفيما عدا ذلك فهو من أطيب أن يصلح للبقاء. تبناه أولوردي، وعلمه نواكوم وأدبه بعصاه، فأدرك الرجولة القوية التي لا يكدر صفوها غير الخبثاء الذين يذكرونه بأصله الغامض. وهو يسطو على بستان فاكهة ويسرق بطة، ولكن أباه بالتبني يغتفر هذه الألاعيب جرياً على أفضل التقاليد الشكسبيرية. ونعجب به صوفيا وهو على بعد عفيف منه، ولكن توم، الشاعر بمولده غير الشرعي، لا يجرو إطلافاً على الوقوع في حب سيدة تبعده عن هذا البعد السحيق مكانة ومالاً. وهو يقنع بمولي سيجرم، ابنة حارس الصيد، ويعترف بأنه ربما كان أباً لطفها، ويروح عنه كثيراً أن يجد أنه ليس إلا واحداً من عديدين يحتمل أن يكون أحدهم أباً للطفل. وتعاني صوفيا إذ تعلم بهذا الغرام الأثم، ولكن إعجابها بتوم لا يفتر إلا لحظة عابرة. وهو يمسك بها بين ذراعيه إذ تسقط من جوادها أثناء الصيد، ويشي احمرار وجهها بشعورها نحوه، فيسارع إلى مطارحتها الغرام. ولكن أباه، سكوابر وسترن، كان قد هيا حبيبه لصفقة تزويجها من المستر بلايفل، وهو ابن أخت أولوردي الغني الذي لم يعقب، ووريثه الشرعي. وترفض صوفيا الزواج من هذا المنافق الشاب، ويصر أبوها، وتكد المعركة الناشبة بين إرادة الأب

صفحة رقم : 11878

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

ودموع ابنته عدة مجلدات. أما توم فيبتعد محجماً، ويدعهم يفاجئونه في أبكة ومولي بين ذراعيه، وتظهر صوفيا في هذا المشهد فتقع مغشياً عليها. ويترد أولوردي توم كارها، فيبدأ هذا أسفاره الحافلة بالأحداث، التي بدونها كان عسيراً على فيلدنج أن يكتب رواية، إذ كان لا يزال مقلداً لسرفانتس ولساج. ويظل قلبه مع صوفيا الكسيرة الخاطر، ولكن وقد ظن أنه فقدها إلى الأبد ينزلق إلى فراش المسز ووترز. وبعد شدائد كثيرة، وتعقيدات لا تصدق، يصفح عنه أولوردي، ويحل محل بلايفل وريثاً له، ويصلح ذات البين مع صوفيا الخجول الصفوح، ويرحب به سكوابر وسترن صهراً له ترحيباً صادقا مع أنه كان قبل أسبوع على أهبة قتله. ويتعجل وسترن الخاتمة الآن فيقول:

"إليها يا بني، إليها، أمض إليها.. هل انتهى كل شيء؟ هل حددت اليوم يا فتى؟ ماذا، أكون غداً أم بعد؟ لن أرضي بالتأجيل دقيقة أكثر من بعد غد... يمينا أنها لتود من كل قلبها أن تزف الليلة، أليس كذلك يا صوفي؟... أين بالله أولوردي؟ اسمع يا أولوردي، أراهن خمسة جنيهات لكراون أن سيولد لنا صبي بعد تسعة أشهر من غد" (95).

إن أحداً لم يصف الحياة الإنجليزية منذ شكسبير بمثل هذه الخصوبة أو الصراحة. ذلك أن أوصافهم لا تشمل كل جوانب تلك الحياة؛ ونحن نفتقد فيها الرقة والوفاء والبطولة والمجاملات والعاطفة-هذه التي توجد في أي مجتمع. أما فيلدنج فأثر رجل الغريزة عن رجل الفكر. واحتقر مهذبي الكتب ومطهريها الذين حاولوا في زمانه أن ينفقوا تشوسر وشكسبير، كما احتقر الشعراء والنقاد الذين ظنوا أن الأدب الجاد يجب ألا يتناول غير عليية القوم. وفهم الحب بين الجنسين على أنه حب جسدي، وأحال نواحيه الأخرى إلى دنيا الأوهام. واحتقر جنون المال الذي لحظه في كل طبقة، وكره الدجل والنفاق كرهاً شديداً. ولم يرحم الوعاط، ولكنه أحب القس أدمز، والبطل الوحيد في "أميليا" هو الدكتور هاريسن، وهو قس أنجليكاني؛ وكان فيلدنج نفسه يعظ في كل مناسبة من رواياته. وبعد أن نشر توم جونز جرد قلمه لحظة لتناول المشكلات التي

صفحة رقم : 11879

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

كابدها في عمله قاضياً. وكانت تجربته تواجهه كل يوم بما في لندن من عنف وإجرام. فاقترح وسائل لتشديد حراسة الأمن العام وتصريف القضاء. ويفضل جهوده، وجهود السر جون فيلدنج، وأخيه لأبيه، الذي خلفه قاضياً في شارع بو، قضي على عصابة بثت الرعب في لندن، وشنق كل أفرادها تقريباً. وذكر متقائل في 1757 أن "الشر المسيطر، شر سرقات الشوارع، قد قمع كلية تقريباً(96)".

في هذه الأثناء كان هنري قد نشر آخر رواياته "أميليا" (ديسمبر 1751). أنه لم يستطع نسيان زوجته الأولى، ولقد نسي أن يعيب ربما شابتها، فأقام الآن لذكرها أثراً صورها فيه الزوجة الكاملة لجندي مبذر قصير النظر. فالكابتن بوث رجل لطيف شجاع كريم، وهو يعبد زوجته أميليا، ولكنه يقامر حتى يتردى في الدين، ويبدأ الكتاب بالكابتن في السجن. وهو يستغرق مائة صفحة يقص فيها قصته على نزيلة أخرى هي الأنسة ماثيوز؛ يفصل لها جمال زوجته وتواضعها ووفاءها وحنانها وغير ذلك من صفاتها المثالية، ثم يقبل دعوة الأنسة ماثيوز له أن يشاركها فراشها، وينفق "أسبوعاً كاملاً في هذا الحديث المجرم(97)". وفي مشاهد السجن هذه وغيرها من المشاهد اللاحقة، يفضح فيلدنج، ربما في شيء من المغالاة، نفاق الرجال والنساء وفساد الشرطة والقضاء ووحشية المساجين. ويجد القارئ هنا وصف سجون المدينين التي ستعمر قرناً آخر لتثير سخط دكنز. ويستطيع القاضي تراشر أن يعرف جريمة سجين من لهجته الإيرلندية، "يا غلام، لسانك يشي بذنوبك. فأنت إيرلندي، وهذا دائماً دليل كاف في نظري(98)". ويتصاعد عدد الأوعاد مع كل فصل، حتى تصرخ أميليا لأبنائها الذين عضهم الفقر قائلة "سامحوني لأنني أتيت بكم إلى هذه الدنيا(99)".

وأميليا، مثل جريزدا، هي المثل الأعلى للمرأة الصبور كما تخيله فيلدنج. يكسر أنفها في أحد الفصول الأولى، ولكن جراحة الأنف تصلحه، وتعود جميلة جمالاً يغري بمحاولة العدوان على عرضها مرة في كل فصلين تقريباً. وهي تسلّم بقصورها الفكري عن زوجها وتطيعه في كل شيء، إلا أنها ترفض الذهاب إلى حفلة تنكرية؛ وتحضر

صفحة رقم : 11880

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

لحناً دينياً (أوراتوريو)، ولكنها تتعرض في تعريض نفسها لنظرات العابثين في فوكسهول. فإذا عاد بوث إليها بعد إحدى مغامراته الطائشة وجدها "تؤدي عمل الطاهي باللذة التي تستشعرها سيدة راقية في ارتداء ثيابها استعداداً لحفلة رقص (100)". وتتلقى رسالة من الأنسة ماثيوز اللئيمة نش فيها بخيانة بوث لزوجته في السجن، فتمزق الرسالة وتكتم خبرها عن زوجها، وتظل تحبه رغم كل سكره وقماره وديونه وسجنه، وتبيع حليها الضئيلة الثمن، ثم ملابسها، لتطعمها وتطعم أطفالها. ولا تقف في عضدها أخطاؤه بقدر ما تقف فيه قسوة الرجال والأنظمة التي توقعه في شباكها. فلقد كان فيلدنغ، شأنه في ذلك شأن روسو وهلفتيوس، يرى أن أكثر الناس طيبون بفطرتهم، وإن ما يفسدهم هو البيئات الشريرة والقوانين السيئة. وعند تاكري أن أميليا "أكثر الشخصيات فتنة في القصص الإنجليزي (101)". ولكن ربما لم تكن سوى حلم زوج. وفي النهاية تصبح أميليا بطبيعة الحال وارثة، وتعتزل هي وبوثة في ضيعتها، ويستقيم حال بوثة.

أما خاتمة الرواية فلا تكاد تبررها مقدماتها؛ فيوث يبقى بوثة على الدوام. ولقد حاول فيلدنغ أن يربط كل عقد حيكته في وحدة سعيدة، ولكن خفة يده هنا مكشوفة جداً، فلقد أدرك التعب هذا الروائي الفحل، وأثار تقززه جو اللصوص والقتلة الذي أحاط به. كتب بعد أن فزع من أميليا يقول "لن أزعج العالم بعد اليوم بمزيد من أطفال الذين تلدهم لي ربة الأدب ذاتها". وفي يناير 1752 بدأ "مجلة كوفنت جاردن"، وكتب بعض المقالات القوية، ورد على نقد سمولت، وصوب طلقه إلى روايته "رودريك راندوم"، وفي نوفمبر ترك المجلة تموت. وكان شتاء 1753-54 أقسى من أن يحتمله بدنه الذي هذه العمل والاستسقاء والصفراء والربو. وجرب ماء القار الذي نصبح به الأسقف باركلي، ولكن الاستسقاء استعجل، وأشار عليه طبيبة بالسفر إلى بلد أدياً. ففي يونيو 1754 استقل سفينة تدعى "ملكة البرتغال" مع زوجته وابنته. وفي الطريق كتب "يوميات رحلة إلى لشبونة"، وهي من أطف ما كتب. ومات في لشبونة في 8 أكتوبر 1754، ودفن هناك في الجبانة الإنجليزية.

صفحة رقم : 11881

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

فما الذي أنجزه؟ لقد أرسى دعائم رواية السلوك الواقعية؛ ووصف حياة الطبقات الوسطى الإنجليزية وصفاً أنصع من أي وصف أتى به مؤرخ، وفتحت كتبه عالماً بأسره. ولكنه لم ينجح مثل هذا النجاح في الطبقات العليا، وكان عليه أن يقتنع في هذا الميدان، كما قنع رنشاردنسن، بنظرة الدخيل. ولقد عرف من حياة وطنه الجسد خيراً مما عرف الروح، ومن الحب جسده خيراً مما عرف روحه، وغابت عنه مقومات الخلق الإنجليزي الأكثر رهافة وخفاء. ومع ذلك فقد ترك بصمته على سمولت، وستيرون، ودكنز، وتاكري؛ لقد كان أباً لهم أجمعين.

جـ- طوبياس سمولت

لم يكن سمولت يحبه، لأنهما تنافسا على استحسان القراء في الميدان نفسه. وكان أصغر الرجلين اسكتلندياً وافق هيوم على التحسر لأن إنجلترا عاقت الطريق إلى فرنسا. ولكن جده كان قد شجع الاتحاد البرلماني مع إنجلترا عملياً (1707)، وكان عضواً في البرلمان المتحد. ومات الأب وطوبياس في الثانية من عمره، ولكن الأسرة أنفقت على تعليم الصبي في مدرسة دمبرتون الثانوية وفي جامعة جلاسجو حيث درس المقررات الممهدة لدراسة الطب. ولكنه بدلاً من أن يواصل الدرس حتى يحصل على درجته الطبية أدركته عدوى الكتابة، وهرع إلى لندن وجاريك، يحمل مأساة ضعيفة ألفها، ورفضها جاريك. وبعد أن جاع طوبياس فترة قصيرة التحق مساعداً لجراح في البارجة "كمبرلاند" وأبحر معها (1740) في الحرب التي نشبت مع أسبانيا بسبب "أذن جنكينز". واشترك في الهجوم الأخرق على قرطاجنة المواجهة لساحل كولومبيا. وفي جيكا ترك الخدمة، وهناك التقى بنانسي لاسيل التي تزوج عقب عودته (1744) إلى إنجلترا. وسكن بيتاً في داوننج ستريت ومارس الجراحة، ولكن شهوة الكتابة غلبته، وكانت تجاربه في البحرية تطالبه على الأقل بقصة واحدة. لذلك نشر أشهر رواياته في سنة 1748.

أما هذه الرواية، واسمها "مغامرات رودريك راندوم"، فهي

صفحة رقم : 11882

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

رومانسية التشرد القديمة، الحافلة بالأحداث الدائرة حول إحدى الشخصيات. ولم يعترف سمولت بأي فضل لفيلدنج، ولكنه اعترف بالفضل الكبير لسرفانتيس ولساج. وقد شده البشر وأفعالهم أكثر مما شدته الكتب والألفاظ، فحشد قصته بالأحداث وأضفى عليها نثانة الأقدار ولون الدماء، وملأها ناساً تفوح منهم رائحة الشخصية والحديث الفحل. وهذه الرواية من أقدم وأفضل مئات الروايات الإنجليزية التي كتبت عن البحر. ولكن قبل أن يجند رودريك في البحرية يختبر كما اختبر صانعه-عينات من الفنادق الإنجليزية والأخلاق اللندنية. وما أكثر ما افتقدناه لأننا لم نجرب السفر في مركبات القرن الثامن عشر تلك والنزول في تلك الفنادق! مسرح حافل بالأنفس المصطرعة والجنود المحتضرين، والقوادين والمومسات، والباعة الجوالين يحملون حزمهم ويخفون نقودهم، والرجال يقبلون المياول بحثاً عن الفراش الخطأ، والنساء يصرخن مستغيثات من مغتصب ثم تسكتهن النقود، وكل صعلوك يتظاهر بالعظمة، وكل إنسان يسب ويشتم. فالآنسة جني تخاطب البائع الجوال قائلة "أنت أيها الفاسق العريق في الزنا مائة في المائة" وتسال الكابتن "لعلك الله يا سيدي، من أنت؟ ومن جعلك كابتناً أيها المتملق، القواد، كناس الخنادق الحقير؟ تبا لك! وويل للجيش إذا كان أمثالك من ضباطه(102)".

وفي لندن يصبح رودريك (وهو هنا= سمولت) مساعداً لصيدلاني. وبفلت من الزواج حين يجد خطيبته في الفراش مع رجل آخر. "لقد أعطتني السماء من الصبر وحضور الذهن ما جعلني أنسحب فوراً، وشكرت حظي ألف مرة على هذا الكشف السعيد الذي عولت على الإفادة منه فأكف عن كل تفكير في الزواج مستقبلاً(103)" وهو يقع بحياة الفسق، ويطلع على حياة البغايا وبلاويهن، ويعالج أمراضهن، ويندد بالدجاجلة الذين يبتزون مالهن، ويلاحظ أن المومس "مع كثرة شكوى الناس من أنها مصدر إزعاج نقلت من العقب بفضل مالها من نفوذ على القضاة، الذين تدفع لهم هي وجميع من يعملن في خدمتها تبرعات ربع سنوية لقاء حمايتهن(104)".

ثم يفقد وظيفته لاتهامه باطلاً بالسرقة، ويتردى في مهاوي الفاقة حتى "لم أجد ملجأ ألوذ به غر الجيش والبحرية". ويعفيه من

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

عذاب اتخاذ القرار عصابة لجمع المجندين بالقوة، تصرعه على الأرض فاقد الوعي وتجره إلى متن سفينة صاحب الجلالة "تندر". ويستسلم لمصيره، ويصبح ضابطاً جراحاً. وبعد يوم واحد في البحر يدرك أن الكابتن أوكم ليس إلا وحشاً نصف مجنون، يلزم البحارة المرضى بالعمل ضناً منه بالمال حتى يموتوا. ويقاثل رودريك في قرطاجنة وتتحطم به السفينة، فيسبح إلى بر جيكا، ويصبح خادماً لشاعرة عجوز عليلية، ويقع "في حب" ابنة أخيها نارسيسا، "وداعيته الأحلام بأنه سيستمتع يوماً ما بهذه المخلوقة اللطيفة (105)". وهكذا تجري القصة في تدفق سمولت اللاهث، بفقرات تتصل الواحدة منها ثلاث صفحات، في لغة بسيطة قوية بديئة. وفي لندن يصادق رودريك مجموعة جديدة من الأصدقاء الغربي الأتوار، بما فيهم الأنسة ميلندا جوستراب والأنسة بدي جرابويل. ثم يمضي إلى باث بمزيد من مناظر مركبات السفر؛ هناك يلتقي بنارسيسا الحلوة ويظفر بمحبته له، ثم يفقدها، ويشتبك في مبارزة... ويعود إلى البحرية جراحاً، ويبحر إلى غينيا (حيث "يشترى" قبطان سفينة أربعمائة عبد ليبيعه في بارجواي "بريح كبير")، ثم يعود إلى جيكا، حيث يجد أباه الذي فقده منذ أمد طويل وأصبح الآن ميسور الحال، ويعود إلى أوربا ثم إلى نارسيسا، فيبتزوجان ويعود بها إلى إسكتلندا وضيعة أبيه؛ أما نارسيسا "فببداً خصرها يستدبر بشكل ملحوظ". وأما رودريك: "فإذا كان على الأرض شيء يسمى السعادة الحققة فأني استمتع بها. لقد سكتت الآن اضطرابات عاطفتي العاصفة ولانت في حنان الحب وهدوئه، بعد أن رسخ جذورها ذلك الاتصال الحميم والتعاطف القلبي الذي لا يوجد به غير رباط الزوجية الطاهر".

وراجت رواية رودريك راندوم. وأصر سمولت الآن على نشر مسرحيته "قاتل الملك" مشفوعة بمقدمة محق فيها أولئك الذين رفضوها من قبل؛ وقد دأب على أن يطلق العنان لطبعه الحاد في خلق الأعداء. وذهب إلى أبردين في 1750 وتسلم درجة الطب، ولكن شخصيته كانت عقبة في طريق مارسه الطب، فانكفأ إلى الأدب. وفي 1751 أصدر "مغامرات بريجرين بيكل". وهنا، كما في راندوم، دعا العنوان

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

القارئ لجولة من الأحداث المثيرة في حياة جوايه؛ ولكن سمولت وقع الآن على عرق من الفكاهة اللاذعة في أنجح شخوصه، ذلك هو الكومودور ترنيون، الذي يصفه بأنه "سيد من طراز غاية في الغرابة" كان "مقاتلاً مغواراً في زمانه، وفقد عيناً وعقباً في الخدمة العسكرية (106)". وهو يصير على أن يقص للمرة التاسعة كيف قصف بالمدافع بارجة فرنسية تجاه رأس فنستير. ويأمر خادمه توم بابير بأن يؤمن على كلامه، وهنا "فتح توم فمه كأنه سمكة" قد

لاهثة، وبإيقاع أشبع بعصف الريح الشرقية تصفي في شق " فاه بالتأييد المطلوب (وقد رأى فيه ستيرن هنا آثاراً طفيفة من العم توبي والجوايش تريم).

ويواصل سمولت مرحة خلال وصف صاخب لمسز جريزل وهي تخطب ود الكومودور الذي يتوسل إليه مساعده ذو الساق الواحدة، جاك هانشواي، ألا يسمح لها بأن "تجره تحت مؤخر سفينتها" لأنها "متى أحكمت وثاقك إلى مؤخرها، انطلقت والله حثيثاً، وجعلت كل عرق من عروق جسدك ينشق من الشد". ويظمنه الكومودور قائلاً "لن يرى إنسان هوسر ترنيون طريحاً في مؤخر السفينة في ذيل أي في العالم المسيحي(107)" على أن مختلف الخطط والمكائد تحطم عفته؛ فيوافق على أن "يثبت مركبه بمرساة" أي يتزوج، ولكنه يمضي إلى رباط الزوجية "كمجرم ماض إلى إعدامه... وكأنه يخشى في كل لحظة من تحلل عناصر الطبيعة". ويصر على أن يكون فراش زواجه أرجوحة شبكية، فتنهار تحت ثقل الجسدين، ولكن هذا لم يقع إلا بعد أن "ظنت السيدة أن هدفها العظيم قد تحقق، وسلطانها أصبح مكفولاً أمام جميع صدمات الحظ". على أن هذا التلاحم بين جسدين ينتهي بغير ثمر، فتنكفي المسز ترنيون إلى البرندي و "فروض الدين التي راحت تؤديها بصرامة تفيض حقداً".

وقد صور السر ولتر سكوت سمولت في أربعيناته بأنه "وسيم جداً، جذاب الملامح، وحديثه يشهادة كل أصدقائه الباقين على قيد الحياة منير ومسل على أبعد حد(108)". وأجمع الناس على أنه رجل حاد الطبع في حديثه. قال يصف السر تشارلز نولز أنه "أميرال بغير إرادة، ومهندس بغير معرفة، وضابط بغير عزيمة، ورجل بغير

صفحة رقم : 11885

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

السجن ثلاثة أشهر، وغرامة قدرها مائة جنيه (1757). على أن حدة طبعه كانت ترافقها فضائل كثيرة، فقد كان كريماً رحيماً، أعان فقراء المؤلفين، وأصبح كما قال السر ولتر "أباً شديد التعلق بأبنائه، وزوجاً محباً لزوجته(110)". وكان منزله في لورنس لين بحي تشلسي ملنقى لصغار الكتاب الذين كانوا يصيبون من طعامه وإن لم يتبعوا نصائحه؛ وقد نظم بعضهم في فرقة من المساعدين الأدبيين. وكان رانداً بين الناشرين (ودرايدن بين الشعراء)؟ في إلزامه تجار الكتب بتأبيده في شرط يليق بعقريته. وكان أحياناً يكسب ستمائة جنيه في العام، ولكن كان عليه أن يكسب ويكدح ليكسبها. وكتب ثلاث روايات أخرى، اثنتان منها لا تستحقان الذكر. وأقنع جاريك بأن يخرج تمثيلته "العقاب"، التي نجحت بفضل هجمات على فرنسا؛ ثم كتب لعدة مجلات مقالات تتسم بروح التحرش والمشاكسة؛ ورأس تحرير صحيفة "البريطاني" لسان حال المحافظين. وترجم جيل بلاسي، و عدة مؤلفات لفولتير، ودون كخوته (مستعيناً بترجمة سابقة)، وكتب أو أشرف على كتابة تاريخ لإنجلترا من تسعة مجلدات (1757-65). ومن المؤكد أنه استخدم "مصنعه الأدبي" المؤلف من الكتاب المأجورين في جراب ستريت ليصنف "تاريخاً للعالم" وكتاباً ذات ثمانية مجلدات اسمه "الحالة الراهنة للأمم".

وحين بلغ الثانية والأربعين عام 1763، كان قد دفع باعتلال صحته ثمن حياته المتطلعة، الحافلة بالمغامرة والجهد والشجار والكلام. ونصح طبيبه بأن يستشير أخصائياً في مونبلييه يدعى الدكتور فيز. فمضي إليه، وأخبر الأخصائي أن ربوه، وسعاله، وبصاقه الصديدي، دليل على إصابته بالسل، واذكره العودة إلى رطوبة إنجلترا وخضرتها، فقد ظل عامين في القارة، يغطي نفقاته بكتابة "رحلات في فرنسا وإيطاليا" (1766)، وقد أبدى هنا، كما أبدى في رواياته، تلك النظرة الحادة اللامحة التي ترى سمات خلق الأفراد والأمم ومميزاته؛ ولكنه تيل أوصافه بالثنائيم الصريحة. وأخبر سائقي مركبات السفر، وزملاءه المسافرين، وأصحاب الفنادق، والخدم، والأجانب المتحمسين لأوطانهم، رأيه فيهم دون مواربة؛ واعترض على كل فاتورة حساب، وحطم الفن الفرنسي والإيطالي، وسخر من الكاثوليكية، وحكم على

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

الفرنسيين بأنهم لصوص جشعون لا يغفلون دائماً سرقاتهم بغلاف من الأدب والكياسة. استمع إليه يقول:
 "لو أن فرنسا أدخل إلى أسرتك.. لكان أول رد له على مجاملاتك أن يطرح زوجته الغرام إذا كانت جميلة؛ وإلا فأختك، أو ابنتك، أو ابنة أخيك أو أختك... أو جدتك... فإذا كشف أمره... صرح في صفاقة بأن ما صنعه لم يكن سوى تودد لا غبار عليه، مما يعد في فرنسا من مقومات التربية الحسنة(111)".
 وعاد سمولت إلى إنجلترا وقد تحسنت صحته كثيراً، ولكن عله عاودته في 1768، فحاول الاستشفاء في باث. غير أنه وجد مياهها عديمة الجدوى له، وهواءها الرطب خطراً عليه؛ وفي 1769 عاد إلى إيطاليا. وفي فيللا قرب لجهورن كتب آخر كتبه وأفضلها وهو "رحلة همفري كلنكر" وفي رأي تاكري أنه "أفكه قصة كتبت منذ ذلك الفن الجميل، فن كتابة الروايات(112)". وهو ولا شك أمتع وأطف كتب سملت إذا استطعنا أن نطيق شيئاً من القدر. وفي مطلع القصة تقريباً نلتقي بالدكتور-الذي يتحدث عن الروائح "الطيبة" أو "الخبیثة" باعتبارها ميولاً ذاتية خالصة" لأن كل شخص يزعم أنه يتقزز من رائحة إفرازات شخص آخر يستنشق رائحة إفرازاته هو برضا تام، وقد ناشد جميع الحاضرين من السيدات والسادة هناك أن يشهدوا على صدق قوله(113)"، وبلي ذلك صفحة أو اثنتان من شروح أشد لذة وحرافة حتى من هذه. وبعد أن تخفف سمولت من هذه اللقمة، عمد إلى اختراع سلسلة مرحلة من الشخص، يواصلون الحكاية بخطاباتهم في أسلوب غاية في العجب والإمتاع، وعلى رأسهم ماثيو برامبل وهو "سيد عجوز" وعزب عصي، ينطقه سمولت بأرائه. وهو يذهب إلى باث للاستشفاء، ولكنه يجد خبث رائحة مياهها أشد وقعاً في نفسه من قوتها الشافية. وهو يكره زحام الجماهير، ويغنى عليه مرة من رائحتهم المتجمعة، ولا يطيق هواء لندن الملوث، أو أظمتها المغشوشة. يقول:
 "إن الخبز الذي أكله في لندن عجيب مؤذ اختلط بين الجير والشب

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

ورماد العظام؛ غث المذاق مدمر للجسم. ولا يجهل القوم الطيبون هذا الغش ولكنهم يفضلونه على الخبز الصحي، لأنه أكثر بياضاً... وهكذا يضحون بمذاقهم وصحتهم... والطحان أو الخباز مضطر إلى تسميمهم... ومثل هذا الفساد الشديد يظهر في لحم العجول الذي يأكلونه، والذي يبيضون لونه باستنزاف دمه مراراً وتكراراً، وبغير هذا من الوسائل الخبيثة؛ وقياساً على هذا يصح للمرء أن يتناول غذاءه بمثل هذا الاطمئنان من قطعة محمرة من قفاز جلد الماعز... ولن تصدقوا أن الجنون بلغ بهم أن يسلقوا خضرهم ومعها قطع نحاسية من نصف البنس لينضروا لونها(114)".

وعليه يهرع ماثيو عانداً إلى ضيعته الريفية، حيث يستطيع أن يتنفس ويأكل دون أن يعرض حياته للخطر. وفي طريقه إليها، بعد أن انتهى ربع القصة، يلتقط غلاماً ريفياً فقيراً في أسمال بالية يدعة همفري كلنكر "كانت نظراته تنبئ بالجوع، ولم تكذ الخرق التي يلبسها تستر ما يقتضي اللياقة إخفاءه". ويعرض هذا الصعلوك أن يسوق العربية، ولكن حين يتربع على مقعد السائق العالي تتشق سراويله العتيقة، وتشكو المسز طابيتا برامبل (أخت ماثيو) من أن همفري "جرؤ على أن يؤذي بصرها بإبداء أردافه العارية". ويكسو ماثيو الصبي، ويلحقه بخدمته، ويحتمله بصبر حتى حين يصبح الفتى واعظاً مثودياً عقب سماعه جورج هوإتفيلد.

ويبدو جانب آخر من الموقف الديني في المستر-الذي يقابله برامبل في سكاربرو، والذي يفاخر بأنه تحدث إلى فولتير في جنيف "عن تسديد اللطمة القاضية لخرافة المسيحية(115)" ويدخل خارجي آخر اسمه الكابتن لزمهاها جو القصة في درم-"رجل طويل هزيل، يتفق مظهره هو وحصانه مع وصف دون كخوته ممتطياً جواده روزنانتى". وقد عاش بين هنود أمريكا الشمالية، وهو يقص في لذة كيف أن هؤلاء الهنود قد شؤوا على النار مرسلين فرنسيين لقولهما أن الله سمح لابنه "أن يدخل أحشاء امرأة، ويعدم كما يعدم المجرمون"، ولأنهما زعما أنهما يستطيعان "تكثير الله إلى ما لا نهاية بالاستعانة بقليل من الدقيق والماء" وكان لزمهاهاجو "يكثر استعمال ألفاظ مثل

صفحة رقم : 11888

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الرواية

العقل، والفلسفة، وتناقض الحدود؛ وقد أنكر خلود نار الجحيم. بل كذب بعض مفرقاته عقيدة خلود الروح كذفاً شيط شوارب إيمان السيدة طابيتا قليلاً(116)".

ولم يكتب لسمولت أن يرى "همفري كلنكر" مطبوعة. ففي 17 سبتمبر 1771 مات في فيلته الإيطالية غير متجاوز الخمسين، بعد أن خلق من الأعداء والشخصيات الحية أكثر مما خلقه أي كاتب آخر في زمانه. ونحن نفتقد فيه ما نجده في فيلدنج من ابتهاج وتقبل صحي للحياة وبناء للحبكة فيه جهد وعناية، غير أن في سمولت حيوية عارمة، وفيه رنين ورائحة مدن بريطانيا ومراكبها وطبقتها الوسطى، وحكايته ذات الأحداث المترابطة البسيطة تندفق بحرية وحيوية أكثر دون أن يعوقها عائق من المواعظ.. ورسم الشخصيات أقل لفتاً للنظر في فيلدنج، ولكنه أكثر تعقيداً. وكثيراً ما يقنع سمولت بتكديس السمات المميزة للأفراد بدلاً من ارتياده للتناقضات والشكوك والتجارب التي تصنع الشخصية. وهذا الأسلوب في تمييز الأفراد بالمبالغة في خصيصة ما باعتبارها "لازمة" في كل شخص-انتقل إلى دكنز، الذي واصل بمذكرات بكوك الرحلة التي بدأها ماثيو برامبل.

هؤلاء الكتاب-تشردين وفيلدنج وسمولت-إذا أخذناهم معاً، وجدناهم يصفون إنجلترا منتصف القرن الثامن عشر وصفاً أكمل وأدق من أي وصف أتى به مؤرخ أو جميع المؤرخين-الذين يضلون طريقهم وسط الشذوذات. فكل شيء موجود هنا، إلا تلك الطبقة العليا التي أخذت عن فرنسا عاداتها ومستعمراتها. هؤلاء الروائيون أدخلوا الطبقات الوسطى دخول الظافرين إلى ميدان الأدب، كما أدخلهم ليللو إلى الدراما، وجاي إلى الأوبرا، وهو جارت إلى التصوير. لقد خلقوا الرواية الحديثة وتركوها تراثاً لا يباري.

صفحة رقم : 11889

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

6- الليدي ماري

بهذا اللقب ألفت إنجلترا أن تلقب ألمع الإنجليزيات في جيلها، المرأة التي دخلت تاريخ الآداب والعادات بهجومها على التقاليد التي حبست جنسها، ودخلت تاريخ آداب اللغة بكتابتها رسائل تنافس رسائل مدم دسفينيه.

صفحة رقم : 11890

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

وقد حظيت بطروف مواتية للانطلاق؛ فهي حفيدة السر جون إيفلين، وابنه إيفلين بييربونت الذي انتخب عضواً بالبرلمان سنة مولدها (1689)، والذي ورث عقب ذلك ضيعة غنية ولقب إيرل كنجرتن، ومن هنا لقيت ابنته بـ "ليدي ماري" منذ طفولتها. أما أمها، الليدي ماري فيلدنج، كان أبوها إيرلاً، وابن عمها هو الروائي المعروف. وماتت الأم وبطلتنا لا تتجاوز الرابعة من عمرها. وأرسل الأب أطفاله إلى أمه لتكفلهم، فلما ماتت عادوا إلى مقره الريفي المترف، ثورزبي بارك، في مقاطعة نوتنجهامشير، وكانوا يعيشون أحياناً في منزله اللندني في بيكاديلي. وكان شديد التعلق بماري التي اختارها "نخباً" (أي شخصاً يشرب نخبه) للعام في نادي الكيت كات؛ هناك كانت تنتقل من حج إلى حجر، وتبدي ذكاءها في شيطنة. وقد علمت نفسها في مكتبة أبيها بمعاونة مربيتها، فكانتا تتفقدان هناك أحياناً ثماني ساعات في اليوم، تستوعبان الرومانسيات الفرنسية، والتمثيلات الإنجليزية. والتقطت بعض الفرنسية والإيطالية، وعلمت نفسها اللاتينية بالاستعانة بـ "تحولات" الشاعر أوفيد. وكان أديسون وستيل وكونجريف يخلّفون إلى البيت، ويشجعونها على الدرس، ويحفزون ذهنها المتطلع. ونحن نعرف، من مصدر وحيد هو مصدرها هي، أن إمامها بالآداب اللاتينية هو الذي جذب إليها اهتمام إدوارد ورتلي.

وكان حفيداً لإدوارد مونتاجيو، أول إيرل لساندوتش، واتخذ أبوه سني مونتاجيو اسم ورتلي عند زواجه بوارثة ذلك اللقب. وكان إدوارد حين التقى بماري (1708) -وهو في الثلاثين- رجلاً ذا شأن وتطلعات كبيرة، تزود بتعليم جامعي، ودعي لاحتراف المحاماة في الحادية والعشرين، وظفر بكرسي في البرلمان وهو في السابعة والعشرين. وهو لا يدري كيف بدأ توددها إليه، ولكن هذا التودد أحرز شيئاً من التقدم، لأنها اكتنبت له في 28 مارس 1710 تقول: "اسمح لي بأن أقول هذا وأنا عليمة بأن قولي قد يبدو غروراً، وهو أنني أعرف كيف أسعد رجلاً معقولاً؛ ولكن على ذلك الرجل... أن يسهم هو نفسه بشيء في هذا... وهذه الرسالة... هي أولى رسالة كتبتها في حياتي لإنسان من جنسك، وستكون الأخيرة. فعليك ألا تتوقع رسالة أخرى على الإطلاق(117)".

صفحة رقم : 11891

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

وأفلحت استراتيجتها المتأنية. فلما مرضت بالحصبة أرسل إليها رسالة قصيرة كانت أحر مما ألف أن يرسل: "كان يفرحني كثيراً أن أسمع بن حسنك قد أؤدي جداً لو كنت أسر بأي شيء يسوءك، لأن من شأن هذا أن يقلل عدد المعجبين بك(118)". ودفع جوابها حملتها خطوة أخرى "إنك تظن أنني لو تزوجتني سأهيم بحبك شهراً، ويحب آخر في الشهر التالي، ولكن لن يحدث هذا ولا ذلك. ففي استطاعتي أن أقدر إنساناً، وأن أكون صديقة لإنسان، ولكنني لا أدري أستطيع أن أعشق(119)". ولعل هذه الصراحة جعلته يترى، لأنها كتبت في نوفمبر "تقول إنك لم تستقر على رأي بعد، فدعني أقرر نيابة عنك، وأعفيك من مشقة الكتابة ثانية. وداعاً على الأبد! لا ترد(120)". وعادت تكتب في فبراير 1711 لتقول له "هذه آخر رسالة أبعث بها(121)". واستأنف تودده إليها، فتقهقرت، وأغرته بالمطاردة الحثيثة. وتدخلت الاعتبارات المالية واعتراض الأب، فدبرا الهرب، وإن كان معنى هذا ألا تتوقع مهراً من أبيها. وأندرت ورتلي إنذاراً أميناً "فكر الآن لآخر مرة بأي طريقة يجب أن تأخذني. سأحضر إليك بقميص نومي وتورتلي، وذلك كل ما ستحصل عليه معي(122)" والتقيا في نزل، وتزوجا في أغسطس 1721، وبعدها لقت بالليدي ماري ورتلي مونتاجيو، هذا الاسم الأخير اتخذته من نسب زوجها، ولكن لما كان ابناً لابن ثان للأسرة (غير البكر)، فقد ظل اسمه إدوارد ورتلي دون ألقاب شرف.

وما لبثت دواعي العمل والسياسة أن نقلته إلى درم ولندن، بينما تركها بدخل متواضع جداً في عدة بيوت في الريف وانتظاراً لوصول وليدها. وفي أبريل لحقت بورتلي في لندن، وهناك ولد طفلها الأول في شهر مايو. على أن سعادتها كانت قصيرة الأجل، فقد رحل زوجها سعيًا لإعادة انتخابه في البرلمان، وما لبثت أن أخذت تشكو الوحدة؛ لقد تطلعت إلى شهر عسل حالم، وتطلع هو إلى مقعد في البرلمان جديد. وأخفقت حملته الغالية التكلفة، ولكنه عين عضو لجنة صغيراً. واستأجر بيتاً قرب قصر سانت جيمس، وهناك، في يناير 1715، بدأت الليدي ماري غزوها للندن.

صفحة رقم : 11892

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

وقد خبرت فيها دوامة الحياة الاجتماعية. فكانت تستضيف الأصحاب أيام الاثنين، وتختلف إلى الأوبرا أيام الأربعاء، وإلى المسرح أيام الخميس. وتزور وتزار، وتترفف حول بلاط جورج الأول، ومع ذلك ظفرت برضي الأميرة كارولين. وصادقت الشعراء، وتبادلن النكت الذكية مع بوب وجاي. وافتتن بوب ببديعتها الحاضرة، ونسي لحظة احتقاره للجنس الأنعم، وصفق لجهودها في تعليم البنات، وأهداها بعض قوافيه التي نظمها في هرولة:

"في الحسن أو الذكاء

لم يجرؤ بشر بعد

أن يشك في علو كعبك،

ولكن من الرجال ذوي الفطنة

من رأي أن التسليم لسيدة

في أمور العلم أمر عسير.

إن المدارس الوقحة،

بقوا عدها الغيبة البالية،

أنكرت التعليم على الإناث،

وكذلك ينكر البابويون

على الناس قراءة الكتاب المقدس

مخافة أن تغدو الرعية حكيمة كراعيها.

إن المرأة كانت أول

من ذاق لذة المعرفة

(رغم أنها لعنت)

ويجمع الحكماء

على أن القوانين يجب أن تقضي

بالحق لأول مالك.

إذن فاستأنفي أيتها السيدة الحسنة

في جرأة ذلك الحق القديم

صفحة رقم : 11893

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

الذي هو مطلب جنسك كله؛

واجعلي الرجال يتلقون

على يد حواء ثانية ذكية

معرفة الخير والشر.

ولكن إذا كانت حواء الأولى

قد عوقبت عقاباً صارماً

لأنها لم تقطف غير تفاحة واحدة،

فأي عقاب جديد

يقضي به عليك،

يا من سرقت الشجرة كلها بعد أن ذقت حلاوتها(123)؟"

وكتب جاي الآن نشيداً رعوياً سماه "التبرج" هجا فيه بعض أعلام لندن تحت أسماء زائفة شفافة. وشاركت الليدي ماري في هذه اللعبة. وبمساعدة بوب وجاي نظمت نشيدين رعويين نافست أبياتهما الزوجية البتارة أبيات الشعارين رشاقة ولذعاً. ولم تنشر هاتين القصيدتين، ولكنها سمحت بتداول نسخ مخطوطة منهما بين الأصدقاء واكتسبت الآن شهرة بأنها قريع بوب بين النساء، امرأة تحذق فنون القلم والقوافي والسخرية الموجهة. على أنها في ديسمبر 1715 كابدت لكمة أوجع من سهامها. ذلك أن الجدري الذي قتل من قبل أخاها هاجمها هجوماً قاسياً حتى شاع أنها ماتت. وقد نجت من الموت، ولكن وجهها تشوه ببثور الجدري، ورموشها سقطت، ولم يبق غير عينيها السوداوين النجلاوين أثراً من ذلك الجمال الذي اعتمدت عليه في دفع زوجها إلى الأمام. ومع ذلك ظفر ورتلي بالمكافأة، ففي أبريل 1716 عين "سفيراً فوق العادة" في البلاط العثماني، وابتهجت الليدي ماري، فلقد حملت بالشرق مرتعاً للأحلام والشعر، وحتى وهي في صحبة زوجها قد تجد الرومانس في الأستانة أو في الطريق إليها. وكتب لها بوب وقد طاف هذا الحلم

صفحة رقم : 11894

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

بخياله كذلك، في أول يوليو، رسالة أشرفت على شفا الغرام بأسلوب أنيق:
"لو خطر لي أنني لن أراك ثانية لقلت هنا أشياء ما كنت لأقولها لشخصك. فما أريد أن أتركك تموتين مخدوعة في،
أي تذهبين إلى الأستانة دون علم بأني، بشيء من المبالغة، وبغاية التعقل أيضاً، يا سيدتي".
ثم وقع بالتحية المنمقة المألوفة، تحية العبد الخاضع المطيع(124).

وفي أول أغسطس، عبر ورتلي وماري وابنهما البالغ ثلاث سنين ورهط من الخدم والحشم البحر إلى هولندا. ومروا بكولونيا إلى ريجنزبرج، حيث أبحروا على ذهبية يجدف فيها اثنا عشر ملاحاً مروراً بقمم جبلية تعلوها القلاع. وفي فيينا وجدت رسالة من بوب يقدم فيها قلبه ويؤكد لها:

"لا لأنني أرى في كل إنسان متجرد مشهداً رائعاً مثلك أنت وقلة أخرى من الناس... في وسعك أن تتخيلي بسهولة مبلغ رغبتني في مراسلة شخص علمني منذ أمد بعيد أن الاحترام من أول نظرة محال كالحب، وأفسد عليّ من ذلك الحين لذة كل حديث مع أحد الجنسين، وكل صداقة مع الجنس الآخر تقريباً.. لقد فقدت الكتب تأثيرها عليّ، وأمنت منذ رأيتك أن هناك شيئاً أقوى من الفلسفة، وأن هناك، منذ سمعتك، إنساناً حياً هو أحكم من جميع الحكماء(125)".

ولكنه أضاف أمله بأن تكون سعيدة مع زوجها، وردت عليه قائلة:

"ربما ضحكت مني لشكري إياك بكل وقار عن اهتمامك المتفضل الذي أعربت عنه. ومن المؤكد أنه يحق لي، أن شئت أن أحمل الأشياء الجميلة التي قلتها لي على محمل الفكاهة والمزاج، وربما كان حملي

صفحة رقم : 11895

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

لها على هذا المحمل صواباً. ولكنني لم أكن في حياتي مبالاة ولو نصف ميلي الآن لتصديقك(126)".

وفي 3 فبراير 1717 بعث لها بوب بتصريح آخر يبوح فيه بحبه العميق، محتجاً على اعتباره إياه "صديقها فقط". واحتفظت ماري بهذه الرسائل لنفسها، سعيدة بأنها حركت حطام أحد الشعراء الأحياء.

وبلغت الجماعة الأستانة في مايو. وهناك عكفت ماري على تعلم التركية بعزيمة ماضية، وبلغت من ذلك مبلغاً أتاح لها فهم الشعر التركي والإعجاب به، واتخذت الثياب التركية، وزارت النساء في الحريم، ووجدتهن أرقى من خليلات جورج الأول. ولاحظت ممارسة التطعيم في تركيا بشكل منتظم وناجح وقاية من الجدري، وطعم الدكتور ميتلاند الجراح الإنجليزي في الأستانة ولدها بناء على طلبها. ورسائلها من تلك المدينة لا تقل فتنة عن أي رسائل في هذا الجانب من جوانب مدام دسفينيه، أو هوراس ولبول، أو ملشيور جريم. ولم تنتظر حتى يخبرها إنسان بأنها أدب، فلقد كتبت بهذا التطلع، وقال لأصدقائها "أن أحدث اللذات التي صادفتها في طريقي هي رسائل مدام دسفينيه، جميلة جداً هذه الرسائل، ولكنني أؤكد، دون أدنى غرور، أن رسائلني لن تقل عنها إمتاعاً بعد مضي أربعين سنة من الآن. لذلك أنصحكم بالألا تقذفوا بأي منها في سلة المهملات(127)".

واتصلت رسائلها مع بوب. فتوسل إليها أن تأخذ تأكيدات مآخذ الجد، ولكن نبرته كانت مزيجاً محيراً من المزاح والحب. وقد تصور تركيا في خياله الشاطح "بلد الغيرة، حيث لا تتحدث النساء التعسات مع أحد إلا الخصيان، وحيث يوتى لهن بالطعام، حتى الخيار-مقطعاً". ثم أضاف وهو يفكر في تشوه جسده محزوناً "أنني شخصياً قادر على أن أتبع إنساناً أحببته، لا إلى الأستانة فحسب، بل إلى أرجاء الهند التي يقولون لنا أن النساء فيها يعظم حبهن لأفبح الرجال صورة،... ويرين في التشوهات دلائل الرضي الإلهي". ويقول إنه سيعتق الإسلام إن اعتنقته ويصحبها إلى مكة، وأنه لو وجد التشجيع

صفحة رقم : 11896

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

صدق (109) ". وأقام عليه الأميرال دعوى القذف، فكابد سمولت الكافي لالتقى بها في لمباردية، "مسرح تلك الغراميات المشهورة بين الأميرة الجنية وقزمها (128)". فلما علك أنها عائدة إلى أرض الوطن هزه الطرب حتى كاد يبتس: "أكتب وكأنني ثمل، فاللذة التي أجدها في التفكير في عودتك تطربني فوق حدود التعقل واللياقة... تعالي بالله، تعالي يا ليدي ماري، تعالي سريعاً! (129)". وأخفقت بعثة ورتلي، ودعي للعودة إلى لندن. ونحن نقرأ عينة من أسفار القرن الثامن عشر في رحيلهم من الأستانة في 5 يونيو 1718 ووصولهم إلى لندن في 12 أكتوبر. هناك عادت الليدي ماري حياتها في البلاط ومع الأدباء والظرفاء، ولكن بوب الذي كان الآن عاكفاً على ترجمة هومر، كان مشغولاً في ستانتون هاركورت. على أنه انتقل في مارس 1719 إلى تويكنهام، وفي يونيو وجد ورتلي والليدي ماري بمعونته بيتاً هناك أيضاً باعه لهما السر جودفري نلر. وعقب ذلك دفع بوب لنلر عشرين جنيهاً ليرسم لها صورتها (130). وقد أجاد نلر رسمها مع أنه كان في الرابعة والسبعين. فاليدان رائعتان، والوجه يكاد يكون شرقياً كلباس الرأي التركي، والشفتان ممثلتان امتلاءً شهوانياً، والعينان نجلاوان سوداوان لا تزالان تخلبان الألباب-وقد أشاد بهما جاي في أبيات في هذه الفترة. وعلق بوب اللوحة في حجرة نومه، وخلدها في قصيدة بعث بها إليها:

"البسمات اللعوب حول الفم المغمّر،

وسيماء الجلال والصدق السعيدة،

ونظير هذا من تألق في الذهن الرفيع

حيث اجتمعت كل المفاتن والفضائل،

علم في تواضع، وحكمة في اعتدال،

عظمة في غير تكلف، وذكاء في غير ادعاء (131)".

في ذلك العام بلغ نجمها أوجها، وبدأت الكوارث التي ابتليت بها. ذلك أن زائراً فرنسياً يدعى توسان ريمون أودع عندها ألفين من الجنيهات لتستثمرها على الوجه الذي تستصوبه. فاشترت بها أسهماً

صفحة رقم : 11897

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

من شركة بحر الجنوب بناء على نصيحة بوب، ولكن الأسهم هبطت هبوطاً مدمراً، فأصبح الألفان خمسمائة، فلما أنهت الأمر إلى ريمون اتهمها بسرقة ماله (1721). وفي السنة نفسها هدد حياة ابنتها التي ولدتها في 1718 وباء جدري أصابها، فأرسلت في طلب الدكتور ميتلاند الذي كان قد عاد من الأستانة، فطعم الفتاة بناء على طلبها. وسنرى في مكان لاحق تأثير هذا المثل على الطب البريطاني قبل جنر. وفجأة، في 1722، انهارت صداقتها لبوب. كانا إلى شهر يوليو يلتقيان في كثرة أثارت القيل والقال في توبيكنهام. ولكن في سبتمبر بدأ يكتب الرسائل الودية إلى جوديث كوبر، ذكر فيها على سبيل تعزيتها، أن هناك اضمحلالاً واضحاً في "ألمع ذكاء في العالم". وزعمت الليدي ماري أن بوب قد أباح لها بحبه في حرارة، وأنه لم يغتفر لها قط الاستخفاف التي قابلت به هذه المغامرة الجريئة (132). ولزم الصمت برهة، ولكنه كان بين الحين والحين يرهف شعره في مناسبات بسهام يستشفها القارئ بسهولة. ولما كتبت لصديق تذكر أن سوفيت وبو وجاي هم الذين اشتركوا في كتابة قصيدة غنائية شعبية ظن الصديق أنها من نظمها، بعث إليها بوب بتوبيخ حاد؛ وفي قصائده "المنوعات" التي نشرها في 1728 أذاع هذا التوبيخ بوضوح صارخ:

"تلك ألعيبك يا ليدي ماري،

ولكن ما دمت تفقسين، فاعتر في بأفراخك،

وكوني أكثر حدقاً في نقراتك،

فلا تنقري كبار ديوكك كما تفعلين بصغارها (133)".

وفي قصيدة سماها "التقليد" (1733) أشار إلى "سافو الهانجة... التي ابتلاها حبها بمرض... وهو يعني أن عشيقها أصابها بالزهرى(134). ويقول هوراس ولبول أنها هددت بأن ترسل إليه من يضربه بالسوط. وكانت هذه المشاحنة القبيحة ضربة أخرى أعانت على انهيار زواجها. ذلك أن ورتلي بعد أن استعاد مكانه في البرلمان تركها مهملة

صفحة رقم : 11898

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

إهمالا واضحا في تويكنهام. وقد جعلت موت أبيه (1727) رجلاً عريض الثراء، فزودها بحوائجها المادية، ولكنه تركها لمواردها الخاصة في شئون الحب. وأخذ ابنها يثبت أنه وغد كسول. أما ابنتها التي غدت امرأة ذكية مهذبة فكانت سلواها الوحيدة. وحاول اللورد هرفي أن يحتل مكان بوب في حياتها، ولكن كان في طبيعة جسمه ما جعله لا يستطيع أن يغتفر لها، ولا لزوجته، كونها امرأة. ولا بد أنه عرف بتقسيم الليدي ماري النوع الإنساني إلى رجال، ونساء، وهرفيين(135).

وفي 1736 دخل نيزك إيطالي فلكتها وغير مساره. ذلك هو فراننتسكو الجاروتي، الذي ولد بالبندقية في 1712، وكان قد أثار بعض الضجة في دنيا العلم والأدب الخالص. وفي 1735 كان ضيفاً في بيت فولتير ومدام دشاتليه في سيريه حيث درس ثلاثتهم نيوتن. ثم قدم إلى لندن بخطابات تعريف من فولتير، واستقبل في البلاط، والتقى بهرفي وبالليدي ماري على طريقه. ووقعت في غرامه كما لم تقع قط في غرام ورتلي لأن قلبها كان خالياً، ولأنه كان جميلاً، ذكياً، شاباً. وكانت ترتعد حين يخطر لها أنها في السابعة والأربعين وأنه في الرابعة والعشرين. وبدا أن طريقها إلى الرومانس قد غدا ممهداً من زواج ابنتها بايرل بيوت (أغسطس 1736). فلما سمعت أن الجاروتي عائد إلى إيطاليا أرسلت إليه خطاباً يفيض بعاطفة الصبايا المشبوبة:

"لم أعد أعرف بأي طريقة أكتب إليك. فمشاعري أقوى مما ينبغي، وليس في طاقتي أن أفسرها ولا أن أخفيها. فلكي تغتفر لي رسائلي يجب أن تجيش في صدرك حماسة كحماستي. وأنني لأرى كل ما في هذا من حماقة دون أي أمل في إصلاح نفسي. فمجرد فكرة مشاهدتك أعطتني نشوة ندييني، فماذا جرى لتلك اللامبالاة الفلسفية التي صنعت مجد أيامي الماضية وهودوها؟ لقد فقدتها على الأبد، ولو أن هذا الغرام المشبوب شفى لما رأيت أمامي غير الممل القاتل. فاغفر هذا الشطط الذي كنت السبب فيه، وتعال لتراني(136)".

وأتى، وتناول العشاء معها عشية رحيله. وكان هرفي قد دعاه أيضاً، فلم يلب دعوته. فجن من الغيرة، وكتب إلى الجاروتي طعناً

صفحة رقم : 11899

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

مرأ في الليدي ماري، منبهاً إياه إلى أنها كانت تذبح على لندن كلها غزوها الإيطالي بهذه العبارة المزهوة Vini, Vidi, Vici "جنت، ورأيت، وغلبت" ربما، ولكن رسائلها إلى الجاروتي لم تكن رسائل الغالب: "ما أجبين الإنسان حين يحب" أخشى أن أسيء إليك بإرسالي هذا الخطاب حتى ولو كان قصدي أن أسرك. والحق أنني مجنونة في كل أمر يتصل بك حتى أنني لست واثقة من خواطري.. كل ما هو مؤكد هو أنني سأحبك ما حييت، برغم نزوتك وتعقلي(137)".

ولم يرد على هذه الرسالة، ولا على ثانية، ولا ثالثة، رغم تهديدها بالانتحار. أما الرابعة فقد انتزعت منه رداً جاء كما تقول "في وقت مناسب جداً لإنقاذ البقية الباقية من عقلي". فق عرضت أن تتبعه إلى إيطاليا، ولكنه ثأها عن الفكرة، وراحت تجتر غرامها في عزلتها ثلاث سنوات. ولكن في 1739 أقنعت زوجها بأنها في حاجة إلى رحلة لإيطاليا. وكان قد فقد حبه لها، فاستطاع أن يتصرف الإنسان المهذب. فودعها حين غادرت لندن، ووافق على أن يرسل لها راتباً ربع سنوي قدره 245 جنيهاً من دخله الخاص، وأن يحول إليها السنوي الذي أوصي به أبوها وقدره 150 جنيهاً. وسافرت بأسرع ما تستطيع على البندقية أملاً في أن تجد الجاروتي هناك، ولكنه كان قد ذهب إلى برلين (1740) ليعيش مع فرديريك الثاني المتوج حديثاً، وكان يحبه حب اللوطيين. واتخذ ماري لها بيتاً على قناة البندقية الكبرى وقد استبد بها الحزن، وافتتحت فيه صالوناً، واستضافت الأباء والكبراء، وحظيت بالتودد اللطيف من نبلاء البندقية وحكامها.

ثم غادرت البندقية إلى فلورنسة بعد عام، وأقامت شهرين في قصر ريدولفي ضيفاً على اللورد والليدي بومفريت. ورأها هوراس وليبول هناك، وأرسل إلى هـ. س. كونواي وصفاً رقيقاً لها: "هل أنباتك بأن الليدي ماري ورتلي هنا؟ إنها تضحك من الليدي وليبول (زوجة أخي هوراس)، وتقرع الليدي بومفريت،

صفحة رقم : 11900

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

وتضحك منها المدينة كلها. ولا بد أن لباسها، وجشعها، ووقاحتها، تدهش أي إنسان لم يسمع باسمها. فهي ترتدي قبعة بشعة (تربط تحت الذقن) لا تخفي خصلاتها السوداء الدهنية القوام التي ترسلها دون تمشيط أو تجعيد، وأزراً أزرق قديماً يفغر فاه ويكشف عن تنورة من التيل. وقد انتفخ وجهها انتفاخاً شديداً من أحد جانبيه بمخلفات-غطى بعضها بلزقة، وبعضها بالطلاء الأبيض.. وقد قامرت مرتين أو ثلاثاً في لعبة ورق (تسمى الفرعونية) في قصر الأميرة كراءون حيث تغش بكل وسيلة في اللعب. وهي في الحق مسلية، كنت أقرأ أعمالها التي تعبرها مخطوطة، ولكنها نسائية إلى حد مفرط، وأعجبنى القليل من أعمالها(138)".

والواقع أن هذا الكاريكاتور كان له أساس، فقد جرى العرف في إيطاليا على أن ترتدي المرأة في بيتها الثياب الفضفاضة المهمة توحياً للراحة، وما من شك في أن وجه ماري منقراً جداً، ولكن ليس بالزهري بالتأكيد(139). وكان من عادات المؤلفين أن يعيروا الأصدقاء مخطوطاتهم. وقد أثارت الليدي ماري استياء وليبول الشاب بمصادقتها لمولي سكيرييت، التي ساءه منها أنها أصبحت الزوجة الثانية لأبيه. ولعل الليدي ماري كانت أكثر إهمالاً لمظهرها مما اعتادت بعد أن ظنت أنها فقدت الجاروتي إلى الأبد.

ثم علمت أنه في تورين، فهرعت إليها، ولحقت به (مارس 1741)، وعاشت معه شهرين. ولكنه عاملها بخشونة وعدم مبالاة، وسرعان ما تشاجرا وافترقا، فمضي هو على برلين، وهي إلى جنوه. هناك رآها وليبول مرة أخرى، واستمتع بكرم ضيافتها، ووجه إلى مركبتها أبيات تنفت السم:

"إيه أيتها العربية، يا من حكم عليك بأن تحملي

جلد الليدي ماري العفن،

اذهبي بها إلى أقصى ركن في إيطاليا،

وأنزليها بالله حية،

ولا تعجني بهزاتك ولطماتك

صفحة رقم : 11901

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

نصف الأنف الذي ما زالت تحتفظ به(140)".

وفي 1760 أبهجها أن تعلم أن صهرها أصبح عضواً في المجلس الخاص لجورج الثالث. وفي 21 يناير 1761 مات زوجها تاركاً معظم ثروته لابنته، و1.200 جنيه في العام لأرملته. وعادت الليدي ماري إلى إنجلترا (يناير 1762) بعد غيبة امتدت إحدى وعشرين سنة، إما لأن موت زوجها أزال عقبة خفية في سبيل رجوعها، وإما لأن سطوع نجم صهرها في عالم السياسة قد اجتذبها إلى وطنها.

غير أن الأجل لم يمهلها أكثر من سبعة أشهر، ولم تكن بالأشهر السعيدة. ذلك أن مطارقتها لألجاروتي، وأنباء كتلك التي أشاعها عنها هوراس وليول، كانت قد سوات سمعتها؛ ثم أن ابنتها لم تسعد بحبة أمها رغم حرصها على صحتها وراحتها. وفي يونيو بدأت الليدي ماري تشكو ورماً في صدرها. وتقبلت في هدوء مصارحة طبيبها لها بأنها مصابة بالسرطان، وقالت إنها عاشت من العمر ما يكفي. وماتت بعد شهر من الألم (21 أغسطس 1762). وكان من آخر طلباتها أن تنشر رسائلها لتعطي الفقراء جانبها من القصة، وتدعم حقها في تذكر الناس لها. ولكنها كانت قد عهدت بمخطوطاتها إلى ابنتها، فبذلت هذه الابنة (الليدي بيوت) التي غدت الآن زوجاً لرئيس الوزراء ما وسعها لتمنع نشرها. على أن الرسائل التي كتبتها من تركيا نسخت سرّاً قبل أن تسلم لابنتها، وصدرت في 1763. وسرعان ما نفدت عدة طبعات منها، وكان من قرائها الذين ابتهجوا بها جونسن وجبون. أما النقاد الذين قسوا على المؤلفة وهي حية، فقد أسرفوا الآن في إطراء رسائلها. وكتب سمولت يقول إن الرسائل "لم يكتب نظيرها أي كاتب رسائل من أي جنس، أو سن، أو أمة" وفضلها فولتير على رسائل مدام سفنييه (141). وقد

صفحة رقم : 11902

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> الأدب والمسرح -> الليدي ماري

أحرق الليدي بيوت قبل أن تموت في 1794 يومية أمها الضخمة، ولكنها تركت الرسائل ليتصرف فيها ابنها البكر. فسمح بنشر بعضها في 1803، أما الرسائل التي كتبتها لألجاروتي فظلت طي الخفاء إلى أن أقنع بايرون جون مري بأن يشتريها من صاحبه الإيطالي (1817). ولم يكتمل نشرها إلا عام 1861، واعترف الناس بأن الليدي ماري تشارك بوب، وجراي، وجاي، ورتشاردسن، وسمولت، وهيوم، الفضل في جعل أدب إنجلترا أعظم آداب ذلك العصر الفحل تنوعاً وحيوية وتأثيراً.

صفحة رقم : 11903

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> المصورون

الفصل السادس

التصوير والموسيقى

1- المصورون

لم تكن إنجلترا التي سطع نورها الأصيل في عالم الأدب والسياسة سوى تابع متواضع في دنيا الموسيقى والتصوير. وكان لتخلفها في التصوير أسباب كثيرة، ليست منها أجواؤها الممتعة، فالأجواء أعتمدت في الأراضي المنخفضة كذلك، ومع ذلك حفلت هولندا بمصورين كثيرين كثرة طواحين هوائها. وربما كان المانش أحد الأسباب، لأنه كان أشبه بالترس منع عن إنجلترا الفنون كما وقاها حروب القارة، وربما كانت الموهبة الإنجليزية غارقة في التجارة وفي الحرب بعد ولبول. وقد تلام البروتستنتية على ركود الفن الإنجليزي، لأن الفن ينمو ويتزعرع على الخيال، والبروتستنتية أفصت الخيال عن الفن وكرسته للأدب واللاهوت، ولكن يرد على هذا أيضاً بأن هولندا كانت بروتستنتية. وأغلب الظن أن العامل الأهم كان الثورة والتراث البيورثانيين؛ إعدام تشارلز الأول عاشق الفن، وتشيتت مجموعته الفنية، وانحسار الذهن الإنجليزي باستثناء ملتن خلال فوضى الجمهورية (الكومنولث). وقد طأطأ التأثير البيورثاني رأسه خلال عودة الملكية، ولكنه عاد يرفعه مع وليم الثالث والهانوفرين، ثم اتخذ في المثودية صورة منبعثة من القوة، وغدا الجمال خطيئة مرة أخرى.

كان هناك منجزات صغيرة في الفنون الصغرى. من ذلك أن الخزف البديع الناعم العجينة صنع في تشلسي (1755) تقليداً لخزف مايسين وسيفر. وأثرى خزاfo برمنجهام من صنع الأنية من اللك (اللاكيه). وبلغ ثراء أحدهم، واسمه جون بسكرفيل، مبلغاً أتاح له إشباع هوايته بطبع طبعاات جميلة للشعراء الإنجليز. وزينت حنايا الروك المتسمة بالخيال الجامح الكتب والقماش والأثاث والأواني

صفحة رقم : 11904

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> المصورون

وفضة شفيد وقاعة الروتندا في حدائق فوكسهول، وبعض الحجرات في قصر تشستر فيلد وسترويري هل. أما المثالون فقد كان الناس قد بدءوا يفرقون بينهم وبين البنائين. وكان أقطاب المثالين في إنجلترا أجانب المولد وأن أصبحوا عادة مواكنين بريطانيين. فوفد بيتر شاميكرز من أنتويرت، وأشرك مع لوران ديلفو في نحت تمثال دوق بكنجهام ونورمانديه في دير وستمنستر. وكان أعظم هؤلاء الأجانب لوي روبيالك، وهو ابن مصرفي من ليدن، قدم إلى إنجلترا في 1744 وارتقى سريعاً بفضل رعاية آل ولبول. وقد نفذ تمثال شكسبير النصفي المعروف الآن بالمتحف البريطاني، وتمثال هندل المعروف بقاعة الصور القومية، وحبته الملكة كارولين برعايتها، وجلست إليه ليصنع لها تمثالاً، وكلفه بأن ينحت تماثيل نصفية لبويل، ونيوتن، ولوك، وغيرهم من أفاضل الإنجليز لتضعها في

مغارتها برتشموند. وقد لُقّب تشستر فيلد (وكان ذواقة للفنون) روبياك- "فيدياس زمانه(1)". ومات روبياك مفلساً في 1762 بعد أن عاش حياة ملؤها التقاني في خدمة فنه. أما العمارة فكانت في نشوة من فن اللاديو. ذلك أن الثروة الصاعدة التي حققتها الطبقات العليا التي أثرت وهي متبرمة في ظل السلام الوبولي قد مولت مئات الرحلة الكبرى، التي تشرب فيها السادة البريطانيون حب معابد الرومان وقصور النهضة. وكانت البنديقية دائماً تدخل في أسفارهم، فيقف المسافرون في الطريق عند فتشنتسا ليعجبوا بواجهات باللاديو، فإذا عادوا ملأوا إنجلترا بالأعمدة والأعتاب والقواصر الكلاسيكية. وفي 1715-25 أصدر كولين كامبل كتابه "فتر و فيوس بريتانيكوس" الذي أصبح إنجيل البلاديويين، ودفَع وليم كنت (1727) وجيمس جيز (1728) الطراز دفعة أخرى بتأليف كتيبات في العمارة، وفي 1716 نشر رتشرد بويل، إيرل برلنجتن الثالث، طبعة فاخرة من نصوص باللاديو، وفي 1730 نشر ترميمات باللاديو للصروح القديمة. واحتوى بيته الريفي في تشريك على نسخة من "فيللا روتندا" التي بناها باللاديو في

صفحة رقم : 11905

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> المصورون

فتشنتسا، برواقها المعمد وقبتها الوسطى. وكان برلنجتن راعياً سخياً للأدب والموسيقى والفن، وصديقاً لباركلي وهندل وبوب وجاي. وفي 1719 جلب من روما معه معمارياً شاباً يدعى وليم كنت ظفر بجائزة بابوية على رسومه، وكان شديد التحمس لكل ما هو كلاسيكي. وغدا كنت أحب الفنانين وأحفلهم بالمواهب في إنجلترا، بعد أن سكن قصر برلنجتن حتى وفاته (والقصر ما زال بعد تجديده مركزاً من مراكز الفن الإنجليزي) فصور أسقف قصور هوتن وستو وكنزنجتن؛ وصمم الأثاث وصحاف الطعام والمرابا والزجاج، ومركباً للمهرجانات وملابس لسيدات المجتمع، ونحت تمثال شكسبير في دير وستمنستر؛ وكان ممن تزعموا حركة تشجيع الحقيقة الإنجليزية "الطبيعية"؛ وفي ميدان العمارة شديد معبد الفضيلة القديمة في حدائق ستو، وقصر ديفونشير ببيكاديللي، وقصر حس الخيالة في هوايت هول، وقاعة هولكم المدهشة في نورفوك. وفي 1738 رفع اللورد برلنجتن إلى مجلس مدينة لندن تصميم كنت البلاديوي لمسكن عمدة لندن "مانشن هاوس"، واعترض عضو بأن باللاديو كان بابوياً، فرفض تصميم كنت، وتلقى جورج دانس الأب التكليف (وكان بروتستنتياً) وقام به خير قيام. ولكن في ذلك العام بدأت الحفائر في هر كولانيوم، وأفضت الكشف إلى على الحفر عن بومبي (1748 وما بعدها)، وفي 1753 نشر روبرت وود "أطلال بلميرا (تدمر)" وفي 1757 "أطلال بعلبك"، وأعطت هذه الكشف للحملة الكلاسيكية في إنجلترا دفعة لا تقاوم، ووضعت حداً لوفرة التزييق الباروكي الذي ازدهر في قصر فانبروج "بلنهم" الذي بنى لأسرة تشرشل. وفي 1748 بنى إسحاق وير، وهو معماري آخر كان يرعاه برلنجتن، قصر تشستر فيلد في شارع كرز. وقد فات البلاديويين في تمسهم هذا أن العمارة الكلاسيكية إنما صممت لأجواء البحر المتوسط لا لرياح إنجلترا وغيومها. وأخطأ كولن كامبل خطأ جسيماً بنقله عن النماذج الإيطالية دون أن يطوعها لشتاء إنجلترا؛ فقلعة ميروث التي بناها لم تسمح إلا لبصيص من أشعة

صفحة رقم : 11906

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> المصورون

الشمس بدخولها، أما قاعة هوتن التي شادها لروبرت وليول فقد ضحت بحجرات المعيشة إيثاراً للصالات الفخمة التي تلقف التيارات الشديدة البرودة. واستخدم جيمز جيز، أحد تلاميذ كرسنوفر رن، الطراز الكلاسيكي استخداماً رائع التأثير في كنيسة سانت ماري-لستراند بلندن (1714-17)، وبرج هذه الكنيسة أشبه بأغنية من الحجر. وأضاف جيز (1719) إلى كنيسة سانت كلمنت دين التي بناها رن برجاً يعلو علواً لا يتناسب مع قاعدته، ولكنه مع ذلك جميل جمالاً محفوفاً بالخطر. وتوج عمله في 1721 برواق كلاسيكي وأعمدة كورنثية في سانت مارتنز-أن-ذفيلز، بميدان ترافلجار. وأخيراً خلق في مكتبة رادكليف بأكسفورد (1737-47) لحناً منسجماً من الأعمدة والقبة.

أما بهاء باث المعماري فالفضل الأول فيه لجون وود. وكانت الفكرة المسيطرة عليه هي ربط المباني المفردة في كتلة واحدة، ومن ثم صمم وبدأ-وأكمل ابنه جون بكفاية-"الهلال الملكي" الضخم-وهو ثلاثون بيتاً وراء واجهة موحدة من 114 عموداً كورنثياً-دمرت تدميراً شديداً في الحرب العالمية الثانية، ولكن أمكن ترميمها. وعلى مقربة من هذا المكان بنى وود الأب والابن "السيركس" (الميدان) (157-46)، وهو دائرة جميلة من المساكن يكسو واجهتها فريز متصل وثلاثة صفوف من الأعمدة؛ هنا سكن بت الأب، وتوماس جينزبورو، وكليف حاكم الهند. وصمم وود-دون أن يكمل- لجوانب ثلاثة من "كوبن سكوير" سلسلة أخرى من المنازل الموحدة وراء واجهة تحكي واجهات قصور النهضة. والكثير من هذا البرنامج، برنامج تصميم وبناء المدن، موله رالف ألين الذي اتخذ فيلدينج نموذجاً صاغ على غرار "سكواير أولوردي". وبنى وود الأب قصرًا فاخرًا بلاديوي الطراز في برايبور بارك (1735-43)، خارج باث بميلين.

لقد كان فقر جماهير بريطانيا يعدله بهاء قصورها. فقد تكلف معبد ألن في برايبور بارك 240.000 جنيه. وأوحت نزوة العبارة للنبلاء والتجار بإقامة القصور الضخمة للضيافة والتباهي. ويقول

صفحة رقم : 11907

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> المصورون

هرفي أن روبرت وليول اكتسب عداء اللورد تاونشند الأبدي بينائه هوتن هول على مستوى أشد ترفاً حتى من قصر تاونشند المجاور المسمى رينهام بارك. وقد ندد اللورد لتلتن بهذا "الجنون الوبائي" جنون بناء القصور، ومع ذلك طالبت زوجته بقصر جديد يبني على الطراز الإيطالي، فأذعن لها تحت ضغط الإلحاح وإلى حد أشرف به على الإفلاس. فلما تم بناء القصر هجرت زوجها إلى مغنى أوبرا إيطالي مشكوك في رجولته، وسرعان ما انتشرت في إنجلترا، وحتى في إيرلندا الإنجليزية، أمثال هذه البيوت المظهرية التي بناها الأغنياء. ونظمت الرحلات السياحية، ونشرت الكتب المرشدة، لزيارة هذه المساكن الفخمة وحدائقها وقاعات صورها. وطبقت شهرة هذه الصروح الأفاق حتى بلغت روسيا، فطلبت كاترين الكبرى إلى جوسيا ودجوود أن يصنع لها طقم مائدة إمبراطورياً مزيناً بمناظر من قصور الريف الإنجليزية(2).

وأودعت معظم الصور في إنجلترا، وأخفيت في كثير من الحالات، في هذه البيوت الأرستقراطية إذا لم يكن هناك بعد متاحف يستطيع الجمهور العام أن يشاهد فيها الصور. وكانت الرعاية تغدق بوجه خاص على الفنانين الأجانب، وكلها

تقريباً لقاء لوحات تصور الأعيان الذين داعبهم الأمل في أن يخلدوا على القماش بينما تبلي أجسادهم داخل توابيت من الخشب؛ ولم يكن هناك سوق للمناظر الطبيعية ولا للوحات "التاريخية". فلما وفد كارل فانلو على إنجلترا في 1737 تهافت الكثير جداً من الوجوه النبيلة عليه ليصورها، حتى أن رتل العربات المقترية من بيته ظل أسابيع ينافس ذلك الواقف أمام المسارح. ودفعت المبالغ الطائلة للرجل الذي كان يسجل مواعيده رشوة يؤدونها له ليسبقوا غيرهم وإلا فقد يضطر الواحد منهم إلى الانتظار ستة أسابيع(3).
"وحاولت" الجمعية الملكية للفنون" التي أسست عام 1754 أن تشجع المواهب الوطنية بالمباريات والمعارض، ولكن الطلب على التصوير الإنجليزي تباطأ جيلاً آخر. وظفر جوزف هايمور، وهو تلميذ لننلر، ببعض المشترين للوحاته حين رسم مشاهد من رواية

صفحة رقم : 11908

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> المصورون

"باملا(4)"; و التقط توماس هدسن بعض حيوية هندل في لوحته التي رسمها له في 1749(5). وكان من تلاميذ هدسن مصور يدعى جوشوا رينولدز، تنبأ أستاذه بأنه "ان ينبغ أبدأ(6)". ولكن السر جيمس ثورنهل كان أبعد نظراً. فقد حقق نجاحاً بصور نيوتن، وبنثلي، وستيل، وصور القبة الداخلية لكنيسة القديس بولس، وأسقف مستشفى جرينتش وقصر بلنهم، وأحرز الخلود بالإنابة، لأنه زوج ابنته لأعظم مصوري العصر الإنجليزي قاطبة.

صفحة رقم : 11909

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

2- وليم هوجارث

1764-1697

كان أبوه مدرساً وكاتباً أجيبراً، ألحقه في صباه بنقاش للأسلحة. وانتقل من ذلك إلى الحفر على النحاس، ثم إلى رسم الرسوم الإيضاحية للكتب. وفي 1726 أعد اثنتي عشرة محفورة (كلشيهات) كبيرة لكتاب بطلر "هودبيراس". ثم التحق بفصل التصوير الذي كان يعلم فيه ثورنهل، وتعلم التصوير بالزيت، ثم هرب مع ابنة أستاذه، وصفح عنه ثورنهل وعينه مساعداً له.

كانت الرسوم الإيضاحية التي رسمها هوجارث لمسرحية العاصفة، ولمسرحيتي هنري الرابع، ولأوبرا الشحاذ، صوراً نابضة بالحياة. فميراندا رقيقة حنون، وكالبان فظ غليظ، وبرسبرو عطوف كريم، وإيريل يداعب مزهراً في الهواء، والسير جون فلستاف ينكلم من كرشه بخيلاء، والكابتن ماكهيث في أغلاله وأحانته، بطل في العيون زوجاته رغم كل شيء. ووقع هجاء المستقل على ذلك العرق الذي تميز به، وذلك في لوحة "المصلين النيام"، فقد كره هوجارث كل المواعظ إلا مواعظه؛ أما في "حفلة الأطفال" فقد تلذذ بأجمل جوانب الحياة الإنجليزية. وهذه الصور تلذنا الآن، ولكنها لم تأت بثناء وقتها.

وجرت تصوير الأشخاص ولكنه لم يحقق نتائج تذكر، وكانت المنافسة قاسية، فأكثر من عشرة مصورين يجمعون ثروات صغيرة بتملق زبائنهم وتوزيع العمل على مساعديهم؛ فهم يرسمون الرأس ولكنهم يحيلون رسم الخلفيات والسائير لمساعدين يخبسونهم أجورهم. يقول هوجارث

صفحة رقم : 11910

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> ولیم هوجارث

"وكل هذا يتم بسرعة مريحة تنتج الرئيس الحصول في أسبوع واحد على مال أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه رجل ذو مواهب فنية من أعلى المراتب في ثلاثة أشهر (7)". وندد بتجار الوجوه هؤلاء الذين جملوا وجوه زبائنهم إشباعاً لغرورهم واستدراراً لمالهم. أما هو فمذهبه أن يصور زبائنه بكل ما فيهم من دامل وإلا فلا. فلما جلس إليه نبيل تغلب عليه سيماء القردة صورته هوجارث بإهانة مؤذية. ورفض اللورد أن يأخذ صورته إذ لم يكن قد رأى نفسه قط كما يراه الآخرون. فأرسل إليه المصور رسالة جاء فيها:

"المستر هوجارث يقدم إحتراماته الواجبة للورد-وإذا وجد أنه لا يريد أن يأخذ الصورة التي رسمت له، فهو يذكره مرة أخرى بحاجة المستر هوجارث إلى المال. فإذا لم يرسل سيادته في طلب الصورة خلال ثلاثة أيام، فسبيبعها، بعد إضافة ذيل وغيره من الملحقات الصغيرة، إلى المستر هير مقتني الوحوش الشهير؛ لأن المستر هوجارث قطع لذلك السيد عهداً بإعطائه الصورة لعرضها في معرض للصور (8)". ..
ودفع اللورد المال.

وكان هوجارث واثقاً من أن في استطاعته أن يرسم صور الأشخاص كأبي فنان قدير. وبينما كان يصور هنري فوكس (البارون هولاند فيما بعد) أخبر هوراس ولبول أنه وعد فوكس أنه إذا جلس متبعاً تعليماته فإنه سيرسم له صورة لا تقل روعة عن صور روبنز أو فانديك (9)، وهو ما صدم هوراس في الصميم من تقاليده. وربما برر كثير من لوحات هوجارث التي رسمها للذكور استنكاراً ولبول لها، فالوجوه "مقلوبة" جداً، وبعضها يستحق وصف هوجارث الهازئ لبعض الصور الإنجليزية بالـ "ساكنة" ولكن يجب أن نستثني منها لوحة "السر توماس كورام" التي أسلفنا ذكرها في معرض الحديث عن الاحتفال بمستشفى اللقطاء الذي أسسه كورام، والذي ترى فيه صورته، فقد التقط هوجارث الطبيعة البارة بالناس في الوجه المبتسم، والخلق الحازم في اليدين المقبوضتين. ولقد كانت فرشاته، بوجه عام، أرفق بالنساء منها بالرجال. مثال ذلك أن "صورة سيدة" تتنافس صور

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

جانزبورو، وصورة "سيدة في ثياب بنية(11)" لها الملامح القوية لامرأة أفلحت في تربية أطفال كثيرين؛ وإذا كانت صورة "الأنسة ماري إدواردز(12)" ممتة نوعاً ما، فإن الكلب-هو حاضر دائماً في لوحات هوجارث-بيعت فيها الحياة، وأروع من هذه الصور اللوحات الجماعية مثل "أسرة برايس(13)" و "أبناء جراهام(14)" وأفضل حتى من ذه "خدم هوجارث(15)"، حيث ترى كل وجه مرسوماً في حب بكل طابعه المتفرد. وأبدع صورته كلها بالطبع هي "بائعة الجمبري(16)"-وهي ليست لوحة شخصية بل ذكرى رجل سليم قوي الصبغة التي رأها تبيع الجمبري من سلسلة متزينة على رأسها؛ فتاة عطلت من كل زينة أو زخرف، لا تستحي من الأسماك التي تكسوها، تطل على الدنيا وقد توردت وجنتاها وتألقت عيناها صحة وعافية بفضل الحركة والنشاط.

وقد ترك هوجارث على الأقل أربع لوحات صور نفسه فيها. ففي 1745 صور نفسه مع كلبه السمين "ترمب(17)". وفي 1752 أرانا نفسه جالساً إلى حامله، جسم قصير متين، ووجه مستدير قصير سمين، وأنف أفطس عريض، وعينان زرقاوان أتبعهما طوال النضال وشفقتان مزمومتان تحفزا لاستئناف النضال. كان في رأي ثكري "مواطناً لندنياً أميناً مرحاً، ورجلاً مخلصاً صريحاً، يحب نكته، وأصحابه، وكأسه، وروزبيفه-روزبيف إنجلترا العجوز(18)". ولم يكن يصل طوله على خمسة أقدام، ولكنه كان يحمل سيفاً(19) ولا يطيق اللغو من أي إنسان.

وراء حبه للقتال دفاعاً عن النفس قلب محب، مسرف في العاطفة أحياناً، قطع على نفسه العهد أبداً بشن الحرب على النفاق والقسوة. وكان يحتقر النبلاء الذين يصورهم، ويحب اللندني البسيط البريء من الخيلاء. وقد أدخل الجماهير الإنجليزية إلى دنيا الفن، فصورهم في أاثمهم والامهم، في مستشفى المجاذيب، والسجن، والدين، والكذ المضني. وكره الفرنسيين لأنهم أفسدوا الإنجليز بخلوهم في الزينة وبخيلائهم الأرستقراطية. ولم ينس قط أنه قبض عليه لأنه رسم رسوماً تخطيطية لبوابة كاليه، فتأثر لنفسه بتصويره الفرنسيين كما رآهم هناك: عمالاً أجلاًفاً، وجمهوراً يؤمن بالخرافة، وراهباً بدينياً يحرق بنشوة في كتف من لحم البقر(20).

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

وقد أنبأنا هوجارث في كتابه "نوادير" كيف حولته ضالة ربحه من صورته إلى التجارة الذي أكسبه الشهرة، قال: "كرهت أن أنحدر إلى درك "صانع" الصور الشخصية، وإذا كنت لا أزال أصبو إلى الاستقلال في عملي، فقد طلقت كل أمل في الانتفاع من ذلك المورد.. وبما أنني لم أستطع إقناع نفسي بالعمل كما يعمل بعض إخواني، وجعل تصوير الأشخاص ضرباً من الصناعة يدار بالاستعانة بمصورين الخلفيات والستائر، لذلك لم تحقق لي هذه الطريقة من الربح ما يكفي لسد نفقات أسرتي. ومن ثم وجهت أفكاري إلى رسم وحفر الموضوعات الخلفية العصرية، وهذا ميدان لم يترق في أي بلد أو عصر(21)".

وعلى ذلك رسم في 1731 ست صور سماها "رحلة بغي"، وحفرها على النحاس، ومن هذه المحفورات صنع سلسلة من النسخ المطبوعة عرضت للبيع بعد عام، ترى فيها الفتاة القادمة من الريف تقدمها قوادة قاهرة على الإقناع إلى سيد ملهوف؛ والصدية سريعة التعلم، ولا تلبث أن تحرز ثراءً قبيحاً. ثم يقبض عليها لا للبغاء بل للسرقه، وتؤدي عملها المفروض عليها في السجن وهو نفض القنب، ثم تسير حثيثاً على المرض والموت، ولكن يعزبها أن يشجع جثمانه رهط من المومسات، وكان في استطاعة هوجارث أن ينقل شخوصه من الواقع دون مشقة أو عناء، فقد رأينا المسز نيدهام ينكل بها في المشهرة عقاباً لها على احترافها بالبغاء، ويحصدها الجمهور، وتموت من إصابتها. (ومع ذلك فإن الكولونيل تشارتريز، الذي اتهم مرتين بهتك العرض وحكم عليه مرتين بالإعدام، عفا عنه الملك مرتين، ومات في أبهة النبلاء بمقره بالريف(22)). وقد أخطأ هوجارث حين خيل إليه أنه طرق ميداناً جديداً في هذه الرسوم التي تمثل الحياة اليومية، فقد سبقها الكثير في إيطاليا النهضة، وفي فرنسا، وفي الأراضي المنخفضة، وفي ألمانيا. ولكن هوجارث جعل الآن من "الموضوعات الخلقية" فناً وفلسفة. على أنه، ككل الأخلاقيين، لم يكن مبرراً من الإثم، فقد أطاق في غير اسمنزاز صحبة السكرى والبغايا(23)، واكن الهدف من صوره المطبوعة أولاً التكسب، ثم التبشير بالفضيلة إن أمكن.

صفحة رقم : 11913

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

وراجت صور "البغي" المطبوعة، فاستهوت ألفاً ومائتي مكتب، ونيف ربحها الصافي على ألف جنيه. ومع أن طبقات مسروقة كانت تنتقص من ربح المصور، فإنها أبعدت شبح الجوع عن بابه. وأقبل الجمهور البريطاني في غير تردد على مناظر الخطيئة هذه، وهو الذي لم يكن به ولع باللوحات، فهنا فلكهة محرمة، طهرتها الفضيلة ولكنها لم تنتقص من بهجتها، وهنا يستطيع المرء لقاء ثمن زهيد أن يتعرف إلى الرذيلة وهو في مأمن، وأن يرقب عقابها الذي تستحقه وهو راض. واستطاع هوجارث الآن أن يطعم أسرته من مكاسبه، لا بل اتخذ مسكناً له في حي لستر فيلدز العصري، وعلق على بابه رأساً مذهباً يشير إلى مهنته فناً. وقد اشترى بعد ذلك بيتاً ريفياً في كزيك. ثم رسم صوراً كبيرة في السنوات القليلة التالية، لا سيما "مهرجان سدريك" -وهي لوحة "بروجلية" إنجليزية- ولوحة جماعية لطيفة تدعى "أسرة إدواردز" ولكنه عاد إلى رسومه المطبوعة في 1733، وعارض سلسلة "البغي" بسلسلة سماها "رحلة فاجر" ترى فيها شاباً طائشاً مفتوناً يرث فجأة تركة كبيرة، فيهجر أكسفورد غلى لندن، ويستمتع بالحنان والمومسات، ويبدد ماله، ويجر إلى السجن لعجزه عن الوفاء بديونه، ثم تنقذه خليلته التي نبذها، ويستعيد قدرته على الوفاء بديونه الزواج من كهله عوراء غنية، ولكنه يقامر بثروته الجديدة في نادي هوايت، فيودع السجن مرة أخرى، ويختتم سيرته مجنوناً في مستشفى "بدلام". لقد كانت تمثيلية أخلاقية في صور سهلة الفهم تصور قطاعاً من الحياة تصويراً دقيقاً. ولكن يحمي هوجارث سلسلة صور "الفاجر" المطبوعة من السرقة شن حملة تستهدف الحماية القانونية لحقوقه. وفي 1735 أقر البرلمان "قانوناً لتشجيع فنون الرسم، والحفر، والنقش الخ"، وهذا القانون، الذي تعارف الناس على تسميته "قانون هوجارث" أعطاه حقاً يعادل حق التأليف على صوره المطبوعة. وفي 1745 باع بالمزاد اللوحات التي حفر عنها سلسلتي "البغي" و "الفاجر"، فربح منها 427 جنيهاً. وتوافرت له الآن الكفاية المالية والثقة بالنفس، فغزا غزوة أخرى

صفحة رقم : 11914

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

في التصوير. "لقد راودتني بعض الآمال في أن ينجح فيما يسميه المغالون في إطراء الكتب "الأسلوب العظيم في تصوير التاريخ(24)". وفي العقد الممتد من 1735 إلى 1745 أنتج صوراً رائعة كان عليها أن تنتظر قرناً لتحتفى بالتقدير. فلوحة "الشاعر المحزون(25)" هي القصة القديمة، قصة المؤلف الذي افتقر يطالب في إلحاح بإيجار مسكنه بينما تحيك زوجته في عصبية وينام قطه في رضي خلي من الهم. وحاولت لوحته "بركة بيت حسداً" رسم مشهد من الإنجيل، ولكن هوجارث تباه بحسناء نصف عارية تقف أمام المسيح وجهاً لوجه. ولم يكن الفنان معصوماً من إغراء جسد الأنثى، ففي محفوره "الممثلات المتجولات يرتدين ثيابهن في جرن" خلغ على هذا الجسد الفتنة والإغراء بالثياب نصف المجردة. وتقرب لوحة "السامري الصالح(26)" من مستوى "أمة التصوير القدامى". وألطف منها لوحة كبيرة سماها "ديفد جاريك في دور رتشارد الثالث(27)" وقد كلفه بها رجل يدعى دنكوم دفع فيها مائتي جنيه، وهذا أعلى ثمن دفع لمصور إنجليزي إلى ذلك الحين. ومع ذلك لم تظفر هذه الأعمال باستحسان النقاد. فعاد هوجارث (175) إلى هجو الحياة اللندنية في محفورات أكد فيها المناقش درساً أخلاقياً بقصة. ففي المشهد الأول من "الزواج العصري" يتعاقد إيرل مفلس مصاب بالنقرس ليزوج لقبه وابنه الكاره فتاة كارهة هي ابنة حاكم إقليم غني. ويعرض الإيرل نسب الأسرة في شكل شجرة على درج، ويرش المحامي المسحوق المجفف على التوقيعات، ثم يدير العريس ظهره للعروس التي تلقي أذنناً مصغية لعشيقها، ويختص كلبان نفسيهما بالسلام العائلي. وفي المنظر التالي يبدو الزوجان وقد تخاصما. فقد عاد اللورد الشاب منهوفاً من مغامرة أنفق فيها ليلة ودلت على طبيعتها قلنسوة فتاة من الدنتلا تطل من جيبيه؛ أما الزوجة الشابة فتنتاب بعد أن قضت الليل ترفه عن أصحابها بالموسيقى والقمار و "الدردشة"، وهنا أيضاً ليس هناك مخلوق سعيد إلا الكلب. أما المشهد الثالث فهو هوجارث في أجراً حالاته، ترى فيه اللورد الوغد يأتي بخليلته إلى طبيب دجال ليجهضها. والنظر الرابع يرينا الزوجة أثناء ترحيل شعرها في استقبال الصباح، ونرى عشيقها معها وهي تتجاهل الموسيقى التي يعزفها أو يغنيها

صفحة رقم : 11915

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

ضيوفاً، وفيهم مخنث في شعره أوراق ملفوفة. وفي المنظر الخامس أمسكها زوجها متلبسة مع عشيقها، ويسئل الرجلان سيفيهما، ويجرح الزوج جرحاً مميناً، ويفر العشيق من النافذة، ويغلب الندم الزوجة ويظهر رجل الشرطة بالباب. وفي المنظر الأخير نرى الأرملة الشابة تحتضر، وينزع أبوها خاتماً ثميناً من إصبعها ليستنقذ البقية الباقية من الثروة التي دفعها ثمناً للقبها. وفي 1751 أعلن هوجارث أنه سيبيع بالمزاد في ساعة محددة في مرسمه اللوحات الزيتية التي رسمها لسلسلة "الزواج العصري"، ولكنه أئذ تجار الصور أن يبتعدوا عن المزاد. فلم يظهر غير شخص واحد، عرض 126 جنيهاً ثمناً للوحات وأطرها. ونزل عنها هوجارث لقاء هذا الثمن، ولكن سخط في سره على ما راه إخفاقاً معيباً. وفي 1797 بيعت هذه اللوحات بمبلغ 1.381 جنيه. وهي اليوم من أعلى ما تملكه قاعة الصور القومية بلندن وكان أثناء ذلك قد

أسخط الملك بلوحتة "زحف فرقة الحرس إلى إسكتلندة" (1745) وكانت السنة التي حاول فيها "الأمير تشارلي الجميل" الإطاحة بالهانوفرين. وصور هوجارث رجال الحرس الملكي يتجمعون عند إحدى ضواحي لندن المسماة فنشلي. يدعوهم زمار وطبال، ويستعين الجند على تقبل قدرهم بالسكر، وهم جماعة مظهرهم زري، وأصلح للقصف في حانة منهم للقاء مع الموت في ساحة الأبطال، وأطلع جورج الثاني على اللوحة كطلب الفنان الذي استأذن في إهدائه إليه. ولكن الملك رفض وهو يصيح "ماذا؟ مصور يهزأ بجندي؟ أنه يستحق أن يحبس عقاباً على وقاحته. اغربوا باللوحة الحقيبة عن وجهي" وتقول رواية غير مؤكدة أن هوجارث أهدى الصورة إلى فردريك الأكبر بوصفه "مشجعاً للفنون والعلوم(28)".

وعاد إلى صورته المطبوعة الهجائية. فنتبع سيرة صبيين من صبيان الصناعات في اثنتي عشرة لوحة سماها "الجد والكسل" (1747). فأما فرانك جوتشايلد فيكد ويكدح ويفرأ الكتب الجيدة ويختلف إلى الكنيسة كل أحد، ويتزوج ابنة معلمه ويحسن إلى الفقراء، ويصبح عمدة البلدة وحاكماً إقليمياً ثم عمدة على لندن، وأما توم أيدل فينام

صفحة رقم : 11916

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

ويشخر فوق نوله، ويقرأ الكتب الخبيثة مثل "مول فلاندرز"، ويسكر ويقامر وينشل، ثم يؤتى به أمام الحاكم جودتشايلد الذي يحكم عليه بالشنق وهو يبكي شفقة عليه. وقابلت محفورتان، هما "زقاق الجن" و "شارع الجعة" (1751) بين "النتائج الرهيبة لشرب الجن" والآثار الصحية للجنة. أما "المراحل الأربع للقسوة" (1751) فقد قال الفنان إنها استهدفت "تهذيب تلك المعاملة الهمجية للحيوان، التي تجعل منظر شوارع عاصمتنا محزناً جداً لكل نفس حساسة. وإنني لأشد فخرأ برسمي لهذه الصور مما لو كنت صاحب رسوم رفايل الهزلية(29)". وفي سلسلة "صور أربع لأحد الانتخابات" (1755-58) استهدف شروطاً أبهض ثمناً، فقد هاجمت فساد السياسة الإنجليزية. ولو أخذنا صور هوجارث المطبوعة على أنها مجرد رسوم لكانت فجو في فكرتها وتنفيذها متعجلة غير دقيقة في تفاصيلها. ولكنه كان ينظر إلى نفسه على أنه مؤلف أو كاتب مسرحي أكثر منه مصوراً، وقد أشبه صديقه فيلدنج أكثر من ألد خصومه وليم كنت، ولم يكن يعرض تقنيات التصوير بل يقدم صورة للعصر، "لقد حاولت تناول موضوعي كما يتناولها كاتب للدراما، فصورتي هي خشبة مسرحي، والرجال والنساء هم ممثلي الذين يراد منهم ببعض الحركات والإيماءات أن يقدموا عرضاً صامتاً(30)". ونحن إلى نظرنا إلى صورته المطبوعة على أنها هجائيات وجدناها مبالغت متعمدة، فهي تشدد على جانب وترهف نقطة وهي أكثر ازدحاماً بالتفاصيل مما ينبغي أن يكون عليه العمل الفني، ولكن كل تفصيل فيما عدا الكلب الذي لا مناص منه يسهم في الموضوع. وصوره المطبوعة في مجموعها تتيح لنا نظرة إلى طبقة لندن الوسطى-الدنيا في القرن الثامن عشر؛ البيوت، والحانات وحي المل، وكوفنت جاردن، وكوبري لندن، ونشيبسايد، وبرايديويل، وبدلام، وشارع فليت، وهذه ليست كل لندن، ولكن ما صورته منها ينبض بالحياة نبضاً رائعاً.

أما ناقدو الفن وجماعوه وتجاره في ذلك العهد فلم يعترفوا لا بكفاية هوجارث فناً ولا بصدقه هجاء. فاتهموه بأنه لا يصور غير

صفحة رقم : 11917

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

حثة الحياة الإنجليزية، وسخروا منه لأنه اتجه إلى صور مطبوعة شعبية لعجزه عن تصوير اللوحات الشخصية الناجحة أو المناظر التاريخية. ونددوا برسمه لأنه مهمل وغير دقيق. وقد رد عليهم بأن اتهم التجار بأنهم يتآمرون على الإشادة بما يحتفظون به من مخلفات كبار المصورين القدامى، بينما يتركون الأحياء يتصورون جوعاً. قال: "إن أفضل الصور صيانة وأكملها صقلاً، بغير تكريس لها من سلطتهم وتأييد من التقاليد... لا تباع في مزاد علني بخمسة شلنات، في حين أن لوحة قماشية عتيقة، حقيرة، معطوبة، مرممة، إذا كرسها ثأؤهم عليها، لا بد أن تباع بأي ثمن مهما غلا، وتحل مكاناً بين أرقى المجموعات. كل هذا يفهمه التجار فهماً تاماً (31)".

وقد رفض أن يخضع رأيه لأمثال هؤلاء التجار أو الخبراء. وندد باسترقاق المصورين الإنجليز لمحاكاة فاندريك أو للي أو نلر؛ لا بل إنه أطلق على عمالقة التصوير الإيطالي لقباً هزلياً هو "الأساتذة السود"، لأنهم ألقوا على التصوير الإنجليزي حجاباً كثيفاً بالسحر الأسود (الشيطاني) الكامن في ألوانهم القاتمة الشبيهة بالصلصة البنية. فلما بيعت لوحة منسوبة إلى كوريدجو بأربعمائة جنيه في مزاد بلندن، تشكك في صحة نسبتها وفي قيمتها، وقال إن في وسعه أن يرسم صورة لا تقل عنها جودة في أي وقت شاء. فلما تحداه بعضهم، رسم لوحة "سجسوندا" (1759) -وهي محاكاة جيدة لكوريدجو، فيها الدانتيل والملايس الزاهية والأيدي الرقيقة والوجه الجميل، ولكن العينين كان يشوبهما من الاكتئاب ما لم يسر المشتري المنتظر، الذي أبى أن يدفع الجنيهات الأربعمائة التي طلبها هوجارث ثمناً لها. وقد بيعت بعد موته بستة وخمسين جنيهاً.

ثم أعطى خصومه سلاحاً جديداً بتأليفه كتاباً. فعلى لوحة الألوان الظاهرة في الصورة التي رسمها لنفسه ولكلبه (1745) كان قد تتبع خطأ ملتقاً لاح أنه العنصر الأساسي في الشكل الجميل. وقد عرف هذا الخط في رسالة تربوية سماها "تحليل الجمال" (1753) بأنه

صفحة رقم : 11918

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

ذلك الخط الذي يتكون بلف سلك في توال مطرد حول مخروط، وذهب إلى أن خطأ كهذا ليس سر الجمال فحسب، بل حركة الحياة. وكان هذا كله في رأي نقاد هوجارث هراءً سخيفاً.

على أنه أثري برغم أنوفهم، فاقتنى كل بيت متقف تقريباً صورته المطبوعة، وتاح له بيعها المتصل دخلاً ثابتاً. وفي 1757، وبعد أن نسيت لوحته "زحف فرقة الحرس"، عين "رئيس المصورين لكل أعمال جلالته"، وهي وظيفة أنته بمائتي جنيه أخرى في السنة. وكان في وسعه الآن أن يختصم أعداءً جدداً. ففي 1762 أصدر صورة مطبوعة سماها "العصر الحاضر" هاجم فيها بت ولكس وغيرهما لأنهما تجار حرب. ورد ولكس في مجلته "البريطاني الشمالي" يصف هوجارث بأنه عجوز مغرور جشع لا يستطيع تصور "فكرة واحدة عن الجمال" ورد هوجارث بنشره لوحة صور فيها ولكس وحشاً أحول. ورد تشرشل، صديق ولكس، بخطاب شرس سماه "رسالة إلى وليم هوجارث"، فأصدر هوجارث صورة مطبوعة بدا فيها تشرشل على هيئة دب، وكتب يقول "إن اللذة والفائدة المالية اللتين حصلت عليهما من هاتين المحفورتين، بالإضافة إلى ركوبي الخيل بين الحين والحين، أعادا إلي من الصحة الموفورة أكثر ما يرجى في مثل عمري". ولكن في 26 أكتوبر 1764 انفجر أحد شرابينه فمات.

ولم يترك بصمة منظورة على فن زمانه. وفي 134 افتتح "مدرسة حياة" ليدرب الفنانين، وقد أدمجت في 1768 في الأكاديمية الملكية للفنون. ولكن حتى الفنانون الذين تعلموا في مدرسته هجروا واقعيته مؤثرين عليها المثالية الفاشلة يومها. مثالية رينولدز وجينزبورو. على أن تأثيره أحس به الناس في مجال الكاريكاتور؛ هناك انتقلت فكاهته وقوته من توماس رولاندسن إلى إسحاق وجورج كرونشاك، وأصبح الكاريكاتور فناً. أما شهرة هوجارث الحالية مصوراً فقد بدأت بملاحظة لهويسلر قال فيها إن هوجارث "هو المصور الإنجليزي العظيم الوحيد (34)". وقد استثنى هويسلر نفسه في حرص من هذه المقارنة. وقال قاض أقل تحوطاً في تقديره لهوجارث "إننا لو نظرنا إليه في أفضل صورة لوجدناه أعظم شخصية في تصوير

صفحة رقم : 11919

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> وليم هوجارث

القرن الثامن عشر (35)". وهذا التقدير يمثل ما يشيع اليوم من بخس لقدر رينولدز بدعوى أنه كان مجملاً للأرستقراطيين همه جمع المال، وتلك نزوة عارضة ستختفي. ومن العسير تقييم هوجارث كفنان، لأنه لم يكن فناً فحسب، فلقد كان صوت إنجلترا الغاضبة لما فيها من فساد وانحطاط، ولقد عد نفسه بحق قوة اجتماعية. كذلك فهمه فيلدنج فقال فيه "أكاد أجروء على التأكيد بأن عمليه هذين اللذين يسميهما "رحلة فاجر" و "رحلة بغي"، قصد بهما خدمة قضية الفضيلة.. أكثر مما خدمتها كل المجلات الضخمة التي كتبت إطلاقاً في الأخلاق (36)". على أن شيئاً واحداً لا شك فيه، هو أنه كان الإنجليزي الصميم بين جميع من عاش من الفنانين الإنجليز.

صفحة رقم : 11920

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> الموسيقيون

3- الموسيقيون

من أغاز التاريخ المحيرة ذلك السر في أن إنجلترا التي أسهمت هذا الإسهام الموفور في التطور والنظرية الاقتصادية والسياسيين، وفي الأدب والعلم والدين والفلسفة-إنجلترا هذه أفضرت نسبياً في أشكال التأليف الموسيقي الأكثر تعقيداً منذ عصر اليزابيث الأولى. وربما وجدنا بعض تعليل لهذه الظاهرة في زوال الكتلة من إنجلترا؛ فالمذاهب الجديدة شجعت المؤلفات الموسيقية الرفيعة تشجيعاً أقل، ومع أن الشعائر اللوثرية في ألمانيا والأنجليكانية في إنجلترا تطلبت الموسيقى، فإن أشكال البروتستنتية الأكثر ترمناً في إنجلترا وفي الجمهورية الهولندية لم تبدل

تشجيعاً يذكر لأي موسيقي تزيد على الترنيمة الجماعية التي يرئمها المصلون. وحل محل أساطير كنيسة روما وطقوسها، التي طالما شددت على مباحج الإيمان، عقائد جبرية قائمة تشدد على هول الجحيم، ولم يستطع غير "أورفيوس" أن يغني في وجه الجحيم. وماتت أغاني إنجلترا اللإليزابيثية الغرامية الشعبية في الصقيع الببورتاني. وقد جلبت عودة الملكية من فرنسا روحاً أكثر مرحاً، ولكن بعد موت بيرسل أسدل حجاب كثيف على الموسيقى الإنجليزية من جديد. هذا باستثناء الأغاني التي تفاوتت من الجمهوريات الجماعية المنتشرة في أندية الطرب glee clubs إلى الرقة الهفافة التي تميزت

صفحة رقم : 11921

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> الموسيقيون

بها الغنائيات المأخوذة من تمثليات شكسبير. وكلمة glee هي الكلمة الأنجلو-سكسونية glee، ومعناها الموسيقى؛ ولم تتضمن بالضرورة الفرح، وكانت تطبق عادة على الأغاني التي لا ترافقها الموسيقى لثلاثة أصوات أو أكثر. وازدهرت أندية الطرب قرناً، وبلغت أوجها حوالي عام 1780 في عز أيام أكبر مؤلفي لأغاني الطرب، وهو صموئيل وب. وكان أجمل منها موسيقات توماس أرن التي لحنها لأغاني شكسبير - "هبي، هبي، يا ربح الشتاء" و "تحت شجرة الغابة الخضراء" و "حيث ترشف النحلة رحيقها هناك أرشف رحيقي"؛ وما زالت هذه تسمع في إنجلترا. والموسيقى المشجي أرن هو الذي لحن قصيدة طومسن "احكمي يا بريطانيا!" وفي هذه الفترة، أو قبلها، لحن وطني مجهول نشيد بريطانيا القومي، "حفظ الله الملك". وعلى قدر ما نعلم، غني هذا النشيد علناً أول مرة في 1745 حين جاء نبأ بأن قوات جورج الثاني هزمها الاسكتلنديون بقيادة المطالب الشاب بالعرش عند بريستونيانس، ولاح أن أسرة هانوفر قد حان حينها. والنشيد في أقدم صورته المعروفة وهي (وهي لا تختلف إلا اختلافاً طفيفاً عن الكلمات واللحن الحاليين) دعا إلى الله بالنصر على الحزب الإستيوارتي في السياسة الإنجليزية، وعلى الجيش الإستيوارتي الزاحف من إسكتلندة:

"حفظ الله مولانا الملك

ليحي لكانا النبيل (جورج الثاني) طويلاً،

حفظ الله الملك.

ربنا انصره نصرأ عزيزأ

واجعله سعيدأ عظيماً،

ليملك علينا طويلاً،

حفظ الله الملك.

ربنا وإلهنا قم،

وشتت أعداءه،

واجعلهم يسقطون،

واحبط سياساتهم

وأفسد مكائدهم الوضيعة

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> الموسيقون

آمالنا معلقة عليه (في النص الحالي "عليك")،

احفظ اللهم أجمعين(37)".

واقترنت اللحن لفترات شتى تسع عشرة دولة، لحننت به أغاني وطنية، ومن هذه الدول ألمانيا وسويسرا والدنمرك والولايات المتحدة الأمريكية-التي أحلت في 1931 محل "أمريكا" نشيداً قومياً "الراية المرصعة بالنجوم" يغني وفق لحن عسير من أغنية شراب إنجليزية عتيقة.

ويدل رواج الأغاني الرقيقة في إنجلترا على ذوق موسيقي واسع الانتشار. فكان في كل بيت هاريسيكورد فيما عدا بيوت الفقراء، وكان كل إنسان تقريباً يعزف على إحدى الآلات الموسيقية، وتوفر من العازفين في الاحتفال بذكرى هندل عام سنة 1784 بدير وستمنستر عدد يكفي للعزف على خمسة وتسعين كماناً، وست وعشرين فيولا، وإحدى وعشرين فيولنتشاللو، وخمسة عشر دبل باصاً، وستة نايات، وست وعشرين أوبوا، واثنى عشر بوقاً، واثنى عشر نفيراً، وست ترمبونات، وأربعة طبول، مع فرقة غنائية من تسعة وخمسين سوبرانو، وثمانية وأربعين تينوراً وأربعة وثمانين باصاً-هذا عدد كان خليقاً لكبره بأن يرتجف له هندل فرقاً في مقبرته بالدير. ولم يدخل الكلارينت إلا في أواخر القرن. وكان هناك أراغن رائعة، وعازفون عظماء عليها مثل موريس جرين الذي كانت أناشيده وتسبيحات شكره مع تلك التي لحنها هندل وبويس-هي تقريباً موسيقى إنجلترا الكنسية الوحيدة الجديرة بالذكر في ذلك العصر. أما ولیم بويس فقد ارتقى حتى أصبح مديراً للفرقة الموسيقية الملكية (أي الأوركسترا) وعازف الأراغن في الكنيسة الملكية رغم ما شاب سمعه من خلل في صباه. وكان أول "مايسترو" يقود العازفين واقفاً. أما هندل ومعاصروه الآخرون فكانوا يقودونهم من الأراغن أو الهاريسيكورد وما زالت بعض أناشيده-لا سيما "على أنهار بابل"-تسمع في الكنائس الأنجليكانية، وما زالت البيوت الإنجليزية تسمع على الأقل أغنيتين من أغانيه "قلوب من البلوط" التي كتبها لإحدى تمثيلات

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> الموسيقون

جاريك الإيمائية، و "رفقاً في هوبوك يا نسيم الجنوب" وهو لحن في كنتانا "سليمان". أما سمفونياته فتبدو ضعيفة هزيلة لأذنانا التي عراها الذبول.

كان الشيء المثير الوحيد في دنيا الموسيقى الإنجليزية في مطلع القرن الثامن عشر هو مجيء الأوبرا، وكانت هناك عروض سابقة ترجع إلى عام 1674، ولكن الأوبرا لم تستهوَ المزاج الإنجليزي إلا حين قدم المغنون الإيطاليون من روما في 1702. وفي 1708 صدمت لندن واقتتنت بصوت مغن سوبرانو، خصي (castrato) يدعى نيكوليني. وتلاه مغنون خصيان آخرون، وقد ألفتهم إنجلترا، وكادت تجن بصوت فارينللي. فما وافى عام 1710 حتى كان في لندن من المغنين الإيطاليين عدد أتاح لهم تقدير أول أوبرا فيها بالإيطالية دون غيرها. وقامت الاحتجاجات الكثيرة على هذا الغزو. وخصص له أديسون العدد الثامن عشر من صحيفته "سبكتيتور" مستهدفاً:

"أن يسلم إلى الأجيال القادمة وصفاً أميناً للأوبرا الإيطالية.... أن حفتنا البعيدين سيشتد فضولهم لمعرفة السر في أن أجدادهم اعتادوا الجلوس معاً كأنهم جمهور من الأجانب في وطنهم ليستمعوا إلى تمثيلات بأكملها تمثل أمامهم بلسان لا يفهمونه".

واستنتج من حركات هذه التمثيلات أنه ما من شيء في الأوبرا "يصلح للتلحين الجيد إلا كان لغواً فارغاً". وسخر من المناظر التي يغازل فيها البطل حبيبته بالإيطالية، فتزد البطلة بالإنجليزية وكان اللغة أمر ذو بال في مثل هذه الأزمان. واعترض على المناظر المسرحية المسرفة -على العصافير الحقيقية التي تطير حول المسرح، ونيكوليني يرتعش في قارب مكشوف على بحر من الورق المقوى.

وكان في صدر أديسون ضغينة يريد شفاءها، فقد كتب النص لأوبرا توماس كلايتون الإنجليزية "روزاموند" التي فشلت (38). وأغلب الظن أن ثورته (21 مارس 1711) فجرها العرض الأول (24 فبراير) لأوبرا إيطالية تسمى "رينالدو" في دار أوبرا هايماركت.

صفحة رقم : 11924

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> الموسيقيون

وزاد الطين بلة أن الموسيقى ألفها ألماني وفد مؤخرأ على إنجلترا، هذا إلى أن الكلام كان بالإيطالية. ومما أفرع أديسون أن الأوبرا الجديدة حققت نصراً عظيماً، فما مضت ثلاثة أشهر حتى كانت قد عرضت خمس عشرة مرة اكتظ المسرح فيها دائماً برواده، ورقصت لندن على مختارات من موسيقاها، وتغنت بألحانها الأكثر بساطة (39). تلك هي بداية الطور الإنجليزي في أروع سيرة في تاريخ الموسيقى.

صفحة رقم : 11925

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

كان جيورج فريدرش هندل أشهر مؤلف موسيقي على عهد يوهان سباستيان باخ. انتصر في ألمانيا ودانت له إيطاليا الموسيقية، وكان روح الموسيقى وتاريخها في إنجلترا طوال النصف الأول من القرن الثامن عشر. واتخذ تقوقه قضية مسلمة، لم يجادله في ذلك مجادل، وشمخ في دنيا الموسيقى كأنه مارد مسيطر يزن 250 رطلاً. ولد في مدينة هاله بسكسونيا العليا في 53 فبراير 1685 قبل مولد يوهان سباستيان باخ بستة وعشرين يوماً، وقبل مولد دومنيكو سكارلاتي بثمانية أشهر. ولكن بينما أشرب باخ وسكارلاتي الموسيقى منذ طفولتهما، وأتيح لهما أبوان من مشهورين المؤلفين، وربيا على سلم موسيقي ملزم، ولد هندل لأبوين لا يكثران للموسيقى؛ فأبوه كان الجراح الرسمي في بلاط الدوق يوهان أدولف أمير ساكس-فايسنفلز، وأمه ابنة قس لوثيري. ولم يرضيا عن إيمان الغلام على عزف الأرغن والهاربسيكورد، ولكن حين أصر الدوق بعد أن سمعه يعزف على ضرورة تدريبه على الموسيقى، سمحا له بأن يدرس على فريدرش تساخاو، عازف الأرغن بكنيسة ليبفر اوينكيرشي في هاله. وكان تساخاو معلماً مخلصاً دقيقاً. فما بلغ جيورج الحادية عشرة حتى كان يؤلف

صفحة رقم : 11926

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

السوناتات (التي بقي منها ست)، وحقق العزف على الأرغن إلى حد حمل تساخاو والأبوين المستسلمين على إيفاده إلى برلين ليعزف أمام صوفيا شارلوت ناخبة براندنبورج المثقفة، التي ستصبح عما قليل ملكة بروسيا. فلما عاد جيورج إلى هاله (1697) وجد أن أباه قد مات. أما أمه فعمرت إلى سنة 1729. وفي 1702 دخل جامعة هاله ليحضر لمهنة المحاماة في ظاهر الأمر. وبعد شهر عينه القائمون على الكتدرائية الكالفنية في هاله مكان عازف أرغنهم الكبير. أما العبقرى الشاب الذي لا يستقر على حال، والذي هفت نفسه إلى مجال أرحب، فبعد أن قضى عاماً واحداً هناك اقتلع كل جذوره التي في هاله باستثناء حبه المقيم لأمه وانطلق ميمماً هامبورج، حيث كان الناس يحبون الموسيقى حباً يكاد يبلغ جهم للمال. وكان في هامبورج داراً للأوبرا منذ 1678. هناك وجد هندل، وهو في الثامنة عشرة، مكاناً له عازفاً ثانياً للكمان. وصادق يوهان ماتيسون البالغ من العمر اثنتين

وعشرين عاماً، و"التينور" الأول في الأوبرا، الذي أصبح بعد ذلك أشهر النقاد الموسيقيين في القرن الثامن عشر. ورحل معه إلى لوبك (أغسطس 1703) ليستمعاً إلى الشيخ بوكستيهودي يعزف، ويتحسناً إمكان خلافته في العزف على الأرغن في كنيسة مارينكرشي، ووجداً أن خليفته يجب أن يتزوج ابنة هذا الشيخ. فنظراً إلى الشيخ وابنته ثم رحلا عن المدينة.

وانهارت صداقتهما في مباراة سخيفة سخرت المبارزات في أي مسرحية. ذلك أنه في 20 أكتوبر 1704 أخرج ماتيسون أوبرا "كليوبطره" ومثل دور البطل فيها. ولقيت نجاحاً لا شك فيه، وأعيد تمثيلاً مراراً. وفي هذه الحفلات قاد هندل الأوركسترا والمغنين من الهاربسيكورد. وكان ماتيسون أحياناً ينزل من خشبة المسرح بعد أن يموت في دور أنطونيوس، وفي نشوة الفخر يأخذ مكان صديقه قائداً وعازفاً على الهاربسيكورد، ويسعد بنصيب من التصفيق الأخير. وفي 5 ديسمبر أبى هندل أن يحل صديقه محله على هذا النحو. فألحق الصديقان الأوبرا بشجار ساخن، وعقب انتهاء التمثيل سارا إلى الميدان العام، واستلا سيفيهما، واقتتلا على أنغام المديح من رعاة الأوبرا

صفحة رقم : 11927

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

والمارة. وصلك سيف ماتيسون زراً معدنياً على سترة هندل فانكسر. وانقلبت المأساة مهزلة في نظر الجميع إلا بطليها، وراحا يجتران سخطهما إلى أن قبل مدير الفرقة أوبرا هندل "المير" التي احتاجت إلى ماتيسون ليؤدي دور التينور. وأعاد نجاح الأوبرا (8 يناير 1705) الخصمين صديقين كما كنا من قبل. وأحب الناس أوبرا "المير"، التي احتوت على واحد وأربعين لحناً بالألمانية وخمسة عشر بالإيطالية، حباً أتاح عرضها عشرين مرة في سبعة أسابيع. ودب دبيب الغيرة في قلب راينهارت كايزر الذي كان مشرفاً على الفرقة ومؤلفاً لمعظم أوبراتها. وضعفت شبيهه أوبرا هامبورج، وعاش هندل عامين على دخل ضعيف. وكان الأمير جوفان جاستوني دي مدينشي، أثناء مروره بهامبورج، قد نصحه بأن يرحل إلى إيطاليا حيث يجن الناس كلهم بالموسيقى ويصدق حتى خدم المطاعم بالأغاني الجميلة. واقتحم هندل ثلوج جبال الألب في ديسمبر وفي محفظته مانتا دوقانية، وخطاب من جاستوني إلى أخيه فرديناند وجد جيوب فرديناند منيعة نزل إلى روما. ولكن دار الأوبرا هناك كان قد أغلقها البابا انوسنت الثاني عشر باعتبارها بؤرة للفساد. وعزف هندل على الأرغن في كنيسة سان جوفاني لاترانو، وصدق له الجمهور عازماً بارعاً، ولكنه عاد إلى فلورنسة لأن أحداً لم يرد أن يخرج أوبراه الجديدة. هناك وجد جاستوني الذي دافع عنه، ففتح فرديناند كيس نقوده، ومثلت "رودريجو"، وسر الجميع بها، ونفخ فرديناند مؤلفها الشاب بمائة سكويين (300 دولار؟) وطقم عشاء من الخبز. ولكن فلورنسة لم يكن بها دار أوبرا عامة، أما البندقية فكان بها ست عشرة داراً. ومن ثم مضى هندل إلى البندقية. كان ذلك في خريف 1707، وملكة الأدرياتي مبهورة بسحر أليساندرو سكارلاتي، تصفق لأعظم أوبراته "مترداتي أوباتوري"، فلا مجال فيها لألمان شاب حديث العهد بتعلم أسرار الميلوديا الإيطالية ودرس هندل أوبرات سكارلاتي، ووجد له صديقاً وفيّاً في ابن اليساندرو. وتقول الرواية أنه حين عزف هندل وهو مقتنع على الهاربسيكورد في حفلة تنكرية في البندقية، صاح دومنيكو سكارلاتي

صفحة رقم : 11928

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

"هذا أما السكسوني المعجز أو الشيطان(42)". والصدقة الخالدة التي ربطت قلبي أعظم عازفين للهاريسيكورد في ذلك العهد أشبه بلحظة تناغم وانسجام وسط نشاز التاريخ. وقد ترك كلاهما البندقية للموسيقيين الأكبر منهما سرّاً وانطلقا إلى روما (يناير 1708؟).

وفي هذه المرة لقي هندل استقبالا أفضل. فقد بلغ نبأ "رودريجو" العاصمة، وفتح الأمراء والكرادلة أبوابهم له، وهم أشد ضيقاً بلهجته الألمانية منهم بمذهبه اللوثري. وبنى المركز دي رسولي مسرحاً خاصاً في قصره ليخرج عليه أول أورتوريو لهندل، واسمها "القيامة"، وكانت موسيقاها مفاجأة ملهمة في قوتها وتعقيدها وعمقها، وسرعان ما راحت الصفوة المثقفة كلها في روما تتحدث عن "السكسوني الطويل الجبار". غير أن موسيقاه كانت أصعب مما يحبه العازفون الإيطاليون. فلما أخرج الكردينال بيبيترو أوتوبوني أورتوريو هندل "سريناتا" أتعبت الموسيقى أركانجولو كوريللي، الذي كان عازفاً أول للكمان وقائداً للأوركسترا. فتمتم في تأدب "أيها السكسوني العزيز، هذه الموسيقى تنهج النهج الفرنسي الذي لا أفهمه(43)". وأخذ هندل الكمان من يدي كوريللي وعزف بحيويته المعهودة. وسامحه كوريللي.

بقي على هندل أن يغزو نابلي. وتقول رواية لا يعتمد عليها أن هندل وكوريللي، وسكارلاتي الأب والابن، كلهم قصدوا تلك المدينة معهم (يونيو 1708). وتزعم قصة أخرى مشكوك فيها أن هندل وقع في غرام هناك؛ ولكن التاريخ الحذر يعترف في أسف بأنه ليس لديه أي دليل سليم على أي غرام وقع فيه هندل إبان حياته في أي بلد، اللهم إلا غرامه بأمه وبموسيقاه. وقد يبدو أمراً لا يصدق أن خلو قلب رجل استطاع أن يكتب مثل هذه الألحان المشهورة من شعلة الحب، ولعل التعبير عنها بدد حرارته على أجنحة الغناء. أما أهم الأحداث في هذه الفترة التي أقام فيها هندل في نابلي فهو -على قدر علمنا لقاؤه بالكردينال فنتشنتسو جريماتي، حاكم نابلي وسليل أسرة بندقية غنية. وقد قدم للمؤلف نص أوبرا تتناول موضوع أم نبرون القديم. وأتم هندل المهمة في ثلاثة أسابيع. ورتب جريماتي تمثيلها في مسرح أسرته بالبندقية، فأسرع إليها هندل حاملاً موسيقاه.

صفحة رقم : 11929

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

كانت الحفلة الافتتاحية لأوبرا "أجربينا" (26 ديسمبر 1709) أبهج الانتصارات التي عرفها هندل إلى ذلك الحين. ولم تخالج الإيطاليين الكرماء الغيرة لأن ألمانيا تفوق عليهم في لعبتهم، وأراهم روائع من النغم، واقتحامات من الانتقال، وأفانين من الصنعة قل أن أدركها حتى موسيقيهم المفضل اليساندرو سكارلاتي، فهتقوا "يحي السكسوني الحبيب(44)". ونال نصيباً من هذا الهتاف المغني الباصو الممتاز جوزيبي بوسكي الذي تنقل صوته قفي يسر بين سلسلة كاملة من تسع وعشرين نغمة.

وخطب الكثيرون ود هندل الآن. فنصحته تشارلز مونتاجيو، إيرل مانستستر الذي كان سفيراً لبريطانيا في البندقية، بأن يذهب إلى لندن، وعرض عليه الأمير ارنست أوغسطس الأخ الأصغر للناخب جورج لويس، وظيفة قائد الفرقة الموسيقية الكنسية في هانوفر. لقد كانت البندقية رائعة، تنتفس الموسيقى، ولكن إلى متى يستطيع المرء أن يكسب قوته من أوبرا واحدة، وإلى متى يستطيع الركون إلى هؤلاء الإيطاليين المتقلبين؟ أما هانوفر ففيها ضباب، وغيوم، وكلام

خارج من الحناجر، ولكن فيها أيضاً دار فخمة للأوبرا وراتب ثابت وطعام ألماني دسم؛ ثم أنه يستطيع بين الحين والحين أن يركب منها ليزور أمه في هاله. وعليه ففي 15 يونيو 1710 عين هندل قائداً للفرقة الكنسية في هانوفر، وكان يومها في الخامسة والعشرين، براتب سنوي قدره ألف وخمسمائة كراون، مع الأذن له بالغياب بين حين وحين. وفي خريف ذلك العام، طلب الأذن له بزيارة إنجلترا، فحصب عليه، ووعد بالرجوع سريعاً.

ب - غزو إنجلترا

كانت أوبرا لندن في محنة. ففيها فرقة إيطالية تغني، مغنيها الباصو بسكي، ومغنيها الكونتز التو زوجته، ومغنيها السوبرانو نيكوليني الذي ذهب تشارلز بيرني، مؤرخ الموسيقى الغيور، إلى أنه "أول مغن عظيم حقاً غني في مسرحنا(45)". ولكن دار أوبرا هايماركت (وكانت يومها تسمى مسرح صاحبة الجلالة)، ومسرح

صفحة رقم : 11930

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

دروري لين، كانا يقعان في قسم من المدينة، تنشل فيه الجيوب وتحطم الرعوس. وتردد "المجتمع الراقي" في المغامرة بباروكاته وأكياس نقوده هناك. وسمع آرون هل مدير الفرقة بأن هندل في لندن، فعرض عليه نص أوبرا مأخوذاً عن "تحرير أورشليم" لتاسو. وعكف هندل على العمل بنشاطه الهائل، ونقل في غير طرح عن ألحانه هو، فلم ينقض أسبوعان حتى أتم أوبرا "رينالدو". فأخرجت في 24 فبراير 1711، وأعيد عرضها أربع عشرة مرة أمام جمهور حافل قبل أن ينتهي الموسم في 22 يونيو. وهاجمها أديسون وستيل، ولكن لندن أقبلت عليها، وتغنت بألحانها في الشوارع، وأكثر ما مس أوتار العاطفة من ألحانها بل يستطيع أن يحرك مشاعرنا حتى في يومنا هذا، لحنان هما اتركني إنني أبكي Lascia Ch'io pianga و Cara Sposa يا زوجتي العزيزة، وقد ربح جون وولش ألفاً وأربعمائة جنيه بنشره أغاني من أوبرا مينالدو، واقتراح هندل في سخرية أن على وولش أن يكتب موسيقى الأوبرا القادمة ويترك له نشرها(46). وما لبثت هذه الأوبرا، وهي خير أوبرات هندل، أن أخرجت في دبلن وهامبورج ونابلي، وقد شغلت المسرح في لندن عشرين عاماً.

ومد هندل أجازته حتى بلغت سنة كاملة وهو يرشف نجاحه على مهل، ثم عاد كارهاً إلى هانوفر (يونيو 1711) ولم يكن هناك أسداً في قاعات الاستقبال، بل خادماً في قصر الأمير الناخب؛ وأغلقت دار الأوبرا فترة الموسم، فألف الكونشر توات الكبيرة والكنناتات، وبينما كان خياله يحلق في سماء الأوبرات. وفي أكتوبر 1712 استأذن في زيارة أخرى "قصيرة" لإنجلترا. وأذن له الأمير الناخب، ربما هو شاعر أن إنجلترا ستكون على أية حال إقطاعية هانوفرية بعد قليل. ووصل هندل إلى لندن في نوفمبر، ومكث هناك ستاً وأربعين سنة.

وقد حمل معه أوبرا جديدة هي "الراعي الوفي"، التي ما زال استهلالها اللطيف يسحر جونا. وقد أخرجت في 22 نوفمبر، وفشلت. وولفور بدأ موضوعاً آخر وقد حفزه هذا الفشل أكثر مما ثبط همته،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

والموضوع هو "تيسيو (ثيوسيسوس). وكانت حفلة الافتتاح نصرأ له، ولكن المدير هرب بعد الليلة الثانية حاملاً إيصالات شباك التذاكر. وتسلم عمله مدير آخر اسمه جون هيديجر، وواصل عرض "تيسيو" حتى بلغت عروضها ثلاثة عشر، وكافأ المؤلف الذي لم ينقذ أجره بتنظيمه حفلة خيرية لإعانة "المستر هندل"، ظهر فيها المؤلف وهو يعزف على الهاربسيكورد. ودعا إيرل بيرلنتن، وكان مستمتعاً متحمساً، هندل لينزل ضيفاً عليه في قصر بيرلنتن، وقبل هذه الدعوة، ووجد المسكن الطيب والطعام المترف، والنقى هناك ببوب، وجاي، وكننت، وغيرهم من أئمة الأدب والفن.

وأقبلت عليه الدنيا أيما إقبال. ذلك أن الملكة آن تافتت لوضع حد لحرب الوراثة الأسبانية، وأنتت النهاية مع معاهدة أوترخت، فأبهج هندل أن بأن "تسيحة أوترخت" وب "أغنية الميلاد" في عيد ميلادها. وأثبت فيهما أنه درس "كوارس" بيرسيل. وأثابته الملكة العطوف بمعاش قدره بمائتا جنيه. أما وقد ظفر بالاطمئنان والرخاء، فإنه استراح الآن على مجدافيه طوال سنة من التهرب.

ولكن في أول أغسطس 1714 ماتت آن، وأصبح الناخب جورج لويس أمير هانوفر ملكاً على إنجلترا باسم جورج الأول. وتوجس هندل بعض الشيء من هذا الاتجاه الذي اتخذته الأحداث. فالواقع أنه هرب مع هانوفر، ولو أنه يتوقع أن يكون الملك غير راض عنه، وقد حدث هذا، ولكن جورج لزم الهدوء. وأعيدت تسمية مسرح هايماركت الآن فسمى "مسرح جلالة الملك"، وأحس الملك أنه ملزم ببسط رعايته على هذا المسرح، ولكنه كان يعرض أوبرا "رينالدو" التي لحنها لذلك المتهرب، فذهب جورج متكرراً إلا في لهجته، واستمتع بالعرض. وكان هندل خلال ذلك قد كتب أوبرا أخرى "أماديجي الغالي"، وأخرجها هيديجر في 25 مايو 1715، وأحبها جورج. وبعد قليل طلب عازف الكمان والمؤلف الإيطالي فرننتسكو جيمينياني، الذي دعى للعزف في البلاط، أن يصاحبه هندل، لأنه عازف الهاربسيكود الوحيد في إنجلترا الذي يصلح لمصاحبته. وكان له ما أراد، وأبدع هندل في العزف فعفا عنه الملك، ورفع معاشه على أربعمائة جنيه في السنة.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

وكلت إليه الأميرة كارولين تدريس بناتها، وأضافت معاشاً قدره مائتا جنيه. وهكذا الآن صاحب أعلى أجر بين المؤلفين الموسيقيين في أوروبا. فلما غادر جورج الأول لندن (9 يوليو 1716) ليزور هانوفر اصطحب هندل معه. وزار الموسيقي أمه في هاله، وبدأ نفعته الدورية لأرملة معلمه القديم تساخاو التي أحنى عليها الدهر. وعاد الملك والمؤلف إلى لندن في مطلع 1717. ودعا جيمس بريدجس، إيرل كارنارفون-دوق تشندوس فيما بعد-هندل ليعيش في قصره الفاخر المسمى "كانونز" بمدلسكس، ويحل محل قائد الموسيقى فيه، الدكتور يوهان بيبوش، الذي انتقم لنفسه فيما بعد تأليفه موسيقى "أوبرا الشحاذ". هناك كتب هندل "متابعات موسيقية للهاربسيكورد" وهي "فتازيات" على الهاربسيكورد بأسلوب دومنيكو

سكارلاتي وكوبران، وبعض الكونشرتوات الكبيرة، وأثنى عشر "نشيداً تشاندوسياً" وموسيقى لتمثيلية تتكرية لجاي سمها "أسيس وغلطية"، وأوبرا "راداميستو".
ولكن من يخرج الأوبرا؟ لقد هبط عدد رواد مسرح صاحب الجلالة، وأشرف هيديجر على الإفلاس. ورغبة في إنقاذه وإنقاذ الأوبرا أسس نفر من النبلاء والأعيان (فبراير 1719) الأكاديمية الملكية للموسيقى، ومولوها بخمسين سهماً طرحت على الجمهور بسعر مائتي جنيه للسهم، واشترى جورج الأول خمسة أسهم. وفي 21 فبراير أعلنت صحيفة لندنية أسبوعية أن "المستر هندل، وهو أستاذ موسيقي شهير، أبحر إلى القارة بأمر جلالته الملك ليجمع فرقة من صفوة المغنين في أوبرا في مسرح هايماركت (47)" وأغار هندل على مختلف الفرق في ألمانيا، وزار أمه مرة أخرى. وبعد ساعات من مغادرته هالة إلى إنجلترا ظهر يوهان سبستيان باخ في المدينة بعد أم مشي عليها نحو خمسة وعشرين ميلاً من كوتن، وطلب أن يقابل الألماني العظيم الذي غزا إنجلترا؛ ولكنه وصل متأخراً، ولم يلتق الموسيقيان قط.
وفي 27 أبريل 1720 مثلت "راداميستو" أمام الملك، وخليلته، وجمهور تألق بالألقاب والجواهر، وناضل أشخاص من ذوي الألقاب

صفحة رقم : 11933

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

ليدخلوا. يقول مينوبرنج "لقد رد العديد من السادة الذي عرضوا دفع أربعين شلناً ثمناً لكرسي من المقاعد الرخيصة (48)". وناقس الجمهور الإنجليزي في تصفيقهم وهتافهم البنادقة الذين صفقوا وهتقوا لأوبرا "أجربينا" قبل ذلك بأحد عشر عاماً. وهكذا غدا هندل مرة أخرى بطل لندن.
ولكن البطولة شاب تماماً نقصان. ذلك أن جماعة منافسة من عشاق الموسيقى، يتزعمهم إيرل بيرلنتن الراعي الأسبق لهندل، فضلوا عليه جوفاني باتيستا بونونتشيني. فأقنعوا الأكاديمية الملكية للموسيقى بأن تفتتح موسمها الثاني بأوبرا بونونتشيني "أستارتو" (19 نوفمبر 1720)، وضمنوا الدور البطل فيها مغنياً سوبرانو كان الآن معبوداً للجماهير أكثر من نيكوليني. وكان لـ "سنسينو" هذا "فرانتيسكو برناردي"، الكريه الطباع، الساحر الصوت، الفضل في انتصار أوبرا أستارتو والوصول بعروضها إلى العشرة. أما المعجبون بونونتشيني فقد أشادوا به موسيقياً أعظم من هندل. ولم يكن أحد هذين المؤلفين مسئولاً عن الحرب التي قسمت الآن جمهوراً الأوبرا اللندني إلى فريقين متخصصين، ولكن لندن كانت في ذلك العام، عام انفجار فقاعة بحر الجنوب، عصبية كباريس. أما الملك والأحرار ففضلوا هندل، وأما ولي العهد والمحافظون فناصروا بونونتشيني، واحتشد الطرفاء وكتاب الكراريس لدخول المعركة.. وبدا أن بونونتشيني قد أثبت تفوقه بأوبرا جديدة سماها "كريسبو" (يناير 1722) وفقت توفيقاً حمل الأكاديمية على أن تتبعها بنصر آخر لبونونتشيني هي "جربزدا". فلما مات ملبره العظيم (في يونيو) اختير بونونتشيني، لا هندل، ليؤلف النشيد الجنائزي، ونفحت ابنة الدوق هذا الإيطالي معاشاً سنوياً قدره خمسمائة جنيه. لقد كان ذلك العام عام بونونتشيني.
ورد هندل بأوبرا "أوتوني" ومغنية سوبرانو جديدة أغراها من إيطاليا بضمن لم يسبق له نظير مقدارها ألفا جنيه. وكانت هذه المغنية، واسمها فرانتيسكا كوتزوني، كما رآها هوراس ولبول، "قصيرة سمينة، لها وجه عجيني القوام نزق، وبشرة ناعمة رقيقة،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

ممثلة غير قديرة، سيئة الهدام، غبية، شاطحة الأحلام(49)"، ولكنها كانت تصدح بصوت ساحر. وقد حفلت "بروفاتها" بصراع الإرادات والطباع الحادة. قال لها هندل "أعرف جيداً أنك شيطانة حقيقية، ولكنني أنا نفسك أريدك أن تعرفي أنني بعلزبول (رئيس الشياطين)". فلما أصرت على غناء لحن مخالفة لتعليماته، أمسك بها وهدد بأن يقذفها من النافذة(50). ولما كانت الألفان من الجنيهاً ستبعتها، فإنها أذعنت لأمره. وفي حفلة الافتتاح (12 يناير 1723) أبدعت الغناء حتى صاح أحد المتحمسين من المقاعد الرخيصة وسط غنائها "على اللعنة في أن بطنها عشاءاً من البلابل(51)". وقد نافسها سنسينو، وأعانها "باصو" بوسكي. وفي الليلة الثانية بيعت الكراسي بزيادة قدرها خمسة جنيهاً. وفي نحو هذه الفترة كتب جون جاي إلى جونان سويغت يقول:-

"أما التسلية المسيطرة على المدينة فهي الموسيقى دون سواها؛ هي الكمانات والفيولات الجهيرة والأبواب الواقعية، لا القيثارة والمزامير الشعرية. ولا يسمح لأحد بأن يقول "أنا أغني" إلا إذا كان خصياً أو امرأة إيطالية. وكل إنسان أصبح الآن حكماً عظيماً في الموسيقى كما كان الناس في أيامك حكماً من الشعر؛ والقوم الذين لم يكونوا يستطيعون التمييز بين نغمة وأخرى يتشاجرون الآن كل يوم على الأساليب المختلفة التي ينتهجها هندل، وبونونتشيني، وأتيليو "أريوستي)... وفي لندن وستمنستر، في كل حديث مهذب، يجمع الرأي على أن سنسينو هو أعظم رجل ظهر في الوجود(52)".

ثم اشترى هندل بعد أن سعد نجمة ثانية بيتاً في لندن (1723) وأصبح مواطناً بريطانياً (1727). وواصل حرب الأوبرا حتى 1728. ونش التاريخ بحثاً عن الموضوعات، فعرض على المسرح فلافيوس، وقيصر، وتيمورلنك، وسكيبو، والإسكندر، ورتشارد الأول. ورد بونونتشيني باستياناكس، ورامينيا، وفارناسس، وكليورنيا؛ ولحن وارتاجرسييس، ودارا؛ ولم يسبق في أي عهد أن لحن التاريخ على هذا النحو المتناغم. وفي 1726 ازداد وطيس الصراع الثلاثي بوصول

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

فاوستينا بوردوني، وهي مغنية نصف-سوبرانو، دانت لها قبل ذلك البندقية ونابلي وفيينا. صحيح أنها لم توهب نبرات كوتزوني الرقيقة العذبة، ولكنها وجدت لصوتها سندا من وجهها وقوامها ورشاقتها. وفي أوبرا "اليساندرو" (5 مايو 1726) جمع هندل بين المغنيتين، وأعطاهما عدداً متساوياً من الألحان المنفردة، ووازن بينهما بعناية في لحن ثنائي، وصدق لها السامعون معاً بضع أمسيات، ثم انقسموا فريقين، فكان فريق يصوت سخرية بينهما الآخر يصفق استحساناً، وهكذا أضيف بعد جديد لحرب الأنعام. وفي 6 يونيو 1727 حين غنت المغنية الأولى في أوبرا بونونتشيني "اتسايناتا" انفجر أنصار كوتزوني محدثين جلبه شائنة من صفير الاستهجان وصيحات الاستنكار حين حاولت بوردوني الغناء. واندلع القتال في قاعة الصالة وسرى إلى خشبة المسرح، وشاركت فيه مغنيتا الأوبرا وراحت

الوحدة منهما تشد شعر الأخرى، وحطم النظارة مناظر المسرح مبتهجين-وكل هذا في حضرة كارولين، أميرة ويلز، وهي شاعرة بالخزي والمهانة. ولعل "قياس الخلف" هذا كان وحده كافياً لقتل الأوبرا الإيطالية في إنجلترا. أما الضربة القاضية فقد كالمها لها واحد من أرق الناس في لندن. ففي 29 يناير 1728، قدم جون جاي "أوبرا الشحاذ" في مسرح لنكونلز أن فيلندر. وقد وصفت أغانيها المرحلة الذكية البديئة، ولكن الذين سمعوا تغني على أنغام الموسيقى التي وضعها أو اقتبسها يوهان بيبوش-هؤلاء فقط هم الذين في وسعهم أن يفهموا لم تحول جمهور المسارح بجملته تقريباً عن هندل وبونونتشيني وأريوستي، إلى بيبوش وبوللي وجاي، وظلت "أوبرا الشحاذ" تمثل الليلة تلو الليلة طوال تسعة أسابيع، بينما راحت "سيرانات" مسرح صاحب الجلالة وخصيانه يغنون لكراسي خاوية. ثم إن جاي كان قد هجا الأوبرا الإيطالية وسخر من حبيكتها البلهاء، وهزأ بالارتعاشات و "الشخلعات" في غناء المغنين والمغنيات السوبرانو، واتخذ اللصوص والشحاذين والمومسات شخوصاً للتمثيلية بدلاً من الملوك والنبلاء والعداري والملكات، وعرض القصائد الشعبية الإنجليزية أغاني أفضل من الألحان الإيطالية. وابتهج الجمهور بالألفاظ التي يستطيع فهمها، خصوصاً إذا كانت مكشوفة بعض الشيء. ورد هندل بمزيد من الأوبرات-سيروي، وطولوميو ملك مصر

صفحة رقم : 11936

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

(1728) وقد حظيت كلتاها بلحظات مجيدة ولكنهما لم تأتيا بريح. وفي 5 يونيو شهرت الأكاديمية الملكية للموسيقى أفلاسها ولفظت أنفاسها الأخيرة. على أن هندل لم يسلم بالهزيمة. فبعد أن هجره النبلاء الذين لاموه على خسائرهم، كون مع هيديجر (يونيو 1728) "الأكاديمية الجديدة للموسيقى"، وأنفق عليها عشرة آلاف جنيه-وهي كل مدخراته تقريباً-وتلقى مع الملك الجديد، جورج الثاني، وعدا بألف جنيه في العام معونة له. وفي فبراير انطلق إلى القارة في رحلة أخرى ليجند مواهب جديدة، لأن كوتروني وبوردوني وسنسينو ونيكوليني وبوسكي، هجروا سفينته المشرفة على الغرق وراحوا يغنون للبنديقية. واستخدم هندل بدلاً منهم ديوكا وبلابل جدداً. أنطونيو برناكي السوبرانو، وأنيبالي فابري التينور، وأنا ماريا سترادا ديل بو السوبرانو. وفي رحلة عودته توقف ليزور أمه آخر مرة. وكانت يومها في التاسعة والسبعين، عمياء مشلولة تقريباً. وبينما كان في هاله زاره فلهم فريدمان باخ، الذي أتاه بدعوة لزيارة ليزج، حيث عرضت قبيل ذلك أول مرة "الأم المسيح كما رواها متى البشير". واضطر هندل إلى رفض الدعوة. فهو لم يسمع بيوهان سباستيان باخ إلا لالمالماً، ولم يخطر بباله قط أن شهرة هذا الرجل ستحجب شهرته يوماً ما. وهرول قافلاً إلى لندن، والتقط في طريقه الباصو الهامبورجي يوهان ريمنشيندر. وظهرت الفرقة الجديدة في أوبرا "لوتاريو" في 2 ديسمبر 1729 دون أن تلقى نجاحاً. وجرب حظه ثانياً في 24 فبراير بأوبرا "بارتوبي"، فلم يوفق. وأعيد برناكي وريمنشيندر إلى القارة، واستدعى سنسينو ثانية من إيطاليا، وبفضله هو وسترادا ديل بو، ونص كتبه متاستاسيو، اجتذبت أوبرا هندل "بورو" أسماع لندن (2 فبراير 1731)، وكان قد خلع على هذه الأوبرا طائفة من أعظم ألحانه تأثيراً. وامتأ مسرح صاحب الجلالة براوده مرة أخرى. واستقبلت أوبرتان أخريان، هما "ايتسيو" و "سوزارمي" استقبالا طيباً. ولكن الكفاح للإبقاء على جمهور إنجليزي بأوبرا إيطالية أخذ

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

يصبح أشد عسراً. وقد بدأ الآن أنه طريق مسدود ينتهي دائماً بالإرهاك البدني والمالي. لقد قهر هندل إنجلترا، ولكن إنجلترا بدت قاهرته الآن، فلقد كانت أوبراته شديدة التشابه، مصيرها المحترم إلى الضعف والهزال. ولقد سمت بها الألحان الرائعة، ولكن هذه الألحان إنما كانت موصولة بالحبكة وصلأ هزياً، وكانت بلغة غير مفهومة مهما كان فيها من انسياب رقيق، وكثير منها لحن للسوبرانو من الرجال، وهؤلاء ازداد العثور عليهم صعوبة. وتحكمت القواعد الجامدة والغير بين الفنانين في توزيع الألحان، وزادت من افتعال القصة. ولو أن هندل واصل السير على الخط الإيطالي لكاد يصبح النوم نسياً منسياً. على أن سلسلة من المصادفات انتزعت انتزاعاً من دربه المطروق ووجهته إلى الميدان الذي سيظل فيه نسيج وحده حتى في أعين زماننا هذا.

ج - هزيمته

في 23 فبراير 1732، وفي حانة "التاج والمرساة" عرض برنارد جيتس، احتفالاً بعيد ميلاد هندل السابع والأربعين، أوراتوريو هندل "استير" عرضاً خاصاً. وقد اجتذبت جمهوراً مجزياً أغرى جيتس بتكرار عرضها مرتين مرة لجماعة خاصة، ومرة (في 20 أبريل) للجمهور. وكان هذا أول أداء علني في إنجلترا. واقترحت الأميرة أن عرض "استير" بمسرح جلالة الملك وتزويدها بالملايس والمناظر والحركة، ولكن أسقف لندن أحتج على تحويل الكتاب المقدس إلى أوبرا. فاتخذ هندل الآن قراراً من أهم القرارات في حياته، وأعلن أنه سيخرج "قصة استير المقدسة" "أوراتوريو بالإنجليزية" في مسرح هيماركت في 2 مايو، ولكنه أضاف أنه "الن يصاحب الأداء حركة على المسرح"، وأن الموسيقى "ستؤدي بطريقة حفلة التتويج الدنية"، وهكذا فرق بين الأوراتوريو والأوبرا. وجاء بكورسه وأوكستراه، وعلم لاسترادا والإيطاليين الآخرين أن يغنوا أغانيهم المنفردة بالإنجليزية. وحضرت الأسرة المالكة، واحتملت "استير" عروضاً خمسة في أول شهر لها. وأخفت أوراتوريو أخرى سماها "أسيس وغلطية" (10 يونيو) في إرضاء مشاهديها، وارتد هندل إلى الأوبرا. فعرضت أوبرا

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

"أورلاندو" (27 يناير 1733) فترة طيبة، ولكن حتى مع هذا التحسن، واجهت شركته مع هيديجر الإفلاس. فلما أخرج هندل الأوراتوريو الثالثة "دوره" (17 مارس) حاول أن يستعيد كفايته المالية بمضاعفة أجر الدخول. ونددت رسالة غفل من التوقيع موجهة إلى صحيفة "كرافتسمان" بهذا الإجراء، ودعت للثورة على سيطرة "المستر هندل الوقح... المستبد، المسرف(53)" على موسيقى لندن. ولما كان هندل قد ظفر برعاية الملك، فقد فقد أنوماتيكياً مودة

فردريك، أمير ويلز، وابن جورج الثاني وعدوه. وأخطأ هندل-الذي كثيراً ما خضع سلوكه لحدة طبعه بالإساءة إلى جوزف جوبي، الذي كان يعلم الرسم لفردريك؛ وثأر جوبي لنفسه برسمه كاريكاتوراً للموسيقى ظهر فيه مخلوقان هما متوحشاً له خطم خنزير بري؛ ووزعت نسخ من الرسم في أرجاء لندن فأضافت إلى تعاسة هندل. وفي ربيع 1733 شجع أمير ويلز حاشيته على تأليف فرقة منافسة سميت "أوبرا الأشراف". واستقدمت الفرقة من نابلي أشهر معلمي الغناء في ذلك العهد، وهو نيكولو بوربورا، وأغرت سنسينو بترك هندل، وكوتزوني بالمجيء من إيطاليا؛ وفي 29 ديسمبر، وفي مسرح لنكولنز أن فيلدز، أخرجت أوبرا بوربورا "أريانا" التي لقيت استحساناً عظيماً. أما هندل فقد قابل هذا التحدي الجديد بأوبرا تناولت موضوعاً مشابهاً تتطوي على التحدي، "أريانا في كريت" (26 يناير 1734)، فلقبت هي أيضاً استقبالاً حسناً. ولكن في نهاية الموسم انتهى عقده مع هيديجر، وأجر هيديجر مرح جلالة الملك لأوبرا الأشراف، ونقل هندل فرقته إلى مسرح كوفنت جاردن الذي يملكه جون رتش. وانتقم بوربورا بدعوة كارلو بروسكي، أشهر المغنين الخصيان، المعروف لأوربا كلها باسم "فارينلي". وقد فصل الحديث عن غناء هذا الرجل حين نلتقي به في وطنه بولونيا، وحسبنا هنا أن نقول أنه حين انضم إلى سنسينو وكوتزوني في أوبرا بوربورا "أرتازرسي" كان ذلك حدثاً في تاريخ إنجلترا الموسيقي، وأعيد عرض الأوبرا أربعين مرة في السنوات الثلاث التي مكثها فارينلي-وقابل هندل بأوبرا "أريودانتي" (8 يناير 1735)، وهي من أروع أوبراته، غنية غنى فريداً في موسيقاها الآلية، وقد ظفرت بعشرة عروض في شهرين،

صفحة رقم : 11939

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

ووعدت بأن تغطي نفقات هندل. ولكن حين أخرج بوربورا أوبرا "بوليفيمو" (أول فبراير) التي لعب فيها فارينلي دور البطل، لم يستطع الملك ولا الملكة ولا الحاشية أن يمتنعوا عن مشاهدتها، وفاقت في مرات عرضها "أرتازرسي"، بينما لم تلبث أوبرا هندل "النشينا" (16 أبريل) أن أقفر مسرحها من رواده-ولو أن أحياناً أوركسترا لية متتابعة (سويت) من موسيقاها لا تزال تظهر على البرامج اليوم. واعتزل هندل ساحة القتال نصف سنة ليطلب آلامه الرومانسية بمياه ينابيع تنبردج.

وفي 19 فبراير عاد إلى كوفنت جاردن بأوراتوريو لحنها القصيدة درايدن "وليمة الاسكندر". كتب معاصر أن جمهور الألف والثلاثمائة مشاهد الذين ملأوا المسرح استقبلوا الأوراتوريو بصفيق "ندر أن سمع في لندن(54)". وتعزى هندل بربح منها بلغ 450 جنيهها، ولكن القصيدة كانت أهزل من أن تحتل إعادة عرضها أكثر من أربع مرات، رغم أن هندل قام بعزف مثير على الأرغن في فترة الاستراحة، وانقلب المؤلف-المخرج-القائد-العازف اليانس من الأوبرا من جديد. وفي 12 مايو قدم "أطلانطا" مسرحية رعوية تحتفل بزواج أمير ويلز. وكان قد دعا من إيطاليا مغنياً خصياً جديداً يدعى جيتسيللو (جواكينو كونتي) لغناء السوبرانو، وخص دوره بلحن (كاري سلفي) وهو من أجمل وأخلد أغانيه. وبلغ من سرور فردريك أنه نقل رعايته من فرقة بوربورا إلى فرقة هندل، ولكن هذا النصر كدر إلغاء الملك لتبرعه السنوي بألف جنيه لمشروع هندل حين سمع بالخطوة التي اتخذها ابنه.

وكف بوربورا عن المعركة في ربيع 1736. وملاً هندل مسرحه بمناوبة الأوبرا مع الأوراتوريو، وأضاف إلى فرقة "جوستينو" (16 فبراير 1737) "الدبية، والحيوانات الغريبة، والتنانين التي تقذف النار(55)". ولكن الجهد الذي اقتضته مسؤولياته المنوعة حطمه. وفي أبريل أصابه انهيار عصبي، ونقطة شلت ذراعه اليمنى فترة. وفي 18 مايو عرض "برينيتشي"، آخر أوبرا كتبها لفرقته. ثم أغلق مسرحه في أول يونيو مثقلاً بديون كثيرة، متعهداً بالوفاء بها جميعاً كاملة، وقد فعل. وبعد عشرة أيام حلت "أوبرا الأشراف"

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

المنافسة له، مثقلة بدين قدره اثنا عشر ألف جنيه. وهكذا انتهى عصر الأوبرا العظيم في إنجلترا. وكانت صحة هندل من بين ما تخلف من حطام فالروماتزم في عضلاته، والتهاب المفاصل في عظامه، والنقرس في أطرافه. هذه كلها تفاقمت في صيف 1737 بنوبة جنون عارضة (56). فغادر إنجلترا ليستشفى بمياه آخن. وكتب السرجون هوكنز يقول إنه هناك:

"أحتمل من إفرازات العرق التي بعنتها حمامات البخار ما أدهش كل إنسان. وبعد بضع محاولات من هذا النوع، بدأت معنويته خلالها ترتفع ولا تهبط من أثر العرق الغزير، فارقه اضطراب عقله، وبعد بضع ساعات.. ذهب إلى كنيسة المدينة الكبرى، ووصل إلى الأرغن، ثم عزف عليه عزفاً جعل الناس يعززون شفاءه إلى المعجزة (57)".

وفي نوفمبر عاد إلى لندن، وإلى الكفاية المالية وأسباب التشريف. وكان هيديجر قد عاد ثانية إلى مسرح صاحب الجلالة. ونقد هندل ألف جنيه لقاء أوبراتين، واحتوت إحداها وهي "سرسي" (15 أبريل 1738) على اللحنين المشهورين "لارجو" و "أوميرا مايفو". ودفع مستأجر حدائق فوكسهول إلى روبيك ثلاثمائة جنيه لينحت تمثالاً يظهر فيه الموسيقى وهو يداعب أوتار قيثارة؛ وفي 2 مايو أزيح الستار عن هذا التمثال الثقيل الوقفة، الغبي التعبير، في الحدائق في حفلة موسيقية. ولا بد أن هندل قد سره أكثر من هذا تلك الحفلة التي أعيين بها في 28 مارس، والتي أنتت بكثير من ألف جنيه. فدفع الآن ديون أعجل دائنيه، وكان أحدهم يهدد بإيداعه سجن المدينين. ولكنه كان مشرفاً على الإفلاس برغم كل تشريف. ولم يستطع أن يتطلع بعد ذلك إلى هيديجر، الذي أعلن (24 مايو) أنه لم يتلق من الإكتتابات ما يتيح له إخراج أوبرات في 1738-39. هنا، ودون تكليف ولا فرقة، بدأ هندل أعظم أطواره، وهو في الثالثة والخمسين، والأوصاب والأوجاع تهز بدنه.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

د - الأوراتوريو

نشأ هذا الشكل الجديد نسبياً من كورالات العصور الوسطى التي تمثل أحداثاً في التاريخ المدون في الكتاب المقدس أو حياة القديسين. وكان القديس فليب نيري قد خلع على هذا الشكل اسمه بتفضيله إياه وسيلة للعبادة التعليم الديني في مصلى آباء الأوراتوريو في روما. وطور جاكومو كاريسمي وتلميذه اليساندرو سكارلاتي الأوراتوريو في إيطاليا،

ونقلها هنريش شوتس من إيطاليا إلى ألمانيا، وبلغ رينهارت كيزر بهذا اللون شأواً بعيداً قبل موته (1739). وهذا هو التراث الذي بلغ غايته في "مسيا" Messiah هندل عام 1741.

والفضل في نجاح هندل يرجع بعضه إلى توفيقه بين هذا الشكل وبين الذوق الإنجليزي. وقد واصل اختيار موضوعات الأوراتوريو من الكتاب المقدس، ولكنه أضفى عليها بين الحين والحين عنصر تشويق غير ديني، كما فعل في موضوع الحب في "يوسف واخوته". وفي "يفتاح"؛ وركز على الطابع الدرامي لا الديني، كما فعل في "شاؤل" و "إسرائيل في مصر"؛ واستعمل نصاً إنجليزياً خالصاً، أخذ جزءاً منه فقط من الكتاب المقدس. لقد كانت في جزء كبير منها موسيقى دينية، ولكنها مستقلة عن الكنائس والطقوس. وقد مثلت على مسرح تحت رعاية علمانية. يضاف إلى هذا أن هندل استخدم الموضوعات الكتابية ليرمز بها للتاريخ الإنجليزي، فإسرائيل ترمز إنجلترا، وتمرد 1642 الكبير وثورة 1688 المجيدة يمكن سماعها في كفاح اليهود للتحرر من ربة المصريين (أسرة ستيوارت) والسيطرة الهلنستية (الغالية)؛ ولم يكن الشعب المختار في حقيقته سوى الأمة الإنجليزية، وإله إسرائيل هو نفسه الإله الذي قاد الشعب الإنجليزي إلى النصر بعد المحن. وكانت فكرة هندل عن الله أشبه بفكرة البيورتان، فهو "يهوه" إله العهد القديم الجبار، لا إله الأب كما يصور العهد الجديد (58). وكان هذا إحساس إنجلترا، فاستجابت في فخر لأوراتوريوات هندل.

بدأ الطريق الصاعد إلى "المسيا" بأوراتوريو "شاؤل" التي أخرجت على مسرح صاحب الجلالة في 16 يناير 1739. "إن مارش الموتى المهيب، الجليل، لكفيل وحده بأن يخلد هذا العمل (59)".

صفحة رقم : 11942

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

ولكن الجمهور لم يعتد شكل الأوراتوريو، لذلك لم تعمر "شاؤل" أكثر من عشرة عروض. وبهمة لا تصدق ألف هندل وقدم (4 أبريل) آية أخرى من آياته هي "إسرائيل في مصر". هنا جعل الكورس هو البطل، صوت أمة تولد، ووضع موسيقى يعدها الكثيرون أسمى ما كتب (60). ولكن اتضح أنها مترامية عسيرة فوق ما يحتمله الذوق السائد آنذ، وأنهى هندل موسمه التاريخي بديون جديدة.

وفي 23 أكتوبر اندفعت إنجلترا إلى الحرب مع أسبانيا بسبب أذن جنكيز. وفي وسط ضجيج الحرب وصخبها استأجر هندل مسرحاً صغيراً، وفي عيد القديسة راعية الموسيقيين قدم الإطار الموسيقي الذي ألفه لقصيدة درايدن الغنائية التي كتبها بمناسبة "عيد القديسة سيسيليا" (22 نوفمبر 1739) ولم تستطع لندن، حتى في برد تلك الليلة من ليالي الشتاء وفوضاها، أن تقاوم ذلك الاستهلال الرخيم المشرق، أو لحن السوبرانو الأثيري في القسم الثالث، أو "الناي الشاكي الخافت" و "العود الصادح" في الخامس، في حين اتفق "دق الطبل الراعد، ذلك الدق المضاعف المضاعف المضاعف" مع روح الحرب المدممة في الشوارع. وعاود الأمل هندل، وجرب أوبرا سماها "أمينيو" (1740)، ولكنها فشلت، وجرب أخرى اسمها "ديداميا" (1741)، ففشلت هي أيضاً، واعتزل العملاق المرهق المسرح الموسيقي اللندني قرابة عامين.

وكان هذان العامان أروع ما ف حياته. ففي 22 أغسطس 1741 بدأ يؤلف أوراتوريو "المسيا". وقد اقتبس النص تشارلز جيننز من أسفار أيوب والمزامير وأشعيا ومراثي أرميا وحجي وزكريا وملاخي وكلها من أسفار العهد القديم، ومن أناجيل متى ولوقا ويوحنا، ورسائل بولس، وسفر الرؤيا وهي من أسفار العهد الجديد. وأتم كتابة الموسيقى في ثلاثة وعشرين يوماً، وقال لصديق إنه في بعض هذه الأيام "حسبنتي حقاً أبصر السماء كلها أمامي فعلاً، والله العلي ذاته (61)". وإذ لم يتح له أمل مبكر في العثور على جمهور لها، فقد انتقل إلى كتابة أوراتوريو كبيرة أخرى هي "شمشون"، بناها على قصيدة ملتن عن معاناة شمشون Samson Agonistes وفي تاريخ غير معرف خلال

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

هذه النشوات تلقى دعوة لعرض بعض أعماله في دبلن. وبدا له أن الاقتراح أت من العناية الإلهية التي تقدره حق قدره، ولكن الحقيقة أنه أتى من وليم كافندش، دوق ديفونشير، ونائب الملك في إيرلندا. ووصل إلى دبلن في 17 نوفمبر 1741. واستخدم أفضل من وجد من المغنين، ومنهم سوزانا ماريا كير، الابنة المثقفة لتوماس آرن، ونظمت عدة هيئات خيرية ست حفلات موسيقية له، نجحت نجاحاً حمله على تقديم لسلة ثانية. وفي 27 مارس 1742 نشرت مجلتان في دبلن إعلاناً جاء فيه:

"رغبة في إغاثة المسجونين في عدة سجون، وإعانة مستشفى ميرسر... سيقيم يوم الاثنين 12 أبريل على قاعة الموسيقى في شارع فيشامبل، أوراتوريو المستر هندل الكبرى الجديدة، المسماه "المسيا". وسيشارك فيها أعضاء الكورس في كلتا الكتدراثيتين، ويعزف المستر هندل بعض الكونشتوات على الأرغن (62)".

وبيعت التذاكر كذلك للبروفات التي ستجري في 8 أبريل، والتي قالت مجلة فوكنر أنها "تؤدي أداءً رائعاً... اعترف منه أعظم الحكام بأنها أبدع لحن موسيقي سمعه الناس إطلاقاً". وأضيف إلى هذا إعلان يؤجل حفلة الاثنين إلى الثلاثاء، ويرجو السيدات "أن يحضرن بغير أطواق لأثوابهن، لأن هذا من شأنه أن يدعم عمل البر، إذ سيفسح المكان لعد أكبر من المحاضرين". وطلبت فقرة أخرى إلى الرجال أن يحضروا بغير سيوفهم. وبهذه الطرق اتسعت قاعة الموسيقى لسبعمئة شخص بدلاً من ستمائة.

وأخيراً، وفي 13 أبريل 1742، قدم أشهر الألحان الموسيقية الكبرى قاطبة. وفي 17 أبريل احتوت ثلاثة صحف دبلندية نقداً واحداً:

"في يوم الثلاثاء الماضي قدمت أوراتوريو المستر هندل الكبرى المقدسة، "المسيا"... وقد اعترف أفضل الحكام بأنها أفضل القطع الموسيقية صقلاً. وتعوزنا الألفاظ للأعراب عن المتعة الفائقة التي أتاحتها للجمهور المزدحم المعجب. وقد تضافرت عناصر السمو والفخامة

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

والرقة، التي واعم بينها وبين أنبل الألفاظ وأجلها وأشدّها تأثيراً، لتطرب وتسحر القلب والأذن المسلوبين. ومن الإنصاف لمستر هندل أن يعرف العالم أنه تبرع في سخاء بحصيلة هذه الحفلة الكبرى لتوزع بالتساوي بين جمعية إغاثة المسجونين، ومبرة العجزة، ومستشفى ميرسر، وهو عمل ستذكره له هذه الهيئات بالشكر على الدوام (63)".

وأعيد عرض "المسيا" في دبلن في 3 يونيو. وقد أعيدت ألف مرة منذ ذاك التاريخ، ومع هذا فمنذا الذي مل تلك الألحان-سواء الهادئة منها أو الفخمة-، تصاحبها الترانيم الخافتة الرقيقة اللطيفة مثل "سوف يطعم قطيعة" و "أعلم أن فادي حي"، و "البيتمجد اسمه" و "كان مزدري مرفوضاً"؟ لقد حدثت والمسز كبر تترنم بهذا اللحن الأخير في أول عرض بدبلن أن صاح قسيساً أنجليكاني من بين الحاضرين قائلاً "لتغفر لك خطاياك من أجل هذا أيتها المرأة!" فكل ما في الرجاء الديني من عمق وحرارة، وكل ما في الترتيل الورع من رقة وحنان، وكل ما وهب الموسيقى من فن وعاطفة-كل هذا اجتمع ليجمع من هذه الألحان أرفع اللحظات في الموسيقى الحديثة.

وفي 13 أغسطس غادر هندل دبلن منتعش الروح ممتلئ الجيب ولقد عقد النية على أن يغزو إنجلترا من جديد. ولا بد أنه قد سرى عنه غلو بوب في الثناء عليه في الجزء الرابع من "ملحمة الأغبيا" (1742):

هاهو هندل العملاق يقف قوياً وهو مدجج بسلاح جديد!

مثل برياريوس الشجاع، وله مائة يد (أي الأوركسترا)

يأتي ليحرك ويوقظ ويهز النفوس

ورعود جوبيتر تتبع طبوا مارس

وعليه ففي 18 فبراير 1743، في المسرح الملكي بكوفنت جاردن، قد الموسيقي الذي استعاد شبابه أوراتوريو "شمشون". وكان جورج الثاني على رأس الصفوة اللندنية التي حضرت حفلة الافتتاح. وأبهج الاستهلال الجميل كل إنسان سمعه إلا هوراس ولبول، الذي صمم على ألا يعجب بشيء قط؛ وكان اللحن الرفيع الذي مطلعته "يا رب الجنود"

صفحة رقم : 11945

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

رائعاً روعة تقرب من روعة ألحان المسيا، وكما فعل شمشون الجبار الذي سحق بقوته المحتفلين إذ أسقط عليهم المعبد، فكذا كان تأثير أوراتوريو "شمشون" ساحقاً على الحاضرين. ولكن حين عرضت المسيا نفسها بعد شهر

(23 مارس) على لندن، لم يستطع حتى الملك-الذي أرسى يومئذ تقليداً دائماً بوقوفه عند ترنم الفرقة بلحن "هللوايا"- أن ينهض بالأوراتوريو إلى مقام التقبل. فرجال الدين نددوا باستعمال المسرح للموسيقى الدينية، أما النبلاء فما زالوا على صدهم وجراح إخفاق فرقتهم الأوبرالية توجعهم. ولم تعرض المسيا في العامين التاليين إلا ثلاث مرات، ثم توقف عرضها حتى عام 1749. ففي ذلك العام أهدى هندل، الذي كان رجلاً باراً بالإنسانية فيما بين إفلاساته، أرغناً جميلاً لمستشفى اللقطاء الذي كان صديقه هوجارث يحبه حباً جماً، وفي أول مايو 1750 أول عرض من عروض المسيا السنوية لإعانة أولئك البؤساء المحظوظين.

وفي 27 يونيو 1743 قاد جورج الثاني جيشه للنصر في معركة ديبنتجن. فلما عاد إلى لندن حيثه المدينة بالعروض والأضواء والموسيقى، وصدحت الكنيسة الملكية في قصر سانت جيمس بـ "تسبيحة ديبنتجن" التي لحنها هندل لهذه المناسبة (27 نوفمبر). وكانت نتاج العبقرية والمقص، لأنها احتوت فقرات مسروقة من مؤلفين أسبق وأقل شأناً من هندل، ولكنها كانت معجزة من معجزات اللصق. وابتهج الملك.

فلما أن تشجع هندل بالابتسامات الملكية، جدد جهوده ليقتنص أذان لندن من جديد. وفي 10 فبراير 1744 قدم أوراتوريو أخرى سماها "سمللي" احتوت ترنيمة بديعة اسمها "حيثما سرت" ما زالت تترنم بها إنجلترا وأمريكا، ولكن الأوراتوريو لم تستطع تجاوز عروض أربعة. وظل النبلاء على عدائهم لهندل، وحرصت نبيلات كثيرات على إقامة الولائم المنزفة في الأمسيات المقررة للحفلات الموسيقية التي يحييها هندل، واستؤجر الأوباش ليمزقوا إعلاناته. وفي 23 أبريل 1745 ألغى الحفلات الموسيقية الثمان التي أعلن عنها من قبل، وأغلق مسرحه، واعتزل في تنبرج ولز. وأرجفت الشائعات أنه مجنون. كتب حامل لقب إيرل شافنبري في تلك الفترة يقول (24 أكتوبر) "إن هندل المسكين يبدو

صفحة رقم : 11946

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

أحسن قليلاً، وأرجو أن يتماثل للشفاء تماماً، ولو أن عقله قد اختلط اختلاطاً تاماً(64)". وربما أخطأت الشائعات، لأن هندل الذي بلغ الستين استجاب بكل قواه لدعوة من ولي العهد ليحيي ذكرى انتصار أخي الأمير الأصغر، دوق كمبرلاند، على القوات الإستوارتية في كالودين. واتخذ هندل انتصار يهوذا المكابي (166-161 ق.م) على خطط أنطيوخس الرابع لقرض الهلنستية على وطنه موضوعاً رمزياً للأوراتوريو الجديدة. وقد أحسن الجمهور استقبالها (أول أبريل 1747) حتى احتملت إعادة عرضها خمس مرات في أول موسم لها. أما يهود لندن الشاكرون هذا الاحتفال النبيل بأحد أبطالهم القوميين، فقد أعانوا على تكثير جمهور النظارة، فمكثوا هندل من تقديم الأوراتوريو أربعين مرة قبل موته. واعتزافاً بفضل هذا الدعم الجديد اتخذ أكثر موضوعات ألحانه الدينية بعد ذلك من تاريخ اليهود أو أساطيرهم، اسكندر بالوس، ويشوع، وسوسنة، وسليمان، ويفتاح. وعلى عكس ذلك لم تجتذب أوراتوريو "تيدورا" وهو اسم مسيحي من الجمهور إلا أقل القليل، حتى لاحظ هندل في مرارة أنه "كان هناك مكان يتسع للرقص" وغادر تشستر فيلد المسرح قبل نهاية العرض معتزراً بأنه "لا يريد إزعاج الملك في خلوته(65)".

هـ - بروميثيوس

ليست الأوراتوريو إلا "نوعاً" واحداً من ذلك "الجنس" المسمى هندل. ذلك أن روحه المتعددة الأشكال اتجهت بتوافق تلقائي تقريباً لأي شكل من الأشكال الموسيقية الكثيرة. فالأغاني التي ما زالت تمس أوتار العاطفة، وقطع الأرغن أو

البيان المتناهية الرقة، والسوناتات، والمنتابعات، والرباعيات، والكنشرتو، والأوبرا، والأوراتوريو، وموسيقى الباليه، والقائد الغنائية، والرعويات والكنتاتات، والتراتيل، والأنشيد الوطنية، وتسيحات الشكر، وترانيم أسبوع الألام-كل شيء تقريباً إلا السمفونية الوليدة نجده في موسيقاه، منافساً بذلك فيض بيتهوفن أو باخ المتدفق، و"منتابعات الهاربسيكورد" تبدو اليوم على الهاربسيكورد وكأنها أصوات أطفال سعداء لم يعرفوا التاريخ بعد. وهناك مجموعة ثانية من المنتابعات

صفحة رقم : 11947

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

بدأ بذلك الاستهلال الذي لعب به الموسيقى برامز لعباً مرحاً في "تنويعات وفوجه على موضوع لهندل". وكما أخذ هندل الأوراتوريو عن كاريسيكي وكايزر وارتفع بها إلى أوجهاً، كذلك أخذ عن توريللي وكوريللي "الكونشرتو الكبير" -لأثنين أو أكثر لمغن واحد أو مغنيين مع أوركسترا صغير (أوركسترا الحجر). وفي مجموعته الموسيقية السادسة ترك اثني عشر من هذه الكونشرتوات الكبيرة، مقابلاً كمانين وفيولنتشيللو بمجموعة وترية، وبعضها يبدو لنا اليوم رتيباً، وبعضها يقرب من كونشرتو براندنبورج لباخ. كذلك نجد في هندل كونشرتوات ممتعة لآلة منفردة-الهاربسيكورد أو الكمان، أو الفيولا، أو الأوبرا، أو الهارب. أما تلك المخصصة للوحات المفاتيح فكان يؤديها هندل بنفسه في المقدمات أو الفواصل. وكان أحياناً يترك متسعاً في موسيقى الكونشرتو لما يجب أن نسميه اليوم "ارتجالاً" *cadenza*، حيث يستطيع العازف أن يطلق العنان لخياله ويظهر براعته. وكانت ارتجالات هندل في مثل هذه الافتتاحات أعاجيب تحدث الناس بها طويلاً.

وفي يوليو 1717 نظم جورج الأول "رحلة" ملكية في ذهبيات حفلت بالزينات على نهر التيمز. وتكشف صحيفة "الديلي كورنت" عدد 19 يوليو 1717 عن هذا المشهد فتقول:

"في مساء الأربعاء حوالي الثامنة نزل الملك إلى النهر عند هوايتهول في ذهبية مكشوفة، كان فيها أيضاً دوقة نيوكاسل، وكوننيسة جودولفن، ومدام كيلمانسيك، وايرل أوكني، وصعدوا في النهر جنوب تشلسي. ورافقتهم ذهبيات كثيرة أخرى يستقلها بعض عليية القوم، وزوارق كبيرة العدد بحيث غطت صفحة النهر تقريباً. وخصص زورق فرقة موسيقية من فرق المدينة لعزف الموسيقى، زود بخمسين آلة من جميع الأنواع، عزف عليها العازفون طوال الطريق من لاميث... .. أيدع السمفونيات، التي لحنها المستر هندل خصيصاً لهذه المناسبة وأعجبت جلالته جداً حتى طلب عزفها أكثر من ثلاث مرات في الذهاب والإياب(66)".

صفحة رقم : 11948

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

وهذه هي "موسيقى الحياة"، التي هي اليوم أبقي وألذ ما تخلف من مؤلفات هندل الآلية. ويبدو أنه كان هناك في الأصل إحدى وعشرون حركة-وهو عدد أكبر من أن يحتمله المستمعون العصريون الذين تعوزهم الذهبيات والوقت، ونحن لا نستمتع عادة لأكثر من ست. وبعضها متعبة بعض الشيء في تطوافها المشجي، ولكن أكثرها موسيقى صحية مرحة متألفة، كأنها متدفقة من ينبوع لتهديد خليلات الملك. و "موسيقى المياه" أقدم قطعة موسيقية في الذخيرة الأوركسترالية الحالية.

وبعد جيل كامل، ومن أجل جورج ثان، أضفى هندل الكرامة على مناسبة خلوية أخرى. ذلك أن الحكومة قررت إقامة عرض للألعاب النارية في جرين بارك احتفالا بصلح اكس-لاشابل، ووكلت هندل بتأليف "موسيقى الألعاب النارية الملكية". فلما عزفت بروفا هذه الموسيقى في حدائق فوكسهول (21 أبريل 1749)، دفع اثنا عشر ألف شخص مبلغ الشلنلين-الكبير في ذلك الوقت-للاستماع إليها؛ وبلغ التزاحم مبلغاً عطل المرور على الطريق الذي يعبر كوبري لندن ثلاث ساعات- "ولعل هذا كان أروع ثناء ظفر به أي موسيقى على الإطلاق(67)". وفي 27 أبريل شق نصف سكان لندن طريقهم إلى جرين بارك، واقتضى الأمر هدم ست عشرة ياردة من سوق الحديقة لتمكينهم من الدخول في الميعاد. وعزفت "فرقة" من مائة موسيقي لحن هندل، وتألفت الألعاب النارية في السماء، وشبت النار في مبنى أقيم لهذه المناسبة، فذعر الجمع المحتشد وأوذي كثيرون ومات شخصان. ولم يبق من المهرجان إلا موسيقى هندل. وإذ كان هدف هذه الموسيقى أن تخلد حرباً ظافرة وأن تسمع عن بعد فقد كانت عبارة عن دوي هتافات وطنين طبول أشد ضجيجاً مما تحتمله الأذن التي ألفت الحركة البطيئة. ولكن فيها حركة بطيئة جداً تقع وقعاً محموداً على الأعصاب المرهقة.

وانتهت إنجلترا آخر الأمر إلى محبة الألماني العجوز الذي ناضل جاهداً ليكون إنجليزياً. لقد فشل في نضاله، ولكنه حاول، حتى إلى حد السب والشتم بالإنجليزية. وتعلمت لندن أن تغتفر له بدانته الهائلة،

صفحة رقم : 11949

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

ووجهه العريض وخديه المنتفخين، وساقيه المقوستين ومشيته الثقيلة، ومعطفه القرمزي المخملي، وعصاه الذهبية المقبض، وعجبه وتعالیه؛ لقد كان لهذا الرجل بعد كل المعارك التي خاضها الحق في الظهور بمظهر الفاتح، أو على الأقل بمظهر اللورد، نعم كان في سلوكه جلافة، وكان يدرّب موسيقيه بالحب والغضب، ويوبخ جمهور المستمعين على كلامهم خلال البروفات، ويهدد مغنياته باستعمال العنف، ولكنه غلف عنفه بالفكاهة. فلما التحمت كوتروني وبوردوني بالأيدي على خشبة المسرح قال هدوء "اتركوهما لنتهيا المعركة"، وراح يدق لحناً مصاحباً مرحاً على النقيارات ليرافق سورة غضبهما(68). ولما هدده مغن بالوثب على الهاربسيكورد لأنه عزف هندل المصاحب اجتذّب السامعين أكثر من غناء المغني، طلب إليه هندل أن يحدد تاريخ هذه التمثيلية المقترحة للإعلان عنها قائلًا أن "الذين سيأتون ليروك تقفز أكثر من الذين سيأتون ليسمعوك تغني(69)". وكانت ملاحظاته الظريفة تعدل في براعتها تعليقات جوناتان سويفت، ولكن الاستمتاع بها كان يقتضي الإمام بأربع لغات.

وفي 1752 بدأ يفقد بصره. فبينما كان يكتب "يفتاح" اختلطت الرؤية أمام عينيه حتى اضطر إلى الكف عن الكتابة. وفي المخطوطة الأصلية المحفوظة بالمتحف البريطاني أخطاء عجيبة- "سيقان رسمها بعيدة بعض الشيء عن النوتات التي تنتمي إليها، ونوتات واضح أنها ضلت طريقها(70)". وفي أسفل الصفحة سطر كتبه المؤلف "إلى هنا وصلت، الأربعاء 13 فبراير. منعنتني عيني اليسرى من الاستمرار". وبعد عشرة أيام كتب على الهامش "23 فبراير، حالتني أحسن قليلاً. استأنفت العمل". ثم ألف موسيقى لهذه الكلمات "فرحنا يضيع في الحزن... كما يضيع النهار في الليل(71)". وفي 4 نوفمبر كتبت صحيفة "الجنرال أدفرتيز": "بالأمس أعد "عملية السد أو الكتركت) السيد جورج فريدريك هندل التي يجريها له الطبيب وليم برومفيلد جراح سمو أميرة ويلز". وبد أن الجراحة نجحت، ولكن في 27

يناير 1753 أعلنت جريدة لندنية أن "المستر هندل كيف بصره في النهاية تماماً لسوء الحظ". على أن التقارير اللاحقة تشير إلى أنه احتفظ ببصيص من النور حتى موته.

صفحة رقم : 11950

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

وواصل التأليف والقيادة سبع سنين آخر. فقدم في ستة أسابيع (23 فبراير إلى 6 أبريل 1759) حفلتين عرض فيهما "سليمان"، وحفلة عرض فيهما "شمشون" واثنتين "يهودا المكابي" وثلثاً "المسيح". ولكن بينما كان يغادر المسرح عقب حفلة عرض المسيا في 6 أبريل وقع مغشياً عليه، واقتضى الأمر حمله إلى بيته. فلما أفق كان دعاؤه أن يفسح له في الأجل أسبوعاً آخر. "أريد أن أموت في يوم الجمعة الكبيرة، رجاء أن ألحق بالآلة الصالح، ربي ومخلصي الحبيب، في يوم قيامته(72)". وأضاف إلى وصيته ملحقاً أوصي فيه بألف جنيه لجمعية إعانة الموسيقيين العجزة وعائلاتهم، وبمبالغ كبيرة لثلاثة عشر صديقاً، وإلى "خادمتي راتب سنة لكل واحدة". ومات في سبت النور (عشية القيامة)، 14 أبريل 1759، ودفن في دير وستمنستر في 20 أبريل، في مشهد من "أعظم حشد للبشر من جميع الرتب روى في مثل هذه المناسبة بل وفي أي مناسبة أخرى(73)".

ولقد ترك ثروة موسيقية لا تضارع، ستاً وأربعين أوبراً، واثنتين وثلثين أورتوريو، وسبعين مقدمة، وإحدى وسبعين كنتاجاً، وستة وعشرين كونشرتاً كبيراً، وثمانية عشر كونشرتاً للأرغن، وكثيراً وكثيراً غير هذا بحيث يملأ كل هذا مائة مجلد ضخمة، تكاد تعدل أعمال باخ وبيتهوفن مجتمعة. وكان بعض هذا التراث مكرراً، وبعضه مسروقاً، لأن هندل سطا على موسيقى تسعة وعشرين مؤلفاً على الأقل دون إقرار بفضلهم ليستعين بهم على الوفاء بمواعيده(74)، مثال ذلك أن المينيويوت في مقدمة "شمشون" أخذت أنغامها نصاً من أوبرا كلوديبوس لكايزر. ومن العسير تقدير هندل بقدره الصحيح، لأنه لا يعرض علينا اليوم إلا اليسير من أعماله. أما الأوبرات، فإنها باستثناء بعض الألحان الساحرة لا سبيل إلى بعثها، فقد وضعت ضمن نماذج إيطالية ذهبية ولا أُل في رجوعها فيما يبدو، ونصوص موسيقاها الموجودة الآن ناقصة، وهي تستعمل رموزاً واختصارات أكثرها غير مفهوم الآن، وقد كتبت لأوركسترات يختلف تكوينها عن تكوين أوركستراتنا اختلافاً تاماً، ولأصوات لجنس ثالث مختلف كل الاختلاف عن المتوسط من

صفحة رقم : 11951

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> هندل

أجناس عصرنا. وتبقى بعد ذلك موسيقى الكونشرتو الشبيهة بأرض صيد سعيدة تحوي كنوزاً منسية، و "موسيقى المياه"، والأوراتوريوات-ولكن حتى هذه الأوراتوريوات "عتيقة"، لأنها كتبت لإنجليز يعدون للمعركة ويهود شاكزين؛ وتحتاج تلك الكوراس الضخمة والحركات الصوتية المتكاثرة إلى معدة ضليعة في الموسيقى لتضمها وإن كان مما يبهجنا أن نسمع "يفتاح" و "إسرائيل في مصر" من جديد. ويخبرنا الموسيقيون أي في الأوراتوريوات المهملة فخامة ووقاراً، وسماوا في الوجدان، وقوة في التصوير والتعبير والدراما، وتنوعاً وبراعة في التقنية التركيبية، لم يدركها أحد بعده في ذلك اللون من التأليف الموسيقي. وقد عاشت "المسبا" إلى اليوم رغم ما شهبها من تكرار وتقطيع أوصل لأنها من جهة تصون وتدخر أهم العقائد المسيحية العزيزة حتى على من تتكروا لها، ولكن أهم من ذلك أن ألحانها العميقة و "قراراتها" المعبرة عن الانتصار تجعلها في جملتها أعظم تأليف مفرد في تاريخ الموسيقى. وقد أدركت إنجلترا عظمته بعد موته، فلما اقتربت ذكرى ميلاده انضم النبلاء الذين كانوا يخاصمونه من قبل إلى الملك والنواب في أحيائها بثلاثة أيام من موسيقاه. ولما كان مولده في 1684 طبقاً للتقويم الإنجليزي، فقد أقيمت أول حفلة في 26 مايو 1784 بدير وستمنستر، والثانية والثالثة في 27 و29 مايو. ولم تكف هذه لتلبية الطلب، فأقيمت حفلتان أخريان في الدير في 3 و5 يونيو. وبلغ عدد المرتلين 274، والعازفين في الأوركسترا 251، وبدأ الآن ذلك التقليد الذي يسبغ على عروض هندل الضخامة العارمة والجلال الطاعي. وأحييت عروض هائلة كهذه احتفالات لاحقة بذكرى مولد هندل، حتى إذا جاء عام 1874 ازداد عدد المشاركين في الأداء حتى بلغ 3.500. وقد ذهب بيرني الذي سمع أحد هذه العروض الكبرى إلى أن ضخامة الصوت لم تنتقص من حلاوة الموسيقى (78). على أي حال كانت هذه أضخم حفلات أقيمت لإحياء ذكرى أي موسيقي كائناً من كان. والآن وقد خفت فوريتها فقد يصبح في الإمكان الاستماع إلى موسيقى هندل من جديد.

صفحة رقم : 11952

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> فولتير في إنجلترا

5- فولتير في إنجلترا

1726-1728

كان يعيش في إنجلترا عام 1726 شاب فرنسي سينبأ في تاريخ القرن الثامن عشر مكاناً أهم كثيراً من مكان هندل. لقد بلغ فولتير السواحل الإنجليزية عند جرينتش قرب لندن في 10 أو 11 مايو. وكان أول انطباع له فياضاً بالحماسة. فقد كان أسبوع مهرجان جرينتش، وكادت صفحة التيمز تغطيها الزوارق والأشعة الضخمة، وكان الملك هابطاً النهر في ذهبية حافلة بالزينة، تسبقها فرقة موسيقية، وعلى الشاطئ رجال ونساء يختالون على جياد تخطر، ثم عشرات من الفتيات الحسان يمشين وقد تزين ليوم عطلة. وأثارت مشاعر فولتير البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة أجسادهن الرشيقية، واحتشامهن، ووجناتهن المتوردة. على أنه نسيهن حين وصل على لندن ووجد أن المصرفي الذي كان يحمل إليه خطاب تحويل على رصيده بعشرين ألف فرنك قد أشهر إفلاسه. وأنقذه أفراد فوكنر، وهو تاجر النقى

به في فرنسا، فأقام عدة شهور في ضيعة هذا البريطاني الكريم بواندزورث، وهي ضاحية من ضواحي لندن. وأرسل جورج الأول إلى فولتير مائة جنيه حين سمع بحادثه المؤسف. وكان يحمل رسائل تعريف من هوراشيو ولبول، السفير البريطاني لدى فرنسا، إلى كثير من مشاهير الإنجليز، وقد التقى عاجلاً أو آجلاً بكل إنسان تقريباً ممن يشار إليهم بالبنان في ميدان الأدب أو السياسة الإنجليزية. فاستقبله روبرت ولبول، رئيس الوزراء، ودوق نيوكاسل، وسارة دوقة ملبره، وجورج أوغسطس وكارولين أمير وأميرة ويلز، ثم آخر المطاف الملك الذي نفحه بساعة ثمينة أرسلها فولتير عربون صلح لأبيه. ثم زار "سيدي اللورد بولنبروك وسيدتي الليدي بولنبروك" و "وجد محبتهم لا تزال كما هي(77)". وفي أغسطس قام برحلة خاطفة إلى فرنسا، وهو لم يزل على تلغفه لقتال روان، ولكن سبب الرحلة كان في أغلب الظن تنظيم شئونه المالية. وعاش ثلاثة أشهر بعضها مع سويفت حديقاً على الايرل الثالث لبيتر بورو. واستمتع

صفحة رقم : 11953

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> فولتير في إنجلترا

ثلاثة أخرى في قصر إيستبري بضيافة بوب دونجنتن، ذلك السياسي الفاسد والراعي العطوف لفيلدنج، وطومسن، وبنج. والتقى فولتير بكلا الشعارين هناك، وقرأهما دون أن يخرج بفائدة من القراءة. ومن ثم عكف على تعلم اللغة بعزم صادق، فما وافت نهاية عام 1726 حتى كان يكتب الخطابات بالإنجليزية(78). واقتصر في الشهور الأولى على المجالس التي كانت تقام فيها الفرنسية، ولكن كل من كان ذا شأن من الرجال أو النساء في الأدب الإنجليزي أو السياسة الإنجليزية كان يعرف الفرنسية. وكتب المذكرات التي ملأها الآن باللغتين على السواء، وهي تدل على أنه تعلم الألفاظ النابية أول ما تعلم من الإنجليزية. وقد اكتسب من الإحاطة بالأدب الإنجليزي ما لم يكتسبه فرنسي مرموق بعده حتى ابيوليت تين. وقرأ بولنبروك، ولكنه وجد قلم الفيكونت أقل المعية من لسانه؛ على أنه ربما أخذ من كتاب بولنبروك المسمى "مفهوم الملك الوطني" الاعتقاد بأن خير الأمل في الإصلاح الاجتماعي يجيء على يد الملكة المستتيرة. وشق طريقه وسط أحقاد سويفت المقطرة، وربما تعلم منه بعض فنون الهجاء، وحكم بأنه "يفوق رابليه بما لا يقاس(79)". وقرأ ملتن، ووقع من فوره على هذه الحقيقة، وهي أن الشيطان هو الطل الحقيقي لمحنة الفردوس المفقود(80). وقد رأينا في مكان آخر انفعاله المختلط بشكسبير-الإعجاب ببلاغة "الهمجي المحبوب"، و "درر" السمو أو الرقة الدفينة وسط "كومة روث هائلة" من المهازل والمبازل(81). وقلد "يوليوس قيصر" في "موت قيصر"، و عطيلى في "زائير". كذلك ظهرت رحلات جلفر من جديد في "ميكروميجاس"، ومقال بوب عن الإنسان في "رسائل منظومة في الإنسان". وبادر بعد وصوله إلى إنجلترا بزيارة بوب. وصدمه منه تشووه وعذابات، وأذهلته حدة ذهن بوب وإرهاق عبارته، وفضل مقال بوب في النقد على مقال بوالو في "فن الشعر(82)". وزار كونجريف المسن وساءه أن يجد الرجل الذي كان يوماً ما مسرحياً عظيماً أراد أن يعتبر "جنتمناً لا مؤلفاً(83)". وعلم في حسد بأمر الوظائف الشرفية والمعاشات التي منحتها الوزارات الإنجليزية قبل ولبول

صفحة رقم : 11954

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> فولتير في إنجلترا

للمؤلفين، وقارن بين هذا الوضع وما صار إليه أمر أكبر شعراء فرنسا، الذي زج به في السجن لأنه استاء من إهانة نبيل له.

ومن الأدب انتقل إلى العلم، فالتقى بأعضاء الجمعية الملكية، وبدأ يدرس نيوتن تلك الدراسة التي أتاحت له بعد ذلك أن يحل نيوتن محل ديكارت في فرنسا. وتأثر تأثراً عميقاً بالجزالة الرسمية التي شيعت بها صفوة الإنجليز نيوتن، ولاحظ كيف رحبت الكنيسة الأنجليكانية بعلام يدفن في دير وستمنستر. ومع أنه كان قد أصبح ربوبياً قبل زيارته لإنجلترا- إذ تعلم فن الشك من رابليه ومونتيني وجاسندي وفونتيل وبيل- فإنه الآن اتخذ دعماً له من ربوبيي إنجلترا- من تولاند وولستن وتندال ونشب وكولنز ومدلتن وبولنبروك؛ وسيسلح مكتبته بكتبهم في فترة لاحقة، وكان أقوى حتى من هؤلاء تأثير لوك الذي امتدحته فولتير لأنه أول من درس العقل دراسة واقعية. ولاحظ أن القليل جداً من هؤلاء المهرطقين المصريين على هرطقتهم سجنوا بسبب آرائهم. ثم لاحظ نمو التسامح الديني منذ 1689، وذهب إلى أنه لا يوجد في إنجلترا تعصب دين أعمى، وحتى الكويكرز خفت فورتهم فغدوا رجال أعمال هادئين. وزار أحدهم، وسره بأن ينبأ بأن بنسلفانيا بلد مثالي يخلو من الطبقات والحروب والأعداء(84).

كتب بعد ذلك على مدام دو دفان يقول "ما أشد حبي للإنجليز، ما أشد حبي لهؤلاء القوم الذين يقولون ما يعتقدون(85)!" وعاد يقول:

"انظري ما حققته قوانين الإنجليز، لقد ردت لكل إنسان حقوقه الطبيعية التي سلبتة إياها كل النظم الملكية تقريباً. وهذه الحقوق هي: الحرية الكاملة للفرد وما يملك؛ وحقه في أن يكلم الناس بقلمه؛ وأن يحاكمه محلفون من الرجال الأحرار إذا اتهم بجريمة؛ وألا يحاكم في أي أمر إلا طبقاً لقوانين محددة؛ وأن يجهر وقت السلم بالدين الذي يفضله أياً كان، مع البعد عن تلك المناصب التي لا يختار لها إلا أعضاء الكنيسة الأنجليكانية(86)".

والسطر الأخير يدل على أن فولتير أدرك حدود الحرية الإنجليزية. فقد عرف أن الحرية الدينية لم تكن قط كاملة، وقد سجل

صفحة رقم : 11955

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> فولتير في إنجلترا

في مذكراته القبيض على "مستر شبنج" لما أبدى من ملاحظات مهينة على خطاب العرش(87). وكان في استطاعة أي من مجلسي البرلمان أن يستدعي المؤلفين لمحاكمتهم على تصريحاتهم المؤذية عن أعضاء البرلمان؛ وكان في استطاعة كبير الأمناء أن يرفض التصريح بالتمثيلات؛ وقد وضع ديفو في المشهورة عقاباً على نشره حشاها تهكماً. ولكن فولتير أحس بأن حكومة إنجلترا رغم فسادها أعطت الشعب قسطاً من الحرية يحفزه حفزاً خلاقاً في كل مجالات الحياة.

فهنا على سبيل المثال كانت التجارة حرة نسبياً، لا يغل يدها ما يعرقلها في فرنسا من مكوس داخلية. وخلعت على رجال الأعمال المناصب الإدارية الرفيعة، وسيعين صديقه فوكنر بعد قليل سفيراً لإنجلترا في تركيا. وأحب فولتير، رجال الأعمال، روح الإنجليز العملية، واحترامهم للحقائق والواقع والمنفعة، وبساطة سلوكهم وعاداتهم وملبسهم حتى الأثرياء منهم. وأحب أكثر من هذا كله الطبقة الوسطى الإنجليزية. وقارن بين الإنجليز وجعتهم: رغبة على السطح، وحثالة في القاع، ولكن الوسط رائع(88). كتب في 12 أغسطس 1726 يقول: "لو خيرت لأثرت المكث هنا لغرض

واحد هو أن أتعلم أن أفكر"، وفي دفقة من حماسته دعا تييريو غلى زيارة "أمه مغرمة بالحرية، منقفة، ذكية، تحنقر الحياة والموت، أمة من الفلاسفة(89)".

وقد كدر صفاء غرامه هذا بإنجلترا ما حام حوله حيناً من اشتباه بوب وغيره في أنه يعمل جاسوساً على أصدقائه المحافظين لوزارة وليول(90). فلما اتضح أن الشبهة ظالمة نبذت للتو، وظفر فولتير بشعبية كبيرة بين النبلاء وصفوة المثقفين اللندنيين. وحين قرر أن ينشر ملحمة الهنريادة في إنجلترا، أرسلت له كل الدوائر المثقفة تقريباً اكتتاباتها، بما فيه جورج الأول، والأميرة كارولين، والبلاطان المتنافسان؛ وطلب سويقت غلى بعض هؤلاء، أو قل أمرهم، بالاكتتاب. فلما ظهرت القصة (1728) أهديت إلى كارولين، التي كانت الملكة الآن، مشفوعة بباقة من الأزهار إلى جورج الثاني، الذي رد على التحية بنفحة قدرها أربعمائة جنيه، ودعوة إلى حفلات العشاء الملكية. ونفدت ثلاث طبعات في ثلاثة أسابيع، رغم أن النسخة بيعت بثمن باهظ قدره ثلاث جنيهات. وقد قدر فولتير دخله من هذه الطبعة

صفحة رقم : 11956

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> إنجلترا -> التصوير والموسيقى -> فولتير في إنجلترا

الإنجليزية بمبلغ 150.000 فرنك. واستخدم بعض هذا المال ليعين عدة فرنسيين في إنجلترا(91)، أما الباقي فقد استثمره بغاية الحكمة، حتى لقد حكم بعد ذلك على هذا الربح الذي لم يتوقعه بأنه الأصل في ثرائه. ولم يكف قط عن عرفانه بصنيع إنجلترا.

لقد دان لها قبل كل شيء بحفز هائل لذهنه وإنصاح لفكره. فلما عاد من منفاه جلب معه كتب نيوتن ولوك في حقائبه. وأنفق جزءاً من سنيه العشرين التالية في تعريف فرنسا بهما. كذلك جلب معه كتب الرابوبيين الإنجليز، الذين زودوه ببعض الذخيرة التي سيستعملها في الحرب على "العار". وكما أن إنجلترا على عهد تشارلز الثاني تعلمت الخير والشر من فرنسا لويس الرابع عشر، فكذلك ستتعلم فرنسا لويس الخامس عشر من إنجلترا الأعوام 1680-1761. ولم يكن فولتير وسيط التبادل الأوحده في هذا الجيل؛ فإن مونتسكيو، وموبورتوي، وبريفوست، وبوفون، ورينال، وموريلليه، وويلاند، وهلفتيوس، وروسو-هؤلاء أيضاً أتوا إلى إنجلترا، والذين لم يأتوا تعلموا من الإنجليزية ما يكفي لجعلهم حملة للأفكار الإنجليزية. وقد أجمل فولتير في تاريخ لاحق هذا الدين في رسالة بعث بها إلى هلفتيوس. قال: "لقد استعرتنا من الإنجليز المرتبات السنوية، وأموال استهلاك الديون، وبناء السفن وتسييرها، وقوانين الجاذبية،... والألوان الأساسية السبعة، والتطعيم، وسنكتب منهم، دون إدراك منا، حرية تفكيرهم الرفيعة، واحتقارهم العميق لتقاهة المعلومات التي تعطى المدارس(92)".

ومع ذلك شعر بالحنين إلى فرنسا. لقد أشبهت إنجلترا الجعة، أما فرنسا فلها مذاق النبيذ في فمه. والتمس المرة بعد المرة أن يؤذن له في العودة. ويبدو أنه منح الأذن بشرط معتدل هو أن يجتنب باريس أربعين يوماً. ولا علم لنا متى غادر إنجلترا، وأغلب الظن أن هذا كان في خريف 1728، وفي مارس 1729 كان في سان-جرمان-أن-ليه؛ وفي 9 أبريل كان في باريس، رجلاً هذبه المحن ومحصته دون أن تقضي عليه، جياشاً بالأفكار، مثلها على تغيير هذه الدنيا وتبديلها.

صفحة رقم : 11957

منتدى حديث المطابع
موقع الساخر

www.alsakher.com